A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

UNIVERSITY
LIBRARY

هدية من عائلة المؤلف
الى
مكتبة الجامعة الاميركية في
بيروت
١٩٧٨/١/١٦

محمد علي الطاهر
323.4
T128zA

ظلام السجن

مذكرات ومفكرات

سجين هارب

مصر ١٣٧٠ — ١٩٥١

طبع بدار احياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

هذا الكتاب

بعد مرور سنة على إعلان الحرب العظمى الثانية ، أوعزت السلطات البريطانية فى مصر بالقبض علىّ وحبسى ، فسجنت من ٢٠ سبتمبر ١٩٤٠ حتى ٤ إبريل ١٩٤١ ، ثم غافلت الحرس وهربت من مستشفى السجن بعد مرض ، فتنكرت واختفيت أحد عشر شهرا .

فلما انتهت الحرب أخرجت من قمطرى جزازات وقصاصات من الورق ، كنت فى خلال حياة الهرب أسطر عليها مذكرات وملحوظات ، بعبارات ورموز وإشارات لا يفهمها غيرى إن وقعت فى يد سواى . ثم شرعت فى حل معمياتها واستخراج ما فيها وتدوين حوادثها وصياغتها ، إلى أن أبرزتها أمام القارئ مسلسلة الحوادث متناسقة المناظر ، بشكل يصف حياة السجن والهرب والتنكر والاختفاء ، وقد سجلت ما كان يتخلل ذلك من حوادث مرت بى ، ووقائع ومباغتات صادفتنى ، ومشاهدات وقع عليها ناظرى ، وخواطر عابرة ، وملاحظات متناثرة ، وبعض الشجون والشئون والتجاريب والمطالعات والتعليقات ، من سياسية وتاريخية وأدبية وبوليسية ، ونظرات فى الاستعمار وأحوال الأمم المظلومة وقيام الجامعة العربية وحالتها اليوم ومصرع فلسطين الخ .

وقد جعلت ذلك كله فى صورة تجعل القارئ يشهد معى بعض ما شهدت ، ويرى بعض ما رأيت ، ويرافقنى فى تلك الفترة من الحياة كأنه يعيش معى ، أو كأنه يستعرض فصلا سينمائياً متعاقب الحوادث ، متلاحق الصور والمناظر ...

فإن وجد القارئ فى هـــذه المذكرات عظة أو عبرة فتلك بغيتى ، وإلا فهى لا تخلو - على كل حال - من مسرح للذهن ، وتسلية للنفس ، ونزهة للخاطر ...

سؤال وجواب

أما لماذا لم يظهر هذا الكتاب على إثر انتهاء حوادثه وانقضاء مصائبه ، فالجواب على ذلك أن كابوس الرقابة على المطبوعات بقى جاثما على الصدور عشر سنين ، حتى أوائل سنة ١٩٥٠ لأن الوزارات

المتعاقبة أبقت على الرقابة لتحارب بها خصومها ، ولذلك لم أستطع إبراز الكتاب ، وقد حدث في خلال ذلك أن إحدى الوزارات الخارجة على الأمة المصرية ـ هي وزارة إبراهيم باشا عبد الهادي ـ التي تغلبت على مصر سنة ١٩٤٩ قبضت عليّ مع عشرات ألوف من الأبرياء بلا سبب ولاموجب، وحبستني في صحراء السويس في «معسكر ها كستب» ولو طال عهدها للبثت سجيناً بضع سنين ، فتألمت من عمل تلك الوزارة أكثر من ألمي من الإنجليز الذين عذبوني وحبسوني مراراً وتكراراً ، وحاربوني أكثر من ثلاثين عاماً . فلما سقط حكم الإرهاب أُفرج عني ، ثم قامت وزارة النحاس باشا سنة ١٩٥٠ فألغت الأحكام العرفية والرقابة عن المطبوعات ، فبادرت إلى وضع كتاب عن ظلمات حكم إبراهيم عبد الهادي «المؤلف من حزبي السعديين والدستوريين» وفظائعهم مع الأمة كلها ، ومعي أنا أيضاً. وقد ظهر ذلك الكتاب في منتصف سنة ١٩٥٠ بشكل مفكرات ومذكرات باسم «معتقل ها كستب» فجاء في نحو ٧٠٠ صفحة و ٤٤ رسماً ، وكان قصدي من التعجيل بوضع ذلك الكتاب أن أضرب الظالمين قبل أن يبرد الحديد ، وقبل أن تنسى الأمة تلك الفظائع الرهيبة التي لم يقع مثلها من عدو مع عدوه ؛ لا في العصور الوسطى ولا في القرون المظلمة ..

اسم هذا الكتاب

أما الاسم فقد حيرني اختياره كثيراً ، وكنت قد نويت أن أسميه « أنا هارب » أو « هربت من السجن » أو « هارب من السجن » الخ ولكني عدلت عن هذه التسميات لأن هناك قصصاً وأشرطة سينمائية بهذه الأسماء موجودة ومعروضة في كل مكان .

إلى أن فكرت أخيراً بتسميته بالاسم الذي صدر به ، وهو نفس الاسم الذي خطر على بالي قبل أحد عشر عاماً حين كنت في الحبس أترنم عند الغروب بأنشودة «ياظلام السجن خيِّم...»

القاهرة ـ إبريل ١٩٥١

محمد علي الطاهر

محمد علي الطاهر — حين القبض عليه سنة ١٩٤٠ .

محمد على الطاهر ـ فى أثناء حياة الهرب والتنكر والاختفاء سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢

قبيل الحرب الثانية

نظرة وإحاطة مختصرة

العالم العربي والأمم المقهورة ـ وانجلترا

كان أشهى حادث فى نفوس الناس قبل إعلان الحرب فى سنة ١٩٣٩ هو أن تقع الحرب، فتتطاحن بريطانيا وسواها ، وكان الأمل السائد هو أن تكون نتيجة الحرب هذه المرة تحطيم بريطانيا وتفككها لتتخلص الشعوب المقهورة من الاستعمار ، لأن هذه الدولة هى أم الحروب والمؤسسة لفن استعباد الشعوب وقهر الأمم ، فهى أولا تستعبد الهند[1] التى تعد أكبر كتلة مستعبدة مستعمرة وأعظم مستودع لبريطانيا تجند منه الرجال وتسلب الأموال لتتخذ من ذلك عدة للاعتداء على خلق الله ووسيلة للوصول إلى هذا العدوان .

ولأجل اطمئنانها على هذا الكنز اعتدت على أسبانيا وأخذت منها جبل طارق لتحفظ طريق الهند . ثم اعتدت على إيطاليا وأخذت منها جزيرة مالطة لتكون قاعدة بحرية تعرقل من يقتحم جبل طارق ، ثم اقتطعت من الدولة العثمانية جزيرة قبرص لتأمن على قناة السويس من الغير، ثم اعتدت على مصر لتحتفظ لنفسها بقناة السويس التى تعتبر شريان طرقها الاستعمارية. وكانت قبل ذلك قد اعتدت على اليمن وأخذت منها منطقة عدن لتكون محطة لجيوشها وأساطيلها ، كما احتلت باب المندب ، ليصبح مفتاح البحر الأحمر الجنوبى فى يدها بعد أن امتلكته بأخذ قناة السويس التى هى بوابته الشمالية . ثم يجب إقفال الدردنيل أيضاً فى وجه روسيا لحماية القناة فأرغمت تركيا على إغلاقه وربطتها بمعاهدات تجعلها حارساً على بابه ...

وبعد ذلك استولت بريطانيا على العراق لتحفظ طريق الهند من الناحية البرية . وقبل ذلك استولت على جميع الامارات والممالك العربية فى الخليج العربى الذى يسمى « الخليج الفارسى » ثم ختمت سلسلة العدوان بأخذ فلسطين لجعلها دولة يهودية تحت رعايتها لتحمى لها قناة السويس من الشمال الشرقى ويحرس لها الشعب اليهودى أرض فلسطين لتكون محطة لطياراتها ، وهذا غير وضع يدها على هونج كونج وسنغافورة فى الشرق الأقصى وجزر المحيط لتطوق الدنيا الإسلامية باستعمارها .

---

(١) هذا الكلام ينصب على الحالة فى سنة ١٩٣٩ ـ وأما الآن فنحن فى سنة ١٩٥١ حيث تغير شيء كثير من أوضاع الأمس .

فبريطانيا إذن هى علة سقوط العالم الإسلامى ورزوحه تحت ضربات الاستعمار وإذلال الأمة العربية شرقا وغربا . فلولا بريطانيا ما تجرأت فرنسا وأسبانيا وإيطاليا حتى هولندا على استعباد بلاد الإسلام والعرب . فهى التى انتهكت حرمة العالم الإسلامى وجرأت أحط الدول على مهاجمته ومساعدة تلك الدول على إخماد المسلمين عند ما يثورون عليها ، لأنها تعتبر إفلات أية منطقة من البلاد الإسلامية من قبضة الاستعمار الأوربى نذيراً بإفلات مستعمراتها هى وانهيار صرح الأمبراطورية البريطانية كلها .

لذلك كان أعظم ما يتمناه العربى وما يرجوه المسلم أن تقع حرب بين بريطانيا وغيرها فيفلت العرب والمسلمون من قبضتها فلذلك كان الـكل يرجو وقوع الحرب بأسرع ما يمكن.

ولـكن الأمير شكيب أرسلان أمير البيان وشيخ المجاهدين « رحمه الله » كان أبعد نظراً وأصح رأياً . فقد سمعنى مرة أقول ذلك لما كان يزورنى فى مصر فى أوائل سنة ١٩٣٩ فقد خالفنى فى نقطة واحدة وهى أن الحرب العظمى إذا كان لابد من وقوعها فهو يفضل أن تقع بعد عشرين سنة . وكانت نظريته هى أن الحرب إن وقعت الآن فإن الدول الأجنبية المتحاربة ستجند أمم الإسلام والعرب فوراً وتسوقها إلى الذبح لحسابها بدون أن يكون لها رأى فى مصير الحرب ولا مصيرها هى (١) أما إن تأخر وقوع الحرب عشرين سنة فإن أمم العالم الإسلامى والعرب تكون أحوالها قد تحسنت وأصبحت أقوى، فتستطيع أن تكون قوة تقدر على إمالة ميزان الحرب إلى الجهة التى تريدها وتعرف كيف تقطف ثمرة الحرب . ثم كتب الأمير مقالا

(١) لقد بلغ من تخاذل المسلمين وانعدام المروءة عندهم وعقوقهم لبعضهم بعضاً أن الحـكومة التركية لم تكتف بخذلان العالم الإسلامى فى مسألة فلسطين أثناء الحرب مع اليهود بل كانت فى تلك الأيام تتعامل مع اليهود ، ثم اعترفت « بالدولة اليهودية » وبذلك تكون قد أقرت اليهود طبعاً على كل ماصنعوا بأهل فلسطين من التذبيح وغصب الوطن والتشريد ، وقد زاد فى النكاية أن الحـكومة التركية جندت فرقة تركية من جيشها وأرسلتها إلى كوريا لمحاربة الـكوريين الشماليين نجدة لأمريكا وانجلترا بدلا من أن تنجد بهذا الجيش مسلمى فلسطين . ثم عقدت مع اليهود محالفة عسكرية وستكون موجهة ضد العالم العربى !

وقد شاء ربك أن يجازى الحـكومة التركية جزاء عاجلا ، بأنه جعل الجيش الـكورى يطبق على الجنود التركية وأن يقضى عليها ذبحا وتقتيلا ، رحم الله أولئك الجنود الأبرياء وعجل فى الانتقام من الذين أرسلوهم إلى ذلك الجحيم واستخدموهم فى غير ماخلقوا له ، بل أرسلوهم للموت فى سبيل عدوهم لا فى سبيل أمتهم ولا من أجل بلادهم .

فى جريدتى فى هذا المعنى نخالفه البعض وأنا منهم. ولكن الذى حدث أن نظرية الأمير « رحمه الله » كانت أصح ، وانتصرت بريطانيا بعد أن جندت المسلمين والعرب وعبأت جميع قواهم لمصلحتها، بل إن بعض الأمم الإسلامية والعربية لشدة غفلتها وتفككها تسابقت فى مساعدة بريطانيا على كسب الحرب إلى أن انتصرت ، وما دروا حاسبهم الله أنها لم تنتصر إلا عليهم لا على ألمانيا ولا على إيطاليا ولا على اليابان ، لأن هذه الأمم حية ناهضة تعرف كيف تنهض من نكبتها فى أقصر فترة من الزمن . وأما المسلمون والعرب فهيهات لهم النجاة ، لاسيما بعد أن كشرت بريطانيا عن نابها وأصبحت أمام المسلمين والعرب أوقح وأقسى مما كانت .

وسيدفع العالم الشرقى ثمن غفلته الشنيعة باهظاً فاحشاً ، لاسيما أنه قد سبق له أن خدع بكذب تلك الدولة فى الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فإذا كانت الغفلة قد استحوذت على الأمم المقهورة أكثر من مرة فى خلال ربع قرن بينما لايزال أبناء ذلك الجيل أحياء فما أجدر أبناء الأجيال المقبلة بالسخط على الجيل الذى انخدع فى ربع قرن مرتين ...

الاستعداد للحرب

كانت أحوال الدنيا فى أوائل سنة ١٩٣٩ تنذر بالحرب ، وأخذت البلاد المصرية تستعد لتحمل نصيبها من نكباتها فكان أروع ما شعرنا به فى تلك الأيام تجربة الوقاية من الغارات الجوية بإعلان الإظلام العام، فلما أطفئت أضواء القاهرة لأول مرة أحسسنا بروعة الأيام المقبلة والفزع الذى سيستولى على الناس أعلنت الحرب ووقعت غارة بالقنابل .

وقد زاد فى هلع الجماهير أن الصحف أخذت تنشر المعلومات والبيانات الضافية عن كيفية فتك القنابل بالمبانى والمدن . وكيف تدك أسس العمارات وتنسف الأحياء الآهلة بالسكان فتصبح كأنها لم تكن !! ثم زاد الفزع لما ذكرت الصحف أن الغازات الخانقة والسامة والقنابل المحرقة ستصنع بالناس كيت وكيت ..

وإنى أتذكر عن ليلة « الإظلام الأول » أننى صعدت على سطح عمارة شاهقة مع أحمد حلمى باشا المجاهد الفلسطينى ـ وسيأتى ذكره فى هذا الكتاب كثيرا ، وأخذنا نشهد منظر القاهرة فى تلك الليلة الرهيبة ، فإذا بها متسربلة فى كفن من السواد . فلا أضواء فى أفقها

ولا حركة فى طرقاتها ذات الضجيج الذى كان يصل عنان السماء ليلا ونهاراً ، وكان الفزع قد ران على القلوب واستحوذ على النفوس ، فيالها من ليلة ليلاء ما أشد هولها .

إعلان الحرب

وفى أول سبتمبر ١٩٣٩ أعلنت الحرب فكان لإعلانها من الرهبة والرعب ما لا يمكن وصفه وخصوصاً فى نفوس الذين شهدوا الحرب العظمى الأولى وعاشوا فى أيامها ..

وتولى على ماهر باشا رياسة الوزارة . وهو رجل قوى الشخصية فطلب منه الإنكليز إعلان الحرب على ألمانيا فأبى قائلا لا أعلنها إلا إذا هوجمت الأراضى المصرية أولا ، فرضوا بهذا الشرط وارتبطوا به على ظن أن الألمان والطليان سيبدأون بمهاجمة مصر من ليبيا . أما أنا شخصيا فقد أدركت ماف وقوع الحرب من أحداث ونتائج وعرفت ماسأتعرض له من الإنكليز فأوقفت جريدة (العلم المصرى) التى كنت أصدرها بدلا من الشورى وأعلنت حل اللجنة الفلسطينية وإلغاء مكتب الاستعلامات الفلسطيني وأوقفت كل نشاط سياسى ، مترقبا نتيجة الحرب .

وقد أسديت النصح لصديق الأستاذ احمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة بأن يحتاط لنفسه لأنه لابد للسلطة البريطانية من اعتقاله . فقال لى : ولماذا لا تعتقل أنت ؟ فقلت له إنى اعتقلت فى الحرب العظمى الأولى من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩١٧ فلن أعتقل مرة ثانية ! كما أنى أوقفت الآن أعمالى السياسية وأما أنت فلا تزال تتحرك .

قلت هذا وأنا لا أدرى انى سأكون أول معتقل سياسى فى الحرب العظمى الثانية !

حالة البلاد والناس

استولت على الناس حالة رعب وحيرة فى تلك الأيام وساد الضيق والقلق . وأصدر جلالة الملك فاروق مرسوماً بإعلان الأحكام العرفية وتعيين على ماهرباشا رئيس الوزراء حاكما عسكريا عاما وبذلك ألغيت القوانين التى تحفظ للفرد حريته وحرمة مسكنه . ووضعت الحكومة الرقابة على الصحف فأصبح الصحفى لايستطيع نشر خبر إلا إن أجازته الرقابة . وصار يرغم على نشر ما تأمر به السلطة العسكرية البريطانية ولو كان كذباً أو مبالغاً فيه . كما وضعت الرقابة على الرسائل البريدية والبرقية وعلى التلفون ومحطة الإذاعة اللاسلكية . وكانت الرقابة فى يد

وزارة الداخلية اسماً ولكنها كانت فى يد السلطة الإنجليزية فعلا ، لأن المعاهدة المعقودة بين مصر وانجلترا عام ١٩٣٦ كانت تنص على ذلك .

احتياطات ....

إن تجاربى على ضوء ماعرفته وما لقيته فى الحرب العظمى الأولى ١٩١٤–١٩١٨ جعلتنى أفهم تماما ما سنلق من الأحكام العرفية ، فتناولت بالفحص جميع أوراق وما تحتويه إدارة الشورى واللجنة الفلسطينية ومكتب الاستعلامات من أضابير وملفات . ففرزت هذا كله وأحرقت ما يمكن الاستغناء عنه بالنار فى فرن مجاور لإدارة الشورى ، فكانت تلك الأوراق المكدسة مصدر وقود مجانى لذلك الفرن فى زمن ارتفعت فيه أسعار الحطب والفحم ... فكنت أرقب بنفسى وضع تلك الأوراق فى النار ولا أبرح الفرن إلا بعد أن أتأكد من إحراقها ... أما صاحب الفرن فكان مسروراً لأنه كان يخبز على وقود يأتيه مجانا وما درى أنه لو طلب أجراً لأعطيته ...

ولما فرغت من تصفية الأوراق والدوسيهات وضعتها فى صناديق وزعتها على دكاكين وبيوت الأصدقاء حتى إذا وقع شىء فى يد السلطة بقى شىء ؛ بل إن حدث ووقعت غارة فلا يحترق كل شىء .

وهنا لابد لى من الإشارة إلى تاجر جبان نمسان انتابه الفزع والوسواس من وجود صندوقين عنده فأفهمته أن لاخوف عليه ، لأن هذه الأوراق ليست مما تبحث عنه الحكومة وإنما أبعدناها عن الأيدى حتى لاتقع فى قبضة من لا يهمه إلا إحراقها إن وقعت تحت عينيه فيحرق قلوبنا عليها ، ولكنه أصر وكاد يفضحنا ويلفت الأنظار إليها بكثرة لته وعجنه ، فاسترجعناها منه وأرسلناها إلى مكان آخر فى مخزن بخان الخليلى لتاجر شهم (١) فحفظها لنا عنده ست سنين . كما أودعنا القسم الأكبر من تلك الصناديق فى دار صديق آخر وهو موظف كبير لا يشتغل بالسياسة وبعيد عن كل مظنة فحفظها لنا أيضا ست سنين .

---

(١) هو السيد محمد تيسير الحلبى من أفاضل دمشق ونزيل القاهرة .

شهامة على ماهر باشا

ولكن هذا الاحتياط لا يكفي لأن الأوراق إن سلمت فقد لا أسلم أنا . ولذلك سافرت إلى الأسكندرية وقابلت على ماهر باشا الحاكم العسكرى العام ورئيس الوزراء، وكان أيضاً وزير الداخلية والخارجية ، وقد قابلنى فوراً برغم كثرة أعماله التى يعجز عنها البشر ، فذكرت له ظروفى وأن الإنكليز يكرهوننى وأنى منعاً لتحريك ضغنهم وإثارة حقدهم علىّ قد أقفلت الجريدة واللجنة وتركت السياسة . وقلت له إن القوم إذا نكبوا فى ميدان الحرب بأوروبا فلا بدلهم من أن يصبوا غضبهم على خصومهم القدماء وعلى الآمنين فى مصر وسواها ثم سألته ـ هل تحمينى الحكومة الوطنية من السلطة البريطانية أم أغادر القطر إلى بلاد أخرى ؟ فقال لى بل تحميك الحكومة الوطنية ولكن بشرط ألا تقوم بعمل يثير الإنجليز أو تجعل لهم سبيلا عليك .

وقبل أن أستأذن بالانصراف خطرلى خاطر آخر ، وهو أنه كان قد وفد على مصر فريق من مجاهدى الثورة الفلسطينية وكان قدومهم تسللا بصورة غير قانونية ومعهم قائدهم فذكرت لماهر باشا مسألتهم وطلبت منه الأمان لهم فقال بشرط أن يمكثوا وادعين فلا يأتون بحركة. فقلت : ولكن قد يعثر عليهم البوليس السياسى أو السلطة البريطانية فقال أبرق لى عن أى شئ ينالهم . فقلت : ولكنى أقترح ضناً بوقتكم من المراجعة بشأنهم إن أصابهم شئ أن تأمروا إدارة الأمن العام بعدم التعرض للوافدين الفلسطينيين إلا بعد عرض مسائلهم عليكم وبذلك نتفادى القبض ثم السعى للإفراج عنهم ، فابتسم موافقا ثم كتب ملحوظة بذلك وأرسلها إلى وكيل وزارة الداخلية والأمن العام[٢] ولولا ذلك لنكل بهم هذا الرجل وسلمهم لحكومة فلسطين البريطانية ولكن التعليمات التى أصدرها ماهر باشا قطعت الطريق عليه .

---

(١) كان يشغل هذا المنصب رجل يسمى حمدى محبوب باشا وكان فى شبابه قاضيا فى المحاكم ولكن لما عين مديراً للأمن العام ووكيلا لوزارة الداخلية تغير وانتكس ولبسته الأخلاق البوليسية ... فلما وقعت الحرب وفهم أن كل السلطات قد أصبحت فى أيدى الإنجليز نسى ماضيه القضائى وأخذ يجارى السياسة البريطانية ويسابقها فى البطش بالناس .

حالة القاهرة فى أوائل أيام الحرب

وبينما كان الناس فى هرج ومرج هلعاً من ويلات الحرب . إذا بأصوات الأبواق الـكهربائية أو الزمامير تدوى بالإنذار من الغارات الجوية ـ وهذه الزمامير عبارة عن أبواق كبيرة مضخمة للصوت فتخرج منها أصوات كريهة فظيعة تعوى عواء قبيحاً متواصلاً يصم الآذان ويثير الأعصاب فانخلعت القلوب وطاشت الأحلام فمات بعض الناس بغتة وأصيب بعضهم فى أعصابه فمنهم من مرض ومنهم من سيق إلى مستشفى الأمراض العقلية . . . حتى ان بعض المصابين بالإمساك المستعصى وعجز الطب عن شفائهم جعلتهم ولولة الزمامير المفزعة يبرأون ويصابون بالإسهال لشدة الهلع .

ثم زادت السلطة البريطانية فى ترويع الناس بأن جعلت الصحف تنصح لهم بالابتعاد عن مناطق الخطر وبالجلاء عن المدن ثم أوعزت لوزارة الداخلية بإعلان ذلك رسميا فبادر سكان القاهرة إلى الفرار منها فهاموا على وجوههم فى الريف والقرى ، فأصبحت القاهرة كأنها مدينة الأموات ، وأصيبت الاسكندرية كذلك وفيها مرسى الأسطول البريطانى ـ بفزع عظيم فاشتد الـكرب على أهالى المدن الريفية كما اشتد على سكان القرى الذين وفد على ريفهم بضعة ملايين من الخلق فارين من هنا ومن هناك وإنى أتذكر أن بعض الأهالى قد باعوا أثاث بيوتهم وبضائعهم بأبخس الأثمان توقيا لعواقب أقسى وأشد .

وكان سكان القاهرة على الأخص حيارى . فأهل الضواحى يهرعون إلى داخل المدينة للاحتماء بالمساجد ودور العبادة والمستشفيات على ظن أن الطيارات لن تضرب داخل البلد وإنما تضرب الضواحى لوجود المعسكرات والمطارات فيها ، وكان أهل البلد يهرعون إلى الضواحى على ظن أن الطيارات إن ضربت المدينة فستلق القنابل بلا حساب . ثم تجد قسما من أهالى الضواحى وأهل المدينة الداخلية يفرون من القاهرة بأخف ماعندهم مما يمكن حمله أو نقله ويهربون إلى القرى .

ثم وزعت السلطة أقنعة زعمت أنها تق من الغازات السامة فتضاعف الخوف واشتد الـكرب لدرجة جعلت الناس يتنبهون إلى السبب الحقيق الذى يحمل الإنجليز على إنزال هذا الفزع فى قلوبهم ، وأخذوا يتساءلون : لماذا تضرب حكومات المحور المدن المصرية وهى

تعرف أن المصريين لا يد لهم فى الحرب ولا مطمع لهم منها إلا الخلاص من الإنجليز ، فهل يعقل أن تزيد دول المحور عدد خصومها بلا سبب ؟

إذن فهناك شىء يريده الإنجليز من تخويف الأهالى من المحور وفظائعه ، وهو أن يجعلوهم يتصورون الإنجليز هم الحماة للديار من الغير ، فلا يفكر الناس فى كون وجود الإنجليز فى البلاد وحده يكفى لجلب المصائب عليها ، ولا أن يفكر أحد بوجوب القيام على الإنجليز المحتلين لإخراجهم من أرض الوطن .

تلك حيلة استعملوها مع الشعب وقد نجحت وتوفقوا فيها. ثم استفاد الإنجليز فائدة أخرى من إطلاق أصوات الإنذار العاوية وإطفاء الأضواء وإيقاف حركة السير فى الشوارع ، ذلك أنهم كلما وصلت قطارات جرحاهم من جبهة الحرب أطلقوا تلك الأصوات فيلجأ الناس إلى المخابىء ويطفئون الأنوار فتقف الحركة فى الشوارع وعند ذلك ينقلون جرحاهم إلى المستشفيات فلا يرى الناس شيئا ...

وقد ذكرتنى هذه الحيل بما كان الإنجليز يصنعونه فى أيام الحرب العظمى الأولى لإرهاب الشعب ، وإيهامه بأن لديهم قوات عظيمة ، فقد كانوا يسوقون بضعة طوابير من العباسية إلى ثكنات قصر النيل مشياً فى الشوارع ومعهم أسلحتهم فيراهم الناس فيظنونهم قوات جديدة قادمة من الخارج ثم يذهب هؤلاء الجنود أفرادا إلى جهة أخرى ثم يسيرونهم بشكل طابور قادم فيسير من العباسية إلى القلعة وهكذا ...

وهى أساليب عتيقة كانت فرنسا تلجأ إليها لما احتلت مصر قبل مئة وخمسين عاما كما أن محمد على باشا والى مصر كان يصنع ذلك .

المخابىء فى أيام الحرب

ولما رأت الحكومة أن الذعر من الغارات الجوية أصبح أشد خطراً من الغارات نفسها ، حفرت حفراً ووضعت لها سقوفاً وأوصت الناس بالالتجاء إليها وإلى « بدرونات » العمارات أو الأقبية ، فكانت الحياة فى جحور الفيران أهون منها ، وهى مخابىء صورية لا قيمة لها ولكنها جعلت لتطمين الخواطر وإثارة الخوف فى وقت واحد ...

ومما أتذكره أننى دخلت مخبأ عمارتنا مرة فوجدت النساء مع الرجال والأطفال والمرضى أكداساً وكنت فى تلك الساعة أدخن فإذا بأصوات منكرة تصيح وتطلب إطفاء السيجارة لئلا تراها طيارات الأعداء ! فى حين أننا كنا فى بدرون تحت الطابق السابع وتحت الأرض بأمتار ! ومع أنه لم تجر غارة ولا جاءت الطيارات فإن الصائحين أصروا على أن الطيارات وهى فى السماء السابعة سترى وهج السيجارة ونحن تحت الأرض السابعة !

لذلك فضلت الصعود إلى منزلى ولم أدخل المخابىء بعد ذلك مفضلا الموت على احتمال سماجة مجانين يخافون من خيالهم .

طلب القبض على

وفى هـذه الأثناء سمعت أن الإنجليز طلبوا القبض علىّ وحبسى وأن على ماهر باشا قد رفض طلبهم وقال هاتوا ما يثبت عليه عملا ضارا بقضية الحلفاء لأحبسه ، ولـكنهم لم يجدوا مستنداً فسكتوا . وقد سألت أحد وزراء ذلك العهد عن صحة ذلك فأيده وأوصانى بالاحتياط الشديد. ثم بلغنى أن حمدى محبوب باشا مدير الأمن العام وكان متحمسا للإنكليز يريد القبض علىّ ولـكنه لم يستطع تنفيذ غرضه ، ولم أدر حتى الساعة لماذا كان هذا الرجل مشغول البال على الإنجليز ومحروق القلب عليهم إلى هـذه الدرجة ! إننى أعرف هذا الرجل ويعرفنى وكان يتظاهر بأنه يحبنى ويجلنى حتى إنه قال لى مرة وهو يرحب بى سنة ١٩٣٨ لـما عرف أن الإفرنسيين أخرجونى بالقوة من بيروت «لاتتكدر يافلان فأنت مجاهد ويجب أن تتحمل» .

فما دام حمدى محبوب يعرف أننى « مجاهد » فلماذا أصبح الآن يريد حبسى؟ وفى الحقيقة أننى تيقظت وصرت أحاذر أن يمسكنى الإنكليز بسبب يسوغ لهم حبسى ولو بعد حين، وكنت أقول فى نفسى : منذ اليوم إلى أن يفكروا فى شأنى مرة أخرى تكون الحرب قد انتهت أو يكون المحور قد أخرج الإنجليز من مصر .

إسقاط وزارة على ماهر باشا

كان حنق الإنجليز على وزارة على ماهر باشا قد بلغ حد الجنون ، فأخذوا يدسون لها ويقيمون العقبات فى طريقها ، وما زالوا كذلك حتى أسقطوها واستراحوا من على ماهر باشا

أو الطابور الخامس[١] . فقامت وزارة حسن صبرى باشا وتعهدت لمجلس النواب بعدم إعلان الحرب فأيدها المجلس ولولا ذلك لأصبحت فى مركز حرج لأن الأمة لا تريد التورط فى الحرب.

الطليان يعلنون الحرب

كان لإعلان إيطاليا الحرب على فرنسا صدى مضحك لأن فرنسا كانت قد سقطت واستسلمت فلماذا تعلن إيطاليا الحرب عليها ، وهنا بادر الإنجليز وأعلنوا الحرب على إيطاليا ، وراحت طياراتهم تقوم من مصر وتقذف قنابلها على الطليان بطرابلس وبرقة فزحف الجيش الإيطالى نحو مصر فتراجع الإنجليز فاحتل الطليان السلوم فى الأراضى المصرية فطلب الإنجليز من على ماهر باشا رئيس الوزراء إعلان الحرب عملا بالاتفاق الذى تم وقد أيدهم فى طلب إعلان الحرب محمود فهمى النقراشى باشا وزير المعارف وقتئذ وأحمد ماهر باشا رئيس مجلس النواب فكان لتأييدهما بريطانيا وقع أليم فى أرجاء البلاد واستنكرته الأمة لاسيما وهو يصدر من رجلين كانا من المشهورين بكراهتهما للانجليز وكراهة الإنجليز لهما . فما الذى غيرهما ؟ ولكن على ماهر باشا رفض إعلان الحرب وقال إننا اتفقنا على ذلك لو هجمت إيطاليا على مصر (مبتدئة) ولكن الذى وقع أن انجلترا هى التى ابتدأت بقتال الطليان فردوا عليها . وإذا كان الطليان قد اجتازوا الحدود المصرية فإنما هم يلاحقون الإنجليز الذين اعتدوا عليهم . . . هكذا أجاب على ماهر ، ولله دره ، ولكن الإنجليز لم يعجبهم هذا الجواب السديد فأخذوا يكيدون لوزارة على ماهر باشا ويعملون على إسقاطها باختلاق الأسباب ، ومنها أن على ماهر باشا أصبح « طابورا خامسا » وهذا التعبير أطلق فى الحرب على عملاء الأعداء . وهو من التعبيرات التى أوجدتها الحرب كما أوجدت تعبيرات أخرى جديدة لم تكن معروفة للناس ، مثل « أغنياء الحرب » وفى « مكان ما فى جهة ما » و « عادت إلى قواعدها سالمة »

(١) هذا اصطلاح جديد فى عصرنا الحاضر ، وحكايته أنه لما سألوا الجنرال فرنكو دكتاتور اسبانيا « فى الحرب الأهلية قبل ١٥ عاما » كيف تستطيع الاستيلاء على المدن بالطوابير الأربعة التى لا تملك سواها ؟ فقال إن لى طابوراً خامساً دسسته فى كل مدينة ، فهو يعمل من الداخل بمجرد هجومى عليها من الخارج . فذهبت كلمته مثلا يطلق على أصدقاء العدو المهاجم، وصار الإنجليز يطلقون لقب «الطابور الخامس» على خصومهم وعلى كل من لا يقول بقولهم ، وكل من يحب وطنه ويكرههم !

و « حرب الأعصاب » و « نقط استراتيجية » و « تراجعنا طبقا لخطة مرسومة » و « الحرب الخاطفة » و « نقط الارتكاز » و « الاعارة والتأجير » و «دق الأسفين» و «حركة الكماشة» الخ .

اختفاء الأستاذ أحمد حسين

وفى خلال أيام إسقاط الوزارة وإقامة الوزارة الجديدة جاءنى الأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة المجاهد الصلب وقال إن حالة البلاد قد أصبحت فى شبه فوضى فلا حكومة مسئولة فيها ولا قانون ، فالحكم اليوم لإدارة الأمن العام والشرطة ، فأخشى أن يعتقلونى وبجىء الوزارة الجديدة فتجدنى فى السجن فيصعب إخراجى ولذلك أرى من الحكمة أن أتوارى حتى تقوم الوزارة الجديدة وعند ذلك أظهر نفسى ، وقد فكرت واستعرضت جميع أصدقائى لأختفى عند أحدهم فلم أجد سواك فهل تخبئنى ؟ فقلت له بلا تردد « نعم » ثم رحلت عائلتى من القاهرة إلى أحد المصايف بدون أن أدعها تعرف السبب وأخفيت أحمد عندى ولكن بحسب البرنامج الآتى : —

أولا — يمكث الأستاذ من الصباح إلى موعد الغداء بدون أن يأتى بحركة تدل على وجود أحد فى المنزل ، وإن جاء طارئ وطرق الباب لا يرد ولا يفتح نافذة ولا يطل على شرفة بل يكتفى بالمطالعة والكتابة ، وفى خلال ذلك أكون قد ذهبت إلى مكتبى كالعادة فأجلس مع الزوار إلى أن ينصرفوا حول الظهر فأبادر إلى أحد المطاعم لأخذ الطعام الذى يكفينى ويكفيه وأجعله فى ورقة وأذهب إلى المنزل فنتغدى ونستريح ونتحدث عما فى نفسينا من خواطر وعن حوادث البلد ونظل كذلك إلى قرب المغرب .

ثانياً — عند الغروب أنزل إلى مكتبى ويبقى أحمد فى الدار ويجوز له الجلوس ليلا فى الشرفة يرعى النجوم ـ أو يعدها إن شاء ـ ولكن بشرط ألا يضىء النور ولا يرد على من يطرق الباب ولا يأتى بحركة ، حتى لا يشعر الجيران بوجود أحد فى المنزل فيطرقون الباب ليسألوا مثلا عن سيدة الدار وهل عادت من السفر ، أو يكون لأحدى الجارات حاجة عند أهل دارنا فإن لم يجاوبها أحد ظنت أن فى الدار لصوصاً فتنادى الشرطة ...

فكنت أذهب إلى مكتبي في الموعد الليلي وأجلس مع الزوار كالعادة فإذا انصرفوا انصرفت أنا إلى مطعم فآخذ منه حاجتي في ورقة وأعود إلى الدار فأفتح الباب وأضيء النور وأسهر مع أحمد في الشرفة إلى أن يأتي ميعاد النوم. وكان أحمد يتضايق من الوحدة في أثناء غيابي عن الدار واضطراره إلى السكون المطلق طول تلك المدة وما أطولها عليه، ولذلك كان يفرح عند رجوعي فرحاً شديداً . والظاهر أن اختفاء الأستاذ أحمد حسين قد أحدث ريبة عند الحكومة والإنجليز فظنوه قد غادر القطر أو اتجه نحو جيوش المحور أو أنه راح يجوب الريف محرضا على ثورة ضد الإنكليز ...

وقد تكرر السؤال عنه بالتليفون من عدة أشخاص مجهولين فكنت أتجاهل مكانه وأسألهم عنه وأظهر اشتياق إليه قائلا : لعله يصطاف في رأس البر ! وقد مكث الأستاذ أحمد عندي بضعة أيام إلى أن تم تأليف الوزارة الجديدة برياسة حسن صبري باشا ولكن لم يرض الأستاذ أحمد عن اختيار محمود فهمي النقراشي باشا وزيراً للداخلية وقال إن هذا الرجل يكره كل كفاءة في البلاد، ومتى قبض على وزارة الداخلية والأمن العام سيحبس الناس بلا حساب ليشعر الخلق بوجوده وسلطانه[1] ومع ذلك فقد خرج الأستاذ أحمد من مكمنه وعاد إلى بيته وعمله كمن عاد من سفر وبعد ذلك زار رئيس الوزارة الجديدة وتحدث معه في شئون البلاد كأنه لم يهرب ولم يختبئ ...

زيارتي لرئيس الوزارة

كان رئيس الوزارة الجديدة حسن صبري باشا يعرفني لما كان وزيراً للمالية سنة ١٩٣٤ فذهبت لتهنئته بمصاحبة الدكتور يعقوب خوري الطبيب بالقاهرة فأمر الباشا بدخولنا عليه فوراً مع أننا ما كنا ننوي يومها أكثر من ترك بطاقات التهنئة أولا وطلب الموعد الذي يراه « رئيس الوزراء والحاكم العسكري العام ووزير الخارجية » ولكنه رحمه الله أمر باستقبالنا فوراً برغم كثرة مشاغله .

(١) سيأتي حديثه في هذا الكتاب .

حادث ظريف

ولما جاء تشريفاتي الوزارة يطلبنا للدخول ومشينا نحو مكتب الرئيس شعرت بأن شخصاً يمشي بيننا ويريد الدخول على الرئيس معنا وكنت أعرف هذا الشخص وكان كثير التردد على دوائر الوزراء لمسأله وقف مزمنة لا علاج لها ، فوقفت وقلت للتشريفاتي : هل صدر الإذن لنا أو لجميع الحاضرين ؟ فقال بل للوفد فقط . فوجهت نظري نحو صاحب الوقف الذي كان يريد التسلل معناوقلت للتشريفاتي : نحن اثنان فقط ، ففهم التشريفاتي ما أرمي إليه وسحب الرجل إلى الوراء . وأعاده إلى حيث كان ، وما كان أعجبها لو دخل ذلك الرجل معنا وأخذ يبسط لرئيس الوزراء حكاية الوقف في حين أن الرئيس يستقبلنا نحن !! لاشك أنها تكون حالة محرجة . وقد ذكرتني فعلة صاحب الوقف هذا بحادثة جرت قبل ذلك بعشرين عاما ، وذلك أنني وثلاثة من أصدقائي دخلنا داراً للتمثيل ، فلما جلسنا في المقصورة لحظت أن عددنا قد أصبح خمسة . فالتفت إلى الخامس فلم أعرفه فظننته جاء مع الضيوف . وبعد قليل مال أحدهم على أذني وسألني عن هذا الخامس ، ففهمت أنه طفيلي ، فسكت ثم التفت إلى هذا الخامس وحييته فأجاب بتحية رقيقة ، فقلت له أريد أن أحدثك حديثا خاصاً ، ثم تناولت يده وأخذته بلطف إلى خارج المقصورة وسألته عن حاله فقال بلا تردد أنا طفيلي ! فقلت وكيف دخلت معنا ؟ فقال إنه كان بالباب يترصد الداخلين فلما رآنا أربعة نحمل تذكرة مقصورة خاصة اندس بيننا فظنه حراس الباب أنه خامسنا فسمحوا له بالدخول كما ظن كل منا أنه مع الآخر ...

وفي الحقيقة أنني استلطفت أسلوبه وأعجبت بمهارته فقلت له يمكنك الآن أن تبقى لتشهد التمثيل بشرط أن تذهب إلى أحد الكراسي الخالية في الصالة وتجلس ، فإن اعترضك أحد فقل له إنك معنا وأنا أشهد لك . وهكذا كان ، وتمكن صاحبنا من شهود التمثيل مجانا ...

ولنرجع إلى ما كنا فيه فأقول إننا لما دخلنا على صبري باشا نهض مبتسما وأمر بالقهوة وهو يقول ـ نعم يا سيدي أنت صاحبنا القديم ، أهلا وسهلا ، فجلسنا وقدمنا له التهاني برياسة الوزارة وبعد ذلك ذكرنا له متاعب أهل فلسطين ورجوناه أن يتوسط لدى الحكومة البريطانية « الحليفة » لتفرج عن المعتقلين السياسيين وكان عددهم يزيد على العشرين

ألف معتقل فقال صبرى باشا ـ هذا مدهش وأنا يهمنى أن أعمل كل ما أقدر عليه لإخوانى الفلسطينيين ، أما الآن وأنا جديد فى الحكم ومشاغلى متراكمة فأرجوكم أن تأتونى بعدعشرة أيام ومعكم مذكرة عن الأمور التى تقترحونها . ومعكم أيضا بعض الأسانيد المكتوبة . فشكرناه وانصرفنا ـ ذكرت هذه الحوادث استطراداً لسببين : أولا ـ لعلاقة ماتقدم بالحوادث المقبلة ، وثانيا ـ وفاء لهذا الرجل الفاضل وتحية لذكراه .

عند على ماهر باشا

كانت استقالة وزارة على ماهر باشا ـ بل التخلص منها ـ موضع حزن عند الأمة ، وموضع ألم ومرارة فى نفسه هو ، لأنه أرغم على الاستقالة بشكل غير طبيعى وماذا يقول الإنسان عن آلام وزير يخرج من الحكم بسعى الأجانب عقاباً له على وطنيته وإخلاصه لبلاده ! .

لذلك أخذت الدكتور خورى وذهبنا إلى استراحة الحكومة فى جهة القناطر الخيرية حيث بقى على ماهر باشا فيها ليستريح مما كان فيه من تعب ومن ألم ، فحييناه وذكرنا جهاده من أجل فلسطين وسورية ، وكان عنده لفيف كبير من الوزراء السابقين والحاليين لمجاملته والأخذ بخاطره ، ولكن سروره بى وبرفيقى كان أعظم ، وقال لنا إننى ممنون جداً من تحيتكم هذه لأننى تيقنت أنه يوجد وفاء فى هذه الدنيا بعد أن ظننت الناس قد نسونى ـ فقلت له : إن الوطن العربى كله لن ينساك .

الحالة فى أيام العاصفة

مضى عام على اشتعال الحرب العامة الثانية بعد أن عانى الحلفاء من بأس الألمان مايشيب الأطفال ، فقد انهزموا فى جميع الميادين براً وبحراً وجواً واكتسحت جيوش الألمان أنحاء أوربا وطوت ممالكها تحت سنابك خيولها بل دباباتها طى السجل للكتاب .

وكان الإنكليز فى هذه الأيام لاعمل لهم إلا الهرب من الألمان وإثارة الخوف بين العباد ، يثيرون الخواطر ويروعون الخلق وينشرون الفزع بين الشعوب والأمم ، ألسنة طويلة وتبجح وقح فى حين أن جيوشهم كانت لاتكاد تحارب ولا تصمد فى معركة ، وكم كنا نضحك على الإنكليز حين كان الأستاذ يونس بحرى المذيع العربى الشهير يصيح من راديو برلين متهكما على

الإنكليز متندراً على قحتهم لما كانوا يهربون من ميادين القتال ويهددون الألمان بكثرة مواردهم وتصميمهم على مواصلة الحرب ، فيقول يونس : وقد أقسم الإنكليز على أن يحاربوا إلى آخر جند فرنساوى ...

وقد صدق يونس ، لأن فرنسا استسلمت بعد أن فقدت جميع جيوشها وسقطت باريس فى قبضة الألمان . وأما الإنكليز فقد هربوا من فرنسا كلها ...

وقاحـة أم غفلة ؟

وفيما أنا فى هذا وإذا ببصرى يقع على خبر فى جريدة لا أدرى ما الذى أوقعها فى يدى ، وذلك أنه لما انهزم جيشهم من فرنسا وركبت فلوله البحر هاربة إلى انكلترا وهرب قبلها القائد العام الجنرال جورت الجبان الفرار ووصل إلى الأراضى الإنجليزية سالما بجلده كان الناس يظنون أن حكومته ستحكم عليه بالإعدام جزاء جبنه وفراره ! فإذا بالحكومة الإنكليزية ترحب به كقائد منتصر وتنعم عليه برتبة مرشال ولقب لورد ! وتعلن أن نجاحه فى الهرب كان خطة حربية بارعة ومن أهم الحركات العسكرية التى تفوق النصر ...

فقلت فى نفسى أمجانين هؤلاء الإنجليز أم يظنون الناس مغفلين .

القبض والحبس

القبض على وحبسي

نحن الآن فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٠ والوقت يقرب من المغرب ، وكنت أشعر بضيق نفسانى لاأدرى سببه، إنه شهر سبتمبر الذى أكرهه : فقد قُبض علىّ فيه قبل ربع قرن أى فى ١٥ سبتمبر ١٩١٥ فى الحرب العظمى الأولى .

وآخر عمل قمت به فى هذا اليوم الذى ضاق فيه صدرى أننى ذهبت لعيادة حبيبى وصديق المرحوم الأستاذ الزنكلونى (١) وكان فى حالة مرض طويل شديد ، ففرح بى وكان رحمه الله فى تلك الساعة مرحاً باشاً وما كنت أدرى أنه اللقاء الأخير وأنها زيارة الوداع وأن انتعاش الشيخ يومها كان «تفتيحة الموت» وبعد ذلك انصرفت إلى مكتبى فوصلته عند الغروب وكان المدعو «س. ا.» أول من زارنى فى تلك الساعة وهو رجل لئيم غادر لايفى بجميل، منافق متقلب متلون لايحب أحداً ولا يخلص لأحد، وكان البعض يشتبه فى كونه من المتصلين بالشرطة السرية ، ولم يمكث هذا الرجل المشئوم عندى لحظة حتى دخل شخص جديد علينا وهو يقول «أنا اليوزباشى محمد يوسف من البوليس السياسى وأريد أن أفتش الإدارة » وقبل أن يتم بقية كلامه دخل أعوانه الضباط خلفه ثم لمحت من النافذة أن هناك قوة بوليسية تطوق العمارة فقلت للضابط فتش كما تريد . وفى الحقيقة أننى من أول الحرب كنت

المرحوم الأستاذ الشيخ
على سرور الزنكلونى

(١) هو الشيخ على سرور الزنكلونى – نسبة إلى قرية الزنكلون بمديرية الشرقية – كان من أجلة العلماء وزعماء الوطنية والإصلاح الدينى فى مصر والشرق وقد انتخب عضواً فى جماعة كبار العلماء وكان من كبار الثائرين السياسيين على الاستعمار واشترك فى الجهاد فى ثورة مصر سنة ١٩١٩ – ١٩٢٠ وهو أول عالم دينى مسلم أمسك برئيس دينى قبطى فى الجامع الأزهر حيث كان يحتشد الناس ويسمعون الخطب الوطنية وأخذ يعانقه ويقبله رمزاً للاخاء فى الإنسانية والوطنية . وكان الزنكلونى من أكرم الناس وأوفى الناس وأشجع الناس فى الحق ، لا يبالى بذوى الحكم والسلطان ، وكان قاضياً لحاجات الناس خادماً للفقراء وبالاختصار كان كله إنسانية وكله رحمة ، رحمه الله وأرضاه .

أتوقع هذه الغزوة وكنت مستغربا عدم حدوثها إلى الآن! على أنى كنت واثقاً من نفسى وأنه لايوجد عندى شىء يهم السلطات البريطانية، ولم أقم من جهتى بأى عمل يمكن مؤاخذتى عليه وراح الضابط يفتش الأدراج والخزائن ويعبث فى الأوراق ثم يأخذ بعضها ويضعها فى كيس كبير. وأما الزائر « س. ا. » الذى كان عندى فإنه تسلل مولياً الأدبار! ولا أدرى أكان قد شعر بأن مهمته فى استبقائى فى الإدارة قد انتهت أم أنه أراد إبعاد الشبهة عن نفسه، وكان المنتظر منه لو كان رجلا أو صديقاً كريماً أن يظل إلى جانبى ليرى مصيرى فيخبر الأصدقاء وأهل بيتى عن ذلك المصير ...

كنت جالساً فى دار الشورى قبل القبض على بدقائق قليلة

وفى أثناء التفتيش أو التخريب والإفساد فى الإدارة تعب حضرة الضابط الهمام ولا أدرى عمّ كان يبحث، لأنه لايوجد عندى شىء تريده الحكومة أو السلطة العسكرية؛ ولم يقل هو عن شىء معين بالذات يريده لأساعده على إظهاره، وبعد ذلك تململ الضابط وقال « ماهذا؟ إنها أوراق كثيرة جدا زيادة عن اللزوم! » فقلت: هذه إدارة جريدة وأوراقها يجب أن تكون أكثر من ذلك. فقال: لا، لا، هذا كثير جدا ...

فتعجبت من هذا الرجل وقلت فى نفسى ما دخله وماذا يهمه إن كانت الأوراق كثيرة أو قليلة، وماذا كان يقول لو جاء قبل عدة أشهر ووجد الأوراق التى أعدمتها إحراقاً والتى أخرجتها من الإدارة وأخفيتها ...

تفتيش الدار

وبعد أن عاث الضابط فى الإدارة طلب أن أسير معه إلى الدار ليفتشها أيضاً ، فركبت معه فى سيارة كان قد أحضرها معه من إدارة البوليس ، وركب معنا بعض أعوانه وقبل أن تتحرك السيارة التفت إلى ضابط « قسم الموسكى » الذى كان يصاحبه وأشار إليه بعظمة وغطرسة أن يأخذ كيس الأوراق والأضابير إلى إدارة البوليس العامة، ثم انطلقت بنا السيارة البوليسية إلى الدار فدخلها الضابط المقدام كالفاتح المنتصر ، وكانت زوجى ترضع طفلتنا «جهاد» وعمرها ستة أشهر فانزعجت الأم من دخول الشرطة إلى الدار على تلك الصورة البشعة وكانت هذه الحادثة سبباً فى جفاف لبنها ومرض تلك الطفلة ثم وفاتها بعد ذلك .

وأخذ الضابط يفتش الدار ، ولكن عن ماذا ؟ لا أدرى ، ولكنه كان ينتقل من غرفة إلى غرفة ويفتح الدواليب والأدراج الخاصة بالحريم ويبحثها بفضول يدعو إلى الاشمئزاز من مهنته الكريهة ، ثم أخذ يبحث تحت الفراش ، وفى خلال ذلك كان ينثر الثياب على الأرض ويلقى بالأوراق يميناً وشمالا . فأحسست من حركات هذا الضابط أنه لايقوم بوظيفته بل إنه يتعمد الإضرار والتكدير والتنكيل. ولم يكتف بذلك بل مد يده إلى جيوبى بكل تطفل وأخذ ما فيها من الأوراق والمفكرة الخاصة .. إن هـذا الضابط لم يكن اسمه غريباً عنى فأنا أعرف أنه من أخلص أعوان الإنكليز ومن مشاهير ضباط قسم التحرى بإدارة الشرطة ، وله وقائع وحوادث مشهورة مع المتهمين فى القضايا السياسية القديمة، كما أن مواقفه مع أبناء جيلنا الحاضر يرويها الناس ويتحدثون عنها بمرارة وفزع ، ولولا أساليبه هذه مع مواطنيه لما رضى عنه الإنكليز فأوصلوه إلى الدرجة التى وصل إليها، ولكن لماذا يستعمل هذا الضابط معنا الأساليب المزعجة فى التفتيش كمن له ثأر معنا فى حين أنه لايوجد بيننا ما يدعو إلى ذلك ، فنحن لا نعرفه ولا يعرفنا . غير أننى أسمع عن ماضيه بدون أن يعرف أننى أعرف ذلك الماضى ... ولكن لماذا كان يفتش بهذه الدقة وما هو الشىء الذى كان يريده ؟ أنا لا علاقة لى بدولة أجنبية أياً كانت فهل هناك تلفيقات ضدى ؟ وما هى وكيف لفقوها ؟ وهل التلفيق هين بهذا المقدار ؟

إلى مكان مجهول

لا، لا، أنا واثق من نفسي ولا يوجد قوة فى الدنيا تجعل من اللاشيء شيئاً، ولا يستطيع محقق أن ينسب إلىّ تهمة، لأنه لا يوجد شيء أخشى ظهوره أو إظهاره، ولكن الضابط الهمام لم يكتف بما كان منه، بل أخذ بعض الأوراق العائلية ثم طلب أن أرافقه، فنزلت من الدار وركبت معه السيارة بين اثنين من أعوانه ففهمت من ذلك أن المسألة أكثر من تفتيش، فقلت له: إلى أين؟ فقال إلى جهة بعيدة. فقلت له مادامت الجهة بعيدة فلماذا كتمت ذلك عنى فدعني آخذ بعض اللوازم معى فوافق، فلولا اعتراضى إذن لباغتنى بالإيداع فى السجن مباغتة. فقلت فى نفسى لماذا يسلك هذا الضابط معنا هذا الأسلوب اللئيم بدون أن يصدر منى شيء يكدره أو يكدر أصحابه الإنكليز؟. هذا وقد رجعت إلى المنزل والقوة البوليسية معى فأخذت حقيبة صغيرة وبعض الملابس، وودعت زوجى والطفلة الرضيعة وهمست لزوجى بأنى لا أدرى إلى أين يريدون أخذى، فإن لم أرجع الليلة فعليها أن تخبر فى الصباح الباكر أصدقائى وخصوصاً تحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض (١) والأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة والدكتور مصطفى بك بشناق المجاهد الفلسطينى والدكتور يعقوب خورى، وهو شاب شهم ورد ذكره فيما تقدم وسيرد ذكره فى هذا الكتاب مراراً. وأقبلت زوجى تسأل الضابط إلى أين تريدون أخذه؟ فقال: لا أدرى. وكان كاذباً فى قوله هذا...

المرحوم تحسين بك العسكرى

(١) هو المرحوم تحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض فى مصر. ثم لحق بربه بعد هذه الحوادث بسبع سنين. وكان رحمه الله من خيرة رجال العراق ومن مشاهير المجاهدين الوطنيين. فقد تطوع للحرب ضد الطليان سنة ١٩١١ واشترك فى حرب البلقان سنة ١٩١٢ والحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ وكان زميلا لأحمد حلمى باشا «الزعيم الفلسطينى الذى أصبح بعد ذلك رئيساً لحكومة فلسطين. حين كان الباشا فى الحرب =

إلى السجن

ودرجت سيارة البوليس بنا بدون أن يدور بيني وبين الضابط أي حديث أو كلام ، أما أنا فتصورت الإبعاد إلى مالطة أو إحدى جزر سيشل ، ولكنني استبعدت ذلك ورجحت أن هناك تهمة وتحقيقات وأن المحقق سيسألني ثم لايلبث أن يطلقني فورا .... وهنا قطع الضابط حبل السكون وقال للسائق « انطلق بنا إلى سجن الأجانب بدلا من سجن التخشيبة » ...

هنا فقط فهمت صراحة أنني ذاهب إلى السجن وانه سجن الأجانب بالذات فكدت أشكر الضابط على هذه العناية .... وكيف لا يستحق الشكر وأنا أعرف وصف سجن التخشيبة الهائل من أفواه الذين ذاقوا العذاب فيه ونشروا أخباره في الصحف(١) ولكن المولى ألهمني عدم شكر هذا الضابط ، والحمد لله ، وسيعرف القارئ سبب ذلك كما سيجيء .

وصف دخول السجن

دخلنا مكتب مدير السجن وكان الوقت يقرب من العاشرة مساء وقد لحظت من كلام الموظفين أن إدارة السجن كانت على علم بمجيئي بدليل قول أحد السجانين لزميله ان الغرفة رقم ١٣ مستعدة ... وهو رقم مشئوم كما لا يخفى .

= الأولى مديراً لفرق العشائر المتطوعة » فأبدى تحسين بك بسالة شهد له بها الأعداء ، واشترك في معركة « كوت الأمارة » بالعراق التي أسفرت عن أسر الجنرال تونشند القائد العام للجيوش البريطانية وأسر جيوشه وأركان حربه، وتولى بعد ذلك مناصب عديدة بعد استقلال العراق منها منصب الوزير المفوض في مصر فوزارة الداخلية العراقية ، ثم عاد إلى مصر وزيراً مفوضاً مرة أخرى . وكان رحمه الله شهما نبيلا ووطنياً قومياً من الطراز الأول، وكان رقيق القلب عالي الهمة لا يرد صاحب حاجة ، لدرجة أنه عفا عن أحد قتلة شقيقه المرحوم جعفر باشا العسكري وزير حربية العراق بمجرد أن كتب إليه القاتل يطلب منه الصفح .

ومناقب تحسين بك كثيرة وأعماله أكثر وفضائله عامة شملت جميع الناس إذ كان يغيثهم بماله وبنفوذه الشخصي وجاهه الرسمي . وفي سبتمبر سنة ١٩٤٧ مات بغتة ودفن بالقاهرة باحتفالات رسمية أمر بها جلالة الملك فاروق المعظم أبقاه الله . وكان لفقد تحسين بك في العالم العربي حزن عميق تردد صداه في جميع الأقطار، رحمه الله وجعله مع الصديقين والشهداء .

(١) سجن التخشيبة عبارة عن بدروم تحت الأرض فظيع قاتل لاندري لماذا يظل إلى الآن محبسا للبشر وهو لا يصلح لإيواء الحيوانات ... والغريب أنهم لا يحبسون فيه إلا الأبرياء قبل التحقيق معهم! أما الأغرب من ذلك فهو أن كل حزب سياسي في مصر يشكو منه ويطلب إزالته ، ولكن هذا الحزب عند ما يتولى الحكم ينسى إزالته ليعذب فيه خصومه هو ! ثم يعود الحزب الذي يفقد الحكم إلى الشكوى من فظاعة ذاك السجن ، ولكن بعد خروجه من الحكم طبعاً ...

وكانت العادة أن الموظف يسأل السجين الجديد عن اسمه ولقبه وعمره وعنوانه الخ ... ولكن الموظف لم يسألني بل تناول ورقة من الضابط وبسطها أمامه وأخذ ينقل عنها ويدون نصها في السجل ، فقرأت ما يأتي :

حضرة مأمور سجن الأجانب :

المرجو حجز محمد على الطاهر حتى صدور أوامر أخرى ...

عن حكمدار بوليس مصر : الأميرالاى سليم زكى

وكان لدى موظف السجن إشارة تليفونية في هذا المعنى . هذا هو المستند الوحيد الرسمى الذى رأيته من أول حادثتى حتى آخرها . ولكن أمر القبض لا يوجد فيه أى نص يخول الضابط تفتيش مكتبي وداري والعبث فيهما وإزعاجها ، وليس في هذا الأمر البوليسى العرفى ما يعطى الضابط حق أخذ الأوراق الخاصة التى ضبطها ، ولا أن يمد يده إلى جيوبى ويتناول منها أوراق الشخصية ومفكرتى .. إذن فهذا الضابط قد أساء التصرف وتعمد أن يتجاوز حدود وظيفته وتطوع للإيذاء بلا سبب . ثم ما هى الأوراق التى أخذها ؟ إنها كثيرة جداً ولم يضع بياناً بها فمن يدرى والحالة هذه انه سيدس بينها « أوراقاً مؤذية » تجلب لى التعب؟ ولكن هذا بعيد الاحتمال ، لأنى لا أسأل عن حيازة أوراق بل أنا مسئول عما تخطه يدى ، ولايوجد في الأوراق التى أخذها ما أخشى منه ، فرجحت أن الضابط يريد من أخذ الأوراق إشباع فضول مهنته المقوتة بالاطلاع على أسرار الناس ، وقد تقع في يده ورقة تؤذيني وتكون سببا في ترقيته ....

ثم لماذا كان يتظاهر بأنه يتفضل علينا بالإعفاء من سجن التخشيبة بينما الأمر الذى يحمله كان صريحاً ، فهو موجه لسجن الأجانب وفي هذه الحالة لا يمكنه وضعى في سجن التخشيبة ولايستطيع سجن التخشيبة قبولى؟ لم يبق شك عندى الآن فى أن حركات هذا الضابط وتصرفاته معنا من الأول إلى الآخر كانت شاذة وفيها سوء نية ، ولكن لماذا كل هذا ؟.

وقد حضر حادث القبض ودخولى السجن أحد أفراد بوليس الجواسيس وكان يعرفنى فأخذ يتلوى أسفاً ويضرب كفيه حزنا وتوجعاً، ثم أراد أن يظهرلى شيئا من إحساسه الطيب

فقال إنه سيخبر أهل بيتى بوجودى فى هذا السجن [١]، وإذا بالضابط ينظر إليه شزراً ويأمره بألا يفعل وقد زاد هذا التصرف من الضابط فى سوء الظن به، ولم يعد عندى شك بأنه رجل يتعمد التنكيل، ولكن لماذا؟.

ولنرجع إلى موظفى السجن، فإنهم بعد أن سجلوا الاسم أخذوا كل ما كان فى جيوبى، كالساعة وعلبة السجاير ثم نزعوا أزرار قميصى ورباط الرقبة وبعد ذلك فكوا رباط الحذاء، فاعترضت على هذه التصرفات فقالوا ولكنه القانون. فقلت ما للقانون ولرباط الحذاء ورباط الرقبة؟ فهمس أحدهم فى أذنى قائلا: إن الحكومة تخشى أن يشنق السجين نفسه بهذه الأشياء! فضحكت برغم كونى فى موقف يدعو إلى الكدر والكمد، ثم سألتهم: ولكن لماذا أخذتم أزرار القميص؟ فقالوا: حتى لا تبلعها طلبا للانتحار! فلم يسعنى إلا أن أشكرهم على هذا الحرص الشديد على سلامتى وحياتى ...

وكان معي فى أحد الجيوب الداخلية ١٣١ جنيها فسلمتها إلى الموظف ليسجلها فى دفاتره ففعل، وبعد ذلك قالوا: تفضل . . . وفتحوا أبواباً حديدية ضخمة ذات أقفال ومزاليج فمشيت معهم فى فناء ضيق فأدخلونى غرفة صغيرة جداً ثم أغلقوا الأبواب ـ فلما وجدت نفسى وحيداً وقد حيل بينى وبين الدنيا تلمست وأنا فى ذلك الظلام ما فى الغرفة فإذا هو سرير صغير عليه فرشة وبطانية ومخدة وكرسياً من الحديد، فجلست أفكر وكان أول شئ قلته لنفسى: « الآن أصبحت منكوبا مثل إخوانى وأقاربى أهل فلسطين الذين نكبوا جميعاً ولم يبق من « المنسوبين » لفلسطين أحد بقى بدون حبس إلا أنا، فأستطيع الآن أن أرفع رأسى أمامهم شامخاً، ثم رجعت إلى « الزنزانة الموحشة » وأنا أعزى نفسى ببيتين للأستاذ معروف

(١) كان يزورنى عند إعادة النظر فى بعض مواد هذا الكتاب السيد محمد محي الدين القليبى أحد أعيان تونس ومجاهديها المعروفين فأسمعته هذه الفقرة فضحك وقص على حكاية مثل هذه بالضبط وقال إن أحد الجواسيس التونسيين كان ذات مرة حاضراً إحدى حوادث القبض عليه هو فكان الجاسوس يظهر التوجع والتألم ويضرب كفاً على كف ويقول لاحول ولا! فالجواسيس إذن هم هم فى كل بلد نكب بالاستعمار، نفسية واحدة وسجية واحدة، وغريزة واحدة ...

الرصافي شاعر العراق « رحمه الله » وهما من قصيدة نظمها بمناسبة حبس المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش الزعيم المصري سنة ١٩١٢ قال :

إن يسجنوك فإن ذكرك مطلق ... يجني الثناء ويقطف التقديسا
أو يوحشوك بقصر سجنك مفرداً ... فالحق عندك قد أقام أنيسا

هـذا هو السجن ، وقد أشير بعلامة × تحت نافذة الزنزانة التي كنت فيها

الليلة الأولى فى السجن

كانت تلك الليلة أليمة شاقة على نفسى ، وهكذا كل مكروه يبدو كبيراً ثم يتضاءل مع الأيام بعكس كل شئ آخر . فالإنسان والحيوان والشجر والنبات وكل مافى الوجود يولد صغيراً ثم يكبر إلا المصائب فإنها تبدو عظيمة ثم تتضاءل وتتلاشى بفعل الزمن .

كان كل شئ يزعجنى فى تلك الليلة ، البيئة والحالة والانفراد والظلام وعدم وجود أسباب الراحة وغير ذلك ، لقد كان كل شئ يؤلمنى وينغصنى ويسل النوم من جفونى .

تفكير واستعراض

لماذا حبسونى وما هى التهمة التى ستوجه إلى ، وكيف يكون الاتهام والتحقيق والدفاع ، ولكن ماذا يستدعى الاتهام والتحقيق ؟ فأنا لم أصنع شيئاً ، وإنى لمتأكد من بعدى عن كل مظنة . ثم تلاحقت الأفكار والخواطر وتتابعت الظنون ...

لم أنم فى تلك الليلة ، وكيف أنام وأنا داخل إلى السجن منذ ساعات ، مفارقا أهلى وبيتى وصحبى ومكتبى . . . ثم رجعت إلى التفكير واستعراض جميع حوادثى وحركاتى من أول الحرب إلى الآن ، فياترى هل كانت تهنئتى لعلى ماهر باشا ذنباً ؟ ولكن رئيس الوزارة الجديد نفسه ذهب إليه ليأخذ بخاطره ، ثم تذكرت مقابلتى لحسن صبرى باشا رئيس الوزراء منذ أسبوع وكيف أننى فارقته على موعد فكيف يكرمنى ثم يحبسنى ؟ لايجوز حبس أحد فى هذه الحرب إلا بأمر رئيس الوزراء الذى هو الحاكم العسكرى العام ، بعكس الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ إذ كان القائد العام للجيش البريطانى هو الحاكم العسكرى العام الذى يحبس الناس بموجب أمر يصدره بدون أن يضطر إلى ذكر السبب ، فكيف يعقل أن هذا الوزير الطيب الذى يحترمنى ويرانى أهلا لمناقشته ومحادثته فى شئون فلسطين يكرمنى ويعين لى موعد لقاء ثم يحبسنى ؟ لا لا . ليس هذا هو السبب ، ثم رجحت أننى حبست بدون علم حسن صبرى باشا ، ولكن من هو الذى يملك حق حبس العباد غيره وهو رئيس الوزراء ، كما أنه يوجد أمر رسمى من على ماهر باشا الحاكم العسكرى العام السابق بأن لا تحبس إدارة الأمن أحداً إلا بأمر الحاكم العسكرى . فكيف

حبسونى ؟ وأخيراً قلت فى نفسى : لاشك بأن هناك سوء تصرف من إدارة البوليس العامة لايلبث غداً أن ينجلى أمره .

احتمالات ذات شجون ووقائع

وبعد ذلك أخذت أحاكم نفسى على أمور قمت بها خلال ذلك العام فتناولتها واحدة واحدة وهأنذا أسردها بحسب ورودها على خاطرى لابحسب تواريخها :

أولا الحديث عن المحور مع وزير الأوقاف : لما جاء تحسين العسكرى بك ليتقلد منصب الوزير المفوض للعراق قمت معه بزيارة شخصية لوزير الأوقاف الشيخ مصطفى باشا عبد الرازق فى داره، وهو الذى أصبح بعد ذلك شيخاً للأزهر ، وكان صديق وكنت صديقه منذ عشرين عاما ، وكان الزيارة ودية لا رسمية ، وبقصد التعارف الشخصى مع تحسين. وقد تحدثنا نحن الثلاثة حديثا عاماً تطرقنا فيه إلى السياسة العامة فسألته لماذا يطلب زميلاك محمود فهمى النقراشى باشا وأحمد ماهر باشا إعلان الحرب على ألمانيا فهل أخذا من الإنكليز مواثيق تضمن حقوق مصر ؟ ثم ما الذى يمنع أن تأخذوا عهدا من المحور بصفة سرية يضمن حقوقنا إن انتصر الألمان وبذلك نحتاط لصلحة البلاد من الناحيتين ؟. قلت هذا للشيخ مصطفى عرضاً وبدون قصد مرسوم ، فإذا به ينتفض ذعراً ، ثم غير الحديث متلفتاً يميناً وشمالا مع أنه ما كان يوجد فى الغرفة سوانا نحن الثلاثة !

ثانياً ــ هل شعروا بإخفاء أحمد حسين ــ ألا يجوز أن الحكومة البريطانية أحست بأنى أخفيت الأستاذ أحمد عندى فاعتبرت ذلك عملا عدائيا فطلبت القبض علىّ وحبسى ؟ ولكن كيف يجوز للوزارة أن تجيب مثل هذا الطلب بلا تحقيق ولا تثبت ، ومن أين للإنكليز أن يدروا باختفاء أحمد عندى ؟ .

ثالثا ــ السنوسى والإنكليز : اجتمعت مرة بأحد كبار السنوسين السيد محي الدين نجل المجاهد الكبير السيد أحمد الشريف السنوسى رحمه الله . فقلت له بلغنى أن قريبك السيد محمد إدريس السنوسى يريد أن يخطب فى الراديو فى مصلحة الإنكليز ضد الألمان ، فقل له أن لا يتورط فى مدح الإنكليز إلا إذا كان قد أخذ وثيقة أو عهداً بالاعتراف باستقلال

طرابلس وبرقة، لأنى أخشى أن يتنكر لكم الإنكليز كعادتهم فى النكث بوعودهم ، بل أنهم يتنكرون للمعاهدات الدولية الصحيحة فكيف لا يتنكرون للسنوسيين[١] وقد تنكروا قبل ذلك للملك حسين بن على، بل بلغ بهم الجحود أنهم قبضوا عليه ونفوه إلى جزيرة قبرص كأنه أحد رعاياهم المارقين ! فياترى هل درى الإنكليز بحديثى لابن السنوسى الكبير ووصيتى التى رجوته أن يوصلها للسيد إدريس ؟

رابعاً — حديث عن برقة وطرابلس : اجتمعت بعد ذلك فى جلسة خاصة هامة مع الشيخ محمد الأخضر العيساوى أحد فضلاء الطرابلسيين فى مصر وهو صديق حميم للسيد محمد إدريس السنوسى ، وكان هذا الاجتماع بحضور الزعيم اليمانى الشيخ أحمد محمد نعمان وكان اجتماعنا فى غرفته بالرواق العباسى وكان حديثنا يدور حول غلطة السيد إدريس السنوسى وقيامه بالدعاية للإنكليز ولم يكن هناك أحد فى تلك الجلسة سوى أحد الطلبة اليمانيين المرافقين للسيد نعمان لخدمته وعمل الشاى والقهوة ، فعاتبت السيد محمد الأخضر على سكوته للسيد إدريس السنوسى وتصرفاته وقيامه بالدعاية للانكليز بدون أن يفكر بأنه يخدع بذلك المسلمين والعرب وهو مخدوع . فقال الشيخ الأخضر: إن السنوسى معذور وأهل طرابلس وبرقة كذلك، لأن الطليان خربوا البلاد وأبادوا العباد ، فهم فى منجاة من اللوم إن استعانوا بالأبالسة لتخليصهم من الطليان[٢] .

---

(١) لقد تنكروا للسنوسى بعد أن انتصروا بل تجاهلوه تماما وما عادوا يحفلون به فصار مثلنا يطرق الأبواب السياسية ويلتمس من الصحف نشر احتجاج أو إذاعة مظلمة ، بعد أن كان الإنكليز فى أيام الحرب يتبركون به ويلقبونه بالأمير ويستشهدون به ويستمدون منه العطف ، والغريب أنه قام بالدعاية لهم والتجنيد معهم بلا قيد ولا شرط بل اعتماداً منه على شرفهم ! بل بلغ به الحال أنه كان يذهب إلى معتقلات الأسرى الطرابلسيين ويقنعهم بالتطوع لمحاربة الطليان . فأخذ الطليان ينتقمون فى طرابلس من أهالى هؤلاء الأسرى

ملحق : عند إعادة النظر فى هذه المفكرات بعد عشر سنين وعند الشروع فى طبعها سنة ١٩٥١ كانت الدنيا قد تطورت ووقع خلاف بين الإنكليز والطليان وفرنسا وأميركا على تقسيم ليبيا، وتحركت الأطماع فلم يجدوا وسيلة للتخلص من طمع بعضهم بأخذ الغنيمة دون الآخرين إلا جعل ليبيا مملكة تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة وتحت حكم السنوسى ، فلولا كيد بعض هذه الدول لبعضها الآخر لكانت ليبيا نهباً مقسما بين دول الاستعمار ومع ذلك فإن ليبيا ، أى طرابلس وبرقة وفزان لا تزال غير فالتة من الاستعمار حتى الآن .

(٢) ولكن الإنكليز كانوا أبلس من الأبالسة لأنهم لما تنسموا ريح النصر أخذهم الشره الاستعمارى =

فقلت له إن عدد سكان البلدين لا يكاد يبلغ مليون نسمة بينما يبلغ عدد المسلمين الذين تذلهم انجترا وهولندا وفرنسا نحو ٣٠٠ مليون فإن انتصرت انجترا فلن تترككم ، وإن تركتكم وهذا مستحيل فهى تستعبد مئات الملايين إلى الأبد، وإن انكسرت انجترا أفلت العالم من الاستعمار وخلصكم من الطليان ، بل نفرض أن إيطاليا ستبقى عندكم فهل من العدل أن يموت العالم كله من أجلكم أنتم فى حين أن عددكم لا يبلغ عدد المواليد فى دنيا المسلمين بضعة أشهر ! ضربت هذا المثل لا لكونى أفرط بحياة طرابلسى واحد، ولكن لأبرهن لمحدثى على أن صاحبه السيد إدريس السنوسى قد ركب شططاً وتورط وسيورط أهل بلاده ، وإن راح الطليان عنها حل الإنكليز محلهم [1] فالسنوسى إذن كان متسرعاً فى ركضه وراء الإنكليز بلا قيد ولا عهد ولا وثيقة يلوح بها أمام الناس على الأقل، كما كان الملك حسين يلوح بمعاهداته معهم برغم أن تلويح الحسين رحمه الله لم يجده إلا ضياع الملك والوطن والنفى إلى قبرص ...

= فأعلنوا أنهم «لن يسمحوا بعودة برقة وطرابلس لحكم الطليان» فطرب بعض المخدوعين من الطرابلسيين والبرقاويين لهذا الإعلان ولم يفطنوا إلى أن معناه أخذ بريطانيا لذينك القطرين لنفسها وليس معناه إرجاعهما إلى الأهالى !

وقد حدث فى سنة ١٩٤٨ أن سمح الإنكليز للسيد إدريس السنوسى تحت ضغط الحوادث بالذهاب إلى بنغازى للاستعانة بنفوذه الدينى على تسكين الأحوال فيها ، وإنى أرجو أن لا تكون النتيجة إقامة إمارة سنوسية روحية تحت سلطة السنوسى يقيم الإنكليز خلفها سلطة بريطانية فعلية ويجعلون من برقة مملكة خيالية للعرب، ومركزاً عسكرياً لاستعمارهم كما هى الحالة فى شرق الأردن .

(١) لقد صح هذا كله مع الأسف بعد أن أعطى الإنكليز للسنوسى وعداً بأن لا تعود بلاده للطليان . ولم يقولوا إنها تعود لأهلها ، لأنهم ينوون أخذها لأنفسهم ، وها هم الإنكليز اليوم يحتلون طرابلس وبرقة وقد جعلوهما مستعمرتين تحكمان بالأسلوب العسكرى البريطانى وتركوا فرنسا تحتل منطقة فزان، وهم يستعينون فى حكمهما باليهود وبالإيطاليين المتوطنين، فصار الأهالى الذين كانوا يشكون من حكم الطليان وحدهم، يذوقون العذاب على أيدى الإنكليز واليهود والطليان أيضاً .

ملحوظة : قرأت فى الصحف فى سنة ١٩٤٨ أن الإنكليز يفاوضون عدوتهم إيطاليا فى إعطائها قطعة من طرابلس ، ويفاوضون الفرنسيين لإعطائهم قطعة بجوار تونس ومنطقة فزان، وبقية البلاد تظل تحت حكم انجلترا نفسها . يعنى أن كل بلاد عربية يجب أن تبقى تحت حكم الاستعمار وأن تعطى للشيطان ماعدا أهلها العرب ...

لقد تذكرت هذا الاجتماع وقلت فى نفسى هل بلغ الإنكليز خبرُ هذا الحديث ؟ وكيف كان ذلك ؟ إن الشيخ الأخضر ونعمان لا يتكلمان ، فهل تكلم ذلك الطالب اليمانى الذى كان يصنع لنا الشاى عند نعمان؟ .

خامسا — اعتقال أخى فى فلسطين ـ كان الإنكليز بفلسطين قبل القبض علىّ قداعتقلوا شقيق نظمى الطاهر ونفوه من يافا إلى سجن المزرعة قرب عكا ، فكتبت إلى المندوب السامى البريطانى بالقدس أقول له إن بريطانيا بدلا من أن تفرج عن المعتقلين العرب تطييباً لخاطرهم فى زمن الحرب نراها لا تزال تعتقل الناس وآخرهم شقيقى الذى لا دخل له فى السياسة فكيف نصدق ادعاء الحلفاء صداقة العرب ؟ فجاوبنى المندوب السامى بكتاب لطيف قال فيه إنه أمر بإطلاق شقيق ، فياترى هل نبهت هذه المراسلة إدارة الاستخبارات إلىّ أنا وأشارت بحبسى؟

سادسا — إيليا سليم عطيه ـ كان هذا الرجل جاسوسا انجليزيا فى الحرب العظمى الأولى فى سنة ١٩١٤ فى مصر والأردن والحجاز وقبل ذلك فى السودان ؛ وفى سنة ١٩٢٦ كان عطية موظفا فى عمان فتطوع بتحصيل اشتراكات لجريدتى الشورى فقبض مبلغا ليوصله إلى ولكنه أكله ، ففضحت فعلته ونشرتها بكتاب نظرات الشورى سنة ١٩٣٢ فحقد علىّ . ثم دارت الأيام ورجع إيليا سليم عطية لمصر واشتغل فى الحرب العظمى الثانية جاسوسا مرة أخرى ، وإذا بالظروف تجمعنى به عند أحد المعارف فتشاءمت من نظرته وتذكرت خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما صدقت أن انصرفت على ألا أعود إلى ذلك المكان . فلما أخذت أفكر وأنا فى السجن لماذا حبسونى قلت فى نفسى : ألا يجوز أن إيليا عطية كتب تقريراً ضدى ذكر فيه الإنكليز بعداوتى لهم وأنه يخشى أن أعمل ضدهم وانى من زبائن معتقلاتهم القديمة ، فكان تقريره حافزاً للانكليز على القبض علىّ الآن ؟ .

أول صباح فى السجن

بقيت أفكر فى الاحتمالات التى استوجبت حبسى إلى قرب الفجر ، وأخيراً نمت قبل طلوع الشمس ، ولما بدأت أنام فعلا سمعت الباب يفتح والسجان يدخل ويقول هيا فلا نوم بعد هذه الساعة . فجلست أفحص الغرفة التى أنا فيها فإذا هى ضيقة ورائحتها الكريهة تفوح ،

وبعد قليل سمح لنا بالخروج لقضاء الحاجة، ثم أعادونى إلى الغرفة ودخل سجان آخر فترك لى رغيفا وبيضة و كوباً حديدياً يحتوى على سائل أسود وقال إنه شاى، فتركت للسجان كل ما جاء، بهلأنى كنت فى حالة اشمئزاز وسخط فأخذ الطعام وانصرف كمن اعتاد هذا الحرد من السجناء الجدد ... أما أنا فقد جلست أعاود التفكير وقد اشتقت للتدخين الذى منعوه عنى من الأمس، فسألت عن سبب منعى من التدخين وأنا لست سجيناً مجرما ولم يحكم علىّ ، فقالوا يمكنك أن تدخن فى خارج الغرفة كل أربع ساعات سيجارة واحدة وذلك عندما تخرج «للطابور» فسألت ما هو الطابور ؟ فقالوا سيسمح لك بالخروج من الغرفة عشر دقائق لقضاء الحاجة والمشى وهو الذى يسمى «الطابور» وفى أثناء ذلك تعطى لك سيجارة من مال الأمانات الموجودة باسمك عند المدير. فقبلت هذا الشرط وخرجت من الغرفة وأخذت أتمشى أمامها وأدخن بلهفة ، وقد لحظت أن جميع أبواب غرف السجناء مغلقة وساحة السجن خالية . فظللت وحيداً لا أكلم أحداً ولا يكلمنى أحد ، بل كان السجانون أنفسهم لا يجاوبون على سؤال إلا خلسة مخافة أن يراهم أحد ....وبعد انقضاء الدقائق العشر أعادونى إلى القبر وأغلقوا الباب وسمعت قرقعة المزاليج وهى توضع خلفه، وقبل أن أجلس سمعت الباب يفتح مرة أخرى ويدخل منه «خواجة» يلبس طربوشاً ويتكلم العربية فقال « نهارك سعيد » ففرحت وقلت نهارك سعيد ، ثم أجال نظرة بى فاحصاً وبعد ذلك قال وهو ينصرف « نهارك سعيد » وأغلق الباب ، ففهمت من حركة الرجل ومن تأدب السجان معه أنه مدير السجن ، فرجعت إلى مكانى أفكر وأسائل نفسى ثم ماذا ؟ وإلى متى ؟ ألا من تحقيق ؟ ألا من سؤال ؟ ثم كيف أستطيع أن أقضى يومى وأنا على هذه الحال ، لا كلام ولا كتاب ولا جريدة ولا أى شىء يخفف عنى ما أنا فيه، وأمامى ليل طويل موحش مظلم فكيف العمل ؟ وماذا جرى فى منزلى بعد القبض علىّ ؟ وهل عرفت زوجى أين أنا ؟ وكيف تعرف ، ولماذا كان الضابط محمد يوسف حريصا على أن يجهل زوجى إلى أين أخذونى ، وما هى فائدته من ذلك ؟ يارب لماذا كان هذا الرجل يعاملنا بهذه الأساليب العدوانية وليست له ناقة فى المسألة ولا دجاجة ، وكل ما كان عليه هو أن يؤدى مهمة عامل البريد الذى يحمل الرسائل إلى أصحابها وينصرف ؛ فهو قد كلف فقط بأن يمشى

معى من مكتبى ويسلمنى إلى السجن لاغير . فلماذا كان يسلك معنا ذلك المسلك العدائى ويوهمنا بحركاته وتصرفاته أنه يستطيع أن يحل ويربط ، ويدعى تارة أنه لايدرى إلى أين يكون مصيرى مع أنه كان يعرف ، ثم يتظاهر بأنه لا يعرف ، ويمثل دور صاحب السلطان الذى يستطيع أن يضعنى فى سجن التخشيبة ثم يتفضل بإعفائى منه ويمن على بوضعى فى هذا السجن؟ ثم قلت لنفسى لا شك فى أنه ما كان مكلفا بما صنعه معنا من غلظة مكبوتة فى نفسه، وأنه لاحق له أيضا فى تفتيش إدارة الشورى والمنزل وإرهاب قرينتى؛ لأن كل الذى كان مكلفاً به هو أن يسير معى من المكتب إلى السجن ، وهذا صحيح ، لأنى اطلعت على الأمر الذى تلقاه من رئيسه فلم أجد فيه نصاً على إجراء تفتيش ولا أخذ أوراق ولا مد يد إلى جيوبى، فلماذا لم أمنعه من أول الأمر، وكان من حقى أن أسأله عن الأوامر التى تخوله أن يقتحم المكتب والدار وأن يعبث بالأضابير والأثاث وأن يصنع مايشاء، وقد كان عليه أن يضع بيانا بالأوراق التى أخذها وأن أمضى معه على البيان ثم توضع تلك الأوراق فى حرز يصير ختمه بحضورى، وإلا منعته ، وله عند ذلك أن يستعمل القوة على مسئوليته وهو لن يجرأ على ذلك .

بقيت على هذه الحالة إلى الظهر وقد أخذ الجوع منى مأخذه فإذا بالسجان يدخل ومعه آنية فيها طعام فتأملته فإذا هو مما تعافه الكلاب ، فاكتفيت بقطعة من الخبز وتركت الباقى للسجان الذى فرح به وانطلق لشأنه قائلا ـ أتريد أن آتيك بكتاب تقرأ فيه ؟ فكدت أطير فرحا وقلت أممكن هذا ؟ فقال إن بعض المحبوسين يسمح لهم بإحضار روايات وقصص فكانوا عند خروجهم يتركونها لتسلية من يخلفهم ، فقلت له هات ولك الشكر . وبعد قليل رجع ومعه رواية « بول وفرجينى » من تأليف الكاتب الفرنساوى برناردين دى سان بيير[1] فتناولتها وأخذت أطالعها بلهفة شديدة وهى رواية من القصص الرفيع الأنيق، وقد نقلها إلى العربية المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى قبل ثلاثين سنة ، ولكنى لم أطلع على هذه الترجمة ، وأما التى جاء بها السجان فهى مترجمة بقلم الأستاذ عمر عبد العزيز أمين .

(١) هو من مشاهير أدباء فرنسا فى القرن السابع عشر ولد سنة ١٧٣٧ ومات سنة ١٨١٤ وكانت له قدرة عجيبة على تصوير الوقائع والحوادث وإبراز خلجات النفس وصياغتها بأسلوب يجعل القارىء يشعر بها ويمتزج بإحساسها .

نماذج من أدب سان بيير

وصف الكاتب حالة بول صديق فرجيني وسرد محادثاته مع صديقه العجوز فأجرى سان بيير على لسانيهما الحديث الآتى : قال الحكيم العجوز :

« إن الأشياء التى نراها أمامنا كل يوم لا تشعرنا بمرور الزمن وبسرعة الحياة التى نحياها لأنها تتقدم معنا فى السن تقدماً غير محسوس . أما الأشياء التى نراها فجأة بعد أن تغيب عن أبصارنا بضعة أعوام فإنها هى وحدها التى تنذرنا بسرعة التيار فى نهر حياتنا . ولذلك يندهش الغريب النازح ويحزن حين يعود إلى وطنه بعد غياب طويل فلا يجد أصدقاءه ومعاصريه[1] » .

وقال العجوز فى مناسبة أخرى لما اقترح الشاب « بول » أن يذهب إلى فرنسا ويخدم الملك والوطن فنصحه الشيخ بأن لا يفعل ثم قال :

« كلا يا ولدى ، ومعاذ الله أن أخذلك واثبط عزيمتك ، ولكن ما ذكرته لك كان صحيحاً فيما مضى . أما الآن فقد تبدل الحال وأصبح كل شئ فى الدنيا يباع ويشترى .. وصارت جميع المرافق والخيرات وقفاً على عدد قليل من الأسر . ونهبا موزعا بين السادة والنبلاء وقد أصبح الملك فى فرنسا كالشمس ، والنبلاء والساسة من حوله كالسحب تحجب ضوءه عمن يحتاج إليه أو يستحقه .

« إن أكثر الأسماء العظيمة لم تصل إلينا إلا مشوهة ملطخة بالأوحال . وإذا كانت

(١) يظهر أن «سان بيير» لم يصادف نقطة ثالثة أشد ألماً على قلب النازح العائد إلى وطنه بعد جهاد وغربة قاسية ، حين يجد الزملاء الذين سبقوه فى العودة إلى الوطن قد اقتسموا خيراته ومناصبه وألقابه ، فلما رأوا صاحبهم القديم يعود خافوا على المغانم التى فى أيديهم فتنكروا له وأخذوا ينظرون إليه شزراً ... وهناك من يعود بعد عناء فى سبيل وطنه فيجد الدخيلين والخونة قد اقتطفوا ثمرة جهاده ، وأخذوا يكيدون له ويسعون للتخلص منه . وقد شهدت فى حياتى شيئاً كثيراً من هذا ، ومن ذلك ماجرى للدكتور أمين رويحة المجاهد السورى لما عاد من الغربة والنفى والسجون ، وسيأتى حديثه .

بعض الأسماء، قد عاشت على الأجيال حتى ترامت إلينا طاهرة لم تمزقها أنياب الحسد فما ذلك إلا لأن أصحابها عاشوا بمنأى عن مواطنيهم .. فهي كالتماثيل التي تنبش من أرض اليونان وإيطاليا كاملة لأن الأرض كفنتها فصانتها من غصب الغاصبين وعبث العابثين » .

ثم تكلم سان بيير عن الغني وأدب المستقبل فقال :

« إن الأغنياء لا يقيمون وزنا للأدباء .. ولكنهم يعطفون عليهم . لأنهم يعلمون أن الأدب لايجلب لصاحبه مجداً فى وطنه أو يعهد له منصبا فى الحكومة .. أو مكانة فى البلاط » .

« إن إحسان الأغنياء لايصيب إلا الذين يتملقونهم .. وإن لأكثر الأغنياء أقارب أحق بالمساعدة والرثاء ، أما المستقبل فنذا الذى تطيب له الحياة إذا عرف المستقبل . إن مجرد الظن بوقوع الشيء يملأنا هما وقلقا وإن التأكد من وقوعه يسمم حياتنا » .

هذا مثال مما قرأته لهذا الكاتب الملهم فقلت فى نفسي – إذن فمن الخير لى أن لا أفكر فى المستقبل لئلا أتصور ما هو أكثر من السجن الذى أنافيه فتتسمم حياتى ...

الفظائع فى فلسطين

ومر بذهنى استغفال الإنكليز للعالم العربى وكيف أنهم وهم يملأون البلاد العربية بنشراتهم وخطبهم فى برلمانهم عن محبتهم للعرب – قد شدوا الحيازيم وحملوا بجيوشهم على أهل فلسطين تقتيلا حتى فى أثناء انهزامهم فى معارك أوربا وفى خلال ادعائهم صداقة العرب ومحالفتهم ! وقد وقعت بيدى أسانيد عما صنعوا مع أهل بيت لحم المدينة المسيحية المقدسة فى فلسطين ، فقد حدث فى أواخر سنة ١٩٣٩ اعتداء من ركاب سيارة عسكرية بريطانية على الأهالى فاشتبكوا مع الإنكليز بمشاجرة أصيب فيها كونستبل بريطانى، فهاجم الجيش منازل مدينة بيت لحم بعد أن طوقها ومنع خروج الأهالى من دورهم مدة عشرة أيام فكادوا يموتون جوعاً وقد سجل ذلك ببلاغ رسمى نشر فى الصحف .

شرح موجز

إن الفظائع التى ارتكبها الجيش البريطانى فى هذه المدينة المقدسة لا يمكن الإحاطة بها ،

فقد اقتحم الجيش المدينة، ودهم الدور، وضرب السكان نساء ورجالاً وسرق الأموال وسلب حلى السيدات، ومزق الفُرُش والملابس، وحطم الأثاث والأوانى والأبواب والنوافذ والزجاج الخ ثم جاس الجيش خلال الأسواق تخلع أبواب الدكاكين ونهبها وحطم ما فيها وبعثره فى الشوارع ، وخلط الدقيق بالبترول والسكر بالزيت والتراب ، وأتلف كل شىء فى تلك المدينة ثم نسف نحو عشرين داراً للأبرياء الفقراء ، وختم فظائعه بسوق معظم رجال المدينة إلى السجون وجمع

مثال من نسف وتدمير الإنكليز لمساكن أهل فلسطين

ضباط إنكليز يأمرون بإطلاق المدافع على القرى الفلسطينية

ضباط المدفعية الإنكليز يسترحون بعد أن دمروا إحدى القرى الفلسطينية بالمدافع

غرامة نقدية بقوة الجنود وقسوتها وشدتها . نعم إنهم ارتكبوا هذه الفظائع والجرائم فى أيام الحرب حين كان جنودهم الجبناء يهربون من الألمان كالأرانب ، ولكنهم كانوا يستأسدون على العرب حلفاء بريطانيا ، فياويل العدو والصديق والحليف من بريطانيا ، وإننى أعتقد أنها إن انتصرت فى هذه الحرب لاسمح الله فإنها ستتفاهم مع الألمان والطليان واليابان وجميع الأعداء ، وتقصر غدرها ولؤمها على العرب وستبرح بهم كما صنعت معهم فى الحرب العظمى الأولى حين حالفوها فغدرت بهم ومزقت بلادهم .

ملحق : ـ لقد وقع القدر وانتصروا ، فأما الذى صنعوه مع الذين نصروهم وحالفوهم فقد أصبح معروفا ، وهو أشد وأنكى مما تصورت وخمنت ، وأما مع مصر فأبناء الجيل الماضى لم يقاسوا من الإنكليز ماتقاسيه نحن أبناء هذا الجيل منهم ، وقد زاد من الإنكليز هذه المرة من الغدر والمين مالخصه النائب عبد الفتاح بك سليمان عضو مجلس النواب المصرى سنة ١٩٥٠ بالكلمات الآتية :

« لقد سرقوا من مواردنا وأقواتنا ٤٠٠ مليون جنيه ، أخذوها اغتصابا فى خلال الحرب الماضية ثم أنكروا علينا حقنا فيها . . انهم لصوص يسرقون أموالنا ويجردوننا من الأداة التى ترفع مستوى الشعب ، ثم يتهموننا بأننا شعب منخفض المستوى جائع ، وهم أصل البلاء وعين الداء ، أنهم عملوا على إشاعة الفساد فى هذه البلاد . كانوا يحتضنون الرشوة والغش ، حتى تلطخت البلاد بالفساد ، وسادت الفوضى ، ولن يذهب الفساد إلا بزوال الاحتلال البريطانى » .

قالوا الحضارة والدنيا تكذبهم　　　والعدل ينكرهم والفضل والكرم
فلا الشرائع والأديان ترجعهم　　　إلى الصواب ولا الأخلاق والذمم

اليوم الثانى فى السجن

بعد أن فرغت من تلاوة قصة بول وفرجينى ومن تذكر فظائع الإنجليز رجعت إلى التفكير ، وقلت فى نفسى لماذا لا أكتب لرئيس الوزراء من هذا السجن لأنه إن درى بما وقع لى سيأمر بالإفراج عنى ، فأعجبنى هذا الخاطر وقد تذكرت شيئاً حدث منذ أيام وهو يساعد

على لفت نظر رئيس الوزراء إلىّ ، وقبل أن أطلع القارئ على نص ما كتبته للرئيس أحب أن أسرد ذلك الشيء الذى حدث منذ أيام ...

ماهر والنقراشى

قبل حادث القبض علىّ كان أحمد ماهر باشا ومحمود فهمى النقراشى باشا قد أحدثا شقاقا فى الحكومة بسبب تمسك الثانى بمنصب وزير الداخلية الذى أراد الرئيس أن يتقلده هو لتصحيح الموقف الحكومى لأن الحاكم العسكرى العام يجب أن يكون هو وزير الداخلية ليستقيم أساس الحكم . وإلا فكيف يمارس الحاكم العسكرى سلطاته إذا كانت الأمور الداخلية فى يد سواه ، فهل يكتب إلى وزير الداخلية ويستأذنه ؟ .

لذلك طلب حسن صبرى باشا من النقراشى أن يترك وزارة الداخلية ويأخذ بدلها أية وزارة يختارها فأبى ، وقد وقع جدل وخصام بسبب عناد النقراشى باشا الذى لا مبرر له إلا ضيق أفق التفكير فلم يسع رئيس الوزراء وهو مغتاظ من موقف النقراشى وأحمد ماهر وسعيهما المريب لحمل مصر على إعلان الحرب على الألمان إلا أن أقال النقراشى من الوزارة فتضامن معه أحمد ماهر باشا فأقاله أيضا ، وكتب إليهما كتابا تاريخيا كان آية فى البلاغة ، فقد طردهما فيه ووبخهما وشفى القلوب منهما وقد استحسنت الأمة كلها عمله ، وكنت أنا من جملة الذين كتبوا لرئيس الوزراء يهنئونه على خلاصه وتخليص البلاد من هذين الرجلين أعوان الإنكليز والصهيونية ... ولكنى لم أوقع ذلك الكتاب بإمضائى حتى لا يقع بيد الرقابة الإنكليزية أو بيد أحد الموظفين ولكنى اكتفيت بجعل الإمضاء « مصرى من فلسطين » وقلت فى نفسى — عندما أقابل الرئيس بعد أيام فى الميعاد المضروب بيننا سأفتح حديث ماهر والنقراشى وأقول له إننى صاحب تلك التهنئة...

وبعد ذلك ناديت السجان وطلبت منه أن يأتى بورقة وقلم وغلاف فبادر إلى ذلك : أما السبب فى إسراع السجان فذلك أن إدارات السجون مأمورة به إذ لا يخلو الأمر من كون السجين يريد الاعتراف بجريمة أو الإرشاد إلى مجرمين ، فظنونى أريد الاعتراف بشىء قلبوا طلبي كلمح البرق ! فكتبت إلى رئيس الوزراء أقص عليه ماصنعه معنا البوليس من تنكيل

وحبس وطلبت التحقيق معى إن كان هناك تهمة ثم أمضيت الكتاب هكذا « محمد على الطاهر ، مصرى من فلسطين » وقد أعجبنى هذا الإمضاء لأنى تصورت أن رئيس الوزراء سيتذكر كتاب التهنئة ويعرف أننى صاحبه وأننى فى السجن فيفطن إلى حيلتى ويأمر بالإفراج عنى ! ثم سلمت الكتاب إلى الجندى وسألته كيف يصنعون به فقال إنه يرسل رسمياً بواسطة مدير السجن . ولكنى عرفت مع الأيام أن ذلك الكتاب أخذه حمدى باشا محبوب مدير الأمن العام وألقاه فى سلة المهملات ...

أخبار جديدة سارة

قضيت اليوم الثانى كما قضيت اليوم الأول فى تفكير وقلق ومطالعة فى كتب الحواديث والقصص ، وفى اليوم الثالث طلبونى إلى مكتب مدير السجن فقلت فى نفسى هاهو الإفراج ! وأردت أن ألبس البدلة ولكن الجندى قال لاتلبس فليس هناك إلا مقابلة فى مكتب المدير . فذهبت إليه فإذا بزوجى فى المكتب فسلمت عليها وسلمت ، وعرفت منها أنها تعبت كثيراً حتى اهتدت إلى المكان الذى حبسونى فيه كما أنها تعبت فى أخذ الإذن بالزيارة ، ثم قصت علىّ القصة الآتية فقالت : بقينا فى الدار ننتظر إيابك أو أى خبر عنك حتى الصبح ، وعند ذلك أخبرت الأصدقاء بما وقع لك فتألم صديقك تحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض وتكدر من هذا الحادث ، ثم ركب إلى رياسة الوزراء فوراً وأخبر الرئيس بما جرى وقال له إن عندنا فى العراق خمسمائة من اللاجئين السياسيين لم تجسر بريطانيا على التعرض لهم ، فإن كان وجود الأستاذ الطاهر يضايقكم وتعتبرونه أجنبياً فنحن نقدم له جوازاً عراقياً ليسافر به إلى بغداد ولا لزوم لحبسه وتعذيبه هنا . فاستغرب رئيس الوزراء وقوع الحادث وأمر بسؤال مدير الأمن العام وبحث المسألة لمعرفة ما إذا كان الأمر مجرد حبس احتياطى بسبب حادث أو أن هناك قضية تستدعى القبض . سمعت هذه الأخبار السارة فهدأ بالى ورجوت إفراجاً قريباً ثم سألت قرينتى كيف اهتدت إلىّ فى هذا السجن . فقالت إنها والدكتور مصطفى بك بشناق والأستاذ أحمد حسين « رئيس مصر الفتاة » والدكتور يعقوب خورى ذهبوا فى سيارة الأخير إلى عدة سجون فلم يجدونى ، ثم جاؤا إلى سجن الأجانب فوجدونى

الدكتور مصطفى بك بشناق وقد وقفت إلى يساره

فيه وقيل لهم إن الزيارة تحتاج إلى إذن من إدارة البوليس العمومية فأعطوها الإذن وحدها فقط. فقلت ألم يحضر فلان من رجال البوليس لإخبارك عن مكانى فقالت كلا ففطنت إلى أن الضابط محمد يوسف منع ذلك الرجل من تأدية ذلك الجميل . فازداد تعجبي من تصرفاته التى لم اهتد إلى سببها ، ولـكنى قلت فى نفسى لولا هذه الشمائل ماقربه الإنكليز ولا اعتمدوا عليه ، والذى كان يزيد فى اشمئزازى من أعمال هذا الضابط أنى لحظت أدب مدير السجن معنا برغم كونه « خواجه » ويسمى المستر هكمان وهو مالطى الأصل مستعرب ومتزوج من لبنانية ويتكلم العربية البلدية جيداً ، فـكان لطيفاً رقيقاً . فقلت فى نفسى أما كان الأولى بالضابط المواطن أن يكون هو اللطيف المؤدب معنا ؟ وبعد حديث قصير مع قرينتى عن أمور الحياة وعلاقاتى التى انقطعت مع الناس بغتة دبرنا بعض المسائل على أن تزورنى فى جميع الأوقات التى يسمح للسجين فيها بتلقى الزيارات فقال مدير السجن إن الزيارة مسموحة كل ثلاثة أيام ففرحنا بهذا السماح ...

ولما انصرفت زوجى انحنى لها الرجل باحترام كـكل رجل مهذب فشكرته على ذلك وعدت إلى الزنزانة ثم طلبت ورقا وكتبت إلى إدارة البوليس العامة أحتج على سوء الطعام وعلى منع التدخين والصحف والـكتب وعلى « ظلام السجن » وفى المساء جاءنى المدير وقال إن الحـكومة سمحت لى بكل ماطلبت ، فرجوته أن يأتينى بعشر علب سجاير وبعض الـكبريت والصحف والفاكهة ففعل فـكان فرحى بذلك عظيما وفى المساء أضاءوا لى الغرفة فصرت أقرأ وأقرأ إلى أن أتعب .

ثم تذكرت شيئاً

نعم لقد خطر ببالي شيء في تلك الليلة أقض مضجعي وبت بسببه ساهراً قلقاً ـ وذلك أن الكتاب الذي أرسلته إلى رئيس الوزراء أهنئه بموقفه العظيم في طرد النقراشي باشا وصاحبه، صديق الحلفاء والصهيونية والماسونية[1] كانت مسودته في جيبي وقد أخذها الضابط محمد يوسف مع الأوراق الأخرى فلا شك في أنه سلمها للإنكليز وهذه المسودة وحدها كافية لأن تثير حنقهم عليّ، أليس فيها تجريح أعوانهم وتحية لرئيس الوزراء الذي فضحهم وطرد أعوانهم؟

وتذكرت أيضاً أنني قبل حبسي أردت أن أقاوم الدعاية الإنكليزية التي تصور الإنكليز أصدقاء للإسلام والعرب، ورأيت أن تكون طريقتي في المقاومة مبتكرة، فأخرجت عشرات آلاف من النسخ القديمة من جريدتي الشباب والعلم اللتين كنت أصدرهما قبل الحرب عن فظائع الإنكليز في فلسطين وفيها ما يهز القلوب ويثير النفوس وصرت أعطيها تدريجاً لبائع جرائد فقير ليبيعها بحجة أنها نسخ قديمة استغنينا عنها وأن يأخذ الثمن لنفسه فأصبحت أنحاء القاهرة وأنحاء البلاد تعج بتلك النسخ التي حوت عن فظائع الإنكليز بفلسطين ما يكذب دعايتهم ويسود وجوههم، فكان الناس يقابلون بين إذاعات الإنكليز ونشرياتهم في أثناء الحرب وبين ما يقرأون عن فظائعهم القديمة فيذكرهم ذلك بحقيقة الإنكليز، فقلت في نفسي ألا يجوز أن الإنكليز فطنوا إلى ذلك؟ وكيف يكون التخلص من هذا الحبس ممكناً بعد أن فضحتهم؟

---

(١) كان الدكتور أحمد ماهر باشا رئيساً أعلى للمحفل الماسوني في مصر ويعرف الناس أن الماسونية هي نحلة يهودية الأصل لا دين لها. ويكفي من عيوب الماسونية أنها تعتبر اليهودي الصهيوني وهو ضعيف كبير أخاً للمسلم العربي القوي، وأما في حالة القوة عند اليهودي فالتفسير هو ما جرى بفلسطين... فانضمام أحمد ماهر إلى الماسونية جعله وهو رئيس مجلس النواب يسكت الضجة التي قامت في البرلمان على اخوانه اليهود بجلسة ٣١ مايو سنة ١٩٣٨ ولولا ماسونيته لما وسعه إلا نصرة العرب والحق، ولكن الماسونية جردته من خصائصه الطبيعية وجعلت الإسلام يخسره، والصهيونية تكسبه...

وفي سنة ١٩٤٤ تولى أحمد باشا ماهر رياسة الوزارة فوضع قراراً بإعلان الحرب لينفذ أمنيته القديمة فباغته الشاب محمود العيسوي المحامي وأطلق عليه الرصاص فقتله وهو في طريقه إلى البرلمان فتولى النقراشي رياسة الوزارة بعد صديقه ورئيسه وأعلن الحرب التي كانت في آخر أيامها لحسن الحظ ولولا ذلك لدمرت طيارات الألمان هذه البلاد وحطمتها، ولكن المولى قدر فلطف. وفي سنة ١٩٤٨ قام شاب آخر وقتل النقراشي باشا بسبب قيامه على جمعية الاخوان المسلمين وحلها وتشتيت شملها.

ذنوب أخرى . . .

ثم تذكرت أعمالاً أخرى قمت بها فى خلال الحرب ، من ذلك أننى كتبت إلى الأستاذ محمود عزمى رئيس رقابة الصحف العربية فى أول الحرب أعاتبه على قبول هذه المهمة الاستعمارية وقلت له إن مثلك فى علمه وفضله لايجوز أن يعرض سمعته للتلوث بسبب هذه المهمة الكريهة، انه لذنب منى عظيم فى نظر الإنكليز بلا شك ؛ وكيف لا يكون الأمر كذلك عندهم وأنا أثبط أحد الذين يعلقون أهمية على وجودهم فى الرقابة وأفسده عليهم وما الفرق بينى وبين من يتعرض لقوات صاحب الجلالة البريطانية ويدعوها للعصيان ؟ إن عزمى لن يفاتح الإنكليز بشىء عن ذلك الكتاب ، ولكن ألا يجوز أن أحد موظفيه سرقه وسلمه للإنكليز ؟ ياترى أيمكن هذا ؟ أم أن عزمى مزق ذلك الكتاب ؟ شىء محير بلا ريب ! ولكن ألا يجوز أن تكون زوجة عزمى اليهودية قد نشلت ذلك المكتوب وبعثت به إلى الإنكليز ؟

الأمير شكيب

وهناك ذنب آخر فى نظر الإنكليز وهو أننى كنت أتراسل أخيراً مع الأمير شكيب أرسلان فى جنيف ولكن ليس بشأن السياسة بل بشأن كتبه ومؤلفاته فى مصر وكيفية إتمام طبع كتابه « الحلل السندسية » فى تاريخ الأندلس ؛ فهل تعتبر تلك المراسلة ذنباً ؟ ولكن أين المحظور وكتبى كانت صريحة وكلها تدور حول إتمام طبع المجلد الثالث من الحلل، وكانت رقابة البريد تطلع على هذه الرسائل فى غدوها ورواحها فلم تعترض عليها بل أجازت توزيعها .

ثم تذكرت حفلتين للشاى أقيمتا فى الشهر الماضى خطبت فيهما وبالطبع ذكرت الإنجليز بوعودهم القديمة للعرب وطالبتهم بأن يستدركوا مافات وأن يردوا للأمة العربية حقوقها لتؤيدهم فى هذه الحرب ، فياترى هل كان ذلك هو السبب فى القبض على ؟ ولكن سواء قال هذا فلماذا لم يعتقلوه؟

المرحوم الأمير شكيب أرسلان

ولكن ألا يجوز أن تكون « ذنوبى » القديمة هى السبب فكانت الخطب الجديدة هى المحرك لعداوتهم ؟ وهناك « ذنب » آخر قد يكون هو السبب ، وذلك أننى كتبت للعراق فى أيام نفى الدكتور أمين رويحه فى كردستان أحرك أناساً للاحتجاج على نورى باشا السعيد رئيس الوزراء الذى نكب أمين تلك النكبة ، فيا ترى هل درى الإنكليز بذلك ؟ إنه عمل موجه ضد سياستهم وضد أحد رجالهم ، أفلا يجوز أن يكون عملى هذا هو الذى حركهم وأثار حقدهم؟ ثم إن هناك اهتمامى بالدكتور أمين لما سجنوه بفلسطين وكتابتى إليه وهو فى سجن عكا واهتمامى بعائلته فى مصر ، أفكان هذا هو السبب ؟

لجنة إنقاذ المعتقلين فى عهد على ماهر باشا

بعد أن استعرضت جميع الاحتمالات التى أدت إلى اعتقالى رجعت بذهنى إلى الوراء لعلى أهتدى إلى السبب ، لأنه لا يهم المحبوس السياسى إلا معرفة سبب حبسه ليهتدى إلى العلاج إن قدر ، وإلا فحسبه أنه فهم لماذا حبس ما دام الحكام فى أيام الحرب لا يقولون للمحبوسين السياسيين شيئا ولا يحققون معهم .

رجعت بالذهن إلى الوراء ، واستعرضت الماضى فتذكرت لجنة سعيت فى تأليفها قبل حبسى بمدة قليلة وذلك أننى اتفقت مع عبد الستار بك الباسل عضو مجلس الشيوخ « رحمه الله » على العمل معاً للسعى فى إنقاذ المعتقلين السوريين والفلسطينيين من أيدى الإنكليز والفرنسيين ، وكانت الوسيلة أن يدعو عبد الستار بك الباسل جماعة من أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب وبعض الساسة العرب من أبناء الأقطار الشقيقة لشرب الشاى فى داره ومذاكرة بعض الشئون العربية فدعاهم وكان بينهم عبد الرحمن بك الرافعى وأنطون باشا الجميل وعبد المجيد إبراهيم صالح باشا ومحمود لطيف بك والدكتور محمد حسين هيكل باشا وعونى عبد الهادى بك والدكتور مصطفى بشناق بك والشيخ صبرى عابدين وغيرهم . وبعد استعراض حالة المعتقلين تألفت من الحاضرين لجنة لمقابلة على ماهر باشا رئيس الوزراء ، وإلقاء الأسئلة فى المجلسين لمطالبته بالسعى عند سفير بريطانيا ووزير فرنسا المفوض وإقناعهما بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين فى بر الشام ، لأن اعتقالهم لا يساعد على استقرار السلام فى الشرق الأوسط كما أن إطلاقهم يكون له الصدى الطيب ويطابق ادعاء الدولتين صداقة العرب . وقد تم ذلك الاجتماع بين اللجنة

وبين ماهر باشا ووعد بإلقاء بيان فى المجلسين عن مساعيه مع الإنكليز والفرنسيين ، وكان على ماهر باشا ماهراً حقاً فقد أوعز للأستاذ عبد الحليم الغمراوى « المحرر الآن بجريدة الأهرام » بأن يخبرنى عن رغبته فى تأليف وفد فلسطينى سورى لبنانى يذهب إليه فى وزارة الخارجية لعرض قضية المعتقلين عليه علنا بقصد إسماع الحليفتين أن الضجيج من اعتقال أبناء الأقطار العربية كان عاما ، فبادرت إلى جمع شمل بعض الإخوان الشاميين ثم أخذت الموعد بواسطة سكرتير ماهر باشا فحدد الباشا موعداً واستقبلنا فى وزارة الخارجية فسمع منا عن حالة البلاد الشامية كل ما يريد أن يطلع عليه . وقد حدثت مناقشة دقيقة مع الباشا كان سببها أننى سردت له بعض الأرقام عن فلسطين فقال أليس هذا الرقم يبدو كبيراً ؟ فقلت لا ، ونحن نحتاط كثيراً فى ذكر الأرقام أمامكم حتى لا يظهر فيما بعد أننا نبالغ فنفقد ثقتكم ، ثم ضربت له مثلا بأنه سبق أن سألنى فى المقابلة الأولى بالإسكندرية منذ شهور عن عدد المعتقلين فى فلسطين فذكرت أنهم نحو ٥ آلاف فى حين أنهم كانوا أكثر من عشرين ألفا . فقال لماذا نقصت الرقم وقتئذ ؟ فقلت إن عدد المعتقلين السياسيين فى مصر بأيام الحرب العظمى الأولى كان حوالى مئة ومع ذلك ضجت مصر كلها . فخفت إن ذكرت أن معتقلى فلسطين يبلغون عشرين ألفا أن لا تصدقوا فذكرت أنهم خمسة آلاف وأنا خائف أيضا أن يبدو لكم العدد ضخما بالنسبة إلى حجم فلسطين وعدد سكانها ، وقلت فى نفسى بوقتها إنكم متى اطلعتم من غيرى على العدد الحقيق أو من قنصل مصر بالقدس مثلا يكون وقع ذلك فى نفسكم أعظم ، فقال هذا صحيح وقد تبين لى أن عددهم فوق العشرين ألفا .

وبعد حديث قصير عن أمور أخرى وعد الباشا بأن يخاطب السفير البريطانى ووزير فرنسا المفوض ويطلب الإفراج عن معتقلى بر الشام جميعا من سوريين وفلسطينيين ، وقد فعل وشدد ولكن لا بريطانيا أفرجت عن أحد ولا فرنسا أطلقت أحداً ـ لقد مر بذهنى هذا الحادث وقلت فى نفسى لاشك بأن الإنكليز قد أحسوا بهذه الحركة وأننى أقوم بنشاط سياسى لا يريدونه، فكان ذلك هو السبب فى تحريك حقدهم وما أكثر الأسباب التى تثيرهم على الأبرياء فى أيام الحرب .

هزيمة الطليان

وفى أثناء ذلك كان الطليان يزحفون فى الأراضى المصرية ويحتلون من أرضها شقة صحراوية غربى الإسكندرية عند (سيدى برانى) وكان الناس يتصورون أنه لا تمضى أيام إلا والجيش الطليانى البالغ عدده أكثر من مئتى ألف جندى يكون قد دخل الإسكندرية ، وإذا بمعركة حربية تدور فقلنا هاهى الآزفة قد أزفت ، ولم يمض إلا أسبوع حتى كان الطليان أخزاهم الله يهربون أمام الإنكليز كما تهرب الغنم! مع أن عدد الإنكليز كما ثبت بعد الحرب وبعد أن انكشفت الحقيقة لم يكن يزيد على الثلاثين ألفاً ! لذلك لم نستغرب أن يصمد أهل طرابلس وبرقة أمام الطليان عشرين سنة ، فلو كان عند الطليان عقل الإنكليز وصبرهم لما قاومتهم طرابلس على شجاعة أهلها أكثر من بضع سنين .

وقد بلغت هزيمة الطليان حداً مدهشاً لأنهم ظلوا يتراجعون هاربين من الإنكليز نحو ألف كيلومتر ، وأخذ البريطانيون معظمهم أسرى وغنموا أسلحتهم وعتادهم فكانت نكبة ويالها من نكبة . وفى الحقيقة أن وجوهنا قد شاهت لهذه الكسرة ، لاحباً فى الطليان الجلادين الذين ذبحوا الطرابلسيين ولكن كرها للحلفاء الذين يبيتون الهلاك للعالم الإسلامى كله .

أيام السجن أيضا

— لحظت أن السجانين قد تكدروا لهزيمة الطليان لأن معناه بقاء انجلترا فى مصر ، وهذا أمر يفهمونه بإحساسهم وغريزتهم ، فكل شىء يهون فى نظرنا إلا بقاء الإنكليز فيها . وهل يمكن أن يعيش الشرق الأوسط بسلام إن بقيت انجلترا فى مصر ؟ معاذ الله !

— أخذ متعهد توريد الطعام للسجن يقدم لنا طعاما قبيحاً مع أنه يأخذ عليه ثمنا جيداً وخصوصاً ثمن طعامى أنا فقد تخصص له أكثر مما هو مخصص للمسجونين الآخرين ، ومع ذلك صرت أطلب طعامى من بيتى مع صعوبة ذلك علىَّ لما يقتضيه من عناء ومال ونحن فى حالة مالية غير مطمئنة ، بينما المفروض على جميع حكومات الدنيا إن اعتقلت أحد الناس سياسيا أن تقدم لعائلته مرتبا يتناسب مع مكانتها وحالتها ، أما نحن فلم يعرض علينا شىء لا من قبل الإنكليز الذين كانوا يرون مصلحتهم فى حبسى ولا من قبل الحكومة المصرية التى كانت تقول إن الإنكليز هم الذين طلبوا حبسى ، ولذلك ضعنا بين السلطتين . وكان حمدى باشا محبوب

مدير الأمن العام يصرح بذلك أمام كل من يراجعه بشأنى فيقول «نحن لا يد لنا فى حبسه، فقد قالت لى حكومتى نفذ للإنكليز ما يريدون فأنا أصدع بأمر حكومتى» ولكن أمعقول هذا؟ وكيف ترضى حكومة فى الدنيا بهذا العمل المهين لكرامتها والمنتقص لاستقلالها وسيادتها؟ وماذا جرى للأمر الذى أصدره على ماهر باشا بعدم اعتقال أحد إلا بأمر الحاكم العسكرى؟ لقد ظهر أن الحاكم العسكرى الجديد لم يأمر بحبسى ولا أمر بإلغاء أوامر على ماهر باشا، فهل يكون حمدى محبوب قد أخفى ذلك الأمر؟ أم أنه اعتقد أن مجرد ذهاب حكم على ماهر يذهب بأوامره أيضا؟ ولكن لماذا يستميت حمدى محبوب فى إرضاء الإنكليز إلى هذه الدرجة؟ يارب ما هو السبيل إلى أن أعرف على أى وجه طلبوا حبسى وبأى طريقة طلبوا تنفيذه، لأن هذا كان غريبا، ولاسيما أنه لم يعتقل أحد سياسياً فى مصر سواى، فلماذا كل هذه العناية بى ...

مساعى أحمد شفيق باشا[1]

المرحوم أحمد شفيق باشا

بلغنى وأنا فى السجن أن الأستاذ أحمد شفيق باشا قد تكدر حين بلغه نبأ حبسى وأنه برغم ضعف صحته وشيخوخته إذ كان قد أربى على الثمانين واحتجب بصره، قد بادر بالذهاب إلى الوزراء الذين تربطهم به وتربطنى صداقة قديمة وأخبرهم باعتقالى على ظن أنهم سيندهشون ويستاءون ويعملون على فك أسرى أو السعى لتخفيف عذابى ومنهم مصطفى باشا عبد الرازق وزير الأوقاف، والدكتور حسين هيكل باشا وزير المعارف. ولكن شفيق باشا لم يلق منهما ما كان يرجوه من اهتمام فتركهما آسفاً متألماً، وقد سبق للمرحوم الزنكلونى أن كتب وهو على فراش الموت كتاباً

(١) هو المرحوم أحمد شفيق باشا المؤرخ الشهير وكيل جمعية الرابطة الشرقية الذى كان رئيساً للديوان الخديوى وقد توفى رحمه الله وأنا فى السجن فحزنت عليه حزناً شديداً لما كان ينطوى عليه قلبه من الإنسانية وعلو الهمة والوفاء، وكان آخر لقاء بينى وبينه فى قصره بشارع الملك وكان عليلا منهوكا ففرح بزيارتى له فى ذلك اليوم وكان قبل هذه الزيارة بأيام قد زارنى بإدارة الشورى وأهدى إلىّ المجلد الخامس من كتابه التاريخى الكبير «مذكراتى فى نصف قرن» الذى أرخ فيه كشاهد عيان كيفية وقوع مصر بيد الاحتلال البريطانى رحمه الله وأسكنه فسيح جنته.

إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا يقول له إن صديقك أبا الحسن هو حبيبي في هذه الدنيا وأنت تعرف ذلك فلا أطيق أن أسمع أنه في السجن . ولكن لا الشيخ مصطفى اهتم ولا الدكتور هيكل اهتم ، فما وفيا لصديقهما السجين ، ولا لصديقهما الوسيط ، ولا لكرامة الحكومة الوطنية التي اثلمت لأن إيعاز الإنكليز لها بالقبض على الأبرياء ـ أو غير الأبرياء ـ هو اعتداء صريح على استقلالها وسيادتها . فكان الواجب رفضه لا التفاني في تنفيذه .

الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا

بعد أن بلغني جمود الشيخ مصطفى سمعت أن موقفه كان أغرب من ذلك فقد قال لمن كلموه في أمر حبسي إن الحكومة قد خدمت السيد الطاهر خدمة عظيمة وهو لا يدرى ... ولما سألوه البيان قال إن الإنكليز طلبوا تسليمه إليهم ليحاكموه في فلسطين ولكننا منعنا تسليمه وأبقيناه في مصر محافظة منا عليه ! وهذا كله غير صحيح ، لأن حكومة فلسطين لا علاقة لها بي ولا علاقة لي بها فلا أنا من رعاياها ولا ارتكبت ذنباً في أرضها ، وإنما أراد الشيخ مصطفى أن يستر تقصيره شخصياً مع صديق قديم له خوفا على منصبه كما يتوهم فإذا به ينزلق ويتولى الدفاع عن الإنكليز واختلاق العذر لهم وإعطاءهم الحق في التهجم على سيادة مصر ، لأني على كل حال لا أعدو أن أكون فلسطينياً فلا يجوز تسليم اللاجيء ولا حبسه لحساب الأجانب أو أكون مصرياً فلا يجوز لأجنبي أيا كان أن يطالب حكومة مصر باعتقال المصريين بدون ذنب ، حتى ولا بذنب أيضاً ، مادامت البلاد مستقلة ولها حكومتها وقوانينها ، وقد سبق للإنكليز أن طلبوا ذلك من علي ماهر باشا فرفض . وسبب ذلك أن وزارته كانت وزارة شريفة تغار على كرامة البلاد وتعرف أن تقول للإنكليز لا ، ولذلك قلبوها وطاردوا رئيسها ثم عملوا على اعتقاله هو ومساعده وصديقه محمد صالح باشا حرب المجاهد القديم الذي كان مع علي ماهر باشا وزيراً للحربية فاعتقلوه أيضا ونفوه إلى أسوان ، فلولا رجولة هؤلاء الناس الذين يعرفون كلمة « لا » لظلوا في الحكم ولما وصلت الوزارة إلى الشيخ مصطفى وأمثاله الذين لا يعرفون أمام الإنكليز إلا كلمة نعم ، بل وصل الأمر بالشيخ مصطفى أن اختلق حكاية طلب حكومة فلسطين تسليمي وهذا غير صحيح مطلقا ، ثم أخذ يمن عليّ بوضعي في السجن أيضا ! ويدافع عن الذين اجترحوا ذلك الوزر ليوهم الناس أنه يحل ويربط في الدولة ، وهو في الحقيقة لم يؤخذ

رأيه فى ذلك، بل ارتكبوه ونفذوه وهو لايدرى، ولولا مذكرة المرحوم الزنكلونى التى أرسلها إليه ما كان درى بشئ، لأنه كان فى الوزارة كما قال الشاعر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم   ولا يستأذنون وهم شهود ...

بل لو استشاروه فى اعتقال شقيقه لوافق على ذلك ، فهو لم يؤخذ لكرسى الوزارة إلا لكونه يرضى بإقرار الإنكليز على عبثهم بحقوق البلاد ولأنه من الذين يقولون لهم نعم ، وإلا فلماذا أسقطوا وزارة على ماهر ؟ أسقطوها لأنها تعرف أن تقول عند اللزوم لا ، وجاءوا بوزراء ضعفاء من الطبقة الثالثة ليقولوا نعم، ثم يبررون للانكليز عدوانهم على سيادة البلاد ، بل ويدافعون عن ذلك العدوان ...

هواجس وتلغراف

لقد طالت الأيام وأنا فى السجن ، لا تحقيق ولا إفراج ولا أمل بالإفراج ، ولا أدرى لماذا صرت أفكر فى طفلتنا فى الآونة الأخيرة أكثر من المعتاد ، فياترى هل أصابها ما أكره ؟ لا حول ولا . - وبعد ذلك طلبت من السجان ورقاً وقلماً فكتبت إلى رئيس الوزراء برقية وكلفت مدير السجن أن يرسلها على حسابى ثم عملت على إرسال نصها إلى رئيس الوزراء من طريق آخر لأنى صرت أشك فى وصول ما أكتبه ، وقد أرسلت صورة البرقية سراً إلى صديق الأستاذ أحمد حسين المحامى المجاهد رئيس حزب مصر الفتاة فأرسلها إلى رئيس الوزراء على الشكل الآتى : —

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء :

أتشرف بأن أرسل لدولتكم بصفتى محامياً عن الأستاذ محمد على الطاهر المسجون بسجن الأجانب صورة من برقية أرسلها لكم الأستاذ المذكور من السجن ولما كان يخشى أن تكون هذه البرقية لم تصل إلى يد دولتكم فقد كلفنى حضرته عن طريق السيدة حرمه أن أعيد تبليغ هذه البرقية لكم وهذا نصها .

دولة الحاكم العسكرى العام بالقاهرة : لست خائنا لبلادى لأستحق من حكومتى المصرية إهانة الاعتقال والتنكيل، فأرجو صيانة لشرف الوطنى أن أحاكم أو أطلق شاكراً عدالتكم .

محمد على الطاهر

وإنى أنتهز هـذه الفرصة لأضم صوتى إلى صوت الأستاذ المذكور فقد عرفته البلاد المصرية والعربية مجاهداً صادق الجهاد عن قضية مصر وجميع الأقطار العربية . فإذا كانت الحكومة المصرية قد اكتشفت من أمره ماريب فقد وجب أن يمكن من الدفاع عن نفسه ودولة الحاكم العسكرى الذى عاش طول عمره محامياً يعرف مقدار المرارة التى يشعر بها المجاهد المسجون الذى يحرم من نعمة الدفاع عن نفسه .

أما إذا لم يكن لدى الحكومة من الأدلة ما يكفى لمحاكمته فما أسهل أن يطلق سراحه على أن تأخذ عليه الحكومة الضمانات والاشتراطات السياسية التى تطلبها . وفى انتظار تصرف دولتكم أرجو أن تتفضلوا بقبول فائق احتراماتى :

٢٠ اكتوبر ١٩٤٠ — أحمد حسين المحامى

الشيخ مصطفى عبد الرازق أيضا

أما وقد ذكرت ما كان من الشيخ مصطفى فإنى أكمل الحديث عنه الآن بدون حاجة للرجوع إليه مرة أخرى لأنى أحب أن يرى الناس كم يعانى الإنسان من الأصدقاء وإنه لأشد إيلاماً من تبريح الأعداء .

فقد علمت بعد زوال المحنة من الأستاذ « محي الدين... » أنه لما درى بحبسى ركض إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا وقص عليه النبأ وهو يظن أن الشيخ سيقوم غضباً ولا يقعد إلا وأنا فى خارج السجن ... فإذا بالشيخ الوزير السياسى العظيم يقول للأستاذ محي الدين : نعم، لقد عرفت بالحكاية ولكنهم وجدوا عند الأستاذ الطاهر ١٣٠ جنيها كان يريد أن يستعين بها على الهرب من مصر نحو الألمان . يعنى أن الشيخ استكثر أن أملك ١٣٠ جنيها ! وإذا كان عندى مثل هذا المبلغ فلا تفسير لوجوده معى إلا أننى أعددته للهرب من مصر نحو الأعداء !

وأغرب من هذا أن الشيخ مصطفى قال للدكتور منصور فهمى « الذى صار باشا مع الأسف » أن البوليس وجد عندى أوراقاً ... فكتبت لمنصور من السجن ورقة قلت له

فيها إنهم لو فتشوا منزل الشيخ مصطفى نفسه الذى تلطخت يده بالمداد الذى سطروا به قرار حبسى لوجدوا عنده أوراقاً ، وكل الناس يحرزون ورقاً وعندك أنت كذلك ، فهل معنى هـذا أنه يجوز لكل المخلوقات أن يقتنوا أو يحتفظوا بأوراقهم ماعداى ؟ وكيف لا يكون مكتبي مشحوناً بالأوراق وهو إدارة جريدة لايكون فيها عادة إلا الورق والأضابير والمحفوظات ؟ يعنى أن الشيخ مصطفى لم يكتف بخذلانه إياى بل أخذ يستر فعلته وتقصيره بنشر الدعاية ضدى والزعم بأنى أستحق الحبس وأن الإنكليز من حقهم أن يأمروا بحبسى وأن الوزارة التى يشترك فيها الشيخ معذورة فى إطاعة الإنكليز وارتكابها ذلك الوزر بالتنكيل بى وبأهل بيتى ...

أيام السجن

لقد ضاق صدرى من السجن كثيراً لاسيما أن معظم جنود السجن كانوا من الجنود القدماء الذين لا يفهمون إلا أوامر ضباطهم فقد ضايقونى بتطبيقهم الحرفى لقانون السجن وتعليماته الشاذة حتى بلغ من أحدهم أن طرق باب « بيت الخلاء » يستعجلنى ويقول لى إن الوقت قد انتهى ...

— لايدعنى السجانون أستغرق فى تفكير أو أن أشعر بوحدة حقيقية لأنهم يأتون بغتة إلى « النظارة » وهى خرق فى الباب ويتطلعون علىّ مسترقين النظر فلم أستغرب ذلك لأنهم من جنود بوليس الجواسيس ومن طبيعتهم حب الاستطلاع ...

— لايتركنى السجانون أستغرق فى نوم متواصل لأنهم يشعلون النور فى كل ساعة ويتطلعون علىّ وأنا نائم ، فأستيقظ منزعجاً . وقد استفهمت من بعض الجنود عن سبب ذلك فقالوا خوفاً على السجين من أن ينتحر ...

— زارتنى قرينتى هذه المرة وحدها فسألت عن طفلتنا «جهاد» وكان عمرها ثمانية أشهر فقالت إنها مريضة وان الطبيب وصف لها الدواء وأن حالتها لا تدعو إلى القلق ، فلم يعجبنى هذا التعبير ، ولذلك انشغل بالى عليها كثيراً ولم أشأ أن أزعج قرينتى بإظهار القلق ، فما أشق قلب الوالد .

— حدث لى ألم فى أضراسى فطلبت الذهاب إلى الطبيب على حسابى فأجيب طلبى بعد إلحاح ونكد . وقد رافقنى الضابط توفيق افندى عبد القوى من بوليس مصر وهو رجل طيب جداً وفيه انسانية ولطف وكان طبيبى الدكتور سليم جوده على جانب كبير من الوفاء فغمزته ليقرر وجوب رجوعى إليه مرتين أيضا فكتب تقريراً بذلك ، ثم طلبت منه أن يستدعى الدكتور يعقوب خورى لزيارته فى الساعة التى أكون فيها عنده ففعل .

— ذهب وفد من أصدقائى إلى رئيس الوزراء وطلبوا منه إطلاق فوعد بالنظر فى ذلك، وكان الوفد مؤلفا من الدكتور مصطفى بشناق بك ، والشيخ صبرى عابدين ، وأمين افندى العورى .

— بعث لى المجاهد اليمانى الشيخ أحمد محمد نعمان أنه عائد إلى اليمن بطريق الحجاز بصفة حاج وأنه من هناك سيتسلل إلى اليمن ، وطلب أن أبعث إليه بمقترحاتى فأرسلتها إليه سراً ، فسافر وقام هو واخوانه بين الحجاج بالدعاية ضد الاستعمار ونددوا بالإنكليز لحبسهم إياى وخطبوا فى «منى وعرفات» وقد جاء منه كتاب عما صنع ووصل كتابه إلىّ فى السجن سراً .

— بعث لى الأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة بأنه مسافر لتأدية فريضة الحج ويطلب أن أوصيه بما أريد. فأرسلت إليه سراً بأمور أحببت إيصالها للحجاز ثم نصحت له بأن لا يعود إلى مصر إلا بعد الحرب ، وأنه إن عاد لمصر فلابد أن يعتقله الإنكليز « ولكنه خالفنى ورجع فقبضوا عليه وعذبوه وأمضى مدة الحرب بين المعتقلات والسجون ثم هرب واختفى ولقى الأهوال وقد وضع مذكرات عما جرى له ونشرها بجريدة مصر الفتاة ثم جمعها فى كتاب»

— النور فى السجن ضئيل ، وقد أثر على قوة بصرى فأضعفها ، فصرت أتناول صحنا من القاشانى وأجعل وجهه أمام النور لتنعكس أشعته على صفحة الكتاب وبذلك استطعت المطالعة ليلا !

— سمعت صوتا يناديني بقوله «ياأبو الحسن» فقلت نعم! ولكن اتضح أن أحد السجانين كان اسمه أبو الحسن وأن زميلا له كان يناديه . وكان هذا السجان من عجائز البوليس وكان بنشوفة دماغه يتعبنى كثيراً .

— كان ظلام الغروب يضايقنى فوق الوحدة الأليمة، فكنت إذا جن الظلام أترنم بأنشودة

« ياظلام السجن خيم » وهى من وضع الصحافى السورى المجاهد السيد نجيب الريس صاحب جريدة القبس الدمشقية وكان قد نظمها حين اعتقلته فرنسا منذ سنين .

— ذهبت مرة أخرى إلى طبيب الأسنان وكان الضابط عبد العزيز حجازى أفندى يصاحبنى هذه المرة فذهبنا فى الترام فلقيت الدكتور يعقوب خورى ينتظرنى فى عيادة طبيبى فتحدثنا عن كل ماأريده وقد أفسح لنا الضابط حجازى المجال لنتحدث كما نريد وقد خطر لى أن أفر لما ذهبت لمحل الماء وأن أتسلل من باب العيادة الخلفى تاركا الضابط ينتظر ! ولكنى كرهت ذلك خوفا من أن ينتقموا منه بسببى بعد أن سبق جميله معى لاسيما أنه أظهر نحوى إحساسا طيبا حين عرض علىّ ونحن فى الشارع أن يقرضنى ماأريد من الدراهم لأشترى ماأحتاج إليه ، فكيف أهرب وأجازيه على لطفه ومروءته بالغدر وأتركه عرضة للتنكيل ؟

— لما سمع صديق الأستاذ إلياس أنطون إلياس صاحب المطابع الشهيرة ومؤلف القاموس العصرى بنبأ حبسى أظهر إحساسات كريمة وبعث لى فى السجن بمقادير كبيرة من الكتب العلمية والأدبية والروايات.

— سافر تحسين العسكرى بك وزير العراق المفوض بمصر إلى بغداد بالاجازة وأخبر أصدقائى فى فلسطين ولبنان وسورية والعراق بما حدث لى فنشرت بعض الصحف هذا الخبر ملطفا بسبب الرقابة وبعضها نشرته مستنكرة محتجة . ثم بلغنى أن برقيات ومضابط أرسلت من تلك البلاد إلى رئيس الوزراء هنا بالاحتجاج على حبسى ، ولكن صحف مصر لم تستطع نشر حرف واحد لأن الرقابة كانت صارمة جداً من هذه الناحية .

— ضجرت من طول السجن فدعوت مديره وقد ذكرت أنه رجل طيب وسألته : ألم يحضر إلى مكتب السجن أحد من كبار رجال الدولة الذين أمروا بحبسى ؟ فقال : لماذا ؟ فقلت : لأنى أريد أن أهينه وأن أضربه وأقول له : قبل أن تأمر بحبس الناس يجب أولا أن تجرب ماهو السجن ، أما أن تأمر بحبسهم وأنت مستريح فى مكتبك تأمر وتنهى وتعذب العباد فهذا عمل وحشى ، لأن السجن هو إهدار لكرامة الإنسان من حيث هو إنسان .

رمضان فى السجن

لحظت أنه لايصوم فى السجن إلا شخص واحد من أهل الواحات ، لايدرى أحد ماهى تهمته. ولكنه على كل حال من المحبوسين السياسيين ، وقد عرفت بصيامه من « قلة » ماء كان يضعها أمام غرفته لتبرد. ثم استفهمت عنه فعلمت أنه غريب منقطع لا يزوره أحد ، وأنه فقير وانه يتنازل لأحد السجانين عن بعض طعامه لقاء أربع سجاير فى اليوم، فحزنت لحاله وصرت أبعث إليه ببعض الطعام، وكنت كلما خرجت من غرفتى غافلت الحارس ودسست لذلك السجين من تحت الباب بضع سيجارات ولسان حالى يقول ـ أجارتنا إناغريبان هاهنا ... الخ والظاهر أن صاحبنا أصبح يعرف ميعاد وضع السجاير فصار ينتظرها ويبادر إلى سحبها إلى الداخل بمجرد دسها تحت الباب ، وفى إحدى المرات سمعته يطلب كبريتا ، فقلت فى نفسى لقد ظلمنا الرجل لأن السجاير بلا كبريت كالصداقة بلا وفاء ! فصرت بعد ذلك أدس له تحت الباب أعواد الكبريت أيضا ..

وبعد أيام سمعته من وراء الباب يحيينى ويدعو لى بطول العمر ، فهززت رأسى ، ورددت قول المعتمد بن عباد ملك أشبيلية لما دعا له أحدهم بطول العمر وهو أسير بقوله :

دعا لى بالبقاء وكيف يرجو   أسير أن يطول به البقاء

أخبار طيبة

بلغنى أن رئيس الوزراء حسن صبرى باشا قد أمر بالإفراج عنى بشرط أن لا أقوم بعمل أو نشاط سياسى . وأن إطلاق سينفذ يوم وقفة عيد الفطر ، ففرحت فرحا شديداً ولم أنم فى تلك الليلة ولم أطالع كتبا طول اليوم التالى مترقبا نبأ الإفراج ، وصرت كلما سمعت دقا على الباب الخارجى ظننت أن رسول الحكومة الذى يحمل أمر الإفراج هو الطارق ، وكلما سمعت رنين جرس التليفون فى مكتب مدير السجن تصورت أنه أمر الإفراج، فأنصت وأنتظر، وإن سمعت مشيا فى طرقات السجن أو أحسست أن مزاليج الباب الكبير تتحرك أرهفت سمعى ، وإن مس أحد السجناء أو الحراس باب زنزانتى ظننت أن السجان سيفتح الباب ويقول لى تفضل والبس ملابسك فقد جاء الفرج ! ثم أتصور السجان يقولها بلطف وحياء

انتظاراً « للبقشيش » فأقول فى نفسى سأعطيه وأعطى زملاءه بمجرد انطلاق واسترداد نقودى المودعة عند مدير السجن ...

ولكن أمر الإفراج لم يصل ، والفرج لم يعرف طريقه إلىّ ، وقد بقيت أرهف سمعى وجميع حواسى لكل حركة تقع فى السجن ، ومضت أيام وأنا فى هذه الحالة حتى كادت أعصابى تتلف من ألم الانتظار ، ومع ذلك ظل هذا الخيال يراوحنى ويغادينى إلى أن بدأ اليأس يدب إلى نفسى ، فصرت أعللها بأن الحكومة تعطل يوم الوقفة أعمالها ، وكذلك أيام العيد ، ولكن كيف أستطيع الانتظار مدة العيد وأنا الآن محبوس سهواً وبسبب إهمال الموظفين وسماجة « الروتين » الحكومى البطىء ؟ لقد كان هناك أمراً حقيقيا بالإفراج لاشك فيه ... ولكن أين هو ؟

تلغراف ...

وهنا خطر لى خاطر أعجبنى ، وهو أننى قرأت فى الصحف أن رئيس الوزراء قد سافر إلى قريته « الصبرية » للاستراحة فى أيام العيد فيجب أن أشكو إليه ، فكلفت زوجى عند زيارتها لى بأن ترسل إلى الرئيس برقية تخبره فيها بأن أمره لم ينفذ وأنهم أبقونى فى السجن مدة العيد أيضاً بدون سبب ، فأرسلت التلغراف إلى الصبرية ولكن بلا جدوى .

وكانت زوجى ومعها شقيقتى فى الدار تترقبان الإفراج عنى بين لحظة وأخرى ، فكانتا تجلسان فى الشرفة لمراقبة كل سيارة أجرة تصل إلى حديقة العمارة التى نسكنها ، ثم ترهفان السمع إلى جرس الدار لعله يقرع وأكون أنا القادم ، ولكن الجرس لم يدق ، لأن القادم المنتظر لم يصل . وبقيت شقيقتى وزوجى على هذا الحال المقلق بضعة أيام .

تماما كما أصابنى أنا من مرارة الانتظار ...

شطحة !

أظن أن القارئ قد تضايق مثلى من حوادث السجن والحياة فيه ، ولذلك أحب أن أنتقل به معى إلى ما كان يمر على الذهن من خواطر عن الحوادث الماضية من سياسية وغيرها ، فهذا الانتقال أدعى إلى تخفيف الضجر الأليم .

لقد صورت فيما سبق كيف كانت الحالة فى الدنيا قبيل الحرب وفى أول الحرب، ثم وصفت كيف وقع حبسي والجو الذى كنت فيـه ، وأحب الآن أن أشرك القارئ معى فيما كنت أفكر فيه ، وكيف كنت أرى الأمور الجارية فى الدنيا وتعليق عليها ، وماذا كان يدور فى رأسى من الذكريات والتذكارات، ثم أعود إلى وصف حياة السجن. ولذلك أرجع إلى خواطر سابقة فأقول :

استطراد عن على ماهر باشا

إن على ماهر باشا مع قرب عهد اتصاله بقضية فلسطين ، كان من أعظم السياسيين المصريين الرسميين اهتماما بها وغيرة عليها ، والذى أعرفه أن اتصاله بقضية فلسطين بدأ عمليا من أوائل سنة ١٩٣٩ لما كان رئيسا للديوان الملكى، فانتدبه جلالة الملك فاروق الأول للسفر مع الوفد الرسمى إلى مؤتمر لندن الذى حضرته الدول العربية بدعوة من انكلترا ، وكان وفد مصر برياسة سمو الأمير محمد عبد المنعم نجل المرحوم الخديو السابق ، وقد أظهر ماهر باشا من الاقتدار السياسى فى ذلك المؤتمر ما لا يستطاع وصفه . ولما عاد ماهر باشا إلى القاهرة بالطيارة ليسبق عودة الوفود لإطلاع جلالة الملك المعظم على نتائج أعمال المؤتمر ساعدت فى ترتيب استقباله فى محطة مصر فكان استقبالا عظيما وقد قابله جلالة الملك فور وصوله .

ذكاء على ماهر باشا

وفى اليوم الثانى ذهبت مع عطوفة الأمير شكيب إرسلان والمجاهدين الفلسطينيين أحمد حلمى باشا والسيد رشيد بك الحاج ابراهيم بعد رجوعهما من سيشل ـ وكانا يقيمان وقتئذ فى مصر ، ذهبنا إلى قصر عابدين بصفة وفد لتحية على ماهر باشا وشكره على جهاده من أجل فلسطين ، فحدثنا عما كان فى المؤتمر بعد أن أخذ علينا العهد بأن نكتم مانسمع لأنه يعتبر من أسرار المفاوضات الدولية . وقد خطر لى بوقتها أن أحمل الباشا على الإفضاء بأشياء كنت أعتقد أنه يكتمها ولا بد له من كتمانها ، فاختلقت « كذبة » سريعة لإثارته وحمله على الكلام، فقلت له إن صحف اليهود فى فلسطين نشرت أنكم اختلفتم مع الوفود الأخرى فى لندن وأنه حصل جدل ومشادة بينكم وبين الوفد الفلسطينى... فإذا بالباشا ينتفض ويلتفت إلىّ بسرعة ويسألنى باهتمام أن أعيد عليه ماقلت ، وكان يتكلم بشكل يدل على أنه كان يرتاب بصدق، وهنا

أدركت أهمية ماحدث منى فأخذت أعيد عليه كلامى حرفا حرفا وببطء شديد حتى لا أغلط فيفطن إلى التلفيق ، فلما أعدته عليه سكت لحظة ثم أفضى إلينا بما كان يحتفظ به من سر فقال : إنى لما رأيت سوء نية الإنكليز وأنهم لايريدون حل قضية فلسطين وأنهم يقترحون أموراً لا يمكن الموافقة عليها أردت أن أكشفهم علنا وبشكل رسمى . وكانت عقدة المهاجرة اليهودية أهم شئ فى نظرنا فقد اقترح الجانب البريطانى أن نسمح بدخول ٧٥ ألف يهودى لفلسطين فى خلال ٥ سنين وبعد ذلك تمنع الهجرة ، فرفض الجميع دخول ذلك

صورة الوفد عند مغادرته قصر عابدين ، ويظهر من يمين القارئ : رشيد بك الحاج إبراهيم فالأمير شكيب أرسلان فمحمد حلمى باشا فمحمد على الطاهر

العدد الكبير من اليهود إلا أنا ، لأنى كنت أريد أخذ إمضاء بريطانيا على صك رسمى يحدد الهجرة ويغلق أبواب فلسطين ، ولا خوف بعد ذلك على البلاد ، وهنا حصل تشاد بيننا فانحازت جميع الوفود إلى وفد فلسطين وبقيت وحدى أدافع عن وجهة نظرى ، وأخيراً وافقونى ، فلما قلنا للإنكليز إننا نوافق على اقتراحكم ونقبل هجرة العدد الذى تطلبونه ، إذا بهم ينكلون ويعلنون فض المؤتمر ، وبذلك صحت نظريتى فى الإنكليز وأنهم قوم لايثبتون فى أمر ولا يمكن إمساكهم من ناحية . وبعد أن أفضى الباشا بهذا السر طلب منى كتمانه ففعلت ، ولكنى لا أظن أن الكتمان يجب أن يمتد إلى أكثر من عشر سنين ... وبعد ذلك ودعنا الباشا وغادرنا قصر عابدين .

كيف تآمروا على فلسطين سنة ١٩٣٩

والحقيقة أن أميركا كانت السبب الأكبر فى إخفاق مؤتمر لندن ، لأن يهود أميركا الذين يسيطرون عليها وعلى رئيسها فرنكلين روزفلت ـ وهو على مايقال يهودى العرق وكانت عائلته تسمى عائلة « روزنفلد » ـ أو عزوا إليه أن يعرقل الاتفاق فأرسل برقية مستعجلة إلى سفيره المستر كندى فى لندن ليحول دون أية تسوية . وها انى أثبت هنا برقية وردت من لندن فى ٢٧ فبراير ١٩٣٩ وهى .

« قرر اليهود فى اجتماعهم اليوم رفض المقترحات البريطانية . واجتمع الوفد البريطانى بالوفود العربية قبل الظهر ولم تعرف النتيجة لأن الجانبين تمسكا بالصمت التام . وقد أحدثت أنباء فلسطين وقعاً شديداً فى دوائر لندن ، وقابل سفير الولايات المتحدة المستر كندى اليوم وزير الخارجية اللورد هاليفكس وسأله عن حقيقة المقترحات البريطانية . ولا بد من الملاحظة بأن انكلترا لاتستطيع أن تتصرف بالانتداب على فلسطين قبل الحصول على موافقة الولايات المتحدة . »

إننى لا أشك فى صحة نظرية ماهر باشا فى الإنكليز فهم قوم محتالون مضى عليهم ثلاثة قرون وهم يكذبون على الشعوب ولايبتون فى شىء من مصاير الأمم بتاً صحيحاً ، ولكنى أردت بإثبات البرقية المتقدمة أن أكشف جانباً آخر من أسباب إخفاق مؤتمر لندن ، لأن فضه بلا نتيجة سواء أفعل الإنكليز ذلك من تلقاء أنفسهم أم بضغط أميركا يجعل الإنكليز مسئولين عن ذلك ، كما أنهم مسئولون عن نكبة فلسطين من أولها إلى آخرها ، وعن تمكين أميركا وغيرها من التدخل بأمور فلسطين . وقد قال المثل « ليس الحق على الذى زرع السطح بل على الذى أعطاه البذور » .

وما دمنا تحدثنا عن على ماهر باشا فمن الحق التاريخى له أن أثبت رسالتين تبادلناهما بشأن فلسطين ، وذلك أننى قبل إعلان الحرب بأربعة أيام اغتنمت فرصة اضطراب الإنكليز وخوفهم من الحرب وفرصة طنطنة صحفهم بصداقة مصر والعرب فكتبت إلى ماهر باشا الكتاب الآتى :

حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء الموقر :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : وبعد فإن الموقف الدولى المضطرب الآن والذى أثر فى اتجاهات السياسة الإنكليزية فى الشرق والغرب خصوصاً فيما له علاقة بالعرب والمسلمين ، يجعلنا نتشرف بأن نقترح على رفعتكم اغتنام الفرصة لمراجعة الدولة البريطانية لحل القضية الفلسطينية حلا عادلا يرضيكم ويرضى العالم العربى. وإننا نعتقد أن الدولة البريطانية لن ترفض تلبية طلب مصر حليفتها وهى فى هـذا الظرف الدقيق لتكسب رضاء مصر وتأييد ملايين العرب والمسلمين .

إن قيام الأزمة الدولية الحاضرة وإعلان أنظمة الطوارئ فى مختلف أنحاء العالم من شأنه أن يبرر لبريطانيا أى عمل سريع حاسم لحل قضية فلسطين على وجه يرضى الحق والعدل ويرضى العالم الإسلامى والعرب، وإن أهل فلسطين يعلقون عليكم أكبر الآمال للعمل على إنقاذهم مما يقاسونه من شقاء وشدائد. وليس أحسن من هذه الظروف للإقدام على هذا العمل الذى سيخلده لكم التاريخ أبد الدهر .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والإجلال سيدى . رئيس اللجنة الفلسطينية

١٢ رجب ١٣٥٨ ـ ٢٧ اغسطس ١٩٣٩ (الامضاء) محمد على الطاهر

وبعد يومين ورد إلىّ منه الكتاب الآتى :

رياسة مجلس الوزراء — بولكلى « اسكندرية » ٢٩ اغسطس ١٩٣٩

حضرة الأستاذ السيد محمد على الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر

السلام عليكم ورحمة الله ، أما بعد فأشكر لكم خطابكم الرقيق وأرجو أن تعتقدوا أن اهتمامنا بقضية فلسطين يقوم على اعتبارات دائمة من الجوار والجنس تدعونا فى مختلف الظروف والمناسبات إلى انتهاز الفرصة للسعى فى حلها بما يرضى اعتقادنا بعدالتها وهو ما يسرنا أن نسعى إلى تحقيقه كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

وتفضلوا بقبول خالص التحية. (الامضاء) على ماهر

الرجوع إلى حالتنا فى الحرب

ما كادت الحرب تعلن حتى أخذنا نسمع صياح الإنكليز وتظلمهم من الألمان ووحشية الألمان، وذكر مدنية الإنكليز وحبهم للعدل والحرية وصداقتهم للإسلام والعرب ...

ووقعت المعارك الأولى فى أوربا فأخذ الألمان يكتسحون بجيوشهم الممالك والدول ويطوونها تحت أقدامهم طياً. وكنا نحن الذين قهرنا الإنكليز واعتدوا على بلادنا وأوطاننا وأذلوا رقابنا نتتبع أخبار الحرب بشغف ونفرح لانتصار الألمان ونشمت بالإنكليز ونتلذذ بتحطيم جيوشهم فى فرنسا وبلجيكا وفرارهم أمام الألمان كما تفر أفواج النعام ...

إن الإنكليز ليعرفون حق المعرفة أن عواطف الدنيا كلها كانت ضدهم، لا حباً بالألمان ولكن كرهاً للإنكليز وحقداً عليهم واشمئزازاً من أعمالهم فى المستعمرات وفظائعهم مع الأمم الضعيفة وكذبهم عليها، ومعاملتها بالأذى والخبث وسوء النية[1] حتى أفسدوا أخلاق الدول والحكومات، وليس الأفراد والجماعات فقط.

نعم كان الإنكليز يعرفون هذا كله، ولذلك لجأوا إلى طريقتهم العتيقة التى رأيناها وسمعناها فى الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ وهى استئجار الضمائر وتهديد الناس ليثنوا عليهم طوعاً أو كرهاً، فوجدت عدداً كبيراً من مشاهير العرب والمسلمين من خونة ومنافقين يعلنون ميلهم للإنكليز ويوصون الناس بالثقة بهم والاعتماد عليهم وإفهامهم أن انتصار بريطانيا هو أمر لاشك فيه وأنها ستعطى العرب بعد الحرب حقوقهم ...

---

(١) لقد بلغ الخبث وسوء النية بالإنكليز أنهم فى أثناء تمتعهم بتأييد مصر فوق سلبهم أموالها وخيراتها التى بلغت نحو ٥٠٠ مليون جنيه والتى لاتزال ديناً عليهم حتى الآن، أقول إن الإنكليز كانوا مع هذا يبيتون لها الغدر والتدمير والخراب الشامل، فقد اطلعت فى سنة ١٩٥٠ على مذكرات للمستر تشرشل الذى هو طاغوت الإنكليز وعنوانهم يقول فيها إنه فى سنة ١٩٤٢ وضع خطة لإغراق بلاد الوجه البحرى الذى يعتبر من أخصب وأعمر بلاد الدنيا وأكثرها سكانا ومن الجملة مدينة القاهرة التى هى أعظم عواصم العالم الإسلامى وانه لذلك أمر بوضع ألغام الديناميت تحت الجسور وعند سدود النيل لنسفها إن اقترب الألمان من تلك النواحى، فهذا المجرم العالمى الذى يجب أن يلقب بـ « إله الحرب » ما كان يتورع عن إغراق ١٨ مليونا من البشر فى سبيل بريطانيا.

إذا كان الرأى العام قد عذر بعض الناس على انخداعهم بالإنكليز فى الحرب العظمى الأولى فلا يمكن أن يقبل لهم عذراً إن انخدعوا فى الحرب الثانية . وتكون المسألة أنهم كانوا مغفلين فى الأولى وخونة فى الثانية . وليس من اللغو ما جاء فى الحديث الشريف « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

صفحات سوداء

إننى لا أزال فى صدد حالة الحرب وأخبارها، ولذلك لابد من سرد بعض الأمور لتسجيلها على بعض المستحقين للمسئولية عبرة لغيرهم ، فأرجو القارئ أن لايستعجلنى فى ذكر حوادث السجن وما بعدها الخ .

إن أقسى ما كان يحرق قلوبنا فى أيام الحرب هو قيام بعض العرب والمسلمين بالدعاية للانكليز وتأييدهم بجميع وسائل التأييد بدلا من أن يعملوا على الخلاص من الاستعمار بالقيام على الإنكليز وعلى هولندا وإسبانيا وفرنسا ، واغتنام تلك الفرصة النادرة التى لا تتكرر . ولذلك مددت يدى إلى لفافة أوراق تناولت منها قبضة من المفكرات والمذكرات التى كنت أدونها وأجمعها وأحتفظ بها فى أيام الحرب . وإليك خلاصة لبعض ما فيها، على أن أعود إليها فى سياق هذا الكتاب وأقتبس منها .

فأول ما صدمنا به من أنباء نفاق المسلمين والعرب أن أغاخان أسرع بالتبرع لبريطانيا بالمال وإعلان تأييدها ، وقد بادر أتباعه من طائفة الاسماعيلية فى الهند وأفريقيا إلى الاقتداء به ...

وأغاخان هذا الذى يعد من المسلمين سبق لأهل فلسطين أن طلبوا معونته المالية فقال لهم أرسلوا وفداً إلى الهند لأساعدكم ، فأرسلوا الوفد فلما درى أغاخان بوصول رجال الوفد إلى بومباى هرب هذا الأغا من بومباى إلى البنغال فى أقصى الهند !

وفى سنة ١٩٣٨ عين الإنكليز صاحبهم أغاخان رئيساً لدورة عصبة الأمم بجنيف فأرسلت إليه برقية مؤثرة باسم اللجنة الفلسطينية ضمنتها ظلامة أهل فلسطين وناشدته إنصافهم فرد

علىّ ببرقية يقول لى فيها إنه لا يستطيع أن يصنع لفلسطين شيئاً عملا بواجبه كرئيس محايد! وهذه البرقية كانت بإمضائه ولا تزال محفوظة عندى .

ونهض ملك حيدر آباد بالهند لتجنيد رعاياه فى الجيش البريطانى والتبرع لبريطانيا بالملايين مع أن هذا الملك المسلم الغنى بخل على أهل فلسطين بما يساعدهم على إقامة مدرسة علمية فى القدس حتى إن السيد أمين الحسينى ومحمد على باشا علوبة ذهبا إليه سنة ١٩٣٤ وقابلاه فى عاصمة ملكه فهز رأسه متردداً ثم تبرع بسبعة آلاف جنيه فقط بشرط أن ترسل إلى المندوب السامى البريطانى بالقدس ليسلمها هو إلى أهل فلسطين (١) .

وهرول محمد فرغلى باشا من أغنياء الأسكندرية وتبرع للجيش البريطانى بألف جنيه واعداً بغيرها . وركض فلان وفلان وفلان فى فلسطين يحضون على التطوع فى الجيش البريطانى وأعلنوا استعدادهم لأن يقودوا فرقة المتطوعين بأنفسهم! وأفضى الدكتور عبدالرحمن شهبندر بحديث لشركة برقيات هافاس الإفرنسية معلنا تحبيذ الميثاق الثلاثى البريطانى وقال إن سورية تعمل إلى جانب الحلفاء فى حقل واحد لمكافحة الاعتداء الألمانى . وهرع الشيخ محجم بن مهيد رئيس عشائر عنزة فى بادية سورية إلى بيروت فقابل مندوب فرنسا فيها وأعلن عزمه هو وعشائره على التطوع لمحاربة الألمان وأنه لا يقبل بفرنسا وبريطانيا بديلا ، أما استقلال بلاده فلم يفكر فيه كأنه أمر لا أهمية له عنده ...

وقدم محمد رضا خان أمير رامبور فى الهند ضيعته الريفية التى يملكها بانجلترا إعانة حرب للدولة البريطانية التى تستعمر بلاده ، وقام جماعة من شوافنة لبنان وأعلنوا التبرؤ من الأمير

---

(١) بقى هذا المال محجوزاً عند المندوب البريطانى بفلسطين من سنة ١٩٣٣ إلى ١٩٤٧ أى ١٥ عاما ثم سلمه إلى المجلس الإسلامى الأعلى بعد أن أصبح هذا المجلس الأدنى تحت سيطرة الإنكليز تماما وعندما أصبح أهل فلسطين على وشك الإجلاء عن وطنهم ثم أجلاهم اليهود فعلا .

أما مكافأة بريطانيا لملك حيدر آباد على إخلاصه لها فهى أنها جلت عن الهند وتركت حيدر آباد وملكها فريسة لانتقام الهنادك فاستولوا على بلاده وعلى ثروته الشخصية وحبسوه فى قصره وأذلوا شعبه وأزالوا الحكم الإسلامى من مملكته . وكان هذا الملك بخيلا برغم أنه يعد أغنى رجل فى العالم لأنها على ما تواتر تبلغ ٦٠٠ مليون جنيه .

شكيب أرسلان الذى يجاهد فى سبيلهم بأوربا وأعلنوا أنهم تطوعوا فى الجيش الفرنساوى ! وتبرع إلياس السكاف نائب البقاع فى لبنان بـ ٢٥ طنا من القمح والعدس للجيش الفرنسوى بينما كان أهل بلده وأقاربه يغالبون الجوع . وافتتح شرق الأردن مجلسه التشريعي يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٩ فبدلا من أن يعلن الحداد على فلسطين بسبب وعد بلفور الذى أعلنت فيه بريطانيا فى مثل ذلك اليوم من سنة ١٩١٧ جعل فلسطين يهودية وأن يحتج عليه ، قام يثنى على بريطانيا ويؤيدها ويمنحها ثقته وثقة العالم العربى كأن العالم العربى قد وكله ليتول هذا الكلام .

ومن أظرف ماتلقته فرنسا فى سورية من عبارات التأييد أن بهيج الخطيب رئيس حكومة المديرين فى سورية عقد مجلسه وأرسل للمندوب الفرنساوى يعلن سخطه « على الاعتداء الألمانى المجرم على بولونيا المسالمة » إلى آخر ما جاء فى احتجاج بهيج الخطيب الذى لم يشعر إلى الآن بأن فرنسا معتدية على وطنه هو اعتداء إجراميا حقيقيا !

وهرول حق العظم رئيس حكومة سورية الأسبق والمعروف بجنونه بحب فرنسا ، إلى الصحف السخيفة وصار يغطى صفحاتها بالأحاديث التافهة مدحاً بفرنسا وشتماً لألمانيا ، ولا أدرى بماذا أساءت إليه ألمانيا ...

وراح وزير العراق المفوض فى الحجاز يعطى أحاديث للنشر يقول فيها إن العراق والعالم العربى يؤيدون بريطانيا على سحق النازية ، كأنه يعرف النازية أو كأنها اعتدت على وطنه ! وأقام بعض المسلمين فى بيروت مظاهرة حضرها مفتى الجمهورية الشيخ توفيق خالد والأعيان وخطب شيخ يسمى محي الدين المكاوى بتأييد فرنسا ثم سرد آيات من القرآن وأحاديث نبوية زعم أنها تحض على تأييد فرنسا والحلفاء ، ثم بدأت يومها التبرعات للصليب الأحمر الفرنسوى! ونشرت صحف القاهرة حديثاً لشيخ علماء الإسكندرية يؤيد فيه الديمقراطية ويطعن بألمانيا ويزعم أن العالم الإسلامى يؤيد بريطانيا لأنها دولة إسلامية عظيمة وأن فرنسا كذلك صديقة للإسلام وهى كذلك دولة عظيمة ... مع أننا لا نراها تتعظم إلا علينا ، ولا يعظمها أحد سوى خونة المسلمين .

وقد أرسلت من عاتب الشيخ على هذا الكلام فزارنى فى مكتبى واعتذر قائلا : إن مندوب

جريدة البورص اليهودية الافرنسية بالقاهرة زاره فحدثه عن أشياء ولكنه حرفها . فقلت له إن دينك يأمرك بأن لاتأمن لليهود ولم يأمرك بالطعن في أعداء انجلترا عدوة وطنك ودينك.

ثم وصل إلى مصر الأمير على بن أغاخان الهندى متطوعاً بالجيش البريطانى برتبة ضابط! وأفضى نصوح البخارى رئيس وزارة سورية سابقاً بحديث لجريدة البشير منوهاً بانتصار بريطانيا وفرنسا ...

وذهب الدكتور عبد الرحمن الشهبندر المترعم السورى فى ٥ ابريل ١٩٤٠ إلى المسيو بيو المندوب الفرنساوى الواطى يؤكد له الولاء فشكره بيو على تمنياته نحوفرنسا وعلى البرقية التى أرسلها بتهنئة المسيو رينو رئيس الوزارة الفرنسوية .

وبعد ذلك سافر الشهبندر إلى دمشق وأخذ يروج للسياسة الاستعمارية وقال للذين هنأوه بسلامة القدوم كما روى مراسل المقطم فى عدد ١٦ ابريل ١٩٤٠ « ان ثقته تامة بالتدابير التى اتخذها الحلفاء ، أى انكلترا وفرنسا للدفاع عن الشرق » ...

ثم خطب فى احتفال عقد فى دمشق لتكريم فرق الرياضة البدنية فى شرق الأردن خطابا صرح فيه بما يأتى ـ سواء أرضيت محطة الإذاعة فى برلين أم لم ترض فإننى أعلن بكل وقار وخشوع هنا وفى كل مسجد وفى كل كنيسة أن مصلحة العرب الحقيقية هى فى تأييد الحلفاء حتى ينالوا النصر والظفر ـ .

فكان لهذه الدعاية للأجانب أسوأ وقع وقد اغبرت لها الوجوه ، وانكسرت الخواطر ، ولكن الأمة السورية الواقفة له ولأمثاله بالمرصاد لم تمهله بل ذهب إليه بعض الدمشقيين وقتلوه فى داره ، فغضبت له فرنسا وأوعزت بدفنه بجوار السلطان صلاح الدين الأيوبى ! وكتب سلطان البهرة فى الهند إلى الحكومة البريطانية فى يناير ١٩٤٠ خطاب ولاء داعياً لها بالنصر وأن طائفته تتبرع بسخاء لمساعدة صندوق الحرب . وخطب حاكم بهوبال فى الهند مؤيدا بريطانيا بكل مالديه من قوة[١] .

(١) زار دمشق فى أواخر سنة ١٩٥٠ السيد على أكبر شاه عضو برلمان السند وقد ذكر من =

وفى عيد الفطر فى زنجبار خطب السلطان فى الراديو داعيا بحفظ بريطانيا التى تحمى بلاده ، ولكن ممن تحميها أيها السلطان بعد أن سلبتك إياها ؟ أم تراها قد حمتها منك ومن شعبك فأخذتها لنفسها لتحفظها أمانة عندها ...

ونظرت جماعة كبار العلماء بالأزهر فى اقتراح بإعلان بيان على العالم الإسلامى بمؤازرة الديمقراطية ...

أكتفى الآن بهذا المقدار من وصف اندفاع بعض المسلمين والعرب فى أيام تلك الحرب وتأييدهم للإنكليز ، بدلا من القيام عليهم لإنقاذ أنفسهم منهم ، على أن أعود إلى سرد أمثال تلك المخازى فى مناسبة أخرى . إننى لا أقصد التشهير بهؤلاء الناس بقدر ما أريد العبرة وتحذير قومى حتى لايقع ذلك منهم مرة أخرى إن وقعت انجلترا فى حرب فى المستقبل ولكن هيهات ، لأن الحرب العظمى الثالثة واقعة قريباً بلا شك وسيتهافتون على تأييد بريطانيا مرة ثالثة ...

الدكتور أمين رويحه

وفى أوائل الحرب فوجئنا بأن نورى باشا السعيد رئيس وزارة العراق قبض على المجاهد السورى الشهير الدكتور أمين رويحه وسجنه فى إحدى مدن كردستان ، فكان لهذا الحادث أشد وقع ، فكيف العمل لإنقاذ هذا البطل من أيدى الظالمين بينما الدنيا فى حرب والاتصال البريدى والبرق غير ممكن ، والكتابة فى الصحف لإثارة الرأى العام مستحيلة . إذن فإغاثته متعذرة إلا إذا كسر الله الإنكليز وكسر معهم نورى السعيد وبقية أعوانهم .

= فظائع الإنكليز أنهم لما استولوا سنة ١٨٧٥ على مدينة دهلى عاصمة الهند قبضوا على آخر ملوك الهند المسلمين الأمبراطور سراج الدين محمد نادر شاه ونفوه إلى بورما فمات غريباً فقيراً فدفنه الإنكليز فى أرض جعلت بعد ذلك ملعباً لكرة القدم حيث تطأ أقدامهم قبره وجعلوا من هذه الإهانة للاسلام رمزاً لسلطة بريطانيا وجبروتها ...

وحاكم بهوبال هذا الذى يؤيد الإنكليز « بكل قوة » كما يقول ، إنه يعرف قصة آخر أمبراطور مسلم للهند ، ولكن ماذا تصنع مع هؤلاء الذين أعمى الله قلوبهم بعد أن أعمى بصائرهم .

حوادث وأخبار

فرنسا الحمقاء

بينما كانت فرنسا تتحطم تحت سنابك دبابات الألمان في أوربا وتوشك جيوشها أن تسلم، وبينما كان خونة سورية يتسابقون لإرضاء فرنسا وينضمون إليها برغم أنها قد أزالت الحكم الوطني - إذا بالسلطات الفرنسية تقبض على عشرات من خيرة السوريين وتحكم عليهم بالسجن عشرين سنة و ١٥ سنة و ١٠ سنين الخ .. ومنهم نبيه بك العظمه وعادل بك العظمه والأساتذة منير الريس وأحمد الشرباتي والحاج أديب خير ونجيب الريس وفهمي المحايري والدكتور رشدي الجابي الخ ... فكان ذلك أسطع دليل على حماقة الفرنسيين وجنونهم وتخبطهم ، ولذلك توقع الجميع سقوط دولتهم الملفقة والتي لولا غفلة المسلمين والعرب ما عاشت إلى هذا الوقت .

والغريب أنه بعد هذا كله وبعد أن سقطت فرنسا فعلا وسلمت للألمان الذين دخلوا باريس ، بقي في الشرق ومراكش شيء يسمى فرنسا ، بل حملت الغفلة بعض الناس على الموت في سبيل فرنسا !

وذلك أن بقايا الفرنسويين في سورية ولبنان استطاعوا تجنيد بعض السوريين واللبنانيين وظلوا يحكمون بلاد المغرب كلها، تونس والجزائر ومراكش ويجندون أهلها . وقد هلك عدد كبير من اللبنانيين في معركة « بير حكيم » في برقة . ولا أنسى أن أنوه بأن نحو ٧٠ ألف جندي سوري ولبناني في أميركا الشمالية والجنوبية قد تطوعوا في جيوش الحلفاء . وأكثر من مثتى ألف جندي مغربي قتلوا في إيطاليا في سبيل فرنسا وبعضهم في أرض فرنسا!

ورحم الله معروف الرصافي يوم قال منذ نصف قرن :

عجبت لقوم يخضعون لدولة … يسوسهمُ بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها … ومالها منهم ومنهم جنودها

وجود حكومة شرق الأردن

لقد كان غرض الإنكليز من إيجاد هذه الحكومة بين البادية وبين فلسطين أن يجعلوها

قلعة لاستعمارهم وقد وضعوها هناك لتحمى إنشاء دولة اليهود بفلسطين وقد قلنا هذا وكتبناه مراراً فى الصحف منذ خمسة وعشرين عاما . فقد كانت الثورات العربية تقوم على الإنكليز فى فلسطين المرة بعد الأخرى، فكان اليهود ينكلون بالعرب فلا تتحرك حكومة شرق الأردن إلا لمنع سكان البوادى من الزحف على فلسطين لإنجادها وإنقاذها، وكان جيش الأردن يتولى حماية الحدود من العرب لا من اليهود ! بل ان جيش الأردن قد استخدم مرة فى صد مجاهدى سورية سنة ١٩٢٦ عن الالتجاء إلى بادية الأردن ، واستخدم لإقصاء المجاهدين النازلين فى الصحراء وطردهم عن مياه الأزرق ، بل ان أحد أبناء صاحب الأردن قد تطوع فى الجيش البريطانى للتمرن على حركات الحرب وذلك فى خلال ثورة فلسطين الكبرى سنة ١٩٣٦_١٩٣٩ فكان يتمرن على ذلك مع كتيبة أردنية فى مقاتلة الثوار المجاهدين الفلسطينيين ...

ثم رأينا جيش الأردن بعد ذلك يستخدم فى قتال العراقيين وإخماد حركة السيد رشيد عالى الكيلانى الاستقلالية بدلا من استخدام هذا الجيش فى قتال الإنكليز ...

كلها قيراطين . . .

وماأعجبنى شىء ينطبق على دولة شرق الأردن مثل أزجال لمحمود بيرم التونسى عن مملكة الجبل الأسود التى كانت موجودة فى البلقان وأزيلت من الدنيا فى الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ومن ذلك هذه الأبيات التى خاطب بها تلك « المملكة » لما أعلنت الحرب على الدولة العثمانية فى حرب البلقان سنة ١٩١٣ قال :

فتشت كل الخريطة — احترت أشوفك فين
بس اللى سماك « جبل » — جاب الكلام ده منين
دستور ودوله وملك — وبرلمان وجيشين
مدنى وحربى — وكل المملكة قيراطين !

هولندا والبلجيك

سبحان الله ما أسرع وقوع الطيور على أشكالها ، فإنه لاتقع حرب بين ألمانيا وانجلترا

إلاوجدنا هولاندا والبلجيك تنضمان إلى انجلترا ، على حين كان المنتظر انضمامهما إلى ألمانيا بحكم أنهما تجاوران الألمان وليس من صداقتهم بد . كما أن الهولنديين من جنس « الدوتش » وهو قريب من الجنس الألمانى .

فما السر يا ترى فى انحياز هولاندا والبلجيك إلى انجلترا دون ألمانيا؟ هذا هو الأمر الذى حير الناس طويلا . والحقيقة أن الإنسان لو فكر قليلا فى صناعة الاستعمار لوجد السبب الحقيق واضحاً ، وهو أن هولاندا والبلجيك هما من الدول المستعمرة التى تحكم بلاداً شاسعة تستغلها وتسرق مواردها ، كانجلترا وفرنسا تماماً . وأما الألمان فلا مستعمرات لهم، وهم إنما يثورون على الدول المستعمرة ويحاربون طلباً للحصول على مستعمرات ، فالبلجيك وهولاندا متفاهمتان مع الإنكليز الذين أقروا لهما بحق وجود مستعمرات لهما. بعكس الألمان الذين يخشى شرهم وطمعهم بالمستعمرات ... إذن فليس للدولتين إلا الانحياز للإنكليز كما ينحاز اللص الصغير إلى اللص الكبير ليحميه من البوليس ... وكيف لا تركض هولاندا ذات الملايين السبعة وهى تحكم ٧٥ مليونا بأندونسيا ولا تنضم إلى انجلترا ، كما أن هناك اليابان أيضاً فهى تطمع فى أندونسيا ، ولذلك يجب أن تنحاز هولندا إلى انجلترا .

صراخ الإنكليز

ولما اشتدت الحرب وأخذ الإنكليز يذوقون نار الألمان صاروا يصيحون من الفظائع الألمانية ، مع أنهم ارتكبوا فى فلسطين مع العرب أشنع مما لقوا من الألمان . مع بعد الفرق بين حالة الفلسطينيين الذين يدفعون عدوان الإنكليز عن وطنهم ، وبين حالة الإنكليز الذين اعتدوا على الألمان وأعلنوا عليهم الحرب بلا سبب إلا الرغبة فى سحق ألمانيا قبل أن تتقوى وتصبح خطراً حقيقياً يهدد أمبراطوريتهم بالزوال .

يعرفون الله ...

ولما أخذ الألمان يضربون مدن انجلترا بقنابل الطيارات صرنا نسمع أن الإنكليز أصبحوا يتجهون إلى الله ويقيمون الصلوات فى الكنائس ابتهالا إليه تعالى بأن يرفع عنهم ذلك البلاء . ومن ذلك أن الملك والملكة ومعهما ملكة هولاندا التى هربت من بلادها قد هرعوا إلى الصلاة

فى كنيسة وستمنستر من أجل قضية الحلفاء . وكان فى مقدمة الحاضرين رئيس الوزارة والوزراء فخطب رئيس أساقفة كنتربرى خطبة أحب أن أسجل مطلعها ، قال : « إننا نعيش الآن فى ساعة سوداء تهددنا بخطر هو أعظم ماهدد أمتنا فى عمرها الطويل . إن الذى يخاف الرب منكم وهو يمشى فى الظلام ولا نور عنده ليتكل على اسم الرب ويعتمد على إلهه . يارب كن ملجأ لنا من دور إلى دور » .

هكذا كان حال الإنكليز وهم يتلوون تحت سياط الألمان ويستدرون الدمع للرفق بهم وبحالهم كأن الألمان قد اعتدوا عليهم ، ولكن لما كسبوا الحرب لم نعد نسمع أنهم أقاموا صلاة ولا قداساً ... وقد قال الشاعر العربى :

صلى وصام لأمر كان يطلبه   لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما!

بل إن الافرنسيين لما استسلموا ولم يبق لهم أمل إلا الاحتفاظ بمستعمراتهم الإفريقية العربية على الأقل أصدروا مجلة باللغة العربية اسمها « يا الله » !

وكانوا ينشرونها بالفصحى وبالعامية ، ومما كانوا ينشرونه فيها أن فرنسا سمحت بإقامة حفلة للمولد النبوى فى مراكش ، وإقامة صلاة العيد فى تونس ، وأنها سمحت لملك مراكش بحضور الحفلات فى مدينة الرباط ، ولملك تونس بحضور حفلة العيد ! ومعنى ذلك أن جنون فرنسا كان يحملها منذ نصف قرن على منع هذين الملكين من حضور الصلاة فى الأعياد ! فلما كسرها الألمان تفضلت وسمحت لهما بهذه الصلاة !

لقد ذكرنى هذا النفاق الصغير بحفلة وقحة أقامها الافرنسيون فى سورية فى أول الحرب ليظهروا جبروتهم أمام السوريين ويؤكدوا تحديهم للإسلام، وذلك أنهم تجمهروا بجيوشهم أمام إحدى القلاع الصليبية الأثرية فى منطقة اللاذقية واصطفوا خلف القس وبأيديهم السلاح الذى كان يلمع فى وجوه السوريين ويخطف ببريقه أبصارهم ثم أقاموا « قداساً » ونادوا بأنهم عادوا إلى تلك المناطق بعد سبعمئة سنة ولن يخرجوا منها؟!

ولكنهم أخرجوا منها بعد خمس سنين فقط وهم أذلاء ، وهاأنذا أطبع هذا الكتاب وليس فى سورية ولبنان علج واحد منهم .

كرم بعض المسلمين للأعداء

وفى خلال هذه الأيام نشرت جمعية الاتحاد النسائى العربى بفلسطين نداء بطلب التبرع لايتام شهداء ثورة فلسطين وعددهم يربو فى ذلك الحين على ثلاثين ألف يتيم ويتيمة ، ولكن لم يستجب أحد لذلك النداء المحزن . بينما كنا نقرأ فى ذلك الحين عن قيام جمعيات عديدة لإسعاف منكوبى وجرحى انجلترا وفرنسا والبلجيك وبولونيا واليونان ! وقام محمد طاهر باشا من كبار الأعيان الأغنياء برياسة لجنة لإعانة بولونيا فى دار جمعية الهلال الأحمر التى لم نسمع أنها فى حياتها تبرعت للمسلمين بقرش ، ولكنها تتبرع لجميع الأمم ولو كانت من الشياطين ، بشرط أن لاتكون تلك الأمم عربية أو مسلمة . وإنى لأذكر أن المنفيين العرب فى روديسيا قد كتبوا إلى مدير دار الكتب المصرية (الدكتور منصور فهمى باشا) يطلبون منه التبرع لهم ببعض الكتب العربية ولكنه أصم أذنيه ، وقد فهمت منه أنه كان يخاف أن تقبض عليه السلطة البريطانية إن استجاب لهذا النداء . هكذا صور له وهمه ...

وجزى الله جمعية الصليب الأحمر خيراً فإنها لما تلقت من المبعدين مثل ذلك الرجاء بادرت وأرسلت إليهم عشرات من الكتب، ولم تقبض السلطة على مديرها ...

ثم قرأت فى الصحف أن سلاطين اللايو وهبوا الحكومة البريطانية مليون جنيه ونصف مليون إعانة حرب ، كما تبرع الأمير « فلان ابن فلان » فى مصر لمنكوبى فرنسا بمئة ألف فرنك ، وبمبلغ ألف جنيه للصليب الأحمر البريطانى و ٥٥٠ جنيهاً لجمعية الصليب الأحمر الفرنسية و ١٥٠ جنيها لجمعية الصليب الأحمر البلجيكية ...

ولما أرسل الأمير هديته إلى انكلترا قال فى كتابه إلى اللورد هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية انه يدعو الله أن يمنح الإمبراطورية نصراً عاجلا ... نعم نصراً عاجلاً كأن النصر البطىء لا يكفى ... وقد حقق الله دعاء الأمير ونصر بريطانيا . ولم يحقق سبحانه وتعالى دعاء الدنيا كلها بكسر انكلترا التى بقيت إلى الآن فى مصر بعد انتصارها تسومنا وتسوم الدنيا كلها أنواع العذاب .

أخبار الدكتور أمين رويحة

ذكرت فيما سبق أن نورى السعيد قد سجن المجاهد الدكتور أمين رويحه فى كردستان وقد بقينا شهوراً ونحن نستطلع أخباره فكنا نسمع عنها كل مؤلم ومحزن، وسمعنا أن جنود نورى السعيد لما دهموا دار الدكتور أمين خربوا وحطموا ، وكانت حجتهم فى ذلك التفتيش البحث عن أسلحة ، لأن نورى والإنكليز كانوا يعرفون أن هذا المجاهد العربى الذى أبلى فى جهاد سورية سنة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ ثم فى جهاد فلسطين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ كان يعون المجاهدين الفلسطينيين بالسلاح، ولكنهم لم يجدوا عنده سلاحا بل وجدوا ٥٠٠ جنيه لقرينته فغنموها ... ووجدوا بمنزل الدكتور كتابا من الملك ابن سعود يلقبه فيه بولده فصادروه ووجدوا وساماً من هتلر زعيم ألمانيا أهداه للدكتور أمين بسبب صداقة قديمة بينهما قبل أن يصبح هتلر زعيما لألمانيا[1] .

الدكتور أمين رويحة لما قبضوا عليه
سنة ١٩٤٠

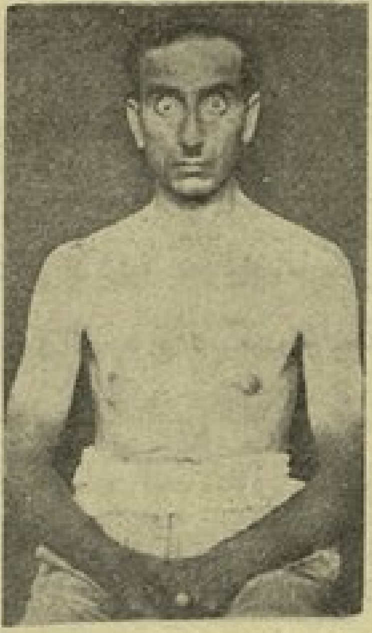

هكذا أصبح الدكتور رويحة وهو
فى سجون الإنكليز إلى سنة ١٩٤٦

(١) لما كان الدكتور أمين يدرس الطب فى ألمانيا حضر اجتماعاً لشباب النازى فى حانة مونيخ أصيب فيه الشاب هتلر بإغماءة فأسعفه الدكتور أمين. فلما صار هتلر زعيما للريخ الألمانى تذكر صديقه العربى الذى تخرج بعد ذلك من ألمانيا وصار طبيباً من خيرة الجراحين ومجاهداً ضد المستعمرين، وأهداه وساماً ألمانياً اعترافاً بالصداقة القديمة . ولكن أعوان الإنكليز لما صادروا الوسام اتخذوه دليلا على أن رويحة كان عميلا لألمانيا !! وأما أعوان الاستعمار فإن لهم أن يخدموا الإنكليز وأن يحملوا أوسمتهم جزاء لهم على خيانة أوطانهم . . .

تلك هى ذنوب أمين عند الإنكليز ولكن لماذا يتكدر نورى السعيد من ذلك ؟ بل انى أعرف أن صداقة الدكتور أمين للألمان قد أفادت نورى السعيد نفسه عند ما زار ألمانيا هو وابنه إذ أعطاهما الدكتور أمين كتاب توصية للحكومة الألمانية فأكرمتهما . وصداقة الدكتور أمين لألمانيا ليست عيبا لأنها لم تعتد على وطنه ، ولكن العيب فى صداقة نورى السعيد للإنكليز الذين يستعبدون وطنه ويذلون أهله .

ولنرجع إلى الحديث عن أسرة الدكتور أمين ، فقد سمعنا أن زوجته قد تركت طفليها فى بغداد وأحدهما رضيع ، وسافرت إلى كردستان تبحث عن زوجها فوجدته فى السجن على أسوأ حال من المرض ، ثم بلغها أن الطفل الأكبر فيصل قد أصيب برمد خطر فتركت زوجها السجين ورجعت إلى ولدها المريض وشقيقه الرضيع ..

ولما ذاع بين الناس خبر ما نزل بالدكتور أمين اضطرب بعض ضباط الجيش خوفا عليه لأن الدكتور أمين كان مديراً للمستشفى العسكرى ويحمل رتبة (عقيد) أو قائمقام ، وأهل العراق والضباط خصوصا يحبونه تقديراً لوطنيته ، فلم يسع نورى السعيد رئيس الوزراء إلا الإفراج عنه بشرط أن يستقيل من الجيش ويلزم السكون ولا يشتغل بالسياسة .

ولكن الدكتور أمين لم يجد ما يكفل الشفاء له ولولده فى العراق ـ فسافر وأسرته بإذن من حكومة نورى السعيد إلى الاسكندرية ليجد فى القطر المصرى العلاج لنفسه ولطفله المهددة صحته وعينه بالخطر . أما الطفل الرضيع فقد تركوه فى دار محمود بك سلمان رحمه الله[1] وفى أحد الأيام خاطبنى أحد معارف بالتليفون وقال أتدرى كم عدد المعتقلين الآن فى فلسطين ؟ فقلت : نعم إن عددهم كما قدرته شركة هافاس البرقية ٢٢ ألفا . فقال : لقد زاد عدد المعتقلين

---

(١) كان المرحوم محمود سلمان قائداً عاما للقوة الجوية العراقية وكان مشهوراً بالوطنية الصحيحة ومتانة الأخلاق . ولما نشبت الحرب العراقية البريطانية سنة ١٩٤١ أذاق الإنكليز بطياراته ناراً حامية ، ولما انهزمت الحركة العراقية التحريرية أمام خذلان الخونة لوطنهم وأمام غدر الإنكليز نزح المرحوم إلى إيران ولكنه وقع بيد الأعداء فأحضروه إلى بغداد وجعلوا الحكومة العراقية الموالية لهم تحكم عليه بالإعدام فأعدم ظلماً وخيانة رحمه الله وعوض الأمة على فقده . وإنى أكتب هذه السطور على أثر وصول زوجته وأطفاله إلى مصر بعد أن تشردوا فى أوربا مدة طويلة وقد صادرت الحكومة العراقية أملاك والدهم وحرمتهم مرتب التقاعد الذى يستحقونه ، كأن العقاب يجب أن يشمل ذريته أيضاً ، فلا حول ولا ...

شخصاً واحداً . فقلت من هو؟ فقال هو الدكتور أمين رويحة، فقد كان قادماً بطيارة إلى الإسكندرية فأشارت إليها سلطات فلسطين بالهبوط بمطار اللد وأخذوا منها الدكتور ووضعوه فى السجن وتركوا زوجته وطفلها فيصل المريض يواصلان السفر وحدهما وهما الآن فى المستشفى بالإسكندرية إذن فالأم مريضة والطفل الكبير مريض والرضيع فى بغداد والوالد فى السجن . فقلت اللهم لا حول ولا . ولم أجد ما أصنعه بعد انتعاش الوالدة إلا استقدامها والولد إلى دارنا فى القاهرة حيث قبلت ضيافتنا أياماً إلى أن اتخذت مسكناً خاصا ، وكان القلب يتفطر على أب مجاهد فى السجن وهو مريض وزوجة مريضة ومعها طفل مريض تاركة فى بغداد طفلا رضيعا، فلم يسعنا إلا لعن الظالمين وأعوان الظالمين .

وكانت أخبار عذاب الدكتور أمين فى سجون فلسطين تصل إلىّ وكلها تمزق القلب ، وكان أشدها ألما فى النفس موقف عبد الحميد شومان صاحب البنك العربى مع الدكتور ، فقد بلغنى أنه احتاج إلى شىء من المال وهو فى السجن فأرسل مع أحد المفرج عنهم ورقة طلب فيها من شومان أن يقرضه خمسة جنيهات وأن يدفعها إلى تاجر بالقدس وهو يستطيع إخبار قريبه السجين مع أمين بدفعها إليه ، فإذا بعبد الحميد شومان يرفض ويصيح مستنكراً هذا الطلب متبرئا من الدكتور أمين ومن معرفته أيضا !

الدكتور أمين رويحة فى الصحف

ولم تسمح الرقابة بنشر شىء عن حكاية الدكتور أمين إلا الخبرين الآتيين، أحدهما فى مجلة تصدر فى بيروت ، وخلاصته أن الدكتور أمين رويحة صديق الألمان قبض عليه بفلسطين وهو فى طريقه إلى ألمانيا[1] ثم وبخته تلك المجلة وقالت له : « إلى أين يا دكتور إن ألمانيا لن تكون ملجأ للعرب، فهى الدولة التى نفرت منها شعوب العالم المتمدن قاطبة ، فيالله من رجل لم تعجبه الحياة فى بغداد العربية فهرب بالطائرة إلى الجحيم ، ولكن السلطات البريطانية أنقذته ... » وإليك الخبر الثانى :

ماذا قالت برقيات الاستعمار عن هذا الاعتقال وأسبابه؟

القدس فى ٣ ديسمبر ١٩٣٩ ، هافاس : اعتقل أمين رويحة فى مطار اللد إذ كان على أهبة

(١) إن الذى يترك طفله الرضيع فى بغداد لايعقل أن يقطع صلته بالعراق وينضم إلى الألمان

السفر إلى أوربا وهو من المتطرفين العراقيين وقد اعتقل تلبية لطلب حكومة بغداد والمعروف أنه كان طبيباً للمفوضية الألمانية فى بغداد وكان فى أثناء اضطرابات فلسطين على اتصال وثيق بالمفتى والقاووقجى . والمظنون فى المقامات الخبيرة أن أمين رويحة كان قائماً بالتجسس لمصلحة دولة الريخ » .

هكذا صوروا الدكتور أمين ، فى حين أنه سورى وليس بعراق ، وغير صحيح أنه كان طبيباً للمفوضية الألمانية ، وأما التجسس فعقابه معروف فلماذا لم يقدموه إلى المحاكم ؟

أما الشئ الوحيد الذى صدق فيه هذا الخبر فهو وصفه لأمين بأنه جاهد فى ثورة فلسطين وأن الحكومة العراقية ـ أى حكومة نورى السعيد ـ هى التى أرشدت الإنكليز إلى سفره.

وماذا قالوا عنى ....

هكذا قالت تلك المجلة وشركة الاستعمار عن مجاهد لايملك دفاعاً عن نفسه ، وهذا يذكرنى بما وقع لى أنا لما سجنت بعد ذلك بأسابيع قليلة فقد ذهب صديق الوفى النبيل أنطون باشا الجميل رئيس تحرير جريدة (الأهرام) إلى وزارة الداخلية يسأل عنى حمدى باشا محبوب المتصرف بها كتصرف السفاح محمد بدر الدين بها قبل ذلك بعشرين سنة ، فقال حمدى لأنطون باشا: « الأحسن أن لا تفتحوا سيرة محمد على الطاهر الآن لخطورة مسألته ويحسن تركها للزمن إن كنتم تحبونه » فقال أنطون باشا ـ وهو يتوهم أن المسألة خطيرة حقا ـ : لابأس ولكنى أستفهم عما إذا كان الطاهر يحتاج إلى شئ من الملابس والكتب أو المال أو تخفيف السجن عليه . فقال حمدى باشا : أى مال ؟ إنه فى أحسن حال وقد وجدوا عنده أموالا كثيرة جداً، وأشار حمدى باشا إشارة فهم منها أنطون باشا أنهم ضبطوا معى نصف مليون على الأقل ... هذا بينما كنت أعامل فى السجن كسجين فى زنزانة ضيقة تزهق الروح وما كنت أملك إلا ١٣١ جنيها وضعتها فى خزانة السجن . وأما خطورة مسألتى فيكفى أن يعرف الناس أنها لا شئ ولم يوجهوا لى أى سؤال بل لم يجسروا على سؤالى عن شئ مطلقا، وما كان الغرض من حبسى إلا التنكيل والانتقام منى بسبب عدم إيمانى بالاستعمار البريطانى السعيد ...(١)

(١) وفى أواسط سنة ١٩٤٩ قبض على إبراهيم باشا عبدالهادى ـ حين كان فى غفلة من غفلات =

نماذج من نشريات الإنكليز فى هذه الحرب

كانت أساليب الإنكليز فى هذه الحرب تشبه أساليبهم فى الحرب العالمية الأولى . لم يغيروا من تلك الطريقة السخيفة حرفاً لقلة عقولهم وظنهم أن عقول الناس من البساطة بحيث تبقى كما هى قبل عشرين سنة، بل إنهم أداروا دفة الحرب بسياسيين قدماء، وعسكريين قدماء، بينما جدد الألمان كل شئ ، السلاح ورجال السياسة ورجال الحرب وأساليب القيادة والزحف .

قد يقول قائل ولكن الإنكليز انتصروا بوسائلهم القديمة ، والجواب : ان اتساع العالم المحارب لألمانيا وكثرة سكانه وطول الزمن ، كل ذلك هو الذى كسر الألمان لا براعة الانكليز .

وكيف ينتصر الانكليز وهم يعتمدون على السخافات فى نشر الدعاية لأنفسهم وضد خصومهم ، وإلا فمنذا الذى لا يبتسم وهو يقرأ بعد أيام من نشوب الحرب أنهم أغرقوا ثمانين غواصة ألمانية ، وأن هتلر قبض على جوبلز وزير الدعاية لخيانته ! مع أنه ثبت أن جوبلز كان أخلص زعيم ألمانى لوطنه ، ويكفى أنه بقى يحارب إلى آخر لحظة ، فلما رأى الانكسار انتحر هو وزوجه وأطفاله . فياله من رجل فذ أبى فضل هذا المصير الفاجع على ذل الأسر والاستسلام للعدو .

ومن سخافات الانكليز أنهم بعد أن أغارت طيارات الألمان على منطقة كرويدن بضواحى لندن ودمرتها وجعلت عاليها سافلها ، قالوا عن سكان لندن إن مظاهر الفرح بدت عليهم لكثرة الطيارات الألمانيه التى سقطت ، مع أن الذى خربته الطيارات فى تلك الليلة يساوى ثمنه وقيمته العسكرية أكثر من عشرة آلاف طيارة ألمانية . وفى ٢٥ اغسطس سنة ١٩٤٠ نشرت شركة روتر هذا التلغراف البديع : « لندن ـ ألقت الطائرات الألمانية اليوم عدة آلاف من القنابل المحرقة على إحدى المناطق العامرة الواقعة جنوب انجلترا بغرب ولكنها لم تحدث أضراراً ولم تنشأ عنها خسائر فى الأرواح » هذا هو النبأ ـ آلاف من القنابل المحرقة تلقى على بلد ثم لا تحدث فيها خسائر فى الأرواح أبداً ... وليتهم قالوا إنه لم يصب سوى كلب أو أرنب فقط ...

= الدهر رئيساً للوزراء ـ وحبسنى بلا سبب ولا موجب مطلقاً ، ولم يكتف بذلك بل أمر جريدته أن تنشر أنى حبست لأنى « خطر » على الأمن العام ! وقصة هذا الاعتقال معروفة وقد وضعت عنها كتاباً سميته « معتقل هاكستب » وهو فى نحو ٧٠٠ صفحة و ٤٤ صورة .

ولكن لماذا المزاح ؟ إنهم قالوا ماهو أسخف من ذلك على أثر غارة للطيارات على باريس فى ٣ يونيو ١٩٤٠ وان الخسائر كانت دجاجة واحدة ...

ومن فكاهات الإنكليز وهم لايقصدون الفكاهة بل مخادعة الناس وخداع أنفسهم أن جريدة الديلى تلغراف اللندنية نشرت فى ٢٥ أغسطس ١٩٤٠ أن المستر مرتون مراسلها فى الشرق قام برحلة فى سيارة حول عدن وجنوب بلاد العرب فكان ركاب الإبل من الأعراب فى البادية يسألونه عن سير الحرب، وكانوا كلما سمعوا منه بعض الأخبار يرددون الدعاء إلى الله بأن يكتب النصر لملك الإنكليز ...

وقال مرتون(١) فى رسالته إن نتائج الدعاية البريطانية ، أى الأكاذيب ، كانت عظيمة جداً الخ... وهذا غير صحيح بل كان الناس يسخرون عند إذاعة الأخبار البريطانية ؛ وكلما كان المذيع يقول إن الطيارات الإنكليزية « عادت كلها إلى قواعدها سالمة » كان العوام من زبائن القهوات البلدية يسبقون المذيع ويقولون « وعادت طياراتنا إلى قواعدها سالمة » ...

ومن نكات الحرب أن الإنكليز لما خرجوا من شنغهاى تحت ضغط اليابان عليهم والتهديد بالحرب ، سحبوا جيوشهم من المدينة وأعلنوا أنه لا لزوم لوضع جنود إنكليز بشنغهاى لحماية الأجانب بعد أن انقضى الغرض من ذلك لأن اللصوص ماعادوا يهددون الأمن العام !!!

رجعة إلى معركة دنكرك

إن هزيمة الإنكليز فى فرنسا وهربهم من دنكرك كان أعظم وأشنع انكسار ذكره تاريخ الإنسان ، ولا يمكن أن يقع مثله على كر الدهور ومر العصور ، وهو الانكسار الذى سموه انتصارا من « الوجهة الفنية » ما مثله انتصار ...

وقد وقع بيدى مستند رسمى لذلك « الانتصار الفنى » وقد نشر على الصورة الآتية :

(١) المستر مرتون يهودى انكليزى أقام بمصر ثلث قرن مراسلا لجريدة التيمس ثم للديلى تلغراف وكان جاسوساً استعمارياً وقحاً ، وكان يأكل خير مصر ويسبها ويكيد لها ، وكان بعض الجبناء والأخساء من رجال السياسة يكرمونه وفى اليوم التالى كان يشتمهم ويسخر منهم ويهينهم ، وفى الحقيقة أن الحق ما كان عليه بل على أولئك السياسيين الأنذال الذين كانوا يبتسمون له بعد طعنه فيهم ، بدلا من إهانته وإهماله وضربه بالعصا أيضاً . وقد ظل هذا الرجل يكيد فى مصر للاسلام والعرب إلى أن أهلكه الله فى حادث سيارة .

« لندن - يونيو ١٩٤٠ - بانهيار منطقة دنكرك المحصنة أصبح بحر الشمال كله فى حوزة الألمان وبلغت خسارة الحلفاء ، فى المعركة التى دارت فى الشمال مليوناً ومائتى ألف أسير بين انجليزى وفرنسى وبلجيكى ، غير القتلى والجرحى وأغرق الألمان للحلفاء ٢٤ وحدة حربية و ٦٦ باخرة نقالة وأحرقت القوات الألمانية ٣١٠٠ طائرة وغنمت أسلحة ٨٠ فرقة من الحلفاء ، وأعلنت وزارة البحرية الفرنسية أنه اشتركت ٣٠٠ سفينة فرنسية ، بين حربية وتجارية ، فى عملية الابحار (الهرب) و ٢٠٠ قارب فرنسى صغير ، وفقد الفرنسيون ٧ مدمرات ثم عاد المستر تشرشل واعترف بالحقيقة أمام مجلس العموم وقال إن الحملة البريطانية أوشكت قبل أسبوع أن تفنى عن بكرة أبيها ؛ وقال إن الجيوش البريطانية فى ظرف أربعة أيام كانت مشتبكة فى معارك دارت فى السوم وخسرت خسائر فادحة لدرجة أنه لم يبق إلا ٣٠ جنديا ، وقال لقد كنت أخشى أن أخبركم قبل أسبوع بأكبر كارثة حلت بجيوش بريطانيا »

هذا مجمل مختصر لنكبة دنكرك التى لم يسبق لها مثيل ، وقد وصف الشاعر العربى بشار ابن برد مثل هذه الهزيمة النكراء قبل اثنى عشر قرناً بقوله :

فراحوا فريق فى الأسار ، ومثله   قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه !

وقد وصف الجنرال ديجول المعركة التى سلمت بعدها فرنسا وصفاً دل على جبن الإنكليز والفرنسيس والبلجيكيين ، وأنهم كانوا أمام الألمان أجبن من الغنم فقد قال ديجول إن عدد من أسره الألمان فى المرحلة الأولى من المعركة الكبرى ببلجيكا وفرنسا بـ ٣٥٠٠٠٠ وفى المرحلة الثانية بـ ٦٠٠٠٠٠ كما قدر عدد القتلى من الفرنسيين بـ ٦٠٠٠٠٠ وعدد الجرحى بـ ٣٠٠٠٠٠

فهذا الإحصاء يدل على أن معركة دونكرك كانت أفدح وأشنع وأكثر عاراً على الحلفاء مما ظننا ، ومع ذلك فإن الإنكليز كانوا يعلنون أن هربهم بعد كسرهم كان أبرع خطة حربية وأنه كان أعظم من أى انتصار ! ثم ينعمون على قائدهم بلقب لورد ورتبة فيلد ما رشال ...

من أغلاط المحور

إن الخطيئات والغلطات التي بدرت من الألمان في الشرق العربي وفي المغرب العربي كانت عظيمة ولعلها كانت السبب في انهيارهم وانكسارهم - فمن ذلك أنني سمعت من جميل مردم بك السياسي السوري أنه لما كان في بغداد هاربا من بطش فرنسا في سورية سنة ١٩٤٠ اجتمع بالهر جروبا سفير ألمانيا في العراق فبحث معه بعض الأمور عن المستقبل في سورية فأشار جروبا على جميل بك بأن يبحث مسائل سورية وفلسطين وبلاد العرب مع سفير إيطاليا لأن هذه المنطقة من اختصاصها ! ففهم جميل من ذلك أن العالم العربي سيكون إن انتصر المحور مستعمرة إيطالية ! وقد عزز هذا الوضع أنه لما ظفر المحور بفرنسا وصار إليه الإشراف على مستعمراتها أرسل إلى سورية ولبنان « هيئة هدنة » كل رجالها من الطليان !

ولما وقعت الواقعة بين العراق والإنكليز لم يغتنم الألمان تلك الفرصة النادرة ويساعدوا العراق بل تركوه بلا معين لا بالسلاح ولا بالرجال ولا بالكلام . وكانت النتيجة أن تغلب الإنكليز على العراق مع الأسف الشديد .

الغلطة الكبرى

وأما الغلطة التي عادت بالويل على العرب والمسلمين ، ثم على الألمان أنفسهم بعد ذلك فهي أنهم مكنوا فرنسا من البقاء في المغرب (تونس والجزائر ومراكش) وتركوها بعد استسلامها تحكم تلك الأقطار الشاسعة على هواها بواسطة خمسين ألف جندي بسلاحهم ، فلو أن الألمان أعلنوا استقلال تلك الأقطار وتركوا أهلها يؤلفون دولة مغربية لكانت هذه الدولة الجديدة سياجاً وحصناً لهم ، لأنها كانت تستطيع أن تجند مليون جندي فوراً ، فلو تم هذا لكان لألمانيا من الدولة المغربية العربية « خط دفاع » عن أوربا التي كانت كلها في قبضة الألمان ، وكان المغاربة يقفون للدفاع عن استقلالهم في وجوه الأميركيين والإنكليز الذين ماهجموا على أوربا إلا بعد أن مكنتهم فرنسا ، بل ساعدتهم على الاستيلاء على المغرب ، فاتخذوه قاعدة عسكرية تمكنوا بواسطتها من الوصول إلى الأراضي الإيطالية وكسر إيطاليا وألمانيا ثم اليابان ، كما كانت الطيارات المتحالفة تضرب ألمانيا نفسها من أراضي المغرب ، وقد قال

الألمان فى تعليل هذه الغلطات إنهم أرادوا بترك المستعمرات لفرنسا أن يؤلفوا قلبها ويستميلوها إليهم ، وهو قصر نظر ما بعده قصر ، وكيف يطمعون فى أن تصفو لهم فرنسا وهى دولة مكسورة واستعمارية فى نفس الوقت ، فألمانيا تعتبر فى نظر فرنسا من الجنس المفترس لأنها دولة بدون مستعمرات ، ولذلك أصبح من المستحيل أن تطمئن فرنسا للألمان ، أما لو كانت فرنسا فى الأصل دولة غير مستعمرة لما سمعنا انها انضمت فى كل حرب إلى انكلترا .

غلطة اليابان فى أندونيسيا

أما اليابان فقد نالت عقابها على شرها إلا أهوج الذى أعمى بصيرتها أيضاً ، فإنها لما استولت على جزر الجاوا التى تسمى الآن أندونيسيا وكانت مستعمرة للهولنديين ، كان المتوقع أن تأتى بجديد فى تلك المناطق الشاسعة التى تعتبر عالماً وحده ، فإن سكانها يزيدون على الخمسة وسبعين مليوناً ، ومساحتها تمتد إلى مسافة توازى ما بين لندن وأقصى خليج فارس .

فالجديد الذى كنا ننتظره من اليابان بمجرد استيلائها على ذلك العالم المعادى للأوربيين المستعمرين أن تعلن استقلاله التام مقابل معاهدات تجارية واقتصادية تضمن لليابان المواد الأولية التى تحتاج إليها ، فلو أنها فعلت ذلك لوجدت من أندونيسيا حليفة قوية يعتمد عليها فى كسر الإنكليز والأميركان فى الشرق الأقصى ، ولتم لها ذلك قبل أن يمتد الوقت الكافى للأميركان لاكتشاف القنبلة الذرية التى قضت على اليابان ، ولكن اليابان مثل الألمان أمة حرب لا أمة سياسة ، وهذا من حسن حظ الإنكليز وسوء حظ الأمم المقهورة .

غلطة الأندونوسيين

وهنا لابد من توجيه العتب إلى الأندونوسيين الذين واتتهم الفرصة من أول الحرب للإفلات من قبضة الهولنديين قبل مجىء اليابان بسنة ، فقد سحقت ألمانيا المملكة الهولندية فى أوربا واستولت عليها ، وكانت بلاد أندونيسيا خالية تقريبا إلا من الحامية الهولندية التى كان أملها قد انقطع من وصول أية نجدة من الخارج مادامت أرض هولندا نفسها محتلة ، وما كان هناك أى أمل بمساعدة من الإنكليز لهولنديى أندونيسيا لانهماك بريطانيا بقتال اليابان ، بل إنها هى أيضا كانت منهزمة أمام اليابان فى الشرق الأقصى كله ، فى الملايو ، وفى برما ، ويكفى أن سنغافورة نفسها التى كانت قاعدة العدوان الإنكليزى على الشرق الأقصى قد سقطت قبل ذلك فى أيدى اليابانيين

وكاد الإنكليز يخلون البنغال فى الهند هلعا من اليابان ، فما الذى منع الأندونوسيين وقتئذ من القيام على فلول هولندا المبعثرة فى أوقيانوس من أمم أندونيسيا ، ألا أن الهولنديين ماكانوا ليصمدوا أمام الأندونوسيين أسبوعا واحدا لوانقلب هؤلاء على الهولنديين بالعصى لابالسلاح، فلا تجد اليابان نفسها مضطرة إلى الانشغال بحرب الهولنديين فى أندونسيا عن توجيه قواتها إلى الهند والشرق الأدنى ، ولو تم ذلك لما رأت أندونسيا وجوه اليابانيين الذين اجتاحوها واستعبدوها ثم تركوها بعد انكسارهم فريسة للهولنديين والإنكليز والأمريكان الذين أذاقوا أندونسيا بعد ذلك أنواع العدوان والانتقام فلاحول ولا .

سوابق انجلترا ضد أندونيسيا

إن أبناء هـذا العصر يظنون أن هـذه هى المرة الوحيدة التى تنقذ فيها بريطانيا استعمار هولندا فى الشرق الأقصى ، والحقيقة إنها الثانية ، فقد سبق أنه لما سحق نابليون المملكة الهولندية أصبحت أندونسيا بلامسيطر، فكادت تفلت من الاستعمار الهولندى وإذا ببريطانيا ترسل أسطولها الشرق إلى أندونسيا وتضرب الأندونسيين وتستولى على بلادهم ! فلما عادت الدولة الهولندية إلى الوجود، أعادت إليها انجلترا جميع بلاد أندونسيا ماعدا شمال جزيرة بورنيو لتشرف من شواطئه على بحار الصين !

ومعنى هذا أن بريطانيا هى العدوة الأولى والأخيرة لهذا العالم الإسلامى من مشارقه إلى مغاربه على الدوام .

لقد أسهبت فى الكلام على مسائل أندونسيا لكثرة علاقاتى بأهلها ومجاهديها منذ أكثر من عشرين سنة ، فأصبح من واجب الوفاء ولها أن أتكلم عنها بأكثر مما يقتضيه الكلام فى كتاب مثل كتابى هذا . ولو وضعت كتاباً خاصاً عن أندونسيا لما وفيتها حقها .

استقلال أندونيسيا

ملحق : سطرت ما تقدم فى أيام الحرب ، وقد حدث بعد ذلك لحسن الحظ أن هاج الأندونوسيون على الاستعمار الهولندى وأعلنوا الجمهورية فقامت انجلترا وأميركا تساعدان هولندا عليهم حتى كاد هـذا الاستعمار المثلث يقضى على تلك الدولة الجديدة . وإذا بقوة الله

تقلب الأوضاع فى شرق آسيا ويلتهم الروس البلاشفة بلاد الصين كلها . نخاف الاستعمار الديمقراطى الإنكليزى الأمريكى من تسرب البلشفية إلى أندونسيا ، فأرغم هولندا على ترك تلك البلاد فجلت عنها وقامت الجمهورية الأندونسية فعلا واعترف بها العالم أجمع ، فالحمد لله على هـذه النتيجة السارة المبهجة ، ولاسيما بعد أن غادرت بريطانيا القارة الهندية فقامت على أثر ذلك دولة إسلامية أخرى جديدة هى « الباكستان » فهذا وذاك هما أعظم فوز كسبته الأمم المقهورة ، ولـكن هل يعزينا هـذا النصر على نكبتنا بضياع فلسطين ؛ لا أظن ذلك ، لأننا فى هذه الفاجعة قد أصبنا بثلم الشرف والـكرامة بين الأمم .

غلطة المغاربة وغلطة السوريين

أما اخواننا فى المغرب فإن موقفهم كان فى شمال أفريقية كموقف الأندونسيين والسوريين فى الشرق . فلو أن المغاربة والسوريين قاموا على فرنسا عند سقوطها تحت سنابك الألمان لما تعبوا كثيراً فى استعادة استقلالهم وطرد المستعمرين من المغرب العربى ومن سورية ولبنان إلى الأبد . وإن قيل إن فرنسا كانت محتفظة فى المغرب وحده بمئة ألف جندى ، قلنا : وماقيمة مئة ألف جندى أو مليون جندى أجنبى فى ذلك العالم العربى الواسع وعدده يزيد على العشرين مليونا فى أرض تزيد مساحتها على مساحة فرنسا كلها بخمسة أضعاف ، إن الجيش الأجنبى فى تلك الظروف ما كان يساوى شيئاً ما دام المدد من موطنه الأصلى معدوما ، علاوة على حالة الفزع التى خيمت فى ذلك الحين على فرنسا وعلى الدنيا كلها . إن فرنسا قد ساقت سنة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ على جبل الدروز فى سورية لإخماد ثورته جيشاً لجبا يقدر بأربعين ألف جندى بينما لايكاد يزيد عدد سكان جبل الدروز كلهم رجالا ونساء وأطفالا على عدد ذلك الجيش الافرنسى ومع ذلك فإن أبطال بنى معروف كسروا ذلك الجيش ، ولولا المدد الذى كان يأتيه من فرنسا والزحوف المتلاحقة على الدوام لما بقيت فرنسا فى الشرق . فأين كان المغاربة والسوريون فى تلك الأيام السوداء على الافرنسيين ؟ إنهم لا يقلون شجاعة وإقداما عن أهل جبل الدروز فما الذى أنساهم تلك الفرصة التى لا أظنها تعود بعد قرن أو قرنين فيا للأسف الشديد . إن

العتب الذي أوجهه للمغاربة والسوريين يجب أن يكون أشد من العتب الذي وجهته للأندونسيين لأنه يوجد في المغرب وسورية عشرات الألوف من الذين يتقنون حمل السلاح والحرب ممن كانت فرنسا تجندهم في حالتي السلم والحرب .

وإن قال قائل إن مصر ولبنان وفلسطين قد قصروا ، قلت نعم إنهم قصروا ، والهند والسودان والحجاز ونجد والملايو واليمن كذلك قد قصروا بل إن الدنيا كلها قد قصرت، بل إن بعض هذه الأمم قد ارتكب جرم التجند في جيوش الانكليز والفرنسيين ، ويكفي أن جيش الأردن قد زحف مع الانكليز على العراق وكان من أهم أسباب القضاء على نهضته التحريرية ويا للأسف ، وها هي البلاد الإسلامية والأمم العربية كلها تذوق الوبال من الذين حالفناهم ونصرناهم جزاء الانخداع الرخيص الذي وقعنا فيه « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

الجنرال فيجان يؤيد كلامي

وبعد تسطير الفصل السابق بسنة وقبل طبع هذا الكتاب بسنوات وقعت في يدي مصادفة ، نسخة من شهادة الجنرال فيجان القائد الفرنسوي العام في الحرب أمام المحكمة العسكرية التي حاكمت المارشال بيتان فإذا به يصف حالة شمال أفريقية وحالة فرنسا فيها بعد الهزيمة وصفاً يؤيد استنتاجي حرفياً ، ويدل على أن المغاربة والسوريين لو قاموا بأقل حركة لتخلصوا بوقتها من فرنسا ولقضي الأمر وتغير وجه التاريخ في سورية والمغرب ، كما تغير بطريق الصدفة في المشرق[1] لأن جيش فرنسا كان في كل منهما يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ ألف جندي فقط لا غير... وها إني أورد خلاصة كلام قائد فرنسا الجنرال فيجان نفسه أمام المحكمة

(١) كانت هذه المصادفة أن مجانين فرنسا في سورية ولبنان ثاروا على السوريين واللبنانيين سنة ١٩٤٥ فقامت الثورات فإذا بإنجلترا ـ التي تطمع بتلك البلاد ـ توعز لفرنسا بالجلاء عنها وإلا استعملت ضدها القوة فخرجت ، وأصبحنا نرى الآن في سورية ولبنان جمهوريتين مستقلتين ، ولكن الخوف لا زال واقعاً من أن تقوم انكلترا باحتلال البلدين ، إما بضمهما إلى شرق الأردن باسم «سورية الكبرى» وإما بضمهما إلى العراق باسم « الهلال الخصيب » . إني أكتب هذا في أوائل سنة ١٩٥١ وأسأل الله أن يقي أرض الشام كيد الإنكليز وتلاميذهم الأمريكيين ...

أقتبسها عن جريدة منبر الشرق التى نشرت ترجمة جميع ما دار فى محاكمة المارشال بيتان ، قال فيجان وهو يشهد لرئيسه ويدافع عن نفسه ويصف تقصير بول رينو رئيس وزارة الفرنسية اليهودى وخيانته. قال فيجان : «ما الذى عمل لتحصين افريقيا ؟ كانت لديها فرق غير مستعدة بالمرة ولا مسلحة . لم يكن هناك مدافع مضادة للطائرات إلا القليل فى مينائى بنزرت والمرسى الكبير ولم تكن بافريقيا مدفعية ثقيلة إلا مدافع قديمة ترجع إلى ماقبل سنة ١٩١٤ .

« سيقولون إنه كان يمكن أن نأتى لها بمدد . فنقول ومن أين ؟ يقولون من فرنسا بتجنيد طبقتين جديدتين أى خمسمائة ألف رجل. ولكن لم تكن لدينا ملابس لنكسو هؤلاء ولا بنادق نسلحهم بها . أو بنقل فرق من الجبهة إلى افريقيا ولكن لم تكن توجد أسلحة لدى هؤلاء تنفع للقتال ، بل لم تكن توجد المراكب التى تنقلهم، وإذا وجدت المراكب فلا يوجد الوقت فإن نقل الفرقة الواحدة من فرنسا إلى افريقية أو من بريطانيا إلى فرنسا كان يستغرق ثمانية أيام . لالم يكن فى الإمكان تزويد افريقيا الشمالية بفرق فرنسية ، ولا بفرق بريطانية، لأننا طلبنا المدد فى ذلك الحين . طلبنا من البريطانيين فكشفوا لنا عن فقرهم وعجزهم . ولم تكن توجد فرق أمريكية لأن أمريكا لم تكن قد دخلت الحرب .

« وبينما كان هذا هو حال فرنسا كانت ألمانيا مطلقة اليد فقد داست أوربا وركعت ممالكها تحت أقدامها، ولم تكن قد اشتعلت الحرب الروسية . ولإيطاليا فرق كان فى استطاعتها أن ترحف من تونس وكان تعدادها فى تونس وليبيا وقتئذ ربع مليون مقاتل .

ومما يكشف عن غفلة الألمان قول فيجان : « إن الهدنة تركت لنا جيشاً مؤلفاً من مائة ألف رجل بدعوى حفظ النظام ، وتحت ستار هذا الجيش خبأنا أسلحة استعملها الفرنسيون فى المقاومة السرية » .

وأما ترك الأسطول لفرنسا، وترك افريقيا الشمالية وسوريا ، وفى كل منها جيش فرنسى يتراوح بين ثلاثين ألفا وأربعين ألفا ، فهذه القوة فى رأى فيجان هى التى ساعدت الحلفاء على النزول فى افريقيا الشمالية » اه .

شفرة خاصة...

ان الحوادث والوقائع التى أدونها فى هذا الكتاب ابتدأت فى أواسط سنة ١٩٣٩ ، ولكنى بدأت أكتبها فى منتصف ١٩٥٠ فهذه المذكرات ستكون على ما أظن مروقة ومصفاة من الحشو والزوائد ، لأنه لايعلق بالذاكرة بعد طول العهد إلا الجيد الحقيق ، وهذا ما أريده ويريده قرائى .

أما لماذا لم أدون الحوادث أولا فأولا وشيئاً فشيئاً ، فسببه أن الكتابة كانت ممنوعة فى السجن ثم كانت متعذرة وأنا هارب أتنقل فى أنحاء البلاد المصرية ، بين القلق والحذر وبين الخوف من أن أقع فى أيدى الظالمين ، حتى إننى كنت لا أحمل حقيبة ولا ورقاً يدل على هويتى ، فلو أصابنى مكروه ما استدل أحد على شخصيتى مطلقا . ولو مت لدفنت مجهولاً مغموراً ، لأنى كنت لا أستقر فى بلد ولا فى مكان ، وكنت أنتحل كل يوم أو بضعة أيام إسماً جديداً ثم أنساه بعد ساعات ، وكنت أحسب أن ما أكتبه قد يقع فى أيدى الظالمين وأعوانهم، وكان أعوانهم وأتباعهم أكثر منهم عدداً وأعظم شراً وأشد أذى ، بل لولا أعوان الظالمين ما تمكن هؤلاء من الوصول إلى ، بل إننى أعترف بأن الذى لقيته من العذاب على أيدى المسلمين من أعوان المستعمرين كان أشنع وأفظع مما كنت ألقاه لو وقعت فى أيدى الإنكليز وأعوانهم ، وخصوصاً أعوانهم ...

ومع ذلك فقد كنت أسطر من حين إلى حين بعض الملحوظات الخاطفة على قصاصات صغيرة من الورق ، أسطرها بشكل رمزى لايفهمه أحد إلا أنا ، حتى إننى لما فتحت أوراق هذه بعد عشر سنين لقيت فى تلاوتها وفهمها تعباً لبعد الزمن وطول العهد ، بل لقد وصلت بى الحال إلى نسيان معنى بعض الملحوظات ومفاتيح الرموز والإشارات ، مثال ذلك الملحوظات الآتية فى أواخر سبتمبر ١٩٤١ وهذا بعضها : « لم أجد عند ابن الخصيب قصراً كما أن « عبد الحج » بالإجازة ولم يعجبنى حانوت الرومى لأن الأشرار يغشونه فذهبت لابن سوفه لأن الضيوف عند الخصيب خباصين » . وتفسير ذلك أننى لم أجد مأوى صالحا

فى مدينة المنيا[1] وكنت أحب أن أجتمع بعبد الحميد عبد الحق باشا زعيم المعارضة بمجلس النواب وقتئذ لأطلعه على الفظائع التى أنزلتها بنا الحكومة ومن حمدى محبوب ـ ولكنى علمت أن عبد الحميد كان متغيبا عن المنيا ، ولما أردت أن أنام لم أجد فى تلك المدينة فندقاً يصلح لمثلى سوى غرفة على سطح فندق حقير لرومى ، فلحظت أن رجال الشرطة ينزلونه ويترددون عليه فرحلت إلى مدينة بنى سويف وقد كنيتها بابن سوفة !

بهذا الأسلوب وبهذه الوسائل كنت أدون بعض المسائل والوقائع ، ثم إنى كنت أتحير كثيرا كيف أخفيها ، وسأورد فى وقت آخر بعض تلك الأساليب . أما لماذا لم أدون هذا الكتاب أوالمذكرات بعد الإفراج وانتهاء المحنة مباشرة، فسببه أننى فى تلك الفترة حتى إلغاء الأحكام العرفية كنت شبه محبوس أوأشد ضيقاً من ذلك ، لأن الإفراج كان معلقا على شروط ومن يدرينى أن السلطة ستثور علىّ اليوم أو غداً فتفتش بيتى أو تصر على اعتقالى ، فكيف أستطيع الكتابة وأنا مشغول البال مضطرب الخاطر مروع لاأعرف الاطمئنان، وهل أتعشى الليلة فى السجن أم يكون فطور الصباح فيه . والخلاصة ان التدوين فى حياة القلق مستحيل.

العربى التائه

ملحوظة : طلبت من وزارة الداخلية بعد الحرب العظمى الثانية وبعد إلغاء الأحكام العرفية أن تعطينى جواز سفر أو جواز مرور لأستطيع السفر إلى خارج القطر لأعمال تهمنى ، فإذا بحسن رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية ـ وولى عهد الإنكليز فيها ـ يصدر أمراً بمنعى من السفر منعاً باتاً ، فكلفت أنطون باشا الجميل « رحمه الله » أن يراجع حسن رفعت فراجعه فإذا بحسن رفعت يقول له بلهجة المستغرب المندهش من سفرى « ده صاحبك الطاهر يريد السفر إلى بلاد العرب ، وعاوز يعمل هناك ضد الإنكليز ضجة » فقلت لأنطون باشا : وماذا على حسن رفعت باشا لو ذهبت إلى الدنيا كلها وعملت فيها خمسين ضجة ! فهل هو مكلف

(١) وتسمى مدينة ابن خصيب ، نسبة إلى ابن الخصيب الحاكم العباسى ، الشهير بالكرم ، والذى رحل إليه أبو نواس خصيصا من بغداد ومدحه بقصيدته الشهيرة التى يقول فيها لصاحبته عند السفرمعارضا قصيدة ابن دراج القسطلى الأندلسى :

ذرينى أكثر حاسديك برورة   إلى بلد فيـه الخصيب أمير

من طرف الذات الإلهية بأن يحفظ للإنكليز الهدوء والسكون فى أنحاء الكرة الأرضية ...

وهنا ابتسم أنطون باشا وقال أنت الآن فى حالك الحاضر يجب أن تلقب بالعربى التائه ! فقلت له أنت مسبوق بهذا التلقيب

وسبب هذه التسمية التى لحقتنى أعواماً طوالاً انى كنت أعيش منذ ثلاثين عاماً بدون جنسية. لأن الإنجليز قد أرادوا ذلك تأديبا لى على عدم الاعتراف بشرعية استعمارهم واستنكار عدوانهم ومحاربتى لفظائعهم، فكان لهم ما أرادوا ، وكان محمود فهمى باشا النقراشى « رئيس وزراء مصر بعد ذلك » قد لقبنى فى سنة ١٩٣٠ وحين كان فى صفوف المجاهدين « بالعربى التائه» وهو يقصد بذلك الاحتجاج على الإنكليز، فكنت أكتب مقالات فى الصحف وأمضيها بهذا اللقب ، ولكن لما تعين النقراشى نفسه رئيسا للوزراء صار هو يطاردنى ويتولى عملية « تتويهى » وكاد يطردنى من مصر كلها ... ولولا أن مصطفى النحاس باشا شيخ المجاهدين الوطنيين الشهير وزعيم مصر قد أمر حكومته سنة ١٩٥٠ بالاعتراف لى بالجنسية المصرية لبقيت تائها إلى يوم البعث ! .

إذن لحياتى وأنا تائه الجنسية ، وبعد أن تشتت شملى وأنا هارب من السجن مشرداً ومتنكراً ومختبئا مدة تقرب من عام . تائها فى أنحاء البلاد لا أدرى إلى أين المفر ولا أين المستقر ، هذه الأسباب مجتمعة جعلتنى أستحسن وضع كتاب فى يوم من الأيام باسم « العربى التائه » ...

لصوص ....

قرأت نقلا عن احدى المجلات الإنجليزية شتما بعلى ماهر باشا وقالت إنه كان يريد أن يحمى الطليان عند هجومهم على بريطانيا فى الأراضى المصرية ، فابتسمت فى نفسى وتذكرت وصفا لحالة الطليان فى هجومهم على الانكليز فى مصر قاله الأستاذ السيد أبو الوفا الشرقاوى وهو أن الطليان لم يهجموا على مصر بل يطاردون لصا اقتحمها وقعد فيها ، فلولا وجود الانكليز فى البلاد المصرية ما فكر الطليان الآن فى الزحف عليها ...

حياة السجن

عود إلى حياة السجن والهواجس فيه

كما يحلو للجناة أن يعرفوا السر الذى مكن الشرطة من معرفتهم ما كان بعد الجريمة التى ارتكبوها ، فالأبرياء كذلك يتوقون إلى معرفة الذنب الذى ينسبه العدو إليهم وجعله يقبض عليهم .

محمد صالح باشا حرب وعبد الحميد سعيد(١)

رجعت فى التفكير إلى الوراء فتذكرت مسألة انتخاب محمد صالح باشا حرب لرياسة جمعيات الشبان المسلمين فتنبهت إلى أنه حدث منى شئ هيج الانكليز علىّ فرجحت أن هذا الحادث هو نقطة الماء التى فاضت بها الكأس وخبر ذلك أنه بعد أن لحق المرحوم عبد الحميد بك سعيد بالرفيق الأعلى ، أخذ بعض الناس يتطلعون إلى رياسة الجمعية وكان الانكليز يريدون لها ولى العهد الأمير محمد على توفيق شقيق الخديو عباس الثانى فتصبح الجمعية تحت رياسة ولى العهد جمعية شبه رسمية ومسئولة ، وبذلك تضيع قيمتها كهيئة شعبية حرة وتفقد نفوذها الشعبى فبادرت وبعض الإخوان بعمل «مضبطة مبايعة» نادينا فيها بالمجاهد القديم محمد صالح حرب باشا رئيسا عاما خلفا للمرحوم عبد الحميد بك .

ولصالح باشا حرب تاريخ قديم فى الجهاد من أيام حروب طرابلس الغرب ثم كان وزيرا للحربية المصرية فى أوائل الحرب العظمى الثانية وقد أمضى معى على «مضبطة المبايعة» بضع مئات من الفضلاء الذين يمثلون جميع الجاليات الإسلامية والشعوب العربية فى مصر على اختلاف

---

(١) هو المرحوم عبد الحميد سعيد بك المجاهد الإسلامى الشهير أحد المؤسسين لجمعية الشبان المسلمين ورئيسها العام فى مصر وأنحاء العالم الإسلامى ، وكان رحمه الله مجاهداً قديماً من أيام فقيد الوطن مصطفى كامل باشا وله تاريخ طويل فى مجاهدة الاستعمار امتد نحو أربعين سنة فى مصر وتركيا وبر الشام وأواسط بلاد العرب وجميع أنحاء أوربا وكان فى مقدمة المتطوعين فى استنبول فى الحرب البلقانية فرئيساً لجمعية الأمم المظلومة فى أوربا وعضوا بمجلس النواب المصرى وفى المؤتمر الإسلامى العام بالقدس وفى مؤتمر بلودان فى سورية وكان يرأس جمعية الدفاع عن فلسطين بمصر ولجنة إعانة منكوبى فلسطين أيضا . وما من حركة إسلامية نافعة إلا كان الفقيد من أكبر دعاتها وأعظم أركانها ، وله فى الجهاد تاريخ طويل منقطع النظير ، وقد زرته فى حلوان وهو على فراش المرض الذى مات فيه سنة ١٩٤٠ ، وكانت فرنسا قد سقطت وهولانده قد تحطمت فقلت له أبشر فإن الله قد انتقم من الظالمين وهاهى دول الاستعمار تتحطم الواحدة بعد الأخرى . فابتسم وقال الحمد لله ، ثم أشار إلى خارطة بجواره وقال « نريد سقوط هذه أيضا » ووضع اصبعه على خارطة انجلترا ، رحمه الله وأسكنه فسيح جنته .

أمير اللواء محمد صالح حرب باشا
وزير الحربية سابقاً ، وهو فى شبابه

لغاتهم وألوانهم ومواطنهم. وقد جرى تقديم وثيقة البيعة بواسطة وفد منهم ذهبت به إلى صالح باشا حرب فى حفلة مختصرة أقيمت فى دار جمعية الشبان المسلمين ، وقد خطبت فيها وخطب كثيرون فرد صالح باشا بخطاب قيم وقبل البيعة ، وكان أهلا لهذه الثقة أميناً عليها، ويكفى أن أذكر أن الانكليز لما اعتقلوه بعد ذلك وساوموه على ترك الرياسة مقابل إطلاقه أبى قائلا : أنا لا أتنصل من شرف قلدتنى إياه أمتى . فنكل به الانكليز ونفوه إلى أسوان فى أقصى البلاد المصرية جنوباً عند حدود السودان ومنعوه من مغادرة باب الدار . ولما تولى محمود فهمى النقراشى باشا رياسة الوزارة سنة ١٩٤٤ استدعى صالح باشا وساومه على ترك رياسة الجمعية فى مقابل إعادة حريته إليه فرفض وفضل الرجوع إلى المنفى بعد أن وجه للنقراشى باشا عبارات شديدة واستغرب كيف يقبل لنفسه هذا الموقف لحساب الانكليز ...

حمدى باشا محبوب

قد يسألنى القارئ عن سبب إيراد سيرة رياسة جمعية الشبان المسلمين وما هى علاقتها بالقبض علىّ . والجواب على ذلك أنه بعد أن تمت مبايعة صالح باشا بالرياسة اجتمعت الجمعية العمومية وانتخبته بالإجماع برغم ورود أسماء أخرى اقترحها الغير ، وكانت الصحف قد نشرت ماجرى فى حفلة المبايعة وخبر المضبطة التاريخية التى قطعت كل أمل للانكليز بتسرب الرياسة إلى أعوانهم ... فطلبنى حمدى باشا محبوب إلى إدارة الأمن العام وجرى بيننا الحديث الآتى :

حمدى : أنت يا أستاذ أعطيت وعداً بعدم الاشتغال فى السياسة أليس كذلك ؟ فقلت : نعم ولا أزال عند وعدى . فقال : ولكنك (ومد يده إلى درج وأخرج منه أوراقا بينها

صورة وثيقة البيعة) قد خالفت تعهدك ورجعت للسياسة ، ثم لوّح لى بالوثيقة ، وقال: أليس هذه من عملك ؟ فقلت : نعم ، ولكنها لمشروع دينى اجتماعى وكان بعض الناس يريدون عمل شوشرة على رياسة الجمعية فحسمناها ومنعنا القلق والشقاق .

سمع حمدى باشا هذا الكلام الذى لم يعجبه طبعا فهز رأسه مهدداً وقال: طيب، طيب... وبعد أسبوع واحد وجدت نفسى فى السجن !

وفاء . . .

ثم صرفت الفكر عن هذه المواضيع ورجعت به إلى شئ آخر فخطر لى أن أطالب وأنا فى السجن أحد الأشخاص بدين لى عليه ، وهو قرض حسن لوجه الله أعطيته إياه وهو فى ضيق عظيم، وكان حاله قد تحسن كثيراً بعد ذلك، فكلفت أهل بيتى الاتصال به تليفونيا فإذا به يرفض الدفع فطلبوا منه حاجيات منزلية من الدكان تدريجاً فأبى وقال إن الدكان بمناسبة رمضان تحتاج إلى توسيع رأس المال . ثم بلغنى أن هذا الشخص كان يفتح سيرتى لمن يعرفنى قائلاً إنى أستحق الحبس لأنى « غلباوى » أتدخل فى السياسة . . . ثم بلغنى بعد انقضاء المحنة ما هو أقبح ، وذلك أن البوليس سأله مرة عنى وأنا هارب فأعطى البوليس عنوانات نفر من أصدقائى فى القاهرة والريف فطرق البوليس بيوتهم وروعهم وكاد يهتدى إلى أثرى !

حادث من صديق أعجب

إن الفصل الأليم الذى صدر من الشخص السابق قد يعذر صاحبه على قاعدة أنه رجل عامى عادى ، ولكن المدهش أن يصدر من صديق عالم وغنى ما هو أمرّ مما صدر من الأول ، وذلك إنى كنت أزوره فى صيدليته فشكى لى قلة المال النقدى بسبب وقوع الحرب وطلب منى مائة جنيه يشترى بها أدوية للصيدلية على أن أكون شريكا فى الربح لأن اليهود جمعوا الأدوية من الأسواق وخزنوها ، فأعطيته خمسين جنيهاً ووعدته بالخمسين الأخرى بعد أيام ، ولكن القبض والحبس حالا دون ذلك، بل وجدت بعد أسابيع أن أطلب الخمسين جنيهاً متنازلا عن الربح ، ولكنه اعتذر قائلاً إنه لما أخذ الخمسين دفعها أجرة للصيدلية والمنزل ! كأن الشراكة التجارية هى أن أدفع عنه ديونه ! وقد سمع بالحادث بعض الناس فوبخوه وأخذوا لنا منه

بالمال أدوية كاسدة مما كان فى صيدليته ، وكان المنتظر من هذا الصديق أن يبيع ملابسه ويعدنى بثمنها ، لا أن أمده وأنا سجين بالمتأخر عليه من أجرة الصيدلية والمسكن …

ملحق . . .

ثم حدث لهذه الأدوية بعد ذلك بعامين ما هو أعجب ، وذلك أنه كان يزورنى الدكتور مدحت بك شيخ الأرض الطبيب الخاص للملك ابن سعود ، ولا أدرى ما الذى فتح سيرة الأدوية بحضوره فطلب الدكتور الاطلاع على بيانها فلما رآه قال إنها تنفعنا الآن فى الحجاز لندورة الأدوية بسبب الحرب ، ثم التفت إلى صديقنا ـ سابقاً ـ السيد خير الدين الزركلى ، الشاعر الوطنى سابقاً أيضاً ، ـ وكان موظفاً بالمفوضية السعودية بالقاهرة ـ وأمره باستلام الأدوية ودفع ثمنها وإرسالها إلى الحجاز ، ولما أرسلت الأدوية للمفوضية إذا بخير الدين يعيدها إلىّ مستكثراً ثمنها ، وقال إنه عرضها على تاجر فأبى أن يشتريها بهذا المبلغ ! فقلت له كان الواجب أن تطلب إلى التاجر أن يبيعك أدوية مثلها فتى حدد لك مايطلب من ثمن فأنا أعطيك إياها بنقص عشر بالمائة ، وأما أن تعرضها على الناس عرضا فإن عرضها يفقدها قيمتها ، كما أن عباءتك هذه التى تلبسها ـ وأمسكت بملابسه ـ لو عرضناها على الناس عرضاً ما جاءت بنصف ثمنها . . . ولكن شدة حرص خير الدين على مال الدولة السعودية وأمانته لها ، وخوفه على نقودها من الضياع عبثاً وهدراً ، وحتى لا آكلها بدون حق ولا استحقاق ، جعله يصر على إنقاذ مال الحكومة السعودية منى ويرفض الأدوية . . . وأما هو فلا بأس من أن يقبض من مال الدولة السعودية مرتباً ضخماً وأن يمتلك منه عمارات وفيللات وسيارات ثم رتبة وزير مفوض بعد ذلك بدون حق ، ولا استحقاق ، وبدون أن تستفيد منه الحكومة السعودية عملا أو سعياً فى الدفاع عنها ولا كلمة فى سبيل إعلاء كلمتها سوى إخلاصه ليوسف ياسين ! وأما أنا الذى أدافع عنها وأساير سياستها وأحبس فى سبيل الله مراراً وتكراراً فلا يجوز أن آخذ ثمن المثل لتلك الأدوية ، التى بعتها بعد ذلك بضعف المبلغ الذى رفض خير الدين أن يأخذها به . . .

إن الذين يعرفون ماهى علاقتى بخير الدين منذ ربع قرن ، والذين قرأوا جريدتى الشورى

وماذا كانت تكتب عنه ، والذين اطلعوا على مواقفى معه ـ بشهادة رسائله الشخصية لى التى لا تزال عندى وقصيدته عنى ، إن هؤلاء هم الذين يدركون غرابة عقوق خير الدين وأنا سجين ، وتنكره لى بعد ذلك وأنا شبه أسير ، ويكفى قصة هذه الأدوية ، وقبلها قصة الوفد الذى راح إلى المفوضية السعودية ليوسطها من أجلى .

ومعذرة من القراء إن تكلمت هنا عن نفسى ، لأن الكتاب كله هو عبارة عن مفكرات ومذكرات منى ، وأنا لم أزعم لأحد أننى أسطر كتابا فى العلم أو فى الهندسة ...

جاء السجان !

كانت طفلتى الوحيدة «جهاد» مريضة وعمرها ٨ أشهر فكانت أمها تأتينى بها إلى السجن فى أيام الزيارة فألقاها فى مكتب مدير السجن فأسر بها . وقد ذكرت فى صفحات مرت أنه «لمازارتنى قرينتى لآخر مرة ولم تكن «جهاد» معها استغربت ذلك فقالت إنها مصابة بزكام وإنها فضلت تركها فى الدار لإتمام العلاج ، فطلبت إحضارها فى الزيارة القادمة مهما كانت مريضة وكنت أرجح أنها بعد هذين اليومين ستبرأ لأن مرض الصغار سريع الزوال» .

وفى صباح اليوم التالى فتح باب السجن بغتة فأيقنت أنه الإفراج ودخل الجندى وهو يقول تفضل والبس ملابسك . ففرحت وأخذت أجمع كتبى وأنا أفكر فى حالة السجان الذى دعانى للخروج، فهو لم يقل كلمته بفرح وسرور كعادة السجانين وهم يبشرون السجناء بالإفراج وما يصحبه من ابتسام ورقة انتظارا « للبخشيش » بل كان الرجل واجماً مقطباً ، فلبست ومشيت معه إلى مكتب مدير السجن فوجدت ضابطاً وبعض الجنود فمشيت معهم إلى سيارة معدة لذلك فانطلقت بنا وأنا أظن أنها ستتجه إلى رياسة الوزراء لمقابلة الرئيس الذى سيفرج عنى هناك بعد أن يسمعنى شروط الحكومة . ولكن السيارة مالت إلى جهة شبرا فسألت رئيس القوة إلى أين ؟ فقال لتحضر الجنازة ، فقلت أية جنازة ؟ فقال جنازة الطفلة . فكدت أصعق من هذا النبأ الصادع بعدأن كنت أظن أنها ستشفى وأنى بعد يومين سألقاها وأقبلها وأداعبها فأظلمت الدنيا فى وجهى وأخذ الحزن منى مأخذا عظيما لم يسيطر علىّ مثله طول حياتى فيا للآباء كم تتمزق قلوبهم لفقد الأولاد .

وصعدت إلى الدار فوجدتها مملوءة ببعض الأقارب والأصدقاء نساء ورجالا فدخلت

غرفة جهاد فإذا هى مسجاة فى فراشها ، فحملتها جثة هامدة وقلبى يتفطر حزنا وجزعاً، فقبلتها وضممتها إلى صدرى ثم مددتها على الفراش وغادرت الغرفة إلى الصالون حيث كان يجلس بعض الأصدقاء الذين أخذوا يعزوننى ويهونون على الخطب ، ولكن هيهات لقلب الوالد أن يعرف العزاء على فلذته ، وخصوصا إذا فقد وحيدته . وقد قام الأهل والأصدقاء بدفن الطفلة بينما أرجعنى الحرس إلى السجن دامع العين ممزق الفؤاد أردد قول أبى العتاهية لما فقد ولده :—

كفى حزنا بدفنك ثم إنى نفضت تراب قبرك من يديا
وكنت وفى حياتك لى عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا

رجعت إلى زنزانة السجن وأنا فى هذه الحالة الأليمة من الحزن وفؤادى يتمزق أسى ، فأخذ السجانون يتوافدون علىّ ، يعزوننى ويخففون عنى . هكذا كان حالى ، وأما قرينتى فإنها لما مضوا بجثمان الطفلة وقعت على الأرض مغشيا عليها .

أحد الأجانب

وفى صباح اليوم الثانى نشرت جريدة الأهرام نبأ فى سطرين قالت فيه إنه « سمح لأحد المعتقلين الأجانب بحضور جنازة كريمته » هذا كل ماسمحت الرقابة الإنكليزية بنشره فى الصحف . . . والظاهر أن الرقابة على الصحف الأسبوعية كانت أخف فتمكنت جريدة مصر الفتاة بعد أيام من نشر الكلمة الآتية التى سطرها صديق المجاهد أحمد حسين وكان قد حضر يوم المصيبة وشهدها بنفسه :

« فى وسط الظروف الحاضرة التى تحيط بالأستاذ محمد على الطاهر المجاهد العربى الإسلامى المعروف ، يزيده الله امتحانا بأن اختار إلى جواره يوم الأحد الماضى كريمته الوحيدة «جهاد» ولقد كانت المناسبة التى علم بها والد جهاد بفقدها تكفى لأن يتضعضع لها جلد أصلب الناس عوداً ، ولكن الإيمان الذى منحه الله إياه أنزل السكينة على قلبه ، كما أنزل السكينة على قلب زوجه الفاضلة فتقبلا قضاء الله بالرضى، ونحن نعزى أباالحسن وأسرته أصدق العزاء » .

كبد غليظ وعاطفة كريمة

زارتنى قرينتى صبيحة اليوم الثانى لوفاة جهاد وكان مما قصته على أنها لما شعرت بخطورة

حالة الطفلة ذهبت إلى جارنا الدكتور ... وكان يسكن فى الطابق الذى تحتنا فطلبته لإسعاف الطفلة فلم يلب طلبها بحجة أنه تعب... فذهبت إلى جارنا الآخر الدكتور عثمان لبيب فبادر من فراشه وركض وأسعفها ، ولما أرادت قرينتى أن تقدم له أتعاب العيادة أبى محتجا وقال كيف آخذ مالا وزوجك مسجون فى سبيل الله .

ولما انتهت المحنة أردت أن أزور هذا الطبيب النبيل وأشكره فعلمت أنه توفى فحزنت عليه حزناً شديداً رحمه الله . وكان مما روته لى قرينتى أنها لما رأت الطفلة قرب منتصف الليل تلحق بربها اتصلت بواسطة التلفون بتحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض وبأنطون باشا الجميل رئيس تحرير الأهرام للتوسط عند رئيس الوزراء حسن صبرى باشا للسماح لى بمغادرة السجن فى الصباح لأحضر جنازة الطفلة ، فبادرا إلى التوسط وأصدر رئيس الوزراء أمره بذلك فوراً . ولـكن سجاننا محمد يوسف ضابط البوليس الموكل بتعذيبنا لم ينفذ أمر الرئيس إلا بعد أن أرسل ضابطاً إلى دارنا ليحقق ويدقق ويتأكد من وفاة الطفلة !

مجاملات طيبة

— بلغنى أن عدداً كبيراً من الأصدقاء لما بلغهم نبأ حبسى ووفاة الطفلة زاروا المنزل ومنهم الدكتور أحمد عيسى بك وعونى عبد الهادى بك والأستاذ كامل كيلانى والميرزا مهدى رفيع مشكى بك والدكتور نجيب كحيل بك الخ ووردت رسائل من النائب النبيل محمود لطيف بك من بنى سويف ومن أحمد حلمى باشا من القدس ومن رشيد بك الحاج ابراهيم من حيفا والدكتور أحمد الطاهر من نابلس ونبيه بك العظمه من دمشق والأستاذ أكرم زعيتر والأستاذ مصطفى الطاهر ببغداد ومن اخوتى بفلسطين الخ الخ .

— ورد كتاب لأهل بيتى من الدكتور حافظ عفيفى باشا يبدى فيه ألمه من حبسى وأنه سعى وسيسعى للإفراج عنى ويطمئن العائلة ، ثم بلغنى أنه أرسل إلى الدار وكيله الخاص يعرض على قرينتى كل ما تحتاجه من مال ، فشكراً له .

— ورد من الأستاذ طه الفياض العانى وبعض أدباء وفضلاء البصرة كتاب إلى أهل

يتى يبدون أسفهم وألمهم من حبسى وأرسلوا ١٨ جنيها على أنها قيمة اشتراكاتهم فى جريدتى قائلين إنها لولا الحرب والحبس ما وقفت وأنهم لذلك يعتبرونها موجودة برغم عدم صدورها فكان لهذه العواطف النبيلة أثر طيب فى نفسى ، لأنى فهمت منها أن الدنيا لم تخل بعد من الأوفياء .

مفاوضة مع الإنكليز

كتبت سراً إلى الدكتور حافظ عفيفى باشا أشكره على ما كان من عواطفه الطيبة وأرجوه أن يتوسط مع الإنكليز لإطلاق مقابل خروجى من القطر المصرى إلى الحجاز على أن أبقى هناك طول مدة الحرب ، فاتصل بهم وحادثهم ثم أرسل يقول إنهم رفضوا وقالوا إن إطلاق حراً فى مصر أهون عليهم من خروجى إلى جزيرة العرب أهيج عليهم وأحرض...

خذوا حذركم ....

لا أزال حتى الآن سجينا ، ومرت الأيام وأمر الإفراج الذى وعدنا به حسن صبرى باشا رئيس الوزراء لم يصل فيئست ، وراح أصدقائى يبحثون عن السبب فعلموا أن جماعة الأمن العام قد أرجأوا تنفيذ أمر رئيس الوزراء ٢٤ ساعة حيث تمكنوا فى خلالها من الاتصال بالسلطة البريطانية وإشعارها بأن رئيس الوزراء سيفرج عنى . فبادرت السلطة وكتبت مذكرة سريعة إلى الرئيس تطلب فيها « شدة التحفظ علىّ وعدم الإفراج عنى لوجود مسائل خطيرة تستدعى ذلك ... » فأسقط فى يد الرئيس وتوقف إطلاق من السجن لبينما يفاوض الرئيس السلطة العسكرية ويقنعها بإطلاق ، وإذا برئيس الوزراء ينتقل إلى رحمة الله بغتة وهو فى البرلمان يلقى خطاب العرش .

يأس بعد أمل

كانت الخيبة عظيمة لما توفى صبرى باشا الذى عقدت الأمل عليه ، وقد زاد فى اليأس أن الذى تولى رياسة الوزارة بعده هو حسين سرى باشا وهو رجل لم يكن الشعب يحبه ، فكيف الإفلات من السجن على يد رجل لا يعرف شيئا عن العروبة وأهمية مكانة مصر

فى العالم الإسلامى ، ولا يهمه إلا المسائل المحلية وملاطفة الإنكليز[١] وفيما كنت فى هذا وجدت من الأوفق أن أصبر قليلا لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فتناولت القرآن الكريم وأخذت أتلو بعض آياته التى كلما قرأها الإنسان وجد فيها شيئا جديدا فيه أسمى المعانى وأجلها وأجلها.

وفى إحدى المرات فتحت المصحف فإذا بى أقرأ فى سورة يوسف آية « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » فذكرتنى هذه الآية الكريمة بعبارة قالها أحد ضباط قلم الجواسيس لقرينتى وهى « إن رأس زوجك يابس جداً فلو أنه بقى يصدر الجريدة ومشى مثل غيره لما حبس ولا طورد ، انهم يضايقونه لعله يرجع إلى الصواب ويخضع » فتعجبت من هذه المصادفة وتذكرت قول المعتمد بن عباد لما انكسر فى أشبيلية أمام جيوش ابن تاشفين.

قالوا الخضوع سياسة   فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع   على فمى السم النقيع

ثم تناولت قصة لتمضية الوقت فإذا هى رواية « بول وفرجينى » التى مر ذكرها . وقد قلت إنها من روائع الأدب، فأخذت أكمل قراءتها فوجدت الشيخ العجوز صديق « بول » يحدثه عن العلم والأدب وأنهما أرفع مايتحلى به الإنسان ويقول :

« كان الأدباء والعلماء فيما مضى يثابون بمناصب يشغلونها فى الكنيسة والقضاء والإدارة . أما الآن فلا عمل لهم إلا وضع الكتب ، وإذا فاتهم الثواب فى هذه الدار فلهم الثواب فى الدار الآخرة ، لأنهم بالكتب ينشرون الفضائل ويواسون البؤساء ، ويهذبون الشعوب . ويقولون الحقيقة حتى للملوك . وليس هناك شك فى أن صناعة الأدب هى أكرم صناعة يشرف بها الله الإنسان فى الأرض ، وأى إنسان لايتعزى على ظلم الأغنياء واحتقارهم كلما فكر فى أن كتابه سيخلد على الدهر . وسيكون فى كل جيل وكل أمة قذى فى عيون الطغاة ، ورماداً فى أفواه الظالمين ، وهدى للضالين ، وعزاء للمنكوبين ، وفى أنه أصاب وهو فى صومعته

(١) أرجو أن يعذرنى سرى باشا ، لأنى أسطر أحاسيس كانت موجودة قبل عشر سنين ، وأمور حالة كانت واقعة . أما الآن فإنى أحمد له إسراعه بالإفراج عنى من المعتقل الثانى الذى وجدنى فيه مرة أخرى ، حين حبسنى إبراهيم باشا عبد الهادى سنة ١٩٤٩ عدواناً منه وغرورا ، وقد سجلت قصة ذلك الاعتقال فى كتاب سميته « معتقل هاكستب » وقد شكرت فيه لحسين سرى باشا عمله الطيب معى ومع غيرى .

مجداً يبهر مجد الملوك الذين يجر عليهم الزمن ذيول النسيان ، وإن أقام لهم المتزلفون عشرات النصب والتماثيل[(١)] » .

قرأت هذا الأدب الرفيع وأعدت تلاوته وأنا نشوان ببلاغته مأخوذ بجماله ، وسمو معانية وقد وجدت فيه بعض العزاء لما أنا فيه من حبس يضيق الصدر ويضغط على الدماغ ، فتضيق بى الدنيا بما رحبت بل تضيق « زنزانة السجن » فوق ضيقها ، ولكن حديث الشيخ العجوز صاحب بول قد فرج عنى قليلا وجدد حقدى على المستعمرين فأخذت أقول لنفسى : يكفينى شرفاً اننى سجنت بلا جريرة ، وإذا كان لى من ذنب عند الإنكليز فهو ماخطه قلمى ضد استعمارهم وهو يملأ مجلدات ، وكله مما يشرفنى ، وسيظل ما أكتبه خالداً على الدهر ، وسيكون قذى فى عيون الظالمين وعزاء للمنكوبين ...

صالح باشا حرب ورئيس الوزراء

زار صالح باشا حرب رئيس الوزراء وكلمه فى مسألتى فقال سأراجع أوراقه وأدرس مسألته ... فقال له صالح باشا إن الرجل موجود فى سجن مضيق انفرادى وهذا لا يجوز ثم قال له صالح باشا إنه كان مديراً عاماً للسجون فكان لايضع فى السجن الضيق الانفرادى إلا الأشرار الذين يرتكبون ذنوباً وهم فى السجن ، وأما الطاهر فهم يضعونه فى السجن الانفرادى وهو برئ أصلا وفرعاً ، فوعد رئيس الوزراء بعمل شئ سريع ، ولكنه لم يفعل .

(١) زارنى قبل السجن والمحن ، صديق الأستاذ كامل كيلانى العالم الأديب ، الذى لقبه المرحوم الأمير شكيب أرسلان « بالأديب الكامل الأدوات » فقد وجده الأمير أديباً حافظا وعالما لغويا وشاعراً ، فلقبه بهذا اللقب الخالد ، قلت إن الكيلانى زارنى ، وكان يومها مهموما منغصا ، وراح يشكو لى مما يلقاه من صديقه وزير الأوقاف الشيخ مصطفى باشا عبد الرازق ، وكان الكيلانى موظفاً معه بوزارة الأوقاف فقلت له لا تحزن مما ترى من عدم تقديره لك . فأنت أعظم منه ، لأن الشيخ مصطفى إذا كان يعد فى نظر الناس موظفا كبيرا فأنت فى نظر التاريخ مؤلفاً كبيراً ، فغداً يسبل الزمن ذيول النسيان على وزيرك هذا وتبقى أنت بمؤلفاتك حياً خالدا . فكانت هذه التعزية على نفسه بلسماً ، ومرت السنون وتوفى الشيخ مصطفى ونسيه الناس فعلا ، وبقى الأستاذ كيلانى يحبر ويؤلف ويصنف حتى أصبح من أشهر أبناء هذا العصر .

خواطر فى السجن

الأيام تكر والأسابيع تتوالى وأنا أنتظر الإفراج عنى . وهل يفكر السجين فى شئ غير إطلاق حريته ؟ وكان يعزينى ويهون علىّ أن الإنكليز أنفسهم كانوا يتعذبون أكثر منى . فإن أخبار الحرب كانت كلها تبشر بانكسارهم وتصف تحطيم عاصمتهم لدرجة محزنة ، وياويح من يرثى له الشامت ! مثال ذلك هذا الخبر وهو : « مرت سفينة بقنال بناما تحمل ٧١٠ أطفال إنكليز هربوهم من انكلترا إلى نيوز يلاند خوفاً عليهم من الغارات الجوية الألمانية ، ووصلت الباخرة ساماريا إلى نيويورك تحمل الدفعة الأولى من أطفال لندن وهى ١٣٨ طفلا وسيصل غيرها ، ووصلت باخرة تحمل ٤٥٠ طفلا إلى جنوب أفريقيا » . فشمت وقلت فى نفسى زادهم الله تشتيتا كما شتتونا وخربوا بلادنا . ثم قرأت «اشتدت الغارات الجوية الألمانية على لندن فى الليل وفى الصباح فأحدثت تدميراً أزال أحياء برمتها من عالم الوجود وقد أصيب قصر بكنجهام الملكى فنزح ملك الإنكليز والملكة عنه وقد زاد فى الذعر أن القنابل الألمانية كانت من النوع الصارخ الذى يهدم ضجيجه الأعصاب ويطير العقول» .

تهمة اتصالى بالطليان

هكذا بلغنى ، فكيف العمل لدحض هذا الاتهام وأنا مسجون وهم لايحققون ولا يسألوننى ، ولكنهم يقولونه لتشويه سمعتى وتسويغ حبسى ، ولكن ماذا علىّ لو اتصلت بالطليان والألمان ليساعدونا على الخلاص من الإنكليز ؟ ألم يقل المستر تشرشل إنه مستعد لأن يستعين بالشيطان ليخلص انكلترا من الألمان[١] ؟

(١) بعد هذه الخواطر بعامين فقط ، ذهب المستر تشرشل إلى روسيا ووضع يده فى يد ستالين بعد أن كان يسميه بالشيطان الأحمر ! وهكذا فإنه لا يجوز لنا أن نستعين بالشيطان الأزرق لنخلص من العدوان فى حين أنه يجوز لتشرشل الاستعانة بجميع الشياطين ليتمكن من الاعتداء على أوطان الناس .

بمناسبة الاستعانة بالشيطان

وهنا تذكرت حادثة ومحادثة وقعتا فى القدس بينى وبين نائب المندوب السامى البريطانى بفلسطين فى أوائل سنة ١٩٣٦ وقبل ثورتها المشهورة . وهى حكاية ذات علاقة بالاستعانة بالشيطان. فقدسمح لى الإنكليز بزيارة الوطن الأول أوالوطن القديم ـ فلسطين ـ وأعطونى إذناً بالإقامة فيها مدة شهر واحد فقط :

وقبل مضى الشهر عزمت على الرجوع إلى مصر ، وإذا بإخطار يصلنى من إدارة الأمن العام ينذرنى بالخروج من فلسطين فى خلال أسبوع وإلا اتخذوا معى الإجراءات القانونية ! فاندهشت من هذا التصرف ، لأننى فى وطنى فكيف يوجهون إلىّ مثل هذا الإنذار . ثم تأملت الورقة فإذا هى بإمضاء موظف عربى من أعوانهم ، ولم أجهل أن من عادة الإنكليز فى المستعمرات أنهم إذا أرادوا اجتراح أمر مع أحد الوطنيين استخدموا لتنفيذه إمضاء أحد مواطنيه واختبأوا خلفه ليوقعوا العداوة بين الناس ، أما إن أرادوا عمل شئ محمود فهم يجعلون أحد الإنكليز يمضيه ليشعروا أهل المستعمرات بفضلهم ! فكلفت أحد معارفى أن يراجع رؤساء هذا الموظف على ظن أنهم أصدروه عن سهو أو بقصد الدس والإزعاج ، فقيل للوسيط بل هو أمر من إدارة الأمن العام وأنها تنوى تنفيذ ما فيه ، ومنه القبض والمحاكمة والحبس والإبعاد والحرمان أيضاً من دخول فلسطين إن أردت زيارتها مرة أخرى . عند ذلك تناولت ورقة وكتبت إلى المندوب السامى البريطانى بالقدس أحتج على ذلك الإنذار وأقول له إننى كنت على وشك السفر قبل نهاية الشهر المسموح لى به ولكن بعد وصول هذا الإنذار المهين لا يسعنى إلا الاحتجاج عليه والبقاء فى فلسطين إلى الأبد ، لأن البلاد بلادى والوطن وطنى وللحكومة المحتلة أن تصنع ما تشاء ، ثم أمضيت هذا الكتاب وأرسلته بالبريد مسجلا وقعدت أنتظر استعمال القوة، مستعداً لتحمل نتائج هذا التحدى مهما كانت . وبعد إرسال الاحتجاج ذهبت إلى القدس واستدعيت بعض أصدقائى لموافاتى فى مكتب المجاهد الكبير أحمد حلمى باشا « رئيس حكومة فلسطين بعد ذلك » وقصصت عليه وعليهم قصة الانذار وأطلعتهم عليه ، ولكنى كتمت عنهم الرد الذى أرسلته للمندوب السامى ، ثم طلبت رأيهم فى الأمر .

وهنا ظهرت نفسية بعض الحاضرين وتجلت رجولة بعضهم ، فالذين يوصفون اليوم بأنهم من الجيل الجديد أخذوا يشيرون عليّ بإطاعة الأمر الحكومى ، وراح أحدهم وهو موظف قانونى فى الحكومة يصف لى عواقب العصيان وأنه سيؤدى إلى القبض والمحاكمة والحبس الخ .

فقلت لهم إن إطاعة هذا الأمر فيها إهانة لى ولكم وللبلاد كلها . ولذلك أفضل أن أتحمل فى سبيل الوطن ومن أجل كرامتكم كل نتيجة حتى لايتكرر هذا العمل مع سواى . ولكن رجال الطراز الجديد أصروا على وجوب الطاعة وقال أحدهم : وهل يمكن للكف أن يلاطم المخرز ! وأما رجال الطراز القديم كأحمد حلمى باشا ونبيه بك العظمة فقد كان رأيهما من رأيى وهو الرفض والاحتجاج وتحمل العواقب .

عند ذلك أخرجت لهم من جيبى مسودة الكتاب الذى أرسلته إلى المندوب السامى بالأمس وأطلعتهم عليها ، فنهض حلمى باشا ونبيه بك وأخذا يقبلاننى ويقولان : هذا عمل رجال ولا يجوز إلا هذا . وبعد يومين وأنا فى وادى حنين أتناول فطور الصباح فى دار صديق الكبير توفيق بك الغصين « رحمه الله » إذا بالتليفون يقرع من القدس وكان المتكلم روحى عبد الهادى السكرتير العربى لحكومة فلسطين « وزير خارجية حكومة الأردن بعد ذلك » فطلب منى أن أركب فوراً إلى القدس لمقابلة القائم بأعمال الحكومة لغياب المندوب السامى عن البلاد فرفضت إلا أن أجىء غداً ، فرضى وحددنا الساعة الحادية عشرة صباحا .

لقد كان فى إمكانى أن ألبى ذلك الطلب فى حينه لأن المسافة بين القدس ووادى حنين تقطع فى ساعة وبعض الساعة ، ولكنى كرهت أن أسافر فوراً حتى لا يكون فى إسراعى معنى الطاعة .

عند عميد الاستعمار

وفى اليوم الثانى كنت قبل الساعة الحادية عشرة بدقائق أصعد درج دار حكومة فلسطين البريطانية التى لا أعرفها قبل ذلك ، وما كنت أريد أن أراها فى حياتى فإذا بروحى عبد الهادى ينتظرنى فنهض وأخبر نائب المندوب السامى بمجيئى . لأن المندوبين السامين فى

فلسطين كانت لهم تقاليد الملوك فى مقابلاتهم، ولا حول ولا ...

استقبلنى نائب المندوب السامى المستر مودى ببشاشة وإكرام وأمر لى بالقهوة ثم فتح الحديث وسألنى إن كنت أتكلم الانجليزية، فقلت قليلا، فقال وأنا أتكلم العربية قليلاً، فقلت ـ إذن يسمح صاحب السعادة لروحى افندى بأن يترجم فوافق، وأخذ المذكور بالترجمة.

قال المستر مودى: أولا أنا آسف جد الأسف للحادث الذى وقع لك من إدارة الأمن العام فهى غلطة منهم ولم يأخذوا رأيى فى إرسال الإنذار إليك ولما وصلنى كتابك أمرتهم بإيقاف الإجراءات فوراً وأرجو ألا يكون الحادث قدأزعجك. فشكرته وقلت إنه أزعجنى بلاشك، لأن البلد بلدى والوطن وطنى فعائلتى وإخوتى وأخواتى لايزالون كلهم فيه وكذلك أملاكنا وأوقافنا، كما إنى ولدت هنا، ففلسطين هى بلادى فكيف أطرد منها على هذه الصورة، وإنى أرجوك أن تضع نفسك مكانى وتخبرنى كيف يكون شعورك وماذا كنت تصنع أمام هذا الحادث؟ فسكت لحظة ثم قال: الحق معك وقدأمرت بإلغاء الإنذار وبالسماح لك بالبقاء فى فلسطين كل المدة التى تريدها، ثم استدرك وقال: عندك شهر آخر أو اثنين أو ثلاثة. فقلت: إذن فأنت لا تزال تعتبرنى أجنبيا عن فلسطين بتحديدك لى مدة معينة ولا تتركنى أمكث فيها كما أريد. فقال إنه القانون! فقلت ولكن هذا القانون لم نضعه نحن أصحاب البلاد بل وضعتموه أنتم وحدكم، فقال إنى أقصد أن المسألة معلقة على أوامر لندن، فقلت بأى حق تعتبرنى لندن أجنبيا وكل شئ يشهد بأننى ابن هذه البلاد بينما قانون لندن يعتبر اليهودى البولونى المهاجر فلسطينيا؟ فقال هذه سياسة عليا وأنا لاأتدخل فى السياسة، فقلت اذا كنت ياصاحب السعادة وأنت نائب الملك لست سياسيا فمن يكون السياسى فى هذه البلاد؟ وهنا سكت نائب المندوب لحظة ثم استعمل الصراحة فقال: أنتم المتطرفون تستعينون بالأجانب علينا وتغتنمون فرصة خلافاتنا مع ايطاليا مثلا وتتصلون بهم! فقلت ان هذه التهمة توجهها بريطانيا للوطنيين فى جميع المستعمرات، فإن اختلفت مع البلشفيك اتهمت الوطنيين هنا وفى الهند ومصر بأنهم بلاشفة، والآن تختلفون مع ايطاليا فتتهموننا بالفاشية وغداً تختلفون مع ألمانيا فتتهموننا بالنازية، والحقيقة إننا لم نتصل بدولة أجنبية ولو وجدنا

هذه الدولة ما ترددنا فى الاستعانة بها ، ولو ساعدنا اليهود عليكم لما أحجمنا عن الاستعانة بهم، فقال لماذا تشعرون نحونا بكل هذا الكره ؟ فقلت نحن لانكرهكم ولكننا نحب بلادنا فلو وجدنا مساعدة من الشيطان على الخلاص منكم لرحبنا بالشيطان. ثم إنى أسألك كيف يكون شعورك كانجليزى لو اغتصبت أمة أخرى بلادكم وجلبت لها أفواج المهاجرين ليحلوا محلكم، ثم حرمتكم الدولة المحتلة الجنسية البريطانية ومنحتها للغرباء الذين أتى بهم للحلول محلكم . ثم تقول لكم اخرجوا منها فأنتم فيها أجانب ! فقال تلك مسألة أخرى ، فقلت لابل هى إياها .

وهنا وقف وكيل نائب الملك إيذاناً بانتهاء المقابلة ومد يده مصافحا فودعته وغادرت دار الحكومة. إذن فمسألة الاستعانة بالشيطان للخلاص من المصائب هى مسألة قديمة وليس الإنكليز هم أول من فكر فى الاستعانة بالشيطان، حيث استعانوا به بعد ذلك ونجحوا ، فليتنا نجد شيطانا يساعدنا على الخلاص من الاستعمار البريطانى وغير البريطانى ...

الاستشهاد بالسنوسيين

ولنرجع إلى حكاية اتهامى بالاتصال بالطليان ، فكيف السبيل إلى دحضها وأنا سجين؟ فكرت طويلاً إلى أن خطر ببالى أن أقضى على شقشقة الجبناء الذين يتهموننى ولا يجسرون على مواجهتى أو التحقيق معى ، وذلك بالاستشهاد بالسنوسيين أنفسهم ، فهم ضحايا إيطاليا وأصدقاء انكلترا ، فشهادتهم عن شدة عداوتى للطليان لايمكن ردها فتناولت جريدة مما عندى وكتبت بين سطور جانب منها الكلمات الآتية للشيخ محمد الأخضر العيساوى الطرابلسى وهى : بلغنى أن الإنكليز يوهمون الحكومة المصرية انى من أصدقاء الطليان وحيث ان السادة السنوسية هم أعلم الناس بشدة عداوتى للطليان ومتانة صلتى بالمرحوم والدهم السيد السنوسى الكبير وكيف أنه دعى لى فى الحرمين الشريفين كما أن صلتى بالمرحوم السيد عمر المختار معروفة عندك وعندهم فإن واجب الشرف يدعوهم لأن يذهبوا إلى رئيس الوزراء، وأن يشهدوا لى أمامه بما يعلمونه عن « صداقتى » للطليان وكيف أننى فى جريدتى وبعدها لم أنفك عن عداوتهم أكثر من عشرين عاماً » ثم تناولت الملابس المعدة للغسيل ولففتها بالجريدة ، ثم طلبت من قرينتى أن ترسل الخادمة بعد يومين لأخذ هذه الملابس وأن

تحرص على الجريدة الملفوفه بها وتفتشها وتنقل على ورقة أخرى جميع ماسطرته بين سطورها وتسلم الورقة للدكتور مصطفى بشناق بك فيذهب بها إلى الرواق العباسى بالأزهر ويسلمها إلى الشيخ أحمد محمد نمان اليمانى وهو يسلمها إلى الشيخ الأخضر الذى يسكن بجوار الأزهر . وقد نفذت هذه الخطة بأكملها فهدأ بالى وأخذت أنتظر نتائجها الطيبة ، لأن شهادة السنوسيين وهم حلفاء الإنكليز ستهدم فى نظر رئيس الوزراء بشكل قاطع تلك الفرية التى يفترونها علىّ .

استدراك عن الأخضر ونعمان

أما الشيخ محمد الأخضر العيساوى فهو من فضلاء طرابلس الغرب وبرقة وتربطنى به صداقة نشأت قبل خمسة وثلاثين عاماً لما كنا معتقلين معا فى الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٦ بمعتقل الجيزة ، وبعد بضع سنين أصدرت الشورى فكان الأستاذ الأخضر خير واسطة بينى وبين مجاهدى طرابلس وبرقة وخصوصاً مع البطل الشهيد عمر المختار رحمه الله حتى انى جمعت له إعانة مالية صغيرة أرسلتها إليه بواسطة الأستاذ الأخضر فجاءنى بكتب من السيد المختار بالشكر وبوصول الدراهم إليه ، ولا تزال مكاتيب المرحوم المختار عندى حتى الآن ، كما أن عندى بضع رسائل من المرحوم السيد أحمد الشريف السنوسى الكبير رحمه الله أرسلها إلىّ من مهجره فى الحجاز قبل وفاته يشكرنى فيها على دفاعى عن الطرابلسيين والبرقاويين ومساعدة المجاهدين، وكنت قد نشرت رسالتين منها فى الشورى وأما أصلهما فلا يزال عندى بإمضائه وختمه حتى الساعة ، ومما يذكر فى هذه المناسبة أنه لما اطلع عبد الرحمن باشا عزام فى جريدتى الشورى على رسالتى السيد السنوسى كلمنى بالتلفون من داره بحلوان وقال إنه اطلع على الكتابين وانه يغبطنى على محبة السيد لى وتلقيبه إياى بولده ودعواته لى بالحرم المكى وبمسجد الرسول ، وبشرنى بأنه لن يصيبنى مكروه بإذن الله طول حياتى لأن دعوات السيد مستجابة وما دعا لأحد وأصيب بمكروه .

ملحق: بعد كلام عزام بعشرين عاما انقلب عزام علىّ وخذلنى وأصبح يناوئنى ويكيد لى، جزاء ماأسديت إليه ـ حسب عادة البشر منذ الأزل ـ ولكن المولى سبحانه أنقذنى من كيده

وأنجاني وحفظني من المكروه الذي دبره لي هو نفسه ، وبذلك صح ما قال عزام عن استجابة دعاء السنوسي لكل من دعى لهم بل جربه بنفسه ...

من هو نعمان؟

وأما الشيخ أحمد محمد نعمان فهو أحد سادات اليمن وكان يزور مصر زيارة استطلاع فهاله أن يرى سوء حال اليمن بالنسبة لمصر فرجع إلى وطنه وسكن في عدن واشترك مع أحرار اليمن في قيادة الحركة القائمة بطلب الإصلاح . ثم حدث في أواخر شهر فبراير سنة ١٩٤٨ أن وقع اعتداء جنائي على حياة الملك الشهيد الإمام يحيى ملك اليمن فاغتاله مجرمون هو ووزيره الأول المرحوم السيد عبد الله العمري واستشهد معهما حفيد لجلالة الإمام، ثم اعتداء ثان في نفس اليوم على الأميرين الحسين والحسن من أنجال الإمام فاستشهدا أيضاً رحمهم الله جميعاً ، فكان لهذه الجريمة البشعة صدى مىء طبق أرجاء الدنيا استنكاراً لها ، وقد بويع على أثر ذلك إمام جديد هو السيد عبد الله الوزير فألف حكومة جعل فيها السيد أحمد محمد نعمان وزيراً للزراعة ، ولكن حكم ابن الوزير لم يدم طويلا ، فقد انهار بعد شهر واحد . وقد بلغني في إبريل سنة ١٩٤٨ أن السيد أحمد نعمان قد وقع في يد حكومة اليمن فقتلته بقطع الرأس وقيل إن القتل جرى وهو في القيود تحت التعذيب ، فكان لمصرعه صدى استنكار في العالم العربي واعتبر شهيداً وطنياً، لأنه لم يقتل ليجوز إعدامه ، ولا يمكن أن يقبل العالم العربي أى عذر لحكومة اليمن مهما استشهدت بالآيات القرآنية لتبرر قتله، لأن الناس يحفظون آيات قرآنية كثيرة تحرم قتله .

ملحق : كتبت القصة السالفة في أوائل سنة ١٩٤٨ على أثر استشهاد المرحوم الإمام الكبير ، ولكن اتضح بعد ذلك أن جلالة ولده الأكبر الإمام أحمد ملك اليمن الجديد لم يسمح بقتل الشيخ أحمد نعمان بل أطلقه من سجنه لما ثبتت براءته ثم عينه مديراً لمعارف حجة، فكان لهذا العفو الملكي الكريم صداه الطيب في جميع أنحاء العالم الإسلامي وقابله الجميع بالشكر والإكبار ، أدام الله جلالته وخلد ملكه وأسعد به شعبه .

وقد راجعت نفسي في إبقاء قصة نعمان السابقة أو حذفها، ولكني وجدت من حق التاريخ أن أبقيها كما وردت لأنها تصور الانطباعات التي كانت في أذهان الناس في ذلك الحين .

وحكاية صاحبنا الشيخ نعمان هذه تذكرني بحادثة مثلها وقعت في الحجاز قبل ربع قرن، وذلك أن الملك ابن سعود كان قد قبض على الشيخ محمد سرور الصبان في حادث تآمر على حياته ولكن برغم كل الأدلة التي قامت ضده رأينا الملك السعودي العظيم يطلق سبيله ثم يعينه مستشاراً لوزارة المالية، فكسبه الملك، وكسب معه قلوب الألوف من الخلق الذين يحبون الأستاذ الصبان ويحبون الملك السعودي ويحبون العفو الجميل عند القدرة .

وثيقة على سوء نوايا الإنكليز نحو السنوسي

وفي أثناء إعدادي الأوراق الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٤٧ تمكنت إحدى صحف القاهرة من الحصول على وثيقة انكليزية عن نوايا بريطانيا نحو برقة وطرابلس الغرب، ونشرتها بالزنكغراف فكانت فضيحة للسياسة البريطانية وخبثها ما بعدها فضيحة .

والوثيقة هي توجيهات صادرة من إدارة الدعاية في السفارة البريطانية بالقاهرة إلى إدارات الرقابة في المستعمرات لتكييف ما ينشر عن موقف بريطانيا السري نحو طرابلس وبرقة، وتاريخ الوثيقة ١٥ يناير ١٩٤٢ - أي في أثناء انكسارات الإنكليز في الحرب - « تأمل » !

وكان موضوع هذا التوجيه أن لا ينشر شيء في الجرائد عن تلك البلاد أو عن السنوسي يفهم منه أن بريطانيا وعدت بشيء يدل على استقلال حتى ولا حكم ذاتي ! بل يكتفى بأن يبث في الأذهان بأن بريطانيا وعدت الطرابلسيين والبرقاويين والسنوسي بأنهم لن يقعوا مرة أخرى تحت الحكم الإيطالي !!

ثم تقول الوثيقة « وحيث أن السيد السنوسي حساس جداً الآن فيجب حذف كل دعاية تظهر السنوسي بأنه مأجور لحساب الإنكليز، وترحب بأن يشار إلى السيد السنوسي نفسه بعبارات تتضمن المديح والثناء مع تجنب التورط في القول ان السنوسيين حلفاء أو أحرار » .

وقاحة الروس وإنسانية الأمريكان

لما هجمت روسيا على فنلندا ظلماً وعدواناً وأخذت تدمر مدنها ، أخذنا نسمع استغاثة الروس من فنلندا بدعوى أنها قد استعملت ضدهم الغازات السامة ...

أى والله ، الروس يستغيثون من الفنلنديين بدون خجل من الدنيا كلها. وإلا فمن ذا الذى يصدق أن دولة فنلندا تعتدى على الروس وهى تعد بالنسبة إليهم كالنملة بجوار الفيل ، كما أنها ليست من الدول العسكرية أو الاستعمارية التى تفكر بالعدوان على الغير ، بل كان الروس هم الذين اعتدوا على فنلندا .

والعجيب أن أميركا بدلا من أن تصرخ فى وجه روسيا المعتدية ، راحت تبيع أسلحة للطرفين ! ثم نشر رئيسها روزفلت نداء ينصح فيه الدولتين بعدم استعمال الطيارات فى ضرب الآمنين من المدنيين ثم إذا بأميركا نفسها تلقى بعد ذلك القنابل الذرية على اليابان فتمحو مدينتى هيروشيما وناجازاكى من الوجود وتبيد نحو نصف مليون من سكان المدينتين وكلهم أبرياء .

مخابىء الحرب

يظهر أن التضجر من حالة المخابىء التى يحشر فيها الناس خوفاً من الغارات قد عمت الجميع ، وقد أخذت الصحف تنشر بعض مافيها من نوادر ، ومن ذلك ما وصف به أحد الشعراء صديقاً له أغمى عليه من الخوف قال :

أرأيت صنع محمد ... فى مخبأ بالناس حافل
سمع الصفير مدوياً ... فتفككت منه المفاصل
ما كان أشجعه فقد ... لاقى القنابل « بالقنابل » ..
ووهت عزيمته فأفلت ... يابس منه وسائل
ويحى على رفقائه ... من قاتل هربوا لقاتل !

شئون شتى

من الذى صمم على الحرب

هذه ملحوظة عابرة أحببت أن أدونها لأن أحد أسانيدها وقع اتفاقاً فى يدى ، فأقول إن بريطانيا كانت تجتهد كثيراً فى إقناع العالم بأن ألمانيا هى المتسببة فى الحرب، وكانت انجلترا ترمى بذلك إلى غرضين: أولا - كسب عطف الرأى العالمى عليها وتهييجه على الألمان. والثانى - أن تستطيع إن انتصرت أن تمزق الشعب الألمانى وتدوسه إلى الأبد مدعية أنها معذورة مادامت قد انتصرت بعد ظلم فلا يلومها أحد ، والحقيقة أن بريطانيا هى سبب الحرب أصلا وفرعاً ، وهى دولة لا تعرف أن تعيش بدون أن تحارب ، وقد استعدت للحرب قبل أن تقع، وعقدت المحالفة التركية الافرنسية الانكليزية فى يونيو سنة ١٩٣٩ بعد أن نزعت فرنسا لواء الأسكندرونة من سورية ووهبته إلى تركيا كعربون على صدقها ... وفى الرابع عشر من ذلك الشهر أذاعت برقيات هافاس الافرنسية عن باريس أن مجلس النواب الافرنسى بحث مسائل الحرب فسرد رئيس اللجنة الحربية أمام لجنة البحرية الوسائل التى اتخذت فى الموانى الحربية والقاعدة البحرية فى المرسى الكبير بالجزائر ، وقاعدة سيجون فى الهند الصينية ، وأن الدارعة ريشليو والبارجة جان بار وحمولة كل منهما ٣٥ ألف طن على وشك الإستعداد للعمل . وفى نفس ذلك اليوم ١٤ يونيو أذاعت برقيات روتر عن لندن أن المستر هندرسون من حزب العمال سأل تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية: هل من سياسة الحكومة الموافقة على تعيين جنرال إفرنسى قائداً عاماً للجيوش البريطانية والافرنسية فى وقت الحرب ؟ فقال رئيس الوزارة إن تنسيق القيادة وقت الحرب كان من جملة الأبحاث التى دارت بين الدولتين . الخ

لقد كان هـذا كله قبل وقوع الحرب بثلاثة أشهر ، ثم يقول الانكليز إنهم ما أرادوا الحرب ...

مستند على براءة هتلر

وبعد تدوين الفصل السابق ومرور سبع سنين على ابتداء الحرب وقبل طبع هذا الكتاب أذاعت وكالة التلغرافات الافرنسية عن واشنطن فى ٢٤ اغسطس ١٩٤٧ أن وزارة البحرية الأمريكية نشرت وثائق رسمية عثر عليها فى محفوظات وزارة البحرية الألمانية ، وهى تفيد أن

ألمانيا فى عام ١٩٣٩ كانت لا تنوى إعلان الحرب على بريطانيا العظمى إلا فى عام ١٩٤٤ بدليل أن جميع الاستعدادات العسكرية الألمانية قد اتخذت على أساس هذا التقدير ، ولذلك فوجىء الهر هتلر بإعلان فرنسا وانجلترا الحرب عليه فى سنة١٩٣٩ وقد جاء فى أحدالتقارير الألمانية أن الزعيم هتلر كان يعتقد حتى آخر لحظة أنه يمكن تجنب الحرب ، ولو بإرجاء المسألة البولندية . وجاء كذلك فى هـذا التقرير الذى وضعه الأميرال ريدر ، أنه لم يكن لدى ألمانيا فى عام ١٩٣٩ سوى ٣٦ غواصة وأن البحرية الألمـانية بوجه عام لم تكن مستعدة لخوض غمار الحرب ضد انجلترا » .

فهذه الوثيقة إذن قد برأت هتلر وأدانت انجلترا وهو الأمر الذى يهم الناس قبل كل شىء ، حتى إذا وقعت هـذه الدولة فى المآزق مرة أخرى كانوا على بينة من وقاحتها وجسارتها على الـكذب بادعائها عدوان الدول والأمم الأخرى عليها بينما تـكون هى المعتدية ، كما ثبت ذلك بعد الحرب الـكبرى الأولى وكما ثبت بعد الحرب الثانية . فالمهم مما أوردته هنا ليس التدليل على براءة هتلر فهذا لا يهمنى ولـكن المهم هو إثبات مسئولية انجلترا .

هل الاستعمار تجارة أم حب سيطرة ؟

وإنى أحب أن أسجل هنا حديثا دارفى إحدى الليالى مع بعض الأفاضل إذ قص علينا الوزير السابق عبد الحميد باشا عبد الحق القصة الآتية التى لم يخطر لأحد من الجالسين أن ينشرها فى الصحف ، ولـكن الحوادث التى أقوم بتدوينها هنا ذكرتنى بها قال الوزير : كنت مرة أتحدث إلى بعض أقطاب السفارة البريطانية فى مصر ، فقلت له إننى زرت بلادكم وزرت السويد وألمانيا والدانمرك والنرويج ، فوجدت أن هذه الشعوب أرقى من انكلترا وأكثر رفاهية ووجدت فى عاصمتكم لندن مناطق فقيرة بائسة لم أر مثلها فى أوربا . فإن كنتم تريدون بالاستعمار وبالاستيلاء على بلاد الناس ترقية الشعوب فالأولى أن ترقوا بلادكم أولا ، وإن كنتم تريدون الترف والاستفادة فإنى وجدت بلادكم أشد فقراً من سواها ، ووجدت حالة العامل عندكم وسواد الشعب دون حالة أمثالهم فى دول أوربا التى لامستعمرات لها . فلماذا تنفقون الملايين على التسليح وتستولون على بلاد الأمم الأخرى وتسفكون دماء رجالكم

وتعذبون تلك الشعوب ؟ فسكت القطب الإنكليزي . فاستطرد عبدالحق قائلاً لذلك المستعمر : ولكني أنا الذي أجيب على هذا السؤال ، فأنتم تحبون السيطرة والتحكم بالعباد فهذا هو سبب متاعبكم ومتاعب الخلق معكم .

وصف لذيذ لنكبات الذين يلقون مالقينا

لا أظن ان الإنسان يتلذذ بشيء كتلذذه بأنباء تحطيم عدوه ، وليعذرنا الافرنسيون ، قد أذاقهم الله مثل الذي أذاقونا إياه ، مثال ذلك أنه لما احتلت ألمانيا باريس قبضت السلطات الألمانية على ١٧ ألف من رجال التعليم والفكر والسياسة . وهو حادث ممتع حقاً ، لأن الافرنسيين ماتركوا سياسياً ولا عالماً فى سورية والمغرب إلا قبضوا عليه وسجنوه ، فليذوقوا طعم هذه النار التي كوونا بها ، وكم سررنا لما سمعنا أن الجنرالات بيتان وغورو ودنتز والمسيو بيرتون وأمثالهم قد أصبحوا فى السجون وهم الذين طالما أهلكوا السوريين والمغاربة ونكلوا بهم ، بل كم سررنا لما رأينا المارشال بيتان يتحمل الإذلال من الألمان ثم يبطش به الإفرنسيون أنفسهم ويحكمون عليه بالسجن المؤبد وهو الذى كان قبل الحرب بعشرين سنة يتولى منصب القائد العام للجيش الافرنسى فى مراكش فيزحف غدراً على المجاهد الأمير عبد الكريم من الخلف حين كان هذا المجاهد يحارب الأسبان ، فكان المرشال بيتان هو السبب فى كسر المغاربة ، وهو الذى غدر بعبد الكريم بعد الميثاق وأرسله إلى المنفى ، ولا يزال الأمير عبد الكريم فى جزيرة رينيون السحيقة إلى الآن[1] ولكن يعزيه فى هذه الدنيا أن الله قد عذب من قهروه هو وقومه، وأذل رجالهم وخصوصا المرشال بيتان القائد الذى غدره وطعنه من الخلف .

تقسيم فرنسا

ومن أجل ماحصل فى فرنسا بعد سقوطها تحت أرجل الألمان أن برتينا كس الكاتب الافرنسى كتب يقول فى صحف لندن شاكيا من المحتلين : إن هؤلاء الألمان أخذوا يقسمون

(١) بعد تدوين مسودة هذا الكتاب أفرج الله عن الأمير سنة ١٩٤٦ وهو الآن طليق فى مصر ، ولنجاته حكاية عجيبة ، وربما دونتها فى آخر هذا الكتاب مع أسانيدها .

فرنسا ويجعلون منها دويلات صغيرة بدعوى أن أهل تلك المقاطعات ليسو من جنس واحد ..

وهذا صحيح لأن سكان فرنسا من أجناس شتى وأما غير الصحيح فهو ادعاء فرنسا بأن السوريين ليشو أمة واحدة أو أن المغاربة كذلك ! نعم أن فرنسا قد ادعت هذه الدعوى ومزقت سورية إلى ست دويلات كدولة العلويين ودولة حلب ودولة اسكندرونة ودولة جبل لبنان الكبير ودولة جبل الدروز ودولة دمشق ، حتى أن جريدة لسان العرب قالت إن فرنسا تكاد تجعل من كل بيتين دولة ، ولما أبى السوريون الاعتراف بذلك صوبت فرنسا مدافعها على مدينة دمشق فخربت عمرانها ودمرت الآثار ولا تزال الخرائب موجودة فى أنحاء دمشق إلى حين كتابة هذه السطور بعد ٢٥ عاماً وأظنها لا تعود إلى أصلها بعد عشرين أخرى[١] .

ماهو ضرب دمشق

لقد ذكرت من ذنوب فرنسا ذنباً كبيراً جسيما أجملته فى كلمتين ، بينما هو فى الحقيقة جرم إنسانى لايمكن أن يغتفره لفرنسا أحد إلى أبد الدهر ، ولما كنت أخشى أن يظن أحد القراء من أبناء الجيل الجديد أن ضرب دمشق كان عملا عابراً أو شيئاً عادياً ، أقول إن المدفعية الافرنسية باغتت العاصمة السورية يوم ١٨ اكتوبر ١٩٢٥ بإطلاق المدافع عليها مدة ٤٨ ساعة فدمرت العمران وخربت الأسواق وأحرقت وهدمت دور الآثار ، وقتلت الأبرياء من النساء والأطفال .

وقد وصف أمير الشعر أحمد شوقى بك رحمة الله تلك الكارثة العظمى التى سودت وجه الإنسانية الافرنسية بقصيدته الخالدة خلود الدهر ، فقال منها وهو يصف ضرب المدينة وفرار سكانها من النار والهول وحيرتهم بين قذائف المدافع واشتعال الحرائق .

لحاها الله أنباء توالت   على قلب الولى بما يشق
يفصلها إلى الدنيا بريد   ويجملها إلى الآفاق برق

(١) زرت دمشق فى أواخر سنة ١٩٥٠ وبعد إطلاق المدافع الافرنسية عليها بربع قرن ، فرأيت الكثير من ذلك الخراب الذى لم يستطع أهل دمشق تعميره للآن لكثرته ، كما رأيت التخريب الثانى الذى أحدثته مدافعها فى دمشق لما ضربتها مرة ثانية سنة ١٩٤٤ وكانت نتيجة ذلك إخراجها من بر الشام كله .

تكاد لروعة الأحداث فيها ... تخال من الخرافة وهى صدق
وقيل معالم التاريخ دكت ... وقيل أصابها تلف وحرق
رباع الخلد ويحك مادهاها ... وهل لنعيمهن كأمس نسق !
وأين دمى المقاصر من حجال ... مهتكة وأستار تشق
برزن وفى نواحى الأيك نار ... وخلف الأيك أفراخ تزق
إذا رمن السلامة من طريق ... أتت من دونه للموت طرق
بليل للقذائف والمنايا ... وراء سمائه خطف وصعق
إذا عصف الحديد احمر أفق ... على جنباته واسود أفق

إلى أن قال :

وللمستعمرين وأن ألانوا ... قلوب كالحجارة لاترق

هذا بعض ما أصاب دمشق وحدها من مدافع فرنسا علاوة على فظائعها فى الأنحاء السورية الأخرى فقد أزالت من الوجود فى الثورات السورية ٥٠٠ قرية قصفاً بالمدافع .

فبعد هذه الفظائع الافرنسية أحب أن أسر خواطر القراء بإيراد وصف ما كان فى فرنسا بعد أن صب الله عليها أنواع العذاب بأيدى الألمان، وهو وصف بليغ محزن، وقد نشر فى أنحاء الدنيا لترقيق القلوب على فرنسا التى عادت بعد ذلك إلى تنمرها القديم بشكل أبشع وأشنع دل على أن هؤلاء المستعمرين دائماً هم هم ، تبطرهم النعمة وتصلحهم النقمة ، ولا ينفع معهم إلا سحقهم ومحقهم إلى أبد الآبدين . ولذلك كنت أردد دائماً هذين البيتين اللذين لا أدرى لمن هما :

وستأكلون أكفكم ندماً ... وستشربون دموعكم حزنا
وستدفعون لكل سائلة ... عن عرضها أعراضكم ثمنا

تصوير تاريخى لاستسلام فرنسا

بعد الأحداث التى أسفرت عن كسر فرنسا أسجل هنا وصفاً تاريخيا للحالة التى استسلمت فيها فرنسا، وهو وصف مذل لهذه الدولة الباغية ويشفى غليل المقهورين منها وهو :

هتلر فى غابة كومبيان

برلين فى ٢١ يونيو ١٩٤٠ ـ قالت وكالة الأنباء الألمانية الرسمية . إن الهر هتلر وصل إلى غابة كومبيان، فى الساعة الثالثة والربع بعد الظهر، وكان فى استقباله المرشال جورنج . والأميرال ريدر قائد الأسطول ، والجنرال فون بروختش القائد العام للجيش الألمانى ، والجنرال كيتل رئيس هيئة أركان حرب القيادة العليا ، والهر فون روبنتروب وزير الخارجية ، والهر رودلف هيس .

ووصل المندوبون الفرنسيون فى الساعة الثالثة والنصف لخيامهم هتلر واحدا واحدا برفع يده ، وهم . الجنرال هونتزيجر ، العضو بالمجلس الحربى الأعلى الفرنسى والجنرال برجريه من سلاح الطيران الفرنسى ، والفيس أميرال ليلوك والمسيو ليون نويل ، سفير فرنسا فى بولندا .

فى عربة الأكل التاريخية

وقالت الوكالة . « إن الفوهرر قدم شروطه للمندوبين الفرنسيين فى غابة كومبيان داخل عربة الأكل نفسها التى أملى فيها المرشال فوش ، فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ شروط الهدنة على المندوبين الألمان . وإن الإجراءات التى اتخذت اليوم فى غابة كومبيان ، قد كفرت عن الظلم الذى ارتكب ضد ألمانيا . وقد كانت المعاملة الكريمة لعدو هزم هزيمة شريفة ، تتناقض مع الذكرى التى لهذا المكان . وهى الذكرى التى تشهد بالكراهية الأبدية ، والاحتقار المر الذى لقيه الجيش الألمانى الذى لم يهزم .

المقدمة لشروط الهدنة

وقد تلا الجنرال كيتل بأمر الفوهرر . المقدمة التالية لشروط الهدنة :

«لقد ألقت جيوش ألمانيا الدفاعية فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ سلاحها ، مطمئنة إلى التأكيدات التى أعطاها الرئيس ولسن للحكومة الألمانية ، وأيدتها دول الحلفاء وبذلك انتهت الحرب التى لم يردها الشعب الألمانى ولا حكومته ، والتى لم يتمكن العدو فيها على الرغم من تفوق قواته

الكبيرة ، من كسر الجيش . أو الأسطول . أو سلاح الطيران الألمانى . وفى اللحظة التى وصلت فيها « لجنة الهدنة الألمانية » ، بدا نقض الوعود التى قطعت وأكد احترامها .

ففى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ بدا فى هذا القطار نفسه عهد الآلام للشعب الألمانى وبدا فى هذا المكان ذاته كل ما يمكن إلحاقه بأمة من الإهانة والمذلة والآلام الأدبية والمادية . فنكثت العهود ، ونقضت الوعود التى قطعت لأمة أظهرت ، بعدمقاومة باسلة دامت أكثر من أربع سنوات ، ضعفا واحدا وهو إيمانها بوعود رجال السياسة الديمقراطية .

وفى ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ أى بعد خمسة وعشرين عاما من نشوب الحرب العالمية أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا بلا سبب . والآن قد فصل فى الحرب بقوة السلاح فهزمت فرنسا وطلبت الحكومة الفرنسية إلى الحكومة الالمانية أن تعلن الشروط الألمانية لعقد الهدنة .

وإذا كان الاختيار قد وقع على غابة كومبيان التاريخية لتسليم هذه الشروط ، فقد أريد بهذا العمل أن يكون تكفيرا عن الظلم ومحو ذكرى لم تكن من الذكريات المجيدة فى تاريخ فرنسا إلى الأبد ، ذكرى كانت الأمة الألمانية تشعر بأنه أعظم عار أصابها فى جميع الأزمان . ولقد هزمت فرنسا ، بعد مقاومة باسلة فى معركة دموية واحدة ، وانهار صرحها ولكن ألمانيا لا تنوى أن تقوم مع مثل هذا الخصم بمفاوضات هدنة تكون ذات صبغة مهينة . أما الغرض من مطالب ألمانيا فهو : أولا — منع استئناف القتال . ثانيا — إعطاء المانيا جميع الضمانات التى تكفل لها مواصلة الحرب ضد بريطانيا والمضى فى حرب أكرهت ألمانيا عليها إكراها كما تكفل المقومات اللازمة لإقامة سلم جديد تكون عناصره الجوهرية إصلاح الخطأ الذى لحق بالأمة الألمانية بعنف وقسوة » .

الهر هتلر يغادر العربة

وبعد أن فرغ الجنرال كيتل من تلاوة المقدمة ، تلا المترجم الرسمى ترجمتها ، ثم وقف الجميع فغادر الهر هتلر عربة الأكل ، ومعه حاشيته فى الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين ، والموسيقى تصدح بالنشيد الوطنى الألمانى » .

ماذا جرى فى فرنسا بعد ذلك ؟

وهذا وصف لذيذ لحالة فرنسا على أثر الهزيمة نشر بإمضاء المارشال بيتان رئيس الدولة ، وياله من وصف يثلج قلوب الشامتين . وقد أذيع بلاغ رسمى بهذا الوصف صدر من بوردو عاصمة الحكومة الفرنسية الهاربة من ميدان الشرف وهو بتاريخ ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ :

« أيها الفرنسيون فى فرنسا وفيما وراء البحار ؛ أخاطبكم اليوم لأوضح لكم الأسباب التى دعتنا إلى عقد اتفاقيتى الهدنة الأولى مع ألمانيا منذ ثلاثة أيام والثانية مع إيطاليا أمس . إن الأمر الذى يجب التنويه به قبل كل شىء هو الوهم الخادع الذى بنت عليه فرنسا وحلفاؤها آمالهم بشأن قوتهم العسكرية الحقيقية وأثر السلاح الاقتصادى وحرية البحار والحصار والموارد التى كانوا يستطيعون الحصول عليها . فاليوم كما فى الأمس لا تكسب الحرب بواسطة الذهب والمواد الأولية فقط . إن النصر يتوقف على القوات والمعدات وكيفية استخدامها . وقد دلت الحوادث على أن ألمانيا كانت متفوقة فى هذا الميــــدان فى مايو ١٩٤٠ تفوقاً ساحقاً كنا لانستطيع أن نواجهه عند ما دارت رحى المعركة إلا بعبارات التشجيع والأمل . وقد انتهت معركة الفلاندر بتسليم الجيش البلجيكى وسط القتال ومحاصرة الفرق الانكليزية والفرنسية . وقد قاتلت هذه الفرق الأخيرة وكانت مؤلفة من خيرة قوات جيشنا . وبالرغم من مقدرتها لم تتمكن من إنقاذ جانب من رجالها إلا بالتخلى عن معداتها .

ودارت المعركة الثانية على نهرى الأين والسوم . وللثبات فى هذا الخط قاتلت ٦٠ فرقة فرنسية لا تحميها التحصينات ولا تؤيدها الدبابات تقريبا ١٥٠ فرقة ألمـانية من فرق المشاة و ١١ فرقة من الفرق المصفحة فاخترق العدو خطوطنا فى بضعة أيام وجعل قواتنا أربعة أجزاء واجتاح القسم الأكبر من الأراضى الفرنسية ، وكانت ألمانيا بحكم المنتصرة عندما دخلت إيطاليا الحرب وأقامت ضد فرنسا جبهة جديدة صمد لها جيش الألب . وعندئذ اتخذ نزوح اللاجئين شكلا يفوق ما يتصوره العقل فقد انضم عشر ملايين من الفرنسيين إلى مليون ونصف مليون من البلجيكيين وأخذوا يتدفقون على مؤخرة جبهتنا فى أحوال اختل فيها النظام وسادها بؤس لا يوصف . وابتداء من ١٥ يونيو اجتاز العدو نهر اللوار وانتشر فى بقية أنحاء فرنسا . فأمام

مثل هذه المحنة كان يجب أن تكف مقاومة الجيش . وكان على الحكومة أن تختار بين أحد أمرين : إما البقاء فى مكانها أو مغادرة البلاد . فتداولت فى الأمر وقررت البقاء فى فرنسا للمحافظة على وحدة شعبنا وتمثيله أمام العدو. ذلك لأنها رأت أن واجبها فى مثل هذه الأحوال يقضى بالحصول على هدنة مقبولة باستثارة روح الشرف والعقل لدى العدو . وقد عقدت الهدنة وانتهى القتال .

وفى يوم الحداد الوطنى هـذا تتجه أفكارى إلى جميع القتلى وإلى جميع أولئك الذين تألموا فى أجسادهم وعواطفهم من جراء هذه الحرب . إن تضحيتهم قد احتفظت بسمو علم فرنسا وطهارته، فهم لايزالون أحياء فى ذكرياتنا وقلوبنا . أما الشروط التى اضطررنا إلى قبولها فهى قاسية . فسيحتل جزء كبير من أراضينا مؤقتا وتقيم ألمانيا حاميات فى شمال بلادنا وغربه من بحيرة جنيف حتى مدينة تور ثم على طول الساحل من تور حتى جبال البرينيه . ويجب أن نسرح جيوشنا وأن نسلم معداتنا وتحصيناتنا ، وأن يجرد أسطولنا من سلاحه فى موانينا . وستجرد القواعد البحرية من سلاحها فى البحر الأبيض المتوسط .

أما الشرف فلا يزال سليما . فلن يستخدم أحد طائراتنا ولا أسطولنا . ونحن نحتفظ بالوحدات البرية والبحرية اللازمة للمحافظة على النظام فى فرنسا ومستعمراتها . وستظل الحكومة حرة ولن يدير شؤون فرنسا إلا الفرنسيون .

لقد كنتم على استعداد لمواصلة القتال. إنى أعلم ذلك. ولكن الحرب كانت لا محالة خاسرة فى فرنسا » .

سقوط باريس ومقارنة

لم أنم ليلة سقوط باريس إلا بعد أن سمعت نبأ سقوطها وتمام احتلال الألمان لها من جميع المصادر الأجنبية ومن إدارات الصحف ومن الراديو . ولا أقول فقط إننى شمت بسقوطها ، بل شعرت بأكثر من الشماتة ، أليست باريس عاصمة فرنسا التى تحتل العالم العربى المغربى فى تونس والجزائر ومراكش ، وأهم مناطق العالم العربى الشرقى كسورية ولبنان ؟ وبلاد الداهومى والسنغال وبلاد الطوارق وكلها من أرض العرب والإسلام ؟ فلتذق فرنسا بعض ما أنزلت بالناس ويكفى ضربها لمدينة دمشق بالمدافع .

ولما أخبرت صديق الدكتور مصطفى بك البشناق بسهرى طول الليل حتى تيقنت من سقوط باريس، قال إن ذلك يشبه ماحصل معه وهو فى استانبول سنة ١٩٠٤ عند نهاية حرب اليابان والروس وإنه كان تلميذا بكلية الطب وكان الشعب العثمانى كله متحمسا لليابان ضد الروس، لا حبا باليابان بل كرها بالروس الذين أهلكوا الدولة العثمانية بالحروب عدة قرون واستعبدوا أربعين مليون مسلم فى القرم والقوقاس وتركستان بعد أن قضوا على الممالك الإسلامية فى تلك الأصقاع، فلما هجم الأميرال طوغو اليابانى بأسطوله على تشوشيما بغتة وحطم الأسطول الروسى وانكسر جيشها فى موكدن وسلمت روسيا فى بور آرثور، هللت استانبول فرحاً وظلت عاصمة الخلافة طول الليل ساهرة ترقب النتيجة، وقال الدكتور إنه وإخوانه الطلبة ظلوا يرقبون الأخبار إلى أن صدرت ملاحق الصحف التركية قبل مطلع الشمس وضج الباعة بالنداء على صحفهم «ينى غزته» «صباح» «تصوير أفكار» فقال الدكتور إننا نزلنا إلى الشارع بألبسة النوم لنشترى ملاحق الصحف، فكان فرح العالم الإسلامى بهزيمة الروس مما لا يمكن وصفه، فقلت سبحان الله وهاهو التاريخ يعيد نفسه ويشمتنا بفرنسا والعقبى لغيرها ...

يوم الحداد فى فرنسا

«بوردو فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ – هـ – كان يوم ٢٥ يونيو يوم حداد فى جميع أنحاء فرنسا ففى مدينة بوردو وغيرها كانت الشوارع تبدو كئيبة حزينة، إذ أقفرت من السيارات وأقفلت المحال وخيم الصمت على الجماهير، وقد كانت الأعين دامعة والأصوات خافتة . ان فرنسا تبكى موتاها ومصيرها، لقد وقعت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وكان الجنود على وشك العودة ومع ذلك كان الحزن شاملا .

« كانت السماء قاتمة وكانت الجماهير تسير متجهة نحو الكنائس لتصلى وتفكر فى الجنود البواسل وفى البلاد وهى على أبواب حياة جديدة . وكان هناك رجلان يقطعان أحد شوارع بوردو الرئيسية متجهين إلى مكان الاحتفال وهما المسيو بيير لافال والمسيو لودفيك فروسار وزير الأشغال العمومية، وقد كانا يسيران مطأطئ الرأس ودلائل الحزن العميق بادية على محياهما .

إلى الله . . .

« وكان أهالى بوردو يتجهون جماعات وزرافات إلى كاتدرائية القديس ڤيكتور وهى كنيسة قوطية لاتزال محتفظة بجمالها على الرغم من قدمها. وفى هذه الكاتدرائية قام المونسنيور فيلتان حفلة صلاة بسيطة مؤثرة . وكانت الجماهير تصلى فى جو ملؤه الحزن والكآبة . أما فى الخارج فقد كانت فصيلة من الجنود تؤدى التحية العسكرية . ووفد على الكاتدرائية عدد كبير من الضباط وهم بملابس الميدان للاشتراك فى حداد فرنسا . وكان النساء يرتدين الفساتين القاتمة كما أن الكهنة كانوا يرتدون الملابس التى يرتدونها عادة فى الجنازات . وقد حضر الحفلة جميع الوزراء وكانت التراتيل الدينية حزينة .

« وقد نصبت منصة للمونسنيور فيلتان إلى يسار هيئة المرتلين . وكان مندوب الكرسى الرسولى المونسنيور فاليريو فاليرى محاطا برجال السلك السياسى بأكملهم وجلس إلى يمين هيئة المرتلين رئيس الجمهورية فى « فوتيل » وجلس أعضاء الحكومة فى مواجهة رجال السلك السياسى .

«وكان المارشال بيتان يرتدى ملابس الحداد وإلى جانبه المسيو جانينى رئيس مجلس الشيوخ والمسيو إدوار هريو رئيس مجلس النواب والمسيو كاميل شوتان والمسيو بيير لافال والمسيو ادريان ماركيه . وحضر الجنرال فيجان الحفلة بين فريق الوزراء كما حضرها جميع أعضاء البرلمان الفرنسى الموجودين فى بوردو وقد جلسوا فى بهو الكاتدرائية . وقد لوحظ حضور أعضاء الوزارة السابقة وفى مقدمتهم المسيو بولرينو والمسيو لوران ايناك والمسيو لويس ماران والمسيو لويس تيلييه .

« وكان الصمت يخيم على هذه الجماهير التى يحز فى قلبها الحزن . فلم تسمع فيه سوى بعض الأناشيد الدينية وعبارات الترحم على الأموات . وبعد أن تلا المونسنيور فيلتان بعض آيات الإنجيل ألقى بعض عبارات أشاد فيها ببطولة أولئك الذين حاربوا فى سبيل قضية العدل وذكر الواجبات المقدسة التى خلفوها لأولئك الذين يواصلون حياة فرنسا .

موكب الانكسار والدموع

« وعند الساعة العاشرة والدقيقة ٤٥ انتهت الحفلة الدينية . وحينئذ ألف الموكب الرسمى وفى طليعته ثلاثة أعلام فرنسية . وانحنى الأسقف أمام رئيس الجمهورية وقبلت مدام لوبران خاتمه . وقد احتشد جمهور كبير ليشاهد الموكب الرسمى وهرع إلى ميدان ١١ نوفمبر حيث يقوم النصب التذكارى لقتلى سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ . وعند الساعة الحادية عشرة وصل أمام هذا النصب المسيو لوبران والمسيو جانينى والمسيو هريو والمارشال بيتان وأعضاء الحكومة وكانوا جميعاً قادمين من الكاتدرائية ، ثم انحنوا احتراماً بينما كانت بعض فصائل الحرس الجمهورى تؤدى التحية العسكرية . وتقدم فى صمت شامل المسيو البير لوبران يصحبه المسيو ادريان ماركيه محافظ بوردو ووزير الدولة ومن خلفهما المسيو جانينى والمسيو هريو والمارشال بيتان وأعضاء الحكومة نحو قاعدة النصب بينما كانت الأجراس تدق دقات الحزن، وقد أخذ منهم التأثر كل مأخذ . وكانوا كلهم تقريباً يجهشون بالبكاء . ثم وقف المارشال بيتان ورئيس الجمهورية فارتفعت الأصوات هاتفة « لتحى فرنسا » ولكن الحزن كان بادياً فى هذه الأصوات لدرجة أن الهتاف كان ضعيفاً وكأنما الدموع كانت تخنقه » .

هذا وصف نكبة فرنسا التى رق لها الجماد ورحمها من أجلها الأعداء . ولكن فرنسا ما كادت تخرج من الحرب حتى أرسلت طياراتها فضربت مدينة دمشق مرة أخرى، ودمرت مدنا كثيرة فى تونس والجزائر والهند الصينية ومدغشقر ، فليحفظ الناس لفرنسا هذه الفظاعة .

ملحق : إننى أصحح بروفات هذا الكتاب فى سنة ١٩٥١ وبعد عشر سنين من سقوط فرنسا أمام الألمان ذليلة صريعة ، وأمامى أكداس من جرائد هذه الأيام وفيها أنباء وأخبار كثيرة عما تحدثه جيوش فرنسا الآن فى تونس والجزائر والمغرب الأقصى والهند الصينية من فظائع ومذابح وسلب ونهب ، فمن ذا الذى يرحم هذه الدول المستعمرة ولا يشمت بها ؛ فليحفظ العالم العربى وأمم المسلمين لفرنسا هذه الفظائع ، وليعلموا أن المستعمر لا يتعظ ولا يرتدع ولا يتوب أبداً ، وانه لا يعرف الله إلا إذا سلط عليه من يسحقه ويذله ويذيقه النكال .

هكذا كان الجيش البريطاني بفلسطين سنة ١٩٣٧ يدمر أثاث بيوت العرب بعد أن ينهبها

هكذا كان الإنكليز يدمرون عمران فلسطين ويخربون المدن العربية ، ويظهر فى الصورة
فريق من أهل يافا يبحثون عن بقايا أثاثهم بين الأنقاض

تجارب وخواطر

تجارب وخواطر فى السجن

— ممنوع وجود الورق والحبر والأقلام عند السجناء فكيف أدون ملاحظاتى؟ وأخيراً استطعت الحصول على قطعة صغيرة من رصاص قلم الرصاص فحجمها الصغير يمكن الإنسان من إخفائها، ولكن الورق؟ لقد كنت أستفيد من الورق الداخلى لعلب السجاير الذى يوضع فى داخل العلب فكانت الملحوظة التى أريد تدوينها لا تحتاج لأكثر من سطر أو سطرين. وبعد أن أجمع بضع ورقات مملوءة بسطور لا تفهم ولا تكاد تقرأ أهربها إلى خارج السجن لإخفائها عند أحد الأصدقاء، فمن هذه الأسطر أستمد الآن أسس الحوادث لهذا الكتاب.

— عند ما أخرج من السجن سأكتب فى الصحف أقترح على الحكومات أن لا تعين ضابطاً أو قاضياً أو وكيل نيابة فى منصبه إلا بعد أن يوضع أولا فى السجن لمدة شهر أو شهرين ليجرب حياة السجون « أى يعمل ستاج » ليذوق بعض مايصنع بالناس، فلا يحبس أحداً إلا بعد أن يذوق طعم السجن فيعرف ما هو معنى « اقبض واحبس » وما هو تقييد الحريات وتحكيم أسافل السجانين بكرام الناس وبالأبرياء ...

— يا ترى كيف حال الدكتور أمين رويحه؟ إنه مريض فى السجن ولا أدرى عنه غير ذلك وإنه لما سألوه عن جنسيته قال إنه عربى، ورفض أن ينسب نفسه إلى إحدى الحكومات العربية ما دامت هذه الحكومات قد خذلته وتركته يتعذب.

— أشعر فى كل يوم بعد الظهر بضيق نفسانى شديد وأحس بأن روحى تتعذب ثم أنظر إلى الساعة - بعد أن سمحوا لى بها - فأجد عقاربها كأنها لاتتحرك، بعد أن كنت أتصورها قبل السجن تركض أكثر مما يجب.

— لقد أعجبنى وجود بعض الكتب والقصص التى تركها السجناء فى إدارة السجن وقلت فى نفسى مادام الذين سبقونى قد تركوا ما أتسلى به فمن حق الذين يسجنون بعدى أن أترك لهم بعض الكتب والقصص لتسليتهم كما سلانى الذين سبقونى وذكرتهم بالخير.

نسيم صيبعة

— لا يزال الأستاذ نسيم صيبعة[١] يسأل عن الأسرة بالتليفون ويتنسم أخبارى ويسعى

(١) هو الوجيه السرى المعروف فى الحركة العربية بوطنيته وبدفاعه المشكور عن مصر والبلاد العربية، =

للإفراج عنى ، وهو وفاء منه فى وقت ضاع فيه الوفاء !

— بلغنى أن المستر دونفيل رئيس الجاسوسية فى الشرق الأوسط قال لصديقه أسعد داغر إن أمين رويحه ومحمد على الطاهر من الخطرين فيجب حبسهما إلى الأبد لأنهما من المأجورين للألمان والطليان. فقال له أحد الحاضرين اعرضوا عليهما مالا ومنصباً وجاهاً عندكم فإن قبلا فأنت صادق ...

— أفرج أخيراً عن محبوس فسررت كما أنى كنت أستاء عند ما أسمع بدخول سجين جديد . ومما يذكر أنه لا يكاد المفرج عنه يغادر الغرفة ويخرج حتى ينقض السجانون على غرفته يبحثون فى الزبالة عن شىء يغنمونه ! فليت دورى يجىء لأترك لهم ما هو أحسن من الزبالة ...

— ورد كتاب من الأستاذ أكرم زعيتر اللاجىء الفلسطينى إلى العراق يقول إن خبر حبسى قد أخذ هناك دوراً وإن الصحف العراقية نشرت أشياء كثيرة وإن بعض النواب سيتقدمون بأسئلة إلى رئيس الوزراء السيد طه باشا الهاشمى عما قامت به الحكومة العراقية من أجلى .

— فكرى مشغول على الأمير شكيب أرسلان فيا ترى كيف حاله فى جنيف وكيف يدبر أمور معيشته وهو منقطع فى أوربا وعن دنيا الشرق ؟

= ومقاومة الاحتلال الأجنبى ، وهو خطيب مفوه وكاتب من الطراز الممتاز وله شعر وطنى منشور ، ومن ذلك قوله فى تعزية « سعاد » يتيمة المرحوم سعيد العاص المجاهد السورى الذى استشهد فى معركة الخضر ضد الإنكليز سنة ١٩٣٦ بجوار بيت لحم بفلسطين :

لله أمرك يا سعاد فقد قضى ... فى ساحة الشرف الرفيع أبوك
نادته مصلحة العروبة فانتضى ... سيفاً عليه طابع اليرموك
ما كان فى الإمكان كبح جماحه ... حتى ولو فى حضنه وضعوك
للصدر أو للقبر كان شعاره ... صوناً لعرض بلاده المهتوك
أسعاد حيث حللت لست غريبة ... فبنو العروبة كلهم أهلوك

وفى سنة ١٩٤٤ انتقل نسيم صبيعه إلى الدار الباقية بعد مرض طويل احتمله صابراً ، فكان لفقده صدى حزن بعيد فى البلاد العربية ، والفقيد لبنانى الأصل من أسرة مجيدة بطرابلس الشام ، رحمه الله .

استدراك بشأن الأمير شكيب

بلغنى بعد الحرب أن الأمير شكيب كان يعانى خصاصة شديدة فى أوربا. وهذا يكذب على طول الخط جميع مزاعم الانكليز والافرنسيين من كون الأمير « رحمه الله » كان متصلا بألمانيا أو إيطاليا ، وأنه كان يعمل لحسابهما ، وأما ما كان يذاع باسمه من محطات راديو المحور فهو مقالات كان ينشرها بجرائد أميركا الجنوبية ضد المستعمرين الذين خربوا وطنه وجنوا على بلاده فكان سفراء المحور يتصيدون هذه المقالات وينقلونها عن تلك الصحف ويرسلونها بالبرق إلى حكوماتهم فتذيعها بالراديو نكاية بالحلفاء ، فيقول الانكليز والفرنسيون من شدة غيظهم من شكيب أنه يذيع ضدهم بالراديو لأنه مأجور للمحور ، فلو كان شكيب كذلك لما عانى فى سويسرا الضيق المالى الخانق ، وقد أخبرنى الدكتور الطبيب ناصر الذى كان رئيساً للجمعية المصرية بجنيف فى تلك الأيام أن الأمير شكيب كان فى بعض الأحيان يعجز عن دفع ثمن القهوة التى كانا يتقابلان فيها ، وكان الأمير يمشى المسافات الطويلة على قدميه مع تقدم سنه وتأخر صحته ليوفر أجرة التاكسى ، وأنه كان يحمل بيده مايشتريه لمنزله من مواد الطعام ، بينما كان عملاء الإنكليز وعملاء المحور فى سويسرا ــ وفى الشرق والغرب ــ يعيشون عيشة البذخ والثراء ، وبلغنى أن الأمير لما كان يسافر من جنيف إلى زوريخ مثلا لزيارة صديقه عزيز عزت باشا كان يركب فى الدرجة الثالثة من القطار ، وقد شاهده أحد الطلبة العرب وهو يحمل الحقيبة بيده ليوفر أجرة الحمال فهرول الشاب وأخذها من الأمير وحملها عنه .

وأخبرنى الدكتور الطبيب ناصر أن الأمير لم يتمكن من الحصول على أجرة بيته الذى يملكه فى ألمانيا لأن حكومتها كانت تمنع خروج الدراهم من بلادها . وقد وسط الأمير بعض أصدقائه لدى الحكومة الألمانية لتسمح له باسترداد أجرة البيت فلم تسمح ، فكيف يقال بعد ذلك إنه كان صنيعة ألمانيا ؟ أما هذا البيت فقد اشتراه الأمير شكيب فى برلين سنة ١٩٢٠ بعد الحرب الكونية الأولى بسعر المارك الذى ما كان فى تلك الأيام يساوى نفقة طبعه !

وبهذه المناسبة أقول تخليدا لنزاهة الأمير وشهامة بعض الناس وخساسة بعضهم أنه لما استطاع الأمير شكيب الاتصال بالشرق بعد وقوف الحرب أبرق إلى صديقه

المجاهد الكبير أحمد حلمي باشا مدير بنك الأمة العربية بالقدس وإلى صديقه عبد الحميد شومان صاحب البنك العربي بالقدس أيضاً يستقرض من كل منهما مبلغاً صغيراً من المال يفك به ضيقه ، أي ألف فرنك من كل من الصديقين ، فبادر أحمد حلمي باشا وأرسل إليه برقيا ألفي فرنك ذهباً ، ثم ألفي فرنك، ثم ألفي فرنك، ثم ألفي فرنك ، وأما عبدالحميدشومان الذي يملك بنكا بأسره مع فروعه الثلاثين ويربح في السنة ربحاً شخصيا يزيد على ٥٠ ألف جنيه فإنه لم يرد على استغاثة الأمير حتى الآن ...

والذين يعرفون صلة عبد الحميد شومان بالأمير شكيب ووفاء الأمير لجميع الناس يفهمون معنى خذلان شومان للأمير الذي ما عانى الضيق والغربة ثلث قرن وأنفق ثروته العظيمة إلا في سبيل الله وفي سبيل الدفاع عن الوطن الذي كان يعيش فيه شومان وأمثاله ويتمتعون بخيراته ويجنون الثروة منه ، بل إن الأمير شكيب قد دافع مراراً عن شومان لما أصابته المحنة وأخذوه إلى مزرعة عكا وضربه الجنود فكتب عنه مقالة عظيمة نشرتها افتتاحية بجريدتي «الشورى» عدد ١١ مايو ١٩٣٨ وهودفاع يساوي ثروة شومان كلهاأعان الله الأمير شكيب ـ وأمثاله أيضا ـ على عداوة الاستعمار وعلى احتمال ما يلقون من بعض الناس !

— توفيّ صديق العلامة محمد مسعود بك وكنت قبل حبسي بعشرة أيام قدلقيته في العتبة الخضراء فلحظت من حديثه أنه كان مهموما من عدم تقدير الحكومة له وتقصير الأمة معه فقلت له هذه هي الدنيا وما أنت بأول مغموط الحق عند الناس ، فهون عليه كلامي بعض ما كان يحس به من ألم ، وكان المرحوم مديراً لإدارة المطبوعات ومن كبار الصحافيين القدماء ومشاهير العلماء المصريين المثقفين، وكان قبل وفاته بثلاثين سنة قدأراد ترجمة كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون [1] ولكنه لم يكد يتم طبع الملزمة الثانية منهحتى انصرف عنهلمشاغل

(١) في سنة ١٩٤٥ قام العالم الفلسطيني الأستاذ عادل زعيتر بك الذي ترجم جميع كتب غوستاف لوبون تقريباً فنقل « حضارة العرب » إلى اللغة العربية بلغة سلسة عالية وأسلوب رفيع ممتاز وقد طبعته مطبعة السيد محمد عيسى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٤٦ ثم طبعته مرة أخرى سنة ١٩٤٨ وسيعاد طبعه مراراً لأنه خير كتاب ألفه عالم أجنبي كبير عن العرب فأنصفهم ووفاهم حقهم .

وبمناسبة الحديث عن الدكتور غوستافلوبون أذكر هنا ماسمعته من الأستاذ عادل زعيتر وهو أنه =

وشواده ، ولذلك لحكاية أخرى ، رحمه الله وعوض العلم على فقده أحسن العوض .

— توفى المطران غريغو ريوس حجار مطران حيفا للكاثوليك ، وكان من خيرة رجال الدين المسيحى العرب علماً ، مع فصاحة فى الخطابة ، وبلاغة فى الكتابة ، وقد ختم حياته بموقف وطنى عظيم مشرف أمام لجنة التحقيق البريطانية سنة ١٩٣٧ حين خذل الإنكليز وقال إن النصارى فى الشرق كانوا يعيشون فى ظل الدول الإسلامية فى رخاء وكرامة ، وإن كنائسهم وأديرتهم تحت الحكم الإسلامى قد نمت وازدهرت ، وانهم ماشعروا بالضيق فى أمور دينهم ودنياهم إلا تحت الحكم البريطانى المسيحى الذى يعمل لإنعاش اليهود فقط وإرهاق سواهم الخ... وشهادته موجودة بنصها فى كتاب « الشهادات السياسية » التى أديت أمام اللجنة الملكية البريطانية برياسة اللورد بيل ، وقد جمعها الأستاذ توفيق جانا صاحب جريدة الشعب الدمشقية « رحمه الله » فى كتاب ضخم بلغ نحو ٦٠٠ صفحة .

هواجس أخرى

رجعت إلى التفكير فى الأسباب المباشرة لحبسى ـ أما الأسباب السابقة فأنا أعرفها وهى كثيرة ومسطرة فى جرائد كثيرة ... وهنا تذكرت سبباً وهو إننى لما أوقفت الجريدة أذعت نشرة صغيرة على القراء ذكرت لهم نبأ وقف إصدارها وقلت لهم فى آخرها إنه مادام السيف قد تكلم فما على القلم إلا أن يسكت ، فهل كانت هذه العبارات التى تظهر فيها الشماتة بالإنجليز من أسباب القبض والحبس ؟ .

= قابل الدكتور لوبون سنة ١٩٢٢ فى باريس واستأذنه بترجمة الكتاب فأذن له وأن لوبون كان يتصور أن ملوك العرب والمسلمين سيحتفلون بكتابه وأن أحدهم مثلا سيأمر بإرسال كتاب شكر إليه أو يأمر بترجمته إلى اللغة العربية على الأقل ، ولكن أمله خاب وهذا مؤسف حقاً ، مع أن الواجب فى ذلك الحين كان يقضى بالشكر وبالهدايا أيضاً ، وفى سنة ١٩٢٥ نوى الأستاذ زعيتر أن يترجم حضارة العرب واستعد الأمير شكيب أرسلان لمشاركة الأستاذ زعيتر فى مشروعه فيتولى وضع تعليقات عليه ، كما استعد الأستاذ إلياس أنطون إلياس لطبع الكتاب والتعليقات ، وكنت أنا الواسطة بين الثلاثة وكتب لى المرحوم الأمير شكيب أنه قابل الدكتور غوستاف لوبون لهذا الغرض فطلب منه أن تهديه الأمة العربية عباءة وخنجراً مذهباً ، فكتب لى الأمير بأن أسعى فى تدبير هذه المسألة ، ولكن المرحوم محمد بك مسعود رجانى أن أتوسط لدى زعيتر وشكيب وإلياس بترك المشروع مادام أنه قد شرع فيه فعلا فتركوه له ولكنه لم ينفذ عزمه فنفذه زعيتر بك والسيد محمد البابى الحلبي بعد وفاة لوبون ومسعود وشكيب رحمهم الله .

ثم رجعت إلى الوراء القريب وتذكرت شيئا ورجحت أنه السبب ، وذلك أنه قد بلغني قبل حبسي بأشهر أن إنكليز مصر قبضوا على منير عرفة وهو شاب فلسطيني كان منسوبا للمجاهدين وهرب إلى مصر وقد وضعوه فى سجن القنطرة عند الحدود توطئة لتسليمه لحكومة فلسطين البريطانية لتعدمه حتما، فأرسلت رسولا إلى القنطرة لبحث مسألته وموافاتي بأسبابها بالتلفون. فلما عرفت قصته أبرقت لعلى ماهر باشا الحاكم العسكرى العام أناشده إنقاذ ذلك الشاب من القتل، فبادر الباشا وأمر بإطلاقه متحديا إرادة الإنجليز . فقلت فى نفسى أيكون هذا الحادث من أسباب تحريك حفيظتهم وطلب حبسي ؟ .

— لم أطلع لأحد على مذكرات وافية مفصلة عن حياة السجون والسجناء تتناول المسائل الدقيقة والخلجات النفسية ، فهل أقوم أنا بتدوين مذكرات وافية ؟

— يصدع الإنكليز رؤوسنا بدعاياتهم ضد بوليس الجستابو الألماني بينما هم يحكمون الدنيا بجستابو انكليزى يسخرون له جميع إدارات البوليس فى المستعمرات وغيرها ، وان ألوان التعذيب التى أنزلوها بأهل فلسطين وحدهم بين سنتى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ تكفى لتسويد وجه الاستعمار إلى يوم القيامة ، لأن نسف المدن ودك القرى بالمدافع وتقطيع أوصال المسجونين وخلع أضراسهم وأظافرهم لم يقع فى القرون الوسطى . ولكنه وقع من متمدنى القرن العشرين، أى من الإنكليز فى فلسطين .

— سمعت ضجة بين المسجونين فى إحدى الليالى فأصغيت فإذا ببعضهم يغنى . هذا يدندن بالعربى، وذاك يغنى باليونانى، وآخر يترنم بالهندى، وغيره بالطليانى ! وأما أنا ففكرى مشغول وكأن فى رأسى زوابع تثور فالدماغ يشتغل ليلاً ونهاراً فهنيئاً للذين لايعقلون .

لقد كان دماغى يشتغل باستطلاع ما يأتى به الغيب لمعرفة المصير ، وهل تنكسر بريطانيا فيتفكك قيد الاستعمار عن البشر ، وهل أعيش وأخرج من السجن وأشهد هذا الحادث العظيم الذى تمنيناه فى الحرب العظمى الأولى فلم نره بل شهدنا عكسه وفجعنا بالوقوع فى أيدى المستعمرين !

— أمتع شىء عند السجين هو فتح باب الغرفة ومحادثة الناس ولو كانوا من السجانين! لأن السجن الانفرادى فظيع لايمكن أن يفهمه إلا من نكب به ، وقد تمنيت لو أنقل إلى

سجون المجرمين لأتمكن من محادثة الناس ، وقد قال الشاعر :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها   فلا نحن فى الموتى ولا نحن فى الأحيا
إذا دخل السجان يوماً لحاجة   فرحنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

فائدة استعمارية . . .

كان بعض الأصدقاء يستهين بمسألة عدم وجود جنسية قانونية لى ، ولكنى كنت أعارضهم وأقول لهم إن الإنكليز يحرصون على جعل حكومة مصر تنكر علىّ جنسيتى ليسهل عليهم مطاردتى وإخراجى من مصر فى أيام السلم ويمكنهم من حبسى – إن وقعت حرب – طول مدة الحرب ، وقد كان لهم ما أرادوا حرفياً . وها أنا الآن فى السجن لا يطالبهم أحد بالإفراج عنى ، ولا تتقدم حكومة عربية بالسعى من أجلى ، فلو كنت تابعاً لحكومة تاهيتى أو جمهورية العبيد فى ليبريا لطالبت بى بريطانيا وأنقذتنى من السجن .

خاطرة عابرة

أشعر طول أيامى بالندم على الزواج بعد أن ترددت فيه ورغبت عنه. لأنى معرض للحبس فوق حياة القلق التى كنت أعيشها والتشريد الذى أعانيه من الإنجليز ، حتى لا أتزوج ثم أحبس فتنزعج أسرتى بسببى وأكون مصدر تعاسة لأولادى ، فإذا بكل ما كنت أخاف منه أن يقع قد وقع ! ولكنى التمست العذر لنفسى بعد أن تزوجت وجنيت على غيرى ، ومع ذلك فأنا ما تزوجت إلا بعد أن استقرت الأحوال فى مصر وتم استقلالها ، ولم يخطر ببالى أن تقع الحرب ويأتى حكام مصريون يهدرون معنى الاستقلال ويبيحون للإنجليز القبض على العباد لحساب الأعداء لا لحساب مصر . وكم كنت أحزن على الطفلة التى فقدتها وأنا فى السجن قبل أن ترى الدنيا أوتشعر بهذا الوجود ، ولكنى عزيت نفسى على فقدها بأن بطن الأرض خير من ظهرها فى زماننا الأسود هذا ، وكنت أردد بيتين للمرحوم نقولا رزق الله كان قد أثبتهما فى ترجمة رواية « الطفلة المفقودة » لمكسيم ويلمر التى قرأتها قبل ثلث قرن وهما .

لو أن الطفلة اختارت مقاماً   تفضله على دار الفنـــاء
لودت أنها بقيت جنيناً   وفضلت الظلام على الضياء

مس نيوتن

ثم قلت فى نفسى : أيكون كتاب مس نيوتن هو السبب ؟ وهنا لابد لى من شرح هذه القصة لأنها قصة :

المس نيوتن إنكليزية كانت تعيش فى حيفا فلما رأت فظائع قومها الإنكليز بفلسطين غضبت وثارت ثم ذهبت إلى لندن وطبعت هناك كتاباً عن فظائعهم وفظائع اليهود ومعها بعض التصاوير عن التخريب والتدمير فى ٧٢ صفحة ، فتولى المكتب العربى بلندن الإنفاق على الكتاب وبعث إلى منه بخمسين نسخة فلما اطلعت عليه قلت فى نفسى يجب إعادة طبع الكتاب مرة أخرى وتوزيعه بصورة واسعة ، وعند ذلك حفرته كله مع تصاويره بالزنكغراف لأتمكن من طبع مئة ألف نسخة ، وشرعت أفاوض مطبعة افرنجية تستطيع إبرازه كالأصل تماماً ، فإذا بالحرب تقع والرقابة تعلن . فأوقفت المشروع لاستحالة تنفيذه ، وأما مس نيوتن فقد غضبت عليها حكومة لندن وحجزتها فى انكلترا ومنعتها من مغادرتها إلى الأبد .

لذلك قلت فى نفسى : هل كان يوجد أحد من اليهود بين موظفى تلك المطبعة فوشى بى إلى الإنكليز ؟

استدراك سنة ١٩٥١ : لا أزال أحتفظ بكليشيهات ذلك الكتاب التاريخى الذى خلد مس نيوتن ، فهل يقدرنى الله على تدبير نفقاته لأطبعه وأوزعه «مجاناً» انتقاماً لأهل فلسطين من الإنكليز ؟ أما مس نيوتن فلا تزال إلى الآن « سنة ١٩٥١ » ممنوعة من مغادرة البلاد الإنكليزية ، ولكنها مع ذلك لا تزال ترفع صوت الفلسطينيين هناك .

تنكر المفوضية السعودية العربية

ذهب فريق من أصدقائى إلى الصديق القديم الشيخ فوزان السابق معتمد الحكومة السعودية وأخبروه بحبسى وطالبوه بالتوسط ، فاستشار سكرتيره السيد خير الدين الزركلى صديق القديم أيضاً ثم قال لهم إن السيد الطاهر غير سعودى ولا يمكننا عمل شىء لاسيما وهناك فى المسألة (انجريز) أى انجليز ! فقالوا ولكن المفوضية العراقية تحركت وسعت من أجله وهو ليس بعراقى ويكفى أنه عربى ، ولكن فوزان وخير الدين أصرا على التزام الحياد الدقيق ...

بلغنى هذا الخبر فتكدرت وقلت فى نفسى ماذا عليهم لو أظهروا إحساساً طيباً لا يكلفهم إلا كلمة أو حركة يد ، ثم تذكرت قول المحب وهو يتظلم من حبيبته التى بخلت عليه وهى مارة به بنظرة أو إيماءة :

منعت تحيتها فقلت لصاحبى ما كان أكثرها لنا وأقلها

لقد أمضيت أكثر من عشرين سنة أكتب وأحبر وأدافع عن الدولة السعودية لما كانت إمارة فى أواسط نجد، إذ نصرتها بجريدة السياسة سنة ١٩٢٣ لما وصل جيشها إلى عمان وكاد يستولى عليها لولا دبابات الإنجليز ، ثم نصرتها فى الشورى وأخواتها وفى جريدة كوكب الشرق من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٣٩ نعم لقد دافعت عن الدولة السعودية وأيدتها فى جميع المواقف والمشاكل، وأيدتها لما هاجمت الحجاز سنة ١٩٢٤ واستولت عليه فكرهنى الملك حسين وآل هاشم، وكتب لى الملك حسين كتاباً أبدى ألمه منى وعاتبنى. ودافعت عن السعودية فى مشاكلها مع العراق ١٩٢٦ وكذلك أيدتها فى ثورة الدويش فاغتاظ منى العراق والإنكليز ، ووقفت مع السعوديين فى ثورة ابن رفادة سنة ١٩٣٢ وكذلك فى حربها مع اليمن سنة ١٩٣٤ فتكدر منى اليمن ... وأيدتها ضد حكومة شرق الأردن فكرهنى أميرها وكرهنى الإنكليز ، وأيدتها ضد حكومة العراق فى زمن الحماية فكرهنى من هناك ، ومعهم الإنكليز، فلما أصبحت السعودية دولة تنكر لى معتمدها وسكرتيره الذى من هناك، شخصياً طول حياتى فما حفظ لى عهداً ، وهكذا صح معى المثل « النذر للدير والزبالة على رأس سمعان » !

إذا كان واجب العروبة قد حمل تحسين بك العسكرى وزير العراق على أن يغضب لى ويسعى فى إطلاق ويطيب خاطر أسرتى ، فإن هذا العمل الطيب كان على الشيخ فوزان السابق وخير الدين الزركلى أوجب وألزم ، فتحسين بك لم يكن بالصديق القديم لى ، وأما فوزان فهو صديق منذ سنة ١٩٢٠ لما كنت تاجر زيت وكان فوزان فى مصر تاجر بعران ! وكان خير الدين يدير مطبعة للكتب والجرائد وكنا نطبع الشورى عنده وهو يعلم كم أسديت إليه من إخاء ووفاء، وكم نصرته على صفحاتها وكم رفعت من ذكره وكم أعليت من شأنه، فلما صار مستشاراً للشيخ فوزان تنكر لى وحمل فوزان على التنكر أيضاً ... أنا لم يخطر ببالى أن التوسط من المفوضية السعودية لدى الحكومة المصرية سيؤدى إلى الإفراج عنى ، ولكنه كان ينتج على كل حال

نتيجة أدبية معنوية ، وهى أن الحكومة متى رأت الهيئات السياسية تهتم بى فلا يسعها على الأقل إلا أن تحسن معاملتى أو تخفف من عذابى .

إذن فنحن نتحمل العداوات من دول الاستعمار فى سبيل بعض الدول العربية فإذا أصبحت حكومات حقيقة قالت لنا « نحن لا نعرفكم » ...

استطراد...

لقد سردت فى السطور السابقة شيئا عن واجباتى التى قمت بها نحو الدولة السعودية ، كعربى يؤيد حكومة عربية ، ولكن ما هى الأعمال التى قام بها خير الدين لمصلحة حكومته التى أعطته منصباً ومالا وألقابا ؟ وماهى الخدمات التى أداها لصحبه وإخوانه القدماء ، ومواطنيه السابقين ؟ .

فأما خدماته السياسية للسعوديين فلم أعرف عنها إلا أن خير الدين طلب ذات مرة مقابلة رئيس وزراء مصر سنة ١٩٤٤ النحاس باشا وذهب إليه للاسكندرية ليشكره على إرساله باقةزهور لتحيةحرم أحدالأمراء السعوديين...

وحضر خير الدين مرة أخرى مؤتمر الدراسات الاجتماعية سنة ١٩٥٠ باسم الحكومة السعودية فلم يتكلم عن الموضوع الذى أرسلته حكومته من أجله بل سكت اسبوعين، ولما انتهى المؤتمر وقف ليصف بلاغة الخطباء ، وإسداء الشكر لحسن ضيافة حكومة جلالة ملك مصر للوفود ...

هذا من جهة الرسميات . وأما مع الناس فلم أسمع أن خير الدين قضى حاجة لأحد ، لا لأصحابه ، ولا لمواطنيه السوريين ، ولا لأبناء دينه المسلمين . فهو لا يعرف شيئاً سوى أن يقول للناس « هذا غير ممكن » « وهذا ممنوع » وهذا « غير قانونى » وذاك « مش من اختصاصنا » ...

وأما الممكن فقط عند خير الدين . والواجب أيضا . فهو الإخلاص التام « لولى النعم » يوسف ياسين الذى عينه فى هذه الشغلة !

الملك فيصل وذوق الإنجليز

أما وأنا فى صدد خذلان بعض الناس لى ، فلا يسعنى إلا أن أذكر بالخير الملك فيصل الأول رحمه الله . فإنه نصرنى فى حادثة جنسيتى مع أننى لم أنصره ولا مرة ، لا فى حرب الهاشميين مع السعوديين ، ولا فى مشاكل السعوديين مع العراق ، ولكنه حفظ لى شرف الدفاع عنه مرة واحدة سنة ١٩١٩ فى جريدة «سورية الجنوبية» التى كانت تصدر فى القدس لما شتمه أحد سفهاء فلسطين بجريدة مرآة الشرق القدسية وهو ملك على سورية، فلما اجتمعت بجلالته فى بورسعيد بعد ذلك بأشهر، وبعد أن أزالت فرنسا الاستقلال السورى سنة ١٩٢٠ ، شكرنى على تلك المقالة ولم ينسها لى ، ثم قابلته بالباخرة سنة ١٩٢٥ فى مياه يافا وهو مار إلى أوربا وكان ملكا للعراق فرحب بى، ثم قابلته فى الإسكندرية سنة ١٩٣٠ فأمر بأن أتخلف عن السفر ساعات ليحدثنى عن مشروعه فى توحيد عرشى العراق وسورية ، ثم قابلته بالقدس سنة ١٩٣٢ ثم قابلته فى القاهرة قبيل وفاته بأسبوع سنة ١٩٣٣ يوم مر بالقاهرة بعد فتنة التياريين فى العراق وهو فى طريقه إلى سويسرا للاستشفاء وتوفى فيها . وأذكر له رحمه الله أنه لما رآنى فى القدس يوم مروره بها فى حفلة الشاى التى أقامها له المجلس الإسلامى سنة ١٩٣٢ هش لى وبش وسألنى أأنت هنا أم فى مصر ؟ فقلت له هنا وفى مصر ، ولا هنا ولا فى مصر ! فاستفهم عما أعنيه وهو يستغرب كلامى ، فالتفت المرحوم موسى كاظم باشا الحسينى وقال لجلالته . إن أبا الحسن أصبح اليوم « العربى التائه » فازداد استغراب الملك فشرح له كاظم باشا مسألتى وكيف أن حكومة مصر تنكر جنسيتى ، وإن حكومة فلسطين لا تعترف لى بها ، فلما سمع الملك هذه الحكاية اربد وجهه وأطرق لحظة ثم التفت إلى كاظم باشا وقال له سنتعشى الليلة عند المندوب السامى فأرجوك أن تذكرنى بهذه المسألة لأكلم المندوب فيها

وقد بر الملك بوعده فقد أخبرنى كاظم باشا انه ذكر جلالته بالمسأله وهما على المائدة وان الملك لما كلم المندوب تظاهر هذا بأنه لم يدر بهاوأنه سيأمر غداة الحفله بفض المشكلة وتنفيذ إشارة جلالته التى تعتبر أمراً ملكياً ، ولكن المندوب لم ينفذ شيئاً .

رحم الله ذلك الملك ، ولا رحم ذلك المندوب الذى لم يستح من ملك عربى هو فى الأصل ملك البلاد وهو صاحب الحق الشرعى فى أن يأمر فيها فينفذ أمره ! لأن البلاد بلاده والشعب

شعبه فقد بايعته البلاد العربية ومنها فلسطين سنة ١٩١٩ بالملك قبل فصلها رسميا عن سورية بيعة صحيحة فهو ملكها قانونا ، فلولا عدوان بريطانيا على العالم العربي وتمزيقها إياه لما وصل الأمر بموظف انكليزى أن يهمل أمر ملك عربي متوج ثم يكذب عليه ، مع أن ملك الإنكليز نفسه كان ينزل إلى محطة لندن ليستقبل ذلك الملك العربي الذى يكذب عليه المندوب .

وصف نكبات لندن على لسان انكليزى

بعد أن تذكرت الحوادث السابقة قرأت فى الصحف برقية عن وصف وزير انكليزى لمدينة لندن ومصائبها وهو وصف يجب أن يطلع عليه الناس جيلا بعد جيل ففيه عزاء للمنكوبين...

قال المستر جرينوود إنه يتحدث إلى سامعيه من مجلس العموم فى قلب لندن التى أصبحت ساحة قتال جوى فقد وجه إلينا هتلر ضربات شديدة فى الأيام القليلة الماضية وأحدث أشد الضرر بالمصانع والسفن والمطارات والمنازل والمستشفيات والكنائس والمتاحف والمدارس ومن الحق أن نخفى أو ننكر أن الضرر المادى الذى أحدثته هذه الغارات كان واسع النطاق وأن القتل المتعمد كان خطيرا وقد شاهدت اللهب يتصاعد من الحرائق الكبيرة إلى عنان السماء ورأيت الخرائب وأنقاض بيوت الفقراء تنفث أعمدة الدخان . وكثيرون هم الذين رأوا القنابل المحرقة تزيل كل أثر لبيوتهم من الوجود أوتشوهها القنابل الشديدة الانفجار وتدمرها تاركة الأمتعة المنزلية الغالية عند أصحابها تبرز من بين الأنقاض كأنها احتجاج محزن صامت على عنف المغيرين الأشرار الذين لا يفرقون بين ما يضرب وما لا يصح ضربه بالقنابل وقد تنسف القنابل الألمانية كل أثر قديم من آثارنا الخالدة » .

قرأت هذا الوصف شامتاً راضياً وقلت فى نفسى يالهذا الوزير السخيف . أفيظن أنه بهذا الوصف يثير سخط الناس على ألمانيا ؟ ولماذا يسخطون معه بعد أن ارتكب الإنكليز أشنع منه فى المستعمرات وبلاد الانتداب وفى فلسطين ، وهم أول من شرع البطش الاجماعى ضد الأبرياء ، وماذا على الألمان وهم يصنعونه مع دولة اعتدت عليهم وألبت الدنيا ضدهم وتريد محقهم وسحقهم وحرمانهم حق الحياة ؟ .

ألم يبطش الجنرال داير البريطاني في الملابار بالهنود المسلمين منذ عشرين عاماً سنة ١٩٢٠ لما حصدهم بالمدافع في الشوارع حصدا وقتل آلافا بلا سبب ؟ ألم يبطش الإنكليز بأهل فلسطين بطريقة التقتيل الإجمالي والقمع الإجماعي فنسفوا المدن وهدموا المساكن ودكوا القرى؟ ألم يقتحم جندهم البيوت بغتة تارة من الأبواب بعد كسرها وتارة بوضع السلالم على الجدران ودخول البيوت من النوافذ يفتكون بالأهالي ويسلبون أموالهم ؟ ألم يهتكوا الحرمات والأعراض ثم استباحوا المسجد الأقصى بعد أن أصابوه بقنابل المدفعية وهو أثمن أثر عربي على وجه الأرض، غير قداسته الدينية، ثم وضعوا فيه نقطة عسكرية فيها يهود من جنودهم فكانوا يفسقون فيه ويعربدون .

إن فلسطين ما كانت دولة معادية لبريطانيا ولكن بريطانيا استولت عليها بالخديعة والغدر، وادعت أنها وصية تريد أن تمدن البلاد! فيا للوصي الذي يخرب ديار «القاصر» الموصى عليه ويسلب ماله ويذبحه ، ثم يلقيه للكلاب تنهشه ، وما الكلاب هنا إلا الصهيونيين اليهود الذين جاء بهم الإنكليز لفلسطين بعد أن استأجرهم اليهود هم ودولتهم وساستهم وأساطيلهم وجيوشهم لسلب أوطان الناس وإبادتهم وإزالتهم منها، فلماذا يستغرب الإنكليز كرهنا لهم وشماتتنا فيهم؟ ثم من يضمن لنا أن الإنكليز إن انتصروا لاسمح الله لا يعودون إلى ارتكاب جرائم البطش الإجماعي مع العرب مرة أخرى (١) .

الشهيد فرحان السعدي

لقد كنت كلما قرأت أنباء الغارات الجوية الألمانية على لندن ومدن انجلترا وتحطيمها وإهلاك سكانها أتذكر ما صنعوه بفلسطين، وكنت أردد أبياتا من شعر العداوات وردت في قصيدة في رثاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان « رضي الله عنه » وإنذار قتلته بالثأر وما ينتظرهم من الهول ، ثم أتذكر مصرع الشهيد المرحوم الشيخ فرحان السعدي الذي أعدمه الإنكليز في فلسطين وهو في شيخوخة تقرب من الخامسة والسبعين ، برغم توسط العالم العربي كله لمنع

(١) لقد انتصر الإنكليز وياللأسف، وقد استعملوا أساليبهم المعروفة مرة أخرى ، ومنها أنهم في أثناء تصحيح هذا الكتاب أغاروا بطياراتهم على القبائل العربية بجنوب اليمن وأبادوا الألوف عن بكرة أبيها .

إعدامه والاكتفاء بسجنه مدى الحياة ، ولكن الإنكليز أبوا إلا إعدامه ، مع أن جميع القوانين تحرم إعدام الشيوخ المسنين ، ولكنهم أعدموه فى رمضان وهو صائم وشفوا غليلهم منه بسفك دمه بعد محاكمة دامت ساعة ، فكأنه لا يشفيهم إلا رؤية الدم المسفوح .

وقد رثاه كاتب من عدن باسم السيد « شبيب الرواق العتبى » بمقال خالد افتتحه ببيتين من الأبيات التى أشرت إليها فى رثاء سيدنا عثمان وهما :

ضحوا بأشيب يستسق الغمام به　　　يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

لتسمعن وشيكا فى ديارهم　　　الله أكبر يا ثارات عثمانا

فكنت أردد هذين البيتين كلما قرأت كوارث لندن وأكرر: الله أكبر ياثارات فرحانا ثم أردد بعض أبيات من قصيدة خلف الأحمر وهى من أعظم قصائد شعر الانتقام .

إن بالشعب الذى خلف سلع　　　لقتيلا دمه لا يطل

خلف العبء علىّ ومضى　　　فأنا بالعبء بعده مستقل

ومن وراء الثأر ابن أخت　　　مصع عقدته لا تحل

رجوعاً إلى حياة السجن

— ظهر لى بالاختبار أن الأحسن للسجين ألا يفكر كثيراً بالإفراج وأن لاينتظره دائماً وإلا أصبحت حياته جحيما فوق جحيم، فيجب أن يكيف السجين نفسه بحسب المحيط والوسط وأن يتصور أن الحياة هى هكذا ، لأن اليأس إحدى الراحتين !

— كنت أهب من فراشى بعد انتصاف الليل لأدون فكرة أو أقيد شاردة . ولكن الظلام الدامس ماذا أصنع به . لقد كنت أولع سيجارة ثم أخرج من ثنايا الفراش قطعة من رصاص القلم وأخرج الورقة من جيبى ثم أسطر ما أريده على وهج السيجارة فتأتى الكلمات متداخلة مختلة ولكنى فى النهار أعود إليها وأنقلها على ورقة أخرى بشكل أوضح .

— بلغنى أن صديقى النائب الفاضل عبد الستار بك الباسل « رحمه الله » قد ذهب إلى حمدى محبوب باشا مدير الأمن العام وخاطبه فى شأنى فماطله عدة مرات ثم قال له إن المسألة

« بيد الإنكليز أصحاب الشأن »(١) فذهب الباسل بك إلى الإنكليز وقدم لهم كفالة مكتوبة طالباً إطلاق على أن أسكن وعائلتى بمدينة الفيوم بعيداً عن ميادين السياسة ، فوعدوه وماطلوه ثم قالوا له إن القيادة البريطانية العامة ترفض ذلك ...

— دخلت جرادة إلى غرفة السجن فضربتها فسقطت على الأرض صريعة وإذا بنملة تقترب منها وتشمها وتنصرف ، وبعد لحظة جاءت جموع من النمل فأحاطت بالجرادة وتكالبت عليها وأخذت تجرها مع أنها لا تزال حية تتحرك . فقلت فى نفسى لو كان عند العالم العربى عقل النمل على الأقل فى اتحاده لأحاط بالمستعمرين وجرهم إلى خارج وطنه واستراح من الاستعمار! ولما كنت أقرأ مسودة هذه الملحوظة بحضور أحد الأصدقاء قال إن النمل لم يتجاسر على الاقتراب من الجرادة إلا بعد أن ضربها من هو أقوى منها فدوخها ، فقلت له إن الألمان واليابان قد ضربوا الإنكليز والفرنسيين والهولنديين ودوخوهم ولكن العالم الإسلامى ظل جامداً ، بل إنه قد ساعدهم على النصر وعلى نفسه !

— أرسلت من يكلف صاحبنا أسعد داغر بعمل مذكرة إلى رئيس الوزراء بطلب الإفراج عنى باسم اللجنة التنفيذية السورية الفلسطينية بصفته سكرتيرها فأبى قائلا إن الكلام الشفهى أجدى . والحقيقة إنه كان يخاف من القبض عليه !

— أهدانى صديق السيد محمد البابى الحلبى كتاب العقد الفريد فى أربع مجلدات وكنت قد قرأت هذا الكتاب مرتين فأخذت أقرأه للمرة الثالثة ، فكأننى لما رجعت إليه لم أره قبل الآن . فهو كتاب جذاب مفيد مسل يجب على كل أديب وشاعر أن يستظهره ، وقد قيل إنه لا يكمل أدب الأديب إلا بحفظ كتاب العقد . والغريب أن ابن عبد ربه صاحب العقد وهو أندلسى عاصر الملك عبدالرحمن الناصر لم يكتب لنا عن الأندلس والمغرب وهو شاهد عيان ، بل كتب عن الأدب والتاريخ فى المشرق! وقد جرى ذكر هذه المسألة بحضور الأستاذ على أحمد باكثير وهو يعد من أعلام الأدب فقال إن ابن عبد ربه أراد أن يفهم أدباء المشارقة أن أدباء المغاربة لا يقلون عنهم علماً ، وكان الوزير الصاحب بن عباد وهو أديب عصره قد سمع بمفاخرة المغاربة

(١) قالها بصراحة ناسياً أنه فى بلد مستقل ولا سلطان للانكليز على الناس فيه ، ونسى أنه بذلك يشجع الأجانب على وطنه وانتهاك حرمته .

بكتاب ابن عبد ربه فضحك وقال تلك بضاعتنا ردت إلينا! وهذا صحيح لأن كل ما فى كتاب العقد إنما هو من المشارقة وعنهم ، ولذلك نقول لو أن ابن عبد ربه كتب لنا عن وطنه « الأندلس » لجاء بالمعجب والمطرب ولخدم تاريخ الأندلس والأمة العربيـة أعظم خدمة ، ولـكنه صرف وقته فى المباهاة على غير طائل ـ سامحه الله ـ .

— أنا الآن فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٠ وقد مضى على حبسى شهران فصرت أشعر بهبوط فى صحتى وتهدم فى أعصابى وأصبحت لا آكل إلا قليلا ولا أنام إلا غراراً .

— فـكرت فى شىء لتهوين الحبس الانفرادى على نفسى وهو أن أتذكر مساوئ الحبس الإجماعى ، فاستعرضت أيام اعتقالى الأول فى الحرب العظمى الأولى سـنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وكيف أننا فى معتقل الجيزة كنا نضج من حركات وتصرفات بعض الرفاق ، فهذا يريد فتح الشباك وآخر يريد إغلاقه ، وثالث يدندن وقت القيلولة ، ورابع يتجادل مع خامس على أخبار الحرب ، وذاك يغنى بصوت قبيح ، وآخرون يلعبون النرد ويتشاجرون .. وكان أشنع مايضايقنا فى ذلك العهد أننا كنا كل ١٥ شخصاً فى عنبر واحد ، وكان أحدنا يشخر وهو نائم بشكل مهول كأنه ثور يخور فى غابة فيهز صوته الأعصاب ويطير النوم من الجفون ، فاتفقنا جميعاً على مطالبة قائد المعتقل بإخراجه من بيننا أو نغادر العنبر ونتركه له وحده ونقتحم العنابر الأخرى على سكانها ونسكن معهم ، وهى المرة الوحيدة التى اتفقنا فيها على شىء واحد! فلم يسع المدير إلا إخراج ذلك « الشخراتى » من عنبرنا ، ولـكن سكان العنابر الأخرى أبوا إسكانه معهم وقاموا بمظاهرة أمام عنابرهم لمنعه ، فخجل المسكين وبقى فى العراء حائراً ، إلى أن انحل المشكل بنصب خيمة لحضرته يشخر فيها كما يشاء ...

— سمعت ضجة فى أنحاء السجن وركض الجنود بعضهم يصيح : إمسك حلق حوش... ثم سكتت الضجة فسألت أحد الجنود عن السجين الذى هرب وقامت الضجة من أجله ، فضحك الجندى وقال لم يهرب أحد ولـكن الذى حدث أنه عند فتح الباب الخارجى دخلت قطة إلى السجن فطاردها الجنود فأخذت تروغ منهم إلى أن أخرجوها . فقلت وماذا يضركم من وجود قطة فى السجن فهى تنفع لمطاردة ماعندنا من الفيران والصراصير ؟ فقال إن قوانين السجن تمنع وجود القطط لئلا يدجنها السجناء ويحملونها رسائل أو أشياء ممنوعة !

فضحكت من قلة عقولهم ، لأن القطط من هذه الناحية لا يمكن الاعتماد عليها لعدم قابليتها لذلك ، فهى على عكس الكلاب التى يمكن أن تروض على حمل الأشياء والتسلل بها ، ولكن القانون فوق العقل . . .

— لما مرّ عيد الفطر وعيد الأضحى تذكرت عيد المتنبى فى سجنه وكيف قال .

عيد بأية حال عدت ياعيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد !

ولكن لاجديد ؛ فالحياة فى السجن الانفرادى تظل دائماً على حالها وعلى وتيرة واحدة، فهى تضيق الصدور وتزهق الأنفاس ...

كان الحلاق فى السجن رجلا بارداً سمجاً، وكانوا يأخذون السجناء للحلاقة عند مدخل بيوت الخلاء ! فما أفسد ذوق أصحاب هذا السجن ، وأما أنا فقد اعترضت واحتججت فصاروا يسمحون لى بقص شعرى داخل الزنزانة . وأما سماجة الحلاق فقد عالجتها بإعطائه علبة سجاير كاملة فى كل مرة بشرط أن يستعجل وأن لا يسألنى عن أحوالى ولا عن صحتى ، ولا عن ترجمة حياتى ...

— مضى علىّ بضعة أيام وأنا أسمع شدو يمامة تقف على شجرة بقرب النافذة ، فاستأنست بها ، وكنت أدعو الله أن يصم أذان أصحاب السجن عن شدوها الجميل ، ويبعد عيونهم عنها لئلا يطاردوها بحجة أن سماع الأصوات اللطيفة فى السجن من الممنوعات أو المحرمات ...

— مرضت فى السجن أياماً ولم يحضروا لى الطبيب ، فوصفت لنفسى الدواء وطلبته من الصيدلية من مالى! فيالعجب من حكومة تحبس الناس وتعذبهم لحساب الإنكليز فإن مرضوا بخلت عليهم بالعلاج !

— وصلتنى من الدار مجموعة من الكتب فإذا بإدارة البوليس تفحصها ثم تكتب عليها اسمى هكذا «المسجون محمد على الطاهر» ! إذن هذا هو لقبي اليوم فلا حضرة ولا أستاذ ولا افندى ...

— كان الأستاذ أحمد نعمان اليمانى قبل سفره من مصر قد نهض هو وبعض إخوانه أبناء البلاد العربية بوضع مضبطة بطلب الإفراج عنى فأمضاها معه نحو ٢٥٠ من الطلاب

والعلماء اليمانيين والعراقيين والمصريين والأتراك والأفغانيين والسوريين والفلسطينيين والصينيين والأندونسيين الخ . وذهب بها وفد منهم إلى رياسة الوزراء فرفض حسين سرى باشا مقابلتهم فتركوا له المضبطة وانصرفوا ، فإذا بحمدى محبوب باشا يحول المضبطة إلى إدارة البوليس فاستدعتهم وأنذرتهم بالطرد من القطر المصرى إن عادوا لعمل دعاية لمحمد على الطاهر ، وكان المنفذ لذلك هو الضابط المعهود محمد يوسف الذى تخصص تقريباً بمطاردة أبناء الأقطار العربية الإسلامية ...

— يتوالى إطلاق الأبواق الكهربائية أو الزمامير فى الليل لإعلان الإظلام العام والإنذار بالغارات الجوية ليهرب الناس من الخطر فكان لنعيبها المنكر الذى يعوى فى الليل البهيم دوى مقبض وله صدى عميق ، فيهز المشاعر هزاً ...

وتصادف أننى فى إحدى المرات كنت فى خارج الغرفة لحاجة ما ، فإذا بالسجانين يركضون ويعيدوننى إلى الحبس ويضعون المزاليج خلف الباب، خوفاً من أن تسقط قنبلة على السجن وأموت فى خارج الغرفة خلافاً لزملائى الذين سيموتون فى داخل الغرف ! كأن الموت فى خارج الزنزانة فى عرفهم لايجوز قانوناً ...

— نويت بعد الخروج من السجن أن أقترح وضع كتاب عن « أشهر مشاهير العرب » على غرار أشهر مشاهير الشرق لجورجى زيدان ، وأشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم ، على أن يكون هذا الكتاب خاصاً بتراجم القواد والفاتحين والحكام والوزراء والمتكلمين العرب القدماء ، مثل خالد بن عبد الله القسرى ومحمد بن عبد الملك الزيات والأحنف بن قيس وخالد ابن صفوان وأبوسفيان بن حرب وحسان بن النعمان ومعن بن زائدة وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم وابن هبيرة والمهلب بن أبى صفرة وقيس بن عاصم ودريد بن الصمة ويزيد بن المهلب ويزيد بن مزيد الخ ..

— من سماجات الدعاية الإنكليزية أنها نشرت أنباء معركة مع الطليان قالت فيها إن هؤلاء خسروا ٢٤ ألف جندى وخسر الإنكليز ١٨٠٠ فما أبعد النسبة وما أبلههم وأسخفهم ، فلو خفضوا عدد الطليان وزادوا قليلا فى عدد الإنكليز الهالكين لكان المقصود من دعايتهم قد حصل وقد يصدقهم الناس !

— ذهب الأساتذة أحمد حسين ومحمد إحسان وعياد أبو الخير وشوكت التونى وهم من خيرة رجال مصر ومحاميها الفضلاء، وقصدوا وزارة الداخلية بصفتهم وكلائى وطلبوا من حمدى باشا محبوب إطلاق سبيلى أو التحقيق والمحاكمة، فأبى البحث معهم فى ذلك قائلا إن حبسى هو من حق الحاكم العسكرى العام.

تشرشل يخطب ويتكلم

قرأت للمستر تشرشل الدجال الإنكليزى الشهير خطابا ألقاه على أعضاء مجلس العموم البريطانى الذين كان يلعب بهم هذا الاستعمارى الخبيث ويسحبهم خلفه كالخراف فيوافقونه على ضلاله وتضليله، وعلى كل ما يخالف العرف والشرف والإنسانيه، وقد جاء فى خطبه ما يأتى:

« إن انتصر هتلر فإنى أفقد حق الحياة كوطنى حر، وحق النجاة من العنف والاضطهاد والاعتقال فى المعتقلات ومقاييس المعيشة التى بنيناها لأنفسنا بعد جهود السنين الطوال. وأفقد فوق ذلك حرية السعى لإصلاح أحوالنا الاجتماعية بعد الجهاد السياسى الطويل وحق أولادى فى التعليم وحقى فى إبداء آرائى وحقى فى أن اقترع على ما أريد وحق كل ما يجلب الفرق بين الإنسان الحر وعبد الرق الذليل ».

لنفرض صحة هذا الكلام وإن هتلر إن انتصر أصاب الناس منه ما قاله تشرشل، أفكان يزيد على ما هم فيه من البلاء على يد انجلترا التى لا تزال تصب عليهم نفس العذاب الذى وصفه تشرشل بلسانه وشرحه بنفسه وحذر الناس منه؟ مَن مِن الناس فى الكرة الأرضية التى تحكمها انجلترا مباشرة أو بإشارة منها لم يفقد حقه كوطنى حر، ولم يذق الاضطهاد والاعتقال وفقد حرية السعى للإصلاح، وفقد حق أولاده فى التعليم، وفقد حقه فى الاقتراع وإبداء الرأى، وفقد حقه كإنسان ولم يصبح عبد الرق الذليل عند الإنكليز؟ لاشك بأن تشرشل يريد من العباد أن يتحملوا ذلك من انجلترا وحدها ولا يجوز أن يتحملوه من هتلر! والعبودية لانجلترا واجبة وأما لسواها فهى حرام وهى شىء كريه ...

— ذهبت لطبيب الأسنان اليوم ٢٦ نوفمبر ١٩٤٠ وبينما أنا راجع مع الضابط اشتريت

جريدة البلاغ فقرأت فيها النبأ التالى : « قابل صاحب الدولة حسين سرى باشا رئيس الوزراء ظهر اليوم فى مكتبه بوزارة الخارجية حضرات الدكتور مصطفى بشناق بك والشيخ صبرى عابدين ويعقوب بك الغصين فهنأوا دولته برياسة الوزارة وتحدثوا معه بشؤون فلسطين ورجوا منه أن يعنى بشتى « الشؤون الشرقية » فوعدهم خيراً . فسررت بهذا الخبر ، لأنى كنت عارفاً بعزمهم على زيارته ومحادثته فى مسألتى ، وقد بت تلك الليلة قرير العين . وفى الصباح علمت من أهل بيتى أن الإخوان كلموا رئيس الوزراء بشأنى فوعدهم بدرس المسألة ، ولكنى لم أطمئن لكلامه .

— بلغنى أن إحدى محطات الراديو التابعة للمحور قد أذاعت نبأ حبسى وعيرت الإنكليز بأنهم يتوددون للعالم العربى قولا ويضطهدونه فعلا ، فسررت بهذا النبأ .

اتصلت بالأمير شكيب وأنا فى السجن

تحصلت بعد جهد على عنوان فؤاد بك حمزه الوزير المفوض للحكومة السعودية فى فرنسا بعد انتقاله بالمفوضية إلى فيشى حيث استقرت حكومة المارشال بيتان ، فكتبت لفؤاد بك أجاوبه على كتاب وردنى منه من باريس قبل سقوطها وقبل اعتقالى ، وقد جعلت روح كتابى إليه تشير إلى السجن والإيحاء بأخبار الأمير شكيب عما أنا فيه . وكان الأمير لايزال فى جنيف ومع أن سويسرا محايدة فإن السلطات العسكرية البريطانية بمصر كانت تصادر كل كتاب يرد منه لمصر وكل كتاب يصدر إليه . ولذلك عولت على الاتصال به عن طريق فرنسا بصورة لا تفطن إليها الرقابة . وهذه خلاصة كتابى لفؤاد بك وقد جعلته على لسان أهل بيتى : « أما زوجى فلا يزال فى السجن وإن شاء الله بعد خروجه سيجيبكم على كتابكم ونرجوكم إن صادفتم عمنا أبو غالب التنوخى أن تسلموا لنا عليه وتطمنونا عنه وتطمنوه عنا الخ » وكان الإمضاء اسم زوجتى منسوباً إلى اسم عائلتها لا اسمى أنا . ولذلك نجا الكتاب من الرقابة ففهم فؤاد بك أننى فى السجن ، وكان يعرف أن الأمير شكيب يلقب بأبى غالب ، وأنه فى الأصل من بنى تنوخ ، فكان الخلصاء من أصحابه يلقبونه فى رسائلهم السرية « بالتنوخى » ومما ساعد على مرور نبأ الحبس أننا جعلناه كخبر قديم معروف إذ قلنا إنه «لايزال فى السجن»

فمر الخبر على الرقابة بكل سهولة ، أما لو قلنا إنه سجن لفطنوا إلى جدة الخبر . وقد بادر فؤاد بك فأرسل كتابي بذاته إلى الأمير شكيب أرسلان فغضب لحبسي غضباً شديداً وأرسل مقالا إلى إحدى صحف أميركا العربية ينتصر لى ويحمل على الاستعمار .

فى العراق

جاء كتاب مع مسافر من ابن عمى مصطفى الطاهر اللاجيء السياسي فى بغداد يقول فيه لعائلتى إن صحف العراق حملت على الوزارة التى حبستنى وعاتبتها بمرارة ، وإن بعض النواب تكلموا فى البرلمان العراقى ونوهوا بسوء وقع ذلك فى نفوسهم ، وإن فخامة السيد طه باشا الهاشمى رئيس الوزراء أجابهم جواباً ملطفاً وأنه أوعز للمفوضية العراقية فى القاهرة بأن تتصل بالحكومة المصرية وتطلب إطلاق وإعطائى جواز سفر للذهاب إلى العراق ، وان الهاشمى استدعى وزير مصر المفوض ببغداد وحدثه فى ذلك فأرسل هذا مذكرة إلى وزارة الخارجية بالقاهرة .

كتابة صريحة بمجلة مصرية

تمكنت مجلة نور الإسلام بمصر من نشر كلمة عن حبسى فمرت على الرقابة بسهولة ، لأن الرقابة على المجلات غير السياسية وغير الاخبارية كانت خفيفة ولا سيما قد ورد الكلام عنى فى خلال عدة موضوعات قصيرة مما كان يكتبه فيها صديقى الغيور على محمد المصرى أحد موظفى جمرك الإسكندرية وهو : « الأستاذ الطاهر — من خيرة من أعرفهم غيرة إسلامية ، وهو من القليلين الملمين بشئون العالم الإسلامى إلماماً تفصيلياً ، وهو رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر ، كما أن صحيفته (الشورى) التى كان يصدرها إلى وقت نشوب الحرب تعد صفحة بيضاء تشهد له بإخلاصه وحميته ، وقد ساءنا خبر اعتقاله منذ شهور ولم نسمع بارتكابه عملا يبرر ذلك . وقد وصلتنى صورة « عريضة » كتبها ٢٥٠ طالبا من طلاب الأزهر والجامعة والمعاهد الأخرى يطلبون فيها من رئيس الحكومة الإفراج عنه ، ونحن نضم صوتنا لصوتهم ، ولو كنا عرفنا بخبر اعتقاله فى حينه لكنا سبقناهم إلى هذا الطلب » .

حياة السجن أيضا

— يضيق صدرى كل يوم بعد العصر فيستمر الضيق إلى الصباح ، وإنى أشعر بأن الهبوط العام فى صحتى أخذ يزداد ، وقد ضعف بصرى عن الأول وشعرت أنه فى حاجة إلى علاج وإلى نظارة .

— أرسلت كتابا إلى وكلائى المحامين الأربعة وقد مر ذكرهم أخبرهم عن سوء المعاملة فى السجن . وأن يرفعوا قضية فى المحكمة العليا على وزارة الداخلية لتقول الوزارة أمام القضاء إن قدرت أن تقول إن الحبس من حق الحاكم العسكرى العام فيسجل عليها القضاء ذلك ، كما أن الوزارة لاتستطيع أن تسوغ تعذيبى لأن السجن غير الاعتقال ، فهى تقول اننى معتقل والحقيقة اننى مسجون ، والاعتقال فى الواقع أمر فظيع فهو السجن ولكن بشكل أخف فليت الأمر كان اعتقالا ، غير أن حمدى محبوب لم يسمح بتوصيل كتابى هذا إلى المحامين بل أخفاه عنده .

— بلغنى أن بعض أصدقائى النواب قد أعدوا حملة فى البرلمان بسبب حبسى الذى استنكره الجميع لأنه لم يحبس أحد بطلب الإنكليز سواى ، وسيذكر النواب مرة أخرى مسألة الشاب المصرى الذى اعتقله الإنكليز فى لندن أخيراً وحبسوه بالخطأ يومين ثم أطلقوه معتذرين وقدموا له ترضية خمسمئة جنيه ، فكيف يتظاهر الإنكليز بتقديس الحرية الفردية فى بلادهم ، ثم يحملون مصر على هدر حرية الناس ويحملونها هذه المسؤليه ؟

— يتوالى نفاق المسلمين لانكلترا فقد قرأت فى الصحف أن حسن باشا نشأت سفير مصر بلندن قدى أهدى للصليب الأحمر البريطانى بعض حلى زوجته وقرأت أن عبد الرحمن المهدى باشا من كبراء السودان قد أهدى للجيش البريطانى مقادير من الأغذية بينما أهالى السودان يجوعون ، وبرغم كون الإنكليز قد استعبدوا وطنه وأهلكوا فى القرن الماضى ثلثى سكانه ، ثم نسفوا قبر والده المهدى وأخذوا جمجمته فعملوها محبرة ثم وضعوها فى متحف لندن !

— قرأت فى مجلة مقالاً جاء فيه أن المستر نورمان إنجل السياسى الاقتصادى البريطانى خطب فى واشنطن فى ١١ نوفمبر ١٩٤٠ فقال « إن ٢٤ ألف يهودى دخلوا أخيراً لفلسطين وإن

مصير اليهود معلق بمصير بريطانيا » وهذا صحيح ، لأنها دولة اليهود ولولا بريطانيا ما كان لليهود قيمة على وجه الأرض ، وللعرب العذر فى بغضها وتمنيهم نصر ألمانيا ـ والغريب أن الإنكليز فى خلال الحرب وفى الأيام التى كانوا ينهزمون فيها أمام الألمان ، وبرغم كون المنافقين وغير المنافقين من المسلمين والعرب يساعدون بريطانيا قولاً وفعلاً فإن بريطانيا كانت لاتسترق عطفها على اليهود ولا تكتم سوء نيتها نحو العرب وإصرارها على إعطاء فلسطين لليهود وإقامة الدولة اليهوديه فيها برغم أنوف المسلمين ، ضاربة بنفاقهم لها موطىء القدم لدرجة أن الوزير جرينوود وزير الدولة البريطانية قد أرسل فى ٧ نوفمبر ١٩٤٠ إلى الدكتور استيفن وايز رئيس الصهيونية بأميركا يؤكد له حسن نيات بريطانيا نحو اليهود بعد الحرب ، وقد وصفت صحف أميركا هذا التصريح بأنه أعظم تصريح حصل عليه اليهود بعد (وعد بلفور) .

فما تقدم يتضح أن بريطانيا لا يمكن أن تتوب ولا أن تترك الاستعمار ، ولن تقلع من عداوتها للعرب مهما كانت الظروف ، حتى فى أحلك أيام الحرب سواداً عليها ، وفى أثناء انكسارها أمام الألمان وشدة حاجتها إلى العرب .

والذى يزيد فى إهانة بريطانيا للعرب أنها فى هذه الحرب لم تقم لهم أقل وزن ولا وعدتهم بشىء لا مكتوبا على ورق ، ولا بوروده على لسان أحد من ساستها ، بل كانت تصفع المسلمين والعرب وهم راضون ، ثم يتفانون فى خدمتها قائلين إن بريطانيا ستعطينا ، وإن بريطانيا ستقدر لنا ؟ وإن بريطانيا لن تظل كما هى ، بينما كانت بريطانيا صريحة فى هذه الحرب بسكوتها حتى عن تطمينهم بكلمة ، لأنها مصممة على سحقهم إلى الأبد . وإنى أسجل هنا التلغراف التالى الذى نشرته جريدة الأهرام فى يوم ١٨ نوفمبر ١٩٤٠ لمراسلها بلندن وهو أن وزير الخارجية البريطانية سئل فى مجلس العموم عن الوعود التى قطعتها بريطانيا على نفسها للدول التى يهمها الأمر فيما يتعلق بإنشاء اتحاد عربى حر بعد الحرب فأجاب المستر بتلر قائلا إنه ليست هناك وعود! ... يعنى أنهم بخلوا علينا هذه المرة حتى بالوعود!

ملحق :ـ نشر المستر تشرشل المعروف ببغضه الصريح للمسلمين وللعرب مذكراته سنة ١٩٥٠ فإذا هو يقول فيها إن المرشال ويفل قائد الجيش البريطانى قد نصحه بأن يكف عن

تسليح يهود فلسطين حتى لايثير العرب على بريطانيا ، فقال تشرشل : ولكنى أهملت اقتراح يفل ومضيت فى تنشيط اليهود وجلبهم لفلسطين وتسليحهم علناً بدون أن يرتفع عواء كلب احد من هؤلاء العرب بالاعتراض على ما أصنع ...

تلفيق الاستعمار

وقرأت فى صحف ٥ نوفمبر ١٩٤٠ خبراً نشرته وكالة الأنباء الإنكليزية عن القدس إن الكاتب الرحالة الدنمركى كنود هلمبو قد عاد أخيراً من ليبيا حيث قضى وقتاً غير قصير وأخذ يروى فظائع الطليان فى طرابلس وبرقة الخ ..

والحقيقة أن الدكتور هلمبو قد مات منذ عشرين سنة وكان قد أسلم وسمى نفسه « على هلمبو » وكان قد زار طرابلس ومصر ونشرت له فى الشورى معلوماته عن فظائع الطليان بعد زيارته لطرابلس ، فلما زار شرق الأردن فى ذلك الحين أرسل إليه الإنكليز أعوانهم فقتلوه فى الصحراء السورية اغتيالا ، فكيف تنشر الدعاية الإنكليزية اليوم أخبار كنود هلمبو القديمة على أنها جديدة ؟ ولماذا لم ينشروا رأيه فى الإنكليز وقد أذاع الكثير عن فظائعهم فى مستعمراتهم ...

أخبار الحياة فى السجن

— من حسن الحظ أن السجانين لا يدعوننى أنام فى النهار لكثرة فتحهم الباب و « البصبصة » على من « النظارة » لأنى لو نمت فى النهار ما عرفت النوم فى الليل .

— لماذهب وفدالطلبة والعلماء إلىوزارة الخارجية لتقديم المضبطة بطلب الإفراج عنى كلف رئيس الوزراء وكيلها محمد شرارة باشا بأن « يوزع » الوفد بحجة أن مثل هذه المضبطة يجب أن تقدم إليه بوزارة الداخليـة بصفته وزير الداخلية ! ولكن ما هو الفرق بين هذه وتلك مادامت العريضة مقدمة إليه ؟ وقد ذكرت فيما سبق أنهم لما قدموها إليه بوزارة الداخلية تهرب من مقابلتهم فتركوها عند سكرتيره وانصرفوا .

— وزعت اليوم على السجانين طعاماً وفاكهة فهذا خرج بموزتين، وذاك برغيفين كبيرين،

وآخر ظفر ببيضتين وبرتقالة ، والرابع بعلبة سجاير ، وغير هؤلاء أعطيتهم شايا وسكراً فابتهجوا وصاروا يتسابقون فى خدمتى وينادوننى ياسعادة البيك ! فصرت أشترى الكثير من هذه الحاجيات ثم أوزعها على السجانين ، لأن هذه الطريقة تمهد لى على الأقل عدم قيام أحدهم بحركات لا تكلفه أى عناء أو مسئولية ولكنها تكدرنى ! .

— جئ اليوم إلى السجن بسارق فكان « يكرم » الجنود فيحترمونه ، فضحكت وقلت هذا متمرن على السجون بلا شك وإلا فكيف اهتدى إلى الطريقة من أول يوم ..

— وصل إلى مصر جورج أنطونيوس بك « رحمه الله » وقد بعث لى سلاماً وقال إنه سيبحث مسألتى مع الجنرال كلايتون « المدير العام للجاسوسية فى الشرق » وإنه سيطلب زيارتى ولكنى أشك فى السماح له .

— أبرق ابن عمنا الدكتور حسنى من مكة إلى وكيله هنا ليقرضنا ما نحتاج إليه من مال ، فشكرناه واعتذرنا له لأنه لا يزال فينا رمق ، وأخبرناه بأننا سنطلب منه إن احتجنا بارك الله فيه .

— كتب أحمد حلمى باشا من القدس إلى أهل بيتى انه مستعد لإرسال كل ما يلزمنا من المال وأنه والأصدقاء لايزالون يسعون بالقدس لإطلاق .

— نشرت الجرائد أن ٥٠٠ طائرة ألمانية رفرفت فوق مدينتى سوثمبتون وبورتسموث وضربتهما بالقنابل ٩ ساعات وأظن أن ساعة واحدة تكفى لإزالتهما من عالم الوجود بلاشك، ولكن الإنكليز نشروا أن سكان المدينتين أصبحوا فى اليوم التالى بعد الغارة أكثر مرحاً ! كأنه بقى فيها ديار ليفرح ويزداد فرحاً يصل به إلى درجة المرح ! فيالوقاحة هؤلاء الإنكليز الذين إن انتصروا ملأوا الدنيا كلاماً . وإن انكسروا ملأوا الكائنات تبجحاً ...

— كلما قرأت أنباء فرار الإنكليز من لندن خوفاً من طيارات الألمان، وإرسال الإنكليز أطفالهم إلى أميركا وجنوب أفريقيا ونيوزيلاندا رددت الآية الكريمة « وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم » صدق الله العظيم .

— قرأت فى مجلة المصور ما يفيد أن ابنة حسن خالد باشا أبو الهدى رئيس حكومة الأردن كانت تشتغل بالدعاية البريطانية فى إذاعة لندن ، وأنها رجعت لمصر واشتغلت فى السفارة

البريطانية ... وأن أحد النواب وهو محام مشهور أرسل ابنته إلى السفارة البريطانية لتشتغل متطوعة فى قسم الأرشيف ... فياللأسف !

— قرأت فى الأهرام أنه قد دخل فلسطين فى الأشهر الثلاثة الأخيرة ٨٧٠٠ يهودى وقرأت فى المقطم أنه دخلها أيضاً من اليهود ١٨٠٠ يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٤٠ على الباخرة الافرنسية باتريا التى تحولت ملكيتها منذ سقوط فرنسا إلى شركة انجليزية ! يعنى أنه لا عمل لهؤلاء الإنكليز حكومة وشعباً إلا خدمة اليهود وحماية اليهود ...

— ذكرت الصحف أنه قد وقعت اضطرابات فى سورية وأنه قتل من الفرنسيين ٢٦ جنديا وقد فسرت المصادر الافرنسية هذه الثورة بأنها بتحريض من دولتى المحور .. كأنه لايجوز للسوريين أن يثوروا لوطنهم ولكرامتهم ، وأنهم إن تحركوا فلحساب الغير ـ فلو كانت فرنسا تحارب الصين مثلا ثم ثار السوريون لقالت إن السوريين إنما يثورون لحساب الصين ...

— لما تهرب رئيس الوزراء من مقابلة الوفد الإسلامى بطلب الإفراج عنى وأحالهم إلى البوليس ، طبعوا عريضتهم سراً على الرينيو ووزعوا عدة آلاف منها على جميع المراجع السياسية وقد وصلتنى نسخة منها إلى داخل السجن ـ وقد طبعت على الشكل الآتى :

اعتقال الأستاذ الطاهر

نص العريضة التى قدمها أبناء الأقطار الإسلامية إلى دولة رئيس الوزراء طالبين الإفراج عن المجاهد العربى الأستاذ محمد على الطاهر .

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء الأفخم :

يتشرف برفعه إلى دولتكم العلماء والطلاب من أبناء الشعوب الإسلامية الشقيقة فى الأزهر والجامعة ومدارس مصر الأخرى ومعاهدها :

ياصاحب الدولة : منذ أربعة أشهر اعتقلت وزارة الداخلية المجاهد العربى المخلص الأستاذ محمد على الطاهر منشئ جريدة الشورى ورئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة وأودعته السجن من غير أن يكون هناك سبب مبرر يوجب حبسه ، وقد كان لهذا العمل وقع أليم فى نفوسنا لما نعهده فيه من الوطنية الصادقة والإخلاص العظيم فى خدمة الإسلام والمسلمين .

ياصاحب الدولة : إن مصر رأس العالم الاسلامى المفكر وقلبه النابض ، وقد كانت ولا تزال الملجأ الحصين والحرم الآمن الذى يلجأ إليه أحرار العروبة والإسلام ، فيجدون كل رعاية وإكرام وتقدير .

وان اعتقال المجاهد الكبير الأستاذ الطاهر فى مصر زعيمة العالم الاسلامى ومعاملته هذه المعاملة الأليمة لمما يحز فى نفوس المسلمين قاطبة ويملأ قلوبهم أسى ولوعة .

يا صاحب الدولة : إنا نلجأ إلى حكمتكم وعدالتكم ونستوحى ضميركم الحر أن تتكرموا بإصدار أمركم بالافراج عن الأستاذ المجاهد ورد حريته إليه، ولنا وطيد الأمل أن يجد ملتمسنا هذا قبولا حسنا .

لازالت مصر آمنة مطمئنة فى ظل جلالة ملكها المحبوب «فاروق الأول» أيده الله بنصره.

الإمضاءات

السوريون والفلسطينيون :

مشهور ضامن بركات . على محمد الشيخ حسين . سعيد أحمد . محمد سعد هاشم . عبد الرؤف درويش أحمد . محمود حسن باغى . عبد العزيز عزت الخياط . ضياء الأدهم . محمد عبدالحافظ . واصف عبدالرحمن عبده . محمد ربيع يوسف . فتح الله حسن . جمعه السلوادى. سعد الدين الخطيب . محمد محمود الحاج قاسم . أمين محمود أبواستين . محمد أحمد التميمى . نمر مصباح النمورة . عبد القديم يوسف زلوم . صلاح الدويك . محمد مصطفى الصلاحى . عبد المجيد القاسمى . ناجى حسن عبد الله . هاشم نعمان الخازندار . محمد أحمد البحش . سعيد زكى أبو السعود . شاكر سعيد . سليمان بلان . على البدرساوى . عبد الله السيد البدرساوى . عبدالحميد الدويك . سالم الدويك . حجازى أيوب . زكريا سعيد . كمال سعيد . خالد الفرا . محمد صلاح الدين . جميل حسن النجار . حسن عبد اللطيف أبو سلطانى . محمد رضوان المحتسب . شفيع سعيد اللبدى . عبدالرؤف سعيد اللبدى . حلمى عبدالفتاح محمود. إبراهيم ياسين قطان . عبدالرحمن محمد مراد . ممدوح مهنا . محمد حرب خميس . عادل مطيع . عدلى الجوهرى . مرشد داوود . يوسف عبد الرزاق المشهدى . حافظ عبدالرحمن صندوقة . محمد حمدان الفارس . فوزى سرندح .

الحجازيون :

محمد عبد الرحمن الزبادى . حسن على خلف . محمد مرسى على . عبدالله أحمد عبدالرازق . أحمد على المنيق . طاهر الزواوى . محمد الدفتردار . إبراهيم خان يونس . بكر عرفه المدنى . سميح أحمد الشريف . صالح منادى . أحمد الحكيم . حسن مغربل . شاكر سراج . إبراهيم بشاورى . أحمد حسن الشريف .

المغاربة :

عبد القادر حسنين . حسين سرور . محمد أحمد على . المدنى محمد . الطيب أحمد . أحمد البغدادى . سليمان محمد الزوبى . عمر راغب . محمود يوسف الحبية . محمد الصغير العروسى . محمد عبد السلام . الحسنى على المراكشى . الأمين المغربى . محمد المدنى محمد . محمد مبارك . على محمد الحجاجى . سالم العمورى . محمد صالح الزغبى . سعد الدين القبانى . محمد خيرنصر . محمد كامل الحامى . خالد العلى . حسن على . حمدان أحمد يوسف . رمضان الشوا . محمد يوسف النازلى . حسن عبدالقادر . مرشد داود . عدلى عبدالقادر . محمد على سعد . خالد أحمدهنيهه . عبد الرؤف عبد الصمد . سالم العمودى . الهلالى محمد . البشير العروسى . طه الحمدانى . أبو بكر المغربى .

اليمنيـون :

على محمد على الهتارى . أحمد محمد على الهتارى . على عقاب . محمد على الجفرى . أحمد عبد الرحمن الجفرى . عبد الرحيم عبد الرحمن . صالح أحمد محمد . عبد القادر جعفر الحفار . غزال الجهن . أحمد محمد الصوفى . السيد عبدالله على . محمد عمر . على ناصر . أحمد محمدالصوفى . عبد منصور . أحمد عبد الله . على حيدر . سلام فارع صالح . عبد الوهاب حسن . عبد الله عثمان عمر . سلامة محمد . على هتارى . عبده منصر . أحمد الجفرى . إسماعيل عبد الله . محمد سالم البيحانى . يحيى زبارة . محمد صالح المسمرى . سالم وصابى . على محمد على الهادى . أحمد محمد على الهادى . غوالى الجهنى .

الجاويون — أندونسيا :

هارون عبدالرؤوف . عبدالرؤوف ماهيه . أحمد هاشم . سليمان وكيل . شمس الدين محمد .

حسب الله جعفر . إسماعيل عبد الوهاب . إدريس هاشم . عبد الغنى رامى . على سليمان . أحمد بستاني . مختار تاشنغ . عبد القادر جيلانى . إبراهيم عبد الحكيم . على محمود . فؤاد فخر الدين . عبد المجيد جيا . عبد المراد قدرى . عبد الرشيد أبو الحسن . عبد الله بخارى . محمد مستور جهرى . سليمان درماوى . علوش أحمد عبدالله . إسماعيل عبدالوهاب . عبدالغنى سداغ . تاج الدين رضوان . نورالدين يحيى . بستانى إبراهيم . طه يحيى . قهر الدين يونس . إدريس حسن هاشم . محمد طه يحيى . إسماعيل على . سنوسى محمود . محمد يس عبد المجيد . عبد الغنى بيك .

الأتراك :

حمدى أرسلان . عثمان مصطفى عثمان . عبد الرحمن موسى . برهان الدين الداغستانى . محمد شريف . محرم تحسين . على حسن يعقوب . توفيق إسلام يحيى . عبد الله عثمان . مصطفى على رضا . على كونوف . حسين عبد اللطيف . نصرت محمد . حسين مرهمبك .

الهنود :

محمد حسين النواتى . لقمان أحمد .

السودانيون :

مختار فضل بيرم . جعفر محمد الأمين . حسن محمد إسماعيل . أحمد على عمار . عثمان أحمد عبد الرازق . عثمان حسن محمد على . محمد سلطان جيل . صالح المدنى . محمد حسين الرفاعى . محمد خوجلى . عثمان خليفه . عبد المجيد الحميدى . حسن مرور .

الأكراد :

محمد شريف إسماعيل . عيد شريف الزركلى . خليل الإمام الكردى . عمر وجدى الكردى . قاسم فتح الله . الحاج محمد حسين . محمود حسين . إسماعيل مصطفى البغدادى . محمد شريف خالد . محمد شريف بابلاوى . عزيز عثمان الشيخ . حمدى الكردى .

التركستانيون :

محمد حسن على . عبد الخالق إسماعيل . عبد الواحد عبد الله . محمد سعيد إسماعيل . نور محمد إسماعيل . الحاج قاسم إسحاق . عبد الأحد حامد .

الصينيون :

عبد الله ناجى كف . محمد تواضع . محمد حنفى . يحيى بان . عثمان قان . نورالدين يحيى . عبدالله يسر . إبراهيم الشوم . أحمد جان . نعمةالله‌شن . صالح‌دن . سليمان‌وان . عبدالله ماجينكو

الأفغانيـون :

محمد عبد الغفار الهاشمى . عبد الصمد عبد الله .

صدى العريضة فى نفسى

لما امتلكت نسخة من هذه العريضة التاريخية سررت بها سروراً لايمكن تصوره ، فقد كنت أفتحها فى خلوتى فى الزنزانة وأعيد قراءتها وأتأمل أسماء موقعيها ، فأتمنى لو أراهم واحداً واحداً لأشكرهم وأسمعهم ثنائى وامتنانى ، فياله من وسام عظيم لايدانيه فى الشرف وسام أن يجمع هؤلاء الإخوان مع اختلاف أجناسهم وألوانهم ومواطنهم ولغاتهم ، على الاهتمام بى والغضب من أجلى والإجماع على طلب الإفراج عنى ، واستهدافهم إلى غضب السلطات الأجنبية ـ والمحلية أيضاً ـ بسببى ، حين تطوع رئيس الوزراء ، وياللأسف بالتهرب من مقابلة وفدهم بل بلغ به حب الاستماتة فى إرضاء الإنكليز إلى تسليط شرطته عليهم وتهديدهم وإنذارهم بالطرد من البلاد المصرية . لقد أحيتنى هـذه الحركة الكريمة من أبناء الأقطار الإسلامية والعربية وشعرت باعتزاز شديد أعظم من اعتزاز رئيس الوزراء بكرسى الوزارة وتأييد الإنكليز له ...

توالى آيات النفاق

— وقع نظرى فى الصحف على نفاق جديد من بعض الناس للإنكليز ، فقد قرأت فى الجرائد أن عريان يوسف سعد ، وهو من المجاهدين المصريين السابقين فى الثورة المصرية ، قد انتكس وكتب إلى الجنرال ولسن القائد البريطانى العام فى مصر يعرض نفسه متطوعا فى الجيش البريطانى ولكن الجنرال رفض طلبه وحسناً فعل .

— وقرأت أن ملك بهوبال بالهند وهو ملك مسلم قد خطب ضد ألمانيا وإيطاليا لاعتدائهما على اليونان ... نعم اليونان ، لابلاده هو ولا بلاد المسلمين ، ثم قال إن الاعتداء على اليونان

هو مقدمة للاعتداء على بلاد المسلمين . يعنى أن بريطانيا فى عرفه لم تعتد على المسلمين أبداً ...

— وتبرع أمير البحرين للحكومة البريطانية بثلاثين ألف جنيه وبعشرين ألف روبية لمشترى طائرة .

إثارة مسألتى فى البرلمان

نشرت الأهرام فى عدد أول يناير ١٩٤١ نص السؤال الذى قدمه حسين افندى محمود سعيد إلى مجلس النواب ، وقد نشرته بعنوان « الأستاذ الطاهر » بحروف كبيرة ومهدت له بمقدمة وهو « قدم النائب المحترم الأستاذ حسين محمود سعيد إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء سؤالا بشأن الأسباب التى دعت إلى القبض على الأستاذ محمد على الطاهر وقد أدرج هذا السؤال فى جدول جلسة النواب القادمة ، ونحن نورد نصه فيما يلى :

« قبضت السلطات المصرية منذ شهور على الأستاذ محمد على الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر ولا يزال معتقلا بالسجن دون أن توجه إليه تهمة ، كما أنه لم يقدم للمحاكمة فما هى الأسباب التى استدعت القبض عليه ؟ وإذا كانت أسباب القبض جدية ، فما هو المانع من تقديمه للمحاكمة للفصل فيما هو منسوب إليه ؟ » اهـ .

— أخذت أنتظر الجلسة القادمة للبرلمان لأرى ماذا يقول رئيس الوزراء ، وكان فريق من النواب قد استعدوا للحملة على الوزارة يوم الجلسة ، ولكن مضت جلسات ولم يحصل شىء ، فأخذ أصحابى فى الخارج يبحثون عن السبب بينما كنت أنتظر ما يشفى نفسى ولكن هيهات .

— وقع اضطراب فى فلسطين كان سببه أن الإنكليز أمروا بجمع متطوعين للجيش البريطانى ، فلما رفض الناس ذلك أخذ أعوان السلطة يضربون الذين يرفضون التطوع ويسكبون القطران على أجسامهم ويجرعونهم زيت الخروع ويضعون لهم القنابل فى أملاكهم ويهددونهم بالنفى من فلسطين الخ .. ولما اشتدت الفتنة بسبب ذلك نشرت السلطة البريطانية بيانا تعترف بوقوع هذا التعذيب قائلة إنها لم تأمر به وإنها منعته .

— قرأت أنه لما انتصر الجنرال ويفل البريطانى على جرازيانى الإيطالى تلقت الحكومة

البريطانية برقيات التهنئة من جميع بلاد المسلمين فى آسيا وأفريقيا ، كأن ويفل أقل شرا من جرازيانى !

— إن تهافت كبراء العالم الإسلامى على التبصبص للانكليز جعل هؤلاء يستخفون بالجميع وينشرون فى صحف لندن « إن القاهرة وهى كبرى المدن العربيـة تلتهب حماسة كلما زحف اليونان إلى الأمام فى ألبانيا ضد الطليان » نعم إنهم يتحمسون لليونان كأن الجيش اليونانى يزحف لتخليص المسلمين من الإنكليز …

المساعى فى بغداد

ورد كتاب من بغداد مع مسافر يقول إن الأصدقاء فى العراق قد اهتموا بمسألة اعتقالى وخاطبوا فخامة رئيس الوزراء الهاشمى باشا ووزير الخارجية للاتصال بالحكومة المصرية للتوسط فى الإفراج عنى ، كما أن صديق سعيد ثابت « رحمه الله » رئيس جمعية الدفاع عن فلسطين، وأن جمعية الهداية الاسلامية وجمعية الشبان المسلمين وبعض أعضاء مجلسى النواب والأعيان قد أرسلوا للحكومة العراقية مضابط يوسطونها للتدخل والعمل على الافراج عنى والترحيب بى فى العراق ، وقد خوطب فى ذلك وزير مصر المفوض ببغداد فقال إنه سبق أن أرسل مذكرة بذلك إلى وزارة الخارجية بمصر ، وسيرسل مذكرة أخرى .

مسعى من نواب مصر

بلغنى أن عبد الحليم بك أبو سيف راضى ومحمود بك لطيف ومحمد عبد الرحمن بك نصير من أعضاء مجلس النواب المصرى قد راجعوا وزارة الداخلية ورئيس الوزراء والسفارة البريطانية بشأنى، وقد بلغنى أن الخواجه سمارت المستشار الشرقى للسفارة وهو رجل استعمارى خبيث قال لعبد الحليم بك راضى إن القيادة البريطانية العامة تعارض فى الافراج بحجة أننى « مؤذ وشديد الخطر » .

صورة تاريخية

وصل الى مصر بعد استقلال أندونيسيا وإعلانها جمهورية برياسة المجاهد القديم الدكتور أحمد سوكرنو أول وفد رسمي سياسي من أندونيسيا وقد وصل الوفد في صيف ١٩٤٦ برياسة صديق الحاج اغوس سالم وزير الخارجية ونائب رئيس الوزراء ، وأخي السيد محمد رشيدي والدكتور نصير بومنتاك ، وقد عقدوا اجتماعا عندي بإدارة الشورى . وقد ظهر الى يمين القارئ في الصورة الدكتور بومنتاك الذي عين بعدذلك سفيرا في باريس ، فالسيد محمد زين حسن رئيس هيئة استقلال أندونيسيا بمصر ، فمحمد علي الطاهر ، فالوزير الحاج اغوس سالم ، فالسيد محمد رشيدي ، الذي عين بعد ذلك ، أول وزير مفوض لأندونيسيا في مصر والشرق الأوسط

« أنظر الصفحات ٨٧ و ٨٨ و ٨٩ من هذا الكتاب » .

فرنساويات...

بيني وبين الجنرال فيجان

من الخواطر التي مرت بذهني عن أسباب حبسي مراسلتي للجنرال فيجان القائد الفرنسوى العام لجيوش الحلفاء فى شرق البحر المتوسط ، فقدم الجنرال بالقاهرة فكتبت إليه فى ٩ فبراير ١٩٤٠ كتاباً وجهت نظره فيه إلى تصرفات سلطات فرنسا فى سورية وكيف إنها تنفر بأعمالها العالم العربى من الحلفاء بدلاً من جلب القلوب، وإن العالم العربى مستاء من استمرار حبس نبيه بك العظمة ورفاقه والتنكيل بهم ، وحبس الأستاذ محمد عزت دروزة بك عضو اللجنة الفلسطينية العليا الذى كان يقيم بدمشق ، كما حبسوا رفاقه أيضا . وقلت له إذا كنتم تريدون من العرب أن يصدقوا حسن نوايا فرنسا ويثقون بالحلفاء فافرجوا عن هؤلاء لتطمئن القلوب وتسكن الخواطر ، لأن الكل متألم من حبسهم الخ وقد أمضيت ذلك الكتاب بصفتى رئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة .

وبعد عشرة أيام أجابنى الجنرال فيجان بكتاب طويل ـ لا يزال عندى ـ وإنى أفضل أن أثبت ترجمته هنا للتاريخ مع تعليق عليه :

القيادة العامة لشرق البحر المتوسط

بيروت ٢٠ فبراير ١٩٤٠ ـ ١٩٤١

حضرة السيد محمد على الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة .

لقد رأيتم بمناسبة مرورى بالقاهرة أن تخاطبونى فى مسألة السيدين نبيه العظمة وعزت دروزة المسجونين فى سورية فى الوقت الحاضر .

فلى الشرف أن أخبركم ، جوابا عن ذلك ، بأن السيد نبيه العظمة كان قد حكم عليه بالإعدام سنة ١٩٢٠ لما كان من صلاته بالأعداء، فعفى عنه سنة ١٩٣٧ ، فلم يلبث أن ناصب فرنسا العداء ، فنشر فى أوائل سنة ١٩٣٩ منشورات طعن بفرنسا : وكان من منظمى الفتن بدمشق فى شهر مارس سنة ١٩٣٩ ، فحكم عليه فى ٢٩ إبريل سنة ١٩٣٩ بالسجن مع الأشغال الشاقة عشرين سنة لائتماره بالخروج على السلطة العامة واشتراكه فى إنشاء المتاريس .

وأما السيد عزت دروزة فكان لاجئاً فلسطينيا فكان يجب عليه أن يمتنع عن أى نشاط

سياسي في البلاد الخاضعة للانتداب الفرنسي . فحكم عليه في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩ بالسجن خمس سنين وبغرامة ألف فرنك ، وذلك بتهمة صنع متفجرات ، وقد كان على رأس مشروع واسع لصنع القنابل .

والمحاكم النظامية هي التي فرضت العقوبات على السيدين العظمة ودروزة بعد وقوف تام على الحقائق ، وكان الحكم عليهما من أجل اقترافهما أعمالا خطيرة كما ترون ، فلذلك يتعذر علي في الأحوال الحاضرة أن أتخذ من التدابير ما أطلب به العفو عنهما من حضرة رئيس الجمهورية ، أو رئيس الوزراء ، أو وزير الدفاع ، وهم الذين لهم وحدهم سلطة إصدار قرار في ذلك . وتفضلوا ، ياحضرة الرئيس ، بقبول فائق الاحترام :

القائد العام لقوات شرق البحر المتوسط : « فيجان » .

تعليقي على كتاب الجنرال

١٠أولا : إن هذا الكتاب يدل على أن عقلية الفرنسويين لايمكن أن تتبدل ولايمكن للحادثات أن تغير شيئا من طبيعتهم ، وإنه لا ينفع معهم إلا ضربهم وإخراجهم من البلاد التي نكبت بوجودهم فيها .

ثانيا : ان سبب التنكيل بنبيه بك العظمة ليس عمل المنشورات ولا إثارة الفتن ولا إقامة المتاريس ، بل إن حقد فرنسا على نبيه بك يرجع إلى سنة ١٩٢٠ يوم كان قائدا لشرطة حلب في أيام الاستقلال الأول ، فقد استدعى الحال أن جلب نبيه بك قائد جيش حلب الفرنسي لأمر ما ، وهو كولونيل ، فأغلظ هذا القائد في الكلام فأمر نبيه بك بطرحه أرضا وتأديبه بالكرباج وحسنا فعل ، هذا هو السبب الحقيقي الذي جعل فرنسا ولو بعد عشرين سنة تنكل به الآن سنة ١٩٤٠ هذه هي الحقيقة ، وأما قول الجنرال بأن السبب هو نشر المناشير وعمل المتاريس فهي شقشقة لا قيمة لها .

ثالثا : أما السيد عزت دروزة ورفاقه فإنهم لم يعملوا شيئا ضد فرنسا في ذلك الحين ، ولكن فرنسا تحفظ لدروزة أنه كان من أركان الدولة الفيصلية سنة ١٩٢٠ وكان يعمل ضد

فرنسا فحفظت ذلك الذنب إلى أن وقع فى قبضتها بعد عشرين عاماً فبطشت به وانتقمت منه .
وغير صحيح أن المحكمة التى حكمت عليه وعلى نبيه بك كانت محكمة عادية بل هى محكمة استعمارية .

كتاب آخر منى إلى الجنرال

لذلك لم أستطع بلع تضليل الجنرال الكبير ، ولا هضم حجته ، بل كتبت إليه بما ينقض كلامه ويشرح تلفيقه وتهربه من الحقيقة وهذا نص ذلك الكتاب :

مصر ٢٥ / ٢ / ١٩٤٠

حضرة صاحب الفخامة الجنرال فيجان ، القائد العام لقوات شرق البحر المتوسط ـ بيروت :

بعد الاحترام والإجلال : حظيت بكتاب فخامتكم المؤرخ فى ٢٠ الجارى بشأن السيدين نبيه بك العظمة وعزة بك دروزة ورفاقهم ، ومع أنى أشكركم عليه ، إلا أننى ألاحظ أن روحه لاتختلف عما اعتدناه من حكومات الانتداب بسورية ولبنان ، بعد أن كنا نظن أن فخامتكم ستأتون بأساليب جديدة وروح جديدة ، مراعين ظروف العالم ، وما آلت إليه حكومات الاستعمار فى هذه الأيام ، واسمحوا لى فخامتكم أن أقول إن الحكم على نبيه بك وعزت بك وإن كان من محكمة نظامية إلا أنها أجنبية غير سورية ، فالظاهر أن فخامتكم تعتبرون سورية مستعمرة فرنسية ، لأن حركات نبيه بك كانت لمصلحة سورية ، ولذلك اعتبرتموها حركة عدائية لكم!

ياسيدى الجنرال: ان حكومة فرنسا بسورية ولبنان حاقدة على نبيه بك منذ سنة ١٩٢٠ لما كان مديراً لبوليس حلب وجرى بينه وبين كولونيل فرنسى حادث قديم ، فلما سنحت الفرصة بعد عشرين عاماً ، حاكموا نبيه على أمور قديمة مختلفة ليحكموا عليه بسبب حوادث جديدة مفتعلة .

وأما عزت بك دروزه فهو فى نظرنا ونظر الواقع ، لايعد فى سورية أجنبياً لاجئاً يخالف أصول الضيافة ، بل هو فى وطنه وبلاده ، وغير صحيح أنه كان يصنع أو يشرف على صنع

متفجرات ، بل ان السلطات الفرنساوية المتحكمة فى سورية تحقد عليه منذ سنة ١٩١٩ لما كان عضواً فى المؤتمر السورى العام وكان من الواضعين لقراره التاريخى ببطلان الانتداب الفرنسوى ورفضه وإعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية من الفرات إلى سيناء ، أى «سورية وفلسطين ولبنان» ولم تكن الأردن قد وجدت لأنها كانت جزءاً من سورية الخ .

فنحن نعتبر مسألة نبيه بك وعزت بك الآن من اختصاصكم وليس من اختصاص رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء أو وزير الحربية ، على أنى لم أفهم أى رئيس جمهورية تقصدون فخامتكم ، فإن كنتم تقصدون رئيس سورية فإنه وجميع الحكام السوريين لا سلطة لهم ، وإن قصدتم رئيس جمهورية فرنسا فهذا هو الغلط ، لأن سورية ليست أرضاً فرنسية، فكيف يراجع رئيس فرنسا فى أمور عائدة إلى رئيس سورية ، ولم نسمع أن سورية تحكم برئيسين لجمهوريتين مختلفتين !

وفى النهاية أناشد فخامتكم أن تقضوا هذه المسائل بحكمتكم وأن لا تسير فرنسا على الأسلوب العتيق الذى اعتاده حكام الانتداب المشبع بروح الاستعمار والانتقام ، وبغير ذلك لا نصدق أن الحلفاء قد غيروا الأساليب القديمة ، ولا نستطيع أن نكذب النازيين الذين يتهمون الحلفاء بالتشبع بروح الاستعمار الخ .

وختاماً أرجوكم ياصاحب الفخامة الخ . الإمضاء

وبعد ذلك

لم يحدث شئ بعد هذه المراجعات وبقى نبيه بك ودروزة بك ورفاقهم فى السجون إلى أن كسر الله فرنسا ، فجاءت لجنة الهدنة الألمانية الايطالية فحكمت سورية ولبنان من فوق رؤوس الحكام الافرنسيين ، وأفرجت عن المعتقلين ، فما كان من نبيه وعزت إلا هجر البلاد إلى تركيا ، مفضلين النفى الاختيارى حتى لا تنكر الأيام وتقوى فرنسا فتحبسهما مرة أخرى .

استدراك بعد سنين

هنا حصلت مصادفة لعب فيها القدر لعبة عجيبة ، ولذلك أحب أن أسجلها لعل الأبناء

والأحفاد ينتفعون بمعانيها ، أو يتسلون بها لغرابتها ، وذلك أن القراء قد لحظوا مما مر من حوادث ، أنني كنت أسعى للإفراج عن الأستاذ محمد عزت دروزة ، تارة بتوسيط على ماهر باشا رئيس الوزراء هنا وتارة بالكتابة إلى الجنرال فيجان في بيروت - وكنت قبل ذلك وقبيل إعلان الحرب أكتب في جريدتي في استنكار حبسه ، وأبرق بالاحتجاج على فرنسا من أجله . كما لحظوا أيضاً أن الأستاذ دروزة قد زار المفوضية المصرية ببيروت مع نبيه بك العظمة وخاطب القائم بأعمالها أحمد رمزي بك بشأني ووسطه ليكتب للحكومة المصرية بالقاهرة لتفرج عني .

وقد أعجبني من الأستاذ دروزة قوله لرمزي بك إنه لم يفهم كيف أن حكومة مصر تتوسط في الافراج عنه وعن إخوانه بسعي من محمد على الطاهر لانقاذهم من أيدي الأجانب، ثم تتولى هي اعتقاله في مصر ! ولكن الأستاذ دروزة لم يدر أن على ماهر باشا الذي يتوسط للناس هناك ويمنع اعتقالهم هنا ، قد دفع ثمن شهامته وهو إخراجه من الحكم ثم لاحقوه حتى حبسوه هو أيضاً .

وموضع العجب هنا أنني لما كنت أسعى من أجل دروزة كانت واقعة بيني وبينه عداوة شديدة مضى عليها نحو عشرين عاماً ، ولكن لما رأيته يحبس في سبيل الله وعلى يد الأجانب، لم أتردد في السعي لإنقاذه وهو لايدري لأنه كان في السجن ، فلما أفرج عنه وعلم بحبسي بادر هو إلى السعي للإفراج عني بدون أن يعرف بمساعي نحوه ، وظل كل منا يجهل ما كان من سعي الآخر .

وهناك مصادفة أخرى كملت المصادفة السابقة ، وهي أنني بعد ذلك بست سنين أي في ١٩٤٦ كنت في الإسكندرية أزور الحاج أمين الحسيني وكان صديقاً لي وللأستاذ دروزة ، وكان يعرف بعداوتنا المزمنة - لأنه كان من أسبابها - فإذا به يصارحني بشيء ، وهو أن دروزة سيصل إلى الإسكندرية من دمشق الليلة ، وأنه سيجيء إلى الدار بعد ساعتين . وكان قصده من هذا التنبيه أن يفسح المجال لأن أنصرف حتى لا أجتمع بعدوي القديم ، فقلت له - وأنا لا أدري بمساعي دروزة من أجلي - لقد فهمت قصدك ولكني سأبقى عندك هنا لأستقبله وأحييه ، لأنه قادم من منفى

سجيق بعد حبس طويل سبق هذا النفى ، أما إذا كنا قد اختلفنا فيما مضى فالمصلحة العامة هى الأساس .

ووصل الأستاذ دروزة فاحتفيت به وعانقته مرحباً . فإذا به يقول إنه لما وصل القاهرة بالطائرة بادر إلى زيارتى فى دارى فلم يجدنى وعرف اننى مسافر للإسكندرية فنوى أن يبحث عنى فيها ، ثم حمد الله على أنه وجدنى الآن ! وجلسنا بعد ذلك نتذاكر الماضى ونبحث فى أمور فلسطين بدون أن يخطر على بال أحدنا إننا تخاصمنا نحو عشرين عاما .

ثم دارت الأيام إلى أن عرفت فى سنة ١٩٥٠ بمساعيه من أجلى سنة ١٩٤١ وقد سمعت بمساعيه من أحمد رمزى بك نفسه حين كان يزورنى منذشهور، فاندهشت من توارد خاطرى مع خاطر دروزة . وأظن أن الأستاذ دروزة سيندهش هو الآخر عندما يعرف من هذا الكتاب سنة ١٩٥١ اننى أيضاً كنت أسعى من أجله . وإننا كنا نتسابق فى عمل الواجب .

وموضع العبرة هنا ، أن عداوتى له لم تمنعنى من تقدير جهاده ، ولذلك سعيت لتخليصه برغم خصومتنا ، وان دروزة كان يحمل لى نفس هذا الإحساس ، بدون أن تحول عداوته لى من القيام بالسعى لتخليصى بدون أن أدرى .

استدراك لازم

وقد اجتمعت بمحمد شرارة باشا وكيل وزارة الخارجية « بعد الإفراج عنى » ففهمت منه أنه قدم المذكرة التى وضعها أحمد رمزى بك عنى إلى رئيس الوزراء ووزير الخارجية كما سبق وقدم إليه المذكرات والاحتجاجات والشفاعات التى وردت من العراق وفلسطين ولبنان بشأنى فأهملها ، ولما كثرت الاحتجاجات طلب من شرارة باشا أن لا يقدم إليه أمثال هذه الأوراق ... وأراد وفد من بعض الفضلاء مقابلة الرئيس بشأنى فأبى وقال لسكرتيره أبعدهم وزحلقهم عنى ...

موقف مشرف للنحاس باشا

كان الحلفاء فى أيام الحرب يحتالون على كبراء الشرق لحملهم على إعطاء تصريحات للنشر عن رأيهم فى انتصار الحلفاء ، وكان هذا التكليف يقدم عادة بشكل اقتراح يصحبه تهديد خفى ، فكان بعض الضعفاء يهرول إلى الشهادة للإنكليز والفرنسيين أو الديمقراطية بكذا وكذا ، ولما وصل التكليف إلى مصطفى النحاس باشا أعطاهم بعد إلحاح ، تصريحاً مطاطا ختمه بوخزة للإنكليز والديمقراطية قال :

« والحق أنه فى هذا الوقت الذى نرى فيه مصير بلادنا معلقا فى ميزان القدر ، ينبغى أن يكون هناك مايشعرنا بأننا محكومون حكما ديمقراطياً ، وأن الكلمة الأخيرة للأمة ، ولكن الواقع للأسف ليس كذلك ، ولهذا لا يسعنى إلا أن أرسلها كلمة تحذير ـ هى أنه يجب على الديمقراطية الغربية أن تدرك أن لنا فى انتصارها الكسب كل الكسب إذا ما اقترن هذا الانتصار بانتصار الديمقراطية فى الشرق . عندئذ ـ وعندئذ فقط ـ يكون انتصار الديمقراطية كاملاً » .

من حوادث السجن

— جاؤا بوكيل قنصل بلغاريا وسجنوه بجوار غرفتى فأضرب عن الأكل احتجاجاً ، فإذا بالسجانين يسرون لأنهم صاروا يقتسمون طعامه ... وقد جىء له بالطبيب واهتموا به لأنه « خواجه » ولو كان ابن عرب ما سأل عنه أحد . وإنى أعرف أن أحد المجاهدين السودانيين كان قد أضرب عن الطعام فى هذا السجن ٧٥ يوما إلى أن مات رحمه الله .

— خطر ببالى أن أكتب بعد الإفراج بحثا هذا موضوعه (أى الأمرين يختاره الإنسان إن أجبر على أحدهما : السجن والصحة ، أم الحرية والمرض ؟) ولا أزال حتى الآن متحيراً فى الأمرين فكلاهما مر .

— بلغنى أن الأستاذ خليل بك مطران [1] « رحمه الله » قد مر بدارنا وسأل أهلها إن

(١) هو الشاعر الكبير والنبيل الشهير ، وأحد فضلاء آل المطران فى بعلبك ، وكان قد نزح إلى مصر فى شبابه ثم اتخذها وطناً تعرفت فضله وقدرته ، وكان مقرباً من المرحوم الخديوى عباس الثانى ، ثم شمله ملوك مصر برعايتهم ، وأنعم عليه الملك فاروق حفظه الله برتبة البكوية ، وكان لنفاسة شعره يلقب بشاعر =

كانوا فى حاجة إلى شئ وقد فعل مثل ذلك الأستاذ توفيق اليازجى وأسرته والدكتور أحمد بك عيسى(١) والأستاذ كامل كيلانى ، وورد كتاب بهذا المعنى من نبيه بك العظمة بدمشق ففهمت من كتابه أنه قد نال حريته بعد أن كسر الله فرنسا وحطم شوكتها .

— تشاجر جنديان من حرس السجن على مسألة وضع المكنسة وهل تسند ورأسها إلى الأعلى أم إلى الأسفل ، وكاد الشجار يؤدى إلى استعمال السلاح ! ولكن لم يغضب أحد من هؤلاء الجنود على انكلترا التى تحتل الوطن وتجعل رأسه إلى الأسفل ...

محمود لطيف بك ووزير المعارف

وردنى سراً كتاب من الوجيه محمود بك لطيف عضو مجلس النواب يقول فيه بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٤١ أنه قابل وزير المعارف وهو صديقه وحادثه طويلاً وأفهمه أن ما عوملت به يمس كرامة مصر فى نظر اخواننا المسلمين والعرب جميعاً وبعد كلام طويل انتهى معه على ما يأتى :

(١) إما أن يفرجوا عنى مادام ليس هناك تهمة . (٢) أو أحاكم إذا كانت هناك تهمة (٣) أو يفرجوا عنى لأسافر إلى الحجاز أو العراق أو أى بلد محايد . ثم قال : ومن حسن الصدف أن مجلس الوزراء سيعقد اليوم وقد اتفقنا على أن يعرض الباشا الأمر على المجلس وقد أفهمته أننا مستعدون لإثارة المسألة فى المجلس النيابى لأنها دقيقة وماسة بسمعة مصر واستقلالها)

فكان لهذا الكتاب فى نفسى وقع جميل ، ولكن مجلس الوزراء انعقد وانفض مراراً بدون أن يجرؤ على مس إرادة الإنكليز :

= الأقطار العربية ، وله ديوان واف فى ٤ مجلدات ظهر بعد وفاته حيث لجمنا به فى سنة ١٩٤٩ ، وكان خليل بك رجلاً جليل القدر كريم النفس واليد ، وممن يجب أن يتق الله سائله . وكان حفياً بالناس خادماً لأصحاب الحاجات ، رؤوفاً بالفقراء والمعوزين ، لا يرد طالب رفد أو وساطة أو شفاعة ، وكان بالإجمال جابراً لعثرات الكرام رحمه الله .

(١) هو الطبيب النطاسى العالم الفذ فى الطب واللغة ، وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب أمراض النساء وقاموس أسماء النبات ومعجم الأطباء الذى أكمل فيه كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة من سنة ٦٥٠ هجرية إلى أيامنا هذه الخ وكان رحمه الله كريم العشرة أنيس المحضر ، يعالج الفقراء بلا مقابل ، وكان وفياً فاضلاً وقوراً ، توفى سنة ١٩٤٦ رحمه الله .

حالات نفسية

— مهما تجلد الإنسان فى السجن ومهما تجمل أو خادع نفسه فهو مسجون ومقبور حياً وخصوصاً إذا كان فى السجن الانفرادى اللعين . وكنت أعزى نفسى على السجن بقول الشاعر :

قالوا سجنت فقلت ليس بضائرى سجنى وأى مهند لايغمد

ثم تذكرت قول بعضهم إن الحبس هو قبر الأحياء وشماتة الأعداء . وهذا الشعر بالنسبة إلىّ صحيح لأنى مسجون فى سبيل الله وهذا هو الشىء الوحيد الذى يعزينى .

— ومما خفف عنى هو كونى محبوس بأمر الإنكليز باعتراف حمدى محبوب باشا الذى كان صريحا فى ذلك ولم يزعم مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا بأن له قيمة فى القبض والإفراج وأنه خدمنى لئلا يأخذنى الإنكليز لفلسطين ويعدمونى ...

— ومما جعلنى استسيغ السجن نوعاً أنه لما التجأ السيد أمين الحسينى إلى لبنان سنة ١٩٣٧ كلف بعض الناس مكرم عبيد باشا وزير المالية فى تلك الأيام أن تدعو الحكومة المصرية السيد أمين للأقامة بمصر وأنها ترحب به ، فقال مكرم باشا « يا أخى ان هؤلاء الإنكليز لا يستحون ، والله لو جاء الحاج أمين إلى مصر وقبضوا عليه فى وسط القاهرة ما استطعنا إنقاذه منهم لأن استقلالنا لازال صورة » فقلت فى نفسى إذا كان هذا قبل الحرب فهو فى أيام الحرب أولى ...

— أعاد البوليس تفتيش مكتبى بشارع عبد العزيز ولا أدرى لماذا ومن يضمن أنهم دسوا أوراقاً مؤذية وزعموا أنها كانت عندى ...

— كان من جملة الأوراق الكثيرة التى أخذوها من مكتبى كراسة للمؤتمر الطبى سنة ١٩٣٩ اذاعتها لجنة المؤتمر التحضيرية ، وفيها عنوانات الأماكن الجامعية والفنادق المعينة لنزول الأعضاء الضيوف ، وخارطة مدينة القاهرة لإرشادهم ، فهذه الخارطة اعتبرها البوليس وثيقة ضدى تكفى لإثبات اتصالى بألمانيا وإيطاليا ! فأرسلها البوليس إلى السلطة العسكرية البريطانية مع تقرير هام ! فضحك الضباط الإنكليز من هذه الوثيقة الخطيرة وأرجعوها إلى

مرسليها ليعيدوها إلى الكيس الذى فيه أوراق .

— قرأت اليوم حديثا للنبي عليه الصلاة والسلام جاء فيه (لا نذر لأحد فى ملك غيره) ولكن بريطانيا نذرت فى الحرب الماضية أن تعطى فلسطين لليهود إن انتصرت ، وها هى تنكل بأهلها لتفى بذلك النذر !

— ورد نبأ من فلسطين يروى أن الدكتور أمين رويحه يلقى فى سجن عكا من الإنكليز أنواع العذاب والإهانات والسباب والشتائم ، وأنه مريض وقيل إنهم نقلوه إلى مستشفى الأمراض الصدرية فى بيت لحم ، حاسبهم الله ومزق ملكهم .

— بلغنى أن الأستاذ محمود أبو الفتح بك عضو مجلس الشيوخ قد خاطب المستر سمارت مستشار السفارة البريطانية بشأن الإفراج عنى فوعد ، ثم قال له بعد أيام إن القيادة العسكرية تعارض فى ذلك ..

— رجوت مدير السجن أن يأمر السجانين بعدم إزعاجى بالإضاءة وأنا نائم، فأمر بذلك، فشكراً لهذا الرجل الأجنبى .

— سحبت إدارة الجوازات باسبور زوجتى فتوسط الدكتور حافظ عفيفى باشا وأعاد الأمور إلى نصابها .

— طلبت من وزارة الداخلية أن تنقلنى إلى معتقل الألمان أو الطليان أو الشياطين لأن الحبس الانفرادى قد أرهقنى فوعد حمدى محبوب مدير الامن العام بذلك ، ولكنه لم يف ، وما أظن أنه يوجد فى الدنيا أحط من الحاكم الذى يكذب ، وقد قرأت كلمة للحجاج يقول فيها لأعوانه (إن ثبت لكم عليّ كذبة مرة واحدة فقد حلت لكم معصيتى) ولكن الحجاج رجل كبير لا يصدع بأمر الأجانب !

— بلغنى أن جورج بك أنطونيوس (رحمه الله) قد اجتمع بصديقه المستر ليتلتون وزير الدولة البريطانى فى الشرق الأوسط وخاطبه فى شأن الإفراج عنى وعن الدكتور أمين رويحه وذكر له ما يحدثه هذا الإفراج من أثر طيب فى البلاد العربية فى هذه الظروف ، لأنه لحظ امتعاضاً من حبسنا فى كل مكان مر به ، فقال له ليتلتون : « سأستشير وزارة الخارجية بلندن » ...

— كلفت إدارة السجن مشترى بعض الكتب من حسابى فأرسلت جنديا أحضرها ولكن بعد أن سرق ضعف ثمنها ...

— أنا متعوب بهذا الحبس وكذلك أصدقائى لقلقهم علىّ ، وكذلك الذين حبسونى لكثرة من يراجعهم بشأنى ويقلقهم من أجلى ، وقد قال أحد كبار الإنكليز : إن مشكلتنا مع محمد على الطاهر مشكلة لا علاج لها ، فهو إن حبسناه هاج أصحابه علينا ، وإن تركناه هيج الرأى العام علينا ! فشكراً له على هذا التقريظ ...

كلمة كبيرة

كان يزيد بن المهلب من أعاظم رجال الدولة الأموية وقوادها الفاتحين وحكامها المشهورين وكان مع ذلك لا يملك داراً يسكنها ، فقيل له : لم لا تبنى داراً لنفسك ؟ فقال : « إن منزلى هو دار الحكم أو الحبس » لأنه كان تارة يسود ويحكم وتارة يقبض عليه ويحبس .

أما حكامنا فى هذا العصر فلا يعرفون الحبس ولكنهم يعرفون حبس الناس والتبصبص للأجنبى وسرقة الأمة لينعموا بمالها .

شئون وحوادث مختلفة

— ورد كتاب من ابن عمى الدكتور حسنى مساعد مدير الصحة فى مكة يقول إنه تحدث مع سمو الأمير فيصل نائب الملك فى الحجاز عن مسألتى فتكدر الأمير لهذا الحادث ووعد بأنه يكلم فى ذلك وزير انجلترا المفوض فى جدة ، ثم طلب الأمير من الدكتور حسنى أن يطلعه على أخبارى بصورة متواصلة ، فلم أستغرب هذه العناية من هذا الأمير الجليل فهو رجل نبيل عظيم ، ويشرفنى أن أقول إن هناك صداقة قوية تربطنى به فهو يحبنى وأنا أجل قدره .

الدكتور حسنى الطاهر

حضرة صاحب السمو الملكي الأمير الجليل فيصل آل سعود المعظم .
وقد وقف محمد على الطاهر إلى يساره

— أعلنت بريطانيا أنها مستعدة لحرب تدوم عشرين سنة . والحقيقة أنه إن لم تدخل أميركا الحرب فإن بريطانيا ستسلم بعد أسابيع ، حتى لقد فكر الإنكليز فى كيفية تسليم الاسطول البريطانى للألمان، وهل يسلمونه سليما أم يغرقونه بأيديهم، وياويل العالم إن انتصرت بريطانيا .

جورج بك أنطونيوس

— قابل الأستاذ جورج أنطونيوس بك(١) رئيس الوزراء وكلمه فى مسألتى وأرسل إلى دارى يقول إن رئيس الوزراء قد «انخض» لما بحث معه فى المسألة وقال «نحن عملنا الذى قدرنا عليه» وهذا صحيح لأنه أساء إلىّ بكل مايقدر عليه!

— كنت أقرأ فى تاريخ الأندلس أخبار المعتمد ابن عباد الملك الاندلسى الشهير، فأراد أهل الشر أن يفسدوا بينه وبين ضيفه الملك يوسف بن تاشفين الذى أنقذ الاندلس، وقالوا له إنه يفكر بالغدر بك والقبض عليك والاستيلاء على ملكك. فقال ابن عباد «إن رعى الجمال عند ابن تاشفين لأشرف من رعى الخنازير عند ملك قشتاله» أما بعض أمراء المسلمين فيفضلون رعى الكلاب عند الإنكليز.

— ذهب الدكتور محمود عزمى إلى حمدى محبوب باشا وكلمه فى تخفيف سجنى فقال له: هذا شغل الانكليز، فذهب للانكليز فقالوا نحن طلبنا فقط حجز محمد على الطاهر، فالحكومة المصرية هى صاحبة الشأن فى تنفيذ ذلك وكيفيته. فرجع عزمى لمحبوب باشا وأخبره عما يقوله الإنكليز فقال له هات كتابة منهم بذلك. فذهب عزمى للانكليز وجعلهم يكتبون بذلك رسمياً فقال محبوب سأعمل الآن على راحته، ولكنه لم يفعل، فلما رجع مرة ثالثة قال إنه أمر مدير السجن بذلك بنفسه، فبلغنى هذا فقلت إنها مراوغة لأنه بحكم منصبه الكبير لا يتنازل

(١) المرحوم أنطونيوس بك سورى الأصل متمصر، وكان مساعداً للسكرتير العام لحكومة فلسطين، فكنت أناصبه العداء بجريدتى، ثم اتضح بعد ذلك أنه كان من خيرة الموظفين العرب، ثم استقال وشهد أمام لجنة بيل البريطانية التى حققت مسألة فلسطين سنة ١٩٣٧ شهادة قوية طعنت الاستعمار البريطانى فى الصميم، وفى سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ اختير عضواً فى الوفد الفلسطينى للندن، ثم ألف كتابه الشهير «يقظة العرب» باللغة الإنكليزية، وهو من خيرة الكتب التى وضعت عن القضايا العربية، وقد توفى أنطونيوس بك فى أيام الحرب وهو شاب، وقد سمعت أن كتابه قد نقل إلى اللغة العربية، رحمه الله.

لكالمدير السجن وهو الموظف الصغير بالنسبة إليه ، وهذا دليل على عدم صدقه ، فلو شاء الصدق لكلم إدارة البوليس صاحبة هذا السجن وهى تصدر الأمر للمدير ... ثم مضت أيام ، وبلغ عزمى ذلك فكلم حمدى محبوب فأكد له أنه نفذ المسألة اليوم ... وبعد يومين جعلت أحد الأصدقاء يبرق لمحبوب باشا فى داره يطالبه بالوفاء بما وعد ، فإذا به يخاطب الدكتور عزمى بالتليفون ويقول له أنت وضعتنا فى مشاكل مع فلان مع أنهم فتحوا له باب السجن ورجوه أن يخرج للتريض فأبى !

تأمل أيها القارئ ! هل يعقل أن يفتحوا لى باب السجن الضيق لأستنشق الهواء فأرفض ! ما هذه الأخلاق ؟!

ظلام الأسر

قرأت فى الصحف خطاباً للمستر تشرشل وجهه إلى قومه فقال وهو يشحذ همتهم : « أما الكارثة التى هددت العالم والتى كان يمكن أن تطفىء كل أنواره وتترك أطفالنا وذرارينا فى ظلام الأسر وربقة العبودية فترة من الزمن قد تصل إلى جيل فهذه الكارثة لن تقع » .

يا له من كلام كبير من رجال هذا العصر فى نظرنا ، وبطل انجلترا فى نظر الإنجليز وتاريخهم ، لأن الوقوع فى الاستعباد هو الظلام الدامس ، وهاهى الامم العربية والإسلامية تعيش فى هذا الظلام تحت كلاكل الإنجليز وفرنسا وهولندا وأسبانيا وروسيا ، فوارحمتا للعالم الشرقى المسكين الذى نسى نفسه ونسى أنه موجود بين البشر .

المعاهدة المصرية البريطانية

بلغنى أن أحد أعوان الاستعمار قال « ليسوغ للإنكليز حبسى » إن المعاهدة تسمح بهذا الحبس فيجب الخضوع لذلك ، فراجعت المعاهدة وتحليلها فى الكتاب الضافى الذى وضعه عنها صديقى محمود سليمان غنام بك وزير التجارة بعد ذلك ، وكان قد أهدانى نسخة منه ، فبحثت أحكام المعاهدة فوجدتها تقضى بكل شىء يفيد بريطانيا حربياً ، أما الأمور الشخصية فاشترطت المعاهدة عدم إخلال الإنكليز بالتشريع المحلى . ولكن حمدى محبوب ورئيسه لا يؤمنان بالمعاهدة ...

وفاء من أواسط أفريقيا

وصل كتاب إلى قرينتي من السيد غالب على العامرى أحد فضلاء اليمن الذين يقطنون مدينة « نسكورو » فى غينية الشرقية يقول فيه إنه سمع من الراديو بأننى سجنت فتكدر هو وجميع إخوانه العرب فى تلك النواحى ، وقال إنه وإن كانت أعداد الجريدة لاتصله فهو يفترض أنها موجودة وأنه لذلك كان يريد مضاعفة اشتراكه إلى خمسين مرة ولكن بما أنه لايجوز تصدير عملة بمقادير كبيرة أكثر من جنيهين فى الشهر فقد أرسل جنيهين وسيرسل مثلهما شهرياً، مع أن الاشتراك هو جنيه واحد فى السنة كلها لو كانت الجريدة موجودة ! فقابلت هذه العاطفة النبيلة بسرور وامتنان ، وجعلت قرينتى تكتب إليه شاكرة ومعتذرة . ولما انتهت المحنة كان أول شئ صنعته أننى كتبت إليه أشكره ، ولكن كتابى لم يصل إليه ، بل وصل إلى نجله ، لأن السيد غالب كان قد انتقل إلى رحمة الله قبل ذلك بأيام ، أسكنه الله فسيح جنته ونور ضريحه .

حسان فلسطين

بلغنى وأنا فى السجن وفاة صديق الوفى المرحوم شاعر فلسطين وحسانها الشيخ سليم أبى الإقبال اليعقوبى مفتى يافا الأسبق ، وكانت وفاته فى الحجاز بعد أن أدى الفريضة وكان يريد أن ينشد قصيدة فى حضرة الملك عبد العزيز آل سعود يستصرخه لنصرة فلسطين وانقاذها ولكنه رحمه الله لحق بالرفيق الأعلى قبيل إنشاد القصيدة ، فألقاها أحد أصدقائه فى حضرة الملك .

— وكتب إلى من الحجاز صديق المجاهد السيد أحمد محمد نعمان اليمانى كتاباً أرسله مع أحد الحجاج إلى دارنا قال فيه إنه قابل سمو الأمير فيصل آل سعود نائب الملك فى الحجاز وأخبره بما أنزله بى الاستعمار وأذنابه فأخذ الأمير يستزيده من أخبارى وقد أبدى أسفه وألمه الشديدين ووعد بأن يسعى ويستعين بجلالة والده للإفراج عنى ثم أظهر استنكاره الشديد لموقف أعوان الاستعمار منى وكيف ينفذون إرادة الغير ويهينون كرامة الوطن إرضاءلهم الخ...

— بلغنى أنّ س. ا. الذى كان عندى فى الإدارة ساعة القبض علىّ يطيل لسانه ويطعن بى ، مع أنى ماقصرت فى حياتى معه ، وكم ساعدته بنفسى وبمالى ، وكم كرمته بين الناس ، وكم رفعت من قدره . ولـكن النفوس اللئيمة ماذا يصنع الإنسان معها !..

الإنكليز وخلق الله

لايزال الإنكليز يصدعون رؤوسنا بكثرة كلامهم فى هذه الحرب كعادتهم فى كل حرب ، فالجرائد لاتخلو كل يوم من أخبار غطرستهم ، وتبجحهم الأجوف ، والمن على البشر بوجودهم ! مثال ذلك قولهم — إن أقدمت الدولة الفلانية على الشىء الفلانى فإنها ترتـكب حماقة . والدولة الفلانية إن عملت كذا فهى تريد أن تنتحر ، والأمة الفلانية سنريها عاقبة طيشها ، والدولة الفلانية أنذرناها بأنها لن تجد منا شفقة ! ثم يقولون : سننظم العالم بعد الحرب من جديد ، لقد أخذنا على عاتقنا عمل الشىء الفلانى ، لقد أوكل إلينا إنقاذ الأجيال المقبلة ، لن نتخلى عن مسئولياتنا فى صيانة الحضارة، لقد اضطلعنا بمسئولية بإنقاذ الإنسانية ولن نتخلى عن هذه المهمة ، نريد إنقاذ الديمقراطية والقضاء على الديكتاتورية والاستبداد ، العرب أحبابنا والإسلام حليفنا ، وإن رحنا راح الإسلام وقضى الديكتاتوريون عليه ، إنـكسار بريطانيا هو انـكسار للعالم ورزوحه تحت العبودية ، الخ الخ وإن هلك انكليزى مستعمر ناحت عليه صحف لندن وشركة روتر ووصفته بأنه صديق المسلمين وأن موته كارثة على العرب ، وإن فاز الإنكليز فى بلادواق الواق قالوا إن العالم الإسلامى قد ابتهج وإن القاهرة قد زينت وطربت، وإن العالم العربى قابل نجاح القائد البريطانى فى الصومال بالارتياح والاطمئنان... فما أشد وقاحة الإنكليز !

كتاب من الأمير شكيب

ورد كتاب من الأمير شكيب أرسلان من جنيف تاريخه أول أغسطس ١٩٤٠ متأخرا فى الطريق بضعة أشهر ! وقد تمكنت من الاطلاع عليه وأنا فى السجن ففرحت به كثيرا ، لانه طمئن بالى بعد أن قلقت عليه، وقد سرنى من هذا الـكتاب دقة ملاحظة الأمير على الشؤون المحلية فى مصر ، ومن ذلك أنه لما سقطت باريس قام المتفرنسون من المسلمين وأخذوا يبكون

على فرنسا وكان الدكتور الأديب «فلان» من هؤلاء ... فلما قرأ الأمير كتابة الدكتور المشار إليه عن فرنسا وحزنه عليها قال : « ولا يسعنى إلا أن أبدى أسفى مما قرأته فى الأهرام فى « أحد المواضيع » من تهور الدكتور « فلان » الذى أوصل مديحه « ببعض الأمم » إلى حد خرج عن المعقول ونسى مافعل هذا البعض بأبناء ملته ، ولقد ندمت على ذكرى لصاحبنا المذكور فى الجزء الثالث من كتابى الحلل السندسية مقرونا بالثناء الجميل ، فكل شىء يغتفر ما عدا خذلان الإنسان أبناء جنسه » بهذا التعريض بفرنسا وسقوطها كتب لى الأمير وهو حذر خوفاً علىّ من الرقابة ! وقد كنا نحن أيضاً نتألم من المسلمين الذين ناحوا على فرنسا مع أنهم شهدوا سقوط مراكش بيدفرنسا وسقوط طرابلس الغرب وبرقة بيد إيطاليا ، وسقوط مكدونية فى أيدى دويلات البلقان وارتكابهم الفظائع بالمسلمين ، ثم شهدوا سقوط الدولة العثمانية كلها وزوال سيادة العالم الإسلامى وتحطيم فرنسا لدمشق بالمدافع مرتين ، وتفظيع الإنكليز بأهل فلسطين الخ الخ .. فلم تحرك كل هذه الجرائم والمصائب والنكبات قلوب هذا البعض المحسوب من المسلمين . ولكن لما سقطت فرنسا الداعرة جزاء عدوانها على الدنيا كلها وجزاء سقوط أخلاق بنيها صاح أحبابها وناحوا ، وما كان ينقصهم فوق ذلك إلا أن يترنموا من أجلها بمراثى أرميا ! ولما عوتبوا فى ذلك قالوا إننا تعلمنا فى فرنسا ، فبئس المعلم فرنسا المستعمرة ، وبئس التلميذ الذى يحزن عليها ولا يحزن على وطنه ، وتعسا لمدارس الأجانب التى فجعتنا بعقول بعض إخواننا الذين يتعلمون فيها مادامت تجرد الإنسان من إحساسه الوطنى ومن شعوره الدينى والقومى وتنزع منه الضمير الإنسانى . وإلا فمن يصدق ـ لولا المدارس الأجنبية وتكالبنا عليها ـ أنه يوجد مخاليق تحزن على المعتدين على وطنها ولا تحزن لنكبات وطنها المهيض المعتدى عليه !

كتاب منى إلى رئيس الوزراء

لما رأيت ان هذا الرجل لايبالى بشىء ، أصبحت أنا أيضا لا أبالى بشىء ، ولذلك يئست منه وكتبت إليه من السجن كتابا جافا مؤلما قلت له فيه ـ لا يعذركم أحد على المعاملة الفظة القاسية غير الكريمة التى عوملت بها وغير اللائقة بكرامة البلاد والاستقلال ، وإذا كان

الإنكليز قد طلبوا حبسي فما كل ما يطلبه الأجنبي يجاب إليه ، ولا سيما إن الخليفة طلبت غير حقها ، وحكومتكم أجابت بما لا يجوز لها التسليم به ، ثم إن الخليفة العزيزة ما طلبت تعذيبي وإهانتي بوضعي في السجن المضيق بل طلبت الحجز فقط ، وهي لم تعامل رعايا الأعداء من الألمان والطليان بأكثر من الحجز ، ولكن إدارة الأمن العام راحت تنكل بي وبأهل بيتي ولو فرض وكانت الخليفة هي التي طلبت كل هذا التنكيل فما أحرا كم إن عجزتم عن رفضه أن تدعوها ترتكب ذلك على مسئوليتها وبيدها ، لا أن يكون على مسئوليتكم وبرضا كم ، ولقد أخجلني ذلك التضييق عليّ أمام المدير الأجنبي لهذا السجن ، لاسيما عندما رأى حكومتي العربية المسلمة ترتكب لحساب الإنكليز ما ترفعوا هم عن ارتكابه لمصلحتهم ، ثم ختمت كتابي لرئيس الوزراء بالاحتجاج على سجني وإساءة معاملتي وقلت له إنه إذا كان لا يأبه الآن لهذا الاحتجاج ففي الدنيا رأي عام منصف لابد أن يدري بهذا الظلم ولا يمكن أن يقره عليه لمخالفته جميع قواعد العدالة والشهامة والإنسانية ، ومتى دري الرأي العام بما نزل بي فلا ريب في أنه سيشمئز منه ويستنكره ، ثم قلت لهذا الحجاج الجديد « اعذرني ياصاحب الدولة على هذه ، الصراحة فأنا أجادل عن نفسي وأدافع عن حقي وحياتي وكرامتي وأنا في السجن المرهق الذي هو أشنع هدر لكرامة الإنسان » الخ ...

أرسلت هذا الكتاب من السجن بواسطة المدير وانتظرت أن يغضب رئيس الوزراء مني فيأمر بالتحقيق معي لمعاقبتي على تهجمي عليه بهذه الشدة ، وقد نويت إن حصل هذا أن أتطاول عليه وأن أسجل عليه كل ما يخطر ببالي من تعيير وتنديد بمنصبه الذي أهين في أيامه ، لقد خطر هذا كله في بالي ، ولكن الأيام مضت ولم يحدث شيء مما توقعته ، فدلني ذلك على أن قلب هذا الرجل لا ينفذ إليه الحديد ، فكيف يؤثر فيه الكلام ! اللهم إلا إذا كان كتابي لم يصل إليه ، فقد يكون حمدي محبوب قد حجبه عنه ، وعند ذلك لا تثريب على رئيس الوزراء ، وفي هذه الحالة أكون قد ظلمته !

شجون وخطرات نفسي

— قلت في نفسي إن عشت وانطلقت من هذا القبر لأكتبن كتاباً عن السجن وما جرى

لى فيه ، ولكن ألا يقول بعض الناس إنى أردت به المَنّ على أمتى ؟ ولكن لا ، بل أريد نشر تجارب وتسجيل وقائع وسرد اختبارات ، قد تنفع سواى من الذين يحبسون فى سبيل الله ، لأن الصراع مع الاستعمار لن يكون قصيراً على مايبدو ، فإن انتصر الألمان والطليان ستزغم على الصراع معهم ، وإن بقى الإنكليز والفرنسيس فى الشرق والعياذ بالله ، زاد الصراع واشتد الكرب ، لأنهم سيكشحون فى عدوانهم ويسفرون عن أطماعهم .

— قال الأستاذ أحمد حسين إن المساعى التى بذلت لتخليصى من السجن لو بذلت لإنقاذ قاتل لنجحت المساعى ، فما هذا الحقد من الإنكليز علىّ ، وماهذا الجبن من ولاة أمرنا !

صاحب الدولة أحمد حلمى باشا

— ورد كتاب رابع من أحمد حلمى باشا من القدس يستغرب بقائى فى السجن إلى الآن ويقول إنه قياما بواجب الاخاء والوفاء سيعاود المسعى من هناك ، وأنه مستعد لإرسال كل ما تحتاجه العائلة من مال ، ثم أرسل ولم يقصر ، وكان ينفق على بستان كان لى بفلسطين لحفظ أشجاره من التلف .

— اشتد شوقى إلى الأهل والإخوان فى الوطن الأول ، ومراتع الطفولة ، فأخذت أردد قول الملك عبد الرحمن الداخل من ملك الأندلس :

أيها الراكب الميمم أرضى ... أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض ... وفؤادى وساكنيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

— كنت أطالع اليوم كتاب العقد الفريد ثم تركته وتناولت كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب فوجدت فى الكتابين حادثين متشابهين على بعد مابينهما وهو بضعة قرون .

وذلك أنه لما مدح النابغة الجعدى الرسول الأعظم وقال: بلغنا السماء بمجدنا وسناءنا . قال له النبى : إلى أين إلى أين ؟ فقال : وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا .

يقابل ذلك أنه لما أنشد الشريف الطليق المروانى قصيدته يهنىء الملك عبد المؤمن بن على ملك الأندلس والمغرب بانتصاره الساحق على الأسبان قال : ما للعدى جنة أو فى من الهرب. فصاح الملك : إلى أين إلى أين ؟ فقال المروانى : أين المفر وخيل الله فى الطلب !

قرأت هاتين الحكايتين البديعتين المتشابهتين فى لحظة واحدة ، فتعجبت من هـذا التصادف الغريب .

وبمناسبة كتاب العجب هذا أقول إننى وجدت فى أوله أبياتا لأبى عمر على القالى، كان مطلعها : « الشجو شجوى والعويل عويلى » . فتذكرت قصيدة خير الدين الزركلى عند ضرب دمشق سنة ١٩٢٥ وكان مطلعها : « الأهل أهلى والديار ديارى » فقلت من هناك اقتبس خير الدين هذا المطلع ، وقد نويت أن أسأل خير الدين عنه إن خرجت من السجن ، وأن أغالطه وأقول له إن أحد الشعراء قد سرق مطلع قصيدتك «الأهل أهلى» فقال : الشجو شجوى الخ وسأرى ما يكون من أمره ...

وبعد سنتين ، منّ الله بالفرج ، فلقيت الزركلى وسألته ذلك السؤال المدبر لأرى مايقول ، وكنت أظن سيحتج على السارق بعد مباغتته بالموضوع ، ولكن خير الدين فكر قليلاً كمن يقرب إلى ذهنه شيئاً بعيداً ، ثم قال لا ، لا ، لم يسرق الشاعر منى شيئا ... هكذا أجاب متظاهراً بأنه محب للتسامح وأنه لايريد اتهام ذلك الشاعر . ولم يقل لى إنه من شعر القالى قبل ألف سنة لئلا يكون قد اعترف على نفسه ولذلك تجاهل القالى وتجاهل إطلاعه على أبياته وأخذ يدافع عن السارق ...

نكتة !

بمناسبة ورود اسم الزركلى أقول انه منذ تعين مستشاراً للشيخ فوزان فى المفوضية السعودية إلى الآن لم أعرف له موقفاً وطنياً ولا عملاً سياسياً سوى مسألة هى أقرب إلى النكتة منها إلى العمل الجدى : وذلك أنه لما سأل الصحافيون رجال المفوضيات العربية عن

الحالة السياسية أجابوا بما لديهم فوراً ماعدا خير الدين الزركلى فقد قال إن الموضوع صعب ويجب أن أراجع الحكومة السعودية فى نجد وبعد ذلك ننظر فى الرد على سؤالكم !

شؤون شتى

— زارنى مدير السجن وسألنى هل صحيح إنك تفضل أن تحبس مع الألمان والطليان ؟ فقلت نعم ، فقال إنهم رعايا الأعداء ، فقلت وهل أنا من الأصدقاء ؟ فقال ولكنهم يتضاربون هناك فى كل يوم لأنهم يكرهون بعضهم بعضاً . فقلت والله عال ! وأنا مستعد لأن أتفرج عليهم .. أليس ذلك أهون من هذا السجن المطبق الذى أنا فيه ؟ .

— قرأت فى الصحف أن رئيس جمهورية المكسيك أمر بأن يسمح لكل صاحب شكوى يريد إبلاغه إياها أن يسلمها لأقرب مكتب تلغراف وهم يبرقون بها إلى الملك مجاناً . أما نحن فنحاول إرسال شكوى إلى حكومتنا المسلمة مع دفع أجرتها منا فلا تصل إلى حكامنا ، وإن وصلت أهملوها ، لأنه لا شىء أبغض إلى نفوسهم من النظر فى شكايات الناس وخصوصاً شكايات المظلومين !

وقد ذكرتنى حكاية الرئيس المكسيكى بملك قديم فى الشرق أراد أن يتصل برعاياه وأن يسمع شكاياتهم بنفسه فأمر بأن يلبس كل مظلوم لباساً أحمر اللون ويقف فى طريق الملك فيراه فيستدعيه ويسمع شكاته ، يقابل ذلك أن أصغر موظف فى عصرنا لا يسمح بدخول أحد عليه إلا إذا كان صديقاً ، أو نديماً ، أو حامل هدية ...

— بلغنى أن الإنكليز أرسلوا كتاباً رسمياً إلى عبد الستار بك الباسل جواباً على ضمانته لى ولما طلب منه أصحابى الاطلاع عليه أبى مشدداً ، فالظاهر إن كتابهم إليه كان جافاً فاستحى أن يطلع أحد على ما فيه من عدم اكتراث بوساطته ، وهذا خطأ منه لأن الأحسن أن يطلع أكبر عدد من الناس على قلة أدبهم مع كبراء البلاد التى تنكب باستعمارهم .

— طلب الأستاذ عياد أبو الخير المحامى من وزارة الداخلية أن تأذن له بمقابلتى فى السجن بصفته وكيلى فرفضوا .

مصادفة!

— قرأت في الصحف ان صديق الأستاذ يونس السبعاوى المحامى ببغداد قد أصبح وزيراً في العراق ، فتعجبت وتذكرت انه لما كان في مصر سنة ١٩٣٧ هاربا من حكومة السيد حكمت سليمان أردت أن أهون عليه مصيبته وغربته فقلت له إننى أتوقع لك فرجاً « قريباً » وإنك عائد إلى العراق بعد قليل ، وستصبح نائبا فوزيرا . فضحك وقال هذا غير معقول ، فقلت له إن ذكاءك يرشحك لهذا فانذر لله بأنك إن صرت وزيرا أن تسمح لى بأن أشد أذنك وأنت وزير ! فاشتد ضحكه هو والزوار الذين كانوا عندى ومنهم الطالب العراقى السيد عبد الرحمن الجليلى « عضو مجلس النواب سنة ١٩٤٨ » فقال السبعاوى إن صح ظنك فسأقدم لك أذنى وأنا وزير لتشدها !

ودارت الأيام وأصبح وزيراً، ثم بلغنى بعد سنوات أنه لما تسلم منصب الوزارة ذهب إليه السيد إبراهيم صالح شكر أحد كبار أدباء العراق رحمه الله وقال للسبعاوى إننى أهنئك بالوزارة وسوف أرثيك أيضاً عند ما تصعد إلى المشنقة ! وبعد أشهر قليلة وقعت حوادث العراق المشهورة وشنق السبعاوى ، رحمه الله .

ولهذا الحديث حكاية فإن السبعاوى برغم حداثة شبابه كان يلتهب نشاطاً فى العمل السياسى والكفاح الوطنى والحزبى ، وهو طالما ردد أمام أصدقائه ومنهم الأستاذ صالح شكر قوله « إنى أسعى للحكم فإما أن أصعد الكرسى الوزارى فأفوز بالحكم أو أرقى سلم المشنقة » فلما زاره الأستاذ صالح شكر بعد أن تولى السبعاوى وزارة الاقتصاد ـ وهو أول وزير عراقى فى سنه ـ قال له إبراهيم القول المتقدم ذكره . ومما يذكر هنا حادثة نقلها إلىّ الأستاذ رفائيل بطى أحد نواب العراق الفضلاء، وهو صديق للسبعاوى وكان قد تصور طموح هذا الشاب الوطنى قال :

« كنا فى زيارة معرض باريس سنة ١٩٣٧ نتفقد معالم العاصمة الفرنسية ومن جملتها الپانثيون (مدفن عظماء فرنسا) ، فصعد السبعاوى إلى أعلى صرح الخالدين وقبابه ، وقد اعتاد بعض الزوار أن يكتبوا بالقلم أو يحفروا بقطعة من الحديد أسماءهم على حيطان المكان ،

فاقترح عليه اخوانه أن يكتب اسمه فى هذا الموضع ، فالتفت إليه السبعاوى وأجابه بلهجة الجد قائلا : « أنا لا أكتب اسمى على حجارة هذا الباشيون ، لأن أملى عظيم فى أن أعمل لبلادى أعمالا مخلدة تدفع بنى قومى إلى أن يبنوا لى مرقداً نظير الباشيون يزوره الناس ويكتبون أسماءهم على حيطانه ... » رحمه الله .

— تحدث الدكتور مصطفى بك بشناق مع صالح باشا حرب عن استمرار الحبس فقال الباشا والله إنى انخزيت من أفعال هذه الوزارة .

— سألت أحد السجانين لماذا يمنعون السجناء من التدخين فى الغرف ؟ فقال لأن أحد السكارى كان قد أحرق فراشه بالسيجارة . فقلت : أنعاقب نحن والخلف من بعدنا من أجل ذلك السكران كما عوقب أبناء آدم جميعاً وإلى يوم القيامة بسبب أكل آدم لتلك التفاحة ؟

— لا تزال سخافات الإنكليز تتكرر ، فقد قرأت احصائية رسمية لهم يقولون فيها إنهم أنزلوا بالبحرية الإيطالية فى إحدى المعارك خسارة ٤١ سفينة بين دوارع ونساقات وغواصات وإن الإنكليز خسروا فقط طرادة وغواصة ومدمرة واحدة ، وإن خسارة ألمانيا فى بضعة أشهر زادت ٥٠ مرة عن خسارة الإنكليز ، وأنه قد جرت معركة بحرية مع الطليان خسروا فيها ٥ سفن حربية بدون أن يصاب الإنكليز بخسارة ما ، لا يموت شخص ولا يجرح أحد ، كأنهم بصقوا على الأسطول الطليانى من بعيد فغرق ...

— بلغنى فى السجن نبأ وفاة صديق المرحوم أمين الريحانى الفيلسوف الشهير ، وقد مات فى وطنه الفريكة بلبنان بعد رحلة فى أميركا ، جاهد فيها من أجل فلسطين والعروبة جهاداً مشكوراً . وكان قد كتب لى من هناك . وأرسل لى قصاصات الصحف الأميركية فنشرتها فى جريدتى ، رحمه الله وعوض الأمة العربية على فقده .

— ورد تلغراف من الدكتور حسنى الطاهر من مكة على منزلنا يقول فيه إن المساعى العليا مبذولة ففهمت من هذا أن الأمير فيصل آل سعود قد عاود السعى فسررت بهذا النبأ .

ماذا جرى بالسؤال البرلمانى

طال انتظارى للمناقشة البرلمانية رداً على سؤال حسين محمود سعيد بك ولماذا سكت ،

ثم علمت أن السؤال قد سحبه صاحبه من المجلس . ولكن لماذا وكيف يسحبه وقد أصبح السؤال ملك المجلس كله لا ملكه هو، ويجوز لأى واحد من النواب أياً كان أن يتبنى السؤال فماذا جرى ؟ لقد انشغل بالى وانتظرت أياماً ، ثم علمت أخيراً أن رئيس الوزراء غضب من تقديم ذلك السؤال ومن نشره فى الصحف فاستدعى حسين بك سعيد وهدده بالاعتقال إن لم يسحب سؤاله من المجلس ثم أقسم له بشرفه إنه إن سحبه قبيل تسجيله فإنه سيفرج عنى . فصدقه صاحبنا وسحب السؤال ، ثم بلغنى أنه قد حصلت مشادة بين صالح باشا حرب وبين حسين بك سعيد بسبب سحب سؤاله من مجلس النواب وأنه عاتبه ولامه على تصديقه وعد رئيس الوزراء .

وبعد هذا الحادث أصدر رئيس الوزراء إلى الرقابة أمراً «عسكرياً» بأن تحذف اسمى من كل خبر أو أى نبأ ، كما أوعز إلى مكتب مجلس النواب بأن لا تعطى الأسئلة إلى الصحف قبل النظر فيها فى البرلمان فعلا ، كما أصدر أمراً إلى الجرائد بعدم نشر أى سؤال برلمانى إلا إذا وصل إليها من المجلس نفسه .

— أراد صديقى الأستاذ أكرم زعيتر أن يشعرنى بأن البلاد العربية مهتمة لحبسى فكتب إلى قرينتى كتاباً عادياً ثم دس فيه عبارة (وقد قرأنا بجميع الصحف العراقية والسورية ماحصل لأبى الحسن) ثم مضى فى كتابه يتحدث عن أمور أخرى ، وبذلك مر كتابه على الرقابة وفهمنا المقصود ، فأحدث ذلك ارتياحاً فى نفسى ، وفى الحقيقة انه لا يعزى السجين شىء مثل سماعه أنباء العناية بأمره .

— طالت أيام السجن ، وبينما أنا أقرأ ديوان أبى فراس وجدته يقول عن أيام سجنه :

تطول بى الساعات وهى قصيرة ... وفى ظل دهر لا يسرك طول
تناسانى الأصحاب إلا عصابة ... ستلحق بالأخرى غداً وتحول
أقلب طرفى لا أرى غير صاحب ... يميل مع النعماء حيث تميل

فأحدثت هذه الأبيات فى نفسى بعض العزاء ما دام الناس منذ ألف سنة هم الناس !

— زار القاهرة مصطفى الخالدى رئيس بلدية القدس وهو صديق من عهد بعيد فسألت:

ألم يسع عند الحكومة لتخفيف سجنى المضى؟ فوردنى الخبر بأنه لما سمع بحبسى قال أمام بعض أصدقائى: الله يسامح أبا الحسن ما له وللسياسة فلو قعد ساكتاً ما حبسوه.. فوبخه الدكتور البشناق قائلا: أيكون جزاء من يخدم الأمة والوطن السجن والعذاب من الأجنبى، والنكران واللوم من أمثالك بدلا من أن تتألم وتغضب له؟

— بمجرد رجوع تحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض من الاجازة ذهب إلى رئيس الوزراء مرة أخرى وكلمه بشأنى وكان كلامه لايخلو من التعيير ولكن مثل هؤلاء الناس لا ينفع فيهم الكلام.

— قال الدكتور مصطفى بك بشناق إنه قابل شرارة باشا وكيل الخارجية ففهم منه أن رئيس الوزراء وعد ببحث مسألتى مع حمدى محبوب مدير الأمن العام وأنه ينتظر تقريره عنها ولكنى أرجح أن حمدى سيهول فى المسألة ويقنع الرئيس بإبقائى فى السجن، وقد كان ...

— بلغنى أن السيد محمد إدريس المهدى السنوسى[1] هو الذى حمل كفالة عبدالستار بك الباسل إلى السفارة البريطانية فزاد هذا فى السخط عليهم لأنهم لايوقرون أحداً مهما خدمهم ومهما صادقهم ومهما كانت منزلته.

— وصل إلى دارى كتاب من نبيه بك العظمة كان قد كتبه إلىّ من سجن حلب قبل الإفراج عنه يعرفنى عن وصول كتاب قديم أرسلته إليه قبل حبسى، وهو يعاتبنى على عدم الكتابة إليه. فما أغرب تلك الصدفة! سجين يعتب ولكنه لايدرى أن صديقه أصبح سجيناً بعد إطلاقه هو!

— وصل إلى المنزل كتاب من الأستاذ أحمد محمد نعمان نزيل مكة وقد تمكنت من الاطلاع عليه، وهو يقول إنه على وشك الرحيل عن الحجاز إلى اليمن، ثم يوصينى بالصبر قائلا «وما يدريك أن هذا السجن هو شرف وفخار وتاج لجهادك ونضالك فى سبيل بلادك ولو كنت ممن لايؤبه لهم فى هذه الحياة ما فكرت بريطانيا بالانتقام منك بينما هى تقاسى اليوم الأهوال».

(١) هو ملك طرابلس وبرقة الآن.

— كان من رأى أسعد داغر أن توقف جميع المساعى بشأنى حتى لا يفطن الإنكليز إلى «أهمية السجين» لأنهم فى عرفه كلما رأوا التشديد بطلب الإفراج شددوا فى وجوب الحبس.. فعلى هذا القياس يجب أن أبقى فى السجن ساكتاً صامتاً إلى يوم البعث حتى لا يشددوا ...

— أعجبنى السجان الذى عمل جيبا واسعاً لبنطلونه ليتسع للهدايا التى أعطيه إياها ، فكل شئ أعطيه إياه يأخذه ويضعه فيه ، ولكن هذا الجيب ما كان يمتلئ مطلقا ...

— كتبت لحمدى باشا محبوب كتابا وبخته فيه على استخذائه للإنكليز وعلى كذبه المتتابع وعلى إصراره على إرهاق ، وكان الكتاب عنيفاً . ولم لا أكون كذلك مع رجل لا يحس ولا يبالى ، ولماذا أخاف وأنا فى السجن ، فهل يمكنه أن يصنع معى أشنع مما صنع ؟

نشرة تذاع فى القاهرة . . .

تمكنت وأنا فى السجن من تسطير خلاصة قصتى مع الحكومة على قصاصات من الورق ثم أرسلتها لخارج السجن على أن تضم إلى بعضها لطبع مئات منها وإرسالها بالبريد للشخصيات البارزة . وقد جعلت النشرة شاملة لقصتى بشكل يدل على أنها صادرة من جماعة من الناس . وقد تم ذلك كله ، ثم وصلتنى نسخة منها وهى فى صفحتين بحجم الفولسكاب ومطبوعة طبعاً حسناً ، ففرحت بها ، وكنت فى كثير من الأحيان أخرجها من مخبئها وأفردها أمامى وأترنم بتلاوتها بصوت أسمعه أنا ، كأننى لست كاتبها ... وهذا نصها .

اعتقال مستنكر

١ — قبضت وزارة الداخليـة على الأستاذ محمد على الطاهر منذ ستة شهور تقريباً بلا سبب ولا تحقيق ، وهو منذ سجن يطلب التحقيق والمحاكمة ، ثم طلب مغادرة البلاد ، أو على الأقل وضعه فى الاعتقال بدلا من السجن الانفرادى الضيق فلم يلق جوابا ، ثم طلب تحسين معاملته فى داخل السجن ولكن لم يتغير شئ من أسلوب معاملته القاسى ، ومما زاد فى التعسف والقهر أن الأستاذ الطاهر لا يدرى ولا يدرى أحد لماذا سجن ولماذا عومل بهذه الشدة الأليمة .

٢ — وتقدمت للحكومة مضابط تطلب الإفراج عنه، وذهبت للحكومة ولرياسة الوزراء وفود إسلامية تتوسط وتسأل ، وشخصيات عظيمة تتكلم . ووصل خبر سجنه إلى البلاد

العربية فهبوا يراجعون فناصلنا فيها وأرسلت الهيئات لحكومتنا ترجوها الإفراج عنه ثم تحدث النواب فى البرلمان العراقى مستنكرين هذه الحادثة . وكتب رئيس وزارة العراق لدولة رئيس حكومتنا بهذا الشأن . وذهب وزير العراق المفوض بالقاهرة وخاطب ولاة الأمور فى المسألة ثم قام فخامة رئيس الوزارة العراقية الجديد وكتب إلى رئيس حكومتنا بأن العالم العربى متألم لسجن هذا السياسى العربى الخ ... وفى موسم الحج أقيم فى « منى » اجتماع خطابى تناول فيه الخطباء سجن الأستاذ الطاهر فى بلاد إسلامية عربية بالامتعاض والأسف .

٣ — وقام بعض النواب فى مصر يسألون الوزارة فى البرلمان عن سبب اعتقاله ولماذا سجن ولماذا لا يحاكم إن كان هناك شىء يستوجب القبض عليه وسجنه ، وأرهف سكان وادى النيل والبلاد الإسلامية آذانهم ليسمعوا الجواب عن حقيقة هذه الحادثة التى منعت صحفنا من الإشارة إليها . وطال الانتظار لأن الأسئلة سحبت من المجلس وياللأسف ويا للخجل . سحبت بأساليب ومساومات عجيبة ووعود عرقوبية بإطلاق سراحه . ولكنه لا يزال فى السجن يلقى أسوأ المعاملة حتى مرض وتلفت صحته .

٤ — جرى كل هذا وزعماء السياسة فينا لا يتكلمون ورؤساء الأحزاب صامتون ولولا الأحكام العرفية والرقابة على الصحف لضجت البلاد من أجل هذه الكائنة الأليمة . لأن مصر وهى زعيمة البلاد الإسلامية أصبحت فى نظر المسلمين متهمة وهى بريئة ، بأنها أساءت إلى رجل خدم العروبة والإسلام منذ حل أرض مصر مدة عشرين عاما فماذا نقول لهم .

٥ — فى العراق أكثر من ٤٠٠ لاجىء فلسطينى وسورى بين سياسى ومجاهد وقائد ثوار يرفلون فى ظل الحكومة العراقية بالأمان والإكرام ، حتى إن معظمهم عين فى وظائف حكومية وبعضهم يأخذ مرتبات شهرية باسم مرتب ضيافة وذلك مما قرره برلمان العراق لهؤلاء الضيوف وقد بلغ حتى الساعة ١٥ ألف جنيه . وأما نحن فنحبس الأستاذ الطاهر فى أضيق السجون بلا سبب .

٦ — يجرى هذا وذاك عندنا وفى العراق . وتتناول بعض محطات الراديو الأجنبية مسألة الأستاذ الطاهر عاتبة على الحكومة المصرية وكيف يقع هذا منها . وأخيراً نقول إنه ليس من

دواء لهذه المسألة إلا نوابنا والبرلمان ، فالواجب يدعوهم وسمعتنا فى العالم الإسلامى تطالبهم بحرية هذا المجاهد الذى لا ذنب له إلا خدماته للإسلام والعرب لوجه الله .

ومما يذكر هنا لتقرير الحقيقة أن الأستاذ الطاهر قد اعتزل كل عمل سياسى فهو عند ما أعلنت الحرب أغلق جريدته وأوقف أعمال اللجنة الفلسطينية ولزم منزله . فلماذا يقبض عليه ويسجن ثم لا يحاكم ولا يترك ليسافر إلى الخارج ، إلى الحجاز مثلا ، أو سورية أو العراق. إلى بلاد ترحب به وتجل قدره ما دمنا نحن لا نعرف إلا القبض عليه وسجنه . وفى النهاية نقول إنه ليس لهذه المسألة إلا وطنية نوابنا وغيرتهم على سمعة البلاد وكرامة استقلالها » .

الإمضاء — جماعة من الأحرار

هذا هو البيان ، وكنت أظن أنه سيحدث أثراً ولكنه راح كصرخة فى الصحراء !

عبرة

— كان الإنكليز يهينون امبراطور الحبشة بعد انهزامه أمام الطليان وضياع ملكه بسبب انصياعه للإنكليز ، وتسميه جرائدهم المستر هيلا سلاسى ، ولكن لما احتاجوا إليه الآن بعد اشتباكهم بالحرب مع الطليان أخذوا يلقبونه بجلالة الامبراطور وبأسد يهوذا ...

قائد بريطانى فى فلسطين يقف على سيارة مصفحة ويهدد أهل القرى بالبطش والفتك ونسف مساكنهم

يظهر فى هذه الصورة التاريخية الجامعة فريق من أصدقائى الذين لهم علاقة بموضوع هذا الكتاب فقد ورد ذكر بعضهم فى الصفحات السابقة وسيرد ذكر بعضهم الآخر فى الصفحات المقبلة ، وهم من يسار القارئ الشيخ محمد صبرى عابدين ، فالشيخ إبراهيم إطفيش الجزائرى ، فالشهيد الشيخ حسن البنا المرشد العام « رحمه الله » فالقائد الشهير عزيز على المصرى باشا ، فالوزير السابق الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك ، وقد وقفت بينه وبين عزيز باشا . وهذه الصورة أخذت بفندق الكونتيننتال بالقاهرة فى حفلة شاى أقمتها سنة ١٩٤٧

المرض والمستشفى

المرض فى السجن

أنا الآن فى شهر فبراير ١٩٤١ وقد مضى على سجنى ستة أشهر تقريبا فصرت أشعر بهبوط عام فى صحتى ، فلا طعام ولا نوم مع خفقان وسعال شديد ، فكتبت إلى سليم زكى بك مساعد مدير البوليس العام أطلب منه إرسال طبيب الحكومة ، وقد فضلت أن أكتب إليه لأنه مهما قيل فيه فهو رجل عاقل موزون ، على العكس من حمدى محبوب الذى كان يهمل كل ما أريده ، وكان سليم زكى بك يجيب طلباتى ، ولذلك صرت أكتب إليه بما أريد . وحضر الطبيب فوجد عندى بعض الزلال والحمض وزلة شعبية فقرر إرسالى إلى المستشفى ، فذهبوا بى إلى مستشفى الحكومة « القصر العينى » فأبيت دخوله لقذارته وسوء المعاملة فيه وكتبت إلى سليم زكى بأننى أفضل الموت فى سجن الأجانب ولا دخول « السجن العينى » ... حيث يموت فيه المريض ويمرض السليم ويهان الكريم ، وأننى أطلب نقلى إلى مستشفى غير حكومى وعلى نفقتى ومن مالى الموجود فى خزينة السجن ، ويكفى أن طبيب الأسنان فى القصر العينى كاد فى الشهر الماضى يخلع لى خمسة أضراس حتى لا يتعب نفسه بتنظيفها ومعالجتها !

وقد بادر سليم زكى بك وأرسل الطبيب الرسمى للبوليس الدكتور رشيد بك كرم ومعه أدوات الفحص ، وقد أجرى الدكتور البحث بدقة ثم أعطى التقرير الطبى الآتى وقد نقلته عن أوراق السجن « هزال شديد ، ضغط ١٠ من ١٥ ، زلال ، أكسيد ، زلة شعبية ، النبض ١٠٠ تضخم فى القلب » .

ومضت أيام ، ولكن النقل إلى المستشفى لم يقع ، فأرسلت قرينتى برقية بذلك إلى رئيس الوزراء تضمنت نص التقرير الطبى . وبعد يومين جاء مدير السجن وطلب أن أمضى على مستند أتعهد فيه بأن أدفع مصاريف المستشفى من نقودى المودعة فى خزينة السجن ، فأمضيت له التعهد وطلبت أن يكون المستشفى من الدرجة الأولى ، ولكن مضت أيام أخرى والنقل لم يقع والمرض يشتد ، فطلبت من إدارة السجن أن تسمح بإرسال الإفرازات إلى المختبر على حسابى وترسل التقرير إلى الطبيب ليصف لى علاجا ، فأرسلوا طلبى إلى سجانى الموكل من طرف الشيطان بتعذيبى محمد يوسف ، ولكنه رفضه ، ولم يكتف بذلك بل راح يعاتب الطبيب على وضع ذلك التقرير !

وكنت أخشى أن يرسلني حمدي محبوب إلى المستشفى اليهودي الذي يعالج فيه بعض كبراء المسلمين أنفسهم مع وجود مستشفيات إسلامية أحسن منه ، وبالطبع نويت أن امتنع ، وقد قدرت أن حمدي محبوب سيقول : انظروا كيف إنه عنيد فبالأمس رفض أن يتريض في السجن والآن يرفض المستشفى. فيصدق الناس ذلك بلاشك ثم أموت بتهمة إنني عنيد... وقد طلبت من زوجي أن تبرق ثانية لرئيس الوزراء عن هذه المعاملة الفظيعة فأبرقت ومضت الأيام والمرض يشتد، وقد ساءت صحتي ولكن الحال في السجن لم يتغير ، لاطبيب ولادواء ولا مستشفى . وأخيرا هدانا الله إلى وسيلة فعالة مجدية ترغم أنف حمدي محبوب ورئيس الوزراء ، وهي أن تقوم زوجتي بإرسال برقية بالمسألة إلى جلالة الملك فأرسلتها فوراً ووجهتها إلى رئيس الديوان الملكي في قصر عابدين وهي :

«إلحاقا بتلغرافي لرئيس الوزراء عن حالة زوجي المريض بسجن الأجانب والمسجون بدون حق ولا سبب ، أشكو لمولانا الملك إساءة معاملته ومنع العلاج عنه ورفضهم إرساله لمستشفى محترم على حسابه، حتى إنهم منعوا إرسال الإفرازات للفحص الطبي فاسترحم التحقيق ووضع حد لهذه الفظائع الوحشية .

إمضاء — حرم محمد على الطاهر

صدى المرض في العراق

وكان نبأ مرضي قد وصل إلى بغداد فكان وقعه عند الرأي العام كما كنت أتوقع ، وقد وصلتني بصورة سرية بعد ذلك بعض قصاصات من صحف العراق ، وهذا مثال مما نشر في ذلك الحين، ولم أتصل بما سبق لها كتابته، لأن نص مانشرته جريدة الزمان يدل على أن صحف بغداد كتبت عني شيئا قبل ذلك وعلى كل حال فإن الذي نشرته جريدة الزمان وجريدة الاستقلال فيه الكفاية ، وهذا قول جريدة الزمان :

مذكرة الصحافة العراقية لرئيس الوزراء

علم القراء مما كنا نشرناه سابقاً أن الأستاذ المجاهد محمد على بك الطاهر صاحب جريدة الشورى ورئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة كان قد اعتقل من قبل السلطات بمصر بلا سبب وأودع

السجن المسمى بمصر بسجن الأجانب، ومنذ مدة من الزمن وصلت الأخبار إلى بغداد تنبي بمرض الأستاذ الطاهر وفقدانه، وحيدته وأن شدة وطأة المرض عليه ألزمته المستشفى فاهتم زملاؤه وإخوانه وأصحاب الصحف ومحرروها بالعراق وبادروا بتقديم مذكرة لفخامة رئيس الوزراء العميد الركن السيد طه باشا الهاشمي وقعها أرباب الصحف ومحرروها ورجوا فيها من فخامة الرئيس الاهتمام بأمر المجاهد العربي الحر الأستاذ الطاهر والعمل مع من يلزم لإطلاق سراحه من السجن، وبعث الصحافيون بمثل هذه المذكرة إلى صاحب الدولة رئيس الوزارة المصرية يرجونه الإفراج عن الأستاذ الطاهر زميلهم والذي له من الخدمات والأعمال الوطنية ما يجعل العالم العربي والإسلامي يهتم بأمره ومصيره» .

وهذا قول جريدة الاستقلال :

اهتمام الصحافة العراقية بالأستاذ الطاهر سجين القاهرة

« الاستاذ المجاهد السيد محمد على الطاهر صاحب جريدة الشورى ورئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة يحتل منزلة رفيعة فى قلوب العرب والمسلمين بمختلف أمصارهم وأقطارهم لما قام به من خدمات جلى لكل قضية وطنية وقومية، ولدفاعه المجيد عن قبلة الإسلام الاولى والبقعة المقدسة فلسطين، وهو من خيرة رجالات وأحرار العرب، وقد اهتمت جميع الأوساط الوطنية بأمر اعتقاله وسجنه ورفعت الهيئات الوطنية مذكرات بهذا الشأن . وقد اتصل أخيراً بالصحافة العراقية أن هـذا الزميل الحر المناضل عن الوطن العربى الأكبر، أصابه المرض فى سجنه، وهو فيـه يقاسى الآلام، فهب أرباب الصحف ومحرروها وقدموا صباح أمس مذكرة هامة لصاحب الفخامة رئيس الوزراء السيد طه الهاشمى رجوا من فخامته التوسط لدى أولى الأمر بمصر العزيزة لإنقاذ هذا الوطنى الكريم والسماح له بالحضور للعراق، ولاشك بأن صاحب الفخامة سيولى هذه القضية اهتمامه وعنايته . وقدم أصحاب الصحف العراقية مذكرة أخرى لصاحب الدولة رئيس الوزارة المصرية رجوا من دولته أن ينظر فى قضية الأستاذ الطاهر بعين العدالة ويعمل لإطلاق سراحه وإنقاذه من آلام السجن . والصحافة العراقية لا بل الصحافة العربية بأسرها ترجو فخامة رئيس الوزارة العراقية ودولة رئيس الوزارة المصرية الاهتمام بهذه

القضية وتعتقد أنها ملاقية كل اهتمام وعناية وترجو أن ترى زميلها الطاهر طليقا فى القريب العاجل » اهـ .

هذا ما وصل إلىّ عن اهتمام العراق المحبوب بأمرى ، فلما اطلعت عليه انتعشت وشعرت بدبيب الصحة والحياة يعود إلى نفسى المتألمة من العذاب ومن شدة رئيس وزرائنا الذى لم يهتز وجدانه ولم يظهر منه ميل إلى إطلاق ، كأن له عندى ثأر قديم فيريد أن يشفى نفسه بتعذيبى بل إنه لم يجامل أهل العراق ولا رئيس حكومتهم ولا وزيرهم المفوض بمصر ، فلو وجه إلى سواه ما وجه إليه لقال للإنكليز ؛ أنا لا أستطيع أن أكون سجاناً لمحمد على الطاهر ، بل إنه لو أمر بالإفراج فوراً وواجه الإنكليز بالأمر الواقع لما فتحوا أفواههم بكلمة ، ومن أين لهم أن يعترضوا وهم يعلمون أننى برئ من كل اتهام ، وإذا كانوا يريدون شفاء غليلهم منى على ما كان منى معهم قبل الحرب فيكفى العذاب الذى لقيته وهو يكفى لشفاء أشد القلوب حقداً وغلاظة . ولكن لا ، فالحق ليس كله على الإنكليز فى هذه المسألة بل على حمدى محبوب وعلى رئيسه الذى قال لشرارة باشا وكيل الخارجية إنه لا يريد أن تعرض عليه الأوراق التى ترد بشأنى !

إرسالى إلى المستشفى

وبعد إرسال البرقية لجلالة الملك فاروق المعظم بيوم واحد جاء أحد الضباط ومعه جند من الحرس وسيارة حكومية فأخذونى إلى مستشفى الدمرداش وهو مستشفى يعد نصف حكومى ، ولكننا لم نجد فيه محلا لازدحامه بالمرضى ، وبمرضى الأسرى الألمان والطليان ، وقد فهمت أن باستطاعة المدير وحده إيجاد المحل ، ولكن أين المدير فى تلك الساعة والدنيا قد أمست ، فاتصلت من المستشفى بواسطة التليفون بصديقى القديم الدكتور أحمد عيسى بك «رحمه الله» وقصصت عليه أخبارى وكلفته مراجعة المدير الدكتور أحمد المجاتى بك[1] وقلت له إننى عائد إلى السجن وسأبقى فيه أعانى المرض إلى أن يدبر لى المكان ، فبادر الدكتور أحمد عيسى بك وأخبر الدكتور المجاتى بالأمر وقد ساعده فى ذلك الدكتور اسماعيل مرتضى بك وهو

(١) هو الطبيب الباطنى الشهير ومن كبار علماء الطب فى مصر ، وكان رجلا وقورا نبيلا أمينا فى مهنته ، وقد فجعت مصر بوفاته فى منتصف سنة ١٩٤٨ ، رحمه الله وعوضنا على فقده .

من أجل علماء الطب ، ولم يقصر المدير فقد دبر الأمر بعد يومين ، وفى اليوم الثالث انتقلت بحقائبى إلى المستشفى نهائياً .

عواطف أهل السجن

وقف جميع رجال السجن وجنوده عند الباب الخارجى يودعوننى وأنا أغادرهم ، ويدعون لى بالشفاء ، وقد تسابقوا فى حمل حقائبى إلى سيارة البوليس ، فكانت هذه التحية من أهل مكان لاتصدر منه التحيات عادة ، من أعظم ما أثر فى نفسى . وقد عزانى ذلك الوداع أجمل وأكرم عزاء ، وهـذا يدل على أن القلوب ، حتى قلوب السجانين ، لابد أن تنبض بشعور الإنسانية والوطنية مهما كان أهل السجون غلاظ الأكباد ، لاعتيادهم رؤية المجرمين والمعاملة مع الجناة ، ولما انطلقت السيارة بنا إلى المستشفى قلت فى نفسى . أين عيون الإنكليز وأعوانهم ترى ما أنا فيه من شرف .

الحياة فى المستشفى

خصص لى الدكتور العجاتى بك مدير مستشفى الدمرداش سريراً فى الغرفة رقم ١ فى الدرجة الأولى ، وكان معى فيها اثنان من مرضى الطليان المدنيين المعتقلين سياسياً ، وهما من مواليد مصر وسكانها ويتكلمان العربية جيداً ، وكان أحدهما من أصل يونانى ، فرحبا بى أجمل ترحيب وقام أحدهما « بينتو » إلى أدوات القهوة وصنع لى فنجانا وقدمه لى ، وأخذ الآخر يؤنسنى مع رفيقه ، وهكذا فإن المصائب تجمع بين الناس وإن كانوا من الأعداء .

وشعرت فى المستشفى كأنى قد أفرج عنى ، فقد وجدت أناساً أكلهم ، وطعاماً حسناً وعلاجاً منظماً وفراشاً وثيراً ، مع حرية فى مغادرة الغرفة والمشى فى الحديقة ، بل يكفى أن مفتاح الباب لم يعد فى يد السجان ، إذ لاسجان هنا ، بل أن باب هذه الغرفة لامفتاح له ، ولذلك صرت أختلق لنفسى أسباباً للحركة ، بأن أقوم من فراشى وأذهب إلى محل الماء بلا حاجة إليه ، ولـكن لأشبع رغبتى فى أن أشعر بأنى لست فى « الزنزانة » ...

غرفتي ...

كانت الغرفة التي أنا فيها واقعة في الدور الأرضي وإلى جوارها يوجد صف من الغرف لزملائي وجيراني ، وكان يقف جندي بالسلاح على باب كل غرفة . فكانوا صفاً يواجه أبواب الغرف ، وكان لهذه الغرف أبواب خلفية تفتح على « فرندة » واسعة ، فوضعوا فيها صفاً آخر من الجنود المسلحين ، ولكن لا بأس ، فأنا على كل حال لم أعد في « زنزانة » يملك غيري مفتاحها وله أن يقفل عليّ الباب بدون إرادتي ويفتحه بدون إذني ، إن نصف السجن أو أكثر من نصف السجن قد راح عن كتفي ...

وفي الصباح التالي جاء الدكتور العجاتي بك وفحصني بنفسه ، ثم صوروا صدري وقلبي بالأشعة وعينوا لي العلاج المناسب ، فحصل عندي بعض الاطمئنان والارتياح ، وكانت قرينتي تزورني في كل يومين مرة وقد بلغني أن جماعة بوليس الجواسيس قد اغتاظوا من البرقية التي أرسلت للقصر الملكي وقالوا : لماذا ذكرتم في التلغراف عبارة (الفظائع) ! كأن الذي عملوه معي كان شيئاً لطيفاً ... وإذا كان ماصدر منهم بتضييق السجن عليّ ومنع العلاج عني لايعتبر من الفظائع فكيف تكون الفظائع إذن ؟

بل إن هؤلاء القوم كانوا قد حاولوا هدم التقرير الطبي الذي وضعه عني طبيبهم الرسمي فأرسلوني إلى طبيب القصر العيني وهو تلميذ يتمرن على التطبيب ليقول إن صحتي جيدة فأبقى في السجن ! كأنني عدو لهؤلاء الجواسيس فيريدون أخذ ثأرهم ، فما أغلظ أكبادهم .

أخبار المستشفى

— استطعت أن أنام في المستشفى بلا أرق لأنهم أعطوني جرعة من دواء مخدر فنمت. وكان البوليس يحرس غرف المعتقلين المرضى حراسة شديدة ، وكان في الغرف المجاورة بعض الألمان ، فكنت أقضي الوقت في الحديث معهم ومع الطليان ، وكانوا كلهم يحبونني ويكرمونني بعد أن عرفوا أن الإنكليز يكرهونني ، وهكذا فقد اتفقنا جميعاً . فأنا أصبحت أحب الطليان والألمان كرهاً بالإنكليز ، وصار الطليان والألمان يحبونني بغضاً بالإنكليز ! فلولا الإنكليز لكرهت معهم الألمان والطليان واليونان ، ولكرهني هؤلاء بلاشك .

وكان بين المعتقلين الألمان يهودى محام مستعرب ، لأنه يعيش فى مصر من عهد بعيد ، فكنت أتجنبه ، وكان الألمان والطليان يتجنبونه أيضاً ، وكان أهل المستشفى كذلك يكرهونه فما أسوأ حياته !

— مضى علىّ ثلاثة أيام لا أشعر فيها بجو السجن ولا بالضغط على الصدر الذى كنت أشعر به بعد عصر كل يوم ، وكان الدكتور هلال عبد الوهاب أحد أطباء المستشفى هو الطبيب المعالج الموكل بى ، وهو رجل طيب ذو أخلاق كريمة .

— صادفت فى المستشفى السيد إبراهيم السنوسى أحد أنجال المرحوم السيد أحمد السنوسى الكبير رضى الله عنه ، وكان السيد إبراهيم يعالج من مرض بسيط ففرحت بوجود غرفته قريبة من المنطقة التى كنت فيها ، ولكنى شعرت بأنه كان إن قابلنى يكلمنى بتحفظ كمن لا يريد أن نلتقى ، مع أنه صديق ويعرف درجة حب والده لى لدفاعى عن طرابلس وبرقة ، وكان إبراهيم يزورنى بإدارة الشورى ، فلما رأيته يتباعد عنى فى المستشفى صرفت النظر عن اللقاء به .

— لحظت أن نفسية الطليان والألمان المعتقلين فى المستشفى عالية جدا ، فهم إن سمعوا أخبار انتصار دولهم على الإنكليز فرحوا وضجوا وعربدوا وأنشدوا أناشيدهم الوطنية الحماسية ، وعندما يسمعهم الجنود المرضى من أسرى الطليان والألمان الذين يملأون الطابق الأعلى يقتدون بهم وينشدون معهم ، فيسمع لأناشيدهم فى أنحاء المستشفى دوى عميق وصدى بديع ، كأن المستشفى قد انقلب إلى ثكنة عسكرية فى جبهة الحرب .

— جاءنى أحد أطباء المستشفى متسللاً حذراً ثم عرفنى بنفسه ، وهو الدكتور عبد الرحمن الصدر وأبلغنى سلام أخى أحمد حسين رئيس مصر الفتاة ، وعرض علىّ أن يقوم بكل مهمة أريدها فشكرته على شهامته ولطفه .

— كتبوا على جدران المستشفى «يجب السكون لراحة المرضى» ولكن ضجيج الممرضات والخدم يملأ الدنيا ، وقد ذكرتنى هذه المفارقات بما يكتبونه على أبواب السجون من أن «السجن إصلاح وتهذيب» وهو فى الحقيقة إفساد وتعذيب .

— يظهر ان الفرق بين المستشفى وبين السجن ليس كبيراً . وإليك هذه الأمثلة : تأتى

المرضات فى الصباح الباكر لإيقاظ المرضى من نومهم بحجة أخذ قياس درجة الحرارة. مع أن النوم هو أعظم علاج للمريض ، بل إن بعض المرضى وأنا منهم كنا لا ننام إلا بأخذ دواء منوم ، فتأتى الممرضات لإفساد هذا العلاج بحجة أن قانون المستشفى يحتم وضع ميزان الحرارة فى أفواهنا ، فكأننا فى المدرسة الحربية بقوانينها القاسية ، وكم من مرة أيقظتنى الممرضة بحجة إصلاح الغطاء إن رأت أن طرفه قد تدلى من السرير ....

— كادت مشاجرة تقع بين أحد الألمانيين والبوليس الذى يحرس الغرف وهو شاكى السلاح ويقف أمام الباب وباب الشرفة ، لأن رجل البوليس كان يريد أن يقضى الليل فى غرفة المريض لمنعه من الفرار ولكن سلطات المستشفى أوقفت البوليس عند حده بعد أن تبينت ان الشرطى كان يقصد النكاية بالألمانى الاسير لأنه لم يدفع الضريبة .

— زارنى الدكتور اسماعيل مرتضى بك «ووشوشنى» قائلا إنه سمع الراديو الليلة يتحدث عن سجنى ومرضى وإنه يرجح أنه راديو روما وكان مذيع الراديو يندد بالإنكليز ويسبهم من أجل حبسى ويعيرهم به، فانشرح خاطرى .

-- بلغنى أن صديق عبد المنصف بك محمود قد ذهب إلى وزارة الداخلية « وهو الآن باشا ومدير عام قسم الإدارة فيها » فاستفهم عن مسألتى لعله يستطيع عمل شىء يرضى. فقيل له إننى متهم بأشياء خطيرة جداً وان من الخير عدم تذكير السلطات بى ، وان الأحسن طى المسألة إلى أن تبرد من تلقاء نفسها ! ولكن ما هى هذه المسألة يارب ؟ والله إنى لفى حيرة! أفبعد أن أتحدى رئيس الوزراء وأطلب التحقيق معى ، فيتهربون من مواجهتى ، يكذبون على الناس ويشوهون سمعتى ؟

— يتدخل حراس المعتقلين فى أمر الزيارات ويضايقون الزائرين ليحصلوا منهم على « ضريبة » ... كأن الحصول على «البخشيش» لا يكون إلا بتكدير الناس أولا ثم ابتزازهم بعد ذلك ... مع أن وسائل الحسنى تأتيهم بما هو أجدى، ولما تمادى الجنود ووصل الدور إلىّ كتبت إلى الدكتور العجاتى بك مدير المستشفى عما يصدر من الجنود ، فاستدعى المدير ضابط

البوليس وأفهمه أن الحكم في داخل المستشفى وتحديد مدة الزيارة وفضها إنما هو خاضع لإدارة المستشفى ، وأما البوليس فليس له إلا الحراسة فقط ، ثم أمره بالتحقيق ، فجاء الضابط إلىّ وسمع ملحوظاتى فأحضر الجنود وأفهمهم واجباتهم وأبدى نحوى احتراماً زائداً كان الفضل فيه للمدير النبيل الذى كله عنى كلاماً طيباً جمله يجلنى كثيراً . وقد نفعنى ذلك الاحترام أمام الجنود الذين صاروا يتسابقون إلى إرضائى لدرجة أن الطليان والألمان أصبحوا إن تضايقوا من أحد الجنود شكوا إلىّ حالهم ، فأستدعى رجل البوليس وأفهمه اللازم فتنفذ كلمتى ويكف عنهم .

— فهمت أن صالح باشا حرب قد اتصل بمدير المستشفى وحدثه عنى ثم جاء الدكتور حافظ باشا عفيفى وخليل بك مطران ومحمود بسيونى بك رئيس الشيوخ السابق والدكتور أحمد عيسى بك وسألوا المدير عن صحتى فطمأنهم ، ونصح بعدم مقابلتى بسبب الرقابة الشديدة علىّ ، ليس فقط من الشرطة بل من الرئيسة الإنكليزية « النارس » التى كانت تنوب عن إدارة (الانتلجنس سرفيس) فى مراقبتى ، فقد جاء قبل ذلك الدكتور أحمد عيسى بك إلى غرفتى ذات يوم ليرانى فما لبث أن دهمته العجوز الإنكليزية بالصياح والاحتجاج على دخوله، فقال لها إننى طبيب وهـذا صديقى ، فأبت أن تسمح له بدقيقة ثم أخرجته بنفسها من المستشفى كله .

— كان العجاتى بك مدير المستشفى يتوخى إرضائى إلى أقصى حد ، حمله على ذلك نبله وكرم محتده وتقديره لظروف . وكان إذا مر بغرف المرضى ومعه المساعدون من الأطباء والرئيسات خصنى بعناية ملحوظة أوحت للجميع ومنهم البوليس بعمل كل شىء يرضينى ، فكان الاحترام يحف بى من الجميع فهون ذلك من حياة المرض والاعتقال .

— أصبح رجال البوليس يتساهلون معى فصرت أغادر الغرفة وأتنزه فى حديقة المستشفى وأصعد إلى السطح ، وأروح عن نفسى برؤية المناظر الخارجية ورؤية الدنيا بعد أن انقطعت عن رؤية الـكائنات والمخلوقات الأخرى شهوراً طويلة ، وكان يرافقنى فى هذا التجوال جندى مسلح ، فـكنت أكرم هؤلاء الجنود تارة بالدراهم ، وتارة بعلب السجاير ، وأخرى بمقادير من علب الشاى وقراطيس السكر ...

أخبار وتعليقات

كانت الدنيا فى تلك الأيام غارقة فى مصائب الحرب ، وكان انتصار الألمان على الإنكليز براً وبحراً وجواً يشرح صدورنا ، وكنت أقول يارب هل يستريح العالم من انجلترا واستعمارها؟ لنفرض أن الألمان كانوا أشراراً إن انتصروا وحكموا مصائر البشر بدلا من الإنكليز ، فهل يمكن أن يكونوا شراً من الإنكليز ؟ لا أظن ذلك ، ولا سيما مع العرب ، لأنه يكفى أن يكون الألمان أعداء لليهود وهذه النقطة وحدها تكفى لأن نطمئن على المستقبل ، أما إذا كان الألمان مثل الإنكليز فلا نكون قد خسرنا شيئاً، وعلى كل حال نكون قد رأينا يوماً نشمت فيه بالذين ظلمونا ويكفى أنهم يكونون قد ذاقوا من الألمان ما أذاقونا ، ولقوا منهم بعض مالقينا ، وقال المعرى :

إن صح قولكما فلست بخاسر — أو صح قولى فالخسار عليكما

— جاء تشرشل ومعه إيدن وزير الخارجية إلى مصر فأقاما فيها شهراً يتذاكران ويدبران الأمور لتلافى الأخطار التى تحيق بالامبراطورية وترقيع الأحوال المتفاقمة عليها . وكانت الحيرة قد أذلت كبرياء هؤلاء الإنكليز وحطمت من غطرستهم .

— أخبرنى أحد المرضى وهو من كبار موظفى الحكومة أنه عاتب إحدى الممرضات على الإهمال وعدم اللطف مع المرضى . فأجابته قائلة : هذا ليس شغلنا . وأما شغلنا فهو أن نخدم المريض فإن مات أسبلنا عليه الغطاء، وانصرفنا لنخبر الطبيب المسئول عنه ...

— قال لى أحد المعتقلين النمساويين إن فلسطين أصبحت كوعاء الفضلات ، وإن انكلترا بجمعها اليهود فى فلسطين أصبحت كالكناس الذى يجمع الزبالة ويلقيها فى المزبلة بعيداً عن مسكنه. ولكن صاحبنا نسى أن هذا الكناس يحمل سلاحاً وأنه يرمى زبالته فى أراضى الغير ، فإن اعترضوا أذاقهم طعم الحضارة الغربية .. وهذه الحضارة تنشر عادة بواسطة التقتيل والتخريب والتدمير ...

مقارنة ...

كان الإنكليز أرفق برعايا الأعداء من وزارة الداخلية وحمدى محبوب معى ، فرعايا

الأعداء، يرسلون إلى المستشفى لأقل الأسباب ، ويمكثون فيه إلى أن يطلبوا بأنفسهم الرجوع إلى معتقلهم ، وأما أنا فإن البوليس السرى يلاحق قرينتى منذ دخولها المستشفى لزيارتى إلى أن تغادره، ثم تشترط الداخلية على إدارة المستشفى الإسراع فى معالجتى وإعادتى إلى السجن فوراً بمجرد شفائى ...

الرفيقان !

كان جارى الطلياني فى الغرفة رجلاً خفيف الظل فكان يروح عن صدورنا ويخفف بنكاته ودعاباته من همومنا ، وكان يرشو الخادمات والمرضات القبيحات الشكل بالثناء على جمالهن ، فيصدقن ذلك ! وكان يقول لأشنعهن خلقة « من فضلك يافلانة ياللى مفيش زى وجهك الذى أحلى من العسل وعينيك التى فيها كشافات بتجنن ، أعطنى الشئ الفلانى » فتفرح المسكينة وتسابق الريح فى قضاء حاجته :

وأما جارى الآخر « جورج » فهو يونانى الأصل إيطالى الجنسية ، فكان وقوراً وكان يضحك على المرضات بفتح البخت بواسطة ورق اللعب « الكوتشينه » وكان بارعاً جداً فى هذا الفن .

ما هو المستقبل ؟

وكان جورج يسألنى لماذا لا أطلب منه النظر فى مستقبلى ، فكنت أعتذر ، لأنى لم أنس قول « سان بيير » لتلميذه « بول » صاحب « فرجينى » إن الاطلاع على المستقبل يسمم الحياة .

ولكنى أمام إلحاح صاحبنا رضيت أن «يفتح بختى» فأعطانى ورقة وطلب أن « أضمر » عن الشئ الذى أريده فكنت أسأل نفسى متى يأتى الفرج وهل أمكث فى المستشفى طويلا وهل أرجع إلى السجن ومتى يكون ذلك ؟ فبسط جورج أوراقه وأخذ يملى علىّ حوادث المستقبل على الوجه الآتى فقال: «أنت لن ترجع إلى السجن ، وسوف تخرج من هنا قريباً، ولكن ليس إلى بيتك ، ولا إلى بلدك الأصلى ، ولكنك ستذهب إلى محل بعيد مطلق السراح وإنما تكون بغير إرادتك» سمعت هذا الكلام وأنا متعجب من دقة اكتشافه لكل

ما نويت الاستفهام عنه ، وقد سرنى قوله إننى « لن أرجع إلى السجن » لأن هذا كان أهم شىء كنت أفكر فيه ، ولكنى لم أفهم ماذا كان يعنى ببقية تنبؤاته وإن كانت لا تهمنى ، فقد حسبتها من تحريفات المنجمين ، وإلا فما معنى خروجى من المستشفى طليقاً إلى مكان بعيد وإنى لن أرجع إلى السجن ولا لبيتى ، وإذا كنت لن أرجع إلى أحدهما فإلى أين أذهب وكيف أنطلق ؟ وما هو هذا الانطلاق المقيد ؟ إنه لكلام غير مفهوم، ولكنى بقيت مسروراً ببشرى عدم الرجوع إلى السجن ، حتى ولو كان الانطلاق الذى يقول عنه العراف يؤدى إلى مالطة !

خواطر وملاحظات

انهزم الطليان أمام الإنكليز فى برقة هزيمة شنيعة فأصاب المتقلين الطليان خمود وكسوف وقد كفوا عن أناشيدهم الحماسية .

— قرأت فى الصحف عن وطنية الشعب الإنكليزى آية من آيات الوطنية والبذل فى سبيل الوطن ، فقد تبرعت مدينة ليفربول لإعانة الحرب بـ ١٢ مليون جنيه ومدينة جلاسكو بـ ١٠ وادنبرج بـ ١٠ وبرمنجهام بـ ١٠ ومنشستر بـ ٧ وشفيلد بـ ٥ ملايين وأما العالم الإسلامى والأمم العربية فلو جمعنا تبرعاتهم الخيرية فى مئة سنة ما بلغ ذلك قيمة ما تبرعت به مدينة شفيلد وحدها . وبعد ذلك يستغرب الناس وقوع العالم الإسلامى تحت كلا كل الاستعمار .

— من سماجات الإنكليز فى الحروب ولجاجتهم أنهم يسفون فى دعايتهم اسفافاً يحاكى عبث الأطفال ، مثال ذلك أنهم إن هجموا أعلنوا أنهم انتصروا ، وإن هجم العدو قالوا إنه انكسر ، وطياراتهم دائماً أحسن وطياريهم أمهر ، وأنهم إن ضربوا أصابوا الهدف ، وأما عدوهم فهو دائماً يخطىء الهدف : وان الإنكليز لا يضربون إلا الأماكن العسكرية فقط ، وأما الاعداء فلا يصيبون إلا الكنائس والمدارس والمستشفيات ! وإن فقد الإنكليز أرضاً قالوا إنها منطقة لاقيمة لها، وإنهم تركوها بمحض اختيارهم لعدم نفعها وقلة قيمتها . ولكن إن استعادوا تلك الأرض ذاتها زعموا أنها منطقة عسكرية مهمة جداً ، وأن ذلك ينذر بهزيمة ألمانيا وإيطاليا ويخيف اليابان أيضاً ، والخلاصة أن التراب فى أيدى الإنكليز يصبح ذهباً والذهب

فى يد عدوهم يصبح تراباً ! وهى أساليب ممجوجة يكاد الإنسان يتقيأ منها .

— ضجت صحف انجلترا من انحياز بلغاريا إلى دول المحور وأخذت تصفها بأنها مأجورة للألمان !ولكن لماذا لا تقول إن انجلترا مأجورة لليهود ؟ .

إن انحياز بلغاريا للألمان نشأ عن كونها تشعر بأنها ظلمت فى الحرب العظمى الاولى فتريد أن تنتصف لنفسها فى الحرب الثانية وتسترجع أرضاً فقدتها ، وأما انجلترا فإنها تظلم العباد وتفتك بأهل فلسطين وتشردهم وتقتلهم وتسلب وطنهم لتعطيه لليهود، ثم إنها مع ذلك تطلب من العرب التجند فى جيشها والثناء على فضلها أيضاً ! .

— لا شىء يدعو إلى السخرية كحمام مستشفى الدمرداش ، فهو حمام بحنفيات وبانيو وأنابيب ودش رشاش ، وجدرانه من القيشانى ولكن لا ماء فيه ! ولذلك جعلوه مخزناً للأدوات القديمة كالمكانس البالية والأخشاب المستغنى عنها والخيش القديم والصفائح المحطمة الخ. فلماذا بنوه إذن ؟ إن هذا الحمام البديع ما كان يصل إلى هذه الحالة ويصبح مخزنا للمتروكات والمخلفات لولا وصول يد الحكومة إليه ! ومعنى هذا أن كل شىء تضع الحكومات يدها عليه ، يفسد ويفقد الغرض من وجوده .

— قرأت للدكتور حسين هيكل باشا مقالا يقرظ فيه رسالة جندى بريطانى أرسلها إلى والدته. فمجد هيكل باشا ذلك الجندى ووصفه بأنه يدافع عن وطنه ، ولكن لماذا لا تفكر يا هيكل باشا بأن هذا الجندى الباسل يعتدى على وطنك ويحتل بلادك ؟

— وقعت حوادث دامية فى سورية فوصفت الدعاية الافرنسية ذلك بأنه تشيع من السوريين للجنرال ديجول ضد حكومة فيشى ! كأن السوريين لا وطن لهم يثورون من أجله وأنهم سخفاء لا عمل لهم إلا الانتصار للغير، فتارة يقولون إن السوريين ثاروا لحساب الألمان، وتارة لحساب الطليان ، وتارة لحساب الشيطان . يعنى أنهم لا يثورون إلا لحساب أعداء فرنسا وأما فى هذه المرة فهم يثورون ضد فرنسا الفيشية حباً بفرنسا الديجولية ...

— لحظت أن الممرضات أصبحن جاسوسات للبوليس ورقيبات على حساب رئيسة المستشفى الإنكليزية ، تلك العجوز الشمطاء التى أظنها فاقت بخبثها أهل الأرض، لأنها تدرى

بسرعة البرق بجميع حركاتى فإن دخل غرفتى أحد عرفت بذلك فوراً وهرولت حالا وأخرجته من عندى بنفسها ، وإن دخلت أنا غرفة أخرى علمت بالأمر وجاءت تهددنى وتنذرنى ...

— استحضرت من السوق ١٢ منديلا حريريا «إيشارب» من الأنواع الجيدة وأهديتها إلى الممرضات تخفيفاً لأذاهن واستجلاباً لطاعتهن . وأما الخادمات فكنت أعطيهن نقوداً بسخاء ، ثم صرت أزيد فى إكرام الجنود .

ماذا قال راديو برلين عنى ؟

اليوم ١٥ مارس سنة ١٩٤١ الساعة ٦ مساء كان صوت الأستاذ يونس بحرى المذيع العربى الشهير يلعلع من محطة برلين صائحاً يقول : « اعتقلت السلطة البريطانية الغاشمة فى القطر المصرى المجاهد الإسلامى العربى الكبير محمد على الطاهر رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين بمصر وصاحب جريدة الشورى بسبب انتقاده للفظائع البريطانية فى فلسطين قبل الحرب ، وقد علمنا أخيراً أن الأستاذ المجاهد قد اشتدت وطأة المرض عليه فى السجن فنقل إلى المستشفى وقد وصلت هذه الأنباء إلى العراق فهبت الصحافة العراقية والهيئات الوطنية معلنة سخطها على الإنكليز وطلبت من المارشال طه الهاشمى باشا رئيس الوزارة العراقية أن يتدخل ويتوسط لدى الحكومة المصرية لحل هذه المسألة وإطلاق سبيل الأستاذ المجاهد شفاه الله وعافاه » .

هذا نص إذاعة برلين وقد جاءتنى بها قرينتى مكتوبة على ورقة وأخبرتنى بأنهم أعادوا الإذاعة فى الساعة ٨ مساء مرة أخرى وفى الليل تسأل أحد الأطباء وأخبرنى بأن راديو إيطاليا قد أذاع مايقرب من ذلك ، فشكرت الطبيب المفضال ، وقلت فى نفسى بارك الله فى الأستاذ يونس فقد كان معى وفياً ، لأنى كنت به حفياً .

وبمناسبة الأستاذ البحرى لايسعنى إلا احتقار الذين كانوا يشتمونه بسبب إذاعاته من برلين ، ويقولون إنه خائن وإنه مأجور ، فلماذا لا نقول نحن إن المذيعين العرب من محطات راديو لندن وباريس هم الخونة وهم المأجورون ، لأنهم يروجون سياسة بريطانيا التى تسحق أوطانهم وتستعبد أهلهم ، وأما يونس البحرى فكان يذيع لحساب دولة ما آذت العرب والمسلمين ، ولكنها تسحق الدول التى خربت ديارهم .

حادث آلمني

صادفت في أحد أروقة المستشفى السيد محيي الدين السنوسي أحد أنجال السيد أحمد الشريف السنوسي الكبير، وكان آتيا لزيارة أخيه ابراهيم، فوقفت أتحدث معه ولكني وجدته يقتضب الحديث ويختزل الكلمات ولولا الحياء لقطع الكلام ومضى . فتألمت كثيرا ، لأن هذا الرجل كان يعتبر زيارته لي بإدارة الشورى من أسعد ساعات حياته لدفاعي عن وطنه في الشورى وفي غيرها ، ولكن لما احتضنه الإنكليز هو وجماعته ليحاربوا بهم الطليان صاروا يتضايقون مني!

حيلة . . .

— أصبحت كثرة زوار جيراني في الغرفة تقلقني ولاسيما بعد أن أضافوا إلينا مريضا أجنبيا ثالثا فكتبت إلى المدير المجاتي بك ورقة طلبت فيها أن ينقلني إلى غرفة خاصة لأكون وحدي وأبديت استعدادي لتحمل المصاريف التي تلزم لذلك النقل ، وأني لا أريد الحياة مع أعداء الوطن . وبعد ساعة فقط جاءت الرئيسات والخدم وقلن للذين معي إن إدارة المستشفى أمرت بعدم اختلاط المرضى الأجانب بأولاد العرب ، ثم أخرجوا جيراني الثلاثة من عندي ووزعوهم على الغرف الأخرى ، فإذا بي أجد نفسي في الغرفة وحدي ، فسررت لذلك وتعجبت من لباقة الدكتور المدير وبراعة أسلوبه ، لأنه أراد به أن يتفادى خائنة الأعين وخبث الرئيسة الإنكليزية الجاسوسة ، وبعد قليل مر المدير بغرف المرضى يحف به أركان المستشفى من أطباء ورئيسات ولما جاء دوري ودخل إلى غرفتي سلم عليّ باعتناء شديد ثم شد على يدي قائلا هل أنت مستريح الآن ؟ فشكرته وقلت له . كل الارتياح . ولما خرج ازداد اعتناء أهل المستشفى بي سواء كانوا من الممرضات أم من الحرس البوليسي ، لأنهم لم يروا المدير يهتم بالمرضى ويظهر لهم مثل الاحترام الذي يخصني به ، فكان هذا الإيحاء الثاني منه حافزا لهم على التفاني في إرضائي وفي خدمتي فما أنبل هذا المدير .

مناقشة إنكليزية عربية

اجتمع أحد أصدقائي بالمستر هملتون أحد أركان السفارة البريطانية وفي خلال حديث

بينهما قال له صديق لقد كبرتم محمد على الطاهر وزادت منزلته بحبسكم إياه . فقال نحن ما طلبنا حبسه ولكن الحكومة المصرية هي التي حبسته ، ثم قال متهكما : وإذا كان قد كبر في الحبس فليبق فيه إلى أن يكبر كثيراً ... وإني أعلق على تهكم هذا العلج الاستعماري بأني قد كبرت فعلا وإني أشعر باعتزاز وكرامة أيضا .

— شعرت اليوم لأول مرة منذ دخولي المستشفى بالفرق الحقيق بين السجن والمستشفى ، لأنني استطعت أن أنام نهاراً بعد أن انقطع لغط الذين كانوا عندي هم وزوارهم .

— نحن اليوم في ١٧ مارس ١٩٤١ فذهب الدكتور مصطفى بشناق بك ومعه بعض الأصدقاء إلى رئيس الوزراء ، وحدثاه عن فوعدهما بإطلاق بعد أن يسعى لدى الإنكليز .. دائما الإنكليز !

بهلوانيات ...

صحيح أن السجن أريح من المستشفى ، ولكن من بعض النواحي فقط ، مثال ذلك إنني لم أنم الليلة بسبب تخبيط في الغرفة التي فوق استمر إلى الفجر ، ولما نمت عاد التخبيط ، وقبل طلوع الشمس نمت ولكن باب الغرفة انفتح بفلاظة ودخلت خادمة وبيدها قبضة من من القطن مسحت به افريز الجدار ثم انصرفت ، وبعد ذلك نمت فجاءت ممرضة أيقظتني وأخذت لي ميزان الحرارة ثم انصرفت ، فرجعت للنوم ، وإذا بفتاتين تدهمان الغرفة وتطلبان مني النهوض من السرير « لتوضيبه وترتيبه » وبعد لحظة انصرفتا ، فرجعت إلى السرير واندسست فيه وأنا دائخ بردان نعسان ، فلم أكد أستقر فيه حتى دخلت خادمتان لمسح الأرض ثم أخذتا بالحديث والعتاب على أمور بينهما إلى أن تشاتمتا ! ولكني قبل حصول الضرب بينهما تركت الغرفة وهربت إلى المشى ! ولما انقلعتا من الغرفة عدت إليها ورقدت ، وإذا بالباب ينفتح فأطلت منه خادمة ثم انصرفت ، وبعد لحظة جاءت أخرى ففتحت باب الشرفة ورجعت ، فإذا بأخرى تدخل وتقفل باب الشرفة وتعود ، فإذا بالباب يفتح ويدخل شخص فإذا هو الحلاق فصرفته ، ولكنه ما كاد ينصرف حتى دخلت خادمة وأخذت تمسح لوحة التقارير الطبية وتعود ، وقبل أن أسترد أنفاسي وأستلق وإذا بالباب ينفتح وتدخل

ممرضة لتسألني كيف حالي ثم خرجت ، وإذا بخادمة تدخل وتقول هل ضربت الجرس؟ فقلت لها بل الجرس هو الذي ضربني ... -

وبعد ساعة احتجت إلى شيء فضربت الجرس ثم قرعته وانتظرت ، ولكن لم يرد أحد فتمنيت أن يدخل أي إنسان لهذه الغرفة الملعونة ولكن لم يدخلها أحد ولا أجابني أحد ... فلم يسعني بعد هذا العذاب إلا أنني أمرت الجنود بعدم السماح لأحد بدخول غرفتي إلا بطلب مني.

عريضة إلى جلالة الملك

بلغني أن عريضة جديدة قد أعدت لتقديمها إلى جلالة الملك المعظم بطلب الإفراج عني مثل العريضة التي قدمت إلى رئيس الوزراء منذ أشهر، وكان قد تهرب من استلامها وأرسل بعض موقعيها إلى إدارة البوليس لتهديدهم بالطرد من الأراضي المصرية .

وقد ذهب وفد من علماء وطلبة المعاهد الدينية والجامعة إلى قصر عابدين الملكي وكان من أعضاء الوفد الشيخ يوسف عبدالرزاق الشهدى المدرس بالأزهر والشيخ مصطفى حسنى السباعى عضو مجلس النواب السورى بعد ذلك والشيخ مشهور الضامن والأستاذ الشنقيطى والأستاذ الفضيل الورتلانى الزعيم الجزائرى وقد وقع العريضة مئات من أبناء البلاد الإسلامية . فتسلمها منهم عبد الوهاب باشا طلعت أحد كبار أمناء القصر الملكي ووعدهم برفع العريضة إلى جلالة الملك المعظم ، بارك الله فى هؤلاء الإخوان الذين لم ينسوا أخاهم السجين المريض وهذا نص العريضة :

العريضة الثانية

القاهرة فى ٢٢ صفر سنة ١٣٦٠ هـ الموافق ٢٠ مارس سنة ١٩٤١ م .

حضرة صاحب المعالي كبير الأمناء . سراى عابدين العامرة بمصر

بعد الإجلال والاحترام : يتشرف علماء وطلبة الأقطار الإسلامية الذين يطلبون العلم فى مصر بتقديم هذه العريضة إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم أيده الله بنصره وصان عرشه ملتمسين رعايته الغالية ونظره الكريم فيها . ولمعاليكم الشكر والدعاء .

قبضت وزارة الداخلية منذ سبعة أشهر على المجاهد الكبير الأستاذ محمد على الطاهر رئيس

اللجنة الفلسطينية العربية بمصر وسجنته مع التضييق عليه بدون اتهام أو تحقيق ولا ذنب يستوجب ذلك . وقد وقع هذا العمل التعسفى على الأستاذ الطاهر موقع الدهشة والحزن والأسف وقد حز فى نفوسنا لما للاستاذ محمد على الطاهر من المكانة السامية فى الشرق والعالم الإسلامى .

وحيث ان مقام مصر العزيزة فى الأقطار الشرقية كبير ، فهى تأبى أن ينسب إليها تعذيب أحد خدام الأمم الإسلامية المخلصين فى السجن بلا موجب ، لأن مصر اعتادت تقدير كبار الرجال وإكرام مثواهم لذلك نلتمس من المراحم العالية إطلاق سبيل الأستاذ الطاهر ورد حريته إليه أو محاكمته إن كان قد ارتكب ذنباً لأن العدالة لا ترضى بسجن الأبرياء بلا ذنب، ولاسيما أنه الآن مريض فى مستشفى السجن وإننا ندعو سلفاً بطول بقاء مولانا الملك المعظم نصره الله ...

الإمضاءات

الفلسطينيون والسوريون : مشهور ضامن بركات . محمد سعد هاشم . عبد العزيز عزت الخياط . واصف عبد الرحمن عبده . على محمد الشيخ حسن . عبد الرؤف درويش أحمد . ضياء الأدهم . محمد ربيع يوسف . سعيد أحمد . محمود حسن باغى . محمد عبد الحافظ . فتح الله حسن . جمعه السلوادى . سعد الدين الخطيب . محمد محمود الحاج قاسم . أمين محمود أبو استين . محمد أحمد التميمى . نمر مصباح النمورة . عبد القديم يوسف زلوم . صلاح الدواعة. محمد مظفر الصلاحى . عبد المجيد القاسمى . ناجى حسن عبد الله . هاشم نعمان الخازندار . محمد أحمد البحش . سعيد زكى أبو السعود . شاكر سعيد . ياسين سليمان بلان . على البدرساوى . عبد الله السيد البدرساوى . عبد المجيد الدويك . حجازى أيوب . زكريا سعد . كمال سعيد . خالد العزة . محمد صلاح الدين . جميل حسن النجار . حسن عبد اللطيف أبو سلطانى . محمد رضوان المحتسب . شفيع سعيد اللبدى . عبد الرؤف سعيد اللبدى . حلمى عبد الفتاح محمود. إبراهيم ياسين قطان . عبد الرحمن محمد مراد . ممدوح مهنا . محمد حرب خميس . عادل مطيع .

عادل الجوهري . مرشد داوود . يوسف عبد الرزاق المشهدى . حافظ عبد الرحمن صندوقة . محمد حمدان الفارس . فوزى سرندح .

الحجازيون : محمدعبدالرحمن الزبادى . حسن على خلف . محمد موسى على . عبدالله أحمد عبدالرازق. أحمد على المنيفى . طاهر الزواوى. محمد الدفتردار . إبراهيم خاشى . بكر عرفه المدنى. سميح أحمد الشريف . صالح منادى . أحمد الحكيم . حسن مغربل . شاكر سراج . إبراهيم بشاورى . أحمد حسن الشريد .

المغاربة : عبد القادر حسنين . حسين سرور . محمد أحمد على . المدنى محمد . الطيب محمد . أحمد البغدادى. سليمان محمد الزوابى . عمر راغب. محمود يوسف الجبية . محمد الصغيرالعروسى. محمد عبدالسلام . الحسينى على المراكشى . الأمين المغربى . محمد المدنى محمد . محمد مبارك . على محمد الحجاجى . سالم العمورى . محمد صالح الزغبى . سعد الدين القبانى . محمد خيرناصر . محمد كامل الحامى . خالد العلنى . حسن على . حمدان أحمد يوسف . رمضان الشوا . محمديوسف النازلى . حسن عبد القادر . مرشد داود . محمد على سعد . خالد أحمد هنيه . عبد الرؤف عبدالصمد . سالم العمورى . الهلالى محمد . البشير العروسى . طه الحمدانى . أبو بكر المغربى.

اليمنيون : على محمد على الهتارى . أحمد محمد على الهتارى . على عقاب. محمد على الجفرى . أحمد عبد الرحمن الجفرى . عبدالرحيم عبدالرحمن . صالح أحمد محمد . عبدالقادر جعفر المحضار . أحمد محمد الصوفى . السيد عبد الله على . محمد عمر . على ناصر . أحمد عبد الله . على حيدر . سلام فارع صالح . عبدالوهاب حسن . عبد الله عثمان عمر . سلامة محمد . على هتارى . عبده منصر . أحمد عبد الرحمن الجندى . أحمد الحضيرى . إسماعيل عبد الله . محمد سالم البيحانى . محمد الحضيرى . يحيى زبارة . محمد صالح المسمرى . سالم وصابى . عبد القادر محضار . على محمد على الهادى . أحمد محمد على الهادى . غزالى الجهنى .

الجاويون (أندونسيا) : هارون عبدالرؤوف . عبدالرؤوف ماهيه. أحمد هاشم . سليمان وكيل . شمس الدين محمد . حسب الله جعفر . إسماعيل عبدالوهاب . إدريس هاشم . عبدالغنى رامى . على سليمان . أحمد بستانى . مختار ناشنغ . عبد القادر جيلانى . إبراهيم عبد الحكيم .

علي محمود . فؤاد فخر الدين . عبد الحميد جميا . عبد المراد قدري . عبد الرشيد أبو الحسن . عبدالله بخاري. محمد مستورجهري . سليمان درماوي . علوش أحمد عبدالله . إسماعيل عبدالوهاب. عبدالغني سداغ . تاج الدين رضوان . نورالدين يحيي . بستاني إبراهيم . طه يحيي . عبدالكريم يونس . محمد طه يحيي اندونسيا . تنكوميمون . إسماعيل علي . سنوسي محمود . محمد يس عبد المجيد . عبد الغني بيك .

الأتراك : حمدي أرسلان . عثمان مصطفى عثمان . مصطفى عثمان . عبد الرحمن موسى . برهان الدين محمد الداغستاني . محمد شريف . محرم تحسين . علي حسن يعقوب . توفيق إسلام يحيي . عبد الله عثمان . مصطفى علي رضا . علي كونوفي . حسين عبد اللطيف . محمد صبري أبو بكر . نصرت محمد . حسين مرهميك .

الهنود : محمد حسين . لقمان أحمد .

السودانيون : مختار فضل بيرم . جعفر محمد الأمين . حسن محمد إسماعيل . محمد علي عمار . عثمان أحمد عبد الرازق . عثمان حسن محمد علي . محمد سلطان جميل . صالح المدني . محمد حسين الرفاعي . محمد خوجلي . عثمان خليفه . عبد المجيد الحميدي . حسن سرور .

الأكراد : محمد شريف إسماعيل . عبد شريف الزركلي . خليل الإمام الكردي . عمر وجدي الكردي . قاسم فتح الله . الحاج محمد حسين . محمود حسين . إسماعيل مصطفى البغدادي . محمد شريف خالد . محمد شريف بابلاوي . قاسم فتح الله . عزيز عثمان الشيخ . حمدي الكردي .

تركستان : محمد حسن علي . عبد الخالق إسماعيل . عبد الواحد عبد الله . محمد سعيد إسماعيل . نور محمد إسماعيل . الحاج قاسم إسحاق . عبد الأحد حامد .

الصينيون : عبدالله ناجي . محمد تواضع . محمد حنفي . عثمان خان . نورالدين يحيي . عبدالله يسر . إبراهيم الشوم . أحمد جان . نعمة الله شن . صالح دن . سليمان وان. عبدالله ماجينكو .

الأفغانيون : محمد عبد الغفار الهاشمي . عبد الصمد عبد الله .

شعرت بارتياح لما رأيت هذه العريضة، لأنهم أرسلوا لي صورتها الشمسية فحفظتها عندي لأسجلها بالزنكغراف وأثبتها تخليداً لفضلهم في الكتاب الذي أنوي كتابته عن حياتي التي أنا فيها بعد الخلاص من هذه الورطة إن خلصت منها سالماً ...

« صورة مصغرة لعريضة أبناء الأقطار الإسلامية والعربية »

زيارة تشغل البال

زارني ضابط من البوليس بدون أن يكون بيني وبينه معرفة تستوجب الزيارة ، وبعد أن تأملني لحظة أجال نظره في الغرفة ، ولما تيقن من خلوها من الغير رجع إلى الباب فأقفله من الداخل ثم استدار وسألني : هل شفيت ؟ فاستغربت سؤاله ، وقلت له أنت ترى على المنضدة سبعة أنواع من الأدوية التي أتعاطاها وأحلاها أمر من العلقم . فسكت لمحة قصيرة ثم قال : أريد أن أسر إليك بشيء ، فأنا أعرف أنك مسجون في سبيل الله ، ولذلك أشعر بأن من واجبي أن أفضي إليك بسر فهل تكتمه ؟ فقلت نعم ولك الشكر ، فقال إن الحكومة طلبت إرجاعك إلى السجن ولكن مدير المستشفى امتنع عن ذلك ، أما إن تكرر الطلب واشتد فلا يسعه إلا التسليم ، فأنا أنبهك لتحتاط لنفسك وتسعى بواسطة أصحابك مع الحكومة والسلطات للابقاء عليك هنا إلى أن تشفى ، ثم قال الضابط إنهم أرسلوني لأراك بعيني وهل شفيت أم لا ، لأنهم لم يصدقوا تقرير مدير المستشفى ، وسأرد عليهم بأني رأيتك في حالة مرض لا تساعد على إرجاعك للسجن الآن .

سمعت هذا الكلام فأحسست ببرودة السجن وظلامه وفظائعه ، فشكرت للضابط فضله ونبله ووعدته بالكتمان طبعاً . وكم أصبحت مديناً لهذا الضابط النادر المثال ، وهنا تذكرت ضباطاً من نوعه وهم الذين صادفتهم في أيام الحبس ورافقوني في ذهابي إلى عيادات الأطباء ، ومنهم اليوزباشي أحمد الرشيدي « القائمقام الآن » والملازم كمال فهمي كريم ، فقد مكنني الأول من زيارة الدكتور أحمد عيسى بك في عيادته والتجول معه في السوق والجلوس في مشرب قهوة والتنزه ساعات للاستراحة ، ومكنني الثاني من الرياضة بأن تجول بي في سيارته الخاصة في الضواحي . ولما أفرج عني بحثت عنهما فلقيت الأول في مكتبه فشكرته . وأما الثاني فقد توفي بغتة وهو غض الشباب ، فحزنت عليه وذهبت إلى أهله فعزيتهم به رحمه الله . ومن هؤلاء الضباط الكرام محمد حلمي شعير بك الذي أصبح مفتشاً بوزارة الداخلية وكان بوقتها برتبة ملازم ، وقد أظهر معي من مكارم الأخلاق مالا ينسى : ومنهم أيضاً مختار بك خورشيد البكباشي بالبوليس فقد كان نبيلا لطيفاً من الطراز الأول .

تفكير وسهر

لم أنم تلك الليلة ، وكيف أنام وأنا أسمع أن الجلادين يلاحقونني ويستعجلون إعادتي إلى

السجن . وهذا الاستعجال لم يصدر من الإنجليز ، لأنهم فى شاغل عنى بانكساراتهم وهزائم جيوشهم وإغراق أساطيلهم، ولكن الاستعجال ـ على ماعلمت كان من الأمن العام بتذكير من الضابط محمد يوسف الذى يلقب الآن برئيس الإدارة العربية والشرقية ببوليس التحرى بحكمدارية مصر

دائماً محمد يوسف فى طريقنا ، فما خطب هـذا الرجل ، وما الذى يحرك عداوته نحونا ؟ سأبحث هذه المسألة ، لأن أعماله معنا تسترعى النظر كثيراً ...

وعند منتصف الليل جرى تبديل الحرس الذى يسهر حول غرف المعتقلين ، وبعد لحظة دخل الجندى محمد لحيانى وقال لى بحزن إنك غداً ستوحشنا « ياسعادة البيه » ، فاضطربت من هذه العبارة وسألته وأنا أتوقع أن يقول لى متمماً كلامه « بسبب إرجاعك غدا إلى السجن » ولكنه استطرد فقال : لأنى من الغد سأنقل من الحرس ولذلك لن أتمكن من خدمتك . فلما سمعت ذلك سكن قلق وصرفته بكلمة أسف على فراقه وأعطيته « بخشيشا » فخرج مسروراً . وأما أنا فقد بقيت مشغول البال إلى الصباح ، لا أفكر إلا فى شئ واحد وهو كيف السبيل إلى حمل الجلادين على التغاضى عن فترة من الزمن ليثما أملك صحتى ، وقد تنتهى الحرب فى الأسابيع المقبلة بانهيار انجلترا وتسليمها للألمان ، لأن كل شىء فى الدنيا كان يبشر بهـذه الخاتمة المرموقة التى تفك أسر ألف مليون من مخلوقات الله من ظلام الاستعمار الإنكليزى والإيطالى والفرنسى والهولندى والإسبانى والروسى والبرتغالى والبلجيكى الخ وتؤدى إلى راحة بقية أهل الأرض من الحروب ، ومعذرة للإنكليز لأن حياة ألف مليون من الخلق وهم أكثرية سكان العالم ، أفضل عند الله من بقاء دولتهم تقلق العالم كله ليتمتع ٤٠ مليون انكليزى بالتحكم والغطرسة وامتصاص أموال العباد ، ومن لا يؤمن بسيادتهم على الخلق عوقب بالاحتلال والاستعمار والانتداب، وإن اعترض أحد على ذلك فالمدافع البريطانية وقنابلها الفتاكة كفيلة بإفهامه وإقناعه ، فإن لم يفهم ولم يقنع تولت الطيارات إفهامه وإخماده ....

آخر مذكرة فى المستشفى

اليوم فحصونى وكنت أشعر بتحسن واضح ولكن السعال مع ضيق التنفس كان يزعجنى، فإن تركونى هنا شهراً واحداً رجعت صحتى إلى حالها ، ولكنهم يريدون إرجاعى إلى السجن الآن ولذلك بقيت طول النهار أفكر وأقيس وأدبر وأفترض ، لأن الذى خطر ببالى كان بالنسبة إلىّ خطيراً حقاً ، وله عقابيل ذات متاعب ومشاكل ...

الفرار

التفكير فى الهرب!

قضيت طول اليوم ٤ ابريل ١٩٤١ فى التفكير بما صح عزمى عليه، وهو الهرب من المستشفى الذى كنت قبل ذلك قد تمكنت من الطواف فى جنباته ومعى الحارس فتجولت فى الحديقة وفى أطراف المستشفى ودققت النظر فى ارتفاع أسواره، والنقط التى يقف فيها الحرس المسلح، لأن المستشفى يغص بالأسرى العسكريين الذين يعالجون فى الطابق الأعلى، ولم يفتنى أن أصعد السطح للتنزه ومعى الجندى طبعاً فنظرت إلى خارج المستشفى لعله محاط من خارج السور بحرس ما، ولكنى لم أر أحداً، فهم مكتفون بالحراسة الداخلية إذن، وبعد أن حددت فى خيالى موقع المستشفى من المدينة وماهى الشوارع والطرقات المحيطة به، وحركة المارة من الناس، عينت النقطة التى أريدها...

وما أصبح الصباح حتى كنت فى حالة إعياء شديد بسبب السهر والتفكير، وقد مجت نفسى الطعام طول ذلك اليوم وأخذت أعاود التفكير والتدبير حتى العصر، ثم تناولت المصحف أتلو بعض آيه، فإذا بى أقف عند الآية الكريمة « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » فتعجبت من هذه المصادفة واختلجت أعصابى وخفق قلبى، وعند ذلك صممت على الهرب وأن أهرب بكل سرعة ... وبعد قليل وصلت زوجى لزيارتى فأخبرتها بما صح عليه العزم قبل أن أعود إلى الزنزانة فى السجن، بل الباستيل الحقير الذى تعذب فيه أرواح الناس بلا سبب [1]. ولذلك قلت لزوجى إن جاءوا غدا وهاجموا الدار وسألوا عنى فمعنى ذلك أننى نجوت، وإن لم يقع شىء فيمكنها أن تأتى غداً للزيارة كالعادة، لأنى قد أعدل عن الفرار الليلة لأمر خارج عن إرادتى، وبعد قليل انصرفت بعد أن حملت خادمتنا بعض الأمتعة الثمينة التى أخشى ضياعها إن تم الهرب وظلت فى المستشفى. وكان أهم شىء خفت عليه من الضياع عباءة من الوبر

(١) بالرغم من كل ما يقال عن سجن الباستيل وبرغم الصيت الرهيب الذى كان يحوطه، فإن العديد من أدباء ومؤرخى فرنسا قد أجمعوا على أنه لم يكن سجنا فظيعا بالمعنى المفهوم، بل كان عبارة عن قلعة فى وسط باريس اتخذت مكانا لاعتقال الشخصيات السياسية الكبرى فى فرنسا، ممن يغضب عليهم الملك، وكان نزلاء الباستيل يعاملون فيه باحترام مع توفير أسباب الراحة لهم، ولكن الاعتقال هو الاعتقال ولو كان فى الجنة، ولذلك أصبح اسم « الباستيل » رمزاً للظلم وعنواناً للاستبداد مادام الأبرياء يحبسون فيه بلا تهمة معينة ولا محاكمة منتظرة.

حتى لا تقع فى يد البوليس « كغنيمة حربية » ، فهذه العباءة المباركة كانت أهم شىء أنقذته قبل الفرار ، وسيأتى حديث هذه العباءة .

بروفة ...

وبعد ذلك ارتديت زوجين من الجوارب ، فوق بعض ولبست تحت البيجامة الصوفية قميصين ولباسين من الصوف أيضاً ، وكنت أحتفظ بنظارة داكنة الزجاج ذات إطار غليظ ، وطاقية سوداء ، فلبستهما ، وهناك تلفيحة كنت ألف بها عنقى للوقاية من البرد فلففتها حول خصرى تحت جكيت البيجامة ، وكنت فى المستشفى ألبس « الروب دى شامبر » فتركته لحظة وارتديت البالطو الخفيف « معطف المطر » ثم وقفت أمام المرآة وأخذت أنظر إلى نفسى وأعيد التأمل فى شكلى ، فأعجبنى هذا التفكير البدائى – بل المبدئى – وهو كاف فى هذه الليلة ، وبعد ذلك يحلها الحلال ! ولما تمت البروفة أردت أن أزيد فى الاحتياط شيئا آخر ، وهو أننى أخرجت قطعة من القطن ووضعتها تحت إحدى زجاجتى النظارة المعتمة كمن يصون عيناً مريضة ، ثم نظرت إلى نفسى فى المرآة مرة أخرى . فكدت لا أعرف أننى أنا !

ونظرت إلى نفسى فى المرآة فأعجبنى الخ

وعند ذلك وضعت النظارة والقطن فى جيبى ، ودسست الطاقية فى عبى ، ونزعت المعطف

وعدت إلى الزى الذى اعتاد الجنود وأهل المستشفى رؤيتى فيه ...

الساعات الأخيرة

كانت الغرفة التى أقيم فيها مشحونة بأمتعتى وكتبى، وطقم الشاى الذى كنت قد أحضرته من بيتى، وما أمسى المساء حتى كانت فكرة الهرب مستحوذة على فكرى وعلى جميع جوارحى، وكنت فى الساعات الأخيرة أفكر وأتنقل بين الغرف على غير هدى، أزور هذا وأحدث ذاك، ثم أرجع إلى الغرفة فأستلق على السرير وأغمض عينى للتفكير ورسم الخطة ومتى يكون البدء بالهرب، وأما ماذا بعد الهرب من أهوال فهذه الأمور لم تخطر على بالى. وقبيل انتصاف الليل أغدقت على جنود الحرس العطايا، فلهذا قطعة نقود، ولذاك علبة كبيرة مملوءة بالسجاير، ولثالث علبة شاى لابأس بها، ولرابع قرطاس فيه أقة من السكر، وهلم جرا. ومع ذلك لم أنس أن أسأل الجندى المكلف بى عن اسمه وعنوانه ....

وكنت فى تلك الفترة الحاسمة فى حياتى كثير الاضطراب والقلق، فتارة كنت أقف وتارة أستلقى، وتارة أسير فى الممرات وتارة أمسك بكتاب أطالع فيه، ولكنى ما كنت أفهم شيئا من كل الصفحات التى قرأتها بل إن عينى ما كانت ترى شيئاً مما كان يمر عليه بصرى من سطور وكلمات أو مرئيات!

الهرب

وقرب الساعة الثانية عشرة ليلا استويت جالساً وألقيت نظرة على الغرفة، فهذه منضدة عليها عدد كبير من المجلدات والكتب، وهذا «روب دى شمبر» جديد لم يمض عليه عندى أكثر من عشرة أيام، وتلك خزانة مملوءة بملابسى، من بدلات وأقمصة ومناديل وجوارب الخ وكانت الغرفة مضاءة تماماً، وكذلك مصباح السرير، فوضعت المصحف الذى كان فى يدى على المخدة وتركته مفتوحاً، وقبل أن أبرح الغرفة ألقيت على المصحف نظرة خاطفة فإذا بعينى تقع على الآية الكريمة (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) الآية، فاستبشرت وتيمنت، ولم أشك فى النجاة ثم توكلت على الله وخرجت من الغرفة كعادتى وقد انتعلت الحذاء هذه المرة بدلا من «الشبشب» وارتديت المعطف بدلا من «الروب» فوق البيجامة، ثم أخذت أمشى أمام الغرف كالعادة بدون أدنى تغيير فى الحركات الليلية التى اعتدتها أمام الجنود وتعودها الجنود منى. وكان الجنود

بسلاحهم ، كل يرابط أمام غرفة ، يتحدثون ويتسامرون ، وكان أحدهم يصنع شاياً لنفسه ولرفاقه ، من الشاي والسكر الذي أهديته إليهم... وقبيل انتصاف الليـل بدقيقة أو دقيقتين لا أكثر تلفت إلى الجنود وأنا أمشي أمامهم وعلى مرمى البصر منهم، فوجدت أحدهم يحدث اخوانه بحديث كان يهمهم على ما يبدو ، لأنهم كانوا يصغون إليه ، ولما لمحت أن عيونهم قد انصرفت عني ، وكانت أذهانهم قد ألفت وقوفي عنـد مفرق المماشي ، انعطفت بسرعة البرق إلى ممر جانبي ومشيت فيه مسرعاً ، ثم تلفت فلم أجد خلفي أحداً ، وكيف يمكن اللحاق بي وهم لم يلحظوا بعد أنني تحركت أو ابتعدت عن مرمى نظرهم ، ثم مرقت من المشى إلى الحديقة، كالطيف المارق ، وأسرعت إلى المكان الذي عينته للتسلق والفرار ، وهو درج حديدي يوصل إلى المغسل ، فتقدمت إلى السور فعلوته ، ثم ألقيت نظرة إلى الشارع الجانبي فلم أجد سابلة ولا سمعت حركة ، لأني خفت أن أقفز فيشعر بي أحد المارة ،

منظر جانبي لمستشفى الدمرداش ، ويظهر المغسل في آخر الصورة إلى يسار القارئ ، حيث كان القفز فالفرار من أمام النافذة

كأن يرى شبحي مثلا أو يسمع « الدبة » على الأرض فيقبض عليّ وينادي البوليس ، ومن الطبيعي أن يشكني أي إنسان يمر في تلك اللحظة وهو يرى شبحاً يقفز من السور إلى الشارع لأن أول ما يخطر بباله أن هناك لصاً أو مجرماً يفر من جريمة ، والخلاصة أن أقل غلطة تقع كانت تفسد عليّ كل شيء . وكان الظلام يسربل المستشفى ويسود المدينة إلا من بقايا ضوء رمادي خفيف كان القمر الغارب يلقيه على الكائنات ، وكان السكون شاملا كاملا ، إلا من دبيب بعيد لبعض السيارات القليلة التي كانت تمر من شارع الملكة نازلي . وعند ذلك أدليت نفسي عن السور ، ولما أصبحت معلقا ورجلاي إلى الأسفل ، أعدت إلقاء النظر إلى الطريق

فلم أجد أحداً ولم ألمح أحداً ، وهنا دقت ساعة البريد ١٢ دقة مؤذنة بانتصاف الليل . فأفلت يدى فإذا بى أسقط على الأرض مترفصاً ، فبقيت حيث أنا وعلى تلك الحال لحظة بدون أن أنهض أو أن أتحرك ، حتى إن مر بى أحد ظننى عابراً يقضى حاجة ... وإن أطل أحد من المستشفى كان ذلك أستر وأبعد عن العيون . فالتفت يميناً وشمالا فإذا بى أسمع حركة بين أشجار مقبرة قديمة للأقباط واقعة أمام المستشفى فظننت أن شخصاً يراقبنى ، أو أن المصادفة ساقت أحد لصوص المقابر إلى سرقة ما فى تلك القبور ، فوقع نظره علىّ فهرول منصرفاً عن إيذاء الأموات ليؤذى الأحياء ! فجمد دمى وجف ريق ، فتطلعت إلى هنا وهناك فلم أر أحداً، ففهمت أن طائراً خبيثاً من طيور الليل قد قفز فى تلك اللحظة من غصن إلى غصن.

وألبست الطاقية ووضعت النظارة ولففت عنق وصدرى باللفحة الخ

عند ذلك وقفت ومددت يدى إلى جيبى فأخرجت منه الطاقية السوداء فلبستها وإلى النظارة الغبراء ذات الإطار الغليظ فوضعتها على عينى ولم أنس القطن ... ثم لففت نفسى بالمعطف وباللفحة حول عنق وصدرى ، وبعد ذلك مشيت نحو الشارع العام فاجتزته ودخلت حى الوايلية القديم، وتغلغلت فى حاراته الضيقة المظلمة ...

جرى ذلك كله بسرعة البرق ، من حين أن انعطفت عن أعين شرطة المستشفى إلى أن بلغت المأمن . لقد كانت دقائق قليلة جداً ، ولكنها كانت بالنسبة إلى كأنها الدهر كله !

وكان أول شيء صنعته بعد تيقنى من النجاة من الشرطة أنى أشعلت سيجارة وأنا أمشى فى الحارات والدروب ثم أخذت أفكر ، أفكر لا فى حالى ولا فى نفسى ولا فى أهلى ، ولكن فى حالة أولئك الجنود الأبرياء ، وفى العقاب الذى سينزل بهم بسببى ، ثم تصورتهم وقد انتبهوا من غفلتهم وهم يظنوننى دخلت إحدى الغرف فيتفقدونها كلها ، ثم يظنوننى رجعت إلى غرفتى فلا يجدون فيها أحداً إلا الأمتعة والأضواء المشعشعة فى جنباتها والمصحف الذى تركته على الوسادة مفتوحاً . ثم يظنوننى فى محل الغسل ، ثم يطوفون الحديقة والمماشى، ثم لا يتأكدون من إفلاتى إلا عند الفجر ، وبعد ذلك يقبل الجنود بعضهم على بعض يتلاومون وينذر أحدهم الآخر بسوء المصير وبأنه المسئول ، ويصور له البلاء الذى سينزل به وإنه لعقاب شديد ، إلى أن يجمعوا كلهم على أن المسئولية ستنحصر فى الجندى المكلف بحراستى وهو الذى أمضى على ورقة « الدورية » بأنه « تسلمنى » ؛ فكنت أتألم لهذه الخواطر وبالأخص لهذا الجندى وأشعر بالأسى من أجله ، وما كان يعزينى شيء فى تلك الساعة إلا أننى نويت قبل أن أهرب أن أعوض عليه يوماً ما ، بشيء يخفف بعض نكبته ، ولذلك أخذت اسمه قبل الفرار ، ولكن من لى بمن يطمئن هـذا الجندى البرئ « سيد حسن البلاح » من بوليس روض الفرج إلى حسن نيتى وأننى سأعوض عليـه بعض ما نزل به ويخفف من همه ويهون عليه مصيبته !

مرت هذه الخواطر فى بالى فزاد قلق على هـذا الجندى الذى سيتهم بأنه تواطأ معى على الفرار وأنه خان الحكومة، وخان الدولة، وفرط بواجبه، بينما هو برئ وأنا السبب فى اتهامه ومعاقبته والإساءة إليه فلا حول ولا .

بعد الفرار

قضيت فترة وأنا أمشى فى حارات حى العباسية ومن شارع إلى زقاق ، أسير على غير هدى فإذا بى أمام دار صديق الشيخ على سرور الزنكلونى رحمه الله وبرد ثراه ، على بعد أمتار من مركز بوليس العباسية أو « قسم الوايلى » الذى يرسل الحرس من عنده إلى المستشفى ، فجنود هذا المركز البوليسى كلهم يعرفوننى حق المعرفة ، فلم أرتعد ولم يخطر فى بالى أن أحداً

منهم سيعرفني ، لأن الشكل الذي تقمصته في تلك الساعة، بالبالطو والطاقية والنظارة لم يسبق للجنود أن رأوني فيه ، لأنهم يعرفونني بالطربوش والبيجامة والعباءة أو الروب . والفرق بعيد بين الشكلين ، كما أن سواد الليل مع استحالة اقتراب من يهرب من البوليس ، من مركز البوليس ، كان يطمئن فكرى من هذه الناحية ، وعلى كل حال فما أظن أهل بوليس الوايلي قد دروا بحادث الهرب ، لأن تفتيش المستشفى يحتاج إلى وقت ، وأنا لم أغادره إلا منذ دقائق ...

ذكريات ...

وقفت أمام دار الأستاذ الزنكلوني أتأملها وأتذكر أيامي السالفة معه في هذه الدار الكريمة المضيافة التي كانت كعبة أبناء العالم الإسلامي ، يحج إليها طلاب الحاجات ومنتجعوا العلم ، فكم من أيام سعيدة قضيتها في مجلس هذا الصديق الكبير والإمام الحكيم الذي ماغشيت مجلسه الوقور وأنا مهموم إلا خرجت من عنده وأنا مسرور محبور ، ثم تذكرته في أيام مرضه الأخيرة وكيف كان يحتجب عن جميع الزوار إلا عني أنا ، وكان منذ ربع قرن يناديني يا حبيبي ، وكنت إذا طرقت الباب وأطلت الخادمة وسألتني من أنت ، فأقول لها قولي للأستاذ «حبيبك» فتذهب إليه وتقول له إن شخصا اسمه « حبيبك » جاء يسأل عنك ، فقد كانت الخادمه تظن أن هذا هو اسمي ، فيضحك الشيخ رحمه الله ويأمرها بأن تسرع وتفتح لي الباب .

وقد ذكرت أن آخر لقاء بيني وبين الشيخ كان يوم القبض عليّ وهو مريض إذ أنني زرته عائدا وأنا لا أدري أنه لقاء الوداع ، فكرت في هذا كله وأنا أمام الدار فشعرت بخشوع ثم تلوت أم الكتاب وأهديتها إلى روحه الطاهرة .

إلى الأمام ...

وبعد ذلك تابعت السير ، فاجتزت الشارع العام من جوار مركز البوليس ! ولا أدري ما الذي جعلني أقترب منه فتذكرت الفراش وتهافته على النار التي تحرقه ! وتذكرت رأي « لمبروزو » عالم الإجرام النفساني الذي يرى أن المجرم لابد من أن تجذبه رجله إلى مكان الجريمة! وهنا ضحكت من هذا الخاطر لأنني لم أرتكب جريمة ولا فررت عن جثة قتيل ولم أهرب من مركز البوليس ، بل أنا مار من هنا وعابر سبيل ، والصدفة وحدها هي التي ساقتني إلى هذا

الطريق. وتغلغلت فى حى العباسية الشرقية، أمشى فى الشوارع الهادئة الساكنة، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل . وأخيراً صحوت إلى نفسى كأننى استيقظت من حلم مروع مزعج ، وأخذت أسائلها إلى أين ؟ نعم إلى أين المسير وكيف المصير ؟ ستطلع الشمس بعد ساعات ويكون بوليس القاهرة كله على علم بهربى ، ولكن هذا الخاطر لم يزعجنى كثيراً ، لأنهم على الغالب سيكتفون بإعلان الخبر سراً على دوائر الشرطة وإدارة الجاسوسية التابعة «للإنتلجنس سرفيس» أو الجستابو الإنكليزى الذى بز ما يقال عن الجستابو الألمانى فى ارتكاب الجرائم مع الأعداء ، كأنهم لن يعلنوا هربى فى الصحف حتى لايشمت الناس بالحكومة وبالإنكليز ولا يفرح أصدقائى بنجاتى ، وفى هذا الإبطاء فى تعميم الخبر فائدة لى تقلل من شدة الطلب وتخفف عنى مشقة التخبط عند الإمعان فى الهرب ...

أخذت أفكر فى مصيرى بعد أن فررت وأنا خالى الذهن عما بعد الهرب . كأن المسألة كانت كلها عبارة عن هرب فقط ، بدون أن أفكر فى أى شئ آخر ، لا كيف أختبئ ولا كيف أختفى ، ولا إلى أين المهرب ! ومرت الخواطر فى ذهنى ، وتلاحقت الأفكار فى بالى ، فكانت تمر سراعاً كأنها شريط السينما وهو يكر بأسرع من البرق الخاطف ...

فكرة لها ما بعدها

وهنا مرت بى آخر سيارة أوتوبيس قاصدة ضاحية المطرية وهى بعد منطقة الزيتون ، فركبتها ولم أندم على ذلك ولم أقل فى نفسى إن سيارة التاكسى كانت أضمن ، فقد تكون الشرطة ترقب سيارات التاكسى الآن ، ولكن لا ، بل أن الخطر من ركوب الأتوبيس كان أعظم ، لأنى قد أصادف جندياً من بوليس الوايلى منصرفاً إلى داره فيركب إلى جانبى وهنا الطامة الكبرى ... كانت هذه الخواطر تزعجنى وكأنها كانت تأكل أعصابى ، ولكن السيارة ظلت منطلقة فى طريقها تسابق الريح وأنا أتصورها تزحف زحفاً وأكاد أنزل منها وأدفعها بيدى لتسرع فى جريها قبل أن يركب أحد رجال بوليس الوايلى الذى تخيلته ، وأنه منصرف إلى داره ، ثم يجلس بجوارى وقد يسألنى عن الساعة فأجيبه فيعرفنى من صوتى ، فلا يكون نصيبى بعد ذلك إلا العذاب والإهانة فى سجن «التخشيبة» والعياذ بالله ؛ وتركت السيارة بعد

مسير ربع ساعة ، فكنت أتخبط فى سيرى وأنا أخترق شوارع حى المطرية فى الظلام الدامس ، فكنت أمر من أمام مركز بوليس المطرية الذى لمحته من بعيد فأرتد قدمى إلى الخلف ثم واصلت السير إلى ناحية أخرى فلمحت وهج سيجارة يشعشع فى ذلك الظلام ثم يخبو ، فألقيت التحية على ذلك المدخن لأسأله عن شارع رشاد ، فإذا به من رجال البوليس الليلى : فاضطربت من هذه المصادفة ، ولكنى لم أتراجع بل سألته عن الشارع فأرشدنى إليه ، غير أنى لم أجد المنزل الذى أريده . فكيف ذلك وأنا أعرف الشارع وأعرف الدار ؟ ولكن إرادة الله أعمت بصيرتى عنها ، هى دار صديق الحميم المجاهد الشيخ ابراهيم آل طفيش العالم الجزائرى نزيل مصر ، فهو رفيق جهاد وزميل صراع مع الاستعمار ، فقد طاردته فرنسا فى الجزائر وطاردته إلى تونس ثم أخرجته منها إلى مصر ، وها هو لايزال إلى الآن يعانى آلام الغربة والبعد عن الأهل والوطن .

حيرة شديدة

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأنا أسير على غير هدى ، بدون أن أقر على قرار أو أستقر فى مكان ولو إلى الصباح ، ولكن هل ينقذنى مجىء الصباح ؟ وإلى أين أذهب بعد مجيئه ، بل إن عذابى سيزداد ومتاعبى ستعظم فى النهار ، فأنا فى الليل أستطيع أن أتجول كما أريد مستتراً بالظلام ، وأما فى النهار ...

كانت هذه الأفكار والخواطر تدوى فى دماغى دوى الطبل ، فأشعر كأن رأسى قد انفلق وأن أعصابى قد تحطمت ، وفكرت فى الرجوع إلى المدينة ولكن إلى أين ؟ بل كيف السبيل للوصول إلى القاهرة ، والمواصلات معها قد توقفت ، فلا سيارة تكسى ولا سيارة أتوبيس ، ولا عربة خيل ، وماذا تصنع عربة الخيل فى مسافة بعيدة كهذه فلا تصل المدينة إلا فى الصباح !

وهنا خطر ببالى خاطر ، وهو أن أبيت الليلة عند صديق القديم الأستاذ أحمد حافظ عوض بك[1] وكنت قريباً من داره ولكن كيف يجوز أن أطرق داره فى مثل ذلك الوقت

(١) هو الصحافى الكبير المؤرخ ، والأديب المنشىء البليغ المتفنن ، وكان قبل ذلك محرراً بجريدة =

وهى مملوءة بالأسرة والحفدة والخدم فلابد من إحداث ضجة إن ذهبت إليه ، وهذا قد يؤدى أيضا إلى كشف أمرى ، ثم يخطر ببالى أن أذهب إلى منزل صديق القديم عزيز على المصرى باشا[1] وهو منى على بعد ميل واحد فى ضاحية عين شمس ، ولكن المنزل يقع فى مزرعة واسعة والمنزل فى أقصاها ، فالدق أو التخبيط على باب الحديقة الخارجى قد لا يؤدى إلى نتيجة بل تكون النتيجة أن أرجع خاسئاً محسوراً .

وجدتها ...

وفى النهاية خطر لى خاطر صممت على تنفيذه وهو أن أذهب إلى اتجاه القاهرة مشيا ، فإن رأيت سيارة أجرة أو عربة خيل ركبتها وليكن ما يكون ، ومشيت فإذا بى عند محطة السكة الحديدية ، وإذا بقطار بضاعة كان واقفا لأمر ما ، فصعدت إليه وقبعت بين الأكياس وبعد دقيقة مشى القطار ولكن نحو السويس لا نحو القاهرة فانذعرت من عمى القلب الذى أصابنى ، وقفزت منه راجعاً إلى الشارع مستعيذاً بالله من عذاب هذه الليلة السوداء ، فقد مر ببالى بعض ما كان يصيبنى من بلاء لو سهوت لحظة واتجه بى القطار إلى السويس حيث تمتد معسكرات الجيش البريطانى على طول الصحراء ثم يقف أمام المعسكرات واحداً بعد الآخر لتفريغ ما يحمله إلى الجيش من عتاد وأغذية ثم قد تصورت أنهم عثروا علىّ وأنا هارب من صنائعهم ومنهم ، فيظنوننى جاسوساً وهناك الطامة الكبرى ، وكيف أستطيع أن أقنعهم ببراءتى وأننى غلطت بركوب هذا القطار ، وهل يعقل أن شخصاً عنده مسكة من عقل أن يركب قطاراً على سبيل السهو والغلط ؟ ومن هو ؟ إنه غريمهم الهارب من السجن والعياذ

= المؤيد ثم أصدر جريدة كوكب الشرق التى خدمت العالم العربى ونصرت قضايا الشعوب المظلومة جميعا ، ثم أصبح بعد أن اعتزل الصحافة عضواً بمجلس الشيوخ وعضوا بمجمع اللغة العربية ، وهو صديق وفى على جانب عظيم من مكارم الأخلاق وحفظ الوداد ونصرة الأصدقاء .

(١) هو القائد العسكرى الممتاز بجهاده القديم وعلمه الغزير واطلاعه الواسع ، فهو أحد الذين قادوا الجيش العثمانى سنة ١٩٠٩ حين زحف على استانبول وأنزلوا السلطان عبد الحميد عن عرش آل عثمان ، وكان المؤسس لجمعية العهد التى أعلنت حقوق العرب فى الدولة العلية مع بقائهم تحت ظلها ، وكانت آخر وظائفه الرسمية منصب « رئيس أركان الحرب الجيش المصرى » ولعزيز باشا تاريخ طويل عريض يستغرق كتابا بحجم هذا الكتاب على الأقل .

بالله . وحمدت الله كثيراً على أن ألهمنى الانتباه لحركة القطار وكيف اتجه ، وكيف أننى قفزت منه قبل استحالة القفز لو أسرع قليلاً فقط ، وفى الحقيقة أن جلدى قد اقشعر من تلك الخواطر المخيفة . وإذا بسيارة أجرة « تاكسى » قد مرت فركبتها وقلت للسائق « اذهب من فضلك إلى باب الحديد عند قهوة البوسفور أمام منزل الدكتور فلان » وسميت دكتوراً لا وجود له » وكان قصدى من هذه التعليمات المسهبة أن لايتشكك السائق بى وأنا فى ملابس غير معتادة وفى مثل ذلك الوقت المتأخر من الليل ، أو الوقت المبكر من الصباح .

ولما وصلت نزلت من السيارة ثم أخذت غيرها وذهبت إلى شبرا حيث يقع فيها منزل صديق العالم الفاضل الشيخ يوسف عبدالرزاق المشهدى أحدعلماء الأزهروالمدرس الآن بكلية أصول الدين وقد مر ذكره فى هذه المذكرات وخصوصا عند تقديم العريضة الكبرى إلى ديوان جلالة الملك فى قصر عابدين ، حيث كان الشيخ بارك الله فيه من موقعيها ومن الواضعين لها . ويقع منزل الشيخ يوسف بالقرب من منزلى ، فصعدت وطرقت الباب وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد منتصف الليل فإذا بالأستاذ يفتحه بنفسه فلما رآنى لم يعرفنى لأنه لم يخطر بباله أن أكون أنا الطارق، فبادرت إلى رفع النظارة عن وجهى وأسمعته صوتى فكاد يطير فرحا ثم أخذ يهنئنى بالسلامة ويسألنى كيف أطلقوا سراحى فذكرت له أننى هارب ...

كنت أظن الشيخ يوسف سيضطرب من هذا النبأ لأن إيواء الهاربين من الحكومات مما يسبب متاعب كبيرة ومخاطر كثيرة وتخريب البيوت، وخصوصاً فى أيام الحرب ، ولكن الشيخ يوسف لم يضطرب ولم يجزع بل ضاعف الترحيب وبالغ فى التكريم ، ثم أحضر لى طعاما وشايا فأكلت وشربت لأنى لم آكل

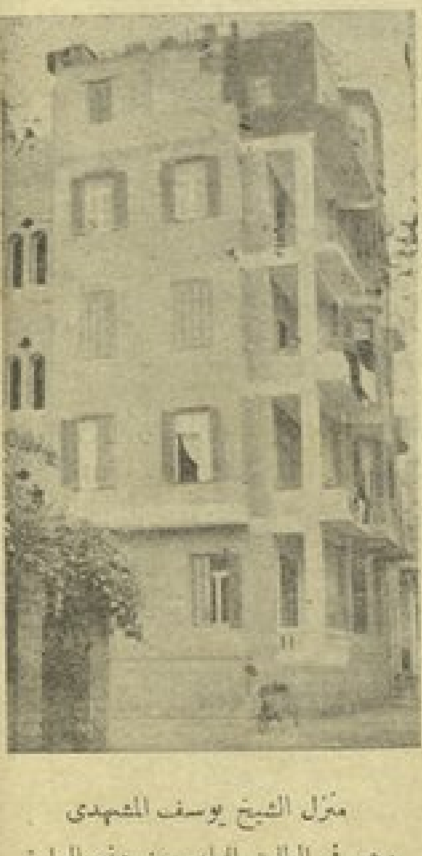

منزل الشيخ يوسف المشهدى
وهو فى الطابق الرابع من هذه العمارة

شيئا طول ذلك اليوم الذى قضيته مشغول البال فى التفكير والتدبير ثم فى الهرب ...

وعند الفجر استلقيت على الفراش ونمت إلى مابعد طلوع الشمس. ولما استيقظت وجدت الأستاذ قد جهز طعام الفطور فأكلنا ، ثم سألته ماذا قال لأهل بيته عن الذى طرق الدار بعد منتصف الليل فقال إنه ذكر لهم سببا اقتنعوا به ...

ماذا نصنع الآن ؟

جلست والأستاذ نتحدث عن المستقبل وما هو البرنامج ، فقلت له إننى أريد قضاء هذا اليوم عندك وفى المساء أغادر القاهرة إلى جهة أخرى ، ثم طلبت منه عمل الترتيب اللازم لتمضية ذلك النهار عنده ، لأن الدار مملوءة بأفراد الأسرة من بنين وبنات ، كما أن الدار عرضة فى كل لحظة لقدوم الزائرين له ، أو الزائرات لأهل الدار ، أو أرباب الحاجات ، فبادر الأستاذ إلى السماح للأسرة بزيارة دار والدها واعداد غداء هناك لضيوف سيتغدون هنا ، ثم كلفت الأستاذ أن يساعدنى على التنكر فأعطانى جبة جديدة وقفطانا حريريا جديدا فأبيت ذلك وطلبت كاكولة عتيقة وجلابية عادية وعمامه قديمة من المتروكات وحذاء أزهريا قديما لأن ارتداء الألبسة الرثة أوفق لى فى هذه الظروف فهى لاتسترعى النظر ، لاسيما وأنا مقدم على حياة خشنة صعبة لايقدر صعوباتها إلا من ذاقها وعاناها ، ويالهول من حياة الهاربين من الحكومة ، وخصوصا من دول الاستعمار ، ولا سيما إذا كان المطاردون من أبناء جنسه ولحساب الاستعمار ...

وبعد ذلك رجوت الأستاذ أن ينزل إلى السوق ويشترى لى بعض الأشياء ، ولم أنس السجاير . ثم رجوته أن يذهب ويزور صديقنا الشيخ إبراهيم إطفيش ويدعوه للغداء معنا « لمناسبة سارة » بدون أن يذكر له أنى هربت ، ولا أنى عنده ، وأن لايقبل له عذراً .

وغادر الأستاذ منزله بعد أن اتفقنا على أن أقبع فى إحدى الغرف أستمع للراديو وأشغل نفسى فى المطالعة بدون أن أرد على أحد ممن يطرقون الباب ، ولو كسروا الباب !

تفكير ورسم خطط

بقيت وحدى أعد الدقائق انتظارا لأوبة الشيخ يوسف . وأخذت أفكر . ياترى ماذا حدث فى المستشفى الليلة بعد فرارى ؟ وماذا قال المدير والأطباء والمرضى والزملاء

المحبوسين ، وماذا صنعت الحكومة ؟ وهل هاجموا دارى للبحث عنى فيها ؟ لاشك أنهم مجانين إن فعلو ، لأنه لايعقل أن أهرب منهم ثم أرجع إلى المنزل .

وسمعت جرس الباب يقرع فاقشعر بدنى لأنها أول مرة أسمع فيها جرس الباب يؤذن بأن هناك من يريد الدخول ، أو اقتحام المخبأ كما تصورت ! ولكنى لم أرد ، وظل الجرس يقرع فأخمدت الراديو وطويت الكتاب وأخذت أتسمع إلى أن شعرت بأن الطارق قد ضجر واقتنع بأن الدار خالية وأن أهلها فى الخارج فانصرف ؛ ثم سمعت وقع أقدامه تنزل الدرج ، وكم تمنيت رؤية الطارق الذى عاد بخفى حنين بعد أن روعنى وأرهف أعصابى .

ولم أكد أعود إلى المطالعة حتى دق الجرس ثم دق الباب نفسه ، فرجعت إلى الإنصات، ولكن بدون أن يعتريني هذه المرة شيء من الاضطراب والقلق اللذين شعرت بهما فى المرة الأولى ، ولكنى انزعجت على كل حال ، وبعد قليل سمعت وقع أقدام الطارق وهو يعود أدراجه وينزل. فتنفست الصعداء ، ورجعت إلى التفكير فى حالة أهل بيتى ... إن منزلى قريب من هنا ولو وقفت فى الشرفة لرأيت سطح دارنا إذ أنها لاتبعد عنى الآن أكثر من مئتى متر ، ولكن هيهات أن أطل برأسى من نافذة أو أقف فى شرفة ...

ثم رجعت إلى التفكير والتقدير ، وتلاحقت الأفكار والافتراضات بسرعة وكثرة ، فإذا بالباب يدق والجرس يقرع فلعنت الباب ولعنت الجرس ولعنت هؤلاء الذين يطرقون أبواب الناس طول النهار ، وأخذت أنصت ثم تجرأت وتلصصت واقتربت من باب الصالون الموصل إلى الدرج وهو غير باب المنزل ، لأرى من الناحية الأخرى من هو هذا المشئوم الذى جاء ينغص علىّ عزلتى ؛ فإذا به « مبيض النحاس » ولما يئس من الجواب انصرف ... ثم اندق الباب من جديد فتطلعت من خرق المفتاح فإذا به « المكوجى » يريد أخذ الملابس لكى ، ثم انصرف ، وقد تكرر دق الباب بعد ذلك أربع مرات أخرى وأنا لا أرد ولا أتحرك لهؤلاء الملاعين الذين هزوا أعصابى التى لم تعتد مثل هذا العذاب ...

ماذا جرى فى المستشفى وفى منزلى ؟

أظن أنه قد أصبح من حق القارئ أن يعرف ماذا جرى فى المستشفى وما حدث فى الدار بعد هربى . صحيح أننى لم أدر عما كان إلا بعد مدة طويلة ، ولكنى أفضل أن أقصه الآن حتى لايطول الانتظار ، فقد بلغنى أن الجنود فتشوا المستشفى كله ، داخلا وخارجاً وقد كتموا الخبر عن ولاة أمورهم على أمل العثور علىّ ، وظلوا يبحثون حتى مطلع الشمس ، ولما يئسوا ، وقع بينهم ما توقعته من بحران ومن إلقاء بعضهم المسئولية على بعض ، إلى آخر ماتخيلته وسردته آنفا ، وبعد ذلك أبلغوا إدارة البوليس العامة وهذه أبلغت إدارة الأمن العام ووزارة الداخلية ورئيس الوزراء الذى غضب وشخر ، ولعله سب الشمس والقمر ...

وهرع بوليسهم إلى المستشفى يحقق ويدقق ، وكان أهل المستشفى من المدير والأطباء إلى المرضى والممرضين قد تمنوا لى السلامة وشمتوا بالحكومة التى تحبس الناس بلا سبب إلا إرضاء الإنكليز !

وقد انحصرت المسئولية فى الجندى سيد حسن البلاح ، فقبضوا عليه ثم حاكموه وحبسوه ستين يوماً أعانه الله . وأما حوادث منزلى فقد طرقوه فعلا وما أقل عقولهم ، وكان من ضابط البوليس المعهود محمد يوسف أنه استدعى زوجى إلى إدارة الشرطة وحقق معها كأنها مسئولة عنى قانوناً أو كأنها كانت موكلة بحراستى من الهرب ، وهم لذلك يحققون معها !! وقد بلغنى أن هذا الرجل كان غير مهذب فى تأدية مهمته الكريهة ، لأنه أخذ يهدد ويطيل لسانه على أعداء الدولة كأننى عدو للدولة ، ولكنى أعذره لأنه يعتبر الدولة التى يغضب لها هى دولة الإنكليز ...

وبعد أن روعوا زوجى أحاطوا الدار بجواسيسهم فوضعوا (مخبراً) عند الباب يجلس ليلا ونهارا مع البوابين كأنه منهم ، وكم تضايقوا منه ، كما أجلسوا جاسوسا فى قهوة مقابلة للنوافذ ، ووضعوا مخبرا ثالثا فى القهوة المقابلة للواجهة الجنوبية ، وبذلك حاصروا الدار وأخذوا ينتظرون أوبتى إليها ، فما أسخف هذه الوسائل ، نعم لأنها أساليب بدائية عتيقة ساذجه ، وإلا فهل يعقل أن مثلى يدبدب حول الدار فى هذه الظروف ...

ثم لجأوا إلى وسيلة مضحكة وهى أن ضباط الشرطة طافوا على جميع المنازل فى العمارة التى نسكنها وفيها أكثر من أربعين شقة يسكنها أربعون عائلة ، وأخذوا تعهداً مكتوباً من كل أسرة فى العمارة بأن تخبر أقرب مركز بوليس عنى بمجرد رؤيتى أو شعورهم بأنى موجود فى العمارة !

ثم دفعهم السخف إلى ماهو أغرب وأدعى للسخرية ، وذلك أنهم طلبوا من زوجى أن توقع لهم مثل هذا التعهد البديع ! فلم يسع زوجى إلا الابتسام من هذا التكليف ، وقالت للضابط هل يعقل أن أخبركم بمجىء زوجى إلى المنزل وأمكنكم من القبض عليه ... والظاهر أن الضابط كان أعقل من رئيسه الذى كلفه بهذه المهمة ليقوم بها بكل همة ! فقد ابتسم وقال والله ياسيدتى عندك حق ولكنهم أمرونى بذلك فأرجوك أن تمضى على هذا التعهد ولا بد من ذلك ، ولما كانت زوجى قد عرفت من التجارب التى مرت بنا أن البوليس فى بعض الأحيان يكون لاعقل له ، فقد أمضت على الورقة وهى تبسم ساخرة وانصرف الضابط بأوراقه ، بينما كان سكان العمارة يستهزءون من هذه الإجراءات ويتندرون عليها ويقول بعضهم لبعض والله لو جاء فلان لأخفيناه عندنا .

عودة الشيخ يوسف

ولنرجع إلى ما كنا فيه ، فقد بقيت فى دار الشيخ أنتظر أوبته وباب الدار يطرق من حين إلى آخر وأنا لا أرد حتى ضجرت من كثرة الطارقين والطارئين فضاق صدرى وهاجت أعصابى وحلفت فى نفسى بأن باب هذه الدار ما شاهد مثل طراق اليوم فى كثرتهم . وجاء الفرج بغتة وسمعت صرير مفتاح الباب وإذا بالشيخ يوسف يدخل فرحبت به ترحيب الشقيق بالشقيق بعد طول الغياب ، ثم سألته عن مهمته ، فقال إن كل شىء يجرى على مايرام وأن الشيخ ابراهيم إطفيش قادم إلينا بعد ساعة ليتغدى معنا . ففرحت ثم قصصت على الشيخ يوسف حوادث باب الدار وأنه اندق نحو عشرين مرة ، فضحك وقال إنها مصادفة غريبة لأن باب داره لم يندق بهذه الكثرة حتى ولو جمع دقات أسبوع كامل .

حادث ...

وهنا قرع جرس الباب وسمعنا وقع أقدام لأكثر من شخص واحد ، فبهتنا ولم يسع الشيخ أن ينكر نفسه بأن يمسك عن الرد لأنه دخل العمارة الآن وقد يكون هؤلاء الناس قد رأوه وهو قادم ، أو أن أحد أطفال الحارة قد رآه ولما سأله القادمون قال لهم إن الشيخ يوسف قد صعد الآن ، إذن فلابد للشيخ من فتح الباب وأن يقابل القادمين ، وأما أنا فقد ذهبت إلى الصالون ، فتصدرته وأنا بالعمامة والكاكولة ، وأما الشيخ فقد فتح الباب وسمعت رجلا يقول له إنهم يريدونك فى «الكركون»..أى مركز البوليس والعياذ بالله . وسمعت الشيخ يغلق الباب الخارجى ويغادر الدار معهم، فجمد دمى ووقف تنفسى ، ثم تطلعت من شق النافذة فإذا بالشيخ يوسف يسير فى الشارع ومعه رجل بوليس ورجل معمم، فلم أشك فى أنه شيخ الحارة.

ماذا يراد بالشيخ يوسف ؟ أهناك شك حصل عندهم فأرادوا أن يسألوه ؟ ولكن لماذا لم يهجموا على الدار كعادتهم عند التفتيش على الهاربين ؟ حقاً إن هذا الخاطر قد أعجبنى وخفف عنى ، وبعد ساعة كانت أطول من الدهر رجع الشيخ يوسف فسألته ما الخبر ؟ فقال إنهم ينذروننى بوجوب تسديد ضريبة الراديو ... فقلت لعنة الله على الراديو وعلى تصرفات « الميرى » الحمقاء التى نشفت دمنا اليوم بسبب مسألة تافهة ، وإلا فهل من المعقول أن يطالب إنسان بضريبة الراديو أو غيره بواسطة الجر إلى مركز البوليس !

مباغتة

لم يعرفنى الشيخ إبراهيم إطفيش حين وصل إلى الدار ليتغدى معنا ، مع أننى وقفت له عند وصوله وسلمت عليه باليد ورحبت به ، ثم جلس وجلست ، وهنا سألنى هل حضر بقية المدعوين فقلت له لم يصل أحد بعد ... جرى كل ماتقدم بدون أن يخطر ببال الشيخ إبراهيم أن الذى يرحب به ويحدثه هو صديقه الحميم أبو الحسن. لقد إطمئننت على نفسى لما رأيت أن أقرب الناس إلىّ لم يعرفنى وأنا بهذا التنكر البسيط البدائى ، فكيف يكون الحال عند ما يأخذ شكلى طابع المشايخ وتستدير لحيتى ؟

عند ذلك رفعت النظارة عن وجهى ، وحدثته فلم يلحظ جديداً ، وله العذر لأنه يعرف أننى فى السجن وكيف يخطر بباله أننى خرجت ولبست العمامة والجبة وأننى الذى يحادثه؟ وأخيراً حملقت فى الشيخ إبراهيم وقلت له ألم تعرفنى بعد؟ فتطلع إلىّ جيداً بعد أن سوى نظارته وصاح (أبو الحسن) ثم هجم علىّ يقبلنى ويعانقنى ويهنئنى بالسلامة ويسألنى عن حالى وأنا أجيبه فلما عرف أننى هارب ازدادت عنايته بى وأقسم لى أنه وآل بيته كانوا يدعون لى بعد كل صلاة ، وها أن المولى سبحانه وتعالى قد استجاب لهم وأنقذنى من القوم الظالمين. وهنا عاد الشيخ يوسف وجلس معنا. وجاء الطعام فتغدينا غداء سخيا جيداً لم أذق مثله منذ شهور. وأخذنا بعد الطعام نسمر حتى الغروب ، وبعد ذلك ودعت الشيخ يوسف فقال إلى أين؟ فقلت إلى أرض الله الواسعة التى ضاقت بى اليوم، وأننى سأنام عند الشيخ إبراهيم وفى الصباح سأقصد الريف، فقال وكيف نطمئن عليك؟ فقلت لن أعدم وسيلة أطمئنك بها عنى. وتركت البالطو والحذاء الافرنجى عند الشيخ يوسف ، وأما البيجامة فقد أبقيت عليها ولبستها تحت الجلابية وأما الطاقية فقد جعلتها فى عبى . وغادرنا دار الشيخ يوسف فأبى إلا أن يصحبنى إلى الشارع ثم نادينا سيارة أجرة فركبت ومعى الشيخ إبراهيم وقصدنا حى القبة .

الجندى المنكوب وشكر العجاتى بك

وقبل أن أغادر منزل الشيخ يوسف طلبت ورقة وكتبت إلى الدكتور أحمد العجاتى بك مدير مستشفى الدمرداش كتاباً شكرته فيه على حسن رعايته لما كنت عنده فى دار الشفاء، وانى آسف لعدم تمكنى من شكره شخصياً لكونى لم أخرج من المستشفى كما يخرج بقية الناس من المستشفيات ... وقلت له إننى عند رجوعى من خارج القطر المصرى سيكون من أول واجباتى القيام بزيارته وتحيته، ثم رجوته إن استطاع أن يطمئن الجندى سيد حسن الملاح بأنى سأعوض عليه يوماً ما بعض مايخفف بلواه وأما الآن فلا أملك له إلا الدعاء، وقد وضعت هذا الكتاب فى غلاف ووضعته فى صندوق البريد .

عند السيد العتابى

وقبل أن نصل إلى المنزل ١٠٦ فى شارع الملك صرفنا السيارة ومشينا إلى دار السيد محمد

العتابى ناظر تكية الكلشنى نزيل مصر وهو صديق ومن أجلّ علماء مراكش وأعيانها فأردت أن أسر خاطره بسلامتى لأنه كان يدعو لى فى أيام سجنى ، بل أنه أوعز أيضاً إلى جميع نزلاء التكية من الزهاد العبّاد والصالحين بالدعاء لى وتلاوة سورة «يس» مئة ألف مرة.

ولما وصلنا الدار طلبت من الأستاذ إطفيّش أن يسبقنى ويستطلع من يزور السيد فى تلك الساعة ، فعاد ومعه الأستاذ العتابى الذى عانقنى ورحب بى وهنأنى بسلامتى فسألته عمن عنده فقال هناك الأستاذ محمد الههياوى « رحمه الله » وإن شئت أن لا تقابله فنحن نجلس فى غرفة أخرى ، فقلت بل نجلس مع الههياوى فهو صديق قديم وسيسر بسلامتى بلاشك . ودخلنا وشربنا القهوة مع الههياوى بدون أن يعرفنى فازداد سرورى بإتقان تنكرى ثم رفعت النظارة ووضعت العمامة عن رأسى وحييته فعرفنى وقام فعانقنى وهنأنى بالسلامة ثم سألنى عن حالى فقصصت عليه قصة الهرب مختصرة وأننى الليلة سأغادر الأراضى المصرية وكنت قد تفاهمت مع الأستاذ إطفيش بأننى أنوى النوم الليلة عنده وأنه يحسن به أن ينصرف الآن ويسبقنى إلى داره لأنى لا أريد أن يعرف أحد كيف أسير مطلقاً مهما بلغت درجة صداقته لى ومهما كان موثوقاً به .

وانصرف الشيخ إبراهيم وبعد ساعة نهضت لوداع الصديقين ، فعزما علىّ بالنوم عندهما فشكرت لهما ذلك الفضل ، وغادرت الدار فصحبنى المرحوم الههياوى حتى محطة سكة حديد المطرية، فقال إلى أين؟ فقلت إلى مصر الجديدة أولا، فودعنى وهو يبكى رحمه الله . لقد فضلت الخروج من هذا الاتجاه لأنه لا يخطر ببال البوليس أننى أسلكه فى خروجى من العاصمة ، فهو قد طوق محطة مصر الرئيسية ، وطريق شبرا إلى الريف. وطريق الفيوم جنوباً . فتركته يرسم خططه المعتادة وسلكت هذا الطريق غير المطروق ، والظاهر أننى أصبت فى هذا الاختيار لأنى أستطيع أن أنفذ منه إلى جميع أنحاء القطر مع وجوب تجنب منطقة القاهرة

عند الأستاذ إطفيش

قضيت ليلتى الثانية بعد الهرب فى دار الشيخ إبراهيم ، نخصص لى سريره فنمت إلى الفجر وفى الصباح الباكر غادرت داره وأنا لا أدرى إلى أين أذهب ولا إلى أين

مشيت بين منازل المطرية ومزارعها وكانت كل المخلوقات تتمتع بجمال ذلك الصباح الربيعى الباسم إلا أنا، لأنى كنت أمشى خائفاً أترقب، أخاف الوقوع فى يد الشرطة، وأخاف وقوع عين أحد علىّ ممن يعرفوننى، حتى لا يغلط أحدهم بحسن نية ويقول للأصدقاء لقد رأيته فى الاتجاه الفلانى وهو فى الزى الفلانى، فيصل النبأ إلى الأعداء، وكم للأصدقاء من غلطات تنفع الأعداء ...

العلامة المجاهد الشيخ
إبراهيم إطفيش الجزائرى

واتجهت نحو منطقة عين شمس، ومررت بدار صديق عزيز على المصرى باشا المجاهد الشهير وصاحب التاريخ العريض فحسدته على اطمئنانه فى داره ثم شكرت الله على عدم إزعاج الاستعمار له فى هذه الحرب كما أزعجه فى الحرب العظمى الأولى ونفاه إلى أسبانيا، بعد أن فلت من الإعدام بأعجوبة سنة ١٩١٤ على أيدى الاتحاديين فى استانبول.

مرت بذهنى هذه الخواطر وأنا لا أدرى أن عزيز باشا فى محنة أخذت تهب عليه وأنه فى قلق من المستعمرين، وأن هناك عاصفة ستثور فى سماء حياته فيذوق منها أشنع مما أعانيه. ثم واصلت السير شرقا فإذا بى فى منطقة المرج، وكانت المقاهى ودكاكين مطاعم الفول المدمس فى تلك الناحية قد فتحت أبوابها، فملت إلى إحداها لأتناول شيئا فإذا بى أعرف صاحب الدكان وكان منذ سنين يبيع حلوى وبسبوسة بجهة (سيدنا الحسين) بالقاهرة، فلما وقع نظره علىّ كاد ينادينى ولكنه لم يتذكر اسمى بل تذكر وجهى. وأما أنا فقد تركته وانعطفت بسرعة إلى حارة جانبية قبل أن يتذكرنى، ولذلك لم أترك له الفرصة الكافية لاستجماع شتات فكره، فغبت عن نظره فى لحظة وأظنه قد نسينى بعد دقيقة واحدة، إذ لا يوجد أية علاقة بيننا تجعله يفكر بى مرة أخرى.

ودخلت قهوة بلدية فاسترحت وإذا بباعة الصحف ينادون على الجرائد فاشتريت واحدة وأخذت أطالع أخبار الحرب، وأما أخبارى أنا فلم يخطر ببالى أن تنشرها الجرائد بهذه السرعة كما أنى على يقين من كون الصحف لن تذكرها وهذا مما أحمد الله عليه، وإلا

لضايقنى فضول الناس ولصرت أخاف من خيالى وأتصور أن جميع الخلق يحملقون بى وأنهم يتربصون بى الدوائر ...

وبدأت قطارات سكة حديد المطرية تسير إلى القاهرة وتعود منها ، وراحت سيارات الأتوبيس الريفية تنطلق فى طرقها المرسومة ، فركبت إحداها ونزلت فى « أبى زعبل » فإذا بى والعياذ بالله فى منطقة السجون والليمانات التى يسجن فيها كبار الأشرار من المجرمين المسلسلين بالحديد ومعظمهم لا أمل له بالخروج من ذلك السجن إلى الأبد ولن تنفك القيود من أرجلهم والأغلال من أعناقهم إلا على يدى الغاسل ، فانقبض صدرى وتشاءمت من هذه المصادفة ولعنت الساعة التى مررت فيها من تلك الناحية المقيتة المروعة للمطمئنين فكيف للهاربين ...

إلى أين . . .

وهرولت مبتعداً عن تلك المنطقة التى تشبه جهنم فى جوها ووجوه أهلها وحالة سكانها، وماأنقذنى منها إلا قطارحديدى يتجه نحوشبين القناطر ، فركبته مندسا بين العمال والفلاحين فوقع نظرى على جماعة فى القطارمن المساجين وهم بألبستهم المزرية الخشنة مكبلون بالحديد ، فكانت هذه القيود تزيد السجين بلاء فوق البلاء الذى هو فيه ، فتعجبت من مصادفات هذا اليوم التى سودت الدنيا كلها فى عينى ؛ فلعنت هذا الإنسان وقسوته مع أخيه الإنسان ، فكأنه لاعمل لهذا الكائن الشرير إلا الأذى والبطش بعضه ببعض ...

ونزلت فى بلدة شبين القناطر وتجولت فيها لعلى أجد موئلاً أو مستقراً ولو لمدة يومين ، ولكنى لم أجد فيها ما يصلح للاستقرار ساعة واحدة . وإذا بسيارة أتوبيس متجهة إلى الزقازيق فركبتها ، ولما وصلت مشارف المدينة غادرت السيارة حتى لا أنزل فى محطة السيارات الرئيسية فأصادف وجوها ينبغى الفرار منها ، وبعد مسير نصف ساعة دخلت المدينة فإذا بى أمام مكتب التلغراف ، فقلت فى نفسى لماذا لا أبرق إلى الشيخ ابراهيم إطفيش والشيخ يوسف بأننى نجوت ؟

الشيخ محمد الناجى

ودخلت مكتب التلغراف ، فأخذت ورقة وبدأت أسطر بقلمى الفضى ما أريد إرساله للشيخين، ثم خفت أن يلحظ الوظفون ذلك القلم الثمين فيستكثرونه على مثلى فابتعدت عنهم . ولكن ماذا أقول فى البرقية ؟ فكرت طويلا ثم اهتديت الى النص الآتى : (الأستاذ إطفيش بدار الكتب بمصر ـ وصلنا بالسلامة . نشكركم والشيخ يوسف على ضيافتكم) .

ولكن الإمضاء كيف يكون ؟ إننى لم أتفق معهما على اسم معين ، فيكف أصنع ؟ وأخيراً ألهمنى الله اسم (الشيخ محمد الناجى) لمناسبة ذلك لحالى الحاضر ونجاتى من المستعمرين ثم سلمت البرقية ودفعت أجرتها وانصرفت إلى المدينة وهى كبيرة وعاصمة مديرية غير أنها فى حالتها الاجتماعية والعمرانية تساوى قرية ضخمة لا مدينة ذات مدنية ، ثم مشيت فى الحارات والدروب الجانبية متنكبا الشارع العام بقدر الطاقة ، وبعد قليل وجدت نفسى أمام دكان حلاق قذرة وقد وقف صاحبها بالباب وهو مثلها فى قذارة ملابسه وفى شكله . فطلبت أن يسوى لحيتى بأن يرسمها بالموسى استعداداً لإطلاقها ، وكنت من يوم التفكير بالهرب لم أمسها فساعدنى ذلك على وجود أساس لحية خفيفة ستغدو كثة بعد أيام أخرى ، ولما غادرت الحلاق قصدت إلى فرن بجواره فاشتريت خبزاً ثم ملت إلى بقال فاشتريت جبنا وذهبت إلى قهوة بلدية تصلح لمثلى فطلبت شاياً وأكلت بشهية شديدة . وفى خلال ذلك نويت أن أقصد مدينة المنصورة فهى أصلح من الزقازيق من جهات كثيرة وكنت أعرفها من قبل ، وهى مدينة عظيمة متحضرة يجد فيها الإنسان أسباب الراحة، وانطلقت إلى محطة سيارات الأتوبيس فوجدت واحدة قديمة مهلهلة مسافرة إلى السنبلاوين أقرب مدينة إلى المنصورة فركبت بين الفلاحين وقففهم ومشناتهم ودجاجهم وبين جلبتهم وصياحهم وتشاتمهم ... وكانت السيارة تقف فى كل قرية وتطيل الوقوف بسبب وبلا سبب، فما وصلنا السنبلاوين إلا بعد ثلاث ساعات ولو كانت السيارة غير هذه لقطعتها فى ساعة واحدة .

ولما وصلت السنبلاوين خطر لى أن أقضى يومى وليلتى فيها ، فأخذت أتجول وأستطلع حالها ولكنها لم تعجبنى من نواح كثيرة ، ويكفى سماجة صاحب لوكاندة هناك كان يقف فى الشارع عند الباب فما كاد يرانى من بعيد أتطلع إلى فندقه حتى صاح أمام أهل الشارع وجلاس

القهوات (تعالى يا أستاذ اتفضل ، هذه لوكندة على كيفك اتفضل !) فلم يسعنى إلا غض النظر عنه وعن فندقه وسرت فى طريق نحو محطة السيارات فركبت إلى المنصورة .

شك وارتياب مزدوج

ولما سارت السيارة فى طريقها أخذت أسترق النظر إلى الركاب وألقى السمع إلى أحاديثهم حتى إن شككت بأحد أو لحظت أن أحداً منهم يرتاب بى غادرتها فوراً . ولكنى لم ألحظ شيئاً يريب ، سوى أن جارى همس فى أذن رفيقه فهز رأسه موافقاً ثم نظر إلىّ وسكت ، ثم سمعت كلمة ...

إن الذين يلبسون الملابس الافرنجية يظهر على رقابهم وأعناقهم خط فاصل يفرق بين لون الرقبة والعنق من فوق الياقة ومن تحتها ، فإن لبس الإنسان بعد ذلك الملابس البلدية وهى لا ياقة لها ظهر ذلك « الحز » جلياً فلا يشك الناظر إليه بأنه « بلدى » جديد إبن ساعات . كنت أظن فى أول الأمر أن جارى لما « وشوش » رفيقه وهز هذا رأسه قد قال له إن هذا الشيخ متنكر وهارب ... ولكن لما لفظ الكلمة التى سمعتها اغتبطت فى نفسى ، لأنه كان يقول عنى لرفيقه « إنه مخبر » أى إنه ظننى رجل بوليس متنكر ، والظاهر أنه كان لهما شأن مع البوليس تخافامنى لأنهما غادرا السيارة فى مكان لا أثر للعمران فيه . وبذلك استرحت منهما واستراحا منى !

سيارة ريفية ، ولكنها جيدة بالنسبة إلى غيرها ...

مباغتة ...

وصلت المنصورة وكانت الدنيا قرب العصر ، فاسترحت فى أول قهوة عند مدخل المدينة وبعد ذلك تغلغلت فى نواحيها . وهى مدينة فخمة مكملة يوجد فيها كل شىء وفيها من الناس من يلبسون جميع الأشكال والأزياء والألوان ، فهذا شيخ وذاك أفندى وهذا خواجه وهذا ابن بلد، وكانت كثافة السكان تساعد الإنسان على أن يغطس بينهم فلا يسترعى حاله نظر أحد.

وكنت فى حاجة إلى نقود صغيرة فدخلت مكتب البريد واشتريت بعض الطوابع وأبرزت ورقة بخمسة جنيهات فأخذها الموظف ودسها فى الدرج ثم أخذ يعد بقية النقود ويقول لى بدون أن يرفع بصره إلىّ « ازيك يا أستاذ؟ هل أنت مبسوط على كده ؟! » فكدت لشدة دهشتى من هذه المباغتة أن أقع على الأرض، ولكنى تمالكت نفسى وضبطت أعصابى وسكت لأنى لم أقو على الجواب ، فقد عرفنى الرجل ، ما فى ذلك شك ، وإذن فتنكرى كان مفضوحاً. وهاهو موظف البريد قد عرفنى من أول نظرة ، ولعله كان منقولا من بريد القاهرة ويعرفنى هناك ! وبينما كنت فى حيرتى القاتلة هذه . إذا بالموظف البريدى يرفع رأسه ويتأملنى ثم يقول «عفواً يا سى الشيخ أنا ظننتك الشيخ هنداوى» فقلت له وقد اطمأن خاطرى المضطرب «إن الله قادر على كل شىء وهو يخلق من الشبه أربعين» فهز صاحبنا البريدى رأسه موافقاً ، لأنى أنقذته من حرج بعد أن أنقذنى من فزع !

غادرت دار البريد وأنا ساخط على تلك المصادفة وعلى الشيخ هنداوى الذى يشبهنى وكان السبب فى تعكير دمى . ولكن لا، بل حيا الله الشيخ هنداوى الذى لولاه ولولا اشتباه موظف البريد لما ظفرت بهذه الشهادة الطيبة التى أثبتت لى إتقان تنكرى اتقاناً جعل الناس يظنوننى سواى ، فمشيت فى طريق وأنا أفرك يدى مسروراً مغتبطاً ...

ولكنى بقيت أفكر فى إخفاء «الحز» الذى خلفته لى مع الزمن ياقة القميص الافرنجى العالية ، فهى الدليل الوحيد على أنى لست شيخاً وإنى « أفندى » يلبس الملابس البلدية ، وإذا كان صاحبنا فى أتوبيس السنبلاوين قد ظننى مخبر بوليس متنكر فى زى شيخ، فمن يضمن لى غداً أن يظن سواه أننى موظف مختلس أو قاتل هارب من القضاء والشرطة ومتنكر بلباس

الشايخ ؟ لقد أزعجني هـذا الخاطر فما ترددت عن الذهاب إلى أقرب دكان اشتريت منه شالا مما يلفه المشايخ حول أعناقهم ويسبلونه على أكتافهم، ومررت بدكان فيها مرآة فرأيت نفسي فيها فوجدت أن تنكري أصبح أتقن مما كان، بل أنني كدت ألا أعرف نفسي إذ أنها أول مرة أرى فيها نفسي بلباس المشايخ الذي لبسته من أمس فكدت أطير فرحا ...

هكذا كان شكلي عند الوصول إلى المنصورة ، وأما الذي يقف بجواري فهو الدكتور يعقوب خوري وقد مر ذكره

عند السيد نسيب شهاب (١)

على أن نجاحي في التنكر لم يقنعني كثيراً ، لأن حوادث اليوم وحملقة بائع الفول في وجهي عند محطة المرج ، والظن الذي ساور جاري بسيارة السنبلاوين جعلاني أزداد حذراً، ولذلك قررت أن لا أبيت في المنصورة ، حتى لا يصادفني قرد من قرود بني آدم فيعرفني وما كل مرة تسلم الجرة ...

(١) هو المجاهد السوري الشهير في ثورة سورية سنة ١٩٢٥ وقد نزح بعد الثورة إلى مصر واشتغل بالزراعة ثم عين مفتشا لشركة أراضي الغربية واعتزل الناس والدنيا كلها ؛ ولما عن عنه تزوج بآنسة فضلى من آل اليكفاني في بيروت ثم عاد بها إلى وظيفته في تلك الجهات النائية ، ولما تشكلت الجمهورية السورية عين سكرتيراً لمفوضيتها بمصر ثم قائما بأعمال الوزير المفوض ، ولا يزال إلى الآن يشغل هذا المنصب الذي هو دون استحقاقه . ولكن ماذا يصنع الإنسان في هذه الدنيا المعوجة المعكوسة المنطق مع المجاهدين إذ يقطف ثمرة جهادهم ويتمتع بنتيجة تضحياتهم من لا يستحقون إلا الحرق! ولكن مما يعزي المجاهدين أن الدنيا كلها هكذا مع المخلصين، ويكفيهم فخراً وخلوداً أن أهل الإنصاف يقدرونهم ويجبرون خواطرهم بالكلام الطيب ففيه بعض العزاء ...

إذن فيها إلى تمضية بضعة أيام عند نسيب شهاب صديق الحميم وأخي الوفي . وكان على حد علمي يقيم في (رأس الخليج) وهي محطة على الخط الحديدي باتجاه دمياط ، فركبت سيارة شربين على أن آخذ أخرى إلى رأس الخليج ، وإن تصادف مرور قطار حديدي ركبت فيه ، وكان بجواري في السيارة رجل ابن حلال من أهل شربين أخذت أحدثه وأسترشد بمعلوماته عن تلك المناطق ، ولما وصلت إلى شربين نبهني الرجل إلى وجوب الاستعلام بالتليفون قبل أن أذهب إلى رأس الخليج ، وهو إلهام من الله ألهمه هذا الرجل الذي لولاه لتعبت وتنغصت كثيراً .

وذهبت إلى مركز تليفون المحطة ولم أكن أعرف الاسم الكامل للشركة التي يعمل فيها نسيب ولا رقم تليفونها ، ولكني وجدت في الدفتر عدة أرقام لشركات الأراضي فطلبت إحداها فإذا هي التي أريدها فطلبت محادثة نسيب بك فرد عليّ بنفسه ، وكانت مصادفة عجيبة من جميع النواحي ، لأنه اتضح أن نسيب يقيم في قرية (كفر الوسطاني) على بعد نحو عشرين كيلو متراً عن محطة رأس الخليج وكان من حسن الحظ كذلك أن خط التليفون كان مفتوحاً من مكتب الشركة برأس الخليج إلى المنزل الذي يقيم فيه صديقي بالوسطاني وأنه كان بجوار التليفون وهو في داره بالقرية ؛ فكان ذلك كله نادراً ، فلو اختل شيء من هذه المخابرة التليفونية المتسلسلة لاختل كل شيء في مجرى رحلتي فكأن جميع الظروف كانت معدة ومهيأة لتسهيل أمري فحمدت الله .

لما سأل نسيب عن اسم الذي يكلمه تحيرت ، ويجب أن أجاوبه بسرعة ، وأن أختلق اسماً ، وأن أبت في ذلك بلمح البرق ، فجرى على لساني اسم نسيبي السيد محمد سليم البزري « رحمه الله » لأنه من صيدا وهي نفس بلد نسيب ، وقلت له إنني مار بسيارتي الخاصة من جواره وأريد أن أجتمع به لأمر هام ، فوصف لي المكان الذي هو فيه وأنه قرية كفر الوسطاني وأرشدني إلى طريقها ، فاستأجرت سيارة خاصة لأضمن الرجوع فيها إن وجدت الظروف غير ملائمة عند نسيب ، ولا سيما في تلك المناطق البعيدة عن الدنيا لأنها في أقصى الشمال من القطر المصري وعلى بعد كيلومترات قليلة من البحر المتوسط ، وسارت السيارة

فى طريقها ، ولما أصبحنا فى أرض منقطعة أخذت أفكر ، كيف يعيش صديق هناك وهل عنده مكان يمكن المبيت فيه ، وهل يوجد بين مرافقيه أو زملاء الوظيفة من يعرفنى؟ ولكن المهم هو اللقاء وكيف يكون، فلو فرضنا أنه قابلنى بحضور بعض الناس فكيف يستقبلنى وهو يرى أن القادم هو أناوليس السيد محمد سليم البزرى ؟ ثم يرانى بعمامة وجبة ولحية وهو خالى الذهن من ظروف ؟

كانت هذه الخواطر تقلقنى وتشرد ذهنى ، وأما السيارة فكانت ماضية بى فى طريقها ، وبعد نصف ساعة وصلت السيارة إلى القرية ووقفت أمام حديقة يتوسطها منزل فخم فأوقفت السيارة على أن تنتظر الإذن بصرفها أو ترجعنى معها بأجرة جديدة، فكان السائق يدعوا الله بأن أعود ! وكان أخشى ماأخشاه أنا هو أن أعود ! لأن معنى ذلك إننى لم أجد المأوى المنشود ! كانت الدنيا فى ساعة المغيب عندما دخلت الحديقة ، وكان قلبى يخفق ويلهج بالابتهال إلى الله بأن لا يكون هناك أحد مع صديق ، ولما اقتربت من المنزل وجدت نسيب يتمشى فى الحديقة منفرداً وهو يدفع عربة الطفلة التى رزق بها منذ عام ، فكدت أطير فرحاً .

ولما صرت أمامه وجهاً لوجه حييته وهو مندهش من رؤية شيخ يقبل عليه ، بينما كان ينتظر السيد محمد سليم وهو يعرفه أفندياً بالبدلة والطربوش ، ولكن لما اقتربت منه رفعت النظارة عن وجهى ونزعت العمامة عن رأسى فعرفنى وأقبل علىّ يعانقنى ويقبلنى ويرحب بى وقد فهم كل شىء ... ولما اقترب منه الخادم صاح فيه : هات شاى ياولد لأستاذنا الشيخ سليم ...ومن يومها وأنا فى جهة « كفر الوسطانى » وحدها أدعى بالشيخ سليم !

عند ذلك أوعزت بصرف السيارة وجلسنا وحدنا نتحدث ، وبعد تناول الشاى أمر بتجهيز العشاء ، وذهب إلى أهل بيته فأخبرهم ثم استكتمهم على أن تقول السيدة للخدم ولمن يزورها إننى من أقاربها جئت للزيارة. وبعد ذلك جاءت بنفسها باشة مرحبة متهللة وقد أكرمت مثواى، ولو كانت سيدة سواها لأصابتها نوبة فزع من زائر مريب هارب من السجن سيسبب لها ولزوجها ولطفلتها نكبات ومصائب لانهاية لها ...

نظرة حول المكان

كانت الدار التى يقيم فيها نسيب هى الوحيدة التى تستحق أن تسمى داراً . ففيها جميع

الدار التى كان يسكنها نسيب ، وقد ظهر وهو يطل من الشرفة

أسباب الراحة . ويقع فى جوارها منزل آخر مستقل هو دار الضيافة للشركة ، وهى عبارة عن « شاليه » ذات غرف صغيرة وفى كل واحدة سريرها وأدواتها ، وتبعد الدار والحديقة عن القرية نحو دقيقتين فقط .

دار ضيافة شركة الأراضى وهى التى كنت أنام فيها وأحياناً أختلى بإحدى حجراتها

سهرت مع الأخ نسيب ما شاء الله أن نسهر ، وكان موضوعنا فى تلك الليلة يدور حول الحياة المقبلة ودرس شخصيات الموظفين عنده ، ففلان مدير المخازن صفته كذا وعقليته كذا ، وفلان محاسب الشركة صفته كذا وعقليته كذا ، وفلان المفتش العام يجىء من جهة كذا وينصرف فى الساعة الفلانية . ولكن هناك شخصية تستحق أن تقف عندها لوصفها ودراستها ...

قال نسيب : إن سلفه فى الوظيفة وهو صديق له أيضاً قد آثر البقاء فى هـذه القرية بعد أن استقال ، وأنه يجىء للزيارة من حين إلى آخر فهو رجل ذكى جداً ومتعلم تعليما عاليا، يسمى الأستاذ فؤاديزدى، وأصله إيرانى من فلسطين . ولـكنه متمصر لطول عهده فى هذه البلاد ، ولابد أن يزورنا ، فقلت سأحتاط فى الحديث بحضوره .

وكنت فى تلك الساعة أعانى نصباً شديداً بسبب متاعب هذا اليوم العصيب وأهواله فهو يساوى من الحياة العادية عذاب ألف يوم على الأقل . كانت الغرفة التى أعدت لى وثيرة الفراش أنيقة الرياش ، فما كدت أستلق على السرير حتى غطست فى نوم عميق ، فلو انطلق مدفع فى أذنى لما سمعته ولا أحسست به ...

أول صباح

لقد نمت تلك الليلة عشر ساعات نوما ثقيلا هادئا ، ولما صحوت وجدت نفسى نشيطا مرحا صافى الذهن ، هادئ الأعصاب ، منشرح الصدر ، فأخذت أتجول فى الحديقة وأتمتع بسماع تغريد العصافير فى ذلك الصباح الربيعى الندىّ ، وكانت السماء صافية الأديم، والشمس مشرقة مشعشعة تنشر الدفء على الكائنات جميعا ، وكان عبير الأزهار يتضوع ويعبق الأفق ، وكل شىء فى الدنيا كان يبتسم ، فنسيت السجن، ونسيت حمدى محبوب ، ونسيت الدنيا بأسرها، ثم قطفت وردة حمراء كان أريجها يضوع فرشقتها على صدرى بعد أن نفضت عنها ندى البكور، ناسياً ظروفى وأننى الشيخ محمد ، وأن المشايخ لا يضعون الورد على صدورهم ، هـذه غلطة ما فى ذلك ريب ، ولـكننى جديد فى حرفة الهرب والتنكر وفى ملاحظة دقائق أمورها ...

ودفعنى الزهو والفرح بالحياة الطليقة إلى تجاوز حدود الحذر ، فذهبت إلى مكتب إدارة الشركة فإذا ببعض الموظفين يرمقوننى بعيون فاحصة مستطلعة حال هذا الشيخ الذى يختال وهو فى جبة قديمة وسخة فوق بيجامة أفرنجية ثم يرشق على صدره وردة ! وجلست بجوار نسيب على مكتبه ، فقد ألغى فى ذلك اليوم برنامجه وهو ركوب حصانه والطواف على مزارع الشركة وهى تبلغ عدة ألوف من الفدادين ، وإذا بالتليفون يقرع فسمعت نسيب يقول : أنا موجود وأنتظركم فى المكتب أهلا وسهلا ...

ولكن الله سلم !

سمعت هذا فهبط قلبي وسألته من هم هؤلاء الذين تنتظرهم ؟ فقال لا عليك ، فهم وكيل الشركة العام وبعض ضيوفه ، فاطمأن خاطري ثم سألته من هم أولئك الضيوف ؟ فقال هم من مصر وأنت لا تعرفهم فابق حيث أنت ... ولكن المريب يكاد يقول خذوني وأنا أخاف من المباغتات، فرجعت أسأله عن الأسماء، فذكر لي منهم الدكتور إدوارد غرزوزي، فقلت يا للهول! إنه من معارفي وسينكشف أمري أمام جميع الموجودين في الضيعة تعبنا .

ثم وقفت وادعيت أنني أشعر بصداع وأني في حاجة إلى أسبرين واستراحة ، ومشيت إلى دار الضيافة فاختبأت في الغرفة وأخذت أقرأ في كتاب ولكني لم أفهم شيئاً مما أقرأ ، فذهبت إلى الشباك وأخذت أتطلع من خلف الستارة متلصصاً ، وإذا بالضيوف قد وصلوا وأخذوا يتجولون في الحديقة وفيهم الدكتور فخفت أن يدخلوا إلى حيث أجلس فبادرت إلى الفراش فاندسست فيه وتظاهرت بالنوم وأخفيت رأسي تحت اللحاف بعد أن علقت الجبة بحيث يراها كل قادم وأبرزت العمامة بأن وضعتها على كرسي في مواجهة الباب، حتى إذا قدم طفيلي من هؤلاء الضيوف الثقلاء حدا

نسيب بك شهاب حين كان يجاهد ضد فرنسا في غوطة دمشق في ثورة سنة ١٩٢٥

صورة نسيب شهاب الآن وهو نائب وزير سورية المفوض بالقاهرة

وأراد دخول الغرفة وجد أمامه جبة وعمامة وشخصاً تحت اللحاف ...

ولكن القوم لم يدخلوا الغرفة ، بل اكتفوا بزيارة الحديقة وانصرفوا ، وكم ذعرت لما خطر لى أنهم سيقضون يومهم وليلتهم فى دار الضيافة !

مباغتة غريبة

وسمع أهل القرية بوجود ضيف عند « البيه الوكيل » فأصبح لزاما على البعض أن يأتى للسلام على الضيف إكراما للمضيف ... وجاء من الجملة الأستاذ فؤاد يزدى، وهو رجل كهل وقور قصير القامة مربوع الجسم يضع على عينيه نظارة سميكة الزجاج ، فتذكرت تنبيه نسيب بوجوب الاحتياط والتروى بحضوره ، ولو أمكننى أن أهرب من مجلسه فى تلك الليلة لفعلت ولكن هيهات ، فهو آت من أجلى !

وأخذ المهنئون يرحبون بى ويسألوننى عن الدنيا وعن الحرب ، وإذا بأحدهم يسألنى بكل سماجة عن مهنتى وشغلى ، فادعيت أننى أتخصص فى الشريعة بالأزهر. ولا أدرى لماذا ارتكبت هذه الحماقة بادعائى العلم الشرعى ولم أقل إننى تاجر سمك أو سمسار عقارات ، وكان كل همى أن أتفرس فى الأستاذ يزدى وسماع حديثه ، ولكنه كان قليل الكلام، وإن تكلم كان كلامه فوق مستوى الموجودين . وإذا به يسألنى عن بعض مسائل شرعية وكانت من حسن الحظ من البسائط فاستطعت الجواب عليها ، ثم سألنى عن « الإمام السرخسى » وعن مؤلفاته

وكان كل ما أعرفه عنه أنه من أئمة العلم فى خراسان ولا أدرى شيئاً عن كتبه ، فارتج علىّ واحترت بماذا أجيب فإذا بالأستاذ يزدى نفسه ينقذ الموقف بأن تكلم هو فاغتنمت الفرصة ولزمت الصمت ، ولكنه زاد فى الطين بلة إذ حدق بى من فوق نظارتيه وقال والله ان سيدنا الشيخ يشبه الأستاذ محمد على الطاهر ! فاضطربت لهذا الاكتشاف اضطرابا نفسيا شديدا ، وإذا بى أجيبه بسرعة قائلا : هذه ثالث مرة « يتشبه علىّ » ويظنوننى محمد على الطاهر ، فيظهر أن هناك شبهاً كبيراً بيننا . وبادر نسيب إلى تكميل عملية الإنقاذ فقال : وأنا أيضا أشعر بأن الشبه شديد بينهما فأنا أعرف الأستاذ الطاهر وأعرف جريدته « الشورى » وسكت الأستاذ يزدى مقتنعا . وبعد قليل انصرف القوم وبقيت مع نسيب وحدنا وبعد سكوت دام لحظة قلت له : ما قولك فى شبهات يزدى ، إننى لا أعرفه قط ولا أتذكر أننى رأيته قبل الآن ولا أظنه رآنى ، فكيف خطرت على باله ؟ يارب من أين جاءنا هذا الرجل الآن وكيف الخلاص منه ؟ عند ذلك لم أجد بداً من الرحيل فى أسرع وقت . وقضيت الليلة الثانية عند نسيب وفى الصباح الباكر غادرت كفر الوسطانى فى السيارة الوحيدة المحطمة التى تغادر القرية صباح كل يوم إلى بلدة شربين ثم تعود فى المساء بركابها بعد أن يكونوا قد أنهوا مصالحهم . وهى سيارة صغيرة تتسع لأربعة فإذا بنا خمسة عشر ! فقد جلس اثنان بجوار السائق وانحشر فى المقعد الخلفى أربعة واندس بين الأرجل اثنان ، وأما بقية الركاب فوقفوا على درجتى السيارة وعلى سطحها وتمدد بعضهم على الرفاريف وهكذا ... ومشيت بنا السيارة نحو شربين فقطعت المسافة فى ساعتين وكنت يوم مجيئى قد اجتزتها فى السيارة الخاصة بنصف ساعة ، وما صدقت أن نزلت فى شربين ولكن لم أجد فيها مكانا مما يصلح للإقامة أكثر من ساعة ، ثم ركبت إلى طنطا وأرسلت منها برقية إلى صهرى السيد إبراهيم الدرس « رحمه الله » وكان موظفا فى شبين الكوم وهذا نصها : « حضرنا اليوم لزيارة السيد البدوى ولكن ضيق الوقت يمنعنا من زيارتكم فأرجوكم مقابلتنا بمقام السيد لنصلى العصر معكم ونعود لدمياط » . (الإمضاء : مختار الدرس)

أما هذا الاسم فهو حقيقى ، وصاحبه هو الأستاذ مختار مصطفى الدرس أحد أساتذة كلية الهندسة اليوم بجامعة اسكندرية .

اللقـــاء

وبعد إرسال البرقية تجولت فى أطراف المدينة ولما اقترب العصر قصدت إلى قهوة مواجهة لمقام السيد البدوى وجلست أرقب المنطلقين إلى المسجد، ولكن إبراهيم لم يصل، وأذان العصر لم يبق عليه إلا دقائق معدودة، فغادرت القهوة ودخلت المسجد وجلست فى مكان أرى منه كل داخل من جميع الأبواب، وإذا بإبراهيم يدلف إلى الداخل ويلق بنظرات سريعة إلى هنا وإلى هناك، ولكنه لم يرنى، وبعد أن أدى تحيـة المسجد، جلس بين المنتظرين لصلاة العصر يستمع للقرآن الكريم. وأما أنا فبقيت فى مكانى لحظة أدقق فى الوجوه وفى هيئات الذين قدموا بعده فلما تيقنت أن إبراهيم غير متبوع من أحد، قمت وجلست إلى جانبه وحييته فعرفنى وظل ساكتا إلى أن أدينا مكتوبة العصر، ثم غمزته بيدى ومشيت، وبعد لحظة نهض وسار خلفى على مسافة غير بعيدة منى.

أخبار جديدة

ولما أصبحنا فى الشارع العام ودخلنا الأسواق المزدحمة مشينا معا فسلم علىّ وسلمت، وأخذنا نتحدث ثم أخذ يقص علىّ حوادثه قال: لقد فتش البوليس دارنا فى شبين أول أمس باحثا عنك، ثم أخذ منى تعهداً كتابيا بأن أخبرهم عن وجودك إن جئت إلينا! وبعد ذلك أخذوا رسمك الفتوغرافى الموجود عندنا وانصرفوا وقد رأيت جاسوسا يرقب الدار فتجاهلته ولا يزال ذلك الجاسوس هناك. فقلت: كيف فررت منه؟ قال: أنا لـما أخذت التلغراف فهمت فوراً أن مختار الدرس هو أنت وأما مختار الحقيق ابن عمى فهو فى مقر وظيفته، وحيث أنه ليس من الذين يأتون خصيصا من دمياط لزيارة الأضرحة فى طنطا، فقد عرفت كل شيء وأما الجاسوس فقد تركته يرقب الباب وخرجت من باب الجيران الخلفى فركبت سيارة الأتوبيس وجئت، ثم ضحك وقال: إن خادمنا عبده قد لحظ أن مختار هو أنت! فانتفضت وقلت له: كيف تفشى مثل هـذا السر إليه؟ فقال: لأنه هو الذى استلم التلغراف إذ من عادته أن يفتح التلغرافات وأنا فى خارج الدار فإن وجد فيها شيئا هاما هرول بها إلىّ وإلا

أبقاها بالمنزل حتى أعود ، ولـكن لا تخف من عبده لأنه أمين وقد أخذوه أمس إلى البوليس بدون علمى واتفقوا معه على كتمان ذلك عنى ووعدوه بخمسين جنيها وبوظيفة جاويش إن أرشدهم عنك وحلفوه الأيمان المغلظة . فقلت : وكيف العمل ؟ فقال : إن عبده قد أخبرنى بما كان وهو يسخر منهم ، لأنه مثل أولادنا وأنت تعرف أننا ربيناه صغيرا، فاطمأن بالى من هذه الجهة الاطمئنان كله ، وقلت له : لا بأس من تطمينه عنى وإبلاغه سلاما منى حتى لا يدفعه الفضول إلى كثرة الـكلام . ولـكن قل له إنك لقيتنى فى طنطا عند ميدان الساعة لابسا برنيطة ومعى خواجات فى سيارة وأننا اتجهنا نحو بور سعيد . ثم سألته عن شقيقتى فقال : إنها عند مجىء البوليس إلى منزلنا كانت تصلى، ولما شعرت بالتفتيش ضحكت فى سرها وقالت: « إذن فقد طار العصفور » ثم أخذت تدعو لك ، وبعد انصرافهم سافرت الشقيقة إلى القاهرة لتكون بجانب قرينتك . وهنا سألته عن شكل الصورة التى أخذها البوليس فقال هى التى تمثلك وأنت بالبالطو وتحمل العصا فضحكت وقلت له : دعهم يفتشون على البالطو والعصا ...

وبقيت مع إبراهيم فى طنطا إلى ما بعد العشاء ، وقبل أن نفترق اقترحت عليه أن يكتب كتاباً إلى الشقيقة بالقاهرة يطمئنها عن صحته ويسألها عن موعد رجوعها ، ثم تناولت القلم وسطرت فى ذيل كتابه تحية مبهمة على لسان الخادم عبده، وكل قصدى هو أن تفطن هى وزوجى إلى وجودى سالما طليقا لأنهما تعرفان خطى .

أثر هذا الإشعار

بلغنى بعد شهر من هذا اللقاء أن الأسطر التى كتبتها فى ذيل رسالة ابراهيم كان لها من الشأن عند زوجى وشقيقتى ما يساوى الدنيا بأسرها ، فقد حدث فى ذلك الحين أن إحدى

الجارات قد زارت منزلنا وقالت إنها سمعت فى منزل بجوارنا أن قريبهم الضابط فلان قال إن البوليس السرى قد اهتدى إلى المنطقة التى أنا فيها وأنها الآن محاصرة وأننى سأكون بعد أيام قليلة فى قبضتهم ، فكان لهذا النبأ فى دارنا صدى فزع وجزع ، وكانت شقيقتى وقرينتى فى هم عظيم لايوصف ، فلما وصل كتاب ابراهيم وقرأنا فى ذيله تلك الكلمات عرفنا الخط وهدأ بالهما

المبيت فى طنطا

نمت فى طنطا تلك الليلة ، وأما ابراهيم فقد عاد إلى شبين الكوم ، وكان تسجيل اسمى فى دفاتر « فندق الاقصر » مشكلة ، فإن وضعت فيه اسمى الحقيق انكشفت ، وإن ذكرت اسماً آخر أكون قد ارتكبت تزويراً فى أوراق رسمية ، وهو عمل جنائى يعاقب عليه القانون ، ولكن كيف أبالى بالقانون مادامت هذه المبالاة ستفضحنى ، لذلك لم أجد بداً من الخروج على القانون وارتكاب جريمة التزوير ، التى تنطبق عليها المادة كذا من قانون العقوبات ... وكان الاسم هكذا « ابراهيم البسيونى المحامى الشرعى فى الجيزة » وأظن أنه لافائدة للبوليس الآن من كشف هذه الحقيقة بعد أن مر على الجرم عشر سنين !

ومررت فى طنطا بدكان على بابها مرآة فأعجبتنى لحيتى التى بدأت تستدير فتذكرت بيتين لصاحب لحية أرسلها إلى الأمير يزيد بن مزيد الشيبانى قال .

لها درهم للدهن فى كل جمعة   وآخر للحناء يبتدران
ولولا نوال من يزيد بن مزيد   لصوت فى حافتيها الجلمان!

ولم أبحث عن الجلمان فى كتب اللغة ولكنى أظن أنه نوع من القمل ...

وأما يزيد بن مزيد فإنه طلب صاحب البيتين وقال له إنك لمن لحيتك فى مؤنة ، وقد أمرنا للحيتك بما يقوم بحاجتها ، ووظف له شيئاً من المال . وجلست مرة فى قهوة أستريح فوجدت فيها نسخة قديمة من مجلة نور الإسلام عدد إبريل سنة ١٩٤١ فأخذت أطالعها فعثرت فيها على كلام عنى بإمضاء صديقى الأستاذ على محمد المصرى وقد مر ذكره ، وهذا نص ما كتب:

(الأستاذ الطاهر : قرأت فى صحف العراق أن هذا المجاهد الكريم قد ساءت صحته فى سجن مصر وقد مر عليه فيه سبعة شهور . ومنذ شهر كان مجموع ما فقده من وزنه

« ١٣ كيلو ») من أصل « ٦٤ كيلو » وقد طلب الإفراج عنه ليذهب إلى العراق . وقد آوت حكومة العراق من قبل زعماء ثورة فلسطين ولم تبالى بسخط أحد ، بل هى فوق ذلك تصرف لهم مرتبات ضيافة بلغت إلى الآن « ١٥ ألف جنيه » وقد توسطت حكومة العراق لدى حكومة مصر بشأن الأستاذ الطاهر . فلعل حكومتنا تحقق رغبتها . وان الذى يدهشنى بعد هذا هو صمت صحافتنا المصرية إزاء هذا الأمر وخاصة بعد ما خرج من ناحية السياسة إلى الناحية الإنسانية البحتة ، بعد مابلغنا عن حالة الأستاذ الصحية مابلغنا » اه .

فشكرت فى نفسى هذا الصديق الوفى وقطعت الصفحة من المجلة ودسستها فى عبى ، وها أنى بعد عشر سنين أجدها ، وأدرجها هنا بنصها الحرفى إعلانا لشكرى لهذا الأخ الفاضل .

وقد نويت ساعة اطلاعى على كلمة الصديق على محمد المصرى أن أزوره فى الإسكندرية وأشكره وأريه نفسى ليتأكد من سلامتى...

كُتاب من بغداد

وبعد فرارى من المستشفى بأيام وصل كتاب من ابن عمى مصطفى نزيل بغداد والذى لم أذكر عنه أنه من مجاهدى فلسطين الذين لقوا بعد الثورة الكبرى أنواع العذاب والاضطهاد من الإنكليز وهرب منهم فقبض عليه الافرنسيون فى الشام وسجنوه وبعد ذلك تمكن من الالتجاء إلى العراق فرحبت به الحكومة العراقية وعينته أستاذاً فى مدرسة الرصافة لأنه فى الأصل كان مديراً لمدرسة أميرية فى فلسطين .

أقول ورد كتاب منه إلى أهل بيتى يذكر فيه أن نبأ مرضى فى السجن قد أحدث فى العراق أثراً أليماً وأنه وبعض فضلاء العراق وفلسطين اجتمعوا بوزير مصر المفوض ببغداد ولفتوا نظره إلى هذا الحادث الذى لايجوز أن يقع من حكومة عربية مسلمة وأطلعوه على التلغراف الوارد من القاهرة عن ذلك المرض ودرجته الخطرة ـ فأبدى الوزير ألمه من هـذا الحادث وأخذ نص البرقية وأرسل معها مذكرة إلى رئيس الوزراء بالقاهرة . وقال إنهم اتصلوا بعد ذلك بفخامة رئيس الوزارة العراقية طه باشا الهاشمى ووسطوه لدى رئيس وزراء مصر ، ثم ختم مصطفى كتابه بالثناء على السيد سليم بك عبد الرحمن المجاهد الفلسطينى الذى هز

العراق بدعايته ضد الإنكليز بسببي ، بارك الله فيه وفك أسره «لأني كنت أكتب مسودات هذه السطور وهو بدوره أسير عند الافرنسيين فى منطقة احتلالهم فى بلاد النمسا ، وكنت فى خلال ذلك على اتصال به بالبرق وبالبريد وأعمل على نشر الدعاية له وأسعى لإطلاقه من أسره

ملحوظة : بينما كنت أعيد النظر فى هذا الكتاب سنة ١٩٤٦ ورد على تلغراف من سليم بأنه أفلت من الأسر وأنه وصل إلى باريس فأرسلت إليه كتابا مع صديق مسافر بالطيارة أهنئه مع قرض من الدولارات والفرنكات يساوى بعملة مصر مئة جنيه ، ويساوى هناك أضعاف ذلك ثم وصل سليم من فرنسا إلى مصر ومنها إلى فلسطين فاستقبل بحفاوة أنسته بعض مالقى من عذاب ثم أعاد لى ذلك القرض .

وأما الآن وعند طبع هذا الكتاب سنة ١٩٥١ فإن سليم يعيش مشرداً فى مابقى من اشلاء فلسطين بعد أن استولى اليهود على جميع مايملك هو وأهله من أرض وثروة ، أعانه الله.

سعيد ثابت

وإنى أسجل هنا أنبل المواقف فى تلك الحوادث السوداء للمرحوم فقيد العروبة والوطنية السيد سعيد الحاج ثابت ، نائب الموصل ورئيس لجنة الدفاع عن فلسطين فى العراق ، فقد نصرنى نصراً عزيزاً ، وغضب من أجلى غضباً شديداً ، وكم أسفت لحرمانى من الاجتماع به وشكره على ما كان من شهامته معى فى أيام محنتى ، لأنه التحق بالرفيق الأعلى فى أثناء الحرب ولم يفجعه الله برؤية انتصار الحلفاء على خصومهم ، بل علينا ، وعلى العالم كله ، لأن انتصار بريطانيا وكسبها الحرب معناه بقاء العالم العربى تحت ذل الاستعمار وظلامه مدة طويلة ، إلا إذا حدثت المعجزة ونهض العالم المظلوم ونفض عن نفسه كابوس الاستعمار البريطانى خصوصاً، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إلى دمنهور

لم أستطع البقاء فى طنطا حتى لا ينكشف أمرى إن أطلت الإقامة فيها ، فذهبت إلى مدينة دمنهور لعلى أجد فيها مأوى ، فوصلتها ليلا فى سيارة أتوبيس ريفية فإذا بالمدينة غاصة بالمهاجرين الهاربين من الإسكندرية التى نكبت بغارة جوية من طيارات الطليان الحمقاء التى

أرادت أن تضرب الأسطول البريطانى فى ميناء الإسكندرية فأصابت قنابلها العمياء الطائشة بعض المناطق الوطنية فى المدينة ، فقتلت كثيرين ونسفت بيوتا بسكانها . فكان من أثر ذلك أن فر عدد كبير من أهل الإسكندرية إلى الريف والمدن المجاورة فأصاب الجميع هم عظيم وبلاء جسيم ، وكانت فنادق دمنهور وقهواتها حافلة بالناس فاحترت أين أنام ، وبقيت أتجول فى طرقاتها أبحث عن مأوى فأرشدنى أحدالناس إلى استراحة الحكومة ! ياسبحان الله ، أمثلى يقترب من شىء اسمه حكومة ؟ أمااستراحة الحكومة هذه فهى عبارة عن فندق صغير نظيف يقع بجوار المحطة وهو مخصص لنوم الموظفين الذين يضطرون إلى المبيت فى المدينة أحيانا . فلم يسعنى إلا دخول عرين الأسد ، فطرقت الباب حول منتصف الليل ودخلت فوراً إلى إحدى الغرف ، فقال الخادم : هنا الأجرة بريال ياسيدنا الشيخ فلم أحفل به بل أمرته بتجهيز الغرفة وأعطيته اسمى (الشيخ محمد الناجى القاضى الشرعى فى الواحات) فاعتنى بى ونمت نوما لذيذاً عميقا كأنى لم ارتكب جريمة تزوير جديدة أكبر من الأولى التى ارتكبتها بفندق الأقصر بمدينة طنطا ! لأن التزويرة الثانية هذه تعد أكبر من أختها الطنطاوية وتزيد عليها بأننى انتحلت أيضا صفة موظف عمومى من رجال الدولة !

لقداستسهلت هذا الجرم لأن الإنسان متى اندفع فى سبيل ما لتخليص نفسه أصبح لا يبالى بشىء وخصوصا إذا كان لا يضر بهذا التزوير أحداً . وفى الصباح الباكر نهضت وأعطيت الخادم أجرة الغرفة ومعها قرشين (للبخشيش) فسر بهما . وكنت فى ذلك الحين مضطرا إلى مشترى (قفطان) لأتم به طابع المشايخ ويجب أن يكون قديما لأن الجديد يبعدنى عن السمة التى أريدها ، فسألت خادم الفندق عن السوق الذى يبيعون فيه الملابس القديمة، فحملق بى قليلاثم غض بصره لأنه ظننى « ضابط شرطة » متنكر أطارد لصوصاً وأبحث عن مسروقات ! بدليل أنى نمت فى استراحة الحكومة . ومن غير المعقول أن القاضى الشرعى الذى يدفع ريالا للنوم وبخشيشا، ينحط إلى درجة السؤال عن محال بيع الملابس القديمة . فقال إنهم « يا سعادة البيه » يبيعونها بحى (العبارة) بفتح العين وتشديد الباء ، فتركته وذهبت إلى إحدى القهوات البلدية فوجدت بعض الناس يلعبون الداما[1] فجلست بين المتفرجين مطمئنا،

(١) هذه اللعبة الجميلة تشبه الشطرنج فى كونها حسابية تحتاج إلى تفكير وسعة حيلة وليس فيها =

لأن لهذه اللعبة التى تشبه الشطرنج عشاقا . ومن العادة أن يتكأكأ عليها الهواة على غير معرفة وبدون أن يتفرغ أحد منهم لسؤال الآخر من أين جاء ومن هو وماذا يشتغل !

إلى الصحراء الغربية

ولما اقترب الظهر فكرت فى تنفيذ ماعزمت عليه فنهضت وغادرت القهوة وذهبت إلى محطة السيارات وسألت عن سيارات متجهة إلى (النجيلة) فإذا بسائق أتوبيس ينادينى ويقول (إلى النجيلة) فركبت معه ولما سارت العربة وجدتها تركض إلى جهة معاكسة للاتجاه الذى أريده فسألت أحد الركاب (رايحين فين) فقال إلى كوم حمادة فقلت للسائق أنا أريد النجيلة على خط (أبو المطامير) و (حوش عيسى) فقال (ويوجد أيضا نجيلة عند كوم حماده زى بعضه خليك معانا) فاندهشت من وقاحة هذا المخلوق الذى يريد أن يسافر بى شرقا وأنا أريد السفر (غربا) ، فنزلت من سيارته بعدأن تكبدت أجرة تضليله أيضا ، ثم رجعت إلى دمنهور بعد أن مشيت نحو نصف ساعة ..

وذهبت إلى محطة سكك حديد الدلتا فركبت القطار، وهو خط ضيق زرى متعب ، وجميع ركابه من فقراء الفلاحين بعشاتهم وقففهم وخرافهم وأقفاص دجاجهم ، فإن سلمت من القاذورات والقمل فلا تسلم من اللكم ومن تمزيق ملابسك . وكان الزحام شديداً والقطار

= شىء من عمل الحظ أو البخت . وكنت وأنا ولد صغير أهرب من الكتاب فى يافا وأقضى يومى واقفاً فى إحدى القهوات أتفرج على اللاعبين إلى أن أتقنتها وصرت أغلب مشاهير رجالها فصار الذين يتفرجون عليها يتفرجون أيضاً على الولد الصغير الذى يغلب الكبار! وكان يأتى من دمياط إلى يافا لاعب مصرى مشهور لمنازلة لاعبى يافا اسمه الحاج محمود الألاوى وكان تاجر بطيخ فى أيامها، كما كان يأتى لهذه المنازلة من بيروت لاعب مشهور أرجح أن اسمه عمر البقاق ، فكان مشاهير اللاعبين فى يافا وما كان أكثرهم فيها ، يتواردون على القهوة التى يأتيها الألاوى والبقاق للفرجة على لعبهما ، لأن أهل يافا كانوا يعتنون بلعبة الداما فلا تخلو منها دار من دور الذوات ولا قهوة مهما صغرت .

ملحق :ـ فى أثناء طبع هذا الكتاب رأيت فى القاهرة الحاج محمود الألاوى بعد أربعين عاماً ـ وهو الآن شيخ كبير ، فسلمت عليه وسألته إن كان لا يزال يلعب الداما فقال إنه لم يجد فى مصر كلها من يقدر أن يلاعبه إلا السيد محمود حسين شقيق الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة . فقلت له : وكيف اللعب فى يافا ؟ فإذا بالحاج محمود يجهش بالبكاء ويترحم على يافا الشهيدة وأيامها الجميلة ، رحم الله يافا ورحم أهلها الشهداء . ولا رحم الذين فرطوا بها وأضاعوها وأفقدونا فلسطين كلها فأذلوا العالم الإسلامى بخياناتهم حين ضيعوها.

يسير ببطء ، ولا تزيد سرعته عن سرعة الحمار العادى ... فتذكرت كيف كنت أتضجر من طول المسافة بالقطارات الفاخرة السريعة بين الإسكندرية والقاهرة وأنا جالس بالدرجة الأولى ثم أتضايق فأذهب إلى عربة (البولمان) وأتأفف من ساعتين ونصف ساعة أقضيها فى تلك القطارات البديعة وهى تسير بسرعة ٧٠ كيلا فى الساعة . ونزلت فى محطة النجيلة وهى عبارة عن كوخ خشبى ولا يوجد بجوارها ما يدل على عمران ، فسألت موظف المحطة عن مزرعة (فلان) فأرشدنى فسرت إليها . وسألت عن صديق فقيل لى إنه ذهب إلى البلدة المجاورة فتركت المزرعة وجلست فى أول الطريق العام أنتظره عند عودته فى سيارته .

دهشة ومناقشة

وإذا بصاحبى قد وصل راكباً حماراً ومعه خادمه على حمار آخر ، فاعترضت الطريق واستوقفته وسلمت عليه فحملق بى مندهشاً فخفت أن تبدر منه كلمة تفضحنى فقلت له بصوت عال لاتندهش يافلان من عمامتى وجبتى لأنى تركت وظيفة المحكمة الأهلية والتحقت بالمحاكم الشرعية ، ثم غمزته ، بطرف عينى فأجابنى بغمزة تشعرنى بأنه فهم ... وصاح فى الخادم يأمره بالنزول عن حماره وأن يساعدنى على ركوبه . ركوب الحمار طبعاً ... ففعل ، وسرنا معاً حتى دخلنا منزله وهو يقع فى طرف المزرعة وبجواره حديقة لطيفة فأمر باعداد الغداء .

الفزع وضيق التنفس

ثم جلسنا وحدنا نتحدث فى أمرى ، وكان وجهه مصفراً ، فسألته هل كنت عند الطبيب وهل تشكو من شئ ؟ فقال لا ، ولكن قصتك وموقفك من الحكومة أزعجنى وأنا مصاب بمرض القلب ، ثم رجانى أن أتغدى وأسافر حالاً وفوراً ! فقلت له إنى ممنون من صراحتك ، ولكنى أريد فقط أن ترشدنى إلى وسيلة أصل بها إلى الواحات لأنى عزمت على اجتياز الحدود الغربية ونحن الآن على أطراف الصحراء فقال إننا فى منطقة حربية محظور المرور فيها لغير أهلها ، فهى منطقة عسكرية ، وهاهى حركة التنقليات الحربية قريبة منا . فقلت إذن سأبيت عندك الليلة فقط ، فقال أرجوك لوجه الله إن كنت تحبنى أن تسافر حالا لأنى بدأت أشعر بضيق فى التنفس من هول ماينتظرنى من الحكومة بسببك . فقلت وأين الحكومة هنا ؟ فقال

إن مأمور المركز يزورنا أحياناً كما يزور جيراننا فماذا أقول له عنك أو كيف أخفيك عنه إن جاء لزيارتنا ، ثم إن عمال المزرعة قد رأوك معى فيرتابون فى ابتعادك عن مواجهته ، وقد يدفع الفضول بأحدهم إلى التساؤل وتكون النتيجة ضياعك وضياعى معك ...

وجاء الطعام فأكلنا ، ثم أمر لى بالحمار فركبت وأرسل الخادم معى إلى المحطة لندرك آخر قطار لدمنهور . ولما ودعنى أراد أن يقدم لى مبلغاً من المال على سبيل القرض أو المساعدة فشكرته واعتذرت وقلت له إن احتجت فأنت المرجع ، ولما مشى القطار أخذت استعرض حوادث اليوم والمناقشة التى دارت بينى وبين صاحبى فعتبت عليه فى نفسى ولكنى عذرته لأن المسألة خارجة عن إرادته ، أليس أنه رجل متقدم فى السن وأنه مريض وكان صريحا معى وكان كريما أيضا ؟

إلى القاهرة

لقد ضاقت الدنيا فى وجهى فأين أذهب ؟ إن هذا الطراز من الحياة بدون استقرار ولا اطمئنان قد أزعجنى كثيراً فنويت أن أضع له حداً ، ولذلك ركبت الأتوبيس إلى طنطا ثم ركبت سيارة أخرى فوصلت أطراف القاهرة قبيل الغروب، ومررت من أمام منزلى بدون أن أتجاسر على رفع عينى نحوه، وقد ساعدنى الليل وإطفاء الشوارع بسبب الحرب على الاطمئنان فى سيرى ، ولما ابتعدت رفعت عينى نحو دارى فرأيت بصيصاً من النور الخافت ينبعث من خلال النوافذ فاطمأن بالى ، ثم اندسست فى الحارات الجانبية وذهبت إلى دار الشيخ يوسف عبد الرزاق المشهدى فاسترحت عنده وتعشيت وقد سر بى كثيراً ، فقصصت عليه ماصادفت من متاعب، وطلبت إليه أن يسعى فى استئجار غرفة على سطح منزل كعادة الطلبة الأزهريين والمشايخ الغرباء، وأن لا تكون الغرفة بجهة الأزهر أو فى محيطه ، وإن أمكن العثور على طالب أمين ممن نعرف ويسكن وحده فى غرفة بعيدة فأقطن معه ، فاستحسن ذلك وطلب مهلة قصيرة للتفتيش والبحث .

تفتيش دار الشيخ يوسف

وقبل أن أغادر الشيخ يوسف اعترف لى بشىء كان يفضل كتمانه عنى، وهو أن داره

قد فتشت بحثاً عنى منذ يومين فقط ، وأن بيوتاً كثيرة لأصحابى ومعارفى قد فتشت قبل ذلك ومنها دار الشيخ محمد صبرى عابدين ومساكن بعض الطلبة بخان الخليلى بجوار الأزهر، فطلبت منه أن يبحث عن المسكن فى غير منطقة الأزهر ، كمصر القديمة أو القلعة أو السيدة زينب . ثم وعدته بالرجوع إليه بعد أيام ، ثم سألت الشيخ يوسف عن ملابسى التى هربت بها من المستشفى وتركتها عنده، فقال إنه لبسها تحت جبته وانتعل حذائى الافرنجى على ضيقه وذهب إلى بيتى فى إحدى الليالى وسلم ذلك إلى الخادمة ورجع . فقلت وكيف رجعت حافياً فقال : كلا لم أرجع حافياً لأنى أخذت حذائى فى عبى ، ولما شرعت أصعد الدرج نزعت حذاءك وانتعلت حذائى كما نزعت البالطو من تحت الجبة قبل أن أبلغ مسكنك ، فضحكت وقلت : ما أحلى وأجمل لو رآك أحد السكان أو الخدم تشتغل بإخراج الحذاء من عبك وتقلع الجبة وتخلع البالطو فصاح امسكوا يا ناس هذا حرامى ! فقال والله إنها تبقى زفة وخيمة العواقب ولكن الله سلم .

وبعد ذلك ودعت الشيخ يوسف واعتذرت عن المبيت عنده خوفاً من قريب له متصل بالبوليس السرى وهو معروف بهذه الصفة من قديم ، مع أنه عالم ومدرس ولكنه مع ذلك لم يتورع عن اجتراح هذه الكبيرة شرعا وخلقا .

فارقت الشيخ وأنا أفكر فى مسألة تفتيش بيته وبيت الشيخ صبرى وبيوت الطلبة فلعنت ذلك الجاسوس اللعين الذى سلطه الاستعمار على الأزهريين بعد أن بهر عينيه بأمواله حتى أفقده ضميره المريض وأنساه دينه ووطنه .

درس الأحوال والأخبار

ولما لم أجد عند الشيخ يوسف شيئاً من أخبار أهل بيتى، لم أستغرب ذلك، لأنهم يتصلون بالدكتور بشناق بك والأخبار عنده ، فهيا إذن إلى مصر الجديدة ، وركبت الترام مندساً بين عشرات الركاب وكان الظلام خير معين لى على التنقل وسرعة الحركة ، ثم ركبت قطار مصر الجديدة ونمت عند الدكتور مصطفى بك البشناق فكان فرحه بى عظيما ، فسألته عن أخبار أهل بيتى فقال إن البوليس يرقب باب الدار ليلا ونهارا ، فإن زارت بعض السيدات أهل بيتى

لحق بهن البوليس وفتش منازلهن بحثاً عني ، وان خرجت قريبتي لزيارة إحدى معارفنا دهموا دارها ! فلم يسع قريبتي إلا حبس نفسها في المنزل بعد أن أشعرت من يعرفنا بعدم المجيء لزيارتها ، فأصبحت الآن محصورة في الدار لا تزور ولا تزار ، ولولا أننا نسكن عمارة فيها جيران يزورون قريبتي وتزورهم لكانت حياتها كحياة السجون !

ثم تحدثت مع الدكتور عن الحرب وهل تنتهي قريباً وأستريح من عذابي ، ثم بحثنا في كيفية الاستمرار على الاختفاء والتنكر وعن الذين سألوهم عني فإذا بعددهم ليس بالقليل ، ومنهم منير فرح الذي قبضوا عليه وسجنوه ليعترف لهم أين أنا، في حين أن الرجل لايدري عني شيئاً[1] ، وقص عليّ أمين العوري كيف أن ضابط بوليس التحري محمد يوسف قد طرق داره بشكل مبتكر، وذلك أنه استخدم لهذا الغرض صاحبنا « س. ا. » لجاء به معه بصفة أنه يريد « التعرف » بواسطته على العوري ، وبهذه الوسيلة دخل محمد يوسف داره دخولا قانونيا ... ثم طلب أن يراها فطاف غرفها كلها ... ولكنه لم يجدني فغادرها بعد أن أظهر إعجابه بالدار! إن محمد يوسف لم يكن معه أمر بتفتيش دار هذا الرجل رسميا فلجأ إلى استخدام « س. ا. » فساعده على دخولها باسم « التعارف الشخصي » وبهذه الطريقة لا يستطيع صاحب الدار أن يحتج أو يقول إن أحداً قد فتش داره !

إن فعلة « س . ا . » ليست غريبة منه ، فهو رجل غدار متلون منافق ، لايرعى ذماما، ولا يحفظ عهداً ، ولا يفي لأحد ، إنه رجل صغير حقير حسود كنود ، مارأيت في حياتي ولا سمعت بمثله في نكران الجميل ، وجحود المعروف ، وانتهاز الفرص . والغريب منه — ولا غرابة — إنه لا يسيء إلا لمن يحسن إليه ، والعياذ بالله .

---

(١) التقيت بعد زوال المحنة بمنير فرح فأخبرني كيف دهموا بيته وفتشوه وأخذوه وأهل بيته إلى سجن الموسكي ثم إلى مركز القيادة البريطانية العامة « بجاردن ستي » واستجوابه تحت التهديد بضربه بالعصى لحمله على الاعتراف عن « الجمعية النازية التي كنت أرأسها أنا ! » أو إعطاء بيانات عن كيفية معرفته بي ومكان اختفائي، في حين أنه لم يدر بذلك إلا من هؤلاء الزبانية الأشرار ، وبعد ذلك سجنوه بسجن الأجانب سبعين يوما ثم أطلقوه.

أسجل هذه الصورة التاريخية هنا لأن أسماء بعض الشخصيات التي تظهر فيها قد وردت في الصفحات السابقة . كما أن بعضها سيظهر في الصفحات الآتية .
وهذا بيان الأسماء بحسب الأرقام «٤» المرحوم أحمد حافظ عوض بك «٥» فوزي بك البكري «٦» المرحوم أحمد زكي باشا «٧» المرحوم الشيخ علي سرور الزنكلوني «٨» السيد شكري القوتلي رئيس جمهورية سورية بعد ذلك «١١» المرحوم نسيم صيبعة «١٢» المرحوم نجيب بك شقير ، وفي الصف الخلفي «١٤» أسعد داغر «١٦» المرحوم الحاج أديب خير «١٧» محمد علي الطاهر صاحب هذا الكتاب «٢٠» المرحوم الأستاذ محمد المهياوي «٢٢» خير الدين الزركلي «٢٣» المرحوم مظهر بك البكري «٢٤» السيد مكرم الكيلاني ، ووقف في الصف الأخير «٢٦» المرحوم محمود شوكت بك مدير الفيوم سابقا «٢٩» السيد نجيب الارمنازي وزير سورية المفوض بعد ذلك في لندن

حيرة الطريد

استشارات ومداولات

شرحت للدكتور بشناق وأمين متاعبي وحاجتي إلى مأوى ، ثم اتفقنا على استشارة الصديق القديم أحمد حافظ عوض بك لأنه يملك مزرعة فى مديرية البحيرة فقد يمكنه إيوائى فيها بصفة كاتب أو ملاحظ أو مراقب لزراعته ... فركبنا سيارة وانطلقنا إلى دار عوض بك فى المطرية لنأخذ رأيه ولما مرت بنا السيارة أمام قهوة بلميرا الملاصقة لدار العورى التى تطل شبابيكها على القهوة قال إن الضابط محمد يوسف وهو يعرف صلتنا بك أصبح منذ هربك لا يفارق هذه القهوة ، فهو يجلس أمام نوافذنا ويدخن الشيشة ! فقلت له دعه يدخن الشيشة على كيفه ...

طرف من حديقة قهوة بلميرا بشارع الأهرام بمصر الجديدة وهى تقع أمام شبابيك الدار التى اختفيت فيها

عند حافظ بك

إن حافظ بك عوض يعد فى مصر من خيرة رجالها وقد وصفته فى صفحات سابقة وكانت تربطنى به صداقة قديمة ، وقد اشتهر منذ القديم بالوفاء وصدق الوداد وخفة الروح ، وطالما فتح لى صفحات جريدته لأصول فيها على الاستعمار وأعوان الأجانب ، وكان الدكتور مصطفى بك قد اتصل بحافظ بك تلفونيا ليتأكد من وجوده فى الدار فإذا به يسأل الدكتور عنى وعن أحوالى فى السجن ، وأنه لم يدخر جهداً فى السعى للإفراج عنى ، فقال له الدكتور إننى عازم زيارتك للتحدث بشأن أبى الحسن فقال إنه بالانتظار .

الشيخ حزنبل

ووصلت السيارة بنا إلى دار حافظ بك فوجدناه يتمشى فى الحديقة فلما رآنى معهما لم يشك فى أننى زائر جديد جئت معهما لأنه كان يجهل نبأ فرارى من السجن ، فرحب بنا

وقادنا إلى الصالون ثم بادرها بالسؤال عنى وكيف حالى ومعنوياتى فى السجن وإلى إين وصلت مسألتى، وهنا أظهرت له نفسى فاندهش وقام يعانقنى ويهنئنى بالسلامة ويسأل ماخبر هذا التنكر ومتى كان الإفراج... فقصصت عليه الحكاية المروفة عندقرائى فضحك ضحكته المبهجة ولم يفارقه مرحه ولاخفة روحه وقد أطلق على اسم «الشيخ حزنبل» فضحكنا من هذه التسمية!

وبعد المذاكرة مع حافظ بك وتقليب الأمور والاحتمالات قال لى بصراحة ما خلاصته: إن الذى أقدمت عليه لأمر عظيم وما هو بالهين لأن الحكومة لن تسكت على هـذا التحدى وستبذل جهدها وجميع وسائلها للقبض عليك إلى أن تظفر بك حياً أو ميتا لأن كرامتها خدشت بل وجرحت بشكل مثير وخصوصاً أمام الإنكليز، فيجب الاحتياط الشديد إلى أقصى حدود التحفظ ثم قال إن الذين يهربون من «الدولة» يضطرون أحيانا إلى صبغ وجوههم وتشويه بعض أساريرهم، فالأمر خطير، ثم سألنى هل أتنقل وحدى؟ فقلت نعم، فقال ستقع بيد البوليس حتما مادمت تسير وحدك، إن كل إنسان يهرب من الحكومات لابد له من رفيق أو دليل يتستر عليه، ويجوس له السبل قبل كل حركة، ثم شرح لنا عيوب الالتجاء إلى القرى والدساكر وقال إن الحياة مستحيلة فيها إلا لأهلها، كأنه لايوجد فيها شئ من أسباب الراحة، فلامخبأ ولا محل للأجرة ولاطعام ولا مطاعم، فكل طارئ جديد فيها يعرف حالا، وإن تكلم ارتابوا به وأكثروا من الكلام حوله فينكشف، ثم نصح بأن ألجأ إلى المدن الكبيرة بشرط أن يكون لى رفيق.

سمعت هذا الكلام فانخلع قلبى، لأن حافظ بك صور لى الحقيقة المفزعة والمستقبل الهائل أدق تصوير، فقد جربت وذقت فى الأيام التى قضيتها قبل وبعد ذلك أنواع القلق والعذاب، وهنا اكتفينا بهذه المعلومات والآراء الناضجة ولم نفاتحه فى أمر الاختباء بمزرعته، وبعد قليل ودعناه وانصرفنا. وبينما كنا نسير فى الحديقة نحو الباب مال حافظ بك على أذنى يقول لا تظهر للناس فى النهار لأنى لما تركتكم منذ دقائق لأرد على التليفون جاءنى خادمى الحبشى ووشوشنى بأنه عرفك عند تقديمه القهوة ولذلك أوصيت الخادم بأن لا يفتح فمه فقال لى كيف أتكلم وأنا أعرف الأستاذ الطاهر وكنت أقرأ جريدته التى كانت تدافع عن مسلمى الحبشة، الله يسلمه.

عند الأستاذ الياس

رجعنا إلى مصر الجديدة ولكننى لفرط حذرى قررت ألا نكون العودة لبيت الدكتور تجنبا للطوارئ، وكانت السيارة فى تلك اللحظة تقترب من دار صديق الأستاذ الياس أنطون الياس(١)، فاستوقفت التاكسى وطلبت من الرفيقين مواصلة السير إلى قهوة بلميرا كعادتهما كل يوم وبعد ساعتين يعودان لمقابلتى فى منزل الأستاذ الياس حيث أريد الاستراحة وتناول الغداء عنده.

مباغتة محرجة

صعدت إلى دار الأستاذ الياس وقرعت الجرس ففتح خادم أسود، ولما انفرج الباب لمحت فى الصالون المقابل قسيساً كان واقفا يكلم قرينة الأستاذ الياس، فلم يرنى، كما أن السيدة لم ترنى، فاندهشت من هذه المصادفة واحترت ماذا أقول للخادم فى هذه اللحظة، لأنى لا أريد أن أواجه قسيساً وأنا شيخ، فى دار أسرة مسيحية، كما أن مجيئى سيسبب دهشة لصاحبة الدار وهى ترى شيخاً يدهم بيتها بلا إذن ولا معرفة سابقة وفى لحظة كانت تستقبل فيها قسيساً! وماذا أقول لها أمام القس وكيف أكشف لها بحضوره عن شخصيتى، وهناك الخادم أيضا فإنه شخص مسلم متدين، فلا بد أن الفضول سيدفعه إلى الفرجة على الرواية التى ستمثل أمامه، كما أن هناك مشكلة أخرى وهى دهشة القسيس وغضبه من رؤية شيخ يدخل على سيدة تقية من رعيته، فقد يرتاب فى تدينها! إن تفسير حالتى للسيدة أمام القس وأمام الخادم تصبح مشكلة، كما أن تفسير استقبال السيدة المسيحية لشيخ مسلم يصبح مشكلة أخرى، فالموقف كان حرجا أشد الحرج، فاستحضرت ذهنى فى تلك اللحظة وحسمت ذلك الموقف الدقيق بحركة واحدة وخطوة واحدة، وذلك أنى بمجرد أن انفتح الباب ورأيت القس، دخلت بسرعة البرق بلا إذن ولا تعريف وانعطفت شمالاً إلى غرفة المائدة، وجلست

---

(١) هو العالم المحقق الذى ألف « القاموس العصرى » الكبير باللغة الإنجليزية والعربية، ثم القاموس الثانى بالعربية والإنجليزية، فالقاموس العصرى الثالث باللغة العربية والافرنسية وغير ذلك من الكتب المدرسية فى هذه اللغات، وهو رجل فذ فى عصره خلقاً ووفاء ووجاهة.

فى زاوية لايرانى القس فيها ، وأعطيت ظهرى للباب أيضاً ... فهرول الخادم فى أثرى قائلا « عاوز إيه ياسيدنا الشيخ » فقلت له « أخبر السيدة أم إدوار بأن الشيخ محمد بتاع المطبعة سابقاً يريد أن يقابلها » وهنا سمعت سيدة الدار تسأل بصوت عال « كنت بتفتح لمين يامحمد ؟ » وسمعت محمد يقول لها « هذا الشيخ محمد بتاع الطبعة عاوز يقابلك » وبعد لحظة سمعتها تودع القسيس وتغلق خلفه الباب، وكنت فى أثناء ذلك قد خلعت العمامة والنظارة ، فلما أقبلت أم إدوار إلى حيث أنا بادرتها بالتحية والابتسام، فلما عرفتنى رحبت بى ألطف ترحيب ، وأسرعت من فورها تنادى الخادم وتأمره بصنع القهوة للشيخ محمد الذى كان مصحح المطبعة ويعلم ولدها أدوار اللغة العربية ... وقد أصابت فى هذا التفسير المعقول لأن هذا الخادم النوبى لابد له فى ساعات استراحته من أن يجلس فى قهوة « البرابرة » وأن يحدثوا بعضهم بعضاً بأخبار المنازل التى يعملون فيها، فلو ذكر محمد أمامهم أن شيخاً مريباً جاء دار مخدميه المسيحيين فلابد أن يسمع هذا الحديث أحد مخبرى البوليس الذين يندسون فى القهوات للتسمع ! وخصوصا قهوات البرابرة لاستطلاع أخبار البيوت والأسر ، بل قد يكون الخادم نفسه من أتباع البوليس، وطالما استعان بوليس الجواسيس فى الدنيا كلها بمعلومات الخدم عما يجرى فى داخل البيوت، وبالأخص خدم الفنادق، فهم من أعظم المصادر لشرطة التحرى ، ولذلك أعجبتنى سرعة خاطر أم إدوار التى أشغلت الخادم بالمطبخ طول المدة التى قضيتها فى دارها وحالت بينه وبين مغادرة الدار قبل أن أغادرها أنا ، حتى لاتفلت منه كلمة إن كان قد ارتاب بشئ ، أما إن تكلم بعد براحى فلن يكون لكلامه قيمة . ودق التليفون فإذا بإحدى قريبات أم إدوار تريد المجىء للزيارة، فردت عليها بأنها غير مستعدة اليوم لقبول الزيارات بسبب عزمها الآن على النزول إلى البلد ... ثم دق التليفون من سيدة أخرى تريد الزيارة بعد العصر فردت أم إدوار ، بأنها لن تكون فى الدار فى ذلك الوقت لأنها على موعد فى جهة كذا ، والخلاصة أنها منعت أيا كان من غشيان منزلها فى ذلك اليوم ، أما أنا فقد استفدت فائدة عملية من هذه التليفونات ، وهى أنه يجب على الذى يريد الاختباء أن يتجنب المنازل التى تسكنها عائلات وفيها خدم، ولماذا أذهب

بعيداً ، أليس أن اختباء الأستاذ أحمد حسين عندى قد اقتضى نزوح أهل بيتى عن الدار ووضع قواعد وتعليمات عديدة وشديدة ؟ هذا إلى أن اختباء شيخ فى دار مسيحيين ، يكون أدعى إلى الظنون والشكوك ، لبعد المشاكلة وانعدام التناسب ، ويكفى التقائى بالقسيس منذ ساعة واحدة فقط ... وبعد قليل وصل إلى الدار الدكتور بشناق وأمين كما اتفقنا ، فرحبت بهما أم إدوار ، وبعد قليل جاء رب الدار الأستاذ إلياس ومعه إدوار ، فلما رآنا إلياس رحب وأهّل ، وبادر بالاستفهام من الصديقين عنى وكيف حالى فى السجن ، وكان مهموماً علىَّ ومتألماً ، ولكنه بطبيعة الحال لم يعرفنى ، بل ظننى رفيقاً للإثنين ، ولم يسألنى عن اسمى تأدباً منه مع ضيف لم يره قبل الآن ، منتظراً أن يقوم أحد الرفيقين بهذه المهمة كما تقضى الأصول ...

مداعبة . . .

ولما فرغ القوم من الحديث عنى داعبت الأستاذ إلياس ثم أظهرت له نفسى ففرح ورحب وهنأ ، إلى آخر الأسطوانة المعروفة ... وبعد الغداء تذاكرنا وتشاورنا فيما كان وما ينتظر أن يكون ، فرتبنا بعض الأمور . وبعد العصر ركبت سيارة الأستاذ إلياس بعد أن نزعت العمامة عن رأسى ووضعت النظارة السوداء علىَّ عيونى ، وكان يقود السيارة نجله إدوار فأوصلنى إلى نهاية حى شبرا حيث تبدأ طرق السيارات الرئيسية إلى شمال القطر المصرى ، وقد مررنا فى طريقنا من مصر الجديدة إلى شبرا بحى القبة حيث يسكن حمدى محبوب ورأيت البوليس الذى يحرس باب داره ، فتمنيت أن أرى هذا الباشا فى تلك اللحظة لأرجمه بحجر على الأقل ... ولما مرت بنا السيارة من تحت شبابيك منزلنا بشبرا رفعت بصرى إليه فرأيت الخادمة تنظف الشرفة الشرقية فاطمأن بالى .

ودعت إدوار عند آخر شبرا وشكرته فعاد إلى مصر الجديدة ، أما أنا فمشيت كيلومترين ثم ركبت سيارة أتوبيس أوصلتنى إلى طنطا ثم ركبت أخرى إلى دمنهور ، وفى المساء قررت أن أبيت فى الإسكندرية لأبحث فيها عن مأوى فركبت آخر سيارة أوتوبيس متجهة إليها .

حادث ينشف الدم

كان البرد شديدا فى تلك الليلة ، وزاد فى شدته إننا كنا نواجه الشمال ، فكان الهواء يعصف والمطر يهطل والركاب سكوت ، فسألت أحدهم عن ساعته فإذا هى تؤذن بانتصاف الليل ، وأخذت السيارة تقترب من الإسكندرية وهى منطلقة تسابق الريح ، فأخذت أفكر فى مصيرى وأين أنام الليلة على الأقل ، حير الله الاستعمار كما حيرنى ، وأشقاه كما أشقانى . وإذا بالسيارة تخفف من سرعتها بشكل ملحوظ ، فامتدت أعناقنا إلى الأمام لنستطلع السبب فإذا بأضواء تلوح فى الأفق وتخترق ذلك الظلام الدامس من بعيد ثم تخبو ، وأخذت السيارة تبالغ فى تخفيف سرعتها ، إلى أن اقتربنا من ذلك الومض أو أنه اقترب منا . فإذا به أضواء بطاريات كهربائية مما يحمل باليد ، وأخذ حاملوها يشيرون إلى السيارة بالوقوف ، فأيقنا بأن هناك لصوصا قد ظفروا بنا ، فأطلق السائق نحوهم أنوارا بعيدة المرمى فتكشف الحال عن عدد من رجال البوليس يعترضون الطريق وأسلحتهم مشرعة فى أيديهم ، ولما وقفت السيارة أحاطوا بها من كل جانب وقد صوبوا إليها بنادقهم وأضواء بطرياتهم ، ثم سألوا السائق : أقادم أنت من دمنهور ؟ فقال نعم ، فقال رئيس الجند ، وهل أخذت ركابا من بلدة أبوحمص ؟ فقال نعم ، عند ذلك صعد جندى إلى السيارة من بابها الخلفى وصعد آخر من الباب الأمامى وفى أيديهما البطاريات مصوبة تلقى الضوء على الركاب ، أما أنا فقد جمد الدم فى عروق وخفق قلبى خفقانا سريعا ، وإذا بالجندى الذى يواجهنى وضوء بطاريته يبهر عينى ، يصيح برفيقه الذى جاء من خلفى ويقول له : (حوش من عندك يامحمد أهو وجدناه...) ثم هجم نحوى بدون أن أتحرك أو أن ألتفت ، ومد يده ، ولكنها لم تقع على أنا كما كنت أتوقع ، بل وقعت على الراكب الآخر الذى يجلس معى على المقعد ، أمسك به . جرى هذا كله فى لحظة خاطفة لا مجال فيها للتفكير ، وبهت الركاب وساد السكون ، وإذا برجل الشرطة يجر ذلك الراكب وينزله من السيارة ، وكان الشرطى الآخر يمد يده إلى تحت المقعد ويسحب قفة ويكشف عنها ...

أما أنا فقد سكن طائرى وهدأت أعصابى وتشاغلت بإخراج سيجارة فأشعلتها بكل ثبات ، كأن الأمر كله لا يهمنى ، وأما القفة فلم نشك فى أنها تحتوى على جثة قتيل أو أشلاء من جثة !

ولما رفع البوليس غطاء القفة ظهر تحته قطعة لحم من كتف عجل مذبوح من ساعة . وهنا تبين أن المسألة هى عبارة عن شخص يهرب إلى الإسكندرية اللحوم المذبوحة سراً بقصد الإفلات من رسوم الحكومة التى تؤخذ على الذبائح ... وبعد ذلك انطلقت السيارة فى طريقها وأنا ألعن الساعة التى ركب فيها معنا ذلك السخيف الذى كان السبب فى تنشيف دمى من أجل بضعة قروش ما كان أهونها .

ليلة فى الإسكندرية

كان الهواء البارد يهب على الإسكندرية لما دخلتها فى تلك الليلة السوداء القاتمة . وأخذ المطر يهطل رذاذا بغير عنف ولكنه كان متواصلا، فنزعت العمامة ودسستها فى عبى ، ووضعت الشال على رأسى ومشيت . ولكن إلى أين ؟ لقد تجاوزت الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل ، والمدينة مطفأة تماما خوفاً من الغارات الجوية ، فواصلت السير فى ظلام دامس لا تظهر فيه معالم الطريق، فكنت أتعثر بهذا الرصيف وأصطدم بهذا العمود وأنطح ذلك الحيط... أخذت ألتمس فندقا أنام فيه ولكن أين هو الفندق ؟ لقد اختلطت على الشوارع والطرقات فما عدت أدرى أين أنا ، فأشعلت سيجارة لأستضيء بوهجها على قدر الإمكان، فإذا بصوت ينتهرنى ويقول : ارمى السيجارة يارجل ، ففهمت أنه من رجال العسس ، فرميت السيجارة واقتربت منه وحييته وسألته عن فندق، فقال ارجع من الطريق الذى جئت منه وامش إلى اليمين واسأل الناس. فرجعت وأنا ألتمس الطريق وانعطفت إلى اليمين كما قال الشرطى، ولكن أين هم الناس؟ ثم مشيت مرهف السمع أنشد مخلوقا يدب على الأرض لأسأله ولكن هيهات ، إن الناس فى مثل تلك الساعة لا يمشون فى الشوارع ، وإن مر أحد فهو يركب سيارة أو مركبة ، فمن لى إذن بمخلوق يمشى على الأرض مثلى استرشد به ؟ وهنا خطرت ببالى السيجارة فأشعلت واحدة ومشيت وقلت فى نفسى لابد أن يرانى أحد العسس المختبئين من البرد والمطر فى إحدى الزوايا فيصيح بى فأسأله . وقد كان ماتوقعته . فأرشدنى الشرطى إلى شارع شريف باشا وقال إمش على طول فهناك منطقة الفنادق ، وبالاختصار اهتديت إلى فندق ، وكانت فنادق الإسكندرية وقهواتها فى تلك الأيام تسدل ستائر سوداء على الأبواب لمنع الضوء من الوصول إلى الشوارع.

ولكن أهل الفندق ردونى وقالوا إنه مزدحم بالنزلاء ، فلم أصدقهم ، ومع ذلك انصرفت أبحث عن سواه ، وقد خطر لى أنهم رفضونى بسبب مظهرى وسوء حالى ، فادعوا مسألة الازدحام بقصد التخلص منى ، ثم عثرت على فندق آخر فأجابونى بما أجابنى أهل الفندق الأول، ولكنى وجدت المدخل ممتلئا بالحقائب والأمتعة ورأيت بعض « الخواجات » ينامون فوقها . فاندهشت فرجعت وعـدّدت الفندقين وأنا أفكر فى سبب ازدحام فنادق المدينة فى أيام الحرب بينما الناس قد فروا منها بسبب الغارات وكنت أظنها شبه خالية من السكان . ولما وصلت ميدان المنشية حيث تكثر الفنادق الرخيصة دخلت فندقا كنت أعرفه من قديم وهو(اللوكندة العثمانية) وكنت أعرف صاحبها أدهم افندى وهو كريدى الأصل كان معتقلا معنا فى الحرب العظمى الأول بمعتقل الجيزة ، فأزحت الستارة السوداء عن الباب ودخلت وطلبت غرفة فأجابونى بالإجابة المعتادة وهى أن الفندق مزدحم بالنزلاء . فلم أتردد عن استعطاف الخادم بأن يدبر لى هذه الليلة فقط بأى شكل كان ، فسمح بغرفته وهى على السطح... وسألت الخادم ونحن نصعد الدرج عن سبب ازدحام فنادق المدينة فى هذه الظروف فقال إن السلطة العسكرية البريطانية قد حجزت جميع فنادق المدينة لإيواء الإنكليز الهاربين من البلقان ومن اليونان ومن بحر إيجة، حيث دهمهم الألمان ففروا بالبواخر والزوارق وبالطيارات ومعهم عدد من أهالى تلك البلاد الذين كانوا من أعوانهم ، ففهمت أنهم خونة بلادهم الذين يفرون مع الأجنبى المنهزم خوفا من انتقام أمتهم ، ففركت يدى سروراً وشماتة بالجميع ...

ويوم فى الإسكندرية

لاأدرى كيف نمت فى تلك الليلة التى كانت ليلة نابغية لا أعادها الله ، وفى الصباح الباكر كنت أغسل وجهى من إحدى الحنفيات فإذا أنا بين عدد من جنود الجيش البريطانى ، وكانوا يقطنون ذلك الفندق ، وبعضهم كان يتكلم العبرانية وبعضهم بالعربية الفلسطينية ، فكدت أصعق من هول ما رأيت وسمعت . إذن فأنا فى وسط معسكر بريطانى ، فلو قبض على بتهمة الاندساس بين « قوات صاحب الجلالة البريطانية » لكانت المصيبة عظيمة ! إن بعضهم من فلسطين وطنى القديم ، لعنهم الله، يسكتون على استعباد وطنهم ثم يعملون كجنود فى جيش الدولة

التى أهلكتهم ، فنهم مالها ومنهم جنودها ، وقد قرأت بيتا للقاضى الشاعر الشيخ محمد الزين يصف عبيد الاستعمار قال :

وأتعس خلق الله فى الذل أمة　　تضام ومنها للذى سامها جند

كنت على نية قضاء نصف النهار فى ذلك الفندق ولكن وجود هؤلاء الجنود ـ وقد أعثر بأحدهم فيعرفنى ـ جعلنى أغادره بلا تردد . وبحثت عن دكاكين بيع الملابس القديمة بجهة المنير فاشتريت قفطانا حريريا أزهريا قديما مهلهلا ، وقد لبسته فوق الجلابية بعد أن شمرتها وشبكتها من الداخل بدبوس عانيت من وخزاته طوال ذلك اليوم عذابا أليما ، وقد سرحت فى أحياء الإسكندرية أسير على غير هدى ، فتذكرت حكاية اليهودى التائه ...

ذكريات وعمى قلوب الطليان

ولاأدرى لماذا ساقتنى قدماى إلى حى كرموز وباب سدرة ، فقد رأيت حارات برمتها قد زالت من الوجود بفعل قنابل الطائرات الإيطالية المجرمة التى أعماها الله عن تل أبيب عاصمة اليهود بفلسطين وعن الأسطول البريطانى الذى يملأ ميناء الإسكندرية ، فرمت نيرانها على أحياء المسلمين فيها ! لقد كنا نتساءل فى أيام الحرب لماذا لا تضرب طائرات الألمان والطليان مدينة تل أبيب ، بل تضرب يافا والإسكندرية وحيفا ؟ بينما كانت تل أبيب هى المصنع الأول للانكليز فى الشرق الأوسط ، وكنا نقول إذا كان المحور قد نسى تل أبيب فلماذا لا ينبهه إخواننا الموجودين بألمانيا إلى تجنب المدن العربية ووجوب زيارة العاصمة اليهودية ؟ بقى هذا السؤال بلا جواب إلى أن انتهت الحرب ، فسألناهم فقالوا إننا نبهنا الألمان والطليان إلى هذه المسألة مرارا ولكنهم لم يصغوا إلينا ، ولما بحثنا عن السبب فهمنا أن الطليان كانوا يحلمون بالاستيلاء على فلسطين وأن يأخذوا مدينة تل أبيب سليمة ليستفيدوا مما فيها من مصانع حربية ومعامل صناعية وثروة لا تحصى ... فما أشبههم بالكلب الذى كان يعض على عظمة فلما رأى خياله فى الماء ظن أن هناك كلبا آخر وأن العظمة التى يعض عليها أحسن من التى معه فألقى عظمته فى النهر وقفز إلى الماء وغطس للبحث عن الكلب الآخر فلم يجده فعاد يبحث عن العظمة التى كانت بين فكيه فلم يجدها وكانت النتيجة أن تل أبيب بقيت سليمة !

ذكريات !

وفجأة وجدت نفسى أمام مركز بوليس كرموز ! فتذكرت أنى دخلته منذ ربع قرن مقبوضا على ، وقد أمضيت فيه قبل إرسالى لسجن الحضرة نحو شهرين محجوزا بأمر السلطة العسكرية البريطانية فى الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٥ فمرت بخاطرى كيفية معاملتى فيه على أيدى الإنكليز وقارنت ذلك بمعاملتى بعد ربع قرن على يد حمدى باشا محبوب ورئيسه فترحمت على الإنكليزى... ذلك أنى كنت فى مركز بوليس كرموز محجوزاً فكنت أجلس طول يومى ومعظم الليل مع الضباط والجنود وأنام الليل على مقعد مريح فى غرفة (المأمور) وأما سجن حمدى محبوب بعد ربع قرن وفى عهد الاستقلال فكان قبراً مغلقا ليلا ونهاراً ، لا أكلم فيه أحداً ولا يكلمنى أحد ، ولا أرى أحداً ولا يرانى أحد ! لذلك ترحمت على الإنكليز !

مصادفة

واخترقت بعد العصر أهم نقطة فى الإسكندرية ، تلك هى الشوارع التى تجاور محطة الرمل ، ومررت من أمام حلوانى «التريانون» فكان الزحام فى تلك الجهة شديدا ، ومر بى اليوزباشى أحمد الطاهر حسنين رئيس البوليس السرى بالإسكندرية « وهو الآن قائمقام » وكان يعرفنى لما كان ببوليس القاهرة . وقد زارنى مرة بمكتبى زيارة (حبية) سنة ١٩٣٤ بشكل لبق مدعيا أنه يسأل عن جارى طبيب الأسنان فضحكت يومها وقلت له كيف يصدق الإنسان أن طبيباً مسيحيا يعمل فى يوم أحد بعد التاسعة مساء كما أن مواعيده فى الأيام المعتادة تنتهى فى السابعة ! ونحن الآن فى الساعة التاسعة! ومع ذلك دعوته إلى الدخول فدخل وتناول القهوة عندى .. أقول إن ضابط البوليس السرى أحمد حسنين كان هو المكلف فى الإسكندرية بالقبض على ، ولكنه مر بى أمام التريانون ومررت به دون أن يخطر بباله أن الشيخ الذى يتعارج وهو ماشى وكاد يمس بكتفه كتفه هو الغنيمة المنشودة والضالة الموجودة ...

زيارة جمعية الشبان المسلمين

لم أكن فى الحقيقة أريد زيارة الجمعية ولكنى كنت أريد مواجهة الأستاذ على محمد المصرى وقد مر ذكره ، ولم أكن أعرف عنوان بيته فظننت أنى أجده فى الجمعيـة أو أعثر بواسطتها

على عنوانه ، فذهبت إلى دارها الجديدة فى الشاطبى بعد تعب وتضليل! ذلك أننى كنت أسأل عنها رجال بوليس الشوارع فكان كل واحد منهم يقذف بى إلى جهة مضادة ، وياعجباً لبوليس شوارع ما الذى لا يعرف اسم الشارع الذى هو فيه ... والخلاصة أننى وصلت فدخلت وسألت ففهمت أن معظم الأعضاء لا يزورون الجمعية فى أمسيات أيام الجمع ، ولمحت الدكتور منصور القاضى بك سكرتير الجمعية العام فى مكتبه وهو مجاهد معروف ومن جماعة الحزب الوطنى الأولين الذين عملوا للوطن فى أوروبا وفى الشرق، فتمنيت لو كان منفرداً لأجلس معه قليلا وأتحدث إليه لأنه صديق قديم ، وكان عنده بعض الزوار فاضطررت إلى الابتعاد عن غرفته وأنا آسف.

كان غرضى من البحث عن الأستاذ على المصرى أن أشكره على ما كتبه عنى وأن أسترشد به لعلى أجد بإرشاده مأوى فى الإسكندرية ، أليس ان حافظ بك عوض* قد نبهنى إلى ضرورة اتخاذ مرشد أو رفيق لساعدتى على الاختباء والاختفاء ؟

يوم سعيد ...

رجعت من دار الشبان المسلمين وقصدت إلى فندق متواضع كنت قد وضعت عينى عليه من أول النهار ، وهو فندق أجنبى رخيص[1] ففضلته على الفنادق الوطنية، لأن الأجانب أقل كلاماً وأقل فضولا واستطلاعا ، وأما فنادق (أولاد العرب) فلا تطمئن فيها لكثرة أسئلة أصحابها وفضول نزلائها . فنمت ليلة كاملة عوضت بها نوماً كثيراً فاتنى فى هذه الأيام. وفى الصباح اغتسلت بالماء الساخن والصابون بعد أن قضيت أيامى منذ الهرب بدون حمام ولا اغتسال حتى أصبحت رائحتى ظاهرة ، فكانت تضايقنى وتؤذينى، وكان بدنى يأكلنى لقذارته ، فتارة كنت وأنا فى الشوارع أحك ظهرى وتارة أحك صدرى ، وقد نويت أن أقضى ذلك اليوم كله فى الفندق، غير أن ذلك قد يلفت إلىّ أنظار أصحابه وينبه فضول الخدم ، فناديت أحدهم وتظاهرت أمامه بالمرض ثم عززت ذلك بأن كلفته مشترى شربة (زيت خروع) وشيئاً من حب الأسبرين ففعل، ولما غادر الغرفة ألقيت بزيت الخروع فى حوض الماء، وأخفيت الأسبرين للطوارئ، وتناولت ملابسى الداخلية فغسلتها بالصابون ونشرتها على الشرفة وكنت أحمل معى

(١) زرت الاسكندرية بعد هذه الحوادث بعشر سنين ، فأردت أن أجدد ذكريات أيام الفرار ، ولذلك نزلت فى نفس ذلك الفندق وفى نفس الغرفة ، وهو يسمى بـ « نيو أوتيل » .

فى تلك الأيام نسخة من رحلة ابن (بطوطة) وقد اشتريتها لأن ورقها الأصفر وشكلها الخارجى الأحمر الذى يشبه كتب الأزهريين والمشايخ كان يناسب شكلى ومظهرى، فأخذت أطالع وأنتظر جفاف ملابسى وكان الخادم يزورنى من حين إلى آخر فيرانى رابطاً رأسى بالمنديل ومدسوسا تحت الغطاء، فيسألنى عن حالى فأقول إنه أحسن، على أنى لم أنس أن أكلفه مشترى الجرائد وبعض الأطعمة التى تناسب (العيانين) وأن أنفحه قرشا صاغا ما كان يحلم به من شخص فى شكلى وهندامى ..

طرد عن باب المسجد

قضيت على هذا الحال يوما كاملا مريحاً، استرجعت فيه قواى ليصبح تفكيرى فى الأمور أدق وأصح، وفى المساء غادرت الفندق لصلاة العشاء، كما قلت لبواب الفندق، وتسللت إلى الحارات الوطنية، لا لغرض مقصود ولكن للرياضة والتنفس، ومررت بمسجد أبى العباس المرسى فوجدته مغلقاً وكان العمل يجرى فى تجديده وزخرفته، فوقفت فى الشارع أتأمله على ضوء القمر وإن كنت لم أتبين دقائق الزخرف الجديد فاكتفيت برؤية المعالم والضخامة، وإذا بحارس أدوات العمارة يصيح بى ويسألنى لم أطلت الوقوف! فسرت فى طريق وأنا متعجب من فظاظة هذا الحيوان المخبول، وإلا فما الذى يحمله على منع شيخ من الاقتراب من مسجد، وإذا كان المشايخ لا يدخلون المساجد ولا يقتربون منها فمن يدخلها أو يتأمل محاسنها. وقد تمنيت لو كانت حالتى طبيعية لبادرت هذا الحارس بالزجر والتأنيب، وأما الآن فإنه لو أمسك بى وأخذنى إلى إدارة الشرطة لكانت النتيجة وخيمة العواقب، فكظمت غيظى وواصلت السير وأنا أقول لو كانت ملابسى جديدة أو غير رثة لما نبحنى هذا الحارس، أليس أن الكلاب تنبح ذوى الأسمال دون جميع الناس؟

قهوة بلدية

وجلست فى حى «أبى وردة» فى إحدى القهوات البلدية وطلبت شاياً لأنى اشتهيت الشاى، وما كدت أجلس بجوار إحدى الموائد حتى أقبل شخص من «أولاد البلد» وجلس بجوارى وبادرنى بالحديث بلا كلفة، وانهال علىّ بالأسئلة بدون وعى ولا تفكير، فهو يريد

أن « يرغى » والسلام . وقد حسبت حسابا كاملاً لكل المضايقات التى ستصيبنى من هذا الجلف ، فتركته يتكلم حتى شبع ، ثم انتظر منى الجواب فوضعت يدى على أذنى وصحت به اسأله عما يريد ! ففهم أننى أصم لا أسمع ، فسكت قليلاً ثم التفت يميناً وشمالاً وقد ضاق صدره بى ، وبعد ذلك قام وانتقل إلى ناحية أخرى وقعد بعيداً لا أقامه الله، وبعد قليل غادرت القهوة وعدت إلى الفندق نفسه فدفعت أجرة المبيت مقدما حسب المعتاد عند فنادق الدرجة الثالثة وخصوصاً مع من كان مثلى ...

أين أذهب ؟

فكرت طول تلك الليلة فى مسألة الاستقرار فى مكان ، وكانت الاسكندرية قد خرجت عن دائرة تفكيرى لأنها لم توافقنى ، فكتبت رسالة بالبريد إلى الشيخ يوسف المشهدى قلت له فيها « إن معهد الاسكندرية لم يقبلنى لكبر سنى وإنى أرجوه تدبير الغرفة بالرواق الأزهرى وإنى سأعود إليه بعد أيام قليلة » وكان غرضى من هذا الكلام المبهم أن يجد الشيخ فى البحث عن المأوى الذى اتفقنا عليه وأن يعرف أننى لا أزال حائرا ... وفى الصباح الباكر غادرت الاسكندرية إلى طنطا ومنها إلى دمياط لعلى أجد فيها مأوى ، وكان أول ما فكرت فيه أكلة سمك، لأنى منذ شهور لم أذقه ، ودمياط مدينة بحرية يطيب فيها السمك . وطفت المدينة كلها فلم أجد فى المطاعم سمكة واحدة ، فأكلت ماتيسر وسألت صاحب المطعم مستغرباً عدم وجود السمك فى مدينة بحرية كدمياط ، فقال إن السمك كثير ولكن التجار يشحنونه إلى القاهرة والمدن الأخرى لارتفاع ثمنه هناك ، فتعجبت من شدة حرص الدمايطة على المال ولو بحرمان أنفسهم من السمك ! وقد خطر لى أن أتفرج على المدينة فدخلت الأحياء القديمة وأخذت أتجول فيها .

تعال ياشيخ محمد

وفيما كنت ماشيا فى طريق أخرج من حارة وأدخل فى درب ، وأنا آمن مطمئن من المباغتات إذا بشخص يقول وهو يركض خلفى « وأخيراً وجدتك ياشيخ محمد تعال هنا » وقبل أن ألتفت أو أتحرك هجم الشخص علىّ من الخلف وطوقنى بذراعيه فانذعرت من هذه

المباغتة والتفت إلى الشخص الذى لم أشك بأنه من رجال الشرطة، وأنه سيسوقنى إلى مركز البوليس، كما تصورت كيف يرحلوننى إلى سجن مصر مكبلا هذه المرة بالأصفاد ، ثم أقدم إلى محكمة تحاكمنى أولاً بتهمة الهرب من الحبس وبعد ذلك ينكلون بى ، ولما أدرت وجهى إلى الرجل ووقعت العين على العين إذا به يبهت ويفك الطوق عنى ويفلتنى ويعتذر لى بخجل شديد، ويقول عفواً ياسيدنا الشيخ فأنا ظننتك « فلان » وسمى شخصاً من معارفه فقبلت عذره وسرت فى طريقى وأنا أنتفض ، وسار هو فى طريقه منخجل ، وكم تمنيت لو أستطيع أن أطعمه «علقة سخنة » جزاء هوجه وخفته التى كادت تقطع ظهرى لشدة ما روعنى وهزّ بدنى .

إعراب !

صليت العصر فى المسجد الكبير ولما خرجت وأخذت أنتعل الحذاء عند الباب سمعت أحد طلبة المعهد الدينى يسأل زميلاً له أن يعرب له هذا البيت :

وإذا فروا فليس لهم مفر وإن عادوا فليس لهم مقر !

فوقع هذا البيت فى أذنى وقع الصاروخ ، لأنه كان يصف حالى وما أنا فيه من الفرار ولا مفر ، ونشدان الاستقرار ولا مقر ، فالتفت لأتبين وجه هذا المتنبىء ، وأرى أساريره وهو يحاور زميله فلعله كان ينبهه إلى ريبة خطرت على خاطره من جهتى ، ولكنى لم ألحظ شيئاً لأنى رأيت السائل ينظر فى كراسته وسمعت المسئول يجيب وقد بدأ يعرب ويحلل بدون أن يشعر أحد منهما بوجودى . فانصرفت وأنا متعجب من هذه المصادفة الغريبة أكثر من تعجبى من حماقة الذى طوقنى قبل ساعة وهو يظننى صديقه نخضنى وهدم أعصابى !

فندق اسطاسى

لم أجد غرفة فى الفنادق الوطنية كلها ، لأنهم أرادوا إعطائى سريرا فى غرفة مشتركة مع أربعة من الفلاحين وصيادى السمك ! فتركتها وواصلت البحث إلى أن عثرت على فندق « اسطاسى » وهو فندق حسن يملكه رومى بل هو أحسن فندق فى دمياط ، وأعطانى غرفة مطلة على النيل وعلى شارع «الكرنيش» فأعجبت به وبجمال ضواحى دمياط وفخامة قصورها

ومنظر النخيل فى ساعة الأصيل ، وقد بهرنى جمال الشمس من خلفه عند المغيب ، وإذا بالزمامير والأبواق التى تحذر من الغارات الجوية تعوى وتصيح، فروع الناس وأخذوا يتراكضون هنا وهناك، ولكن أين المفر من قضاء الله ، وجاءنى الخادم ينادينى لأهرب من الفندق إلى المخبأ، ثم واصل الهرب بدون أن يلوى على أحد ، وأما أنا فقد كنت يائسا من الدنيا كلها وأفضل الموت على العذاب الذى أنا فيه ، فاستسلمت لقضاء الله وبقيت حيث أنا مقتديا بالمستر برناردشو الكاتب الأرلندى الساخر ، حيث سألوه ذات مرة عما يصنع عند وقوع الإنذار بغارة جوية فقال إنه يذهب إلى سريره ويستلق على الفراش لأنه أحسن مكان لتلقى الموت ، وإنه لخير للإنسان "أن يموت فوق السرير من أن يموت وهو مختبئ" تحته ، ولذلك بقيت فى الغرفة واستلقيت على الفراش مفضلا الموت فوقه على الموت تحته، وقد أقمت فى دمياط ثلاثة أيام وأنا أبحث وأستقصى لعلى أظفر بأحد أثق به وأستعين بمودته على الاستقرار والاختفاء فلم أعثر على أحد .

الفرار بطريق البحر

وكنت أعرف مصيف رأس البر الذى يقع على البحر المتوسط ، فخطر لى أن أزور تلك الجهات لعلى أستطيع الإفلات إلى عرض البحر المتوسط فى زورق أو فى سفينة فلم يرض بحار بالذهاب إلى رأس البر، لأنه لا يوجد فيه أحد لبعد فصل الصيف عنا ، ثم بحثت مع أحد الصيادين عن ثمن زورقه الشراعى وعما إذا كان يريد بيعه. فسألنى هل أنت صياد ؟ فقلت كلا ، بل إن أحد أقاربى وهو صياد يريد أن أشاركه بأن أشترى الزورق وهو يتولى الصيد ، فاقتنع بهذا التعليل الذى ارتجلته، وطلب ثمنا لزورقه خمسين جنيهاً ، فساومته على ثلاثين فرفض .

كان غرضى أن أظفر بالزورق وأن أنشر القلع وأتجه فى البحر المتوسط شمالاً أو غرباً فإما أن أصل إلى أى شاطئ كان أو أن تظفر بى دورية بحرية محاربة من دوريات المحور التى سيطرت على ذلك البحر ، وكنت أحلم بأنى سأصل إلى بلد ما فى أوروبا وأن أتطوع لإلقاء الخطب من إحدى محطات الراديو المحورى ضد الاستعمار وأحذر العالم العربى المخدوع بوعود الإنكليز من وعود الإنكليز ، وأذكر فظائعهم وتصرفاتهم فى مصر ، وفظائعهم فى فلسطين وأشهر بالخونة وأعير أنصار الاستعمار بخدمتهم للاستعمار !

ولكن حدث فى مسألة بيع الزورق عقبة وبالها من عقبة ، وهى أن البيع لا يتم إلا بموافقة إدارة بوليس خفر السواحل ، وأن أذهب مع صاحب الزورق إلى دار الحكومة وتقدم للمحافظة (عرضحال) فتحيله إلى إدارة خفر السواحل فتتولى التحرى بأساليبها البوليسية عن شخصية البائع والمشترى وبعد ذلك تصدر قرار الموافقة ...

يا إلهى ! ما هذا الجنون الذى يريد أن أذهب معه إلى دار الحكومة وإدارة السواحل وأتعرض لبحث البوليس عنى، وهنا لم أجد بداً من العدول عن هذا المشروع، وفارقت صاحب الزورق على أن أعود إليه بقريبى ليفحص الزورق بنفسه قبل إتمام البيع ... ومشيت فى طريق وأنا أفكر فى نفسى لو وقفت أمام ضابط بوليس السواحل وهو يسألنى (انت منين ياسى الشيخ وبتشتغل إيه؟) فاقشعر بدنى من تصور ذلك السؤال الذى أفضل عليه سؤال الملكين الكريمين...

هيا إلى القاهرة...

لقد ضجرت من هذه الحياة التى أحياها وكلها عذاب للروح وتلف للأعصاب ، لأن حياة الترقب والحذر تضنى وتذيب الحديد. فرأيت أن أسافر للقاهرة للاجتماع بالإخوان والمشاورة لعلهم دبروا لى طريقة للخروج من القطر المصرى أو وجدوا لى مسكناً. فكتبت إلى الدكتور البشناق بأن ينتظرنى فى يوم معين فى دار الأستاذ محمد العتابى ووصفت له الدار وعينت الساعة .

وغادرت دمياط إلى القاهرة عن طريق متعرج بأن ركبت القطار إلى المنصورة ، ثم الأتوبيس إلى الزقازيق ، فالقطار إلى بنها . ولكنى حسبت حسابى بأن لا أصل القاهرة نهاراً ولذلك لجأت إلى فندق ريفى بمدينة بنها، وكان يجاور المحطة، فأمضيت فيه بقية النهار، بين ذباب بليد ، وبق ثقيل ، ولكن ذلك كله أخف على قلبى من رؤية الجواسيس والمتلصصين ...

نيـة !

وفيما كنت أطل من النافذة رأيت قطاراً كثير العربات يقف فى المحطة قليلا إلى أن يفتحوا له التحويلة لينعطف يميناً باتجاه قناة السويس وصحراء سيناء ، وكان القطار عسكرياً ، ولا شىء فيه إلا المدافع الانكليزية وأدوات الحرب ، من قنابل ودبابات وطيارات ، فتمنيت لو أستطيع نسف هذا القطار أو وضع شىء فى طريقه « يشقلبه » ويخرجه عن الخط !

أنا لا أحبذ التخريب والعدوان، ولكن مادام إن هذا القطار قد جهزه الاستعمار للاعتداء على الناس وتخريب ديار العباد فمن الواجب على كل إنسان أن يحول دون إيقاع الأذى بالناس وأن ينسف هذا القطار !

بل إنني ما نكبت ولا سجنت ولا هربت ولا طوردت إلا بقوة هـذا القطار وأمثاله ، فلولا أن بريطانيا تملك هذه المهلكات ما استقرت فى الشرق لحظة واحدة ، وما كنت أحتاج إلى الاحتباس طول النهار فى نافذة فندق بنها الفظيع خائفاً أترقب ، وجموع الذباب والبق تأكل بدنى وتمتص دمى ...

محمود بسيونى بك

وفى المساء غادرت بنها ، وفى الموعـد الذى عينته للدكتور البشناق تماما كنت فى القاهرة أطرق باب دار السيد العتابى . ففتح لى السيد بنفسه وأشعرنى بوجود صديق ووجود الأستاذ محمود بسيونى بك رئيس مجلس الشيوخ السابق «رحمه الله» ثم سألنى رأيى فى الجلوس معهم ففضلت عدم الظهور أمام بسيونى بك ، لا عن عدم ثقة فيه ، بل لأن الحيطة تستدعى عدم الإكثار من الاتصال بالأصدقاء، فقد يضيق صدر أحدهم بالسر يوما فيفضى به لأحد ثقاته وهذا يبوح به لثقة آخر ... وهكذا إلى أن ينكشف أمرى عن حسن نية من الجميع، ولذلك قلت له بل يحسن الانتظار إلى أن يعود البسيونى بك إلى داره . فقادنى السيد العتابى إلى غرفة محاذية . وكان الباب مفتوحا بين الغرفتين ، فأخذت أسمع حديث القوم فإذا بهم فى سيرتى ... وكان بسيونى بك يسأل عنى ، مسروراً بخبر هربى ، وكان يقول : لقد حاولت مراراً أن أزور صديق الطاهر فى سجنه فكان حمدى محبوب مدير الأمن العام يحول دون ذلك ويزعم أن الأمر فى يد السلطة العسكرية وإنه لابد من إذن منها ، ولما بلغنى أنه فى المستشفى لم أتردد عن الذهاب إليه فإذا بى أباغت بخبر هربه فرجعت وأنا أحمد الله على سلامته . ثم قص عليهم كيف كان يحاول إقناع وزارة الداخلية بالإفراج عنى ، وكيف كان حمدى محبوب يعده وهو لا ينوى الوفاء !

سمعت هذا كله بأذنى فشعرت بامتنان شديد لهذا الرجل الكريم النبيل ، رحمه الله وبرد

ثراه ، وبعد قليل انصرف البسيونى بك إلى داره ، وهى مجاورة لدار السيد العتابى ، فدخلت إلى حيث يجلس البشناق . فكانت جلسة أنيسة ، ثم ركبنا إلى مصر الجديدة ونمت تلك الليلة عند الدكتور البشناق ، وفى الصباح تذاكرنا فى الحالة فاتفقنا على أن الحرب على وشك النهاية وأن الواجب أن أنتظر أياما أخرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

بوليسيات ...

وقد سمعت من صديقى البشناق عن أعمال البوليس السرى التى كان يلجأ إليها وهو يبحث عنى أموراً تضحك وتستحق السخرية . فمن ذلك أن بوليس الجواسيس افتعل برقية باسمى وأرسلها مع أحد رجاله متنكراً فى زى ساعى التلغراف وذهب بها إلى معارف من الطلبة الشوام فى الأزهر وسألهم إن كانوا يعرفون مقرى أو يريد أحدهم أن يستلمها ، ولكنهم جميعاً رفضوا استلامها، لأنهم فهموا أن وراء هذه البرقية لحاق البوليس بمن يستلمها وتعذيبه ليهتدى بهذه الواسطة إلى مكمنى .

ومن ذلك أن الضابط محمد يوسف ذهب إلى أحد التجار السوريين الفضلاء ، وهو الحاج سليم قويدر وقدم إليه عشرة جنيهات راجياً توصيلها إلىّ إن كان يعرف مقرى زاعماً أن هذا المبلغ من إعانة جمعها بعض الأصدقاء لى ، ففطن السيد قويدر إلى الحيلة وأظهر لمحمد يوسف استنكاره لهذا التكليف وقال له أتريدون منى إرشادكم إلى مقر الأستاذ الطاهر فهل أنا جاسوس ؟ والله لو كنت أعرف مقره ما أرشدتكم إليه ولو أعطيتمونى ملء الأرض ذهبا ، فقال محمد يوسف بل أنتم تخافون منه ــ فقال ولماذا نخاف منه ، إنه يخدم الإسلام والوطن فواجبنا المحافظة عليه أو على الأقل عدم إرشادكم إلى مقره لو كنا نعرفه

ومن نوادر الضابط ... أن زوجته وهى دمشقية من عائلة « كذا » كانت فى مجلس نسائى سورى ، وجرى الحديث عن مسألة هربى فإذا بها تقول (أليس عيبا من الطاهر أن يهرب؟ هذا ليس عمل رجال ، فقد سود وجه محمد بيك الذى ساعد على دخوله المستشفى وتعهد للحكومة بالمحافظة عليه فى المستشفى) ...

وكانت تتكلم من قلب محروق من عطل المجرد من الرجولة ، لأن الرجولة فى نظرها أن

أبق فى السجن ليصل زوجها إلى رتبة أعلى ... وأما هربى فإنه فضلا عن كونه قد حرمه الترقية فإنه على الأقل سيؤخرها، وقد كان ذلك، لأن الضباط الذين كانوا أقل منه أصبحوا أعلى منه رتبة.

وبهذه المناسبة أسرد الحادثة التالية عن رجل كريم شهم هو الضابط « القائمقام المتقاعد اليوم » عبد المجيد ثروت بك فقد كان مأمورا لبندر شبين الكوم فى أيام هربى ، وهو ابن عم الأستاذ الدكتور محمود عزمى وصهره أيضاً ، وكان من المكلفين بالقبض على ، فقال والله لو رأيت أبا الحسن لأخفيته فى بيتى

هدية من اللادن !

وقد خطر لى بعد هذا التجول ،وجودى بالقاهرة تطمين أهل بيتى ، فكتبت لقرينتى رسالة أطمئنها عنى وكلفت الدكتور البشناق بحملها وطلبت من قرينتى إرسال الجواب بعد العصر إلى منزل الشيخ يوسف الشهدى بطريقة ما ، فوضع الدكتور تلك الرسالة فى جواربه وذهب إلى دارنا بشبرا فزار الأسرة ، وسلمها الرسالة كما طلبت ، أما أنا فقد غادرت دار الدكتور ليلا إلى دار الشيخ يوسف وبعد العشاء وصلت خادمتنا إلى دار الشيخ تحمل مقدارا قليلا من (اللادن) هدية إلى أسرة الشيخ ، وكان اللادن ملفوفا بورقة وكانت الورقة نفسها تحمل الرد! فاستلم الشيخ يوسف تلك الهدية وصرف الخادمة بعد أن أمرها بشكر أصحاب الهدية باسم أهل بيته . وقد تم ذلك كله تحت أنف البوليس المترصد بباب دارنا وأمام عينه أيضاً ، لأنه لم يخطر بباله مطلقا أن قرطاس (اللادن) الذى فى يد الخادمة يحتوى على السر الذى طال عذاب البوليس دون الحصول عليه، فقرأت الرسالة ومافيها من أخبار ...

خناقة ...

كان الشيخ لما جئت إليه قد صرف أهل بيته ليزوروا إحدى الجارات حتى لا يكبد أهله عناء حمل كتمان سر وجودى عندهم ولكيلا أتضايق أنا أيضاً ، وتصادف أن بعض أطفال الشيخ يوسف جاءوا من المدرسة فصعد معهم أحد أولاد قريبه الشيخ « م » ... فهرولت إلى الغرفة الداخلية وأغلقت بابها على ، ولأمر قضاه الله تلصص ذلك الولد وتطلع من ثقب المفتاح فرآنى فاستغرب الأمر ونادى بقية الأطفال فأخذوا (يبصون) على من الثقب فدهمهم

الشيخ يوسف وهم يتلصصون علىّ وصاح فيهم وضربهم وطردهم فراح ابن قريبه يبكى وغادر الدار.
فناديت الشيخ يوسف وقلت له لقد أخطأت، لأن الولد الذى ضربته ستسأله أمه عن سبب بكائه فيقول لها إننى « بصصت » من خرق الباب على ضيف مختبئ عند عمى الشيخ يوسف! فتتجه أنظار والده إلى، ولاسيما أنه من أصدقاء الضابط محمد يوسف والعطار ... والله أعلم بالنتائج، فقال الشيخ لقد جرى ماجرى فكيف العمل؟ فأشرت عليه بأن يركض خلف الغلام ويعود به ويسترضيه بشكل ينسيه حادثة ضربه.

وعاد الشيخ ومعه الولد ثم أعطاه حلويات ونقوداً كما أننى لرفع الشبهة انتقلت إلى الصالون ولاطفت الأولاد ليكون الحال طبيعياً وقد أكرمتهم كما يكرم الضيوف أولاد مضيفهم ...

إلهام من الله

وبعد قليل أقبل الظلام فطلبت من الشيخ أن يأذن لأهله، بالعودة إلى الدار وأما أنا وإياه فنتزل إلى الضاحية للرياضة واستنشاق الهواء، ومشينا فى الشوارع القريبة من دار الشيخ يوسف إلى أن دقت الساعة العاشرة مساء، وهنا هجس فى نفسى هاجس لا أدرى كيف أسميه، لأنى وقفت بغتة وقلت للشيخ يوسف استودعك الله، فقال إلى أين؟ فقلت إلى أرض الله الواسعة، فقال ولكنى أوصيت أهل الدار بإعداد العشاء وخصصت لك الغرفة الداخلية لتنام الليلة عندنا، فشكرته وصممت على الرحيل، فتعجب من إصرارى وودعنى كارهاً، وأنا نفسى كنت متعجباً من ارتجالى هذا الرحيل ومن إصرارى على البراح على صورة كنت أشعر بأنها خارجة عن إرادتى.

تفتيش ...

ذهبت بعد فراق الشيخ يوسف إلى دار الدكتور البشناق بمصر الجديدة فسهرت عنده وحدثته بحوادث اليوم فضحك لما سمع حكاية «هدية اللاذن» ولكنه تشاءم من حادثة ابن الشيخ محمد .. وهنا أجد من المناسب أن لا أؤجل سرد ما جرى للشيخ يوسف بعد فراق إياه، فقد بلغنى بعد مدة أن الشرطة دهمت بيته عند فجر تلك الليلة وفتشته بحثاً عنى، وفى

الصباح استدعوا الشيخ يوسف إلى إدارة البوليس السياسى وأخذ الضابط محمد يوسف ـ دائماً محمد يوسف ـ يستجوبه ويسأله عنى كمن يعرف أنى كنت عنده، ولكنه لم يصرح له بتفصيلات أكثر، فهل كان الغلام المضروب ابن الشيخ فلان ... هو السبب؟ وأنه أخبر والده لما جاء من سهرته بقهاوى سيدنا الحسين بحادثة ضربه بسبب تطلعه على ضيف الشيخ يوسف من ثقب مفتاح الباب ؟ ...

حادثة أغرب

ووقعت بعد ذلك حادثة أخرى من حوادث الإلهام النفسى لا تقل عن هذه غرابة، وذلك أنى قبل أن أدرى بهذا الحادث الذى جرى للشيخ يوسف كتبت إليه كتابا ووضعت عليه طابع البريد، ولكنى لما أردت أن ألقيه فى صندوق البوستة توقفت بغتة وأرجعت يدى به ومشيت قليلا ثم أخرجت الكتاب من جيبى ومزقته إربا .

وبعد أسابيع من ذلك اليوم علمت بتفتيش دار الشيخ، وبأنه لكثرة إزعاج البوليس له بالأسئلة والرقابة، أخذ أجازة وسافر إلى فلسطين لزيارة والده. فلو نمت عند الشيخ تلك الليلة، أو لو ألقيت ذلك الكتاب فى صندوق البريد ـ وفيه عنوانى الذى يؤدى إلى مقرى ـ نعم لولا إلهام القدر لسافر ذلك الكتاب ووصل إلى يد قريب الشيخ يوسف ... « ومن فضله بعد ذلك إلى يد الضابط محمد يوسف » ...

من ألطاف الله

وهناك حادثة ثالثة من هذا النوع وقعت بعد أشهر، وهى تدل على عناية الله ولطفه، وإن لمن تحيطه رعاية الله أن ينام فالمخاوف كلهن أمان : وذلك انى انقطعت عن زيارة صديق نسيب شهاب مدة طويلة وهو لا يعرف أين أنا، وفى أحد الأيام كتبت إليه رسالة أطمئنه عنى وأخبره بأننى سأزوره فى يوم عينته، وبعد أن وضعت طابع البريد على الظرف هجس خاطر فى نفسى، فعدلت عن إرسال الرسالة ومزقتها وعدلت عن زيارته بتاتا ...

وبعد أسابيع علمت أن بوليس مديرية الغربية قد هاجم فى ذلك اليوم بيته فى كفر الوسطانى وفتشه بحثاً عنى، ثم أخذوه إلى طنطا فحقق معه بدوى باشا خليفه مدير الغربية وهدده بالنفى

من القطر المصرى إن لم يعترف أين أنا . فأكد له بأنه لا يعلم عنى شيئاً ، وكان بدوى باشا متحمساً ضدى لأنه يعرفنى جيداً وله قصة معى لما كان فى سنة ١٩٣٣ مديراً للأمن العام ...

ولم يتركوا نسيب إلا بشروط وتعهدات بأن لا يقبل ضيوفاً عنده ، ثم وضعوا عليه الأرصاد والعيون ، فتضايق واستقال من وظيفته وانتقل بأسرته إلى القاهرة وسكن بمصر الجديدة .

ومن ألطافه تعالى

وهذه حكاية رابعة تدل على أن القدر إن أراد أن يهلك أبعد الناس عن الخطر أهلكهم ، وإن أراد أن ينجى أقربهم إليه نام عنهم . وذلك أننى لما علمت بما أصاب نسيب سعيت حتى أخذت عنوانه ، فكتبت إليه أهنئه بسلامته من الحادث الذى كدره ، فإذا بالصدف تجعله يقطن فى دار يملكها ويسكنها شذاذ وملاعين من فلسطين وأنا لا أدرى ، وشاء القدر أن يستلم أحدهم الرسالة من عامل البريد ويسلمها لنسيب وينتهى الأمر ، فلو خطر ببال ذلك الرجل أن يفتح الرسالة لما بقيت حياً إلى الآن ، لأنه كان يسلمها لصديقه محمد يوسف ...

لقد غلطت كثيراً أثناء هربى واختفائى ، فلولا أن الله سبحانه وتعالى كان يحوطنى بعنايته لوقعت فى أيدى الظالمين . ولكن الله الذى يعلم السرائر وما تخفى الصدور لا يخفى عليه أننى ما وقعت فى هذه المحنة ولا لقيت هذا العذاب إلا بسبب دفاعى عن المظلومين وزجر الظالمين ، فأراد أن يلطف بى وأن يفهمنى أنه لا يضيع مثقال ذرة فحفظنى من كيدهم .

« هذا استطراد وضعته فى مكانه ، ولنرجع إلى ما كنا فيه » .

إلى كفر الوسطانى

نمت تلك الليلة عند الدكتور بشناق . ولم أنم إلا بعد أن فتحت النافذة برغم شدة برد الليل واستلقيت بجوارها استعداداً للقفز إلى الشارع الخلفى عند ما أشعر بأقل خطر ... وفى الصباح المبكر جداً تركت دار البشناق وهو نائم وغادرت مصر الجديدة ماشياً إلى حى الزيتون ، قاصداً محطة عين شمس ، لأنها محطة نائية لا يكاد المرء يجد فيها أحداً ، إنها المحطة

القريبة من دار صديق القديم عزيز باشا المصرى الذى قاسى من أمته ما هو أشد من عدوان المستعمرين .

معتقل الزيتون

وفيما كنت أسير فى شارع سليم الأول استرعى نظرى وقوف جنود حول منزل كبير كنت أعرفه مدرسة . وكانت حديقتـه الغناء قد جفت يومها وأحيط سورها بسياج من الحصر فدفعنى الفضول إلى سؤال أحد المارة عن خطب هـذه المدرسة فقال إنها الآن حبساً للسياسيين ويسمى « معتقل الزيتـون » فتابعت خطواتى وأنا متعجب من خبث الذين وضعونى فى زنزانة

صورة معتقل الزيتون

سجن الأجانب مع وجود هذا الحبس الذى يعد جنة بالنسبة إلى ذلك السجن، وقلت فى نفسى لو وضعونى هنا ما هربت ولا قاسيت وأقاسى ما أنا فيه ... ومن محطة عين شمس ركبت إلى شبين القناطر فالزقازيق فالمنصورة ، وفى المساء كنت فى دمياط ، فنمت بفنـدق صاحبنا « اسطاسى » على أن أقضى فترة بدمياط ثم أقصد إلى كفر الوسطانى .

كان مقر نسيب شهاب غير بعيد عن دمياط غرباً ، وأظن أن المسافة لا تزيد على ثلاثين كيلا[1] فقلت فى نفسى لا بأس من تمضية أيام عند صديق ، وإن سألنى أحد من جماعته هناك لماذا جئت مرة أخرى فسوف أزعم له أن الأزهر فى أجازة أو أن صحتى استفادت من تبديل الهواء فى تلك الجهة فأحببت الرجوع إليها من حين إلى آخر ، وسألت عن الطريق الموصل

(١) الكيل هو الكيلو متر . هكذا يرى صديق العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية « والآن سفير مصر بالباكستان » وقد اعتمد تلك التسمية للكلمة الافرنجية واستعملها فى كتابه القيم (رحلات عبد الوهاب عزام) فأحببت أن أجاريه وأقتدى به لأنه من أهل الذكر الذين يسألون .

إلى « كفر الغاب » التى تمر بالوسطانى، فأرشدونى إلى محطة (أتوبيس خطاب) وهى سيارات قذرة مخلعة لا تصلح للبشر ، ولا أدرى كيف تسمح الدولة لهذه الأخشاب المتحركة بحمل الناس وكان أولى بها الحرق ...

لما جلست فى السيارة كانت الساعة قرب الواحدة بعد الظهر على أن تسير بعد ٥ دقائق، هكذا قالوا..وازدحم الناس فى ذلك الصندوق الخشبى «المخرشم» الذى سموه سيارة ظلما وكذبا ، ولولا الدواليب التى تحمله وتدرج به ، لأنف الخلق من الاقتراب منه ، ومرت ساعة وساعة وساعة ، ثم نصف ساعة حتى تحرك (الأتومبيل) الوقور من مكمنه فى الزقاق الذى يقف فيه ويسمونه محطة ! ولكن تبين للسائق بعد أن جلسنا وتعطلنا بضع ساعات أنه فى حاجة إلى بنزين وماء وزيت ، فوقف . وبدأت عملية تزويد السيارة بموادها الحيوية .. يارب ما هذه العقلية التى منحتها لسائقى السيارات . إنهم كلهم على اختلاف مواطنهم وبلدانهم وأقطارهم لا يفكرون فى تزويد السيارات بما تحتاجه إلا عندما تبدأ فى السير وبعد أن يكون ركابها قد ضجوا و « طقوا » من ألم الانتظار ، والغريب أن ذلك لا يحدث غالباً إلا من سيارات السفر والعياذ بالله !

ومشت السيارة فى طريقها لتقطع الثلاثين كيلا فى نصف ساعة ولما خرجت من مدينة دمياط وخرجت من رقابة الشرطة بدأت تقف لركاب جدد فوق العدد القانونى وهو ٢٤ راكبا ، فإذا بهم يصبحون أربعين ومع أكثرهم قفف وسلال وصفائح جبنة ومقاطف خبز وعلب فسيخ ...

ملاحظات ووصف

ولم تصل السيارة إلى كفر الوسطانى إلا بعد ثلاث ساعات ، أى أنها قطعت ١٠ كيلات فى الساعة ، وهى مع ذلك تسمى سيارة ! وكان الواجب أن تسمى سلحفاة ... إن العذاب الذى يلقاه أهل الريف فى حياتهم لا دواء له إلا أن يكون فى قوانين الدولة مادة تنص على أن لا يتولى أحد منصب وزير إلا إذا سكن الريف مع الفلاحين وليس فى القصور التى تقام بجوارهم بل يرغم على السكنى بينهم ، سكنى صحيحة ، وأن يعيش عيشتهم ليذوق طعم

الموت الذي يذوقونه طوال حياتهم ، من قذارة البيئة والخصاصة وظلم الشرطة وتعسف العمدة وشرب ماء الترع الموحل والاستحمام بالمستنقعات ولسع الناموس ومضايقة الذباب ، وأن يركب ذلك الغنى السيارات الريفية ....

زائر غير مرغوب فيه !

قضيت عند نسيب شهاب بضعة أيام بدون وقوع حوادث تذكر ، وقد أمضيتها فى التفكير والتدبير ولم يضايقنى وقتها إلا مجىء زائر لنسيب وهو جاره فى تلك الجهات المقفرة وهو من الناس الذين يستحقون الوصف بأنهم من الناس . وهو يسمى عارف عبدالملك وأصله من لبنان ويملك مزرعة لاتبعد عن الوسطانى أكثر من ١٠ كيلات ، فركضت إلى الغرفة الداخلية مدعيا الصداع كالمرة السابقة ووضعت الإسبرين بجوار المخدة وربطت رأسى ، ولكن هذا الضيف لم يدر بى ، غير أن فؤاد يزدى جاء لعيادتى وجلس معى وأخذ يسامرنى وقد اطمأن بالى من جهته لأنه ماعاد يذكرلى الأسماء القديمة ولم يسألنى عن مؤلفات العلامة السرخسى ...

ثم كتبت إلى صهرى ابراهيم الدرس فى شبين الكوم برغبتى فى مقابلته بطنطا ، وفى مقام السيد البدوى كالمرة السابقة ، وكان كتابى إليه مبهماً طبعاً ولا يمكن لغيره أن يفهم من أحاجيه حرفا واحداً .

أخبار العراق

وصلت إلى طنطا قبل العصر ، فجلست فى القهوة المواجهة لباب مسجد السيد البدوى كالمرة الأولى ، أرقب مرور ابراهيم فسمعت الراديو يذيع ما خلاصته (... وقد خلع المجلس العراق وصى العرش الأمير عبد الإله ، ونادى بوصاية الشريف شرف عدنان ، ولا تزال المعارك دائرة بين الجيوش البريطانية وجيوش رشيد عالى الكيلانى التى لاتزال تطلق النار والحالة غامضة) هذا كل ماسمعته فسررت من هذه الأنباء التى تنذر بأن ساعة الإنكليز قد دنت ، وها هو العراق قد تحرك وليس بعد ذلك إلا قيام العالم العربى على الاستعمار . وأما الذين كانوا فى القهوة فقد سرهم نهوض العراق وقالوا لم يبق أحد ساكتاً إلا نحن ، فمتى نقوم ونخلص من الإنكليز مثل العراقيين ؟

لقد أنعشني ماسمعت وأخذت أفكر في المستقبل ، وتصورت أنني عشت لأرى بعيني زوال الإنجليز من البلاد الإسلامية والعربية ، لأن كل شيء في ذلك الحين كان يؤذن باستسلام بريطانيا بين يوم وآخر .

مقابلة غريبة غير منتظرة

ولما أذن العصر ولم يمر إبراهيم ظننت أنه ذهب إلى المسجد من شارع آخر ، فقمت من القهوة وذهبت إلى المسجد فإذا بجنود يمنعون الناس من اجتياز الباب الكبير بل سمحوا بالدخول من الباب الآخر ، فدرت حول المسجد ودخلت من باب خلفي صغير وكان الزحام شديداً . فسألت عن الأسباب ففهمت أن جلالة الملك سيزور طنطا غداً ، وأنهم يعدون المسجد لصلاة الملك ، فهم لذلك ينظفون المنطقة الداخلية من المسجد ويفرشونها بالطنافس . فاندسست بين الناس ، وكان بقرب مقام السيد جماعات من النساء جئن للتبرك والزيارة كالعادة ، فتوضأت وصليت العصر وأخذت أتنقل من هنا إلى هناك لعلى أجد إبراهيم ، وإذا بسيدة متحجبة تلبس الملابس البلدية تلمس كتفي وتقول لي : (اتبعنى يا أبو الحسن) ... فاندهشت من هذه المباغتة دهشة عظيمة ، والتفت لأتبين هذه المرأة التي تلمسنى وتناديني باسمي ، فإذا بها تبادرني بقولها : أنا فلانة .

إنها قرينتي ! فما الذي جاء بها ؟ وكيف عرفتني وأنا بهذه الجبة وتلك اللحية الخفيفة التي هذبتها منذ ساعة عند المزين بدرب اللبانه ...

تظاهرت أمام النسوة وأمام الناس بأني لم أسمع ، ثم قلت لها اتبعيني من بعيد ، ومشيت وئيدا واتجهت نحو الباب البحرى من المسجد وخرجت إلى سوق التجار حيث تباع أقمشة السيدات ، وفي خلال ذلك الزحام أصبحت أمشي بجوار زوجي وهي بجوارى كأننا من أهل الريف جئنا لنشترى حاجتنا من المدينة .

مأزق ...

وأخذنا نتحدث ونحن سائران وقد فضلنا المشي في الدروب الجانبية فإذا بنا ندخل حارة غير نافذة ؛ عرفت ذلك لأن سكانها كانوا كلهم من طبقة العوام السفلى ، وكانت نساء الحارة

جالسات على أبواب منازلهن للمحادثة والمسامرة، وبعضهن يفترشن الحصر ويجلسن حلقات... فلما تورطنا بدخول الحارة أحاطت بنا عيون هذه الجماعات وهن متعجبات من دخول سيدة وشيخ على حرمهن المصون ! فقالت إحداهن « إنت رايحة فين ياست ، وانت يا سيدنا الشيخ؟ » فبادرت قرينتى بالجواب فوراً قائلة : « عاوزين منزل الشيخ الخطيب » فقالت أخرى: لا يا أختى إنه لا يسكن هذه الحارة ، فرجعنا أدراجنا ونحن لا نصدق بالخلاص من هذا الفضول ! ولما مشينا فى طريقنا قال زوجى إننا لا نستطيع الكلام ونحن هكذا فهل تتذكر جارتنا أم سمير التى تركت مصر وسكنت طنطا ؟ إن عنوانها معى فتعال نزورها وهناك نتحدث مليا وصعدنا إلى منزل الأستاذ سيد عبد الحميد ، وهو موظف بالسكة الحديدية فاستقبلتنا زوجته أم سمير وفرحت بنا وكانت تعرف كل شىء عنا ...

هذه الصورة تمثل لقائى مع زوجى فى طنطا ، وحيث انى لم أتمكن من التصوير يومها فقد مثلت الموقف بعد زوال المحنة فى نفس الملابس التى كنت فيها وأنا هارب وقد جعلت أحد عمال محل التصوير يرتدى مثل الملابس التى ارتدتها قرينتى يوم اللقاء فى مسجد السيد البدوى

حديث ذو شجون

سألت زوجى كيف جاءت من مصر وكيف نجت من أعين الجواسيس وكيف عرفت الموعد وكيف اهتدت إلى ؟ فقالت ـ لقد ضايقنى جواسيس البوليس الذين ما عادوا يفارقون باب

الدار ثم اتصلوا بالخادمة وأغروها على التجسس علينا، وقد عرفت ذلك من وجود قطعة نقود فضية معها، فادعت أنها وجدتها على الدرج فاشتبهت بها وراقبتها إلى أن لمحتها من النافذة وهى تتبادل الإشارة بالأيدى مع مرشد البوليس الذى يجلس فى القهوة القابلة ، ثم رأيته بعد يومين يعطيها قطعة حلوى، ومرة دهمتها وهى تفتح شباكاً وتغلقه بشكل ملحوظ ففهمت أنها كانت ترشد الجاسوس ، وكان عندنا بعض الزائرات فإذا بالجاسوس يهرع إلى أقرب تلفون وبعد قليل جاءت قوة من الشرطة تركب الدراجات النارية فأحاطوا بالعمارة وصعد قائدهم إلى الدار وأخذ يسأل عنك وعن هوية الذين دخلوا الدار فأفهمته أنهن سيدات من معارفنا ولما انصرفن تتبعهن رجال الشرطة وكبسوا بيوتهن للبحث عنك . فطردت الخادمة ونبهت على معارفنا بعدم زيارتى مطلقاً ، وصرت لا أخرج من الدار ، وحدث بعد ذلك أن خادمة لإحدى قريباتنا جاءت لحاجة ما، ولما انصرفت تتبعوها ويظهر إنها غلطت بالترام الذى تريده فركبت سواه ثم فطنت إلى غلطتها فنزلت منه وركبت الترام المقصود وكان البوليس يتتبعها ، وكان عليها أن تركب تراماً ثانياً لتصل إلى منزل أقاربنا فظن رجال البوليس أنها تضللهم ، فأمسكوا بها وضربوها ضرباً شديداً وأخذوها إلى مركز الشرطة وحققوا معها ليحملوها على الاعتراف عن محل وجودك !

قصة أخرى

وكانت والدة أم سمير التى نحن الآن عندها قد جاءت من الإسكندرية للقاهرة وزارت صديقاتها من سكان العمارة التى تسكنها ، وكانت هى تسكنها أيضاً فيما مضى ، فأرادت أن تؤنسنى فسهرت ونامت عندى وفى الصباح سافرت إلى طنطا لتزور ابنتها أم سمير ، فإذا بالبوليس يتتبعها من مصر فدهم دار زوج بنتها هذه ودار والده أيضاً . ثم قصت على قصة أغرب وهى مضحكة .

معركة !

فقد روت زوجتى من الأخبار إنها دعيت مرة لتبديل الهواء فى بلدة التل الكبير عند أبناء عم لى يملكون بستاناً هناك ، فإذا بالجاسوس المتربص بباب الدار يتبعها إلى محطة مصر

فلما رآها تشترى تذكرة سفر احتار المسكين واضطر إلى إظهار نفسه أمامها واستحلفها بالله أن لا تركب القطار إلا بعد أن يتصل برؤسائه ليسمحوا له بالسفر خلفها ويبعثون له ملابسه وتذكرة سفر أيضاً ! فابتسمت مشفقة عليه وانتظرت إلى أن وصلته التذكرة والملابس . وكان سرور أسياده بهذا السفر عظيما لأنهم لم يشكوا فى كون زوجى ستقابلنى فى هذه الرحلة وأن الغرض منها هو اللقاء ...

ولما وصلت زوجى إلى التل الكبير وجدت فى المحطة قوة بوليسية تنتظرها ، ثم تلحق بها علناً وأمام الناس وتمشى خلفها جهرة حتى المنزل فأحاطت به القوة البوليسية من بعيد وطوقت المزرعة كلها ! وقد تبين بالبداهة أن بوليس القاهرة قد أمر بوليس التل الكبير بمراقبة زوجتى ومراقبة البستان، على ظن أننى سأجىء لهناك لمقابلتها. ولكن بوليس القاهرة، نسى أن يخبر بوليس التل الكبير بأنه أرسل خلف زوجتى جاسوساً من عنده ...

وفى المساء سمع سكان تلك الجهة ضجة أطلق فيها الرصاص ، وشهدوا معركة ... ثم تبين أنها كانت بين جواسيس بوليس التل الكبير وجاسوس مصر الذى كان أيضاً يرقب ويتلصص!

فهذا اشتبه بأولئك الأشخاص وهم اشتبهوا به ، فسألهم من أنتم ولماذا تحومون هنا ، فاستنكروا سؤاله، وسألوه من أنت ولماذا أنت هنا، فاستنكر سؤالهم واعتبره قحة، كما اعتبروا سؤاله قحة وتطفلا ، وكلمة من هنا وكلمة من هنا ، ووقع الضرب واللكم والشتم ...

وجرى التحقيق فى مركز البوليس ، فاتضح للجميع سوء التفاهم الذى وقع، فهؤلاء جعلوا الحق على بوليس مصر الذى نسى أن يخبرهم بوجود جاسوسه، وهذا جعل الحق على جواسيسهم الذين كان يجب عليهم أن يدركوا من تتبعه للفريسة بأنه مثلهم ! لقد كانت مهزلة بلاشك وكان تخبطاً من الجميع ، ولكنه تخبط أضحك أهل التل الكبير ، كما أضحكنى أنا أيضا ...

تعليقات

وكم كنا وكل إنسان فى مصر يتمنى لو أن البوليس يتتبع الجناة والمجرمين بهذه العناية وتخصيص العيون والجواسيس للقبض عليهم ليخدم الأمة والدولة أعظم خدمة ، ولكن هذا الاهتمام لا نراه إلا إذا كان الأمر يهم الإنكليز . هذا ما جرى فى تلك الرحلة . ثم قصت على

زوجى الأخبار الأخرى التى علمت بها فى وقتها وسردتها فى صفحات سابقة ... فسألتها كيف جاءت من مصر إلى شبين ثم إلى المسجد؟ فقالت إنها ضجرت من حياة الوحدة فلبست غير ملابسها المعتادة وغادرت الدار فى الصباح المبكر جداً ومرت بالجاسوس الذى يرقب باب الدار حيث كان نائماً فلم يشعر بمرورها ، بل إنه لو رآها ما عرفها لأنها كانت فى زى غير زيها ثم ركبت سيارة أقلتها إلى شبين الكوم لتقضى بضعة أيام بضيافة شقيقتى ، وتصادف وصولها اليوم ، أى فى نفس الموعد الذى ضربته للقاء صهرى إبراهيم فطلبت منه أن تقوم هى بمقابلتى فاستعارت من الجيران ملابس « بنات البلد » أى الملاية اللف والبرقع وركبت سيارة إلى طنطا ، وبقيت فى الجامع البدوى بين زائرات الضريح والمتبركات به وكان إبراهيم قد وصف لها شكلى فعثرت علىّ وقد عرف القراء كيف تم ذلك .

خيانة غير منتظرة

ومما أخبرتنى عنه قرينتى حادثة غريبة من حوادث خيانة الصداقة ، فقد روت لى أنه فى صبيحة الليلة التى هربت فيها ، وبعد أن جاء البوليس للبحث عنى وصلت إلى منزلنا « مدام ... » وكانت تعتبرنى بديلا لشقيقها الفيلسوف المرحوم... لكثرة ماخدمته وخدمتها وزوجها أيضاً وقد بادرت « مدام ... » بسؤال زوجتى عنى وكيف هربت وأين اختفيت! فاندهشت قرينتى من هذه الزيارة وهذه الأسئلة ومن معرفة الزائرة بخبر فرارى ، فقالت لها زوجى : أنا مندهشة يافلانة من زيارتك لنا اليوم ومن سرعة معرفتك بفرار زوجى ، فى حين أنه لم يسبق لك أن زرتينا ، لا بمناسبة الزواج ، ولا بمناسبة حبس زوجى ، ولا بمناسبة وفاة طفلتنا ، فأنا غير مرتاحة لهذه الزيارة ولا من هذه الأسئلة ، ومع ذلك فإنى لا أدرى كيف هرب ولا أين هو ، ولو كنت أعرف لما أخبرتك ، ولكن كيف عرفت بهربه؟ فقالت إنها سألت المستشفى اليوم عن صحتى فأخبروها بحادث الهرب ، فابتسمت قرينتى من هذا التعليل المكشوف ، وهنا لم يسع « مدام ... » إلا الانصراف وهى فى حالة شديدة من الخزى ...

فقلت لزوجى : إن « مدام ... » جاءتك من طرف الاستخبارات البريطانية وليس من قبل البوليس، لأنها تسكن شقة تقابل منزل صموئيل عطيه أحد قدماء موظفى الاستخبارات

البريطانية فى السودان ثم فى السفارة أخيراً ويوجد بين أسرته « ومدام ... » علاقة جوار ومودة ، وقد التقيت به مرة عند « مدام ... » فلاشك فى أنه هو الذى دفعها إلى القيام بهذه « الزيارة » ... كما أن بناتها متزوجات من انكليز!

لقدراعنى هذا العقوق والغدر من سيدة طالما أسديت إليها وإلى أسرتها ومعارفها يداً كانت تسميني من أجلها بالأخ الشقيق!

إنه لدرس تلقيته فى ذلك اليوم بوجوب الاحتياط من بعض الأصدقاء كما أحتاط من الأعداء بل أكثر ...

ولنرجع إلى ما كنا فيه . فأقول إنه بعد حديث قصير تفاهمت مع زوجى على أمورنا الخاصة وطريقة الاتصال الكتابى ثم ودعتها وانصرفت على أن تسافر هى أيضاً بعد قليل عائدة إلى شبين الكوم فالقاهرة .

ليلة ليلاء!

وسرت فى طرقات طنطا إلى أن وصلت قهوة فاسترحت وأخذت أفكر وأدبر، فقررت النوم فى طنطا وفى المساء بحثت عن فندق أنام فيه ولكنى لم أجد . نعم لم أجد بفنادق طنطا كلها غرفة واحدة أنام فيها إلا لوكندة الاقصر الإرستقراطية ، فهذه تجنبتها ، فاستقصيت أسباب ازدحام الفنادق فى ذلك اليوم دون سواه ففهمت ويالهول ما فهمت ، إن المدينة كلها موضوعة منذ الليلة تحت الرقابة البوليسية الشديدة بسبب الزيارة الملكية لهذه المدينة غداً ، فجميع المساكن الخالية على جوانب الطرق التى يمر منها الموكب قد أغلقت وأخذ البوليس مفاتيحها ، وجميع الفنادق التى تقع فى تلك الشوارع قد احتل البوليس السرى غرفها المطلة على الشارع وهى إجراءات عادية تعمل كلما زار أحد الملوك بلدة ما ، وفى الحقيقة إننى ذهلت لهذه المصادفة لأنى أعرف أن جميع رجال البوليس السرى وجواسيس الدولة قد احتشدوا فى طنطا ويوجد عدد كبير منهم يعرفنى حق المعرفة ، فكيف العمل ؟ وأين أنام ؟ لقد بحثت عن سيارة مسافرة إلى أية جهة من جهات القطر أفر بها من هذا الهول فلم أجد ، وبقيت أجول فى الشوارع إلى ما بعد نصف الليل ، حيث أغلقت الدكاكين والمطاعم والقهوات ولم يبق

فى الطرقات إلا أنا والعسس الذى يجوس خلال المدينة . وأخيراً تشجعت ولم أتردد فى الذهاب إلى فندق الأقصر وأن أطلب غرفة فأعطونى واحدة خلفية ملعونة فرضيت بها وكتبت اسمى فى الدفتر هكذا «الشيخ ابراهيم بسيونى محام بالجيزة» أى نفس الاسم كالمرة السابقة . وصعد الخادم أمامى وبيده مصباح ضئيل النور ، ولما أخذ يفتح الباب إذا بثلاث غرف من المطلة على الشارع ويسكنها البوليس - تنفتح أبوابها فى وقت واحد ويمتد من كل باب رأس له عينان ليحدق ويتأمل شخصية القادم ! إنهم من رجال البوليس السرى ، والظاهر أنهم لم يروا بى ما يريب فأعادوا رؤوسهم إلى داخل الغرف ثم أغلقوها !

وأما أنا فقد بقيت فى الفراش بملابسى بين النوم واليقظة ، متعب الأعصاب مرهق النفس والجسم حتى الفجر وإلى أن سمعت أذان الصبح ، فقمت وغادرت الفندق وأنا أكبر وأهلل وأهمهم كالأتقياء الذين لا عمل لهم فى هذه الدنيا إلا التدجيل والتظاهر بالتقوى ، وأما الأتقياء الحقيقيون فلا يكاد يشعر بعبادتهم أحد إلا الله . وقد أديت صلاة الصبح فى مسجد منعزل ولما خرجت أول سيارة ركاب من طنطا كانت وجهتها مدينة المحلة الكبرى فركبت فيها . وقضيت يومى أدرس حالة مدينة المحلة عساى أعثر فيها على مأوى يصلح للاستقرار فلم أجد ، وفى المساء دخلت فندقاً رومياً بجوار المحطة وكنت من أول النهار قد فكرت فيه .

البنطلونات . .

وما كدت أصعد الدرج حتى سمعت الخادم وهو نوبى ينتهرنى ويمنعنى من الصعود حتى لا أوسخ الدرج ! ثم صاح يقول (ارجع ياشيخ فهذا الفندق ما ينفعكش وفتش لك عن خان أحسن لك) . أما أنا فقد نسيت حالى ونسيت ظروفى وما أنا فيه من وجوب التحفظ والحيطة وصحت فى الخادم البذىء موبخاً مؤنباً ، ولم أتردد عن الصعود وأنا أبربر وأبرطم فسمعنى أصحاب الفندق الأروام ليروا ما الخبر فصحت فيهم أوبخهم على استخدام الأوباش الذين يحتقرون المواطنين والعمائم ، وقلت لهم إن هذه العمامة - ووضعت يدى على رأسى - هى أشرف من برانيطكم وهذا القفطان أشرف من بنطلوناتكم !

لقد أخذتنى العزة غضباً للعمامة التى يحقرها بعض الناس والتى لا يحفظون لها كرامتها وجلالها ،

فأخذ أصحاب الفندق يوبخون خادمهم ويعتذرون إلىّ ، فيا عجباً لخادم مسلم يحقر العمامة وهو يخدم فى محال الأجانب ، وأ كرم بهؤلاء الأجانب الذين استحوا من فعلة خادمهم المسلم فاعتذروا وكان الواجب أن يكون الأمر على العكس – لقد قبلت اعتذار أصحاب الفندق ولكنى رفضت النوم عندهم ، لأنى كرهت النزول فى مكان كنت أحب أن أعتمد فيه على خادمه المسلم فإذا به يكدرنى ثم يكدره أسياده من أجلى ، فخشيت أن يحمل لى حقداً ، وقد يطلع على مايريبه منى فلا يتردد فى الوشاية بى للشرطة . على أن سوء أخلاق الخدم المسلمين الذين يخدمون عند الأجانب لا يظهر إلا مع المسلمين .

عمامة السيد عبد الحميد كرامة

ومما هو جدير بالذكر والتسجيل عن العمائم وحفظ كرامتها أن خصوم فقيد الوطن العربى السيد عبد الحميد كرامة « رحمه الله » زعيم طرابلس الشام ومفتيها «وهو الذى أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء لبنان » أرادوا أن يحقروه فى الشارع العام وينالوا من هيبته ورياسته ، فأرسلوا شاباً من أقاربهم ليهينه علنا فترصده فى الساحة العامة للمدينة فلما نزل السيد عبد الحميد من سيارته باغته ذلك الشاب بخيزرانة وأخذ يضربه بها على رأسه وأوقع عمامته على الأرض ، فبادر السيد عبد الحميد إلى العمامة فالتقطها وسواها ثم وضعها ثانية على رأسه وتناول مسدسه وأطلق الرصاص على ذلك المعتدى فقتله فوراً ، وبعد ذلك ركب السيد سيارته إلى دار الحكومة وقدم المسدس إلى الحاكم وقص عليه ما وقع ، وكان للحادث ضجة وقضية انتهت بإصدار محكمة الجنايات فى بيروت حكمها بحفظ القضية بعد أن دفع السيد عبد الحميد لأهل القتيل ديته ، وقد جرت هذه الحادثة سنة ١٩٣٣ وأما القاضى الذى أصدر حكم البراءة فهو فؤاد بك عمون رئيس محكمة الجنايات فى ذلك الحين والذى أصبح عند كتابة هذه السطور مديراً عاما لوزارة الخارجية اللبنانية ، فنال بذلك الحكم اللبق تقدير الجميع لأنه فض به مشا كل خطيرة وحقن دماء ومنع خصومات لانهاية لها . لأن حبس زعيم مثل السيد عبد الحميد كرامة لايتم بسهولة فى بلاد تقدس وطنيته وجهاده وترى فيه عنوان جهادها ، رحمه الله وعوض الأمة على فقده .

إلى المنصورة ومعرفة البوليس لشكلى

قلت إننى عدلت عن المبيت فى اللوكاندة التى كدرنى خادمها فى مدينة المحلة بل فضلت ترك المحلة كلها، فبحثت عن سيارة مسافرة إلى المنصورة فلم أجد فاستأجرت سيارة خاصة فوصلت المنصورة بعد العشاء، ونزلت بفندق يناسب حالى وأظن أن اسمه « قنال السويس » وكانت نوافذه تطل على النيل وعلى مدينة طلخا. وفى الصباح ذهبت إلى مكتب البريد فأخذت رسالة من الدكتور بشناق وهذا عنوانها ونصها :

حضرة المحترم الشيخ محمد الناجى — يحفظ بالبريد :

بعد السلام عليكم لقد سرنا توفيقكم فى تجارتكم ولكن بعض السماسرة المعروفين والخبراء دخلوا السوق للمزاحمة وقد سمعنا أن بعض خصوم تجارتنا يزعمون أنكم تتعبون فى الأسفار بلا جدوى وأنهم عرفوا حالكم وحقيقة تجارتكم والمناطق التى تتجرون فيها حتى ملابسكم وصفوها وإنها قذرة تسود الوجه فالأحسن أن لا تشمتوا المنافسين والأعداء، فعليكم تحسين زيكم والحذر من طمع أصحاب الفنادق والسرقات وأما شريككم أبو الجهود فهو ساهر على الدكان وهو بخير وطمئنونا على صحتكم والسلام عليكم.

الإمضاء أمين مصطفى صادق

كان وقع هذا الكتاب فى نفسى مزعجاً ومقلقاً، لأن دخول السماسرة والخبراء للسوق معناه أن هناك جماعة تقدموا للتجسس والإرشاد عنى، وأن خصوم تجارتنا أى البوليس قد عرف الزى الذى أتستر به، وأنه يجب أن أغير شكلى وأن أحتاط حتى لا أقع بيد الشرطة ويشمت الأعداء بى، وأن أبتعد عن الفنادق. وأما سهر شريكى أبو الجهود والدكان الخ فمعناه أن الدكتور يطمئنى على زوجى أم جهاد وأنها فى الدار بخير.

إذن فهناك خطر قادم ولكن متى يقع وكيف؟ لا أدرى .. ولذلك صرت أبالغ فى الحذر والحيطة ومضت أيام انتقلت بعدها إلى فندق كلاردج وهو أهم فندق فى المنصورة، وكان السبب فى ذلك أن بدنى أصبح قذراً وهذا الفندق يحتوى على حمامات فاغتسلت ونمت فيه ليلة واحدة وفى الصباح الباكر ذهبت إلى حى بلدى أفطر فولا مدمسا. فإذا بخادم من خدم

هكذا كنت أتجول بين مصر ودمياط وواق الواق!

الفندق يرانى فى دكان بائع الفول فاستغرب وجودى فى مثل هذه الدكان وفى مثل تلك الساعة المبكرة من الصباح فجاء وسألنى : هل مررت على مكتب الفندق اليوم وأنت تغادره ؟ فقلت له : كلا بل قفزت من النافذة ! فخجل وسكت لأنه ظن أن من يأكل فى مثل هذه الدكان لا يملك أجرة ذلك الفندق فخطر له أننى هربت من دفع الأجرة..

لقد كان عدم استصحابى حقيبة أو ملابس وأمتعة هو الذى يسبب لى الشكوك والريبة عند أهل الفنادق، ولكنه من جهة أخرى كان يساعدنى على كثرة التنقل وسرعة الحركة .

حماقة بسبب أكلة

وكنت قد اشتهيت الطعام الجيد المغذى بعد أن أهلك الفول والطعمية والجبنة معدتى طول هذه المدة وأنا أرمح من بلد إلى بلد كاللص المذعور .

ومررت بمطعم فاخر فشممت رائحة الطعام ولكنى ترددت فى دخوله لكثرة زبائنه وكلهم أنيق الملبس وخفت أن يكون بينهم من يعرفنى من ضباط أو موظفين ، بل ان شكلى بين

هؤلاء يلفت الأنظار ويدعو للشبهة ولذلك أحجمت ، وبعد أن تجولت ساعتين رجعت إلى المطعم وقد تيقنت أنه لم يبق إنسان فى المدينة إلا انتهى من أكله ، فدخلت المطعم وكان خالياً من الآكلين فجلست على مائدة وطلبت طعاما دسماً ، وقد شعرت أن الجرسون كان يرقبنى ويتأمل حركاتى وأنا آكل ففهمت أنه مندهش من كون هذا الشيخ البلدى الرث الملابس يعرف كيف يضع الفوطة على ركبتيه ويمسح بها عند اللزوم شفتيه ، ويعرف كيف يستعمل الشوكة والسكين ، فصرت أتظاهر بالضجر من هذه الأدوات ومن الخبز الأفرنجى فطلبت خبزاً بلدياً وشرعت آكل بيدى ، فكف الجرسون عن تتبعى بنظراته الفضولية وأصبح كل شئ فى نظره عادياً ...

ولما دفعت الحساب غلطت غلطة أخرى وهى أننى نفحت الخادم « بقشيشا » فأخذ يحملق بى وهو مندهش كيف أن مثلى يعرف هذه الأساليب ويدفع البقشيش ...

تلك غلطة لم أعد إليها ، بل أننى لم أدخل مطعما محترما بعد تلك المرة ...

مصادفة

وذهبت فى الليل إلى فندق ريش القريب من فندق قنال السويس فأقمت فيه بضعة أيام ، فكنت أغادره فى الضحى إلى أطراف المدينة فأتجول هنا وهناك إلى أن يسبل الظلام سدوله القاتمة فأرجع إلى شارع البحر الذى لا يوجد لجماله مثيل بالقطر المصرى كله ماعدا الاسكندرية والقاهرة ، وكنت أمشى على ضفة النيل ساعة ثم أجلس على رصيف قهوة « أندريا » فى الظلام فأشرب الشاى واستأنس برؤية الناس وجلبتهم وضجيجهم ، وفى إحدى الليالى لمحت الأستاذ على أحمد باكثير[1] يمر أمامى ومعه بعض الأشخاص فاستغربت وجوده فى المنصورة وعهدى

(١) وفد الأستاذ على أحمد باكثير على الحجاز فى سنة ١٩٣٣ قادما من أندونيسيا بطريق حضرموت وطنه الأصلى ، ثم جاء مصر بقصد طلب العلم ، فالتحق بالجامعة المصرية فأحرز ليسانس كلية الآداب ، ثم التحق بمعهد التربية العالى فحاز شهادته ، وكان فى خلال هذه المدة يكتب ويؤلف =

به فى القاهرة فظننت أنه جاء لتبديل الهواء أو أنه مدعو عند أحد هؤلاء الأصحاب الذين كانوا معه، وكم تمنيت لو كان منفرداً لأناديه وأظهر له نفسي واستأنس به وأستشيره فى أمرى ، فهو أخ ثمين وثقة أمين ، ولكنى تركته يواصل السير وأنا أرقبه إلى أن غاب معهم عن ناظرى فأسفت لضياع هذه الفرصة ، وكان الواجب أن أتعقبه من بعيد إلى أن يفترق عنهم فأناديه ، ولكن قدر فكان .

السفر إلى القاهرة

إن التحذير الذى أرسله إلىَّ الدكتور مصطفى بك قد أقلقنى كثيراً فبدلاً من أن ابتعد عن القاهرة رغبت فى السفر إليها لأقف على الأسباب التى جعلت الدكتور يحذرنى وينذرنى، وبذلك صدقت نظرية « لمبروزو » مرة أخرى فى ميل الهارب إلى الاقتراب من مكان الخطر ! وغادرت المنصورة من طريق ملتو هذه المرة، فبدلاً من أن أقصدها رأساً بالطريق العادى فى ثلاث ساعات ، ذهبت إليها من طريق الزقازيق وبلبيس وشبين القناطر وخط المطرية والزيتون فى تسع ساعات ، وكنت فى هذه المرة أملك سلة وضعت فيها بعض الملابس الشتوية فأخذتها معى لأتخلص منها بإيداعها عند الدكتور مصطفى بك .

= وينشر شعره الرقيق فى الصحف والمجلات ، فبلغ مكانة مرموقة يحسد عليها . ولما أكمل دراسته وأراد العودة إلى أندونيسيا مسقط رأسه وقعت الحرب وانقطعت الطريق الى الشرق الأقصى فلم يستطع السفر فبقى فى مصر واشتغل فى التعليم وتأليف القصص التاريخية والأدبية ، فكان لا يظهر إنتاج فكره إلا فى المناسبات الجدية فكل مسابقة تعلنها وزارة المعارف أو إحدى الهيئات الثقافية أو وزارة الشئون الاجتماعية لتأليف رواية أو قصة ، كان باكثير يدخلها فيفوز بالجائزة مع طبع مؤلفه . وقد بلغ من نبوغه المثال أن وزارة الشئون الاجتماعية طلبت سنة ١٩٤٧ ست روايات فى مواضيع معينة وأقامت مسابقة لذلك مصحوبة بمكافأة باهظة فتلقت الوزارة خمسمئة رواية ولما فحصت اللجنة المختصة ذلك الجبل من الروايات اختارت ستاً، ولما فتحت غلافات الأسماء ظهر أن الأستاذ على أحمد باكثير قد فاز بروايتين من الست روايات ، وهو فوز باهر لا مثيل له ، فداعبته إحدى الصحف طالبة من الحكومة منع الأستاذ باكثير من دخول المسابقات ... هذا تعريف موجز بالأستاذ باكثير وسيرد ذكره فى هذه المفكرات مراراً .

... ونزعت العمامة وأبقيت اللبدة

ولم يحدث لى فى الطريق سوى حادث بسيط وإن كان مزعجا بلاشك ، وذلك أننى لما ركبت القطار من السنبلاوين إلى « أبى كبير » لمحت شخصاً يشبه « العطار » أحد أعوان بوليس الجواسيس وهو من الذين قال عنهم الدكتور بشناق « إنهم نزلوا السوق وأخذوا فى المزاحمة... » فظننته هو ، فلما هدأ القطار سيره وقبل أن يقف فى محطة أبى كبير أسرعت إلى القفز من شمال القطار وركضت إلى مزرعة ذرة واندسست فيها وهناك نزعت العمامة وأبقيت اللبدة ولما استأنف القطار سيره خرجت من مكمنى وركبت إلى الزقازيق بالأتوبيس .

فائدة بوليسية !

وعلى ذكر القطارات والبوليس أقول إن من وسائل الشرطة عندما تطارد أحد الأشخاص حين تجهل شخصيته وتظن أنه يركب قطاراً بالذات أن يقف أحد زبانية الجواسيس فى وسط

عربة القطار وخصوصاً فى الليل ويصيح باسم الشخص الطريد أو بالاسم الذى يظن أنه ينتحله. فى بعض الأحيان يغلط الطريد فيرد أو يأتى بحركة لا شعورية تنم عليه فيقع فى أيدى الزبانية. وقد ذكر المرحوم شكرى الكرداوى فى كتابه المسمى « ٥٥ شهراً فى مخبئى » وسيأتى حديثه أنه لما هرب وتنكر بعد الحرب العظمى الأولى بعد حادث إلقاء القنبلة على رئيس الوزراء محمد سعيد باشا ركب القطار الليلى من كوم حمادة إلى امبابة ليختفى فى القاهرة فسمع أحدهم يناديه باسمه فلم يشعر بنفسه إلا وهو يلتفت إلى المنادى فإذا به موظف بالقطار ينادى زميلا له اسمه شكرى فلو كان الموظف شرطياً لظفر بالمرحوم وقبض عليه! ولنرجع إلى ما كنا فيه :

القاهرة

كان وصولى إلى القاهرة بعد منتصف الليل بساعة ونصف، فدخلتها من ساحة باب الحديد، وكان الظلام يسربل المدينة برداء دامس رهيب ، فلا ترى فى جنبات تلك الساحة الواسعة الشاسعة التى اعتادت أن تنبض بالحياة ليلا ونهاراً ، إلا بصيصاً من نور أزرق خافت باهت متناثر هنا وهناك ، ذلك هو كل ما بقى من أضواء القاهرة التى كانت تشعشع قبل الحرب فتحيل الليل نهاراً والظلام ضياء فأصبحت بسبب الحرب ظلاما. ومشيت فى الساحة الساكنة الهادئة وفى يدى سلة الملابس ومشيت أفكر، أأذهب لصبر الجديدة الآن فأوقظ صديقى من نومه .. هذا مزعج له . وأخيراً فضلت أن أنام فى أحد الفنادق الكثيرة فى ميدان باب الحديد على أن أستيقظ مبكراً فأصابحه فى الصباح ، وهذا أحسن . فتوكلت على الله وقصدت فندقاً متواضعاً فى أول شارع إبراهيم باشا بجوار جامع أولاد عنان المواجه لمركز بوليس الأزبكية وعلى بعد خمسين متراً منه فدخلت ...

وقعت فى يد البوليس

كان مكتب إدارة الفندق يقع فى المدخل . فلما دخلت كنت أظن الحارس نائماً كالعادة فأوقظه وأطلب غرفة وأصعد إليها . ولكنى وجدت صاحب الفندق جالساً والضوء يسطع على مكتبه وقد جلس أمامه أربعة أشخاص يتحدثون إليه ، فأحجمت عن الدخول لحظة أفكر فيها بالعواقب ، لأن اقتحامى هذا « المجلس » وإعطاء الاسم والمساومة على الأجرة ـ ولابد

من المساومة مع فنادق من هذا الطراز ـ كل ذلك كان يستدعى أن يسمع هؤلاء الناس صوتى ويمكنهم من التفرس فى وجهى وشكلى ، وقد يكون أحدهم يعرفنى ، فتراجعت بسرعة وخرجت من حيث دخلت لأبحث عن فندق آخر . فلما صرت على رصيف الشارع شعرت بيد ضخمة تقبض على معصمى وسمعت صاحب اليد يقول : « تعال هنا » ... يا إلهى ! إنه عسكرى المس! وقبل أن أفتح فمى المرتعش الذى أصيب بالبكم، وقبل أن أفكر فى موقفى المروع ، أخذ الشرطى يجرنى إلى إدارة البوليس بدون مناقشة ولا تهمة ولا سبب ... فمشيت معه بدون أن أقاوم أو أن أعترض ، وماذا يفيد الاعتراض مع جندى جلف أمى لا يعرف من الدنيا إلا عبارة (إمسك هذا واترك ذاك) وكانت يده التى تشبه الكماشة تمسك بى فلا مجال هنا لمحاولة الإفلات منه والركض بعد ذلك على أن أرمى له السلة ليتلهى بها ...

لقد تصورت أن هـذا الجندى قد عرفنى ، لأن حراس السجن الذى كنت فيه كانوا يؤخذون أحيانا من قسم بوليس الأزبكية ، فلم أشك فى أنى وقعت ولات حين مناص !

وبعد أن مشينا عدة خطوات سألت الشرطى لماذا يقبض علىّ ... فقال : انت يا شيخ خرجت من الفندق بصورة مريبة فألقيت الشبهة على نفسك فأريد أن آخذك إلى القسم للتحرى عنك وعن هذه السلة التى تحملها وتركض بها. فلما سمعت التهمة شعرت بشىء من الفرج لأنى تأكدت من أن الشرطى لم يعرفنى ولكنه اشتبه بى لعلى أكون لصاً سرق شيئاً من الفندق وهرب !

ولكن هذا الاطمئنان لم يدم طويلا لأنى تصورت دخولى معه إلى قسم البوليس وكيف أنه سيوقظ الضابط ، وأن هذا سيهب من نومه غاضباً من إيقاظه ، فيوجه إلى بعض الأسئلة مصحوبة بألفاظ بذيئة ، يأمر بعدها بإدخالى السجن إلى الصباح ليتحرى عنى وعن شخصيتى ، ولا يتم هذا إلا بإحضار من يعرفنى ... بل هناك ما هو أدهى ، فقد يكون الضابط من الذين كانوا يرافقوننى إلى طبيب الأسنان أو المستشفى !

فكرت فى هذا كله بأسرع من لمح البرق ، فأحسست بالرعدة تسرى فى مفاصلى ولكنى مع ذلك جمعت أعصابى كلها فى بضع كلمات وقلت للجندى : إننى قادم من الريف

وأن هذه السلة تحتوى على ملابسى ـ وذكرت له مفرداتها ـ ثم توقفت عن المشى وأخذت أنبش مافى السلة ليرى بعينه أننى صادق ، لأنها ملابس لاقيمة لها ، فقال ولكنى رأيتك تخرج من الفندق مسرعاً ، فقلت له هذا صحيح ، وسبب ذلك إننى كنت أظنه فندقا بلديا رخيص الأجرة فوجدت صاحبه «خواجه» فكرهت أن أنام عند أجانب وأترك فناق أولاد العرب وأنا شيخ أحتاج إلى محل وضوء غير رجس ولذلك رجعت بسرعة قبل أن يرانى صاحب الفندق أو يناديني .

كان هذا الحديث يجرى مع الجندى وأنا أسير معه حتى أصبحنا أمام باب كركون البوليس ! وإذا بالمعجزة تقع ، وإذا بالجندى يتوقف بغتة ، وقد أعجبه تعليلى أسباب الهرولة من باب فندق الخواجات ! فترك يدى قائلاً « طيب ياسى الشيخ روح فى حالك وإياك أن ترمح مرة ثانية من الفنادق فى ساعة كهذه » ثم أرشدنى إلى شارع كلوت بك وأشار إلى فندق رث حقير ونصحنى بأن أذهب إليه ، وقال إن أجرته رخيصة . فشكرته ودعوت له ، ومشيت إلى الجهة التى أشار إليها ، ولما طوانى الظلام وحال بينه وبينى هرولت كالغزال إلى جهة معاكسة وأنا لا أصدق بالنجاة ، ثم أخذت أبحث فى الظلام عن سيارة تاكسى فعثرت على واحدة واقفة أمام قهوة (المنظر الجميل) على ناصية شارع ابراهيم باشا بجوار الفندق الملعون الذى غادرته بسرعة ، وكان سائق السيارة نائما فيها ، ففتحت بابها ودخلتها ثم أيقظته وقد ربطت خدى بمنديل ووضعت يدى فوقه وأنا أتأوه كمريض وقلت له «هيا إلى مصر الجديدة ياأسطى» . فنزل السائق وأدار المحرك ثم ركب وأنا أقدر أن نزوله من السيارة لإدارة المحرك قد استغرق دهراً طويلاً ...

وانطلقت السيارة فى طريقها ، فشعرت انى قد ملكت الدنيا بأسرها ، وتناولت سيجارة وأخذت أدخن ثم نظرت إلى الساعة على وهج السيجارة فإذا بها تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل .

عند الدكتور

وفى أول شارع الأهرام بمصر الجديدة نزلت وصرفت السيارة ثم مشيت إلى شارع

صباغ حيث كان الدكتور بشناق يسكن فى الطابق الأول ، فطرقت الباب فاستيقظ وفتح لى ورحب بى مبتهجا مسرورا ، فرجوته أن يفرش لى لأنام لأنى متعب وأما الحديث فنتركه إلى الغد، فأبى إلا أن يوقظ ابن أخيـه الدكتور ناجى « رحمه الله » فأعطانى سريره ، فنمت بملابسى بعد أن تركت النافذة المطلة على الممر الخلفى غير مغلقة كالعادة، وذلك استعداداً للطوارئ كما أننى اتفقت مع الدكتور على عدم فتح باب الدار لأى طارق إلا بعد مناقشة معه تتيح لى الفرصة للقفز من النافذة إلى الحديقة الخلفية عند الاقتضاء والنفوذ إلى الشارع ...

ونمت تلك الليلة أحلم (وأهلوس) فى حادثتى مع الشرطى التى هزت أعصابى هزاً !

الدكتور محمود عزمى (١)

وفى الصباح تناولت مع الدكتور وأهله فطوراً شهياً ، وتحدثنا فى أمور كثيرة وفى أمورى خاصة وعن الحوادث التى جرت بعد غيبتى ، وكان ألطف ما جرى أن صديق الدكتور محمود عزمى وكان لا يدرى بأنى هربت، قد ذهب إلى وزارة الداخليـة ليناقش حمدى محبوب مدير الأمن العام فى مسألة الإبقاء علىّ فى المستشفى إلى أن أشفى من المرض ، فقال له حمدى باشا: لا لزوم لهذا البحث الآن ، فسأله عزمى لماذا ؟ فقال : لأن صاحبك هرب .. فـكانت مباغتة لعزمى . وقد أخبرنى عزمى بعد ذلك أنه لما سمع هذا الخبر من حمدى محبوب وجم قليلا ثم فرح

---

(١) لابد من وقفة عند ذكر عزمى أصفه بها للجيل المقبل لأن جيلنا كله يعرفه ، فالأستاذ محمود عزمى ـ وهو دكتور فى الحقوق والعلوم السياسيةـ صحفى مطبوع وكاتب سياسى شهير، وهو محدث لبق، خفيف الظل، عف اللسان والقلم ، جذاب المجلس، أنيق العبارة ، حلو الحديث ، وهو يمتاز عن أمثاله بدفاعه عن الحريات والغضب للدستور ، وقد عرف بحرية الفـكر وسعة الأفق ، ولولا عدم استقراره فى المهن التى يتعاطاها لـكان أوحد زمانه ، فلو استمر فى الصحافة لـكان حامل علمها ، ولو استقر فى مكتبه للمحاماة لـكان فارسها وكان ابن بجدتها ، ولو ثبت فى المناصب الحـكومية لـكان سفيراً موفقاً ، أو وزيراً للخارجية لايشق له غبار . وأما علاقتى به أو علاقته بى فهى بنت ثلاثين عاماً ، أى منذ سنة ١٩٢٠ وها أنى أسطر هـذه الحاشية سنة ١٩٥١ ومما أذكره له بالتقدير انه رآنى سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ محتاراً فى الحصول على جريدة أصدرها بدلا من الشورى بسبب كثرة منع الاستمرار لها فأعارنى مجلته «الجديد» مجاناً بلا قيد ولا شرط وبعد عشر سنين رآنى فى مثل هذا المأزق فأعارنى مجلته الثانية « الشباب » سنة ١٩٣٧ بلا شرط ولا أجر فأصدرتها نحو عامين ، وقد وجه إلى كتاباً عند ما سلمنى جريدته يعد فى نظرى دستوراً من دساتير الحرية وإنى أسجل ذلك الـكتاب فى الصفحة التالية مصوراً بالزنكغراف اعترافاً بفضله وتخليداً لصفة « الحرية » التى اتسم بها لـكثرة ما أحبها وانتصر لها .

الشباب

اسبوعية للسياسة والثقافة
يديرها محمود عزمى
٣ ميدان سوارس بالقاهرة
تليفون نمرة ٥٦٧٠٧

AL-CHABAB
HEBDOMADAIRE POLITIQUE, ECONOMIQUE ET SOCIAL
Directeur : MAHMOUD AZMI
3, PLACE SUARÈS
Tél. 56707
LE CAIRE

في ٢٦ يناير ١٩٢٧

أخي وعزيزي الأستاذ محمد علي الطاهر

يا أستاذ الأجيال، بالبارحة في سنة ١٩٢٦ حيل بينك وبين إصدار جريدتك الجريئة الصادقة "الشورى"، وكان "الجديد" في مقدمة ما تصدره من كلمات، حتى لا يسكت صوتك المدافع عن الحقوق العربية جميعا. واليوم يحلو لي أن أستأذن جلادك بالاستعاضة عن استئناف الكفاح لك بإصدار "الشورى"، وله من مجلة "الشباب"، فأنا سأقدم لك صدرها وتشرف على تحريرها وإدارتها مطلق حريتك دفاعا عن الحقوق العربية التي تعرف قدر شغفي بتأييدها وتدعيمها ومطلق تصرفك فيما يتصل بإدارتها ومصروفاتها، راجيا أن أساهم بهذا بعض المساهمة في نصرة القضية العربية الكبرى.

ومن طي هذا كتابان أحدهما لمصلحة الصحافة والنشر والثقافة وثانيهما لمصلحة البريد متصلان بتنفيذ وضعي "الشباب" تحت تصرفك، راجيا أن تتفضل بإبلاغهما إلى جهتي الاختصاص.

وعهد يا أبا الحسن إلى جلادك الصحفي المعهود في سبيل العروبة والحرية.

والسلام عليك ورحمة الله

المخلص

وثيقة الدكتور عزمى

هذا هو الكتاب الذى وجهه إلىّ صديق عزمى وذكرت قصته فى الصفحة السابقة ، وهو كتاب ينم على الروح الحر الذى انطبع عليه ذهنه ويسيطر على تفكيره .

وشمت بهذا الباشا الذى لوّعه لكثرة ما كان يكذب عليه وعلينا فى مسألة تخفيف قيود السجن وكان حمدى محبوب يومها متهورا محزونا مكسور الشوكة، بعد أن كان وأنا فى قبضته فى السجن يكلم الناس عنى بعجرفة وصلف كأنه يتكلم من مناخيره التى أرغمها الله، ليس فقط فى هذه الحادثة بل أرغمها إلى الأبد[1] .

ومن حوادث السجن الذى كنت فيه أن بوليس محمد يوسف تشبط بشخص من فلسطين اسمه سليمان العوامة وهو من ثوارها الهاربين فقبض عليه توطئة لتسليمه لحكومة فلسطين الإنكليزية. ولكن سليمان العوامة تمكن من كسر حديد النافذة وهرب، ولما اشتد عليه الطلب ذهب إلى فلسطين فقبض عليه الإنكليز وألقوه فى السجن ، فلو ترك يعيش فى مصر آمنا لما حصل لهذا الشهيد الحى ما حصل .

حصار المفوضية العراقية

كان أهم شىء تحدثنا فيه عند الدكتور بشناق ثورة العراق ومبلغ حالتها وهل من سبيل إلى الاستعانة بباسبور عراق أو ورقة هوية باسم آخر يعطينا إياها السيد تحسين بك العسكرى وكيف يمكن الاجتماع به ، فنزل الدكتور بشناق إلى القاهرة فزار السيد تحسين فى المفوضية العراقية ثم عاد يقول : إن السلطة البريطانية أحاطت المفوضية العراقية ورجالها برقابة شديدة جداً وأخذت بعد حركة العراق تنظر إليها وإلى من فيها نظرها إلى مركز للأعداء !

ولما أقامت المفوضية حفلة عيد الملك فيصل الثانى تغيب رجال السفارة البريطانية عن الحفلة كلهم ، وزاد على ذلك خبرا أليما آخر، وهو أن رئيس الوزراء وجميع أركان حكومته قد تخلفوا عن

---

(١) وكيفية ذلك أنه حدث بعد عام من هذا الحرب أن سقطت الوزارة وقامت وزارة مصطفى النحاس باشا فكان أول شىء صنعه النحاس باشا أنه أمر بإبعاد حمدى محبوب باشا عن وزارة الداخلية والأمن العام ورماه فى قلم قضايا وزارة التجارة ، ففقد مفعوله بعد أن قلعوا أنيابه فانكسرت نفسه بعد زوال شوكته وأصبح كأنه جثة بلا روح فلم يسعه إلا أن يترك الحكومة فاستراحت منه الأمة ولم يسمع أحد عنه بعد ذلك شيئاً حتى ظن أنه توفى ! وذلك أن سيرته مرت عندى فى دار الشورى منذ شهور وكان الدكتور محمد صلاح الدين بك وزير الخارجية متفضلا ساعتها بزيارتى هو وبعض الفضلاء . فلما ذكروا اسم حمدى باشا محبوب ترحم عليه صلاح الدين بك على ظن أنه توفى ، فقلت له كلا ، إنه لم يمت بل هو حى يرزق ، فقال الوزير والله أنا ظننته مات ، فقال أحد الحضور : كلا كما صادق ، لأن حمدى باشا اليوم ميت يرزق ...

الحفلة مجاراة للانكليز، بل إنهم زادوا على الإنكليز بأن كانت مقاطعتهم للحفلة سافرة وخالية من جميع قواعد اللياقة وبدون اعتذار، فى حين أن الإنكليز وهم الأعداء قد أرسلوا اعتذارات مكتوبة منتحلين لتخلفهم عن الحفلة الملكية أسباباً .

إميل الغورى يخذلنى

وطلبت من البشناق أن يستدعى صاحبنا إميل الغورى لنشركه فى الأمر ، فجاء وأخذنا نبحث عن طريق للنجاة ، وهل أبقى فى القاهرة مختفيا بصفتها أكثر أمنا لازدحامها الشديد بالسكان وأجناسهم المختلفة، أم أذهب لفلسطين لأنفذ منها إلى العراق، أو نجد، وكيف السبيل إلى ذلك ...

وكان اميل الغورى قد أحضر معه إلى جلسة المشاورة طفله الصغير فكان هذا الطفل يركض فى الغرفة يقلب هذا الكرسى ويرمى تلك الطاولة ، ثم يهرول إلى الباب الذى أغلقناه حتى لا يدخل علينا أحد فيذهب إليه الطفل فيفتحه ، فنقوم فنغلقه ، فيركض إلى النافذة التى فتحناها طلبا للنور والهواء فيغلقها، فنقوم لنفتحها، وهكذا دواليك ...

فى هذا الجو المزعج كنا نبحث فى مسألة فيها حياتى أو هلاكى . واقتضى الأمر أن يذهب اميل الغورى إلى السوق ليتصل بمحطة الزيتون للسؤال عن موعد قطار شبين القناطر لأنى قررت أن أغادر القاهرة إلى الريف الشمالى بطريق خط سكة حديد الزيتون ، فأخذ اميل ولده وذهب، فقلت له: ما دمت ستمر بمنزلك فالأحسن أن تترك الولد هناك وتعود وحدك ، فإذا باميل يغضب ويثور ويكدرنى بحجة أننا نبغض المحروس! ثم ذهب غاضباً ولم يعد مطلقا ... وقد آلمنى هذا الخذلان من الغورى فى وقت أنا أحوج ما أكون فيه إلى الأصدقاء والإخوان، ولكن هذا الرجل نسى واجبه فى ذلك الوقت الحرج ، ونسى الوفاء .

إننا لم نفكر فى طلب إبقاء الطفل عند أمه إلا لكوننا فى دقائق ثمينة كنا فى حاجة إلى كل ثانية منها وإلى الهدوء وصفاء الذهن ، ولكن معظم جلستنا التى جئت من أجلها للقاهرة وركبت الأخطار بسببها ضاع فى الاشتغال بالنجل الكريم : اسكت ياولد ، اقعد ياولد !

إحساسات!

وقد زاد فى الألم أن زوجة الغورى لما بلغها بعد ذلك نبأ القبض على عزيز باشا المصرى بعد هربه «وسيأتى حديثه» فرحت وصارت تقول للسيدات اللاتى يعرفن حكاية هربى «لقد مسكوا عزيز باشا وإن شاء الله يمسكوا أبو الحسن - أى أنا - لنستريح من السؤال عنه» فقالت لها حرم الدكتور بشناق وهى من خيرة السيدات الكريمات «رحمها الله» «لا سمح الله يافلانة. حرام عليك، كيف تتمنين هذه النكبة لمجاهد فى سبيل الوطن وطالما أحسن إليك ولزوجك، فهم إن أمسكوه انتقموا منه ولن يعيش بعدها من شدة العذاب».

بلغنى هذا فتعجبت من امرأة تتمنى هلاكى مع أننى لم أقصر معها ولا مع زوجها مدة ربع قرن، وقد كنت باراً بهما، وكم رأت من إكرامى لها ولزوجها، ومن إسعافى لهما فى الملمات مما يحسن عدم سرده خوف المنّ، لدرجة أن الغورى لم يرجع لى حتى هذه الساعة ما أقرضته إياه من مال قبل حبسى، فى زمن اشتدت فيه الأزمات عند إعلان الحرب، وكان الناس فى أيامها سكارى من الفزع والضيق لا يسأل الإنسان يومها عن غيره؛ ولا الوالدة عن ولدها، فآثرت الغورى وأهله على نفسى وأهلى، ولكنه وزوجه لم يحفظا لصديقهما هذا الوداد... ولذلك عدلت عن بحث سكنى القاهرة وعن مغادرة الأراضى المصرية، بعد أن رأيت أن أحد الأصدقاء الذين ادخرتهم للشدائد قد نسى واجب الأخوة، بعد أن ظننت أننى قد اعتمد عليه فإذا به يخلق مسألة ابنه ليتخذها ذريعة للقطيعة فى هذه الظروف التى كان يجب عليه فيها أن يتحملنى مهما كان الحال، حتى ولو أسأت إليه بقصد وعن تعمد، فالأصدقاء يتحملون تصرفات بعضهم نحو بعض فى الحالات العادية، فكيف بحالتى الشاذة الفذة التى تحير العقل، وقد تصورت نفسى محل الغورى وأنه فى مكانى وطلب منى إعفاءه من وجود ابنى، فهل كنت أثور فى وجهه فى ذلك الظرف الحرج وأكدر خاطره؟ ثم آخذ له وأغادره على غير رجعة ...؟ كلا، لا يمكن أن أفعل هذا لو ثار هو على وكدرنى، بل أن العاقل الحريص لا يجىء ومعه طفل إلى مثل تلك الجلسة التى فيها هلاك نفس، حتى ولو كانت الجلسة مخصصة للمساومة على بيع عنزة أو مشترى دجاجة ...

إنى أرجو من قارئ هذه السطور أن يعذرنى على إيراد هذه الحادثة والإسهاب فيها لأننى برغم مرور عشر سنين عليها لا أزال متألماً منها . ولا أزال أذكرها بمرارة ، ويكفى استبشار زوجته بوقوع عزيز باشا فى أيدى الجلادين ، مع أنها لاتعرفه ولا علاقة لها به ، ثم تمنيها مثل تلك النتيجة لى أنا الذى شملتها هى وزوجها بالبر والوداد أكثر من عشرين عاماً .

عند الشيخ صبرى عابدين(٢)

نمت تلك الليلة عند الدكتور البشناق وفى الصباح المبكر قبل شروق الشمس نهضت من النوم وذهبت إلى المطبخ فصنعت فنجاناً من القهوة ثم تسللت من باب الدار وأهلها نيام، ومشيت فى الشوارع أبحث عن أتوبيس القاهرة فركبت فى أول عربة غادرت مصر الجديدة ونزلت عند الشروق بجوار محطة كبرى الليمون ومن هناك مشيت رجوعا من خلف المحطة إلى حى الشرابية .

وكان الطريق الذى سلكته يعتبر من الدروب المهجورة نوعاً ، والتى لا يمر الترام منها ولا سيارات الركاب ، بل كان طريق شحن وبضائع ، وسبيل عمال إلى أعمالهم ، فكانوا يسيرون مهرولين أفراداً وجماعات . كانوا كلهم سعداء فى حياتهم إلا أنا ، وكلهم آمن على نفسه وعلى أهله إلا أنا . وكلهم يسير مطمئنا يفكر فى مستقبل أحسن وحياة اهناء ، إلا أنا! لأنى كنت شارداً ومشرداً ، فقدت البيت والأهل والولد ، أمشى مروعاً وأتلفت مفزعاً، لا أفكر إلا فى البوليس وفى السجون وفى الأصفاد وفى القيود !

لو كنت قاتلا لعذرت الدولة على تتبعى وملاحقتى ، ولو كنت عدواً للوطن لما حدثتنى

---

(١) بعد عامين من هذه الحوادث عاد إميل الغورى إلى فلسطين واشتغل فى شركة سياحة وأصبح ذا مال ونشب ، فوسطت الدكتور البشناق بأن يطلب من الغورى القرض الذى فى ذمته لى ، فغضب وأبى الدفع قائلا : إن الذى أعطيته إياه لم يكن من مالى أنا بل من إعانات المنكوبين ، فقال له الدكتور : اقرض هذا ولكنك لم تعد منكوباً ، فأنت الآن فى وطنك وعندك مال كثير ، فهات ما عليك من مال إعانة المنكوبين لإعانة الذى أعانك فقد أصبح الآن منكوباً . فاذا بالغورى يغضب من هذه المطالبة ، ويرفض تلك الحجة ، لأنها لم تعجبه ، ثم قاطعنى ، ولم يكتف بذلك بل راح يطيل لسانه على ويذيع المنشورات السبابة فى حق ...

(٢) الشيخ صبرى عابدين من علماء فلسطين المجاهدين وكان فى أيام ثورتها قد أحس بنية القبض عليه فهجرها ناجياً بنفسه إلى مصر فأقام فيها بضع سنين يخدم وطنه بقلمه ولسانه .

نفسي بالعتب على الحكومة لمطاردتها إياى وسعيها فى الانتقام منى . ولكنى أحسب نفسي خادما لأمتى ، مخلصا لبلادى ، فكان ألمى شديداً وعذاب نفسي موجعا وأنا أرى حكومة عربية مسلمة إسما وقانونا تنكل بى ثم تركض خلفى لتقبض علىّ وتسلمنى إلى الإنكليز أعداء البلاد وأعداء الدنيا كلها…

وكنت أعرف وصف موقع دار الشيخ صبرى فبحثت عنها إلى أن وجدتها بعد تعب غير قليل ، لأن الشارع الذى تقع فيه الدار كان جديداً لا إسم له ، ومنازله جديدة لا أرقام لها ، وطرقت الباب ففتح لى الشيخ صبرى بنفسه ، وقبل أن يستوضحنى من أنا رفعت العمامة ونزعت النظارة وأشرت إليه فعرفنى فوراً فرحب وفرح بى وجاءنى بطعام الفطور وتحدثنا إلى الظهر ، ولما جاء موعد الغداء أقام لى مأدبة متعددة الألوان ، وقد استفهمت منه عن أخبار تفتيش بيته ، ففهمت منه أن الضابط محمد يوسف[1] ادعى عند تفتيش الدار أنه جاء يبحث عن سلاح ! فأجابه الشيخ متهكما : بل أنتم تبحثون عن الأستاذ الطاهر ، ولكن

---

(١) لم يكن محمد يوسف وحده هو الذى يبحث عنى ، فهناك مئات أطلقتهم خلق إدارة « الانتلجنس سرفيس » البريطانية ومن الجملة قطعانها المنتشرة باسم « جمعية اخوان الحرية » التى سيأتى حديثها وخبر خنازيرها الأشرار ، ولكن الجميع كانوا يبحثون بحثاً عادياً لا يتعدى الاستفهام والاستطلاع وتسقط الأنباء والاعتماد على الصدف . ما عدا محمد يوسف فهذا كان متحمساً مستميتاً ، لا يهدأ له بال ولا يستقر على حال إلا بعد أن يهتدى إلى أثرى ويرانى فى السجن مرة أخرى ! بعد ذلك أن له عدة فوائد ، فهو أولا يكسب رضاء الإنكليز الذين يحتلون البلاد ويسيطرون على الدولة ، ثانياً أنه يرضى نفسه أمام نفسه حتى لا يظهر أمام أنداده بالتقصير ، فهو لذلك يريد أن يرتقى ولو على جثتى ! ثالثاً أنه يسر خاطر أصهاره الدمشقيين التجار بمصر الذين كانوا يعادوننى بسبب كرهى لفرنسا ومناصرة السيد شكرى القوتلى بجريدتى حين كان يقيم فى مصر أيام ثورة سورية الكبرى سنة ١٩٢٥ فقد كانت جريدتى هى جريدة الثورة ولسانها فى آفاق الأرض حين كانت صحف القاهرة لا تبالى بالعالم العربى ، وكانت صحف سورية مكممة خائفة من فرنسا .

من هنا جاءتنا هذه العداوة من محمد يوسف ، والغريب أن العالم العربى يكاد يفلت من انجلترا بعد أن أفلت قسمه الشرق منها ، ولكنه لم يفلت من محمد يوسف الذى لا يزال مع شديد الأسف فى خدمة الحكومة بل إن منصبه قد كبر وصار من أهم مساعدى عزام باشا . وكنت أتوقع أن تعصف به العهود الوطنية وتتخفف منه ، فاذا ببعض الجهات الرسمية تضمه إليها لتحارب به خصومها ، ووقفت الحكومة الوفدية منه موقف المتهيب إكراماً للجهة التى يظن أنها تحتضنه ، وهو غلط ووهم ، لأن وزير الداخلية الوفدى يستطيع أن يطيره من الحكومة كلها إن أراد ، أو ينقله إلى منصب آخر على الأقل .

كيف يخطر لكم أنه عندى والبيت مملوء بالأهل والأطفال. فقال الضابط إنكم تعرفون مقره ولكنكم تنكرون، فقال الشيخ صبرى والله إنى لا أدرى أين هو ، ومع ذلك فإنه لو كان فى جيبى ما أخبرتك عن مقره ! فرجع محمد يوسف الذى يريد أن يقلد « نقولا كارتر » بخفى حنين ...

الشيخ محمد صبرى عابدين

قضيت بقية ذلك النهار والسهرة عند الشيخ صبرى ، ثم ذهبت إلى دار الشيخ ابراهيم إطفيش بالمطرية ، فنمت عنده . وفى الصباح، كلفت الشيخ ابراهيم بالذهاب إلى شبرا وتكليف الشيخ يوسف المشهدى بأن يتصل بمنزلى ويطمئن أهلى ويأتينى بشئ من الملابس ففعل .

وفى المساء غادرت منزل الشيخ إطفيش وذهبت إلى مصر الجديدة ونمت عند الدكتور البشناق بعد أن أكلنا السهرة فى الحديث عن فعلة اميل الغورى وسلوكه الغريب معى ، ومن الحوادث التى قصها علىّ الدكتور أن البوليس قبض يومها على عدد من طلبة الأزهر الشاميين بحجة أنهم يعرفون مقرى وأنهم يوزعون نشرات فى مصلحة الثورة العراقية على الإنكليز وأن ممن قبض عليهم الشيخ مصطفى حسنى السباعى الدمشقى الطالب بكلية الشريعة « وهو الآن سنة ١٩٥١ عضو بمجلس النواب السورى من خيرة النواب » والشيخ هاشم الخازندار من غزة وهو الآن من علماء تلك المدينة الشهيدة، والشيخ مشهور الضامن بركات رئيس المعهد الدينى بعد ذلك فى عكا ، « ردها الله إلينا » .

زيارة شقيقتى فى السويس

كانت وظيفة صهرى قد انتهت من مدينة شبين الكوم ونقل إلى السويس ، فلما رأيت نفسى فى مصر الجديدة على بعد ساعتين من الشقيقة قلت لأذهبن إليها إذن ، وغادرت منزل الدكتور قبل شروق الشمس ، وبينما كنت أمشى فى شارع ابراهيم خطر ببالى خاطر فبحثت عن القلم لأدون ذلك الخاطر فى ورقة فلم أجده ، وكنت حريصا على تقييد تلك الشاردة التى مرت بذهنى حتى لا أنساها ، ولكن القلم ضاع فأسفت . وإذا بى أعثر فى الطريق على قلم كوبيا صغير فالتقطه متعجبا من هذه المصادفة التى جعلتنى أتيمن بذلك اليوم كله .

حيرة ...

ووصلت إلى قهوة صغيرة فى أول شارع السلطان حسين حيث يبدأ من أمامها سفر السيارات إلى السويس، فسألت فقيل لى إن السفر فى السيارات العامة قد منع بسبب الحرب ولا يسمح به إلا برخصة للسيارات الخصوصية فقط ، سمعت هذا فأسقط فى يدى ، وجلست فى القهوة قليلا لأتناول شيئا من الحليب والشاى ، وهى فرصة للتفكير والتدبير أيضا ...

لا سبيل إلى السويس إذن إلا من طريق السكة الحديدية ، ولذلك يجب أن أذهب إلى القاهرة وأن أدخل إلى المحطة لأركب من هناك، ولكن الشمس قد تكون طلعت وأشرقت، وليس من الحكمة أن أتعرض للخطر ، إذن فأنا مجبر على أخذ سيارة تاكسى إلى المطرية لأخذ قطار شبين القناطر ومنها إلى الزقازيق والإسماعيلية فالسويس ، عندذلك عدلت عن هذه الرحلة ونهضت لأمضى فى سبيل آخر ؛ وإذا بسيارة خصوصية أنيقة تقف أمام القهوة ، وينزل منها اثنان كان مظهرهما يدل على أنهما من الموظفين ، فقبعت فى مكانى حتى لا يسترعى خروجى النظر حال دخولهما فورا ، وطلب الاثنان شايا وقهوة واستعجلا الطلب بسبب السفر ... وهنا خطر لى لو أمكن السفر معهما ، ولما نهضا للانصراف سألتهما إذا كان بالإمكان أخذى معهما إلى السويس لأنى مضطر وأنى ما كنت أعرف بمنع سفر السيارات العادية من هنا ، فرحبا بى وانطلقت السيارة كالسهم الخاطف ومررنا بمعسكرات جيوش الإنكليز وهى ممتدة من أطراف مصر الجديدة حتى السويس، وإذا قلت جيوش الإنكليز فإنى أقصد الجيوش التى يتسوقها الإنكليز ، لأن هذه الجيوش كان معظمها من الهند والسودان وبرما وجزر المحيط وبلاد العرب والصومال واستراليا ونيوزيلاندا، ومن جميع أجناس الآدميين المغفلين الذين يركضون لنصرة عدوهم ويخذلون أوطانهم ...

وكانت الرباطات العسكرية الإنكليزية تستوقف السيارة وتسأل عمن فيها ويلقى الضابط علينا نظرة سريعة ثم يأذن لها بمواصلة السير . وهكذا على طول الطريق ...

وصلت السويس بعد ساعتين، فتناولت من عبى ثلاثين قرشا ودفعتها لصاحبى السيارة وأنا أشكرهما وأقول لهما إن هذا المبلغ ليس أجرا ولكنه من ثمن البنزين، فتقبلا المبلغ وانصرفت، ولو طلبا جنيهين ما ترددت فى الدفع. ثم مشيت إلى دار شقيقتى بحسب العنوان الذى تحصلت

عليه ، فصعدت الدرج وطرقت الباب فسمعت شقيقتى تقول من ؟ فقلت بصوت مسموع « مَحَدّش » وهى الكلمة التى اعتدت أن أجيبها بها منذ القديم فتعرف أننى الطارق …

وصف مظهرى وشكلى فى ذلك الحين

كانت ملابسى فى تلك الأيام هى الجبة الوسخة والعمامة القديمة والقفطان البالى والحذاء المرقع ، وكنت أربط عينى اليسرى برباط تحته قطن ، وأخفى ملامح عينى اليمنى بشىء من قطرة « الأرجيرول » البنية اللون ، وألصق على جانب من خدى قطعة صغيرة من المشمع الذى يلصق فوق الجروح ، وقطعة مشمع أخرى على الجانب الأيسر من عنق ، فبهذا التنكر بإخفاء أهم مايميز الإنسان من الملامح مع اللحية المستديرة التى وخطها الشيب من بعض النواحى كنت أخفى على أقرب الناس لى وأعرفهم بى .

لقاء محزن

فلما فتحت شقيقتى الباب ووقعت عيناها علىّ كادت تصعق من شناعة شكلى وقبح مظهرى ، وأخذت تبكى وهى تضمنى إلى صدرها وأنا أقبل يديها ، فبادرت إلى نزع الرباط عن عينى وخلع قطع المشمع الطبى عن خدى وعنق ، ومسحت « الأرجيرول » عن عينى ثم ابتسمت لها وطمأنتها على صحتى ، لأنها ظنتنى لأول نظرة مصابا برمد وبجروح وقروح ، فذكرت لها السبب فى وضع هذه الأدوات على وجهى ، فاطمأن بالها وسرى عنها وإن كان قلبها لم يطمئن .

وجدت شقيقتى بعد بضعة أشهر من فراقنا بعد آخر لقاء قد تأخرت صحتها وشاب شعرها ورسمت الدموع أخاديد على وجهها ، وقد احمرت عيناها من البكاء والحزن علىّ ، على شقيقها والبلاء الذى حل به والمصائب التى نزلت عليه فوق تشريده وتخريب دياره .

وأخذت أقص على شقيقتى طرفا وقصصاً مسلية مما لقيته فى حياتى الجديدة منذ فررت من الجلادين ، ثم سألتها عن الخادم عبده ، فقالت إنه كبر فترك الخدمة وفتح دكانا بجوار أحد المعسكرات عند قناة السويس ، وإن الخادمة الجديدة تغيبت ليومين لزيارة أهلها ، فحمدت الله على هذه المصادفة لأنها ستمكنى من زيارة شقيقتى وزوجها بدون حاجة إلى التحوط والتكلف وتفادى فضول الخدم .

وجاء صهرى فكان وجودى عنده بغتة مثار فرح وفكاهة فقضينا ذلك اليوم فى سعادة وغبطة

مصادفة

وبعد الغروب سمعت باب الدار يطرق وكلاما يدور بين شقيقتى وبين إنسان ، ثم جاءت بسرعة وأغلقت علىّ باب الغرفة وسمعتها تقول للقادم : عندنا زائرات الليلة فابق فى المدخل وإليك هذا الكرسى ... وبعد قليل جاءت تقول إن الخادم عبده قد جاء للزيارة ويريد المبيت الليلة عندنا لتعذر رجوعه إلى المكان الذى يعمل فيه فكيف العمل ؟ فأعملت الفكرة قليلا ثم قلت لها قدمى إليه طعاما واكرميه ثم انفحيه عشرة قروش لينام فى اللوكاندة بحجة أن كثرة الضيفات تحول دون مبيته الليلة هنا ...

وبعد ساعة سمعت عبده يشكر سيدته وينصرف والباب الخارجى يغلق ، فحمدت الله على هذه النتيجة ، لا لأنى أشك فى عبده وهو أمين بلا ريب ولكن الاحتياط والحزم أولى .

جنازير فى السماء !

وقد سمعت فى تلك الليلة من أختى وصهرى من أخبار مدينتهما أنها تكاد تخلو من السكان بسبب الفزع من الغارات الجوية على الميناء ، فتصيب القنابل الطائشة أهل السويس أحيانا ، وعند الغروب جلسنا فى الشرفة فإذا بالونات ضخمة يطيرها الإنكليز فى السماء ويربطونها بالأرض بسلاسل وزناجير لتظل محلقة فتكون مصائد لطيارات الألمان التى تضرب الميناء ، فإن حامت طياراتهم فى سماء السويس اصطدمت بالسلاسل وسقطت من حالق ، فأدركت إلى أية درجة أتقن الإنكليز صناعة الحرب والقتال والاعتداء على العباد . وكان الخادم عبده قد أخبر شقيقتى بأن قناة السويس محروسة بقوات انكليزية لا حصر لها ، وأن الطيارات الألمانية كثيراً ما تطرق معسكرات الإنكليز فيبادر هؤلاء إلى الهرب بالسيارات إلى الصحراء ويتركون الجنود الآخرين والعمال المصريين عرضة لنيران الأعداء فتفتك بهم قنابل الألمان فتكا ، وبعد انتهاء الغارة يعود الإنكليز الشجعان إلى معسكراتهم ويأمرون بتسوية الأرض فوق جثث وأشلاء أولئك الجنود المغفلين الذين سيقوا من أقصى الأرض ليموتوا فى سبيل بريطانيا والاستعمار وإذلال أوطانهم ، ولكنه أقل جزاء يستحقه كل من يبخل بحياته وماله على أمته ،

ثم يجود بهما فى سبيل العدو ، لاردهم الله ولا بردلهم مثوى...

السفر من السويس

وفى صبيحة اليوم الثانى ودعت شقيقتى وقرينها بعد أن اتفقنا على طريقة أمينة للمراسلة، وركبت القطار إلى الاسماعيلية فنزلت فيها ، فوجدتها فى حالة يرثى لها ، فقد كانت الطيارات الألمانية منذ أيام قد فتكت بها، وخصوصاً الحى الأفرنجى، وكانت الشوارع خالية من الناس، فالمنازل منهارة وبعضها كان مشققا ومتصدعا ، وكنا نشم روائح جثث القتلى تحت الأنقاض ، فلعنت الذين كانوا السبب فى نزول هذا البلاء على أوطاننا ونحن لاناقة لنا ولا جمل فى هذه الحرب التى جرها الإنكليز على مخلوقات الله . ومن الاسماعيلية سافرت إلى الزقازيق فدمياط، وفى اليوم الثانى قرأت فى الصحف أن الحرب قد وصلت إلى يوغسلافيا بعد وصولها إلى البانيا واليونان ، فانشغل بالى لأنى فهمت من ذلك أن الحرب ستطول كثيرا وسيزيد عذابى معها فلا حول ولا .

قضيت فى دمياط أياماً ولكنى لم أطمئن فيها، وكيف يطمئن الطريد وهو ينام فى الفنادق العامة؟

لذلك قررت أن أذهب إلى المنصورة فذهبت إليها ولكنى توقفت فى بلدة شربين ونويت أن أقضى أياماً عند صديقى نسيب شهاب .

رحلة ويالها من رحلة !

ركبت إلى قرية كفر الوسطانى من مدينة شربين فى أوتوبيس « خطاب » وهو يقطع المسافة فى ٣ ساعات مع أنها لا تزيد على ٢٥ كيلا لأن هذا الأتوبيس يمر بقرى عديدة ويقف هنا وهناك بسبب وبلا سبب ثم وقف بنا فى « كفر الأطرش » وترك الركاب وعاد أدراجه على زعم أنه محتاج إلى إصلاح ، فانتظرنا الأتوبيس التالى ٣ ساعات وفى الثامنة مساء جاء أتوبيس فظيع قذر فهجمنا عليه ، والسعيد السعيد من وجد فيه موضعا للوقوف لا للجلوس فقط ! ومثى هذا الأتوبيس الذى يرى جميع الناس عيوبه ويتقززون منه إلا الحكومة... وفى التاسعة ليلا وصل الأتوبيس إلى قرية « كفر الغاب » ووقف فأوعز وكيل الشركة إلى الركاب بالنزول وانتظار « القطار التالى » على حد تعبيرهم فى تلك الجهات المهجورة تقريباً والمنقطعة عن الدنيا وعن سلطة الحكومة أيضا ...

وتفرق الركاب هنا وهناك فمنهم من ذهب إلى القرية ، ومنهم من مشى إلى القرى المجاورة، ولم يبق فى جوار الكوخ الخشبى الذى يجلس فيه وكيل الشركة إلا أنا . ودقت الساعة العاشرة مساء فإذا «بالسيد عبده ناظر المحطة» كما يسمونه يغلق الكوخ على نفسه ويطفىء النور وينام...

فتلفت يمينا وشمالا فلم أجد حولى أحداً . لا أناس ، ولا أضواء ، ولا مارة ولا شىء ذى حياة . وما كنت أسمع فى ذلك الليل الدامس إلا نقيق الضفادع ووصوصة صراصير الحقول...

فكرت فى قطع بقية الطريق إلى قرية كفر الوسطانى ماشيا ، ولكنها بعيدة تحتاج إلى ساعتين للراجلين، فكيف أغامر وأسير وحدى فى أرض موحشة منقطعة تجوس خلالها وحوش الغاب فضلا عن وحوش الآدميين .

وهنا لم أتردد فى طرق جدار الكوخ الذى يسمونه محطة ، وناديت « السى عبده » من وراء الباب ، وقلت له «ياحضرة الناظر» أنا مسافر من شربين إلى كفر الوسطانى ولكن سيارتكم تركتنى هنا فأصبحت كالمنبت، وإنى أملك تذكرة من شركتكم ومن حق أن أطالبكم بتسفيرى إلى حيث أخذتم منى الأجرة. فقال « وعاوز منى أيه ؟» فقلت تسفرنى إلى الوسطانى الآن، أو أذهب إلى العمدة وأخبره وأشهده عليكم ثم أمشى إلى الوسطانى فى هذا الليل وأحملكم مسئوليه كل خطر ، وإن امتلاكى لتذكرة السفر يكفى لمقاضاتكم ومطالبة الشركة بتعويضات كبيرة ، وإن سمعت الحكومة بأنكم ترمون الناس فى الصحارى وتعرضونهم للخطر على هذه الصورة فلا شك بأنها تسحب الامتياز منكم ، والتذكرة هى عقد قانونى بينكم وبين الركاب

ولكن ...

قلت هذا كله بحماسة وقوة مع شىء من الغطرسة ، ثم تحسست التذكرة ولكن لم أجدها.. وفتشت جميع جيوبى ولكن هيهات. وفطنت أخيراً إلى أننى كنت فى خلال الانتظار أعبث بالتذكرة وإنى برمتها بين أصابعى وإننى نظفت بها « فم السيجارة » ورميتها ...

جاء الفرج

ولم يدر «حضرة الناظر» بحركة التفتيش الدقيقة التى كنت أقوم بها بحثاً عن التذكرة ، لأنه كان فى داخل « التخشيبة » ! وبعد سكوت دام لحظة سمعت عبده ينادى غلامه ويأمره

بدق باب الكراج وأن ينادى السواق ليخرج بسيارة الأتوبيس حالا ، ثم قال «وأنت ياسيدنا الشيخ ستدفع للشركة نصف ريال فقط ثمناً للبنزين» فرضيت ولو طلب جنيهاً لدفعته ، ودرج بى الأتوبيس نحو كفر الوسطانى ، وكم كنت أضحك فى نفسى وأنا أسافر وحدى فى « قطار خاص » ...

فذكرتنى هذه السفرة بالسيد محمد وحيد بك الأيوبى من أعيان القاهرة « رحمه الله » إذ كان فى شبابه يسكن مدينة حلوان وكان يعود إليها من القاهرة فى وقت متأخر من الليل ، فإن فاته آخر قطار ، أيقظ ناظر المحطة وجعله يجهز قطاراً خاصاً يقله إلى حلوان ويدفع بضعة جنيهات أجرة لتلك الرحلة ..

وقضيت عند نسيب بضعة أيام وقد حدث فى خلالها أن وفد عليه بعض الضيوف وكان ذلك قبيل وقت الغداء بقليل ، فلم أر بداً من الابتعاد عن الدار وعن القرية كلها لبينما ينصرف هؤلاء الضيوف ... وأخذت أطوف الحقول المجاورة فإذا بى عند معبر على إحدى الترع ، وإذا بجماعة من الفلاحين يحاولون العبور ومعهم نعش ويريدون دفن ميتهم فى قرية الوسطانى بعد الصلاة عليه فى مسجدها .

مشكلة وفرار

وسمعت لغط القوم وأحدهم يقول لرفاقه وقد أشار نحوى : هذا شيخ فيمكنه القيام بالصلاة على المرحوم وتلقينه ...

فكدت أجن من شدة الحيرة لأن مراسم الدفن والصلاة والقراءة والتلقين لها أصول وقواعد، فإن أخللت بحرف منها كانت وقعتى سوداء، فكيف العمل .. إنهم على وشك الوصول إلى حيث كنت ، فإن نادونى وقالوا تعال ياسيدنا الشيخ ، فماذا أقول لهم ؟ .

تلك مشكلة لم أجد لها حلا إلا الهرب فرجعت أدراجى مسرعاً بدون ركض وتغلغلت فى أزقة القرية .

وبعد المغرب رجعت إلى منزل نسيب بعد أن رأيت سيارة الضيوف قد اختفت ، فتغديت وتعشيت دفعة واحدة وقضيت الليلة هناك ، وبعد أيام غادرت الوسطانى إلى المنصورة فجلست فى قهوة متوسطة الحال وتناولت إحدى الصحف بعد أن انقطعت عن الدنيا بضعة أيام .

حادث خطير

ما كدت أفتح الجريدة وأقرأ حتى شعرت بأن الأرض تهتز من تحتى ، أو أننى أنا الذى أهتز وأرتجف . كان الحادث الذى روعنى مما يروع حقاً ، وذلك أن الفريق عزيز على المصرى باشا القائد الشهير قد فر من مصر هو وبعض الضباط بطيارة عسكرية ، وأن الطيارة سقطت بهم بجوار قليوب بضواحى القاهرة ، وأنهم تركوا الطيارة وهربوا ولم يعثر لهم على أثر وأن الحكومة تدفع ٥٠٠ جنيه مكافأة لمن يرشد عنهم أو عن أحدهم .

إذن فهذا حادث سيصيبنى من رشاشه متاعب لانهاية لها، لأن آلاف الناس سيتحولون إلى جواسيس ، يحملقون فى كل شخص ، ويتفرسون فى كل وجه ، وأن الفنادق ستصبح أوكاراً لرجال البوليس السرى ، وأن أصحاب الفنادق أنفسهم وخدمها سيفحصون كل من ينزل عندهم حتى أصابتنى العدوى أنا أيضاً ، فصرت أدقق النظر فى وجوه الناس وأتفرس فى المارة لعلى أظفر بعزيز باشا لأحذره وأساعده على الاختفاء إن قدرت ...

لقد احترت فى أمرى كثيراً ، لأنه أصبح يتعين علىّ أن أغالى فى الاختباء والاختفاء أكثر مما أنا مبالغ ، وأن أحذر أكثر مما أنا فيه من حذر .

وذهبت إلى البريد فوجدت رسالة من الدكتور البشناق بإمضاء مستعار يتحدث فيها عن أشياء تجارية وعن أمور لا يفهمها أحد ، ثم يقول لى محذرا من عواقب التفتيش الذى يدور حول (البضائع المخزونة) وينصح بالابتعاد عن (طمع أصحاب الفنادق وخراب ذممهم).

ففهمت أنه فى قلق من أجلى بسبب البحث عن عزيز باشا ، وأنه يوصينى بالابتعاد عن الفنادق التى أصبحت هى ومن فيها أعشاشاً للتجسس ...

الأستاذ باكثير مرة أخرى

فذهبت إلى حارة بلدية لأنفذ منها إلى مكان يحوينى إلى الغروب لأستطيع المشى فى الهواء بشىء من الاطمئنان . وإذا بالأستاذ على أحمد باكثير يمر من أمامى وكان وحده فى هذه المرة، فمشيت خلفه وأخذت أتتبعه على بعد قليل إلى أن توسط ميدان « الطميحى » فأسرعت وحاذيته ثم وضعت يدى على كتفه وسلمت عليه ، فالتفت إلىّ بسرعة ولما سمع صوتى عرفنى

حالاً وأقبل يعانقني ويسألني عن حالي فواصلنا السير وأنا أقص عليه قصتي ...

وانتهى بنا المسير إلى داره فدخلنا ، ثم قدم لي طعاماً وسهرنا إلى منتصف الليل ونحن نتحدث وندبر الخطط .

وقدعرفت عن حال الأستاذ با كثير أنه تعين مدرسا للغة الإنكليزية بمدرسة الرشاد الثانوية بعدأن انقطعت أسباب الاتصال بينه وبين أهله في أندونسيا، وأنه يسكن المنصورة منذ شهور، وأن هذه الدار داره ولكنه ليس وحده فيها ، لأنه تزوج ، وأن إحدى قريبات الزوجة تسكن معهما .

وأخذنا نفكر في اتخاذ المنصورة مقاما إلى أن يفرجها الله ، وفي الصباح شرع با كثير يطوف المدينة بحثا عن دار تصلح لسكناي ، ومن شروطها أن تكون شقة من بابها ، وأن تكون في حي بلدي مكتظ ، وأن تكون نوافذها غير مكشوفة من المنازل المقابلة لها الخ .

وهنا فقط تذكرت نبوءة السجين المريض الإيطالي جورج رفيق بمستشفى الدمرداش وكيف قال إنني سأنطلق ولن أعود إلى السجن ولكني لن أرجع إلى داري . فها أنا ذا شريد طريد حيران . لا أجد مفراً ولا مستقراً كما قال الطالب وأنا عند باب معهد دمياط ...

حياة الخوف

إن حياة الخوف لا يمكن أن يصفها أحد بحق إلا إن ذاقها وعاناها ، وقد سأل أحد الملوك جليساً له : ماالعيش ؟ فقال: الأمن ، لأني رأيت الخائف لا يهنأ بعيش . فقال : زدني. فقال: الصحة ، لأني رأيت المريض لايهنأ بعيش . فقال:زدني فقال الشباب لأني رأيت الشيخ لا يهنأ بعيش . فقال : زدني . فقال : لا شيء بعد ذلك .

فالأمان إذن هو أعظم نعمة أسبغها الله على الإنسان ولا يفهم قيمة هذه النعمة إلا من فقدها .

الاستقرار بالمنصورة

موكب ...

وقد عثر الأستاذ باكثير على شقة صغيرة فى حى «ميت حدر» فى زقاق ضيق ، وهذه الشقة عبارة عن طابق مستقل يسكن فوقه أصحاب العمارة فقط ، وقد كتب عقد الإيجار باسمى «الشيخ محمد الناجى» بكفالة وتعريف الأستاذ باكثير . ولولا سكنى الأستاذ فى المنصورة ووظيفته التى تقنع المالك بالأمان على ملكه وماله ومن ساكن مجهول وجيرة شيخ غير معروف لما استطعت إيجاد مأوى ، وهنا تذكرت وصايا صديق أحمد حافظ عوض بك وأنه لابد للهارب من دليل ورفيق ، فكان باكثير نعم الرفيق والدليل .

وفى اليوم الثانى تغلغلت فى سوق التجار أو «سوق الخواجات» كما يسمونه فى المنصورة فاشتريت سريراً صغيراً وفرشة جديدة ومخدة وبطانية ومفارش بيض من دكان «السمنودى» كما اشتريت من الشارع العباسى كرسياً وطاولة وأدوات كافية لعمل الشاى والقهوة، وجعلت هذه الأشياء كلها فى عربتين من مركبات «الحناطير» وسرت بهذا الموكب الفخم فى وسط المدينة مخترقاً شارع السكة الجديدة الذى هو أكبر شوارع المنصورة وأشدها ازدحاماً بالناس، بدون أن أبالى بأحد ، لا بالشرطة ولا بالجواسيس، لأنى أعرف أن قوات الدولة كلها مشغولة على الآن بالبحث عن عزيز المصرى باشا والضباط الذين هربوا معه ، ومشغولة كذلك بالبحث عن الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة الذى بلغنى من أسبوع فقط أنه هرب من السلطة العسكرية البريطانية لما بلغه نبأ صدور أمرها بالقبض عليه وأنه اختفى ، فكنت أتمنى العثور عليه لأضمه إلىّ فى مخبئى الجديد .

ليلة البراغيث

كان أول شىء صنعته فى المأوى الجديد أننى غليت شاياً على وابور السبرتو الصفيح وشربته متلذذاً مسروراً ، وشعرت بالاطمئنان والراحة بعد طول العذاب وكثرة التنقل من بلد إلى بلد ومن فندق إلى فندق . وبعد أن نظمت الأثاث البسيط الذى جئت به تصورت نفسى فى قصر منيف فخم ، ثم اغتسلت بالصابون الذى لم يمس جسمى طوال تلك المدة حتى فاحت رائحتى وأصبحت تزعجنى أنا فكيف حال من يقترب منى .

وفى المساء نزلت إلى الشوارع أمشى بين الناس كواحد منهم ، بدون خوف أو وجل ، أليس انى صرت مواطناً وأصبحت أسكن فى بيت وأملك عقد إيجار رسمى ...

وقبيل منتصف الليل رجعت إلى دارى مبتهجاً، فقد أصبحت سيداً لدار خاصة، فلا أخشى بعد اليوم مجىء زوار أفر منهم كما كنت أفر من زوار نسيب شهاب فى الوسطانى . وصرت أشعر بأنه لا ينقصنى شىء . وقد جاء فى الحديث الشريف « من أصبح آمناً فى سربه، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فقد حيزت له الدنيا » ولكن أين الأمن وأين أنا من سربى واخوانى وأهلى ...

لم أستطع النوم فى الليلة الأولى بسبب البراغيث التى هجمت علىّ ولا أدرى من أين أتت ولا من أين نبتت . فالفراش جديد والأغطية جديدة والدار كانت مهجورة فكيف جاءت هذه البراغيث المزعجة اللحوحة ، ولم أفطن إلى كون الدار المهجورة المتربة هى التى تسبب البراغيث .

نهضت من الفراش ونفضت ملابسى ، ثم نفضت الفراش نفسه ، ورجعت إلى السرير فاضطجعت عليه وحاولت النوم ولكن البراغيث والعياذ بالله عادت إلى القرص واللسع واللذع فقمت منزعجا .

ولم يكن عندى نور أستضىء به تلك الليلة لأستطيع التفتيش عن البراغيث اللعينة ، وقد نسيت يومها أن أبتاع شمعة على الأقل، فصرت أشعل أعواد الثقاب وأفتش عن البراغيث ولكن هيهات ...

قضيت تلك الليلة ساهراً بلا نوم ، فتذكرت أندلسياً من الأدباء عانى قبل ألف سنة من البراغيث والبعوض والبق ما عانيت فأنشد يقول:

بعوض وبرغوث وبق لزمننى   حسبن دمى خمرا فلذ لها الخمر
فيرقص برغوث لزمر بعوضة   ويصغى لها بعض ليحلو لها الزمر

وقال أندلسى آخر :

بق وبرغوث أتوا   نحوى وقد زادوا عذابى
وأتى البعوض بزمره   ياقوم أخرج من ثيابى !

فلما ذكرت الشطر الأخير أعجبنى هذا الحل ، فخرجت من ثيابى كلها والتحفت بغطاء السرير وبذلك استطعت النوم بقية تلك الليلة السوداء .

هدوء

أخرج من الدار وأمشى بين الناس

وفى الصباح أقنعت صاحب الدار بأن يمد سلك الكهرباء من داره إلى دارى ، ثم اشتريت مصباحين وركبتهما كما اشتريت بعض المواد الغذائية الجافة كالجبن والبيض والسمن والزيتون وبعض أدوات المطبخ التى تنفع على الأكثر لقلى البيض ، فيالها من سعادة !

وصرت أقضى معظم النهار فى المنزل وان خرجت فلا أقصد إلا الأماكن النائية عن المدينة . فإذا جاء الليل استطعت التجول فى الأسواق بحرية أوسع واطمئنان أكمل . وكانت المطالعة بعد ذلك هى أشهى ما تطلبه نفسى . فذهبت إلى بائع كتب مستعملة فاشتريت بعض الروايات وكتب التاريخ والأدب . وعدت بها إلى مسكنى ...

مشكلة المكنسة ...

مضى على مسكنى أكثر من أسبوعين وهو بلا كنس ولا مسح ، فامتلأ بالغبار والتراب الذى تنتعش فيه البراغيث ... وسبب ذلك اننى لم أشأ أن أنزل إلى السوق فى النهار لشترى مكنسة ، كما أننى أغليتها الثمن ، فالمكنسة لابد أن تكون ذات عصا طويلة لأن التى بلا عصا يتعبنى الكنس بها ، ولا بد أيضاً من خيشة لمسح الأرض بالماء ولكن هذه العملية تتعبنى أكثر لما تقتضيه من انحناء شديد .

وأخيراً حللت المشكلة بأن نزلت إلى الحارة واشتريت عودا من أعواد قصب السكر بربع قرش ، ثم شددت إليه سروالاً ممزقاً استغنيت عنه ، وبذلك تمكنت من كنس الدار بهذه الأداة البديعة ، وبعد ذلك صرت أغمسها بالماء وأمسح الأرض ، وقد تم ذلك بدون تعب كثير ، لأنى كنت أمارس هذه الوظيفة وأنا واقف ، ولم أخف من القبض علىّ بقدر خوفى من الزبانية عندما يرون عود القصب عندى ....

شك ...

أخذت الأمور تستقر معى فى المنصورة نوعاً ، ومنها أننى اتفقت مع بائع صحف على أن يجيئنى بها كلها لأطالعها وأردها إليه فى مقابل جعل معين بقصد التوفير والاقتصاد لقلة ما أملك من المال ، وبقصد إضاعة أطول وقت ممكن يشغلنى عن الدنيا والتفكير فى صروفها . وكان مما صنعته فى تلك الأيام اننى طبعت بطاقات باسمى الجديد على الصورة الآتية :

فكنت أبرزها للجيران إن سألونى عن هويتى ، فكانت هذه البطاقة مقنعة نوعاً ، أليس أنها مطبوعة ؟ إن الناس يصدقون مايضرهم متى رأوه مطبوعاً ، فكيف لايصدقون بطاقة لاضرر منها ؟

وكان البحث فى تلك الأيام عن عزيز باشا المصرى يجرى بكل همة ، وكان مبلغ الخمسمئة جنيه الذى أعلنت عنه الحكومة لمكافأة الذين يرشدون إلى الباشا قد أفسد أخلاق الناس ، حتى إن بائع الصحف الذى ذكرت اتفاق معه صار يحملق بى ويطيل الحديث معى ويدقق النظر فى وجهى بفضول عجيب . فصرت أختصر من علاقته بى وأقلل من طلب الصحف منه . ولكن ذلك لم يزده إلا فضولاً وحملقة وثرثرة ! فتضايقت منه وشككت فيه ، وأخذت أفكر فى الهرب من الدار والجلاء عن تلك الحارة . وإذا ببائع الصحف هذا يجىء فى وقت غير منتظر ومعه بائع آخر أكبر منه ، وكان شكله لايدل على خير . فأخذ يعرض علىّ مجلات وكتباً إفرنجية ويسألنى إن كنت فى حاجة إلى عقد اتفاق معه على الكتب والمجلات الأجنبية كالاتفاق مع زميله على الصحف العربية . فضحكت واستغربت كيف يظننى أفهم اللغات الأجنبية. وهنا أحسست بذعر شديد داخلى من هذا البائع ، ولم أشك فى كون زميله الأول قد ارتاب بى وظننى عزيز باشا ، وهو معذور فى هذا الظن . لأن إحدى الصحف المصورة نشرت صورة الباشا ونشرت إلى جانبها بعض صور له بعد أن أضافت إلى رأسه عمامة وإلى وجهه لحية لترشد البوليس والجمهور إليه . ياويلها فإنها ارتكبت بذلك جرم الجاسوسية بشكل أوسع وأعم . وأما بائع الصحف فقد أظهرت له استغرابى من عرضه الكتب الإفرنجية علىّ وصرفته بالحسنى شاكراً فانصرف وهو يلتفت إلى الخلف ويتزود من النظر إلىّ ...

لقد روعنى هذا الحادث وجعل الريبة تسرى فى خاطرى ونار الشك تدق فى قلبى . إذن فالبائع الأول كان يتشكك بى فأفضى إلى زميله بما يخامر نفسه فتصور الاثنان مبلغ الخمسمئة جنيه بعد أن دارت فى خيالها . فقام الثانى وجاء مع الأول ليدرس شخصية الشيخ الذى لا يغادر الدار ، ويقرأ جميع الصحف ...

صورة عزيز باشا المصرى فى كهولته

ومن يدرينى أن الثانى لم يكن بائع صحف، بل من مرشدى البوليس السرى؟ ومن يضمن لى أنه لم يذهب فى تلك الساعة إلى إدارة البوليس ولم يوح إليها بشكوكه ، فما أسرع ما يهرول أحد الضباط ومعه قوة بوليسية تطوق الدار ثم يصعد إلىّ ويقتحم الباب ثم يأخذنى إلى إدارة الشرطة ويوجه إلىّ بعض الأسئلة فيجدنى أنا بدلا من عزيز باشا والمكافأة هى خمسمئة جنيه!

الفرار من الدار

تصورت هذا كله بعد أن قدرت عواقبه ، فلم أتردد عن العمل السريع فجمعت كتبى وما عندى من ملابس وجعلت الجميع فى صرة وغادرت الدار إلى حيث يقطن الأستاذ على باكثير ، فناديته وقصصت عليه الحادث ثم أودعته الصرة ومفاتيح الدار وأوصيته بأن لايذهب إلى تلك الجهة . لأنه إن حدث شىء فلا بد من أن يصلوا إليه للسؤال عنى . لأنهم سيسألون صاحب الدار عن الشيخ فيقول لهم لا أدرى سوى أنه استأجر المنزل منى بواسطة باكثير ، فيسألونه فيقول إن الشيخ قد ذهب إلى القاهرة لإحضار أسرته ولا يذكر وضع المفاتيح عنده . وأما أنا فسأتغيب عن المنصورة يومين أو ثلاثة ثم أعود وأترصد الأستاذ باكثير بالقرب من مدرسته لأستفهم منه عما جرى بعد ذلك . فإن وقع فى غيابى شىء تركت المنصورة كلها إلى الأبد ، وإلا عدت إلى العش الذى اطمأننت فيه طول تلك الأيام بسلام .

وسافرت إلى دمياط فطنطا فالإسكندرية فبنها فالزقازيق وفى اليوم الثالث رجعت إلى المنصورة ، فترصدت الأستاذ باكثير بعيداً عن داره إلى أن لقيته ، فقال إنه لم يقع شيء ولا سأل عنى أحد . فقلت له اذهب إلى قهوة « البرنسات » حيث يجلس فيها صاحب الدار عادة ، واسأله عنى فإن فهمت أن أحدا سأل فمعنى ذلك أن بائع الصحف الثانى قد فعلها .

وعاد الأستاذ باكثير يقول إن صاحب الدار خالى الذهن ولم يسأله عنى أحد .

منــــام

وفى تلك الليلة رأيت فى ما يرى النائم أن الشرطة قد دهمت مسكنى هذا ، وأننى قفزت إلى السطح المجاور ، وأن رجال البوليس كانوا يركضون خلفى ، وأننى قفزت إلى الشارع ووقعت إلى الأرض ، وأن رجلى قد انكسرت ، وأنهم قبضوا علىّ ووضعونى فى سجن مضيق فنهضت من الفراش مذعورا وفركت عيناى واستويت جالساً فإذا بى فى سريرى وفى مخبئى . فحمدت الله على السلامة كما حمد جحا ربه على السلامة يوم وقع قيصه عن حبل الغسيل !

وبعد قليل شعرت بألم شديد فى قدمى ففهمت أننى فى لحظة الهرب وأنا فى الرؤيا ، كنت أمد رجلى بعنف فاصطدمت قدمى بالجدار ، فكانت الصدمة التى أيقظتنى وشكرا لها ، لأنه لولاها لطال الحلم وطال عذابى الروحى إلى الصباح .

القبض على عزيز باشا

وبوغت الناس ذات صباح بنبأ القبض على عزيز باشا ورفاقه الضباط جميعا . أما الحادثة فتتلخص فى كون هذا الرجل المخلص لما رأى الإنكليز يتحكمون فى وطنه ويحاربون العالم العربى ، ويحاربون نهضة رشيد عالى الكيلانى فى العراق اتفق الباشا مع ثلاثة من الضباط الطيارين فى الجيش المصرى فتسللوا معه إلى المطار الحربى وركبوا طيارة حربية وطاروا يقصدون بغداد لمساعدة العراق فى حربه . ولكن لأمر يريده الله سقطت بهم الطيارة فى أطراف القاهرة فتركوها واختبأوا فى بيت صديق للباشا فى جهة امبابة ولا أدرى لماذا لم يحرقوا تلك الطيارة حتى لا تنم عليهم .

وكان لسوء حظهم أن البوليس كان يشتبه بساكن الدار ، وهو فى الأصل من المنسوبين لحزب مصر الفتاة ، فدهم ضباط البوليس تلك الدار بحثاً عن الأستاذ أحمد حسين رئيس الحزب وجماعته ، فإذا بهم وجهاً لوجه أمام عزيز باشا وصحبه، فقبضوا عليهم وأودعوهم السجن الذى كنت فيه .

وقد تحمس رئيس الوزراء ضد عزيز باشا وذهب بنفسه إلى السجن وفتح عليه غرفته وألقى عليه نظرة ثم انصرف نافشاً ريشه كأنه انتصر على أعداء وطنه فى معركة كان يقودها بنفسه ... ولكن عزيز باشا لم يسكت لرئيس الوزراء على فعلته بل صاح فيه وأسمعه مايكره .

وكان لخبر القبض على عزيز باشا صدى حزن عميق فى نفوس الناس ، وقابلته مصر والعالم العربى بوجوم شديد ، وحق للناس أن يشعروا بالخيبة والأسى وهم يرون أن مغامرة هذا البطل التاريخى والمجاهد القديم تحبط بهذه السرعة، فهم يحبونه ويقدسونه لمواصلته الجهاد منذ ثلث قرن ومتابعته الكفاح حتى وهو فى أيام شيخوخته .

إخماد حركة العراق

أما حرب العراق مع الإنكليز فقد انتهت بانتصار الأعداء وهزيمة العراق التى كانت هزيمة للعالم العربى بأسره، ومما يؤلم ويسوّد وجه التاريخ العربى أن هذا العالم العربى قد خذل العراقيين وحركتهم التحريرية خذلاناً واضحاً . وكانت حكومة شرق الأردن المحسوبة على العرب بأنها منهم قد تحمست ضد العراق وساقت جيوشها العربيـة ودباباتها الإنكليزية وطعنت العراق من الخلف . وكانت القوات الهندية تطبق على بغداد من الجنوب ومعظم هذه القوة الهندية كانت من المسلمين . وبذلك قضى أولئك وهؤلاء على أمة عربية مسلمة نهضت لتحرير نفسها وتحريرهم أيضاً من المستعمرين ، فأعادوها إلى كنف الاستعمار وأبقوها معهم تحت كلكله . وبعد ذلك يستغرب العالم العربى والإسلامى لماذا أصبحوا أقل قيمة فى هذه الدنيا من اليهود ، وأبخس ثمنا عند الأمم من أمة القرود !

العودة إلى وصف حياة المخبأ

كان خبر القبض على عزيز باشا قد وصل أيضا إلى علم بائع الصحف الذى كان قد تشكك بى وجاءنى بوقتها بزميله فكانا السبب فى ترويعى ونزوحى عن المخبأ أياما ، فلما عرفا بالقبض على عزيز باشا أقلعا عن الحلقة بى .

وتتالت الأيام فزاد بى الاطمئنان، وصرت أنزل إلى الحارة ليلا وأجلس بباب دكان عطار من أقارب صاحب الدار التى أسكنها . وقد تعمدت ذلك حتى أزيل ما قد يعلق بذهن صاحب الدار من جهتى لكثرة انكماشى فى المنزل . وكان يجلس فى تلك الدكان أحيانا السيد أحمد جودة نقيب الأشراف وهو من أعيان المنصورة الفضلاء ، والشيخ إبراهيم مجاهد القاضى الشرعى وهو عالم فاضل خفيف الروح لطيف المجلس كصاحبه السيد أحمد جودة . فإذا أضفنا إلى لطف مجلسهما خفة روح صاحب الدكان استطاع القارئ أن يكوّن فكرة عن تلك الجلسات وليالى هاتيك الظروف . وقد روعنى صاحب الدكان ذات مرة بأن مزح معى وأخذ يقول لى أمام القوم: «انت ياسيدنا الشيخ جاى منين؟ انت لازم تكون شيخ من باريس»..

والمعنى واضح هنا . فهو يشك فى مشيختى ويعتبرنى شيخا مزيفا ...

ومزح فى ليلة أخرى ، فقال : « والله يا شيخ انت خطر على الأمن العام ! » .

كانت هذه العبارات كافية لأن أشتبه بصاحب الدكان وبمن عنده ، فصرت أقتصد فى زيارة دكانه وأقلل من الاجتماع بزواره ، وأكثر من التغيب عن المنصورة فى المدن المجاورة يوما ويومين لأسوغ انقطاعى عن الدكان .

شكرى الكرداوى

أما وقد نزلت مدينة المنصورة فمن واجبى أن أتحدث عن هارب شهير من أهلها ، ذلك هو الأستاذ محمد شكرى الكرداوى ، وكيل إدارة السكرتارية اليوم بوزارة المعارف ، فقد كان فى شبابه يعد فى نظر الإنكليز وإدارة الأمن العام «من الطلبة المتحمسين للوطنية والاستقلال» وأظنه حبس ونكب كثيراً بسبب حادثة مقتل رئيس وزراء ذلك العهد بطرس باشا غالى ثم

أفرج عنه ، ولما رأى العين الحمراء من الاحتلال ، وكانت قد خيمت على مصر فى تلك الأيام موجة طاغية من الإرهاب رحل الفقيد إلى استانبول لدراسة الصيدلة ثم عاد إلى مصر فى أول الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ فاعتقلته السلطات البريطانية وحبسته فى معتقل الجيزة ثم أبعدته إلى مالطة. وبعد الحرب أعيد لمصر وأفرج عنه . وبعد الثورة سنة ١٩١٩ـ١٩٢٠ اتهم الكرداوى فى حادثة قذف القنبلة على سيارة محمد سعيد باشا رئيس الوزراء فهرب واختفى فحكم عليه غيابيا بالإعدام فظل مختفيا ومتنكراً ٥٥ شهراً لقى فيها الأهوال ، وبقى كذلك إلى أن قامت وزارة المرحوم سعد زغلول باشا وعفى عن الماضى فأظهر نفسه . وقد وضع شكرى الكرداوى كتاباً ضمنه مذكراته عن تلك الحادثة وكيفية هربه وسرد وسائله العجيبة فى التنكر والصبر على حياة الاختفاء . وقد قرأت ذلك الكتاب النادر لما كنت فى السّجن سنة ١٩٤٠ حيث استحضرته سراً ، وبعد تلاوته هربته من السجن بدون أن يشعر أحد من السجانين ، وقد استفدت من ذلك الكتاب كثيرا واسمه « ٥٥ شهرا فى مخبئ » .

لقد كنت أعرف هذا الفقيد المجاهد لما كان فى معتقل الجيزة سنة ١٩١٦ ـ ١٩١٧ حيث كنت معتقلا فى تلك الأيام ، وقد احتفلنا بوقتها بتوديع الكرداوى عندما أبعدوه وبعض رفاقه إلى مالطة ومنهم الدكتور حسن نور الدين والدكتور محمد عوض محمد بك والأستاذ صبرى منصور الذى صار بعد ذلك قنصلا عاماً لمصر فى بيروت سنة ١٩٣٨ .

الجهاد المنكور

لقد عرف القارئ أن الكرداوى كان وكيلاً لإدارة السكرتارية بوزارة المعارف . وهى وظيفة صغيرة بالنسبة لرجل له ذلك الماضى الوطنى . وأما السبب فى كونه لم يصبح بعد جهاده وماضيه الناصع على رأس وظيفة كبيرة تليق بجهاده، فذلك أن معظم المجاهدين الحقيقيين فى سبيل الأمم المقهورة يحرمون مع الأسف ثمرة جهادهم ، لأن حكوماتنا الوطنية التى تقوم بعد الجهاد تظل فى هلع وخوف من سلطات الاحتلال فتجتهد حكوماتنا فى التنكر لهؤلاء الأبطال الذين ماقامت إلا على أكتافهم وبفضل جهادهم، وتغالى فى إظهار مودتها للمحتل ، معتقدة

أنها ترضيه بالتظاهر بأنها غير راضية من عمل أولئك « المتهوسين » والدليل على ذلك ـ أمام المحتل ـ أنها أهملتهم وتنكرت لهم ...

وقد صدق من قال « إن الثورة يدبرها الخبثاء ، ويقوم بها المجانين ، ويقطف ثمرتها الخونة والجبناء ! » .

وفاة الكرداوى

وفى أثناء الشروع بتسطير مسودات هذا الكتاب قرأت فى زاوية الوفيات بإحدى الصحف نبأ وفاة «محمد شكرى الكرداوى وكيل إدارة السكرتارية بوزارة المعارف المصرية» وكان هذا الخبر منشوراً فى ثلاثة أسطر فقط ، ولولا أن أهل الفقيد كتبوه وأعطوه للصحيفة ومعه أجرته لما نشرته ولا درى أحد بوفاة الكرداوى المجاهد . أما وقد بخلت الصحف بتعريف هذا المناضل وتأبينه وتمجيده فها إنى أقوم بهذا الواجب ، رحمه الله .

الجهاد المسروق

أما ثمرة جهاده فقد سرقها الجبناء وبعض الخونة ومعظم القاعدين عن خدمة الوطن ، وكم من خبيث من هؤلاء الثعالب كان يتمتع بمناصب الدولة وألقابها وهو يعرف أنه ليس بصاحب هذا الحق ، ويعرف كذلك أن صاحبه هو الكرداوى صاحب المنصب الصغير الذى لاقيمة له ولاجدوى منه ، وأبعد من ذلك أن اللصوص الذين سرقوا جهاد المرحوم الكرداوى هم الذين كانوا يقصونه عن حقه بوسائلهم الثعلبية الخسيسة ، وأنهم هم الذين بخلوا على أهله براتب معقول يعينهم على تكاليف الحياة من بعده .

سردت ماتقدم عن الكرداوى على اعتبار أنه واجب لاأقل ولا أكثر .

شكوك صاحب الدار

ولنرجع إلى ما كنا فيه فأقول : أخذت زيارات صاحب الدار لى تكثر ، وأسئلته تزداد بشكل ملحوظ ، إلى أن باغتنى ذات يوم بسؤال حاسم وهو « بماذا تشتغل يا أستاذ ؟ » فقصصت عليه قصة طويلة خلاصتها أننى وكيل محام شرعى بمصر ، وأننى جئت المنصورة للبحث عن عمل ، وقد ظننت ساعتها أن الامتحان قد انتهى عند هذا الجواب . ولكنه باغتنى

بطلب أشد خطورة ، وهو أن أقسم له تركة بين زوجة وأخوات وبنين وبنات وأحفاد الخ فلم أشك في أن الرجل يرتاب بي ، وأنه لن ينفك يطاردني بالأسئلة إلى أن يفضحني ، فوعدته بأن أراجع غداً كتب المعاملات الشرعية وقسمة المواريث على الوجه الشرعي فتركني وانصرف .

أحمد حسن بدر

هذا هو اسم صاحب الدار ، وهو رجل من أعيان المنصورة ، شديد الذكاء شديد الشكيمة جرئ والكل يحسب حسابه ويخشاه . إذن فأنا أمام خصم غير هين ، فماذا أصنع ؟ ليس لي إلا الجلاء عن المنصورة لأستريح من شكوكه . ولم أنم تلك الليلة وأنا أفكر في التخلص منه على وجه من الوجوه ، إلى أن استقر القرار على ترك المدينة كلها والبحث عن بلدة أخرى حتى لا تؤدي زيارته عني في دكان صاحبنا إلى الفضيحة والوقوع في يد الشرطة.

المكاشفة والصراحة

وفي مساء اليوم الثاني جاء أحمد بدر لأخذ الجواب الشرعي على قسمة الميراث ! ففاجأته بتحليفه أعظم يمين مع كلمة الشرف بأن يكتم ما سأقصه عليه ففعل ، وأظنه كان يتوقع اعترافاً من لص أو قاتل . فأخبرته باسمي الحقيق وكشفت له عن شخصيتي وقصصت عليه قصتي وأفهمته أن أقل غلطة أو أية فلتة من لسانه ستؤدي بي إلى السجون والموت فيها من شدة انتقام الظالمين الذين فررت من أيديهم .

فكان لهذا الاعتراف الحاسم في نفس الرجل وقعه الطبيعي ، فتأثر كثيراً وأطرق ملياً ثم رفع رأسه قائلا : سأكتم سرك وسأكون عضدك وسأخدمك إلى النهاية . فشكرته على هـذا الاهتمام وعلى رجولته التي

أحمد افندي حسن بدر

تنبهت إليها من قبل . وهنا استأذن صاحبنا وصعد إلى داره وغاب لحظة ثم عاد يحمل كتاباً ضخماً . فإذا به « الدليل المصرى العام » ثم فتح الصفحات الخاصة بالصحافة والصحافيين ووضع إصبعه على صورتى التى كانت قد نشرت فى دليل سنة ١٩٣٠ وقال إننى صدقتك بمجرد أن صارحتنى ، لأنى متذكر اسمك وكنت أقرأ حوادثك فى الصحف من زمان طويل...

وبعد هـذه الأخوة صرت أستأنس به وأرافقه ويرافقنى ، فكنا نقضى معظم الليل فى قهوة « عوض » على ضفة النيل بجهة البحر الصغير .

وكنت مغتبطا بهذه الصداقة وتذكرت نصائح حافظ بك عوض وأنه لابد لى فى حياة الهرب من رفيق ودليل فكان أحمد حسن بدر نعم الرفيق .

الشيخ محمد الناجى المغربى

واتفقنا على أن يظل هـذا اسمى أمام الناس وأننى تاجر فى سوق المغاربة باسكندرية ، وأننى نزحت عنها بسبب الغارات الجوية وأما البطاقة القديمة التى كنت أستعملها بصفة مندوب لمجلة الوعظ فقد أبطلت إبرازها .

حياة هادئة

هدأت حياتى بهذا الاستقرار النسبى ، وقلت عندى الوسوسة من الجيران ، لأن جارنا صاحب الدار أحمد حسن بدر أصبح هو المتستر علىّ بدلا من أن يكون هو الغريم الأول كما كان الحال سابقا. فصار إن سأل عنى أحد أو ظهر فضول حولى من أحد يقول له « والله إن الشيخ محمد رجل غلبان منكوب أعانه الله على بلواه » وقد صدق لأن بلواى كانت عظيمة ولا كاشف لها إلا الله .

حوادث وتجارب ودروس

سيجد القارئ مما سأورده عن حياة الاختباء بعض مايعانيه الهارب من العذاب النفسانى وصعوبات الحياة والتحفظ خوفا من المباغتات فوق ترويعه من حين إلى آخر بمفاجآت تدنيه من الخطر ، فتتلف أعصابه ولو كانت من الحديد .

الاستئناس « بالشلة »

كانت هـذه الجماعة تتكون فى أول الليل من أحمد بدر ومن قاضى المنصورة الشرعى الشيخ إبراهيم مجاهد الذى أصبح بعد ذلك من كبار مدرسى كلية الشريعة بمصر، ومن السيد أحمد جودة نقيب أشراف المنصورة . وكان مجلسهم فى قهوة البرنسات للعب النرد والدومينو فكنت أجلس معهم ، وبعد إغلاق القهوة كنا ننتقل إلى دكان العطار عبد الهادى عكة أحد أقارب أحمد حسن بدر ، فنجلس لقضاء بقيـة السهرة على رصيف الدكان للحديث والسمر و « النريقة » على خلق الله ! وقد اعتاد أهل الحارة رؤيتى معهم فلم يعد أحد يحملق بى ولا يجسر إنسان على الجلوس معى لاستجوابى : « إنت منين ، واسمك إيه ، وبتشتغل إيه ! »

تجارة البطاطين

لقد انسكبتْ على صفتى التى أذاعها عنى أحمد بدر، وهى أنى من تجار المغاربة بالإسكندرية وصدقها الجميع حتى إن أحد تجار المنصورة الصالحين المتقاعدين ويسمى عبد المجيد سالم أخذ يذكرنى بالماضى البعيد « الذى لم يكن » وأننى كنت عميله قبل ثلاثين سنة وأنه اشترى منى بالإسكندرية شحنة من «البطاطين» وأن دكانى كانت بسوق المغاربة ! فوافقت على اكتشافه فنهض وقبل لحيتى وقبلته بمناسبة جمع الشمل ، وأثنيت على قوة ذاكرته ...

لقد سررت بهذه الشهادة من عبد المجيد سالم ، فهى قاطعة بصدق أحمد بدر ومزكية لكلامه عنى .

الجندى يقبل يد الشيخ

وصرت أقضى معظم أوقاتى مع أحمد افندى بدر ، فكان الناس يتعجبون من كثرة وجودنا معاً ، فكان بعضهم يقول إن هـذا الشيخ المغربى يكشف الغيب ويفتح البخت ! وبعضهم يقول بل هو متفق مع أحمد بدر على فتح الكنوز... وغير هؤلاء كانوا يقولون إننا نزيف نقوداً ... ولكن هـذا كله ما كان له أدنى أثر على مجرى الأمور ، وكان عسكرى البوليس الليلى بجهة قهوة « عوض » بالبحر الصغير يسرع إلىّ كلما رآنى فيسلم علىّ ويقبل يدى متبركا طالباً صالح الدعاء ...

حرب الألمان مع الروس

وبينما كنا نقدر لنهاية عذاب العالم من الحرب أياما ، وعذابى أنا بسببها . فإذا بالجرائد تفجئنا بنبإ إعلان ألمانيا الحرب على الروس ، فقال الناس أن الحرب ستطول بسبب هذه الحرب الجديدة بضعة أسابيع أخرى ... لأن الألمان بشجاعتهم وبعتادهم الحربى العجيب سيقضون على روسيا فى خلال شهر على الأكثر . أليس أنهم حطموا بولونيا وفرنسا ومعها هولندا وبلجيكا فى أسابيع ؟

وفى الواقع أن الروس هم السبب فى هذه الحرب مع الألمان لأنهم نكثوا بالاتفاق الذى عقدوه معهم قبل الحرب العظمى ، بأن خرجوا على الحياد ونكثوا بميثاق عدم الاعتداء فى أثناء اكتساح الألمان لبولونيا جرثومة الشر ، فزحف الروس على القسم البولونى الذى يليهم فاحتلوه ثم احتلوا جمهوريات ليتوانيا واستونيا وليتونيا ، وبعد ذلك هجموا على رومانيا وأخذوا منها بنسلفانيا وبسارابيا ، وأخيرا هاجموا فنلندا وأخذوا القسم الذى يليهم منها وبذلك اختل التوازن الموجود فى أوربا وهو يكفى لتهييج الألمان عليهم ، وبعد هذا تحفز الروس لمهاجمة الألمان وبدأوا عداوتهم السافرة بأن تحالفوا مع يوغسلافيا فى أثناء وقوع الحرب بينها وبين الألمان. فلم يعد هناك أدنى شك فى سوء نية الروس ، فعاجلهم الألمان بهجمة مباغتة اكتسحوا فيها أهم الأقاليم الروسية وأعمرها ، من الحدود حتى ضواحى لينيغراد وموسكو وستالينجراد ، فوق إخراجهم من فنلندا وليتوانيا واستونيا ولتونيا وبسارابيا وبنسلفانيا والقرم والبحر الأسود كله . ولكن سوء حظ الألمان جعلهم يخسرون معركة موسكو التى استنزفت قوتهم ، ثم يخسرون بعد ذلك بشهور معركة ستالينغراد فى أوائل ١٩٤٢ وإنى أشبهها بمعركة فردان سنة ١٩١٧ كما أشبه معركة موسكو بمعركة المارن فى فرنسا سنة ١٩١٤ ففى المارن أشرف الألمان على باريس ثم صدموا صدمة ردتهم عنها ، فاحتاجوا بعدها إلى حرب ثلاث سنين أخرى . أذابت قواهم ، وفى فردان وقفوا نحو سنة إلى أن تحطمت بقية قوتهم أمام حصونها ، ثم قضى عليهم سنة ١٩١٨ فلو أن الألمان كسبوا معركة المارن سنة ١٩١٤ لما ذاقوا نكبة الوقوف فالهزيمة أمام فردان ولكسبوا تلك الحرب ، ولما احتاجوا إلى الحرب العظمى الثانية.

إذ يكون وجه الأرض والتاريخ بوقتها قد تغيرا ، لأن معركة المارن كانت من المعارك الحاسمة فى التاريخ . إذن فمعركة موسكو هى أخت معركة المارن ، ومعركة ستالينغراد كانت أخت معركة فردان ، فحرب الروس مع الألمان اليوم كانت مفاجئة للعالم كله وكانت نكبة مباغتة نكب بها الألمان فركبوها مرغمين ، ولكن لابد مما ليس منه بد ، على أن بعض الساسة كانوا يرون أنه كان يجب على الألمان أن يتغاضوا عن روسيا إلى أن يخلصوا من حرب انجلترا أولا ولكن الألمان كانوا على يقين من أن الروس كانوا على وشك الغدر بهم ، ففضل الألمان أن تكون لهم مزية السبق فبادروهم بالهجوم. وكان العالم الإسلامى شرقاً وغرباً يهلل لكسر الروس لأن معناه تحريره من آخر دولة استعمارية تذل المسلمين ، فهى تستعبد نحو خمسين مليونا منهم ، فلا يبقى فى الدنيا من يذل المسلمين والعرب إلا بريطانيا. وهذه على وشك أن تتحطم فيا للمنام السعيد لو تحقق ...

ولكن أين هم المسلمون والعرب ؟ ولماذا لا يتحركون ضد الإنكليز الذين أصبحت امبراطوريتهم تجود بالنفس الأخير ؛ إن أقل حركة تقوم عليهم فى الهند أو مصر أو بلاد العرب كانت كافية لفض مشكلتهم معهم وخلاصهم من الاستعمار إلى الأبد .

ولكن العالم الإسلامى ظل نائما ينتظر أن يهبط عليه الاستقلال من السماء ، مكتفيا بالفرجة على الأمم التى تتطاحن فى سبيل المجد والسيادة والسيطرة ، غافلاً عن الحقيقة وهى أن هذه المذبحة الدائرة على وجه الأرض إنما تدور من أجل التسلط عليه وخنقه إلى يوم البعث.

الفرصة الثانية التى أضعناها

أما الأولى فبعد انهيار فرنسا فى الحرب الأخيرة وتبلبل انكلترا ، فلو أن العالم الإسلامى تحرك بوقتها لما بقيت انكلترا . وأما الفرصة الثانية ففى أثناء حصار الألمان للروس فى موسكو وستالينغراد ، لأن انكلترا كانت بوقتها منهزمة فى الأراضى المصرية وكاد الألمان يحتلون الاسكندرية فقناة السويس فالهند . وكانت اليابان قد اكتسحت الاستعمار الأجنبى من الشرق الأقصى وأخذت المستعمرات الصينية وبرما وسنغافورة والملايو من انكلترا ، وبلاد الفلبين من أمريكا ، وأندونسيا من هولندا .

ولم يبق خاضعاً للاستعمار الإنكليزى بوقتها إلا الهنود والعرب وبعض أمم الزنج ... فلواغتنمنا الفرصة وقمنا على انجلترا لما بقينا تحت حكم الاستعمار إلى الآن ، بل كنا السبب فى انتصارهم علينا قبل نصرهم على اليابان والألمان وبقاء الاستعمار عندنا ، ورجوعه إلى الممالك التى أنقذها اليابانيون، فكنا بسكوتنا وغفلتنا بلاء على أنفسنا وعلى غيرنا وعلى الألمان وعلى اليابان وسندفع نحن العرب والمسلمين ثمن تلك الجناية غالياً جداً جداً ، ولا أظن أن العرب والعالم الإسلامى يفلتون من الاستعمار البريطانى إلا بعد زمن طويل . هـذا ما كنت أتصوره سنة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ وأرجو الله أن يجعله خيالا وأن لا يحقق ظنى وأن أكون واهما .

اشتريت راديو

ورحت فى أوائل حياتى هذه أفكر فى الكماليات ، فقلت لصاحبى أحمد بدر : أريد أن أشترى « راديو » فقال : أعوذ بالله « إنت بايه والدنيا بايه » ... فقلت : لابد من الراديو

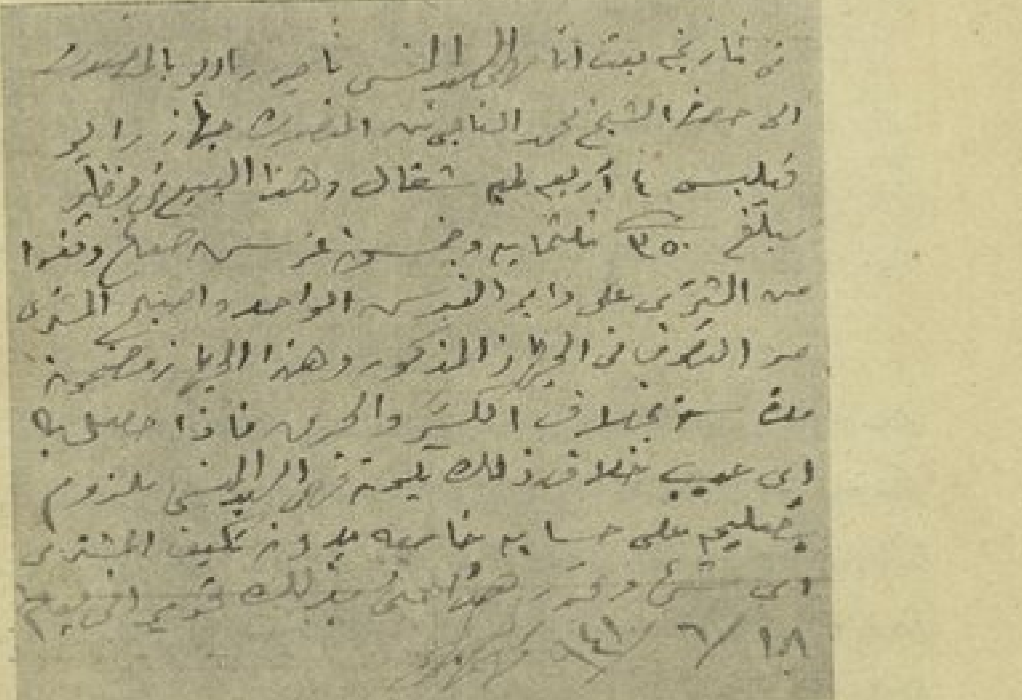
فى تاريخه بعت أنا [illegible]
[illegible] الشيخ محمد النابلسى [illegible] جهاز راديو
[illegible] ٤ أربع لمبات شغال وهذا البيع [illegible]
مبلغ ٢٥٠ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] بدون تكليف المشترى
[illegible]
١٨ / ٦ [illegible]

ورقة مبايعة الراديو الذى اشتريته

لأنى أريد أن أسمع الأخبار ساعة فساعة ، وأن أستعين بالراديو على تمضية الوقت ، لأنى أحس بطول الأيام والساعات بسبب وحدتى حتى لكأن عقارب الساعة لا تتحرك !

ونزلنا إلى الحارة وملنا على دكان فى « ميت حدر » واشترينا جهاز راديو قديماً رخيصا من الدرجة الثالثة بثمن قدره ٣٥٠ قرشاً فركبته فى الدار وصرت أستمع للقرآن والأخبار والموسيقا ، فشعرت أنى ملكت الدنيا كلها!

تسفير الأستاذ با كثير إلى القاهرة

وكان الأستاذ على أحمد با كثير يقضى بعض السهرات عندى ، فطلبت منه السفر لمصر وتوصيل رسالة إلى أهل بيتى، فأجاب بالإيجاب وقدنفذ ذلك على الوجه الآتى الذى رسمته له وهو:

يسافر الأستاذ إلى القاهرة ومعه رسالة منى ، فتى وصل إلى العمارة التى نسكنها يصعد الدرج على رجليه إلى الطابق الخامس بدون أن يركب المصعد حتى لا يرافقه البواب ، وأن لا يسأل البواب عن منزلى حتى لا يسمعه جاسوس البوليس القابع عند الباب فيشتبه به ، وإن سأله أحد عن الشقة التى يريدها يقول إنه يقصد منزل « الأستاذ عباس جمجوم المهندس بالأوقاف » وأن يجعل وصوله للعمارة بشكل يوهم من يراه إنه معتاد صعودها وإنه عارف بمسالكها ، وبذلك يتفادى كل شبهة .. الخ الخ ثم شرحت له ماسينتظره من شكوك عباس افندى وتحفظه وإنه سينكر علاقته بنا الخ .

المقابلة وتأدية الرسالة

قرع الأستاذ با كثير جرس باب شقة الأستاذ جمجوم ، وهى تحاذى شقتنا تماما، فخرج إليه ورافقه إلى الصالون وهو لايدرى عنه شيئاً . ولما جلس سأله عن الخدمة التى يريدها فأسمعه أولا بعض عبارات خاصة وحكايات لايعرفها أحد إلا عباس وأنا، ولكن عباس بقى متحفظا فأخرج الأستاذ با كثير كتابا بعنوان قرينتى وطلب إليه تسليمه إليها بواسطة حرمه ، وأفهمه أنه بخطى وأراه العنوان والخط ، فاطمأن عباس، وذهبت قرينته إلى شقتنا وأخبرت قرينتى بوجود رسول من قبلى ، فجاءت إلى دار عباس وأخذت الرسالة ، فكان سرورها عظيما لأنها من شهرين لا تدرى أين أنا .

ماذا فى الكتاب

كان كل ما فى الرسالة هو تطمين العائلة وطلب بعض الملابس والأوراق ومن الجملة أسلاك « إيريال » قديم للراديو، وتعيين العنوان الذى يمكن لقريبتى أن تعتمد عليه للاتصال بى عند الضرورة القصوى ، ورقم تليفون أحمد بدر فى المنصورة .

وأما بقية الملابس المطلوبة فيجب لفها بشكل طرود البريد ثم ترسل بعد أسبوع وعليها اسم با كثير إلى « مكتبة الخانجى بشارع عبد العزيز بالقاهرة » وأن يقال للمكتبة إنها أمانة للأستاذ با كثير وسيطلبها بنفسه أو بواسطة رسول من عنده .

وغادر با كثير منزل عباس افندى وفى جيبه ورقة صغيرة فيها رد قريبتى على رسالتى وكانت عباراتها مبهمة مطلسمة لا يمكن لأحد غيرى أن يفهمها ، ففهمتها وسررت بها .

وكانت الأخبار التى حملها إلىّ با كثير من مصر شفهيا أن البوليس لايزال يحاصر الدار إلى الآن بالنظام القديم ، لأن الشرطة لا تزال تتخيل أننى سأجىء إليها !

ومن الأخبار الطريفة أن السلطات البريطانية كانت تتصورنى وصلت إلى فلسطين أو لبنان فأرسلت زبانيتها لتفتيش بعض البيوت وسؤال بعض الأشخاص عنى فى فلسطين ولبنان...

إحضار الصرة

وبعد أسبوع كان أحمد بدر يزور القاهرة لعمل يخصه فال على مكتبة الخانجى بشارع عبد العزيز فرأى الصرة موضوعة على كومة من الكتب القديمة ، فتقدم إلى الصرة بدون استئذان من موظف المكتبة وتناولها قائلا : « أيوه يابنى دى صرة الأستاذ با كثير متشكر خالص » وقبل أن يعترضه الموظف أو يسأله عن علاقته بالصرة ، كان أحمد بدر قد أصبح فى الشارع يهرول إلى الترام فمحطة السكة الحديد !

وسألت أحمد بدر ألم يكن هناك أحد غير موظف المكتبة .. فقال بلى فقد كان يجلس إلى جانبه شخص صفته كذا فإذا به «العطار» أحد أعوان محمد يوسف و بوليسه الكريم...

وكنت أعرف من زمان بعيد أن هـذا الرجل يلازم تلك المكتبة ، ولم أفطن إلى ذلك إلا بعد سفر أحمد بدر إلى القاهرة . فلو تتبع العطار أحمد بدر والصرة إلى مقرى لظفر بالخمسمئة جنيه !

حوادث فردية

بلغنى أن السلطة العسكرية البريطانية أرغمت الحكومة على تقديم عزيز باشا المصرى للمحاكمة أمام المحاكم العسكرية بتهمة الخيانة العظمى ولكن خيانة من ؟ وظفرت الشرطة بالأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة بعد أن اختفى مدة طويلة وقد حبسوه فى سجن الأجانب هو وجميع أعضاء الحزب .

— ومن الصدف الغريبة إننى كدت مرة أزور إبراهيم بك شكرى عضو الحزب « وعضو مجلس النواب بعد ذلك » فى مزرعته بجوار شربين ، ولكنى عدلت فى آخر لحظة عن تلك الزيارة ، وكان هذا العدول بإلهام من الله ، لأن ابراهيم بك كان مراقباً وقد فتشوا داره عندما كانوا يبحثون عن الأستاذ أحمد حسين الذى سبق أن نزل عنده أياماً وهو هارب ثم رحل ، فما أغربها مصادفة لو وجدونى عنده بدلا من الأستاذ أحمد حسين ، كما ظفروا بعزيز باشا المصرى عند الأستاذ مرزوق فى « امبابة » وهم يطلبون الأستاذ أحمد !

— كنت مرة فى قهوة مع أحمد حسن بدر ، فإذا بصديق الدكتور اسكندر بك الجريدينى الطبيب فى المنصورة « رحمه الله » يمر بى وكادت ملابسه تمس ملابسى ، ولكنه لم يعرفنى ومضى فى سبيله ولم أشأ أن أظهر له نفسى حتى لا أزعجه ولا أحمله أعباء كتمان السر لأن الاحتفاظ بأسرار الغير من أشق الأمور .

— مررت بقهوة « أندريا » فوجدت الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة جالساً تحت شجرة الكافورة المشرفة على النيل ، وكان يجلس معه الشيخ محمود زناتى الأديب المحقق «رحمه الله» والأستاذ محمد عبد الغنى حسن الشاعر الشهير وتوحيد بك السلحدار الأديب السياسى المعروف ، فجلست قريباً منهم أسمع أحاديثهم بدون أن يشعروا بى ، وكان جذع الشجرة الضخم يحجبنى عنهم ، ثم ان الظلام وحده كان يكفى لعدم التعرف علىّ ، وكان مما تحدثوا فيه الشعر والأدب وأخبار الحرب وفرارهم كلهم من القاهرة إلى المنصورة خوفاً من الغارات الجوية . وسمعت الشيخ محمود زناتى يقول إنه منزعج من صوت صفارة الإنذار فى المنصورة وأنه سينزح إلى بلدة الفشن فى الصعيد، وبعد أيام رحل عن المنصورة .

شيء عن المنصورة

تمنيت كثيراً لو يتاح لى التجول فى هذه المدينة الماجدة الأصيلة، ولكنى هيهات وأنا فى حالتى الحاضرة هذه .

ولكن هذا الحال لم يمنعنى من غشيان بعض معالمها ، فهى مدينة تاريخية وقد أصبحت كذلك منذ انهزم فيها الصليبيون وأسر ملكهم لويس التاسع .

ففى سنة ١٢٤٩ ميلادية أراد « لويس التاسع » ملك فرنسا مهاجمة مصر .. فنزل فى دمياط . ومضى على رأس جيوش الصليبيين .. وعلى مقربة من مكان « المنصورة » عند قرية « جديلة » ـ تغلب جيش لويس على القائد المصرى .. وكاد « توران شاه » سلطان مصر يستسلم ، لولا أن أهل المنطقة ألفو من أنفسهم جيشا هاجم جيش «لويس» ، وقذفه باللهب، وهو قطع من القماش كانوا يغمسونها فى البترول ويشعلونها ... واستطاع أن يهزمه .. لا ، بل كان «لويس» حسن الحظ ، فلم يلق حتفه كما لقى أمراء أوربا الذين جاءوا معه حتفهم .. فقد أسر حيا وساقه «الطواشى جمال الدين صبيح» إلى دار القاضى «فخر الدين بن لقمان» .. وظل فى سجنه شهرا ، حتى افتدته زوجته بثمانمائة ألف دينار ، وبالجلاء عن دمياط !

زيارة أثرية

وقد خطر لى أن أقوى معنوياتى برؤية المكان الذى حبسنا فيه ملكا أوربياً كبيرا جاء من أوربا للاعتداء علينا واستعمار بلادنا، فذهبت إلى الحى القديم ، وبكل خفة رحت أسأل أحد المارة عن محبس ملك فرنسا فاندهش الرجل من سؤالى وأخذ يتفرس بى ، لأنه لايعرف شيئا عن هذا الحادث التاريخى العظيم وقد استغرب من شيخ معمم رث البزة أن يسأل عن ملك فرنسا ! وإذا به يقول لى : وانت مالك ومال الملوك ياسيدنا الشيخ ،

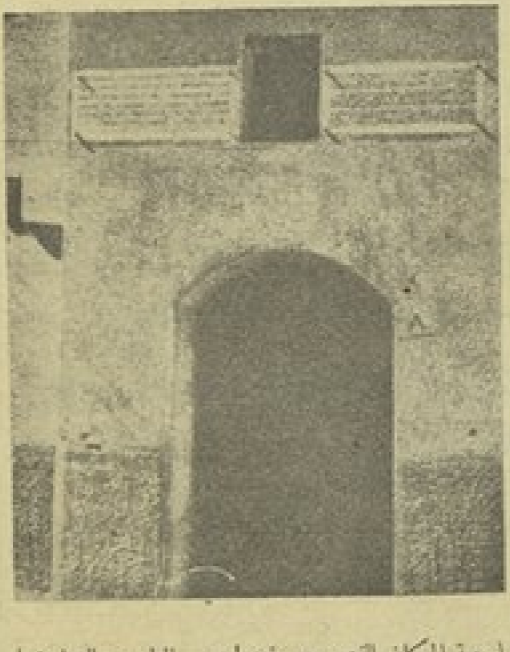

واجهة المكان الذى حبس فيه لويس التاسع ملك فرنسا

إن الأحسن أن لاتسأل الناس مثل هذا السؤال حتى لا تقع تحت الشبهة ، روح يا شيخ فى حالك أحسن لك ... ثم مضى فى سبيله ...

وكانت لهجته لاتدل على أنه يشتبه فى شبهة سياسية ، بل شبهة عقلية ...

ورحت فى حالى فعلا ... ثم سألت أحمد حسن بدر عن المكان فدلنى ، فذهبت فى صباح مبكر إلى جهة جامع المواق وأخذت أتأمل واجهة بقايا « دار لقمان » قبل أن يكثر عدد الطفيليين ، لأن الناس لم يعتادوا رؤية أحد يتفرج على ذلك الأثر إلا إذا كان من السياح « الأجانب » لأن هؤلاء يعرفون خبر هذا الأثر العظيم وما ينطوى عليه من معان ، إلا نحن ، لأننا لا نعرفه ، ولكننا نعرف فقط ملاهى الأجانب فى بلادهم ...

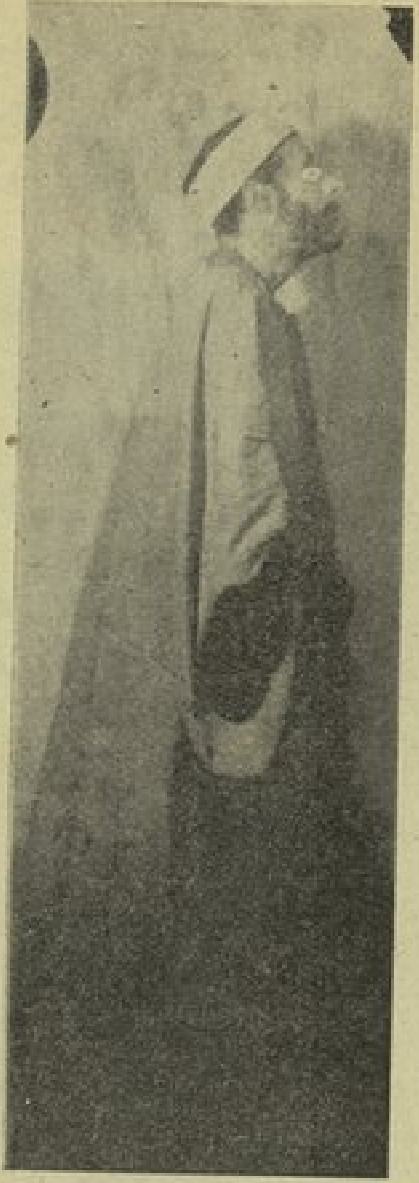

وأخذت أتأمل واجهة ذلك المكان الأثرى ...

جمال المنصورة

لقد طفت القطر المصرى كله تقريباً ، فلم أر أجمل ولا أرشق من هذه المدينة ، صحيح ان القاهرة والإسكندرية أضخم وأعظم وأكثر آثاراً ومتنزهات ، ولكن للمنصورة طابعها الخاص ، ولها روحانية غير طابع وروحانية القاهرة والإسكندرية . وفى المنصورة تجد أماكن

وشوارع عليها الطابع الإسلامى ، فهنا شارع الملك الكامل ، وهناك جامع الصالح أيوب ، وهنالك منطقة « شجرة الدر » الخ . وكلها أسماء توحى إليك بالنصر العظيم الذى ناله العالم الإسلامى على أوربا .

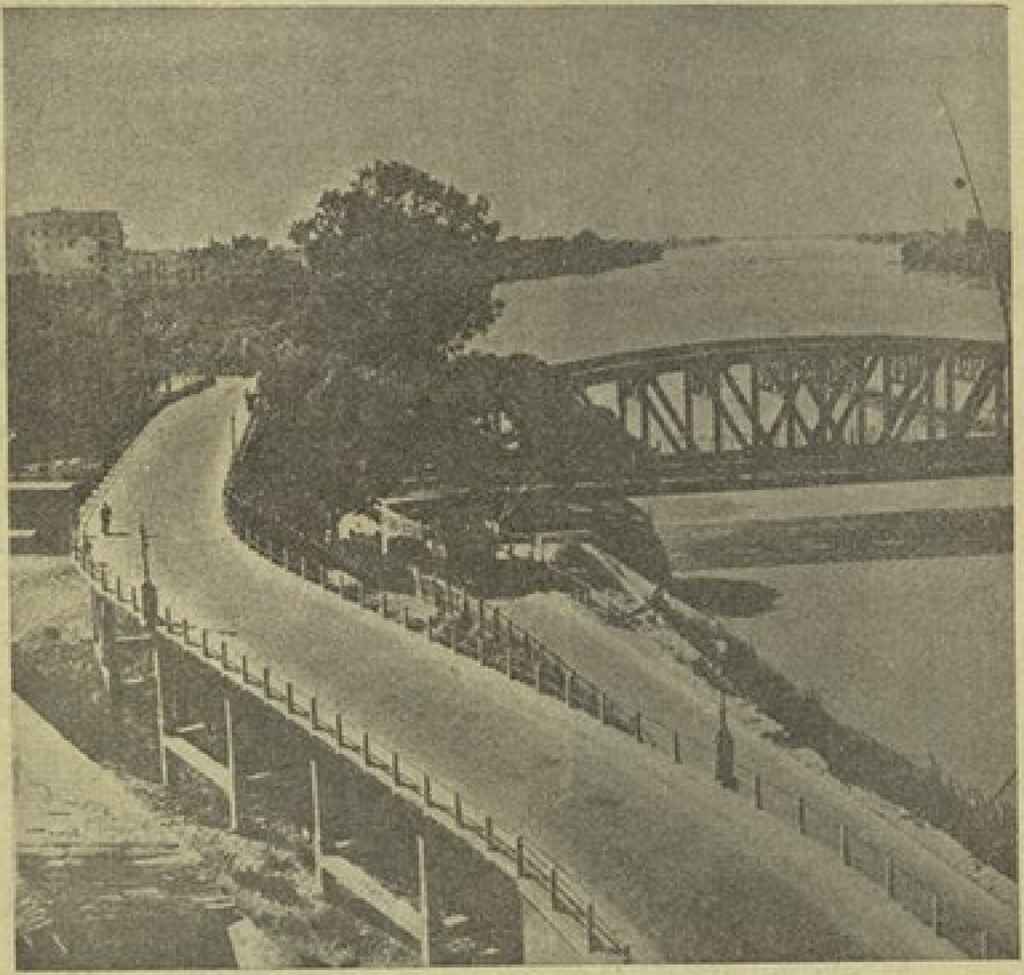

والمنصورة كثيرة المساجد ومزارات الأولياء ، كما أنها كثيرة المواصلات إذ تتفرع منها طرق السكك الحديدية والسيارات والنيل الكبير ، والفرع الذى يمر من طرفها الشرقى ويسمى « البحر الصغير » وتزدان هذه المدينة بشارع طويل جميل يسمى شارع البحر أو الكورنيش وهو يمتد أمامها على ساحل النيل من أولها إلى آخرها .

وكنت أذهب فى بعض الأمسيات عند مصب فرع من فرع البحر الصغير للتنزه

والجلوس على الحشائش بعيداً عن العيون الفضولية ...

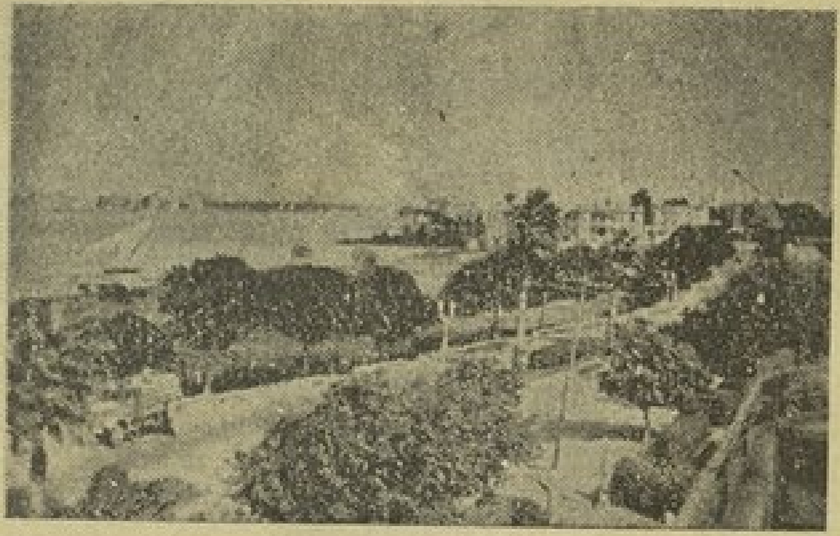

منظر عام لكورنيش المنصورة

مصب الفرع الصغير وقد أشرت بعلامة × إلى المكان الذى كنت أعتكف فيه عند حافة المصب

شبهة وظنون

كنت مرة مع أحمد بدر فى قهوة البرنسات ألعب معه النرد ، أو الطاولة ، وكنت لا أجلس فيها أو فى سواها إلا بعد أن يجوس رفيقى خلال القهوة ثم ندخل وأجلس موجهاً وجهى نحو الباب لأرى كل قادم قبل أن يصل أو يدخل ، حتى لا أفاجأ بدخول أحد أخشى

منه . وإذا بضابط كان جارا لنا فى شبرا يدخل إلى القهوة ومعه آخر يلبس الملابس البلدية ، فلم أشك فى أن لمجيئه علاقة بى وأنه سيعرفنى ، وأنه قادم للقبض على ، وقبل أن يقع اختياره على مكان لجلوسه كنت أنا قد فررت من باب القهوة الجانبى …

وبعد قليل لحق بى أحمد بدر مستغرباً هربى ، فقصصت عليه السبب ، فقال إنه لم ير الضابط فقلت ولكنى رأيته وهذا يكفى … ولبثت أياماً لا أظهر فى النهار أبدا ، وقد اضطررت مرة إلى الخروج نهارا للتريض فجعلت رياضتى فى أطراف المدينة فإذا بى أمام سجن المنصورة ! فانقبضت نفسى من ذلك المنظر الكئيب .

مساومة مع الحكومة

بلغنى من القاهرة أن حمدى محبوب باشا مدير الأمن العام قد استدعى إليه الدكتور مصطفى البشناق وبعض أصحابى ، فذهبوا إليه بوزارة الداخلية فطلب منهم إن اتصلوا بى أن ينصحونى بالاستسلام ، وأن الحكومة ترضى فى مقابل ذلك بأن لا تعيدنى إلى السجن ، بل تكتفى بسكناى مع عائلتى فى مدينة غير القاهرة ، وكان بدوى باشا خليفة مدير التربية حاضرا هذا الحديث فأكدوا لحمدى باشا أنهم لا يدرون أين أنا ، فإذا ببدوى باشا « الذى أصبح وكيلا للداخلية بعد ذلك » يتفوه بألفاظ غير لائقة كقوله أنتم جبناء لا تريدون الإرشاد عنه . فأجابه الدكتور جوابا حازما شديدا بقوله أنا لا أسمح لك بهذا الكلام فنحن حاربنا الإنكليز بضع سنين بدون خوف من أحد ولكنك تكلفنا التجسس على صديقنا .

حافظ عفيفى باشا[1]

إن هذه التسوية مع الحكومة قد أعجبتنى لأنها تضع حدا لعذابى الذى لا يطاق ،

(١) الدكتور حافظ باشا عفيفى رجل كريم الأخلاق ومن خيرة رجال مصر وساستها القدماء ، فقد كان وزيراً للخارجية المصرية مرتين ، ثم سفيراً لمصر فى لندن ، وبعد ذلك اعتزل السياسة والحزبية تقززاً من أخلاق ساسة هذا العصر وحزبياته ، فاكتفى بمنصب مدير لشركة التأمين المصرية إلى أن اختير مديراً عاماً لبنك مصر وشركاته خلفاً للمرحوم طلعت باشا حرب رحمه الله ، فأدار هذه المؤسسات بكفاءة أدهشت الجميع ، فهو طبيب متخصص بأمراض الأطفال لا أكثر، ولكنه خلق إدارياً وسياسياً من الطراز الأول . وقد قص على المرحوم الأمير شكيب أرسلان انه لما اجتمع بالدكتور الشاب حافظ افندى عفيفى قبل ٤٠ سنة تنبأ له بأنه سيكون وزيراً، ووزيراً للخارجية بالذات لكياسته ولباقته، وقد وقع ذلك كله حرفياً

الدكتور حافظ باشا عفيفي

فكتبت كتاباً إلى الدكتور عفيفي باشا أشرح له حكاية هذه المساومة وقلت له إنني لا أثق بكلام حمدى محبوب ولا زمرة البوليس والأمن العام ، وإنني أرجوه أن يجتمع برئيس الوزراء ويأخذ منه كلمة تكفل وعود حمدى محبوب فيما إذا كان حافظ باشا يثق بكلمة الشرف من الرئيس ، ثم كلفت صديقي أحمد بدر بأن يسافر إلى القاهرة ويقدم الرسالة إلى حافظ باشا بيده ويعود إليّ برأيه .

تأدية الرسالة

وسافر أحمد بدر بقطار الصباح ، وفى الساعة العاشرة والنصف كان فى مكتب الدكتور حافظ باشا ببنك مصر ولما قدم بطاقته إلى السكرتير الخاص أدخله على الباشا وقدم إليه رسالتي وأبلغه تحياتي فبش للرجل وهش ، وقرأ الرسالة ملياً ثم فكر لحظة وقال له : سأقابل رئيس الوزراء وأرجوك أن تسلم على الأخ الطاهر وتعود إلىّ بعد أسبوع لأعطيك الجواب ، ثم أوصاه بالكتمان والحرص الشديدين . وعاد أحمد بدر إلى المنصورة فى مساء ذلك اليوم فأخبرني بنجاح مهمته فشكرته من كل قلبي .

وصرت أعد الأيام والساعات بانتظار انقضاء الأسبوع ، فياله من أسبوع ما أطوله ...

رد حافظ باشا

ولما انقضى الأسبوع كتبت إلى الدكتور مصطفى بك بشناق بضع كلمات خلاصتها أن يزور الدكتور حافظ باشا ويقدم إليه تحياتي ويطلب منه الرد على الرسالة التي عين لأحمد بدر أسبوعاً للجواب عليها وبعد يومين أخذت رسالة من الدكتور بشناق تتلخص فى كلمات من حافظ باشا وهى سلم على فلان وقل له إن الجماعة غير معقولين ولا خير فيهم ، ويجب أن

أبتعد إلى أقصى حد وأن أحتاط أكثر من الأول ، وأن الباشا مستعد لإمدادى بأى مبلغ من المال قد أحتاج إليه . هذه خلاصة رد حافظ باشا وهو رد يدل أولا على شهامته ونبله بعرض المساعدة المادية ، ويدل ثانياً على أن المهمة أخفقت والمساومة حبطت . فتكدرت وضاقت الدنيا فى وجهى ، وصرت أسأل نفسى :

ماذا حدث بين حافظ باشا ورئيس الوزراء ؟ وكيف كان الحديث بينهما ؟ ولماذا يرفض رئيس الوزراء استسلامى بعد أن مرت الأشهر وهو عاجز مع بوليسه عن العثور علىّ وإمساكى؟ وهل يوجد حاكم عنده مسكة من حسن التدبير يرفض استسلام هارب برىء بعد أن نجا من قبضته؟!

تفصيل مقابلة حافظ باشا لرئيس الوزراء

لم أقف على ما جرى بين عفيفى باشا ورئيس الوزراء إلا بعد زوال المحنة وانطلاق بعد ذلك بثمانية أشهر . ولذلك أحب أن أوافى القراء بتفصيل الحادث الآن حتى لا يطول انتظارهم فقد زرت حافظ باشا بعد ظهورى وانتهاء حادثتى وشكرته على ما كان من مروءته وسألته عما جرى من رئيس الوزراء ولماذا بعث يوصينى بالابتعاد والإمعان فى الهرب، ففهمت من مجمل حديثه أنه استسنح فرصة جمعته برئيس الوزراء فى إحدى الحفلات ، فانفرد به ناحية وسأله : ماذا جرى فى مسألة هرب محمد على الطاهر؟ فقال الباشا بغطرسة « لقد راح فى داهية ولاندرى أين هو » فقال حافظ « بلغنى أن جماعة وزارة الداخلية يقولون كذا وكذا ـ وأخبره بتلك المساومة ـ فإن كنت توافق على تعهدهم فأنا أجيئك بالأستاذ الطاهر ليسلم نفسه » فانتفض رئيس الوزراء وقال « إذن فهو لايزال فى الأراضى المصرية فكيف اتصلت به ؟ » فقال حافظ باشا «لايجوز أن تسألنى هذا السؤال يا باشا ثم إننى لم أره ولكن وردتنى منه ورقة بالبريد» فقال الرئيس « كيف أتت الورقة ومن أين مصدرها؟ » فقال حافظ باشا « وهذا السؤال أيضاً لا يجوز أن تسألنى إياه » وهنا شمخ الرئيس بأنفه الخاضع للإنكليز وقال بغطرسة « أنا لا أقبل مساومة على التسليم ، بل يجب أن يسلم نفسه بلا قيد ولا شرط ، وأنا بعد ذلك أنظر فى الأمر وإلا فأنا مستعد لأن أجىء به على وجهه فى ظرف ساعتين » فاستشاط حافظ باشا من أسلوب هذا الرجل وأجابه كعادته بهدوء يكبت تحته ناراً متأججة « طيب ، مادمت تقدر

أن تجيء به فى ساعتين فافعل » ... ثم قطع الحديث وتركه وهو مستاء ، لأنه وجد نفسه يخاطب رجلا لا يتحلى بذهنية أهل الحكم .

هذا هو السبب الذى حمل حافظ باشا يبعث يوصينى بالحذر الشديد والابتعاد وأن أغطس إلى أقصى حد ...

وظاهر من كلام رئيس الوزراء أن الحكومة كانت تعتقد أننى خرجت من الأراضى المصرية ، ولهذا الاعتقاد أساس سعيت له بدون أن أتصور أنه سينجح . وذلك أننى كنت قد أوصيت فى أوائل أيام الهرب بأن يعمل أصحابى على إرسال مكاتيب بالبريد من الحجاز وسورية بإمضاءات مستعارة إلى أسماء بمصر غير معروفة وأن يذكروا فيها أننى وصلت لبر الشام واتجهت جنوباً نحو الحجاز . فلما فتحت رقابة البريد الإنكليزية تلك الرسائل أطلعت السلطة على تلك الأخبار فتأكدوا من هربى ، ولذلك فتشوا عنى فى بعض مدن فلسطين وفى صيدا ودمشق ، وممن سألوهم وراقبوهم شقيق فى يافا وبعض أقاربى فى نابلس وأصهارى آل البزرى فى صيدا . وممن سألوهم فى صيدا السيد عبد الله السمارة أحد أعيان طولكرم من أعمال « فلسطين » وكان بوقتها لاجئاً إلى لبنان فراراً من الإنكليز ، وهو الآن بلبنان هارباً من اليهود ، وكان عبد الله لما وصلت قرينتى إلى دار عمها فى صيدا قد ذهب وأهله وسلموا عليها وأقاموا لها مأدبة فى دارهم ، فإذا بالشرطة الإفرنسية تقبض عليه وتحقق معه وتحبسه قبل أن يذوق طعام الوليمة ...

وقد زارنى السيد السمارة فى مصر وأنا أسطر هذه الحوادث فأخبرنى عن شيء جديد من كذب الاستعمار ، وذلك أنه اجتمع قبل حبسه بشهور بالمرحوم جورج بك أنطونيوس فقال له هذا إنه لما قابل الجنرال كلايتون مدير الاستخبارات والجاسوسية البريطانية العام وعاتبه على حبسى أخذ الجنرال يسوغ له ذلك وأن السلطة العسكرية معذورة لأنها ضبطت مراسلات كانت تدور سراً بينى وبين الأمير شكيب أرسلان بواسطة عنوان سرى فى الإسكندرية ! فضحكت من هذه التلفيقة وتذكرت تلفيقات حمدى باشا محبوب لما كان يقول للناس إن مسالتى خطيرة وإنهم وجدوا عندى أوراقاً وأموالا كثيرة ! وقد ذكرت آنفا أن

حمدى قال مثل هـذا لصديق النبيل أنطون باشا الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام ، وقد عرف القراء أن كل ما كان عندى من مال نقدى ساعة الحبس هو ١٣١ جنيهاً بالتحديد كما تشهد بذلك دفاتر السجن ، ومثـل هذا المبلغ كان ينفقه حمدى باشا فى ليلة أو فى ساعة ... أما أنا فمنذ وصلنى التحذير من حافظ باشاعفيفى وأنا أحتاط وأبالغ فى الانزواء والاختفاء.

ماذا صنع رئيس الوزراء

إذن فالحـكومة كانت ترجح ومعها الإنكليز عدم وجودى فى المملكة المصرية . وما التفتيش عنى فى فلسطين وغيرها إلا الدليل القاطع على ذلك ، ولـكن الإنكليز كانوا يريدون معرفة الجهة التى أنا فيها ، ومن أين أسعى عليهم ومن أين أ كيد لهم ...

أما رئيس الوزراء فإنه بادر بعد حديث الدكتور حافظ عفيفى باشا إلى استدعاء حمدى محبوب وبوليس الجواسيس الذى يسمى بالبوليس السياسى كذباً وتدجيلا وستراً لمهمته الـكريهة ، لأن البوليس السياسى الحقيق هو الذى يحافظ على الدولة ورجالها ويأتيها بأخبار الأعداء وأسرار السفارات الأجنبية، لا الذى يطارد أحرار البلاد لحساب المستعمرين .

ولما مثل القوم بين يدى الباشا سألهم عنى فأ كدوا له أننى غادرت القطر المصرى فصاح فيهم وشتمهم وعيرهم بكسلهم وجهلهم وأخبرهم بمهمة الدكتور عفيفى باشا فبهتوا !

ولما خرجوا من عنـده وهم حيارى فتقت لهم حيلة العاجز أن يرتكبوا أمراً يشفى غليلهم ويدارى سوء حالهم ، وستمرد تفاصيل فظائعهم .

هكذا كانت الحالة عندهم هناك ، أما أنا فـكنت لا أدرى شيئاً عما هو مخبأ لى فى أدمغة القوم ...

حادث له ما بعده

وفى إحدى الليالى كنت ماراً فى إحدى الحارات القديمة فى جهة «ميت حدر» بالمنصورة وإذا بشىء يسقط من إحدى النوافذ فيصطدم بالحائط المقابل ثم ينتثر منه شىء لزج فيصيبنى رشاشه فى وجهى ولحيتى وملابسى وعمامتى ، ثم تـكشف الحال عن قاذورات كانت ملفوفة

بورقة وألقى بها من إحدى النوافذ إلى الحارة فكان نصيبي أن أصاب بتلك القاذورات وراحتها الكريهة ، فركضت إلى منزلى سريعا .

لم يكن عندى ثياب كافية أتمكن بها من تبديل ملابسى . تخلعت ما علىّ ووضعته فى حوض الماء ، واغتسلت ثم لففت نفسى فى البطانية وغسلت ملابسى وجلست إلى الصباح بلا نوم أنتظر جفافها ، وأنا ألعن الاستعمار الذى نكبنى هذه النكبة وخرب بيتى وشردنى وأشقانى وجعل حياتى جحيما . ولكنى مع ذلك حمدت الله على أننى فى أيام صيف ، أما لو كانت أيام شتاء فماذا كان يحل بى ؟!

وبقيت على هذا الحال إلى الظهر فلما جفت ملابسى ارتديتها ولم أعد إلى الاقتراب من تلك الحارة المشئومة .

أثر ذلك الحادث

لقد كرهت الحياة كلها بعد تلك البهدلة ، فأخذت أفكر فى تغيير الحال وأن أفلت إلى الخارج بأى ثمن، ففى الخارج أستطيع أن أعمل وأن أسعى ضد الاستعمار لأن الحرب طويلة كما يبدو والله أعلم متى تنتهى .

وأخذت أفكر فى طريق جديد أخرج بواسطته من القطر ، فقد حاولت الابحار من دمياط فلم أتمكن ، وجربت قبلها طريق الصحراء الغربية من جهة أبى المطامير فلم أفلح ، ولم أحاول اختراق صحراء سينا ، لأنها مملوءة بمعسكرات الإنكليز . وأخيراً فكرت فى طريق قديم لا يخطر على بال السلطات الاهتمام به ولا حراسته . ذلك هو طريق الحج القديم من صحراء عيذاب التى كان الحجاج يذهبون بواسطتها إلى الحجاز من ميناء القصير على البحر الأحمر ، فمن ذلك الثغر المهجور لا أعدم سفنا تسافر إلى جدة أو فلوكة صيادين تجوب ذلك البحر فأطمع أهلها بأجرة مناسبة الخ الخ .

كتب تاريخ وخرائط جغرافية

وأردت أن أتبين تلك الطريق فاشتريت بعض الكتب التاريخية وكتب الرحلات وخصوصاً ابن جبير فدرستها ثم بحثت فى السوق عن بعض الخرائط الجغرافية فإذا بالبائع

يحملق بى ويطلب منى إبراز رخصة ! فاستغربت هـذا الطلب ، فقال إن أوامر الحكومة تقضى بسبب الحرب بأن لا تباع أية خارطة جغرافية إلا بإذن من الحاكم العسكرى... فصرفت النظر عن المشترى ورجوت الأستاذ على باكثير أن يوافينى بما عنده من أطالس الجغرافيا المدرسية ، وأخذت أطبق كلام المؤرخين السابقين على خرائط المعاصرين ، فوجدت أنه يتعين علىّ أن أقصد أولاً مدينة قنا فى أقصى الجنوب من القطر المصرى ومن هناك أخترق صحراء عيذاب . ثم فكرت فى كيفية اختراق تلك الصحراء المهلكة وأنا لا أدرى كيف يجتازونها الآن . ولا كيف أسوغ هذه الرحلة ولا أعرف فى مدينة قنا أحداً للاسترشاد برأيه . وأخيراً وضعت الخطة الآتية وهى أن آخذ كتاب تعارف من محل « سعد الدين عسكر » تاجر الحبوب فى المنصورة وهو صعيدى الأصل ، إلى عميله فى قنا . فذهبت إلى السيد أحمد جودة نقيب الأشراف وادعيت أمامه بأن شريكى كان قد هرب منى وأخذ مالى وإنى عرفت الآن فقط أنه يقيم فى بلدة القصير باسم مستعار لا أعرفه . وانى أريد السفر إليه واحتاج إلى توصية من سعد الدين عسكر إلى قنا . فبادر السيد جودة وأخذ لى رسالة تعريف إلى عميله فى قنا واسمه « الحاج أحمد النشاشق » فوضعتها فى عبى وكأنى ملكت بها الدنيا !

هـذه صورة الوجيه السيد أحمد جودة الذى لقيت منه فى أيام المحنة كل مكرمة وهو لا يعرف عنى شيئاً، ولما بدل الله الحال وفرج عنى جاء إلى القاهرة مسلماً ومهنئاً . ثم زرته فى المنصورة فأقام لى مأدبة حافلة بأعيان مدينته .

حوادث مثيرة

القبض على قرينتى

كان البريد يصلنى إلى المنصورة بعنوانات شتى ، فتارة باسم الشيخ محمد الناجى المغربى فى نفس المنزل الذى أقطنه ، وتارة إلى بريد مدينة طلخا لشباك البريد ، وتارة بواسطة با كثير ، وأخرى إلى مكتب بريد مدينة السنبلاوين ، وأحيانا باسم وواسطة أحمد بدر

فكل واحد من أصحابى كنت أتصل به باسم خاص وعنوان خاص ، بدون أن يعرف أحدهم بمعلومات الآخر عنى . وقد استفدت من هذا الاحتياط والتنظيم فوائد كثيرة .

أنا الآن فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤١ فإذا برسالة من الدكتور بشناق روعتنى وغيرت مجرى حياتى لفظاعة ما جاء فيها . فقد أخبرنى الدكتور أنه ذهب بالأمس ليتفقد حال عائلتى فقرع الجرس فلم يرد عليه أحد ، فطرق الباب بشدة فإذا بإحدى الجارات تفتح باب دارها وكانت تعرف صداقة الدكتور لنا ، فأخبرته بأن جماعة من البوليس جاءوا بقيادة الضابط محمد يوسف فهاجموا الدار بغتة وفتشوها وقبضوا على قرينتى وأخذوها معهم وأنها لم ترجع منذ يومين إلى الآن .

وقال الدكتور فى رسالته إنه ركض إلى إدارة البوليس والأمن العام واستفهم فعلم أنها موجودة فى السجن الذى كنت فيه أنا . فطلب أن يسمحوا له بزيارتها فمانعوا ، وأخيراً وبعد سعى وإلحاح لدى إدارة البوليس العامة سمحوا له بالزيارة . فقابل قرينتى فى مكتب مدير السجن ثم وصف لى الدكتور حالتها ، وقصة القبض عليها كما روتها له ، وذلك أن الضابط محمد يوسف لما دهم هو ورجاله الدار كانت تتناول فطورها ففتشوا وعبثوا بالأثاث ثم طلب منها محمد يوسف أن تخبره أين أنا فأكدت له أنها لا تدرى ، واستغربت كيف يطلب منها الإرشاد إلى زوجها وأنها لو كانت تعرف مقره لما باحت به . فأغلظ عليها محمد يوسف القول وشتمها ، فاحتجت لتلفظه بذلك السب وكيف يجيز لنفسه دخول بيوت الناس بدون إذنهم ويشتمهم، فما كان من محمد يوسف إلا أن ضربها بقبضته على عينها وأخذها إلى إدارة البوليس وحبسها فى إحدى الغرف طول النهار وتركها بدون أكل ، وفى المساء أرسلها إلى السجن حيث كنت أنا . ثم وصف لى الدكتور بشناق حالة قرينتى فى تلك الساعة التى قابلها فيها

فقال إنه وجد عينها مصابة بكدمة رضية فى وجهها تحتاج إلى علاج ولكنهم تركوها بدون معالجة. وقال إنه فى خلال هذه الزيارة رأى الدكتور رشيد بك كرم رئيس أطباء البوليس يدخل إلى مكتب مدير السجن ليكتب تقريراً عن حالة بعض السجناء، فرأى قرينتى على تلك الحالة وشاهد الإصابات فى وجهها ولكنه لم يجسر على معالجتها بدون أمر من إدارة البوليس العامة لأن معالجة المساجين لا تكون بحسب قوانينهم إلا بطلب من السجين وموافقة مدير السجن وإرسال الطلب إلى الحكمدارية وأخذ أمر منها . ومما قاله الدكتور فى رسالته إنه لحظ من المدير الأجنبي للسجن أسفاً وخجلاً من فعلة تلك الحكومة وبوليسها مع سيدة محترمة بدون ذنب حتى ولا بذنب أيضاً .

وقال الدكتور فى رسالته إنهم استدعوا شقيقتى لإدارة الشرطة وأن محمد يوسف أطال لسانه عليها وهددها وأنهم سيحتفظون بقرينتى فى السجن رهينة إلى أن أدرى بالحادث فأسلمهم نفسى .

وقع الحادث

كان أثر هذه الأخبار فى نفسى شديداً وأليماً جداً ، ولا أستطيع وأنا أكتب هذه السطور بعد عشر سنين من وقوعها أن أحسب نفسى نسيت خلجة واحدة مما داخلنى يومها من الغضب والحزن والاضطراب والحقد على الشداد الغلاظ الذين أهانوا قرينتى وشقيقتى وأساءوا إليهما على تلك الصورة الوحشية، وإلا فما ذنب زوجة فى نظر أبعد الحكومات والسلطات عن الإنسانية إذا كان زوجها وهو برىء قد أفلت من ظالميه . ولنفرض أن أحد المجرمين أو القتلة قد هرب من السجن حتى بعد الحكم عليه ، فهل تصبح أسرته مسئولة عنه ، ويجب أن تروع وتهان وتضرب وتساق إلى السجن ؟

إننى أطرح هذا السؤال على كل منصف فى الدنيا ليحكم على حكومة ذلك العهد ، وعلى حمدى باشا محبوب، وعلى محمد يوسف الذى أصبح الآن وأنا أكتب هذه السطور «أميرالآى» فى بوليس مصر ويحمل رتبة «بك».. أجل إننى بعد أن طرحت هذا السؤال أعتبر نفسى قد انتصفت أنا وزوجى من هؤلاء الناس . لأن حكم المنصفين سيكون شديداً وقاسياً .

السفر لتسليم نفسى

لم أتردد بعد تلاوة هذه الأخبار المفزعة عن العمل ، فقد بادرت إلى التلفون الأميرى وخاطبت الدكتور يعقوب خورى بالقاهرة فلما سمعنى ظننى أخاطبه من المدينة ، فهنأنى بسلامتى وطلب منى أن أزوره وأمكث عنده أياما وأعطانى عنوان مسكنه الجديد فى حلوان . فشكرته على وداده ، ثم أخبرته ضمناً وبأسلوب مبهم غامض بالحوادث التى وقعت فى دارنا بالقاهرة ، وأن يسعى إلى مقابلة المعلم زكى « أى قرينتى » فى المدرسة التى كنت فيها « أى فى السجن » وأن يستفهم عن الحالة ويطمئنها إن استطاع ، ثم خلطت حديثى بكلام لا معنى له تضليلا للمتجسسين المتلصصين على التليفونات فى تلك الأيام ، وأكدت عليه بأن يستوثق من الأسعار والأخبار لأن واردات القهوة المدنية فى هبوط وسوقها عندنا مضطرب وإنى سأزوره الليلة وأن ينتظرنى فى العيادة ولا يبرحها ولو انتصف الليل . ولما انتهى الحديث التليفونى سمع الدكتور صوت عاملة «الترنك» وهى تقفل الخط ففهم أننى أكلمه من الريف لا من القاهرة...

وبعد ذلك ذهبت إلى أحمد حسن بدر فأخبرته بما جرى وأننى سأسافر مساء اليوم إلى مصر لتسليم نفسى للحكومة وإنى أريد أن يكون معى ، فلبانى بكل ارتياح . ثم خطر ببالى خاطر وهو : لو فرضنا أن الحكومة تركت زوجى فهل أسلم نفسى ؟ كلا . ثم هل أستطيع البقاء فى الأراضى المصرية وأنا مروع على هذه الصورة فى حين أن الحرب طويلة ولا نهاية لها ؟ فيجب إذن أن أحتاط من الآن ، فإن كانت زوجى باقية فى السجن سلمت نفسى ، أما إن أطلقت فأواصل السفر إلى قنا ومنها إلى البحر الأحمر فالحجاز .

وبادرت بتوزيع بعض الأثاث الذى عندى بين الصديقين بدر وبا كثير وإيداعه أمانة لديهما ، وبعد العصر استأجر لى أحمد بدر سيارة خاصة إلى القاهرة فسافرت بها وهو معى ، وأصبحت فى تلك الساعات لا أحتاط فى حركاتى لأن القبض على أو عدمه أصبح لا يهمنى كثيرا. وسارت بنا السيارة إلى القاهرة ونحن فى صمت عميق فلم أتكلم مع رفيق طول الطريق قط ، وكنت سابحا فى بحور من الأفكار، أتصور حياتى القادمة فى السجن ، وكيف أنهم سيستعملون معى الشدة والقسوة والوقاحة أيضاً ، لأنهم قبل أن أهرب منهم كانوا محرجين أمام الناس

يخافون الضجة عليهم لكونهم حبسوا وعذبوا رجلا بريئاً . وأما الآن فلا حرمة لى ولا كرامة عندهم إن ظفروا بى ، سواء كان ذلك قبضاً أو استسلاماً . أليس أننى فررت منهم وسببت لهم السخرية والوقوع تحت المسئولية واحتمال الهول من هياج رئيس الوزراء الحاكم العسكرى العام عليهم وشتمه إياهم ؟ إنهم فى هذه المرة لن يتورعوا عن الإساءة إلىّ سافرين كاشحين ! ، وسينكلون بى ويشفون غليلهم منى .

دارت هذه التصورات فى بالى ولكنى قلت فى نفسى ليكن هذا وأشنع منه ، لأنه ليس من المروءة ولا من الوفاء أن أكون السبب فى تعذيب قرينتى ثم أرضى بتركها فى السجن بينما أستطيع إنقاذها . وإذا كانت الحكومة قد رضيت لنفسها اجتراح هذه الفعلة فضميرى لا يسمح بترك زوجى فى السجن .

الشيخ فى الكنيسة

وصلنا القاهرة بعد العشاء ، وكنت أستصحب سلة وصرة وضعت فيهما بعض الملابس والطعام وأدوات صنع القهوة وبعض الكتب الأزهرية ذات الورق الأصفر والغلاف الأحمر . وبعض أشياء يحملها المشايخ عادة ومنها مشط للحية ومسواك من خشب الاراك وطربوشاً قديماً وبطانية رخيصة . ومشيت فى الظلام أمام رفيق أحمد حسن بدر وهو يتبعنى على بعد خطوات ، هو يحمل السلة وأنا أحمل الصرة ، إلى أن بلغنا العمارة ٦٤ بشارع الفجالة حيث تقع فيها عيادة الدكتور يعقوب خورى . ووقفت على الإفريز بجوار السلة والصرة وطلبت إلى رفيق أن يصعد إلى الدكتور وأن يخبره بوصولى وإنى أنتظره على الرصيف الجنوبى أمام « قهوة وبار العاصمة » فى نفس الشارع ، فذهب وعاد يقول إن الدكتور سيوافينا إلى هناك . وجلسنا على رصيف القهوة وطلبنا شاياً وأخرجت

منزل الدكتور يعقوب خورى وعيادته وهو لا يزال فيه إلى الآن

من السلة بعض ما أحمل من زاد فأكلت أنا ورفيق ، وكنت منذ الصباح لم أتناول طعاماً ، لأن اضطرابي من حوادث ذلك اليوم الأغبر أنساني الطعام وأنساني نفسي .

وأقبل الدكتور خوري وجلس معنا وهنأنا بالسلامة، ثم أخذ يقص علينا حوادث اليوم فقال إنه لما خاطبته بالتليفون اندهش كثيراً وبادر إلى سجن الأجانب يستعلم أولا عن قرينتي وهل هي لا تزال موجودة هناك أم إنهم نقلوها منه . وقال إنه بدلا من الاستفهام الذي لا نتيجة له « لأن أهل ذلك السجن كلهم من رجال بوليس الجواسيس الذين لا يتكلمون » اشترى زهوراً وفاكهة وذهب إلى السجن وطلب توصيل الهدايا إلى زوجتي وأن يسألوها إن كانت في حاجة إلى شيء . وبعد قليل عاد السجان يقول إنها استلمت الهدية مع الشكر ولا تريد شيئا . وقال الدكتور إنه فهم من قبول الهدية وهذا الرد أنها لا تزال موجودة في ذلك السجن . ثم فتش الدكتور في جيوبه وأخرج عشرة جنيهات وطلب أن أبقيها معي للطوارئ فشكرته على هذه الأريحية.

كنيسة حلوان للروم الارثوذكس التي لجأت إليها

وبعد ذلك ركبنا سيارة إلى محطة حلوان وأخذنا القطار إليها ، وكنت أجلس بعيداً عنهما. وفي شوارع حلوان الواسعة المظلمة مشينا معاً نستضيء بالنجم فإذا بالدكتور يقف بنا أمام كنيسة الروم الأرثوذكسية !

كان الدكتور يعقوب يسكن في الدار الملحقة بالكنيسة لأن والده هو راعي الطائفة ، وتقع الدار والكنيسة في حوش واحد ، فصعدنا إلى المنزل فقابلتنا والدته الكريمة بالترحاب .

وفى الصباح تناولنا فطوراً طيباً بين نظرات خدم الكنيسة اليونانيين واندهاشهم من وجود شيخ فى دار الكنيسة!

وبعدذلك رسمنا البرنامج الآتى ، وهو أن يذهب الدكتور إلى مصر لاستنشاق الأخبار ويذهب أحمدبدرأيضاً للاستفهام من الدكتور بشناق ويبسطله الموقف الأخير وإنى عزمت على تسليم نفسى للحكومة . وبعد أن يأخذ رأيه يتصل بالدكتور خورى ثم يشترى لى بدلةأفرنجية جاهزة وطربوشا جديداً ويعود فى المساء . وكان قصدى أن لا يرانى رجال الحكم فى الزى الذى أنا فيه تفاديا لشماتتهم .

أما أنا فبقيت أنتظر حيث كنت فى حوش الكنيسة ، وقد فرشوا لى سجادة ومقعدا فى ظلها فجلست أقرأ فى كتاب وأفكر . وكان النهار طويلا علىّ وخصوصاً فى تلك الظروف وما كان يكيدنى شىء مثل حملقة خدم الكنيسة بى وهم يرون العمامة لأول مرة فى كنيستهم!

أما أنا فكنت أرسم فى ذهنى أنواع الخطط إلى أن انتهيت إلى الحل ، وهو أن أتصل تليفونيا بسليم زكى باشا مساعد مدير البوليس العام وأن أساومه على تسليم نفسى فى مقابل إطلاق سراح زوجتى فوراً . هذا ما انتهيت عليه . وبعد ذلك أخذت أطالع فى الكتاب الذى كان فى يدى بدون أن أفكر فى شىء آخر لأنى استرحت إلى مشروع الاستسلام .

وكان الكتاب الذى كنت أقرأفيه «المآسى التاريخية» الذى ترجمه الأستاذحسن الشريف «رحمه الله» فوجدت فى نكبة نابليون حين استسلامه للإنكليز بعدهزيمته فى «واترلو» كتاباً أرسله نابليون إلى بريطانيا قبل ١٣٠ عاماً بالاحتجاج على نكث العهدالذى أعطته إياه . فتأملت فى عبر ذلك الكتاب التاريخى وأنا متعجب كيف أن جميع صحف العالم العربى فى العصر الحاضر لم تنشره ، وخصوصاً قبل الحرب العالمية الأولى ولا الحرب الثانية . ليعرف الناس حقيقة هؤلاء الإنكليز وقيمة عهودهم . فلو نشر احتجاج نابليون واستظهره أبناء هذا الجيل لما انخدعت الأمة العربية بانكلترا ولا وقعت فيما وقعت فيه من التردى تحت كابوس استعمارها وقد رأيت أن أثبت نص كتاب نابليون نقلا عن الترجمة التى وردت أخيراً فى كتاب « نابليون » الذى نقل عن الأصل الفرنسى بقلم العلامة عادل بك زعيتر ، أمدالله فى حياته .

احتجاج نابليون على نكث الإنكليز

« أحتج أمام الله والبشر على معاملة الحكومة البريطانية لى بالعنف وانتها كها لأقدس حقوق ، واعتدائها على شخصى وحريتى ، فلقد جئت إلى الطراد « البليروفون » مختاراً لأكون ضيف انكلترا لا أسيرها ، وذلك اعتماداً على تصريح ربانها القائل بأن حكومته أمرته بأن يستقبلنى وأن يحملنى أنا ومن معى إلى انجلترا إذا كنت راغباً فى ذلك . وإننى إذ وثقت بذلك ورضيت بما عرض على رأيت أن أضع نفسى تحت حماية بريطانيا ، وإننى وقد أصبحت فى « البليروفون » صار لى حق الضيافة على الإنكليز . فالحكومة البريطانية إذن قد أرادت بأمرها لربان « البليروفون » أن يستقبلنى أنا وحاشيتى وقوعى فى شرك نصبته لى قد لوثت شرفها ودنست علمها . فعلى الإنكليز أن لا يحدثوا أوربة بعد ذلك عن أخلاقهم ودساتيرهم وحرياتهم لبطلان دعواهم ، ولما يجدونه من تكذيب الناس لهم بما نقضوه من أصول الضيافة فى الطراد « البليروفون » إنى أشهد التاريخ على ما فُعل بى ، والتاريخ سيذكر عدواً حارب الإنكليز عشرين سنة فخانه الحظ فأتاهم لابساً بزته العسكرية واثقاً بوعودهم ليضع نفسه تحت حمايتهم فنكثوا العهد ، وغدروا به وأهلكوه . الإمضاء

« نابليون بونابرت »

هذا هو المستند التاريخى المشهور بإمضاء ملك وامبراطور ، والذى دمغ دولة الإنكليز بطابع الغدر إلى الأبد ، ووسمها بأشنع ما تعير به الدول والحكومات والشعوب .

كان ذلك سنة ١٨١٥ أى قبل مئة سنة من العهود التى أعطوها للعرب بعد ذلك فى حرب ١٩١٤ــ١٩١٨ فلو اطلع أبناء جيل هذا العهد على كتاب نابليون الذى فضح الإنكليز وكان عند العرب ذرة من العقل لما انخدعوا بعهود انكلترا ، وإن قيل إن اطلاع جيل تلك الحرب لم يكف حتى يختمر فى أذهان الناس أقول إن الإطلاع كان ينفع جيل ١٩٥١ الذى نحن فيه اليوم .

وياعجباً لدولة لا تزال تشقشق بالكلام الأجوف عن شرف عهودها ، بعد أن ثبت أنها قد أفسدت الأخلاق الدولية بنكثها بكل عهد اصطلح عليه البشر منذ عرف التعاقد بين الإنسان والإنسان .

خبر غير منتظر

وعند العصر رجع الدكتور خورى من القاهرة وقال إن لديه أخباراً جديدة ، وذلك أنه تقرر إخراج قرينتى من مصر وإبعادها لبر الشام ، وأن أحمد بدر سيرقب المحطة وبعد ذلك يعود لحلوان عند الغروب ليخبرنا بما يرى .

كان لهذا النبأ فى نفسى وقع سىء وشديد ، وقد شعرت باحتقار لهؤلاء الذين أصبحوا فى غفلة من الزمن ساسة وحكاماً ، ولولا الإنكليز لوضعتهم الأمة فى السجون دفعاً لأذاهم عن بنيها ، ورحم الله شاعر المعرة الذى رأى هؤلاء الناس قبل ألف سنة من وراء الغيب فقال فيهم:

يسوسون الأمور بغير عقل ... وينفذ أمرهم فيقال ساسة

فأف من الحياة وأف منى ... ومن زمن رئاسته خساسة

لماذا يبعدون زوجتى بعد حبسها والتنكيل بها ! وما ذنبها مع هؤلاء الجلادين القساة . وإذا كان الإنكليز قد طلبوا منهم ارتكاب هذه الفظائع معنا فكيف سمحت لهم ضمائرهم بارتكابها ؟ أليسوا من البشر كسائر الناس ولهم زوجات وأخوات وبنات ؟ وهل يليق بموظف إذا أمره سيده المستعمر باجتراح وزر من الأوزار ضد أحد أبناء جنسه أن يبادر إلى اجتراحه بلا تردد ولا اشمئزاز ؟...

أمضيت بقية ذلك اليوم وأنا هائج الأعصاب ، أفكر فى مسألة القبض على قرينتى وأخذها من خدرها وحبسها بعد التطاول عليها بالضرب والأذى ، ثم نفيها من البلاد . فيا ترى كيف حالها وهى تؤخذ من بيتها وتنفى بعد تعذيبها لتسافر على تلك الصورة الأثيمة الوحشية ، بعد أن فقدت بنتها وزوجها وخربوا ديارها !

براءة الإنكليز

لقد بلغنى بعد جلاء الغمة وزوال المحنة أن الإنكليز لما سمعوا بهذه الفظائع التى نزلت بزوجتى وأن الرأى العام يتهمهم بها ، أنكروا ذلك بشدة واستهجنوه ، وقالوا إنهم لم يأمروا به وهى عادتهم دائما فى التهرب من المسئوليات ، إذن فأصحاب هذه الجريمة على كل حال قد

تطوعوا بها لإرضاء الإنكليز تطوعا ، فإذا بهؤلاء يستنكرونها ويتبرأون من مسلك أعوانهم ، فلعل أذناب المستعمرين يتعظون بهذا فهو يكفى لإظهار شناعة ما يجترحون .

إبعاد قرينتى نفيا

وجاء أحمد حسن بدر فقال إنه فضل أن لا يكون فى المحطة بنفسه فكلف أحد أصحابه بمراقبة الحالة وإنه عاد إليه بمعلومات خاطفة تتلخص فى أن رجلا من البوليس قد رافق زوجتى من السجن إلى المحطة وركب معها قطار فلسطين ، وجاء بعض جيراننا إلى المحطة يودعونها وقدموا إليها بعض الهدايا من زهور وعلب حلوى . وكانت دموع السيدات تسيل مدراراً من هذه المأساة إلى أن مشى القطار وأسدل الستار ، فأخذت أفكر فى مصير قرينتى وإلى أين أبعدوها ، ولكن كيف يمكنى معرفة مقرها ، وكيف السبيل إلى الاتصال بها ؟

وبعد ذلك فكرت فى دارنا ، فيا ترى ماذا جرى فيها ، وفيها أثاثنا ومتاعنا كله . ومن يدفع أجرة الدار ، ومن الذى يتصرف بها ؟ لقد بقيت هذه الأسئلة بلا جواب ولا حل ...

خواطر

كانت تلك الأمسية سوداء مظلمة على نفسى وأعصابى ، وبعد تفكير جزمت أمرى على مغادرة القاهرة فى تلك الليلة إلى الصعيد ، لأنفذ مشروعى فى اجتياز صحراء عيذاب وركوب البحر الأحمر إلى الحجاز أو اليمن . فأى ساحل أصل إليه أو أى بر يتلقانى يكون هو المطلوب. أليس إنى أكون قد نجوت من أيدى المستعمرين ؟

إن المسألة ليست عبور نهر أو جدول ماء ، ولكنها مسألة اجتياز بحر تحتاج البواخر فى اجتيازه إلى يومين وليلتين . وأما سفن الصيادين فإننا إن وجدناها واستطعنا الإفلات بها سنقضى فيها نحو أسبوعين إن ساعدها الريح وهدوء البحر وقدرت لها النجاة ، ولكن يجب أن أركب هذا الخطر ولو من دون أمل لأخلص من الإنكليز وليكن ما يكون ...

وقد ذكرنى هذا العزم بقول ابن دراج القسطلى فى قصيدته الوداعية وهو يسوغ لنفسه ركوب الصعب الذى أقدم عليه :

وإن خطيرات المهالك ضُمَّنٌ ‍ ‍ ‍ لراكبها أن الجزاء كبير

وهذا صحيح مع أن النعمة التى سأحصل عليها بحياة الأمن إن نجوت . نعمة لاتعادلها نعمة.

على أن الفرق عظيم بين الصعب الذى ركبه ابن دراج وبين الصعب الذى ركبته ، بل ركبنى ـ لأنه كان يريد النزهة أو طلب الرزق ، وأما أنا فإنى هارب من ظالمين مجرمين لا يرضيهم إلا قتلى فى السجون المظلمة .

الأستاذ أحمد حسين يصف سجن زوجتى

وقبل أن أبتعد بالقارىء ، أرى أنه من الأفضل ألا أجعله ينتظر كثيراً ليعرف كيف كان وقع سجن قرينتى وإبعادها عند الناس فقد كتب الأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة مذكراته عن سجنى فى تلك الأيام ونشرها بعد الحرب فى جريدته « مصر الفتاة » سنة ١٩٤٥ فقد روى كيفية مصادفته لزوجتى فى السجن قال :

مقال أحمد

« وفى صباح أحد الأيام فوجئت وأنا فى السجن مفاجأة عنيفة ، برؤية زميل جديد ، أو بالأحرى زميلة جديدة، تتصل بأعز الناس علىَّ ، وتحتل أكبر قدر من احترامى وتقديرى. فكان حدثاً ما بعده حدث . وكادت تقوم قيامتنا لولا أن الله سلم . وقد بقى أن أحدثك عن قصة هذه الزميلة ، فإنها لقصة كما يقولون فى كتاب ألف ليلة وليلة تكتب بالإبر على آماق البصر ، ولكن قبل أن أحدثك عنها لاأستطيع إلا أن أصور لك هول المفاجأة التى فوجئت بها عند اكتشافى أن هذه الوافدة الجديدة ليست إلا هذه السيدة الفاضلة المحترمة . فمنذ استقربنا المقام فى سجن الأجانب اكتشفت أنه يوجد به سيدة ألمانية معتقلة ، ولقد أزعجنى كل الإزعاج أن تسجن سيدة فى سجن للرجال ، فقلت ولكنه الآن لم يعد سجنا للأجانب بل هو مقر للمعتقلين . والمعتقلون من مصر الفتاة وأحمد حسين لا يمكن أن يرضوا عن هذا الوضع ، فهذه السيدة يجب أن تنقل وأن تنقل على الفور ، ولقد عجبت فى بادىء الأمر لهذا الطلب . ولكنى كررته لجميع الضباط الذين جاءونى وأصررت عليه . وكان أن نقلت السيدة إلى معتقل الأجنبيات النساء بالمنصورة .

حرم صديق

وهكذا فقد خلا السجن إلا من الرجال . وذات صباح عند ما فتح باب حجرتى لمحت شبح سيدة جديدة فى الدور العلوى، فنظرت إليها مستطلعاً ، وكل شيء فى السجن يثير حب الاستطلاع. فإذا بصورتها ليست غريبة علىَّ ، وإن كان قد أعجبنى فيها وقارها البادى، وحيويتها والبشاشة التى تبدو فى وجهها وملابسها المحترمة المحتشمة، فقد كانت ترتدى تاييراً أسود على ما أذكر. وبينما كان الخاطر الذى يجول فى نفسى هو الإعجاب بنساء الافرنج اللاتى يظهرن فى المحن بهذه الرجولة والثبات ، كانت ذاكرتى تبحث فى ثناياها عن هذه الشخصية الجديدة ، وأين سبق لى أن رأيتها . وفجأة ومضت ذاكرتى ومضة المعرفة ، وإذا بى أثب مندهشا وأنا أكاد أصرخ من قوة المفاجأة إنها «زكية هانم» حرم الأستاذ المجاهد الكبير محمد على الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية فى مصر ... لا ، لا يمكن ... مستحيل ! ولكن نظرتى الثانية كانت كافية لتأكيد هذه الحقيقة ... إنها هى هذه المجاهدة الصابرة، إنها هى هذه الأم والزوجة التى حرمت زوجها بالسجن . ثم حرمت من طفلتها بالوفاة . وقد أتاحت لى الظروف أن أكون إلى جوارها فى تلك الأيام العصيبة ، حيث كنا نعمل للإفراج عن زوجها ، فما رأيتها جزعت ولا هلعت . ما رأيتها تخور أو تضعف ، بل رأيتها كالأسد الرئبال تقف فى وجه الزوابع والأعاصير ، تسمع من فمها كلمات الوطنية ، وأنه لا قيمة للحياة بغير الوطنية ، وأن أسعد أيام حياتها هو ذلك اليوم الذى تقدم فيه نفسها وزوجها وأولادها دفاعا عن قضية العروبة وقضية الحرية . هذه هى زكية هانم زوجة الأستاذ محمد على الطاهر المجاهد العنيد الذى لم تنل من عزيمته الأيام والخطوب ، ذلك المجاهد الذى جاهد والناس نيام ، المجاهد القوى الشكيمة الوطيد الإيمان ، فرزقه الله بالمجاهدة الصابرة التى ارتفعت إلى مستواه .

إنـذار

ولقد كان الأستاذ محمد على الطاهر أول مصرى عربى صدر أمر السلطات الإنكليزية باعتقاله فحبس وأودع سجن الأجانب فى الوقت الذى لم يكن الأمر قد صدر باعتقالى بعد ، وكانت هذه المسألة تثير فى نفسى العجب لتصرفات الأقدار، فلطالما كان الأستاذ الطاهر ينذرنى بالاعتقال ، وإن الحرب لا تكاد تقع حتى يكون مثواى السجن . أما هو فسوف يستفيد

من تجاربه لكى لا يقع فى براثن الإنكليز ، ولذلك فقد أوقف جريدته وأوقف كل نشاط سياسى . ومع ذلك فلم يجده الاحتياط من النجاة من الاعتقال . فكان أول المعتقلين ، وكنت أنا من الساعين لفك اعتقاله . ولكن كل جهودنا ذهبت فى هذا السبيل هباء ، فقد كان تشبث الإنكليز باعتقاله عنيفاً ، حتى لقد رفضوا دائماً أن يستمعوا إلى أى قول بشأنه حتى ولو كان صادراً من رجال لهم عندهم كل حظوة ونفوذ . وبالرغم من أن بعض ممثلى الدول العربية أعلنوا استعداد بلادهم لأخذ الأستاذ محمد على الطاهر عندهم وضمانته . وكان فى مقدمة هؤلاء سماحة السيد محمد إدريس المهدى السنوسى[1] وتحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض ، وعلى الرغم من ذلك كله فقد أصمت الحكومة المصرية أذنيها تحت ضغط الإنكليز وإصرار الإنكليز ...

ولقد نكب الأستاذ الطاهر فى وحيدته فاقتادوه ذات يوم من السجن فظن أنهم سيطلقون سراحه ، فإذا بهم يقودونه إلى بيته ليسير فى جنازة ابنته ، ثم ليعود بعد ذلك إلى السجن. ولقد كان ذلك موقفاً رهيباً وقاسياً لم نتمالك فيه أنفسنا عن البكاء . ولم يبث فى قلب الأستاذ الطاهر فى ذلك اليوم شيئاً من الصبر على هذه المحنة سوى زوجته التى أظهرت له من هدوئها وثباتها وتشجيعها له ما جعله يتمالك أعصابه قبل أن يعود إلى سجنه .

هرب صديق

ولكن الأستاذ لم يلبث أن مرض ونقل إلى مستشفى الدمرداش ، ومن مستشفى الدمرداش أتيح له أن يهرب ويتنكر وأن يختفى ، وعبثاً حاول البوليس أن يعثر عليه . وكان الإنكليز يضغطون فى وجوب إعادة القبض عليه ، وقد صادف هربه حوادث اختفائى واختفاء عزيز باشا المصرى فأصبح لدى البوليس المصرى مجموعة من الهاربين الخطرين ...

ولم ير البوليس وسيلة لاقتفاء أثر الأستاذ الطاهر إلا بالتضييق على زوجته وتتبع آثارها ولكنها كانت من الحذر بحيث لم يستطع البوليس أن يصل عن طريقها إلى شىء ، ومرت الأشهر تلو الأشهر ، والسيدة تبذل نشاطاً كبيراً فى معاونة زوجها على الإمعان فى الهرب دون أن يستطيع البوليس الوقوف منها على شىء ، حتى إذا ضاق ذرع رجال البوليس السياسى لم يسعهم إلا أن يلجأوا إلى أفعال رجال العصابات ، ليحملوا الأستاذ محمد على الطاهر على

(١) ملك ليبيا الآن

الظهور من اختفائه بالضغط على زوجته ، ففكروا فى أن يخرجوها من مصر فيفقدوا زوجها بذلك سنداً قويا ، وقد يحملونه على الظهور ، فإذا بهم يقدمون على اعتقالها فى خسة ودناءة، ضاربين عرض الحائط بالتقاليدوالرجولة والنخوة التى لاتسمح باضطهاد رجل فى شخص زوجته.

نفى السيدة

وهكذا التقيت وحرم الأستاذ محمد على الطاهر فى السجن، وإذا كنت قد غضبت للزج بامرأة ألمانية فى السجون ، فتستطيع أن تصور لنفسك كم يكون غضبى أن تكون هذه المرأة عربية مصرية مسلمة ، وكم يكون بالأحرى إذا كانت هـذه المرأة هى زوجة صديق الأستاذ الطاهر ؟ لقد تخيلت على الفور أن زوجتى هى المعتقلة وليست زوجة صديق الطاهر ، تصورت أننا أصبحنا جميعا معرضين لهذه المعاملة الوحشية، فاتفقت مع اخوانى [1] على وجوب الاحتجاج بل على وجوب إحداث ثورة فى السجن إذا لزم الأمر ، ليعرف الرأى العام ماذا يجرى مع المجاهدين ورأيت لزاما علىّ أن لا أعرف طعم الراحة أو الهدوء حتى أطمئن على هذه السيدة الفاضلة . ولقد رأتنا فى ذلك الوقت وأشرنا إليها بمـا يشجعها ويقويها . والحق أنها لم تكن فى حاجة إلى تشجيع ، بل لقد أفاضت علينا من شجاعتها . فقد كانت كأنها فى بيتها وكانت يحيط بها الوقار فى غير جزع أو ملل . ولقد كافأها الله على شجاعتها فلم تمكث فى السجن بعد ذلك فقد رأيناها تشير إلينا بأنها مسافرة إلى بر الشام، فتنفسنا الصعداء لانقضاء الأزمة . ولـكن هذا الحادث ظل محفوراً فى نفوسنا ، وهاقد انقضى عليه الآن خمس سنوات ولـكنه لا يزال فى ذاكرتى لقوة التأثير الذى أصابنى وقتئذ . وكان إعزازى لزوجتى يتمثل فى خوف من أن أراها فى مثل هـذا الموضع ، فكان ذلك يضاعف انزعاجى ، ولـكن الله سلم » ... اه

هذا ما سجله الأستاذ أحمد حسين المجاهد الوطنى بعد الحادث بخمس سنين، فهو تسجيل شاهد عيان على فظاعة أذناب المستعمرين . وقد أخبرنى الأستاذ محمد صبيح السكرتير العام

(١) كانت وزارة تلك الأيام قد حبست بأمر الانجليز معظم رجال مجلس إدارة مصر الفتاة ، رئيسهم الأخ أحمد حسين والأخ إبراهيم الزيادى المحامى والأخ محمد صبيح والأخ أحمد المصرى والأخ توفيق اللط والأخ حسن جربو ، رحمه الله

السابق لحزب مصر الفتاة لما التقينا بعد الإفراج عنى وعنه ، إنه كان والرئيس وجميع أركان الحزب بوقتها مسجونين ، فلما سمعوا بوجود زوجتى فى السجن هاجوا وفتح بعضهم أبواب الزنازين على البعض الآخر وضجوا مهددين بتخريب السجن احتجاجاً على هـــذه الفظائع ولما أخرج البوليس قرينتى من السجن إلى المحطة ودعوها بالدعاء والهتاف ضد الظالمين ، فكان هذا المظهر من زملاء السجن وتوديع الجيران لها فى محطة مصر أكبر عزاء لسيدة نالها ذلك الأذى ظلماً من قوم تجردوا من الرجولة ومن الإنسانية .

ولنرجع إلى ما كنا فيه من سرد الحوادث بعد ذلك .

السفر بقطار الليل

غادرت حلوان إلى القاهرة بعد أن ودعت الدكتور خورى وشكرته على مساعداته القيمة وضيافته الكريمة ، وكان أحمد حسن بدر يرافقنى حتى محطة القاهرة فجلسنا فى قهوة بلدية

قهوة الدرجة الثالثة بمحطة مصر

يجلس فيها كل متعطل وكل منتظر لقطارات الليل ، فاشتريت كعكا وجبنا وجعلت ذلك فى السلة ، وقام أحمد بدر بأخذ تذكرة سفر إلى بنى سويف ، وحمل السلة وحملت أنا الصرة ودخلت المحطة بين جماهير الفلاحين والصعايدة بمشناتهم وقففهم وصراخ أطفالهم ، واندسست فى مركبة الدرجة الثالثة وكانت مزدحمة ازدحاماً شديداً جعل الناس يدوس بعضهم بعضاً ، فأراد أحمد بدر أن يرافقنى إلى الصعيد فشكرته وأعفيته من هــذه الرحلة المزعجة فودعنى وهو يبكى ومشى القطار نحو الجنوب ...

فى القطار

كان الركاب على بؤسهم وسوء حالهم يغنون ويسمرون ، وكلهم سيلاق أهله وينتظر الاطمئنان على عشيرته وسربه إلا أنا ؛ فقد كنت حزينا متألما، شارد الفكر، أسبح فى مجاهل من الأفكار والافتراضات ، ليستقبلنى مصير مجهول لا أدرى ماذا يخبىء من صروف القدر .

وبعد منتصف الليـل بساعتين وقف القطار فى محطة بنى سويف ، فحملت أمتعتى وهى الصرة والسلة وغادرت القطار ، ثم خرجت من المحطة أتعثر فى الظلام الدامس ، وأنا لا أدرى إلى أين أذهب ، فقد نويت أن أقضى تلك الليلة فى مدينة بنى سويف لأستريح وأجعل سفرى إلى مدينة قنا على مراحل . فلمحت فندقاً بقرب المحطة والغالب أنه يسمى « سميراميس » فقضيت فيه تلك الليلة ونمت نوما طويلا. وفى الصباح تناولت ورقة وكتبت إلى جارنا الأستاذ عباس جمجوم كتابا شكرته فيه على جميل مساعداته لنا ورجوته أن يشكر الذين ودعوا قريبتى بالأمس فى محطة مصر وأكرموها ، وأن يجعل دارنا تحت نظارته فيغلق أبواب الغرف على مافيها من أثاث ثم يغلق الدار ويحتفظ بمفاتيحها ، وأما الأجرة فيأخذها فى كل شهر من الدكتور البشناق ويدفعها للمالك وأن يظل الحال كذلك إلى أن يفرجها الله . وكان صديق الوفى الميرزا مهدى رفيع مشكى بك قد نكب بوفاة شقيقه الميرزا محسن بك « رحمه الله » فرجوت عباس أن يقدم إليه التعزية بالنيابة عنى، ولم أذكر لعباس شيئا عن خط سيرى ، وعلى ذكر هذا الجار الطيب عباس جمجوم أذكر أننى علمت بعد زوال المحن أن إدارة البوليس كانت قد شعرت من أول يوم هربت فيه بأن مجاورة عباس لدارنا ستكون واسطة مأمونة لاتصالى بأهل بيتى بصورة تضيع على الشرطة إتقان مراقبة منزلى ، فذهب الضابط محمد يوسف إلى وكيل وزارة الأوقاف عمر بك الدمرداش يشكو من تستر آل جمجوم علىّ ، فاستدعى الدمرداش عباس جمجوم « لأنه من مهندسى الوزارة » وقابله بمحمد يوسف ، وكان الأحسن من الدمرداش بك لو أنه أمر بإخراج هذا الضابط من مكتبه من أول الأمر ، وأن يقول له نحن لسنا بجواسيس للإنكليز !

وانفرد محمد يوسف بعباس ليقنعه بفوائد الإرشاد عنى، وأن فى ذلك ترقية له ... فوعده

عباس بأنه سيساعد الحكومة بلاشك، ثم صرفه وهو يضحك فى نفسه من هذه الأساليب!!

ولنرجع إلى ما كنا فيه ، فأقول: إننى ألقيت الرسالة بصندوق البريد وركبت القطار إلى أسيوط ونمت فيها ، وقضيت ذلك اليوم أتجول فى داخلها وفى خارجها . وبعد منتصف الليل ركبت القطار المسافر إلى السودان ، وفى الصباح كنت عند شروق الشمس أمام محطة قنا ، فنزلت فيها وحملت أمتعتى إلى فندق ونزلت فيه ، وكنت قبيل ذلك قد أخفيت العمامة ولبست الطربوش..

فى قنا

أصبحت فى ذلك اليوم صائماً لأن شمسه أشرقت ونحن فى أول رمضان، فقضيت الضحوة نائماً لأعوض متاعب الليل الذى قضيته ساهراً ومسافراً .

وكان الجو فى هذه الجهات حاراً مربداً ويقول الناس بعد أن يصفوا لك حر مدينة قنا ونواحيها (اللهم « قنا » عذاب النار) ...

وقال حفنى بك ناصف القاضى الأديب الشاعر «رحمه الله» من قصيدة يصف حر مدينة قنا :

قالوا : شخصت إلى قنا يا مرحباً «بقنا» و«إسنا» !
قالوا : قنا حرٌّ فقلـ ـت وهل يرد الحر قناً ؟
ألقى الهواء فلا أها ب لقاءه ظهراً وبطنا
وأنام غير مدثرٍ شيئاً إذا ما الليل جنّا
وفّرت من ثمن الوقو د النصف أو نصفاً وثمنا

فإذا بدت لى حاجـة ... فى الغسل ألقى المـاء سخنا
أو رمت طبخا أو علا ... ج الخبز ألقى الجو فرنا!

الوطن

بقيت فى الغرفة طول ذلك النهار العبوس الأغبر أتقلب على فراش كأنه الجمر، وبعد العصر خرجت أجوس خلال المدينة وأتعرف حالها، وغاية ما أقوله عنها هو الدعاء إلى الله بأن يعين أهلها على احتمال العذاب فيها، لفظاعة حرها، فلولا أنها وطنهم لما بقوا فيها لحظة، فما أشد وفاء الإنسان للوطن وحاسب الله كل من يتسبب فى إبعاد الناس عن أوطانهم، أليس أن الله سبحانه وتعالى قد جعل النفى عن الوطن عقوبة من أشد العقوبات وقرنها بعقوبة الإعدام وبتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف؟

وعند الغروب انطلق مدفع الإفطار فدخلت مطعماً وأفطرت فطوراً يعد طعام السجن أفضل منه ...

سكة حديدية حربية!

وبعد ذلك بحثت عن السيد أحمد النشاشقى فقدمت له نفسى وسلمته رسالة عميله فى فى المنصورة السيد سعدالدين عسكر التى يوصيه بى خيراً، فرحب بى الرجل وأبدى استعداده لخدمتى، فقصصت عليه قصتى وإننى أريد السفر لميناء القصير « لأبحث عن شريكى الذى هرب بمالى وسكن فيها» فقال إن الأحسن من ذهابك إليها أن نكتب نحن لمعارفنا فى القصير ونسألهم عنه وعن حاله فقد لا يكون الرجل هناك. فارتبكت قليلا لأن الرجل قال حقاً، فاستدركت قائلا: ولكنى لا أدرى ما هو الاسم الذى انتحله فى القصير ولا المهنة التى يعمل فيها. فقال السيد النشاشقى إذن فقدم عريضة للمديرية بطلب السماح لك بالذهاب للقصير مع ذكر الأسباب وأنا أضمنك، ويجب أن تصحب الطلب بثلاث صور فتغرافية! فأظهرت إندهاشى من هذا الكلام « عريضة للحكومة وضمانة وصورتى؟ » وسألته: لماذا كل هذه العقبات؟ فقال إن السلطة العسكرية البريطانية تمد الآن فى صحراء عيذاب سكة حديدية حربية بصورة سرية من قنا إلى ميناء القصير، وقد منعت الجرائد من الإشارة إليها لأنها تستورد

الذخائر والجنود من المستعمرات ومن أمريكا بواسطة ميناء القصير بدلا من ميناء السويس التى تضربها الطيارات المعادية ، وقد نصت السلطة فى أمرها على إعدام كل من يجتاز هذه الصحراء بدون إذن رسمى ...

سمعت هذا فانذعرت وقلت هل جميع السكان والأعراب يجب أن يقدموا عرايض وصورا وضمانات ؟ فقال كلا ، فصحراء عيذاب لايسكنها أحد ، إذ لا ماء فيها ولا نبات ولا سكان ولا طير ولا وحش . فأردت أن أستزيده بيانا عنها فقلت وكيف يعيش أهل القصير وكيف يتصلون بقنا ؟ فقال إنهم يتصلون بواسطة سيارات قوية معها حرس خوفا من الانقطاع ، وتجتازها السيارات أحيانا فى يومين ، وكانت قوافل الحجاج قديماً تقطعها بخمسة عشر يوماً أو عشرين ، وأما الآن فلا يمكن للجمال أن تخترقها لأن آبار الماء التى كانت فيها فيما مضى قد انطمرت وزالت من الوجود .

اكتفيت بهذه المعلومات وأظهرت للرجل اقتناعى ، بل اقتنعت فعلا ، لأنى فهمت أن التسلل من هذا الباب الخلفى من أرض مصر أصبح أكثر من المستحيل ، وأن الإنكليز قد أتقنوا صناعة الحرب أكثر مما كنت أتصور ، ثم ودعت السيد أحمد النشاشق بعد أن شكرته على حفاوته بى فدعانى للإفطار عنده فى اليوم الثانى فاعتذرت لاضطرارى إلى السفر...

مدينة أسيوط

كان لهذه الخيبة أثر سيء فى نفسى وفى الصباح المبكر ركبت القطار إلى أسيوط ونزلت بفندق لرومى خلف المحطة . وقد أعجبنى من أسيوط أنها مدينة عظيمة متحضرة تستحق أن تسمى عاصمة الصعيد ، ففيها القصور المنيفة ، والأسواق العامرة ، والحدائق والمرافق والأندية . وقد استرعى انتباهى منها أنها تصلح لإصدار جريدة يومية كبرى لاتتعرض لغزو صحف القاهرة لبعدها عنها ، فإنها لاتصل إلى أسيوط إلا فى الساعة الثانية بعد الظهر ، فإن صدرت جريدة «أسيوط» صباحية بعد أن تكون قد اتصلت ليلا بالقاهرة بواسطة التليفون واستقت آخر الأخبار المحلية فإن صحف القاهرة التى تصل بعد تلك الساعات تصبح لاقيمة لها ، وبهذه الواسطة تستطيع جريدة أسيوط أن تسيطر على الرأى العام فى الصعيد تماماً ، من المنيا فى الشمال حتى أسوان فى الجنوب ، وهى مناطق واسعة شاسعة فيها الملايين من السكان.

فى دار خشبة باشا

وكنت فى إحدى الليالى ـ ونحن فى رمضان كما يذكر القارئ ـ أتجول فى شوارع المدينة ، فلفت نظرى ضياء شارع بجوار المحطة وقرب البريد ، فكانت قصوره تشعشع بالأضواء ، والمشايخ فى رحباتها يقرأون القرآن كالعادة فى رمضان . فسألت عن هذه الدور فقيل لى إنها منازل آل خشبة ، وفيها دار صديقى سيد باشا خشبة « رحمه الله » فسألت عنه فقيل لى إنه يقضى شهر الصيام بالقاهرة كعادته السنوية . فلما تأكدت من عدم وجوده دخلت الدار فلم يلفت دخولى نظر أحد ، لأن الصالون كان حافلا بالناس الذين يغشون منازل الكبراء فى ليالى رمضان لتحية أصحابها وتناول القهوة وسماع القرآن . فجلست بين الناس نصف ساعة ثم انصرفت بدون أن يحفل بى أحد .

كتاب إلى سيد باشا

ولما وصلت إلى الفندق كتبت إلى سيد باشا خشبة فى الجيزة رسالة مطولة قلت له فيها هل تتذكر يوم أوصلتنى بسيارتك إلى إدارة الشورى بشارع عبدالعزيز بمصر وزرتنى، وبقيت تلك الزيارة بدون رد بسبب حبسى ؟ إننى رددتها لك بعدعام فى عرينك فى أسيوط، ثم ذكرت له موقف زميله فى حزب الدستوريين مصطفى باشا عبد الرازق الذى أصبح بفضل الحزبية وزيراً ، وكيف أنه رضى لنفسه أن يكون وزيراً فى وزارة تنكل بصديقه وتعتدى على أهل بيته وتبعدهم عن البلاد ثم يقر الوزارة على تلك الفظائع التى أنزلت بنا وبإدارة الشورى التى كان يؤنسها بزياراته ، وبالدار التى رحبت به وأقيمت له فيها حفلة شاى تكريماً له لما أصبح وزيراً ، وقد شهد تلك الحفلة الأمير شكيب أرسلان والمرحوم أحمد شفيق باشا والمرحوم الشيخ على سرور الزنكلونى والدكتور محمود عزمى وأحمد حلمى باشا والشيخ دراز وشقيقه على باشا عبدالرازق الخ وقلت لسيد باشا : لو كان الشيخ مصطفى باشا أهلا للوزارة والصداقة لذهب إلى رئيس الوزراء وسعى لديه إما بالإفراج عنى أو بتخفيف عذابى فى السجن على الأقل ، وهو واجب يقضى به الوفاء وتفرضه عليه الرجولة ، فإن لم يستجب رئيس الوزراء لوساطته ترك الوزارة بدون أسف عليها ، أليس أن عبدالعزيز باشا فهمى فى سنة ١٩٢٦ قد استقال بل أقيل من

وزارة زيور باشا حين لم يقبل نائبه يحيى باشا ابراهيم وساطته فى إعفاء الشيخ على عبد الرازق شقيق مصطفى باشا من المحاكمة بسبب كتاب « الإسلام وأصول الحكم » ؟ ألم يتعلم الشيخ مصطفى باشا هـذا الدرس فى الوفاء مع العلم بأن عبد العزيز باشا نصر على بك على الباطل ، ونصرة مصطفى باشا لى لو حصلت تكون وهو على حق ، بل يجب أن يكون وفياً للحق وللفضيلة ، نحو أى إنسان آخر ، مع العلم بأن عبدالعزيز باشا لم يرض لصديقه الشيخ على بك أن يحاكم وهو مستحق لذلك وبموجب قوانين عادلة ، على ذنب معين ثابت عليه ، وأما أنا فلم أحاكم ولم أتهم . وكل مسألتى هى انتقام انكليزى استعمارى بل هى تنكيل فى تنكيل ، وشتان بين الحالين . ولكن الشيخ مصطفى أقر ذلك الظلم وسوغه ودافع عنه وراح يمن علىّ ويدعى أنه حمانى من سجن الإنكليز بوضعى فى سجنه هو ...

أثر كتابى فى خشبه باشا

أخبرنى الدكتور مصطفى البشناق بعـد ذلك أنه اجتمع بسيد باشا خشبة « رحمه الله » فأخبره الباشا بأن كتابا قد وصله منى « وأنه بكى لما فيه وتألم من موقف الشيخ مصطفى باشا عبد الرازق وقال إنه موقف لا يليق به » أما أنا فلو كنت فى مكان الشيخ وفى ظروفه وكان هو فى ظروفى لـكلمت رئيس الوزراء واحتججت على تلك الفظائع ، فإن لم يستجب لوساطتى واحتجاجى عاتبته وربما كنت أمد لسانى عليه وأغادر الوزارة حتى لا أشترك فى مسئولية إنزال الفظائع ببرىء من عامة الناس ، فكيف بصديق وبأهل بيته ! .

هذا وقد مكثت فى أسيوط بضعة أيام كتبت فيها إلى قرينتى بواسطة شقيق فى يافا بإمضاء مستعار كتابا لا يستطيع أن يفهم رقيب البريد منه شيئا وكنت أظن أنها سافرت ليافا ، ثم خطر لى أنها قد تكون سافرت إلى صيدا عند عمها ، فكتبت إليه أيضاً بشكل آخر وأسلوب يدل على أن أحد أخوته قد وصل إلى مقره بالسلامة ! فلما وصل هذا الكتاب والذى سبقه فهموا فى بر الشام أننى بخير ، وهذا التطمين يكفى بالنسبة لحالهم وحالى فى تلك الظروف .

العودة إلى المنصورة

وقبل أن أشرع فى العودة كتبت إلى أحمـد حسن بدر بأنى راجع إليه ، ورجوته أن

يعيد الأثاث الذى عنده وعند با كثير إلى المنزل الذى كنت فيه ، وأن ينتظر منى كتابا آخر، ولم أشأ أن أسافر مباشرة بل فضلت أن أجعل السفر فى مراحل ، لأتمكن بواسطتها من الوصول بدون تعب وبقصد الاطلاع على أكثر ما يمكننى الاطلاع عليه من أحوال الجنوب.

لقد كنت قبل رحلتى إلى الصعيد أستغرب تسمية القطر المصرى « بوادى النيل » لأن البلاد منبسطة من القاهرة حتى الإسكندرية ومن السويس حتى الحدود الغربية ، ولكن لما زرت الجنوب وجدت النيل يجرى بين جبلين يمتدان من أقصى الجنوب حتى القاهرة ، برغم بعد المسافة ، لأننا كنا ونحن فى القطار نرى الجبال تسد الأفق شرقا وتسده غرباً ، والنيل يجرى إلى مستقره متعرجا متعوجا ، تحف به السهول على جانبيه خضراء يانعة ، والمدن قائمة على ضفتيه تارة من اليمين وأخرى من الشمال. عندذلك فهمت لماذا سمى قطر مصر بوادى النيل.

غرفة ضابط البوليس

وقد زرت فى رجوعى بلدة ديروط ، فأردت أن أقضى فيها ليلة ، لأنى وصلتها عند إطلاق مدفع الإفطار، فى سيارة أتوبيس مخلعة محطمة قذرة. والصعايدة يسمونها (حلزونات) ولا أدرى ما وجه هذه التسمية الغريبة .

لم أجد فى ديروط مطعماً أتناول فيه طعام الإفطار ، ولا مأوى أنام فيه . ولولا أن أحد الأروام أقام بجوار المحطة فندقاً ومطعماً لمت جوعا . فدخلت المطعم فإذا به خمارة ! فخجلت وأنا فى لحية كالمشايخ أن أعرضها للمهانة ، فطلبت من الرومى أن يسمح لى بغرفة أستريح فيها وأتناول طعامى ، فلم يخيب ظنى ، فقد كان الرجل لبقاً مؤدباً ، فقدر موقفى ومشى أمامى إلى الطابق الأعلى وأدخلنى غرفة كانت خالية من سكانها قال إنها لأحد ضباط البوليس! وكانت ملابسه معلقة على الشماعة !.

ففى مأوى البوليس غسلت وجهى وتناولت طعامى واسترحت . ولكن لم أشأ أن أقضى تلك الليلة فى نزل يسكنه ضباط فى الشرطة ...

إلى محل دعارة

وبعدذلك حملت السلة والصرة ومشيت إلى المحطة فركبت قطاراً بقصد مدينة المنيا وأخذت

أبحث عن فندق أنام فيه فلم أجد ، لأن المدينة كانت مزدحمة بالناس الهاربين من الغارات الجوية الألمانية على القاهرة والإسكندرية، فسألت سائق مركبة عن فندق يعرفه فأركبني وسار مسافة طويلة بين حارات قذرة ثم أنزلني أمام فندق ومضى

فصعدت إلى الفندق وطلبت غرفة ولكني لمحت من حركات أهله وسحن سكانه أنه ليس بفندق للنزلاء، بل ماخور فساد للفسق والعربدة ولقاء الفجار، فلم يسعني ألا أحمل السلة والصرة والهرولة على الدرج ... فأخذ أصحاب الفندق ينادون على « حضرة الحاج » ويعدونه بقضاء ليلة عظيمة ... ولكني واصلت الفرار ، وأخذت أجوب الشوارع وأنا أبحث عن غرفة إلى أن رحمني الله عند منتصف الليل بالعثور على غرفة فوق سطح فندق رومي بجوار المحطة ... أي دائما الأروام وكلهم بجوار المحطات! وكانت الغرفة في الأصل مخصصة للغسيل ففرحت بها كثيراً لأني وجدت فيها حنفية ماء .

عبد الحميد عبد الحق (١)

وتجولت في المنيا فعثرت مصادفة على مكتب المحامي عبد الحميد بك عبدالحق عضو مجلس الشيوخ وكانت بيني وبينه معرفة ، فخطر ببالي أن أزوره وأقص عليه ماصنعت معنا الحكومة من فظائع ليثيرها في المجلس إن أمكن، لأن وقفات هذا النائب الفحل في البرلمان أمام الوزارة في تلك الأيام كانت رائعة تشهد له بالرجولة والإقدام . فدخلت وسألت أحد موظفي المكتب عن الأستاذ فأخذ يسألني عن اسمي وغرضي من المقابلة فقلت له أنا « الحاج فلان » واختلقت

(١) التقيت بعد زوال المحن بعبد الحميد باشا عبد الحق وهو وزير للأوقاف ، فذكرت له حكاية المنيا وكيف انني زرت مكتبه فيها وأردت مقابلته ، فقال : والله لو رأيتك لأخفيتك في بلدي « أبو قرقاص » ولأثرت مسألتك في المجلس . فشكرته على هذه العاطفة الطيبة ، وفي الحقيقة ان هذا الرجل كان من خيرة الوزراء فقد زرته بعد هذا الحديث بشهور في وزارة الأوقاف ورجوته أن يعين راتباً من مال الخيرات لأحد معارفي وهو جزائري أصابه حيف في هذه الدنيا فأجاب رجائي وعين له راتباً ، وكان لي صديق مساكني يشتغل في وزارة الأوقاف ثم استغنت عنه الوزارة فالتمس منها تمديد الخدمة سنة أخرى فرفضت برغم توسط بعض الباشوات والنواب وصممت الوزارة على الاستغناء عنه . فذهبت إلى الوزير عبد الحق وشرحت له حالة الرجل ورجوته أن يمدد له المدة خمس سنين لا سنة فقط فتناول القلم وأمضى له ما اقترحت. ذكرت هاتين الحادثتين تنويهاً بفضل هذا الرجل الخير الذي حمله أصله الطيب على المبادرة إلى إغاثة الملهوفين.

بوقتها اسما نسيته بعد دقيقة وأن لى قضية أحب أن أوكله بها . فقال إنه الآن فى القاهرة وسيجىء فى مساء الغد ، فانصرفت ولم أعد لأنى فى الغد سافرت إلى بنى سويف بعد أن تخففت من أمتعتى لحزمتها وجعلتها فى طرد صغير لأشحنها إلى محطة المنصورة وكتبت لأحمد حسن بدر بأن يستلم الطرد ويحتفظ به إلى أن أعود .

مرور بديار صديق

ولما سافرت من المنيا اجتازت بنا السيارة قرية « الشيخ عطا » موطن آل جلال بجوار بنى مزار ، ومررت بدار عميدهم محمد محمود جلال بك عضو مجلس النواب وهو صديقى وأخى ، فكم تمنيت لو أنزل عنده ولو ليلة واحدة لأراه وأنعم بجلسة مع هذا الوطنى الكبير الذى كان أحد الثلاثة الذين حفظوا عهد زعيم مصر الأول مصطفى كامل باشا وساروا على غراره وهم المرحوم عبد الحميد بك سعيد وعبد الرحمن بك الرافعى ومحمد محمود بك جلال « أمد الله فى حياتهما » .

ولكن كيف أطرق دارا تعج بالناس والضيوف والموظفين وخصوصا فى رمضان حيث يكثر الناس عنده ! ولذلك اكتفيت بأن ألقيت على ديار آل جلال نظرة فيها تحية الوداد وقد أخبرت محمد بك جلال بعد ذلك بما كان منى فعتب علىّ عتباً شديداً . فقلت له إننى كرهت أن أحملك وأحمل السيد أبا الوفاء الشرقاوى على الكذب.. فقال كيف ؟ فقلت إننى مررت بنجع حمادى وكدت أزور الشيخ الجليل الورع السيد أبا الوفاء الشرقاوى لمودة قديمة بيننا ، ولكنى حسبت حساباً لحالتى وظروفى لأن السيد لو قدمنى لزواره وأهله باسمى الحقيقى لوقعت بيد الشرطة ، وإن ذكر غير إسمى يكون قد ارتكب الكذب ، وأنا أجله وأجلك عن ذلك وأربأ بنفسى عن إحراج أصدقائى .

وقد أعجب هذا التعليل صديقى جلال بك وقال لى شقيقه عبد العزيز بك جلال إن الأستاذ أحمد حسين قد زارهم وإن الشرطة درت به فهربوه قبل التفتيش بنصف ساعة ! هذا وقد عوض محمد بك محمود جلال تلك الزيارة بمأدبة أقامها لى فى داره بالجيزة وبرحلة خاصة إلى ضيعته « الشيخ عطا » دعا إليها لفيفاً من الأصدقاء الفضلاء منهم عبد الرحمن الرافعى بك

وعبدالوهاب محمود بك النائب العراق الذى أصبح بعد ذلك وزيراً للمالية العراقية ، والأستاذ جميل أمين بك أحد شبان بغداد المثقفين. فقضينا فى تلك الضيافة ثلاثة أيام نعمنا فيها بأطيب الأحاديث . وهل للرجال من متعة فى الدنيا مثل الحديث عن معالى الأمور مع أنداد يفهمونك وتفهمهم ويألفونك وتألفهم .

من بنى سويف إلى حلوان

لم ألبث كثيراً فى بنى سويف ، وقد أردت أن ألتقى بصديق محمود بك لطيف ، فسألت عنه بالتليفون عمدة دلاص وهى قرية آل لطيف ففهمت أن صديقى موجود فى القاهرة فأسفت لضياع هذه الفرصة . ثم ذهبت إلى المحطة وشحنت السلة بقطار الركاب إلى محطة المنصورة لأتحرر مما معى . فأصبحت حراً مستقلا « أسير بطولى » كما يقولون ، ثم تناولت التليفون وخاطبت الدكتور خورى فى عيادته بالقاهرة وطلبت منه أن ينتظرنى بعد الظهر فى داره بحلوان ، ثم سألت أهل المحطة عن أقرب طريق إلى حلوان «حتى لا أضطر إلى الذهاب إلى القاهرة» فوصفوا لى طريق بلدة « العياط » وأن أعبر النيل منها إلى بلدة الصف ثم أركب سيارة الأتوبيس إلى حلوان ،

ذهبت إلى المحطة وشحنت السلة

أصبحت حراً مستقلا

فسافرت . ولما بحثت فى العياط عن وسيلة لعبور النيل اتضح لى أن ذلك ليس بهين وكان الوقت قد أخذ بضيق ، فأبرقت إلى الدكتور خورى بأن ينتظرنى بحلوان إلى بعد العصر ، ومر قطار بمحطة العياط متجها إلى مصر فركبته إلى البدرشين ، وهى بلدة مقابلة لحلوان يفصل النيل بينهما ، فمشيت نصف ساعة إلى أن وصلت ضفة النهر ، فوجدت كومة من الخشب الملفق وهم يطلقون عليها اسم « سفينة » وقالوا إنها المعدية التى يجتاز الناس فيها النيل إلى حلوان . فاندسست بين من كان فيها من فلاحين وصيادين وحمير وغنم وأقفاص دجاج وعبرنا النيل ...

إنقاذ النعجة

ولما وصلت المعدية إلى ساحل حلوان لم يكن هناك مرسى ولا أسلكة ولا شاطىء يمكن الركون إليه ، فأخذ صاحب السفينة يحمل مشحوناتها على كتفه ويوصلها إلى البر ، فسقطت منه نعجة فضج أهلها ، ولكنها أنقذت ، ثم حمل البحار رجلا من الركاب فوقع فى الوحل

فلم يضج من أجله أحد ، ولما جاء دورى هلع قلبي لأنى تصورت نفسى أقع عن كتفه ثم أخرج من الماء مبللا مبهدلا وأنا لا أملك من الملابس مايستر حالى سوى التى علىّ ولكن المولى لم يشأ تعذيبى بأكثر مما أنا فيه ...»

ومشيت إلى المدينة فإذا بالمسافة أطول مما تصورت ، كما أن الرحلة من بنى سويف إلى حلوان كانت أضعاف ماقدرت. وانطلق مدفع الإفطار فى حلوان وأنا أسير فى أرض رملية واسعة فأشعلت سيجارة ، ثم خلعت الجبة وألقيتها على كتفى فإذا أنا أشبه ما أكون بالنجارين أو سماسرة مواد البناء ... وفى الحقيقة أن مظهرى قد تغير تماماً ، ولو رآنى بعد ذلك رفاق السفينة الذين كنت معهم منذ لحظة لما عرفونى ، حتى ان سدنة كنيسة حلوان الأروام لم يلحظوا لما وصلت هذه المرة إننى الشيخ الذى كان عندهم من أيام ! وصعدت إلى دار الدكتور خورى فاستقبلتنى والدته الطيبة بالترحيب وقدمت لى طعاماً فأكلت . وقالت لى إن الدكتور انتظرك كثيراً ثم ذهب إلى عيادته فى القاهرة وأنه ينتظر إشارتك . فودعتها شاكرا وقصدت إلى محطة حلوان فكلمت الدكتور بالتلفون وقلت له إننى قادم إلى القاهرة وإنى أنتظره فى قهوة « العشرة جنيه » ! أى قهوة « بار العاصمة » بالفجالة التى تقابلنا فيها منذ أيام وأطلقنا عليها ذلك الإسم . وقد جلست على رصيف القهوة مستفيدا من حالة الإظلام العام فى القاهرة .

أخبار جديدة فى مصر الجديدة

وجاء الدكتور خورى وأخذ يتصفح الوجوه فلم يعثر علىّ ، ذلك أننى كنت فى الصورة التى كنت عليها فى حلوان منذ ساعات ، وكان هو يبحث عن كشيخ معمم ولكنه لم ير العمامة ! فضحكت فى نفسى وناديته فسلم علىّ بلهفة واطمأن . ومن هناك قصدنا إلى مصر الجديدة فشارع الأهرام حيث يقطن الدكتور مصطفى بك بشناق فى المنزل رقم ٢١ فجعلت الدكتور يصعد وحده لأخذ آخر الأخبار . وأما أنا فقد جلست على دكة البواب البربرى على رصيف الشارع، فلا يظن المار من هناك إلا أننى أحد زوار بواب العمارة ...

الدكتور مصطفى بك البشناق يشير بيديه للدكتور خورى وينصح الابتعاد

وبعد قليل رجع الدكتور وانطلق إلى الشارع المقابل ومشى قليلا فلحقت به وبعد خطوات انضممت إليه ومشينا معا، فأخذ يقول :

إن الدكتور يوصي بالابتعاد عنه فترة من الزمن لأن حوادث الأسبوع الماضي العنيفة جعلت زبانية الشرطة يراقبونه أكثر من الأول، وأما أخبار قرينتي فتتلخص في أنها لما وصلت أراضي فلسطين تركها رجال الشرطة وعادوا إلى مصر، فركبت سيارة من محطة اللد إلى مدينة يافا ونزلت في بيت شقيق الأكبر ففرح بها هو وأهل بيته وصارت تلقى من الإكرام عنده وعند شقيق الآخر بنابلس وأبناء عمي ما أنساها بعض ما لقيت من الجلادين .

السفر من القاهرة

ثم ركبنا قطار المترو الكهربائي إلى محطة القاهرة فمشى معي الدكتور خوري إلى المدخل الخلفي للمحطة واشترى لي تذكرة سفر إلى طنطا ، ثم جلسنا في القهوة البلدية الملحقة بقسم الدرجة الثالثة للمحطة وقد ذكرها ومعه رسمها . ولما دقت الساعة الحادية عشرة ليلا ودعت الدكتور ودخلت المحطة واندسست بين مئات الفلاحين والصعايدة الذين يلقون في أسفارهم أشد العذاب لقذارة المركبات وقلة أماكن الجلوس ، مع أنهم هم الذين يدفعون للدولة نفقاتها ونفقات سككها الحديدية ، وأما كبار الموظفين والمحاسيب فيركبون الدرجة الأولى وعربات النوم مجانا على حساب هؤلاء المعذبين ، الذين أصبحت من جملتهم ...

وصلت مدينة طنطا بعد منتصف الليل بساعتين فرميت الطربوش وأخرجت أدوات المشيخة فلبست العمامة ووضعت الشال على كتفي ، فرجعت شيخاً ، ثم بحثت عن مكان أبيت

ورجعت شيخاً كما كنت

فيه وعن طعام لسحوري فوجدت بائع طعمية وسلطة فأكلت ويممت وجهي نحو فندق الأقصر المعهود! لأني اعتدت عليه، وقد سجلت اسمي فيه « إبراهيم البسيوني المحامي الشرعي بالجيزة » أي نفس الاسم ونفس اللقب وذات المهنة!

وفي الصباح المبكر غادرت الفندق وأخذت أتجول في الحارات كاليهودي التائه إلى ما بعد الظهر ثم فطنت إلى مسألة، وذلك أن الدكتور خوري كان قد أخبرني أن « فلانا » سيسافر اليوم إلى بيروت، فذهبت إلى مكتب التلغراف وأبرقت للدكتور بأن يوصي « الدكتور » فلان ـ وما هو بدكتور ـ بأن يمر بصيدا لعيادة أقارب المعلم زكي ـ أي قريبتي ـ وأن يصف لهم حالتي الصحية ويطمئنهم ويطمئن المعلم زكي عند وصوله إليهم بالسلامة، وكان الإمضاء هو هو «إبراهيم البسيوني» .. وقد مر التلغراف على الرقابة كالمعتاد، ولم تشك فيه مطلقا. أما لو اشتبهت به وأمسكت الشرطة السرية الإنكليزية أو الجستابو بالدكتور خوري وسألوه من هو البسيوني ومن هو المعلم زكي فما أظنه يستطيع لهذا التلغراف تفسيراً. فشعرت بأني أخطأت بإرسال البرقية وعاهدت نفسي على عدم العودة إلى مثلها.

وبعد ذلك سافرت إلى المنصورة ولكني لم أذهب إليها رأساً، بل قصدت أولا مدينة طلخا وهي أمام المنصورة تماماً ولا يفصل بينهما إلا النيل، فاتصلت بأحمد حسن بدر بالتليفون وطلبت منه أن يستقبل عميله في المحطة، ولا عميل هناك ولا محطة، ولكنه اصطلاح قديم

بيننا وأما المحطة التى أعنيها فهى إطلال محطة المنصورة القديمة التى كانت بجوار طلخا على البر الغربى قبل أربعين سنة تقريبا ، وقبل بناء جسر المنصورة . ولن يخطر على بال متلصصى السلطة أن المحطة التى يعنيها المتكلم هى تلك المعالم والأنقاض ...

إلى العش القديم

وقابلت أحمد افندى فى المكان المعين فسألته هل من حوادث مريبة ؟ فقال كلا . وذهبنا بعد الظلام إلى المنزل ، وقد أعيدت الأمتعة إليه ، فحدثته عما لقيت ثم استدعيت الأستاذ باكثير فأكملت السهرة معهما ...

وشاع الخبر فى الحارة إن « الشيخ محمد المغربى » قد رجع من اسكندرية ! وأنه سيستقدم عائلته ، وأنه سيفتح دكانا ، فأعجبتنى هذه الإشاعة وأخذت أعززها بالطواف مع أحمد حسن بدر فى الحارات المجاورة لنساوم على استئجار دكاكين ، فتارة تعجبنا دكان ثم نتركها بحجة أن أجرتها غالية ، وتارة نترك أخرى لأنها غير مناسبة . فساعدنا ذلك التظاهر بأخذ الدكان على إقناع بقية الجيران بأن حالة الشيخ محمد طبيعية . أليس أن السيد عبد المجيد سالم قد شهد لى قبل ذلك بأننى تاجر « بطانيات » فى الإسكندرية وأنه اشترى منى مقداراً منها ؟

التصوير

وخطر لى أن أرسم نفسى وأنا فى ذلك الزى والسحنة الغريبة فقصدت إلى محل جورج جبريل بشارع السكة الجديدة وتصورت ثم زرته بعد مدة وتصورت مرة أخرى فى شكل آخر ثم فى شكل آخر . فظن الرجل أننى شيخ ممسوس... فقال له مساعده إنه يستنتج أننى ممثل تياترو ...

حكمدار بوليس المنصورة

وتوفى نجل أحد أقارب أحمد حسن بدر وكان لابد « للشيخ محمد » من حضور المأتم وإلا حصل عتاب وملام . وكان المتوفى ابن لعباس عقل فذهبت إلى دار الفقيد وجلست فى الصالون بين المعزين وكان ممن حضروا المأتم حكمدار بوليس المنصورة وأركان الحكومة فلما

رأيت رجل الشرطة الكبير استسنحت فرصة وتسللت منصرفاً ...

وأقام السيد أحمد جودة نقيب الأشراف حفلة الذكرى السنوية لحرمه، وكان لابد «للشيخ محمد» من حضورها لحضرتها . وكان لابد من إطالة الجلوس عنده فاغتنمت فرصة مجيء دفعة من الناس فانتقلت إلى الشرفة ، وبذلك تمكنت من المكوث إلى آخر السهرة بدون أن أخشى أية مباغتة .

ملاحظات وأخبار ومشاهدات

— بلغنى أن الحكومة تضايق عزيز باشا المصرى وأنه قد مرض فى السجن ونقلوه إلى مستشفى الدمرداش ووضعوه فى نفس الغرفة التى كنت أنا فيها !

— قرأت فى رحلة ابن بطوطة أنه لما زار مصر استغرب وجود الناس فى الحمامات العامة عرايا بدون تستر ، وأنه شكى ذلك للملك الظاهر برقوق ، فأمر الملك بأن يستتر الناس فى الحمامات . وكنت لما قدمت مصر لأول مرة قبل ثلث قرن ودخلت الحمام العمومى لحظت هذه الحالة فاستنكفت عن الاستحمام وانصرفت ، ولم أدخل هذه الحمامات بعد ذلك ، فيظهر أن إهمال أوامر الحكومة عندنا شيء قديم ، ومنذ القرون الوسطى !

— رأيت بائع موز فسألت عن الثمن فإذا بالبائع يطبطب على كتفى ويصرفنى قائلا : « إمشى ياسيدنا الشيخ فهذا الموز لاينفعك » ... ولما انصرفت سمعته يقول لجاره « ماأوقح هؤلاء المشايخ الذين يتهجمون على الفاكهة الغالية ، الله يقلل من عددهم ! » .

— كنت مرة أسير فى شارع البحر فى المنصورة فلمحت صديقى محمود بك أبو الفتح صاحب جريدة المصرى جالساً فى شرفة فندق وندسور ، فكدت أحييه وأجلس معه قليلا، ولكنى عدلت عن الظهور لأن ذلك أحزم وأسلم عاقبة . إذ لا أضمن أن يكون معه رفقاء فيباغتوننى معه .

— كلفت أحمد حسن بدر بأن يستعير لى من مكتبة البلدية كتاب « الاستقصاء فى أخبار المغرب الأقصى » فأحضره .

— لحظت أن الذين نجلس معهم بالقهوة يستغربون نفاسة السجاير التى أدخنها ونخامة

العلبة التي أحملها ففهمت أنها غلطةمني تلفت النظر، فصرت أشترى سجائرى من دكان بعيدة ثم أخرجها من العلبة وأخفيها منفردة فى عبى ، فكلما أردت التدخين أمد يدى إلى عبى وأخرج سيجارة واحدة فيظن الذى رآنى أنى لا أملك سواها .

— أغلق رئيس الوزراء ٢٠٠٠ مطبعة فى القاهرة بسبب ظهور منشورات ضد الإنكليز، فجاع بسبب إغلاق هذه المطابع حوالى خمسين ألف عامل .

— قرات فى أخبار مشاهير الهاربين من الدول ما رواه ابرهيم بن عبد الله بن الحسن من آل البيت وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى قدهدر دمه ، فهرب وحط رحاله فى الموصل فزارها الخليفة وأقام فيها مأدبة عظيمة للناس ، قال ابراهيم : فدخلت مع الناس وأكلت ثم انصرفت بدون أن يعرفنى أحد . وهى جسارة من هذا الهارب لا مثيل لها .

— قرأت لأبى الصلت أمية بن العزيز الأندلسى هذا البيت .

تفكر فى نقصان مالك دائماً   وتغفل عن نقصان جسمك فى العمر

فتمنيت لو عاصرت هذا الشاعر لأقول له والله إن العمر ما عاد يهمنى طوله ، بل صرت أتمنى قصره ، وإنى لا أفكر وأنا فى هذه الحالة إلا فى نقصان المال الذى فى جيبى والخوف من نفاده والاحتياج إلى الناس !

— لا يزال الإنكليز يتواضعون للأمم والشعوب لشدة ماهم فيه من انكسارات متوالية فى الحرب ويتذللون للناس فتذكرت بيتين لابن الرومى فى قوم من هذا النوع :

خنازير ناموا عن المكرمات   فأيقظهم قدر لم ينم
فيا قبحهم فى الذى خولوا   ويا حسنهم فى زوال النعم !

لأنهم إن انتصروا فى هذه الحرب الثانية والعياذ بالله فسيكونون أفظع وأشره مما كانوا قبلها .

— كنت مرة فى السينما مع الأستاذ باكثير فغمزنى بيده ، ثم ألقى فى أذنى أن جنديا انكليزيا يجلس خلفنا مباشرة ، فقلت له إننى لا أخشى منه شراً لأنه لن يعرفنى ، ولكن الخوف هو من الجواسيس المسلمين ...

شبهة واضطراب

انتبهت إلى ثرثرة تدور حولى فى الحارة من شخص عاطل حشاش يكتب عرضحالات ويقول إننى جاسوس ألمانى ! فاضطربت وكدت أجن، لأن هذه الكلمة وحدها لو وصلت إلى أصغر مخبر للبوليس لكانت كافية لهلاكى . فحترت كثيراً فى كيفية إلجام لسان هذا الأحمق ، فاستشرت أحمد حسن بدر فاحتار مثلى ، وأخيرا فتقت لى الحيلة أن أقنعه بطريقة عملية بأننى من أبعد الناس عن هذه الصفة . فكلفت أحمد بأن يستدعيه إلى القهوة التى نجلس فيها . فلما حضر قلت له : بلغنى أنك تشتغل فى المحاماة ، فأحب أن أستشيرك . فأظهر استعداده لخدمتى وقدرته على مساعدتى . فذكرت له إن الحكومة صرفت تعويضات للذين نكبوا بحوادث ضرب الإسكندرية بطيارات الأعداء فكيف السبيل إلى الحصول على حقوق بعدأن فقدت فى الغارات دكانى ومافيها ومسكنى الذى يقع فوقها فى حى الميدان، فقال سأكتب لك عريضة للحاكم العسكرى العام حسب الأصول وأجعلها مؤثرة . فقلت له: هل أنت مستعد لأن تذهب معى للاسكندرية لمواصلة السعى إن أهملوا طلبنا ؟ فقال طبعا وإلا فكيف أكون من أهل القانون والقضاء !

ثم تناول ورقة وكتب باسمى عريضة سقيمة الإنشاء كثيرة الغلط فى الإملاء والصرف والنحو ، فأمضيتها بعد أن ألصقنا عليها ورقة « دمغة » بنصف قرش، وبعد ذلك مددت يدى إلى عبى وأخرجت قطعة نقود بخمسة قروش ففحصتها بعناية كما يفحص البخيل دراهمه ، ثم ناولتها « لعوض » وقلت له هذا مقدم الأتعاب ، وعند ظهور أية نتيجة سأقدم لك الباق. ثم افترقنا بعد أن وضعت العريضة فى عبى ...

بهذه الطريقة أقنعت هذا الشقشاق بأنى منكوب قادم من الإسكندرية وأنه لا صحة لكل ما كان يتصوره عنى ..

أكتب هذا بعد عشر سنين ، وقد أخرجت العريضة التى نحن بصددها من محفوظاتى ووضعتها أمامى فضحكت من سخافتها وكدت أنشرها فى هذا الكتاب مصورة بالزنكغراف لتكون فكاهة الفكاهات ، ويكفى أن يعرف القارىء أن مطلعها كان هكذا حرفياً .

« حضرت صاحب الدولت رئيس وزارة الحكومة وحكامها العسكرى » .

وقد جاء فى خلال العريضة ما نصه « ويقتضى الآن شملى برعاية دولتكم وصدور أمر دولتكم لأولو الأمور بصرف التعويضات لتصليح حياتى الداخلية وإعادة أحوالى ولا يخفى على دولتكم اننى بلا مأوى أصفر اليدين » الخ .

لقد أصبح « كاتب العرضحالات » بعد ذلك من أكبر المدافعين عن سمعتى فى الحارة، وكان يحدث المتشككين بلهجة الخبير المطلع بأننى لست كما يظن البعض ، فهدأت الحالة من هذه الناحية ، وقد صدق ! أليس انه كاتب العريضة البليغة وقابض القروش الخمسة ...

والغريب أن كاتب العرائض صار كلما قرأ فى الصحف أن الحكومة ستصرف تعويضات للمنكوبين يظن أن ذلك بفضل عريضته فيجىء يبشرنى بقرب الفرج، فلما تكرر ذلك منه خفت أن يخترع لنا مشكلة جديدة فاستكتبته عريضة للاستعجال ففعل، فنقدته خمسة قروش أخرى ، فازداد يقينه بحقيقة حالى ...

قوة المظلوم

قرأت فى التاريخ الأندلسى أن الملك المنصور بن أبى عامر أحد أفذاذ ملوك الأندلس قد حبس خادماً غضب عليه ، وفى أحد الأيام سأل عمن طال حبسهم فأطلقهم إلا ذلك الخادم وقال يجب أن يبقى فى السجن إلى أن يلحق بجهنم ! فبلغ الخادم ذلك الإصرار فدعا على الملك المنصور واستعان عليه بالله .

وبعد أيام أخذ الملك يشعر بأرق لا يكف عنه ، وكان يرى فى المنام شبحاً كريهاً يأمره بعنف بإطلاق الخادم ويتوعده . ولما تكرر ذلك طلب المنصور ورقة وكتب وهو فى الفراش بإطلاق الخادم قائلا : « هذا طليق الله برغم أنف ابن أبى عامر » .

وقد ذكرنى ذلك بمحمدى محبوب باشا ورئيسه الأكبر فقد كانا يقولان عنى للناس إننى محبوس برغم أنفيهما وبأمر الإنكليز ، ولكنهما نكلا بى وبأهل بيتى وأوصلونا إلى حال أشد من جهنم، فهل الذى يغضب عليه الإنكليز يجب أن يحقد عليه أعوانهم أكثر من حقد الإنكليز ؟

إستقرار

حياة هادئة وخواطر

— بلغنى من أخبار القاهرة أن الأستاذ أحمد حسين وقع فى يد الشرطة وأنهم قبضوا عليه فى طنطا بسبب غلطة من أصدق الناس إليه، فقد تعقبوا الأستاذ ابراهيم الزيادى المحامى ليلاً ونهاراً ، لأنه من أركان حرب مصر الفتاة، إلى أن رأوه يتنكر ويسافر إلى طنطا فلحقوا به فلما دخل الدار التى يسكنها الأستاذ أحمد حسين دهموها وقبضوا على الاثنين ...

آه ، لقد قبضوا على جميع الهاربين إلا أنا ، فهل أقع أيضا فى قبضتهم !

— كلفت الأستاذ على با كثير أن يستعير لى كتاب نفح الطيب من مكتبة البلدية فكان لى خير سلوى . ومن طرائف ما قرأت فيه حكاية عن وضع بطاقات الزيارة فى الأعياد والمناسبات السياسية بأبواب الأصدقاء، والانصراف بدون زيارة ، كما هو الحال الآن ، فاتضح لى أن الأندلسيين قدسبقونا وسبقوا الأجانب فى هذه الأساليب بألف سنة ، وكنا نظنها طريقة أوربية . فقد قال شاعر الأندلس يعاتب صديقاً على وضعه بطاقة الزيارة بباب الدار :

يازائراً زار وما زارا — كأنه مقتبس نارا
مر بباب الدار مستعجلاً — ماضره لو دخل الدارا
نفسى فداء لك من زائر — مازار حتى قيل قدسارا !

وبمناسبة البطاقات أقول إننى لما طبعت بطاقتى فى المنصورة عرفت صاحب المطبعة ، فقد كان عاملاً عندى بمطبعة الشورى بالقاهرة قبل ذلك بعشر سنين ولكنه لم يعرفنى ...

— اشتدت الحرب ، وبزحف الألمان على موسكو بجحافل كثيفة ، ويرقب العالم هذه المعركة العظيمة التى ستقرر مصير الدنيا بكل تلهف ، فهل تسقط موسكو وتشهد هذا الانقلاب العالمى ؟..

زائر

كنت جالسا فى غرفتى فإذا بحركة عند الباب فأصغيت فسمعت كأن يدا تحس على باب الشقة وكان الباب يهتز ، فقمت وفتحت فإذا بقط أبيض ضخم قددخل كأنه إنسان يدخل داره بدون أن يظهر على ذلك القط أنه يدخل الدار لأول مرة . فأغلقت الباب خلفه وتأملته فإذا

هو قط عجوز أهتم ووجهه « مخرشم » ! والظاهر أنه خارج الآن من معركة مع أبناء جنسه! وبعد ذلك رأيت القط يطوف الدار كأنه يستطلع حالها ويتفقدها، ثم وقف أمامي وأخذ يموء كمن يطلب طعاماً ، فأعطيته قطعة من الخبز فأكلها بصعوبة ثم مال على صحن فيه قشور «شمامة» فبرك أمامها وأخذ يأكلها بشره ! وهي أول مرة في حياتي أرى فيها قطاً يأكل « الشمام » وبعد أن شبع انبطح على الأرض وأخذ يلحس جسمه ، وبعد قليل التف حول نفسه ونام مطمئناً . وبعد ساعات نهض ووقف عند الباب وأخذ يموء ففتحت له فانصرف !

لقد ظل هـذا القط يزورني من حين إلى آخر طول مدة إقامتي في المنصورة ، فكنت أستأنس به لما رأيت اطمئنانه لي ! فلم أشك في أن هذا القط قد ولد وعاش في هذه الدار ، فهي وطنه إذن ...

ومما يذكر عن هذا القط أنه ذكي نبيه ، لا يزورني إلا في أوقات الطعام ، فكلما جلست للأكل سمعته يموء وراء الباب ، فإن أبطأت عليه استعمل أظافره في «خربشة» الباب وهزه إلى أن أفتح له !

ولكن هذه العادة لم تعجبني كثيراً ، لأني لو أردت لسبب ما أن أنكر نفسي وأصم أذني عن طرق الناس للباب ثم جاء هذا القط وألح في الدخول فهو يفضحني ويكذبني ! لأن حركته تؤذن بوجودي في الدار فماذا أصنع ؟ لاشيء ولذلك سكت، ولا بد مما ليس منه بد! وزارني أحمد بدر يوماً فوجد القط عندي، فلما رآه ناداه باسم «فريد» فإذا به يهرع إليه ويتمسح به

إذن فهو يسمى « فريد » عاشت الأسماء ... وقد أخبرني أحمد بدر أن هذا القط معمر ويقرب عمره من عشرين سنة وأنه أشقى قطط الحارة ...

تأملات ونظرة في حالة الشرق الأقصى

إذا نظر الباحث السياسي إلى خارطة الشرق الأقصى تأخذه الدهشة من ظاهرة مهينة للشرق كله ، وقاتلة لليابان زعيمة هذا الشرق . وذلك أن انكلترا تحكم هناك اللابو وبرما وهونكنغ وبورنيو الشمالية وبعض الجزر وشنغاي وجزر فيجي وسلومون وفنكس وساموا واستراليا ونيوزيلاند ونصف غينيا الجديدة وجزر كوك الخ . وتحكم أمريكا جزر هاواي وبورتوريكو

وميدواى و كوبا وويك وجوام والفيلبين. وتحكم فرنسا الهند الصينية وهاينان وجزر توامونو وكارولين وتاهيتي ومارشال وهيريد الخ. وروسيا تحكم جزر الوشيان ونصف سخالين وكامتشتكا وتحكم هولندا جزر الهند الشرقية «جاوة» أو اندونسيا وبورنيو وسومترا و كوراسو . وتحكم البرتغال جزر تيمور الخ وهكذا . فهذه الدول الطفيلية الكبيرة منها والحقيرة تأتى من كل أنحاء العالم لتستعبد ذلك الشرق فتسلب وتسرق وتقتل وتذبح، بينما اليابان كلما أرادت امتلاك قطعة من ذلك الشرق الفسيح لتوسع على شعبها المزدحم الذى تغص به جزرها الضيقة، قامت الدول الطفيلية فى أوربا صائحة : هذا اعتداء ، هذه شراهة، هذا طمع بأملاك الغير ! فما أشبه موقف اليابان فى الشرق وتضييق الدول الاستعمارية عليها ، بموقف ألمانيا بأوربا وتضييق دول الاستعمار عليها. وهنا لم يسع اليابان إلا امتشاق المدافع لطرد هؤلاء الطفيليين من الشرق الأقصى لتنظيفه منهم ...

نقلت ما تقدم عن ورقة كتبتها يوم كانت أعلام اليابان تظلل شرق آسيا بعد تطهيرها من رجس الاستعمار ، فأحببت إثباته كما هو ، لأنه من وحى تلك الأيام ، وما كان يختلج فى صدورنا من آمال خابت ، وأحلام تحولت إلى أضغاث ! لأن هذا التحرير الذى رأيناه لآسيا وجزر المحيط لم يتم مع الأسف ، فاليابان قد انكسرت فى نهاية الأمر ، وعادت تلك الأقطار المحررة إلى ربقة الاستعمار ، بل إن اليابان نفسها أصبحت بعد ذلك بأربع سنين تحت كلكل الاستعمار، فواأسفاه ، لقد انقطع الأمل وسيرسف العالم تحت أقدام المستعمرين دهوراً طويلة.

وجه فرنسا من جديد

إننى وأنا أسطر هذا الفصل فى آخر سنة ١٩٥٠ أرى فرنسا قد بعثت من جديد ، وقد ظهرت فرنسا الجديدة بوجهها الكريه أشد استعمارية مما كانت قبل الحرب وأكثر وقاحة. وها هى من ديسمبر سنة ١٩٤٦ إلى الآن وهى ترسل فلول جنودها وبقايا طياراتها إلى الهند الصينية وتضربها بالمهلكات بحجة تمدينها وإذاقتها طعم الحضارة الغربية التى ذاقها السوريون والمغاربة وعرفوها ، لاسيا فى سنة ١٩٤٥ لما ضربت مدينة دمشق مرة أخرى ، وذبحت فى خراطة وسطيف وقالمة فى الجزائر ثمانين ألف نسمة .

والغرض من هذا التمدين أن تظل فرنسا تتحكم بالخلق مثل أستاذتها انجلترا ومثل أستاذة الجميع هولندا ، التى هى أقدم الدول الأوربية فى الاستعمار ، وحسبك أن تعرف أنها حكمت أندونسيا نحو ٣٥٠ عاما أو أكثر قليلا . إن اللصوص والأشقياء وقطاع الطرق يتربصون للناس فى الزوايا والأوكار ويتسلقون الدور فى الظلام ، فإن أمسكت بهم اعترفوا بأنهم لصوص وطرارين احترفوا هـذه المهنة لأنها مهنتهم التى يعيشون منها . وأما الدول الأوربية المتمدنة المتحضرة التى تمن على عباد الله بوجودها ولا تعرف ربها إلا فى أيام هجوم الألمـان عليها ويدوسونها بنعالهم ... إن هذه الدول المتمدنة لا تستحى عندما تقطع البحار والقارات النائية للاعتداء على الشعوب وسرقة أوطان الناس وسلبهم ونهب أموالهم وتقتيلهم . فإن سألت هذه الدول عن الموجب لأفاعيلها أجابتك بأنف شامخ ووجه صلد « بأنها تمدن هذه الشعوب وتحافظ عليها من الغير ومن بعض أهلها أيضاً حتى لا يذبح بعضهم بعضاً » ... ثم تأخذ مال الأمة الفلانية لتضرب به الأمة الفلانية ، وتجند رجال هـذه لتخضع بهم أمة أخرى ، ثم تعبىء أولئك وهؤلاء لتضرب بهم الألمان !

هذه هى أساليب دول الاستعمار الإجرامية، وهى لا تزال تكررها الآن كما كانت ترتكبها فى القرن الماضى بدون خجل ، ناسية أننا فى منتصف القرن العشرين .

ولكنى على كل حال أرجع وأردد المثل الدارج وهو أن الحق « ليس على الذى زرع السطح بل على الذى أعطى البذار » ...

فلو أن هـذه الأمم العربية والإسلامية والبرهمية والبوذية أحست على الأقل بأنها من الجنس الآدمى أو أنها أرق من المواشى لما احتاجت للتخلص من الاستعمار إلى أكثر من استعمال الأيدى والعصى والأحذية ...

أخبار وملاحظات

قرأت أن الجنرال فيجان القائد الفرنسى الاستعمارى الشهير قد خطب فى جموع من جنود المغرب العربى يتملقهم ويخدعهم ثم ختم خطبته لسخافة عقله بأن أمر فرقة الموسيقى بعزف نشيد المرسيليز الفرنساوى ... فلو كان هذا الأرعن على شىء من الذوق لما أسمعهم ذلك

النشيد المنكر الذى يؤذى شعورهم أو لو كان عنده ذرة من الدهاء لأمر أحد القراء بإسماعهم سورة من القرآن ليكمل الخديعة كما يصنع أساتذته الإنكليز فى مثل هذه المناسبات !

وبهذه المناسبة أقول إننى سمعت فى الراديو خطبة لإمام دينى فى الجيش المصرى يحدث الجنود عن بطولة جيش اليونان وجهاد الأمة اليونانية وإخلاصها لقضية الحلفاء أخزاه الله .

— يصدع ابراهيم عبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد وسعيد باشا لطفى آذان الناس بخطبهم ومحاضراتهم فى الراديو مدحاً فى الإنكليز وطعناً بالألمان ، وسرد محاسن الإنكليز ... وكانوا يقبضون أجرة باهظة لقاء هذه الدعاية للاستعمار ، فياويلهم من أمتهم التى يخدعونها من أجل المال .

وقد حدث بعد ذلك حادث يجب أن يسجل ، وهو أنه لما انهزم الإنكليز فى « العلمين » وسمع عباس العقاد بأن الألمان سيدخلون القاهرة بعد أيام ، فر إلى السودان ...

ومما يحسن تخليده أيضا أن العقاد نصح صنوه المازنى بأن يهرب معه فأبى ، فقال له العقاد إن الألمان سينكلون بنا ، فقال المازنى بل ينكلون بك أنت ، وأما أنا فسوف أجعل محاضراتى فى الراديو لحساب الألمان ، وبذلك أستريح وأظل فى بلدى ...

هذا طرف من أخلاق بعض المشهورين من الناس فياللأسف ويا لضيعة الأخلاق .

— كان الجنرال كاترو قد وعد السوريين واللبنانيين بالجلاء عن بلادهم إن ساعدوا الحلفاء فإذا بالمستر إيدن وزير خارجية بريطانيا ينكر تلك الوعود ويتنصل منها ، فى حين أن السفير البريطانى بمصر هو الذى كفل كاترو وأفضى بتصريح مكتوب ، وقد أذاعته الحكومة البريطانية رسمياً .

— سألنى جارنا فى الحارة « زكى الحرون » تاجر الجبنة والمخلل : لماذا لاتشتغل ياشيخ محمد ؟ فقلت له إننى أسعى للحصول على رخصة من إدارة التموين لبيع الدقيق ، ثم طلبت منه المساعدة فى ذلك وإرشادى إلى دكان فى جهة مناسبة فوعدنى بذلك ...

— أنا متضجر متبرم من حياة الوحدة والانفراد ، فذكرنى فى ذلك بحكاية قسمونة اليهودية الأندلسية بنت اسماعيل اليهودى الأديب الشاعر ، فقد طال انتظارها لشريك حياتها

المرجو ، ولكن لم يخطبها أحد ، وكان عندها غزالة ترتع وحدها فى الحديقة بدون أليف فقالت قسمونة :

ياظبية ترعى بروض دائماً　　إنى حكيتك فى التوحش والحور
أمسى كلانا مفرداً عن صاحب　　فلنصطبر أبداً على حكم القدر

فسمعها والدها إسماعيل فجاء وقبل رأسها قائلاً : وحياة العشر كلمات لأنت أشعر منى ثم سعى لتزويجها وزوجها .

— لاتزال محاكمة عزيز على باشا المصرى دائرة أمام المحكمة العسكرية فوقف أمام الاتهام وقفة بطولة وصراحة وأخذ يسرد فضائح الإنكليز وسوء تصرفهم فى الجيش المصرى ودسائسهم على مصر ، فحسدت الباشا لأنه حوكم واستطاع الكلام ، فكم كنت أتمنى لو حوكمت فأفضح الإنكليز أشنع فضيحة .

— قررت بلدية ماردين فى تركيا معاقبة كل من يتكلم اللغة العربية بغرامة ٥٠ قرشا وفى المرة الثانية بمثة وفى الثالثة بالحبس ... ولكن لماذا كل هذه العداوة من الكماليين للغة العربية ، لغة دينهم ومدنيتهم ، والتى نقلتهم من مرتبة القبائل إلى مرتبة البشر ؟ وهل يعاقبون من يتكلم باليونانية أو الروسية أو الإنكليزية ؟ كلا ، بل إنهم يعلمون أولادهم فى المدارس لغات الأجانب جميعاً لكن بشرط أن لا تكون العربية بينهما ...

— وردت أخبار من فلسطين أن حالة الدكتور أمين رويحة الصحية قد ساءت كثيراً لسوء معاملة الإنكليز له فى سجنه ، وأنه لايزال مريضاً وأن حالته خطيرة لطف الله به ، هذا وقد بلغنى أن طه باشا الهاشمى الوزير العراقى الشهير والموجود فى تركيا كلاجىء سياسى أخذ يرسل إلى أسرة الدكتور أمين بمصر مرتبا من ماله برغم ظروفه الحرجة وهذا منتهى المروءة .

— قرأت فى الجرائد أن انكلترا قد أرغمت حكومة اليمن على طرد جميع رعايا المحور من بلادها فطردتهم ، ثم أنذرت حكومة الأفغان بمثل ذلك فصدعت . ثم أرسلت قوة بحرية إلى ميناء جدة وطلبت من الحكومة السعودية تسليم معتمد إيطاليا فسلمته . ثم اجتاحت انكلترا بلاد إيران واستولت عليها وقبضت على الإمبراطور رضا بهلوى ونفته إلى جنوب

أفريقيا « حيث مات هناك بعد ذلك ودفن بمصر » كما أرغمت حكومة إيران على تسليمها عدداً كبيراً من اللاجئين السياسيين من عراقيين وفلسطينيين وسجنتهم في الأهواز ثم أرسلتهم إلى روديسيا بجنوب أفريقيا .

والعجيب أن الإنكليز ظلوا ينشرون بعد هذا العدوان على البلاد الإسلامية أنهم أصدقاء الإسلام وحلفاء المسلمين ، وأعجب من هذا أن المسلمين كانوا ولا يزالون يقبلون هذا الكلام ويصدقونه ![1].

حبيسة

أنقذت من أطفال الحارة قطة رضيعة : وكان الدم يسيل من أنفها ومن ذيلها . فأخذتها إلى مأواى ومسحت جروحها وجرعتها قليلا من اللبن ، فلما شبعت أخذت تلحس نفسها ، ثم لعبت قليلا ، وبعد ذلك نامت ، وجاء القط العجوز « فريد » فلم أفتح له الباب حتى لايبطش بالقطة الجريحة الرضيعة ، ولكن الخبيث أبى أن ينصرف واستمر يهز الباب فقمت وفتحت له فدخل وأخذت أرقب ماذا يصنع مع القطة الصغيرة ، وقد نويت أن أضربه وأطرده إن اعتدى عليها بالأذى . ولكن شيئاً من هذا لم يقع ، لأن « فريد » اقترب منها وأخذ يشمها ثم انصرف إلى ناحية أخرى ، أما القطة فقد نهضت من نومها وشخرت في وجهه وازبهرت ثم تنفجت ونفشت شعرها ورفعت يدها الصغيرة الدقيقة مهددة معربدة ونفخت في وجهه ! نخفت أن يتناولها فريد بهبشة من مخلبه الحاد فيقتلها ، ولكنه تظاهر بأنه لم ير ولم يسمع، بل تركها مترفعا عنها شاعراً بقوته وضعفها ، فلو كانت قطة كبيرة لمزقها إربا ، ولا سيما إنها تقتحم عرينه وتتطفل على بيته . وأما « فريد » فقد انصرف عنها متثاقلا واختار بقعة مشمسة فاضطجع ونام غير مبال بعربدة الصغيرة. شأن القوى الواثق من نفسه ، وأما الصغيرة فقد لبثت غاضبة بل خائفة تموء وتزمجر مستمدة من الضعف قوة ، شأن الصعلوك وهو يتعاظم ليكمل مركب النقص ...

(١) والأغرب من هذا وذاك أن المسلمين لايزالون ينضمون إلى جانب انجلترا عند كل تصويت يجرى في هيئة الأمم، وبعض المسلمين يعلن حتى الآن سنة ١٩٥١ انحيازه للانكليز وأميركا ضد روسيا ، برغم جناية أميركا وانكلترا على فلسطين ونزعها من أيدينا وطرد أهلها منها وتسليمها لعصابات من أشقياء اليهود ...

فقلت فى نفسى لو أن الأمم الصغيرة تصنع مع الدول المستعمرة ماصنعته هذه القطة الضعيفة مع القط الكبير ما كانت تلك الدول تستطيع البقاء فوق رقابها ، هذا مع العلم بأن القط «فريد» كان فى بيته ووطنه ...

لقد كان لى من رعاية القطة الرضيعة لذة نفسية وسلوى روحية ، أليس أننى فقدت طفلتى « جهاد » وأنا فى السجن ؟ من هنا تسربت الشفقة إلى القطة الصغيرة التى أخذت تكبر وبدأت تفهم، بدون أن تدرى ماهى الدنيا إلا أنها هى وأنا ، وأن العالم كله هو المأوى الذى نحن فيه ، فهى محبوسة مثلى، ولذلك سميتها « حبيسة » فكانت سعيدة بهذا الاسم ، تركض نحوى إن سمعتنى أناديها به . وقد دربتها على الابتعاد عنى إن نمت ، وأن تقفز إلى كتفى إن جلست ، وتقعد عليه وتجعل فمها نحو أذنى تسمعنى هرهرتها وبربرتها ...

ليت الأنام قطاط إن قطتنا | لما ترل لحفاظ الود عنوانا
تحملت قسطها فى السجن صابرة | لم تشك جوعاً ولم تستجد إنسانا

ولم يقع شجار بين حبيسة وفريد مطلقاً ، بل كانا يلعبان معاً ، فتتجنى « حبيسة » على « فريد » كما يتجنى الصغير على الكبير ، كما أن « فريد » كان يلاعبها بصبر كما يداعب الكبير طفله الصغير ...

هذه الغربة

لقد طال عذابى النفسانى والجسمانى من هـذه الحياة المملة المشوبة بالترويع والحذر وتنبه الأعصاب ، خوفاً من مصادفة توقعنى فى أيدى الأعداء . وقد شعرت باشتياق شديد إلى اخوتى وإخواتى فى الوطن القديم ... « فلسطين » وأقاربى وأصدقائى هناك . فياترى لو قدرت لى الحياة وعشت إلى مابعد الحرب وزرت مسقط الرأس، فهل أجد أحداً من أبناء جيلى ، أم اننى أبحث عنهم فلا أجدهم ؟ فيالها من غربة فى هـذه الدنيا أن يفقد الإنسان أبناء جيله أيضاً ، كما أننى اشتقت إلى أصدقائى وعشرائى فى القاهرة الذين قضيت حياتى أنعم بصداقتهم وحبهم وقد وقع نظرى على شعر لأبى الحسن علىّ بن موسى الذى تمم كتاب « المغرب فى أخبار

المغرب » لما زار مصر ونأى عن وطنه ثم عاد إليه بعد زمن فقال :

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى ما بينها وجهاً لمن أدريه
عودي على بدئي ضلالا بينهم حتى كأني من بقايا التيه
ويح الغريب توحشت ألحاظه في عالم ليسوا له بشبيه
إن عاد لي زمني اعترفت بحقه إن التغرب ضاع عمري فيه

وها أنا اليوم أركب الأسنة مرغماً ، وأعيش فى مخبئى بالمنصورة فى غير بيئتى ، وأعاشر من ليسوا على شاكلتى ، وأتزيا بغير زيى ، وأتسمى بغير اسمى ، وأتكلف غير شأنى ، حتى أصبحت أرى حسناً ما ليس بالحسن ...

أخبار مبهمة ومقلقة

أخذت كتاباً من الدكتور مصطفى بك بشناق يقول فيه « إن الطبيب يشير علىّ بالاستراحة أسبوعين بشرط أن أترك دكانى وأسافر إلى مكان آخر لتبديل الهواء ، وإنه هو أيضاً سيتغيب مثل تلك المدة ويطلب أن لا أكتب إليه إلا بعد الأسبوعين » .

هذا كلام صريح بوجوب الفرار من المكمن الذى أنا فيه فلماذا ؟ وإلى أين أذهب ؟ لقد انشغل بالى ، فيا ترى هل هناك من خطر ؟ وأسرعت باستشارة أحمد حسن بدر وباكثير فى الأمر ، ثم تركت المنزل تحت حراستهما وعمدت إلى الفرار من المنصورة ، فزرت بعض أنحاء الوجه البحرى والإسكندرية . وبعد نهاية هذا النفى الجديد رجعت وأخذت أرقب الأخبار من مصر ، لأنه لم يقع عندنا شىء فى غيابى ، وظللت فى قلق ...

— أعلن الإنكليز رسمياً أن لديهم الآن بواخر أكثر مما كان لديهم قبل الحرب بأربعة ملايين طن ، فيا ترى هل زرعوا الأرض فأنبتت سفناً ؟ يالهم من كذابين مضللين !

— اشتدت المجاعة فى القطر المصرى وصرنا نبحث عن الخبز فلا نجده إلا بصعوبة ، وإنه لفظيع من الإنكليز أن يختلسوا مواد الغذاء من مصر فتصبح فى مجاعة وهى من أخصب بلاد الدنيا . وقد غضب جلالة الملك من تقصير الوزارة التى سلمت للإنكليز بكل شىء حتى بالمواد الغذائية ، ولأول مرة فى تاريخ مصر نسمع أن الملك يذهب إلى مجلس الوزراء بغتة

ويرأس الجلسة بنفسه ويصدر الأوامر لتوفير الخبز للشعب .

— احتج تشرشل وروزفلت على فظائع الألمان بفرنسا ، وكم تمنيت أن أسمع احتجاجاً على فظائع من الألمان تنزل بأمريكا وبانجلترا ، وما أجل أن يسمع المظلوم استغاثة الظالمين ممن هو أظلم وأغشم !

— من لطائف المفارقات التى حدثت فى هذه الحرب أن ملك الإنكليز تواضع وتواضع لدرجة أنه أرسل رسالة يهنىء بها الشيخ تاج الدين الذى عينته فرنسا رئيساً لجمهورية سورية كما أنها أول مرة نسمع فيها أن رؤساء الجمهوريات يعينون تعيينا وبقرار من أحد الأجانب ، لأن الخواجه كاترو المندوب الفرنسى هو الذى عين تاج الدين وفرضه على السوريين ! وقد رأيت فى مجلة المصور رسماً كبيراً أخذ فى بيروت لحفلة استقبال أقامتها المطربة أسمهان فى دارها وقد ظهر فيها الشيخ تاج الدين وهو يحمل عمامته فى يده اليسرى ويمسك باليمنى يد اسمهان وينحنى عليها ليقبلها !

من هذا النوع من البشر يفرض علينا الاستعمار بعض الحكام والرؤساء !!

— يكثر الإنكليز من تعيير الألمان بفظائعهم مع اليهود ، بينما انجلترا نفسها أصبحت فى حالة يرثى لها وفى حاجة إلى من يرحمها ، ولكن بالها مع ذلك مشغول على اليهود ... والإنكليز لا يدرون لسوء حظهم وشقوتهم أن كثرة اهتمامهم باليهود يكفى لتنفير العالم الإسلامى منهم وجعله يميل إلى الألمان .

— سيذهب الأمير عبد الله بن الحسين إلى الملك ابن سعود ليتفق معه على منع الألمان من النزول فى البلاد العربية ، هذا بدلا من أن يفكر فى إخراج الإنكليز الموجودين فعلا فى بلاده ...

إن نزول الألمان فى البلاد العربية هو غاية ما نرجوه للتخلص من الإنكليز ، وإن قال قائل : كيف نرجو أن يحل الألمان محل الإنكليز ؟ أقول إننى أفضل أن يجتاح البلاد العربية كل من يستطيع أن يخلصها من الإنكليز ومن الذين يرضون ببقائهم فيها ، حتى ولو جاء الشيطان الرجيم لتخليصنا مادام أن ذلك سيبعد الإنكليز عنا ويفكك حلقة الاستعمار البريطانى

التى تضغط على العالم الإسلامى وتخمد معه أنفاس العالم العربى .

— بكى المارشال بيتان رئيس الدولة الفرنسية الخاضعة للألمان من شدة العقوبات التى أنزلها الحاكم الألمانى بأهل باريس. لقد فرحت لما رأيت هذا المستعمر يستعبد ويشكو ثم يبكى وكم أبكانا هذا الرجل لما كان قبل ربع قرن قائداً للجيش الفرنساوى فى مراكش يوم زحف على الأمير عبد الكريم مجاهد الريف المنتصر على الأسبان، فطعن بيتان الريفيين من الخلف، فكان عمله الفظيع السبب فى ضياع تلك الأمة وإبقائها تحت حكم الأسبان . ثم غدر بيتان بالأمير عبد الكريم لما سلم لفرنسا فنفته إلى جزر ريونيون فى المحيط الهندى .

وكم عزانا وجبر خاطرنا رؤية بيتان وهو يقع فى يد قومه بعد الحرب العظمى الثانية ويحكمون عليه بالخيانة والسجن المؤبد ، وها هو الآن يعانى آلام السجن فى إحدى قلاع فرنسا ، وإن ربك لبالمرصاد .

لهبة سراج وانطواء كلب ...

قضيت ليلة باردة ليلاء ، اشتد فيها الزمهرير وقرس البرد ، ثم انقطع النور الكهربائى، فزادت متاعبى وشقائى ، وأخيراً وجدت بقايا شمعة صغيرة ، فأشعلتها لأستضئ بنورها ، وأستدفئ لفقد الفحم بحرارتها ، وكانت القطة « حبيسة » ترتجف من شدة الصقيع والقر ، فلجأت إلىّ ، ثم دست رأسها فى حضنها ، ولفت ذيلها حول عنقها ، فذكرتنى هذه الحالة التى أنا فيها بليلة مثلها قضاها الأديب الأندلسى أبو عبدالله محمد بن أبى الخصال ، بين سراج وبرد ، وكلب يكاد يتجمد من البرد ، فكتب يصف ليلته إلى صديقه أبى الحسن على بن بسام صاحب كتاب « الذخيرة » فوصف شعلة السراج وشدة البرد وفقد النار وانطواء الكلب من شدة الصقيع وصفاً عجيباً قال: « ... وعذراً أعزك الله ، فإنى خططت ماخططته والنوم مغازل ، والقر منازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صولة الحجاج ، فطوراً تسدده سناناً ، وتارة تحركه لساناً ، وآونة تطويه حبابة ، وأخرى تنشره ذؤابة ، وتقيمه إبرة لهب، وتعطفه برة ذهب أو حمة عقرب ، وتقوسه حاجب فتاة ذات غمزات ، وتسلطه على سليطه ، وتزيله عن خليطه ، وتخلعه نجماً ، وتمده رجماً ، وتسل روحه من ذباله ، وتعيده إلى حاله ،

وربما نصبته أذن جواد ، ومسخته حدق جراد ، ومشقته حروف برق بكفَ ودقٌ ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطافه منديله ، فلا حظ منه للعين، ولا هداية فى الطرس لليدين، والليل زنجى الأديم ، تبرىّ النجوم قد جللنا ساجه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال لِلحظ ، ولا تعارف إلا بلفظ ، لو نظرت إليه الزرقاء ، لا كتحلت ، وأخضبت به الشيبة لما نصلت ، والكلب قد صافح خيشومه ذنبه ، وأنكر البيت وطنبه ، والتوى التواء الحباب ، واستدار استدارة الحباب ، وجلده الجليد ، وصعد أنفاسه الصعيد ، فحماه مباح ، ولا هرير ولا نباح ، والنار كالرحيق أوكالصديق ، كلاهما عنقاء مَغْرِبٌ أو نجم مُغْرِبٌ » اه .

لقد سبق لى أن قرأت هذا الوصف العجيب فى كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب[1] للمراكشى وكان ذلك قبل ثلاثين عاما ، ولكنى لم أفهمه كما فهمته الآن ، ولا قدرته قدره إلا بعد أن عانيت عذاب تلك الليلة السوداء لا أعادها الله ، ولا سقى عهدها ...

السفر للحج

ناديت أحمد بدر وعلى باكثير ودرست معهما طريقة جديدة للنجاة مما أنا فيه ، وهى أن أندس بين ألوف الحجاج وأسافر بصفة حاج ، لأن معاملة السفر للحجاج لها تسهيلات خاصة بأن تعطيهم الحكومة جوازات تخول السفر للحج فقط والعودة منه . وهذه الجوازات تصرف من مراكز المديريات وليس من إدارة الأمن العام ، ولا يحتاج الحصول عليها إلى معاملات معقدة ، فكل مسلم يقدم طلبه ويدفع المصاريف للمديرية يعطى التذاكر وجواز السفر ... إذن فهيا إلى تقديم الطلب ... وجلست مع أحمد بدر فى قهوة « البرنسات » وأرسلنا بطلب شيخ الحارة خضر ، فقال له أحمد بدر: إن سيدنا الشيخ يريد الحج فهل يمكنك أن تساعده؟

(١) كنت وأنا فى السجن الذى هربت منه أعيد قراءة هذا الكتاب الفريد فأعجبت به أكثر من إعجابى به من قبل ، ثم شرعت أدون على أطرافه بعض الهوامش والتصحيحات والتعليقات ، على نية أن أطبعه طبعة أنيقة وافية تليق بقيمته ، ولكن بعد الحرب طبعا ، وبشرط أن أخرج من المحنة سالماً ، ثم خرجت سالماً ، ولكنى شغلت عنه ونسيته .

ودارت الأيام ، فإذا بالأستاذ محمد سعيد العريان ، العالم الأديب المتمكن، يقوم بأحسن مما نويت أن أقوم به نحو كتاب المعجب هذا ، لأن الأستاذ العريان وجد نقصا فيه فبحث ونقب وسهر الليالى حتى أكمل الناقص فيه وأبرزه على أجمل شكل وأبهى طبع. وكان ذلك سنة ١٩٥٠ بمطبعة الحاج مصطفى محمد، رحمه الله

فأجاب بالإيجاب ، ثم أخرج ورقة وأملى علىّ النص الآتى :

« تحريراً بالمنصورة ٥ شوال ١٣٦٠

حضرة صاحب العزة مأمور بندر المنصورة : يتشرف مقدمه محمد السيد ناجى ، حيث انى أرغب تأدية فريضة الحج فى هذا العام فألتمس من عزتكم قبول ملتمسى بالدرجة الثالثة ومستعد لكافة المصاريف وسلفاً أدعو لعزتكم بدوام العز والتأييد. وتفضلوا ياصاحب العزة الخ

كاتبه ومقدمه : محمد السيد ناجى ، بعلك حضرة أحمد حسن بدر افندى .

أظن أن القارئ قد لحظ التغيير الذى أحدثته فى الاسم واللقب !! هذا وقد تكفل شيخ الحارة بالذهاب معى إلى « المديرية » دار الحكومة فذهبنا وقدمنا الطلب إلى « الباشكاتب » المختص بأمور الحج فقيده بدفاتره الرسمية تحت رقم ٤١٤ دورى ١٩/١٠/١٩٤١ ثم سجل نفس الرقم على العريضة ووضعها مع مثيلاتها فى إضبارة الطلبات وطلب منا العودة إليه بعد خمسة أيام لدفع المصاريف . أما استلام التذاكر وجواز السفر فيكون بعد خمسة أيام أخرى ، فشكرناه ووعدناه بالدعاء له فى البيت الحرام ...

أمور وشئون

— كنت أجلس بباب دكان العطار الظريف صاحب النكات الذى قال مرة « إننى خطر على الأمن العام » فإذا بلسانه يجرى بعبارة زادتنى شكا فيه وتصورت إنه صار يفهم شيئاً عن حالى ، وذلك أنه التفت إلىّ يقول « ربنا نجاك ، وحِملك كبير ، فالله يسترها معك » فاندهشت من هذه المصادفة العجيبة .

— لمابدأ موسم البرد سررت به لأنه أراحنى من إلصاق الشمع على رقبتى لإخفاء « حز الياقة » وصرت ألف كوفية حول عنق وأرخى بقيتها على الكتفين والظهر كالشاغ تماماً !

— عانيت أسبوعاً شديداً من وجع أصاب أضراسى وكانت المصيبة أن الأضراس العليا كانت تهيج من الماء البارد ، والأضراس السفلى تتأثر من الماء الساخن ، فكيف العمل ؟ اللهم لا حول ولا ...

وبينما كنت فى هذه الحال إذا بى أقرأ فى الصحف نبأ غرق البارجة الإنكليزية العظيمة

حاملة الطائرات « أرك رويال » فى البحر المتوسط وفيها ثلاثة آلاف جندى ونحو ١٠٠ طائرة حربية فكانت كارثة على الاستعمار ، ففرحت لدرجة أننى أخذت وأنا فى فراشى أرقص وأغنى فإذا بألم أضراسى بسبب هذه الحركات يزول !

— مضى علىّ أسابيع وأنا أشعر بهبوط فى كيانى كله ، فالجسم يضعف ، والبصر يضعف ، والسمع يضعف ، وأخذ الشيب يغالب بياض الشعر . إنها الشيخوخة والعياذ بالله ...

خطة !

اتفقت مع أحمد حسن بدر على أن يكون سفرى إلى الحجاز على الصورة الآتية :

« يسافر هو معى إلى السويس ، ثم أدعى هناك أننى وقعت والتوى ساق فيلف بالقطن والأربطة ، فيصعدونى إلى الباخرة حملا حتى لا تقع علىّ عيون زبانية الأمن العام وأنا أمشى أمامهم ، لأنهم سيطوقون الباخرة والميناء بلاشك . كما اتفقنا على محاولة الصعود إلى الباخرة قبل ذلك خلسة إن أمكن . فإما أن أتسلل ليلا إلى الميناء أو أذهب إليها سابحاً من جهة خلفية لقربها من الرصيف ، أو بإرشاد حمال نأخذ ملابسه وعلامته النحاسية فادخل منطقة الميناء بين الحجاج وأنا أحمل أمتعة لأحدهم أو أمتعتى أنا » .

وكنت قبل ذلك قد رسمت نفسى عند أحد مصورى الشوارع الجائلين لنقدم للحكومة صور الباسبور المطلوبة وعند ذلك لابد من نزع النظارة فنزعتها عن وجهى ، ولكنى اجتهدت فى تغيير أساريرى عند أخذ الصورة فظهرت فيها كأننى ابن سبعين سنة !

خبر ...

فوجئت قبل أن تنقضى الأيام الخمسة التى عينها الموظف لأخذ أوراق السفر بخبر صغير اطلعت عليه مصادفة فى إحدى الصحف فانقلب مشروع الحج كله رأساً على عقب ،

وخلاصة الخبر أن وزارة الداخلية أعلنت للحجاج تعليماتها الأخيرة ، ومنها وجوب ذهابهم إلى القاهرة لاستلام جوازات السفر بأنفسهم من إدارة الأمن العام بوزارة الداخلية وأن يسافر كل فوج مجتمعاً فى محطة كبرى الليمون بقطار خاص ، وأن دخول المودعين سيمنع ، وأن القطار يسافر إلى السويس بدون توقف حتى رصيف الباخرة ! وبطبيعة الحال ان هـذه الاحتياطات قد اتخذت بسبب الحرب ومنعاً لسفر غير المرغوب فيهم . إذن لابد لى من الذهاب إلى إدارة الأمن العام بالقاهرة ! ولابد كذلك من عرض نفسى على زبانية السلطة والعياذ بالله ، كما أن تسفير الحجاج بالقطار سيكون بشكل نفى وكالمقبوض عليهم ! قرأت هذا النبأ فاقشعر بدنى واستعذت بالله ! لذلك ناديت أحمد بدر واستشرته فى سحب الطلب الذى قدمناه للحكومة حتى لا يسبب لى العدول عن الحج مشاكل جديدة ... فبادرنا إلى شيخ الحارة وأعطيناه شلناً وكلفناه أن يسحب الأوراق بضمانته وكفالته بحجة أننى أريد إضافة زوجتى وحماتى إلى الطلب ...

ثم استرجعناه وهاهو الطلب أمامى الآن وأنا أسطر هذا الفصل ، وقد دون كاتب حكومة المنصورة بخطه على الهامش تاريخ وأرقام القيد الخ بعد أن أرسل الاسم والصفة إلى الوزارة بالقاهرة ...

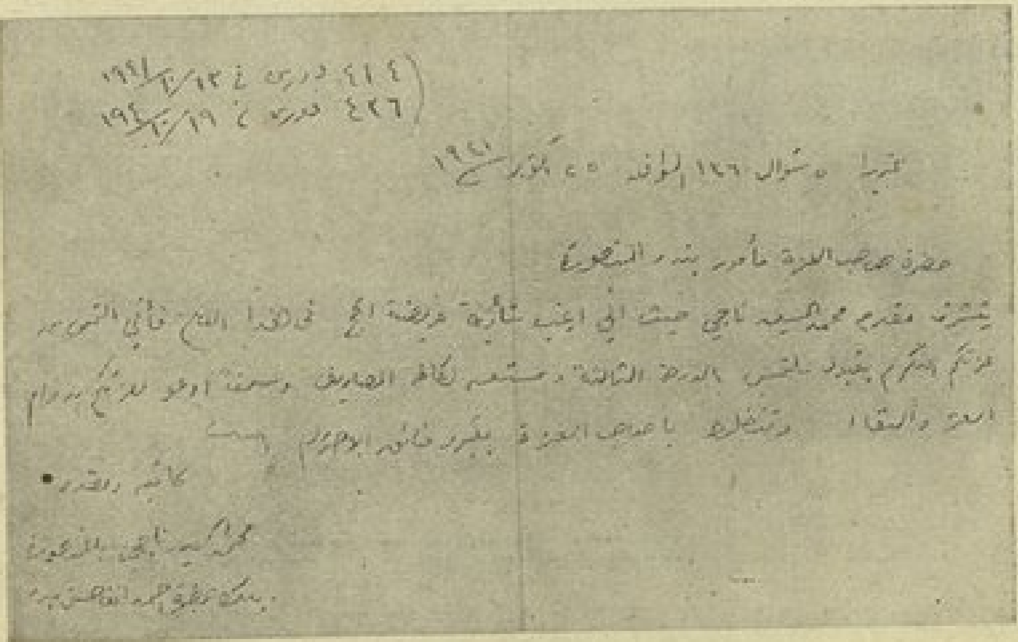
(٤١٤ [illegible] ١٩٤١
٤٢٦ [illegible] ١٩٤١)

تحريراً في ٥ شوال ١٣٦٠ الموافق ٢٥ أكتوبر ١٩٤١

حضرة صاحب العزة مأمور بندر المنصورة

يتشرف مقدمه [illegible] فريضة الحج [illegible]

الصورة الأصلية للعريضة وقد ظهرت فى أعلاها الأرقام التى دونها الموظف بخطه

خواطر

— قرأت فى الجرائد أن مصطفى النحاس باشا قد حضر حفلة قران بنت أحد كبار ضباط البوليس السرى الذين اشتهروا فى شبابهم بالقسوة على المجاهدين المصريين ، هذه غلطة من الباشا . وقرأت أن على ماهر باشا قد أبرق إلى القدس يعزى بأحد خونة فلسطين وهذه غلطة ...

— كان الاتصال موجوداً بينى وبين زوجتى ، وكانت لاتزال فى فلسطين معززة مكرمة عند إخوتى وأهلى ، ثم بلغنى أنها سافرت إلى صيدا وأقامت عند أعمامها معززة مكرمة .

— مما كان يخفف عنى عذاب السجن سابقا وحياة الهرب الآن كثرة حوادث المظلومين الذين كنت أقرأ أخبارهم فى الكتب، وانى أذكر منها أن أبا جعفر المنصور كان يكافئ الوشاة ويسلط الأقارب للوقيعة فى بعض ، وكان يحبس المتهمين السياسيين من آل البيت النبوى فى مطامير ويقيدهم بالحديد ويضربهم ويكسر أعضاءهم ويجلدهم ويفقأ عيونهم . وكانوا لايرون النور لا نهاراً ولا ليلا ، بل كانوا يعرفون الوقت بمرور زمن قراءتهم أحزاب القرآن ، وكان المنادى ينادى من حين إلى آخر بين هؤلاء المساجين : هاتوا أحدكم لنقتله ! فيتسابقون على الموت « راجع تاريخ الطبرى ج ٩ » .

صحيح ان المنصور قد عمَّر وأسس دولة ودعم الاستقلال وصنع أشياء عظيمة ، ولكنه شوه ملكه بالغدر والبطش ، فأصبح فى نظرى كما قال القائل .

رأيتك تبنى مسجداً من جناية   فأنت بحمد الله غير موفق !

حالة مصر توصف فى البرلمان

— من أروع ما وصفت به حالة مصر فى أيام الحرب خطاب لأحد النواب فى البرلمان وأظنه حافظ باشا رمضان قال فيه :

« أيها السادة : لقد تبينتم أن الديمقراطية التى قامت الحرب لمناصرتها غير مرعية فى مصر ولا ملتفت إليها فى معاملة الشعب المصرى ، وهذه حالنا التى نحن فيها أصدق شاهد على ذلك

فلقد نصرنا الحليفة بكل صدق وإخلاص فماذا كان جزاؤنا ... كان أن أهدرت كرامتنا ، وفقدنا حريتنا ، وأعلنت الأحكام العرفية علينا ، فكمت أفواهنا وتحكمت الرقابة فينا ، وعدت أنفاسنا علينا ، وكسدت سوقنا ، وارتفعت أسعار المعيشة ، فأرهق الفقير والغنى فينا وانخفض سعر نقدنا ، وسخرت قواتنا ومرافقنا ومعداتنا ومصالحنا لصالح الإنكليز ، ولم نجن نحن من وراء ذلك كله شيئاً ، بل لقد تدخل الإنكليز فى شئوننا ، وتغلغلوا فى جميع مرافق بلادنا ، ولم يراعوا فى إسكان الجيوش صيانة أرواح المدنيين مع تحقيق الأغراض العسكرية ، فأصبحت أنحاء البلاد كلها هدفاً لكل غارة ، حتى فقد المدنيون كل طمأنينة وراحة وسلام ، كما أهملت الوقاية ، وجاع المهاجرون والشاردون وضاقت عليهم ملاجىء إيوائهم وعم البؤس وزاد الشقاء » اهـ.

وفى الحقيقة أن الحالة كانت محزنة مؤلمة ، ليس من الإنكليز فقط بل من شدة بطش الوزارة الحالية بخلق الله ، لا لحساب الدولة ، بل لحساب الإنكليز ، والويل للأمم من بعض حكامها وما أفظعه إن كان من بعض بنيها ومن الذين يكملون مركب النقص بالالتجاء إلى نشر الخوف والفزع فى البلاد اهـ.

والناس فى صمت المنون كأنها ... صور كساها الظلم ثوب جلال
إن حدثوك فبالعيون ليتقوا ... رصد العيون وشرة المختال !

الحالة السياسية بالقاهرة

أحسست بأنه يوجد شىء فى الأفق السياسى فى العاصمة ، وقد لحظت أن الجرائد منذ أيام لا تنشر أنباء تشريفات القصر الملكى ، ولا صلاة الملك ، ولا المقابلات التى تجرى عادة بينه وبين رئيس الوزراء ، كما أنى قرأت أخباراً عن زيارة مكرم باشا عبيد أحد زعماء المعارضة وسكرتير الوفد المصرى لولى العهد الأمير محمد على وأن الوزارة عقدت بعض الاجتماعات ... لاشك بأنه يوجد شىء تخفيه الرقابة عن الناس .

هبوب نسمات من الحرية

وقف عبد الحميد بك عبد الحق فى مجلس النواب وحمل على الوزارة بسبب الاعتقالات السياسية فجاء بالبدع والمعجب ، وساعده فى الحملة محمد عبد الرحمن بك نصير وعبد العزيز بك الصوفانى والشيخ محمد عبد اللطيف دراز وفكرى أباظه بك ، وقد صاح عبد الحميد بك عبد الحق فى وجه رئيس الوزراء قائلا : « إن تصرفات حكومتك يأباها كل حر ولا يرضى بها إلا كل عبد » وإذا بالنائب المسمى مدنى حزين يقف - لا وقف - ليدافع عن أعوان الاستعمار فقال : « إن المعتقلين هم على نوعين منهم الظالم لنفسه ومنهم المظلوم ، فالظالم أخذ بما يستحق ، والمظلوم نال ما قسمه الله له » ... قاتلك الله ما أسقم منطقك وما أسمجك .

مثال من التهم والتحقيقات السياسية

أورد محمد عبد الرحمن نصير بك نائب جرجرة بالبرلمان أمثلة عن كيفية اعتقال الناس وأسباب حبسهم ، فقال : إن مفتش الداخلية محمود بك رشيد حقق مع المعتقل عبد الوهاب حسنى ، فاسمعوا كيف حقق معه :

المحقق : هل لك آراء سياسية ؟ المعتقل : طبعاً . المحقق : ما رأيك فى السياسة الداخلية؟ المعتقل : يجب أن تحكم البلد بواسطة وزارة قومية . المحقق : ما رأيك فى الحرب ؟ المعتقل: هذه الحرب لاشأن لمصر بها ويجب ألا تشترك فيها ! المحقق: هل لديك أقوال أخرى؟ المعتقل : لا !

وقد سأل الأستاذ نصير بك هل هذا تحقيق ؟ وهل يكفى لحبس الناس ؟

النقراشى وحمدى محبوب

بلغنى أن صديق الأستاذ شوكت التونى المحامى - عضو مجلس النواب - قد ذهب وأنا مسجون إلى حمدى باشا محبوب وتكلم معه فى شأنى بصفته وكيلى ، فقال له حمدى باشا «وكيف عرفت محمد على الطاهر ؟ » فقال شوكت : « إنه صديق وأنا وكيله » فقال له حمدى : دعك منه ... وذهب الأستاذ شوكت إلى النقراشى باشا وكان يوقتها وزيراً للمعارف وأبدى دهشته

من أساليب الوزارة معى ، فقال له النقراشى « أنا لا أتدخل لأنى وزير للمعارف فقط » وهذا غير صحيح بل هو مسرور من حبسى وإلا لقال غير ذلك ، لأنه كان صديق ثم عادانى بسبب صداقتى لمصطفى النحاس باشا وعدم انحيازى إليه لما خرج على النحاس باشا سنة ١٩٣٨ .

قطط تغزو وتحتل !

أقام لى الأستاذ على باكثير وليمة « كوارع » فى بيته فما أبدعها من أكلة بعد أن حرمت الطعام الجيد مدة طويلة ، وبينما نحن على المائدة إذا بقطة باكثير تموء بخوف واكفهرار ، فتطلعنا إلى حيث كانت تنظر فإذا بقطة غريبة تدخل الدار وخلفها ثلاث قطط صغيرة جداً ، وقد دخلوا بشكل موكب! ثم صاحت القطة القادمة فى قطة الدار وشخرت بوجهها، فهربت! وبعد ذلك تلفتت القطة الدخيلة يميناً وشمالا ثم انبطحت على الأرض ونادت صغارها فأقبلن عليها وجثمن على أثدائها وشرعن فى الرضاعة ، وكانت الأم تلحسهن بلسانها آمنة مطمئنة كأنها فى دارها . فسألت باكثير عن القطة القادمة فقال إنه لم يرها فى حياته !

لقد كان هذا المنظر من أعجب ما رأينا . فمن أين أتت هـذه القطة ؟ وأين كانت هى وصغارها ؟ وما الذى أخبرها أنها ستكون آمنة فى هذه الدار ؟ ذلك إلهام من الله ، فلاشك بأن هذه القطة كانت فى مكان ما ثم أحست بعدم الأمن فيه فجرّت صغارها إلى مكان شعرت بغريزتها بأنه دار الأمان ، ولـكن من الذى قال لها إن دار باكثير قد أصبحت حرما ، وأنه يحب القطط ؟..

وظلت هذه القطة فى دار باكثير تعيش هى وصغارها إلى أن فطمتها ثم أخذتها وانصرفت إلى حيث لا يدرى أحد .

وأعرف حادثة غريبة من هذا النوع وهى أن قطة لجأت إلى دكان صديق لى بخان الخليلى بمصر وولدت فيها وبعد أيام اقترب عيد فقال صاحب الدكان لأخيه : يجب أن تجىء فى كل يوم من أيام العيد وتفتح الدكان وتطعم القطط ، ولـكن بعد العصر وقبل إغلاق الدكان بساعة اختفت القطة بصغارها ولم يعثروا للجميع على أثر . وبعد العيـد فتحوا الدكان فإذا بالقطة الوالدة تقبل من بعيد وهى تحمل فى فمها أحد جرائها وتدخله الدكان ثم تتغيب لحظة

وتعود بالثانى ثم بالثالث وهكذا .

فلاشك هنا بأن الإلهام الإلهى قد أفهم هذه القطة ان الدكان ستغلق عليها وعلى أولادها فتموت معهم جوعاً ، فما كان منها إلا الفرار بأولادها مدة أيام العطلة ولما انتهى العيد وفتحت الدكان عادت القطة وأولادها معها ...

حوادث

— وضع با كثير رواية تاريخية باسم «جلنار» ليدخل بها مسابقة لدى وزارة المعارف فأشرت عليه بأن يغير اسمها ويجعله « جهاد » فاستحسن ذلك وقد فازت هذه القصة بجائزة الوزارة وهى ٢٠٠ جنيه .

— قرأت فى الصحف أن الجنرال جاملين الفرنساوى الذى أهلك أهل سورية سنة ١٩٢٦ وكسره الله فى معركة فرنسا قد قبضوا عليه وسجن ، وكذلك سجنوا الجنرال دنتز وكذلك الجنرال هونتزيجر ، وقد تتبعت أخبار الجنرالات الفرنسويين إلى آخر الحرب فإذا بالعذاب بعد الكسر والقهر يصيب أيضاً الجنرال فيجان والجنرال غورو وهما من الذين نكلوا بالسوريين كما أن التنكيل أصاب المسيو بيرتون المندوب السامى الإفرنسى فى تونس ، وكذلك حبسوا خلفه الأميرال ستيفا ، فالحمد لله الذى نكب هؤلاء الجلادين بعد أن شهدوا ـ وعلى رأسهم بيتان ـ أنواع الذل والأذى وسقوط دولتهم أيضاً .

— أنا شمتان بالإنكليز لأنهم الآن يتزلفون للبلشفيك وستالين بعد أن كانوا يلعنونهم ويلقبون ستالين بالسفاح الأحمر، كما أنى شمتان ببولونيا التى كانت السبب فى الحرب فقد كانت قبل ذلك تجتهد بترحيل اليهود لفلسطين دون غيرها فإذا بالألمان بعد أن دمروا بولونيا يجمعون اليهود من كل مكان ويسوقونهم على البولونيين .

— اغتنم اليهود بأمريكا فرصة الحرب وجعلوا جميع أفلام السينما تدور حول الطعن فى الألمان ، فياترى لو انتصر الحلفاء لا سمح الله فماذا يصنع اليهود بالألمان وبفلسطين ؟ وياترى هل يتنبه العالم العربى إلى أهمية الدعاية السينمائية فتخرج الشركات العربية أفلاماً تدعو للبلاد العربية وتبرز جمالها ومدنيتها وتنشر دعايتها ؟

— كنت اليوم أطالع كتاب نفح الطيب وأنا مأخوذ بجمال هذا الكتاب، مع أن أهل العلم والتحقيق يقولون إن مافيه عن الأندلس لايعد شيئاً بالنسبة لما كانت عليه، ولكن أهمية ذلك الكتاب نشأت عن ضياع المكتبات الأندلسية وإتلافها بيد الأسبان حرقاً بالنار وإغراقاً فى البحر وفى الأنهر، رحم الله الشيخ المقرى صاحب النفح، فلولاه لجهل العالم الشىء الكثير عن ذلك الفردوس المفقود.

— وجدوا فى سجن مصر رجلا سجن لأنه غش الدقيق فى أيام الحرب بأن خلطه بالأرز، ولما أمرت الحكومة بخلط الدقيق بالأرز حبسوا شخصاً لأنه لم يخلط! وكان السجينان يعيشان فى غرفة واحدة فما أغرب مفارقات القدر وتخبط الحكومات فى تطبيق القوانين!

— سبحان المعز المذل، فالإنكليز الآن فى خوف من جميع الحكومات وهم يخطبون ود الأتراك بصورة مكشوفة وتذلل غريب، وقد حدث أن سفير انجلترا فى أنقرة رشق بحجر وهو فى حديقة داره وكاد يقتله ولكنه بلعها وسكت. فلولا سوء حال انجلترا لأقامت الدنيا وربما كانت تضرب أنقرة بالقنابل.

وإليك حادث آخر مثل هذا، فإن برقيات الصحف ذكرت أن الترك حجزوا باخرة انكليزية كبيرة وعاقبوها بغرامات فادحة وأن انكلترا اقتنعت بالأسباب التى أبداها الترك لتسويغ عملهم، فلولا حالة الانكسار التى هى فيها لأرسلت أسطولها إلى مدينة أزمير ودمرتها بالمدافع!

— خطر ببالى اليوم المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش المجاهد المصرى الإسلامى الشهير فتعجبت من حادثين له، فالأول أنه لما غادر مصر سنة ١٩١٢ غادرها متنكراً خائفا يترقب، ولما عاد إليها بعد تشريد عشر سنين دخلها خلسة وتسللا وهو خائف يترقب! ثم أظهر نفسه بغتة بعد أن تنكر أياماً(١).

(١) لقيت المرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش عندما أظهر نفسه فزرته بفندق «غوردون هاوس» بشارع فؤاد الأول، وكان يقع فى نفس المكان الذى أقيمت عليه عمارة الاوتيون عند التقاطع بشارع عماد الدين. أقول إنى زرت المرحوم وقدمت له نفسى وحييت جهاده، وفى خلال الحديث سألته وهو الخبير بأحوال الاستعمار عما يراه قبل كل شىء لمحاربة الاستعمار فقال إنه يرى التخلص أولا من «حمير الاستعمار» فسألته من هم؟ فقال إنهم الذين يحنون ظهورهم للأجنبى فيركبها ثم يثب منها إلى ظهورنا، رحمه الله.

بائع الأحذية

اشتريت اليوم حذاء جديداً من النوع الذي ينتعله المشايخ ، ومر بباب الدار رجل ينادى بأنه يشتري الأحذية القديمة، فأحببت أن أتخلص من الحذاء القديم وأن أنتفع بثمنه وأن أشعر الجيران بأنى حقا من المنكوبين، فناديته وعرضت عليه الحذاء ففحصه وأخذ يذكر عيوبه ، وأنه قديم، وأنه رث . فتناولت الحذاء الجديد وعرضته عليه وسألته إن كان يشتريه ! ففهم النكتة وضحك قائلا هذا جديد ! فقلت له لقد حيرتنا يارجل ، فقد عرضنا عليك القديم فأبيت لأنه مبهدل ، وها أنت ترفض الثانى لأنه جديد ! فما الذى تريده إذن ؟ فبهت وقال حقا إنك لشيخ مدهش ومن نوع لم أره ! وأخيراً اشترى القديم وانصرف ...

لقد صدق ذلك الرجل ، لأنى فى الحقيقة شيخ من نوع غريب ، والله المستعان على الذين مشيخونى !

اشتداد المجاعة فى البلاد ومطالعات

لايزال الضيق يحكم حلقاته على البلاد المصرية ، وكل ذلك بسبب تفريط الوزارة بحقوق الأمة وسكوتها للإنكليز الذين اجتاحوا الأغذية من الأسواق ومن القرى ، لدرجة أن الوزارة حظرت على الفلاحين احتجان أى مقدار من القمح الذى يحصدونه ، فكانت القرية تحرس الحقول والأجران لتقدم للسلطات البريطانية مطلوبها من الحبوب ، بينما كان الفلاح صاحب الأرض والقمح يجوع ويأكل قوالح الذرة !

— وكان الشعراء ينفسون عن كرب الشعب بين حين وآخر بشىء من التهكم على الحكومة بسبب المجاعة والشكوى منها ، وكانت الرقابة الإنكليزية على الصحف تبتر بعض الشكايات وتسمح بنشر بعضها . ومن ذلك قصيدة للاستاذ حسن القاياتى قال فيها :

لهف نفسى على السرىّ العيوف ... يجد الخبز فى جلاد الصفوف

وقصيدة للأستاذ الأقصرى جاء فيها :

عيال الله صاحوا واستغاثوا ... كما صاح الجياع فهل أغيثوا
عليهـــم قد تراكمت الرزايا ... لما فتك إذا هجمت حثيثُ

وسبل العيش قد ضاقت عليهم ولم يأخذ بناصرهم مغيثُ

ونشرت جريدة يومية أن تهافت الفقراء على القمامة والزبالة وفضلات الطعام قد سبب لكثير من حوادث التسمم، وأن هناك عصابات تجمع فضلات الطعام من المعسكرات الإنكليزية وتبيعها للفقراء . فيا البريطانيا التي جوعت أخصب بلاد الله ، ويا للوزارة التي تساعدها على ذلك ولا تبالي بوطنها ولا تتقي الله في عباده . وقد ورد في حديث أن أشقى الأشقياء الحاكم الذي يخدع قومه .

الشيب

اشتريت مرآة صغيرة بنصف قرش لأرى وجهي فيها ، فكدت لا أعرف نفسي ، لأني وجدت الشيب قد طغى على لحيتي وعلى الفودين ، فتذكرت أبياتاً للوزير الأندلسي أبو بكر ابن زهر ، قال :

إني نظرت إلى المرآة قد جليت فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا !
رأيت فيها شييخاً لست أعرفه وكنت أعهده من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالأمس كان هنا متى ترحل عن ذاك المكان متى ؟
فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة إن الذي أنكرته مقلتاك أتى !

الخوف

رحل أبو الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة العالم الأندلسي إلى الإسكندرية فزعا من ملوك بني عبد المؤمن ملوك الأندلس والمغرب ، وبعد قليل توهم أن أساطيلهم قد تدهم الاسكندرية فهرب للقاهرة ، ثم خطر له أنهم إن وصلوا الاسكندرية فلا شيء يمنعهم من الوصول إلى القاهرة فهرب إلى أقصى الصعيد ! وبعد قليل قال في نفسه متى وصلوا القاهرة فلا بد لهم من أخذ الصعيد فهرب إلى الحجاز ! ثم قال إنهم إن وصلوا للصعيد فلا بد لهم من الحج فيحتلون الحجاز ولذلك هرب إلى اليمن ! فلما رآها قال هذه بلاد لا يمكن أن يتركها بنو عبد المؤمن فذهب إلى الهند حيث مات ...

— سمعت راديو برلين ينعى إلى العالم العربى الدكتور أمين رويحة المجاهد المنقطع النظير، وقال المذيع إن الفقيد العظيم أسلم الروح فى سجن عكا بعد العذاب والمرض وعدم العلاج ، فأمضيت أياماً سوداء حزناً على هذا الصديق العزيز المجاهد ثم جاء الأستاذ أبا كثير يعزيني ولكن كيف العزاء فى خطب يجل عن العزاء ؟ اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله . وقد نويت إن عشت بعد الحرب أن أعمل على تخليده تقديراً لجهاده فى سبيل الأمة العربية وتحريرها .

وبينما كنت فى هذا الحزن وإذا بى أعرف أن الخبر لا صحة له ، وأنه نشأ عن نقل أمين إلى سجون جنوب أفريقيا وانقطاع أخباره عن العالم العربى فظنوه قد توفى ، فكان لهذه البشرى فى نفسى وقعاً جميلا ، فك الله أسره وأعاده إلى قومه .

منام تحدثت فيه مع الملك

رأيت فى إحدى الليالى أننى فى مكان فخم ، وأننى أنزل الدرج إلى الصالون ، فإذا بى أصادف جلالة الملك فاروق واقفاً على بسطة الدرج أمام مرآة وهو يصلح من وضع طربوشه ، فتوقفت عن النزول إجلالا لوقفته وأخذت أمتع ناظرى برؤيته ، فإذا به يلمحنى فى المرآة فينفتل وينظر إلى مبتسما ويسألنى « كيف ترى هذا الطربوش ؟ » فقلت « إنه أجمل وأحلى وأعلى طربوش فى العالم » فسر الملك بهذا الجواب وابتسم . فأردت أن أكلمه عما صنعت الحكومة والإنكليز معى ، ولكننى استيقظت بغتة ، فوجدت نفسى فى مخبئى المقيت ، والقطة رابضة عند أذنى تخنفر وتبربر ، وبائع المدمس المتجول ينادى على الفول العال ! فأسفت لهذه الانتباهة وتمنيت لو طال الحلم وتحدثت مع الملك .

وبعد أسابيع وقبل زوال المحنة بقليل رأيت فى المنام أننى واقف على سطح قصر أنظر منه إلى الأفق فإذا بيد تطوق كتفى برفق وسمعت من يقول : « أنت هنا ؟ » فالتفت فإذا به الملك فاروق ففرحت كثيراً ، وقبل أن أتكلم بشىء قال لى الملك : « ما هو الشىء الذى كنت تريد أن تقوله لى ؟ » فقصصت عليه قصتى ، فأربد وجهه وتكدر وقال « هذا فظيع ! هذا فظيع ! » ثم ربت على كتفى قائلا : « سوف أنظر فى مسألتك » فأردت أن أقبل يد الملك وأشكره فإذا بى أستيقظ من النوم فنهضت مستبشراً متيمناً .

عيـد !

جاء عيد الأضحى ، وكنت قبل هذا العذاب أجلس من الصباح الباكر أستقبل المهنئين طول النهار وبعض الليـل . وأما الآن فلا مهنىء ولا من طارق يقول كل عام وأنتم بخير! وليس فى الغرفة إلا أنا والقطة « حبيسة » فتذكرت بيتين للنور بن سعيد قالهما فى العيد وهو نازح شريد :

يبتهج الناس إذا عيدوا　　وعنـد سرائهم أكمد
لأننى أبصر أحبابهم　　ومقلتى محبوبها تفقـد

— تقول الجرائد إن عزيز باشا المصرى كان يعانى مرضا شديدا فى السجن وإنه نقل إلى المستشفى العسكرى . إنهم يعذبونه ولا يرعون الله فى المجاهد الشيخ ، حسبهم الله .

— توفى بأميركا المرحوم سليمان بدور صاحب جريدة البيان وهى أكبر وأقدم الجرائد العربية الإسلامية فى نيويورك وكان الفقيد من خيرة المجاهدين الوطنيين الصادقين وكان من أعز الأصدقاء رحمه الله .

— قرأت بلاغا رسميا روسيا عن الحرب قالوا فيه إن الألمان خسروا من الجنود نصف مليون جندى! وبذلك بزوا الإنكليز فى الكذب والتلفيق .

— استطعت اليوم الحصول على قطعة لحم بعد أن حرمت أكله عشرين يوما . وقد طبخت اللحمة على وابور السبرتو فكانت أمتع أكلة فى حياتى. وقد ذكرتنى بأكلة الوزير البرمكى يحيى بن خالد لما كان فى حبس هارون الرشيد ، فقد منع عنه اللحم فاستورد مقداراً قليلا هربوه إليـه قطعا صغيرة دسوها فى داخل عصى من البوص ، فوضع اللحم على النار فى قدر صغير وأخذ ينفخ النار بفمه ، فكانت لحيته تمسح الأرض ، وكان العرق يتصبب منه وظل كذلك إلى أن نضج اللحم ، فلما أراد أن ينزل القدر عن النار وقع وانكسر وراح المرق واللحم فى التراب ، فكان يحى يتناول قطع اللحم ويمسحها بيديه ويلتهمها، وقد وصف تلك الأكلة بأنها أمتع ما أكل فى حياته .

نظرة سياسية

عند ابتداء الحرب أوسع روزفلت رئيس الولايات المتحدة الألمان والطليان سبا وشتما لتوحشهم ، ثم ضبط بواخرهم وأموالهم ، ثم اعتقل رجالهم ، ثم احتل جرينلاند وإسلندا من الدنمرك لتكون قواعد له وللإنكليز ضد المحور ، ثم أقرض الأموال لخصوم الألمان أيًّا كانوا ، ثم ابتدع قانون « الإعارة والتأجير » وبموجبه أعطى الإنكليز طيارات وسفنا حربية وأسلحة وطيارين وقنابل وبواخر ، ثم صار يرسل الذخائر إليهم ببواخر مسلحة ليقاتلوا الألمان ، ثم أرسل أسطوله لحماية هذه السفن وضرب غواصاتهم ، ثم حرض يوغسلافيا على الألمان علنا ووعدها بالسلاح ، ثم ساعد روسيا بكل شيء ، فلما أعلن المحور الحرب على أميركا هاج روزفلت وصاح لقد اعتدوا علينا ...

— وفى الشرق الأقصى تستعمر حكومة روزفلت بلادالفليبين البعيدة عنها ١٢ ألف ميل وهى واقعة بين اليابان وجاوة والصين ، فلماذا تذهب أمريكا لهناك ؟ فى حين أن مبدأها هو (أمريكا للأمريكيين) ثم تجدها تسكت لانجلترا على امتلاك كندا وهندوراس وكولومبيا ونيوفوندلاند وتتركها تستعبد العالم ، وتسمح لفرنسا بأخذ بقية كندا وهى أمريكية ثم تمنع الألمان من استرجاع دانزج وهى من صميم بلاد الألمان ...

وتساعد أمريكا الصين علنابالمال والأسلحة ضد اليابان وتحشد أسطولها وجيشها وتهددهم ثم تضبط أموالهم وبواخرهم وتقاطعهم وتعلن حصارهم الاقتصادى وتجوعهم وتمنعهم من تسوية أمورهم فى الشرق الأقصى وفى بحرهم ومناطقهم ، فلما ضربتها اليابان صاحت أمريكا لقد اعتدت اليابان علينا ... مع أن وجود أمريكا فى الشرق هو وحده اعتداء ما بعده اعتداء

— الجلوس فى الظلام مع الانفراد يفيد الإنسان فى بعض الأحيان بشرط أن يكون ذلك بإرادتك لاقسراً ولاسجناً ، فالوحدة فى الظلام تفتق الفكر ، وتصفى الذهن ، وتسلس عويص المسائل ، وتذكرك بما نسيت .

أهل المنصورة يحبون القطط

كنت أسير ذات ليلة مع الأستاذ با كثير فى شوارع المنصورة فقلت له : يخيل إلى أن أهل هذه المدينة لهم ذوق وإناقة وهم كرام ويحبون القطط ! فقال كيف لحظت ذلك وأنت مختبىء عن أهلها ولم تتصل بهم ؟! فقلت إنى عرفت صفاتهم من أسواقهم وحاراتهم ، فكثرة الكوائين « المكوجية » تدل على سلامة الذوق والإناقة ، كما أن كثرة مبيضى النحاس تدل على عنايتهم باتقان الطعام والكرم ! وأما محبتهم للقطط فقد عرفت ذلك من كثرتها فى الحارات وضخامتها !

سوانح

— اشتد بى الكرب النفسى ، وطغى على اليأس من الفرج ، لأن كل شىء يدل على أن الحرب ستطول كثيراً . والدليل على ذلك تراجع الألمان عن موسكو بعد أن تراءت لهم بالعين المجردة ، فقد صادفتهم أعظم موجة ثلجية اكتسحت روسيا منذ نصف قرن ، وروت الأنباء أن البنزين كان يتجمد فى الدبابات وفى الطيارات لهول البرد . ولذلك أصبحت أتوقع هزيمة منكرة للألمان وقد يخسرون الحرب .

— خطرت أيام السجن على بالى وكيف تنكر لى بعض الناس الذين طالما وفيت لهم ، فرددت قول القائل :

تنكر من كنا نسر بقربه ‏ ‏ ‏ ‏ وعاد زعافاً بعد ما كان سلسلا

ثم تذكرت الأصدقاء والإخوان ، لأن الوحدة توحى بكل ما يغيب عن البال ، فتغنيت بقول الوزير ابن شهيد وهو فى السجن :

فمن مبلغ الإخوان إنى بعدهم ‏ ‏ ‏ ‏ « شريد أمام » الظالمين وحيد
فراق وشجو واشتياق ووحشة ‏ ‏ ‏ ‏ وجبار حفاظ علىَّ عتيد !

طرابلس وبرقة

سمعت إذاعات بالراديو من محطة تعد العرب بالمستقبل العظيم ، ولكنها محطة سرية تسمى نفسها محطة العرب الأحرار ، فالظاهر أنها محطة إيطالية تنكر نسبتها لإيطاليا حتى لا ترتبط إيطاليا أمام العرب رسميا بتلك التعهدات .

فذكرنى ذلك بتصريح انجلترا للسنوسيين بقولها إن طرابلس وبرقة لا يمكن إعادتهما إلى إيطاليا . ولم تقل انجلترا إنها تعيد تلك البلاد لأهلها ، لأنها تريد إن انتصرت لا سمح الله أن تأخذها لنفسها ! يعنى أن الإنجليز وهم بين الموت والحياة لا تزال شهيتهم مفتوحة للاستيلاء على أقطار أخرى ...

وقبل إعداد هذه المذكرات للطبع بعد الحرب ، صح ما توقعته وبلعت انجلترا طرابلس وبرقة ! وأما زعيمهما فإن انجلترا اكتفت بالإنعام عليه بنيشان الامبراطورية ...

فذكرنى ذلك برجل فى التاريخ الأوربى ساعد دولة أجنبية فلما انتصرت رمى له قائدها كيساً من الذهب ، فقال له بل كنت أطمع بكرسى وإمارة ! فأجابه بل هذا الكيس يكفى لمن يساعد الأجنبى على وطنه ..

أنا لا أتهم ذلك الزعيم بمساعدة الأجانب على وطنه تعمداً ، ولكنى أندد بتسرعه ومبادرته إلى مساعدة انجلترا بدون أن يعتبر بما أصاب الذين وثقوا بها قبله وعدم سماعه نصيحة أهل الذكر. فيارب إلى متى تنكب الأمة العربية بزعماء وأمراء ينخدعون بالأجانب ويسببون لها ولذراريها الشقاء؟

براعة الديبلوماسية العربية

كنت أطالع سيرة أبى بكر الصديق الخليفة الأول «رضى الله عنه» فعثرت فيها على مستند يتضمن تعليمات سياسية وإدارية وعسكرية فى أسلوب سياسى لبق يفوق السياسة أو «الدبلوماسية» الأوربية وها إنى أورده وأرجو أن يترجمه كتاب الأجانب السياسيين وأن يتفهمه بعض العرب المفتونين بالأجانب وساستهم ، ليعرفوا أن قواعد الحكم التى وضعها أبو بكر منذ ١٤ قرنا وأوصى بها يزيد بن أبى سفيان لما ولاه حكم الشام هى أعلى وأبرع من دبلوماسية أوربا، قال أبو بكر أرضاه الله:

« إذا قدمت عليك رسل عدوك فاكرم منزلتهم، فإنهم أول خبرك إليهم ، وأقلل جلستهم حتى يخرجوا وهم جاهلون ما عندك . وامنع من عندك من محادثتهم وكن أنت الذى يتولى كلامهم ، ولا تجعل سرك مع علانيتك فيضيع ملكك . وإذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة . ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك . وإذا بلغك عن العدو ضعف فاكتمه حتى تعاينه . وتوقَّ عسكرك ، وقرب حرسك، وأكثر مفاجأة العدو ليلك ونهارك. واصدق الهجوم إذا هجمت ولا تجبن فيجبن الجيش معك »

ما أحبه فى إنسان وأكرهه منه

إننى أحب عبد الملك بن مروان وأكره غدره بعمرو بن سعيد الأشدق، وأحب أبا جعفر المنصور وأكره غدره بأبى مسلم. وأحب هارون الرشيد وأكره بطشه بالبرامكة. وأحب المنصور بن أبى عامر الملك الأندلسى الكبير وأكره تنكيله بالوزير المصحفى، وأحب المعتمد بن عباد وأكره قسوته مع وزيره ابن عمار، وأحب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وأستفظع فعلته بالمعتمد بن عباد.

أندلسيات

كنت كلما جلست فى قهوة وقعد بجوارى جلف يكلمنى تذكرت قولا لأبى الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسى.

وما غربة الإنسان فى غير داره ولكنها فى قرب من لا يشاكله

إن كتاب نفح الطيب فى اعتقادى من أعظم الذخائر العربية فليت حكوماتنا تطبعه بمقادير كبيرة وتبيعه بتكاليفه ليطلع عليه كل عربى. وها أنى أغوص فيه وأخرج منه بدرر ما كنت أتصور أن كنوز العرب تحوى مثلها.

— اعتدى شاعر على شاعر فهجاه بمثل هجوه، فصاح الأول يشكو ويعيره. فرد عليه الثانى يقول:

هم شرعوا التعريض قذفاً فعندما تبعناهم لاموا عليه وعنفوا

— لحظت أن شعر الأندلسيين يحتوى على أوصاف لم أجدها فى شعر المشارقة، فمن ذلك أن الشعر الأندلسى يذكر الثلج والبرد والندف (وهو الثلج الذى يهبط كالقطن المندوف) والرعد والبرق والسحاب والاحتجاب الطويل للشمس، وشدة الصقيع والصالونات المدفأة وكثرة الحدائق وأنواع الزهور والياسمين والبنفسج والزيتون والتفاح والليمون والأترج والنارنج والأساطيل البحرية والتشبب بالغلمان جهرة، وكثرة مجالس الأنس واللهو. وقد وجدت أن الأندلسيين هم أول من لقب البنات (بالآنسة) وكان بعضهم يظن أن اليازجى هو الذى ابتكرها والحقيقة أنه لقب أندلسى وصف به بن وهبون فتاة للمعتمد بن عباد، كما أن الأندلسيين هم الذين

استعملوا لفظة « مثقف » للرجل المهذب والـكيّس ، ونقول نحن فى مصر عن الرجل أو الشئ الطيب « كويّس » فلعلها تصغير « كيّس » مع التوسع فى الاستعمال ، كما أن ابن خلدون قد اصطلح بعدهم على كلمة مثقف ، وليس بصحيح إذن أن الدكتور محمود عزمى كان أول من استعملها كما يظن بعضهم .

— خطب السيد رشيد عالى الـكيلانى فى الراديو الألمانى خطاباً سياسياً ذكر فيه كيف قامت الحركة العراقية التحريرية فـكان موفقا فى بسط الحقيقة ووصف اعتداء الإنكليز على العراق واستفزازأهله ، وبذلك انجلت للناس حقيقة ماجرى فى العراق وقتئذ وظهر كذب الإنكليز .

صوت يونس البحرى

غيرت محطة برلين مذيعها العربى السيد يونس بحرى وأصبحنا نسمع أخبار الألمان بأصوات أخرى ، ولـكن صوت البحرى فى الميكروفون لايوجد له مثيل . وقد تصادف فى أيام إذاعاته وقوع انتصارات عظيمة للألمان فأحبه الناس ، فيا ترى ما الذى زحزح البحرى عن راديو برلين ؟ إننا لانسمع بعد اختفاء صوت يونس إلا انـكسارات للألمان !

بلاد الملايو وشىء عن الاستعمار

سمعت لأول مرة فى حياتى باسم بلاد « سلانغور » وسلطانها و « جهور » وملـكها وأن هذين الشخصين قد أعلنا تأييدهما لبريطانيا فى الحرب ، وأن المسلمين يؤيدون هـذه البريطانيا التى تريد أن تصور الدنيا بأنها كلها معها ، وأن شعوب الأرض لاتفكر فى نفسها بل هى دائما مشغولة البال على بريطانيا ولو قتلتها بريطانيا وداست على رقاب أهلها ، فلو أن بريطانيا هى التى خلقت العباد ما استحقت كل هذه العناية من هؤلاء العبيد !

وقد بحثت عن حقيقة الوضع فى بلاد الملايو بجميع ممالـكها فإذا هى لا تتجاوز الخمسة ملايين نسمة ، وهذه الممالك مشكلة على الطريقة الآتية أولاً — سنغافورة وملاقا وبينانغ وهى ثلاث مستعمرات تحت أمر حاكم عام بريطانى ومركزه فى سنغافورة — ثانيا : بيراك وسلانغور ونفرى سجيلان وبهار ، فهذه كلها ولايات متحدة بمجلس اتحاد ولها سلاطين ، وفوق كل سلطان مندوب بريطانى مقيم ، والجميع يتصلون بسنغافورة . ثالثاً : ممالك قدح وجهور

وكلانتان وترنجانو وبرليس ، فهذه الممالك الخمس لها استقلال داخلى . وفى كل واحدة منها يوجد مستشار انكليزى، وكلهم يتبعون وزارة المستعمرات بلندن...

هذه هى بلاد الملايو بجميع تشكيلاتها . فلو حللنا مسألتها كلها لوجدنا الأمر يتلخص فى كلمة واحدة، وهى أن تلك البلاد مستعمرة بريطانية ، وقد كانت فى الأصل مملكة إسلامية مستقلة ، فجاء الإنكليز واستولوا عليها ثم مزقوها كما مزقوا جزيرة العرب ، فهذه جعلوا منها سلطنات وأمارات وممالك ومحميات لتفريق كلمتها وفصل بعضها عن بعض بواسطة تنويع أشكال الحكم فيها ، ووضع الحدود بينها مع جمارك وجوازات وبُرُوذوجنسيات وقوانين تناقض بعضها بعضاً ، وقواعد للعملة مختلفة لتزيد التفرقة بين هذه الشعوب العربية ، ولكنها تجتمع فى النهاية فى وزارة المستعمرات وتتوحد فى بنوك لندن ! وهكذا فإن الملايو ، تلك البقعة الصغيرة من أرض الإسلام فى آسيا والتى لا تزيد فى عدد سكانها عن ولاية فى انكلترا ، قد جعلوا منها سلطنات وأمارات ومحميات تحت حكم ملوك وسلاطين وأمراء يتسلط عليهم جميعا حكام من الإنكليز ، باسم مستشار ومندوب سام وحاكم عام الخ وبذلك تمكنت بريطانيا من تشتيت شملها، وتفريق كلمتها وتمزيق وحدتها ومنعها من الاتصال ببعضها، إلا عن طريق هؤلاء الحكام الإنكليز !

إن هذه الأساليب الاستعمارية لتدل دلالة قاطعة على أنه لا يمكن للعالم أن يعيش بسلام إلا إذا أرغمت دولة بريطانيا على الانكماش فى جزيرتها والرضا بالسلامة والعافية فى بلادها « انجلند » ورفع سيطرتها عن الدنيا التى تتسلط عليها فيزول الاستعمار من الدنيا بأسرها ، لأنها هى أم الاستعمار، وهى التى علمت فرنسا وإيطاليا فن الاستعمار، بعدأن تعلمته من هولندا وورثت مستعمرات ألمانيا ! وقد رأينا كيف أن الحروب لا تزال تنشب فى الدنيا منذ مئتى سنة بسبب احتجان بريطانيا للمستعمرات الواسعة ومنع سواها من الاستعمار حتى وصل الأمر بها إلى أنها لا تترك بلداً تحت استعمار غيرها يفلت من يد ذلك الغير ، حتى لا يقوى ويساعد من هم تحت حكمها هى أو يجعله يفهم أن الإفلات من الاستعمار ممكنا . وهذه أندونيسيا عندما بدأت تفلت من يد الهولنديين قامت انجلترا وساقت جيوشها وطياراتها

وضربت الأندونسيين لتخضعهم لهولندا ، وهـذه طرابلس وبرقة فإن انجلترا لم تتردد عن التهامهما ، وإلا فهى تعيدهما لعدوتها إيطاليا ! فـكل شىء عند الإنكليز يهون إلا إفلات أمة مسلمة من أى استعمار كان حتى ولو كان المستعمر عدوهم !

فلسطين أخرى

وبعدتسطير ماتقدم وردنى من سنغافورة مايفيد أنها تعانى جميع العوامل التى يمكن أن تجعل منهـا « فلسطين » ثانية ! فالمهاجرون الصينيون إلى تلك الجزر يهددون باكتساح سكانها المسلمين الأصليين الذين يدركون حق الإدراك هذا الخطر الذى يتهددهم ولا يستطيعون أن يعدوا العدة لمواجهة جميع الطوارىء والاحتمالات ، ولاسيما بعدأن شرعت الحكومة البريطانية فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لتحويل السلطة كلها إلى وزارة المستعمرات البريطانيةوسيكون مصير بلاد الملايو على أيدى الإنجليز نفس مصير فلسطين لأن عدد الصينيين فيها يكاد يعادل عددالسكان الأصليين ، إذ يؤخذ من احصاء سنة ١٩٤١ أن فى تلك الجزر نحو مليونين و ٢٧٧ ألفا من جنس الملايو ومليونين و ٣٧٨ ألف صينى و٧٤٤ ألف هندى و ١٠٩ آلاف شخص من جنسيات أخرى .

ويعتقد كثير من المراقبين أن من الجائز جدا أن يصبح أهل الملايو الأصليين أقلية بعد جيل واحد حتى ولو كف الصينيون عن الهجرة إلى تلك الجزر لأن الصينيين فى الملايو أكثر نسلا من السكان الأصليين » .

سوانح وخواطر مختلفة

أنا الآن فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ومستقبل الحرب يدل على انهيار انجلترا ، وها هى اليابان قد اكتسحت آسيا الشرقية واستولت على بلاد الفليبين وجزر المحيط وأندونسيا والملايو وبرما وتكاد تدخل الهند، فهل دنت ساعة الاستعمار البريطانى ؟

— لاأدرى لماذا كان قلبي يحدثنى منذإعلان الحرب بين الروس والألمان بأن هؤلاء لن يستولوا على موسكو ، هكذا كان قلبي يحدثنى برغم أن جميع الظواهر كانت تدل على أنها ساقطة بأيديهم

من ساعة إلى أخرى . ولكن هاهم الألمان يرتدون عن موسكو بسرعة ويعدون عدتهم للهجوم على ستالينجراد .

— إن خلاصة ما فهمته عن منطق الإنكليز أن كل من يخون وطنه (فى المستعمرات طبعاً) وفى بلاد الأعداء، هو الرجل الطيب المعقول عندهم، بينما هم يعدمون هذا النوع من الناس إن كان إنجليزياً. وأما الذى يحب وطنه فهو خائن لقضية الحرية والديمقراطية وأنه داعية للغير ويستحق الشنق ! ومعنى ذلك أن الإخلاص لا يجوز أن يكون إلا لبريطانيا وحدها فقط !

على أنى أرى بعض حكوماتنا العربية المستقلة تهمل رجالها المجاهدين ولا تقيم لهم وزنا. وفى نفس الوقت نراها تهتم بكل رجل تافه أو خائن يوفد إليها من قبل المستعمرين ، فكأن بعض حكوماتنا تشجع أبناء الأقطار المنكوبة بالاستعمار على الانضمام إليه، والحظوى منه بالمناصب والألقاب لترحب به وتعنى به وتسمع كلمته ...

— لما سقطت فرنسا فى أول الحرب ظننا أنها انتهت . وقابلنى صديق فإذا هو محزون من سرعة انتهاء الحرب ، فاستغربت ذلك فقال إنى أريد للحرب أن تطول ليحطم هؤلاء الأوربيون بعضهم بعضاً تحطيماً نهائياً لا تقوم لهم بعده قائمة !

— انى أشبه الألمان فى هذه الحرب بثوار لا دولة ، إنهم يحاربون كثائرين على بريطانيا التى تطوقهم وتحاصرهم بالمعاهدات التى تعقدها مع جيرانهم وتسد عليهم سبل الارتزاق فى الممالك الأخرى. وقد عمل أحدهم مقارنة بين الأمتين بعدد السكان ومساحة الأرض وماتحكمه بريطانيا من المستعمرات التى تبتز خيراتها، فوجد بحساب الأرقام أن كل انكليزى يملك رغيفا وزنه كذا ، وأن كل مأتى ألمانى يملكون رغيفاً واحداً من نفس الوزن . ونتيجة ذلك أن هؤلاء الألمان الجياع لابد لهم من مهاجمة الإنكليزى الذى يتمتع وحده بالرغيف الكامل . هذه هى الأسباب فى نشوب الحرب العظمى الأولى وفى قيام الثانية . أما الدواء فلا يمكن أن يتغير، وهو رفع يد انجلترا عن الممالك والأقطار التى تحكمها فتصبح الدنيا مجالاً للأصلح والأنشط ، لا للأكذب والأوقح والأقطع !

— ياويل من يغضب لوطنه وأمته ، لأن الإنكليز سيكرهونه ويطاردونه. فإن قاوم فهو

عاص ، وإن استعان بالآخرين فهو خائن ، وإن سلم نفسه للانجليز قتلوه أونفوه إلى جزيرة نائية ليموت فيها كمداً وقهراً وذبولا .

— زارنى اليوم الأستاذ على باكثير وأهدانى سلة مملوءة بالخبز المجفف النظيف ، بارك الله فيه ، لأن هذه الهدية تكفينى شهراً وتصون ماء وجهى عن التبذل فى الأسواق للبحث عن الخبز الذى فقد من الأسواق . وبعد يومين أهدانى باكثير دجاجة مذبوحة ونظيفة ، فقطعت الوقت فى طبخها على وابور السبرتو !

— من أحلى ما قرأت عن السجن قول ابن الجهم من قصيدة :

بيت يجدد للكريم كرامة　　　يزار فيه ولا يزور ويحفد
لو لم يكن فى السجن إلا أنه　　　لا يستذلك بالحجاب الأعبد !

— وصف أحد العشاق حاله وكأنه يصف حياة الهارب المختفى قال : « يرى العاشق كل شىء عدوه ، هبوب الريح يقلقه ، ولمعان البرق يؤرقه ، والعذل يؤلمه ، والبعد ينحله ، والذكر يسقمه ، والقرب يهيجه ، والليل يضاعف بلاءه ، والرقاد يهرب منه ، ورسوم الدار تحرقه ، والوقوف على الطلول يبكيه ، وقد تداوى منه العشاق بالقرب والبعد فما نجح فيه دواء » أما أنا فإننى فوق ماسبق فقد أشبه المتخفى بالميت ، فإنه موجود ولكنه فى نظر الناس غير موجود وهو يرى الناس ويعرفهم ولكنهم يرونه ولا يعرفونه ...

عن مشاهير الهاربين

ما أحلى حكاية ابراهيم بن المهدى كما وردت بمروج الذهب للمسعودى، وذلك أنه لما اقترب جيش المأمون من بغداد ترك ابراهيم كرسى الخلافة وهرب واختفى، فجعلوا للقبض عليه حلواناً كبيراً فقال ابراهيم : خرجت من مكنى فى يوم صائف حار ظهراً إلى زقاق مسدود ، فرأيت عبداً على باب دار فصرت إليه ثم طلبت محلا للاستراحة ساعة ، فرحب به العبد وأدخله ثم أغلق عليه وذهب . فظن أنه ذهب ليدل عليه ولكنه عاد وحده ومعه الأطعمة وقال أنا حجام ولذلك لم أمس الأكل فاصنعه أنت . ثم رجاه العبد أن يسمح له بالجلوس بجواره وأن يشرب نبيذاً

سروراً به، فسمح . وبعدالشرب ذهب العبد ثم عاد ومعه عود وقال ليس من قدرى أن أطلب منك العزف والغناء ولكن وجبت عليك حرمتى فإن أردت أن تشرف عبدك بالعزف ، فقال له إبراهيم ومن أين لك الظن بأنى أحسن الغناء ؟ فقال له العبد متعجباً: ياسبحان الله أنت أشهر من أن لا أعرفك ، أنت ابراهيم بن المهدى الذى جعل مولانا المأمون لمن دل عليك مئة ألف! فاندهش ابراهيم وتناول العود ، فطلب العبد أن يقترح الأدوار فقبل وغناه ثلاثاً . فقال له ما كنت أحلم بأن عم الخلفاء يغنى لى فى بيتى . وفى الليل غادره بعد أن قدم له كيسا من الذهب ووعده بالمزيد فى المستقبل ، فأبى وقال والله ياسيدى كنت أنوى تقديم ما أملك ، فاستحييت وأجللتك . والخلاصة أنه رفض عطية ابراهيم ثم مشى معه ودله على الطريق الأمين الذى يريده. قرأت هذه الحكاية فطربت لها ولا أظن أحداً يقدر مكارم ذلك العبد كتقدير من عانى الهرب من الدول خصوصا من الظالمين الحقودين .

حوادث خطيرة لنسيب شهاب واضطراب حالى

جاءنى خبر مختصر « بأن لا أقترب من عيادة الدكتور شهاب » وهو تحذير صريح بوجود خطر من زيارة نسيب بكفر الوسطانى ، ولكن ماهو هذا الخطر ، وهل أصاب نسيب شئ ؟ وهل كان ذلك بسببى أنا .. وهل حبسوه ؟ إذن فلا بد من تسليم نفسى مقابل اطلاقه، وهذا أقل واجب أقوم به نحوه بعد أن كان من جميله معى ما كان . لقد حيرنى هذا الإنذار ، كما حمدت الله على شئ وقع منذ ثلاثة أيام فقط ، وذلك أننى كتبت إليه كتابا أسأله عن حاله وهل أزوره ، وبعد أن وضعت طابع البريد على الظرف وذهبت لإرساله رجعت عن باب البريد ونزعت الطابع ومزقت الكتاب . فهذا إلهام من الله بلا شك ، فلو أرسلت ذلك الكتاب لقبضوا عليه بعد ساعات ونكلوا به ثم قبضوا علىّ أنا ، ولكن المولى قدر ثم لطف.

لقد جعلنى هذا الإنذار فى حالة وجل خوفاً على صديق ، فأمضيت يومين وأنا بدون أكل ولا نوم ، فأرسلت أبحث وأستنشق الأخبار فعلمت أن الشرطة قد كبست داره فى « كفر الوسطانى » وأنهم أخذوه إلى طنطا للتحقيق معه بتهمة أنه أخفانى عنده وأنه ترك من وظيفته ورحل عن تلك الجهات .

ولكن كيف كان ذلك وأين هو الآن ، وكيف جرت الحادثة ؟ لقد بقيت هذه الأسئلة كلها بدون جواب ، وأخذت أفكر ما الذى ذكرهم بنسيب وكيف فطنوا إليه ؟ حقاً أن هذا لما يحير ويقلق الخاطر .

ومشيت فى شوارع المنصورة أبحث عن صديق لنسيب كنت أعرف اتصاله به، هو الصيدلى أديب أسعد بالسكة الجديدة فقد يعرف شيئاً . فوجدت الرجل يغادر الصيدلية مع بعض الناس فى الشارع فأخذت أرقبه بصبر إلى أن يفرغ منهم أو يفرغوا منه .

ولما افترق عنهم لحقت به إلى أن أصبح فى منطقة أمينة من المارة فناديته باسمه فوقف ، فحييته وقلت له أنا الشيخ فلان ـ وارتجلت اسماً ـ وإننى من بلد صديقه نسيب وإنى سألت عنه فعلمت أنه ترك الوسطانى فهل تعرف أخباره وأين هو ؟ فأجابنى الرجل بسهولة إن صديقه استعفى من عمله وأنه مر به فى سيارة سفر ومعه أهله وأنه قصد القاهرة ليسكنها . ثم ذكر لى عنوانه بشارع عبد المنعم بمصر الجديدة . فاكتفيت بهذا البيان الشافى للغليل وشكرته وانصرفت مطمئنا بعض الاطمئنان . ثم كتبت إلى مصر أستفهم عن بقية أخبار نسيب فجاء الجواب بأن أعوان الحكومة لم يثبتوا عليه تهمة إيوائى فاكتفوا بمراقبته مدة ثم هددوه بالإبعاد عن مصر إن لم ينزح عن تلك الجهات ، فاستقال من عمله وسكن القاهرة قاتلهم الله .

مناقشات برلمانية حول المعتقلين السياسيين

تقدمت استجوابات من بعض النواب والشيوخ ضد الوزارة وتصرفاتها الاستعمارية وبطشها بالأبرياء لإرضاء الإنكليز . وقد تكشفت للناس من هذه المناقشة ودفاع الوزارة عن نفسها أمور ما كان يخطر لأحد أن تصدر من حكومة تشعر بشىء من الشعور الإنسانى والكرامة الوطنية . فقد أثبت بعض النواب أن السلطة العسكرية البريطانية فى الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ كانت أقل أذى من الوزارة الحاضرة ، وأن عدد الذين اعتقلوا بوقتها كان قليلا جداً وأن تلك السلطة قد تكفلت بأود عائلاتهم ووضعت المعتقلين فى أماكن غير متعبة بالنسبة لفظائع حكومة هذا العهد المسلمة المصرية . وقد اتضح فى المجلس أن هذه

الوزارة سمحت للمساجين والمعتقلين السياسيين بالكتابة إلى أهلهم ثم كانت تغدر بهم وتأخذ رسائلهم وترسلها للسلطات الإنكليزية! فيظل أصحاب الرسائل ينتظرون الجواب على رسائلهم عبثاً. وقد قاسيت أنا شخصياً من هذا العهد شيئاً كثيراً، فقد كنت في السجن أستحضر الطعام من داري وأوزع طعام الحكومة الغث على المساجين والسجانين، لأن الحكومة لم تخصص لعائلتي أي مرتب، مع أن هذا حق طبيعي لكل معتقل سياسي ولو كان من رعايا الأعداء. بل إن حكومة هذا العهد قد أهلكتني في سجن مضيق فظيع كاد يقضي على حياتي وها هي تطاردني.

وكان رئيسها يقف في البرلمان يطعن في نزاهة بعض المعتقلين فوق ظلمه لهم ونكبته إياهم، مع أنه لا يعرفهم ولا يدرى عنهم شيئاً، وكان يتبجح أمام النواب بأنه لا يتلق الأوامر من أحد وأنه يعمل بوحي نفسه! وهذا غير صحيح، بل كان لا يعمل شيئاً إلا إذا أمر به الإنكليز فينفذه على طول الخط بلا مناقشة. على أننا لو أخذنا بقوله هذا وصدقناه فإننا نسأله: لماذا لم توح إليك نفسك بشيء آخر غير التنكيل والعنجهية والبطش بالأبرياء؟

وكان هذا الرئيس يصف حال المعتقلين بأنهم في نعيم! فياللدهشة! وإلا فكيف يسمى السجن نعيما مع أنه عذاب ولو كان في قصر منيف. وكان هذا الرئيس يجادل في القياس تغطرساً، ويخلط بين الاعتقال والسجن. والحقيقة أن السجن هو غير الاعتقال كما يعرف الناس ذلك بالبداهة. فليت مصر تستقل تماماً لتذيقه وكل من كانوا على شاكلته طعم السجن وطعم الاعتقال ليعرفوا الفرق بينهما على الأقل.

الجلسات السرية

لقد انعقدت جلسات سرية لمجلس النواب للكلام عن المعتقلين في أيام الحرب فليت بعض النواب الذين يشعرون بالشرف الوطني ينهضون وينشرون للناس مادار في تلك الجلسات التي تشبه مؤامرات تدور بين رجال العصابات.

وقد بلغ من جرأة رئيس الوزراء على أمته وعلى عقول النواب أنه كان ينكر وقوع أي ظلم على المعتقلين قائلا «لم يصل إلى علمي شيء من ذلك» ولكن كيف يصله ما دام قد أمر بعدم توصيل الشكايات إليه كما صنع معهم ومعي أنا أيضاً؟ ثم بلغ به الغرور أنه أنكر ذات مرة

القبض على أحد موظفى الأوقاف وأنكر أنه مسجون ! مع أن الرجل بوقتها كان لا يزال فى السجن . فهل ذهب ذلك الموظف إلى السجن من تلقاء نفسه ، أم تنكر فى طاقية الإخفاء ودخل السجن خلسة بدون علم الزبانية ، أم هبط إلى السجن من السماء ؟ .. هذا ولما ضايق النواب رئيس الوزراء، قال لهم إننى لم أجد اسم ذلك الشخص بين أسماء المسجونين ! يعنى ما دام أن اسمه لم يدرج فى قائمة المسجونين المقدمة إليه فإنه يصبح غير مسجون ، والحقيقة التى بلغتنى أنه أمر بعدم إدراج اسمه ليواجه النواب بقائمة الأسماء ، ويريهم أنه صادق ، بدليل أن الاسم غير موجود !

إن هذه الحالة التى قاساها الشعب فى أيام الحرب تشبه حالة الشعب الفرنسى فى القرون الوسطى لما كانت عشيقات ملوك فرنسا وأهل النفوذ يأخذون من رئيس الوزراء أوراقاً ممضاة منه بالقبض على الناس بدون إبداء الأسباب ويرسلون الأبرياء بموجبها إلى السجن بعد وضع اسم الغريم فى الورقة!

وأوقح ما قرأته عن مجلس نواب ذلك العهد الأسود قول رئيسه . إنه مجلس حر ، وإنه وليد إرادة الأمة ! مع أنه كان مجلساً ملفقاً ، وكان وليد التزوير والإجرام ، وكان لعنة على المجالس النيابية فى الدنيا كلها .

استطراد

وكان بعض نواب ذلك العهد يتقدمون إلى الوزارة بأسئلة عن أمور خطيرة فتنصت لهم الأمة، فإذا جاء موعد الإجابة سحبوا تلك الأسئلة! وكان بعضهم يحمل على الوزارة فى الصحف وفى المجلس نفسه ، فإذا جاء وقت أخذ الرأى وحدجهم رئيس الوزراء بنظرة الوعيد أنكروا الذى كانوا يقولونه ، وتنكروا لأنفسهم وأعطوا أصواتهم للوزارة ، وهم يعلمون أنها جديرة بالسخط ونزع الثقة وأنها تستوجب الإسقاط والمحاكمة بأكبر التهم ــ لقد كان أكثر نواب وحكام ذلك العهد البغيض يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون .

وقد أقر هذا المجلس تلك الوزارة على اعتقال الناس وسجنهم واقتحام بيوت بعض زملائهم النواب المعارضين بحجة (سلامة الوطن ومصلحة الدولة) وموافقة الوزارة على القول بأن

الدول الأجنبية ومنها انجلترا تفعل مثل هذا . ولكن غاب عن هؤلاء النواب أن الوزارة كانت تخدعهم وتسخر منهم ، لأن انجلترا إن اعتقلت بعض الإنكليز فإنما يقع هذا الاعتقال لمصلحة انجلترا ، وأما اعتقال الأبرياء عندنا فى أيام هذه الحرب فإنه يقع لمصلحة انجلترا لا لمصلحة مصر . ومع ذلك فإن هؤلاء النوائب لا النواب كانوا يقرون الوزارات على سوء ما تفعل . فبعد هذا كله لا يمكن لأحد أن يلوم مصطفى النحاس باشا على إصراره دائما على رفض التعاون مع تلك المجالس « التمثيلية » أو الحكومات المنبثقة منها ، وله الحق فى طلب حله والإصرار على ذلك وإجراء انتخابات جديدة حرة .

مقارنة

صحيح أن انتخابات الوفديين تقع فيها مخالفات وتحرم كفايات ، ولكن خطأ الوفديين الذين تختارهم الأمة لخير من صواب من يختلس ثقتها ، وجهال الوفديين المختارين أنفع للأمة من علماء خصومهم — أليس أن هؤلاء يزيفون إرادة الأمة ويغتصبون ثقتها بالتزوير وضرب الناخبين وانتهاك حرماتهم وتقتيل الذين يرفضون إعطاء الحكومة أصواتهم ، كما جرى فى عهد اسماعيل صدقى باشا سنة ١٩٣١ ؟ إن المجالس النيابية التى تلد رؤساء لها مثل الدكتور حسين هيكل باشا ، وإن البرلمانات التى تجلس على رياسة الوزارة أمثال محمود فهمى النقراشى باشا واسماعيل صدقى باشا وأحمد زيور باشا وابراهيم عبد الهادى باشا لهى مجالس آثمة تعد لطخة فى جبين الدساتير والعهود النيابية فى تواريخ الأمم .

الإنكليز هم الحاكمون

هذا هو الواقع ، وأما وزاراتنا التى تحكم بدون إرادة الأمة فإنها تحكم « شكلاً » والإنكليز يحكمون « موضوعاً » !

وإليك وصف حكمهم كما صوره وهيب دوس بك المحامى فى دفاعه عن أحد المتهمين السياسيين بعد الحرب قال : « إن الحالة الاقتصادية وصلت إلى أن البنك الأهلى كان يطبع ورقا والإنكليز يأخذون قطنا وقمحا ، والشعب المصرى يموت جوعا دون أن يكون لتلك الأوراق رصيد .

فهل كان الإنكليز قوم شرفاء ؟ كلا يا حضرات القضاة إن حكمهم كحكم اللصوص تماما لأنهم يأخذون ولا يدفعون ويسرقون ويهربون .

ثم قال إن الإنكليز سرقوا الأموال التى كان يدفعها الأمريكان لمصر وأمعنوا فى السرقة فبدأنا نرى الجنود الإنكليز يخطفون السلع فى الشوارع ويهددون المارة بالمسدسات للحصول على مال الناس وتهديد أمن الناس .

وقال إنه ما كان يليق بلمبسون السفير السابق « أى لورد كيلرن » النذل الخسيس أن يذهب إلى القصر الملكى بالدبابات وكان فى مقدوره أن يذهب بالطريقة الديبلوماسية ويبلغ ما يريد أن يبلغه .

لقد حدث بين كتشنر وبين الخديو عباس ـ وكان عمره ٢٢ سنة ـ حادث دعا الخديو إلى الاعتذار فتم الاعتذار بلباقة ومن غير ضجة .

لقد كان النذل الخسيس ـ وأعنى به السفير مايلز لمبسون ـ كان يقصد بعمله أن تذل الأمة المصرية وأن يشعر جميع الهيئات أننا شعب لا يقيم الإنكليز لكرامته وزنا .

ما كان يليق مطلقا يا حضراة القضاة أن تحدث تلك المظاهرة الإنكليزية العسكرية . ما الذى كان يقصده ذلك النذل الخسيس ؟ كان يريد أن يقول للمصريين أنتم أذلاء وعبيد !

ولقد كسر الجنود الإنكليز ذراع أحد ضباط القصر الملكى وما زال ذراع هذا الضابط مكسوراً إلى اليوم . ما الذى كان يحدث لو أن السفير ذهب إلى القصر فى أدب واحترام وطلب مقابلة سيد البلاد وقدم له الإنذار البريطانى . ما كان يحدث شىء يا حضرات القضاة ولكن الإنكليز أرادوا إذلالنا كما قلت ، أليس هذا منتهى الإجرام ؟ » اهـ .

حفلة

احتفل السفير البريطانى لامبسون الجلاد الفظيع بتنصير طفله فى الكنيسة الإنكليزية فهرع العظماء لحضورها وفيهم أحد الأمراء ورئيس الوزراء وخطب كثيرون فى الحفلة ! فلو

أن أكبر مسلم جاء من الخارج ومات لما سار هؤلاء « العظماء » فى جنازته ولا قاموا بالتعزية فيه !

— سمعت بالراديو تفصيلات كدت أرقص لها طرباً فقد اعترف الإنكليز بغرق الدارعتين البريطانيتين «ريبلص» و «برنس أوف ويلز» لما نسفهما اليابانيون فى سنغافورة . وريبلص هى التى هدد بها الإنكليز أهل فلسطين مراراً وسددوا مدافعها على مدينة يافا . كما أنهم نفوا أحرار فلسطين فيها إلى جزر سيشل .

خضة !

كنت جالساً مع أحمد حسن بدر بقهوة البرنسات فإذا برجل وجيه عليه طابع موظفى الحكومة يأخذ كرسيا ويجلس معنا ، فاحتفل به أحمد بدر وجعلنى أفهم من خلال ترحيبه به وحديثه معه أنه مدير سجن المنصورة ! فانخض بدنى . وبعد لحظة اختلقت سببا وغادرت القهوة ...

لقد كان أحمد بدر لبقا فى هـذه الحركة التى ذكرتنى بلباقة أبدع ، وذلك أنه كان مرة يلعب معى النرد فى قهوة فإذا بصاحب لى وهو صحافى قديم أعرفه فى القاهرة قد أقبل عليـه من خلفى أنا وكان أحمد يعرفه ـ ويعرف أننى أعرفه وأنه يعرفنى ـ فخاف أحمد أن يجلس الرجل معنا فأنفضح ، فقام من فوره واستقبل القادم بالترحاب قبل أن يرى وجهى وظل يحادثه إلى أن انتهيت إلى طول وقوفه فالتفت إليهما بطرف عينى فعرفت السبب وبادرت إلى باب القهوة الخلفى المؤدى إلى فندق البرنسات فنفذت منه إلى الشارع . ولما تيقن أحمد بدر من ابتعادى سحب ضيفه إلى مائدة النرد وتظاهر بالبحث عنى ثم ضحك وقال لضيفه لقد هرب الشيخ لأنه مغلوب فى الطاولة ! ولكن تعال أنت محله لكى أغلبك بدلا منه ...

وبعد عامين من ذلك الحادث درى صاحبنا الصحافى بالحكاية فقابلنى فى القاهرة وعاتبنى فقلت له إن الاحتياط أحكم .

— كنا نحن شلة قهوة البرنسات بالمنصورة نغتاب بعضنا بعضا ويتغامز البعض على الآخر ، فكنا نسمى الشيخ إبراهيم مجاهد القاضى الشرعى بالشيخ « دوساء الغميم »

ويسمونني الشيخ « إبون » ونسمى السيد أحمد جودة نقيب الأشراف « بأبي رأس » ونسمى أحمد حسن بدر « بالخطاف » لأنه كان في لعب النرد يخطف ويغالط !

— تهتم القطة (حبيسة) بالرياضة كثيراً لأنها تقضي وقتها في الشمس والهواء وتفضلهما على الأكل عملا بأمر الحكومة التي نشرت بيانات في الجرائد تنصح فيها الناس بالرياضة والمشي في الشمس والهواء ، بدلا من أن تيسر لهم الطعام الذي كنا لا نجده في في الأسواق !

متفرقات شتى

من دعابات الأندلسيين وتندر بعضهم على بعض ما ذكره الوزير العلامة لسان الدين ابن الخطيب تنكيتاً على الشيخ أبو على الحلي الكناني ، وهو أن الشيخ يقول إن عنده قطة كانت تبلل إحدى يديها وتغمسها في الدقيق ، ثم تنصبها أمام جحر فأر وترفع الأخرى استعداداً لصيده ! وإنه ناداها باسمها فزوت عنه رأسها وجعلت أصبعها على فمها تشير إليه بالصمت ! » وهي نكتة لطيفة تدل على سعة خيال لسان الدين الذي كان في العلم والفضل أعجوبة زمنه وغير زمنه .

— لما أفسد الأذفونش بالأندلس أرض الأمير حريز بن عكاشة وخرب ودمر ، كتب إليه « ليس من أخلاق القدير الفساد والتدمير » فاستحى الأذفونش وكف عن ذلك ، أما الإنكليز فالدنيا تعرف ماذا صنعوا ويصنعون في الأقطار التي يحكمونها أو يقدرون عليها .

— قرأت أن الأفرنسيس عينوا حسن الحكيم في الشام رئيساً لوزارة سورية فكدت أموت من الضحك ، لأن هذا الرجل لم يستطع إدارة فرع بنك في يافا ، ولا دكان تجارية في القدس ، ولا دكان بالقاهرة ، ولا حانوت بعمان ، ولا إدارة بريد بدمشق ، ولا إدارة مالية بسيطة ببغداد ، ولا إدارة أوقاف بالشام ! فقد أخفق في كل شيء ، فهذا التعيين يدل على إفلاس فرنسا في سورية إفلاساً تاما ما دامت تجعل من أمثال هذا الرجل رئيس وزارة !

— قرأت وصفاً لمسجد جغبوب في الصحراء الغربية بقلم مراسل انكليزي ، فكان يتحدث عنه بتقديس واحترام ويحيطه بهالة من الإجلال ، كسباً لخاطر المسلمين في الحرب ،

مع أن الإنكليز هم الذين نسفوا ضريح المهدى فى السودان بالمدافع وأخذوا جمجمته وصنعوا منها محبرة للورد كتشنر ! والأعجب أن ابن هذا المهدى يعد اليوم من أعظم أعوان الاستعمار الإنكليزى نفسه !

— خطب عباس محمود العقاد فى راديو القاهرة فقال إن الإنكليز حلفاء طبيعيون للشرق العربى لأن الشرق العربى حليف طبيعى للانكليز ! كبرت كلمة تخرج من جوفك يا أستاذ !

— بعد أن عينت فرنسا الشيخ تاج الدين الحسنى رئيساً لجمهورية سورية وقف الشيخ يرد على الجنرال كاترو المتشرد الفرنساوى فقال ما نصه حرفياً : « إن فرنسا برغم المحنة التى امتحنت بها لا تزال شعلة حية ما برحت مضيئة على مرور الأجيال ، وهذه الشعلة لا تنطفىء ، والشعب السورى قريب من فرنسا ويعتبرها موضع آماله » .

بهذا الكلام الآثم خاطب ذلك الهالك سيدته فرنسا حاسبه الله ولا أكثر فى الدنيا من أمثاله ، لأنهم عار الدنيا جيلا بعد جيل . إن الأمم العربيـة لا تستطيع أن تصنع شيئاً مع أعوان الاستعمار الذين ماتوا سوى جعلهم عبرة بسرد أخبارهم ، وأما الأحياء فيجب أن تمسك بتلابيبهم وأن تحاسبهم على كل كلمة مدحوا بها الاستعمار ، فضللوا الناس وخدعوا أمتهم من أجل دريهمات معدودة ومن أجل مناصب زائلة ، فيجب أن نعدهم مسئولين عما أصاب العالم العربى من غدر الاستعمار وتنكيله بنا .

— رأيت المرحوم الملك فيصل الأول ملك العراق فى المنام ، فقلت له : كيف تترك أمتك وتفارق الدنيا وهى فى أشد الحاجة إليك ؟ فقال : هذه إرادة الله فلا تحزن والفرج قريب ..

— سلم علىّ شاب بعد زوال المحنة وذكر لى اسمه وهنأنى بالسلامة وقال لى إنه كان ضابطاً ببوليس الجواسيس ثم تاب ! وإنه كان من جملة ١٤٠ ضابطاً وبوليساً من نوعه كانوا متخصصين للبحث عنى !

— سمعت من راديو القدس كلاماً ودعاية للإنكليز من الشيخ عبد القادر المزغر الذى سمى بعد ذلك بالمظفر ومن عجاج نويهض ، لقد كانا من المتطرفين ضد الإنكليز فإذا بهما من أنصارهم ودعاتهم . ولما أصيبت تل أبيب عاصمة اليهود من طيارة محورية بطريق الخطأ هرع الشيخ المزغر إلى تل أبيب للتعزية !

— أخبرنى أحمد حسن بدر أن أهل بيته رأوا فى المنام سيدتين تلبسان ألبسة بيضاء وتسألان عنى ، وأننى ظهرت بلباس أبيض فسلمت عليهما وانصرفت معهما . فقلت له يظهر أن الفرج قريب .

— قال الوزير لسان الدين بن الخطيب :

والناس إما جائر أو حائر يشكو ظلامه

وهذا صحيح لأنى لا أرى فى الدنيا إلا ظالما ومظلوما ولا ثالث لهما ...

— ورد كتاب من قرينتى على الدكتور بشناق تطمئنه عنها وتستفهم عنى وأنها أخذت كتابا من الأستاذ أكرم زعيتر الصديق الوفى اللاجىء إلى استانبول يسألها عنى « وهل هى متصلة بى » ففهمت من ذلك أن الأصدقاء فى الخارج قد علموا بهربى ونجاتى ، فسررت بهذه الأخبار .

— شعرت بضيق شديد من حياة الاختفاء والخوف والحذر ، فتناولت كتاب نفح الطيب فوجدت فيه هذين البيتين ليحيى بن محمد بن هذيل الأندلسى ، قالها وهو مسجون :

تباعد عنى منزل وحبيب وهاج اشتياقى والمزار قريب
لقد بعدت عنى ديار قريبة عجبت لجار الجنب وهو غريب

وقرأت لذى الوزارتين أبو بكر بن محمد الحكم الرندى :

تَصَبَّرْ إذا ما أدركتك ملمة فصنع إله العالمين عجيب
إلهك يا هـذا قريب لمن دعا وكل الذى عند القريب قريب

فشعرت بعد ذلك بفرح يعم قلبى ويشرح صدرى .

— قرأت فى الصحف أخبار احتفالات جرت فى مدينة يافا بدفن أحد مشاهير خوارج فلسطين وهو يدعى عبد الرؤوف البيطار وأن الإنكليز حزنوا عليه وسيروا الجند البريطانى والشرطة فى جنازته ، ولفوا نعشه بالعلم البريطانى ، وبعد ذلك بأسابيع قرأت أخبار حفلة تأبين أقيمت لتخليد ذكراه بحضور الحكام الإنكليز وأن الشعراء قد أنشدوا والخطباء قد خطبوا عن مآثره ، قاتل الله الجميع . وبعد ذلك قرأت أنهم سموا شارعاً باسمه فى يافا ! وقد أبدت جريدة

القطر عند نعيه شدة أسفها على فضله العظيم وعلمه الغزير ! مع أنني أعرف هذا الهالك فى يافا وأنا طفل وهو جزار ينادى على اللحم صائحا « ثلاثة بيشلك زغاليلك » !

— وصفت الجرائد حالة المجاهد الكبير عزيز باشا المصرى فى سجنه فقالت إنه يعانى أمراضاً شديدة وإن وزنه نقص ٢٠ كيلو وعملت له عملية فى المستشفى العسكرى وان عنده ضغط فى الدم فأخذ الأطباء يفصدونه ، شفاه الله .

— بلغنى أن إدارة الأمن العام أرسلت الضابط محمد يوسف إلى الأقطار المجاورة للبحث عنى وقد أجرى أبحاثاً فى صيدا وبيروت ، وهكذا فإن أخبار إدارة الجواسيس تصلنى بينما أخبارى معدومة عنها فرحى لها ...

— قرأت اليوم حكمة ملوكية عالية لأبى جعفر المنصور، فقد جئ إليه بعدو له فأمر بقتله فقال « اجعلها موتة كريمة بأمير المؤمنين » فقال له « لقد تركتها وراءك يا ابن اللخناء » يعنى أنه كان يستطيع أن يقاتل إلى أن يقتل فيموت موتة كريمة أو ينتصر ولكنه جبن فاستسلم فأصبح لا يستحق إلا التنكيل ولذلك أعدم.

— من أغرب السخريات بالذين يعبدون الأصنام قول الحسن البصرى « سبحان الله فى الناس ، لا يرضون من أحد منهم أن يكون لهم نبياً ولكنهم يرضون بحجر أن يكون لهم رباً » !

— لما أراد نابليون أن يكرم رجالات مصر عندما احتل البلاد خلع على الشيخ الشرقاوى الزعيم الكبير طيلساناً فرنسيا فرماه الشيخ إلى الأرض مشمئزا وظهر انفعاله وغضبه. فاغتاظ نابليون وقال إنه لتشريفكم ولتعظيم الجنود لكم، فقال الشيخ : ولكن إنعامك علينا يسقطنا أمام شعبنا. فليسمع هذا الحادث أولئك الذين يطيرون فرحاً بالإنعام عليهم بنياشين الامبراطورية البريطانية .

— اتضح مع أشد السرور أن الدكتور أمين رويحة لم يمت كما أشيع وأذاعته محطات الراديو ولكن الإنكليز نقلوه من سجون فلسطين إلى سجن رودسيا بجنوب أفريقيا أعانه الله.

— لما حاكموا فى فرنسا وزير الطيران مسيو لاشمبر قال فى المحكمة إن فرنسا أعلنت

الحرب ولديها ٥٠ طيارة قديمة . فما دام الأمر كذلك فلماذا تملنون الحرب ؟

قاتلكم الله ما أحبكم للحرب وما أنتم من رجالها ، ثم إنى أريد أن أفهم كيف يخضع نحو مئةمليون إنسان لفرنسا بينما قواتها بهذه القلة وما دام جيشها لا يصمد فى معركة ...

يفتحون البخت وشئون أخرى

بلغنى أن إدارة الجواسيس بالقاهرة استحضرت أحد العرافين وجعلته يكشف الغيب لمعرفة مكان وجودى ! وهذه الحادثة درى بها الناس وكانت موضوع سمر وتندر عند الجميع .

— وبلغنى أنهم راقبوا منزل الدكتور حافظ عفيفى باشا وراقبوا تلفونه مدة طويلة أثر على محادثته عنى مع رئيس الوزراء ولما يئسوا رفعوا الرقابة .

—قرأت فى الجرائد أن أحد أهالى فلسطين قد أمسك بأحد جواسيس الإنكليز وقلع له عينه، فليته فقأ الأخرى !

— وقرأت فى الصحف أن اللصوص سرقوا ملابس محمد يوسف ضابط البوليس « صاحبنا » الذى لا تظهر شطارته إلا على أبناء البلاد الإسلامية !

— كتب فؤاد باشا أباظة بالمقطم الصادر فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤١ ينسب للسوريين طلب حكم فرنسا لبلادهم والاستقلال عن الترك ! وأن انجلترا جديرة بتأليف وحدة عربية مؤلفة من العرب والترك وإيران ! وأنه يقترح الاتحاد النيلى بين مصر وأوغندا والحبشة ... وهكذا قد هزلت المسائل العربية إلى أن أصبحت مسخرة وعرضة لهذا التخليط .

هواجس وحوادث

يحدثنى قلبى بفرج قريب ولا أدرى لذلك سبباً ، فيا ترى هل يحدث فى الدنيا شىء جديد فيغير هذا الحال إلى حال أحسن؟ إن هواجس قلبى لا تكذب ، وقد اعتدت أن أشعر بالمكروه قبل وقوعه ، وأن أحس بالخير قبل حدوثه ، فهل هناك شىء ؟ .

— تقول مجلة المصور إن الحكومة ألفت لجنة من انجليز ومصريين للنظر فى أمر الذين يجب القبض عليهم واعتقالهم! إذن فالحالة تزداد سوءاً ! وإلا فما الذى يحملهم على هذا ؟ يظهر أن الفرج غير قريب !

— من سخريات الاستعمار أنه صار يستخدم للراديو مذيعين ينشرون دعايته باللهجات العامية، فمحطة إذاعة لندن تذيع الأخبار بلهجات الشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش والعراق واليمن وفى ذلك خطر عظيم على اللغة الفصحى .

— ذهبت لدكان زكى الحرون لأشترى جبنة فإذا به يباغتنى بقوله : ما رأيك ياسيدنا الشيخ فى حالة البلاد . وهل يؤلف مصطفى النحاس باشا الوزارة الجديدة ؟ فسألته عن سبب هذا السؤال فقال إنه سمع قادماً من القاهرة يقول إنهامضطربة وان المظاهرات قامت فيها ضد الحكومة وإن الجماهير الجائعة مشت وهى تسب رئيس الوزراء والإنكليز ، وتنادى بحياة ألمانيا والمرشال رومل . فشككت بهذه الأخبار وقلت لسائلى الله يقرب مافيه الخير ...

وانصرفت من عنده وأنا نشوان بهذا الكلام البديع الذى شممت منه ريح الفرج ولم أنم تلك الليلة من شدة السرور .

— وردت أخبار بواسطة القادمين من القاهرة تقول إن هناك مفاوضات لإسقاط الوزارة وتعيين الدكتور حافظ عفيفى باشا للرياسة ، وبعضهم يرشح محمود فهمى النقراشى والعياذ بالله.

حيلة لإخفاء أوراق

كثرت الأوراق عندى وفيها كل مادونته من مذكرات ، فخطر لى أن أبعدها عنى وأن أودعها فى مكان أمين . ولكن من يجسر على تحمل مسئولية إخفاء هذه العقارب ؟ كما أنها ثمينة عندى مثل روحى تماماً. لقد سبق أن أودعت صديقاً مذكرات حوادث الأسابيع الأولى على أثر حدوثها ومعها بعض الصور الشمسية ، فإذا به يصاب بوسواس سامحه الله ، فيعمد إلى تلك الأوراق والصور فيحرقها ، وقد انتحل لذلك أسباباً وأعذاراً ولكنها كلها كانت واهية ، لأن المسألة على كل حال أسفرت عن ضياع مذكرات وصور لا عوض لها ، وكان بإمكانه أن يردها لى أو يدفنها فى أرض الحديقة .

وأخيراً اهتديت إلى طريقة كنت أقرأ عنها فى كتب القصص الأمريكية ، وذلك أننى اشتريت من أحد باعة الصور الملونة صورة قرية أوربية بإطارها وزجاجها ففككت الزجاج من الإطار ومزقت الصورة وجئت بصورة لبدوية حسناء قصصتها من جريدة مصورة ووضعتها

فى الإطار بدلا من تلك ، ودسست جميع الأوراق التى أريد حفظها بين ظهر الصورة وبين الكرتون الخلفى قبل الزجاج، ثم أرجعت كل شىء إلى أصله وعلقت الصورة على الحائط. ولكن هذا لا يكفى لأن الشرطة إن اهتدت إلىّ فإنها ستضبط بطبيعة الحال جميع ما فى الغرفة ومن الجملة الصورة . نعم قد لا يخطر ببال الشرطة أن فى الصورة شيئاً لأن الشرطة إن اهتدت إلىّ فهى تريدنى أنا ولن يخطر لها أن تفحص الصورة ، إذ لا يوجد جرم تريد إثباته علىّ ، ولكن هذه الصورة ستظل فى خطر سواء أتركها رجال الشرطة أم أخذوها . فصرت كلما زارنى الأستاذ با كثير أصعد النظر إلى الصورة ، فاسترعى ذلك انتباهه فتأملها واستحسنها ثم طلبها، فأهديته إياها فأخذها إلى بيته وعلقها فى غرفة مكتبه وهو لا يدرى أنها تحتوى على الكنز المكنون ...

ومضت الأيام وصرت أزور منزل الأستاذ أكثر مما كنت أزوره ، وكل غرضى هو أن أطمئن على الصورة . مثل جحا لما كان يكثر من زيارة الدار التى باعها وترك فيها المسمار ... وكان الأستاذ با كثير يحدثنى فى كل زورة عن الصورة وجمالها وحسن وقعها فى نفسه ونفوس زواره ، وأنهم يكثرون من التأمل فيها! مع أنها صورة مقطوعة من إحدى المجلات ولا قيمة لها . ولكن سوء حظى جعل الزوار يفتنون بها ، وأخيراً قال الأستاذ با كثير إنه يستأذننى فى إهداء الصورة إلى صديق له ألح كثيراً فى الاستحواذ عليها ! وعند ذلك لم أجد مفراً من مكاشفته بالحقيقة وأن الصورة تخفى الكنز المدفون .

فلما سمع الأستاذ با كثير بخبر ما فى الصورة اندهش وهو يقول لقد استغفلتنى ياأبا الحسن! ومن يومها صار الأستاذ أبو كثير يحرص على الصورة ولا يمكن أحداً من إنزالها عن عرشها. ولما كثر المعجبون بها أخذها من مكانها وأخفاها فى صندوق الكتب وكفى الله أبا كثير فضول أصحاب الذوق الفنى السليم ، الذين لم تظهر عبقريتهم فى معرفة قيمة اللوحات الفنية إلا يوم أخفيت أوراق فى إطار تلك الصورة التافهة !

محمود فهمى باشا النقراشى

تكرر على الألسنة مرة أخرى فى أول سنة ١٩٤٢ نبأ العزم على التخلص من وزارة حسين سرى باشا وإسناد الرياسة إلى أحمد ماهر باشا أو محمود فهمى النقراشى باشا وقد سبق

للقراء أن لحظوا استعاذتي بالله يوم جاءت سيرته لأول مرة[١].

الأحوال قبيل نهاية عهد الاختفاء

نحن الآن فى أوائل سنة ١٩٤٢ الحرب دائرة فى كل مكان ، وأعلام الألمان واليابان تسير من نصر إلى نصر ، وجيوش انكلترا وأساطيلها تتراجع من كسر إلى قهر ...

وكانت معركة ستالينغراد بين الألمان والروس فى أوجها ، والدنيا كلها متجهة إليها لترى كيف يكون مصير الحرب ، أما أنا فإننى برغم وحدتى وعدم اتصالى بالناس كنت أقدر بغريزتى وقياساً على تجربيات الحرب العظمى الأولى ، أن هذه المعركة القائمة بين الألمان والروس فى ستالينغراد هى التى ستقرر مصير العالم إلى مئات السنين ، فإما أن تنكسر روسيا فى هذه المعركة الفاصلة وسيتبع ذلك هزيمة انكلترا وانهيار الاستعمار من الدنيا كلها ، وإما أن ينهزم الألمان أمام الروس فتربح انكلترا الحرب على حساب روسيا . كما تربحها أميركا بعد الحرب على حساب انكلترا ، لأن هذه ستتفق مع أمريكا وتلجأ إليها بعد الحرب لإذاقة الروس أنواع النكال ، ولا يمكن إلا هذا ، ولن تسمح أميركا للروس بأن يشاركوها السيادة على العالم وقد قال العرب قديماً «ما اجتمع فحلان على مزود إلا فتك أحدهما بالآخر» فكيف بالروس البلاشفة والإنكليز الاستعماريين ومعهم الأميركان الرأسماليين[٢]؟!

(١) ذلك أن هـذا الرجل بعد أن كان صديق إذا به لما انشق على النحاس باشا يعاديني ، لأني بقيت صديقاً للنحاس باشا ، وقد آذاني النقراشي كثيراً ، وكنت قد سطرت عنه فى مذكراتى هذه بعض أعماله معى ومع غيرى ومع الأمة المصرية كلها ، ومع العالم العربى بأسره ، فبلغ ماسطرته نحو ٤٠ صفحة من هذا الكتاب ، ولكن النقراشي توفى فلم أجد فائدة من إثبات ما كتبت عنه ، لأنى كتبت ما كتبت ليطالعه هو ويعرف ما يقال عنه لعله يتصلح . أما وقد توفى فقد حذفت الفصل الخاص به ، مكتفياً بكلمات قليلة قالها مصطفى النحاس باشا وهو يصف حكم النقراشي بعد أن تولى رياسة الوزارة سنة ١٩٤٥ وهذا بعض ما قاله :

« لقد أهلك هذا العهد الحرث والنسل ، وألحق الخسار والدمار بكل مرفق من مرافق البلاد سواء فيما يتصل بحقوقنا فى الخارج أو فى الداخل ، كل ذلك لكى يمكنوا لأنفسهم من الحكم ، ويهيئوا المغانم والأسلاب لطلاب العاجلة الذين تحكمت فيهم الشهوات ، وسيطرت عليهم الأهواء ، ولعلى لست فى حاجة إلى تفصيل أو تبيان فى هذه الناحية فإن البلاد كلها تحس وترى إلى أى أحد فسدت الأمور وساءت ، وكيف انطلق زبانية العهد يتحكمون فى رقاب العباد ومصالح الناس » .

(٢) لقد وقع هذا كله مع الأسف ، وهانحن نرى فى سنة ١٩٥١ طلائع الحرب الثالثة بين روسيا من جهة ، وأمريكا وانجلترا من جهة أخرى .

وصف حالى أنا

اشتد البرد فى البلاد المصرية هذه السنة لدرجة لم يحدث مثلها منذ خمسين عاماً ، وكنت فى مخبئى فى المنصورة أعانى الهول من شدته ، فملابسى غير كافية وفراشى كذلك ، وكانت الغرفة واسعة لا يمكن أن يدفئها فرن بكامله ، وأرض الغرفة عادية ومنافذها كثيرة غير محكمة الزجاج ، فكان الهواء يصفر فى جنباتها فيهز نوافذها هزاً . فكنت أقضى اليوم كله والليل بطوله ملتفاً بتلك البطانية الرخيصة ، منطويا على نفسى ولا تسلية لى فى هذه الوحدة إلا آلة الراديو التى كنت أتركها مفتوحة ليلا ونهاراً أسمع منها المحاضرات والموسيقا والأخبار جميعا حتى الأخبار التافهة ...

ولما اشتد البرد تسللت من مكمنى واشتريت دفاية ، أى مجمرة من الفخار ، وابتعت فحما وصرت أوقد النار فى المجمرة للاصطلاء ، فساعدنى ذلك على احتمال العذاب الذى كنت أعانيه وكانت القطة « حبيسة » ترفه عنى وتؤنس وحدتى بالجلوس على كتفى طول الوقت وهى تقرقر وتبربر ...

وصف حالات وخواطر

اشتد الضيق وأخذت المجاعة فى البلاد المصرية تنتشر ، واختفى الخبز من الأسواق منذ ثلاثة أيام ، وقد بحثت عن رغيف بأى ثمن فلم أجد ، فاكتفيت بأكل البلح والأرز وبلغنى أن الناس فى بور سعيد أكلوا بدل الخبز بطاطة حلوة !

– السخط عام على رئيس الوزراء ، وقد نويت عند سقوطه عن كرسى الحكم أن أرسل إليه بالبريد الأبيات الآتية وهى لزكريا بن مطروح قالها فى حاكم أزاحه الله فأمطرت السماء بعد عزله :

ورب وال سرنا عزله	فبعضنا هنأه بعض
وقد وصلتنا السحب من بعده	ولذ فى أجفاننا الغمض
لو لم يكن « . . . » شخصه	ماطهرت من بعده الأرض

ولكني فضلت أن أحتفظ بالأبيات ليقرأها في هذا الكتاب إن قدرت لي السلامة وهذا أحسن من أن يرميها أو يمزقها !

— لاتزال الوزارة في حالة الاحتضار ، وقد تسربت إلى الجماهير أخبار من القاهرة تقول إن رياسة الوزارة عرضت على النحاس باشا بشرط أن يقبل فيها زملاء من غير الوفديين فرفض وقال إنه لا يستطيع أن يعمل مع أشخاص ثبت ضررهم وتكرر خروجهم على الأمة غير مرة ، وكيف يأمن لخصومه الذين هم أعوان الإنكليز بأن يشاركوه الحكم ليكونوا عيوناً وآذاناً للإنكليز ؟

وقد دونت في تلك الأيام حوادث الوقت بالتعبيرات الآتية « حالة جوقة التمثيل مزعزعة فياترى هل يبقى الممثل الأول ـ أي سري باشا ـ أم يجيء أبو درويش ـ أي مصطفى النحاس باشا ـ إذا لم يتبدل شيخ الكتاب « أي رئيس الوزراء » في هذه العاصفة ضاعت الفرصة وسيطول عذاب الأمة وتمتد أيام محنتي » ...

محاصرة قصر عابدين بالدبابات

وفيما كان الناس يرقبون المستقبل إذا بأخبار قد شاعت بأنه في ٤ فبراير ١٩٤٢ حاصر الإنكليز القصر الملكي بالدبابات واقتحموه ودخل كبار ضباطهم بهو القصر والسفير البريطاني كيلرن أي لامبسون في مقدمتهم ، وهم يشهرون السلاح وطلبوا إقالة الوزارة الحاضرة وتشكيل وزارة يرضى عنها الشعب المصري لتوقيف موجة الغضب من الحالة حتى لا تقوم ثورة في مصر ضد الإنكليز تكلفهم جيوشاً هم في حاجة إليها في ميادين الحرب الأخرى ...

فكان لهذا التهجم على تاج الوطن أشد الوقع في نفوس الناس ، وقد هاجت الأفكار وحصل اضطراب في الخواطر كاد يفجر غضب الشعب الذي كبته الإنكليز وحكومتنا بالنار والحديد ...

وزارة مصطفى النحاس باشا

وفي الصباح الباكر من يوم ٥ فبراير سنة ١٩٤٢ نزلت إلى السوق لمشترى الجرائد والوقوف منها على آخر الأخبار فإذا بتاجر البقالة زكي الحرون يناديني ويقول لي : « مبروك

ياشيخ محمد «لقد راح الراجل فى داهية وجاء النحاس باشا» ثم أبرز جريدة الأهرام فقرأت العنوانات الرئيسية فإذا بها تبشر بتأليف الوزارة برياسة النحاس باشا فكدت أرقص لشدة السرور الذى شعرت به فى تلك اللحظة ولكنى ضبطت نفسى ومشيت ..

إن زكى لايدرى أهمية هذا الخبر عندى وعلاقته بحالى وبمصيرى ، ولكنه بشرنى به « ليفضفض » عن صدره كما أن الناس كانوا يبشرون بعضهم بعضاً ، وليس بالشىء القليل خلاص الأمة من وزارة بغيضة أهلكت الحرث والنسل .

وقد شيعت الأمة تلك الوزارة بالسباب ومظاهرات السخط ، واجتمعت الألوف أمام القصر الملكى تهتف بلعن الذين جوّعوا الأمة وأرهقوا الشعب ، كما كانت الجموع تهتف لمصطفى النحاس باشا من قلوب انطلقت من جحيم الأسر ..

وكانت الحوادث تجرى بسرعة وتتوالى متلاحقة ، فشبهت انهيار تلك الحكومة وسرعة دك أركانها بأنها الصيحة التى تأخذ الظالمين بغتة .

وأخذ النحاس باشا ينظف الأداة الحكومية من جميع الفتاكين وأعوان الاستعمار ، ولعل أعظم ما طربت له أنه عزل حمدى محبوب باشا من وزارة الداخلية وهذا وحده يكفى لأن يجعل الشعب يقدس النحاس باشا الذى أمر أيضاً بتجهيز بيانات عن الذين اعتقلوا وحبسوا وأسباب ذلك توطئة للنظر فى حالهم ، وقد أقيمت الأفراح والمهرجانات فى جميع أنحاء البلاد ، وحل النحاس باشا برلمان ذلك العهد الأسود وأجرى انتخابات جديدة .

إن كل شىء كان يطربنى ويطمئن بالى وقد هبت علىّ نسمات من الأمل بالخلاص وبالحرية.

كلمة لحاكم سياسى عربى .

قال الحجاج للمهلب بلغنى حجزك جماعة مصر ثم تركهم ، فإن أذنبوا فقد أخطأت فى تركهم، وإن أبرياء فقد أخطأت بحجزهم، فقال المهلب «ظننت فحجزت، واطمأننت فسرحت» وأما بعض رجال الحكم فينا فإنهم يؤمرون بالحبس فيحبسون الناس بدون أن يظنوا ثم يؤمرون بتركهم فيتركونهم بدون أن يطمئنوا ...

هلاك استعماري

روت الصحف نبأ موت نوري الشعلان شيخ عرب الرولة في سورية وكان هذا الرجل من أشهر أعوان الاستعمار الفرنساوي وقد اضطرب الإفرنسيون لموته وحزنوا عليه وقد حضر واجنازته وفي أولهم الجنرالين كاترو و كوليه الشقي المشهور الذي اغتال المرحوم أحمد مريود في جباتا الخشب في ثورة سورية ١٩٣٦ . وقد دفن نوري الشعلان ووجهه إلى قريته «بريدة» وذلك بحسب وصيته، بدلا من أن يوصي بتوجيه وجهه نحو «مكة» مثلا ، فليته أوصى بجعل وجهه نحو باريس ...

الشيخ عبد المجيد اللبان

بلغني أن الشيخ عبد المجيد اللبان العالم الشهير وشيخ كلية أصول الدين كان داخلا إلى منزله فوجد نجله سعد بك اللبان عضو مجلس النواب يجلس مع بعض الزوار فسأله عنهم فقدمهم إليه وكانوا من زملائه أعضاء المجلس فقال له على مسمع منهم « إن كنتم نواباً بحق فاعملوا على إطلاق محمد على الطاهر الذي يعذب في السجن بدون سبب سوى انتقام المستعمرين منه لجهاده في سبيل الله » فما كان منهم إلا تلبية إشارته والسعي في ذلك ، وممن تفانوا في هذا السبيل محمد عبدالرحمن بك نصير نائب جمجرة . وبلغني كذلك أن عبدالحليم بك أبو سيف راضي نائب بني سويف قد راجع السفارة البريطانية من أجلي فأخذ الخواجة سمارت مستشارها الشرقي يماطله ، ثم قال له بعد أيام إن المختصين في القيادة العسكرية يعارضون في إطلاقه بكل شدة.

رحم الله الشيخ اللبان فقد كان علماً من أعلام الإسلام ومن خيرة العلماء الجريئين على الإنكليز وخادماً للمسلمين ، وبارك الله في محمد عبد الرحمن نصير وعبد الحليم أبو سيف راضي.

خبر عن هارب ومجير

عندما ذهب عبد الرحمن الداخل للأندلس توارى من عبد الرحمن بن حبيب والي أفريقية واختبأ عند «وانسوس البربري» الملقب بأبي قرة أحد شيوخ البربر . فلما فتش زبانية ابن حبيب دار وانسوس أخفته زوجته «تكفات» تحت ملابسها. فلما صار عبد الرحمن ملكا استدعاها وأكرمها ثم داعب تكفات قائلا إنها عذبته بريح جسمها وإبطيها أكثر من فزعه من الأعداء كما أنها «ضرطت» فكادت تخنقه . فقالت للملك بسرعة والله ياسيدي بل أنت الذي ضرط ولم تشعر لشدة خوفك! فضحك الملك من جوابها ولم يتكدر منها وهو ملك الملوك ، ثم أمسك عن الزيادة في المزاح .

بعد الانقلاب

كيف جعنا ـ كيف سقطت الوزارة ـ صفحة تاريخية

بقى الجانب الحقيق من هذه الأمور مجهولاً عنـد الناس طول مدة الحرب ، وإلى مابعدها بثلاث سنين بسبب وجود الرقابة على الصحف وبعد ذلك قامت ضجة صحفية حزبية فى القاهرة أسفرت عن كشف أمور كثيرة عما كان يجرى خلف الستار ، وهذه خلاصة منها أذاعها الأستاذ أبو الخير نجيب الـكاتب السياسى فى جريدة النداء (٢٣ ديسمبر سنة ١٩٤٥) نقلا عن رواية حسن نشأت باشا سفير مصر الأسبق فى لندن وإنى أسجلها هنا قبل أن تفوت مناسبتها ، قال نشأت باشا :

المجاعة وبدء الثورة

« تحرجت الأمور فى الأسبوع الأخير من شهر يناير سنة ١٩٤٢ .. ونشرت المجاعة جناحيها على البلاد ، وأخذ الناس يهجمون على المخابز فى طلب القوت ... وعلى مركبات الخبز المتسللة تحت جنح الظلام ، فيلتهمون ما يكون فيها من الأرغفة .. وحتى رئيس الوزارة نفسه وزملاؤه الوزراء تعذر عليهم جميعاً الحصول على الخبز ، فاستعاضوا عنه بالمكارونة والبطاطس والفاكهة .. وهذا ماسمعته يومئذ بنفسى من سرى باشا ومن بعض أعضاء وزارته .

الاضطرابات

وبدأت الاضطرابات الناشئة عن الجوع ، تظهر فى شكل مظاهرات صاخبة ضد الإنكليز ، مهدت لها منشورات تقول إن الإنكليز هم سبب تجويع البلاد وأن مجىء الألمان هو الوسيلة الوحيدة للنجاة من مخالب الإنكليز ...

وبدأت مظاهرة كبرى تطوف القاهرة ومرت بميدان عابدين وهى تهتف « إلى الأمام ياروميل » ... « تسقط بريطانيا العجوز » وجرت مظاهرات مثلها فى الاسكندرية .

لا تتعرض لأحد !

وعقد مجلس الوزراء وقرر سرى باشا أن يرفع استقالة وزارته إلى جلالة الملك . وبينما كان دولته يرأس اجتماع المجلس اتصل به اللواء رسل باشا «الإنجليزى» حكمدار بوليس القاهرة فى ذلك

الحين وأبلغه نبأ هذه المظاهرات مبينا له خطورتها، والعبارات التي تتردد على ألسنة المتظاهرين ثم سأله عن التدابير التي تتخذ لقمعها فكان جوابه : «ليس عندى تعليمات.. الوزارة استقالت.. لا نتعرض لأحد . » ؟

ماليش دعوة ...

وبعد قليل اتصل السفير اللورد كيلرن بدولة سرى باشا تليفونيا وأبلغه أنه قادم لمقابلته هو وقائد القوات البريطانية ، فلما قابلاه لفت السفير نظره إلى خطورة المظاهرات ، وخطورة الهتافات ، وامتناع البوليس عن التعرض لها مما يهدد الأمن والنظام ويعرض حياة الجنود الإنكليز والمنشآت الإنكليزية العسكرية والمدنية للخطر ... فكان جواب رئيس الوزارة: «أنا ماليش دعوة» «أنا مستقيل» فقال السفير: لكنك لا تزال رئيسا للحكومة واستقالتك لم يبت فيها والوزارة التي تخلفك لم تؤلف، فأجاب: قلت لك إننى استقلت وليس فى مقدورى أن أمنع المظاهرات فقال السفير: نحن مضطرون إذن إلى حماية مصالحنا وأرواح جنودنا ... فهل تريد أن نستخدم قواتنا فى ذلك؟! فقال سرى باشا أكرر إننى أصبحت غير مسؤول.. وغير قادر على منع شئ ...

جلالة الملك والمظاهرات

وأبرق السفير البريطانى عقب هذه المقابلة إلى حكومته برسالة خطيرة ذكر فيها تفاصيل هذا الحديث وأضاف قائلا : إن سرى باشا قال لى : إن جلالة الملك فاروق راض عن هذه المظاهرات ، وإنه من أجل ذلك ليس فى وسعه أن يتعرض لها .

السفير عند الملك

ولم تمض ٢٤ ساعة على هذه المقابلة حتى تشرف اللورد كيلرن بمقابلة جلالة الملك وبين لجلالته خطورة الحالة ، وأوضح أن مصالح بريطانيا العسكرية معرضة للخطر الشديد من جراء الفوضى التى تفشت فى البلاد ، والمظاهرات العدائية التى تركت لهـا الحرية ثم عرض على جلالته رأى حكومته فى ضرورة إسناد مقاليد الحكم إلى مصطفى النحاس باشا بوصفه زعيم الأمة كوسيلة حاسمة لتهدئة الحالة ، وإقرار النظام ...

قرار الإنكليز!

وقد كان موقف سرى باشا من مظاهرات « إلى الأمام يا روميل » وما دار من حديث بينه وبين السفير ، والمحادثة التليفونية التى جرت بينه وبين رسل باشا بمثابة القطرة التى فاض بها قدح الماء .. فعوّل الإنكليز عندئذ على التدخل الحاسم فى الأمر بكل الوسائل ... وأطلقوا يد سفيرهم فى مصر ومنحوه سلطة إيجاد المخرج مع الرجوع إليهم فى المواقف الحاسمة .

وقد كان هدف الإنكليز هو التخلص من جلالة الملك فاروق ومعاملته معاملة الأعداء .. ثم اتخاذ الذرائع للسيطرة بعد ذلك سيطرة مباشرة على البلاد وحكمها حكماً بريطانياً مباشراً طوال الحرب ، والقبض على الزعماء جميعاً بما فى ذلك مصطفى النحاس الذى افترضوا أنه لا يقبل الحكم فى مثل هذه الظروف ...

بداية الضغط ...

وبدأ السفير ضغطه الدبلوماسى أولا .. ولكن بصورة استفزازية لحمل الملك على الرفض ومن ثم يتاح له استخدام الضغط المسلح الذى يؤدى فى تقديره إلى ازدياد التصلب محافظة على الكرامة ، وعندئذ ينفذ البرنامج الذى رسم فى لندن لينفذ فى القاهرة .. وذلك على ضوء الحديث الخطير الصريح الذى جرى بين سرى باشا والسفير .

المنقذ ...

ثم حدث ما يعرفه الناس جميعاً من دعوة النحاس باشا من مشتاه فى أقصى الصعيد ، ومن عقد الاجتماعات فى قصر عابدين ، ومن مشاورات واتصالات ومؤامرات هنا وهناك للحيلولة دون تولى النحاس باشا الوزارة وحده ... حتى إذا وقعت الفاس فى الراس هرب الجميع ولم يبق إلا مصطفى النحاس ، الذى جعل من نفسه درعاً صد به الإنكليز عن العرش وصاحبه . بذلك أحبط المؤامرة وكيد المتآمرين . ورد مصطفى النحاس حشود الدبابات التى دفعها حسين سرى بسياسته الخاطئة إلى قصر عابدين .

وقد كان من الميسور أن يتغير مجرى الحوادث لولا حرص سرى باشا على الظهور بمظهر

الصديق للإنكليز، الذى لايستطيع أن يتحمل مسئولية تصرفات قال عنها إنه ليس فى مقدوره منعها ، وذلك على الرغم من تحققه من توتر العلاقات بين القصر والإنكليز » اه .

وزارة النحاس باشا

أما وقد تألفت الوزارة برياسة مصطفى النحاس باشا فقد لوحظ أن أعضاء الوزارة كانوا هم الوزراء الذين كانوا معه فى وزارته السابقة ، وقد تعمد النحاس باشا من جعلهم وزراء لعهده الجديد أن يرد بذلك على الذين اتهموه واتهموهم معه عند الإقالة بكل نقيصة ، لأن رجوعهم جميعاً إلى الحكم هو فى حد ذاته الحكم القاطع ببراءتهم ، وإن إقالة وزارته السابقة إنما كان تجنياً عليه وعلى أولئك الوزراء .

ملحوظة : ولا يزال النحاس باشا منذ بدأ يشكل وزاراته من سنة ١٩٢٧ إلى الآن سنة ١٩٥١ يجعلها مؤلفة من زملائه الذين يعزلون معه ، وبذلك كسب النحاس الرأى العام كسباً حقيقياً ، وأصبح الناس لا يصدقون شيئاً عن كل ما يقال عنه وعنهم عند كل إقالة

فحص الناس !

جلست مع أحمد حسن بدر على رصيف قهوة البرنسات بالمنصورة فقال مارأيك بفحص شخصيات المارة فى الشارع ؟ فقلت هيا ...

ومر شخص ، فقلت لأحمد بدر : هذا الرجل الذى يمشى أمامك بالعمامة والجبة ليس عالماً بل هو تاجر أو سمسار أو مقاول ، فقال : صدقت والله ، فهو سمسار قطن ، ولكن كيف عرفته ؟ فقلت : لأن مشيته وضخامة كرشه وكثرة التفافاته وعدم وجود كتاب فى يده أوجريدة ، مع نعومة وجهه لاتدل على أنه من أهل العلم .

ومر آخر وهو يلبس الملابس الأفرنجية فقلت له : وهذا معلم فى المعارف أو كاتب فى إدارة الأوقاف . فقال صدقت لأنه مدرس بمدرسة شربين فكيف عرفته ؟ فقلت من عدم انتظام هندامه ومن الُنشة التى يحملها ويلوح بها بسبب وبلاسبب كأنها عصا الشيخ فى الكُتّاب ! .

ومر ثالث وكان يلبس لباس الأزهريين فقلت له إن هذا ليس بأزهرى ولكنه من رجال القضاء الشرعى . فقال وكيف عرفت ذلك ؟ فقلت إن مشيته فيها شىء من الاعتداد بالنفس

والغطرسة ، كما أن جماعة الأزهر لهم طابعهم ورجال القضاء الشرعى لهم طابع آخر ، فقال صدقت فهو قاضى محكمة المحلة الكبرى الشرعية .

ومر شخص رابع فوقف يتكلم مع أحد الجالسين على القهوة ثم انصرف ، فقال أحمد بدر : وهذا ؟ فقلت إنه أقوى شخصية فى المنصورة ! فقال لماذا ؟ فقلت من شكله ، ومن اهتمام الجالسين به وتطلعهم إليه ومن حركاته وصرامته وهو يتكلم ، وكونه كمن يشعر بوجاهته ومكانته ، فقال صدقت والله ، فقلت من هو؟ فقال إنه كامل يوسف صالح بك المحامى وعضو النواب السابق .

ملحوظة: وبعدسنين من هذا الكلام اجتمعت بكامل يوسف بك صالح وتعرفت عليه فى منزل الزعيم مصطفى النحاس باشا ، فقصصت عليه بحضور الباشا ما كان فى تلك الأيام فكانت هذه القصة مثار تندر ، وقد شكرنى كامل بك أولا على حسن ظنى به ، وقال إنه كان يتمنى لو أظهرت له نفسى ليقوم بكل خدمة من أجلى ، فقابلت لطفه بالشكر .

برقية ...

كنت فى هذه الأيام لا أفكر إلا فى شىء واحد وهو أن أذهب إلى القاهرة وأستشير اخوانى ومخاطبة النحاس باشا فى حالتى ، ولكن من هو الذى يقومُ بذلك من بين أصحابى الذين لهم شخصية تؤهلهم لباحثة رئيس الوزراء ...

وإذا بخبر قرأته فى الصحف أن رشيد بك الحاج إبراهيم أحد مجاهدى فلسطين الذين أبعدوا فيامضى إلى جزر سيشل قد جاء مصر لباحثة الوزارة فى أمور تموين العرب فى فلسطين وقد سبق أن كنت الواسطة فى ربط المودة بينه وبين الباقين من أسلافه فى سيشل مصطفى النحاس باشا ومكرم عبيد باشا وزير المالية بعدذلك ، فركبت إلى مدينة سمنود بلدة النحاس باشا ومسقط رأسه ، وأبرقت منها إلى الدكتور خورى البرقية الآتية :

سمنود ١ مارس ١٩٤٢ — الدكتور جاك خورى الفجالة ٦٤ بمصر .

نرجوكم الترحيب برشيد وتكلفوه بصفته قادم لمصر خصيصاً لمسألتنا بمقابلة رئيس المحفل وكرم وهو يخلصها بهمته فالظرف مناسب. إمضاء « يعقوب البخارى »

وواضح أن المقصود برئيس المحفل رئيس الوزراء وأما كرم فهو مكرم باشا، وفى هذا التلغراف إيحاء صريح لرشيد ليعرف كيف يدير دفة الحديث . . .

وقد مر هذا التلغراف على الرقابة فلم تنتبه إلى ما فيه ، وبعد يومين جاءنى كتاب من الدكتور بأنه قد فهم ... وسيدور البحث بشأنى عند اجتماع رشيد بالنحاس باشا لأنه قادم للاجتماع به .

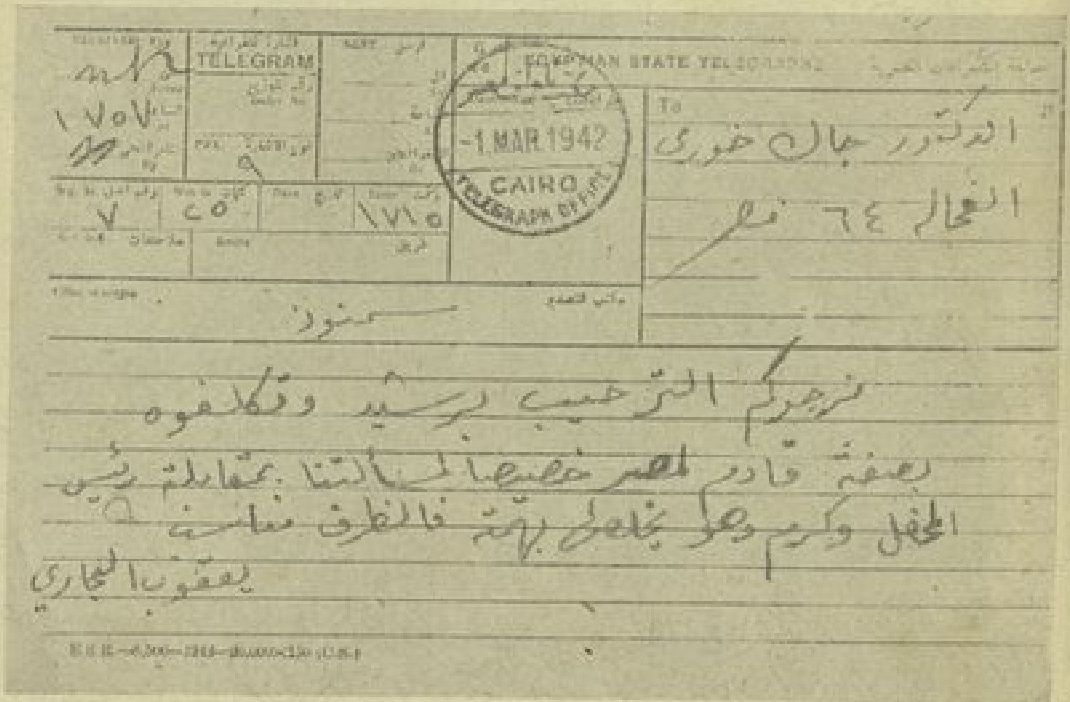

نص التلغراف الذى تلقاه الدكتور مى

تلفون وحوادث

وخطر لى بعد ذلك أن أدرس المسألة مع صديق عبدالستار بك الباسل فسافرت إلى المحلة الكبرى وطلبت منزله بالتلفون فى الجيزة بضواحى القاهرة ولكن التلفون لم يرد فرجعت آسفا

— كان أحمد بدر يمشى معى فى إحدى الحارات فقلت له : ألا توافقنى على أن الرجلين اللذين مررنا بهما الآن وكاد كتف أحدهما يمس كتفى هما من رجال الشرطة السرية ؟ فقال وكيف خطر لك ذلك؟ فقلت إنه إلهام، حتى إنى أصبحت كأننى أشم رائحة الجواسيس بالغريزة!

فقال والله إن ظنك فى محله لأن الطويل من الرجلين هو ضابط المباحث السرية والثانى من أعوانه!

الله يسترها معك ...

— لاأزال أقرأ فى الجرائد أخبار تقاطر اليهود على فلسطين فى السفن الإنكليزية بالألوف ، فقلت فى نفسى صبراً فإن انكسار انجلترا فى الحرب سيحل مشكلتهم وسيهربون من فلسطين قبل خروج الإنكليز منها ...

— كنت أذهب قبل غروب كل يوم للمشى على كوبرى المنصورة للتريض فأمر بفقير مريض منكب على وجهه بدون أن يثقل على المارة بطلب الإحسان لأن حاله كان أبلغ من سؤاله فكنت أميل نحوه وأعطيه صدقة فيرفع رأسه المهيض ويقول لى «الله يسترها معك» فكنت أستبشر بهذا الدعاء وأتيمن به

— بلغنى أن من جملة البيوت التى فتشوها بمصر منذ شهور منزل صديق الأستاذ سامى الشوا الموسيقار المشهور، ولكنهم لم يجدوا فيه طبعا إلا الكمنجات وآلات الطرب! وقد بلغنى أنهم لما فتشوا دار الشيخ إبراهيم إطفيش فى المطرية نزلوا إلى البدرون للتفتيش عنى بعد أن كسروا الباب فوقف لهم أحد أطفاله وأخذ يسخر منهم ويقول لهم : أنتم تعملون الآن مثل الحرامية ...

— وقد تذكرت الآن غلطة كدت أقع فيها بيد ضابط من الشرطة لولا إلهام الله ، وذلك أننى نويت مرة أن أسكن المطرية بقرب دار الشيخ إبراهيم إطفيش فوجدت مسكنا

في أثناء حياة الاستقرار

للأجرة ولكن اتضح قبل الاتفاق أن العمارة يملكها أحد كبار ضباط البوليس وأنه يسكن جانبا منها !

– شتم أحد مراسلى الصحف الإنكليزية أهالى سنغافورة لأنهم وقفوا يتفرجون على احتلال اليابان لبلادهم بعدم اكتراث، ثم وصفهم بالبلادة ! يعنى ان هذا الخنزير كان ينتظر منهم الدفاع عن انجلترا التى أهلكتهم ...

رحلة إلى القاهرة ومقابلة حافظ بك عوض

وأخيراً خطر لى أن أباشر العمل . ولذلك طلبت من أحمد حسن بدر أن يرافقنى إلى القاهرة ففعل ، ووصلنا إلى منطقة المطرية بطريق بنها وميت كنانة وطوخ وشبين القناطر، ولما نزلنا فى محطة المطرية وجدت نفسى بين أحضان شخص تلقفنى وأنا أقفز درجة القطار فانتفضت انتفاضة شديدة لأنى ظننته من الشرطة ... ولكن لما تبينت وجهه إذا به صديق الشيخ ابراهيم اطفيش ، ففرحت به فسألنى عن حالى فقلت له إن الفرج قد اقترب وستسمع عنى ما يسرك . فابتهج ودعا لى ثم ودعته ومشيت مع رفيق وهو لا يدرى إلى أين أقصد . وبعد ذلك وقفت وأشرت إلى « فيلا » وقلت له هذا بيت أحمد حافظ بك عوض فعليك أن تسأل عنه وتجتهد فى مقابلته وحدك ، وإن كان عنده أحد فاطلب منه سراً أن يصرفه بأى شكل

كان لأجتمع به وحدى . فذهب وجلست على حجر تحت شجرة ، وكان الوقت يقترب من الغروب. وبعد لحظة رأيت شخصاً يغادر منزل حافظ بك ، ثم جاء أحمد بدر يقول إن حافظ بك ينتظرك وحده . فأسرعت إليه وكان ينتظرنى بباب الحديقة فرحب بى وعانقنى ثم قادنى إلى غرفة صغيرة فى الحديقة وقد كتب على بابها بخط جميل «حجرة الذكريات» فدخلنا وأجلت نظرى فيها وكنت أعرفها من قبل ، فأخذت أفتش عن الصور التى ضمتنى مع حافظ بك فى حفلات ومجتمعات فرأيت فيها شبابى الغارب وهنائى الزائل ...

كان الحديث هنيئا لطيفا مع حافظ بك، لأنه الصديق الوفى القديم الذى يرتاح إليه الخاطر وتطمئن النفس إلى صحبته .

قلت لحافظ بك إننى قادم من بعيد وأريد أن أستشيرك فإن موقفى الآن قد تحسن بوجود مصطفى النحاس باشا فى الحكم ، فأنا أريد أن أسلم نفسى إليه بلا قيد ولا شرط لأنه مجاهد ويقدر ظروفى ، وهو مع ذلك يحبنى ، فهل أذهب إليه بغتة وأقدم إليه نفسى أم تستحسن الاستئذان منه، وهل نجتمع أولاً بمكرم عبيد باشا صديقنا القديم الذى هو موضع ثقة النحاس باشا ونستشيره ، وكيف نستطيع الاجتماع به وحده ؟ إنى أتصور أن الناس لا يفارقون مكرم باشا لا نهاراً ولا ليلا ، فهم عنده وحوله فى داره وفى مكتبه فى كل وقت، فما هو الحل الذى تراه ؟
فقال حافظ بك إن الذهاب إلى النحاس باشا رأسا فيه إحراج له ، فالأحسن أن أذهب أنا إلى مكرم باشا وأتفق معه أولاً وبعد ذلك نرى، فإما أن يكلم هو النحاس باشا قبل الاستسلام ويستشيره فى الأمر ، وإما أن يوافق على مفاجئة النحاس باشا بذهابك إليه ووضعه أمام الأمر الواقع .

وهنا تذكرت كلام وكيل إدارة المطبوعات الوفدى لما قال لى فى سنة ١٩٣٧ بلسان حكومة الوفد «إنها الآن حكومة وليست هيئة مجاهدة حرة » ...

وأخيراً اتفقنا على أن يجتمع حافظ بك بمكرم باشا ويبسط له المسألة ويأخذ رأيه قبل أن نقوم بأى عمل . ومكرم باشا صديق قديم وقد نصرته فى مناسبات عديدة فلا أظنه يقصر ، لا سيما أن المسألة مشرفة وليس فيها أى خسارة للوفد بل على العكس فيها ربح أدبى

له لأننا لا نطلب إلا رفع ظلم وفيها ثقة به ودعاية له ، وأن مساعدتى هى واجبة على كل إنسان ، فكيف بحكومة مجاهدين جرب رجالها الظلم واحتملوا الأذى . فلا يعقل أن يخذلوا صديقاً لهم أصابه الكثير من المكروه بسبب حبه لهم وميله نحوهم ...

وأخيراً أعطيت حافظ بك عنوانا وإسماً وقلت له يمكنك أن تكتب لى بعد أسبوع ببعض الكلمات المبهمة، فأفهم منها نتيجة سعيك، ثم ودعته وودعنى، وعدت ومعي رفيق إلى المنصورة فى سيارة خاصة استأجرناها من «جاراج» يواجه السجن الذى كنت فيه ! فوصلت المنصورة بعد منتصف الليل

برنامج للمستقبل ...

رجعت إلى مكمنى القديم أعد الساعات وأحصى الدقائق وأفكر فى المستقبل ، ثم رسمت البرنامج الآتى: متى انكسر الإنكليز وتفكك الاستعمار يصبح فى إمكانى السفر والتنقل فى جميع أنحاء العالم ، وسأجعل ديدنى التشهير بالإنكليز ونشر فظائعهم وتعييرهم بما اقترفوا مع الخلق حتى لا يشفق عليهم أحد بعد كسرهم ، لأنى أتوقع منهم المسكنة أمام المنتصرين كعادتهم كلما وقعوا فى المآزق .

أما إن انتصر الإنكليز والعياذ بالله ولا أرانى ذلك اليوم فإن الصراع سيكون معهم شديداً وإنى أتوقع منهم غطرسة أشد من الأول ، وأنتظر للأمم الضعيفة على أيديهم أنواع القهر والذل والوقاحة . ثم أمسكت عن التفكير ووضعت الكفين على عيونى من هول هذا الخاطر محاولا طرده من ذهنى ، لأن انتصار الإنكليز معناه شقاء الإنسانية لعدة قرون مقبلة ، وبقاء العالم الشرقى فى ظلام الأسر والعبودية زمنا طويلا .

عبد الله نديم

يظهر أن محيط الإنسان وحالته توحيان إليه الاهتمام بكل مايشبه محيطه وأحواله ، ولذلك كنت أهتم كثيراً بأخبار الهاربين من الدول والملوك والحكام ، ولا شك فى أن المرحوم الشيخ عبد الله نديم ، أحد أركان الثورة العرابية فى مصر ، يعتبر فى العصر الأخير أشهر هارب من « الدولة » ...

خلاصة قصة

وأخبار السيد عبدالله نديم فى هربه كثيرة ، لأن مدة فراره كانت طويلة تجاوزت التسع سنين ، والفضل فى عدم عثور الحكومة عليه يرجع إلى كون أخلاق الناس فى ذلك الزمن كانت أقوم وأكرم ، فإنهم عرفوه ولكنهم لم يفشوا سره ولا أطمعهم ذهب الحكومة، كما أن بوليس الجواسيس المنظم لم يكن موجوداً فى ذلك العهد . فلو كان هذا البوليس الملقب بالسياسى فى تلك الأيام موجوداً مع فساد أخلاق الناس اليوم لوقع عبد الله نديم لامحالة .

وقد قرأت كتاب « الاحتفاء فى الاختفاء » وهذا تلخيص مختصر جداً لأشد الشدائد التى عاناها المرحوم أسردها بعد أن أنقل عن التاريخ الحديث كيف كانت أسباب هربه .

وذلك أنه لما انكسر المرحوم أحمد عرابى باشا أمام الإنكليز سنة ١٨٨٢ بسبب خيانات الخائنين كان منهم الأميرلاى على يوسف خنفس الذى سلم فرقته للإنكليز ثم هرب بعد أن أرشدهم إلى طريق الاستيلاء على العاصمة وعلى القلعة ، ومنهم محمد سلطان باشا الذى كان يتولى إفساد الأعراب والبدو فى أثناء زحف الإنكليز ، وكان سلطان باشا ينشر لهم الدعاية بتخذيل الأمة المصرية والطعن فى المجاهدين فيمد يده للخونة بالمال الذى سلمه إياه الإنكليز لهذا الغرض ويذيع النشرات المطبوعة فكان يقوم لهم بما يسمى الآن « إدارة الدعاية والاستخبارات » أو «الانتلجنس سرفيس» فكان هذا الرجل من أكبر العوامل فى هزيمة الأمة المصرية وانتصار الإنكليز عليها . ومن الغريب أن الإنكليز بعد ذلك لم يكافئوه على خيانته بمنصب كبير كما كان يرجو، بل أعطوه مبلغاً كبيراً من المال! فانكمد ولزم بيته إلى أن هلك غماً وقهراً . أما الأجانب الذين كانوا السبب الثالث فى هزيمة مصر فأكبرهم جرماً المسيو دى ليسبس مهندس قنال السويس ، فإنه أكد للعرابيين أن هذا المنفذ الخلفى للبلاد لن يمس بسبب حياد القنال، ولكنه كان متفاهما مع الإنكليز على اقتحام العاصمة المصرية منه وطعن العرابيين من الوراء .

فرار عبد الله نديم

ولنرجع الآن لعبد الله نديم فأقول انه لما سمع بالهزيمة والقبض على المرحوم عرابى باشا وإخوانه ، بقى فى داره بجهة العشماوى ، وفى الصباح ركب عربة ومعه خادمه فلما وصلا إلى

بولاق ودعه أبوه واختفى هو وخادمه ولم يظهر لهما أثر ، فأقام مختفيا نحو تسعة أعوام لا يهتدى أحد إلى مكانه ، وقد أعيا الحكومة المصرية أمره ، حتى جعلوا ألف دينار لمن يرشد إليه ، وبثوا عليه العيون ، فلم يظفروا بطائل فلما أعيتهم الحيل حكموا عليه غيابيا بالنفى مدة حياته من القطر المصري ، وقد يئس أصحابه من وجوده وأشيع القبض عليه وخنقه سراً ؛ ومنهم من أشاع موته حتف أنفه ، ومنهم من أشاع هربه إلى أوربا ، فعد اختفاؤه من الأمور الغريبة ، ولا غرو فأمره غريب من أوله . وكان من خبر اختفائه أنه لما ودع أباه ببولاق قصد دار الشيخ مصطفى أحد أصدقائه فأقام بها أياماً ثم غير زيه فلبس ثوباً من الصوف الأحمر المسمى بالزعبوط واعتم بعمامة حمراء ، وأسدل على عينيه منديلاً وأطلق شاربيه وأعفى لحيته حتى تغيرت هيئته . ثم نزل مع خادمه فى سفينة قاصدة بنها ثم انتقل منها ووصل إلى بلدة تسمى « منية الغرق » بقرب طلخا وقصد رجلا من مشايخ الطرق الصوفية كان أخذ عليه العهد فى السلوك إسمه الشيخ شحاته القصبي ، وكان مشهوراً بين الناس بالصلاح والتقوى ، فلما دخل عليه لم يعرفه لتغير شكله ، فجلس هنيهة حتى انصرف الزوار من المجلس ثم اختلى به وعرفه حاله وأقام عنده ثلاثاً ثم أشار عليه الشيخ بالانتقال واعتذر بكثرة الواردين ، فتحول إلى دار أحد دراويش الشيخ الموثوق بهم ، فآواه شهراً ثم قصد بلدة أخرى وطوحت به الطوائح ولقى الأهوال . وحدث أنه نزل مرة مختفيا عند قوم فأخفوه فى قاعة مظلمة يتساوى فيها الليل والنهار ويتوصل إليها من سرداب طويل شديد الظلمة ، وكانت أرضها ترشح الماء لانخفاضها وقربها من خليج مار بجانب تلك البلدة . وكان لا يتمكن من الكتابة والمطالعة إلا على مصباح صغير من زيت الحجر المسمى بالغاز أو الجاز كثير الدخان فقاسى الشدائد بهذا المكان تسعة أشهر .

حالة عبد الله نديم بعد ذلك

ولما خرج منه كاد لا يبصر الطريق لما غشى عينيه ، وكان كلما حل وارتحل يغير اسمه ولحيته ، فتارة يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض ، ويخضبها بالحناء أحيانا أخرى ، وكان اسم خادمه « حسين » فسماه « صالح » وخفى أمره على الناس وظنوه شيخا من الصلحاء ، حتى لقى

بعض من يخشاه وحادثه فستره الله وشمله بعنايته حتى فارقه . ثم ألقت به يد الإقدار إلى بلدة تسمى « العتوة القبلية » بمديرية الغربية ، فاختفى عند عمدتها الشيخ محمد الهمشرى فأكرم مثواه وأقام فى داره ثلاث سنوات، وقد تزوج فيها وولدت له بنت وماتت ولم يشعر به أحد. وزوج خادمه حسينا بأخت زوجته ثم مات فى أثنائها رب الدار وكان شهما ذا مروءة كبيرة وله امرأة مثله شهامة وحمية، فاستحضرت أكبر أولادها وأعلمته أن ضيفهم المختفى عندهم هو عبد الله نديم طريد الحكومة ، وسألته هل يطمع فى المكافأة ويسلمه أم يكون كأبيه فى حفظ الجار وحماية الذمار ؛ فاهتز الولد لقولها وأبى إلا أن يقتدى بأبيه فى الكرم ، ولعمرى أن ما أتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وعلو الهمة لما يندر مثله فى هذا الزمن . وتنقل المرحوم من بلد إلى بلد وماتت زوجته ثم ذهب إلى القرشية نزيلا عند أحمد باشا المنشاوى ، فكان يجتمع به هناك صديقه القديم الأديب محمد التميمى الفلسطينى الأصل ، وتزوج هناك بنت مصطفى منى من أهل « المحلة الكبرى » إلا أنه لم يحمد المقام فانتقل إلى دار التميمى فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٥ فأقام بها شهراً ثم سافر إلى الدلجمون بمديرية البحيرة فلم يمكث بها إلا نحو أسبوع وعاد إلى الغربية وقصد « البكاتوش » فكان يقيم تارة عند عمدتها الشيخ ابراهيم حرفوش ، وينتقل تارة إلى دار جاره أحمد جودة ، وكان رجلا قوى الجنان لايبالى بظلام الليل أنى سار فيه ، فصار يصحب المترجم إذا أراد الانتقال من بلد إلى بلد فى الليل الحالك ، ويتجشم معه أضيق المسالك وجعل المترجم إقامته بين البكاتوش وشباس الشهداء ، ينزل فيها عند محمد معبد الحلاق فيلقى عنده من الكرم والمروءة مالقيه ابراهيم بن المهدى عند ذلك الحلاق المشهور مدة اختفائه من عمه الخليفة المأمون ، ولم يزل عبد الله نديم كذلك حتى انتقل عند صديقه وصديقنا[1] الأديب الكامل والشاعر الناثر محمد افندى شكرى المكى كاتب المركز بدسوق ، أخبرنى الأديب المذكور قال: بينما أنا بالمركز يوماً إذ دخل على الشيخ ابراهيم حرفوش عمدة البكاتوش فسلم وجلس ولمحت منه أنه يريد أن يسر إلىّ أمراً فترقب

(١) المتحدث هنا هو المرحوم أحمد تيمور باشا العالم الشهير ، لأنى ألخص الحكاية عن الكتاب الذى أصدره عن عبد الله نديم .

خلو المكان ثم أخبرنى أن شخصاً عنده مشتاق إلىّ وهو صديق لى لم يرنى منذ ثمان سنوات، فاستخبرته عنه فانصرف ولم يخبرنى عنه ثم صار يتردد على بعد ذلك يذاكرنى فى هذا الصديق ولا يبوح باسمه .

لقاء عبد الله النديم بصديقه القديم

ولما وثق منى أخبرنى بأن الرجل مختف واسمه عبدالله ! فقلت له لعله عبد الله نديم ؛ فقال نعم هو ؛ فكتبت له بيتين من نظمى وسألته توصيلهما إليه وهما :

ولقد نذرت إذا لقيتك سالما لأقبلن مواطىء الأقدام
ولأثنين على سجاياك التى حثت على التحرير والإقدام

فذهب بهما وعاد إلى بعد يومين بقصيدة من نظم عبد الله نديم بخطه عدتها مائة بيت من البحر والقافية يتشوق فيها إلى ويذكر مالاقاه أيام الثورة والاختفاء ويتمنى لو فرج الله عنه فيفعل كيت وكيت ، وكأنه نسى نفسه وما هو فيه من الضيق ، فكتبت إليه أبياتا أطلب الاجتماع به ، وبعد أسبوع حضر ابراهيم حرفوش ومعه ورقة بخط المترجم يطلبنى فيها إليه فى يوم الجمعة بشباس الشهداء ، فذهبت فى الميعاد فوجدت محمد معبد الحلاق ينتظرنى ، فذهب بى إلى داره وهى دار صغيرة على تل ، وقد أنزلوا المترجم فى مكان عال لا سلم له . فصعدت إليـه على سلم من الخشب رفعوه بعد صعودى ، فلما التقينا ووقعت العين على العين تعانقنا طويلا وأدركتنى عليه شفقة فقبلت يده ثم جلسنا نتحادث فى القديم والحديث وأطلعنى على كتبه التى ألفها مدة الاختفاء منها بديعية له شرحها شرحاً لطيفاً لم يكمله ، وثلاثة دواوين من نظمه وجزء من كتاب « كان ويكون » ثم فارقته وقت العصر .

عذاب وخيانة

وانتقل المترجم عنـد صديقه المذكور بزوجته وكتبه ، مدعياً أنه ابن عمه أتاه زائراً من الحجاز وسمى نفسه «على اليمنى» فمكث نحو ستة أشهر ، ثم انتقل بمفرده إلى شباس الشهداء ولحقت به زوجته بعد عشرين يوماً ثم أعادها إلى دار شكرى افندى بدسوق ولحقها فمكثا ستة أشهر أخرى ثم عاد إلى البكاتوش عند أحمد جودة . وكانت زوجة عبد الله نديم تسىء إليه وتغاضبه ، فجمعت عليه مع ضيق الاختفاء سوء معاشرة الأهل ، حتى ضاق ذرعه منها

مرة وهمّ بإظهار نفسه للحكومة ! ثم تراجع وأصلح أمره معها . ثم تشاجرا فلكمته مرة على فمه فكادت تسقط ثنيته من الفك الأعلى فربطهما بخيط من الحرير ، وكان خادمه حسين مختفيا مع زوجته ببلدة الجميزة التابعة لمركز السنطة ، فطلبت زوجة عبدالله نديم الذهاب إليه فأذن لها فلما استقرت عنده تشاحنت مع زوجته وكاد الأمر ينفضح فأسرع الخادم لسيده بالبكاتوش مستغيثا ، فانتقل المترجم إلى الجميزة وأصلح بينهما وبقى هناك نحو شهرين فاستأنس وطاب له المقام وعرفه عمدة البلدة فتغاضى عنه وكتم أمره ، فكان يخرج للتنزه على غير عادته فى الاختفاء فيلتف عليه العمدة وبعض أناس من البلدة وهو يقرأ لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به .

القبض على النديم

وكان يتردد على البلدة رجل يقال له حسن الفرارجى كان منتظما فى العسكر، ثم استخدم جاسوسا سريا. فلما بصر بالمترجم أنكر حاله لما رآه عليه من سيماء الاختفاء، ورجح أنه عبدالله نديم . فكتب إلى الديوان الخديوى ينبئهم بوجود رجل من العرابيين مختف بالجميزة ثم أسرع إلى ديوان الداخلية فأوضح لهم أمره ، فأعطوه ورقة فيها صورته ووصفه فلما تحقق منه أخبرهم به فأمروا بالقبض عليه . وحضر من المديرية محمد افندى فريد « وكيل الحكمدار » ومعه نفر من الشرطة وقد ستروا ملابسهم بثياب أخرى ، فأحاط بعضهم بالبلدة متفرقين وصعد وكيل «الحكمدار» مع الآخرين على تل مشرف على أفنية الدور وأحس المترجم بتلك الحركة فأوجس فى نفسه خيفة ، وأراد الانتقال إلى دار أخرى فأخذ عباءته على كتفيه وصعد على سطح المكان فأبصره الذين على التل، فصاحوا وضربوا بنادقهم عليه ، وأمروه بالنزول، فنزل ثم أحاطوا بالدار وطرقوا الباب طرقا عنيفا وأيقن المترجم أنه مأخوذ لا محالة ففتحه لهم وواجههم متجلداً . فسأله محمد افندى فريد عن اسمه فقال : سبحان الله أتجهل اسمى وأنت مأمور بالقبض علىّ ؟ أنا عبد الله نديم ذو الذنب العظيم وعفو مولاى الخديوى أعظم سلمت أمرى لله . فقبضوا عليه هو وخادمه وأعماهم الله عن كتبه وأوراقه ، ولولا ذلك لأصابه شر عظيم بسبب أهاجيه القبيحة فى الخديو وأسرته . وكان القبض عليه فى ٢٩ صفر سنة ١٣١٩

ولم ينل الواشى شيئا من المكافأة لفوات الأجل المضروب لها . ثم استاقوها إلى المركز وسألوه عمن اختفى عندهم فلم يقر بأحد وسألوا خادمه وضربوه فأقر بالبعض ثم نقلوها إلى المديرية بطنطا فسجنا بضعة أيام ووكيل النيابة بالمحاكم يوالى سؤالها وانتهى الأمر بعفو الخديو عنه وعمن آواه ونفيه خارج القطر فأرسل إلى مدينة يافا حيث بقى فيها بضع سنين[1] ثم أعيد إلى مصر رحمه الله .

آمالى إن جاء الفرج

ولنرجع إلى حياة التربص فى المنصورة ، فقد سهر الأستاذ باكثير وأحمد بدر عندى ذات ليلة فقلت لهما إن قدر لى الله السلامة وانتهت حالى إلى خير فإن برنامجى أن أقطن فندق الكونتننتال بالقاهرة مؤقتاً لاستقبال زوارى وإخوانى لبينا تجىء قرينتى من المنفى ، وبعد رجوعى إلى دارى سأقيم حفلة شاى بفندق الكونتننتال لجميع أصحابى والذين أظهروا نحوى إحساسهم الطيب ، لشكر فضلهم . فقال الأستاذ باكثير وأما أنا فسأنظم لهذه المناسبة قصيدة ترقص لها عجائز وائل ! فقال أحمد بدر أما أنا فسأكون مع الوافدين إلى القاهرة لحضور مراسم السلام والتهنئة وسأحضر حفلة الشاى مع وفد من المنصورة . فقلت حقق الله هذه الخيالات .

فإن نعش نبصر الباكين قد ضحكوا   والضاحكين لفرط الجهل باكينا

كتاب نظرات الشورى

فى سنة ١٩٣٢ أردت أن أفضفض عن خاطرى فأصدرت كتاباً باسم «نظرات الشورى» ضمنته ما كان يجول فى صدرى مع بعض الحوادث والوقائع والتجارب وطبعت منه ثلاثة آلاف نسخة نفدت فى شهور .

والشاهد هنا أننى ذكرت فى ذلك الكتاب أننى أتوقع أن الأيام ستكشف لى عن حقائق ما كنت أراها فى ذلك الوقت ، وأن بعض الذين أثنيت عليهم قد خدعونى ، وأن بعض من

(١) كانت حياة المرحوم عبد الله نديم فى يافا هنيئة مجيدة ، لأن أهلها أكرموه وآنسوا غربته ، كما أنه جذب قلوبهم بجميل حديثه ولطف معشره وأنشأ مع أعيانها صداقات وثيقة عالية .

ذكرتهم بالخير سيرتكبون نحو وطنهم مايحملنى على الندم وربما أحمد إلى الحملة عليهم ، فالدهر قلب وأخلاق الناس لايضمنها الإنسان إلى الغد .

ومضت الدنيا فى حركتها المستمرة ، فإذا بالذى توقعته قد حدث مع الأسف ، فإن بعض الناس قدانقلب، وبعضهم قدانتكس، وبعضهم خاننى، وآخر غدر بى، وغيره لم يقابل ودادى بوداد ولا ظنىّ بمثله، كما أن بعضهم صحح موقفه مع أمته وعاد إلى الصواب .

وهناك تنبوءات وقعت ، وآمال تحققت ، ونظريات صحت ، ولو أردت أن أضرب الأمثلة لطال بى الكلام، ولكنى اكتفى بنماذج مختصرة مختزلة، فمن ذلك أننى كتبت فى مطلع نظرات « الشورى » عن شخص أنه المحسن العظيم وأنه تبرع بكذا للمدارس وبكذا للفقراء فإذا بى أكتشف بعد شهور من طبع الكتاب أن ذلك المحسن كان كاذباً وكان مخادعاً ، وأنه لم يتبرع بشىء . وبعد خمس عشرة سنة يموت الرجل عن ثروة عظيمة فلا يوصى بشىء للخيرات بل يترك ثروته لأولاده وكلهم فاسد وكلهم شرير .

ومن ذلك أننى ذكرت أحدهم أنه قام بمشروع وطنى مالى كبير وأنه سيخدم به الأمة والوطن ، فلما نجح المشروع واغتنى تبين أنه من أخس الناس وأنه استثمر الحركة الوطنية واستغل الشعور القومى ليجمع المال لنفسه . ومن ذلك أننى حملت على المرحوم مولانا شوكت على الزعيم الهندى والمرحوم عبد الحميد بك سعيد والمرحوم السيد محمد الغنيمى التفتازانى وغيرهم بسبب غلطات بدرت منهم فى المؤتمر الإسلامى العام بالقدس سنة ١٩٣١ فإذا بالزمن يغير الظروف ويجعلهم يصححون ذلك الموقف ويجعلنى أذكرهم فى هذا الكتاب بالخير .

السجون القديمة

قرأت للأستاذ صلاح الدين المنجد الأديب الدمشقى فصلا يناسب مانحن فيه الآن فأحببت أن أسجله هنا ضناً بالمعلومات القيمة التى وردت فيه وقيمتها التاريخية قال .

كان فى نورمبرغ بألمانيا سجن يتناقل الناس أشد الأخبار هولاً عما كان المسجونون يسامون فيه من البلاء ، وكان يعرف « بالسجن الأحمر » وكانوا يقلعون أظفار السجناء ويفقؤن عيونهم، ويضغطون على عظامهم بآلات حديدية فتسحقها وتهرسها، أو يدفعونهم

ليناموا فى أسرة ذات مسامير محماة تنخزهم وخزاً مؤلماً فتسيل دماؤهم . وكان فى السجن نفسه كساء حديدى يدخل فيه المسجون فيطبق عليه وفى داخله مسامير حادة تنفذ فى الجسم فيقاسى الرجل أنواع الألم حتى يموت .

وكان فى مدينة لاهاى بهولندا سجن يسمى « جيفا نجن بورث » كان المسجونون فيه يصابون بالجنون قبل أن يموتوا لشدة ما كانوا يعانون من العذاب كالكى بالحديد وقطع الأعناق بحز الرؤوس حزاً بطيئاً .

وفى مدينة هاليفكس بانجلترا كانوا يأتون بالمسجون وهو موثق اليدين والقدمين فتوضع عنقه تحت آلة قاطعة مدلاة مربوطة إلى السقف بحبل إذا انقطع سقطت الآلة الحادة على عنق الرجل فمات.

وفى سجن قلعة سان ميشيل فى فرنسا كان السجناء يدفعون إلى كهوف فى بطن الأرض فيها الأفاعى وضروب الحشرات ، وقد ملئت بالماء الراكد القذر ، فيموت المسجون موتاً بطيئاً وربما ضرب أو عذب حتى يموت ، وفى سجن الشاتليه بفرنسا كانوا يضعون السجناء فى أقفاص الحديد مع الجرذان والحشرات[١] .

اللهو

على أننا نرى من تمام البحث وقد أوردنا طرفاً من ألوان التعذيب أن نسوق طرفاً من اللهو الذى كان يتمتع به بعض المسجونين السياسيين فى بعض العصور «الإسلامية» فقد حدث أبو على ابن مقلة الوزير الشهير قال « من ظريف ما اتفق لى فى نكبتى التى أدتنى من الوزارة ، إنى أصبحت وأنا محبوس مقيد فى حجرة من دار ياقوت أمير فارس وقد لحقنى من اليأس من الفرج وضيق الصدر ما أقنطنى وكاد يغلب على عقلى . وكنت أنا وفلان محبوسين مقيدين فى بيت واحد فدخل علينا كاتب لياقوت كان كثيراً ما يجيئنا برسالته . فقال إن الأمير يقرأ عليكما السلام ويتعرف أخباركما ويعرض عليكما قضاء أى حاجة لكما. فقلت تقرأ على الأمير السلام وتقول له ضاق والله صدرى واشتهيت أن أشرب على غناء طيب (قال) وكان المحبوس معى

(١) أثبت هذه المعلومات بقصد استفظاعها والاشمئزاز منها والخجل من اقترافها ، ، وليس لأجل أن يعجب بها بوليس عصرنا فيعيدها سيرتها الأولى ...

يخاصمني ويقول يا هذا والله ما في قلوبنا فضل لهذا . ثم مضى الخادم وعاديقول: الأمير يقول حباً وكرامة لك أي وقت شئت. قلت الساعة . فلم يمض إلا ساعة حتى جاءوا بالطعام والمشام والفاكهة والنبيذ وصفف المجلس فجلست والمحبوس معي مقيداً وقلت له تعال حتى نشرب ونتفاءل بأول صوت يغنى به لنا في هذه الساعة وجاءت المغنية وغنتنا غناء طيباً فقطعنا يومنا بين لهو وشراب وغناء ...

وحدث أحمد بن المدبر أنه لما أمر محمد بن عبدالملك الزيات بحبسي أدخلت محبساً فيه أحمد ابن إسرائيل وسليمان بن وهب فجعلت في بيت ثالث وكنا نتحدث ونأكل جميعاً وربما أدخل إلينا النبيذ فنشرب ونلهوا ...

مدة السجن

ولم يكن للسجن مدة خاصة ، ولم يكن لكل جرم عقوبة ذات أجل معروف . فقد حبس إسحق بن خلف القاتل حتى مات ، وهـذا ما يشبه السجن مدى الحياة في أيامنا . وسجن يعقوب بن داود خمسة عشر عاما . وسجن أبو نواس ثلاثة أشهر بدون محاكمة ، وأبو دلامة ليلة واحدة . وحبس الرشيد زلزلا المغني لوجد عليه عشر سنين ، وسجن الخليفة القاهر إحدى عشر سنة ، في حين سجن الخليفة المتقي في جزيرة خمساً وعشرين سنة ، وهذا مايشبه الاعتقال مع الإبعاد في هذه الأيام .

الفرار من السجن

أما الفرار فحوادثه كثيرة نسوق إليك منها مثالا : حدث محمد بن القاسم وكان الخليفة المتوكل قد قبض عليه وسجنه في سجن منفرد ، قال : كنت أدبر أمرى في التخلص منذ حبست ، وكان في المكان الذي حبست فيه خلاء إلى الغرفة التي فوقه ، وخلاء في الغرفة إلى سطحها . وكنت قد أدخلت معي منذ حبست لبداً فكان وطائي وفراشي ، وكنت أرى (بغرش) وهي قرية من قرى خراسان حبالا تعمل فيها من لبود كما يفعل بالسيور فتجيء أحكم شيء . فسولت لي نفسي أن أعمل من اللبد التي تحتي حبلا ، وكان على باب البيت قوم وكلوا بي يحفظونني لا يدخل عليّ منهم أحد ، وإنما يكلمونني من خلف الباب ويناولونني

من تحته ما أنقوته . فقلت لهم : إن أظفارى قد طالت جداً وقد احتجت إلى مقراض ، فجاءنى رجل بمقراض، وقلت لهم إن فى هذا البيت فيراناً تؤذينى فاقطعوا لى جريدة من النخل تكون عنـدى أطرد الفيران بها ، فقطعوا لى جريدة من بعض نخل البستان ورموا بها إلىّ ، فأخذت أضرب بها وأسمعهم صوتها أياماً ، ثم قشرت الخوص عنها وقطعتها على مقدار ما عمت أنها تعترض فى ذلك الخلاء الذى فى السقف إذا رميت بها ، فضممت كل ما قطعته منها بعضه لبعض وقطعت اللبد وضفرت منه حبلا على ما كنت أراه يعمل « بغرش » ثم شددت ما قطعته من الجريدة فى رأس الحبل ثم رميت به فى الـكوة وعالجته مراراً حتى اعترض فيها ، ثم اعتمدت عليها وتسلقت إلى الغرفة ومن الغرفة إلى سطحها ، وفعلت ذلك أياماً وشددت القيد مع ساق . فلما كان ليلة العيد وقد شغل الناس وانصرف من كان على الباب صعدت بين المغرب والعشاء إلى الغرفة ، ومن الغرفة إلى سطحها ، ثم تدليت بالحبل إلى بستان مجاور وفررت » اه .

أوردت هذه الأخبار عن بعض الهاربين والسجون والمسجونين قديماً. وسأورد بعد هذا الفصل شيئاً عن التعذيب فى عصرنا لمناسبة ذلك لما كنت فيه ، لأن الجو والمحيط وكل شىء حول هذا الـكتاب يتناسب مع هذه الحوادث والوقائع. وعلى كل حال فها إنى قبل أن أعود إلى أخبارى أحب أن أسرد شيئاً مما وعدت به .

التعذيب فى مصر والشام

إن أول ما عرفناه من أخبار تعذيب المتهمين السياسيين فى مصر، هو التعذيب الذى كان يجرى من البوليس السياسى فى القضايا الوطنية فى عهد الحماية الإنكليزية إلى سـنة ١٩٢٤ وهذا التعذيب لم يكن فظيعاً إلى الدرجة التى وقفنا على أخبارها بعد ذلك ورأينا وجوه ضحايا وعرفنا الذين جنوا عليهم بالاسم والذات، وليس المقام هنا ذكر أسماء الضحايا ولا الجناة الذين ضربوهم وعذبوهم ، بل وصف أنواع التعذيب على سبيل الاختصار، حتى إذا جاء جيل جديد مستنير شهم غير جيلنا الذليل الحاضر ، اشمأز من تلك الفظائع وخجل منها وعاقب مرتكبيها إن ظفر بالأحياء منهم، ليمنع وصمة هذه الفظائع الوحشية عن أولاده وأحفاده وعن مواطنيه.

فالتعذيب الذي عاصرناه يتلخص فى حبس الأسرة كلها أحياناً ، وتحطيم مافى الدار من أثاث، والضرب بالأيدي والأرجل ، ثم بالسياط وبالفلقة، وبالدوس على الوجه بالأحذية، ونتف شعر الإبط والشارب واللحى ، والبصق على الوجوه .. وأما فى قضايا جمعية الإخوان المسلمين سنة ١٩٤٩ فإن الشرطة فعلت هذا كله ، وزادت عليه انتهاك الحرمات ومحاولة هتك الأعراض وحبس الأخ والأخت والزوجة كرهينة ، وما أشبه ذلك من أخذ البرئ بجريرة البرئ ...

وهناك نزع الأظافر والكي بالنار والوخز بالدبابيس ، والتعليق من الأرجل والتجويع والتعطيش والصلب والشتم البذئ وترك المعذب بلا علاج ، وعند ما كان يغمى على المتهم من شدة العذاب أيقظوه بالنشادر ثم استأنفوا ضربه ...

فى سورية

وفى دمشق الشام عذب البوليس العسكرى السورى المتهمين سنة ١٩٥٠ فى قضية الدكتور أمين رويحة بمثل الفظائع التى جرت فى مصر ، وقد سردت بعضها ، وكان بين المتهمين بعض الشبان المصريين ، فكانوا إن استغاثوا يقال لهم إن هذه الأساليب ليست من ابتكارنا فى الشام بل تعلمناها من بوليس مصر ، فهو أستاذنا ...

ألا بئس التلميذ وبئس المعلم والأستاذ ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، ولن يهمل ولاة أمورنا الذين يقدرون على منع هذه الوصمة فيسكتون ولا يعاقبون أولئك المجرمين .

هذا وقد أصدرت فى منتصف سنة ١٩٥٠ كتاباً باسم « معتقل هاكستب » على أثر عدوان وقع عليّ من إبراهيم باشا عبدالهادى رئيس وزراء مصر سنة ١٩٤٩ بأن قبض عليّ وحبسنى « بمعسكر هاكستب » بلاسبب ، ليقلد الإنكليز فى البطش والفتك، فإذا به يتفوق عليهم ويبزهم ، وكان ذلك فى أيام هياجه على «الإخوان المسلمين» . وقد أنزل بهم من ألوان العذاب ما لا يقع تحت حصر ، وقد تمكنت من الاطلاع هناك على أشياء كثيرة من أخبار فظائع التعذيب الذى أنزله هو وبوليسه بالعباد ، فدونت فى ذلك الكتاب بعض ما ورد عن الفظائع على ألسنة المتهمين المعذبين، مما رووه أمام المحاكم وأثبتته التقارير الطبية وشهود العيان فليرجع إلى تلك التفصيلات من يهمه تتبع فظائع السجون فى عصرنا الكئيب .

صورة أخذت لى فى معتقل هاكستب سنة ١٩٤٩ مع بعض الزملاء وقد وقفت فيها لابساً العباءة والطربوش ووقف إلى يمينى الأستاذ محمد طاهر الخشاب المحامى وإلى يسارى الشيخ صالح عشماوى وهو الذى يضع الكوفية على رأسه

استطراد

لقد مر فى هذا الكتاب أن الظالمين قد قبضوا على زوجتى لحملى على تسليم نفسى إليهم وأننى بمجرد علمى بهذه النذالة قد أسرعت إلى القاهرة لأسلم نفسى ليتركوا زوجى، ولكنهم أبعدوها عن مصر قبل ساعات من تنفيذ ما عزمت عليه ، وكدت مرة أخرى أسلم نفسى للظالمين خوفاً على صديق نسيب شهاب ، وفيما كنت أراجع بروفات هذه الفصول حدثنى العلامة عادل زعيتر بك نقلا عن شقيقه المرحوم السيد نبيه زعيتر، حين كان ضابطاً فى الجيش العثمانى فى خلال الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فقد حدث أن « الدنادشة » فى جبال بعلبك قد ثاروا فى تلك النواحى على الحكومة العثمانية وأزعجوها وحاربوها بالسلاح فقبضت على نسائهم انتقاماً منهم ، فلما بلغهم ذلك العمل الفظيع ، نزلوا من معاقلهم وجاءوا إلى دار الحكومة وهم ينكسون بنادقهم وسيوفهم علامة الاستسلام ، وكانوا يعرفون أن عقوبتهم ستكون الإعدام ، ولكنهم استعدوا لهذا الموت فى سبيل الإفراج عن حريمهم .

فلما سمع أحمد جمال باشا القائد العام ـ الذى كنا نلقبه بالسفاح ـ بشهامة الدنادشة، لم يسعه إلا تقدير رجولتهم، فقال إن الدولة ليست أقل شهامة منهم، ولذلك أمر بإخلاء سبيل السيدات وبالعفو

عن الثوار ، وتعيين بعضهم فى وظائف الحكومة ، ومكافأة آخرين منهم بأوسمة وبعطايا مالية .

هكذا يصنع الشجاع الكريم مع خصومه ، أما البطش والتفظيع والقسوة ، فهذه الشناعات لا يرتكبها كريم ، ولا يجترحها نبيل ، ولا يتنزل إليها أصيل .

في جحيم معتقلات السعديين النازية

صوت الأمة

يجلدون بالسياط ويحرقون ويدعون للصلاة

اعتقال الموتى - رهائن من النساء والأطفال والشيوخ

في جحيم الطور

مرضى بالسل والجذام يتركون بين الأصحاء بلا علاج

هذا رسم زنكغرافى لإحدى صفحات جرائد القاهرة سنة ١٩٤٩ حين بدأت تتمكن من نشر أخبار التعذيب الذى أنزل بالأخوان المسلمين من وزارة إبراهيم باشا عبد الهادى، وهذه الصفحة تحكى الجيل القادم ليحكم منها على فظاعة ما كان يجرى فى منتصف القرن العشرين وليس فى القرون الوسطى ولا القرون المظلمة.

الدكتور عفيفي باشا والنحاس باشا

ولنرجع إلى حوادثنا ومواضيعنا الأصلية : فقد طال انتظارى وأنا أرقب تغييراً فى الوضع السياسى ، أو انقلاباً فى حالة الحرب يريح الدنيا من انجلترا ، ولكن لم يحدث شىء . ففكرت طويلا ثم سطرت كتاباً إلى الدكتور حافظ عفيفي باشا الصديق الكريم ، قلت له فيه إن وزارة النحاس باشا هى بلاشك أقوى بكثير أمام الإنكليز من كل وزارة سبقتها ، وان الريح الآن مواتية ، لأن مصطفى النحاس باشا هو غير أولئك الذين أزاحهم الله ، فالنحاس باشا زعيم وطنى ومجاهد ، وأما أولئك فنكرات وخوارج ، وإننى أثق بالنحاس باشا ومستعد لتسليم نفسى إليه بلا قيد ولا شرط ، ولكنى لا أدرى كيف يمكن الاتصال به ، ثم قلت للدكتور حافظ باشا إن النحاس باشا يعرفنى جيداً ويعرف أننى أحبه وهو يعدنى كأحد أولاده ، وقد سبق له أن سمانى فى سنة ١٩٣٤ بدار مكرم عبيد باشا ونحن على مائدته بأننى سفير مصر فى الأقطار العربية « ولا يمكن للنحاس باشا مطلقاً أن يسوق هذا الصديق السفير إلى السجن .. » فالمطلوب الآن هو إما أن يوافقنى الدكتور حافظ باشا على اقتحام دار النحاس باشا أو مكتبه برياسة الوزراء ، ومباغتته بتقديم نفسى إليه ، وإما أن يؤخذ رأيه أولا حتى لا يكون فى ذلك منى مايحرجه وهو الآن حاكم ومسئول . فبعث لى الدكتور حافظ باشا مع الدكتور بشناق بك يستمهلنى أياماً للتفكير وتمهيد الطريق ، فسررت وأخذت أنتظر الجواب بفروغ صبر .

إذن فأنا الآن بانتظار ردين من الحافظين ، رد حافظ بك عوض ، ورد حافظ باشا عفيفي فالأول وعد بزيارة مكرم عبيد باشا والوقوف على رأيه ، والثانى وعد بزيارة النحاس باشا وأخذ رأيه .

لماذا سمانى النحاس باشا سفيراً لمصر

فى سنة ١٩٣٤ أرادت بعثة من شباب يافا أن تزور مصر فكتبت تطلب منى المساعدة على تسهيل الزيارة ففعلت ، وبعد ذلك عرضت على مكرم باشا عبيد أن يزور أفراد البعثة دار مصطفى النحاس باشا فوافق على ذلك ووعد بأن يقيم لهم حفلة فى داره هو لأن هذه الفرقة كانت قد احتفلت به لما زار يافا سنة ١٩٣١ .

وجاءت البعثة فزارت النحاس باشا وأقيمت لها الحفلة بدار مكرم باشا فحضرها مصطفى النحاس باشا وأركان الوفد المصرى ودارت الخطب والأناشيد وخطب مكرم باشا فنوّه بى قائلا : « إن محمد على الطاهر هو سفير الأقطار العربية فى مصر » فقاطعه النحاس باشا قائلا : « وسفير مصر فى الأقطار العربية » فوقفت وشكرت النحاس باشا على هذا التعيين الشعبى من الزعيم الشعبى ، وقلت إننى أتمسك به وأعتز بالسفارتين! وقد نشرت صحف تلك الأيام ذلك وعرفه الخاص والعام . لذلك وضعت ثقتى فى النحاس باشا وفى مكرم باشا بلا قيد ولا شرط.

لقد كانت أيام الانتظار طويلة على نفسى ، وأى طول هذا الذى يتقرر فيه مصيرى ، فإما أن ينتهى عذابى وإما أن يزداد شدة ، وتستمر آلامى ...

فى دار شيخ المجاهدين مصطفى النحاس باشا بمصر الجديدة وهو يظهر فى وسط ضيوفه

وفي دار مكرم باشا جلست على المائدة إلى يمين القارئ فالمرحوم عبد الهادي الجندي بك الذي صار بعد ذلك باشا ووزيراً للأوقاف فالنحاس باشا فمحمود بك لطيف ، ولم أتذكر الثلاثة الذين يجلسون بعد لطيف بك لطول العهد بتلك الأيام

تخمين وافتراض

يا ترى ماذا يكون رد مكرم باشا وما هو رأيه ؟ إنه صديق وقد جربني في الملمات وعرف محبتي له ، كما انني أعرف محبته لي ، ففي زيارته للبنان وفلسطين لمس درجة عنايتي به وعرف موقفي يوم ضجة المؤتمر البرلماني لفلسطين في القاهرة ، وكيف أخرجت الوفديين من مأزق كان يضايقهم ، وكيف وقفت إلى جانبه وإلى جانب النحاس باشا يوم اعتدت عليهما شرطه النقراشي باشا وزير الداخلية ، وكيف انني مع الأيام وضعت عواطف العالم العربي في قبضة الوفد(١) كما أن النحاس باشا

(١) في نوفمبر ١٩٣٨ عاد النحاس باشا ومكرم باشا من الإسكندرية بموكب كبير فأرسل النقراشي باشا وزير الداخلية شرطته فاعتدت على أستاذه مصطفى النحاس باشا وعلى زميله مكرم باشا بالضرب القاتل ، وفرقت شمل الموكب بكل قسوة ، فلزم النحاس باشا بيته بسبب الإصابات العديدة التي أصابته في رأسه وكتفه وعنقه وأصيب مكرم باشا في رأسه بجراح خطرة ألزمته المستشفى مدة طويلة ، فأردت عن أعبر عن سخط العالم العربي على تلك الفظائع فجمعت وفداً ضم العشرات من أبناء الشرق العربي والمغرب العربي وذهبنا إلى دار النحاس باشا نهنئه بالسلامة ونعلن السخط على تلك الحكومة ، كما زرت مكرم باشا في المستشفى بصحابة فريق كبير من أبناء الأقطار الشقيقة وفي الصورة التي بعد هذا الكلام ظهر النحاس باشا بالساعلى كرسي وهو مضمد الرأس والساعد والصدر والعنق .

لم يقصر وهو رئيس وزارة سنة ١٩٣٧ مع العالم العربي فهو أول رئيس حكومة مصرية دافعت عن فلسطين رسمياً في جمعية الأمم بجنيف .

مصطفى النحاس باشا وتحته علامة X ويليه عبد الفتاح الطويل باشا فالمرحوم الفرد روك من أعيان يافا فالأستاذ عبد الخالق الطريس من زعماء مراكش فالأستاذ عبد الرزاق الحود ، النائب العراقي بعد ذلك ، فمحمد علي الطاهر فالسيد أحمد محمد نعمان أحد زعماء اليمن ووقف خلفه الشيخ عبد الواسع الواسعي من علماء اليمن

ومن أسباب محبة النحاس باشا لى أنه يعرف كيف أننى أبعدت حكومة تلك الأيام عن مجاهدى فلسطين عند عودتهم من منفاهم بجزر سيشل وجعلت الصلة تنعقد بينه وبينهم ، على اعتبار أن أبطال مصر فى سيشل سنة ١٩٢٢ أولى بالصداقة مع أبطال فلسطين الذين كانوا بعد ذلك فى سيشل سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ وهو تأييد عربى لانجاب الوفدى له معناه فى تلك الأيام.

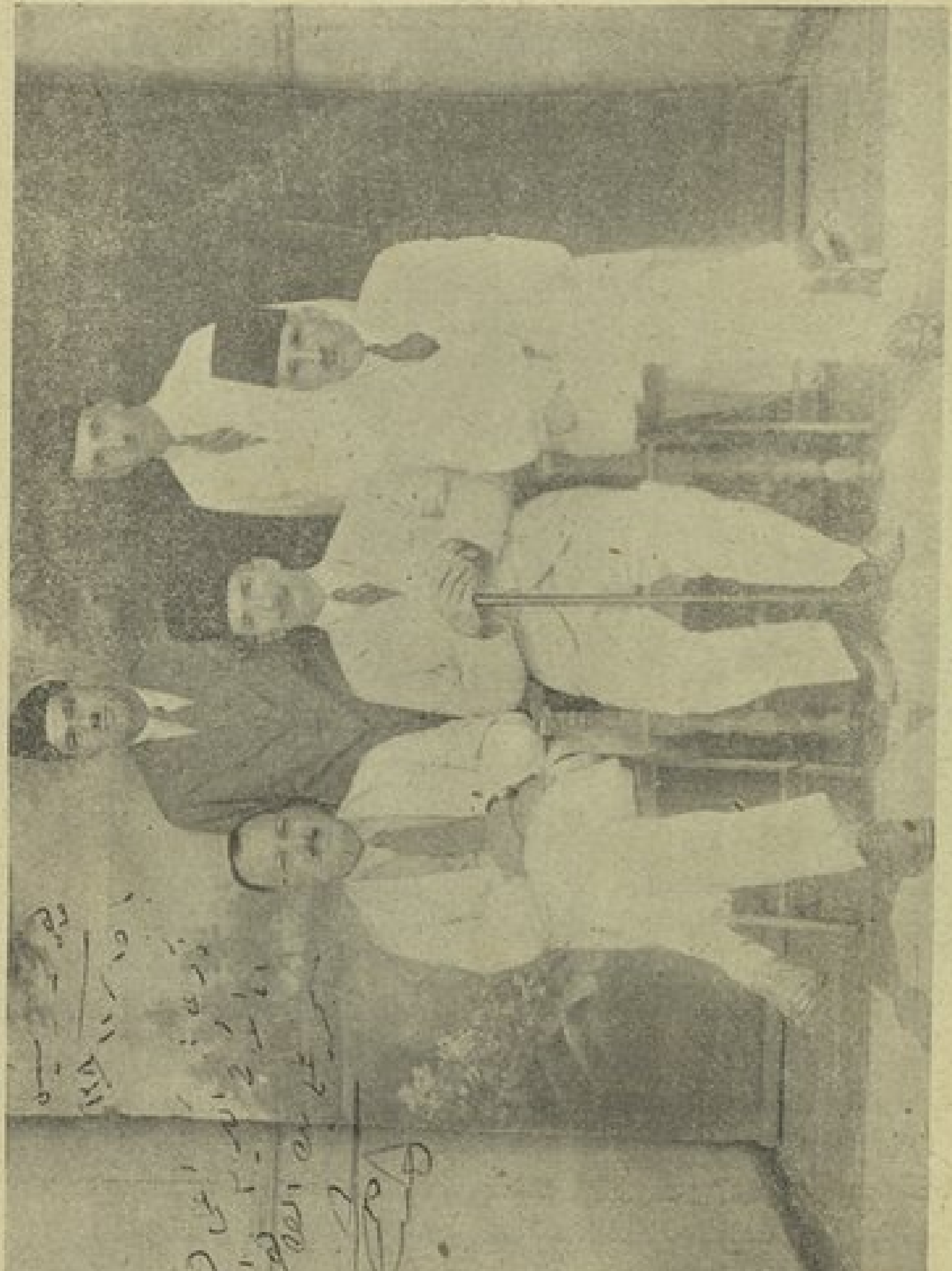

الوفد الفلسطينى فى سيشل

وهم من يمين القارئ رشيد بك الحاج ابراهيم فأحمد حلمى باشا فالدكتور حسين الخالدى ووقف خلفهم حنا افندى سابا فالمرحوم يعقوب بك الغصين وهذه الصورة أرسلها لى حلمى باشا من سيشل و كتب الإهداء بخطه

أنا مطمئن من هـذه الناحية ، ولابد أن مكرم باشا إذا سمع بأننى لا أزال فى الأراضى المصرية وأننى أريد تقديم نفسى لحكومته الصديقة ، سيرحب بى ويحث حافظ بك عوض على سرعة استقدامى إليه لمقابلته والذهاب معه إلى النحاس باشا فيقول له : هذا محمد على الطاهر صديقنا وطريد المستعمرين ، المظلوم المزمن الذى اعتادت وزارات الانقلاب أن تسىء إليه

الوفد المصرى لما كان قبل ذلك فى سيشل

أهدانى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا هذه الصورة وأمضاها بخطه . وهى مأخوذة فى سيشل سنة ١٩٢٢ مع المرحوم سعد باشا زغلول الذى يظهر جالساً على الكرسى، وقد وقف خلفه أعضاء الوفد الذين كانوا معه وهم من يمين القارى : المرحوم سينوت حنا بك فمصطفى النحاس باشا ، فالمرحوم عاطف بركات باشا ، فمكرم عبيد باشا ، فالمرحوم فتح الله بركات باشا .

بسبب ميله معنا والذى أبغضه النقراشى باشا بسببنا وكاد يغلق جريدته ويخرجه من مصر متشحاً بتهمة خدمة الأجانب لأنه نصرنا ونحن فى حالة الهزيمة، والذى لا نرى له وجهاً ونحن فى الحكم، هاهو اليوم يثق بحكومة الوفد ويستعين بها بعد أن بلوناه وخبرناه واستحق أن يكون سفير الأقطار العربية فى مصر، وسفير مصر فى الأقطار العربية ...

وأما النحاس باشا فقد تصورته إن فاجأته بالاستسلام، محرجاً مستاء، فيقول لى: نحن الآن حكومة ياصاح وعلينا مسئوليات فالأحسن أن تذهب إلى السجن أولا ثم تفاوض الإنكليز بشأنك حتى لا تقع معهم فى مشاكل بسببك.

وهذا الكلام معقول بلاشك، أليس ان وكيل إدارة المطبوعات قد طلب منى باسم

سيشل أيضاً

وهذه صورة لفوج عربى ثالث نفاه الإنجليز إلى جزر سيشل سنة ١٩٣٠، فبقى إلى سنة ١٩٣٩ وكلهم من أمراء العبادل فى سلطنة لحج بجنوب اليمن، ويظهر من يمين القارئ الأمراء فضل بن أحمد، فعلى بن أحمد، ففضل عبد المجيد، ووقف خلفهم الأمراء محمود بن على ففضل عبد القوى فمحسن بن على

حكومة الوفد فى سنة ١٩٣٧ أن أخفف من لهجة جريدتى! ولما قلت له : إن الوفد المجاهد الوطنى لا يجوز أن يصدر منه هذا الكلام قال : بل نحن الآن حكومة !!

لقد كان وكيل المطبوعات متبرعا بنسبة هذا التبليغ إلى حكومة الوفد بلاشك ، لأنى

استقبال الوفد الفلسطيني في محطة القاهرة ساعة وصوله من سيناء سنة ١٩٣٩ ، وقد ظهر دولة أحمد حلمي باشا
الزعيم الفلسطيني الكبير حينما رفعه المتظاهرون على سواعدهم

بحثت الأمر بعد ذلك فاتضح لى أن حكومة الوفد لم تكلفه بشيء من هـذا وإنما هو وحى من المستر كين بويد المدير الإنكليزى لإدارة الأمن العـام يومها ، فنسبه وكيل المطبوعات إلى الحكومة المصرية ، بل الوفدية بالذات !

ولنرجع إلى ما كنا فيه فأقول انى كنت أعد الأيام والساعات فى انتظار جواب حافظ بك عوض وجواب حافظ باشا عفيفى .

فى أثناء الانتظار

—قرأت فى الجرائد خبر سفر الضابط محمد يوسف وأنه قد أرسل « فى مهمة إلى البلاد

وفد فلسطين بضيافة النحاس باشا بعد العشاء على مائدته بفندق هليوبوليس بالاس بمصر الجديدة وقد ظهر إلى يسار القارىء أحمـد حلمى باشا فالنحاس باشا فالمرحوم يعقوب بك الغصين فمحمد على الطاهر

العربية » والحقيقة أنه سافر للبحث عني وأين أنا . لأن شخصا زار أنسبائي آل البزري في صيدا وقدم لأحدهم نقوداً لتدفع إلىّ في مخبئي هناك ! فاندهش نسيبنا ونفى للشخص انني وصلت لبر الشام . وهي نفس الطريقة التي اتبعها محمد يوسف مع السيد سليم قويدر في مصر وقد مر ذكرها ، فما أسخف وسائلهم!

— جاءني للدار مندوب مصلحة التلفونات وقبض مني جنيها قيمة الضريبة على الراديو فدفعتها مغتاظا ، لأني على وشك الخلاص فلو تأخر أياما لنجوت من هذه الضريبة ...

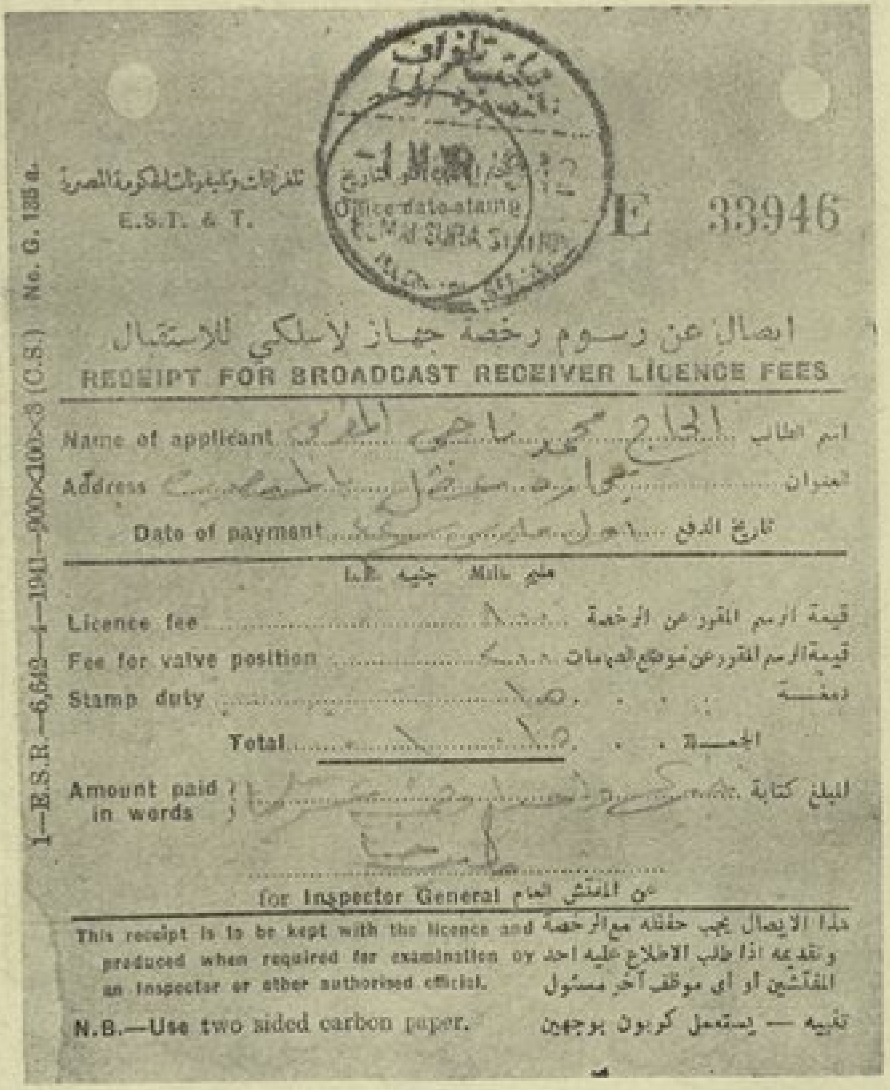

1—E.S.R.—6,643—4—1941—900×100×3 (C.S.) No. G. 135 a.

تلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية
E.S.T. & T.

Office date-stamp

E 33946

ايصال عن رسوم رخصة جهاز لاسلكي للاستقبال
RECEIPT FOR BROADCAST RECEIVER LICENCE FEES

Name of applicant .... اسم الطالب
Address .... العنوان
Date of payment .... تاريخ الدفع

	L.E. جنيه	Mills مليم	
Licence fee			قيمة الرسم المقرر عن الرخصة
Fee for valve position			قيمة الرسم المقرر عن موقع الصمامات
Stamp duty			دمغـة
Total			الجملة

Amount paid in words .... المبلغ كتابة

for Inspector General عن المفتش العام

This receipt is to be kept with the licence and produced when required for examination by an Inspector or other authorised official.
هذا الايصال يجب حفظه مع الرخصة وتقديمه اذا طلب الاطلاع عليه احد المفتشين او اي موظف آخر مسئول

N.B.—Use two sided carbon paper.
تنبيه — يستعمل كربون بوجهين

لم أستثقل في حياتي ضريبة كهذه لأني كنت على وشك الخلاص

فأل خير واستبشار

جاء ساعى البريد صباح اليوم وصاح ينادى « الشيخ ناجى ! » فخرجت إليه فقال لى « صباحك نادى ياسيدنا الشيخ ناجى ، إليك هذا البريد » وأعطانى رسالة فاستبشرت من هذه اللهجة خيراً ـ ولما فتحت الرساله وجدتها من الدكتور بشناق ومعها رسالة إليه من قرينتى فى صيدا بالتطمين عن حالها وأنها بخير عند أعمامها .

حالة حمدى باشا محبوب

بعد أن أمر النحاس باشا بقلع حمدى باشا محبوب من وزارة الداخلية نشرت عنه جريدة الأيام الخبر الآتى :

كان حمدى باشا محبوب وكيل وزارة الداخلية السابق بعد أن أقصى عن هذا المنصب يزور أحد الأصدقاء من كبار موظفى هذه الوزارة لاحباً فى سواد عينيه ولا إعجابا بمواهبه ولكن ليتأكد من صحة اختيار الأستاذ محمود بك سليمان غنام للجلوس على الكرسى الذى كان يظنه من ميراث المرحوم والده ، ومع أن حمدى محبوب باشا كان قد أزل عن هذا الكرسى ولا أمل له فى الرجوع إليه ، فإنه كان قلقا مهموما لجهله باسم الوكيل الجديد . فلما أخبره صديقه الموظف الكبير بأن الرئيس الجليل النحاس باشا استصدر فى ذلك اليوم مرسوما بإسناده إلى الأستاذ غنام، جمد حمدى فى مكانه عشر دقائق لا يرفع رأسه عن كفه ولا يتكلم .

آمال جميلة

الفرج قريب وكل شىء يدل على أن أيام الشقاء بدأت تدخل فى نهايتها وتؤذن بالأفول، وسأتمتع بحريتى قريباً وأعود إلى بيتى ، ويعود إلى أصحابى ، ومنهم من تجسس علىّ ، ومنهم من أنكرنى ، ورحم الله الوزير ابن مقلة ، فإنه لما نكب تجهم له الناس وأنكروه ، ولكن لما عاد إلى الحكم هرعوا إليه وأحاطو به ولزموا بابه فقال :

تحالف الناس والزمان ... بحيث كان الزمان كانوا
تنكر الدهر نصف يوم ... فانكشف الناس وبانوا
يا أيها المبعدون عنى ... عودوا فقد عاد لى الزمان !

وصف أهم مركز للجاسوسية

نشرت مجلة أنباء الصحف العالمية « وهي مجلة بريطانية تصدرها نقابة صحف انكلترا » وصفا طويلا للجاسوسية فى الحرب . ثم وصف المقال هيئة الرقابة فى مصر وقال إنه يقوم على رياستها وكيل وزارة الداخلية المصرية « وكان حسن رفعت باشا » ويشترك معه ضابط برتبة البريجادير وأنه هو الرئيس الحقيق للرقابة » .

أما المكاتب التى تتبع هذين الرئيسين فهى مكتب المراقبة بمصلحة البريد « برياسة محمد وجيه بك »[1] وآخر بمصلحة التلغرافات ، وثالث لمراقبة الصحف المحلية والنشر (والأخير له رئيس مصرى ونائب رئيس بريطانى) ومكاتب مراقبة تابعة للجيش الأمريكى ، والبحرية البريطانية ، وسلاح الطيران البريطانى ، كما أن هناك لجنة أخرى مؤلفة من ممثلين للسفارة البريطانية ، ومكتب الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط ، ومختلف المكاتب والمصالح الأخرى .

ثم عالج المقال مسألة الأنباء الصادرة من مصر فقال إن الرقابة عليها أشد وأكثر تعقيداً فأولا يجب عرض هذه الرسائل على الرقيب البريطانى ، ثم يجب كذلك ـ نظريا ـ عرضها على الرقيب الأمريكى . وعند مايتم الترخيص بتصدير هذه الرسائل يجب أن تعرض على الرقيب السياسى أو الرقيب المصرى البريطانى » .

ومعنى هذا كله أن كل مسلم أو عربى عمل فى هذه الإدارات هو جاسوس للأجنبى على وطنه والمطلوب الآن معرفة أسماء جميع المسلمين والعرب الذين اشتغلوا فى هيئات الرقابة ، ونشر الأسماء فى الجرائد عبرة لغيرهم وهذا أقل جزاء يستحقونه .

— حوكم الأستاذ مدحت عاصم ، وكان متهماً بالدعاية ضد الإنكليز فحكمت المحكمة بحبسه شهرين مع إيقاف التنفيذ فاستأنف فبرأته المحكمة وخرج من السجن ، ولكن الحاكم العسكرى العام أمر بالقبض على مدحت وسجنه إلى أجل غير مسمى بدون أن يبالى لا ببراءة الرجل ولا بالمحكمة التى برأته !

---

(١) وهو اليوم عند طبع هذا الكتاب مدير إدارة جامعة الدول العربية ومساعد عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لهذه الجامعة ... وقد أنعمت الحكومة البريطانية على محمد وجيه بك بوسام الامبراطورية مكافأة على خدماته فى مراقبة البريد فى أيام الحرب الماضية .

مكرم عبيد

وبعد أيام ذهبت إلى بريد مدينة طلخا وسألت عن رسالة باسم الشيخ محمد الناجي فأعطاني

عامل البريد واحدة فلم أشك بأنها تحمل فرجاً ، ففتحتها فإذا هي من حافظ عوض بك ، أرسلها من بريد دمنهور حيث تقع مزرعته بجوارها ، أي بقرية دسونس ، فلما تلوتها شعرت بدوار شديد وأحسست أن الأرض كانت تميد بي ، إنها رسالة ألمية تحمل خيبة وفجيعة ، وهذا نصها الحرفي من الداخل :

«حضرة أحمد أفندي الشربيني : وصلني خطابكم ورأيي أن تبلغ راصاحبكم أن لا يتحرك ولا يعمل شيئاً لأنهم لا يسمحون بمقابلته الآن وليبق كما هو حتى يشاء الله ويحكم بأمر من عنده وهو خير الحاكمين والسلام » .

إذن فالأمل بالفرج قد انقطع ، وان العذاب لم ينته ، وإن أمامي أياما سوداء لا أدري كيف أقضيها ولا ما هي نتيجتها ولا كيف يكون ختامها .

يا ترى هل اجتمع حافظ بك عوض بالنحاس باشا فرفض أن يقابلني ؟ إن الذي أعلمه

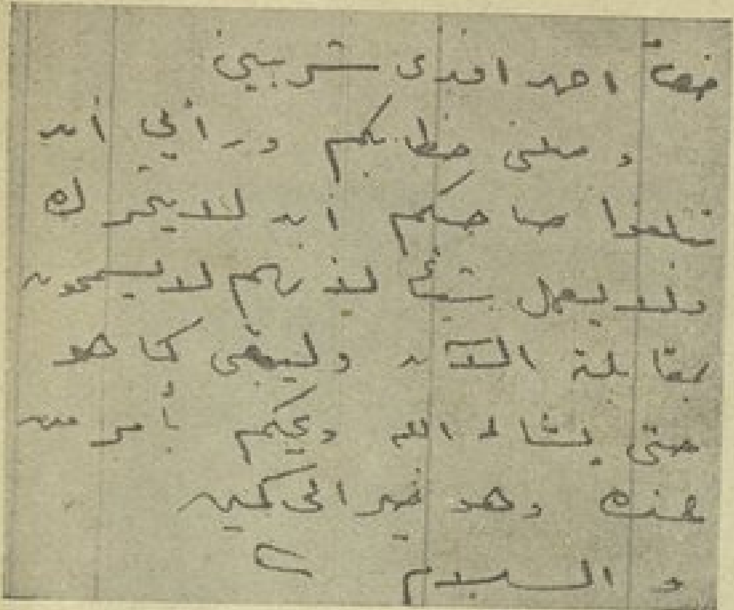

حضرة احمد افندى شربيني
وصلني خطابكم ورأيي أنه
[illegible]
ولا يعمل شيء لأنهم لا يسمحوا
بمقابلة الناس وليبقى كما هو
حتى يشاء الله ويحكم بأمره
عنك وهو خير الحاكمين
العبد

أن النحاس باشا لما قيل له منذ عامين إن محمد على الطاهر قد سجن وأسيئت معاملته تكدر واستنكر عملهم، أفيعقل أن يجيء النحاس باشا اليوم للحكم ويقر ذلك الظلم المبين؟ هذا غير معقول وإن وقع فهو أغرب وأشنع ويدل على أن الدنيا لا تزال مفعمة بالاحتمالات، وأن الناس هم الناس فى كل عصر ودهر. ولكن ربما يكون الرفض من مكرم عبيد باشا، فلماذا أظلم النحاس باشا؟ ولكن كيف يعقل أن مكرم باشا يرفض التجائى ويتنكر لى، ولماذا يرفض ويتنكر وأنا لست بقاتل ولا ناهب وغير محكوم علىّ! بل لنفرض أن محكمة ما قد حكمت علىّ وانني هربت ولجأت إليه لينقذنى فماذا فى ذلك؟ إنه لشرف له أن يقدره الله على إزالة ظلم عن برىء أيا كان هذا البرىء، فكيف وهو صديقه وتجمعه به رابطة الوداد والجهاد ضد الاستعمار! أليس ان مكرم باشا يلقب بالمجاهد الكبير؟ فما هذا المجاهد الذى يفر من عمل يقضى به الجهاد والوفاء، بل واجب الحاكم نحو جميع الناس...

مكرم باشا ومحمد على الطاهر حين كان صديقه، وقد أخذت الصورة فى حديقة داره بمنشية البكرى

لا، لا، إن هذا أيضا غير معقول، ولا يمكن

إلا أن يكون حافظ بك عوض واهماً أو ان ذلك من اجتهاده، فحسب حساباً لظروف الحكومة الوفدية مع الإنكليز فبالغ فى الاحتياط ورأى أن يرجىء مشروع الاستسلام إلى وقت أنسب فقال ما قاله فى رسالته بقصد إقناعى بالركون إلى السكون والانتظار ...

حافظ بك عوض ومكرم عبيد باشا

وبادرت إلى السفر فوراً إلى القاهرة وقابلت حافظ بك بداره بالمطرية وسألته عما كان بينه وبين النحاس باشا أو مكرم باشا حتى أدى الأمر إلى توصيته لى بما يقطع الأمل من حكومة الوفد . فقال إنه اجتمع بمكرم باشا وحدثه عن مسألتى واستشاره فى أمر الاستسلام للنحاس باشا رأساً أو بواسطته هو فانتفض مكرم باشا قائلا : لا ، لا ، لاياحافظ بك ، نحن الآن حكومة ولا نريد أن نعمل مشاكل مع الإنكليز بسبب محمد على الطاهر ، فيجب أن تنصحه بعدم المجىء . فقال حافظ بك ولكن لو فرضنا أنه باغتك بالمجىء إليك فى دارك أفيمكنك أن ترده ؟ فقال مكرم باشا : ما هذا الكلام يا حافظ بك ! نبه عليه بأن لايحرجنا وإلا فأنا مضطر إن جاء لأن أسلمه للبوليس (١) ...

هذا هو الجواب الفاجع الذى أبلغنيه حافظ بك عوض، فكانت الصدمة أليمة والفاجعة كبيرة . فأما الصدمة فلخيبة أملى فى مكرم وبالناس جميعاً . وأما الفاجعة فهى انى فقدت صديقاً ثميناً كنت أرجوه للملمات يوماً ما ، فلما جاء اليوم أدار لى ظهره وأنكرنى على تلك الصورة وقال لى : أنا لا أعرفك !

ماذا على مكرم باشا لو رضى باستسلامى إليه وذهب بى إلى رئيس الحكومة ، وقال له :

(١) لقد كتمت هذا الحادث عشر سنين ، حتى انى لما وقعت الواقعة بين مكرم باشا والنحاس باشا وتهجم مكرم على رئيسه وشتمه وانفصل عنه ومشى مع خصومه السابقين وقامت الأمة والصحف تحمل على مكرم باشا ، ترفعت عن البوح بما كان منه حتى لا يقال إنى حملت السكين مع الذين أحاطوا بذلك الميت، فسكت وفضلت أن لا أذكر ما انكشف إلا وهو حى ، ولا أقول بعد أن تعود إليه الحياة ، لأن الذى صنعه مكرم مع النحاس باشا قد قضى عليه أدبياً وسياسياً . وأما موقفه معى أنا فإنى أترك تقدير شناعته لقراء هذه الفصول، وقد رأيت مكرم باشا بعد زوال المحنة فلم أكلمه فيما كان منه ولم أعاتبه . وأظنه سيندهش الآن متى عرف بأنى علمت بما كان منه ، وهو عمل لا يصدر من رجل عادى فكيف عن كان يلقب بالمجاهد الكبير ...

هذا صديقنا جاء عندى وهو الآن عندك فيجب أن نحميه من الإنكليز وتقول لهم إننا لانقدر على ركوب المركب الذى ركبه رئيس الوزراء السابق، وإلا أصبحنا ولا فرق بيننا وبين سوانا وفى هذه الحالة لا خير فى الحكم ولا فى الوزارة إذا كان كرسى الحكم يغيرنا ويجعلنا ونحن حكومة المجاهدين نقر الإنكليز على ظلم المجاهدين .

إذن فكرم باشا المجاهد الكبير الذى نادى بى فى بيته أمام النحاس باشا وأعضاء الوفد وأمام مئة ضيف بأنى « سفير الأقطار العربيــة فى مصر » هو غير مكرم باشا الوزير الذى إنتكس وأصبح يهددنى إن لجأت إلى بيته بتسليمى للبوليس !

ورجعت من القاهرة إلى المنصورة مغتاظاً غاضباً ساخطاً منهك الأعصاب، بعد أن فجعت بمكرم باشا الذى حطم آمالى وقضى على مكانته بين الناس .

نقطة تحول

وبعد أيام وأنا أقاسى آلام القهر والكمد من فعلة مكرم باشا ، إذا بى أقرأ فى الصحف بلاغاً رسمياً يقول إن مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء قد استدعى من السجن عزيز باشا المصرى وقابله فى دار الرياسة وأخذ عليه تعهداً بأن يلزم السكون ثم أمر بإطلاق سراحه ، كما أمر بحفظ القضية التى حبس فيها ، فكان لهذا النبأ فى نفسى وقع عظيم ، إذ تأكدت منه أن مصطفى النحاس باشا يستطيع أن يحل ويربط برغم الإنكليز ، وهل من دليل أقوى من إطلاقه لعزيز باشا وسحب القضية من المحكمة ؟

إن هذا الحادث قد أزال كل شك فى نفسى وجعلنى على يقين من إمكان حل مشكلتى ، وان النحاس باشا الذى استطاع أن يطوى قضية عزيز باشا مع خطورتها ووجود تهمة خطيرة فيها ، لن يتردد فى حل مشكلتى وأنا برئ حتى من مجرد الاتهام . إذن فلا محل للتردد أو المبالاة بمكرم باشا الذى انخلع قلبه خوفاً من الإنكليز وخوفاً على الكرسى ...

إذن فهيا إلى مصر، هيا إلى القاهرة ، وإلى النحاس باشا بدون مشاورة ولا مذاكرة...

الاستسلام

إلى النحاس باشا

نحن الآن فى ٥ مارس ١٩٤٢ وقد قرأت فى الصحف أن مصطفى النحاس باشا سيذهب فى مساء الغد ٦ مارس إلى رياسة الوزراء ليلقى على الصحافيين ووكلاء شركات البرق بياناً عن خطة وزارته الجديدة وسياستها الخارجية ، وأن هذا الخطاب سيذاع من مكتبه بالراديو . إذن فهذه فرصة بديعة ، لاسيما أن الليل سينفعنى عندما أنفذ خطتى . فيالها من فرصة ويالها من مصادفة ...

تدبير احتياطى

كتبت إلى الدكتور مصطفى بك البشناق بأن ينتظر فى مساء الغد ٦ مارس حوادث جديدة وأن يرابط فى مكان غير بعيد من عيادة الدكتور خورى وعن دار جريدة الأهرام من بعد عصر ذلك اليوم إلى منتصف الليل . فإن لم يسمع بشىء جديد عنى يذهب فى صبيحة اليوم التالى إلى رياسة مجلس الوزراء ويسأل الصحافيين الذين يرابطون هناك عن أخبارى. وقلت للدكتور مصطفى بك إنى نويت أن أعمل فى يوم ٦ مارس عملة « سيصغى إليها الجميع » ...

وكتبت للدكتور خورى بأن يرابط فى إدارة الأهرام من الغروب إلى منتصف الليل ليرقب الأخبار ...

لم أنم تلك الليلة ، بل سهرت إلى الفجر وأنا أفكر وأقلب وجوه الرأى، وأفترض جميع الاحتمالات ، من أسوئها إلى أحسنها ...

ولما بزغت الشمس برحت مكمنى وقصدت إلى ضواحى المنصورة أمشى فى طرقاتها ترويحاً للنفس فى الهواء النقى، وأشهد بواكير الربيع الباسم وأتنسم عرار منطقة «التوريل» البديعة الأنيقة.

لم يكن هناك ما يدعونى إلى الخروج فى تلك الساعات الباردة إلا طلب الصفاء للذهن فى جو طلق ، لأن الدنيا ما عادت تسعنى ، وهذا حق، لأنى كنت محتاجاً فى تلك الساعات الحاسمة فى مصيرى إلى جو صاف لتهدئة أعصابى بعد ليلة ليلاء حرمت فيها طعم الرقاد .

رسم الخطة

إن الذهاب إلى القاهرة فيه خطر ، ولكن يجب أن أذهب ، وإن مقابلة رئيس الوزراء

والحاكم العسكرى العام ليست من الأمور الهينة ، لأن مقابلة الموظفين العاديين كرئيس قلم مثلاً أصبحت فى عصرنا تحتاج إلى مراجعة السكرتير والوقوف مع الحاجب وإرسال البطاقة إلى الموظف الذى تريد أن تقابله للاستئذان ، فيسألك السكرتير عن هويتك ومطلبك فإما أن يقابلك ذلك المتعاظم أو يأبى عليك اللقاء فيصرفك ، فإذا كان هذا حال الموظفين العاديين ، فكيف بالوصول إلى رئيس الوزراء ، ولاسيما فى أيام الحرب ، حيث تتخذ أشد التدابير لحراسته ومنع الناس عنه لكثرة أعماله ، بل إن الشخصيات الكبيرة المعروفة لترد غالباً عن باب رئيس الحكومة فى أيام السلم العادية لكثرة متاعبه، فكيف فى أيام الحرب ؟ وكيف إذا كان الذى يريد مقابلة الحاكم العسكرى العام هو الشيخ محمد التاجى المغربى النكرة المجهول ذو اللحية الشعثاء والجبة القديمة والحذاء البلدى والقفطان الأزهرى ؟ فكيف يقتحم ذلك المريب المرتاب دار رياسة الوزراء وهى محاطة بالحرس المسلح والبوليس السرى؟ وهو إن اجتاز أولئك وهؤلاء فإنه مضطر إلى الوقوف بباب أحد السكرتيرين وطلب الإذن بالدخول على السكرتير فإن سمح فإنى مضطر إلى إظهار شخصيتى أمامه وكشف حالى بدون مواربة ، وإلا اشتبه بى وسلمنى إلى الشرطة . أما إن اقتنع فإنه مضطر إلى مراجعة سكرتير رئيس الوزراء . ولكن هذا مستحيل لأن الموظف الذى يتصل به الناس عادة يكون من صغار الموظفين وهؤلاء لايهتمون بسبب مركب النقص أو الصعلكة الكامن فى نفوسهم إلا بمن هو أكبر منهم . وأما من كان فى مثل ملابسى فنصيبه الطرد من الباب الخارجى ، أو إحضار البوليس لأخذه إلى التحقيق ، بل إن الموظف الأمين الذى يجد فى نفسه الشجاعة لسماع حكايتى أو يجد فى نفسه الكفاءة لتكليف رئيسه ورئيس رئيسه بتوصيلها إلى رئيس الوزراء ويحسن توصيلها وعرضها عليه لا أدرى أين أجده ، بل لعله لم يخلق بعد . فالمسألة إذن تحتاج إلى مباغتة رئيس الوزراء النحاس باشا رأسا بدون واسطة أحد إلا إذا كان هذا الواحد من كبار رجال الدولة وممن يعرفوننى وممن لهم مكانة عند رئيس الوزراء فمن أين لى هذا الواحد ؟

وبعد تفكير طويل عميق انحلت المشاكل فى ذهنى وانسابت فى خاطرى سريعة متلاحقة تحل بعضها بعضاً ، فقد ذكرت اسم صديق القديم الدكتور محمد صلاح الدين بك ، وكان يومها سكرتيراً عاما لمجلس الوزراء . وهنا شعرت بأن صخرة قد انزاحت عن صدرى . ففركت الكفين سروراً وارتياحاً

المبادرة إلى العمل

أنا الآن فى ضحوة ٦ مارس سنة ١٩٤٢ فالوقت واسع فسيح . فاستدعيت الأستاذ على أحدبا كثير وأوقفته على كل ما اعتزمت عليه ، وطلبت منه الكتمان التام وأن يلزم الصمت إلى أن يقرأ فى صحف الصباح من يوم ٧ مارس أخباراً عنى ، فإما أن تكون هذه الأخبار تروى إطلاق وإما أن تكون بالقبض علىّ وإرجاعى إلى السجن . لأنى أريد أن أضع حداً لحالتى التى أصبحت لا تطاق، ولاسيما بعد ما كان من موقف مكرم عبيد منى ، فإذا كان التنكر للماضى قد وصل بالناس إلى هذه الدرجة فإنى أعذر الذين آذونى ، على أنى مع ذلك لم أنس أن أوصى الأستاذ با كثير بالقطة « حبيسة » خيراً ، وأن يتفقدها ويطعمها إلى أن أعرف ما يكون عليه مصيرى . فإن نجوت أرسلها إلى فى القاهرة وإن سجنت فيأخذها إلى داره .

السفر

ولما انتصف النهار وضعت بعض الأمتعة التى أحتاج إليها فى سلة كبيرة وذهبت إلى المحطة فأخذت تذكرة سفر بالدرجة الثالثة إلى القاهرة عن طريق طنطا، ثم اندسست بين الفلاحين . ولما غادر القطار محطة المنصورة ألقيت على المدينة نظرة إكبار وعرفان بجميلها ، وأخذت أستعيد ذكرياتى وأيامى فيها، من بؤسى ونعمى على السواء، ومن يدرى ، فقد تأتى أيام أبكى فيها على أيامى الأليمة فى المنصورة ، وبرغم سواد تلك الفترة من حياتى ، وقد أعدها نعمة بالنسبة إلى المستقبل المجهول ، لأنى مقدم على شىء لا أدرى عواقبه ولا نتائجه ، فقد تفسد الخطة المتشعبة التى رسمتها ، بل إن أقل خلل يقع فى تنفيذها سيؤدى بى إلى السجن ، وإلى السجن الشديد المضيق فى هذه المرة ...

وفى محطة طنطا حملت السلة على كتفى وانغمرت بين الألوف الذين يتراكضون من هنا ومن هناك ليدركوا القطارات المسافرة من تلك المحطة العظيمة إلى جميع أنحاء البلاد ، فكانت المحطة فى تلك الساعة كأنها ساحة الحشر

ووقفت على أفريز المحطة وأمامى السلة فلما جاء قطار الإسكندرية الذى سيأخذنا إلى القاهرة كان ممتلئاً مكتظاً بالركاب ولا يمكن دخوله لكثرة الناس الذين سدوا الأبواب بأجسامهم

وأمتعتهم، نخفت أن أتخلف ويتركنى هذا القطار فتفسد خطتى كلها . فناديت حمالاً وأظهرت له قطعة من النقود بخمسة قروش إن استطاع إدخالى إحدى المركبات فما كان منه إلا أن حملنى وقذف بى إلى داخل المركبة من إحدى نوافذها ، فتدحرجت بين الركاب رأساً على عقب ، وقد وقعت عمامتى عن رأسى ، وقبل أن أنهض وأتمكن من الوقوف، إذا بالحمال يقذف بالسلة فوق فتنقلب وينتثر ما فيها من أمتعة على رأسى وعلى الركاب وعلى الأرض، وفيما كنت أقف لأحتج على الشيال وأعتذر للناس كان القطار قد بدأ يغادر المحطة ! فأمسكت عن الاحتجاج ، وشكراً للشيال ، لأنه لو لم يصنع ذلك لبقيت على رصيف المحطة وحبط مشروعى من أوله إلى آخره . ثم مددت يدى للشيال بالخمسة قروش من النافذة حين كان يزامل القطار فى مشيته البطيئة الأولى ؛ وكان الشيال يصيح «أنت فين ياسيدنا الشيخ يابتاع السلة» ...

الوصول إلى القاهرة

وصل القطار إلى المحطة فى نحو الساعة الرابعة ، أى بعد العصر ، وأخذ ركابه يغادرونه وهم كالسيل العرم ، وأما أنا فقد حسبت حساباً لرجال الشرطة السرية الذين يقفون بالمرصاد لركاب القطارات القادمة عند الحاجز المجاور لمكتب التلغراف والمقصف ، فعند ذلك المخرج الضيق يقفون لتصفح الوجوه واحداً بعد واحد ، ولذلك بقيت فى القطار أتصنع لمّ شعثى وتنظيم ملابسى وإحكام وضع أمتعتى فى سلتى . ولما طال المطال ولم يبق أحد فى المركبات أقبل عمال المحطة يفتشون عن المتخلفين لإنزالهم من القطار ومساعدتهم على مغادرته قبل أن يجر إلى المخزن . فتظاهرت بأنى أبحث عن شىء وقع منى فى أرض المركبة ، فجاء أحد العمال وأخذ يساعدنى فى البحث عن « نصف الريال الذى سقط منى » ثم قلت له لا فائدة من البحث إلا بعد كنس المركبات ! فإن وجدت شيئاً فهو نصيبك وقسمتك ...

تدبير واحتياط

وحملت السلة ومشيت لا إلى الباب ، ولكن إلى الخلف . ثم اجتزت الخطوط الحديدية وانتقلت إلى محطة الوجه القبلى كمن يريد مواصلة السفر إلى الصعيد ، وهناك جلست على مقعد لا للاستراحة ، ولكن للتفكير فى الطريق الذى سأسلكه عند الخروج من المحطة بدون أن

أتعرض لخائنة الأعين ... التي هي أعين رجال الشرطة السرية ، وبعيداً عن غرفة البوليس الموجودة بالمحطة . وكنت في أثناء التفكير والبحث عن المنفذ أعبث في محتويات السلة لأستطيع إخفاء وجهي عن الناس، وقد فحصت المنطقة كلها بنظرة سريعة وعينت نقطة الانفلات وهي باب خروج ركاب الصعيد . ثم أخرجت منديلا ربطت به عيني لإخفاء بعض ملامحي . وبعد قليل هدأت حركة الناس نوعاً . وفي تلك الفترات ينصرف رجال بوليس الجواسيس عن أبواب الخروج ليستريحوا استعداداً لرمق ركاب القطارات القادمة بعيونهم الحادة التي أعماها الله عني ... تحملت السلة ومشيت كأني راكب صعيدي يعرف طريقه ، وخرجت من المحطة إلى الساحة الخارجية وأصبحت في ميدان باب الحديد أمشي بين عالم زاخر من الناس ، فقصدت إلى فندق بجوار سوق السمك ينزل به فقراء الصعايدة يسمى « لوكاندة الأشراف » نسبة إلى قبيلة الأشراف في مديرية قنا ، فصعدت فإذا بالفندق لايمكن أن يستريح فيه إنسان، ولكنه جيدوبديع لمن كان في ظروفي ويريد النجاة، وأول مادخلت سألت عن الأسعار فأفهمني الخازن لا المدير - لأن الفندق ما كان يقل عن جهنم - أن أجرة النوم على الفرشة أرضاً بثلاثة قروش، وبخمسة على السرير، فطلبت غرفة بسريرين بحجة أن رفيقاً لي سيأتي بعد ساعة . ودخلت الغرفة وهي تعج بالبق بدون ريب ، عرفت ذلك من شكل جدرانها الملطخة بالدم، ومن حالة فراشها المنقط بروث البراغيث !

ولما سألني خازن الفندق عن اسمي وهويتي أعطيته اسم « محمد ناصر تاجر غلال من كفر الغاب بمركز شربين » وانني قادم للمعالجة ، ثم سألته عن طبيب

فأعجبني هذا الشكل ...

« انظر الصفحة التالية »

عيون معروف، فأرشدنى إلى واحد وقال إن أسعاره رخيصة ثم تركني وانصرف .

بروفة...

أما أنا فقد غسلت وجهى ونفضت العثير عن ملابسى ، وبعد ذلك نزعت العمامة عن رأسى ثم حللت حزامى وكان فى الأصل كوفية فوضعتها على رأسى ، وسحبت من عبي عقالا فجملته فوق الكوفية وكان معى فى السلة عباءة عتيقة كنت استعرتها من احمد بدر فألقيتها على كتفى ، ثم وقفت أمام المرآة فأعجبنى هذا الشكل ، وبعد تجربة الزى البدوى رجعت إلى العمامة ، ثم نظرت إلى الساعة فإذا بها الخامسة بعد الظهر .

هيا هيا ...

عند ذلك غادرت الفندق إلى ساحة باب الحديد واقتربت من موقف للسيارات عند تمثال نهضة مصر، فإذا بى وجهاً لوجه أمام « فؤاد » وفؤاد هذا هو جندى من بلوك الخفر ، كان من جملة الحرس الذى كان يحرس باب غرفتى بمستشفى الدمرداش ، ولكنه لم يعرفنى بعد أن أصبح تنكرى متقناً حتى ليكاد شكلى يخفى على أنا ...

فتجاوزت موقف الجندى الغافل إلى أن اهتديت إلى أكبر وأفخم سيارة أجرة فى تلك الأيام ، فركبتها وطلبت من السائق أن يذهب إلى حى السكاكينى ، ولما وصل صعدت إلى منزل أحد أقاربى حيث أوعزت قبل أيام بإيداعه عباءة لى اصفهانية من الوبر الفاخر وهى التى أنقذتها من مستشفى الدمرداش قبيل الفرار ، فتركت هناك عباءة احمد حسن بدر وحملت عباءتى العزيزة تحت إبطى واستأنفت ركوب السيارة وقلت للسائق هيا إلى العتبة الخضراء. فالسيدة زينب، فانطلق فى سبيله وكانت الساعة حول الخامسة والنصف .

السيارة الموفقة ...

ذكريات !

ولما اجتازت السيارة ساحة العتبة الخضراء ، ومرت بى بشارع عبد العزيز إلتفت برغمى إلى العمارة رقم ٣٠ حيث كانت تقع إدارة « الشورى » فتأثرت تأثراً شديداً ، ومرت بيالى

ذكريات السنين الطويلة التى قضيتها فيها ، فقد دخلتها شاباً وأخذونى منها إلى السجن كهلاً بعد أن قضيت تلك السنين جالساً خلف مكتبى أجادل الاستعمار وأحرر « الشورى » وأصدر معها نشرات مكتب «الاستعلامات العربى الفلسطينى» عن فظائع الاستعمار فى خلال ثورات سورية وفلسطين ، وأبعث من تلك الإدارة إلى لندن وأوربا وأمريكا والدنيا كلها ببرقياتى باسم « اللجنة الفلسطينية » فكانت تلك البرقيات والنشرات ومعها الجريدة شوكة حادة تؤلم الاستعماريين،من فرنسيين واسبان وطليان وهولنديين وانكليز، وخصوصاً الإنكليز ! ثم تذكرت فى مثل لمع البرق كم رأت إدارة الشورى المتواضعة فى تلك العمارة من وجوه كريمة وشخصيات عظيمة، فقد دخلها زعماء الجهاد والفكر فى العالم الشرق فى تلك الأيام ، فقد كان يغشاها أحمد حلمى باشا والحاج أمين الحسينى من زعماء فلسطين، والشيخ كامل القصاب الزعيم السورى، وشكرى بك القوتلى الذى صار رئيس جمهورية سورية ، والدكتور أجمل خان ومولانا شوكت على زعيما مسلمى الهند ، والدكتور ستومو الذى كان زعيما لاندونسيا قبل الدكتور سوكارنو ، والسيد عبد العزيز الثعالبى زعيم تونس، والدكتور عبد الحميد بك سعيد ، والإمام محمد رشيد رضا ، والأمير عادل أرسلان ، والشيخ عبد القادر المغربى ، ونبيه بك العظمة ، وتحسين بك العسكرى ، وعزيز باشا المصرى ، والشيخ على الزنكلونى ، وأحمد زكى باشا ، وأحمد شفيق باشا ، وأحمد شوقى بك أمير الشعراء ، وخليل بك مطران ، ورياض بك الصلح ، والشيخ مصطفى عبدالرازق باشا ، والشاعر الزهاوى، وعبد الستار الباسل بك، والأمير محمد آل خليفة، والأمير على بن حمود أمير جملان ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، وعبد القهار مذكر المجاهد الأندونسى، وصالح باشا حرب، والدكتور محمود عزمى ، ودسوقى أباظة باشا ، وفؤاد بك حمزه، والشيخ دراز والأستاذ كامل كيلانى ، ومهدى رفيع بك مشكى، ومحمد مسعود بك ، والسيد محمد الغنيمى التفتازانى، وعزام باشا الخ وكان آخر من كان يزينها كل ليلة مدة أربعة أشهر الأمير شكيب أرسلان ، أمير البيان وفقيد الشرق والعرب والإسلام ، وذلك قبيل الحرب الأخيرة بأشهر قليلة، رحم الله المتوفين منهم وأطال فى عمر الأحياء .

إلى رياسة الوزراء

ومضت سيارة التاكسي في طريقها، فلما اجتازت ميدان قصر عابدين الملكي واقتربنا من حي الدواوين نزعت الرباط عن عيني وأنزلت العمامة عن رأسي ودسستها في جيب قفطاني ثم حللت الحزام فألقيته على رأسي وسحبت العقال من عبي فجعلته فوق الكوفية ، وتناولت العباءة ففردتها والتففت بها ، وقد تم تغيير زيي في لحظه سريعة بدون أن يلمح سائق السيارة شيئا مما كان يجري خلفه .

ذعر سائق السيارة !

ولما وصلنا إلى ميدان رياسة مجلس الوزراء الذي يسمى «ميدان لازوغلي» أمرت السائق بالانعطاف يمينا ودخول حديقة الرياسة ، فتوقف لحظة وهو يقول إن السيدة زينب ليست هنا « ياسيدنا الشيخ » فهذه رياسة الوزراء ! فقلت له ادخلها ! فالتفت ليستوثق مني ظاناً إنني مخبول ، وله العذر لأنه أركب شيخاً رث الملابس مريضاً مربوط العين ، يريد السيدة زينب للزيارة والتبرك بآل البيت كما يصنع أبناء الريف .

ولكنه لما التفت ورآني في شكلي الجديد مهندماً وجيهاً سليم العينين مستدير اللحيه ألبس العقال والعباءة الفاخرة بعد الجبة الرثة ، اندهش وحملق بي هنيهة فاغراً فمه متذعراً ، ثم استدار بسرعة وأمسك بعقود السيارة ودفعها إلى داخل حديقة الرياسة وهو يقول : أمرك ياسعادة البيك ، حاضر ياسمو الأمير ...

بين الحرس

ولما دخلت السيارة باب حديقة الرياسة الحديدى، كان عنده بعض الجنود، فاجتزناهم قبل أن يفكروا بسؤالنا عن سبب دخولنا فى تلك الساعة التى لا يدخل فيها رياسة الوزراء أحد من أرباب الحاجات .

وفى وسط الحديقة وأمام الدرج المؤدى إلى فسقية الماء وقفت السيارة ، فأعطيت السائق أجرته ونفحته ببعض القروش ثم أغلقت باب السيارة بشدة ليسمع الحرس الجالس عند باب الرياسة الداخلى تلك الحركة التى تشعر بسيادة ووجاهة القادم، وبعد ذلك أصلحت من شأنى ومشيت نحو باب الرياسة بتودة ووقار، شأن من اعتاد المجىء إلى هذا المكان ، وكنت أعرفه جيداً . ولما اقتربت من الحرس وقف أحدهم، وكلهم مسلح بالمسدسات، وأراد أن يعترض طريقى وسألنى عن هويتى وعن الغرض من مجيئى فى غير الأوقات الرسمية ، فالتفت إليه وإلى رفاقه وألقيت عليهم سلاما بحركة يد متصنعة متكلفة، شأن الكبراء عند ما يمنون على العباد بتلك الإيماءة ، فلم يشك رجال الحرس فى أن القادم شخصية ذات خطر وشأن ...

ومشيت نحو باب الرياسة ...

فلم يسع الجميع إلا الوقوف ورفع أيديهم بالتحية رسمياً ، فاغتنمت فرصة هذا التأثير على نفوسهم وواصلت السير وأخذت أصعد الدرج المؤدى إلى مكتب رئيس الوزراء ومكاتب السكرتيرية فى الطابق الأعلى ...

مفاجئة !

كان هناك مصعد يؤدى إلى الأعلى وكان الواجب أن أتجه إليه ، شأن الكبراء الذين يغشون دار الرياسة ، ولكنى تنكبته تعمداً حتى لا أضطر إلى تبادل أى حديث مع جندى المصعد، وهو غالباً من بوليس الجواسيس ، ولما شرعت فى صعود الدرج شعرت بإنسان يصعد خلفى ويريد اللحاق بى فعرفت من مجرد نظرة جانبية من عينى أنه رئيس حجاب الرياسة ، وكان يلبس بزة سوداء رسمية ، فلم ألتفت إليه ولم أغير حركة صعودى لا تخفيفاً ولا إسراعاً فظل يصعد إلى أن حاذانى . ثم سمعته يقول : هل يأمر سمو الأمير بشىء أدله عليه ؟ ففهمت عندها من أكون فى نظر القوم ، لاسيما وقد سمعتها من السائق قبل دقيقة واحدة، فسررت فى دخيلة نفسى ، والتفت إليه بوقار وابتسامة حلوة ، قائلا : هل تظن أن مثلى يأتى فى مثل هذه الساعة بدون ترتيب سابق؟ فقال : هل من خدمة؟ فقلت : إننى على موعد مع الدكتور محمد صلاح الدين بك السكرتير العام لمجلس الوزراء ، ثم أشرت إلى جيبى وقلت له : عندى تلغراف منه وهو ينتظرنى ! فقال إن صلاح الدين بك لن يحضر الليلة لأنه مريض منذ أمس ، فاضطربت وكدت عند سماع هذا الخبر المباغت أن أتخبط فى الكلام وأن أتعثر فى صعودى وقد ارتج على بشكل لا يتصوره إلا من جربوا مثل هذا الموقف الدقيق ، لأن أقل شبهة تساور نفس هذا الحاجب ستؤدى بى إلى السجن بتهمة محاولة التسلل إلى مكتب رئيس الوزراء لاغتياله ! فمن الآن إلى أن أبرئ نفسى من هذا الظن لابد لى من اقناع

مشيت الى الأمام وشعرت بإنسان يصعد خلفى ...

المحققين بعدم صحة التهمة ولا يكون ذلك إلا بكشف حقيقتى ، وتكون النتيجة أن يدرى الإنكليز بى بواسطة بوليس الجواسيس المصرى الذى يعمل لحسابهم ، لا لحساب الأمة المصرية ، فلا يدرى النحاس باشا بأمرى إلا بعد أن يكون الإنكليز بواسطة حسن رفعت باشا الرئيس الأكبر للشرطة ــ وأستاذ حمدى باشا محبوب وخليفته ومنافسه ــ قد وضعوا يدهم علىّ وأرسلونى إلى السجن ومن هناك إلى مالطة أو سيشل ليقضوا علىّ هناك تعذيباً وقهراً .

كل شىء حسبت حسابه فى تلك اللحظة إلا مرض الدكتور صلاح الدين بك ، ولكن الإلهام الربانى جعلنى أبادر حاجب الرياسة بجواب سريع مقنع عادى ، فقلت له إن الدكتور صلاح الدين بك قد يأتى لمقابلتى برغم مرضه ، أو أنه قد كلف أحد مساعديه بانتظارى .

وظللت مع ذلك أصعد درج الرياسة العريض المريح المكسو بالسجاد الأحمر ...

تشريفات وسلامات !

ولما وصلت إلى الطابق الأعلى وأشرفت على البهو الكبير الذى تقع جميع غرف مكاتب الرياسة على جوانبه ، كان رئيس الحجاب لا يزال بجانبى وهو يصعد معى كتفاً إلى كتف تقريباً فلما أطللت على البهو ومن فيه من حرس وحجاب ، ألتفتوا إلى جميعاً ... فلما رأوا رئيسهم يزاملنى بتواضع وهو يصعد متأخراً عنى بمسافة درجة ظنوا أنه يعرف مكانتى ، فلم يسعهم جميعاً إلا الوقوف ورفع أيديهم بالتحية العسكرية ! فأجبتهم عليها بحركة بطيئة متزنة وأنا لا أزال أسير إلى الأمام بلا وعى وبدون أن أدرى إلى أين ، ولم يسع رئيس الحجاب إلا مسايرتى فى سيرى وهو يظن أننى متجه فى سيرى إتجاهاً صحيحاً ... فاذا به صحيح لحسن الحظ !

وفى آخر البهو وقفت وطلبت من رئيس الحجاب أن يستأذن لى بالدخول على مساعد الدكتور محمد صلاح الدين بك ، ولم يكن الاستئذان غرضى ، بل قصدت أن ينفتح أى باب لأدخل وأبتعد عن عيون رجل الشرطة والحرس ، ولاسيما أن رئيس الوزراء يوشك أن يصل وأمامه حرسه المسلح ، ومعظمه من رجال البوليس السرى . ولما فتح رئيس الحجاب الباب القريب منى ليستأذن لى لم أنتظر بل دهمت الباب واقتحمت الغرفة فوجدت موظفاً لم أعرفه ، وقبل أن يرد على استئذان الحاجب عاجلته بقولى « إننى على موعد مع الدكتور محمد صلاح

الدين بك» فوقف الموظف قائلا: إنه مريض وأنا سكرتيره الخاص، فقلت أريد مقابلة النائب عنه فقال إن شقيقه الدكتور ابراهيم عزالدين هو الذى ينوب ، فرجوت السكرتير أن يسير معى إلى غرفته فبادر ومشى أمامى فاجتزنا الفناء الكبير مرة أخرى ، فكان الحجاب والحرس يقفون على الجانبين محيين ، ثم فتح السكرتير باباً فدخلت فوجدت غرفة واسعة جداً ، يجلس فى ركن منها بعض الأشخاص ، فطلبت محادثة الدكتور ابراهيم عز الدين فنهض من بينهم شاب وجيه الذات لطيف الشمائل وقال « أنا هو » فقلت وأنا أجيل نظرى فى الاشخاص الذين يجلسون معه « إننى كنت أريد الاجتماع بشقيقك ولكنه لم يأت اليوم بسبب مرضه فهل يمكن أن تستقبلنى بالنيابة عنه وأن نكون وحدنا ؟ » فلم يسع من كان عند ابراهيم إلا النهوض جميعاً ومغادرة الغرفة ...

مكاشفة ومباغتة

الدكتور إبراهيم عز الدين بك

ولما أصبحنا وحدنا رجوته أن يأمر بعدم دخول أحد علينا لمدة عشر دقائق فأمر بذلك فوراً فقلت له أنا لست بشيخ عرب كما أبدو أمامك بل أنا « افندى متنكر » واسمى فلان وصفتى كذا « وذكرت له اسمى » وأنا صديق لشقيقك صلاح الدين بك الذى مرض اليوم لسوء حظى ، فأرجو أن تقوم انت بما كان يتمنى الشقيق الكريم أن يقوم به هو من أجلى . فقال ابراهيم أنا تحت أمرك ، فقلت إننى هارب من السجن وجئت الآن لأسلم نفسى إلى رئيس الوزراء . ثم قصصت عليه خلاصة الحكاية وقلت له أرجوك أن تذهب إلى النحاس باشا بمجرد وصوله الآن وتخبره بخبرى، وتطلب لى منه الإذن بالدخول عليه ، فقال إن الباشا لم يصل بعد ، كما اننى أفضل أن تقابل أولا أمين عثمان باشا مستشار الرئيس الشخصى [1] وهو يتصرف فى الأمر . فقلت : إن أمين باشا لا يعرفنى وستكون مباغتة له من شخص غير معروف لديه . فقال وهى مباغتة لى أنا أيضاً . فقلت : هذا صحيح ، وهى مباغتة للجميع ،

(١) لمع أمين عثمان باشا السياسى الشاب فى الأفق المصرى العالى بضع سنين كما يلمع النجم ثم هوى بسرعة مقتولا =

فقال : هل يعرف النحاس باشا شيئاً عنك ؟ فقلت : إنه يعرفني جيداً ويعرف كل شيء ، ويكفي أن تصف له حالتي وتذكر له اسمي...

حيرة ومناقشة

فأطرق إبراهيم لحظة ثم قال إنني أفضل أن تمهلني إلى الغد لأستطيع التفكير وتدبير الأمر، لأنك باغتني بحادث خطير، فإن وافقت فأنا أنتظرك هنا صباح الغد فأكون قد كونت فكرة ورتبت المسألة مع الباشا ومهدت لك السبيل . فقلت : لا ، لا ، بل المسألة أخطر من ذلك ، ففيها حياتي وموتي ، وإن مضيت الآن وقعت بيد الشرطة ، وإن لم أقع الآن وقعت غداً عند عودتي إليك ، لا ، لا ، يجب أن أقابل النحاس باشا الآن بمجرد وصوله ، وقبل أن يجتمع بالصحفيين ، وقبل إلقاء خطابه السياسي في الراديو ، فأنت وأنا أمام حالة لم نر مثلها ولن نر أختها ، فهيا بالله عليك . فقال : أراك على علم بكل شيء يقع هنا ! فقلت : نعم ، بكل شيء ، وإن لم تسهل لي الاجتماع بالباشا الآن، نهضت واقتحمت غرفته بالقوة ، فإما أن أدخلها وبزعجه دخولي على تلك الصورة وأنا مضطر لذلك ، وإما أن يحول رجال الحرس دون الدخول فأقاومهم فتحدث ضجة ، ومهما يكن من أمر فلابد من إنهاء المسألة الآن، فهيا بالله عليك، لأنك أمام حادث قد لا يتكرر معك بعد مئة سنة !

رئيس الوزراء ودخول الصحافيين علينا

وفي خلال ذلك سمعنا حركة على درج الرياسة وضجة خفيفة ووقع أقدام كثيرة ، فقال إبراهيم عز الدين : هاهو الباشا الرئيس قد حضر ، ثم تركني وذهب مسرعا ...

بيد أحد الشبان الذين أساءوا فهمه . فقد كان أمين عثمان ممن تعلموا عند الإنجليز وتزوج من إنجليزية ، وكان لبقاً في المفاهمة مع الإنجليز ، وكان صريحاً معهم ، وقد فهمهم وفهموه فوثقوا به واحترموه لأن أسلوبه معهم كان لبقاً مبتكراً يقول لهم في وجوههم ما يقال عنهم في غيابهم ، على عكس بعض الساسة في الشرق الذين يتظاهرون أمام الأمة بالوطنية المتطرفة الحادة ثم إذا خلوا إلى الإنجليز قالوا إنا معكم ، ووقفوا منهم وقفة الذليل المتجسس المقلل من قيمة أمته.

وأما أمين عثمان باشا فكان رجلا مرناً حذاباً بارعاً ، يخوف الإنجليز من أمته ويحذرهم من قوة الرأي العام ، ثم يقول للأمة إننا نستطيع أن نأخذ من الإنجليز بالحسنى أكثر مما نأخذ بالعنف ، وكان جريئاً عملياً واسع الحيلة يعرف من أين تؤكل الكتف ــ كتف الأجنبي لا كتف أمته !

وبعد دقائق رأيت باب الغرفة التى كنت فيها ينفتح ويدخل منه بعض الأشخاص ، فإذا بهم من رجال الصحافة يتقدمهم الأساتذة سلامة موسى وعبد الحليم الغمراوى وعبد الله حسين « رحمه الله » فجلسوا فى مقاعد متناثرة هنا وهناك ، ولكنهم لم يعرفونى ، وهنا خطر لى خاطر، وهو أن مسألتى قد تحقق وقد يحصل فيها سوء تصرف، إما من النحاس باشا أو من أعوانه فأساق إلى السجن، فقلت فى نفسى إن حصل شىء من هذا فليدفع النحاس باشا ثمنه علنا وغاليا وليتحمل مسئولية وقوعى بيد الإنكليز بعد أن لجأت إليه ، ولذلك يجب أن أكشف نفسى لهؤلاء الصحافيين حتى إن وقع خطر كانوا على علم به وكانوا شهودى على النحاس باشا ، كما كان حافظ بك عوض شاهد الإثبات على مكرم عبيد باشا ، بل يكفينى من مكرم عبيد شهادته على نفسه أمام نفسه إن أنكر أمام الرأى العام تهديده إياى إن لجأت إليه بتسليمى للبوليس ...

البوليس !

عند ذلك أدرت وجهى نحو الجالسين فى الغرفة وناديت الأستاذ سلامة موسى ومن كان معه بأسمائهم ، وقلت لهم أنا فلان فهبوا جميعا يعانقوننى ويسلمون علىّ ويهنئوننى بالسلامة ، وفيما نحن كذلك إذ دخل الغرفة « البكباشى » محمد حلمى شعير بك رئيس الحرس الخاص بالنحاس باشا وكان يعرفنى لما كان يشتغل فى « الحكمدارية » فكانوا يرسلونه إلى السجن الذى كنت فيه فيرافقنى إلى الطبيب ثم إلى المستشفى ، وقد رافقنى إلى دارى يوم وفاة طفلتى «جهاد» وعاد بى إلى السجن فكان بوقتها محزونا من أجلى فحفظت له فى نفسى تلك العاطفة.

ولما دخل شعير بك أجال نظره فى الموجودين فظننت أنه جاء يبحث عنى ليسوقنى إلى السجن! ولكنه تركنا ووقف يتحدث بالتليفون دقيقة ثم انصرف ودخل الغرفة المجاورة، فشعرت باضطراب داخلى من هذه الحركة ، فهل سمع شعير بك شيئا أو أحس بشىء فاتصل بإدارة البوليس العامة بهذا التليفون الذى دقه أمامى ؟ هل خرج ليترصدنى عند الباب ليمسكونى إن خرجت ...

مع أمين باشا

ولنرجع إلى ما كنا فيه ، فأقول إن ابراهيم عز الدين رجع إلىّ بعد أن تركنى بضع

دقائق وقال إنه تحدث مع أمين عثمان باشا عن حكايتي وإنه يريد أن يراني ثم قادني إلى مكتب أمين باشا فقابلني «رحمه الله» بابتسامة لطيفة تشرح الصدر، ورحب بي وأشار إلى مقعد فاخر بجوار مكتبه فجلست ، وطلب لي فنجاناً من القهوة ثم جلس أمامي على مكتبه وأقبل عليّ بوجهه وجوارحه كلها وهو يقول: لقد أخبرني ابراهيم عن مسألتك فأريد أن أستفهم عنها منك أنت . ففهمت أنه يريد أن يختبرني ويستوثق من حالتي . فقد أكون أحد أولئك الدجالين الذين يطرقون أبواب الكبراء للاحتيال والنصب منتحلين للمقابلة شتى الأسباب ، حتى إذا تمت المقابلة أخرجوا حجابا أو تميمة وطلبوا مالا ، أو انني شقي مغتال يريد برئيس الوزراء سوءاً !

المرحوم أمين عثمان باشا

فقلت له أنت لا تعرفني ولم نجتمع قبل الآن ولكني أعرف كل شيء عنك ورأيت والدك المرحوم محمد بك عثمان سكرتير عام بلدية الإسكندرية . وأما أنا فحكايتي كيت وكيت ، وقصصت عليه قصتي مختصرة مختزلة فسألني أمين باشا عن بعض الأمور فأجبته عليها فأعجبه ما سمع مني .

اللقاء بالنحاس باشا

وهنا وقف أمين باشا وطلب أن أنتظره لحظة ، ثم دخل غرفة مجاورة لمكتبه وترك بابها مفتوحاً ، ففهمت أنها غرفة النحاس باشا ، ثم سمعت كلاماً لم أتبينه ، ولكني سمعت صوت النحاس باشا يقول : وأين هو الأستاذ الطاهر الآن ؟ فلم أنتظر أكثر مما انتظرت ، بل هرولت قبل أن يناديني أحد واقتحمت غرفة النحاس باشا فوجدته واقفاً أمام مكتبه يجرب آلة الراديو التي سيذيع خطابه منها ، وإلى جانبه الأستاذ كامل البنا مدير قسم الصحافة برياسة الوزراء ، والأستاذ ابراهيم عز الدين ، فقصدت إلى حيث يقف الباشا الزعيم وألقيت عليه السلام ثم احتضنته كعادتي معه وهو زعيم شعبي ، فاحتضني وقبلته وهو يضحك مندهشاً

فقلت له : أنا آت لأسلم نفسى إلى الزعيم المجاهد لا إلى رئيس الوزراء، وأما أسلافك الذين كانوا على هذا الكرسى فقد كنت أفر منهم . فقال النحاس باشا بغريزته الطيبة أهلا بك ومرحباً ، ماهى الحكاية ! فقلت لاشئ سوى أن أعوان المستعمرين قد أرهقونى وكادوا يقتلوننى فى السجن صبراً ففررت منهم وجئت إليك لتحمينى منهم ومن الإنكليز ! فقال النحاس باشا «إسمع ياطاهر أنا أعرف ان جهادك فى قضية فلسطين هو الذى جلب عليك كل ما أصابك وهو فى سبيل الله ، ولكن الجهاد السياسى فى أثناء الحرب لايفيد عملياً بقدر اغتنام الفرصة ، فأنا أريد منك أن تلتزم الهدوء فلا تتكلم ولا تكتب ولا تخطب لأننا مرتبطون مع الإنكليز بمعاهدة تلزمنا بالتعاون معهم ، كما أن مصلحة البلاد تستوجب منا عدم الاشتباك معهم فى مشاكل ، فإن وعدتنى بمراعاة الظروف الحاضرة فأنا أضمنك وأنهى مسألتك مع الإنكليز . ولن يصيبك سوء » هذا ماقاله النحاس باشا سردته هنا بحروفه تقريبا وقد قاله بلهجة الزعيم والحاكم الذى يقدر ظروف الآخرين .

رجولة النحاس باشا

ثم التفت النحاس باشا إلى أمين باشا عثمان قائلا «خذ الأستاذ الطاهر إلى مكتبك واتصل بالإنكليز وأخبرهم انه جاء إلىّ وانى قبلت استسلامه وانه أعطانى كلمة شرف بأن يلزم السكون وأنا المسئول عنه » .

فشكرته ومشيت مع أمين باشا إلى مكتبه ، فإذا بالنحاس باشا يصيح قائلا « إسمع يا أمين باشا ، قل للإنكليز إننى أطلقت الطاهر فعلا وسيخرج من عندك حراً ويجب أن تنادى حسن فهمى رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية وتبلغه أمرى ليعمل على إبلاغ إدارة الأمن العام ودوائر البوليس عدم التعرض له ، وإن اعترض الإنكليز ، على ذلك ، فقل لهم أن لايفتحوا لى هذه السيرة ، فأنا قد أطلقته وانتهى الأمر ، أما إن أرادوا عمل مشاكل معنا فأنا لا أستطيع وضعه فى السجن بل آخذه إلى بيتى فينام عندى وفى الصباح أجىء به معى إلى هنا فيقضى يومه فى دار الرياسة ، وهكذا كل يوم فليختاروا أحد الأمرين » هذا ماقاله مصطفى النحاس باشا الزعيم المجاهد متحديا بريطانيا الحقودة المستأسدة على الأمم الشرقية جميعا ، وقد وقف هذا الموقف المشرف بغتة وجابهه بحزم بوحى نفسه وسجيته الطيبة ....

اجراءات سياسية وإدارية

جلست عند أمين باشا عثمان فى مكتبه فتناول التليفون وطلب مخاطبة السفارة البريطانية أو القيادة العسكرية للشرق الأوسط ، ثم أمر بإحضار حسن رفعت باشا وكيل الداخلية ، وهنا لحظت منه حيرة طارئة كمن يريد أن يقول شيئا فبادرته قائلا « لاشك إن الباشا يفضل أن يكون حديثه مع القوم سريا وأنا أفهم الإنكليزية قليلا فهل تستحسن أن تأخذ حريتك معهم فانتقل أنا إلى غرفة أخرى » فاستحسن أمين باشا هذا الاقتراح وشكرنى عليه ، وأمر موظفيه بإعداد غرفة الدكتور محمد صلاح الدين بك السكرتير العام لمجلس الوزراء لأنتظر فيها ، كما أمر بإحضار آلة راديو لأسمع منها خطاب النحاس باشا الذى سيلقيه من غرفته عن سياسة وزارته الجديدة ...

أنطون باشا الجميل ورجال الصحافة

جلست فى غرفة مكتب صلاح الدين بك أتناول القهوة وأستمع لخطاب النحاس باشا من الراديو مع أنه كان يلقيه من مكتبه على بعد خطوات منى ، وكانت القاعة التى ينعقد فيها مجلس الوزراء تفصل بين المكان الذى أنا فيه وبين غرفة مكتب الرئيس ، وهنا لمحت الأستاذ محمد التابعى الصحافى المعروف يقف أمام الباب ويطل برأسه ليرى من هو هذا البدوى الذى يجلس تلك الجلسة المستغربة ! فناديتـه فظن أن المقصود غيره فالتفت إلى الخلف ليرى الذى أناديه وعندذلك ناديته باسمه فدخل مستطلعاً فرحبت به فلما عرفنى سلم علىّ بحرارة ومودة فطلبت منه أن يدخل إلى غرفة رئيس الوزراء كبقية المستمعين وأن يشعر أنطون باشا الجميل رئيس

المرحوم أنطون باشا الجميل

تحرير الأهرام (١) ومحمود بك أبو الفتح صاحب جريدة المصرى وعضو مجلس الشيوخ بوجودى وإنى أريد أن أراهما ، فقام الأستاذ التابعى من فوره ودخل مكتب الرئيس وبعد قليل جاءنى أنطون باشا يهرول فسلم على وسلمت ، وقبل أن يبدأ بيننا أى حديث أخرج حافظة نقوده وسحب منها جميع المال الذى كان فيها وقدمه إلى قائلا : أنا لا أدرى كيف جاءوا بك وأخشى أن يأخذوك إلى مكان بعيد ، فاجعل هذه النقود معك فقد تنفعك إلى أن يفرجها الله فشكرته من قلبى على هذه الأريحية وقلت له إن مسألتى قد انتهت ولن يأخذونى إلى أى مكان آخر وسيطلق سراحى الآن ، وقصصت عليه موجز ما أنا فيه ، فحمد الله وقال إننى سأتأخر هنا لأكون بجانبك فإن طال الانتظار تركت مندوب الأهرام هنا ليوافينى بأخبارك ، وسأنتظرك بإدارة الأهرام فبادر إلى بمجرد نزولك من هنا ، وإذا بالأستاذ محمود بك أبو الفتح قد جاء يركض فهنأنى بسلامتى فقصصت عليه خبرى وما أنا فيه ، وبعد ذلك أخذت أداعبه فذكرت له كيف رأيته فى الصيف الماضى على شرفة فندق وندسور بالمنصورة ! فاندهش وقال هذا صحيح ، فلماذا أخفيت نفسك عنى ، فقلت له أنا لا أخفى نفسى عنك ولكنى اضطررت إلى ذلك خوفاً من أزعج ضيفاتك الحسان بلحيتى وملابسى الرثة ! وكان حديث طويل شكرته فيه على سعيه وأنا فى السجن للإفراج عنى ، ثم جاء جمع من الصحافيين الذين انتهوا من سماع خطاب رئيس الوزراء فأحاطوا بى للسلام والتهنئة والفرجة على شكلى وكانوا يوجهون إلى الأسئلة تباعا ...

---

(١) أنطون الجميل هو أحد أفراد آل الجميل من بكفيا بلبنان ، وهى أسرة وجيهة يلقب رجالها «بالمشايخ» وهى رتبة شرقية كانت الدولة العثمانية تنعم بها على الأسر النبيلة فى لبنان ، وقد وفد المرحوم فى شبابه إلى مصر فلقى فيها وطناً حفياً وأهلا كراماً ، فاشتغل فى الحكومة وأصدر مجلة الزهور ثم أوقفها وترك الحكومة وتولى رياسة تحرير جريدة الأهرام أعواماً كثيرة فنهض بالجريدة نهضة جعلتها مثالا للصحافة الوقورة الموثوق بأخبارها ، وقد أنعم عليه برتبة البكوية ثم بالباشوية ، وانتخب عضواً بالمجمع اللغوى وعين عضواً بمجلس الشيوخ ، وكان مع ذلك عضواً ورئيساً لهيئات كثيرة منها الخيرية والثقافية والأدبية الخ وكان الجميل باشا مخلصاً للفضيلة والوطنية والأخلاق الكريمة . فكان الجميع يجلونه ويأخذون برأيه وينزلون فى المسائل الكبيرة على حكمه لما امتاز به من الحنكة وسعة الحيلة فى حل المشاكل ، وبعد الأفق وعمق التفكير والصدق والنبل ، وقد توفى بغتة فى شهر يناير ١٩٤٨ رحمه الله .

وهنا جاء أمين عثمان باشا فأخذنى إلى مكتبه فوجدت عنده الاستعمارى الكبير حسن فهمى رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية والأمن العام « حيث أعيد لهذا المنصب نكاية بمحمدى باشا محبوب الذى قلعه النحاس باشا منذ أيام ورماه جانباً » فهنأنى حسن باشا رفعت بالسلامة ... فى حين اننى ما طلبت السلامة والعافية إلا منه ومن أمثاله!

القلم الفضى

وجلست على المقعد الجلدى الفاخر إلى جوار أمين عثمان باشا وجلس حسن باشا رفعت أمامى على كرسى صغير متأدباً خائفاً من حكومة العهد الحاضر ، ومغتاظاً من إفلاتى من الإنكليز ، ثم قال إن السلطة تريدمنك تعهداً كتابياً ، فمددت يدى إلى عبى وأخرجت قلمافضياً كان قد أهدى إلى من إخوانى العرب بأمريكا ، ثم طلبت من أمين عثمان باشا أن يسمح لى بأن أرشف القلم أول رشفة من حبر مكتبه المبارك . فابتسم لهذه الملحوظة وتناول زجاجته الخاصة وقدمها إلى بعد أن رفع عنها الغطاء فملأت القلم وشكرته ، فقدم لى حسن رفعت باشا ورقة من الأوراق الرسمية المطبوع عليها عبارة « رياسة مجلس الوزراء » فتناولتها وسألته ما هى الشروط التى تريدها السلطة ؟ فقال إنها تريد ثلاث نقاط « أولا أن لا تسافر من مدينة القاهرة بدون إذن من وزارة الداخلية ، والثانى أن لاتخطب ولاتكتب ولاتقوم بأعمال سياسية ، والثالث أن تحافظ على أصول الضيافة فتراعى ظروف الحكومة مع الحلفاء وحالة الحرب » .

مناقشة ...

فقلت لماذا لا أسافر من القاهرة إلا بإذن ؟ فقال حتى لا تذهب إلى فلسطين ، فقلت إن الإنكليز بطبيعتهم يريدوننى فى فلسطين ليضعونى فى سجنهم مدى الحياة ، فأنا أولاأطلب عدم تمكين الإنكليز من أخذى لفلسطين لأنى ما كنت هاربا من الحكومة المصرية التى هى حكومتى ، ولكنى هربت من الإنكليز ومن أعوانهم المدسوسين على مصر ظلماً وكذباً « وحدجته بنظرة خبيثة » ...

ثم قلت إنهم مصريون بأسمائهم وانكليز بقلوبهم وعقولهم! فأعجب أمين باشا عثمان بهذا

الدفع كما إن حسن رفعت امتعض وفهم الذى أعنيه ! فقال دع هذا الشرط إذن ، فقلت وانى أرفض الشرط الثالث وأحتج عليه فقال أمين باشا لماذا ؟ فقلت لأنه يجردنى من جنسيتى فأنا مصرى أكثرمن حسن باشا ، فكيف أتبرأ من مصر وأعترف بأنى ضيف فيها ؟ فقال أمين باشا أنا لم أفهم قصدك ولا قصده . فقلت إننى مولود فى فلسطين ولكنى موجود بمصر طول عمرى وقد كنت وأهل مصر وحسن باشا رفعت أيضا من رعايا الدولة العثمانية ثم أصبحنا جميعاً بعد الحرب العظمى الأولى مصريين ، لذلك رفضت الشرط الثالث فالتفت أمين باشا إلى حسن رفعت وقال « والله أنا شايف إنه عنده حق » .

التعهد

وهنا لم يسع حسن باشا رفعت إلا أن ترك لى كتابة النص الذى يعجبنى ، فكتبت ما يلى وأظنه يطابق الأصل الذى بقى فى رياسة مجلس الوزراء لأنى أرويه بعد عشر سنين نقلا عن ذاكرتى وهو :

« أنا محمد على الطاهر أتعهد للحكومة بأن لا أشتغل فى السياسة ولا أقوم بعمل محرج لها وأن أحافظ على السكون فى الظروف الحاضرة » ثم أمضيته وناولته لأمين عثمان باشا فقرأه وأعطاه لحسن رفعت باشا وقال له هذا تعهد كاف . فلم يسع حسن باشا إلا التسليم بذلك أيضا ، ولكن على مضض ، فأخذ التعهد ووضعه فى جيبه ، وقال إنه سيبلغ الليلة أمر النحاس باشا إلى إدارات البوليس فى جميع أنحاء القطر بإلغاء أوامر القبض السابقة مع التنبيه بعدم التعرض لى مطلقاً [1] .

---

(١) الذى أعرفه عن حسن فهمى رفعت باشا إنه من أكفأ رجال الأمن العام فى الشرق ، فقد بلغنى أن الإنكليز أرسلوه من مصر ليتعلم فن « البوليس » فى سكوتلانديارد على الطريقة الاستعمارية ببوليس لندن ، وكانوا قبل ذلك قد أرسلوه إلى روسيا فى أواخر عهد القياصرة ، فتمرن ببوليس « التشيكا » على قمع الحركات الوطنية ، فلما أتقن هذه الفنون عينوه مديراً لتحقيق الشخصية ثم مديراً للامن العام وبقى قابضاً على هذه الإدارة نحو عشرين عاماً . وقد ذقت منه أنواع المطاردة ، ففى أول مرة قابلته سنة ١٩٢٩ سمعت منه لأول مرة فى مصر عبارة « انت أجنبي فيجب إبعادك من هنا » وفى الثانية لقينى بقسم الإدارة بوزارة الداخلية سنة ١٩٣٤ أقدم أوراقاً تثبت مصريتى فقال لى : « أما أنت فيجب أن تنزع الجنسية عنك ، لا أن تعترف لك الحكومة بها » وكان هذا الباشا الرهيب يكره جريدتى ويمنعنى من السفر ويحاصرنى . وفى سنة ١٩٤٦ حجز المرحوم الأمير شكيب أرسلان وشقيقه الأمير عادل بميناء الإسكندرية فى عهد حسن رفعت باشا ومنعا من مغادرة السفينة بحجة أنه كان يستشير فى أمرهما وزير الداخلية .. وقد أخرج حسن رفعت باشا من منصبه سنة ١٩٤٨ فكان لذلك صدى ارتياح فى البلاد ، وودعته الصحف بما هو أهله . . .

فقلت ولكن هناك مسألة هامة ذات شقين فأولا من هوالذى أمر بالقبض على قرينتى وشتمها وضربها وحبسها ثم أبعادها ، والثانى متى تتم الإجراءات لإعادتها إلى القاهرة ، فقال حسن باشا إنه لا يدرى بحوادث السجن والإبعاد لأن إدارة الأمن العام لم تكن فى تلك الأيام تحت يده بل تحت سلطة حمدى باشا محبوب ، وأما إعادة قرينتى ، فقال إنه سيجرى غداً كل ما يلزم فى سبيل إرجاعها . فقلت وهل تتركون المجرمين الذين ارتكبوا تلك الفظائع معنا بدون عقاب ؟ فقال إن التحقيق فى ذلك سيكون بعد رجوع قرينتك من الخارج .

وهنا خطر لى شىء فقلت لحسن رفعت باشا إننى أتوقع بعد خروجى من هنا بيومين أوبساعتين إنه ستتدرد عليكم العشرات من الرسائل المغفلة والوشايات والتقارير ضدى فماذا يكون الموقف إزاءها ؟ فقال حسن باشا إن الحكومة تعرف كيف تقابل مثل هذه الأوراق وتعرف كيف تتصرف بها ...

محمد بن معاوية مثال الوفاء

ورد فى كتاب « الغرر الواضحة » الحادث الآتى وهو من مواضيعنا التى نحن فيها :

لما ولى صالح بن على ولاية مصر من قبل أبى العباس السفاح ، خرج عليه رجاء بن روح بفلسطين مع عمه الحكم بن ضبعان وكان على شرطة مصر ، فأرسل إليهم أبا عون و محمد بن أشعث الخزاعى بعسكر فهزما الحكم . وبلغ صالح بن على أن رجاء بن روح دخل مصر واستجار بمحمد ابن معاوية فأجاره ، فأرسل إليه فحضر فقال : ألم أكرمك ، ألم أشرفك ؟ فقال : بلى . قال صالح : فكان جزائى منك أن أجرت عدوى ؟ فقال : وما ذاك أيها الأمير ؟ قال : رجاء بن روح وابنه . فقال : أصلح الله الأمير اختر واحدة من اثنتين لى فيهما براءة ، إما أن أثلج صدرك بيمين أو ترسل رجلا من ثقاتك يفتش منازلى . قال : وتحلف ؟ فقال : نعم .

فأحلفه بطلاق زوجته ، وعتق عبيده ، ومشيه إلى مكة راجلا حافيا . فحلف له ثم انصرف إلى منزله وأعلم زوجته فاعتزلت عنه وقالت له لا تنقطع عنى لئلا يشعر صالح بن على بالأمر . فلما عزل صالح عن مصر ورجع إلى بغداد ، أظهر محمد بن معاوية طلاق زوجته وأعتق رقيقه ومشى إلى مكة كما شرط عليه (راجلا حافيا) ..

بعد الافراج

الانطلاق والحرية

كانت الساعة تدق الثامنة ليلا عندما غادرت رياسة مجلس الوزراء حراً طليقاً فى ٧ مارس ١٩٤٢ لأول مرة ، بدون أن أتلفت خوفاً من عيون الرقباء ، وبدون أن أحذر أحداً ولم أشأ أن أذهب راكباً بل فضلت السير إلى إدارة الأهرام مشياً لأتلذذ بمشية الاطمئنان وأتعود حياة الأمان التى اشتهيتها ، ومشيت وأنا لا أصدق إننى أصبحت حراً كسائر العباد ، بعد أن عشت نحو سنة لا أمشى إلا خلسة ولا أنتقل من مكان إلى آخر إلا فزعاً مروعاً أترقب الغدر وأتوقع الأذى من كل مخلوق تقع عليه عينى ، وانتظر القبض علىّ من كل من تقع عينه علىّ!

انها لدقائق لا يمكن لأحد أن يتصورها ويعرف قيمتها إلا إذا عانى ما عانيت وأصابه ما أصابنى ، تلك أيام سوداء حالكة لحاها الله ولا أعادها ، ولا نكب أحداً بمثلها ، إلا إذا كان من الظالمين ليلقى مالقيت .

وبينما كنت أغادر دار الرياسة مررت بالبكباشى محمد شعير بك ، وكان واقفاً عند شباك غرفة أمين عثمان باشا ، فمددت يدى إليه « ونكشته » لألفات نظره إلى ، فالتفت فسلمت عليه فلم يعرفنى لأول وهلة ، لأن فكره كان موجهاً إلى سواى ، ولأنى باغته مباغتة ، فلما عرفته بنفسى حملق بى ملياً وهو لا يكاد يصدق عينيه مندهشاً من وجودى فى قبضته وفى عرين الأسد ؛ فبادرت باطلاعه على الحقيقة وإنى أصبحت حراً من تلك اللحظة فقط ، فهنأنى بالسلامة وأظن أن القارئ يذكر أننى أثنيت على هذا الرجل وذكرته بالخير .

يأكل خروفاً

ووصلت إدارة الأهرام فإذا بى عند الباب وجهاً لوجه مع صاحبها جبرائيل تقلا باشا « رحمه الله » ومعه الأستاذ على محمود طه الشاعر الشهير « رحمه الله » فأدهشهما إقتحام هذا البدوى لدار الجريدة ، ولكن الدهشة ما لبثت أن تحولت إلى ترحيب بمجرد أن عرفانى ، وإذا بتقلا باشا يبادرنى بالسؤال عن حادثة القبض علىّ عند باب اللوكاندة بشارع ابراهيم باشا وإفلاتى من البوليس ! فاندهشت لمعرفته بها مع أنه ما كان يعلم بها أحد إلا إميل الغورى ، وعند ذلك أدركت إننى كنت مصيباً فى كتمان أسرارى عن بعض الأصدقاء قبل الأعداء ،

لأن الإنسان يعرف هؤلاء فيبتعد عنهم كما أنهم يجهلون حقيقته ، وأما الأصحاب فهم الذين يعرفون الحقيقة فيغلط أحدهم ويفضى إلى صديق آخر عن حسن نية بما يعرف ، وهذا يفضى بالسر إلى ثالث ، ويظل السر ينتقل من شخص إلى آخر إلى أن يقف عليه أحد الشائنين أو الجواسيس وتكون النتيجة الوقوع فى يد البوليس ...

إن إميل الغورى الذى يسع بطنه خروفا بأكمله ، لم يتسع لسر أخبرته عنه بسبب اتصالى به ، فأخبر به أحد أصحابنا وهذا أتحف به صديقا ثالثا ... وهكذا إلى أن وصلت أخبارى إلى تقلا باشا فسألنى عنها . ولذلك حمدت لنفسى شدة صبرى على التحفظ وحجب نفسى على قدر الإمكان عن الأصدقاء والمعارف الذين كنت أتنكبهم وأبعد عنهم وأنا آسف متحسر على ساعة أقضيها معهم .

لقد عاتبنى الأستاذ أحمد حسن الزيات لما أخبرته بعد الانطلاق بجلوسى بجوار حلقته تحت شجرة الكافورة بقهوة أندريا بالمنصورة حين كنت أسمع حديثه معهم وأحاديثهم إليه، وقال لماذا لم تخبرنى فأكتم سرك ؟ فقلت له إنى كنت أواجهك أيضا بجوار دارك بشارع السكة القديمة بالمنصورة وأنت ماشى وحدك « تقزقز اللب » لكنى خفت أن تغلط بحسن نية وتذكر السر لجلسائك وأنت آمن لهم، فلا يلبث السر أن ينكشف لأنه من الصعب على الإنسان أن يحمل السر فى صدره وأن يكتمه زمنا طويلا ودائما وخصوصا أسرار الغير ..

فى إدارتى الأهرام والمصرى

ورحب بى أنطون باشا وتعشيت فى مكتبه ، وجاء المحررون وكلهم أصدقاء يسلمون ويهنئون ، وإذا بالدكتور يعقوب خورى يدخل معهم ، لأنه كان بالاتفاق مع الدكتور بشناق يرابط هناك من العصر يترقب الأخبار إلى أن وجدنى أنا ولم يجد خبراً ! وجاء أحد الأصدقاء فظن أننى لا أزال متنكراً وهاربا نخاف علىّ من الشرطة وأخذ يجرنى إلى غرفة أخرى ليخفينى وهو يلومنى على مجازفتى بدخول دار الأهرام جهرة وعلنا ، وقد اعتبر ذلك منى تفريطا ! أما أنا ومن كان هناك فقد مضينا فى كتمان نبأ الإفراج الذى تم وتركناه صاحبنا على ظنه ووهمه ، إلى أن فطن أخيراً إلى الحقيقة من ضحكة بدرت من الأستاذ حبيب جاماتى

فأخذ يضحك معنا... وبعد قليل جاءت سيارة الأستاذ محمود بك أبو الفتح فذهبت فيها وبعض الإخوان إلى إدارة جريدة المصرى حيث قضينا بقية السهرة ..

وقد علمت بعد ذلك أن رياسة الوزراء قد أعدت بلاغا رسميا عن حادثة استسلامى وإطلاق بناء على التعهد الذى أعطيته للحكومة ، مثل البلاغ الرسمى الذى أصدرته يوم إطلاق عزيز المصرى باشا ، وكانت جريدة الأهرام قد كتبت خبراً مختصراً عن حادثة الاستسلام وكتبت المصرى تفصيلات .

وقد أرسلت فى تلك الليلة برقية إلى قرينتى فى لبنان أخبرها بإطلاق سبيلى ، كما أبرقت بمثل ذلك إلى إخوتى فى فلسطين وإلى شقيقتى فى السويس .

ونمت تلك الليلة فى دار صديق الأستاذ البير عمون بدعوة منه لأنى لم أجد غرفة بفنادق القاهرة لشدة ازدحامها بضباط القوات البريطانية التى احتلت معظم الفنادق والمئات من العمارات بعد أن طردت الأهالى منها ، فلما رأتنى قرينة الأستاذ عمون أدخل معه الدار بعد منتصف الليل بعباءتى ولحيتى الطويلة ظنتنى لا أزال هارباً فرحبت بى أجمل ترحيب ، وأخذت توصى قرينها بإكرامى والاحتياط علىّ من عيون الناس، ولكن لما عرفت بعد ذلك اننى انطلقت وانتهت أيام الهرب ابتهجت كثيراً. وفى الصباح الباكر ذهبت إلى فندق الكونتيننتال واتخذت مسكنا فيه لبضعة أيام ريثما أعثر على مفاتيح دارنا بشبرا التى لا أدرى ماذا حل بها ولا بأثاثنا وملابسنا فيها.

فندق الكونتيننتال الذى سكنت فيه

بعد أن تناولت القهوة بالقصر الملكي العامر

فى القصر الملكى

وكان أول شيء صنعته فى الصباح اننى ركبت سيارة إلى قصر عابدين العامر فسجلت اسمى فى دفتر التشريفات لشكر جلالة الملك المعظم على موقف حكومته الموفقة وفضلها فى إطلاق حريتى ، وبعد ذلك تناولت القهوة عند الأمين الملكى إكرام بك سيف النصر وكنت لا أزال فى ملابس البدو طبعاً . فكان الحديث فيه شجون ، وقصصت عليه كيف رأيت مولانا الملك فى المنام مرتين قبل زوال المحنة بمدة قصيرة ، فتعجب لهذه المصادفة ، ولا أدرى إذا كان إكرام بك قد قص القصة على جلالته .

الانتقام بمنع النشر

وياله من انتقام صغير رخيص لا يرتكبه الأطفال ، وذلك أن الذين دروا بمسألتى وشهدوا فى الليلة الماضية حوادث استسلامى للنحاس باشا وإطلاق سبيلى ، فتحوا صحف الصباح فلم يجدوا فيها حرفاً واحداً عنى مطلقاً ، وقد تبين أن السلطة العسكرية البريطانية تركت مشاغلها الحربية ونسيت سوء حالها واشتغلت بى أنا تلك الليلة ، وذلك أنها طلبت إلى رقابة المطبوعات منع نشر البلاغ الرسمى الذى أرادت الحكومة إذاعته فى الصحف ، كما أمرت بحذف كل ما

كتبته الجرائد عن حادث الاستسلام، ولذلك ظهرت صحف ذلك اليوم خالية من أخبارى.. ولكن لما انتصف النهار صرت أتلقى برقيات تهنئة بإطلاق سبيلى من الإسكندرية ودمنهور

مثال من برقيات التهانى وهى من أسرة أحمد حسن بدر

وأسيوط ودمياط والمنصورة وبورسعيد الخ وبعد العصر وردتنى برقيات من فلسطين وسورية والحجاز والعراق واستانبول وأنقرة ، فتعجبت من ذلك أشد العجب . ولكن بعد البحث زال كل عجب ، إذ اتضح أن وكيل شركة تلغرافات الأناضول قد لمحنى وأنا فى رياسة الوزراء فدرى بالحكاية فأبرق بها إلى أنقرة فأذاعها الراديو التركى فأخذ راديو دمشق الشام ذلك الخبر وأذاعه كذلك . هذا هو السر فى كون العالم الخارجى قد درى بالحكاية قبل سكان القاهرة.

وأما كيف عرف الريف المصرى بإطلاق فقد اتضح أن جريدة المصرى كانت قد طبعت بضع مئات من العدد الذى نشرت فيه حادثتى وشحنتها إلى بعض المديريات قبل أن يصلها أمر الرقابة بمنع النشر، وسيرى القارىء فى الصفحة الآتية نصاً لما كتب وحذف ، ثم النص الذى سمح الإنكليز

بنشره بعد أسبوع . وأما سبب السماح بالنشر بعد ذلك فهو أن جريدة البورص اجيسيان نشرت عن شيئا دون الصحف العربية جميعاً ، فاحتج الأستاذ محمود أبو الفتح صاحب جريدة المصرى على هذا التحيز وهدد بتقديم استجواب عنه فى مجلس الشيوخ بصفته عضواً فيه ، فسمحت الحكومة بعد ذلك بالنشر .

الرئيس الجليل يأمر بالافراج
عن الاستاذ محمد على الطاهر

كان الاستاذ محمد على الطاهر صاحب ومحرر جريدة «الشورى» والفلسطينى المعروف مختفيا عن الانظار من جراء أوامر صدرت بشأنه فى عهد الوزارات السابقة التى اعتقلته مدة من الزمن وبعد أن ظل مختفيا احد عشر شهرا حضر بعد الساعة الخامسة بقليل بعد ظهر أمس فى زى بدوى الى دار رياسة الوزارة معلمنا الى أن الوزارة الوفدية التى يؤيدها الشعب لا تصدر فى تصرفاتها الا عن المصلحة العامة، ولا تعمل الا طبقا لمقتضيات العدالة والانصاف ، وقد قدم الاستاذ الطاهر نفسه الى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا فتفضل رفعته وأذن له بالعودة الى داره وبالظهور بين أهله وأصدقائه متمتعا بحريته ، وأسدى اليه النصائح الغالية فتقبل الاستاذ الطاهر هذا الصنع الجميل بالشكر الجزيل

وقد قضى الاستاذ الطاهر مدة الـ ١١ شهرا التى اختفاها متنقلا من أقصى الصعيد الى شمال الدلتا، واتفق له فى الاسكندرية أن التقى وجها لوجه مع أحد رؤساء البوليس السرى الذين يبحثون عنه فلم يعرفه ضابط البوليس، ووقعت له حوادث غريبة أثناء مطاردة الحكومة السابقة له

ويذكر القراء أن تلك الحكومة لم تكتف بالبحث عنه ومطاردته بل أساءت الى أهل بيته وقبضت على زوجته وسجنتها وعذبتها لتحملها على الاعتراف بمقر زوجها ثم أخرجتها من البلاد .

وقد ذكر لنا الاستاذ الطاهر انه جاء أمس من الصعيد فوصل الى القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر وبقى الى ما بعد الساعة الخامسة ثم استقل سيارة أجرة الى رياسة مجلس الوزراء حيث قدم نفسه الى رفعة الرئيس على النحو الذى ذكرناه

وقد نزل الاستاذ فى فندق الكونتننتال

الرئيس الجليل يأمر بالافراج
عن الاستاذ محمد على الطاهر

كان الاستاذ محمد علي الطاهر صاحب ومحرر جريدة «الشورى» والفلسطيني المعروف مختفيا عن الانظار من جراء أوامر صدرت بشأنه فى عهد الوزارات السابقة . وبعد ان ظل مختفيا احد عشر شهرا ذهب الى دار رياسة الوزارة راكبا سيارة اجرة ومتنكرا فى زي بدوي معلمنا الى ان الوزارة الوفدية التي يؤيدها الشعب لا تصدر فى تصرفاتها الا عن المصلحة العامة، ولا تعمل الا طبقا لمقتضيات العدالة والانصاف، وقد قدم الاستاذ الطاهر نفسه الى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا فتفضل رفعته واذن له بالعودة الى داره وبالظهور بين اهله واصدقائه متمتعا بحريته ، واسدى اليه النصائح الغالية فتقبل الاستاذ الطاهر هذا الصنع الجميل بالشكر الجزيل

وقد قضى الاستاذ الطاهر مدة الـ ١١ شهرا التي اختفاها متنقلا من أقصى الصعيد الى شمال الدلتا ، واتفق له فى الاسكندرية ان التقى وجها لوجه مع احد رؤساء البوليس السري الذين يبحثون عنه ، فلم يعرفه ضابط البوليس ، ووقعت له حوادث غريبة اثناء مطاردة الحكومة السابقة له

ويذكر القراء ان تلك الحكومة لم تكتف بالبحث عنه ومطاردته بل اساءت الى اهل بيته وقبضت على زوجته وسجنتها وعذبتها لتحملها على الاعتراف بمقر زوجها ثم اخرجتها من البلاد

وقد زاره كثيرون من كبار المصريين والفلسطينيين الاستاذ الطاهر مهنئين ، وذهبت وفود كثيرة من الاخيرين الى دار رياسة الوزارة لشكر الرئيس الجليل على عمله الكريم .

أخذنا بالزنكغراف ما نشرته جريدة المصرى أولا وحذفته الرقابة ، وإلى جانبه ما سمح بنشره بعد ذلك بأسبوع ، ويلاحظ القارئ الاختلاف فى النص الأول عن الثانى .

كلام جريدة البورص اجبسيان

Un «Bédouin» vint voir Nahas pacha...

C'était Mohamed el Tahri, journaliste, condamné politique, que le Président du Conseil décida de libérer

Me Mohamed Aly Taher vient d'être libéré officiellement. On se souvient que Me Mohamed Aly Taher, rédacteur en chef, de l'hebdomadaire "Choue..." avait été condamné à des peines diverses pour des raisons politiques. Mais il avait réussi à disparaître de la circulation.

Pendant de longs mois après sa fuite de l'hôpital la police l'avait vainement recherché au quatre coins du pays. En attendant que les élections soient terminées la maréchaussée avait classé provisoirement son dossier quitte à le reprendre plus tard.

Il y a quelques jours, un taxi s'arrêtait devant la grande porte de la Présidence du Conseil. Un "notable" bedouin drapé dans une riche "abaya" en descendit et se dirigea d'un pas ferme vers le cabinet du Président du Conseil.

—Je suis, dit-il aux huissiers ébahis, *Mohamed Aly Taher, rédacteur en chef du "C'.ouri" condamné politique.*

Et aux fonctionnaires qui l'interrogeaient:

— J'ai confiance en la parole du Président du Wafd. Je me présente moi-même. Il sera fait comme il lui plaira.

S.E. Moustapha el Nahas pacha saisi sur l'instant de l'affaire permit à Me Mohamed Aly Taher de rentrer tranquillement à son domicile en l'assurant qu'il ne serait pas inquiété. Le rédacteur en chef du "Chouri" qui, pendant 11 mois avait fui la police sur toutes les routes du Saïd au Delta, remercia le Président et se retira.

Dans l'après-midi du même jour plusieurs personnalités vinrent remercier le Président du Conseil pour son geste bienveillant.

Depuis lors, Mtre. Tahri demeurait chez lui attendant sa libération officielle.

ترجمة قول البورص:

« بدوى يزور النحاس »

« باشا هو الصحفى »

« السياسى المحكوم »

« عليه والذى حرره »

« رئيس الوزراء . »

«لقد حرر رسمياً الأستاذ محمد على الطاهر. ولعل القراء يذكرون أنه رئيس تحرير جريدة الشورى وكان قد حكم عليه لأسباب سياسية بعقوبات مختلفة ، ولكنه نجح فى الاختفاء عن أعين الناس ... وقد لبث البوليس يبحث عنه شهوراً طويلة فى سائر أنحاء القطر منذ فراره من المستشفى

دون أن يحصل على نتيجة . وفى انتظار مرور الانتخابات تركت الشرطة المسلحة ملف القضية على أمل استئناف النظر فيه من بعد .

ومنذ بضعة أيام وقفت سيارة أجرة إزاء باب رئيس مجلس الوزراء وإذا بعين من أعيان البدو مرتدعباءة فاخرة ينزل منها ثم يسير بخطى ثابتة إلى مكتب رئيس الوزراء . وقال لموظف الوزارة الذى قابله مندهشاً «أنا محمد على الطاهر رئيس تحرير جريدة الشورى والسياسى المحكوم عليه » وقال للموظف الذى استجوبه : إن لى كامل الثقة فى كلام رئيس الوفد وإنى سأتقدم إليه وليفعل ما بدا له . وقد بلغ النحاس باشا خبر الحادث فى الحين فأذن للأستاذ الطاهر أن يعود إلى منزله فى اطمئنان مؤكداً له أنه لن يصاب بسوء . فشكر صاحب الشورى رئيس الوزراء وانصرف بعد أن ظل احد عشر شهرا فارا من البوليس متنقلا فى جميع البلاد من الصعيد إلى الدلتا وعند ظهر اليوم ذهب كثير من الشخصيات لشكر رئيس الوزراء على إطلاقه » .

وبعد ذلك أخذت الصحف الأسبوعية تكتب وتنشر عنى مايعن لها من صواب وتخليط ، ولكنه كله كان فى حدود ما تسمح به الرقابة الإنكليزية !

وقد علم أحد أصدقائى المتصلين بالإنكليز أن السبب فى منعهم النشر عن ظهورى فى رياسة مجلس الوزراء والحيلولة دون نشر البلاغ الرسمى على الأخص هو شدة غيظهم منى ، وحقدهم علىّ ، وقد اعتبروا أن النشر عن حكايتى فيه تمجيد ودعاية لى ، فمنعوا النشر نكاية بى ! ولكن برقية شركة الأناضول أفسدت عليهم غرضهم فكانت الدعاية بواسطتها أوسع وأبعد .

محمد علي الطاهر

النحاس باشا يفرج عنه

القاهرة ٨ — استقبل النحاس باشا أمس الاستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة «الشورى» وقد دخل الاستاذ الطاهر على رفعة الرئيس متنكراً بزي بدوي لان الاوامر التي أصدرتها الوزارة السابقة بحقه ارغمته على التخفي

وقد رحب النحاس باشا بالاستاذ الطاهر وأبلغه ان الحكومة أفرجت عنه

برقية مصورة بالزنكغراف نشرتها جريدة النهار التى تصدر فى بيروت

تصحيح يمنع الإنكليز نشره

ولما رأيت بعض المجلات قد تمادت فى التخليط وهى تكتب عنى أرسلت إليها البيان الآتى

« نشرت بعض الجرائد أنني لما ذهبت إلى رياسة مجلس الوزراء لمقابلة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة أخذ يرحب بي بقوله « أهلا وسهلا بأبي الحسن » ونشرت أخرى أن مقامه الرفيع استقبلني متحبباً بقوله « تعالى ياشقى » والحقيقة أنه لاصحة للقولين فصاحب المقام الرفيع قابلني كما يقابل رئيس الحكومة أحد رعايا الدولة العاديين »

وكان غرضى من نشر هذا البيان أن أمنع الظن بأن لى يداً فى نشر ذلك المزاح السخيف، ولكن الإنكليز كانوا بالمرصاد فأمروا بمنع نشر البيان مع أنهم سمحوا بنشر التخليط ، فظن بعض الناس إننى الموعز بنشر ما نشر ، وهو مما يحيط مقام رئيس الحكومة بما يخالف الوقار، وذلك مما يريده الإنكليز، ويكفى أن ما نشر كان يحرجنى عند الحكومة ويظهرنى أمامها بالاختلاق على رئيسها فى سبيل الإعلان عن نفسى .

مجلة المصرى افندى

وقالت هذه المجلة فى عدد ١٥ مارس ١٩٤٢ ما نصه تحت عنوان « يفر من الاعتقال ليظهر فى رياسة الوزراء » :

« اتخذ الزعيم الفلسطينى المعروف الأستاذ محمد على الطاهر مصر موطنا ثانيا له . فاستقر به المقام فيها سنوات عديدة وأصدر جريدته « الشورى » وكان ولا يزال محبوبا من الجميع ولكنه اضطهد فى عهد الوزارة السابقة إلى أبعد حد ، حتى إنه قبض عليه ضمن الذين قبض عليهم سياسيا وأودع أحد المعتقلات . ثم أصيب بمرض فنقل إلى أحد المستشفيات واستطاع بمعاونة بعض إخوانه وهو فى المستشفى أن يفر وأن يختفى عن الأنظار وكان ذلك منذ أحد عشر شهراً .

وقد عملت الوزارة السابقة المستحيل للاهتداء إلى مخبئه وإعادته إلى معتقله . وأخيراً ظن أنه قد خرج من مصر وأصبح هذا الظن يقينا بعد أن أعيت البوليس الحيل فى الاهتداء إليه.

وهكذا ظل زميلنا الأستاذ محمد على الطاهر مختفيا عن الأنظار أحد عشر شهراً حتى ظهر فجأة فى رياسة مجلس الوزراء أثناء اجتماع رفعة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا بالصحفيين، ومن العجب أن أصدقاء الأستاذ محمد على الطاهر وزملاءه الذين كانوا فى دار الرياسة لم يعرفوه فى بادئ الأمر .

فقد وقفت سيارة تاكسى عند مدخل دار الرياسة ونزل منها شيخ جليل وقور يرتدى ملابس الأعراب ، عقالا وكوفية وعباءة من وبر الجمال ونعلا ... وكان حسن البزة والهندام، طويل اللحية ، فظنه الذين رأوه أحد زعماء العرب أو أحد رجال المفوضية العربية السعودية.!

فى غرفة سكرتيرية الرئيس

وقد صعد فى «الأسانسير» إلى دار الرياسة وطلب مقابلة رفعة النحاس باشا ، فأجلسوه فى غرفة السكرتيرية ريثما يأذن له الرئيس بالمقابلة .

وسأل سكرتير رفعة الرئيس الزائر العربى الكريم عن اسمه ليبلغه إلى رفعة الرئيس فقال « المجاهد الفلسطينى محمد على الطاهر » .

ولم يفطن السكرتير لشخصية الزائر ، وأخبر رفعة الرئيس بأمره فاستدعاه فى الحال ورحب به وأكرم وفادته وقال له « مرحبا بأبى الحسن » وأمنه على نفسه وأخبره بأنه منذ الساعة حر طليق ، وأخذ عليه عهداً بألا يأتى أعمالا تحرج الحكومة أو تسئ إليها ، فأقسم بشرفه ألا يحاول قط ارتكاب شئ من هذه الأعمال .

وعرفت شخصية الزائر العربى بعد ذلك فأقبل الصحفيون على زميلهم يهنئونه وهم مستغربون ظهوره فى هذا الزى العجيب الذى ضللهم حتى انهم لم يعرفوه فى بادئ الأمر ..!

وقد حدث الأستاذ محمد على الطاهر زملاءه عن مغامراته طوال مدة اختفائه فذكر أنه لم يبرح القطر المصرى . وأنه كان دائم التنقل بين بلاد الوجه البحرى والوجه القبلى . وقد ظهر فى كثير من المجتمعات والحفلات والأماكن العامة فلم يعرفه أحد لشدة تنكره وإخفاء معالمه التى كان معروفا بها للجميع .

وقال أنه كان فى إحدى بلاد الصعيد لما علم من الصحف بعودة وزارة رفعة النحاس باشا إلى الحكم ، اطمأن ووثق من أنه سينال حريته . وفكر فى أن يرسل خطابا إلى رفعة الرئيس ينبئه بأمره أو يتصل ببعض إخوانه ليسعى له عند رفعته لإطلاق حريته . ولكنه عدل عن هذا وفضل أن يقابل رفعة النحاس باشا شخصيا ويشرح حقيقة مسألته ، فاستقل القطار فى صباح يوم السبت إلى القاهرة ، واستأجر سيارة أجرة إلى رياسة مجلس الوزراء بعد أن وثق من أن رفعة الرئيس هناك ليجتمع بالصحفيين .

ونحن نهنئ زميلنا المجاهد الفلسطيني الأستاذ محمد على الطاهر بعودة حريته إليه وعودته إلى الظهور ثانية بعد أن ظل مختفيا زهاء عام .

ونسجل هذا الصنيع الكريم مع حسنات حضرة صاحب المقام الرفيع الرئيس الجليل، التى لاتعد ولا تحصى ونضرع إلى الله تعالى أن يهبه الصحة والقوة ، حتى يظل رافعا لواء العدل فى البلاد فى ظل حضرة صاحب الجلالة مليكنا المعظم فاروق الأول حفظه الله .

جريدة « الوفد المصرى »

قالت فى عدد ١٦ مارس سنة ١٩٤٢ ما نصه تحت عنوان « الأستاذ محمد على الطاهر ـ الرئيس الجليل يرد إليه حريته :

« فى عهد الوزارات السابقة ، صدرت الأوامر باعتقال الأستاذ محمد على الطاهر صاحب جريدة « الشورى » وأحد أبناء فلسطين النازلين فى مصر منذ عهد بعيد .

وقد لجأ حضرته إلى التخفى فراراً من الاعتقال وظل على هذه الحالة مدة أحد عشر شهراً .

وبعد أن وليت وزارة الشعب الحكم ، قصد الأستاذ الطاهر إلى دار رياسة مجلس الوزراء وقدم نفسه لحضرة صاحب المقام الرفيع الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء فتفضل رفعته ورد إليه حريته وأذن له فى العودة إلى داره بعد أن أسدى إليه نصائحه الغالية.

وقد قابل الأستاذ الطاهر وجميع اخواننا الفلسطينيين هذا الصنيع بالشكر الجميل .

وقصد إلى دار الأستاذ كثيرون من اخواننا الفلسطينيين والسوريين والمصريين مهنئين كما ذهبت وفود كثيرة منهم إلى دار رياسة مجلس الوزراء لشكر رفعة الرئيس الجليل على هذا العطف الجميل الذى شمل به الأستاذ الطاهر .

ونحن نهنىء الأستاذ الطاهر برد حريته إليه ، ونرجو له حياة هانئة سعيدة » .

مجلة الشعلة

قالت فى عدد ١٩ مارس ١٩٤٢ مانصه تحت عنوان « آخر لحظة : البوليس يقبض على الأستاذ محمد على الطاهر ـ ثم يفرج عنه لأنه مش هو ... » :

« انفردت «الشعلة» فى الأسبوع الماضى بما نشرته عن حادث الإفراج عن عزيز المصرى باشا وزميليه ؛ وها نحن ولم تمض ساعات على الإفراج عن زميلنا الأستاذ محمد على الطاهر المجاهد الفلسطينى المعروف ومحرر «الشورى» نقدم لقرائنا أطرف الأنباء وأصدقها عن هذا الحادث.

كان الأستاذ الطاهر معتقلا ثم هرب وظل مختفياً حوالى سنة ، إلى أن قرأ فى الصحف نبأ الإفراج عن عزيز باشا فحفزه ذلك على تسليم نفسه إلى رفعة الرئيس الجليل .

مفاجأة

وقد حضر الأستاذ محمد على الطاهر من أقاصى الصعيد فى قطار السكة الحديد فوصل إلى محطة القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر .

ولم يعرفه أحد لأنه كان متنكراً فى زى بدوى فلسطينى يلبس عقالا ويرتدى عباءة حمراء وقد أرسل لحيته .

وانتظر فى إحدى القهوات حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ثم استقل سيارة أجرة إلى رياسة مجلس الوزراء ، وصعد الأستاذ الطاهر إلى دار الرياسة دون أن يعرفه أحد . وسأل عن الأستاذ محمد صلاح الدين بك سكرتير عام مجلس الوزراء بالنيابة فقيل له إنه مريض . وقدموه إلى الأستاذ إبراهيم عز الدين . ولما علم أنه شقيق الأستاذ صلاح الدين عرفه بنفسه وطلب منه أن يلتمس له الإذن بمقابلة رفعة الرئيس الجليل .

يابختك يابو بخيت

واستدعى رفعته الأستاذ الطاهر وكان خلال ذلك جالساً مع بعض الصحفيين يتحدث إليهم عن ظروف اختفائه .. فقال وهو فى طريقه إلى مكتب الرئيس : يابختك يا أبو بخيت .. يابو الحسن...

تعال ياشق ...

وبادره رفعة النحاس باشا باسماً بقوله : تعال هنا ياشق ... ثم دار حديث طويل حول الموضوع بحضور سعادة حسن رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية والرقيب العام ، وانتهى الحديث بصدور الأمر بإطلاق الحرية له .

وانصرف الطاهر وجميع سعاة الرياسة يحيونه وقوفاً على هيئة « زنهار » اعتقاداً منهم أنه أحد رجال السلك السياسى الذين يمثلون البلاد العربية فى مصر.

وقد قص علينا طرفاً من حوادثه عرفنا منها أنه لم يبرح الأراضى المصرية خلافاً لما كان قد أشيع .. وأنه كان ينتقل فى مختلف أنحاء البلاد فى صور شتى ... فأحياناً يظهر فى صورة عربى وأخرى فى صورة « خواجه » .

مع النحاس باشا فى أسوان ...

وقال : إنه كان فى مقدمة الذين استقبلوا النحاس باشا ومكرم باشا فى أسوان والأقصر قبل تأليف الوزارة الوفدية الحالية ولم يستطع أحد أن يكشف حقيقة شخصيته .

مع مكرم باشا

وقال إنه شاهد معالى مكرم عبيد باشا فى أسيوط أثناء حضوره للمرافعة فى إحدى القضايا الكبيرة وأنه سلم عليه فى وسط « الزيطة » فلم يعرفه ولم يفطن إلى شخصيته .

فى رأس البر

وعلمنا أنه قضى شطراً من فصل الصيف فى مصيف رأس البر . وقابل فيه كثيرين من ذوى الشخصيات الكبيرة الذين كان يتصل بهم قبل اختفائه ، ولكنهم لم يعرفوه ، وكان يتردد أثناء وجوده فى رأس البر على مدينة المنصورة وقابل فيها حافظ عفيفى باشا وغيره دون أن يفطنوا إلى حقيقة شخصيته .

وقد التقى أثناء وجوده فى الإسكندرية بالبوليس السرى الذى كان مكلفاً بالبحث عنه فلم يعرفه ، ولذ له أن يلعب عليه ويضلله ، فراح يعمل فيه فصولا طريفة .

وقد ضبطه البوليس ذات مرة بالقرب من الإسكندرية وظنه أحد مهربى الحشيش فلما فتشه وجد معه (نخذة) خروف غير مختومة بخاتم السلخانة فصودرت (الفخذة) وتمكن هو من الفرار ! » .

مجلة الصباح

قالت فى عدد ٢٠ مارس ١٩٤٢ : « كان الأستاذ محمد على الطاهر صاحب ومحرر جريدة «الشورى» والمجاهد الفلسطينى المعروف مختفيا عن الأنظار من جراء أوامر صدرت بشأنه فى عهد الوزارات السابقة ، وبعد أن ظل مختفيا أحد عشر شهراً ذهب إلى دار رياسة الوزراء راكبا سيارة أجرة ومتنكراً فى زى بدوى مطمئنا إلى أن الوزارة الوفدية التى يؤيدها الشعب لا تصدر فى تصرفاتها إلا عن المصلحة العامة ، ولا تعمل إلا طبقا لمقتضيات العدالة والإنصاف وقد قدم الأستاذ الطاهر نفسه إلى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا فتفضل رفعته وأذن له بالعودة إلى داره وبالظهور بين أهله وأصدقائه متمتعا بحريته ، وأسدى إليه النصائح الغالية فتقبل الأستاذ الطاهر هذا الصنع الجميل بالشكر الجزيل .

ترى لو كان الأستاذ محمد على الطاهر قدم نفسه إلى دولة حسين سرى باشا عند ما كان رئيسا للوزارة ، أو إلى حمدى محبوب باشا عندما كان وكيلا للداخلية ينفذ أوامر وتعليمات الإنجليز .. ، ثم قدم الأستاذ الطاهر شكواه لهما معاً ، أو لواحد منهما على انفراد ، هل كان سرى باشا أو حمدى محبوب باشا قد تركا الأستاذ الطاهر حرا طليقا كما أطلقه النحاس باشا ؟؟

ماذا كان بين الإنكليز وأمين عثمان باشا

أكتب هذه المذكرة بعد أن أصبح المرحوم أمين باشا فى ديار الحق ، فمن الواجب أن أخلد له موقفا شريفاً مع الإنكليز بسببى ، فقد التقيت به قبيل مقتله بأسابيع رحمه الله وسألته عما دار بينه وبين الإنكليز يوم إطلاق فقال إنه لما اتصل بالسفارة البريطانية فى تلك الليلة وجد فيها المستر سمارت المستشار الشرقى «وهو عدو كبير لمصر وللشرق ومن أخبث الأعداء الماكرين» فأخبره أمين باشا بمجيئى إلى رياسة الوزراء ومقابلتى للنحاس باشا وإطلاقه إياى فقال سمارت إحجزوه إلى الصباح لبينما نستشير السفير اللورد كيلرن ، فقال أمين عثمان باشا إن هذا غير ممكن لأن رئيس الوزارة قد أطلقه . فغضب سمارت فقال له أمين باشا أنا من رأيى أن توافقوا على ذلك حتى لا يقع مشكل بينكم وبين النحاس باشا . وما الفائدة وقد تم إطلاقه . فطلب سمارت من أمين باشا أن يزور السفير فى الصباح . وقال لى أمين باشا إنه ذهب فى اليوم الثانى

إلى السفارة فوجد السفير اللورد كيلرن فى حالة انفعال ووجهه محمر من الغيظ وقد عاجله بقوله كيف تطلقون محمد على الطاهر العدو الخطر بدون تفاهم معنا أولاً ، فقال أمين باشا إنه لم يكن ممكنا للنحاس باشا إلا إطلاقه ، ولو كان السفير فى موقف النحاس باشا ماوسعه إلا ذلك ، فقال السفير «هذا رجل ردئ شديد الأذى » وهنا قال لى أمين باشا « أنا لما سمعت سمارت بالأمس يتشدد ، ورأيت السفير يقول هذا القول ظننت أن فى يدهم أشياء قوية ضدك تخفت عليك» فأحببت أن أكشف ورقهم فقلت للسفير إن النحاس باشا قد أطلقه وهو يكفله «أما إن كان يوجد لديكم وثائق ضده فهاتوها ونحن نحيله إلى محكمة عسكرية ونحبسه » فقال السفير إنه لا يوجد لدينا وثائق ولكننا نعرف أنه مهيج وخطر ، قال أمين باشا : فلما سمعت هذا القول اشتدت معنوياتى وقويت حجتى وتأكدت من براءتك فقلت للسفير إنى أفهم من كلامك أن الرجل متحمس ويحب وطنه ، وهذا ليس بذنب ، فأنت أيضاً تحب وطنك . وهنا خفت حدة السفير وهدأ ، ثم قال أرجوكم أن تلاحظوه وأن لا تمكنوه من مغادرة البلاد ، فتعهدت له بذلك .

هـذه خلاصة ما جرى بين الحكومة والإنكليز فى ليلة إطلاقى وفى صبحتها دونتها كما سمعتها من أمين باشا ، فشكرته يومها على حزمه ولباقته ، رحمه الله وبرد ثراه .

وقع ظهورى عند البوليس

كان لحادث ظهورى فى نفوس رجال بوليس الجواسيس أليما وعظيما . بل كان شديد الوقع . لأنه أثبت عجزهم وقصورهم فى ميدان التحرى والبحث والترصد ... والذى زاد فى الطين بلة أن ظهورى فى القاهرة حدث فى نفس الوقت الذى أرسلوا فيه الضابط محمد يوسف إلى بر الشام للبحث عنى فى صيدا وبيروت ، بينما كنت أنا فى الأراضى المصرية أجوبها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ! وكان أسلوبه هناك هو نفس أسلوبه السخيف الذى كان يعمد إليه هنا وهو «هذه عشرة جنيهات لتوصيلها إلى فلان فأرجوكم أن تهدونى إليه لأسلمه إياها أو خذوها إليه أنتم» فإن أخذوا المبلغ تعقبوهم ولاحقوهم سراً إلى أن يعثروا على الغريم ! .

البوليس السياسى السرى

إن هـذا البوليس موجود فى كل الدنيا ، وعند جميع الحكومات ، ومهمته أن يطارد الأجانب والجواسيس الخطرين على الدولة ، وأما فى مصر حيث نكبت بالاحتلال البريطانى

الاستعمارى فإن هذا البوليس كان يعمل للكيد للمصريين أصحاب البلاد ومطاردتهم ، ونتيجة ذلك توطيد قدم الإنكليز فيها ، وقد نذرت إن نجوت من كارثتى أن أكتب عنه ، فإذا بالأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة يسبقنى إلى هذا الواجب بمجرد أن ألغيت الرقابة عن الصحف وينشر عن البوليس السياسى فصلا بديعاً وصفه فيه أبلغ وصف قال :

كلام الأستاذ أحمد حسين

« نريد اليوم أن نتكلم عن القسم السياسى فى بوليس مصر ، فمن العبث أن نخصص صفحة للتحدث عن الحريات والدفاع عن الحريات دون أن نعرض لهذا البوليس بكلمة ، إذ لا حرية فى مصر على أى شكل من الأشكال مابقى هذا القسم من بوليس مصر وما بقيت أساليبه قائمة، ولا سلام لمصر بل ولا استقلال ولا سيادة حتى ولو جلا الإنكليز عن أرض مصر جملة إذا ظل هذا البوليس قائماً ، بل لعل وجوده صنو لقيام الاحتلال ، لا تزول أحدهما إلا بزوال الآخر . ولقد امتلأت الدنيا ضجيجاً فى هذه الحرب من الجستابو الألمانى والحديث عن الجستابو ، وقيل إن هذه الحرب قد قامت وإن الملايين قد ماتت من أجل أن يخلو سطح الأرض من الجستابو وأنظمة الجستابو ، ومع ذلك فإن مصر وحريات مصر وكرامة مصر ، كانت ولازالت وستبقى فريسة لهذا الجستابو المسخوط، مابقى القسم السياسى فى بوليس مصر قائماً ، مع فارق كبير جداً بين ما شهد به الجميع من حذق الجستابو وكفاءتهم وقدرتهم ، وبين العجز الشائن الذى يتجلى فى كل يوم وفى كل المناسبات من البوليس السياسى فى مصر، وحسبنا أن نشير إلى حادث مقتل أحمد ماهر باشا والذى لم يستطع القسم السياسى بكل حوله وطوله أن يحتاط لمنعه أو أن يدرك من أمره شيئاً .

ومن قبل هذا الحادث وقع حادث مقتل اللورد موين الذى اغتاله اليهود فى القاهرة والذى لولا لطف الله ورحمته لدفعت مصر ثمنه غالياً لمصرعه .

فما الذى يفعله الجستابو المصرى إذن ؟ إنه يقدم تقارير كاذبة عن النشاط السياسى لهذه الجماعة أو تلك ، إنه يبث العيون والأرصاد مشترياً سفلة الشبان والعمال ليقولوا له ماذا يجرى هنا وهناك، فى حين أن معلومات هؤلاء الجواسيس لا يمكن إلا أن تكون محشوة بالأكاذيب بطبيعة أخلاقهم.

فإذا ما وقع حادث أو طلب من القسم السياسي صيانة الأمن ، عمد إلى قوائم عنده وراح يعتقل كل من ورد اسمه فى هذه القوائم ، فإذا فرغ من اعتقالهم ظن أنه قد أدى الواجب ! وهذا كله عبث وسخف لم يؤد إلى نتيجة فى الماضى ، ولن يؤدى إلى نتيجة فى المستقبل إلا إفساد الأخلاق بنشر الجاسوسية والخيانة بين صفوف الشباب الأطهار ، إننا نتحدى القسم السياسى أن يدعى أنه استطاع أن يحمى حكومة من الحكومات بأساليبه ، نتحدى القسم السياسى أن يدعى أنه منع جريمة سياسية خطيرة قبل وقوعها ، نتحداه أنه يفعل شيئاً على الإطلاق إلا نقل الأخبار للسادة الإنكليز الذين يريدون أن يعرفوا كل شىء يجرى فى البلاد . أما الحكومات المصرية والجانب المصرى فهو لايستفيد منه بحال من الأحوال ، فعلام يبق هذا القسم ؟ وعلام هذه الضجة وهذه المرتبات وعلام هذا النفر من الضباط يضيعون أوقاتهم فى تخريب الأخلاق؟ إن هذا القسم يجب أن يلغى ويجب أن يلغى من أساسه، فهو مظهر من مظاهر الديكتاتورية الاستعمارية التى زالت ويجب أن تزول آثارها من العالم ، اهـ .

استطراد

وفى أثناء طبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٥١ تناول هذا الموضوع الأستاذ أبو الخير نجيب الكاتب الممتاز فى جريدته « الجمهور المصرى » فقال فى مقال طويل يصف فيه أسباب الفساد الذى بدأ يطغى على الأوساط الوطنية الناهضة .

« إن السر الدفين يعرفه البوليس السياسى فى مصر ، ويعرفه أيضاً الإنكليز الذين خلقوه وتعهدوه ودربوه على ماينبغى أن يفعله مع هذا الشعب ومع كل حكومة شرعية تحاول أن تقف منهم وقفة وطنية صادقة ، أو تنهج فى إصلاح البلاد نهجا يخشى معه أن يبلغ بها إلى مركز ممتاز !!

لقد عرف الإنكليز أن استمرار وزارة الوفد فى الحكم سيقضى على نفوذهم فى مصر ، ثم على نفوذهم فى السودان ، وهو أمر لم يسمحوا به لأحد فى مصر حتى الآن ... ان البوليس السياسى قائم فى هذه البلاد لينوب عنهم فى هدم كل قوة شعبية تنبت ، وفى إطفاء كل شعاع يبدو ، وفى تحطيم كل إرادة تظهر ، وفى نسف كل قاعدة يراد أن يقام عليها صرح اتحاد شعبى تنخرط فى سلكه كل القوى وكل السلطات ...

لقد عرف البوليس السياسي بطول التجربة والمران متى ينبغي عليه أن يتدخل لتحطيم الوزارة القائمة أيا كان لونها ... انه يعرف بإحساسه المرهف ، وبأنفه الدقيق ، وبخبرته الواسعة ، أن كل وزارة تقوم فى مصر ، وتظفر بتأييد شعبى مقترن بتأييد من السلطات العليا ، لا يمكن أن يرتاح الإنكليز إلى استمرار قيامها ...

إن البوليس السياسى لا يرتاح ، ولا يزدهر ، ولا يتبدى فى جاهه وسلطانه إلا فى عهود الإرهاب ... ولقد رأينا كيف كان ابراهيم عبد الهادى ومن قبله اسماعيل صدقى ومحمود فهمى النقراشى يغدقون الألوف المؤلفة على رجاله فى صورة مكافآت على سوق الناس إلى المعتقلات، وتعذيب شباب البلاد وإهدار رجولة الرجال، وتلفيق الاتهامات، وحشد الأكاذيب، وتمزيق المصاحف وضبطها كقرينة على صحة التهم كما حدث فى عهد الأحكام العرفية ، ومصادرة الكتب النافعة والصحف الوطنية ، والتنكيل بالأبرياء من النساء والرجال والشبان ... »

بعد الاستطراد

وفى خلال اقتباسى لما تقدم سرده وجدت فى مجلة « روزا اليوسف » الصادرة فى ١٢ فبراير ١٩٥١ كلاما عن البوليس السياسى وكيف يقف أمام الدسائس الإنكليزية موقف العاجز ، فلا يمسك أحداً من أعوان الإنكليز ولا يطاردهم ولا يلاحقهم ، فقد ذكرت المجلة أن البوليس السياسى قد عرف بوجود جمعية سياسية جديدة تسمى نفسها جمعية « الهلال الأخضر » تدعو مبادئها إلى توطيد الصداقة بين مصر وبريطانيا ، وتأييد السياسة الإنكليزية فى الشرق الأوسط ، وتؤيد بقاء الاحتلال البريطانى لقناة السويس كما تدعو إلى تأييد الخطة الإنكليزية المتبعة فى السودان .

وتعتمد هذه الجمعية فى نشر مبادئها على توزيع بعض المنشورات والابحاث السياسية وعلى الاتصالات الشخصية ، وعلى تقديم خدمات مادية إلى أعضائها وأنصارها .

وهذه المبادئ تشبه إلى حد كبير مبادئ جمعية « إخوان الحرية » التى تألفت خلال الحرب الماضية [1] ومبادئ « الاتحاد المصرى الإنكليزى » الذى تكون فى مدة الحرب أيضاً وضم الكثيرين من الشخصيات المصرية البارزة ويجتمع أعضاء جمعية « الهلال الأخضر »

(١) سيأتى الكلام على هذه العصابة الشريرة .

فى إحدى الدور التابعة للسفارة البريطانية ، وينضم إلى هذه الاجتماعات عادة بعض الشخصيات الإنكليزية المعروفة .

ولم يتخذ البوليس السياسى أو وزارة الداخلية ، حتى اليوم أى إجراء خاص بهذه الجماعة وكل ماحدث ، هو أن أرسلت وزارة الداخلية إلى وزارة الخارجية تسألها عن التكييف القانونى لهذه الجمعية ، وما يمكن من أن يتخذ حيالها من اجراءات على اعتبار أنها تجتمع فى إحدى دور السفارات الأجنبية ... » اه

هذا ما نشر وعلمه الخاص والعام عن عجز البوليس السياسى نحو الأجانب وأعداء البلاد . أما الهيئات العربية والإسلامية فإن هذا البوليس يلاحقها ويهدد رجالها بالحبس أو الإبعاد ، بل يحبس ويبعد بدون أن يستأذن وزارة الداخلية وبدون استفتاء وزارة الخارجية لأن الهيئات واللجان العربية والإسلامية ليس لها حكومات أجنبية تحميها ...

تعليق على ماتقدم

فبعد هذا الوصف الهائل الذى دبجه أحمد حسين وأبو الخير نجيب ومجلة روز اليوسف ، أقول : إن البوليس السياسى الحالى لا كفاءة عنده ، فقد لمس القراء فى هذا الكتاب عجزه وضعف أساليبه ، فمعظم ضباطه يجلسون وراء مكاتبهم ينتظرون وقوع الطريدة فى قبضتهم مصادفة ، إما بواسطة كلمة بالتلفون من واش ذميم ، أو برسالة بريدية من مجهول ملعون، فهم والحالة هذه أشبه ما يكونون بصاحب دكان كسلان يفتح أبوابها صباحاً ويقعد وينتظر مجىء « الزباين » فإن لم يفتح الله عليه أغلق الدكان فى المساء وعاد إلى بيته ليفتحها فى الصباح التالى وينتظر الرزق بواسطة البريد أو التلفون ...

فالذى أراه لإصلاح البوليس السياسى فى مصر ليخدم الأمة ضد الأعداء بعد أن انقلب إلى أداة تعمل ضد الأمة ، هو أن تقوم الحكومة بتبديل رجاله جميعاً . نعم لاسبيل إلى إصلاح هذا البوليس الذى عين الإنكليز معظم كبار رجاله إلا بإخراجهم جميعاً ، وتعيين هيئة جديدة لايكون بين رجالها أحد تربى عند الإنكليز ، أو اشتغل تحت رياسة الإنكليز ، أو عرف الإنكليز ، ولا اتصل بهم شخصيا ، ولا عرف فى حياته أرقام تلفونات السفارة البريطانية ...

شئون وشجون

عودة زوجي من المنفى إلى القاهرة

كان أول عمل أجراه مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء بعد إطلاق أنه أمر بإرجاع قرينتي إلى القاهرة ، فأرسلت الحكومة برقية إلى قنصل مصر العام فى بيروت بإبلاغ قرينتي نبأ السماح لها بالرجوع إلى مصر ، وأبرقت أنا إليها بأن تقدم جواز سفرها إلى القنصلية فأعطوها إذن العودة فوراً . وقد رأيت إشارة القنصلية على جواز السفر وهى تنص على أن إشارة الدخول لمصر صادرة « بأمر خاص من صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء » أى من الزعيم مصطفى النحاس باشا .

وفى خلال ذلك كنت قد عثرت على مفاتيح منزلنا بشبرا . فاستلمت الدار فإذا بالأثاث فوضى ، وبعض الملابس والرياش قد ضاع ، ولكنى مع ذلك حمدت الله على النتيجة . وبعد أيام وصلت قرينتي إلى مصر عائدة من منفاها فاستقبلتها فى محطة القاهرة عند الفجر وكانت آثار الضربة التى أصابتها فى عينها من الضابط الهمام محمد بك يوسف ظاهرة ، وقد وصفت جريدة المصرى بعدد ٣٠ مارس ١٩٤٢ وصول قرينتي بالكلمة التى أثبتها هنا بنصها الحرف وهو تحت عنوان « حرم الأستاذ الطاهر ـ حكومة الوفد تعيدها من المنفى » .

« يذكر القراء حادث اعتقال الأستاذ محمد على الطاهر ومرضه وفراره من المستشفى واختفائه نحو عام، ثم ظهوره فجأة وزيارته لصاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا فى دار رياسة مجلس الوزراء وصدور أمر رفعته بإعادة حريته إليه . ويذكر القراء أيضاً ما نال السيدة حرمه من عنت وإرهاق فى العهد البائد لحملها على الإرشاد عن مكان اختفائه ثم إبعادها من الديار المصرية إلى لبنان .

« وتقول اليوم إن الحكومة الوفدية أمرت بالسماح لحرم الأستاذ الطاهر بالعودة إلى مصر فوصلت مساء أمس إلى القاهرة واستقبلها لفيف من كرائم السيدات ونزلت فى دارها بشبراء وقد وفد على الدار عدد كبير من فضليات السيدات لتحيتها وتهنئتها بسلامة الوصول وإطلاق حرية زوجها . ومما يذكر أنه شوهد فى وجهها أثر الاعتداء الذى وقع عليها من البوليس عند إبعادها منذ ستة أشهر . وقد قابل الأستاذ محمد على الطاهر وأفراد الجاليات العربية هذا الصنيع الجميل من حكومة الوفد بالشكر والامتنان العظيمين » .

برقيتى إلى رئيس الوزراء

وكان أول شىء قت به يوم رجوع قرينتى أننى أبرقت إلى النحاس باشا بالبرقية الآتية :

« لمقام الزعيم الوطنى مصطفى النحاس باشا: الآن وقد أعدتم قرينتى إلى موطنها واستقرت فى خدرها، بعد إطلاق حريتى وحريتها، أتقدم معها بشكر الزعيم الأكبر وتحية حرمه المصون داعين بخلود الحكم الوطنى وسيادة الأمة » . إمضاء : محمد على الطاهر وحرمه

وفى اليوم التالى لنشر خبر رجوعها كان صديق الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة المعتقل قد سمح له بزيارة أهله بحراسة الشرطة ، فلما اطلع على نبأ وصول قرينتى وما أصابها من البوليس أبرق إلىّ بالتلغراف الآتى :

« أهنئك بالانطلاق، وأشاطرك الآلام التى عانيتها ، وأسجل إشمئزازى من الذين أساءوا لزوجتك، وأحتج على فظاعتهم ». أخوك فى المحنة : أحمد حسين

شاهدان على الاصابة بالضرب

أما الشاهد الأول فهو الدكتور مصطفى بك بشناق وأما الثانى فهو الدكتور رشيد بك كرم وهو كبير أطباء البوليس ، فقد أخبرنى بعد الإفراج عنى أنه كان يعود مريضاً فى السجن فرأى قرينتى فى غرفة المدير فحياها وكان يظنها آتيـة لتزور الدكتور بشناق على ظن انه هو المحبوس، ولم يخطر بباله أنها هى المسجونة ، فلما رأى الإصابة فى وجهها تقدم إليها سائلا عن صحتها وسبب إصابتها فلما أخبرته بالحادث اضطرب من فظاعة ما رأى وما سمع و قال إنه لم يقدر على عمل شىء لخدمتها أو التظاهر أمام الموظفين بإجراء معاينة رسمية لئلا يقبض عليه هو أيضاً ، وكان القبض على الناس فى تلك الأيام من أسهل الأمور عند أعوان المستعمرين

إعداد المعدات لرفع الدعوى الجنائية

إن حادث عدوان البوليس على قرينتى قد هيج خواطر الناس وجعلهم يستعجلوننى بإقامة الدعوى لدى محكمة جنايات مصر على الذين نكلوا بعائلتى، فاستشرت صديق الأستاذ العالم ابراهيم بك جلال رئيس نيابة الاستئناف «حينذاك» فقال إن الحادث فى منتهى الفظاعة ، والدعوى

قوية وكافية لأن تجعل النيابة تتدخل بمجرد تقديم الشكوى ، ولـكنه نصح بالتريث إلى أن تنتهى الحرب وتلغى الأحكام العرفية لئلا تتدخل السلطة البريطانية أو على الأقل تحقد على وتلفق لى بعض الوثائق وتصر على الحكومة بطلب القبض على وحبسى إلى أن تنتهى الحرب لأن السلطة البريطـانية لا يمكن أن تسكت وهى ترانى أتعقب أعوانها من أجل ما قدموا فى سبيلها فقبلت اقتراحه . ولـكننى مع ذلك أحببت أن أسبر غور الحكومة ، فذهبت إلى الدكتور محمد صلاح الدين بك السكرتير العام لمجلس الوزراء « وزير الخارجية الآن سنة ١٩٥١ » واستشرته فى مسألة رفع الدعوى ، فقال إياك أن تفعل لأننا لا نزال فى حالة حرب والأحكام العرفية قائمة ، ويستطيع مدير البوليس العام «رسل باشا الإنجليزى» أن يرفض السماح بمحاكمة أعوانه فيقف ومن ورائه السفارة البريطانية والقيادة العسكرية فى وجه النيابة العامة والمحاكم الأهلية لحماية ضابط البوليس لأن القضية ناشئة عن تصرفات جرت فى سبيل سلطان الانكليز فتقع بيننا وبينهم مشكلة بسببك لا يدرى إلا الله عواقبها ، فالنيـابة المصرية ستتمسك بحقها القانونى فى جانبك ولا يسعنا إلا تأييدها ، والإنكليز سيتمسكون بالأحكام العرفية ، وعندذلك يصعب على كلا الطرفين أن يتراجع . ثم قال إن الحكمة تقضى بإرجاء رفع الدعوى إلى ما بعد الحرب .

فلما رأيت أن الاتفاق فى الرأى كان تاماً بين رجل القضاء ورجل السياسة ، تركت مسألة رفع الدعوى إلى حين [1]

حافظ عفيفى باشا والنحاس باشا

لقد عرف القارئ ، مما سردته سابقاً أننى كنت قبل الاستسلام قد كلفت الدكتور حافظ عفيفى باشا بأن يتصل برئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا لأخذ رأيه فى الاستسلام إليه ، وإننى فضلت استئذانه على المباغتة ، وإن حافظ باشا قد وعد بالجواب بعد أيام ، وكيف إننى لم أنتظر

[١] لم نستطع إقامة الدعوى بعد ذلك ، لأن الإنكليز اشترطوا عند إلغاء الأحكام العرفية بعد الحرب إصدار تشريع يمنع إقامة الدعوى على الموظفين الذين ارتـكبوا أموراً لا يقرها القانون أو اقتضت الأحكام العرفية وحالة الحرب اقترافها ، وعلى ذلك يكون أصحاب تلك الفظـائع قد أفلتوا من يد العدالة الرسمية ، ولـكنهم لن يفلتوا من العدالة المعنوية ، ولا من عدالة حكم الرأى العام فإنه لهم بالمرصاد . .

بعد أن رأيت النحاس باشا يطلق عزيز باشا المصرى ، فسلمت نفسى .

وأقول الآن ، إننى كنت وقرينتى بعد عودتها من المنفى نشرب الشاى فى ضيافة الدكتور عفيفى باشا وقرينته الفضلى ، فسألته عما كان بينه وبين النحاس باشا فقص علينا وهو يضحك الحكاية التالية ملخصة : وذلك أن حافظ عفيفى باشا استسنح فرصة فى يوم الأحد ٧ مارس سنة ١٩٤٢ فذهب إلى فندق « مينا هاوس » مشتى النحاس باشا فى تلك الأيام ، فقابله على غير ميعاد واختلى به وقص عليه قصتى كلها وأننى أطلب موعداً للاستسلام ، ثم أطلعه على كتابى الذى قلت له فيه إننى لا أحب أن أباغت النحاس باشا ولا أن أفاجئه . فإذا بالنحاس باشا ينفجر ضاحكا ! قال حافظ باشا . فاندهشت من هذه الضحكة ، فقال النحاس باشا وهو يقهقه « لقد فعلها صاحبك الطاهر فى الليلة الماضية لأنه باغتنى وخمنى كمان! » فاندهشت وسألته إيضاح ما يقول ، فقص علىّ النحاس باشا قصة مباغتتك إياه مساء أمس السبت فى رياسة الوزراء ، وكيف أنه أطلقك ،

ونزعت لباس البدو ورجعت إلى اللباس الأفرنجى بضعة أيام فكنت أبدو هكذا

فكانت الحادثة مفاجأة لى أعظم من مفاجئتك إياه بالاستسلام فى دار الرياسة ، ثم قال حافظ باشا : والغريب ان النحاس باشا استعمل معى المكر والدهاء فتركنى أتكلم وأحدثه عن مسألتك وعزمك على الاستسلام بدون أن يظهر عليه شىء يدل على أنك جئت إليه أو أنه يدرى عنك شيئاً ، إلى أن أطلعته على كتابك فبقى منصتاً يسمع إلى النهاية ، وبعد ذلك باغتنى بأخبار استسلامك وإطلاقك !

القبض عليّ فى ميدان باب الحديد

وبعد أيام من الإفراج عنى كنت أنزل من الترام ومعى الدكتور البشناق ونحن فى طريقنا إلى دار الشيخ إبراهيم إطفيش تلبية لدعوته لنا احتفالا بإطلاق ، وإذا برجل يتلقفنى بمجرد نزولى ويسألنى ألست فلانا ؟ فقلت نعم . فقال أنا من رجال البوليس السرى ومكلف بالقبض عليك ثم تأبط ذراعى وأخذ يتجه بى نحو مركز البوليس فتوقفت وقلت له أنت واهم فسألتى انتهت منذ أيام ورئيس الحكومة أطلقنى رسمياً . فقال رجل البوليس أنا أعرف هذا ولكن تعال معى إلى قسم البوليس فهم يريدونك. وكانت إدارة بوليس الأزبكية قريبة منا وهى ذات الإدارة التى كاد يدخلنى إليها جندى الدورية فى العام الماضى لما ضبطنى وأنا أهرول خارجاً من باب الفندق وبيدى السلة وصرة الملابس ...

مشيت مع رجل البوليس هذه المرة وأنا أقوى مركزاً ومعنوية مما كنت فى ذلك الحين ولكن على كل حال كنت فى نفسى مضطرباً أتصور السجن وشماتة البوليس ، وأنا لا أدرى ما الذى غير فكر النحاس باشا حتى نقض أمره السابق ونكث بيده ما وفقه الله إليه وسمح بحبسى بعد أن أطلقنى . فقلت فى نفسى قاتل الله السياسة فكم تفسد من طبائع الناس حتى أن النحاس باشا يقدم على النكوص والعياذ بالله . وأما الدكتور مصطفى بك فإنه لم يتركنى بل ظل إلى جانبى ، وسار معى إلى مركز البوليس ، فقلت له : إن بقيت فى إدارة البوليس فاذهب وحدك لدار الشيخ إبراهيم وأخبره بعذرى عن عدم حضورى وليمته ثم اذهب إلى منزل النحاس باشا واخبره بما جرى، فقد يكون الإنكليز قد تحدوه وأمروا بالقبض عليّ بدون علمه ، لأنى أعتقد أن مثل النحاس باشا لا يمكن أن يقبل هذا التحدى .

وفطنت وأنا عند باب مركز البوليس إلى رسالة كنت قد كتبتها لأحمد حسن بدر بالمنصورة وكانت لاتزال فى جيبى ، فقدرت أنهم سيفتشونى الآن وسيجدون فى الرسالة أموراً ودلائل تدل على أنى كنت عنده ، فإن ظفروا به انتقموا منه وأوسعوه تعذيباً ، فمددت يدى إلى جيب المعطف وأمسكت بالرسالة وأخذت أمزقها بأصابعى وأهشمها بقدر ماتستطيع اليد الواحدة أن تقدر ، وكنت أنفذ هذه العملية بسرعة وخفة حتى لا ينتبه رجل البوليس إلى

ما تصنع يدى فيتناول حطام الرسالة وذلك يكفى لمعرفة ما أريد أن أخفيه عنهم ، لأنهم يجمعون « فتافيت » الورق إلى بعضها ويقرأونها .

ولما صعدنا الدرجات القليلة إلى دار البوليس، أوقعت معطفى عن ذراعى الآخر وتظاهرت بالانحناء عليه لأخذه ، وفى خلال هذه الفترة تمكنت من ترك بقايا رسالة المنصورة على الأرض ثم استأنفت المشى مع شرطى الجواسيس إلى أن دخلنا على ضابط ، فقص عليه الشرطى كيف كان يترصدنى عند محطة الترام وكيف قبض علىّ . فتناول الضابط آلة التليفون وخاطب إدارة البوليس العامة يزف إلى رئيسه البشرى بالقبض علىّ وان « شافعى افندى » هو الذى توفق فى هذه المهمة لحفظ حقه فى المكافأة ...

وبعد لحظة رأيت وجه الضابط يتغير وأساريره تنبسط ثم ناولنى سماعة التليفون وقال إن سعادة البك يريد أن يكلمك فتناولت التليفون فسمعت رئيس هؤلاء الناس يذكر لى اسمه « القائمقام أحمد حمدى » ويعتذر لى عن غلطة الشرطى وأنه غبى ، لأنه لم يدر حتى الآن بنبأ إطلاق حريتى ... فقبلت هذا الاعتذار وانصرفت مع الدكتور مصطفى بك إلى دار الشيخ إبراهيم إطفيش بالمطرية لتناول طعام الكسكسى المغربى، ولكنى لم أنس قبل مغادرتى دار البوليس أن ألتفت إلى « شافعى افندى » وأن أعزيه على فشله وضياع المكافأة والترقية بعد أن رآهما فى خياله وبنى عليهما وعلى موتى فى السجن قصوراً من العلالى، فقال له الدكتور بشناق « ياخيبتك ياسى شافعى » !

بطل مجهول

ذكرت فيما تقدم اننى خفت أن يلحظنى البوليس وأنا أحاول إعدام رسالتى إلى المنصورة فيأخذ بقاياها فيعيدها إلى أصلها ويعرف منها كل ما أريد أن يخفى .

وأسجل الآن أختاً لهذه الحكاية وقعت فى لبنان ، قصها علىّ الأستاذ أحمد الإمام أحد ساسة فلسطين القدماء ، وهى تدل على أنه يوجد بين رجال البوليس من يساوون أنبل الناس فى شرفهم وإنسانيتهم، وذلك أن الأستاذ أحمد الإمام كان فى أواخر ثورة فلسطين سنة ١٩٣٩ قد لجأ إلى لبنان واستقر فى بلدة « بحمدون » وإذا به يباغت فى إحدى الليالى بتفتيش بيته

بطلب من الإنكليز بفلسطين ، ثم ساقوه إلى مركز الشرطة اللبنانية فى بحمدون ، فأخذ رئيس المخفر يحقق معه كالعادة ، قال الأستاذ أحمد الإمام : وبينما أنا كذلك فطنت إلى ورقة خطيرة موجودة فى الجيب الخلفى من « البنطلون » وهى كل مايريد الإنكليز الاستيلاء عليه ففيها أسماء ثوار وعنوانات مجاهدين مستترين فى فلسطين وسورية ولبنان ، فلو ظفروا بهـا لأعدموا وسجنوا العشرات منهم . فصرت وأنا أجيب رئيس المخفر على أسئلته أجعل يدى خلف ظهرى وفى خفة ولباقة تمكنت من سحب الورقة وأخذت أصابعى تعمل فى تمزيقها وتفتيتها ، وقبل أن أنتهى من هذه العملية إذا برئيس المخفر يرفع رأسه بغتة ويحدق فى وجهى ثم يمد يده نحوى ويقول « هات فتافيت الورقة التى مزقتها! » فاضطربت ولم أستطع المقاومة فناولته إياها وأنا لا أشك فى أنه سيضمها أمامه ويجمعها إلى بعضها وينقل عنها كل مايريده من معلومات ويدوّن فى محضر التحقيق تلك الفعلة التى فعلتها ثم يضعنى فى السجن .

ولـكن رئيس المخفر أخذ فتافيت الورقة ومال بها إلى المدفأة وألقاها فى النار وظل ساكتاً هادئاً يرقب احتراقها إلى أن تلاشت وعفّى أثرها ، ثم التفت إلىّ ورجع إلى ما كان فيه من تحقيق كأنى لم أصنع شيئا ، وكأنه لم ير ولم يصنع شيئا ! وبعد دقائق أطلقنى ...

فقلت للأستاذ أحمد الإمام ما اسم هـذا الشرطى البطل ؟ فقال إننى منذ ذلك العهد وأنا أشعر بالأسف لأنى لم أسأله عن اسمه لشدة اضطرابى فى تلك الليلة . فقلت له سأدون حادثتك هذه فى مذكراتى أنا ، مسجلا بطولة صاحبك ورجولته ، راجيا أن تقع عينه على هذا الفصل فيجد فيه بعض الترضية النفسية لما صنع من مكارم تدل على خلق عظيم ، وفيها درس وإيحاء لـكل شرطى ، يحثه على عمل المعروف .

أما إن ظفرت باسمه فسأحلى به الطبعة الثانية من هذه المذكرات[1] .

---

[١] هذه القصة سمعتها من السيد أحمد الإمام فى سنة ١٩٤٣ وقد بقيت حية فى ذهنى إلى أن قرأت فى الصحف سنه ١٩٤٧ أن السيد الإمام رجع إلى لبنان فـكتبت إليه أذكره بصاحبه الشرطى الذى أنقذه فبحث السيد الإمام عنه بمراجعة سجلات البوليس فى تلك السنة إلى أن وقف على أخباره فعلم أن اسمه « أنطون الدوخى » من « مرجعيون » بجنوب لبنـان وأنه توفى إلى رحمة الله لحزنت عليه وسجلت مكرمته هنا تحية لذكراه العطرة

الجندى الذى نكب بسببى

بحثت عن سيد حسن البلاح ، جندى البوليس الذى كان موكلا بحراستى فى مستشفى الدمرداش واعتبرته الحكومة مسئولا عن هربى ، فلما درى بيحثى عنه جاء وقص علىّ ما أصابه بسببى وانه بعد غيابى فى مستشفى السجن عن عينه وعيون الجنود بدقيقة واحدة « لعب الفار فى عبه » فمشى إلى الجهة التى كنت واقفا فيها فلم يجدنى، فركض يمينا وركض شمالا فلم يعثر علىّ ، فرجع إلى رفاقه وسألهم إن كانوا قد رأونى فنفوا ذلك وأخذوا يبحثون عنى معه . وجاسوا خلال الغرف والممرات والمنعطفات فى ذلك المستشفى الواسع ، ثم صعدوا السطح ، وبعد ذلك فتشوا الحديقة والمخازن والعيادات ، ولكن هيهات ! ثم قال إنهم ظلوا يبحثون وهم بين الرجاء والأمل إلى أن أشرقت الشمس وآن أوان تبديل «الدورية» فانكشف الأمر فقبضوا عليه وحبسوه شهراً بعد أن ضربوه « علقة » حسب عادة البوليس .. فقلت له انت رحت ضحية غيرك كما انى كنت ضحية غيرى ، وأعطيته مبلغاً قليلا من المال، ولكنه بالنسبة لكلينا يعتبر لا بأس به ...

إنه نكب فواسيته . وأما أنا فلم يعوضنى أحد ، بل ان الذين نكبت بسببهم وفى سبيل بقائهم فى أوطانهم وإغاثتهم ودفع الظلم عنهم ، وفى سبيل حصولهم على الوظائف والمناصب واستقرار حياتهم وهنائهم فإنهم تركونى ، وزاد بعضهم على ذلك بأن لامنى على اشتغالى فى السياسة وقال إننى أستاهل وإنى « غلباوى » لأنى لم أقعد ساكتاً هادئاً كبقية الناس... وبعضهم كان يساعد الاستعمار للقبض علىّ ، وبعضهم تنكر لى وصار بعد الإفراج عنى يتهرب من لقائى خوفا أو لؤما ، وبديهى انى تألمت منهم فحقدت عليهم وخسرت صداقتهم، وبذلك يكون الاستعمار قد نكبنى نكبتين ، نكبة الحبس والتشريد . والثانية أنه أفقدنى بعض الأصدقاء، وخلق بيننا عداوات أيضا، ثم عرفنى فوق ذلك بمحمد يوسف وعرفه بى .. ولما ترك الإنكليز الحكومة المصرية وخرج جيشهم من القاهرة تركوا لى صاحبهم فيها ...

زيارات

وفى مقدمة الزيارات التى أديتها بمجرد إطلاق سبيلى زيارة دار صديق المرحوم الشيخ

علي سرور الزنكلونى وقبره ، ودار المرحوم أحمد شفيق باشا وقبره ، لأنهما كانا يسعيان للإفراج عنى وأنا فى السجن ، وقد لحقا بربهما بدون أن أراهما رحمهما الله ، وزرت المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان قبيل وفاته وشكرته رحمه الله ، ثم زرت الدكتور أحمد العجاتى بك مدير مستشفى الدمرداش وشكرته على ما كان من بره وعنايته بى لما كنت عنده وأنا مريض وسجين .

فى صدره !

وقص علىّ أحد الأصدقاء أن الضابط محمد يوسف كان يندس فى المجتمعات السورية فكان كلما رأى صديقى فى مجتمع جلس بجواره وأدار الحديث حول هربى ليحمله على أن يبوح بما يعلمه عنى ، أو يلتقط منه كلمة تدله على مكانى ، وفى إحدى المرات سأله أين فلان يافلان ، فأنت تعرف مقره وتكتمه ! فقال صديقى : لقد أصبت فأنا أعرف أين هو ، فقال محمد يوسف بلهفة « أين هو بالله عليك » ... فأشار صديقى إلى صدره وقال إنه هنا ، فسكت الضابط الهمام !

من تخيلات الأصدقاء

وذكر لى أحد الأصدقاء بعد الإفراج عنى انه رآنى فى صباح أحد الأيام وأنا لا أزال هارباً أمشى فى شارع عماد الدين لابساً البرنيطة وأنه فضل أن يتجاهلنى محترماً اختفائى حتى لا يزعجنى أو يحرجنى ، مع أننى مادخلت فى تلك الأيام شارع عماد الدين ولا لبست البرنيطة فى حياتى !

أما النكتة التى تستحق أن تسجل فتلك حكاية جارنا الضابط فتحى الذى أرسل من يقول لقرينتى فى أوائل أيام الهرب إنه ورفاقه قد عرفوا منطقة مخبئى وأنهم طوقوها ، فهذا الضابط رآنى فى صبيحة إطلاق وجهاً لوجه عند باب العمارة التى يسكنها هو وأسكنها أنا ، وكنت فى تلك الساعة لا أزال باللحية والعباءة والعقال ، وقد جئت بوقتها أبحث عن حالة دارى وما جرى لها ، فإذا بالضابط فتحى عند الباب يواجهنى وأواجهه ، ولكنه لم يعرفنى ، ولو عرفنى لقبض علىّ بلا شك لأن الغاء أمر القبض لم يكن قد وصل إليه بعد ...

من أعمال البوليس أيضا

لقد ظهر بعد الإفراج أن الضابط محمد يوسف لم يترك أحداً من الإزعاج بسببي ، حتى انه طرق دار أسرة الدكتور أمين بك رويحة فى مصر الجديدة وكان الدكتور أمين مسجونا بوقتها فى فلسطين، فلما فتحت له قرينة الدكتور الباب دخل بسرعة وبلا إذن وادعى أنه قادم « للاطمئنان على صحة الأنجال » ! ثم أخذ يجيل بصره فى الدار فقالت له أظنك جئت تبحث عن فلان لعله عندنا ! فقال ألا يجوز أنه نائم الآن فى الغرفة الأخرى؟ فقالت له متهكمة : إذن دعه يستريح ! فبلع ريقه وتركها وانصرف[1] .

روايات طريفة

وأخبرنى السيد عبد الله بن علوى الجفرى أحد سادات لحج باليمن أنه كان فى داره بعدن فجاء إليه فريق من أعضاء « نادى الصومال » يبشرونه بالإفراج عنى ورووا له كيفية ذلك على الشكل الآتى زاعمين أنهم سمعوه بالراديو .

« كان النحاس باشا رئيس الوزراء فى داره ، فجاء إليه رجل بدوى يركب جملا ، ودق الباب فخرج إليه النحاس باشا وفتحه بنفسه ، فأسفر راكب الجمل عن وجهه وصاح فيه « أنا محمد على الطاهر » فصاح النحاس باشا يقول مرحباً مرحباً ، أنت حر وقد أطلقتك » فرجع السيد الطاهر مسروراً وهو كاشف وجهه أمام الجماهير بدون خوف ...

وذكر بعض الناس فى نفس القاهرة أن محمد على الطاهر ذهب إلى النحاس باشا وهو متنكر وفاوضه بشأن الإفراج عن « محمد على الطاهر » وأن النحاس باشا لم يعرف من الذى كان يكلمه ولما تمت المفاوضة أظهر محمد على نفسه فاندهش رئيس الوزراء وقام فقبله ... ومثل هذا التخليط كثير !

---

[١] تذكرنى شدة ملاحقة الضابط محمد يوسف لى ، بالشرطى الفرنساوى « جافير » وملاحقته لـ « جان فالجان » الهارب من البوليس فى قصة « البؤساء » لفيكتور هيجو ، ولكن الفرق كبير بين الحالتين ، لأن جافير كان فرنسياً يطارد عدواً للهيئة الاجتماعية الفرنسية وكان متهماً بجريمة يعاقب عليها القانون ، وأما صاحبنا محمد يوسف فكان يطارد بريئاً لحساب الإنكليز أعداء الوطن الذى ينتسب محمد يوسف إليه ...

وفاء

ماسررت بشيء بقدر سروري بعواطف طبقة العوام فإن هؤلاء من كسارية ترام إلى باعة صحف كانوا بعد الإفراج عني يقابلونني في الترام وفي الطرق العامة فيسلمون عليّ ويدعون لي ويعبرون عن سرورهم بنجاتي من المستعمرين ، وكان ألطف مارأيته رسالة واردة على مصطفى النحاس باشا من السيدة فتحية عقل «قرينة المرحوم السيد جلال عوف» القاطنة في أنقرة عاصمة الترك ، تهنئه برياسة الوزارة وتطلب منه الإفراج عني على ظن أنني لا أزال في السجن ، فكانت هذه الرسالة أجمل تعزية وتحية لي ، وهذه السيدة لا أعرفها ولا تعرفني ولكنها كانت تسمع من الراديو أنني محبوس فشاءت عواطفها الكريمة أن تتشفع بي .

مآدب للتهنئة

بقيت نحو شهر ومآدب الأصدقاء تقام لتكريمي وإعلان السرور بنجاتي أذكر منها مآدب محمد محمود جلال بك ، والدكتور مصطفى بشناق بك ، والأستاذ إطفيش ورشيد بك الحاج إبراهيم وأنجال المرحوم الإمام محمد رشيد رضا السيدان شفيع والمعتصم ، وأنطون باشا الجميل ، ومحمود تيمور بك والمرحوم عبد الستار الباسل بك ، والدكتور محمد صلاح الدين بك ،

في دار محمد محمود جلال بك فجلست في الوسط وجلس إلى يسار القارئ بجواري عبد الرحمن الرافعي بك وجلس إلى اليمين الدكتور بشناق بك ووقف بجواره جلال بك فالأستاذ العمري بك

والسيد محمد العتابي والدكتور يعقوب خوري الخ .

هل بقى عندك عقل !

وقابلني بعد إطلاق ، الأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي بك مدير الشئون الدينية برياسة الوزراء فسألني عن المدة التي قضيتها هارباً متخفياً ، فأخبرته أنها أحد عشر شهراً ، فقال وهل بقى عندك عقل بعد ذلك ؟ فقلت ربما بقى منه القليل ! فضحك وقال والله إن أعصابك لمن حديد ، لأني لما هربت من قضية القنابل قبل عشرين سنة واختفيت أحد عشر يوماً فقط كدت أفقد عقلي من حياة الاختفاء والحذر ، ولولا أن الله لطف بي وجعل البوليس يهتدى إليّ ويضعني في السجن لما استطعت الأكل ولا النوم .

هذا ماقيل عن حياة الهرب والاختفاء ، أما حياة السجن الانفرادى المغلق فقد وصفها الأستاذ أبو الخير نجيب الصحافي المعروف إذ حبس في قضية صحافية أربعة أيام فقط ، حبساً احتياطاً كان فيه مدللاً وكان يعرف على الأقل ماهى تهمته ، ولما خرج من الحبس ، أرسل مذكرة إلى النائب العام عن نظام حبس الصحفيين في سجن الأجانب وأن غلق باب الغرفة ١٨ ساعة ونصف الساعة على السجين في كل ٢٤ ساعة تصرف يؤدى إلى إتلاف الصحة وأحيانا إلى الجنون !

فهذا السجن الانفرادى الذى كاد يجنن أبا الخير في أربعة أيام ، قضيت فيه أنا أكثر من ستة أشهر ...

وحياة الهرب التي كادت تجنن الجديلي بك في أحد عشر يوماً ، قضيت فيها أحد عشر شهراً ...

نكتة

وعلمت بعد زوال المحنة أن أحد أصحابي من الطلبة الأزهريين المكلفين بإيجاد مسكن لأختفي فيه كان قد استأجر لي غرفة في حي الدرب الأحمر وكان يسكن فوقها أحد ضباط البوليس ، فلم أسكنها طبعاً ! والغريب أن صديقي الطالب الأزهرى لما استأجر لي الغرفة استأجرها وهو يتنكر بلباس الأفندية ... فأعجب لتنكر يستأجر لتنكر !

لقاء ومباغتة

وكان ممن زارونى بعد الإفراج عنى أحمد حسن بدر والشيخ إبراهيم مجاهد قاضى المنصورة الشرعى والسيد أحمد بك جودة نقيب الأشراف وإبراهيم بك الشناوى وعباس افندى عقل وعبد المجيد افندى سالم الذى شهد لى بأنى تاجر بطاطين فى الإسكندرية وأنه اشترى منى كمية منها قبل ثلاثين عاما...

فاندهشوا عند رؤيتى فى حالتى الطبيعية والفرق العظيم بين شكلى فى زى المشايخ وكيف أصبحت بعد ذلك، وقد أخذنا نتذاكر الماضى وأيام المنصورة فى قهوة « البرنسات » ودكان العطار عبد الهادى عكة بحارة ميت حدر ...

الشيخ إبراهيم مجاهد قاضى المنصورة الشرعى «الأسبق» يزورنى بمنزلى فى القاهرة زيارة خاصة وقد ظهرت القطة «حبيبة» بيننا

هل أنا الآن الأصل أم الذى كان ؟

وكنت مرة فى زيارة أحد الأصدقاء بوزارة الأوقاف ، فإذا بعينى تقع على موظف كبير فى قسم القضايا يجلس على مكتب فى أقصى الغرفة فعرفته، ذلك هو الأستاذ محمود عقل بك « المستشار الآن سنة ١٩٥١ بمحكمة الاستئناف » وكان حينذاك يزور أقاربه فى المنصوره فى أيام اختفائى ويجالس أصحابه فى قهوة البرنسات مع أحمد حسن بدر والشيخ ابراهيم مجاهد والسيد أحمد جوده الخ وجلست وإياه أكثر من مرة ولعبت معه النرد .

فلمازرت وزارة الأوقاف لقيت الأستاذ عقل سحبت مضيق من يده وجلسنا عند الأستاذ لنمزح معه، فقدمني إليه صديق باسم مستعار وقال له عني إنني أعرفه ، ولكن الأستاذ عقل لم يعرفني ، فقلت له بل تعرفني وأعرفك ، فأنت فلان ، وكنت في المنصورة في الوقت الفلاني، وكان معك فلان وفلان ، وإني كنت معكم حين لعب الطاولة بقهوة البرنسات . فتأملني ملياً ولكنه هز رأسه مؤكداً أنه لم يرني، فقلت له أنا الشيخ محمد وكنت أجلس معك ومع أصحابك وأقاربك فكيف نسيت ؟ فقال: أنا في الأصل كنت وكيل نيابة وقد درست فن معرفة الوجوه والسحن فأدر وجهك إلى الجانب الآخر لأرى «البروفيل» ففعلت، ولكنه أصر على أني لست الشيخ محمد ! ولما رأى شدة إصراري قال ربما تشبه الشيخ محمد الذي كان في المنصورة ، فقد تكون شقيقه مثلاً ، فأقسمت له بأنه أنا وأني هو! فقال إذن فأنت متنكر الآن تنكراً جيداً! فقلت كلا بل كنت متنكراً هناك ، وقد رجعت الآن إلى حالي الأول . فقال إن كنت الأصل فقد كان تنكرك في زي شيخ مدهشاً . وإن كنت الشيخ ثم تنكرت الآن بشكل «أفندي» فهذا التنكر أتقن وأعجب ...

زيارة

وكان أول من جاء لفندق الكونتيننتال للتهنئة، قرينة الدكتور أمين رويحة بك السجين المظلوم ومعها أطفالها ، ففرحت بهم كأنهم أطفالي ودعوت على الذين عذبوا والدهم، ورجوت له من الله الفرج القريب .

استرجاع الغنائم

وذهبت إلى إدارة البوليس العامة فلقيت اليوزباشي محمد ابراهيم إمام [١] فسلمني ملابسي وأمتعتي التي تركتها في المستشفى ، والتي كان البوليس قد امتنع عن إرجاعها بعد الهرب إلى

[١] هو الأميرالاى محمد ابراهيم إمام بك وكيل حكمدار القاهرة عند طبع هذا الكتاب سنة ١٩٥١ فهذا الضابط الممتاز كان يؤدي وظيفته بالنسبة لي ولأهلي بدون أن يصدر منه ما يكدرنا ولا ما يخل بواجبه الرسمي بل كان فوق ذلك كريم المعاملة معنا ، كما أنه وصل إلى أعلى مناصب البوليس بدون أن يدعي أحد أن هذا الضابط قد أساء إليه ، لا باليد ولا باللسان . وهذا شيء نادر في تاريخ الشرطة لما تقتضيه هذه الوظيفة من الشدة في معاملة الناس ، ولكن الرجل الكريم يظل كريماً مهما كانت واجباته الرسمية قاسية

أسرتى وكانت موضوعة فى حقيبة كبيرة ولكن بعضها كان ناقصا، وأما «الروب دى شامبر» الجديد وهو من الصوف فقد مزقوا أطرافه وخرقوا ظهره مع أنى لم ألبسه إلا بضعة أيام ، ولم أجد كذلك مفكرتى وبعض أوراق الخاصة التى أخذها الضابط محمد يوسف لما مد يده إلى جيوبى يأخذ ما فيها ، ولا أدرى كيف يليق بالبوليس أن يمد يده إلى جيوب الناس ، كما أنى لا أدرى لماذا يأخذها ، ولا لماذا احتفظ بها ولم يردها إلى ، وكان فيها بعض كوبونات أمانة للسيد أحمد صنوبر من أهالى يافا ، فبقيت فى حوزة البوليس ، وها إنى لا أزال أطالب برد تلك الأوراق .

أساليب بوليسية

ولما اجتمعت بزكى سعد بك مدير الجوازات العام لينفذ أمر النحاس باشا بإعادة قرينتى، فهمت منه أنه ما كان يعلم بحكاية حبسها وإبعادها على تلك الصورة البشعة ، وإنما جيء إليه بجواز سفرها على أنها تطلب الإذن بالسفر فأعطى لها الإشارة المعتادة وقد تمكنت بعد ذلك من الاطلاع على «الدوسيه» بطريقة من الطرق فوجدت فيها تعليمات تقول ما خلاصته « حيث ان فلانة تريد السفر من مصر وهى أجنبية فلا مانع من سفرها على أن لا يسمح لها بالعودة إلى البلاد المصرية » وهذا غير صحيح، بل إنهم خطفوها من دارها وسجنوها ورحلوها بالقوة.

حتى العصفور الكنارى

ولما عادت قرينتى من المنفى قصت علىّ قصة محزنة وذلك أنها لما أخرجت من دارها بعد عدوان البوليس عليها لأخذها إلى السجن ، فطنت إلى العصفور الكنارى الذى كان يغرد فى الدار ، فخافت أن يموت عطشاً وجوعاً ، فرجعت عن الباب وحملت القفص وأرادت أن تودعه دار جارنا الأستاذ عباس جمجوم المهندس فرفض الضابط محمد يوسف أن يسمح لها بذلك قائلا « ممنوع ! » فتركت القفص على بسطة الدرج أمام المصعد «الأسانسير» وقالت للضابط الحازم إذن فدعه هنا ليأخذه أياً كان من الجيران حتى لا يموت العصفور جوعاً وعطشاً، وهكذا كان. وقد تصادف أن حرم الأستاذ عباس فتحت بعد ذلك باب دارها فوجدت القفص وفيه العصفور الأسير المنكوب بين أسلاكه فعرفته واندهشت من وجوده فطرقت باب دارنا فلم يرد عليها أحد

فأخذت القفص إلى دارها وهى لا تعرف كيف تعلل وجوده أمام الباب مع عدم وجود أحد فى دارنا.

ولما نزل عباس صادفه البواب وأخبره أن قرينتى نزلت الآن ومعها قوة من الشرطة وكانت مصابة فى عينها وفى حالة كدر شديد، ففهم عباس كل شىء، وعاد إلى أهله وأخبرهم بما سمع ، والله وحده هو الذى يعلم ماذا قالوا فى تلك اللحظة عن المجرمين ...

وقد احتفظ الأستاذ عباس جحجوم وجيراننا آل محمود تبريزى بالعصفور شهوراً ، ولما عدنا إلى دارنا أعادوه إلينا ، فأخذ يغرد ويصيح بمجرد دخوله الدار ، فأقسموا جميعاً بأن هذا العصفور بقى عندهم تلك الشهور الطويلة ساكتاً لا يغرد ولا يفتح فمه ، ولم ينطق إلا فى لحظة رجوعه إلى موطنه، فتعجبنا لذلك أشد العجب. ولا أنس أن أذكر جيراننا الآخرين آل جورج مسرة بك فقد كانوا ممن أحاطوا أسرتى بعطف الجار على الجار .

إزالة اللحية

كنت أنوى أن أظل باللحية طوال حياتى تذكاراً لما أصابنى واحتجاجاً على الاستعمار ولكنى وجدت أن «تكاليف» اللحية مما أنوء به لأنها تتطلب تكلف الوقار والسير وئيداً والإبطاء فى الحركة، وعدم الركض وراء الترام أو «الشعبطة» عليه عند الاقتضاء ... فى حين انه لابد للإنسان من الركض فى الشارع فى بعض الأحيان ، وخصوصاً فى مدينة كالقاهرة فكيف أستطيع ذلك وقد سمعت أحد الصبية يقول لى وأنا أركض مرة وراء الترام « عيب على دقنك يابيه ! » فخجلت

رجعت إلى دارى وعدت إلى حالتى الطبيعية

وقررت إزالتها فوراً ولكني لم أشأ التخلص منها إلا بعد أخذ عدة رسوم لتخليدها، فتطوع لذلك صديقي السيد شفيع رضا بن الإمام السيد رشيد فصورني قبل أن أزيلها .

تهنئة طريفة

ولمادري الأستاذ على با كثير بنجاح خطتي في مباغتة رئيس الوزراء بالتسليم طرب لذلك وكتب يقول فوراً :

« وبعد فلا تسل عن فرحي لما تلقيت بشرى خلاصك ونجاح الخطة على طول الخط ، إنها والله لساعة من تلك الساعات المعدودة في حياتي التي يطغى فيها الفرح حتى وقفت واجماً مشدوهاً . لقد وددت عندها لو أستطيع أن أملأ الدنيا صياحاً وجلبة وأؤذن بأعلى صوتي « أيها الناس لقد جاء الفرج وبرز محمد على الطاهر ! »

أنقذ الله طاهراً　　　فهو ناج ومنتصر
شكر الله صبره　　　فهو اليوم قد ظفر

ثم قال : أما عشية السبت فقد كنت أستمع لخطاب الزعيم الجليل النحاس باشا بالراديو وأنا حابس أنفاسي أدعو الله بقلبي أن تنجح خطتك وكنت أتصورك جالساً بين المجتمعين تسمع الصوت الذي أسمعه ، وقد غمرتني عواطف شتى لا أستطيع وصفها . وفي اليوم التالي وصلتني بشرى النجاح والحرية وكان عندي بعض الإخوان فكدت أرقص من الفرح . ولما ذهبت إلى مكمنك القديم ووجدت « الموقد والفحم والقطة » لم أملك دمعي الذي سال على خدي فأخذت القطة « حبيسة » من عالمها ومملكتها إلى داري، فما زلت بها أتلطف معها إلى أن رضيت بعض الرضى وتناولت شيئاً من الطعام ، فسبحان الله ما أوفاها وسأحتفظ بها إلى أن تأمر فأرسلها إليك أو أجيء بها بنفسي ، آه لو كنت طليقا لأكون بين الوفود المحتشدة للسلام عليك » .

بين شيخ الشوام ومحمد يوسف

وبلغني بعد الإفراج ونهاية المحنة أن الضابط محمد يوسف كان قد قد استدعى الشيخ عيسى منون شيخ الرواق الشامي بالأزهر وهو رجل متقدم في السن ومن أعضاء هيئة كبار العلماء

فيه وقال له إن صهرك الشيخ يوسف يعرف مقر محمد على الطاهر ويكتمه عنا ، فقال له الشيخ عيسى إن الشيخ يوسف مخطىء فى هذا إن كان صحيحا فدعنى أتحرى المسألة وأخبرك ...

وفى اليوم الثانى عاد إليه يقول لقد بحثت المسألة جيداً مع الشيخ يوسف فوجدته خالى الذهن ، وأما بقية الطلبة الأزهريين فلا يدرون شيئاً ، بل أنهم لو علموا أين مقر محمد على الطاهر لما تجاسروا على الإفضاء به لأنك تعرف أنه فى ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ قتل ١٢ ألف فلسطينى ومنهم عشرات قتلوا بسبب اتهامهم بالإفضاء عن مقر الهاربين من الإنكليز ... فقال محمد يوسف إذن فهؤلاء الطلبة جبناء ! .

فمحمد يوسف استطاع إذن بقوة الإنكليز أن يتجرأ على جلب أحد أعضاء هيئة كبار العلماء إلى مكتبه بإدارة الشرطة ويريد فوق ذلك أن يجعل منه جاسوساً على الناس بدون أن يشعر بما فى ذلك من تهجم على مكانة رجل قد يصبح شيخاً للأزهر ، وهذا غير بعيد لأن الشيخ قد أصبح وأنا أطبع هذا الكتاب شيخاً لكلية الشريعة وهى أهم كليات الأزهر .

لقد كان الشيخ مضطرا إلى مجاسنة محمد يوسف وتمثيل ذلك الدور معه للتخلص منه لأنه كان باستطاعة محمد يوسف بوقتها أن يضع الشيخ فى السجن ، لأن بريطانيا كانت تشجع هذا النوع من الضباط وتقر تصرفاتهم وتحميهم ، أليس أنهم ينفذون رغباتها ويبطشون فى سبيلها ، ويطاردون خصومها ويضربون بسيفها ويمكسون فرائسها ؟.

أوسمة ...

وفى هذه الأيام بعد الإفراج - قرأت فى الصحف أن حكومة سورية قد أنعمت على الضابط محمد يوسف بنيشان الاستحقاق السورى ، وأن حكومة شرق الأردن أنعمت عليه بوسام الاستقلال ، وهكذا حكومة لبنان وحكومة العراق ...

وقد جاء فى الإعلانات التى نشرها محمد يوسف فى الصحف عن سبب هذه الإنعامات إنها «مكافأة له على مايبديه من خدمات للجاليات العربية» وهذا غير صحيح لأن محمد يوسف كان يعرقل استقلال سورية بمطاردة أبناء البلاد العربية وتخصصه فى ذلك فكيف يأخذ وسام الاستقلال الذى يمنح لمجاهديها ؟ ولكن الحقيقة فى سبب الإنعام أن بعض السلطات المصرية تبعث بمحمد يوسف إلى الأقطار الشقيقة فى صحبة الكبراء الرسميين للحراسة والملاحظة ، والعادة فى مثل هذه الأحوال إهداء المرافقين أوسمة وهدايا ، وهو عرف جرت عليه الحكومات

فلا يسعها الانحراف عنه ...

أما قول الإعلانات ان سبب الإنعام هو «خدمات محمد يوسف للجاليات العربية» فهذا غير معقول لأن محمد يوسف يعتبر بقوة انجلترا غول الجاليات العربية والإسلامية ، ويكفى الذى نالنى وأسرتى ومعارف من أعماله ، وهى مما لا يمكن الضباط الإنكليز أن ينالوه منا أو يستطيعوا القيام به ، لأنهم لايعرفوننا ، ولو رأونى بينهم لما عرفونى ! .

وقد اطلعت أحد أصدقائى من ساسة سورية الحاكمين على قصاصة الأهرام «١٣ مارس سنة١٩٤٢» وقلت له: ألا يحرجكم أمامى هذا الإنعام على رجل يصنع معى ومع أبناء الأقطار الشقيقة ما صنع ، « وشرحت له طرفا عن أعماله » فكيف يجوز أن يكافأ هذا الرجل بما كان على الدول العربية بعد استقلالها أن توجهه إلينا نحن الذين جاهدنا فى سبيل قيامها واستقلالها، فأطرق السياسى السورى مليا ثم رفع رأسه وهو يقول : إن عتبك فى محله ، ولكن الحق على السلطات المصرية التى توفدهم ، فحكومة سورية هنا ملزمة سياسياً وعرفا بأن تنعم على كل رسول رسمى يأتى إليها من مصر ، ولو كان هذا الرسول قد آذانى أنا ! .

ملحق ...

زارنى بعدمرور سنين على هذه القصص الأستاذ أحمد رمزى بك المؤرخ المحقق ، فصادف أننا قرأنا فى تلك الساعة إحدى الصحف وفيها خبر وسام أهدى لمحمد يوسف من إحدى الحكومات العربية أيضاً ، فقلت لرمزى : يا أخى أما كنت تستطيع حين كنت قائما بأعمال المفوضية المصرية ببر الشام، أن تنصح بعدم رمى النياشين السورية واللبنانية على الناس هكذا بلا حساب ولا بحث ؟ فقال كيف أمنعها فى حين أن محمد يوسف كان يطلب منى أن أطلبها له وأن أنبه المختصين إلى ذلك، فهل تريدمنى أن أعادى ضابطا فى البوليس السياسى فى أيام الحرب والأحكام العرفية ! فقلت له : إذن فقد توسطت له ! فقال : كلا ، لأنى لو توسطت لبقيت فى بر الشام...

وفى الحقيقة إن إعطاء بعض الحكومات أوسمتها لفلان وفلان لا ينطبق معظمه على منطق معقول ، ولذلك قال فارس بك الخورى شيخ ساسة سورية : إنه لخير للإنسان أن يقال عنه لماذا لم يمنح وساماً ، من أن ينعم عليه بدون حق فيقول الناس لماذا منح فلان هذا الوسام ..

ملحق بعد الملحق

إن جمهورية سورية على عهد السيد شكرى بك القوتلى قد اقترح عليها من شخصية فلسطينية كبيرة أن تهدى وساما لرشيد بك الحاج ابراهيم أحد زعماء فلسطين الذين خدموا ثورة سورية وأمدوها بالمال والسلاح وتوصيله إلى مناطق الجهاد أيضا . ولكن الجمهورية العزيزة بخلت عليه بذلك ، مع أن رشيد هو صديق شخصى قديم للسيد شكرى بك القوتلى الذى يعرف أكثر من جميع الناس حقيقة جهاد رشيد الحاج ابراهيم من أجل سورية ومن أجله هو شخصيا، حين كان شكرى بك مجاهداً ونازحا إلى فلسطين ، وكم لقى فى دار رشيد بك من إكرام .

نظرة أخيرة

وما دمت فى صدد الأوسمة وأهل فلسطين ، أقول إن إهداء الأوسمة لرشيد وأمثاله كان واجباً لسبب بسيط ، وهو أن جميع الحكومات العربية المحتلة بالأجانب كانت تجمّل رجالها الذين يخدمون الأعداء الأجانب بالأوسمة والألقاب ، فى حين أن رجالات فلسطين الأبطال الذين جاهدوا من أجلها ومن أجل سورية قد ظلوا دون جميع العباد بدون ألقاب وبدون تقدير ، سوى لقب «المسجون» فلان أو « المجاهد » فلان أو «المنكوب» فلان ! فلو فرضنا أن أحد رجال فلسطين قد ضعفت نفسه واشتهى لقباً فإن عليه أن يطلق مبادئه وينتسب لإحدى الحكومات المستعمرة ويخدم الأعداء ليحظى باللقب أو الوسام، وبعد ذلك يظفر من حكوماتنا بالإكرام والإجلال! فكأن بعض الحكومات العربية تقول للمجاهدين : هيا إلى خدمة الاستعمار ليقدركم ويرفعكم إلى الكراسى العالية ، وبعد ذلك نحترمكم ونقدركم ...

وبالمناسبة . . .

وقد حدث هنا فى مصر فى أثناء طبع هذا الكتاب ، شىء يستحق أن يدون وأن يسجل ، وذلك أن وزيراً مفوضاً لإحدى الحكومات العربية لم يوافق على سياسة حكومته التى تضر بمصلحة العرب والمسلمين، فثار عليها وهجر منصبه زاهداً فى الجاه والمال واستقر فى مصر وأعلن تأييده لوجهة النظر المصرية ضد حكومته ، فكان المنتظر أن يلقى عندنا ما هو أهله من الاحترام والتقدير لشهامته وتضحيته ، ولكن لم يحدث شىء من هذا ، بل لقى الرجل إهمالاً وتنكراً من ولاة الأمور ، وقد بحثت مع أحد كبار الرسميين من رجال

الدولة عن سبب هذه المعاملة ، فقال إننا نخشى أن تتكدر حكومته منا ولذلك تجاهلناه ... فقلت له إن الرسميين الذين ترسلهم تلك الحكومة إلى مصر كلهم من أعوان الإنكليز وهم مع ذلك يجدون منا كل اهتمام وتعظيم ، فتسمع حكومتنا كلمتهم وتأخذ أحياناً برأيهم مع أن دولتهم كلها معتبرة من أعوان الإنكليز ، فكيف يستوى هذا مع ذاك ؟ فقال لاأدرى، فقلت إن هذا الوزير يتلقى من حين إلى آخر وساطات من حكومته بأن يرجع إليها وهى مستعدة لأن ترضيه مع التغاضى عن الماضى ولكنه رفض ، ولكن من يضمن لنا أن هذا الرجل بعد أن لقى منا هذا الاهمال لاينتقم منا ، فقال وكيف ينتقم ؟ فقلت إنها لمسألة سهلة ، فهو يستطيع أن يتفاهم مع حكومته ويعود إليها ثم تبعثه حكومته المؤيدة من الإنجليز رئيساً لوفدها إلى جامعة الدول العربية ، وقد تكون رياسة الدورة لها فيكون هو الرئيس الطبيعى لك ولمندوبى مصر وجميع مندوبى الدول العربية ، فماذا يكون الحال ، فسكت !

إذن فهناك شىء فى إدارة الشئون السياسية العليا لحكومات العالم العربى يجب النظر فيه برجولة وحزم وصراحة ، أما أن تهمل حكوماتنا رجال الجهاد حتى لا يغضب فلان ، وأن تهتم بأعوان الاستعمار لإرضاء فلان ، فهذه سياسة لن تبشر العالم العربى بخير أبداً .

وبعد ذلك ؟

بعد هذا أصبحت أنظر إلى الأمور من زاوية جديدة وأنا مندهش . لأنها تقع بعد جلاء الإنكليز عن مصر وجلاء فرنسا عن سورية ولبنان ، بعد أن كنا لانستغربها من الاستعمار . مثال ذلك أننى أرى خونة سورية وفلسطين الذين هربوا إلى مصر بعد أن اغتنوا من مال الخيانة يلقون فيها الأمان والإكرام ، فى حين أن المجاهدين والمنكوبين الذين نزحوا إلى مصر يلقون من الشرطة المطاردة والترويع ، والسعيد فيهم من أهمل شأنه وترك مهملا ، فهل كتب على المجاهدين أن يعيشوا طول عمرهم مروعين منكوبين حتى فى عهود الاستقلال ؟

إننى لا أكتم قرائى ما أحس به وأنا أكتب هذه السطور سنة ١٩٥١ وهو أنى نويت أن أربى طفلى « الحسن » الذى رزقت به بعد المحنة ، على أسلوب سلبى ، وهو أن يكون تاجراً أو موظفاً فى بنك ، فلا يتعرض للأمور العامة حتى لايقع بأيدى المستعمرين فينكلون به كما نكلوا بى ، ولا يلاحقه أعوانهم كما لاحقونى ، ولا يفجع بعقوق من يخدمهم كما وقع لى ، فتذوب نفسه حسرة وألماً ، كما ذاب قلبى حزناً وندماً .

هرب ...

معركة العلمين

نحن الآن فى صيف سنة ١٩٤٢ والحرب بين الإنكليز والألمان فى الصحراء الغربية على أشدها ، وإذا بالمرشال رومل القائد الألمانى الشهير يشد على الجيش البريطانى، شدة مباغتة ويكسره فى جهة «بيرحكيم» بأراضى برقة كسرة عنيفة ، وإذا بالإنكليز ينهزمون ويركضون عائدين إلى الوراء هاربين بصورة مزرية مفزعة ، وكان الألمان يتعقبونهم ويستولون على معاقلهم وحصونهم ويأسرون جنودهم بعشرات الألوف ، وقد واصل الإنكليز الهرب واشتد الألمان فى الطلب ، فاكتسحوا جميع منطقة برقة ثم استولوا على السلوم ثم تدفقوا على مرسى مطروح والضبعة وفوكه فى الأراضى المصرية ، وظلوا كذلك حتى منطقة العلمين ، حيث توقف الزحف الألمانى الذى بوغت أيضاً بهزيمة الإنكليز أكثر من مباغتة الإنكليز بهجوم الألمان عليهم ! فلم يسع الألمان إلا التوقف للم شعثهم وجمع قواتهم . وأما الإنكليز فقد ظلوا يهرولون هرباً وفراراً حتى الاسكندرية وهم لايصدقون بالنجاة . وقد شوهدت بعض الطلائع الألمانية التى تركب الدراجات النارية « الموتوسيكلات » تصل إلى أول خط الترام عند المكس بضواحى الاسكندرية ، فلو كان عددهم كبيراً وكانت الجيوش الألمانية سائرة خلفهم لاستولوا على المدينة بكل سهولة . ولكن إرادة الله قضت برجوع طلائع الألمان لحسن حظ الإنكليز الذين تشجعوا وعادوا إلى منطقة العلمين ووقفوا فيها أمام الألمان الذين أنهكوا أيضا بتنظيم حالهم وانتظار النجدات من ألمانيا ...

الحالة فى القاهرة

كان لهذه الانكسارات التى منى بها الإنكليز أشد وقع فى العاصمة ، وما كادت أخبارهم تتسرب إليها حتى أصبحت المدينة فى حالة غليان واضطراب ، فأما الأهالى فكانوا شامتين مبتهجين بكسر الإنكليز ، يرقبون زحف الألمان على البلاد بفروغ صبر ، ومن حقهم أن يشمتوا ببريطانيا التى استعبدت البلاد المصرية وأرهقتها وأذلت الأمة سبعين عاما .

وأما الإنكليز فقد بلغ بهم الذعر والفزع مبلغاً لايمكن تصوره لشدته ، وأخذت السفارة البريطانية تحرق أوراقها ، والقيادة العامة تعدم وثائقها ، فاقتدت بهما المفوضيات الأجنبية

وأخذت تحرق ملفاتها، فكان سماء القاهرة يعج بالدخان الذى كان يتصاعد من مداخنها! ثم خطف الإنكليز الذهب من البنك الأهلى وأرسلوه إلى السودان، وهرب رجال السفارة البريطانية إلى القدس والخرطوم، ولحق بهم كبراء اليهود وأعيانهم والأغنياء منهم، فمن فاته القطارات هرب بالطيارات. وأما أنا فقد أدركت ما وراء ذلك من عواقب وقدرت أن الإنكليز لابد لهم من البطش بالناس وإهلاك خصومهم ومن يتوسمون فيه العداوة لهم، فقلت فى نفسي لابد من الابتعاد عن وجههم والنجاة من أيديهم، فذهبت إلى رياسةالوزراء لأستطلع الأخبار ففهمت أن الحالة أخطر مما يظن الناس، وأن الإنكليز طلبوا من جلالة الملك أن يغادر القاهرة إلى السودان فرفض رفضا قاطعا، فطلبوا من رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا أن ترحل الحكومة المصرية إلى الصعيد أو إلى السودان فرفض وقال إن الحكومة لن تبرح العاصمة وستظل فيها إلى جانب جلالة الملك.

أنا خائف وهى خائفة

فذهبت إلى الدكتور محمود عزمى صديق القديم فى مكتبه بإدارة الضرائب لأقف منه على آخر الأخبار وإستشيره فى أمرى لأنى خائف من الإنكليز، فوجدت عنده يهودية هائلة مخيفةأعرفها وكانت تستشير بعض الزوار فى كيفية الهرب خوفاً من الألمان، فأخذت أنظر إليها مرتاباً وهى تنظر إلى مرتابة! أنا أعدها صديقة للإنكليز وأخشى أن تنبهم إلىّ، وهى تعدنى صديقا للألمان فتخشى إن دخلوا العاصمة أن أنبهم إليها! وهكذا كنت وإياها متفقان مختلفان، والنار تدق فى قلبي خوفا منها، وتثور النار فى قلبها خوفا منى!.

المصيف فى الإسكندرية

وجلست بجوار الأستاذ عزمى أستشيره بالذهاب إلى الإسكندرية لتمضية بقية الصيف فيها أناوأسرتى بحجة أننى منحرف الصحة من شدة الحر، وكنت أقول هذا الكلام بشكل تظهر عليه البساطة والسذاجة كأننى لا أدرى ماذا يحدث فى الدنيا ولا إنى موجس خطراً أو شراً، فحملق بى الأستاذ عزمى صائحا «بتقول إيه ياأخينا، أنت مش عارف الدنيا فيها إيه؟» ثم اندفع يقول إن الإنكليز ينسحبون الآن من مصر عسكريا وإن جيوشهم تتجه بعتادها

وسلاحها إلى فلسطين شمالا وإلى السودان جنوبا، وإن قطارات السكك الحديدية مع الإسكندرية ستتوقف غداً إن لم تكن قد توقفت الآن ، وان السلطة العسكرية البريطانية قد طلبت من الحكومة المصرية القبض على مئة شخص من الذين تعدهم خطرين على مؤخرة جيوشها ...

قال هذه الكلمة ثم حدجني بنظرة قوية وقال « هو انت لسه مقبضوش عليك ؟ » فتظاهرت بعدم الاكتراث مع أني كنت في تلك اللحظة مضطربا أشد الاضطراب ، فقلت : وعلام القبض عليّ ؟ وما دام الذهاب إلى الإسكندرية غير مستطاع فأنا ذاهب إلى مصيف رأس البر بعيداً عن السياسة وعن الحرب . فاستحسن عزمي هذه الفكرة وقال ستجد هناك مئات من الكبراء الهاربين من أخطار الحرب ...

الفرار من القاهرة

غادرت مكتب الأستاذ عزمي على الفور إلى دار الدكتور مصطفى بك بشناق وأطلعته على الحالة وعلى مخاوفي ، فأشار علي بالاختفاء فوراً إلى أن تنجلي الأحوال ، فوافقته ورسمت معه الخطة ثم غادرته إلى داري فجمعت ملابسي القديمة التي كنت أتنكر بها وهي العقال والكوفية والعباءة لأصبح بدويا، والجبة والعمامة والقفطان لأكون شيخا أزهريا، أو الشيخ محمد الناجي المغربي... فوضعت هذه الأدوات ـ أدوات المهنة ـ في حقيبة وأرسلتها ليلا إلى دار الدكتور بشناق على أن أطلبها في أي وقت أريدها فيرسلها لي مع رسول أمين إلى البلدة التي أستقر فيها ولما انتصف الليل غادرت الدار وبيدي حقيبة صغيرة فيها ما أحتاج إليه إن بقيت في ملابسي العادية. فقصدت منزل أحد معارفي فنمت عنده وفي الصباح الباكر ركبت سيارة أتوبيس إلى ضاحية المطرية ، ومنها ركبت القطار إلى شبين القناطر ومنها إلى بلبيس فالزقازيق ، إنها نفس الطريق الذي سلكته يوم الحرب الأول منذ عام ، فتعجبت من مصادفات القدر وكيف يعيد التاريخ نفسه .

وقبل أن أغادر محطة المطرية سطرت كلمة إلى صديقي الشيخ ابراهيم إطفيش حييته فيها ولم أذكر له شيئا مما أنا فيه ، ولكني كلفته قضاء مصلحة لي كنت قد سهوت عنها ، كما أني قبل أن أغادر منزلي رتبت مع قرينتي كيفية الاتصال والاطلاع على الأخبار وأن يكون ذلك

بواسطة تلفون الجيران فى أيام وساعات عيناها وبألفاظ وأسماء اتفقنا عليها وإن سأل عنى أحد يقال له إنى أصطاف فى رأس البر ...

كانت الساعة تقرب من العاشرة صباحا حين غادرت محطة الزقازيق ودخلت المدينة ، فشعرت بجوع شديد لأنى من الأمس لم أطعم شيئا ، فذهبت إلى نفس الفرن البلدى الذى اشتريت منه الخبز يوم الفرار الأول منذ عام ، واشتريت جبنا من نفس البقال الرومى الذى اشتريت منه فى ذلك الحين ، ثم ذهبت إلى نفس القهوة التى جلست فيها فى العام الماضى ، وأخذت آكل طعامى فيها على ذات الطاولة أيضا. ولم يكن هناك من فرق سوى أنى كنت فى ذلك الحين شيخاً بالعمامة ! وبعد تناول فطورى ومعه الشاى جلست أفكر إلى أين ؟ نعم إلى أين أذهب ؟ وبديهى اننى لم أجد إلا المنصورة فركبت إليها من طريق طويل بطىء هى نفس الطريق التى اتبعتها منذ عام فوصلت إليها عند الغروب ...

حيرة ومفارقات القدر

كان اختيارى للمنصورة مبنياً على اعتبارات كثيرة ، أولها أنها مدينة متحضرة يجد فيها الإنسان أسباب الراحة ، كما أنها مدينة متوسطة لبلاد الدلتا البعيدة عن أخطار الحرب وعن مناطق الجيوش ، فإن تمكن الألمان من دحر الإنكليز وإخراجهم من البلاد فالمنصورة تعد من المدن التى يتقرر مصيرها بدون معارك وبدون فظائع .

ولكن كيف يكون حالى فى المنصورة ؟ يجب قبل كل شىء أن أبتعد عن جميع الذين عرفونى فيها من قبل ، لأن عودتى إليها بشكلى الجديد بالنسبة إلى ماضى « الشيخ محمد » مما يسبب لى المشاكل ويجعلنى موضع الأنظار والفرجة ، لأن أهل المنصورة عرفوا أن الشيخ محمد لم يكن إلا ذلك الهارب المتنكر ، وسيتلذذون بالفرجة عليه وهو افندى ! إذن فلابد من الاحتياط والاختفاء عن كل من عرفونى وأنا شيخ ، مع تنكب الفنادق التى كنت أنزل فيها والقهوات التى كنت أتردد عليها ، والشوارع التى كنت أمر منها .

إذن فأنا سأظهر لجميع الناس الذين كنت أختفى عنهم، وأن أختفى عن جميع الذين كنت ألجأ إليهم ! فيالتصاريف القدر وبالدورات الزمان حين يدور .

ولكن بعد إعمال الفكرة قررت أن أظهر فقط للأستاذ على أحمد با كثير ، فهو محدود العلاقة بالناس، وبإمكانه أن يكون لى طول الوقت، لاسيما أنه من أشد الناس كتمانا للسر، ونزلت بفندق الكونتيننتال فى الحى الافرنجى ، وصرت أقضى معظم الوقت فيه ، ولا يزورنى إلا الأستاذ با كثير ولا أزور سواه ، فقلت له ألا تعجب كيف انى لما ظهرت فى مصر نزلت فى الكونتيننتال ثم انى فى المنصورة أختفى فى كونتيننتال ؟ فضحك وضحكت !

وقفت مع الأستاذ على أحمد با كثير عند كوبرى المنصورة وأخذنا هذا الرسم وقد ظهر باكثير باللباس الأبيض

وصرت إن جلست فى مكان أجعل جلوسى فى قهوة «أندريا» التى كنت أشتهى الجلوس فيها فى أيام الحرب الأولى ولا أستطيعه يومها ، لأنها فى المنطقة الافرنجية التى ما كنت أجرأ على الظهور فيها . فكنت ألجأ إلى حى ميت حدر البلدى ، موطن الطبقة العامة لأنه هو الحى الوحيد الذى كان يصلح لسكنى الشيخ محمد الناجى المغربى ...

وكان الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة لا يزال يقيم فى المنصورة منذ أول الحرب ، فكنت والأستاذ با كثير نسهر معه . وأما أركان حلقته فقد عادوا إلى مواطنهم ، فصرت أنا من أركانها بعد أن كنت أتنكبها وأنا أتمنى الانخراط فى سلكها !

ذكرى الماضى

وإنى أتذكر الآن كيف إنى كنت فى زمن الحرب الأول أمرّ فى الليالى المطرة الباردة من أمام قهوة أندريا فأرى من خلف الزجاج الأستاذين الزيات وتوفيق بك السلحدار يجلسان إلى بعضهما يرتشفان الشاى الدافئ السخن ، ويتحدثان باطمئنان وغبطة ، فكنت أتمنى

الجلوس معهما وأشتهي التحدث إليهما ، ولكن هيهات ... لذلك كنت بعد أن أتأملهما مليّاً من خلف الزجاج، أواصل المشي في الطرقات الواسعة وحيداً منبوذاً إلى أن أتعب، ثم أعود إلى مخبئي مع القطة « حبيسة » !

رجعة الموضوع

نعم لنرجع إلى حديث الحرب الثاني الذي أنا فيه ، فأقول إنني فيما كنت ذات يوم جالساً بقهوة أندريا أطالع الصحف وأتنسم الأخبار ، إذا بصديق ودليلي في أيام الحرب الأول أحمد حسن بدر يأتي إلى القهوة ومعه قريبه عباس افندي عقل، فبادرت قبل أن يستقر بهما الجلوس إلى الهرب من القهوة ! فسبحان مغير الأحوال والأوضاع !

أنا لم أهرب منهما بالذات ، ولكني فضلت ذلك خوفاً من فضول بعض معارفهما الذين يعرفون « الشيخ محمد » فيحدث من لغطهم وتندرهم ما أخشاه من قيل وقال ...

أماني وآمال وترقب ...

كان همي الأول في أيامي الجديدة من حياة هذا التواري عن عين الاستعمار ، أن أرقب تطورات الحرب ، فمعركة ستالينغراد في روسيا كانت في أوجها والألمان يحيطون بها ويهاجمونها ببسالة وبجموع متراصة ، ثم يرتدون عنها ، ثم يقتحمونها كأنهم موج البحر في مده وجزره ، والعالم كله يتطلع إلى تلك المعركة . لأن مصير الدنيا أصبح معلقا على نتائجها كما أني كنت أرقب أيضاً أخبار الحرب في الصحراء الغربية وماذا يكون من الألمان مع الإنكليز ، فكنت أقول للأستاذ باكثير إن الجيش الألماني سيكتسح الإنكليز من القطر المصري ، وإن الألمان قد أعلنوا خطتهم لما أصبحوا في الأراضي المصرية واعترفوا بأنهم يدخلون مصر محررين لا فاتحين ، وكانوا قبل ذلك قد اعترفوا للعالم العربي بكيانه المستقل . فإن كسحوا الإنكليز ومروا من هذه النواحي تسللت إليهم ومشيت معهم إلى فلسطين أولا ، لأقوم مع إخواني بعملية تطهير الوطن القديم من الأرجاس التي سيتركها الإنكليز ، ومطاردة فلول الصهيونيين وتقسيم ممتلكاتهم وتوزيعها على عائلات الشهداء ، والذين خرب الإنكليز ديارهم، وعلى الذين عذبوا وافتقروا في سبيل وطنهم . وسأجتهد في إقناع القيادة الألمانية العليا بشحن

اليهود إلى بلاد الإنكليز وإسكانهم لندن! لتذوق طعم وجود حثالات اليهود فيها! ومن أولى من بريطانيا باقتناء اليهود وهى التى قاتلت الدنيا من أجلهم، فويل للإنكليز مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.

إن الانتصار الألمانى على الإنكليز فى البلاد المصرية وقناة السويس سيقرر مصير الشرق العربى ومصير الهند أيضا، إذأن الألمان لن يقفوا عند قناة السويس بل يندفعون إلى بر الشام فالعراق فالهند. وسيجدون من شعوب هـذه الآفاق صدوراً رحبة ووجوهاً طلقة وقلوباً فرحة. أليس أنهم سيتخلصون من الإنكليز؟ كل شيء مقبول من الألمان والشيطان فى سبيل الخلاص من الإنكليز ...

غلطة الألمان

وكانت أنباء الراديو من الجانب الإنكليزى والجانب الألمانى تدل على الاستعداد الذى يقوم به أولئك وهؤلاء، لأنهم كانوا قد بوغتوا جميعا بمعركة العلمين، فالإنكليز ما كانوا يتصورون الهجوم الألمانى بقيادة المارشال رومل سيكون بتلك الشدة الكاسحة التى أدت إلى هزيمتهم، والألمان كما قلت ما كانوا يظنون الإنكليز فى تلك الدرجة من الضعف والهلع والفزع، حتى بلغ الجهد بالألمان وهم يركضون خلف الإنكليز مبلغا جعلهم يقفون على أبواب الاسكندرية وهم يلهثون! تلك غلطة غلطتها ألمانيا وكم لها فى الحروب من خطيئات، فلو أن المارشال رومل واصل الزحف لما صده عن الإسكندرية أحد، ولو أنه سير فرقة دبابات نحو القاهرة لدخلها بعد ساعات بدون أن يقف فى وجهه أحد، لأن الذعر الذى أصاب الإنكليز من جراء هزيمة «بئر حكيم» واستسلام جيوشهم فى طبرق أطاشت أحلامهم وأفقدتهم صوابهم. ولـكن لأمر يريده الله توقفوا، فـكان ذلك فى مصلحة الإنكليز الذين أخذوا يملـكون روعهم ويسترجعون ثقتهم بأنفسهم.

أنباء مثيرة

ووردت الأخبار بعد ذلك بأن الإنكليز أخذوا يعودون إلى القاهرة ويسترجعون جيوشهم من فلسطين والصعيد والسودان، وأنهم استصرخوا حكومة جنوب أفريقية فأمدتهم بجيوش

وعتاد بالبحر وبالجو وبالسكك الحديدية ، كما أنهم أخذو يحصنون أطراف القاهرة ويضعون الألغام فى أسس الجسور أو « الكبارى » والمعابر ، والمؤسسات العسكرية الإنكليزية والمصرية أيضاً، حتى بلغ بهم الحال إن صاروا يرسمون خطة إغراق الأراضى بالماء فيفتحون فى سدود النيل فتحات تتسرب منها المياه إلى مديريتى البحيرة والمنوفية حتى منطقة الجيزة لمنع تقدم الجيش الألمانى إن أراد غزو العاصمة [1] فأخذ الفزع يسرى فى نفوس الناس فطلبت الحكومة المصرية من الإنكليز الجلاء عن القاهرة وإعلانها مدينة مفتوحة خوفاً عليها من ويلات حرب لاناقة لها فيها ولاجمل ، فإذا بالإنكليز يتواقحون ويقولون للحكومة المصرية والشعب معها: بل ارحلوا أنتم فنحن فيها باقون ...

تلك صفاقة لم تخطر على بال أحد ، وماذا يهم الإنكليز من تدمير القاهرة الجميلة وهم يعلمون أنها عاصمة عواصم العرب الذين يكرهونهم ويتمنون زوالهم من الدنيا كلها وليس من القاهرة وحدها ، فإن بقيت سليمة فهى لهم ، وإن دمرت ففى ذمة الشيطان .

اطمئنان محدود

وأخذ الكبراء والمترفون يعودون إلى القاهرة من مهاربهم وملاجئهم ، فعاد من كان فى الريف ومن كان فى رأس البر ، وكنت أنا أيضاً من العائدين ، ولما سألنى إخوانى : أين كنت ؟ قلت لهم : كنت فى رأس البر ، فمنهم من صدق ومنهم من هز رأسه وهو يبتسم ..

الهزيمة النكراء

وبعد أسابيع جرت معركة العلمين الكبرى فانهزم الألمان لخيانة الجيش الطليانى وخيانة أسطولهم الذى كان مرسلا لإنجاد روميل بالذخائر والبنزين، فذهبت السفن الإيطالية إلى مالطة بائعة نفسها ومشحونها إلى الإنكليز ! فإذا كان الألمان قد غلطوا فى هذه الحرب لسوء تدبيرهم وطيش سياستهم فى شمال افريقية ، فإن سوء حظهم بمحالفة الطليان الجبناء كان أعظم ، وما كسرهم بأس الإنكليز ولكن أخلاق الطليان هى التى كسرتهم .

[١] هذه الخطة ذكرها تشرشل بعدذلك فى مذكراته التى ظهرت سنة ١٩٥٠ باللغة العربية. راجع الحاشية فى الصفحة ٦٧ من هذا الكتاب

وبعد ذلك تمت هزيمة الألمان فى « ستالينغراد » فى روسيا ، فقلت لأصحابى : لقد قضى الأمر وأدبرت الدنيا عن ألمـانيا ، لأن قوتها كلها وحيويتها التى تركزت فى ستالينغراد قد تحطمت، فإن سمعنا بنصر لها فهو خلب ، وإن نجحت فى معركة فهى ذبالة الشمعة التى يشتد نورها عند النهاية ، وسيكون الانطفاء هو النتيجة الحتمية لا محالة . فقال البعض إن القنابل الألمانية الطائرة والصواريخ الجديدة ستعوض ما فات ، فقلت إن الألمـان فى الحرب العظمى الأولى قبل ربع قرن قد جاءوا بأسلحة جديدة وغازات خانقة فما أغنت عنهم شيئاً وخسروا الحرب لأن جيوشهم قد ذابت وقضى الأمر ...

اهتزاز وزارة النحاس باشا وفرارى من القاهرة

لم يحدث شىء فى الشهور الأخيرة سوى أن وزارة النحاس باشا قد أصيبت باهتزاز فكان له فى نفسى وقع سىء ، لأن النحاس باشا هو كفيلى أمام الإنكليز ، فإن راحت وزارته رحت معها ، فالوزارة القادمة أيا كانت لا تعد مسئولة عنى لا أمام الإنكليز ولا أمام الرأى العام ، فإن أمر الإنكليز الشرطة وقبضوا على فلن يسألهم عنى أحد .

ولذلك وضعت العيون والأرصاد هنا وهناك فإذا بمخبر يقول إن جلالة الملك سيقيل الوزارة الوفدية ، وحصل قلق شديد فى البلاد خوفاً على الحكم الشعبى من وزارات الانقلاب أو حكم أحزاب الأقلية الذين يتصيدون الأزمات ليصلوا إلى الحكم برغم أنف الشعب . فلما اشتد القلق وأصبح الانقلاب قاب قوسين وأخذت الصحف تنشر أسماء المرشحين للوزارة الجديدة لم أشك فى وقوع الخطر بين ساعة وأخرى ، فغادرت منزلى فى الليلة التى قيل فيها أن الإقالة قد وقعت أو أنها ستقع فى صبيحتها ، ونمت فى مصر الجديدة عند صديق السيد محمد تيسير الحلبى ، وفى الصباح الباكر غادرت القاهرة إلى المدن المجاورة أقضى فى هذه يوما وفى هذه ليلة فلم يمض أسبوع إلا والأزمة قد انحلت وبقيت الوزارة فى مكانها ، فسكن قلق الرأى العام فرجعت إلى القاهرة . ولما قيل لى أين كنت ؟ قلت إننى كنت فى بور سعيد لمسألة تجارية ...

فى هذا الجو الخانق المروع كنت أقضى أيامى بعد انطلاقى من قيود الأمس، فكان البال مشغولا والخاطر دائما مضطربا . وقد زاد الطين بلة أن الضيق المالى كان يحيق بى ويأخذ علىّ

السبل ، فى حين كان الخونة والجواسيس يبعثرون المال ويعيشون عيش الأمان والاطمئنان ، فإذا كانت الحرب قد خلقت طائفة من الناس تسمى « أغنياء الحرب » فإنها قد خلقت منى ومن أمثالى طائفة أخرى تسمى « فقراء الحرب » ...

عاطفة طيبة للنحاس باشا

وفى ذات يوم حدثنى الدكتور محمد صلاح الدين بك ، وكان يومها وكيلا لوزارة الخارجية ، عن عاطفة طيبة لمصطفى النحاس باشا ، وهى أنه قرر لى من الدولة مرتباً شهريا يعوض علىّ بعض ما لقيت من عذاب وخسارة فى المال ، أسوة بالضيوف الفلسطينيين الذين كانوا فى ذلك الحين ينزلون فى مصر ، فشكرته وقلت له أنا لست ضيفاً لأنى طول حياتى أعيش فى مصر ، فقال : يعنى كلاجئ سياسى . فقلت أنا مواطن ولست لاجئاً . فقال ولكن على كل حال يجب أن تقبل هذه التحية من الدولة التى يرأس حكومتها مجاهد كبير يقدرك ويحبك . فقلت إنى أشكر فضله وفضلك ، ولا أنسى هذا الجميل ، ولكنى أرجو قبول عذرى لئلا « ينكسر رأسى » ! فقال كيف ينكسر رأسك ؟ فقلت لأنى سأصبح بعد ذلك أسيراً لهذا الإحسان وأفقد معنوياتى ، فأنتم الآن مثلا تسمعون كلمتى وتقبلون شفاعتى وتحترموننى ، أما إن قبلت المرتب فلا أعود أصلح لصداقتكم بل أصبح تابعاً لا قيمة له .

ولكن صلاح الدين بك شدد وأصر ، وأنا من جانبى أصررت وكررت الشكر . وانتهت المسألة بإعفائى وقبول اعتذارى .

ذكرت هذه الحكاية تنويها بفضل النحاس باشا وفضل صلاح الدين بك ، الذى كان دائما فى حكومات النحاس باشا عنصر خير للناس ، وكان وجوده فيها مثلا طيبا لحسن التوجيه ونبيل المقاصد .

هرب أحمد حسين

أمضى الأستاذ أحمد حسين مدة الحرب فى المعتقلات والسجون بعد التشرد والاختفاء ، وإذا بخبر قد ذاع بأنه قد فر من الحبس ولم تقف له الحكومة ولا الإنكليز على أثر . وخلاصة

ذلك أنه مرض فى السجن فنقلوه إلى مستشفى الدمرداش الحكومى وعملت له فيه عملية جراحية خطيرة فأنجاه الله منها . وكان يقضى فى المستشفى مدة النقاهة فى نفس الغرفة التى كنت فيها وهى رقم «١» فى الدرجة الأولى – وسبق لعزيز باشا المصرى أن كان فيها أيضا – فإذا بالأنباء الشفهية تقول إن أحمد حسين قد هرب من المستشفى وأخذ معه الجندى الحارس بسلاحه واختفيا ، فسررت بنجاته وشمت بالإنكليز والبوليس . ثم شاعت أخبار بأن احمد قد هرب إلى الخارج والتحق بالمحور وأننا سنسمع صوته قريبا من راديو برلين يجلجل ويرسل شواظا من بيانه ضد الاستعمار البريطانى ، أو نراه مع المرشال روميل عند تطهير البلاد من الانكليز . . .

ومضت الأسابيع والشهور وانقطعت أخبار أحمد ونسيه الناس ونسيه الإنكليز !

زائر !

وفى ذات ليلة انطرق باب دارى ففتحته بنفسى ، فإذا بى وجها لوجه أمام أحمد حسين! ففرحت بهذه المباغتة واستقبلته بالأحضان والعناق . فدخلنا الدار وأخذنا نتحدث عن أحواله وكيف هرب ، وكان وقتها يلبس ملابسه العادية ولكن دون طربوش ، فدهشت كيف يظهر بصورته الأصلية فقال: إن ذلك أدعى لتضليل الشرطة والجواسيس، لأنهم كلهم يعتقدون أنه غادر البلاد أو أنه متنكر فى زى شيخ ، كالمرة السابقة عندما عثروا عليه فى طنطا ، كما أن بعض الجواسيس يظنه متنكراً فى زى «خواجة ببرنيطة» ولذلك ترك أحمد للشرطة مهمة البحث عن عمامة الشيخ وبرنيطة الخواجة ! وصار يغادر المخبأ فى الليل بملابسه العادية ، وكان الاظلام العام فى البلاد بسبب الحرب يساعده على التجول من حين إلى آخر .

وقد وصف الأستاذ أحمد هذه الزيارة فى خطاب له ألقاه فى حفلة شاى بفندق الكونتيننتال سنة ١٩٤٥ وسيأتى حديثها فى موضعه ، كما أن أحمد نشر أخبار هربه فى جريدة مصر الفتاة بعد الحرب [1] .

---

(١) وفى سنة ١٩٤٩ ظهرت مذكرات احمد حسين مجموعة فى كتاب ، ولكن سوء الحظ لم يفارق هذه المذكرات لأن أحكام إبراهيم باشا عبد الهادى العرفية فى تلك الأيام جعلت الرقيب يحذف منها أشياء كثيرة ، ولذلك ظهرت مبتورة فحبذا لو يعيد أحمد طبعها بعد أن يرجع إليها ما حذفه رقيب المطبوعات الذى أعرفه وأحبه ، فهو صديق ، سامحه الله .

وبعد منتصف الليل غادرنى الأستاذ أحمد حسين إلى حيث كان يختبىء، بعد أن اتفقنا على موعد يزورنى فيه فانتظرته مراراً ولكنه لم يأت ، فانشغل بالى عليه وخفت أن أسأل عنه معارفه فيشيع نبأ وجوده فى القاهرة فيشتد الطلب عليه ، وبعد أيام فوجئت بخبر ذهاب أحمد إلى النحاس باشا رئيس الوزراء فى داره، وتقديم نفسه إليه .

كيف كان ذلك ؟

وبعد الحرب بعامين سمعت من النحاس باشا نفسه كيفية ذلك الاستسلام ، فقال : إن احمد جاءنى إلى دارى مع فؤاد باشا سراج الدين وزير الداخلية فرحبت به ، وقلت له يا أحمد أنا لا أستطيع أن أطلقك مثل محمد على الطاهر لأن مسألته تختلف عن مسألتك فأنت هربت منى وهو هرب من حسين سرى ، ومع ذلك فلن تعود إلى السجن بل سأسكنك داراً خاصة ومعك أهلك ، وستقوم الحكومة بهذه الضيافة إلى أن أدبر مسألتك مع الإنكليز ثم أطلقك

حياة أحمد فى معتقله

وقد أسكن الأستاذ أحمد وحرمه وأنجاله فى ذلك الحين فى دار خاصة تقع فوق مركز بوليس مصر الجديدة ، فكان لايبرحها إلا عند الضرورة وبحراسة الشرطة . وقد سلخ فيها زمناً طويلا ، لأن الإنكليز كانوا متشددين فى أمره ويمانعون فى الإفراج عنه .

وقد أصيب الأستاذ أحمد بنكبة أليمة وهو فى ذلك المعتقل ، إذ توفى هناك طفله إبراهيم، فكانت فاجعته عظيمة ، ولاسيما أن طفله الآخر مصطفى قد أصيب أيضاً بالتيفوئيد ، ولكن المولى أنقذه ، وقد ذهبت فى أيامها إلى مستشفى الأطفال لتعزية الأم بفقد ولدها والاطمئنان على صحة الثانى الذى سلمه الله .

وبعد مدة تم التفاهم بين النحاس باشا والإنكليز على إطلاق الأستاذ أحمد فغادر معتقله إلى داره ، وقد خرج من تلك المحنة مثلى ، محطم الصحة منكوباً بفلذته ، مرزوءاً بماله ، لا يملك شيئاً ، ولكنه كان يملك قلباً كبيراً وعزيمة لا تلين .

القبض على عزيز باشا المصرى

كان الحال كذلك وإذا بخبر غريب قد شاع وهو أن الحكومة عادت وقبضت على القائد

المجاهد عزيز باشا المصرى ، فبحثت عن الأسباب فعرفت أن الإنكليز هم الذين طلبوا القبض عليه ؛ حين كان يصطاف فى رأس البر على شاطئ البحر المتوسط، فقد اتهموه بأنه كان ينوى الفرار من البلاد بحراً والانضمام إلى المحور ، ولم يعرف أحد أين حبسوه فانشغل بالى عليه، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله ، ما أكثر متاعب هـذا المجاهد من الاستعمار أحياناً ، ومن أمته غالباً ، فكم حارب وكم جاهد وكم سجن وكم طورد فى هذه الدنيا ، لطف الله به.

زائر من الضباط !

وفى ذات يوم زارنى شاب لا أعرفه ، فذكر اسمه وقال إنه ضابط ، وانه موفد من قبل عزيز باشا ويريد أن يتصل بالدنيا بواسطتى وأنه فى ضيق شديد ، فكانت هذه الزيارة مباغتة لى ويالها من مباغتة ، ومن يدرى ما وراء زيارة هذا الضابط من مكايد ، فقد يكون الإنكليز هم الذين دسوه ليجرونى إلى السجن مرة أخرى بتهمة جديدة ! فهل أنكر صلتى ومعرفتى بعزيز باشا وأستريح ؟ أم أسير على سجيتى وغريزتى فأساعده وأتعب من جديد ؟ فكرت كثيراً قبل أن أجاوب هـذا القادم بنعم أو لا ، ولـكن قد يكون صادقاً وأميناً ، فكيف أخذل عزيز باشا وأتنكر له وهو فى ضيق ؟ لقد جربت بنفسى شدة حاجة المسجون إلى أصدقاء ، كما عانيت كثيراً من ألم الخذلان .

إذن فلا بد من السير بحسب الغريزة والعادة ، وأن أتصدى لمساعدة صديق المجاهد القديم إلى النهاية ، فقلت للضابط أنا لا أعرف الغرض الحقيقى من زيارتك هذه فقد تكون صادقاً وقد تكون مدسوساً ، فأنت قد حلفت بشرفك العسكرى وأنا أصدقك ، ولـكن بشرط أن تأتينى من الباشا بكلمة بخطه . فقال الضابط إنه كان من تلاميذ عزيز باشا فى مدرسة البوليس وان الباشا يعامل فى السجن بصورة وحشية فهو لذلك يريد خدمته وأن يفديه بروحه، فقلت يكفى أولا أن تأتى بالورقة ... وغاب الضابط نحو ثلاثة أيام ثم عاد وأخرج من طية جلد الطربوش الداخلية ورقة وأعطانى إياها ، فإذا هى من عزيز باشا بخطه وإمضائه ، فقرأت فيها عبارات جعلها الباشا مبهمة ولـكنها تدل حقيقة على أنها منه ، لأنه ذكر لى فيها أموراً قديمة بيننا لايعرفها أحد سواه وسواى .

عند ذلك لم يبق عندى شك فى أمانة الضابط ، فقلت له أنا تحت أمر الباشا فى كل مايريده، فقبل كل شىء هل هو محتاج إلى نقود ؟ فقال : كلا ، بل انه متضايق فى سجنه لقسوة المعاملة التى يلقاها ولذلك نوينا أن نهربه وأن أختفى معه، فما قولك ؟ فقلت يجب قبل الهرب أن ندبر المخبأ ، لأن حياة الهرب والاختفاء ليست بالسهولة التى تظنها ، فهل تستطيعان احتمالها ؟ فقال سنتحملها ...

الهرفون بابن

وهنا قال الضابط إننا فكرنا فى الاتصال بالألمان عن طريقك ، وأن يكون ذلك بواسطة فون بابن سفير ألمانيا فى تركيا فيرسلون طيارة فى وقت معين تهبط فى مكان معين ونحن نخرج الباشا من سجنه بلباس أحد الضباط . فقلت إن حالة ألمانيا الآن بدأت تسوء ولا أظنها مالكة وعيها لتشتغل فى إنقاذ الباشا ، فالأحسن هو أن أستأجر لكم مسكناً فى القاهرة للاختفاء فيه تحت ملاحظتى ، على شرط أن تخضعا للنظام الدقيق الذى سأضعه لكما ، إلى أن أدبر طريقة للوصول إلى جيوش المحور إن عادت إلى الصحراء الغربية ، وسأذهب إليهم معكم ...

لأن الألمان قد انهزموا حينذاك وابتعدوا كثيراً عن الأراضى المصرية . فقال الضابط سندرس هذا أيضاً وسأعود إليك ...

القدر غلاب

ولكن قبل تنفيذ ما شرعنا فيه ابتعد الألمان فى هزيمتهم ووصلوا إلى تونس ، وبدأت ألمانيا تنهار ، وبذلك انهار مشروع انقاذ عزيز باشا الذى كان همه الأول أن يفلت من قبضة الإنكليز ليذيقهم النكال فى أى ميدان عسكرى يستطيع الوصول إليه ومنازلتهم فيه ، لأنه يعتقد ــ وأنا أيضا أعتقد ويجب على سكان البسيطة أن يفهموا ــ أن كل بلاء أصاب العالم الإسلامى وما سيصيبه دائماً إنما هو من الإنكليز وبسبب الإنكليز .

حيلة انكليزية

وقد تحريت الأسباب الحقيقية للإفراج عن عزيز باشا قبل شهور ثم حبسه مرة ثانية ،

ففهمت أنه لايوجد أى مبرر لذلك مطلقاً، وأن الإنكليز كانوا قد بيتوا له هذه النية منذ إفراج النحاس باشا عنه ، فقد خلصهم ذلك الإفراج من دفاع عزيز باشا الذى كان يمكنه أن يفضحهم فيه وهو يدافع عن نفسه فى المحكمة فضيحة رسمية تسوّد وجوههم ، ولذلك وافقوا يومها على الإفراج عنه ، وقيل إنهم هم الذين اقترحوا إطلاقه وحفظ القضية ليعتقلوه اعتقالا عسكريا، لأن الحكم العرفى يحرم المقبوض عليهم من حق الدفاع عن أنفسهم ، وقد كان لهم ما أرادوا من حبس الباشا وقهره ، وقد جمعتنى الصدف بعد ذلك بالمرحوم عبد الحميد حافظ باشا رئيس المحكمة العسكرية التى كانت تحاكم عزيز باشا بسبب الفرار بالطيارة ، فقال لى إنه نصح للحكومة بأن تسحب تلك الدعوى من المحكمة ، لأنه لا يوجد قوانين عندنا تعاقب على مثل الحادث الذى يحاكم من أجله ، ولذلك أفرج عنه فى ذلك الحين، ثم اعتقل سياسياً كما ذكرت ووضعوه فى أضيق سجن .

وقد سعيت كثيراً للإفراج عن عزيز باشا ، ولكن الإنكليز كانوا وراء مسألته بقلوب سوداء حاقدة ، وقد ظل الباشا الكبير يعذب فى سجنه إلى أن انتهت الحرب وألغيت الأحكام العرفية فأطلق. وإنى أصحح هذه السطور سنة ١٩٥١ وعزيز باشا بخير، أزوره ويزورنى ،فأسأل الله أن يمد فى حياته ليشهد وأشهد معه تحرير العالم العربى ، وزوال الأمبراطورية الاستعمارية...

جمعية إخوان الحرية

لقد مر ذكر هذه الجمعية فقد كنا فى أيام الحرب نسمع بجمعية رهيبة بهذا الاسم ألفها الإنكليز للجاسوسية على الناس ، وكان لها سمعة تثير الفزع فى قلوب الناس ، ومايطير النوم من الجفون ، فلما انطلقت حريتى تعقبت هذه الجمعية بالاستقصاء إلى أن وقع بيدى سجلها وهو يضم أسماء رجالها وتشكيلاتها وفروعها وبيان أغراضها ، وهو كتاب ضخم يسجل أسماء بضعة آلاف من جميع الطبقات، وفيهم الطلبة والتجار وأصحاب الفنادق والموظفين والمدرسين والضباط فى الجيش ، وفيهم جماعات من الطباعين والعلماء من مدرسى الأزهر والمهندسين والمحامين والصحافيين والبقالين والأدباء والحلاقين والخدم والأطباء والصناع والطباخين والعمال والقهوجية والسواقين الخ ...

وقد ألف الإنكليز هـذه العصابة المخوفة للتجسس فى جميع الأوساط لإتمام سلسلة « الإنتلجنس سرفيس » البريطانية التى فاقت فى الإرهاب والتخويف تشكيلات الجستابو الألمانى . فالرئيس الأعلى لهذه العصابة يسمى اللورد كنروس الذى كان من أركان السفارة البريطانية ورئيس قسم النشر فيها ، وأما إدارة الجمعية المباشرة فهى كما ورد فى الصفحة ٤ موضوعة فى يد الرئيسة المؤسسة «مس فرياستارك» الكاتبة الإنكليزية المشهورة ، ويساعدها « المستر رونالدفاى » المراقب العام فى القطر المصرى ، وقد ورد بين أسماء كبار الأعضاء فى جمعية إخوان الحرية أسماء بعض الشخصيات المعروفة وفيهم أسماء ضباط مصريين معروفين أيضاً و كتاب مشهورين ومشايخ فيهم يوسف الزواوى[1] وهو يزعم أن من الطلبة الغرباء بالأزهر فهو عضو لجنة « حرف ب رقم ٥ » وقد تعمدت إظهار اسمه بالذات لصلته بى ، وقد ورد فى صفحة ٦ أسماء ثلاثة من كبراء الإنكليز هم الماجور ك أسكيف المراقب العام للشرق الأقصى ، ومس مارى بيرى رئيسة لجان السيدات فى القطر المصرى ، واللورد إدوار هاثورن هاردى مساعد المراقب العام بمصر وكنت أريد أن أدرج فى هذا الكتاب جميع أسماء البارزين من أفراد هذه العصابة ولكن المولى أمر بالستر ... غير أن كتاب إخوان الحرية موجود ومتداول وفيه الأسماء والصفات والعنوانات وأصحابها من جميع الطبقات والأوساط ، وقد ملأت أسماؤهم ٣٠٠ صفحة من ذلك الكتاب الأسود .

ومن الغريب أن الإنكليز لم يجدوا حرجاً فى نشر أسماء أعضاء العصابة ، لأنهم يعتقدون أن هذا العمل يفيد أمبراطوريتهم وفيه مفخرة لهم ، فلن يهمهم فضيحة أعوانهم بين قومهم .

كيف ألفوها ؟

أما كيف لفق الإنكليز هذا «الطقم» الهائل فقد كانت طريقتهم فيه بارعة ودنيئة فى

(١) إنى أعرف هذا الشخص وكان فى أيام الحرب والاختفاء يتولى البحث عن مقرى ويدير حركة ملاحقتى ؛ والغريب أنه لقينى بوزارة الأوقاف بعد الإفراج عنى فهرول إلى السلام علىّ ، فسألته بلهجة جافة عدائية : ألأنت يوسف الزواوى الذى يشتغل فى البوليس السرى ؟ فخاف واضطرب وأنكر إسمه ومهنته وقال إنه زواوى آخر ... والحقيقة أنه هو بعينه ، وأراد مرة أخرى أن يسلم علىّ فى الشارع العام فصحت فيه أمام الناس فجفل وهرب من أمامى ...

وقت واحد ، فهم لم يقولوا لأعوانهم: شكلوا هيئة جاسوسية لتتبع العباد ، ولم يقولوا للناس تعالوا لنشغلكم بصفة جواسيس على أمتكم ، ولكنهم أوعزوا إلى أعوانهم بأن يشكلوا جمعية ثقافية تعاونية لصيانة الحرية من العابثين بها ، وهو اسم مقبول ومغر ويصلح لستر حقيقة جريمتهم ...

أليس أن الإنكليز قد اعتادوا أن يسموا الاستعمار انتدابا ، والاستعباد إنقاذاً ، والتخريب والتدمير والبطش بالشعوب وذبح الأبرياء تعميراً وتمدينا ؟ .

فلما وضعوا أسس جمعية «إخوان الحرية» بل إخوان الجريمة ، أوعزوا لأتباعهم بالعمل فاستأجروا داراً كبيرة بحارة الكاشف بجهة السيدة زينب خلف المدرسة السنية، بالقاهرة، وجمعوا رؤساء جواسيسهم وكلفوهم دعوة الجمهور لتأليف جمعية باسم « إخوان الحرية » وقد وصفوا أغراضها في نشرتهم فقالوا حيث أنه يوجد خطر على «الحرية» من جواسيس الأعداء فيراد من الأعضاء الإرشاد عنهم وعن كل من يتحدث ضد الحلفاء .

طريقتهم ...

وهم يقيمون اجتماعات ليلية يتحدثون فيها عن الحريات العامة، وصيانتها من عبث الأعداء، ثم يقف عريف الاجتماع فيطرح اسم « أحد الخطرين على الحرية » « كمحمد على الطاهر مثلا» ويسأل الحاضرين عن رأيهم فيه ، فيقف الذى يعرف صاحب الاسم ويقول إنه يعرفه أو يعرف من يعرفه ، فيقول له عريف الاجتماع إذن فأنت تلاحظه وتمنع أذاه عن الحرية، ولك أن تقترح من تريد ليساعدك على ملاحقته والقبض عليه ... والمكافأة هى كذا فضلا عن كونك تخدم مبادئ الحرية ...

وبعد أن ينفض الاجتماع ينتقل «المتعهد» إلى غرفة خاصة ليتلقى التعليمات ونسخاً كثيرة من صورة الطريدة[1] ، ثم يتناول النقود ــ طبعاً ــ من اللورد كيزوس أو من اليد الناعمة البضة التى تمدها له « المس فرياستارك » ...

---

(١) صادفني مدير إدارة تحقيق الشخصية السابق على أثر الافراج عني وكان ذلك بمكتب رئيس تحرير الأهرام ، فذكر لى أن السلطات أمرته وأنا هارب بطبع أربعة آلاف صورة من صورتى وهو لا يدرى لماذا ، وها أنى بعد عشر سنين أخبره الآن لماذا !

أما كيفية التبليغ عن «أعداء الحرية» فلم يذكروه فى كتابهم ولكنى عرفت بعد ذلك من أحد معارفهم أن التبليغ عن الشخص المريب يكون لمركز الرياسة ، والمركز يأمر البوليس والأمن العام بالقبض عليه لاعتقاله مدة الحرب . أما الأشخاص الخطرين فهؤلاء يجرى القبض عليهم باليد ودعوة البوليس فوراً لسوقهم إلى الحبس ...

وتختلف مرتبات أعضاء الجمعية باختلاف مراكزهم الاجتماعية وثقافتهم وقيمتهم الشخصية . ففيهم من يبلغ مرتبه ٥٠ جنيهاً وفيهم من ينحط إلى جنيهين ، وفيهم من يكافأ على كل حادثة « بالقطاعى » بدون مرتب مقطوع ...

والكلام عن هذه الجمعية الهائلة التى تشبه الأخطبوط يطول ويطول ، ولكنى أذكر أن جرائد القاهرة تعقبت هذه الجمعية وفضحتها بعد زوال الأحكام العرفية ، ودعت الحكومة المصرية إلى مطاردتها ، وأخذت جريدة صوت الأمة تنشر فظائع هذه الجمعية الإرهابية وفضحت الأعضاء البارزين بنشر أسمائهم وعنواناتهم ، وقد سمعت أن الحكومة أمرت بمحاكمة الموظفين والضباط الذين كانوا أعضاء فيها ، ولكن لم يحدث شىء من ذلك ، ولن يحدث مطلقاً ...

أما سبب «الحصانة» لأفراد هذه العصابة المجرمة ، فلكونها تابعة للإنكليز ، ومن يقدر على التعرض لها مادام الجيش البريطانى المرابط فى الأراضى المصرية موجود عند قنال السويس ومنطقة فايد وهو لا يزال هناك ...

إن البوليس السياسى المصرى يعرف كل شىء عن هذه الجمعية ويعرف عقاربها واحداً واحداً ، ويعرف حقيقتهم جيداً جداً ، ولكنه لا يراهم ، بل يرى أعداء الاستعمار وضحاياه وخصومه فيعاملهم بما «يستحقون» جزاء محاربتهم للاستعمار ...

إننى أوصى قراء هذا الكتاب بأن لا يفرطوا بهذه المعلومات التى سردتها عن جمعية «عصابة إخوان الحرية» فقد تنفعهم فى المستقبل مادام العالم لا يزال مفعما باحتمال نشوب الحرب العظمى الثالثة ، فإن وقعت فإن عصابة إخوان الحرية ستعود إلى الانتعاش وتحرق الحرث والنسل .

آخر زيارات الأمير شكيب أرسلان لمصر

ودعت المرحوم الأمير شكيب لما زار مصر ١٩٣٩ بحفلة أقمتها له بقاعة الناسيونال وقد ظهر فى الصورة على المائدة الرئيسية السيد محمد إدريس المهدى السنوسى « ملك ليبيا الآن » فالمرحوم الأمير شكيب ، فدولة أحمد حلمى باشاه وقد وقفت خلفهما » فالرحوم عبد الرحمن فهمى بك، فالأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك

الجامعة العربية

قيام جامعة الدول العربية

كانت بريطانيا فى أوائل سنة ١٩٤٣ تعانى الخوف مما يتمخض به العالم العربى من حركات استقلالية وفورات قومية ، بينما كانت فى الوقت نفسه تعانى الهول من الحرب ، فساورها القلق من قيام العالم العربى عليها بحركة تزيد فى دقة مركزها الحربى مع الألمان ، فرأت أن تقوم بخديعة تشغل البال عنها كعادتها كلما نكبت بنكبة عالية ، فأعلن المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية فى مجلس العموم أن حكومته لاتعارض فى تأليف جامعة عربية ، فأشغل هـذا التصريح ذهن الشعوب العربية فقوبل بالارتياب الذى يقابل به كل مشروع إنكليزى... وبعد قليل جاء مصر السيدان جميل بك المدفعى رئيس الوزراء العراقية السابق وتحسين العسكرى بك وزير الداخلية العراقية فاستدعاهما النحاس باشا رئيس الوزراء وتمت المشاورة فى أمر هذه الجامعة ووضع الأسس لها .

مولد الجامعة

وفى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٣ وقف المرحوم صبرى باشا أبو علم وزير العدل فى مجلس الشيوخ وأعلن على لسان النحاس باشا رئيس الوزراء البيان الرسمى التالى :

«إننى معنى من قديم بأحوال الأمم العربية والمعاونة على تحقيق أمالها فى الحرية والاستقلال، سواء فى ذلك أكنت فى الحكم أم خارج الحكم ، وقد خطوت فى ذلك خطوات واسعة صادفها التوفيق بأن اتجه نظام الحكم فى بعض الأقطار العربية الاتجاه الشعبى الصحيح ، ومنذ أعلن المستر إيدن تصريحه ، فكرت فيه طويلا ، ولقد رأيت أن الطريقة المثلى التى يمكن أن توصل إلى غاية مرضية ، هى أن تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية الرسمية ، وانتهيت من دراستى إلى أنه يحسن بالحكومة المصرية أن تبادر باتخاذ خطوات رسمية فى هذا السبيل ، فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترمى إليه من آمال ، كل على حدتها . ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين آرائها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، ثم تدعوهم بعد ذلك إلى مصر معاً فى اجتماع ودى لهذا الغرض حتى يبدأ السعى للوحدة العربية بجبهة متحدة بالفعل ، فإذا ماتم التفاهم أو كاد ، وجب أن يعقد فى مصر مؤتمر برياسة رئيس الحكومة

المصرية لإكمال بحث الموضوع واتخاذ مايراه المؤتمر من القرارات محققاً للأغراض التى تنشدها الأمم العربية .

هذه هى خير السبل للسير بالموضوع سيراً يكفل له النجاح ويضمن التوفيق ، وقد استقبلت يوم السبت الماضى معالى تحسين العسكرى بك وزير داخلية العراق ودولة جميل بك المدفعى رئيس وزارتها السابق وتحادثت معهما فى الأمر وأطلعتهما على خطتى هذه وبدأت فى تنفيذها ، فوجهت بالفعل إلى فخامة نورى السعيد باشا رئيس حكومة العراق دعوة رسمية حملتها لمعالى تحسين بك العسكرى حتى إذا ما وافق على هذه الخطوات استطرد البحث إلى آراء العراق فى الموضوع بجميع أطرافه من سياسية واقتصادية واجتماعية وبخاصة السياسية، وسأوجه بعد ذلك الدعوة تلو الدعوة للحكومات العربية المختلفة وأستقصى من مندوبيها الواحد بعد الآخر عن ذات الموضوع . فإذا ما انتهيت من هذه المباحثات التمهيدية ورأيت منهامايبشر بالنجاح كما أرجو، دعت الحكومة المصرية إلى عقد المؤتمر فى مصر، وإنى أسأل الله أن يلهم السداد قادة الأمم العربية وأولى الأمر فيها وأن يكتب لهذه الأمم التوفيق والنجاح» .

وهنا وقف العضو عبد الستار الباسل بك وشكر للحكومة إجابتها الصريحة ، وطلب العضو حافظ باشا رمضان أن يلاحظ المؤتمر العربى ـ عند ما يعقد ـ شعور عرب فلسطين . فقال وزير العدل : « إن الحكومة قامت ولا تزال تقوم بواجبها حيالهم » .

هذا ما جرى فى البرلمان ، وبموجبه أعلن مولد جامعة الدول العربية .

صدى البيان والبدء بالعمل ـ والارتياب ...

وعلى أثر ذلك وصل إلى مصر رؤساء الحكومات العربية واحداً بعد واحد ، وبدأت المشاورات ... وعند ذلك تحدثت مع الدكتور محمد صلاح الدين بك سكرتير عام مجلس الوزراء ـ وكان هذا الاجتماع فى بيتى ـ ويعدّ صلاح الدين بك من أهم الشخصيات التى اعتنت بهذا الحادث العظيم وكان لتوجيهاته فى سياسة الدولة إزاء تأليف جامعة الدول العربية ومفاوضاتها أثراً فعالا . فقلت له : أنتم الآن فى صدد حادث عظيم فى تاريخ الأمم العربية ، ولكن هل أخذتم من بريطانيا الثمن قبل أن تباشروا القيام بهذه العملية ؟ فقال : أى ثمن تقصد ؟

فقلت : إن الثمن الذى أقصده أن يكون النحاس باشا قد ربط الإنجليز بوثيقة رسمية وأخذ منهم عهداً قبل أن يشغل فكر العالم العربى بهذه الجامعة ومفاوضاتها سنة أو سنتين ، حتى إذا خرجت انجلترا من الحرب منتصرة ـ لاسمح الله ـ تنكرت لمصر وللعرب ، إن النحاس باشا رجل ثقة وأمين، والمشروع الذى يريد أن يتبناه جدير بأن يصرف جهود العرب عن استبداد الإنجليز بهم واستعمارهم لبلادهم ويشغلهم بهذه الجامعة، ولذلك ترانى أخشى أن يكذب الإنجليز على النحاس باشا كما كذبوا على المرحوم الملك حسين بن علىّ ، لدرجة أنهم برغم وجود وثيقة بيده عليهم قد تنكروا له وأنكروا عهودهم له ، فلا أحب للنحاس باشا أن يصاب بما أصيب به الملك حسين ، وتكون فلسطين والبلاد العربية ضحية للإنجليز مرة أخرى ، لأن الرأى العام قد شم رائحة الإنجليز فى مشروع الجامعة لإسراع نورى السعيد رئيس وزراء العراق فى الاستجابة لتصريح المستر إيدن !

رأى صلاح الدين والرد عليه

فقال صلاح الدين بك إن الحكومة المصرية وجدت اعترافا انكليزيا فهى تريد أن تأخذه على منطوقه وتقوم بالمشروع فعلا بدون أن تقيم وزناً لنوايا الحكومة البريطانيـة . وأما نورى السعيد فلن يكون وحده فى الموضوع الذى سيصبح فى قبضة الحكومات والشعوب العربية كلها . فقلت إن شعوب العالم العربى لاتثق بحكوماتها الحاضرة فكلها مؤلفة على هوى الإنكليز وبإشرافهم وتدريبهم وتأييدهم،ماعدا الحكومتين السعودية واليمانية، وهاتان الحكومتان لن تقابلا الحركة بالاطمئنان . وسترون أن الملك ابن سعود سيتردد لأنه يكره نورى السعيد ويرتاب فيه، والملك يحيى حميد الدين سيلزم الحياد، وإن أجابكم فسيجيبكم بعد تشكك وتردد لاحدلهما وسيتحفظ كثيراً ، لأنه والملك ابن سعود لن يساويا نفسيهما بحكومة شرق الأردن مثلا لأنها إمارة تحت الحماية . بل ان مصر والعراق لم تسلما من معاهدتين تشبهان معاهدات الحماية. وأما سورية ولبنان فهما حكومتان تحت انتداب فرنسا واحتلالها العسكرى. فكيف يكون الحال إذن ؟ أما إن جرت انتخابات حرة فى هاتين الجمهوريتين وأسفرت عن فوز السيد شكرى القوتلى وجماعته فى سورية ، وفوز الشيخ بشارة الخورى وجماعته فى لبنان

فالأمة العربية تثق بهاتين الحكومتين ويكون مركز جامعة الدول العربية المنشودة أقوى وأصح ، وهنا يمكن لفلسطين أن تعتمد فى إنقاذها على هذه الجامعة بعض الاعتماد . فقال صلاح الدين بك نحن أمامنا حكومات عربية قائمة ، فلابد لنا من دعوتها بقطع النظر عن كونها موجودة برضاء الشعوب أم غير ذلك ، لأننا لانستطيع كحكومة أن نقول للحكومات الأخرى أنت موثوقة ونقول لتلك أنت غير موثوق بك ، ولكن الأيام ستصحح هذه الأوضاع وتتداول المسألة حكومات كثيرة إلى أن تتولاها الحكومات التي ترضى عنها الشعوب ونكون نحن على كل حال قد كسبنا هذه الجامعة التى ستصبح مع الأيام حقيقة واقعة يحسب حسابها

المندوب السعودى والمندوب اليمنى

ثم سألنى الدكتور صلاح الدين بك عن المندوب السعودى الذى أظن الملك عبد العزيز سيرسله إن لبى الدعوة ، وعن المندوب اليمانى إن لباها الإمام يحيى . فقلت له : إذا كان الملك ابن سعود سينظر إلى المسأله نظرة جدية فإنه يرسل فؤاد بك حمزة وزيره المفوض فى باريس ، فهو الذى جاء مصر قبل بضع سنين وصفى الخلافات التى كانت بينها وبين الحكومة السعودية ، وهو رجل مثقف لبق ومحبوب . أما إذا كان ابن سعود سيتشكك فى الأمر فسوف يبعث بالشيخ يوسف ياسين ليستطلع ويسبر الغور ويداور بدون أن يرتبط بشىء ... وعند ذلك يحسن بكم أن تداوروه وأن تصبروا عليه إلى أن تنكشف لكم الحقيقة

وقد وصفت الرجلين لصلاح الدين بك بأن أولهما لبنانى الأصل ، والثانى سورى الأصل ، وقلت عنه أشياء أخرى منها أن ليوسف ياسين حظوة خاصة عند الملك ابن سعود لدرجة أنه استطاع « تطفيش » فؤاد حمزة والشيخ حافظ

فؤاد بك حمزة

وهبة عن الحجاز ونجد وإبعادها إلى السلك السياسي الخارجي الخ ... ولم يرد في حديثي شيء عن الشيخ أبو الهدى الصيادي الذي كان عند السلطان عبد الحميد في استانبول ... ولا عن الراهب راسبوتين الذي كان عند القيصر في روسيا ...

وأما مندوب اليمن ، فقلت لصلاح الدين بك إني لا أدرى من يكون ، لأننا في العالم العربي لا نعرف شيئاً ـ في تلك الأيام ـ عن رجالات اليمن .

موسى العلمي في القاهرة

وفي أثناء المذاكرات التمهيدية من أجل الجامعة زار مصر السيد موسى العلمي وهو من شبان فلسطين المثقفين أصحاب الاسم الطيب ، وقد زارني في داري فسألته عما جاء به فقال إنه جاء للاستجمام والراحة وإنه «قرفان» من الحالة السياسية وإنه مشغول هناك بتربية الدجاج في مزرعته ولا يريد أن يتدخل في السياسة ...

وكان الدكتور مصطفى بك البشناق وهو من مجاهدي فلسطين المعروفين لا يزال لاجئاً إلى مصر ، فقلت له ما رأيك في موسى لنستدرجه إلى العمل الوطني لأنه من المؤسف أن تحرم القضية من كفايته . فقال هيا . فقلت إننا نستطيع أن نصطاد عصفورين بحجر واحد ففي الغد سيزورني السيد موسى فأريد أن تحضر وسأطلب من الدكتور محمد صلاح الدين بك الحضور لأمر هام فمتى اجتمعنا كلنا نبحث في أمر جامعة الدول العربية التي يجري البحث فيها ونبسط لديه حالة فلسطين ، وربما يقنع الحكومة المصرية بواسطة صلاح الدين بك بالإفراج عن المعتقلين في روديسيا كأمين بك التميمي والسيد جمال الحسيني وبقية المبعدين ، فاستحسن الدكتور هذه الفكرة .

ماذا دار في اجتماعنا ؟

وبعد عصر أحد أيام اكتوبر سنه ١٩٤٣ وقبل مولد الجامعة الفعلي بعام ، كنا نحن الأربعة في داري نشرب الشاي بعد أن أجريت التعارف بين صلاح الدين بك وبين السيد العلمي ، ثم دار الحديث إلى أن وصلنا إلى مسائل فلسطين وجامعة الدول العربية ، فقلت

لصلاح الدين بك : إن العالم العربى يرقب مشروع الجامعة بشىء من الارتياب ، وإذا كنتم تظنون أن هذه الجامعة يمكن أن تقوم بدون فلسطين فالأحسن صرف النظر عنها وعدم تمكين الإنكليز من العبث بالعالم العربى بواسطة النحاس باشا الموثوق به عند الجميع . فقال صلاح الدين بك : إن فلسطين هى أهم ما يشغل بال النحاس باشا . فقلت : إن قيام هذه الجامعة بدون فلسطين تصبح شوهاء ، فقال: إنها ستدعى للاشتراك فيها وسيكون لها المقام الفضل ، فقلت: إنها لن تشترك إلا إذا أعادت الحكومة البريطانية الحليفة جمال الحسينى وأمين التميمى وإخوانهما من روديسيا لينوب جمال فى الجامعة عن فلسطين ، فنصدق حينئذ أن بريطانيا ستغير سياستها مع العالم العربى، وإلا فلماذا تعتقلهم إلى الآن فى ذلك المنفى السحيق إذا كانت حسنة النيـة ، فأهل فلسطين الذين يرون زعماء اليهود يروحون ويجيئون بدون مضايقة ، لايفهمون لماذا تظل بريطانيا تطارد الزعماء العرب وحدهم. إن كل من يشترك من أهل فلسطين فى جامعة الدول العربية يعتبر بنظر الفلسطينيين خائناً إلا إذا عاد جمال الحسينى ورفاقه من روديسيا وعاد الاخوان عزت دروزه وأكرم زعيتر وأمثالهما من تركيا ، لأن الذى يلبى الدعوة إلى الجامعة الآن يكون فى نظر الواقع كأنه أقر نفيهم وحبسهم وطعنهم فى ظهورهم ، وهذا السيد موسى العلمى وهو قادم من فلسطين يقر هذه النظرية ، فقال موسى : هـذا هو الواقع ولذلك ستلزم فلسطين الحياد إزاء الجامعة إلا إذا عاد المبعدون أولا . فقال صلاح الدين بك إنه سيطلع رئيس الوزراء النحاس باشا على هذه الأمور لتتدخل الحكومة المصرية وتطلب من الإنكليز إرجاع المبعدين ، ثم طلب صلاح الدين بك بيانا عن المبعدين وأماكن نفيهم فذكرناهم له ومنهم الذين فى الحجاز والعراق والأناضول . فأخذ صلاح الدين بك مذكرة بالأسماء، ووعد بالعمل على إنقاذهم.

اليمن والمملكة السعودية

ولنرجع إلى حديث جامعة الدول العربية فأقول : بعد أن فرغ النحاس باشا من مذاكرة العراق وشرق الأردن وسورية ولبنان ، طال انتظاره وهو يتوقع مجىء من يمثل اليمن ونجد، لأن الإمامين الملك ابن سعود والملك يحيى اكتفيا بإرسال الدعاء للنحاس باشا مع الاعتذار

عن حضور المذاكرات ، فأبرق يلح عليهما ، وبعد لأى أرسل الملك ابن سعود سكرتيره يوسف ياسين ، وأرسل الإمام يحيى ناظر الأوقاف السيد حسين الكبسى ، على شرط أن يكون مستمعاً ولا رأى له ، ثم سمح له الإمام بعد ذلك بأن يبدى رأيه ، وكان الكبسى على جانب عظيم من الذكاء واللباقة وحضور الذهن ، وقد توثقت العلاقة بينى وبينه وأصبحنا على تفاهم فى كل المسائل .

فلسطين والجامعة

وفى عصر أحد الأيام جاءنى السيد الكبسى يقول إن مذاكرات الجامعة وقفت أمام عقبة وهى أن الإنكليز يرفضون إعادة المبعدين الفلسطينيين برغم توسط النحاس باشا وتشديده فى إعادتهم ، وقد بلغه أن أهل فلسطين من جهة أخرى يرفضون جميعاً الاشتراك فى الجامعة إلا إذا عاد المبعدون أولا ، والظاهر أن هذا الإصرار قد وافق هوى فى نفوس الإنكليز فاشتدوا فى رفض الإفراج عن المبعدين حتى لا تظهر فلسطين على المسرح ...

لقد كنت أتوقع حصول هذه العراقيل من انجلترا لأن حالتها الحربية مع ألمانيا قد تغيرت وأخذت رياح النصر تهب فى مصلحتها ، فهى تريد أن تقضى على مشروع جامعة الدول العربية فى مهده ، ولذلك تمسكت بالمعتقلين لتبقى فلسطين بعيدة عنها ، فيقع الخلاف بين الحكومات بسبب فلسطين ، إذ تقول إحداها لابد من فلسطين وإلا فلا جامعة . وتقول أخرى بل نمضى فى المشروع وسندبر مسألة فلسطين فيما بعد ، وتكون النتيجة ضياع المشروع وفشله ...

لذلك خطر لى الحل الآتى للمسألة ، فقلت للسيد الكبسى : إننى من الذين نادوا بخيانة من يشترك من أهل فلسطين بجامعة الدول العربية بدون إعادة المعتقلين ، وأما الآن فإنى أقترح شيئاً جديداً لا أحب أن ينسب إلىّ أمام الناس ، وذلك أن تتقدم أنت باقتراح منك ، فتطلب من النحاس باشا استدعاء شخص من فلسطين لتمثيلها فى تلك الجامعة وعند حضوره يطرح هو مسألة المبعدين فى اجتماعها الرسمى فيخاف الإنكليز من إثارة مسألة كهذه فى مجتمع كهذا ستذكر فيه فظائع بريطانيا فى فلسطين ، والغالب أن العقدة ستنحل تدريجاً وتفرج بريطانيا عن المعتقلين بعد أن ترى أن فلسطين قد غيرت فكرها ودخلت الجامعة فلا يبقى

حل لتمسك الإنكليز بإبقاء المتقلين والمبعدين فى منافيهم ، وبذلك نكون عمليين . فاستحسن السيد الكبسى هذا الحل وسافر إلى الإسكندرية لعرض الاقتراح على النحاس باشا حيث كان يصطاف هو والحكومة هناك .

خلاف فى فلسطين

وبعد ذلك بأيام ذهبت إلى الدكتور محمد صلاح الدين بك فى مكتبه بوزارة الخارجية وسألته عن الأحوال فيما يختص بفلسطين ، فقال إن السيد الكبسى عرض حلا معقولا لدعوة فلسطين ، ولكن هناك ستة أحزاب فيها وكل حزب يريد أن يكون هو الممثل لها ، أو يدعوهم النحاس باشا جميعاً وهذا غير معقول ، إذ كيف يجوز أن يذاكر الرئيس مندوباً واحدا عن كل دولة ثم يستدعى من فلسطين وحدها ستة أحزاب ؟ فقلت هل تتذكر السيد موسى العلمى الذى قدمته إليك فى العام الماضى ؟ إننى أقترح أن يستدعيه النحاس باشا شخصياً فلا يسع أحزاب فلسطين أن تعترض عليه حياء منه وإكراماً له ، كما أن فى هذا الانتداب ما يحل اختلاف الأحزاب لأن العلمى يعتبر محايداً، فقال صلاح الدين بك إننا نريد من ممثل فلسطين أن يكون حائزا على هذه الصفة من قبل أمته حتى لايعترض أحد عليه ويطعن فى صحة تمثيله لأنه فى هذه الحالة يستمد صفته التمثيلية منا نحن وليس من أهل فلسطين، فقلت هذا صحيح لأن فلسطين لسوء حظها لايوجد فيها « ولى أمر » يأمر فيطاع، وليس لها كبير يرضى الناس برأيه . ولكن هناك فكرة وهى أن تكلفوا قنصل مصر فى القدس بأن يتذاكر سراً مع رؤساء الأحزاب كلا على حدة ويشرح لهم حقيقة الوضع ويطلب منهم واحدا بعد واحد على انفراد توكيل موسى العلمى فيلبون ، لأن كل حزب يرضى بهذا الحل مادام أن ممثل فلسطين لن يكون من رجال الأحزاب الأخرى ... فقال صلاح الدين بك هذا حل معقول . وبعد أسابيع جاء السيد موسى العلمى إلى القاهرة يحمل توكيلا من الأحزاب الفلسطينية الستة ودخل الجامعة وحضر مداولاتها باسم فلسطين ولكن تمثيله لفلسطين لم يدم لأسباب كثيرة[1] .

(١) بعد أشهر قليلة أفرجت بريطانيا عن معتقلى روديسيا فصار السيد جمال الحسينى يحضر جلسات مجلس

بروتوكول الاسكندرية

إذا كان يوم ٣٠ مارس سنة ١٩٤٣ هو يوم مولد جامعة الدول العربية القانونى حيث ألقى أول بيان رسمى عنها فى البرلمان المصرى باسم مصطفى النحاس باشا ، فإن مولدها الرسمى الفعلى هو يوم ١٧ اكتوبر سنة ١٩٤٤ .

ففى ذلك اليوم أمضى رؤساء الحكومات العربية ومندوبوها وثيقة وجود الجامعة رسمياً وقد أطلق على الاتفاقية اسم « بروتوكول الاسكندرية » فقابل العالم العربى ذلك الحادث بالارتياح والابتهاج ، لأنه وحد كلمة الحكومات العربيــة لأول مرة بعد أن عجزت شعوبها عن توحيد كلمتها وأهدافها . وكان مما يمتاز به البروتوكول أنه يعترف بفلسطين «دولة عربية» ويعتبرها أمة محتلة ومعتدى عليها . وهو كسب كبير يستحق يومه أن يعتبر عيداً قومياً .

إقالة وزارة النحاس باشا

وفى غداة إمضاء « بروتوكول الاسكندرية » وقبل أن تقام الزينات والمهرجانات احتفالا بذلك الحادث القوى إذا بوزارة النحاس باشا تقصى عن الحكم بغتة ، فاهتز العالم العربى جزعاً على « جامعة الدول العربيــة » وشاهت الوجوه ودب الخوف فى نفوس الذين يفهمون مايجرى وراء الحجب ، لأن الوزارة القادمة ستكون غير شعبية ، وستتألف من أناس لاتثق بهم مصر ، فكيف يثق بهم العالم العربى الذى يعرف ما هى حكومات الانقلاب التى تقوم فى مصر بين الحين والآخر ، فتعانى البلاد العربية من شآبيب أعمال هذه الوزارات أنواع الأذى.

الجامعة باسم فلسطين بدلا من السيد موسى العلمى الذى أخفق فى مهمته إخفاقاً شديداً من نواح كثيرة ، منها قوله أنه لم ينسجم مع النحاس باشا وجماعته ، وهذا غير صحيح ، والحقيقة أن ضيق صدره وسرعة تذمره فى المناقشات السياسية وغير السياسية ومبادرته لمحدثيه بالحرد وقطع الكلام والانسحاب هو السبب فى إخفاقه فى مصر ، كما أنه أخفق بعد ذلك فى نفس فلسطين بمشاجرته مع رؤساء الأحزاب الذين انتدبوه وجعلوا منه رجلامشهوراً حتى انه تشاجر معى أنا الذى اقترحه وقدمه الى الحكومة المصرية كشخصية كبيرة محترمة فإذا به يسود وجهى أمام الجميع ، وعندى كتب عديدة من بعض رؤساء الأحزاب فى فلسطين يعاتبوننى فيها على اخراج موسى من بين دجاجاته وابرازه وفرضه عليهم الخ ثم تعدد سوء تصرفه هناك فصار يقيم لنفسه زعامة عليا ! فما صدق الانكليز هذه الحركة منه حتى أخذوا يشجعونه على التزعم لزيادة الشقاق فلم يكتف بحركة التزعم هذه بل أوعز بمقاطعة صندوق الأمة كرها بأحمد حلمى باشا ، فوقف الرأى العــام فى وجهه وهاجمه فأخذ نجمه يخبو ، ثم عزلته الأحزاب من الوكالة عنهــا فراح يعمل لحساب نورى السعيد وشرق الأردن . ويلفق كتاباً يروج فيه لحركة «الهلال الانجليزى الخصيب» ويلوك ألفاظ «خسرنا المعركة» «ويجب أن نستعد للمعركة...» فما هى المعركة التى خاضها أو اشترك فيها ؟ لذلك إزداد الشك فيه ونزعت الأمة ثقتها منه فاتطفأ.

إقالة الوزارات العربية

كانت إقالة وزارة النحاس باشا فى صبيحة إمضاء « البروتوكول » موضع الدهشة فى الدنيا العربية مابعدها دهشة ، بل إن جميع الوزارات العربية التى أمضت « بروتوكول الاسكندرية » قد استقالت وبعضها أقيل على أثر ذلك. ولما تم إمضاء « الميثاق » بعد شهور « كما سيجىء بيانه » وجاء ضعيفاً ، كان توقيعه على أيدى وزارات أخرى .

لقد كان مصطفى النحاس باشا ملهماً وموفقاً فى إصراره على سرعة إعلان البروتوكول رسمياً ، فلولا إصراره وتصميمه على ذلك ، وأن يعلنه فورا بواسطة محطة الإذاعة اللاسلكية إلى أنحاء العالم، لولا ذلك ما كان أحد يدرى كيف يكون مصير جامعة الدول العربية .

اجتماعى بالنحاس باشا

وقد تحدثت مع الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا عن هذه النقطة بعد ذلك بأربع سنين وكان ذلك بحضور الدكتور محمد صلاح الدين بك الذى كان اليد اليمنى للنحاس باشا فى إنشاء جامعة الدول العربية ، فدار الحديث على تلك الحادثة بالذات لأهميتها ، فقال النحاس باشا إنه لحظ أن بعض المندوبين كانوا يحاولون إرجاء الإعلان « الرسمى » للبروتوكول ، وان بعضهم كان يريد حذف بعض كلمات، وبعضهم الآخر يطلب تعديل عبارات ، وأن مساع شديدة بذلت فى سبيل الإرجاء ، فقال النحاس باشا إن ذلك جعله يصر على إعلان البرتوكول ليسجل رسميا ، ويصبح أمرا واقعا ، كأن قلبه كان يحدثه بقرب حدوث مباغتات ، ولذلك أمر النحاس باشا بفتح الاتصال اللاسلكى بواسطة محطة الإذاعة التى كان قد أمر بإحضارها إلى قاعة الاجتماع وأخذ يقرأ النصوص جملة جملة ، حتى ان بعض المندوبين كانوا فى خلال ذلك يطلبون حذف صياغة بعض الكلمات وتصحيح عبارات فكان يعمل بالممكن من اقتراحاتهم حتى لايترك لأحد وسيلة لعرقلة إعلان البرتوكول ، إلى أن تم كل شئ وأصبح البروتوكول بإعلانه على الملأ وثيقة دولية وأمرا واقعاً .

فلما أقيلت وزارته وسقطت الوزارات العربية الأخرى أوأسقطت وقامت الوزارة المصرية الجديدة والوزارات العربية الأخرى « الجديدة أيضا » وجدت نفسها أمام « الأمر الواقع » فأسقط فى يدها ولم يسعها إلا المضى فى مشروع الجامعة العربية فسارت فيه على شكل أعرج

ومن طريق متعرج ... بعد أن ألغت البروتوكول وبعد أن أرجأته بضعة أشهر ، وسيأتى حديث ذلك .

كيف سقطت وزارة النحاس باشا

كنت فى مساء ذلك اليوم ١٨ كتوبر سنة ١٩٤٤ أقضى سهرة شاى فى قهوة بلدية فى حى سيدنا الحسين أستعيد مع صديق لى ذكريات مجيئى وإياه لمصر لأول مرة منذ «ثلث قرن» وفى الساعة العاشرة سمعت الراديو عرضاً فإذا به صوت مستشار محطة الإذاعة سعيد لطفى باشا الاستعمارى الشهير الذى لانسمعه إلا فى المناسبات الكريهة المكدرة للأمة، لتخصصه بإذاعة بيانات تشرشل وأمثاله والعياذ بالله ، فأخذ سعيد لطفى يتكلم بصوت أجش منفر ويذيع نبأ إقالة وزارة النحاس باشاوتأليف وزارة جديدة برياسةأحمدماهرباشاومعهمحمود فهمى النقراشى وفلان وفلان ، وكلهم ممن عرفتهم البلاد ولا تثق بهم ، فقابل الناس ذلك النبأ المشئوم بالوجوم وكأن على رؤوسهم الطير .

الفرار من القاهرة

أما أنا فقد اضطربت لهذه المباغتة وكأنه قدر علىّ ألا أهنأ فى حياتى ، وأن أقضى مدة الحرب معذبا مروعا منغصاً ، وأن أحرم حياة الاستقرار والأمن التى لم يحرم منها أحد من الناس إلا أنا . وقد وزنت الأمور واستعرضت فى لحظة سريعة عواقب إقالة النحاس باشا ، فقدرت ما يكون لهذا الانقلاب السياسى من أثر فى مصيرى ، فالنحاس باشا الذى كفلنى قد ذهب من الميدان الرسمى وعاد كما كان زعيما شعبيا ، وأصبح الحكم فى يد أناس لا يهمهم أمرى ، وهم غير مرتبطين أمام الرأى العام بشىء بالنسبة إلىّ ، فالكفيل قد زالت كفالته بخروجه من الحكم ، فإن خطر لمدير الشرطة العام وهو بريطانى أن يتناولنى فى تلك اللحظة ويضعنى فى السجن فلاجناح عليه، لأنه إن حبسنى فهويحبس شخصاً «مريباً» . والبلدالآن فى قبضة البوليس وإدارة الأمن العام ، التى تعمل هى وبوليسها بأمر الإنكليز ولحسابهم، طبقاً لعادتها أكثر من ستين عاماً، ماعدا الفترات التى يكون فيها الحكم للوفديين ، كما أن الوزارة الجديدة لم تتقلدزمام الحكم بعد، بل إن الوزارة نفسها غيرمسئولةعنى لعدم وجود يد لها فيما يختص بى ، كما أن أمرى لا يهمها ، ومتى استلمت الوزارة الحكم غداً وقيل لها إن فلانا قد حبس ،

قالت سأرى فى أمره وسأبحث مسألته، وهيهات لقوة أو واسطة أن تخلصنى بعد ذلك .وعلاوة على هذا كله فإن محمود النقراشى باشا قد أصبح من وزراء هذا العهد ، وذلك وحده يكفى لفزعى منها، أليس أنه هو الذى شمت بحبسى فى أول الحرب ، وكان قبل ذلك قد اقترح إغلاق جريدتى وإبعادى عن مصر ؟! أليس أنه هو الذى نسب إلىَّ الدعاية لإيطاليا ؟ انظروا ياأهل الإنصاف، وتأملوا فى عمل النقراشى باشا الذى لم يجد تهمة يشفى غليله بها منى إلا الدعاية لإيطاليا ، وهو يعرف أن ذلك غير صحيح وأن العكس هو الصحيح ! ولكن غضبه منى لحبي للنحاس باشا ـ وياله من جرم عظيم ـ قد أنساه الحق والواقع واتخذنى عدواً ، وهو لايعرف أننى لاأبالى بهذه العداوة التى بنى فيها علىّ والتى لايد لى فيها ، أما وقد أراد هو ذلك فليكن ما يكون، وإنى مستعد للوقوف فى وجهه إذا كان الحكم للقانون، فأنا بالعبء له مستقل...

الفرار والاختفاء

لم يكد المذيع سعيد باشا لطفى يسكت من إذاعته الفظيعة ـ لأن صوته لاتحتمله الأذن ولا تطيقه النفس، لأنه لا يذيع إلا كل ما يكدر ـ حتى قمت وتركت المكان الذى كنت فيه وقصدت إلى أقرب تليفون فكلمت الدكتور حافظ باشا عفيفى فى داره وكانت الساعة تزيد على العاشرة ليلا ففهم غرضى من هذه المخاطبة فوراً وقال «أنا فاهم الموقف الذى تعنيه» فقلت له سأزورك بعد ثلاثة أيام لبينما تجتمع برئيس الوزراء الجديد . فقال وتزورنى فى مكتبى فى البنك لأخبرك بما يكون ...

واما أنا فقد أمضيت تلك الأيام الثلاثة مسافراً من بلدة إلى مدينة، ومن جهة إلى أخرى، لأن كثرة التنقل والسفر والحركة هى من أهم الوسائل للابتعاد عن عيون الشرطة والجواسيس

عفيفى ورئيس الوزراء أحمد ماهر باشا

وفى اليوم الرابع جئت القاهرة فقابلت الدكتور حافظ باشا فقال إنه قابل رئيس الوزراء الجديد وأخبره بقصتى مع النحاس باشا وكيف أن الوزارة الوفدية قد كفلتنى وحمتنى من الإنكليز وسأله عن موقفه هو من هذه المسألة فيما لو تعرضوا لى ، فقال له أحمد ماهر باشا أنا من جهتى لا أحمل فكرة سيئة عن فلان ، فإن ظل بعيداً عن السياسة فلن يتعرض له أحد [1] .

(١) لايسعنى الا أن أسجل الطيبة التى كان ينطوى عليها قلب المرحوم أحمد ماهر باشا الذى لولا شدة تأثير النقراشى عليه ما كان يصدر منه عنف مع أحد ، ولكن الحزبيات المحلية قاتلها الله طالما كانت تفرق بين العباد بل بين الأشقاء حتى بين الشقيقين أحمد ماهر باشا وعلى ماهر باشا .

وعند ذلك اطمأن خاطرى وعدت إلى حياتى العادية . ولكنها حياة القلق ما دام سيف الأحكام العرفيةمشهراً ويستطيع الإنكليز بموجبها أن يصنعوا ما يريدون ، فقد سبق لهم أن أرغموا الحكومة المصرية على إعادة القبض على الفريق عزيز باشا المصرى ، واعتقال على ماهر باشا رئيس الوزراء الأسبق ومحمد طاهر باشا ابن عمة جلالة الملك ، والبرنس عباس حليم وهو ابن عم جلالته ، والبرنس عمر الفاروق نزيل مصر وهو من آل عثمان وصهر العائلة الملكية المصرية فماذا يمنعهم من طلب القبض علىّ أنا وعلى ألف مثلى .

محبتى للنحاس باشا

لقد شهد قراء هذه المذكرات المواقف الكريمة التى كانت لمصطفى النحاس باشا معى ، وكيف أنه لم يتردد فى معانقتى لما استسلمت إليه فى مكتبه سنة ١٩٤٢ وهو رئيس وزراء

أخذت هذه الصورة بقصر الزعفران ليلة الاحتفال بعيد المولد النبوى الشريف ١٢ ربيع الأول ١٣٧٠ وقد التقطها المصور فى اللحظة التى كنت أعانق فيها الزعيم مصطفى النحاس باشا ويعانقنى

وحاكم عسكرى عام وأنا هارب من السجن مطارد . فهذه المعانقة قديمة وليست بنت ساعتها ، فلما عانقته وعانقني كانت المعانقة عادة قديمة منه معى تقديراً ولطفاً منه ، وها هو النحاس باشا لايزال منذ عشرين عاماً حتى الآن سنة ١٩٥١ لايرانى فى أى مكان إلا أخذنى بالحضن بدون أن يغير عادته وفى الصورة السابقة سجلت آلة التصوير إحدى هذه الحفاوات النادرة ، حفظه الله وأدامه مثلا أعلى للوفاء ومكارم الأخلاق .

النحاس باشا يتوسط الصورة وقد وقف إلى يسار القارئ والسيد على المؤيد وزير اليمن المفوض ووالى اليمين توفيق دوس باشا
والشيخ سامى الخورى وزير لبنان ووقف بين الزعيم وبين وزير سورية المفوض الأسبق والنائب العراقى الشهير [illegible]

وقفت مع النحاس باشا والدكتور صلاح الدين بك وزير الخارجية
وقد أخذت الصورة حينما كنت أقول للزعيم : هذه وقفة تاريخية بالنسبة لنا

وقفة مع النحاس باشا في ضيافته بقصر الزعفران ،
وقد وقف بيننا دولة أحمد حلمي باشا رئيس حكومة فلسطين

جلست مع النحاس باشا فى داره ذات يوم وسجلت آلة التصوير تلك الجلسة
وقد سطر النحاس باشا اسمى ولقبى بالمجاهد بخطه ,وأمضى على صورته بإمضائه

الرجوع إلى موضوع الجامعة العربية

كان العالم العربى يرقب بفروغ صبر وقلق موقف الوزارة الجديدة من جامعة الدول العربية التى ولدت منذ أيام ، وأبعد مؤسسها النحاس باشا عن الحكم، وكثر اللغط والقيل والقال، فلم يسع الوزارة الجديدة إلا الإعلان فى بيانها الوزارى عن إقرارها ذلك المشروع الضخم وأنها ماضية فيه ، وفى الحقيقة أنه ما كان يسع هذه الوزارة غير ذلك ، لأنه أصبح مشروع العالم العربى كله ، وليس مشروع مصطفى النحاس وحده ، كما أن جلالة الملك كان يؤيد هذا المشروع لحسن الحظ .

وأخذت الوزارة الجديدة تعيد النظر فى موضوع الجامعة مع وفود جديدة من الحكومات العربية « الجديدة أيضاً » فظهر القلق وأوجس الناس خيفة من هذه الوزارة لأنه لا يوجد واحد من رجالها يؤمن بجامعة عربية أو يهمه أمرها ، لاسيما النقراشى باشا الذى يكره مسائل العرب والعروبة من أساسها ! وهو إذا كان قد وافق ومضى مع الوزارة فيها فإن ذلك بوحى جلالة الملك فاروق المعظم ولكون التيار العالى كان أقوى من أن يصده فرد مثل النقراشى باشا أو غيره ولذلك جرفه التيار جرفاً ...

وهكذا الحال مع رئيس الوزراء الجديد أحمد ماهر باشا فهو رئيس المحفل الماسونى فى مصر ، وناهيك بالماسونية من حركة يهودية ، فهى أشد الحركات الصهيونية اليهودية ضد فلسطين العربية ، فقد استطاعت الجمعيات الماسونية أن تجند بعض المسلمين لخدمتها باسم الإنسانية والإخاء والمساواة . وإن قلت لهذه الجمعيات ما رأيك فى اعتداء اليهود على المسلمين فى فلسطين قالت نحن هيئة غير سياسية ، ولكن هذه الجمعية ما كانت تتردد فى إذاعة منشورات سياسية مسمومة « توصى فيها العرب بعدم ذبح اليهود إخواننا فى الإنسانية وأبناء عمنا » ... بينما يكون الحال فى ذلك الوقت أن اليهود هم الذين يذبحون العرب ! ولا أظن أنه يوجد فى الدنيا دعاية يهودية ضد العرب أخبث من هذه الدعاية ، ولكاتب هذه السطور وقائع وحوادث مع الماسون بالقاهرة بدأت بعيد ثورة فلسطين سنة ١٩٢١ ورافقت ثورات فلسطين الأخرى ١٩٢٩ و ١٩٣٦ وما بعد ذلك ، حتى وصل الأمر بينى وبين الماسون إلى

الجرائد والمحاكم ، كما أنى لا أزال أتذكر أنه لما كان أحمد ماهر باشا فى سنة ١٩٣٨ رئيساً لمجلس النواب أثيرت مسألة فلسطين فى المجلس أخذ يهدئ من ثائرة النواب ويمنع تكدير خاطر اليهود[١] من هنا كان الشك يساور الناس من وزارة أحمد ماهر ، ولكن مشيئة جلالة الملك جعلته يمشى فى مسألة جامعة الدول العربية فمشى ولكن بشكل أعوج ...

ميثاق الجامعة العربية

إن إقصاء وزارة النحاس باشا عن الحكم قد استدعى البدء فى المذكرات بشأنها من جديد كما تقدم ، وكذلك استوجب النظام ــ أو الغرض الحزبى ــ التخلص من أمين سرها العام الدكتور محمد صلاح الدين بك فأقصوه عنها ، وكان الواجب أن يبقى للانتفاع باختباراته وإخلاصه للجامعة فهو من الذين مهدوا لها وعملوا على إقامتها، ففى ذاكرته أسرارها وعواملها، وما لا يرى من دخائلها ، ولكن مرض الحزبية مع الأسف لم يوفق الوزارة الجديدة فى عملها ، فأقصته وحرمت الجامعة العربيــة من حزمه وكفايته وقوة شخصيته . ثم جاءت الوزارة الجديدة بعبد الرحمن عزام فأعطته لقب باشا وجعلته أميناً لسرها باسم « الأمين العام لجامعة الدول العربية » معتمدة على اسمه وماضيه القديم بينما حاضره قد أصبح بعد ذلك غير ما كان ... فهو متهم بصداقة الإنكليز ، بدليل عدم اعتقالهم إياه فى أيام الحرب ، بل جعلوه قائداً للجيش المرابط ! بينما هم قد اعتقلوا رئيسه السابق على ماهر باشا وزميله السابق محمد صالح حرب باشا وصديقه القديم عزيز باشا المصرى الذى كان رئيس أركان الحرب فى وزارتهم ، فلماذا تركوا عزام باشا فقط وهو أحد هؤلاء الأربعة الذين كان يقوم عليهم عهد على ماهر سنة ١٩٣٩ـ١٩٤٠

وفى خلال المذاكرات الجديدة لجامعة الدول العربية اغتيل أحمد ماهر باشا رئيس الوزارة الجديد بيد المحامى الشاب محمود العيسوى ، فاقتضى النظام الحزبى إسناد رياسة الوزارة لنائب رئيس الحزب محمود فهمى باشا النقراشى ، وكان العرف يقضى بأن يرأس الوزارة رئيس حزب الدستوريين بحسب الكثرة النيابية يومها ، ولكن جلالة الملك رأى أن يعوض جماعة أحمد ماهر

(١) أخبرنى أحد خلصاء الدكتور أحمد ماهر باشا أن المرحوم قد استدرج إلى الماسونية استدراجاً كما استدرج إليها فضلاء قبل ذلك وبعد ذلك أيضا .

بعد تجميعتهم برئيسهم بإبقاء رياسة الوزارة لهم ، حتى لا تكون تجميعتهم مزدوجة بفقد رئيسهم وفقد رياسة الوزارة أيضاً ...

وسواء كان مآل الرياسة إلى حزب أحمد ماهر أم لحزب الدستوريين ، فإن الجميع لا يستحقون الرياسة ، ولا الوزارة ، ولا النيابة فى البرلمان ، لأن العهد كله كان ملفقا بنوابه وشيوخه ووزرائه ، وقد قام عهدهم على تزوير الانتخابات النيابية وتلفيقها ، فلم يسع الشعب الممثل فى الوفديين – أى حزب النحاس باشا – إلا مقاطعة الانتخابات فخلا الجو لعصابات الأعيان والحزبيين والخوارج والمنشقين ، فأصبح البرلمان منهم وحدهم ، فصاروا يصولون ويجولون ويؤلفون الوزارات من أعضاء برلمانهم الذى كان أعجوبة برلمانات العالم كله! ...

الميثاق والخواجات ...

وفى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ أمضى ممثلو البلاد العربية « ميثاق جامعة الدول العربية » فلما اطلع الناس على نصوصه وجدوه دون « بروتوكول الإسكندرية » فى روعته وقوته، وقد ظهرت فلسطين فيه بشكل مبهم ضعيف ، فازداد السخط على الوزارة الجديدة، واشتد الأسف على وزارة النحاس باشا .

وبعد ذلك بأيام أقامت السيدة هدى شعراوى (١) حفلة عشاء كبرى لتكريم الوفود

(١) السيدة هدى شعراوى هى كريمة سلطان باشا وحرم المرحوم على شعراوى باشا أحد زعماء الحركة الوطنية المصرية المشهورين، وكانت من نبيلات زمانها ومفخرة عصرها وقائدة الحركة النسائية فى الشرق العربى ، وقد اشتهرت بإحساناتها للمعاهد العلمية والثقافية وإيفاد الطلاب الفقراء إلى الخارج على نفقتها ، وقد أنشأت دار الإتحاد النسائى والمدارس الصناعية والمشاغل اليدوية التابعة له . وقد احتضنت فى السنين الأخيرة من عمرها الحافل بالخير قضية فلسطين احتضانا لا مثيل له ، كما اشتهرت بتعضيد الأدباء والشعراء ورجال الفكر ، وكانت سيدة جليلة القدر على جانب عظيم من الثقافة العالية ، فكانت تجيد غير لغتها العربية – الافرنسية والتركية والإنكليزية – وكانت ذات شخصية نسوية عالمية بحضورها بالنيابة عن نساء الشرق معظم المؤتمرات النسائية فى أوروبا ، وقد لحقت السيدة هدى بالرفيق الأعلى يوم ١٣ ديسمبر ١٩٤٧ فاهتز العالم الشرقى جزعاً عليها ، وقد رثاها الشعراء وأبنها الكتاب وبكتها الصحف العربية والأجنبية على السواء ، رحمها الله وعوض الأمة على فقدها أحسن العوض ، وإنى أعتقد أن نهضة نساء مصر والشرق لن تظفر بمثلها ولا بعد قرن. فإن الزمان بمثلها لبخيل

العربية التى قامت بوضع الميثاق الأبتر، فلقيت عبدالرحمن عزام باشا هناك فانفردنا فى زاوية من أحدالصالونات وسألته : لماذا مسخـتم قضية فلسطين فى «الميثاق» مع أنها كانت أقوى وأبرز وأظهر فى « البروتوكول » فقال « الخواجات عاوزين كده وكانوا يريدون شقلبة المشروع فرضينا بما قدرنا عليه » ...

وترجمة هذه الجملة إلى اللغة الصحيحة أن الإنكليز تدخلوا وأرادوا القضاء على الجامعة فى مهدها وأن جماعة حكومة ذلك العهد رضوا بسخط مسألة فلسطين ، على قاعدة أن العور أخف من العمى ...

وصف حكومات الأقليات

ولكن هذا العذر غير مقبول ولا يقره الناس ، بل إنه يعطيهم الحق فى السخط على وزارة ذلك العهد التى لولا قيامها على أنقاض وزارة النحاس مانكبت فلسطين التى كانت إحدى الضحايا لهذا العهد المقوت . وإلا فلماذا لم يجسر الإنكليز على التدخل أمام النحاس باشا فى صيغه « البروتوكول » الذى أغضبهم ؟ وبديهى أن كل ما يغضب الإنكليز هو فى مصلحة الأمم المنكوبة بالاستعمار ، وكل مايغضب هذه الأمم يسر الإنكليز، لأنه فى مصلحتهم ...

إننى أعرف النحاس باشا وكيف كان يصنع لو تدخل الإنكليز ، ولكنهم سكتوا خوفاً من شدته وعنفه ، فلما قامت الوزارة الضعيفة الانقلابية استطاعوا التدخل والإيحاء فاستجابت لهم .

إن ماجرى لدليل قاطع على أنه لايستفيد من وزارات الانقلاب فى الشرق إلا الإنكليز، لأنهم يتخذون من ضعفها وعدم شرعيتها وسيلة لاقتناص بعض حقوق البلاد بواسطتها ، فى مقابل تمكين أهل الانقلاب من التمتع بالسلطة وبالأسلاب ! وهم فى الوقت نفسه يكفون الاستعمار مهمة إخماد جذوة الأمة، وعملية إضعاف معنوياتها وكبتها ، فتكون الأمة فى الحالين هى الخاسرة والاستعمار هو الرابح، على أيدى أناس منا ليتمتعوا بالحكم والسلطان والسلب والنهب ...

استطراد عن عزام باشا

ولنرجع إلى عبد الرحمن باشا عزام، فأقول إنه أخذ يعمل فى أمانة الجامعة ببطء شديد وتردد وبعقلية الرجل الحكومى الحزبى ! فهو بعد أن اقتطف ثمرة جهاد الدكتور محمد صلاح الدين بك الذى قامت الجامعة على كتفه ، لم يبق عزام باشا كما كان وهو مجاهد وطنى بالأمس بل أصبح شديد الاحتياط ، شديد الارتياب بكل من كان يصادقهم ويعتمد عليهم ، وقد اجتهد فى إقصائى عن كل مايمس جامعة الدول العربية على طول الخط ، فلم يكلمنى فى أى شأن من شئونها ، ولا استشارنى فى أمر من أمورها، بعد أن كان يستشيرنى فى معظم الأمور حتى فى زواج إحدى قريباته من أحد الأشخاص، بل تجاهل صلتى بمواضيع العروبة على الإطلاق برغم كونه ماعرف بعض رجال الحركة العربية والإسلامية فى الشرق إلا بواسطتى وبواسطة جريدتى، فهو إذن يعرف شدة الحاجة إلى خبرتى فى أمور الجامعة ، ولكنه مع ذلك كان يعرف كره الإنكليز لى ، فظن أن وجودى بقرب الجامعة أو اتصالى بها مما يكدر خاطر الإنكليز ؛ فاجتهد بأن لايغضبهم ! وقد غالى فى الاحتياط حتى إنه تهرب من واجب التدخل لدى الوزارة ليحملها على الاعتراف بجنسيتى ، حتى لايدرى الانكليز بأن له يدا فى تسوية حالة عدوهم السياسية ، وإلا فإن الواجب كان يدعوه إلى مخاطبة وزارة الداخلية ورئيس الوزراء، فإن لم تسمع كلمته ولم تقبل وساطته قال للحكومة اعفينى من أمانة الجامعة مادامت قيمتها هينة إلى هذه الدرجة ...

وكان عزام باشا يتخبط فى أعمال الجامعة ، لأنه كان يستشير فى مسائل فلسطين بعض مندوبى الصحف وأجهل الناس بها وأبعدهم عن موضوعها ، فى حين كنت فيه بجواره فلا يسألنى ولا يأخذ رأيى فى شىء ولا بالتليفون من بعيد ... بل إنه لم يفكر فى دعوتى إلى حفلة تكوين الجامعة ! مع أنه دعا إليها ألف نسمة كان فيهم كل الذين لاصلة لهم بالعرب والعروبة ، حتى ممثلى الدول الأجنبية دعاهم ! ومندوبى الصحف الافرنجية عزمهم، ومنهم بعض اليهود... بل كان يدعو إلى حفلات الجامعة بعض الطلبة والجواسيس ومخبرى الصحف ، وكان يدعو جميع الناس ومن جميع الطبقات، إلا أنا...

وقد اتخذ عزام باشا لمساعدته فى إدارة حركة الجامعة أناساً لم يسمعوا بشىء اسمه جهاد عربى ، أو نضال إسلامى ، أو كفاح ضد الاستعمار ، بل استعان برئيس رقباء البريد فى أيام الحرب الذى كان يتلصص للانكليز على الرسائل البريدية ويرشدهم إلى خصوم بريطانيا ويهدى السلطة العسكرية إليهم .. حتى إن الإنكليز أنعموا أخيراً على مساعد عزام باشا المشار إليه بنيشان الأمبراطورية من درجة فارس !

وقد أخبرنى من دخلوا مكاتب الجامعة أنها مشحونة بموظفين كانوا فى أيام الحرب مترجمين ومرشدين فى السفارة البريطانية والقيادة العامة للشرق الأوسط ...

وهكذا فإن صديق القديم عزام باشا قد اهتدى إلى جميع الناس للاستنارة بهم والاستفادة فى مهمته بخبرتهم إلا أهل الذكر ولم يجد فى الدنيا أكفأ ولا أخلص ولا أخبر فى المسائل العربية من مدير رقباء الإنكليز على البريد المصرى والمتزوج من يهودية - أجنبية أيضاً - فاتخذه مساعداً ومرشداً ...

وعندما كان عزام يتغيب عن مصر كان العالم العربى يسمع ويرى مساعد عزام باشا المتفرنج ، أو المستعرب ، يحضر مجالس الجامعة ويمثلها فى المؤتمرات ويتكلم باسمها رسمياً ...

أصدقاء تغيروا

كانت أيام الحرب كلها أيام آلام لى وللناس جميعاً ، حتى أبناء الأمم المنتصرة كانوا أيضاً يتألمون مما نزل بهم من مصائب ، فكيف بمن أصابه ما أصابنى وأنا من أمة منهزمة كانت كلها تتألم وكلها يتوقع سوء المصير .. وليس معنى هذا أننى نكبت وتألمت أكثر من سواى بل كان هناك من أصيب ونكب بأكثر وأكثر ، ولكن هذا لا يمنع من كونى نكبت وأصبت بأكثر من طاقتى وفوق احتمالى ، ولذلك جاء هذا الكتاب ..

وكانت الآلام النفسية من أعمال بعض الأصدقاء ، وتنكرهم لى تؤلمنى أكثر مما كان يعمله معى الأعداء ، لأن الأعداء هم الأعداء ، فكل شر كان ينتظر منهم ، ولكن الأصدقاء ...

إننى أتذكر صديقاً كان بعد تعطيل « الشورى » سنة ١٩٣١ يقطع زياراته وكان ينأى بجانبه إن رآنى من بعيد ويتهرب منى ولا أدرى لماذا ، فلما أصدرتها بعد ذلك بست سنين عاد إلىّ وكان لا يفارقنى . ولكن لما توقفت مرة ثانية بسبب الحرب عاد إلى القطيعة ...

وصديق آخر

وبعد إطلاق سبيلى جاء مصر أحد الأصدقاء ، وهو من الأقارب أيضاً ، وأقام فى مصر نحو شهر بدون أن يرينى وجهه ، ولكنه قبل رجوعه إلى بلده بيوم جاء إلى باب دارنا وهو حذر يترقب ، ووضع بطاقة فى صندوق الرسائل الخاص بى وعاد أدراجه ، بدون أن يكتب على البطاقة حرفا فيه تحية أو عنوانا يدل على مكان نزوله حتى لا أزوره ولا يلقانى ، فلما بحثت عنه قالوا إنه كان فى القاهرة منذ شهر وسافر اليوم ، أى فى اليوم الذى وضع فيه البطاقة بالباب ! يعنى ان هذا القريب الصديق كان بعيد النظر ... ذلك انه حسب حسابا لسؤال الأصدقاء والأقارب عنى فى بلده ولا يمكنه أن يقول انه أهمل واجب المودة والقرابة ، لذلك وضع البطاقة بالباب ليقول إنه بحث عنى وجاء لدارى وإننى أهملته ولم أسأل عنه ... ليظهر فى فوق ذلك بمظهر المقصر معه ! أما سبب هجرانه فلكونه أصبح موظفاً كبيراً عند الإنكليز أثيراً لديهم ، نخاف على سمعته منى ...

وصديق ثالث !

وهناك صديق عزيز قديم امتدت الأخوة بينى وبينه أكثر من ربع قرن فكان فى سنوات ٩٢٠ و ٩٢١ و ٩٢٢ فى مصر ، لا يفارقنى ولا أفارقه ، ولما رحل عائداً إلى فلسطين كانت رسائله إلىّ ورسائلى إليه لا تنقطع ، وكانت رسائله طويلة فيها مناجاة وفيها سياسة وفيها أدب ونقد ، وفيها مكاشفات ومودة ، وفيها نجوى وشكوى ، وفيها كل ما يمكن أن يكون بين صديقين متآخيين ، جمعتهما النكبة بالاستعمار وتفاهما على كل وجهات النظر فى الإخوان والأشخاص والأصدقاء والأعداء والقضايا العامة ، فكان يعتبر مكاتبته لى أهم برنامج يومه ، وعندى منه نحو ٥٠٠ رسالة تبلغ صفحاتها نحو ٣ آلاف صفحة .

ولكن هذا الأخ والصديق والعشير الحبيب ، لم يتورع عند ما جاء يزور مصر

بعد خروجي من الحبس عن التواري مني وعدم السؤال عني ، مع أنه يعرف عنواني وكان يستطيع أن يكتب لي فأستقبله في المحطة يوم قدومه ، أو يبعث لي مع أحد الناس نبأ فأذهب إليه مسرعاً مهرولا ، ولكنه كان لا يريد أن يلقاني ، حتى بعد أن تفارقنا عشر سنين ، وكان يكتب لي عن أشواقه وحنينه إليّ ، وكان يقول لي في آخر رسالة وصلتني منه قبل القبض عليّ بأيام وهو يشكو آلامه من الناس ومن الدنيا كلها : « ما أحوجني يا أبا الحسن إلى أن تكون الآن بجانبي » ...

إن هذا الصديق الثمين الذي لا يعجبه الناس جميعاً بقدر ما كنت أعجبه ، ولا يرى فيهم الوفاء الذي رآه مني ، ولطالما كتب وخطب عنه وتحدث فيه ... إنه يجيء إلى مصر فيمكث فيها شهراً بعد فراق عشر سنين ، تزوجت في خلالها ورزقت ببنين وسجنت وخرجت من السجن فلا يقول لي أين أنت ، ولا يمكّنني من لقائه ، في حين أنه زار في مصر جميع من كان يعرف من المعارف القدماء الذين أصبحوا من ذوي الألقاب ، ولم أقل إنهم من أصدقائه القدماء لأنهم ليسوا له بأصدقاء ، بل أنا الذي كان صديقه . ولكنهم صاروا أغنياء فهرول نحوهم ، وأصبحوا من أصحاب المناصب الرسمية فهرع إليهم ! وأما أنا فقد بقيت من أصحاب المناصب الوطنية الذين يغضبون الإنكليز فابتعد عني ، وبقيت فقيراً وصار هو غنياً مثرياً فهرب مني ، مع أنه قد تحدث وخطب وكتب مراراً بأني في إحدى أزماته قد أعطيته كل ما أملك وما لا أملك ، أي أنني قدمت إليه يوم نكبة ابنه بالمرض ، كل ما كان عندي واستقرضت له من الناس مثل ذلك وقدمته إليه ، ولكنه الآن يتجاهلني !

وأما الذين هرول إليهم يوم زار مصر فإنهم في أيام نكبته لم يسألوا عنه ولا أغاثوه ولا حفلوا به ، بل إنهم طول حياته وحياتهم ما كتبوا إليه لا في السراء ولا في الضراء ، ولكنه هرع إليهم لأنهم صاروا من ذوي الألقاب ، وأصبح هو من ذوي الأموال ! نخاف أن أطلب منه مالا أو قرضاً ففر من رؤيتي ! هكذا خطر له .. أليس إني خارج من السجن؟ إنه قد جرب السجن قبل ثلاثين سنة ويعرف كيف يكون حال الخارج من السجن ، فهداه تفكيره إلى أنه سيجدني في أسوأ حال ، فما أغناه عن هذا الاتصال المزعج الذي سيكلفه إقراضي شيئاً من المال ، أو إهداء طفلي الحسن لعبة أو علبة حلوى ...

ولكن المسألة معى لم تكن ضيقة إلى الدرجة التى تصورها صديق الهارب من وجهى، لأن لى من الأصدقاء من هم أكبر نفسا وأعلى منه همة ، وأكثر وفاء . وسيرد ذكر بعضهم فى هذا الكتاب ، فلو أنه مكننى من اللقاء به لفرحت برؤيته ، ولأكرمته وأنزلته فى بيتى، وأما الذين هرول إليهم من ذوى المناصب فكنت أدعوهم معه إلى دارى وأقيم لهم مأدبة إكراما له.

لقد استعجل الرجل فى كونه تصور أننى سأفجعه فى شىء من ماله بعد أن صار من ذوى الأملاك والإيراد الكبير، وكان عليه أن يظهر أولا، وأن يرينى وجهه أو يمكننى من الاجتماع به ، فإن سمع أو لحظ أو لمح شيئا يدل على أننى سأحتاج إلى شىء من ماله ، فما عليه ساعتها إلا أن يفر وأن ينجو بجلده ...

إن الذين يعرفون ما كان بينى وبين خليل السكاكينى والذين قرأوا وسمعوا ما كتبه وماقاله عنى، والذين قرأوا ما كتبته عنه وصنعته من أجله فيما مضى، سيصابون بالغثيان من عدم وفاء هذا الرجل لصديق كان له أصدق حبيب، وكان فى نظره المثل الأعلى للصداقات الكريمة العالية...[1]؟

استطراد

وكان يعزينى ويقع فى نفسى موقع العزاء من قصص الناس ، ما كان منها ينطبق على حالى ، من متاعب الحياة وغدر بعض الأصدقاء وخذلان الأولياء .

فقد عشت بعد زوال هذه المحنة أربع سنين ملازما بيتى ، أنتظر نهاية الحرب ، ولا عمل لى إلا ترقب كسر الحلفاء وانتصار الألمان أو الشيطان ، ليستطيع العالم أن يعيش بهدوء وسلام . ففى تلك الأيام تنكرلى أكثر من واحد من الأصدقاء ، وقد ذكرت بعضهم، ففلان ماعاد يزورنى، وذاك ماعاد يحيينى، وغيره كان يختلق الأسباب لتسويغ القطيعه وفصم العروة وقطع حبل الوداد . وكان هؤلاء الناس على نوعين ، فمنهم من كان يظن الاقتراب منى مما يسبب له المشاكل ويجعل السلطة البريطانية تشتبه به أوتقبض عليه ، ومنهم من كان يخاف أن أطلب منه قرضاً ، ومنهم من كان يخشى أن أطالبه بدين أقرضته إياه قرضاً حسناً...

إلى هذه الدرجة بلغ الانحراف والانحلال فى أخلاق بعض الناس .

(١) ثم دارت الأيام ، فإذا به يصاب بماله ويفقد منصبه ويعود إلى مصر ، وهنا فقط فكر بى وعرف أنه يجب أن يزورنى ! كأن كتب على أن لا أصاحب إلا المنكوبين والمفلسين !!

صديق آخر انتكس

وهذه حكاية لايمكن أن تنسى ، ولا أن تزول من البال ، وستظل تمر فى الخاطر من حين إلى آخر إلى أن أدونها هنا فأستريح منها ، لأنى أكون بذلك قد أخرجتها من صدرى ووضعتها على كاهل غيرى ، وذلك أنه لما اشتد بى الضيق المالى بعد السجن وما تلاه، أنزلت أربع سجاجيد من بيتى إلى السوق ، وكلفت صديقاً لى من التجار أن يبيعها بحجة الاستغناء عنها . ولكن صديقى هذا كان بعيد النظر كثير الحيطة ! فقد هداه تفكيره وتقديره إلى النتيجة الآتية : وهى أننى بعد إنفاق ثمن السجاجيد سأستقرض منه مالا ! فما كان منه إلا أن تغير وتبدل فوراً ، وأخذت أساريره تنقبض إن زرته ، وصار ابنه « يبوز » فى وجهى إن أقبلت على دكانه ، حتى إن الخادم ماعاد يقابلنى بتلك الحفاوة ...

ومن عادة «مركب النقص» أن يكون شديداً عند من كان مثلى فى تلك الأيام ، فكنت دقيق الشعور شفاف الحس ، فكيف إذا اقترن ذلك بما لحظته من صديقى ومن ابنه ومن خادمه؟

تجربة ...

ولذلك بادرت إلى سحب السجاجيد من عنده مدعيا أن الأفضل أن نصلح تلك السجاجيد أولاً .

وبعد ان استرجعتها منه انقطعت عن زيارته شهراً وثلاثة وستة أشهر ، ولكنه مع ذلك لم يظهر ، ولم يزرنى ، ولم يسأل ، ولا أرسل ابنه للسؤال عنى. فكان حاله معى حال المثل العامى « عمى بَندَق ما صَدَّق »...

وكان هذا التاجر ، أو الصديق السابق ، يغتنى فى تلك الأيام بكثرة وبسرعة ، وكنت أنا أزداد فقراً ، ولكن بسرعة أكثر ! ومع ذلك فإن صاحبنا كان ينتظر على كل حال أن يرانى مقبلا عليه يوماً ما طالبا منه العون المالى . أليس أننى كنت فى السجن وأنى أضعت كل ما أملك من مال ؟ أليس أنه رأى سجاجيدى فى دكانه وأننى كنت أريد بيعها ؟ وهل كان يمكن لسحبها من عنده بألف حجة أن يقنعه بأننى لن أحتاج إلى ماله غداً أو بعد غد .. كلا! ولكنه مع ذلك لم يرنى ، لأنى لم أذهب إليه ، لامستقرضا ولا زائراً . وفى أحد الأيام جاء القاهرة

أحد الكبراء وكان صديق، فسأل عنى ، ولاأدرى كيف تعرف صاحبنا التاجر على ذلك الكبير وكان التاجر قد اطمأن بمضى المدة على جيبه وماله منى ، فتطفل على الزائر الكبير وصحبه إلى منزلى ، ولكنه كان يخشى أن أعاتبه أمام الضيف الكبير فما كان منه إلا أن أخذ يقص علينا سبب انقطاعه عنى واضطراره إلى الابتعاد عن الاتصال بى ليبرر فعلته معى فقال إن الشرطة كانت قد دهمت داره واقتحمت مكتبه بسببى . فتعجبت من خصوبة ذهن هذا الرجل وسرعة إرتجاله الكذب، فتظاهرت أمام الزائر الكبير بتصديق مازعمه التاجر البارع، ولكنى بيت له أمراً ...

الانتقام

وبعد ذلك بيومين كنت أسهر عند صديقى الأستاذ سيد ابراهيم الأديب الشاعر ، وهو المعروف بجمال الخط وكمال الخُلق ، فحدثته عما كان من «صديق التاجر» فكاد لايصدق الحكاية لغرابتها ، وقال لنفرض إنك احتجت إلى ماله واستقرضت منه فماذا عليه فى هذا وهو غنى والناس بالناس . فذكرت له حكاية اختلاق مسألة البوليس معه ، فدهش وغضب فقلت له لا عليك واسمع هذه المحادثة التليفونية ...

وتناولت سماعة التليفون فأيقظت « صديقى التاجر » من نومه وقلت له إننى على موعد غداً مع رئيس الوزراء لأمر من الأمور وإنى أريد منك أن تخبرنى عن تاريخ اليوم الذى فتش فيه البوليس مكتبك وبيتك بسببى ، فقال لماذا ؟ فقلت لأن رئيس الوزراء كان قد أطلقنى وحمانى ليس فقط من البوليس بل من بريطانيا أيضاً، فكيف يجرؤ البوليس على إزعاج الناس بسببى مع انى موجود أمامه وهو يعرف بيتى ، فلماذا يفتش بيوت الناس من أجلى ولا يتعرض لى أنا ؟ فقال إن المسألة قد انتهت بسلام ومرت عليها الأشهر فلا حاجة إلى إثارتها من جديد ، فقلت إن هذا يخصنى أنا . كما أن التفتيش الذى جرى معك لما يسىء إلى سمعتى وينفر الناس منى خوفاً على أنفسهم فيزوون عنى ، فيجب وضع حد لاستبداد البوليس مع الناس . فقال ولكن المسألة على كل حال قد انتهت. فقلت كلا لأنهم سيزعجون الغير بهذه الحجة وأكون أنا الضحية والسبب فى إزعاجهم ، فلابد من إبلاغ الأمر إلى رئيس الوزراء غداً وهو بلاشك

سيغضب ويأمر بالتحقيق معهم وسيكون عقابهم شديداً ، وبذلك أنتقم لك منهم أيضاً . فقال أنا متنازل ومسامح، فقلت هذا حسن منك بلاريب، ولكن بما انى أنا المقصود بذلك الإزعاج الذى نالك فمن الواجب أن أضع له حداً ، ولذلك أرجوك أن تخبرنى عن تفصيل الحادث ! وعند ذلك وقع الانهيار المنتظر فى أعصاب صديقى المذكور، وأخذ يستعطفنى من أجل الكف عن ملاحقة هذه القضية . وقال أنا دخيل عليك وأرجوك أن تغض النظر، فشددت وهددت فأخذ يعترف بالحقيقة وحلف بالطلاق أن الحادثة لا أصل لها ، وأن بيته لم يفتش ولا دكانه أيضاً . فقلت له ولماذا تختلق هذه الحكاية؟ فسكت وكرر الرجاء لوجه الله بأن أتركه ، فتركته ...

تعليق لا بد منه

هذا واحد كان من أعز الناس عندى اخترع أغرب الوسائل ليسوغ تنكره لى ، وهو يظن أنه حفظ بهذه البراعة ماله حتى لا أستقرض منه، أو أستعين به كما صور له الوهم والخيال. ولكن ماذا لو استقرضت منه وهو صديق ، وما معنى الصداقات إذا كان الصديق لا يستعين بصديقه ؟ لقد خطر لى أن أعطى هذا الصديق العاق درسا فى الرجولة والوفاء فأبلغ الحادث إلى رئيس الحكومة فعلا فيأمر بالتحقيق مع رجال البوليس المزعومين فيتضح للحكومة كذبه فينكر أنه اتهم البوليس بشىء ، فأستشهد بالذين حضروا حديثه فيشهدون عليه ، فيحال إلى محكمة الجنح لافترائه على رجال الشرطة فيحكم عليه بالحبس ... ولكنى صرفت النظر عن ملاحقته فتركته متقززا مترفعاً . وإلا فكيف يجوز لرجل ادعى صداقة آخر فصدقه، أن يدير له ظهر المجن فى أيام شدة، ثم لا يكتفى بذلك الوزر فيلجأ إلى أرخص الأساليب ليبرر فصم ما أمر الله به أن يوصل . أنا ما كلفته شيئاً ، فلماذا يستعجل ويبدأنى بالقطيعة؟ بل نفرض أننى استعنت بماله ، فما أنا بأول صديق فى الدنيا استعان بمال صديقه، فهل يليق بصديق غنى أن يبخل بالرفد المالى على صديق نكب ، وهو يعرف كذلك أن صديقه نكب فى سبيل الله ، وبسبب عداوته للاستعمار الذى يظلمه هو أيضاً ، ويستعبد وطنه ويذل أهله وأقاربه . فهذا الرجل لم يكتف بخذلانه لصديقه بل اتبع ذلك باختلاق حكاية تفتيش الدار والدكان ليمين عليه أيضاً ويظهر أمام الناس بمظهر الشهيد !

وأصدقاء غيره

إن نكبة الاستعمار لى بالقبض والحبس وماتلاه من بلاء لم يكن بالشيء الوحيد الذى نكبت به، بل نكبت أيضا بفقد أصدقاء أعزاء لاعداد لهم، لأن الشدائد كشفت عن خلائقهم وأظهرت معدنهم الحقيق فكانت فاجعتى بضياعهم عظيمة، وأعظم من فقدهم بالموت. فليتهم ماتوا أو ليتنى مت وفارقت هذه الدنيا حتى لا أفجع بهم وأرزح تحت ألم موتهم المعنوى . وسيرى قرائى فى هذا الكتاب من حوادث خذلان الأصدقاء، ولؤم بعض الناس أكثر مما قرأوا !

لقد كنت أتألم منهم ولاأزال إلى اليوم أتألم وأشعر بالأسى والأسف على العمر الذى أضعته خدمتهم والإخلاص لهم ، فلم يبادلونى إخلاصا بإخلاص ولا ودادا بوداد .

الصداقات العالية

إنها هى التى رأيتها فى أيام المحنه ونعمت بها إلى جانب ذلك العذاب الأليم ، وإنى أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الدكتور مصطفى بك البشناق الذى خصص نفسه وماله فى مساعدتى وآل بيتى فى أيام السجن والهرب والاختفاء. وقد رأى القارىء فى خلال هذه المذكرات كيف وقف معى وكيف كان المجلى فى مواساتنا ، وكان يعرض نفسه للخطر من أجلنا ، فكان جريئا شجاعا نجادا وكان لا يبخل بمال ولا يبالى بالأخطار ، فلولاه مااستطعت مواصلة الاختفاء من وجه الإنكليز .

وهناك الصديق الكبير أحمد حلمى باشا الذى لم يدع وسيلة للإفراج عنى إلا سلكها ، ولا بخل بمال من أجلى ، وكان على دين مستحق للبنك الزراعى فى فلسطين فكان يسدد فوائده من ماله الخاص ، ثم يكتب لى بأنه سدده من رصيد لى وجده فى حسابات البنك ! كان يقول ذلك حتى لا يمن على ولا يجرح إحساساتى ، كما أمدنى بالكثير من ماله الشخصى ثم جعل إدارة البنك الذى سمى بعد ذلك ببنك « الأمة العربية » توقف سريان الفوائد على الدين حتى لا يستغرق وفوائده « بيارتى » الصغيرة فى وادى حنين بفلسطين المرهونة عند البنك ، فلو كانت مرهونة ببنك عبد الحميد شومان مثلا لباعها بالمزاد أو كان يأخذها لابنه العزيز ...

السيد الجفرى

وجاء مصر فى تلك الأيام من بلاد «لحج» فى جنوب اليمن صديق السيد عبد الله بن علوى الجفرى، سيد تلك الجهات ووجيهها فى النبل والشرف، لا بالغنى والثروة، لأنه ليس من الأغنياء الكبار، بل من أغنياء النفوس الكبار، فهذا الأخ بحث عنى لما جاء مصر، وبادر إلى بيتى وقدم لى خمسمئة جنيه مصرى قرضاً حسنا لأنفق منه إلى أن تنتهى الحرب، وإن احتجت إلى أكثر تقدم بأكثر، وقد قال لى وهو يقدم لى ماله بخفر وحياء «أنت الآن بلا عمل وخارج من مصيبة، كما أن الحرب قد تطول، فالأمة العربية يجب عليها أن تعينك لأنك نكبت فى سبيلها ولو أردت الدنيا لما حبست ولا نكبت ولكان المال يجرى تحت قدميك»، وهكذا فإن السيد الجفرى قد جمع فى كلامه وماله بين مكرمتين، كرم الفعل وكرم القول.

السيد عبد الله الجفرى
وهو الآن مستشار لسلطان لحج

وكذلك ابن عمى وصديق الدكتور حسنى الطاهر فإنه لما درى وهو فى الحجاز بحبسى عرض علىّ كل ماله وأنا محبوس، ولما عرف بالإفراج عنى هنأنى من مكة برقياً وأصحب تهنئته بقرض حسن بلغ أربعمئة جنيه، ولو طلبت المزيد لأرسل أضعافه.

وأظن القراء يتذكرون كيف ان الدكتور حافظ باشا عفيفى قد عرض على أهل بيتى حين كنت فى السجن ما يحتاجون من مال، وبعث لى مع الدكتور مصطفى بك البشناق وأنا هارب بأنه مستعد لإرسال كل ما أحتاج إليه. وأنطون باشا الجميل قدم لى يوم لقينى عند النحاس باشا برياسة مجلس الوزراء جميع ما كان فى حافظته من مال، وكان قبل ذلك يذهب إلى وزارة الداخلية يسأل عن حالى ويريد الإذن من الحكومة بتقديم كل ما أحتاج إليه.

وهكذا فإن تلك الشدائد قد كشفت عن معدن بعض الرجال، فأين الذين هرعوا إلىّ بأنفسهم وأموالهم، من الذين بخلوا بالتحية بعد صداقة العمر ومودة الدهر!

إذن فقد كنت وأنا أتألم من الإنكليز وما أنزلوه بى من تنكيل ، كنت أتألم أيضاً من بعض الأصدقاء . ولكن الألم من هؤلاء كان أكثر تبريحاً وأشد إيلاما . ومما كان يزيد فى الحسرة والكمد أن هذه المنغصات كانت تصدر من أعز الناس ، وكانت تصدر وأنا مقيد مكبول ، مكسور القلم محبوس اللسان ، ولكن كان يخفف عنى أن الناس فى كل الدنيا هم هم فى كل عصر ومصر ، النفسية هى هى والسجايا لا تتغير !

سوء الحظ

بلغنى بعد الإفراج عنى بمدة طويلة الحادث الآتى الذى أدونه هنا تسجيلا لفضل صديق كريم وفىّ سيظل اسمه مجهولا عند الناس بسبب ظروفه الرسمية ، ولكن فضله سيبقى معروفا عند الله برغم كل قيد ...

وحكاية ذلك أن صديق — وهو موظف فى الحكومة — كان فى إحدى الساعات قبيل القبض علىّ عند مدير مكتب رئيس الوزراء — وكان المدير يسمى أحمد صديق بك — والآن أحمد صديق باشا — وهو من كبار الماسونيين ومتزوج من يهودية ، فسمع صديقى محادثة تليفونية تجرى بين صديق بك وبين حمدى محبوب وكيل الداخلية القابض على الأمن العام حينذاك يقول فيها حمدى باشا لمدير مكتب الرئيس : جاءنا أمر من السلطة العسكرية البريطانية بحجز شخص اسمه محمد على الطاهر فهل يهمكم أمره ؟ فقال مدير المكتب لا ! فاكتفى حمدى بهذه الكلمة ثم وضع السماعة معتبراً هذه المحادثة إذناً من رئيس الوزراء بالقبض علىّ ... أليس انه قبل تنفيذ أمر الإنكليز قد كلم فيه مدير مكتب رئيس الوزراء ...

أما صديق الذى سمع هذه المحادثة عرضاً فإنه بادر إلى المجىء لمكتبى ليحذرنى مما يبيت لى فوجد المكتب مغلقاً ، فسأل البوابين عنى ، فقالوا له إننى مسافر .. فعاد صديقى أدراجه وهو يعتقد اننى شعرت بالمكيدة قبل ذلك وانى تواريت عن الأنظار .

فلما قص علىّ صديقى هذه الحكاية بعد زوال المحنة وهو يستغرب سرعة وقوعى بعد ذلك فى قبضتهم ، أخبرته بما يتمم قصته ، وهو أننى لم أكن أدرى بشىء مما بيتوا لى ، وأننى ذهبت فى ذلك اليوم إلى رأس البر أنتجع هواء رطباً وجوًّا غير جو القاهرة وأنى لم أجد هناك

ما أبتغى فعدت من حيث أتيت . إذن فلولا غيابى فى ذلك اليوم عن القاهرة لعرفت بما نواه الإنكليز قبل أن ينفذه محبوبهم حمدى، وكنت بلاشك أغادر القاهرة فوراً، بل كنت أستطيع مغادرة البلاد بكل سهولة ، لأن قيود السفر لم تكن شديدة أيامها بالقدر الذى صارت إليه بعد ذلك .

أخبار الحرب وانكسار الألمان

تحولت الحرب بعد معركة « ستالينغراد » وأخذت جيوش الألمان تتراجع وتنكمش ، وسارت جيوش الروس من نصر إلى نصر ، فانتعشت انكلترا بفضل أميركا ، واستأسدت هولندا . وتنمرت فرنسا ، وصرنا نسمع صوتها الكريه وشقشقتها المعتادة ...

وتم انكسار الطليان واستسلامهم بعد أن غدروا بزعيمهم موسولينى وأصبحوا يشتمونه بعد أن كانوا يعبدونه ، فبرهنوا على خطة لا يمكن أن تكون عند أحط الأمم .

بل إن الطليان قد أعلنوا الحرب بعد ذلك على ألمانيا ! ولا عجب فسوابق الطليان فى الغدر والانقلاب على حليفتهم ألمانيا معروفة ، أليس أنهم فى الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ قد خذلوها ثم انقلبوا عليها وحاربوها ؟

لقد كان من سوء حظ الألمان أن تكون إيطاليا حليفتهم ، لأنه ما كسرهم فى الحربين إلا محالفتهم للطليان ...

وبعد انكسار إيطاليا ألقى الأميركيون القنابل الذرية على اليابان فدمروا مدينتى «هيروشيما» و « ناجازاكى » تدميراً تاماً وهلك جميع سكانهما فلم يسع اليابان إلا الاستسلام .

وبقيت المانيا تقاوم ، ولم تستسلم إلا بعد أن قتل فيها كل رجل قادر على حمل السلاح ، وبعد أن دمرت جميع مدنها ، وبعد أن انتحر زعيمها العجيب الفذ « هتلر » حتى لا يقع بأيدى الأعداء، وستكون ميتته على هذه الصورة الكريمة مبعث حياة وشرف لألمانيا أبد الدهر.

وكان لانكسار ألمانيا صدى حزن عميق طبق أرجاء العالم وهز الدنيا كلها ، أسفا على أمة متمدنة لم تر الدنيا مثلها منذ خلق الإنسان ، وحزناً على شعب باسل كريم أصيل وقع فى أيدى أعداء على أعظم درجة من النذالة والضعة، فقد انتقموا من الشعب الألمانى شر انتقام، فاحتلوا بلاده ومزقوها على وجه خبيث رهيب ، وبرحوا بأبطاله ورجالاته على وجه خسيس

لئيم . وغدروا بمارشالاته وجنرالاته وصناديده وقتلوهم شنقاً وخنقاً . وهو عمل دنئ لم يسمع التاريخ بمثله من دولة منتصرة مع دولة مقهورة . ولم يكتف الإنكليز والحلفاء بهذا الانتقام الوحشى المجرد من الإنسانية والشهامة بل جردوا الشعب الألمانى من أمواله ومنقولاته ومحصولاته ، ونقلوا المصانع الألمانية إلى روسيا وانجلترا وفرنسا ، ولم يتركوا تلك الأمة إلا معروقة العظم ، عارية جائعة لا تجد المأوى إلا فى الخرائب وبين الأطلال . والويل للكريم إن وقع فى يد اللئيم .

أما أنا شخصياً فقد وقع انتصار الحلفاء علىّ وقع الصاعقة ، وكدت أصاب بنقطة تقضى على حياتى ، وأخذت أضرب كفاً بكف يأساً وكمداً ، لأنى أفهم من معانى انتصار الإنكليز أشياء كثيرة ، ويكفى منها بقاء الاستعمار فى الدنيا على صورته البشعة وأساليبه المروعة ، فالإنكليز سيبقون فى مصر والهند وفلسطين والعراق والأردن والملايو وعدن وزنجبار وطرابلس وبرقة وحضرموت ومسقط وجميع إمارات الخليج وبقية المستعمرات ، وسيساعدون فرنسا على البقاء فى المغرب ، ويساعدون هولندا فى أندونسيا ، وستصير فلسطين طعمة لليهود . والويل للعالم العربى من انجلترا ، والويل للأمم الضعيفة مادامت هذه الدولة موجودة فى الدنيا ، فهى أم الاستعمار وبؤرة العدوان، ومثار الحروب ، فمنها تنبعث المشاكل التى تنغص هناء العالم وتقض مضاجع الأمم وتهدد أمنها، فمن انجلترا تصدر المؤامرات وتبذر بذور الحرب فى جميع أنحاء الأرض . والويل منهم لسكان هذه الأرض .

من أخبار الظالمين والمظلومين

من أوقع ما قرأت من إهانة الظالمين وشماتة المظلومين ، أن الوليد بن عبد الملك أمر عمر ابن عبد العزيز واليه على الحجاز بأن يوقف هشام بن إسماعيل الوالى السابق وينادى فى الناس أن يمروا به ويذكروا شكاياتهم منه ، لأنه كان مؤذيا لآل البيت وخصوصا علىّ بن الحسين وآله من بنى الرسول ، فلما مر به علىّ نظر إليه ولم يكلمه ولا ذكر ظلمه له ولا وبخه ، بل تفرس فيه ومضى فى طريقه . فلم يسع ذلك الظالم بعد أن صغرت نفسه إلا أن ينادى ضحيته قائلا : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . فالما ذلك الظالم لأن ترفع حفيد النبى عن الانتقام جعله يذوب ندما وحسرة .

رياض الصلح

استقلال سورية ولبنان

كان ضغط حالة الحرب على الحلفاء وخوفهم من ثورات تهب عليهم فى الشرق الأوسط، قد حملهم على إعادة النظر فى حالة هذه النواحى، فجعلوا فرنسا ترضى بإنشاء حكم فى سورية ولبنان يرضى عنه الأهالى.

وقدجرت انتخابات حرة أسفرت عن فوز الوطنيين وكتل المجاهدين، ففاز صديق وأخى شكرى القوتلى وجماعته فى دمشق وانتخب رئيساً للجمهورية السورية، وفاز الشيخ بشارة الخورى وجماعته فى لبنان فانتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية، وتعين أخى وصديق الحميم رياض الصلح رئيساً للوزارة.

أخى رياض

كان وقع أنباء نجاح لبنان بنيل استقلاله فى نفسى غير وقعه فى نفوس الناس جميعا فهؤلاء فرحوا باستقلال لبنان فقط، وأما أنا فقد فرحت بذلك وزدت عليهم بأنه نجاح لجهاد صديق وأخى رياض بك الصلح الذى أصبح رئيسا للوزارة اللبنانية.

هذا أخ وحبيب وصديق العمر وزميل الجهاد قدأصبح رئيسا للوزارة، فياله من حادث نادر عظيم، وأى حادث أعظم وأجل من أن أعيش وأرى أخا وحبيبا يكافئه الله على جهاده وبنيله مبتغاه، ثم يصبح حاكما على وطنه المستقل بعد أن كان طريداً فى سبيله، مشرداً عن مسقط رأسه. وكان ذلك الوطن مستعبداً معذبا فأصبح عزيزاً مستقلا. يالفرحى ويالطربى. ويالزوال أيام اضطرابى وقلقى، ويا لإعتزازى بأخى رياض « صاحب الدولة اليوم » بعد أن كان الافرنسيون يقولون عنه «المدعو فلان» فكنت أغضب منهم وأكيل لهم، وقد بادرت بإرسال التهنئة إليه مع أحد الأصدقاء. ودارت الأيام وقالوا إن « حضرة صاحب الدولة رياض بك الصلح رئيس الوزارة » سيجىء إلى مصر لزيارتها وتقديم الشكر لجلالة الملك فاروق على موقفه العظيم فى نصرة لبنان يوم اعتدت فرنسا عليه وحبست رئيس الجمهورية ورياض معه فازداد فرحى.

إذن فرياض سيبتهج ويرقص يوم يلقانى وألقاه، وسنستعيد ذكريات الماضى، حين كان

يجيء إلى دكانى سنة ١٩٢٠ بخان الخليلى ونأكل الفول المدمس والطعمية ، وسنضحك كثيراً عند ما نذكر أيام « إدارة الشورى فى شارع عبد العزيز » ونستعرض ما كان يدور بيننا من رسائل وهو فى باريس وجنيف ولندن ، ونتحدث عن أيامنا الخوالى فى بيروت والاسكندرية والقدس والقاهرة ...

برنيطة وزير الخارجية وعجائز بوشنج

وزارنى فى دارى الدكتور عبدالله اليافى بك رئيس وزارة لبنان الأسبق وكان يزور القاهرة، فقال إنى عائد غداً إلى لبنان فماذا تريد أن تقول لرياض ؟ فقلت سلم عليه وقل له أن يوصى وزير خارجية لبنان بأن لا يجيء إلى مصر بالبرنيطة ! فضحك وقال ثم ماذا ؟ فقلت وأن لا يتوقع رياض وجودى فى المحطة يوم وصوله لأنه سيستقبل رسمياً بواسطة الحكومة فلا أستطيع فى ظروف الحاضرة أن أغشى المجتمعات الرسمية أو الاتصال بالرجال السياسيين القادمين من الخارج ما دامت الأحكام العرفية واقفة لى بالمرصاد ، ثم قلت : وماذا على رياض ان نقصت أنا من بين المستقبلين وهم ألوف ، فيكفيه أننى كنت أستقبله بالأمس يوم كان منكوبا وكان أصحاب الحكم يطاردونه أو يبتعدون عنه ولا يردون زيارته إن زارهم ، بل ويمتنعون أحيانا عن مقابلته، فيكفيه سرورا أن يدخل القاهرة الآن بموكب رسمى بعد أن كان يدخلها كالبازى عليه سواد... وعلى كل حال فإنى سأقف فى شارع ابراهيم باشا بين الجماهير لأتفرج على موكبه الرسمى وسأنوب عن عجائز بوشنج [١] فى ذلك اليوم وأصفق له ...

وصول رياض لمصر

ولما دخل رياض القاهرة فى موكبه الرسمى المشهود كان يجيل نظره فى وجوه الألوف إلى أن رآنى فمديده من نافذة السيارة ولوح لى بها ولسان حاله يقول « لقد فقشتك » من بين الألوف...

---

(١) لما فتح عبد الله بن طاهر بلاد خراسان ودخلها بموكبه المنتصر أخذه الزهو والفرح فتذكر قريته « بوشنج » وكان قد خرج منها طفلا فقيراً، فتمنى وهو فى موكبه لو رأته عجائزها وهو فى ذلك العز فقال كلمته الخالدة « ليت عجائز بوشنج يريننى » وكان رياض بك يحب هذه الواقعة ويذكرها فى أحاديثه ورسائله، ولذلك كلفت الدكتور اليافى بك أن يذكرها لرياض فهى نكتة لطيفة وقد آن أوانها...

وفى اليوم الثانى كلفت صديق الدكتور مصطفى بك البشتاق بأن يذهب إلى قصر الزعفران حيث نزل رياض ضيفا على الحكومة ، وأن يبثه أشواق وأن يطلب منه موعداً أنتظره فيه إما بمنزلى أو فى أى مكان آخر ، بشرط ألا يكون قصر الزعفران الحكومى الرسمى ، فقال رياض إنه لا يستطيع اليوم تحديد الوقت ولا تعيين المكان بسبب انشغاله الآن بالمراسم الرسمية ، ولكنه بعد يومين سيعين الزمان والمكان . ومضى أسبوع ، فكلفت ابن عم لرياض بأن يسأله : فجاءنى يقول مهلا فالحفلات كثيرة والوقت ضيق ...

ومضى أسبوع آخر ورياض « هايص » يزور من كانوا يترفعون عن استقباله ، ويلبى دعوات من كانوا يتجاهلون وجوده ويأبون رد زيارته ، ولكنهم أقبلوا عليه اليوم لأنه أصبح « صاحب دولة » ولكونه ضيف الملك . وهذه عادة الناس مع الناس منذ الأزل ، يقبلون على من تقبل الدنيا عليه ويدبرون عمن تدبر عنه .

ومضى أسبوع ثالث ورياض مسرور سعيد يتقلب فى حفلات الترحيب والتكريم فى الأندية والكازينات والسرايات والقصور ، ويزور إدارات الصحف وأرباب الوجاهات وغير هؤلاء ...

فكنت أقول لابن عمه : ولكن متى نرى رياض بك ؟ فيذهب يسأله ثم يعود ويقول مهلا ولابد أن يراك فهو مشتاق أكثر من شوقك إليه ...

ثم كتبت إليه رسالة أرسلتها مع صديق الدكتور بشتاق بك قلت له فيها إن انتظارى قد طال ، وشوقى يشتد ، وذكرت له بيتا من الشعر كان رياض يحبه ويكتبه لى فى رسائله كلما فكر فى المجىء إلى مصر ، أو كان قريبا من مصر ...

وأكثر ما يكون الشوق عندى إذا دنت الخيام من الخيام

وكتب لرياض : إن ابن عمك أبلغنى دعابة لطيفة عنك وهى أنك « تهددنى » بالمجىء إلى دارى بالسيارة الرسمية وأمامها البوليس يفسح لها الطريق بالنفخ فى الصفارات لتلفت إلى الزيارة أنظار الناس ، فليتك تفعل ليتك تفعل ، لأن مثل هذه الزيارة تكون مشرفة لى وهى فى هذه الظروف ترفع من قدرى ...

وماذا في هذا ، إن رياض قد ذهب بالسيارة الرسمية وبالصفارات إلى دار توفيق مفرج الذى لم يكن صديقه بل كان يكرهه ، وكان رأيه فيه غير مجهول ، فلم لا يجىء عندى أنا بمثة صفارة ؟ ولكن رياض شم رائحة صداقة — أو توهم أن هناك صداقة بين مفرج ورئيس الحكومة فهرع إلى دار مفرج ، لينفعه عند رئيس الحكومة ...

ولكن نظريته لم تصب ، لأن تلك الزيارة جلبت عليه أنواع القيل والقال ، وجعلت توفيق مفرج يطمع فى منصب الوزير المفوض للبنان فى مصر ، فوسط أناساً أحرجوا رياض بك وهو يرفض ، وكادت تقع بسبب تلك الزيارة أزمة بين مصر ولبنان[1] .

انتظار !

عاد الدكتور مصطفى بك يقول لى : إن رياض يسلم عليك وسيزورك الليلة فى دارك ، فلا تبرحها من بعد العصر وانتظره ولو إلى منتصف الليل ، لأنه سيغتنم فرصة فى أثناء ذلك ويأتى إليك مع أحد أبناء عمه الذين يعرفون الدار ، وقد أخذ رياض مع ذلك عنوانك من قبيل الاحتياط ، فكان فرحى بهذا الموعد عظيما . وأمضيت ثمانى ساعات وأنا أنتظر ، وكلما دق أحد جرس الباب ظننته رياض بك فأركض وأفتح الباب بنفسى ، ولكنه ليس هو فأعود إلى الانتظار ... وكنت فى خلال ذلك أجهز فى ذهنى المواضيع التى سنتكلم عنها ، فأسأله عن الأمير شكيب وأخباره ، ويسألنى عن حالى فى أيام الحرب ، وأبسط له قضية فلسطين ورأيى فى إنقاذها واقتراحاتى العاجلة فى إسعافها . وكنت أقول فى نفسى : إن رياض سيسألنى عن حالتى المالية ، فأقول له إن علاجها بإيجاد عمل أقوم به فى لبنان ، فيقول لى هيا إلى لبنان ، وإن لم تقم بعمل رتبت لك الحكومة الوطنية مرتباً شهرياً إلى أن تنتهى الحرب ثم تصدر جريدتك ، فأعتذر له عن قبول المرتب كما اعتذرت للحكومة المصرية منذ شهور ،

(١) ثم وقعت الأزمة فعلا واشتدت ، وخلاصة ذلك أن توفيق مفرج حظى بصداقة وثقة من النحاس باشا فدفعه الطمع إلى توسيط الباشا عند رياض ليعينه وزيرا مفوضا للبنان فى مصر بحجة أنه لبنانى ! فأخذ النحاس باشا بظاهر كلامه وتوسط ، ولكن رياض أخذ يماطل وهو لا يستطيع أن يذكر السبب ، ولكن توفيق برهن على أن رياض كان متعنتاً فى مطله بدليل أنه زاره فى داره ، ولولا لياقته لمنصب الوزير لما زاره.

فيقول رياض : إذن فهاك مثلا هذه الألف جنيه دعها معك تنفق منها إلى أن تنتظم أحوالك، فأشكره وأقول له بل معى الآن خمسمئة أقرضنى إياها السيد عبدالله الجفرى ، كما أن صديقك ابن عمى الدكتور حسنى قد أرسل لى أربعمئة جنيه ، فيقول رياض بل أنا أولى وأعتق فى الصداقة والزمالة ، فأقول له شكراً ، فأنا بخير ...

وكنت أتصور أخى رياض يدق الباب فأفتح له وأعانقه ويعانقنى ، ثم يبكى سروراً وأنا أبكى حبوراً ، ولم لا ؟ إنه صديق الدهر وزميل النضال ، ولم يخطر لنا على بال أن الله سبحانه وتعالى سيطيل فى أجلنا لنرى جزءاً من الوطن العربى ينجو من الافرنسيين وأن يكون رياض رئيساً لأول حكومة مستقلة فيه . ثم تصورت أن رياض سيجىء إلى دارى متأبطاً لعبة لابنى « الحسن » أو علبة حلوى ، ويقول لى أين هو هـذا الحسن الذى جاء بعد أن انتظرناه ربع قرن ، فأقول له إن عمره سنة واحدة ، وهو الآن نائم ، فيقول رياض لابد من أن أراه ويجب إيقاظه ..

أمانى وآمال

ثم تصورت أن رياض سيقول : يجب على كل حال أن تجىء إلى لبنان لأعمل لك فيه ترضية تنسيك مطاردة فرنسا لك ، فتزورنى فى رياسة الوزراء فأبعث لك عند الباب حرس الشرف « ليضرب لك سلام حازدور » فضحكت من هذه النكتة ، ثم قلت فى نفسى ولم لا ؟ وأى غرابة فيـه ، إن رياض يعرف أننى فى اكتوبر ١٩٣٧ قد حجزت بالباخرة فى ميناء بيروت وأنا ذاهب إلى مؤتمر بلودان ، ولما بلغ رياض الخبر أرسل لى إلى الباخرة ورقة يقول فيها : « إن عقله قد طار لما سمع ان أبا الحسن فى مياه بيروت ومنع من النزول إلى المدينة » نعم لقد حصل ذلك ولا تزال ورقة رياض بخطه موجودة عندى ، ولولا أن الخبر وصل بالتلفون إلى حكومة سورية فتوسطت لدى الكونت دى مارتل المندوب السامى لعدت فى نفس الباخرة إلى الإسكندرية.

وهناك حادث أكبر من هـذا يسوغ لى أن أنتظر بسببه من رياض وهو رئيس وزارة أن يصفّ لى الجند على الميناء أيضاً وليس بباب دار الحكومة فقط ، وذلك اننى ذهبت أصطاف بلبنان بعد ذلك بسنة ، وبالتحديد فى سبتمبر ١٩٣٨ ، وبينما كان رياض يزورنى بفندق شاهين ،

وكان عندى يومها خليل بك مطران أمير الشعراء وبهيج بك الجوهرى من أعيان صيدا ـ وهو ابن خال رياض ـ وإذا بوليس الأمن العام يجىء إلى الفندق ومعه أمر من المفوضية الفرنسوية العليا ببيروت بتكليفى بالخروج من لبنان ، وقد حصلت مشادة بينى وبين السلطة الفرنسية ورفضت الخروج إلا بالقوة ، وكانت النتيجة أنهم أبعدونى عن لبنان بحضور رياض الذى انكسر خاطره أيضاً وهو يرى صديقه وضيف البلاد بل أحد أبنائها يبعد أمام عينه على تلك الصورة الاستعمارية الفظة القاهرة. إذن فهناك أسباب توجب على رياض أن يعوضنى عن تلك المطاردة ، ومن حقى أن لا أستغرب من الحكومة الوطنية أن ترضى خاطرى وتصف ثلة من الجند لتحيتى وهى مستقلة فى مقابل ثلة الجند التى مشت بى فى أيام الاحتلال إلى الميناء مطروداً من لبنان !

تحسين العسكرى وعزيز المصرى

ومضت ساعات ، ولكن رياض لم يجىء ولا إندق الباب ، فقلت فى نفسى ألا يجوز أن يكون رياض قد حسب حساباً لغضب الإنكليز إن هو زارنى ؟ ولكن لماذا يخشاهم وهو ليس تحت سلطانهم ، بل لنفرض أنه كذلك ، ونفرض أننى فى السجن أيضا ، فمن واجب رياض أن يسأل عنى ، وأن يخاطب الإنكليز فى شأنى ويطلب الإفراج عنى ، وإذا كان الصديق لا يهتم بصديقه فى أيام الشدائد فمتى يهتم به إذن ؟ ومع ذلك فأنا لست مسجونا ، ولكنى انزويت منعا للقيل والقال ، ولنفرض أن الإنكليز يغضبون من هذه الزيارة ، فماذا فى هذا ؟ ألم أساعد رياض ضد فرنسا فى أيام كانت تتسلط فيها عليه وعلى لبنان ؟ ألم أزر رياضاً فى لبنان أمام عيون الإفرنسيين وكنت أعاديهم وأدافع عنه فى جريدتى فغضب الإفرنسيون وكرهونى ، فتارة كانوا يمنعونها من دخول لبنان ، وتارة كانوا يمنعوننى أنا ، وفى آخر مرة أخرجونى من لبنان بقوة بوليس الأمن العام سنة ١٩٣٨ وكان رياض يومها يزورنى فشهد الحادث بعينه ...

على أن الفارق غير قريب بين ظروفى وظروفه ، فهو الآن رئيس حكومة وله شخصية رسمية وسياسية ، فالإنكليز يستحون منه ويجاملونه ويخطبون وده ليكون معهم ضد فرنسا ..

أكان يتخلى عني؟

ولكن ما هذه القياسيات البعيدة عن الموضوع ، والتى لا يوجد تناسب بينها وبين ظروفنا الآن، بل لو فرضنا أن لبنان واقع تحت الحماية الإنكليزية وجاء أخي وحبيبي رياض « رئيس حكومة لبنان وصاحب الدولة » وسمع أنني فى السجن البريطاني فمن الواجب أن يتوسط للإفراج عني ، وإن رفضوا طلبه كان عليه أن يطلب زيارتي ففيها احتجاج لطيف على حبسي ، وإذا كان مثل صديق وأخي رياض لايصنع ذلك فمن أنتظر ذلك ؟ إن تحسين بك العسكرى لما كان وزيرا للداخلية العراقية قد زار مصر فى أيام حبس بريطانيا لصديقه عزيز باشا المصرى فتوسط لدى الإنكليز للإفراج عنه ، ولما تعذر ذلك طلب زيارته فلم تمانع السلطة الإنكليزية فى تلك الزيارة التى تمت بدون أن يقع شيء فى الدنيا يوقف دورة الفلك !

إذن فرياض لن يعدل عن زيارتى لأنى غير سجين ، وسيجيء لا محالة...ودقت الساعة اثنتى عشرة دقة مؤذنة بانتصاف الليل ، ولكن رياض لم يجيء ، ولم أسمع جرس الباب ولا النقر على الزجاج . بل إنى قدحسبت حسابا لأكثر من ذلك ، إذ نبهت على البوابين وعامل المصعد بأن لا يبرحوا باب العمارة وأن ينتظروا قادماً ، ولكن رياض لم يجيء ...

ودقت الساعة دقة واحدة مؤذنة بدخول اليوم التالى ، وهدأت الشوارع وسكنت الحركة ، ونامت الكائنات إلا أنا ، فقد كنت ساهراً أرقب الصديق ، فما كنت أسمع دوى محرك سيارة فى الطريق إلا أطللت من الشرفة ، ولا سمعت ركزا إلا تطلعت من النافذة ..

ولكن أخى رياض لم يصل ، إذن فهو لن يجيء ، فقد أوشك الفجر أن ينشق عموده فمن المستحيل أن يجيء ...

قصيدة الأمير عادل أرسلان

وفى صباح اليوم الثانى تصورت أن رياض بك سيزورنى مبكرا بدلا من زيارة المساء التى فاتته ، وإنه سيعتذرلى ويطيب خاطرى ويطلب أن يكون طعام الفطور عندى مثل الفطور الذى كنا نفطره قبل ربع قرن فى دكانى القديمة « بخان الخليلى » فأمرت الخادم بأن يجعل بين ألوان الفطور « طعمية وفولا مدمسا » وأخذت أضحك من خواطر قديمة مرت بذهنى فى تلك اللحظة ، هى أيام تلك الدكان العجيبة التى كان يطرقها كل مجاهد وفاضل بعصر

وفى البلاد العربية ، إذ كان من زوارها المرحومون : رشيد بك طليع ، وأحمد زكى باشا، وفؤاد بك سليم، والسيد عبد العزيز الثعالبى، والشيخ محمد بخيت المفتى الشهير ، وأحمد عزت بك الأعظمى ، والشيخ على سرور الزنكلونى ، والشيخ الظواهرى الأحمدى شيخ الأزهر بعد ذلك والشيخ مصطفى باشا عبد الرازق شيخ الأزهر السابق والسيد التفتازانى . وكان من زوار تلك الدكان من الأحياء فخامة السيد شكرى القوتلى ، والحاج أمين الحسينى كلما جاء مصر ، والأمير عادل أرسلان المجاهد « وزير سورية الآن فى تركيا » والمجاهد نبيه بك العظمة وزير الحربية السورية بعد ذلك ومهدى رفيع مشكى بك وغيرهم، وكان الأمير عادل يداعبنى فى تلك الأيام بقصائده اللطيفة ويصف صحن الفتة وطبق المدمس إن قدمت أحدهما لمن يتأخر عندى منهم، ومن ذلك قصيدة الأمير عادل الشهيرة التى سارت مسير الشمس يوم قال من قصيدة طويلة..

هـذا أبو الحسن الذى فى عرفه ... كل المكارم فتة أو فـول
أضحى يجـادل فى القياس تدللاً ... إن الجـدال على الدلال دليل
فيقول إن الفول وهو « محصل » ... خير من العنقاء وهـو الغول
ويقـول آخر إن آخر عهده ... باللحم يوم أتى الحى زغـلول

وقال الأمير فى دعابة أخرى :

فى بحـر زيتك قد غرقنا ... وبليل حبك قد أرقنـا
أسكرتنا بالفـول حتى ... ما درينا هـل أفقنـا

سفر رياض بك

ولما طال انتظارى أفطرت ونزلت إلى المدينة ، فقرأت فى صحف الصباح أن رياض سيسافر اليوم ، فاندهشت وقلت هـذا مستحيل ، لأن مجىء رياض لمصر بعد إقامته فيها ثلاثة أسابيع ثم لا يرانى لما لا يصدقه أحد . فرياض كان يزور مصر من أجلى ، فكيف يجتمع بكل الناس ويزور جميع الناس إلا أنا ، وكيف يطاوعه قلبه على ذلك لا ، لا . هذا مستحيل !

تأملات

كان رياض إذا عزم على زيارة مصر أو المرور بالمياه المصرية يكتب إلىَّ من جنيف أو

من باريس يخبرنى بعزمه على السفر ويطلب منى أن أسافر إلى الإسكندرية لأستقبله ، فلا تصل الباخرة الميناء إلا وجدنى على الرصيف ألوح له بيدى فيلوح لى بيديه الاثنتين ويضع إحداهما على فمه ويقبل باطن كفه، ثم يهز يده فى الهواء كمن يبعث لى القبلة بواسطة الأثير ؟! أليس أنه كان إذا اقترب من مصر كتب لى يبعث أشواقه ويصف لى فروغ صبره على البعاد بالبيتين اللذين أوردتهما فيما سبق عن اشتداد الشوق إذا دنت الخيام من الخيام ؟ .

لا ، لا ، لا يمكن أن يبرح رياض مصر بدون أن يرانى وأراه ، ومستحيل أن يكون جميع الناس حتى توفيق مفرج أعز عليه منى ، لأن هذا على الأقل لا يفكر فى السفر إلى الإسكندرية أو الذهاب لمحطة مصر لاستقباله، ولا كتب رياض إليه ليستقبله فى الميناء ، ولو كتب إليه لسخر منه وأعرض عنه، وإنى أتذكر أننا كنا فى إحدى الليالى نجلس على شرفة الكونتننتال بمصر قبل ٢٥ سنة وكان معنا الأستاذ إميل خورى الكاتب العالمى الشهير وبعض الأصحاب، وإذا برياض يقول « الخطر الخطر ياشباب ، انزعوا طرابيشكم واخفضوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الباب، واسكتوا إلى أن ينجلى السحاب» فنزعنا الطرابيش وخفضنا الرؤوس وتطلعنا إلى الباب صامتين ، خاشعين ! فإذا بتوفيق مفرج يدخل ولا يرانا ، ثم يمضى فى طريقه..فيهمس رياض بعد حمد الله يقول : إرفعوا رؤوسكم واستووا على عروشكم فقد زال الخطر وانفض المشكل ! فنبادر إلى رفع الرؤوس وإعادة الطرابيش ونستوى جالسين باطمئنان ! فيقول رياض « يقصف عمره شو جابه هللاً » أى « قاتله الله ما الذى جاء به فى هذه اللحظة » ثم يقول لو جاءنا توفيق لجلس معنا وأهلك جلدنا بأحاديثه وبلاغة مقالاته إلى الصباح ...

هكذا كان رياض ينظر إلى توفيق ، يتضجر منه ويتبرم به ويفر من مجلسه ، فكيف ينقلب الحال إلى حب وغرام فى لحظة لدرجة أنه يفضله علىَّ أنا ، ثم يجد وقتا لزيارته فى داره بموكبه الرسمى ولا يجد وقتاً للقائى ؟ .

إذن فخبر سفره لا أصل له ، ولابد أن رياض سيرسل ابن عمه للاعتذار عن عدم مجيئه فى الليلة الماضية والتوصية بأن انتظره مساء اليوم ...

ابن عمه !

وبعد الظهر عدت إلى منزلى لأتغدى وأستريح . وأنتظر مجىء من يقول لى إن رياض سيأتى الليلة مع الاعتذار عما سلف ...

ولكنى ما كدت أدخل الدار حتى قيل لى إن تقى الدين ابن عم رياض قد جاء الآن فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر يقول إن رياض سيسافر فى الساعة الثانية - أى بعد نصف ساعة ، وأنه يجب أن أهرول إلى المحطة فوراً لأن رياض يريد أن يرانى ...

يعنى أن رياض لم يظهر رغبة « صادقة » برؤيتى إلا الآن وقبيل سفره بنصف ساعة ، على فرض أننى كنت فى الدار وتلقيت الأمر قبل سفره بنصف الساعة ... يعنى أن ثلاثة أسابيع كانت غير كافية لإبداء هذه الرغبة ...

كل شىء فهمته واحتملته ، إلا إرسال ابن عمه على تلك الصورة التى لا أدرى كيف أسميها!

عند ذلك فهمت غرض رياض من كل ما جرى ، فجلست عند المائدة وتناولت طعام الغداء ولا أدرى كيف تناولته ، ثم استرحت وأنا غير مصدق مطلقاً أن أخى الحبيب رياض يعملها ، لأن علاقتنا كانت أوثق وأكثر مما يخطر على البال

ولكن جرائد المساء أيدت الخبر ونشرت نبأ سفر رياض ووصفت وداعه وكيف أنه كان هناك فى المحطة فلان باشا وعلان بك وثلة من رجال الشرطة...

تعزية

كان وقع سفر رياض بك فى نفسى أليما وموجعاً وكدت لا أصدقه ، ولكن الرجل سافر فعلا وترك الخيام تبتعد عن الخيام بدون لقاء ، بعد أن جعل خيامه تلتقى بخيام ما كان أمره يهم أهلها ، وما كان فى حياته يشتاق إلى من فيها ولا اشتاق من فيها إليه ...

ودق جرس الباب فأسرعت إليه بنفسى على أمل أن يكون رياض هو الطارق ، فإذا به ابن عمه الآخر كاظم بك « الذى أصبح عند كتابة هذه السطور وزيراً مفوضاً للبنان فى العراق » فوجمت وصدقت بوقتها أن رياض قد سافر بعد أن كنت أظن أن سفره بدون أن يرانى من المستحيلات ، فرددت فى نفسى قول الرصافى :

ما لهم يرحلون عنى انتزاحا . أَلِجِدٍّ براحهم أم مزاح !

ولكنه جد لا مزاح فيه ، ودخل كاظم بك يقول : يسلم عليك رياض ويعتذر لك عن عدم استطاعته الاجتماع بك قبل سفره لأنه لم يجد فرصة تمكنه من ذلك ...

فقلت له بل أنت آت الآن لتعزيني برياض لأنه بعد فعلته هذه وخيانته لودادي وصداقتي قد انتهى ! فأنا لذلك أعتبر زيارتك لي زيارة تعزية به أشكرك عليها ، لأن المصاب بفقد رياض ليس بالمصاب القليل . رحمه الله!

وسكت كاظم بك واجماً ، لأنه ما كان يجد في نفسه جملة واحدة تصلح لمداواة فعلة رياض ، لأنه كان يعرف ما كان بيني وبين ابن عمه من صلات هي أشد من صلة الأخ بالأخ والشقيق بالشقيق فتذكرت بيتين لشاعر قديم ولا أدري كيف خطرا على بالي :

ونحن ضممناكم « صغاراً » أذلة ... وليس لكم من سائر الناس ناصر
ضممناكم لا نبتغي نصرة بكم ... كما ضمت الساق الكسير الجبائر

حزن

كانت فجيعتي بضياع هذا الصديق الأخ عظيمة بلا شك ، فقد ذهلت وأصابني ما يصيب الشقيق عندما يباغت بفقد شقيقه ، نعم إن حزني لسفر رياض كان شديداً ، وصرت أبحث عن شيء يخفف من آلامي النفسية فلم أجد ، وتذكرت الشاعر التركي رجائي زاده أكرم بك ، وكيف كان يتعزى عن فقد وحيده « نجاد » باسطوانة كان قد سجل عليها صوت ابنه الوحيد فيديرها على آلة الفنغراف ويتعزى بعزفها فيسمع صوت ابنه ثم يردد قصيدة في رثائه يقول في مطلعها « آه نجاد فنغرافده سسك وار » وترجمتها آه يا نجاد لم يبق سوى صدى صوتك في الفنغراف ! ولكن رياض لم يترك لي صوته لحسن الحظ ...

الآثار والمخلفات ...

ولم أجد ما يخفف عني إلا البحث عن مخلفات رياض وآثاره ، كما يبحث المرزوء بعزيز وحيد عن مخلفات فقيده ليتعزى بعض العزاء ، ففتحت ملفاً قديماً يحتوي على عشرات من مكاتيب رياض لي ، فأخذت أقرأ فيها ما كان يكتب لي به قبل ربع قرن من رسائل لأنه كان يحبني كما أحبه ، ويعتمد علي أكثر مما كنت أعتمد عليه ، فتأملت تلك الرسائل التي

تحمل صفحة من الماضى ، فأحببت أن أشرك القراء فى الاطلاع على بعض ما فيها ليقدروا فداحة فجيعتى ويعذروننى وهم يرون جزعى الشديد على رياض ، وكان بعض هذه الرسائل من عشر سنين وبعضها من خمس عشرة سنة وبعضها منذ ربع قرن .

كيف كان رياض بالأمس ؟

هذه رسالة منه أرسلها لى من بيروت فى ١٧ فبراير ١٩٢٥ يقول فى صدرها : « أخى محمد على حياك الله وبياك » ، ثم يقول فى خلالها « أما الجماعة فإنها تمثل رهطاً من المفلسين يراسلهم رهط مثلهم ... رعى الله خان الخليلى ورعى الله عهداً هو عهد الفول وحبذا الفول فى ذاك الموطن القومى العربى » .

ووجدت فى رسالة بعد ذلك بأسبوع يقول فيها بعد أن لقبنى بيا « سيدى الأخ » « الشورى وصل منها عددان وقد نجحت طريقتك فى تهريبها وأرجو أن لا تنقطع عنا » .

وفى رسالة بعد ذلك بأسابيع كتب يقول وهو فى دمشق : « أخى حياك الله وبياك ، واخجلى منك ياأبا الحسن والحمد لله على لطفك ومروءتك وكرم أخلاقك وقد كدت أذوب خجلاً من نفسى ، نعم أن الشورى منقطعة عنى لكنى أطالع فى جرائد فلسطين أشياء من تلك النفثات الطاهرية الخ ، ثم يقول فى النهاية إنه يرجو أن تمكنه الظروف « من زيارة القر الطاهرى فى القاهرة والتمتع بذاك الحديث الشهى على مائدة الفول » وإنه يكتفى بعطف القلب ...

أشواق من أوربا ... والمدمس !

وقال رياض فى بطاقة مصورة من باريس بإمضائه وإمضاء الأستاذ إميل خورى بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٦ « لعينيك يا صاحب الشورى ! لقد جمعنا هذا البلد وكلانا فيه كعيسى بين اليهود ، فتذكرنا أياماً كنا نجتاز فيها الأحياء البلدية فى القاهرة لنجتمع بك فى عربتك ونأكل الفول ، تلك أيام لن تزول ذكراها وسيعيدها الله علينا وعليك فى هذا الشتاء ، ومرحى للشورى ويد الله مع الجماعة » .

ورسالة أخرى من جنيف تاريخها ٢٢ مارس ١٩٢٦ يقول بإمضائه وإمضاء الأستاذ إميل خورى :

« وقد حججنا إلى لوزان مقر سيد الكتاب وأمير البيان الأمير شكيب أرسلان ثم جئنا إلى جنيف ، حيث السوق الكبرى وقد تضاءل نفوذ عصبة الأمم حتى أصبحت سوقا على حد تعبير الأمير شكيب ، ويشهد الله أننا ذكرناك ونذكرك فى كل جلسة وكل اجتماع وقد تألمنا لمرض عينيك ـ كانت العيون كلها فداء عينيك !

وفى رسالة من جنيف بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٢٦ يقول بعد أن لقبنى بالأخ الأعز : تلقيت الآن كتابك وشعرت بريح الفول المدمس يتصاعد من القدرة التى قلت إنك أوصيت لى عليها ... ثم يقول فى مكان آخر : أرجوك أن تدفع عنى لفلان ستة جنيهات ... أنت أبو الهمم وأنا واثق بأنك ستقترض المبلغ إن لم يكن لديك وتدفعه فوراً وأن أتلقى برقية منك تقول إنك دفعت ، وسأعيد إليك المبلغ الخ الخ

كنت أحمى الديار

وفى رسالة تاريخها ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٦ من جنيف يقول فيها : الشورى فى عناى أطالعها بتلك الصبابة التى نوه بها الشاعر ، وذاك الشوق الذى لا يعرفه إلا من كابد حرارة انتظارها من بريد إلى آخر ، وأما شمالى فهو بين يدى ابن عمك الدكتور حسنى الطاهر الذى تفضل بعيادتى عندما قيل له إنى عدت من باريس منحرف الصحة ، فبارك الله فيكم آل الطاهر ، لكم من اسمكم أكبر نصيب ، فمنكم المرابط فى الثغور والعواصم يمنع الأهل ويحمى الديار ، ومنكم المجاهد فى سبيل الله والعلم فى مواطن العلاج ثم قال: يظهر أن الفرنسيين يا أخى لم يكفهم تشريدنا عن بلادنا ولا قيام الإنكليز بفلسطين بطردنا من القدس وعمان بل عمدوا الآن إلى حرماننا من أعز ملجأ لنا وإسكات صوتنا فقد طلبوا أيضاً من مصر إسكات اللجنة التنفيذية عندكم » وبعد كلام طويل رجانى فيه أن أسعى لدى نواب مصر ومع ثروت باشا وزير الخارجية الخ ثم ختم كتابه هكذا : وسأسرع بعد أسبوع لمغادرة أوربا والعودة إليكم فإلى الملتقى يا أبا الحسن حول سلطانية من فول !

رياض ونسيب شهاب

وكتب لى رياض من جنيف فى ٣٠ نوفمبر ١٩٢٦ كتابا عن المجاهد السيد نسيب شهاب

بمناسبة نزوحه إلى مصر بعد ثورة سورية ، يصف جهاده ويوصيني به [١] لأنهما من بلدة واحدة ـ صيدا ـ وهناك قرابة بينهما قال رياض : « من العار أن يترك شاب كنسيب ضحى بكل ما يمكن تضحيته في سبيل بلاده واقترب من الموت مراراً وهو يحمل وسام التضحية والاستبسال في وجهه ، نعم من العار أن يهمل ، وأما أنت فأرجوك أن تتعهد السيد نسيب من حين لآخر بلطفك المعروف فتفرج كربه وتؤنس غربته ، وأما سر تفريج الكروب فأمر خاص بك » .

هل نرجع الأوطان

وفي رسالة من لوزان في ١٢ أغسطس ١٩٢٧ قال رياض « أخي أبا الحسن أحمد الله إليك سأغادر لوزان الآن إلى باريس ثم إلى لندن وسأكتب لك عن الأحوال ، وسنقدم تقريرنا لعصبة الأمم ثم نرسل ترجمته لمقام الشورى العالي على الطريقة التي تعلمناها من الشورى وسنتخذها دستوراً دائماً وأبداً ، ثم يقول في النهاية : وإلى اللقاء الذي أكاد أطير فرحاً عندما أفكر فيه ، فقد كلت نفسي وأرى أن روحي قد ضاقت ، وأقبل عيونك ، وفقك الله ونفع بالشورى أخي »

ومن كتاب من لندن بإمضاء رياض وإمضاء الأستاذ إميل خوري يقولان فيه : تحية

(١) لقد مر ذكر نسيب شهاب في الصفحات السابقة ـ مراراً وتكراراً ـ وقد أصيب نسيب من رياض بصدمة لا مثيل لها ، لأنه بعد أن أزال الله فرنسا من سورية ولبنان ، رجع نسيب إلى وطنه بعد طول الغياب والجهاد والغربة ، ورياض على رأس حكومة لبنان ، فلما زاره نسيب في بيروت إذا برياض يتضايق منه ويتبرم به وينصحه بسكنى دمشق والحصول على الجنسية السورية ليتوظف هناك !! فلم يسع نسيب إلا الرجوع أدراجه والعودة إلى مهجره في مصر ، قائلا في نفسه إذا كان رياض مواطني وقريبي يتنكر لي على هذه الصورة فكيف يكون الحال في سورية !؟

ولكن حكومة سورية كانت وفية لنسيب فعينته بمنصب في السلك السياسي ، وهو الآن وأنا أكتب هذه السطور يشغل منصب القائم بأعمال الوزير المفوض للجمهورية السورية في مصر . فرياض الذي اقتطف ثمرة جهاد نسيب وأمثاله أخذ الآن يتنكر لهم ويحرمهم حتى من حقوقهم في وطنهم الذي سفكوا دمهم من أجله، وفي الحقيقة أن فاجعة نسيب برياض لا تقل عن فجيعتي بل تزيد عليها لأني على كل حال لم أسفك دمي ولا أصبت بالسيوف في وجهي ولا بالرصاص في جسمي كما أصيب نسيب وقد ذكر لي رياض في كتابه المتقدم أن نسيب « يحمل وسامه في وجهه » .

من بلد عبس جوها حتى انك ترانا ساعيين فى شوارعها كأننا شبحان ينسلان فى ليل بهيم، وكأن ذكرك راحنا والحديث عنك طربنا ، هذه كلمة نبعث بها إليك رسول الشوق والإخلاص الخ

وفى رسالة من باريس فى ١٣ أكتوبر ١٩٢٧ يقول عند وداعه لابن عمى الدكتور حسنى بمناسبة مغادرته فرنسا بعد أن تخرج من كلية الطب :

« أقدم إليك ابن عمك الدكتور حسنى الطاهر ، أقدمه إليك على الصورة التى عرفته بها خلق كريم وعلم غزير ، إلى شمائل غر ، أسرتنى وأسرت كل من ساعده حسن الحظ على التعرف على هذا الشاب المملوء حكمة وتعقلا ، وإنى أودعه وأنا أرجو له مستقبلا زاهراً الخ

ذكرت هذه الكلمات عن ابن عمى لسبب سيرد (١) ، ثم ختم رياض بك كتابه هكذا : والسلام عليك يا أبا الحسن ورحمة الله وأما البركات فقد سبقنى الله إلى عمرك بها فهى تتوارد عليك من بومباى إلى الخليج الفارسى إلى تونس ، فالريف فأمريكا ، فهنيئاً مريئاً لك يا أبا الحسن هذه البركات المعنوية وإلى اللقاء قريباً فى مصر »

وكتب رياض من بروكسل فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٢٧ يقول : « ...وسأعود الليلة إلى باريس حيث أكن فى تلك الغرزة (٢) التى نأوى إليها أنا والأخ إميل ونذكرك الخ

وختم رياض كتاباً أرسله لى من باريس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٧ يقول « والسلام عليك وعلى الدكتور حسنى من أخ مشتاق إليكما ولا يدرى متى يراكما ، يعنى يا هل ترى نرجع الأوطان أو نعيش العمر غرايب »

(١) إن الصداقة التى توثقت بين رياض بك والدكتور حسنى الطاهر فى جنيف ثم فى باريس كانت أكثر من عظيمة ، وكان حسنى من أبر الناس به وأشدهم حباً له ، وكان يسند رياض فى جميع المسائل والمشاكل فى باريس من أمور كتابية وسياسية حتى فى مساعدته على الطلبة العرب الذين طالما ضجوا من رياض فى باريس ، وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً مر الدكتور حسنى ببيروت وهو يقصد الاصطياف مع قرينته فى لبنان وكتبت عنه الصحف مرحبة ولكن رياض بك لم يسأل عنه ولا بالتلفون ، وأبعد من هذا أنه التقى به عرضاً بمحل نزوله بفندق سان جورج فلم يكلف رياض خاطره بأن يقول له كيف حالك ... ولا آنستنا يا فلان !

(٢) يقصد رياض « بالغرزة » قهوة ريجنس المشهورة التى كان رياض وإميل يجلسان فيها كلما جمعتهما باريس .

رياض يصفني بقلمه

وفى أوائل سنة ١٩٢٨ أراد الإنجليز إبعادى عن مصر وإغلاق الشورى ، فبحثوا عن سبب فلم يجدوا فى تلك الأيام سوى «تهمة الانحياز إلى البلشفية[١] لأن موسم هياج الإنجليز يومها على البلاشفة كان حامياً ، فقامت عليهم ضجة جعلتهم يسكتون عنى ويصرفون النظر عن الإبعاد »

وبلغ صديق رياض هذا النبأ فكتب لى من باريس بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٢٨ يشير على بالقدوم إلى فرنسا قال :

أخى أبا الحسن : أهلا وسهلا بك ومرحباً ، ستأتى صحباً وتحل رحباً ، أراك قادما علينا ، لتستوى على عرشك فى « غرزتنا » فأنت من ملوك القلوب ، سواء كنت كما تدعى السلطة المحتلة فى مصر « صعلوكا بلشفيا » أو كنت كما يعهدك الناس متمرداً على الاستعمار وطنيا . إلى أين يا أبا الحسن ستبعث بك السلطة البريطانية ؟ إلى فلسطين ، وشوراك فيها قذى العين وشجى الحلق ؟ أم إلى العراق الذى يمت إلى فلسطين بروابط من الاستعمار وثيقة ؟ أم إلى رحاب الأردن حيث « الاستقلال التام » مضروب الاطناب مشدود الوتد ؟ أم إلى سورية وأنت شيطان الفرنسيس وقد هتكت سترهم وفضحت أمرهم ؟ أم إلى الهند وقد أصبح الداخل إليها بفضل الاستعمار مفقوداً والخارج إن قدر له الخروج مولوداً ؟ أم إلى الصين وقد غصت الصين بالقواد فلا محل فيها إلى قائد جديد ؟ !

ضاقت بلاد الشرق المستعمرة بك على رحبها ، فأنت فيها « كالشاه » أو « الرخ » فى رقعة الشطرنج لا تسع فيها أينما توجهت وكيفما قصدت إلا كلمة كش ...

---

(١) إن تهمة النازية والفاشستية لم تكن شائعة فى تلك الأيام وحيث ان « الخنافات » كانت حامية بين الإنكليز والروس فقط ، فكان الإنكليز فى تلك الأيام يتهمون حركة مصر الوطنية بالبلشفية والعمل لحساب روسيا ، وكذلك حركة فلسطين وحركة الهند وحركة سورية وكل حركة وطنية ضدهم هم وفرنسا ، أما قبل الحرب الأخيرة وبعدها فإن الإنكليز أصبحوا يتهمون خصومهم بالفاشية والنازية ويعدون الانتساب للبلشفية شرفاً . . بل انهم هم قد انحازوا للدولة البلشفية وطالما حبسوا من يطعن عليها . . ثم انقلبوا عليها مرة أخرى

ولكن اطمئن يا أبا الحسن لأن إدارة الأمن العام المصرية الإنكليزية ستضيق بك ذرعا ولن تجد بلداً تقبل أن تؤويك ، ولذلك ستتركك وشأنك فى مصر « تتمقدح » على الاستعمار ماشئت وشاءت لك « المقدحة » وإن أبت السلطة إلا إخراجك ، فمالك إلا باريس أو جنيف تكون فى الأولى ثالث ثلاثة ...[١]

رجعة أخرى إلى مكاتيب رياض

وفى رسالة من جنيف بعد ذلك بأسابيع يقول رياض فيها : « أخى أبا الحسن ! أخذت كتابك ، فأنت يا أخى لست مقصراً بل مفضلا ، فالشورى تجب عنك ما سلف من ذنبك وما تأخر إن صح أن هناك ذنوباً ، وتجد طيه كتاباً للأخ شكرى القوتلى طالعه أولا ثم اغلقه وادفع به لصاحبه ؛ لأنه يهمنى أن تطلع على أفكارى وآرائى » الخ .

وفى كتاب من باريس تاريخه ٩ فبراير ١٩٢٨ يقول : « أطوى كتابى هذا على نص حديث صحفى كتبته فى ساعة هياج عصبى وها إنى أرسله إليك لتصقله الصقل الصحفى اللازم وأن ترفع منه كل كلمة لا تليق فأنا كتبته فى ساعة فوضى عاطفية ، وفى الكلام شىء من الغموض أرجوك أن تمر عليه بصراحتك ، وهناك نقص فى التواريخ فأرجوك إكماله » .

الشهبندر ورياض وآمانيه عند تأليف الحكومة الوطنية

وكتب لى رسالة من دمشق بتاريخ ٢٩ يونيو ١٩٢٨ يقول بعد ديباجه لابأس من إيرادها : « أخى محمد على حياك الله وألهمك أن تتلطف بى فلا تعاملنى بما أستحق : أنا مقصر ياأبا الحسن وأنا مقر ومعترف ، وأنا طالب الآن عفوك ، فهل تمنحه أم تمنعه ؛ لاشك بأنك ستختار العفو والعفو من شيمك » ثم يقول : وبلغ الأخ شكرى[٢] تحياتى وقل له إننى إكراماً له قد تحملت سماجة الكونتس دى سان بوان وإنى مع ذلك قد أكرمتها الخ « وأما حادثة عمان وادعاء الشهبندر بأن جماعته ضربونى فهذا كذب ، ووجهى معرض

(١) يقصد نفسه والأستاذ إميل خورى .

(٢) يقصد فخامة السيد شكرى القوتلى رئيس جمهورية سورية بعد ذلك فقد كان فى تلك الأيام لاجئاً سياسياً فى مصر وكان مكتب جريدتى «الشورى» مقراً لجهاده تقريباً طول مدة وجوده فى القاهرة بضع سنين .

لأهل الشام ولا خدش فيه ، والحقيقة أنى لقيت كلبين من جماعته فأخذا بالعواء علىّ من بعيد فأمسكت بخناق أحدهما وأمسك الأخوان بالآخر وأشبعناهما ضرباً وسقناهما إلى السجن !

ثم قال : إذا نسيت كل شئ فى هذه الدنيا فلا يمكن أن أنسى الشورى ولا صاحبها الذى غمرنى بفيض من عطفه ولطفه وسأجتهد إن شاء الله متى تألفت الحكومة الوطنية فى تنفيذ مايجب نحوك ونحو الشورى[1] وقال فى رسالة بتاريخ ١٠ أغسطس ١٩٢٨ من دمشق

« بلغنى أنك قادم للاصطياف فى لبنان فأهلاً وسهلاً بك من قادم ، إنى أعتزم مغادرة البلاد قريباً ، هذا إن لم أحمل على مغادرتها حملاً ، فإلى اللقاء القريب فى مصر يا أخى وسيدى » .

رياض فى القاهرة

وفى أواخر مارس ١٩٢٨ جاء رياض إلى القاهرة وكان قد أبرق لى عن موعد قدومه فرتبت له استقبالاً فى المحطة كان باهراً ، ثم دبرت له حفلة شاى حافلة أقيمت له بفندق الناسيونال حضرها أساطين مصر والعالم العربى ، وإنى أضع أمامى الآن عدد «الشورى» الصادر فى ٥ ابريل سنة ١٩٢٨ وفى صدره صورة رياض ووصف الحفلة التى لم يقم لأحد مثلها فى مصر طول ذلك العام .

ولما غادر رياض بك مصر إلى فلسطين كتب لى من حيفا يصف لى أثر حفاوتى فى نفسه ويشكرنى ثم يختم كتابه قائلا : وأرجوك أن تهدى سلامى إلى جميع هيئة أركان حربك ومرافقيك ، ومن كان حولك ، ومنهم حبيبى الدكتور حسنى الطاهر الخ .

أى نفس حسنى الطاهر الذى رآه بعد ذلك بخمس عشرة سنة ـ فى بيروت ـ وبخل عليه بالتحية !

رياض فى لبنان

وكتب لى رياض من بيروت بتاريخ ٤ مايو ١٩٢٩ أخى أبا الحسن حياك الله وبياك ، أعتذر إليك عن جبى « المضخومة » وسأقدم لك فى هذا الأسبوع المبلغ مشفوعاً بطلب

(١) لقد نفذه فعلا ! وهو أنه لم ينسنى فقط بل تنكر لى أيضاً لما تألفت الحكومة الوطنية ، وأبى أن يتفضل بالتعرف علىّ أو رؤية وجهى !

العفو عن تأخرى ، ثم كتب فى ٣٠ يونيو ١٩٢٩ من « عين السيدة » بلبنان يقول :

« اعذرنى يا أخى على تأخرى فقد والله تكاثرت الظباء على خراش من كل الجهات ، وفاء ديون مترا كمة هنا وهناك ، ومصاريف استثنائية ، على أن أملى بحلمك جعلنى أتأخر عنك وأقدم عليها غيرها » .

رياض بك يودعنى فى بيروت

وفى أغسطس ١٩٣١ زرت لبنان وأقيمت لى حفلات فيه ودعوات كثيرة حضرها رياض كلها وسيجد القارئ بعض رسومها .

ولما سافرت عائداً إلى مصر كتب لى فى ١١ سبتمر ١٩٣١ يقول: سلام الله عليك ياأبا الحسن أينما حللت وكيفما اتجهت ، وقدس سر الصداقة التى انطوى عليها فؤادك وغمرت كل مشاعرك ، فأصبحت إن لم أقل أمسيت ، رمز هذه الصفة الممتازة . ثق يا أبا الحسن إنى أشعر بالوحشة عند بعدك كأن المدة التى تفصلنا ليست أياما بل شهوراً وأعواما . وإلى اللقاء القريب فى مصر أو فلسطين .

لقد نزلت أمس الأول إلى بيروت لوداعك فقيل لى بفندق سافوى أنك غادرت لبنان فعلى الطائر الميمون » .

بعد مأدبة أقامها رياض لوداعى ببلدة صوفر ، وقد جلست فى الصورة تحت علامة × وقد ظهر فيها بجوارى من يمين القارئ خير الدين بك الأحدب الذى تولى بعد ذلك رياسة الوزارة وإلى يسارى ميشال بك زكور وزير الداخلية بعد ذلك رحمهما الله . ووقف رياض خلفى وخلف زكور بالملابس الغامقة .

إحدى حفلات لبنان التى ورد ذكرها ، وقد أقامها لى المرحوم خير الدين بك الأحدب الذى أصبح بعد ذلك رئيسا لوزارة لبنان ، وقد جلست فى وسطها فوق علامة X وهذه أسماء بعض من حضروها ، وهم :

(١) حسنى بك البرازى رئيس وزراء سورية بعد ذلك (٢) صبحى بك حيدر وزير الصحة فى لبنان (٣) جميل مردم بك رئيس وزارة سورية بعد ذلك (٤) المرحوم إبراهيم بك هنانو زعيم سورية (٥) المرحوم ميشال زكور وزير الداخلية اللبنانية بعد ذلك (٦) رياض بك الصلح (٧) المرحوم خير الدين بك الأحدب صاحب الدعوة (٨) السيد أحمد الإمام من ساسة فلسطين المشهورين ، ووقف فى الصف الخلفى فريق من فضلاء بيروت والشام بينهم الدكتور عبد الله اليافى بك رئيس وزراء لبنان بعد ذلك وكاظم بك وتقى الدين بك وعادل بك الصلح

رياض وأنا فى المؤتمر الإسلامى العام

وفى أواخر ديسمبر ١٩٣١ انعقد المؤتمر الإسلامى فى القدس فجئت إليه من مصر وجاء رياض من بيروت فكان لايفترق عنى ولا أتركه لحظة ، ولما رجع كل منا إلى مقره أصدرت كتاب نظرات الشورى ، فكان لرياض فيه حصة الأسد ، فقد كتبت عن رياض أشياء وصفها رياض بكتاب منه فى ١٧ يوليو ١٩٣٢ قال :

«أما الكتاب ياسيدى فقد وصلنى وتسلمته من البريد بنفسى وقرأته كله بدون انقطاع، أى أنى مارفعت عنه رأسى حتى رفع هو رأسى !»

رياض بك فى مأزق !

وفى سنة ١٩٣٣ وقع رياض فى ورطة شديدة مع رئيس محكمة الجنايات فى بيروت الذى كاد يضعه فى الحبس ، فكتب إلى السيد أمين الحسينى فى القدس يستنهضه ويرجوه تحريك الرأى العام لنصرته ، ثم رجاه أن يكتب لى لأقوم بشىء لنصرته فى مصر ، وعندى أصل ما خطه رياض عنى قال « ويهمنى أن نأخذ برقية تأييد من محامين فى مصر فهل لك أن تكتب للأخ أبو الحسن وتفهمه القضية وظروفها وتشرحها له شرحا مستفيضاً وأن يذكرها أبو الحسن للسيد النقراشى والسيد دياب ووليم مكرم [(١)] وكل هؤلاء أصدقاء مخلصون يمكنهم أن يحصلوا على برقية من نقيب محامى مصر » الخ .

ولم أبخل بوقتها على رياض بالتأييد بل أمطرت بيروت بالبرقيات وجرائد مصر بالحملات على رئيس محكمة بيروت ...

رياض يقع فى السياج !

وفى أوائل سنة ١٩٣٥ وقع رياض فى شدة ، وذلك أن الفرنسيين أبعدوه إلى القامشلى فى شمال سورية ، فكتب لى فى ٢٢ أبريل ١٩٣٥ وكنت فى أيامها أزور فلسطين يقول :

(١) يقصد محمود فهمى باشا النقراشى وتوفيق بك دياب ومكرم باشا عبيد ، فقد كانوا من أصدقائه وأصدقائى ، وسبحان مغير الأحوال ...

« أخى أبا الحسن ! ذكرتنى ولا شك فى هذه الأيام إذ بلغك نبأ اختطاف الفرنسيين لى ، ثم قال : وقد قرأت فى الصحف ولا أزال أقرأ أنباء الحفاوة بك فى فلسطين وتكريمك هناك فاثلج ذلك صدرى ، وقد رأيت فى مجلة اللطايف المصرية رسماً يمثلك فى حفلة من تلك الحفلات «النضرات» وفقك الله وأكثر مَن حولك من الإخوان . هكذا الدنيا « أناس يأكلون الدجاج وآخرون يقعون فى السياج »[1].

ثم قال وإذا قدر لى الإفلات لحقت بك إلى فلسطين واشتركت ولو فى آخر أيام زيارتك لها ثم يقول : فاكتب واكتب عن الجماعة ـ أى الفرنسيين ـ ماشئت وشاءت شهامتك فأنت فالت ولا يمكن الوصول إليك.

رياض فى السياج ...

فقد بعث لى صورته المحزنة هذه وهو مبعد إلى القامشلى وقد ظهر واقفاً أمام عجلة ناعورة من نواعير تلك الجهات .

ثم كتب فى ٢٢ مايو ١٩٣٥ يقول : « الآن اعتقدت أن كتابى قد وصلك لأنى تلقيت منك مقالين فى جريدة «الوحدة» وفيهما نقاط مما كتبته إليك فأنا أشكرك على اهتمامك بشأنى »

(١) لقد صدق ! ولكن الفرق بيننا هو أنى لما وقع رياض فى السياج واستغاث بى لم أخذله ولم أتهرب منه ولا تحايلت بالوعود ولا أرسلت إليه ابن عمى ... بل نصرته بكل ما أقدر عليه مستعملا فى سبيله اللسان والقلم وبرقيات الاحتجاج على فرنسا ، وكسبت زيادة عداوتها وعداوة أعداء رياض أيضاً . ولكن لما وقعت أنا بقرب السياج لا فى داخل السياج تركنى وهرب ليأكل الدجاج وحده دون شريك ...

رياض فى الاسكندرية ، والنقراشى باشا

وفى ١٨ سبتمبر ١٩٣٦ كتب لى رياض بالطيارة من باريس يقول إنه سيكون فى الاسكندرية فى صباح ٢٤ منه على الباخرة فكتوريا التى لا تقيم فيها إلا ساعات ثم تواصل سفرها إلى بيروت فى نفس ذلك اليوم وإنه لن يتمكن من زيارتى فى القاهرة ويطلب أن أوافيه بميناء الاسكندرية ليرانى ولو لساعات ، فسافرت إليها ولما رست الباخرة كنت فى انتظاره فاستقبلته وبقيت معه طول ذلك اليوم ، وكان قد سألنى عن الشورى ، فقلت له إسأل عنها صاحبنا النقراشى الذى لما أصبح وزيراً صار مثل الانكليز يكره إصدارها ويتضايق منى ...

فقال رياض والله أنا مشتاق إليه ، فهيا بنا لزيارته ، فقلت له اذهب أنت وأما أنا فلن أذهب إلى رجل كتبت أليه أذكره بالجريدة فبعث لى حكومته بواسطة محافظ القاهرة إخطاراً بمنع إصدارها (١) ...

فذهب رياض وزار النقراشى ، ولما فاتحه بحكاية الجريدة ادعى أن الأمر ليس بيده ...

وبعد ذلك واصل رياض سفره إلى بيروت ، ورجعت أنا إلى القاهرة ، ثم عاد رياض بعد ذلك إلى باريس مرافقاً الوفد السورى الذى فاوض فرنسا على معاهدة ١٩٣٦ التى نكل الافرنسيون عن إمضائها ..

تكريم رياض بالقاهرة

وفى أوائل سنة ١٩٣٧ أصدرت جريدة « الشباب » بدلا من الشورى ، فرحب بها رياض برقياً ، وكان يكتب لها من باريس ، ثم جاء إلى القاهرة فعملت له استقبالا فيها وأقمت لتكريمه حفلة شاى كبرى بقاعة الناسيونال أيضاً ، وكانت أفخم من تلك التى أقيمت له قبل

(١) كان النقراشى يحب جريدة الشورى ويقول إنه كان يقرأها « من آخرها إلى أولها وأنها كانت تجمع كلمة العرب وتخدم الإسلام » وقد سمعت هذا الكلام من النقراشى بأذنى سنة ١٩٣١ فى دار بهى الدين بركات باشا بحضور كثيرين ، ولكنه كان يقول هذا القول وهو خارج الحكم ، وأما بعد أن صار هو نفسه الذى يحكم فإنه يتنكر لى ويناقض نفسه ، ويتولى بعد أن انشق على النحاس باشا وأصبح وزيراً للداخلية مطاردتى بالنيابة عن الإنكليز ... ولولا أن المرحوم محمد محمود باشا رئيس الوزراء يومها منعه من تنفيذ نيته لأصابنى من الضر والأذى ما أعجز عن احتماله ، رحم الله محمد محمود باشا وبرد ثراه .

ذلك ، وقد اشترك فى هذه الحفلة عدد كبير من رجالات مصر وأقطاب السياسة العربية فكانت حفلة الموسم ، ولم يلبث رياض أن سافر إلى بيروت فدمشق وهو مسرور ومبتهج بما لقى فى مصر.

يطلب الحفلات

لقد كنت أعرف عن رياض منذ زمان بعيد أنه يحب الحفلات ، وكان يطلبها بنفسه ، ويقول لى إنها تسر الأصدقاء ، وتكبت الأعداء ، ولذلك كنت أعمل له الحفلات والاستقبالات فى المحطات وبالجريدة كلما زار مصر ...

وكان يحب أن تنشر الصحف أخبار قدومه إلى القاهرة وسفره منها ، وكان أحياناً يملى النص الذى يريد أن ينشر عنه ... وفى ثانى يوم وصوله كنت أذهب إليه فى محل نزوله ومعى الجرائد التى نشرت أخبار وصوله وأقدمها إليه .. ولما زرت لبنان لأول مرة سنة ١٩٣٠ زارنى فى صبيحة اليوم الثانى لوصولى إلى بيروت ومعه صحف ذلك اليوم وفيها أخبار وصولى إلى لبنان قائلا : واحدة بواحدة ، لأنى توليت فى الليلة الماضية إبلاغ الصحف أنباء وصولك ثم قدمها إلىّ !

إن هذه الحوادث والمباسطات لتدل على مبلغ العلاقة التى بيننا ، وهى أكثر من علاقة الأخ بأخيه مع رفع الكلفة والثقة المتبادلة .

يتلقى أوامره منى !

وفى أغسطس ١٩٣٧ سافر محمد العشماوى بك وكيل وزارة المعارف إلى لبنان للاصطياف (١) وهو يعد من أكثر رجال مصر اهتماما بأبناء الأقطار الشقيقة ، فكتبت إلى السيد شكرى بك القوتلى وزير المالية السورية فى ذلك الحين أوجه نظره إلى أنه يحسن دعوة العشماوى بك إلى دمشق وتكريمه فيها اعترافاً بأفضاله على أبناء العروبة فى مصر وفتح مدارسها لهم ، وكتبت إلى رياض بك بأن يحمل حكومة لبنان على تكريمه ، فكتب لى شكرى بك بأنه أخذ كتابى وسلمه لوزير معارف سورية لينفذ اقتراحى فاستحسنه ونفذه ، وكتب لى رياض يقول فى كتاب تاريخه ٢ سبتمبر ١٩٣٧ « العشماوى بك سأزوره غداً أينما كان من أنحاء

(١) هو محمد العشماوى باشا وزير المعارف بعد ذلك ، وهو الوزير الشهير بالحزم وسرعة حل مشاكل التعليم ، ونشر العلم فى البلاد العربية بتسهيل تعليم أبنائها فى مصر .

لبنان ، وقد علمت أن وزارة المعارف السورية قد دعته لزيارة دمشق وستكرمه فى الجامعة السورية ، وستسمع مبلغ الحفاوة بصديقك فى لبنان ، وسوف أذكر له عرضاً أننا تلقينا أمراً منك بإكرامه » ...

يجن جنونه من أجلى !

وفى أكتوبر ١٩٣٧ سافرت إلى سورية لحضور مؤتمر بلودان[1] ولما رست الباخرة فى مياه بيروت جاء بوليس الأمن العام وأبلغنى تعليمات من المفوضية الافرنسية – العليا – على حد تعبيرهم، بمنعى من النزول إلى المدينة ، فتمكنت من إرسال نبأ ما جرى معى إلى صديقى كاظم بك الصلح صاحب جريدة « النداء » يومها – ووزير لبنان اليوم بالعراق – وأن يتصل بالتلفون بحكومة سورية وبالسيد نبيه بك العظمة صاحب الدعوة إلى المؤتمر ويخبرهم بما وقع وأنى محبوس فى الباخرة ، فتدخل الجميع فى ذلك قبل عودة الباخرة بى إلى الاسكندرية ، ثم درى المرحوم الأمير شكيب أرسلان بالحادث فنزل من مصيفه فى الجبل إلى بيروت من أجلى، وقد انتهت الحادثة بعد ذلك بالسماح لى بالمرور إلى سورية بدون أن أستقر فى الأراضى اللبنانية ...

والمهم من هذا ، أن رياض بك حين عرف بحجزى فى السفينة كتب لى كتاباً أرسله لى إلى الباخرة وأنا محجوز فيها قال فيه : « أخى أبا الحسن : نزلت الآن من الجبل إلى بيروت وقلما أنزل إليها ، فلقيت ابن عمى كاظم مصادفة فأخبرنى بحادثتك فجن جنونى ، أيصل أبو الحسن إلى مرفأ بيروت وتحول « القوة الغاشمة »[2] دون نزوله واشتراكه مع إخوانه فى مؤتمر بلودان؟ إن كاظم يبذل الجهد من جهته لنزولك ، وأنا من جهتى تحدثت بالتلفون

(١) قام نبيه بك العظمة بالدعوة إلى هذا المؤتمر فانعقد فى بلودان بضواحى دمشق بحضور مندوبين من جميع أنحاء العالم العربى ، ونظر فى أحوال الأمة العربية ووضع مقررات خطيرة كان لها الأثر الجدى فى توجيه الحركات الاستقلالية فى البلاد العربية وتوحيد وجهات النظر فيها .

(٢) بعد أن كان رياض مثلى ، سوقة يتنصف ، ولا يملك من الأمر فى وطنه حتى مسألة تسهيل نزولى من باخرة ؛ ويجن جنونه من أجلى ، إذا به يحكم لبنان كله ، وبعد ذلك يتنكر لى ولا يقبل أن أجتمع به فى مصر ولا أن يرانى ... لأنه أصبح هو « القوة الغاشمة » التى كان يشكو منها ...

مع الأخ نبيه بك العظمة بدمشق ليعمل مع الإخوان كل مايمكن لإيصالك لدمشق إذا كان قصد الفرنسويين منعك عن لبنان ، وقد كنت أحب المجىء إليك بالباخرة ولـكن خفت أن يعرقل ذلك أمر نزولك » الخ .

كتاب مشترك وجائزة!

وبعد ذلك بشهور سافر رياض إلى أوربا فـكتب لى من جنيف فى ٢٣ يناير ١٩٣٨ يقول: « سيدى الأخ الأعز رعاك الله : أهلاً وسهلاً ومرحباً أبا الحسن ، لا تحسب أنك غائب عنا ، فنحن والله سواء فى باريز أو جنيف لا نفتر عن ذكرك لحظة واحدة ، وقد اقترحت على الأمير والأخ إميل أن نكتب لك كلمة مشتركة وسنفعل ذلك غداً إن شاء الله . مرحى مرحى للشورى، بل ألف مرحى ، فإنى والله أقرأها من ألف الشورى إلى آخر حرف منها ، وبلذة

هذه إحدى البطاقات المشتركة التى كانت تأتينى من رياض ، وقد جعل المرحوم الأمير شكيب أرسلان يكتبها بخطه ويمضيها ثم يمضيها رياض معه ومع الأستاذ إميل خورى .

مابعدها لذة ، حتى إنى فـكرت مرة أنا والأخ إميل أن تمنح «الجائزة» ــ وجائزتنا الإعجاب فقط ــ لأفضل قطعة وردت فى العدد الأخير وحتى الآن لم نتمكن من تفضيل قطعة على قطعة فهى كلها سواء » الخ

مجاهيدك ثمينة يا فلان!

وفى ١٨ أبريل ١٩٣٨ كتب لى رياض من باريس بعد أن لقبنى بسيده الأخ يكلفنى أن أقضى له مسألة عند أحمد عبود باشا فقال « إنها تهمنى يا أبا الحسن فأرجوك أن تتكرم ببذل مجاهيدك – ومجاهيدك ثمينة يا أبا الحسن – فى هذا الموضوع . وأما الجريدة فإنى أقرأها بانتظام إذ أتلقفها من الأمير شكيب أو من الأخ إميل وأحياناً قبل أن يطلع عليها هو».

يذكرنى كثيراً ويدعو لى لأنى أرفع الرأس ...

وفى موسم الحج ذهب رياض بك وأدى الفريضة – على حد قوله – ثم رجع إلى دمشق وكتب لى فى ٢ أغسطس ١٩٣٨ يقول : « أخى حياك الله : أنا منذ أمس الأول بدمشق ولم آتها بعد إيابى من الحجاز ، وكأن قدوم الأخ السيد أمين الحسينى إليها قد حفزنى إلى الإسراع فاجتمعنا ، الحاج أمين والأستاذ الشيخ كامل القصاب والقوتلى والعظمة وغيرهم وأنا ، وقد ذكرناك كثيراً » ثم يقول : « جزاك الله يا أخى عن الأمة العربية خير الجزاء فقد والله قمت فى جريدتك بما يبيض الوجه ويرفع الرأس » .

رياض مشتاق ... ودعاء!

وأبرقت إلى رياض بأنى سأزور لبنان للاصطياف وأن يسعى لى فى الحصول على إذن بدخول لبنان لأن قنصلية فرنسا بمصر تأبى إعطاء الإذن فكتب لى رياض من مصيفه فى عاليه ، بتاريخ ٣ أغسطس ١٩٣٨ يقول بعد أن لقبنى « بسيده الأخ الأعز » . اتصلت بمن ذكرت فى برقيتك وعلمت أن المساعى بذلت ولم تزل ، والذى أراه هو أننا فى حاجة إلى وساطة أقوى وأفعل من وساطتى ووساطة من ذكرت ، وقد بادرت إلى ذلك ومن الله التوفيق ، وسأواصلك بالأخبار حتى أراك فى عاليه حقق الله ذلك ، فشوق إليك لا يضاهيه شوق ، ولدينا من الأحاديث ، أنا وأنت ، ما يتطلب أياماً بل أسابيع إن لم أقل أشهراً ... وإنى أكتفى الآن بهذا القدر محييا فى الختام جهادك الطويل الذى لم تتناوله دقيقة واحدة من من دقائق الملل ، حفظك الله يا أخى وأبقاك وأمتع الأمة العربية بصفاتك النادرة وأخلاقك الممتازة وحقق بك الآمال انه سميع مجيب الدعاء أخى .

المشتاق : رياض الصلح

آخر زيارة للبنان وآخر لقاء

إن فرنسا في تلك الأيام لم تسمح لي بزيارة لبنان فتكدرت لأني كنت في حاجة شديدة إلى تبديل الهواء ، فخطر لي أن أعمل لهذه الدولة المستعمرة مشكلة تتحدث عنها الصحف وتسيء إلى سمعتها وتكذب دعوى صداقتها للعرب فركبت الباخرة « محمد على الكبير » وسافرت إلى بيروت بدون إذن أو « فيزا » وأبرقت قبيل الإبحار من الاسكندرية إلى مدير الأمن العام « الفرنسي طبعا » في بيروت قلت له فيها إنني انتظرت « الفيزا » كثيراً وان الصيف يكاد ينقضي ، ولذلك ركبت البحر وأنني الآن في الباخرة وسأصل إلى بيروت صباح الغد ، وإني أرجوه منحي التسهيلات في الميناء مع تقديم الشكر سلفا ...

ولما وصلت السفينة إلى بيروت كنت أتوقع المنع ومحاصرة الباخرة طبعا فإذا بالمعجزة تقع وإذا بمدير الجوازات يصعد إلى السفينة بنفسه ويعطيني الإذن بالنزول إلى المدينة ويبلغني تحية مديره وأنه عاتب عليَّ لسلوكي هذا السبيل المحرج الذي لم يسبق له مثيل، ثم طلب أن أعطيهم تعهداً بعدم الاشتغال بالسياسة وعدم الذهاب إلى سورية ، فرضيت وشكرته وشكرت رئيسه وكان يسمى المسيو كاومباني ، ولعله كان أعقل فرنسي هناك - إن كان فيهم عقلاء ...

الطرد من لبنان

والتقيت برياض طبعا وقضينا أياما كنا نجتمع فيها كثيراً . وفي ذات صباح كان رياض عندي بفندق شاهين[1] هو والمرحوم خليل بك المطران وبهيج بك الجوهري « ابن عمة رياض » وإذا برجال الأمن العام يأتون إلي ويطلبون مني باسم المفوضية الفرنسوية العليا مغادرة لبنان فوراً . فاعترضت ورفضت ، وكان رياض يشهد هذا الحادث فاعترض عليه وهو متألم أشد الألم من المستعمرين وقد أراد أن يحتج ولكنه خاف وسكت ، فحصل جدال شديد

(١) ذكرت اسم هذا الفندق متعمداً ذلك، لأنه كان في أيام الحرب العظمى الأولى مقر المحكمة العرفية التركية التي حاكم فيها جمال باشا أحرار سورية سنة ١٩١٥ وأعدمهم في بيروت ودمشق ، رحمهم الله ، ورحم جمال باشا أيضاً ، فقد كان شهماً على الأقل ، لأن نذالة رجال الاستعمار وأعوانهم الذين حكموا العالم العربي بعد ذلك جعلت العرب يترحمون على أيام جمال باشا الذي كنا نلقبه بالسفاح ...

بينى وبين القوم ، وتهديد منهم باستعمال القوة معى فأصررت على الرفض وعدم السفر إلا إذا نفذوا طلبهم بالقوة علناً أمام الرأى العام، وعند ذلك تراجعوا وأمهلونى أياماً إلى أن تجىء الباخرة التى جئت بها لأبحر فيها إلى الإسكندرية رأساً ، لأنى رفضت السفر فى البواخر التى تقف فى موانىء فلسطين حتى لا أقع فى أيدى الإنكليز ، ولما أزف وقت السفر رافقنى زبانية الأمن العام إلى الميناء، وأخرجونى من لبنان مطروداً أمام عيون رياض الذى كان يتحرق يومها غيظاً وكمداً بل غضباً وسخطاً على الذين طردوا صديقه وحبيبه على تلك الصورة الاستبدادية فكان ذلك اللقاء برياض هو آخر لقاء ، فإن كنت قد تصورت أن رياض بعد أن أصبح حاكم لبنان بعد ذلك ، سيدعونى إليه ويجعل صفاً من جنوده يقف على الميناء لاستقبالى وتحيتى فلا أكون قد تصورت شيئاً أكثر مما يجب أن يكون رداً على فعلة فرنسا معى لما طردتنى أمام عين رياض طرداً ...

الأمير سيف الإسلام بدلا من رياض !

ولنرجع إلى موضوع تهرب رياض منى فى مصر فأقول : كانت قصة رياض معى مثار دهشة لكل من سمع بها ، فقد أدهشت خصومه وأدهشت أصدقاءه على السواء ، وقد تندر بها الناس فى مصر والشام ولبنان ، لأنها بزت كل ما سبقها من حوادث تنكر الأصدقاء للأصدقاء ، وعقوق الإخوان للإخوان ...

وبعد حوادث رياض بأشهر، وبعد غروب أحد أيام رمضان وأنا فى بيتى جاءنى القاضى السيد محمد عبد الله العمرى أحد سادات اليمن وعضو وفدها يقول إن صاحب السمو الملكى الأمير سيف الإسلام عبد الله يريد أن يزورك الليلة فى الساعة العاشرة مساء وسيكون معه الوفد اليمنى « وكان الوفد يتألف من سموه ومن القاضى العمرى نفسه والسيد حسين الكبسى والسيد على المؤيد » (١) فرحبت بهذه الزيارة الملكية وانتظرت سموه بحديقة العمارة التى أسكنها، ولما

---

(١) هو السيد على بن إسماعيل المؤيد ، من أفاضل الجراف فى اليمن ، وقد عين فى شهر فبراير ١٩٥١ وزيراً مفوضاً لليمن فى مصر ، وهو أول سفير يمانى أرسله اليمن فى تاريخه الحديث إلى خارج اليمن ، وهو شاب نبيل أديب على جانب كبير من اللطف والعلم والفضل .

أزف الموعد وصل سمو الأمير فى سيارة رسمية يتقدمها جنود الحرس وهم ينفخون فى الصفافير لإفساح الطريق لسيارته ، فاستقبله سكان الحىّ بالهتافات والزغاريد وبقى حتى شبرا ساهراً إلى أن غادر سموه دارى بعد منتصف الليل مودعاً بالحفاوة والدعاء ، وقد نشرت بعض صحف القاهرة شيئاً من أخبار تلك الزيارة الجميلة .

إن زيارة ابن ملك وشقيق ملك ، لدارى فى تلك الظروف بعد فعلة رياض معى وغدره بى ، قد جعلت الخواطر والظنون تدور فى بالى ، فقلت فى نفسى : ياترى هل درى سمو الأمير بقصة رياض معى فأراد أن يعوضنى بزيارة ملكية و« بصفافير سيارته » عن صفافير رياض التى بعث لى يباهى بها ، ثم راح يسمعها لتوفيق مفرج دون أن يسمعنى أنا صوتها !

إن المسألة ليست مسألة « صفافير » بلا شك : ولكنها مسألة مجىء رياض الذى بخل علىّ بزورة ما كان أعظمها عندى وأقلها عليه ! وعلى كل حال فلا أسف على تلك الزورة بعد أن زارنى أمير ملكى عظيم وابن ملك ، فقد ضاع منى درهم زائف ، فعوضنى الله عنه بدينار من الذهب اللامع ...(١)

والخلاصة ؟

سررت هذه القصص الطويلة عن رياض بك معى لأنها من القصص على كل حال ، وكل قصدى منها أن تكون درساً لغيرى حتى لا يقع فى صداقة كهذه ، وإن وقع أحد فى مثلها فلا يتفجع كثيراً لأن قصتى ستهون عليه ... إذ يكفى أننى أكلت الدرس بالنيابة عن الغير ، وعلى أشنع الصور ، فعلى الغير أن يعتبر ...

---

(١) لقد كان على رياض بمجرد استقلال لبنان أن يبادر إلى الاتصال بى وأن يعرض على منصب الوزير المفوض بمصر على الأقل ، أو على أقل الأقل يأخذ رأيى فى تعيينه ثم يأمره بأن يجيء عندى حاملا تحيته ، طالباً التوجيه الذى أراه له ، لا أن يشغل نفسه بالهرب منى والتنكر لى ، وإلا فأين كان رجال وزارته وأركان حكومته والذين جعل منهم وزراء مفوضين حين كنت أصطلى وإياه بنار الاستعمار وما فيها من ظلم وأذى وآلام ، فهل كان رياض يعرفهم ويعرفونه فى تلك الأيام السوداء ، وهل كان يعيش معهم على المدمس ويستغيث بهم ويشكو لديهم من الذين أكلوا الدجاج وتركوه يعتق الفاشل يبكى من آلام الحياة حين علق فى أشواك السياج؟

كلا ، بل إن رياض قد ركض إلى الذين أكلوا الدجاج مع فرنسا وتركوه فى السياج فراح يشتغل معهم ويأكل الدجاج وإياهم ...

إن الأرمن الذين جاءت بهم فرنسا من أرمينية إلى لبنان منذ ربع قرن فقط قد أصبح لهم بعض النواب فى البرلمان اللبنانى فهل يستكثر رياض بك على صديقه الذى كان يساعده على فرنسا أن يكون فى لبنان مثل مهاجرى الارمن ..

ثم يلاحظ القراء هنا أنني لما اقتبست بعض النقاط من رسائل رياض بك اقتصرت منها على ما يهم موضوعنا ، بدون أن أكشف شيئاً عن الأسرار الخاصة التي يهمه كتمانها ، أو يكدره نشرها ، أو تمس الآخرين ويحرص هو على إخفائها ، فهذا كله قد كتمته وأخفيته محترماً سرية الرسائل الخاصة إلى النهاية .

إن الذين يعرفون رياضاً ويعرفونني ، والذين سمعوا بقصته معي قد حكموا حكمهم فيها ، ولكني أردت من تسجيلها هنا أن يطلع عليها من لا يعرفنا فيحكم حكمه كذلك ويستفيد من عبرها ...

وإلا فمن يصدق أن رجلا يكون بينه وبين صديق له مثل ما كان بيني وبين رياض أن يتنكر لصديقه على الصورة العجيبة التي تقدم سردها ، كما أني لما أوردت الخلاصات عن مكاتيبه قصدت أن يعرف الناس أن المحبة كانت متبادلة من الجانبين، لأنه لا يكفي أن يقول الإنسان إن هناك صداقة وإخاء مع فلان ، فقد يكون فلان هـذا لا يدري شيئاً عن تلك الصداقة ! أما وقد اطلع القارىء على كلام الجانب الآخر وهو رياض نفسه ، فإن المنصف يستطيع أن يكون رأيه ويصدر حكمه ، وهو مقتنع بفظاعة ما كان وإنه مما لم يسبق له مثيل بين الناس .

محاكمة ...

وقد حاكمت المسألة في نفسي ومن وجهة نظري فوجدت أن رياض بك قد سرقني أيضاً ، وهي سرقة عظيمة ، وذلك إنني ورياض كنا في الأصل من منطقة واحدة ، فهو من صيدا التابعة لولاية بيروت وليس بلبناني ، وأنا في الأصل من نابلس وهي تابعة لولاية بيروت أيضا فإذا كان الاستعمار قد جزأ بلاد الشام وضم ولاية بيروت إلى لبنان بعد أن نزع نابلس منها وأضافها إلى فلسطين ، فهذا كله من عمل الاستعمار وليس من عمل الطبيعة .

فالذي أريد أن أصل إليـه هو انني ورياض في الأصل من منطقة واحدة ، كنا نعمل لغرض واحد ، وكل منا كان يبذل طاقته وجهوده ضد الاستعمار الافرنسي بدون أن يشعر أحدنا بأنه غريب عن البلاد التي نخدمها وتحارب فرنسا من أجلها ، أليس ان فرنسا كانت

تمنع جريدتى عن لبنان ، وتمنعنى أنا من دخوله ؟ ولما سمحت عادت وطردتنى ، ثم كانت كلما اشتد ضيقها بحملاتى عليها تحتج على مصر وتطلب من الحكومة إغلاق جريدتى وطردى من وادى النيل ؟ فلماذا يقوم رياض بعد أن نصرنا الله على فرنسا بالانفراد بثمرة الاستقلال دونى أنا ثم يتهرب منى كأننى غريم يريد مزاحمته على مزرعة ورثها عن أجداده ؟ لقد كان على رياض بعد أن أصبح صاحب الأمر فى لبنان أن يتذكر أنه ما وصل إلى مركزه هذا إلا على أكتاف اخوانه ، وأن من أوجب الواجبات عليه أن يستدعيهم ويشركهم فى الأمر وفى خدمة البلاد التى جاهدوا من أجلها . فهذا حق طبيعى لهم ، وإذا كانت ظروفى لشدة عداوتى للاستعمار وتعدد الجبهات التى أحاربها من جبهاته ، وبقائى حتى الآن مشتبكا فى المعركة معهم ومع أذنابهم وبقاياهم ، فليس معنى هذا إنه يجب أن أظل حيث أنا وأن ينفرد رياض وحده بالاستقرار والسلطان ، بل يزيد على ذلك بأن يجامل الاستعمار على حسابى بل يجامل بقاياه أيضا أمام عينى وعلى مشهد منى !

لماذا لم يمكنى رياض من سكنى لبنان مثلا ، لأرشح نفسى للبرلمان فأكون وزيراً ورئيسا للحكومة مثله ، أو على الأقل مثل الطفيليين الذين أصبحوا فى لبنان نوابا ووزراء ، فيهم العشرات ممن كانوا أعوانا لفرنسا وكنت أنا ورياض نضج منهم ونحاربهم ، فإذا برياض يتخذهم الآن زملاء ، ويشتغل معهم !

رياض يتغير مع الجميع

بقيت متألمًا من فعلة رياض بك إلى أن بلغنى من أخباره مع أصحابه الآخرين ما يدل على أن الرجل قد أصبح مع الناس أيضا غيره بالأمس ، وأنه منذ وصل إلى الحكم تقمص شخصية أخرى وأصبح رجلا مخيفًا خطراً . يغدر ويبطش ، ويكيد لأصحابه وإخوانه ، ويتنمر لكل من أحسن إليه . تخفف ذلك من غيظى . وهون من فجيعتى فيه مادام سواى أصبح يعانى من تنكره ما عانيت ، ويذوق من خليقته ماذقت ، وهذا طبيعى ، لأن الخير إن كثر وعم قلت قيمته وأصبح عاديا ، فكيف بالشر وصيرورة الناس فيه سواء ، فهو يصبح كذلك عاديا ومألوفا ، فيخف الألم منه ، وقد قيل إن الموت مع الناس رحمة ...

صورة رياض بعد أن خرج من « السياج » وأصبح « صاحب الدولة » فهو يمشي بعد ذلك بين صفين من الجند يحيونه برفع البنادق كلما راح أو جاء ...

رياض يزورني ...

وبعد ذلك بسنين ، وكنت قد انطلقت من قيودي السياسية بعد زوال الأحكام العرفية أقيمت لتكريمي على أثر زوالها حفلة كبرى بفندق الكونتيننتال[١] وبلغ رياض ذلك ، وأن قلمي أيضا قد انطلق وصارت مقالاتي تملأ الصحف وأنني اتخذت إدارة كبيرة استعداداً لإصدار الجريدة، فلما زار مصر بعد ذلك هرول بكل جرأة إلى زيارتي فلم يجدني فانتظر بالباب طويلا ولما أبطأت في الوصول إلى مكتبي ترك لي بطاقته مع أساتذة من فلسطين كانوا ينتظرونني فلما أعطوني بطاقته وقالوا إن « صاحب الدولة » وقف معنا برهة ثم هرب من المطر ضحكت في نفسي وقلت عجيب أن يجود رياض بوصل حين لا ينفع الوصل !

بهلوان !

وبعد ساعة جاءني السيد حسين العويني أحد أغنياء الحرب في لبنان وهو صديق ومن تلاميذ رياض . وقد جعله رياض بك بعد ذلك نائبا لبيروت[٢] فقال حسين : بلغني أن رياض بك

(١) سيأتي حديثها .

(٢) ثم جعله رياض بعد ذلك وزيراً فرئيساً للوزارة لأسباب انتخابية يتظاهر فيها رياض بالزهد في الحكم فيعمل له العويني انتخابات تعيده إلى الكرسي على أن يضمن للعويني العودة إلى وزارة المالية ويخلده فيها وبهذه الطريقة يستطيع رياض أن يقول للناس إن الشعب هو الذي يريدني وها هو قد أعادني بواسطة انتخابات حرة..

كان عندك فهل رضيت عنه ؟ فقلت أستغفر الله ، ومن أنا لأغضب أو أرضى عن صاحب الدولة ؟ فقال إنه كان عندك الآن أليس كذلك ؟ فقلت نعم وله الشكر العظيم ! فقال العويني ألا ترى أن من الواجب أن ترد زيارته ؟ فقلت له اسمع ياحسين : أنا بمجرد رؤيتك تدخل مكتبي أدركت أنه أرسلك لتستدرجني إلى رد زيارته، لأن هذه هي طريقته في الحياة ، وقد اعتاد أن يعمل أمثالها وأخواتها مع سواي، وكنا نقدر له هذه الشطارة على أعداء البلاد فإذا به « يتشاطر » علينا نحن أيضا ! فقال إن رياض سيسافر غداً ، فقلت على الطائر الميمون ! فقال ولكن إن سمع الناس بمجيئه إليك وإهمالك رد الزيارة فماذا يقولون عنك ؟ فقلت له وهل أنت مسئول عن آدابي وتهذيبي ... دعهم يقولوا إنني متوحش وغير مهذب !! ثم صرفت العويني بالحسنى فانصرف ، وسافر رياض بالسلامة والعافية عائداً إلى بيروت ...

لعبة ...

يقول ابن عم لرياض إنه هو الذى جاء إلى مكتبي وتظاهر بأنه صاحب الدولة ثم ترك البطاقة المطبوع عليها اسم رياض ومضى ليستدرجنى إلى زيارته بدون أن يزورنى ... فإن صح هذا فمعناه أن رياض لا يمكن أن يغير طبيعته وعاداته ، وهى ترتيب الألاعيب وحياكة الصغائر ، وتلفيق المناورات الرخيصة ، لأنى أعرف الكثير عن وسائل رياض وأساليبه ، وكم ساعدته أنا على مثلها وعلى ماهو أبدع منها ، ومنها واحدة حصلت فى لبنان سنة ١٩٣١ إذ شكا إلى رياض من حادث وقع بينه وبين المرحوم جبران توينى وزير معارف لبنان فى تلك الأيام ـ ثم وزير لبنان المفوض فى الأرجنتين بعد ذلك ـ وأنه يود أن يتصالح معه ولا يدرى كيف يكون ذلك على أن «تتم الصلحة» بشكل كريم لايذله أمام التوينى وأمام الناس، فقلت لرياض لاعليك، ثم نزلت إلى بيروت فزرت التوينى بمكتبه بوزارة المعارف اللبنانية وعرفته بنفسى بحكم الزمالة ـ لأنه كان من رجال الصحافة ـ وبعد ذلك استدرجته ليزورنى فى مصيفى ببلدة عاليه، ثم رتبت الأمر مع رياض ليجىء بغتة فيتم الاجتماع عندى ويجرى العتاب ، بدون أن يشعر أحد ...

والظاهر أننى زرعت فحصدت ، لأنى شجعته على بهلوانياته فراح يلعب علىّ مثلها بل

ويطبقها عليّ أنا ! ولذلك لا أستبعد أن يكون رياض قد بعث ابن عمه قبل موعد مجيئى إلى مكتبى ليترك لى البطاقة بالباب ويهرب ... ثم يبعث رياض بحسين العوينى بعد ذلك بساعة ليستدرجنى إليه بفندق شبرد وأنا أظن أننى أرد زيارة ، فى حين أنى أكون فى نظر رياض قد ذهبت إليه مبتدئاً ... فما أرخص هذه الوسائل !

رياض يعود إلى مصر ثانية

وفى صيف ١٩٤٧ جاء رياض إلى مصر بمهمة رسمية فجاءنى صديقه وصديق أكرم بك زعيتر المجاهد الفلسطينى يقول إن رياض استشاره فى زيارتى ، فقلت لأكرم دعه ولا تشجعه على المجىء ، فقال وإن صمم ؟ فقلت تنصحه بأن لا يجىء . فقال وإن جاء فعلا ؟ فقلت سأرفض مقابلته ومقابلتك معه ، فالأحسن أن تحول دون وقوع ذلك حتى لا تحرجه وتحرجنى ...

رياض يعيد الكرة ...

وفى ديسمبر ١٩٤٧ جاء رياض إلى مصر بمهمة رسمية أيضاً فكنت أعتذر يومها عن حضور كل حفلة أرجح أنه سيحضرها ، ثم صار يبلغنى عنه أنه كان فى جلساته بصالون فندق شبرد دائم التظلم للأصدقاء من استمرار كدرى منه ويقول : والله أنا اجتهدت فى رؤيته عند الزيارة الأولى فلم أتمكن ، ثم فتشت عنه فى المرة الثانية وزرته فلم يرد زيارتى ...

بلغنى هذا فلم أستغربه ، لأن ضمير الإنسان مهما كان غليظاً أو ناعماً فلا بد له من أن يستيقظ يوماً ما ، وأن يعذبه لا محالة ، فرياض قد أتى أمراً غير كريم لم يسبقه إليه أحد ، ولذلك نهض ضميره من سباته ، أو أنه كان يخشى الفضيحة أمام الناس فتحرك ... ولكن استيقاظ الضمير يجب أن يكون قبل فوات الأوان ، فقد كان رياض قاسياً معى ، ونكوراً لإخائى الذى ما حلم بمثله من أحد ، وقد وصفه هو بنفسه فى رسائله إلىّ فإذا به يجزينى جحوداً وتنكراً لم يصدر مثلهما من بشر .

أنا لست حقوداً ، وقد لحظ القراء ولا شك أننى مولع بالتحدث عن مكارم أهل الفضل معى ، وإكبارى كل معروف أسدى إلى من الناس ، وهو ما يجب أن يكون ، فأديت الشكر للجميع ، وطالما اعتبرت الابتسامة فى أيام المحنة إحساناً فشكرتها ، فمن حق إذن

أن أشمئز من فعلة أخى رياض بعد صداقة العمر وأخوة الحياة ، وكيف لا أتألم ولا أحمل حفيظة لمن كسر خاطرى فى أيام كنت فيها محتاجا إلى حنان الأصدقاء وحنانه هو على الأخص، تلك زجاجة قد حطمها رياض بكل قسوة أبشع تحطيم ، وألقى بذراتها فى الهواء على صورة لا يمكن تلافيها ، على أنى مع ذلك لم أقم بعمل يكدره ، ولا أعنت عليه خصومه ، بل اكتفيت بصرف النظر عن قبول عودة الصلة معه ، وهذا من حقى وأضعف جزاء له، فهو رجل مخوف خطر يستسهل الزهد بإخوانه ، والغدر بأصحابه، ويدوس أصدقاءه بدون أن يصيح ضميره من أعماق نفسه ويقول له يجب أن تتروّى ياهذا، فالذى تصنعه مع إخوانك فظيع لا يليق أن يصدر من مجاهد أعطاه الله ، نحو زميل لا يزال فى وسط المعركة ، ولا يزال يكتوى بنارها ، ولا أمل له بأن يرى شيئاً فى حياته يجبر خاطره ولا أن يصل إلى شىء يهون عليه مصيبته .

يجب أن لا أقبل عودة صداقة رياض بعد أن كان منه ما كان ، بل يجب أن أفقده وأن أطلب من الله العوض ، وأن أتحمل ألم خسارته حتى لا يستسهل مرة أخرى هو أو سواه ارتكاب ما ارتكبه معى ــ مع غيرى ــ معتمداً على الغاية التى تبرر الواسطة وأنه ما أسهل عليه بعد سحق صديقه أن يعود فى فرصة أخرى فيستغفله بابتسامة مفتعلة أو كلمة اعتذار لا قيمة لها ، لأنها لن تصدر من قلبه ، ولاسيما بعد أن يكون قد جرحه ذلك الجرح البليغ وخيب آماله وقهره ، واستهان به واستن فى الصداقات أسوأ سنة ، إن درجت بين الناس اقتداء به كان ذلك مفسدة وتشويهاً لأجمل شىء فى الحياة الإنسانية وهو الوفاء الذى إن فقد منها أصبحت الدنيا بدونه كأنها جهنم والعياذ بالله .

كتاب نظرات الشورى

وكنت قد وضعت سنة ١٩٣٢ كتاباً بهذا الاسم كان لرياض فيه نصيب الأسد ، من تقريظ ومدح وإشادة بذكره ، فهذا الكتاب قد نفد، وأما بقية نسخه فإننى جمعتها وأحرقتها حتى لا يطالبنى الناس بأن يكون رياض الآن مثل رياض الذى كان بالأمس . فأنا كتبت عن رياض قبل ٣٠ عاماً ما كان عليه رياض فى ذلك الحين، أو عن الصورة التى كان يظهر أمامى

فيها ، فكتبت ما يجب أن يكتب عما كنت أراه ، أو كان هو يربى إياه ، فإذا كان هو قد تغير فما أنا المسئول ، والذنب ليس ذنبي ، بل ذنب الذى خيب الأمل وتغير . أما ذلك الكتاب فيكفى وصف رياض له ، فقد كتب لى ساعة اطلاعه عليه يقول إنه أمسك به يلتهمه التهاماً وانه « لم يرفع عنه رأسه حتى رفع هو رأسه » وهو تعبير طريف بلاشك. والكتابة التى كتبتها فيه عن رياض كانت مما يرفع رأسه فعلا . وإذا كان بعض قراء هذه السطور يملك نسخة من كتاب النظرات ويريد أن يحاسبنى عما فيه عن رياض فما أحراه أن ينزع منه ما كتبت فيه عنه ، فأنا برئ من ذلك الكتاب وإنى تائب عما فرط منى فيه ، فأنا لم أتعمد غش الناس ، ولكنهم هم الذين خدعونى وغشونى ، فإن كان رياض فى ذلك الحين كان صادقاً ثم تغير وهو لايشعر فأنا معذور ، وإن كان فى أيامها يخادع الناس عن تعمد، فأنا أيضاً معذور لأنى انخدعت ، أما الذى لا يعذرنى عليه الناس فذلك أن أكون عارفاً بالحقيقة ومطلعاً على المخادعة، أو أننى كنت أتعمد غشهم، ولكنى والله ماقصدت غش أحد ، ولا نويت فى حياتى أن أغش أحداً ، والله عليم بذات الصدور .

ولا يزور النحاس باشا !

إن الدنيا كلها تعرف لمصطفى النحاس باشا لما كان رئيساً لوزراء مصر سنة ١٩٤٣ قيام حكومته على فرنسا من أجل لبنان لما اعتقلت رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخورى ورياض الصلح رئيس الوزارة نفسه وغيرهما ، وسماح النحاس باشا للشعب المصرى بإظهار شعوره مع لبنان ضد فرنسا، وكيف مشت المظاهرات فى مصر والإسكندرية ومدن القطر كله فوقع فيها قتلى وجرحى من شباب مصر فى سبيل لبنان . وقد تحطمت متاجر الفرنسيين ، ثم هدد النحاس باشا فرنسا بالقبض على جميع رعاياها ومصادرة أملاكهم وبنوكهم ، ولم يزل النحاس باشا يعمل يومها حتى أرغم فرنسا على إطلاق رئيس الجمهورية وإطلاق رياض ومن معهما .

هـذا كله معروف عند الجميع ومقدور قدره للنحاس باشا أبد الدهر ، ولكن الذى لايعرفه الناس هو أن رياض حين كان يزور مصر بعد إقالة وزارة النحاس باشا كان يتنكر له

وما عاد يزوره ولا يريه وجهه مطلقا ! بل إنه كان يبخل عليه ببطاقة بباب داره ، ولو مثل البطاقة التى تركها لى فى العام الماضى ...

وكان رياض يحتج لتسويغ هذه القطيعة لولىّ نعمته النحاس باشا بأن النحاس وهو خارج الحكم كان غير حائز على رضاء الجهات العليا ، وإنه لذلك مضطر إلى مجاملتها ، فهذا العذر غير معقول ولا مقبول ، لأن مزاحم بك الباچه جى رئيس الوزارة العراقية سابقا ، واحمد حلمى باشا رئيس حكومة فلسطين ، وتحسين بك العسكرى وزير العراق المفوض بمصر كانوا وهم فى مناصبهم لايتركون مناسبة دون أن يزوروا النحاس باشا ويجاملونه ، فلم يحصل شىء لهم ولا لمناصبهم ولا غضب عليهم أحد ، ولكن طبيعة النكران الانتهازية عند رياض والعياذ بالله هى هى لايمكن أن تتغير ، فهو يقبل عليك إن رآك قويا ، ويقبل يدك إن احتاج إليك ، ثم لا يتورع بعد خمس دقائق عن الإشاحة بوجهه عنك إن استغنى عنك ، ولابأس عنده من أن يدوس على جثتك إن احتاج الأمر إلى شىء من هذا الإجراء الحازم فى نظره ..

رياض يعيد الكرة أيضا

وفى شهر فبراير ١٩٤٨ جاء رياض الى مصر لحضور مجلس جامعة الدول العربية ، وإذا بصديق وصديق رياض الأستاذ إميل خورى يزورنى ويقول إنه يتمنى أن نعيد صفحة من الماضى الذى كان منذ أكثر من ربع قرن ، بأن يجىء فى صباح الغد إلى دارى لنفطر الفول المدمس والطعمية ! فأدركت غرضه فوراً وفهمت كل شىء يخفيه هذا الاقتراح ، فقلت له إنى مسرور وسعيد بهذه الفكرة ولكنى أشترط أن نكون وحدنا ... فقال كلا بل نكون ثلاثة كما كنا معاً قبل ٢٧ عاماً ، ولذلك سأجىء فى صباح الغد أوالذى بعده ومعى رياض ... فقلت له إن رياض فى نفسى قد انتهى ومن غير الممكن أن تعود علاقتنا القديمة ، لأن الذى صنعه معى كان أليماً ، فقد قهرنى وكسر خاطرى فى وقت كنت محتاجاً فيه إلى عطف الاصدقاء وخصوصاً عطفه هو ؛ أما وقد فات الأوان وحطم صرح الأخوة على تلك الصورة القاسية المفجعة التى ارتضاها لنفسه وارتضتها خلائقه وصارت عادة له مع إخوانه بأن يسحقهم عند الاقتضاء ، ثم يتبصبص لهم إن شعر بقوتهم ، أما وقد تقمص رياض شخصية أخرى ، أوأنه عاد

إلى شخصية حقيقية كان يخفيها عني وعن الناس وكنا نجهلها، فلا يجوز أن أقبل رجوعه الآن ولا أن أشجعه عليه، وإذا كان بعض الناس قد انخدعوا به أو ضعفوا أمام أساليبه وحيله هذه حتى أصبحت ملكة عنده، فأنا لن أكون ضعيفاً مثلهم، بعد أن لدغت منه ومن أمثاله غير مرة، ولذلك فضلت نهائيا أن أخسر صداقة « صاحب الدولة » إلى الأبد، بعد أن كان « صاحبي أنا! » لأني صرت أشعر بأني - بعد أن فجعني هذا الرجل الرسمي الشاطر هذه الفجيعة - لا أصلح إلا لمعاشرة الشهداء الأحياء، وصداقة المنكوبين وصحبة المظلومين ...

فلما رأى الأستاذ إميل خوري هذا الإصرار مني، إذا به ينقلب بغتة من عاتب مستشفع إلى عاذر وموافق على فكري، ثم أخذ يفضي إليّ بفصول عجيبة لرياض عملها معه هو، فقد كاده، وغدر بمودته وأساء إليه؛ فتعجبت من أفاعيل رياض حتى مع إميل، أستاذه الذي احتضنه ودربه على العمل السياسي، كما أن أفضاله على رياض لا يمكن الإحاطة بها، وقد كانت الصداقة بينهما أكثر وأوثق مما كانت بيني وبين رياض.

إذن فأنا مصيب في زهدي بهذا الرجل، ويجب عليّ وعلى أمثالي أن نجعل هؤلاء الذين يصبحون بعد الصعلكة والتشرد حكاماً وأصحاب ألقاب أن يفهموا أن مناصبهم وألقابهم لا تساوي شيئاً أمام الأخلاق الكريمة، وأننا معشر العاطلين من الألقاب الرنانة والوظائف المبهرجة نشعر بالكرامة ونعتز بأنفسنا وبأعمالنا، وليس بالمناصب الزائلة ولا بالألقاب الكرتونية التي تطوقهم ببريقها فترة من الزمن حتى إذا زالت عنهم مال حالهم. فيجب والحالة هذه إذلالهم وكسر رؤوسهم التي رفعناها بجهادنا، فلما ظنوا أنهم قد ارتفعوا صاروا يتعالون علينا، بعد أن سرقوا أخلاقنا وجهادنا، ولم يكفهم هذا بل استسهلوا التبرؤ من أخلاقهم الفاضلة التي كانت ترفعهم في أيام الجهاد إلى مرتبة الأبطال بل انتكسوا والعياذ بالله وراحوا يهينوننا ..

رياض وهو حاكم

أما وقد عرف القارئ أخانا رياض الصلح مجاهداً ومنكوبا يتعذب ويتظلم، وصديقاً يتنكر، فيجب أن يعرفوه حاكما يتحكم ... لأن رياض بعد أن أصبح رئيسا للوزارة اللبنانية صار يطارد الأحرار والمجاهدين وطلاب الإصلاح والإنصاف، ويكيد للمخلصين للبلاد ويحارب

الكفايات، ويضطهد الصحافة الحرة ويعطلها إدارياً، ويسجن الصحافيين ويطبق عليهم قوانين فرنسا بعد أن عدلها على صورة لا يمكن لصحفي بموجبها أن يقف أمام محكمة إلا أرسلته إلى السجون - مع العلم بأن فرنسا لم تحبس أى صحفي فى أيام الانتداب الفرنساوى - ثم صار صاحبنا رياض بك يستعين فى إدارة الدولة ببعض الأشرار والخونة «والقبضايات» والأشقياء والنهابين حتى اغتنوا جميعاً ...

المرحوم عبد الحميد كرامة

وممن عاداهم رياض وكان يكيد لهم ويحاربهم ، المرحوم السيد عبد الحميد كرامة رئيس الوزارة الأسبق ، وهو الزعيم النظيف العفيف الصلب المتين، الذى كان يلقب «بمصطفى كامل بر الشام » فقد حاربه رياض بأساليبه وحيله ، وغدره وكيده، حتى قصَّر له عمره، فمات مكموداً مقهوراً منه[1] ولما أجرى رياض بك الانتخابات النيابية سنة ١٩٤٧ ارتكبت حكومته نفس الأساليب التى كان يقترفها الافرنسيون فى أيام الاحتـــــلال مع المخلصين ومع رياض نفسه حين كان منهم .. وقد وصفت جريدة «بيروت» فى عددها الصادر يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٧ أعمال رياض فى تلك الانتخابات بما نصه حرفياً :

وصف عهد رياض

« إنهم - ونعنى رجال الحكومة اللبنانية - يفرضون علينا نوابا تلاعبوا بمقدراتنا . واستغلوا مواردنا وأفقروا أبناءنا وبعثوها ثورة حمراء دامية فى طرابلس وغير طرابلس ، وتاجروا بالمخدرات ، وهربوا السلاح وتخطوا القوانين ، وحموا القتلة والسفاكين وأوكار القمار ، وبددوا أموال الخزانة ، وأموال دافع الضرائب ذات اليمين وذات اليسار ، وتاجروا بحصص الاستيراد والتصدير والنقد النادر ، وتركوا أهل لبنان يلفظون أنفاسهم من المرض والجوع والفقر . فهل ندع هؤلاء يصلون إلى النيابة ؟ وهل نتركهم يتحكمون فى رقابنا أربع

(١) توفى المرحوم عبد الحميد كرامة فى أواخر سنة ١٩٥٠ فاهتز العالم العربى لفقده وشيعته الأمة بمأتم قوى حتى ان رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخورى سافر بنفسه مع نعش الفقيد العظيم إلى طرابلس الشام ومشى فى جنازته - والغريب أن رياض حضر الجنازة وراح يؤبن المرحوم ويبكيه على قبره بعد أن أماته قهراً ، وكأنه لم يصنع معه شيئاً ، كما غسل بيلاطس البنطى يديه مدعياً أنه برىء من صلب المسيح ...

سنوات جديدة يهلك في أثنائها الزرع والضرع ، ويفنى اللبنانيون بعد أن ذقنا الأمرين من هؤلاء النواب وضجت من عيوبهم الأرض والسماء » .

ووصفت جريدة أخرى تلك الانتخابات بقولها :

« ولكن رياض الصلح الذى لعب لعبة الاستعمار بالنسبة إلى وادى النيل بتوسطه بين النقراشى والمستعمر لفرض مشروع الحماية الجديد على مصر، يلعب لعبة الاستعمار الأثيم أيضا لمنع الشعب اللبنانى من التعبير عن إرادته فى انتخاب مرشحيه الحقيقيين . فقدمت الحكومة قائمة مرشحيها، وأمرت القوات المسلحة بالتدخل بالقوة لمنع الناخبين من التصويت لمرشحيهم واتبعت الطرق « الصدقية » بمصر فى تزييفها لإرادة الشعب اللبنانى ... إلا أن الجماهير اللبنانية لم تقف مكتوفة الأيدى أمام هذا الاعتداء الصارخ على حقوقها .. هذا الاعتداء الذى يهدد وطنها واستقلالها ، فقامت المظاهرات فى جميع أنحاء البلاد ونودى بالإضراب العام ، وانسحبت العناصر الوطنية من الانتخابات ، وألفت جبهة ديموقراطية لإنقاذ حرية الوطن واستقلاله ، وأعربت عن استنكارها الاعتداء الحكومة المسلح على حرية الشعب ، وطالبت بإلغاء الانتخابات المزيفة ... فاضطر رئيس الجمهورية أن يصرح بإمكان إلغاء الانتخابات إذا سمح بذلك الدستور !! » .

رياض ينفذ قوانين فرنسا ضد الوطنيين !

وفى أوائل أغسطس ١٩٤٧ قام زعماء البلاد اللبنانية ـ الذين أوصلوا رياض إلى الحكم ـ بعقد مؤتمر فى صوفر برياسة المرحوم السيد عبد الحميد كرامة رئيس الوزراء سابقا للنظر فى حالة البلاد التى أهلكها رياض ورهطه ، فإذا برياض يطبق عليهم قانوناً وجده بين مخلفات فرنسا ، وكانت قد أصدرته فى سنة ١٩٣١ لمحاربة الحركات الوطنية ومحاربة رياض نفسه لما كان مجاهداً ، وهو يعرف بقانون ٤ حزيران ١٩٣١ ويعاقب بالحبس والغرامة ، فأرسل رياض الجيش اللبنانى لحاصر مدينة صوفر ومنع الدخول إليها والخروج منها وجعل الطيارات تحلق فوقها للإرهاب، مقلداً بذلك فرنسا فى أيام الاستعمار ومقلداً أستاذه النقراشى فى مصر ...

رياض وأنطون سعادة

وقد بلغ من انقلاب رياض على ماضيه الطيب أنه أصبح فتاكا شديد البطش بالأحرار والمصلحين ، ولعل أبرز ما كان منه لشدة خوفه على كرسى الحكم من أن يفلت منه ، أنه أخذ يشغل قوة الحكومة لمطاردة الحركة القومية التى بعثها المرحوم أنطون سعادة رئيس الحزب القوى فى لبنان ، بدلا من أن يهتم بمصير فلسطين التى ضاعت على يديه وعلى أيدى أمثاله من متزعمى العالم العربى ، فجعل حركة أنطون سعادة تواجه عدواناً مسلحاً من حكومته سنة ١٩٤٩ فساق عليها رياض قوة عسكرية ـ كان يجب أن تتجه لحماية أرض لبنان نفسه من اليهود ـ وكانت النتيجة أسر المرحوم أنطون سعادة بعد أن غدر به حسنى الزعيم الذى تغلب على سورية أشهراً وأراح الله العباد منه ـ أقول إن رياض شكل محكمة فى نفس الليلة التى وقع فيها أنطون فى قبضة الحكومة اللبنانية ، وجعل محكمته تحكم فى تلك الليلة ذاتها بإعدام المرحوم أنطون سعادة ، ثم جعل جلاديه يعدمونه فى الليلة ذاتها !

وكانت النتيجة أن رياض بك الصلح المجاهد القديم أصبح فى مثل حالة ابراهيم باشا عبد الهادى « الذى اتهمت حكومته باغتيال المرحوم الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين بالقاهرة » فأصبح رياض يعيش عيشة الخوف والفزع من أن يغتاله أنصار أنطون سعادة كما يعيش ابراهيم عبد الهادى الآن تحت الحراسة الشديدة التى تضيق الأنفاس ، وقد لمحت رياض الصلح فى صيف ١٩٥٠ بفندق سان ستيفانو بالاسكندرية ، فإذا به محروس حتى فى القطر المصرى كما يحرسونه فى لبنان بل أكثر ، بل إن رياض لايجىء مصر إلا إذا جاء معه مدير الأمن العام اللبنانى وبعض رجال شرطته ليشتركوا مع بوليس مصر فى المحافظة عليه !

ولما اعتزل رياض رياسة الوزارة اللبنانية فى شهر فبراير ١٩٥١ مضطراً تحت ضغط الحوادث ، قررت الحكومة اللبنانية إبقاء الحراسة عليه وهو خارج الحكم كما كانت وهو فى الحكم ، فما أسوأ هذا المصير لمن ينقلبوا على أمتهم ويعادون قومهم ...

أثناء الهزيمة فى فلسطين

وقبل أن أختم الكلام عن صديق رياض ، أحب أن أجيب هنا على سؤال ، وهو لماذا لم يصنع الجيش اللبنانى شيئاً فى حرب فلسطين ؟ فأقول : إن القوة اللبنانية مشغولة دائما فى القتال مع اللبنانيين أنفسهم ، فبعد قصة أنطون سعادة روت صحف بيروت نفسها ، ومنها جريدة النداء البيروتية ـ وهى من الصحف الصديقة لرياض ـ بعض الحوادث عن بلاد بعلبك والهرمل فى عددها الصادر يوم ٣٠ اغسطس ١٩٥٠ وهذه عنوانات ما نشرته النداء وهى تكفى لتصوير الحالة فى عهد رياض وعلى يديه « بريتال، والخفر ، ويونين، ووادى رعيان، تحت نيران المدفعية ـ نسف منازل الذين أهملوا إنذار الجيش ـ طائرات وقنابل ـ هل أطلقوا النار على طائرات الحكومة ـ نزوح القطعان والطروش الخ » ونشرت جريدة الشرق البيروتية عن تلك الغزوة العسكرية العنوانات التالية :

هكذا أصبحت صحف لبنان تصور رياض بك الصلح الذى كان مجاهداً فأصبح طاغية!

« حملة عسكرية على أربع قرى لبنانية ـ الطائرات والمدافع تساهم فيها ـ لم يشاءوا التسليم فزحفت الحملة بجحافلها لتأديب القرى » ثم وصفت الصحف كيف دكت مدافع رياض الصلح منازل الأبرياء كما ذكرت الصحف أنها من المدافع الثقيلة ، وكيف كانت الطائرات تقذف قنابلها على القرى الخ الخ .

فالذى لم يفهمه الناس هو : أين كانت هذه الجيوش والمدافع الثقيلة والطيارات المدمرة فى أثناء المعارك مع اليهود فى حرب فلسطين ؟ بل أين هى «الجيوش» الآن فى سنة ١٩٥١ ونحن نقرأ كل يوم فى الصحف أخبار هجمات اليهود على الأراضى اللبنانية والبطش بالقرى ونهبها وسلب مواشيها ودك عمرانها ؟

حسن الجزاء

أيام هناء

أظن أنه قد آن الأوان لأن أضع حدا لـكدر أصدقائى الذين مروا بهذه الصفحات التى عرضت عليهم وصف جانب من حياة مكدرة ومافيها من منغصات فآلمتهم وأحزنتهم، فيحسن بى أن أدخل شيئاً من السرور على قلوبهم بوصف ليلة مبهجة أنستنى جميع آلامى ومصائبى، وكانت أكرم جزاء عوضنى عن جميع متاعبى .

فنى خريف ١٩٤٥ ألغيت الأحكام العرفية، وبذلك تم إطلاق من كل قيد سياسى يقيد حريتى، فأخذت أعد المعدات لإقامة حفلة شاى تجمع أصدقائى الذين كانوا يتألمون من أجلى وأنا سجين، والذين كانوا يساعدوننى وأنا هارب من السجن، والذين أمدونى بفضلهم ومودتهم،وآنسوا وحشتى وأنا تحت الرقابة العسكرية، مقيد الحركة، مكسور القلم، معتقل اللسان.

لجنة احتفال

وإذا بالسيد الجليل عبد الله الجفرى يزور مصر مرة أخرى : فلما درى بخبر إعدادى الحفلة قال والله إنه لأوجب على أمتك أن تقيم لك الحفلة لا أن تقيمها أنت، ثم اجتمع ببعض الأصدقاء،وشكلوا لجنة تقوم بها وكانت اللجنة مؤلفة من حضرات الأصدقاء الفضلاء الآتية أسماؤهم:

السيد عبد الله بن علوى الجفرى : رئيس نادى الأدب العربى بعدن، والأستاذ الحبيب بورقيبة : رئيس الحزب الدستورى بتونس، والأستاذ أحمد حسين المحامى : رئيس حزب مصر الفتاة، والأستاذ الفضيل الورتلانى : سكرتير جبهة شمال أفريقيا، والسيد اسماعيل بندا : معتمد لجنة استقلال اندونسيا، والسيد محمد بن سميط : رئيس نادى الشبان العلويين .

وبعد ذلك وجهت اللجنة البطاقة التالية :

« بمناسبة إطلاق الحرية السياسية للمجاهد العربى الأستاذ محمد على الطاهر تألفت لجنة بالقاهرة لتكريمه واستقبال جهاده فى خدمة العروبة والحرية، فلجنة الاحتفال تتشرف بدعوتكم إلى تناول الشاى بفندق الـكونتننتال الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٤٥ ولـكم الشكر » .

مصر ٢٢ أكتوبر ١٩٤٥

معتمد اللجنة : عبد الله بن علوى الجفرى

ابن ملك اليمن

وكان حضرة صاحب السمو الملكى الأمير سيف الإسلام عبد الله بن حميد الدين «شقيق جلالة الإمام الناصر لدين الله ملك اليمن الحالى » لا يزال فى القطر المصرى وكان فى أيامها يصطاف فى الاسكندرية .

فلما علم بنبأ الحفلة تلطف تفضلا منه وكرما بإرسال مبعوث من قبله يقول للسيد الجفرى إن سموه الملكى سيحضرها بنفسه ، وقد جاء سموه قبيل الحفلة بدقائق قادماً من الإسكندرية بطائرة خاصة ، ومعه أركان الوفد اليمانى وهم السادة القاضى محمد بن عبد الله العمرى والعلامة السيد على المؤيد والسيد حسين الكبسى « رحمه الله » والسيد هاشم بن هاشم .

فلما سمع المدعوون الذين بدأوا يفدون على الحفلة بوصول موكب سمو الأمير الجليل هرعوا معى إلى الباب الخارجى للكونتيننتال ، فرحبنا بسموه ، وأخذت لى ولهم صورة معه ، وبعد ذلك صعد سموه إلى الشرفة حيث أخذت له وبعض الذين وصلوا إلى الحفلة صورة أخرى

استقبال سمو الأمير سيف الإسلام وإلى يمينه سعادة سفير الأفغان السيد صادق المجددى وإلى يساره محمد على الطاهر

سمو الامير سيف الإسلام المعظم يتوسط الصورة فجلست الى يمينه عند علامة ×
وجلس الى يساره السيد عبد الله الجفرى صاحب الدعوة

وصف الحفلة نقلا عن جريدة مصر الفتاة

أقيمت فى الساعة الخامسة من مساء الأحد الماضى ٢٨ اكتوبر ١٩٤٥ بفندق الكونتننتال حفلة الشاى الفاخرة التى دعت إليها نخبة من كبار رجالات العرب والمسلمين تكريماً للمجاهد العربى الكبير الأستاذ محمد على الطاهر بمناسبة إطلاق حريته السياسية بعد أن ألغيت الأحكام العرفية فى مصر. وقد أشرف على هذه الدعوة لجنة مكونة من حضرات السيد عبدالله الجفرى (لحج – اليمن) الأستاذ احمد حسين (مصر) والأستاذ الفضيل الورتلانى (شمال افريقيا) والأستاذ اسماعيل بندا (أندونسيا) والأستاذ الحبيب بورقيبه (تونس) والسيد محمد بن سميط (رئيس نادى العلويين).

وقد لبى الدعوة مئات من الكبراء والعظماء ورجالات العروبة والإسلام، من مصريين وأفغانيين وسوريين وفلسطينيين وعراقيين وجزائريين ولبنانيين وحجازيين وأندونسيين وتونسيين وصينيين وغيرهم .. وفى مقدمتهم حضرة صاحب السمو الملكى الأمير سيف الإسلام عبدالله وحاشيته الكريمة وقد حضروا من الإسكندرية بالطائرة خصيصاً لحضور هذا الحفل، والسيد صادق المجددى وزير الأفغان المفوض وأصحاب السعادة والعزة الأساتذة فؤاد أباظة باشا وعبدالرحمن الرافعى بك

والدكتور محمد صلاح الدين بك وكيل وزارة الخارجية السابق « ووزير الخارجية الآن سنة ١٩٥١ » ومهدي رفيع مشكي بك والسيد ميرغني الإدريسي والأستاذ محب الدين الخطيب والدكتور النعماني بك وفريد زعلوك بك والأستاذ شوقي أمين وعياد أبو الخير بك وإبراهيم فرج بك وعبد المجيد الرمالي بك واحمد عاصم بك ونجيب كنعان بك وفريد أبو عزالدين بك والأستاذ محمود تيمور بك وكامل كيلاني بك وعاصم النائلي بك ونسيب شهاب بك وحكمت الجادرجي بك والأستاذ الشيخ ابراهيم طفيش والشيخ يوسف عبد الرزاق الشهدى واحمد افندي حسن بدر وفوزي الملق باشا والأستاذ فتحي رضوان المحامي والشاعر عادل الغضبان بك والشيخ محمد الخضر حسين والسيد محمد العتابي والسيد محمد البابي الحلبي والشيخ ابراهيم مجاهد والسيد احمد جودة ومحمود لطيف بك وفريد رفاعي بك وعبدالقادر مختار بك وغيرهم وغيرهم ورجال السلك السياسي العربي ـ سورية ولبنان والأردن والعراق والحجاز ـ ورجال الأحزاب الذين يمثلون الهيئات على اختلاف نزعاتها ورجال الصحافة ، ووفد مدينة المنصورة الخ .

وقد خصص مكان للسيدات وقد حضرت منهن كثيرات من كرائم العقيلات وفي مقدمتهن السيدة هدى شعراوي باشا والآنسة حواء إدريس وحرم المحتفى به وحرم الأستاذ احمد حسين وحرم ميرزا رفيع مشكي وحرم الدكتور أمين رويحه بك والسيدة مفيدة عبد الرحمن المحامية وحرم الدكتور نخرى أسعد وغيرهن . وقد انهالت برقيات الاشتراك في الحفلة من مصر والبلاد العربية وكلها تحمل أرق التهاني وأطيب التمنيات للمجاهد الكريم . وقد ألقى كلمة الافتتاح السيد عبد الله الجفري رئيس نادي الأدب العربي بعدن وقد أشاد في كلمته بجهاد المحتفى به في سبيل الحرية والعروبة ، ثم تلاه الأستاذ الفضيل الورتلاني سكرتير جبهة الدفاع عن شمال افريقيا وسكرتير لجنة التكريم فألقى كلمة ، ثم تلاه الأستاذ احمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة فكانت كلمته هي تحية المجاهد الصادق لأخيه المجاهد الصادق وذكر بعض مالاقاه المحتفى به من آلام لم يتحملها وحده ، وإنما شاركته فيها السيدة الفاضلة حرمه ، وتحملت منها نصيباً كبيراً ، ثم تحدث الأستاذ الحبيب بورقيبه زعيم تونس والدكتور محمد صلاح الدين بك وميرزا رفيع مشكي بك والقمص عبد المسيح وفريد رفاعي بك وعيسى البندك ومحمود

لطيف بك . أما الشعر فقد كان له النصيب الوافر فقد ألقيت القصائد الرائعة من الأساتذة على الجندى ، ومحمد عبد الغنى حسن ، وعلى احمد با كثير ، ومحمد الأسمر ، والدكتور رشيد كرم بك . وقد دارت مناظرة شعرية رائعــة بين الأستاذين الجندى والأسمر عن الاستعمار فى الشرق ، ومن المسئول عنه هل هم المستعمرون أم هم الشرقيون أنفسهم ..

ثم وقف الأستاذ المجاهد محمد على الطاهر فى نهاية الحفل يشكر المحتفين به ، ويشيد بهؤلاء المجاهدين العرب المتقلين فى أراضى الدنيا كلها ، يلاقون مرارة الأسر ويتذوقون كؤوس العذاب ألوانا وألوانا ، ولم ينس هؤلاء الذين قضوا نحبهم فى ظلامات السجون والاعتقالات وعلى رأسهم المرحوم ناجى باشا السويدى وأمين بك التميمى والدكتور مصطفى الوكيل .

وقد عاهد الجميع على أن يظل كما عاش دائما ، مجاهدا من أجل العرب والمسلمين ، ولم يشأ المحتفلون أن تنتهى الحفلةدون اتخاذ قرارات للعمل والكفاح من أجل العالم العربى .

وليعذرنا القراء فى الاكتفاء بهذه الإشارة البسيطة ، فمجال هذا العدد لايسمح بأكثر من ذلك ، على أن لنا عودة لهذا الحفل العظيم فى العدد القادم إن شاء الله » .

خطاب الأستاذ أحمد حسين

لاأريد أن أدرج فى هذا الكتاب جميع مادار فى الحفلة ، فهو كثير ، فقد خطب وأنشد فيها ١٤ خطيباً وشاعراً ، ولكنى أدرج خطاب الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة بصفته زميلا فى سجون تلك الأيام ومن شهودها ، وخطاب صاحب المعالى الدكتور محمد صلاح الدين بك « وزير الخارجية الآن سنة ١٩٥١ » لأن خطابه لم ينشر فى الصحف ، قال الأستاذ أحمد حسين :

لعلكم تذكرون شوقى الشاعر العبقرى الخالد الذى قل أن يجود الزمان بمثله والذى أتحمس له حتى لأعتبره أعظم شاعر عرفته العربية على الإطلاق ، ذلك الشاعر العظيم كان له منافس قوى فى عصره فى شخص حافظ بك ابراهيم شاعر النيل وكانت هناك عصبة تتشيع لحافظ وتفضله على شوقى أمير الشعراء ، وكانت المجامع الأدبية كثيرا ماتنعقد حول المفاضلة بين شوقى

وشاعر النيل حافظ، فيغضب لذلك أقوام ويتعصب لذلك آخرون، إلى أن جاء الوقت الذى قررت فيه الأمم العربية كلها أن تكرم شوقى بمقدار ما ألف بين قلوبها وربط بينها وخلق شعره العربى الوحدة العربية قبل أن توجد بمظهرها الحديث، وجاءت وفود العربية من الشرق والغرب تكرم شوقى ووقف حافظ ابراهيم بين هذه الوفود يلقى قصيدته احتفالا بشوقى فاستهلها هذا الاستهلال الرائع الذى حسم به هذه المنافسة الأدبية التى قامت بين الرجلين إلى الأبد ولا أظن فيكم من لايذكر هذا البيت المدوى :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا   وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

قفز هذا البيت إلى رأسى بمجرد أن خطرت لى فكرة هذه الحفلة ووقوفى فيها متكلما فى تكريم الأستاذ محمد على الطاهر، فما أشبه الليلة بالبارحة وما أعظم النسبة بين شوقى والطاهر وما أشبه هذا الحفل بحفل شوقى الذى كرم فيه وبويع على زعامة الشعر .

جهاد قديم

لقد ربط شوقى بين الأمم العربية برباط من شعره الذى كان يتغنى به كل عربى، مامن موقف يثير السرور أو الشجن فى أى قطر من الأقطار العربية ألا وتصدى شوقى لتخليده وتسجيله ، مامن حادث، مامن مصيبة أو كارثة وقعت فى أى قطر من الأقطار العربية فى الشرق والغرب إلا وبادر شوقى مواسياً ومعزيا ومشجعا ومستنهضا الهمم، فربط القلوب وألف بينها وإذا كان محمد على الطاهر ليس شاعراً فأشهد أن أعماله كلها هى قصائد غر ميامين ، أشهد أن حياته فى حقيقتها قصيدة رائعة تقصر دونها قصائد شوقى الخالدة. وقد لاتكون الفرصة قد أتيحت لأبناء الجيل الجديد فى الدول العربية أن يعرفوا الكثير عن الأستاذ الطاهر، وقد تكون الوحدة العربية والتحدث فى الوحدة العربية قد أصبح اليوم على كل لسان وأصبح المتفاصحون يتفاصحون بها، ومحبو الظهور يتخذونها سبيلا لتحقيق شهواتهم ، إذا كانت الوحدة العربية قد ظفرت بطابع رسمى فى شكل الجامعة العربية قد جعل تحقيقها أقرب إلى الواقع منه إلى الخيال إذا كانت الجامعة العربية قد أصبح لها أمين يتفاوض باسمها ويستقبل رسمياً كممثل لجميع شعوبها إذا كان قد أصبح لها مجلس ولها دار ولها قوانين ولها قوة رسمية، فقبل ذلك كله كان الأستاذ

الطاهر ، يوم أن كان التحدث عن الوحدة العربية خرافة من الخرافات، يوم أن كان الاستعمار الأوربى قد نجح فى خلب البابنا بالفرعونية والأشورية والتركية ومختلف الأجناس ، فى ذلك الوقت الذى لم يكن فيه قطر عربى يفكر فى زميله ، كان الأستاذ الطاهر يعمل فى غير كلل أو ملل من أجل الوحدة العربية . أن الأستاذ محمد على الطاهر فلسطينى بحسب مسقط رأسه ، ولكن هل عاش كذلك فى مصر ؟ أشهد أنه لم يكن لفلسطين بأكثر مما كان لأى قطر من الأقطار العربية، أشهد أنه لم يكن لفلسطين بأكثر مما كان لمصر ، أى نائبة من النوائب أصابت العالم العربى فى أى ركن من أركانه لم يكن الأستاذ الطاهر أول من يسارع فيه إلى النجدة بالمال والقلم والقلب والروح كلها .. ألم يكن هو الرجل الذى وقف خلف كفاح عمر المختار وقفة جبارة يحشد له الأنصار فى مصر ويجمع له المال وينفخ فى البوق على صفحات جرائد مصر كلها للأخذ بناصر عمر المختار، حتى إذا كانت الحرب العظمى الماضية كان أول من اعتقل اتقاء لخطره وتهدئة لخواطر المستعمرين الإنكليز ، ولم يكد يطلق سراحه بعد هذا الاعتقال الطويل حتى قام يكافح ويناضل من أجل قضية مصر عند ماثارت ثورتها، ومن أجل قضية سوريا عند ماثارت ثورتها، ومن أجل قضية العراق عند ما أسست دولتها، وأخيرا من أجل قضية فلسطين عند ما أريد لها أن تضحى وتذبح على هيكل اليهود والصهيونية ، وإنى أستحلفكم بالله أيها السادة أنتم الذين عرفتموه وعاصرتم هذه المواقف هل رأيتموه فى يوم من الأيام إلا مكافحا ، هل رأيتموه إلا مواصلا الليل بالنهار كالسوط النارى يدفع بالمجاهدين إلى الأمام متصدراً الصفوف حينا وعاملا بالساقة حينا آخر، ظاهراً فى بعض المواقف وعاملا فى الخفاء فى مواقف أخرى، أسائل كل من عرف الأستاذ الطاهر فى يوم من الأيام هل وجده يوما شاكيا أو باكيا أو متراخيا أو متكاسلا فى خدمة قضية من القضايا ؟ لا يوجد اليوم طول البلاد العربية وعرضها من لم ينتفع بجهاد الطاهر، ومَنْ منا لم يدرك شيئا من ثمار كفاحه وإن لم يحس أو يشعر ، وإنى لأنظر إليكم وأسرح بصرى إلى خارج جدران هذه القاعة حيث أرى مجاهدين كانوا زملاء للطاهر وهم اليوم رؤساء وزارات أو برلمانات ، وهم يحتلون أكبر المناصب هنا وهناك ، أما الأستاذ الطاهر فلا زال كما كان بعد خمسين سنة من ميلاده يفرح

الليلة ويطرب ، لا لأنكم اجتمعتم لتكريمه فهو أزهد الناس فى أن يكرم ولكن لأنه سوف يستأنف من الغد جهاده ونضاله من أجل هذا العالم العربى المترامى الآفاق والذى يشعر الأستاذ محمد على الطاهر بأنه وطنه وبأنه مسئول عن الكفاح والجهاد من أجله .

المائدة الرئيسية للحفلة وقد وقف الاستاذ احمد حسين يلقي خطابه

الاعتقال

لقد أعاد التاريخ نفسه فى هذه الحرب فاعتقل الطاهر من جديد ولاعتقاله قصة مليئة بالمغامرات تبدأ بإنذاره المستمر لى أننى سأكون أول من يعتقل وأن قيام الحرب سيحول بينه وبين استئناف نشاطه فلن يكتب كما يجب أن يكتب ولن ينشط كما يجب أن ينشط وإذن فمن الخير أن يفرض على نفسه الكف عن كل نشاط وكل حركة وكل كتابة ولكن عين الإنكليز الساهرة ما كانت لتتركه وشأنه فكان أن طلبت من الحكومة المصرية أن تعتقله فكان الأستاذ محمد على الطاهر أول معتقل فى مصر كلها، فحاز بذلك أعظم شرف وحاز لا بين القاعدين ولكن بين المجاهدين ، فاستحق أن يطلق عليه عميد المجاهدين .

اعتقل الأستاذ الطاهر وليعفنى من أن أحدثكم عن سوء المعاملة التى عومل بها فإن هذه الذكريات تجرح نفسى وعاطفتى كمصرى يحب بلاده ، فليعفنى الأستاذ من أن أطيل عليكم فى وصف آلامه حين حبسوه الشهور الطوال فى زنزانة ضيقة محكمة الأبواب وليسمح لى أن أوفر عليكم ونحن فى مقام فرح وسرور أن أمس مشاعركم بذكر هذه المأساة التى ماتت فيها ابنته الشهيدة ، وكيف فتح له باب السجن فى يوم من الأيام ودعوه للخروج ولكن لا إلى الحرية بل لمدة ساعتين يشيع فيها جنازة ابنته .

وتعذيب قرينته

دعونا من ذلك كله أيها السادة فهو فى تاريخ المجاهدين طبيعى وعادى ، ولكن الذى لاأستطيع بحال أن أغفل ذكره هو يوم أن امتدت يد الاضطهاد إلى زوجته الكريمة فطاردتها وضيقت عليها الخناق ثم اعتدى عليها بالضرب وسيقت إلى السجن ، وكنت أنا من شهود هذه المأساة حيث كنت سجينا فى ذلك السجن نفسه ، فإذا بى أصطبح فى يوم من الأيام بأسيرة جديدة ، ولم تكن هذه الأسيرة إلا زوجة أخى المجاهد محمد على الطاهر التى أوذيت من أجل صبرها إلى جوار زوجها . وأشهد أنها قابلت هذه المحن واحتملتها كما يليق بالعربية المجاهدة الصادقة ، ولذلك فقد أصررت على أن تكون من شهود هذه الحفلة كى تسمع وترى كيف تكرم الفضيلة والبطولة ، وكيف نحيى فى شخصها زوجاتنا المجاهدات الصابرات إلى جوارنا، صفقوا لها أيها السادة واحنوا لها الرءوس احتراما وتكريما .

عذاب بعد عذاب

وانتهت الحرب أيها السادة وخرج الأستاذ محمد على الطاهر من اعتقاله ومن مطاردة البوليس ، خرج من الحرب فقيرا إلا من الستر ، خرج ليرى العالم العربى فى الشرق يضطهد من جديد ! ليرى أن كل الوعود والعهود التى قيلت فى هذه الحرب لم تكن إلا خداعا وتغريرا وضحكا على الشعوب ، وقد يدهش أبناء الجيل الجديد لذلك ، أما هو فلم يدهش لأنه قد جرب ذلك فى الحرب الأولى ١٩١٤ــ١٩١٨ ، وقد خرج الأستاذ الطاهر إلى الحياة السياسية من جديد فوجد كل شىء من حوله قد تبدل وقد تغير إلا شيئا واحدا وهو أن فلسطين لا تزال هى فلسطين الشهيدة وأن سوريا هى سوريا المجاهدة التى ما فتئت تلقى من العذاب والويلات ألوانا ، وأن تونس ومراكش

والجزائر وليبيا هى كسابق العهد بها ، يذبح أبطالها وتهدم قراها ويحارب دينها . والأستاذ الطاهر قد بلغ الآن الخمسين من عمره ، أى أنه لم يعد فى سن الشباب والحركة والفتوة ، ولكن هل يئس الأستاذ من مواصلة الكفاح ؟ هل أخلد إلى الراحة والسكون والدعة ؟ هل فكر فى تحصيل معاشه كما يحق لكل إنسان أن يفكر ؟ سلوا أبناء أندونسيا ما الذى فعله معهم الأستاذ الطاهر لكى يقيم الدنيا ويقعدها من أجل قضية أندونسيا ، سلوا أحرار شمال أفريقيا سلوا الفضيل الورتلانى ، سلو الحبيب بورقيبة ، سلوهم ماذا يفعل الأستاذ الطاهر من أجل قضية شمال أفريقيا وكيف يدور على الصحف بالليل والنهار ليوزع عليهم بيانا أو نداء أو استغاثة إنقاذا لشمال أفريقيا

ايه أيها السادة ماذا أقول لكم عن محمد على الطاهر وماذا أعيد هل أحدثكم عن يومه العادى كيف يقضيه وكيف يذرع القاهرة من شرقها لغربها فى قضاء حاجات المجاهدين وشئونهم، سأجترىء من ذلك كله بذكر موقف من مواقفه معى أنا والذى أشعر أنه ربطنى به إلى الأبد فقد رأيت فيه الأستاذ محمد على الطاهر على حقيقته .

زيارة أحمد حسين

كنت مختفيا عن أنظار البوليس الذى كان يطاردنى فى كل مكان ، وقد جال فى خاطرى أن أذهب ذات يوم إلى منزل الأستاذ محمد على الطاهر ، فإذا به يستقبلنى أحسن استقبال ، فى الوقت الذى كان يفر منى فيه كثير من الناس ، كان هذا المجاهد الذى يضيقون عليه الخناق ويريدون أن يعيدوه إلى أعماق السجون والمعتقلات ، يستبشر بهذا اللقاء ، ولا يستطيع أن يظهر الفرح والسرور فحسب، بل إذا به يخرج كل مامعه من مال ويعطينى إياه ... وعبثا أحاول أن أفهمه أن معى مالاً يكفينى ، ولكنه يصر على أن يعطينى كل مامعه فقد أحتاج إليه، وإذا به يحضر لى البطاطين وغيرها من الأثاث فقد أكون فى حاجة إليها .. وإذا به يجيل بصره هنا وهناك فلا يرى إلا سجادة فاخرة كان أحمد حلمى باشا صديقه قد أهداه إياها يوم زواجه فإذا به يطويها طيا ويحملنى إياها ، فقد أكون فى حاجة إليها ! وهكذا عبثا حاولت أن أفهمه أننى لست فى حاجة إلى شىء فلم يكن ذلك بمستطاع وخرجت من بيته إلى مخبئى أحمل كل هذه النفائس![1]

هذا هو محمد على الطاهر ، وهذا الذى فعله معى وهو ما يفعله فى كل يوم ومع كل الناس وإنى أنتهز هذه الفرصة لكى أشكوه لكم وأطلب وساطتكم عنده ليخفف عنى، فقد يوقظنى

(١) ما عدا السجادة !

فى منتصف الليل لأساعده فى إغاثة ملهوف ، ولقد يطوف بى أقسام القاهرة كلها قضاء لحاجة شيخ من شيوخ المجاهدين ، ولقد لاحظ الذين ذهبوا لاستقبال وزير سورية الجديد جميل بك مردم أن الأستاذ محمد على الطاهر لم يكن موجوداً فعجب كل من كان على المحطة لأنه لايوجد

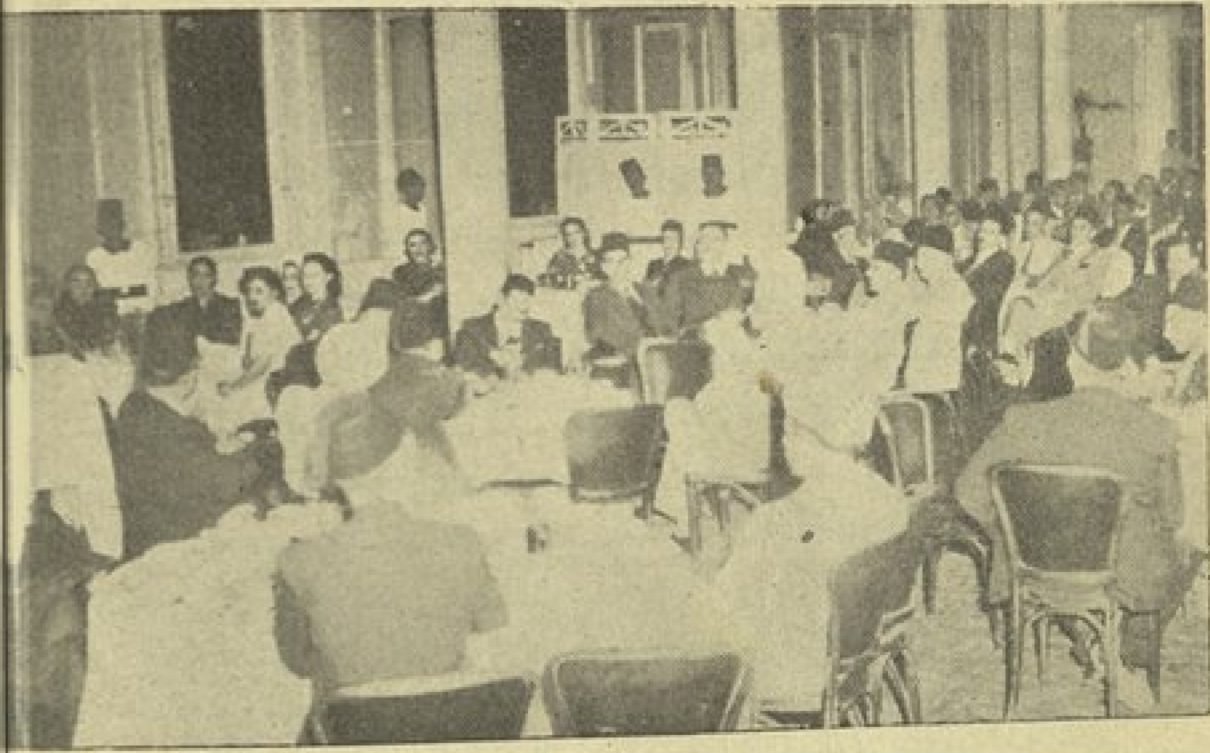

الجناح الأيسر للحفلة وقد ظهرت السيدات فيها عند ما كان الاستاذ الحبيب بورقيبة زعيم تونس يخطب

الجناح الأيمن للحفلة

فيهم من لم ينبه عليه الأستاذ الطاهر بضرورة الحضور، ليس فيهم من لم تدفعه حماسة الأستاذ الطاهر للتبكير فى الذهاب إلى المحطة ، فلما لم يروه فيها عجبوا ودهشوا ، أما أنا فقد خفت أن يكون أصابه مكروه ، أتعرفون أيها السادة ما الذى أخره عن الذهاب؟ لقد أخره استغاثة أحد معارفه حيث كان فى شجار مع بعض الرعاع فوقف إلى جواره ليخرجه من محنته ، ولم يرض أن يدعه حتى يبلغه مأمنه ، وبذلك تأخر عن هذا الواجب الذى دعا إليه الناس جميعاً، ولـكن ليقوم بواجب أقدس فى سكون وخفاء بعيداً عن الضجيج والضوضاء وهو أن يغيث ملهوفاً من الناس ، ويطول بى الحديث إذا حدثتكم عن هذه الناحية فيه .. ولعلى وقد وصلت إلى هذا الحد أعود مستطرداً لما بدأت به حديثى من المشاكلة بين هذا الاجتماع وحفل تكريم شوق . فالأستاذ الطاهر قد عمل للعروبة بجهاده بأعظم مما عمل شوق بقصائده وإنى لأقف منه الآن موقف حافظ من شوق فأحييه من أعماق قلبى كما هتف حافظ بشوق من قبل :

أمير (جهاد الشرق) جئت مبايعا — وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

خطبة الدكتور محمد صلاح الدين بك

حضرة صاحب السمو الأمير الجليل ـ سيداتى ـ سادتى .

يظهر لى أن للشعر الليلة فى هذه الحفلة الرائعة حظا كبيراً ، فقد استشهد الخطيب الأول بكثير من الأبيات الشعرية البليغة وأشار الخطيب الثانى إلى مناسبة شعرية مشهورة وهى مناسبة إجماع البلاد العربية على تكريم أمير الشعراء المغفور له أحمد شوق بك. وروى البيت المشهور الذى بايع به شاعر النيل المغفور له حافظ ابراهيم بك صديقه شوق بك على إمارة الشعر، بل يمكن أن أقول إن كل ما فى هذه الحفلة شعرى يوحى بالشعر والخيال . وأن الحفلة نفسها إنما هى قصيدة رائعة فى الوفاء وعرفان الجميل ، كما أن المحتفل به قصيدة رائعة فى التضحية والجهاد الطويل. ومن أجل هذا كله أرانى ميالا بدورى إلى الاستشهاد بكلام الشعراء بقول الشاعر المتنبى:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة — كما أن عين السخط تبدى المساويا

وقد جرى هذا البيت المشهور مجرى الأمثال ، ولـكنه مع ذلك قليل الحظ معى ، أو أنا قليل الحظ معه ، فأنا أنظر إلى أبى الحسن بعين الرضا بل أنظر إليه بعين كلها الرضا ، ومع ذلك لا أرى محاسنه وحدها بل أرى مساوئه أيضاً...ولـكنى سأذكر لـكم المحاسن، وسأحتفظ

بالمساوىء لنفسى ! ولن أبوح لكم بها أو أشير إليها كما فعل الأستاذ الورتلانى حينما ذكركم بشدته وحدته وعصبيته ! وهى كما ترون ليست بالعيوب الخطيرة . وإذا جاز اعتبارها عيوبا فهى عيوب على هامش الحسنات ، بل هى عيوب على حد قول الشاعر العربى :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وإذا كنت كما أسلفت قليل الحظ مع البيت الشعرى سابق الذكر ، فللمتنبى ، بيت آخر أراه ينطبق كل الانطباق على المحتفل به فقد قال المتنبى .

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت فى مرادها الأجسام

وكأنما يصف المتنبى بهذا البيت البليغ الحكيم صديقنا أبا الحسن ، فقد كبرت همته فدقت هيئته ، وعظم إيمانه فصغر جثمانه ، وأضناه الكفاح الطويل والجهاد الموصول حتى كاد ينطبق عليه قول المتنبى فى قصيدة أخرى .

كفى بجسمى نحولا إننى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

ولا عجب أيها السادة أن يكون ذلك شأنه ، فالمجاهدون للحريات يحملون فى الغالب عبء الجهاد لوطن واحد ، أما الأستاذ الطاهر فيأبى إلا أن يكون جهاده للأوطان العربية والإسلامية جميعاً دون أى استثناء ، فهولا يحمل فقط هموم فلسطين وحدها ، وهى هموم ثقال تنوء بها شم الجبال ، ولكن يحمل أيضاً همّ مصر والعراق والشام ولبنان وليبيا وتونس والجزائر ومراكش وأندونيسيا ، وسائر الأقطار العربية والإسلامية . فلا عجب وهذا شأنه أن ينال من الأقطار العربية والإسلامية جميعها كل محبة واعزاز وتقدير ، ولا عجب أن توجه الدعوة إلى هذه الحفلة التى تقام لتكريمه من ستة من الرجالات العاملين المخلصين ، ينتمون إلى ستة من الأقطار العربية والإسلامية المجاهدة للحريات والاستقلال . ولا عجب أن يتفضل أمير اليمين بالحضور خصيصا من الاسكندرية للاشتراك فى هذا الاحتفال .

أيها السادة : لقد آن أن أغادر هذا المنبر ، فقد مرت الدقائق الخمس التى حددها الميقاتى لكل خطيب ، ولكنى لا أبرح مكانى قبل أن أشارك بدورى فى توجيه تحيات طيبات إلى حضرة السيدة الفاضلة زوج الأستاذ الطاهر وشريكته فى الحياة والجهاد ، ثم لا أبرح مكانى قبل أن استشهد ببيت أخير فأقول ، يا أبا الحسن لقد صدق والله من قال :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفى أثوابه أسد مزير

مشتركون فى الحفلة

وقد وصلت إلى لجنة الاحتفال برقيات ورسائل كثيرة يشترك مرسلوها مع المحتفلين، ومنهم الزعيم الفلسطيني المجاهد أحمد حلمى باشا من القدس ، وشاعر الأقطار العربية خليل بك المطران، واللواء محمدصالح باشا حرب الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين، والأستاذ سعيد بشناق من الناصرة ، والأستاذ الشاعر حسن أحمد باكثير بالاسكندرية ، وفرقة الكشافة برام الله بفلسطين ، والقاضي محمدبرادعى العباسى بك من حيفا ، والعلامة عادل زعيتر بك المحامى من نابلس ، والدكتور يوسف هيكل بك رئيس بلدية يافا ، والدكتور مصطفى البشناق بك من نابلس ، والسيد نظام حسين الحسن من البيرة بفلسطين ، وفريد عنبتاوى بك رئيس الحزب العربي بنابلس ، وعبدالمنصف محمود باشا من الاسكندرية، ونبيه العظمة بك من دمشق ، والسيد على جودة من البيرة ، وأكرم زعيتر بك من دمشق ، والسيد احمد بك الإمام من حيفا ، والسيد عبد الله جودة رئيس بلدية البيرة ، والحاج أديب خير من أعيان دمشق ، وجريدة البيان فى الولايات المتحدة ، وصبحى بك الخضراء المحامى من القدس ، ومحمد على علوبة باشا الوزير السابق، وعبدالرحمن السكسك سكرتير الجبهة العربية فى يافا ، والحاج محمدسالم سالم بك من أعيان القاهرة ، والسيد ابراهيم البزرى مدير شركة الكهرباء فى حِمْصْ ، والسيدان أسعد بك الغصين والدكتور نورى الغصين من الرملة ، والوجيهان عز الدين وجميل كمال من نابلس ! والأستاذ مصطفى الطاهر من يافا ، والأستاذ عبد الواحد خلاف بك من القاهرة وأنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام، والأستاذ أبو الخير نجيب بك، والبير عمون بك ، والدكتور يعقوب خورى من القاهرة، والأستاذ جميل القدومى من فضلاء يافا ، والحاج سعيد كمال من أعيان نابلس، والأستاذ راشد رستم بك بالمعادى والسيد هشام زعيتر من نابلس ، وآل الملقى وآل خيال من أعيان غزة، والأستاذ أديب مهيار من نابلس، والدكتور كامل حنون من طولكرم، والدكتور أحمد الطاهر من نابلس ، والأستاذ محمود زكى بك وكيل وزارة التموين ، والسيد ماجد القطب من نابلس ، والأستاذ أحمد محمد نعمان الزعيم اليمانى من عدن ، وجريدة العراق ببغداد ، وجريدة الأفكار بعدن، والأستاذ الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين وشقيقه الأستاذ عبدالرحمن البنا المراقب العام، وتحسين العسكرى بك وزير العراق المفوض بمصر وجريدة المصرى ، والشيخ توفيق السمهورى من يافا ، وجريدة النداء ببغداد ، وجريدة

الوفد المصرى ، وجريدة الأهرام بالقاهرة ، والسيد عاهد الطاهر وأولاده من نابلس ، ومجلة الصباح ومجلة الفتح ومجلة الرابطة بالقاهرة والشيخ حسين البزرى من صيدا، وجريدة الاستقلال بالأرجنتين والأستاذ جميل بك وهبة من القدس ، والأستاذ حنا خميسة من حيفا ، والأستاذ عبد الله اسماعيل من جرجا ، والأستاذ سعيد ابراهيم فايد من شبرا دمنهور ، والسيد محمد أديب غالب بهرام من طرابلس الشام ، والأستاذ عبد الرؤوف المصرى من نابلس والأستاذ رفيق التميمى من يافا والأستاذ محمد محمود الصواف من علماء الموصل والسيد وجيه البشتاوى من نابلس ، وعبد الرحمن الحاج ابراهيم بك رئيس بلدية طولكرم ، والسيد قاسم عبد الهادى من رام الله ، والعلامة الشيخ عبد القادر المغربى من دمشق وكريمته الأستاذة نعيمة هاشم ، والأستاذ محمود أبورية من علماء المنصورة ، والأستاذ سيد ابراهيم الخطاط ، والسيد عرفات سليم البيطار من القدس والسيد رفعت النابلسى من نابلس ، وجريدة الوحدة بالقدس ، وجريدة البلاد ببغداد ، ومجلة المصور بالقاهرة، والسيد سلام فارع من اليمن ، والسيدسعيد الشرقاوى من يافا والسيد سبع الطاهر من نابلس الخ الخ .

كلمة أخيرة

إن هذه الحفلة قد أثرت فى نفسى تأثيراً عميقاً ، وجعلتنى أستصغر كل ما لقيت قبل ذلك من عذاب ، وأن أقتنع قناعة لاشك فيها بأن الذى يعمل فى سبيل الله ، لابد له فى النهاية أن يلقى حسن الجزاء ، فما كان لله فهو المتصل وما كان لغير الله فهو المنفصل، فقد ثبت ثبوتاً قاطعاً بأن الله لا يضيع مثقال ذرة ، فكيف وقد عجل سبحانه وتعالى بمكافأتى فى حياتى خير مكافئة ، وعزانى عما لقيت من الآلام النفسانية التى نالتنى من خذلان بعض الناس وغدرهم وخبثهم أجمل العزاء ، بعد أن كدت أظن أن الدنيا قد خلت من الأخلاق ، وفقدت الوفاء وأقفرت من الخير كله ! إذن فقد قبضت الثمن عاجلا وكان مجزياً ، فما علىّ بعد ذلك إلا أن أمضى فى طريقى فى مكافحة المستعمرين ومناجزة الظالمين ومساعدة المظلومين ، لأستحق هذا التقريظ الذى سمعته فى الحفلة ، حتى لا أكون مخادعاً للذين خطبوا وتكلموا ، أو سارقاً لحسن ظن الذين حضروا الحفلة وسمعوا ، كما خدعنى ذلك البعض من الناس الذين تمتعوا بحسن ظنى بهم وتشجيعى لهم فإذا بهم عندماجد الجد ينكثون غزلهم وينكصون على أعقابهم ويسرقوننى ثم يسخرون منى ! فالحمد لله على كل حال .

شكرى القوتلى

تاريخ قديم ...

نحن الآن في صيف سنة ١٩٢٠ في حيفا بفلسطين ـ أو ما كان يسمى فلسطين ! ـ في صبيحة ذلك اليوم ذهبت إلى فندق الشرق المتواضع المتوسط وكان يطل على الميناء ، فدخلت أول غرفة على اليمين بعد الدرج فوجدت فيها الشيخ كامل القصاب صديقي وأستاذي القديم (١) وكان يتحدث مع « أفندي » طويل القامة وجيه الذات ، فبعد أن رحب بي قام بتعريف صديقه بي وتعريفي به ، فإذا هو السيد شكري القوتلي أحد شبان دمشق النبلاء ، فحييته بمودة واحترام ، لأن جهاد هذه الشخصية الممتازة في العصر العثماني كان معروفاً ومشهوراً .

كان هذا اللقاء بشكري بك قد حصل على أثر ضياع الدولة العربية السورية في الشام ، وعدوان فرنسا عليها وإزالتها بالقوة الوحشية ، وإخراج الملك فيصل من سورية ، فجاء الملك يومها إلى فلسطين ونزل مدينة حيفا حيث حل في دار الحاكم . وأما الذين نزحوا معه فقد نزلوا بفنادق المدينة متفرقين ، وكان بينهم الشيخ كامل القصاب وشكري بك القوتلي ورستم بك حيدر وعوني بك عبد الهادي وغيرهم وغيرهم .

في القاهرة

ولم أختلط بشكري بك بعد ذلك إلا في مصر قبل قيام ثورة سورية التي نشبت سنة ١٩٢٥ حيث هاجر إليها هو وعدد كبير من رجال سورية ومنهم احمد حلمي باشا ، والشيخ كامل القصاب ، ورشيد بك طليع ، والأمير عادل أرسلان ، والحاج أديب خير ، وخالد بك الحكيم ، ونبيه بك العظمة ، وفؤاد بك سليم ، ونجيب بك شقير ، وغيرهم . ولما قامت الثورة ذهب إليها الأمير ثم فؤاد سليم حيث استشهد رحمه الله .

وكانت جريدة « الشورى » في تلك الأيام في أوائل ظهورها ، فلما قامت الثورة كانت

---

(١) هو زعيم الشام في عصره وقائد حركتها القديم ، والمهاجر في سبيل الله بعد ذلك نحو عشرين عاما في مصر والحجاز ونجد وفلسطين ، وهو الآن سنة ١٩٥١ في دمشق بعد أن اعتزل السياسة وأهلها لكثرة ما لقي من إنتكاس الزملاء وكيد الأصدقاء وخذل الأولياء .

وحدها القائمة فى مصر تحمل علم الجهاد والمجاهدين و تذيع أخبارهم وتنشر فظائع فرنسا ، فنعتها عن سورية ولبنان، كما أن الإنكليز أيضاً منعوها عن فلسطين والأردن والعراق إكراماً لفرنسا ! فصرت أهربها إلى بر الشام والعراق ، وأحتال على إرسالها بطبع طبعة ثانية منها باسم آخر وأدخلها إلى تلك البلاد ، وكان أحرار سورية قد جعلوا من الجريدة ومكتبها بالقاهرة مركزاً لنشاط النازحين ، فكانوا يلتقون فيها وينشرون دعايتهم على صفحاتها .

ولما حصل الانقسام بينهم وبين فريق آخر من السوريين الذين جاءوا مصر بعد الثورة وفيهم حسن الحكيم وسعيد حيدر والدكتور عبدالرحمن شهبندر والدكتور نجيب الارمنازى وأمثالهم ، لم أتردد فى الوقوف فى جانب المناضلين الحقيقيين الذين فيهم الأمير عادل أرسلان وشكرى القوتلى والسيد رشيد رضا ونبيه العظمه والشيخ كامل القصاب، ويظاهرهم فى أوربا الوفد السورى المؤلف من الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابرى ورياض الصلح ، ويظاهرهم كذلك فى فلسطين الحاج أمين الحسينى وجماعات الوطنيين، كما كان يؤيدهم فى جبال سورية ومعاقلها سلطان باشا الأطرش القائد العام وجماعته ، ثم جاء مصر الدكتور أمين رويحة وعز الدين باشا الحلبى ونسيب شهاب والدكتور سعيد عودة وصبرى بك العسلى وابن عمه المرحوم عبد اللطيف بك العسلى وعلى بك عبيد وغيرهم .

وكان شكرى بك يذهب أحياناً إلى القدس ليكون قريباً من ميدان الثورة لتغذيتها وتارة يذهب إلى نجد والحجاز يسعى فى سبيلها ، وتارة يعود إلى مصر التى جعلها دار إقامة فينشر الدعاية ويدبر الأمور .

وهذا نص كتاب مما كان يدور بينى وبين شكرى بك من رسائل ففيه بعض الأخبار ووصف الأحوال الجارية بين المواطنين المختلفين ...

أول كتاب من شكرى بك

القدس فى ٢٣ آغستوس سنة ١٩٢٧

حضرة الأستاذ الكريم والأخ الصادق السيد محمد على الطاهر حفظه الله آمين .

أقدم لك تحياتى واحترامى ؛ وبعد فإن إعجابى بجهادك فى سبيل الدفاع عن حقوق هذه

الأمة العربية الإسلامية لكبير وإن الأمة التي يدافع عنها رجال مخلصون أمثال الأستاذ الطاهر لابد أن تصل يوماً ما إلى ما تنشده من حق الحياة فى هذا العالم .

أبرقت إليكم أمس برقية رجوتكم فيها عدم نشر المضابط المرسلة إليكم نظراً لضررها للمصلحة العامة وتفصيل ذلك : هو أن المشاغبات التى يدعو إليها ويقوم بإيقاد نارها فلان لا يفيد منها إلا الأجنبي ويجعله يتصلب فى مطاليبه ويضيق على القاطنين فى البلاد لاعتقاده أن الثورة قد تلاشت بسبب الاختلاف والشقاق الحاصل بين صفوف المجاهدين ... ثم يقول: لذلك أبرقت إليكم بالأمس راجياً منكم عدم نشر ذلك فى صحيفتكم . والآن أكرر رجائى هذا أيضاً وأرجو أن تطووا هذه المضابط ولا تنشروها . ويكفى أن المخلصين فى البلاد كلها يعلمون درجة جهاد القائمين بخدمتها بدون ثمة حاجة إلى مضابط أو غير ذلك . ولا أخالك إلا ملبيا رجائى . وقد عنفت مرسل المضابط الذى أرسلها بدون علمى الخ .

شكرى القوتلى

فى فلسطين ـ وكتاب عن الماضى

وظلت العلاقة بيننا مستمرة بلا انقطاع، وكنا ـ شكرى بك وأنا ـ فى المؤتمر الإسلامى العام بالقدس على أتم التفاهم نرى الأمور بعين واحدة وفكر واحد لأننا كنا نسعى فى سبيل هدف واحد ، وفى سنة ١٩٣٢ كان شكرى بك فى دمشق حيث عاد إليها طبعاً واستقر فيها ، ثم جاء لفلسطين مرة أخرى وكنت هناك فى تلك الأيام فجاءنى لنابلس وطلب أن أذهب معه ومع بعض الأصدقاء إلى حيفا وعكا لنساعده على جمع اكتتابات لأسهم شركة الكونسروة بدمشق ، وقد اشتركت مدينة عكا بـ ٩٥ سهماً فساهمت إكراماً له بخمسة أسهم ، وهى نسبة كبيرة بالنسبة إلىّ وقليلة جداً بالنسبة لمدينة بأسرها ، ثم عاد شكرى بك لدمشق وعدت أنا إلى القاهرة ، وكان يكتب لى طالباً أن أوافيه بمقترحاتى عما يفيد الشركة إن أرسلت منتوجاتها إلى مصر ، فوافيته بتقرير استحق أن يبعث لى كتاب شكر من أجله ، ثم توالت الأحداث إلى أن تشكلت الجمهورية الاستقلالية الأولى فى سورية سنة ١٩٣٧ برياسة فخامة هاشم الأتاسى فتولى شكرى بك وزارة المالية فأرسلت أهنئه فأجابنى بالكتاب الآتى ـ وسيعرف قرائى سبب إيراد بعض المكاتيب :

حضرة الأخ الفاضل السيد محمد على الطاهر حفظه الله :

سلاماً واحتراماً وبعد تلقيت كتابكم الرقيق الذى تلطفتم تخصصتمونى فيه بصادق تهنئتكم وجميل عواطفكم وكامل ثقتكم فشكرت لكم أعمق الشكر هذه العواطف الطيبة وإنى لأسأل الله تعالى توفيقنا إلى تحقيق الأمانى الوطنية، ولا أنسى فى هذه الفترة التى تتوصل فيها سورية العزيزة إلى تحقيق أمانيها أن أعترف بما كان لكم من فضل الجهاد والمساهمة فى الخدمة العامة حتى بلغت قضيتنا هذه المرحلة الموفقة سائلا الله تعالى لفلسطين العزيزة الكريمة التوفيق إلى ماترغب وترضى ، وتفضلوا بقبول فائق احترامى ؟ دمشق ١٢ / ١ / ١٩٣٧

شكرى القوتلى

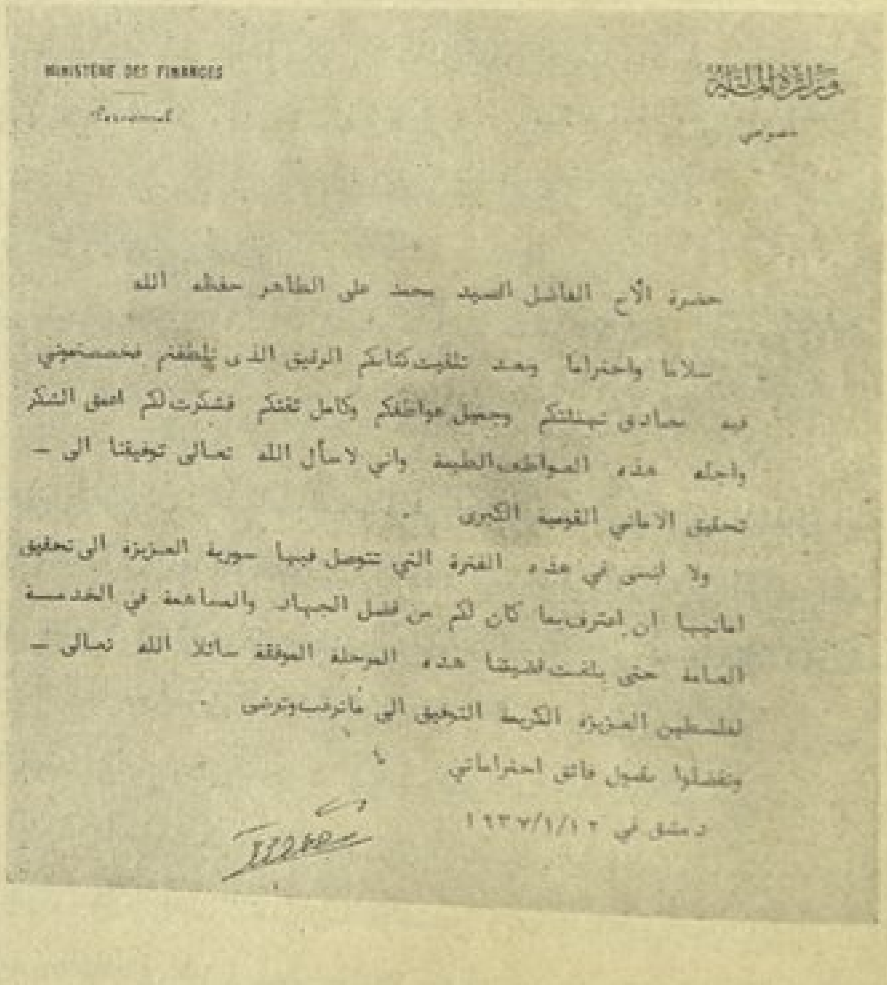

MINISTÈRE DES FINANCES

وزارة المالية

خصوصي

حضرة الأخ الفاضل السيد محمد على الطاهر حفظه الله

سلاما واحتراما وبعد تلقيت كتابكم الرقيق الذي تلطفتم تخصصتموني فيه بصادق تهنئتكم وجميل عواطفكم وكامل ثقتكم فشكرت لكم اعمق الشكر واجله هذه العواطف الطيبة واني لاسأل الله تعالى توفيقنا الى — تحقيق الاماني القومية الكبرى .

ولا انسى في هذه الفترة التي تتوصل فيها سورية العزيزة الى تحقيق امانيها ان اعترف بما كان لكم من فضل الجهاد والمساهمة في الخدمة العامة حتى بلغت قضيتنا هذه المرحلة الموفقة سائلا الله تعالى — لفلسطين العزيزة الكريمة التوفيق الى ماترغب وترضى .

وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي

دمشق في ١٩٣٧/١/١٢

إعادة الجريدة

ولما عزمت على إصدار الشورى مرة ثانية أردت أخذ آراء الأصدقاء القدماء أولا فكتبت إليهم فأجابونى مشجعين وفى مقدمتهم شكرى بك وزير مالية سورية فأجابنى بالكتاب الآتى:

حضرة الأخ الفاضل الأستاذ محمد على افندى الطاهر حفظه الله .

...وبعد فقد تناولت كتابكم الكريم الذى ذكرتم فيه أنكم عزمتم على إصدار جريدة حرة لخدمة القضية العربية . فقبل كل شىء أعتذر إليكم فى تأخرى عن الإجابة حتى الآن وذلك بسبب ماتوالى علينا من الأشغال التى لاتخفى عليكم ، وها نحن اليوم قد اضطلعنا بأعباء ثقيلة بيد أن ثقتنا بالله قوية بأننا سنضمن لهذه البلاد مستقبلا سعيداً واستقلالا وطيدا إن شاء الله . أما قضية الجريدة فإنكم بلا شك أبناء بجدتها وأنكم أجدر من يقوم بهذا الواجب وقد سبق أنكم وفيتموه حقه وضحيتم فى سبيله كامل التضحية .

إن مايترتب علىّ من المساعدة والمعاضدة فلا أتقاعس عن ذلك وأرجو الله أن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير ودمتم موفقين ؟

٣ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ ١٦ يناير ـ ك ٢ سنة ١٩٣٧ شكرى القوتلى

لامساعدة ولا زيارة ...

وصدرت الجريدة ، باسم الشباب ـ وقد ذكرت فى الصفحات السابقة قصة الأستاذ محمود عزمى لما أعارنى إياها مجاناً بارك الله فيه ، وكنت أظن أن صديق المجاهد القديم شكرى بك الذى أصبح وزيراً فى وطنه سيبادر إلى الاشتراك بعدة نسخ منها مثلا ، أو يحمل الناس على الاشتراك فيها ، ولكن لم يحصل شىء من ذلك ...

ولما انعقد مؤتمر بلودان سافرت إليه وحضرته ـ وبلودان تعد من ضواحى دمشق ، فكنت أظن أن أخى شكرى بك سيزورنى أويدعونى لزيارة دمشق ، لأسعد برؤية العاصمة السورية التى سبق لجريدتى الشورى التخصيص فى نشر ظلامتها وتأليب الدنيا على فرنسا يوم ضربتها بالمدافع فى ١٨ اكتوبر ١٩٢٥ كما أن جريدتى الثانية الشباب قد وقفت نفس

الموقف القديم من سورية ومجاهديها ، ولكن أخي شكري بك زميل الجهاد القديم لم يزرني ولا بعث يدعوني إليه ، لأراه على الأقل وهو وزير ! ولذلك عدت إلى مصر بدون أن أراه وأنا آسف على حرماني تلك الأمنية ... وأي جمال في الدنيا أجمل من أن ترى صديقاً مجاهداً شريدا طريدا من بلاده يعود إليها بعد أن تتحرر وتراه فيها وزيرا !!

لقاء ...

ثم جاء شكري بك بعد ذلك وهو وزير إلى السويس في طريقه لتأدية فريضة الحج ، فسافرت إليها للسلام عليه وتوديعه، وفيما كنا في حديث عابر نتحدث عن لزوم الدعاية لسورية لشدة الحاجة إلى ذلك مادامت لم تستكمل استقلالها ، قلت لشكري بك إنه يحسن بالحكومة السورية أن تبعث بأشخاص من الذين حذقوا فن الدعاية لإنشاء مكتب أخبار في القاهرة يؤيد وجهة نظرها ويعرف الناس بها ويثبت وجودها ، وضربت له مثلاً المكتب الذي أوعزت الحكومة اللبنانية بإنشائه، فقال شكري بك : لا لزوم لهذا المكتب مادام أبو الحسن موجودا في مصر بلسانه وشخصيته وجريدته فهو أكثر من كل دعاية، فوجوده يغنينا عن المكتب... فلم يسعني إلا أن أشكره على هذا التقريظ وتلك الثقة ....

فالظاهر مما تقدم أن أصحابنا المجاهدين السابقين الذين «وصلوا» واستراحوا في أوطانهم لا يفهمون ولا يقدرون أن زملاءهم الذين لا يزالون في المعركة وينفقون من مالهم ويذيبون حياتهم في مقاتلة الاستعمار يجب تقويتهم وإمدادهم ، ليستطيعوا مواصلة مهمتهم لأن عمر الاستعمار أطول من أعمار المجاهدين! ولكن أصحابنا القدماء ظنوا أنهم ما داموا قد عادوا إلى أوطانهم وتسنموا المناصب فيها ، فلا حاجة بعد ذلك للالتفات إلى الماضي ولا التفكير في المستقبل المضمون الهناء والصفاء ...

منطق !

وكان من جملة أحاديثنا في تلك الليلة أنني قلت لشكري بك : أنا والله مستغرب مسألة عجيبة من حكومتكم ، فأنتم في أيام الجهاد ضد فرنسا قد عانيتم من جرائد فلان وفلان وفلان

صنوف الأذى ، فمابالكم تحتضنونهم الآن، وتغدقون عليهم المال ، وتقربونهم كما كانت فرنسا تقربهم حتى اغتنوا ، وكم سلطتهم عليكم — وعلىَّ أنا أيضاً — لأنى لقيت من هؤلاء الأشرار ما لايستطيع قلم أن يصفه من أذى واتهامات ومن شتائم بذيئة — فقال شكرى بك : نحن نعرف كل شيء عنهم ، ولكننا أحببنا تأليف قلوبهم واستمالتهم إلى جانبنا ، أو دفع أذاهم على الأقل ، فقلت له إنى أخشى أن يأتى يوم لاسمح الله يعودون فيه إلى ثلبكم وشتمكم بعد أن يكونوا قد تقووا أيضاً بأموال الحكومة الشعبية !

وكان قصدى من هذا الكلام أن يلحظ شكرى بك ما أعنى ، وهو أن تقوية الجريدة أولى[1]، لأنها هى التى انكوت من الاستعمار وكم نكبت أنامنه ، وأن مال الحكومة الوطنية يجب أن يتحول عن جرائد الخونة إلى جرائد المخلصين الذين جاهدوا فى سبيل قيام العهد الوطنى، لا لتعويضهم لأن الجهاد لايمكن التعويض عنه ولكن لإنعاشهم وتشجيعهم على الأقل ، حتى إذا جد الجد يوما ما ، استطاع الجنود القدماء مواصلة النضال بقلوب لم تشعر بخذلان...

هذا هو المنطق السليم ، وأما القول بأن تأليف قلوب الأعداء أولى لدفع عدوانهم ؛ وأن إهمال الأولياء لاخوف منه لأنهم «فى الكيس» وكونهم «مضمونين» فهذا هو الخطأ الذى ما بعده خطأ ، وقد سئل أبو مسلم الخراسانى عن أسباب سقوط الدولة الأموية فقال إنها كانت تقرب الأعداء لتأليف قلوبهم ، وتهمل الأصدقاء اعتماداً على صداقتهم ، ولكنها لم تكسب قلوب الأعداء، ولا أبقت على الأصدقاء ...

خذلان فرعى

وكان إحسان بك الجابرى عضو الوفد السورى فى أوربا قد عاد أيضاً إلى وطنه «سورية» وتعين حاكما عاماً لبلاد العلويين ، وكانت عاصمته مدينة « اللاذقية » أما صلاته بى وعلاقتى به فهى تشبه العلاقة التى كانت بينى وبين رياض الصلح ، وكان إحسان فى رسائله لى من أوربا يخاطبنى بعبارة « أخى الحبيب ونور عينى ! » وأما غلافات رسائله فكانت تحمل لى أفخم الألقاب من « مجاهد كبير » إلى « كاتب عظيم » حتى « الأخ الأعز » .:. وكان يبرق لى إن جاء مصر

(١) ان الجرائد التى تكافح الاستعمار تظل دائماً فقيرة لأن أهل الجهاد الذين تدافع عنهم كلهم فقراء ، كما أن الاستعمار من جهة أخرى يطاردها ، والخونة الذين يملكون المال يقاطعونها.

فكنت أذهب إليه للاسكندرية لاستقباله وأرافقه إليها مودعاً عند ما يغادر البلاد ، وهو من ناحيته كان إن جاء من أوربا بغتة كان يهرول إلىّ ويزورنى بغتة فلا أراه إلا وهو يدهم الإدارة ويقول : السلام عليكم .. وفى أثناء إقامته فى الديار المصرية كان لايفارقنى ولا أفارقه وكانت دار الشورى تعد مركزه المختار كما أن صفحاتها كانت تحت أمره ، وقد دام هذا الحال نحو ربع قرن أيضاً ، مثل رياض تماماً ... وعندى من رسائل إحسان بك أكثر مما عندى من رسائل رياض ...

فهذا الأخ والصديق الذى تسنم كرسى الحكم فى بلاد العلويين كأنه «خديوى» مستقل فى إمارته ، كنت أنتظر منه أولا أن يشترك «بجنيه» واحد فى الجريدة التى كانت تحمله وتذيع أخباره وتدافع عنه وعن البلاد التى أصبح حاكما فيها ، وكانت فرنسا تمنعها عن سورية ولبنان فى سبيل إعلاء كلمته وكلمتهما ، وثانياً كنت أنتظر أن يشير على رعاياه بل يأمرهم ويأمر موظفيه بالاشتراك فيها ، ولكنه لم يفعل ، بل اكتفى بالمنصب وقعد ، بدون أن يخطر على باله أن يلتفت إلى الجهة الخلفية أو يتصور أنه قد يقع عن الكرسى يوماً ما ، ولا أن يعود إلى سابق عهده مظلوماً ينشد الإنصاف على صفحات جريدته التى تنكر لها ... وهو يعرف أنها لم تكن جريدة تجارة ، بل سيف دفاع عن الأمم المظلومة ولولا ذلك ما كان الاستعمار يطاردها بتلك الشدة ... كلا لم يخطر على باله شىء من ذلك أبداً ، فإذا به بعد عام واحد يتدحرج عن الكرسى بعد أن عصفت فرنسا بالجمهورية السورية الشعبية الحرة ، وإذا بإحسان بك يلجأ مرة أخرى ـ هو ورئيسه ـ إلى جريدتى مرة أخرى ... وبعد ذلك اعتقلته فرنسا وحبسته فى لبنان !

ثم دارت الأيام فجاء إحسان بك إلى مصر وكان يزورنى فى دار الشورى ، كما كان الحال قبل ذلك بربع قرن ، فهذا صديق آخر قد عاد إليها بعد التنكر والهجران الطويل ...

إن تقوية جريدة موجودة فى بلاد حرة تدافع عن الوطن وعن إحسان بك الجابرى نفسه هى تقوية له بالذات ، والدليل على ذلك إنه وقع مرة أخرى واحتاج إليها ! إنه لو قواها وهو

حاكم قادر لكان دفاعها بعد ذلك عنه وعن البلاد أقوى وأجدى ، وكان يجدها فى المرة الثانية جريدة قوية تنفعه وتنفع البلاد ، فما أشبه هؤلاء بمن يترك شجرته بدون ريّ ، ويريد مع ذلك أن يتمتع بثمرها مجاناً وإلى أبد الآبدين !

والغريب هنا أن إحسان بك قد جرب بنفسه قبل ذلك مصيبة إصدار صحف الجهاد والجدل ومكافحة الاستعمار، حين كان يصدر مع المرحوم الأمير شكيب أرسلان مجلة فرنسية فى جنيف فكانا يشكوان إلىّ خذلان الناس لهما وأكلهم حقوق تلك المجلة[1] ... فهو إذن قد ذاق قبلى شناعة الخذلان ...

هذا إجمال لقصة إحسان بك التى لا ينقصها إلا أن يكون رئيس وزارة لتنطبق عليه قصة رياض الصلح حرفاً بحرف ، ولولا أن التكرار لا يجوز لتناولت رسائله لى أيضاً كما لخصت رسائل رياض ، لأن رسائل إحسان التى كتبها لى وهو مظلوم منكوب ونازح غريب تبلغ ١٢٠ رسالة وصفحاتها تقرب من ٢٠٠ صفحة ! ومما يجب الاعتراف به هنا أنه إذا كان رياض قد حرمنى رؤية موكبه وهو رئيس وزراء ... فإن إحسان لم يبخل علىّ بذلك وهو « خديوى » ! لأنه زارنى سنة ١٩٣٨ فى عاليه بلبنان قبيل طردى منه بأيام ، وذلك أنه كان ذاهباً إلى دمشق لعمل يختص بمنصبه فجعل طريقه عن مدينة عاليه فزارنى وتغدى عندى هو والذين كانوا معه ، ثم واصل سفره بموكبه الفخم ـ موكب حاكم عام بلاد العلويين ـ قاصداً دمشق.

ولكن الفرق بين موكب رياض وموكب إحسان هو أننى لم أكن محتاجاً لرؤية موكب إحسان أو سواه فى تلك الأيام لأن الدنيا كانت باسمة لى ، ولعل إحسان أراد أن يتباهى أمامى بما هو فيه من جاه وعظمة وما يتمتع به من نعيم ...

---

(١) هى مجلة La Nation Arabe أى الأمة العربيـة ، وعندى من الأمير شكيب رحمه الله ومن إحسان بك مكاتيب يضجان فيها من إهمال العالم الإسلامى والعرب وجود لسان دفاع عنهم يتحرك من خارج الوطن . ولذلك كنت أعلن عن مجلتهما فى جريدتى وأوصى كل قادر على الاشتراك فيها حتى ولو كان لا يعرف اللغة الافرنسية إذ يكون منه تقويتها بقيمة الاشتراك وإعطاء النسخة التى تصله إلى معارفه الأجانب مجاناً ، ثم كنت أكلف زوارى ومعارفى شخصياً أن يشتركوا فيها وأقبض منهم الاشتراكات سلفاً وأبعث بها إلى الأمير وإحسان .

وعلى ذلك فإن أصحابنا فى الشام قد رقدوا ... لأنهم كانوا فى غاية الاطمئنان ، لا يخطر ببالهم أن مصاحب الاستعمار كمصاحب الأسد فلا يدرى متى يثور عليـه ! ولذلك كانوا غير حاسبين حساباً لطوارئ المستقبل ، كأن صلتهم بزملاء الجهاد القدماء قد انتهت بوصولهم إلى الكراسى ... على قاعدة « فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر » ...

فرنسا تغدر بسورية

ولكن الدهر لايسكن ولا يصفو لأحد ، لا لشكرى بك ولا لإحسان بك ولالغيرهما، فالزمان مملوء ومفعم بالاحتمالات كعادته ، وطوارئ الحدثان هى هى دائماً ، فلابد لقيامتها من أن تقوم بعد ذلك ، لأن فرنسا فى سنة ١٩٣٩ ثارت على سورية وكشرت للجمهورية الوطنية ثم أسقطتها ونكلت بها ، وأقامت بدلا منها جمهورية أخرى ـ استعمارية طبعاً ـ برياسة الشيخ تاج الدين الحسنى ، وجعلت حسن بك الحكيم رئيساً لوزارتها !

بكرى مصطفى !

وهنا لابد من وصف هذه الجمهورية الجديدة برئيسها ورئيس وزارتها ، ولكن الوصف العادى لا يمكن أن يفيها حقها إلا عن طريق القصة الآتية :

وذلك أنه يوجد عند الأتراك شخصية طريفة « لابن البلد » «القبضاى» وهم يعرضونها فى خيمة « كركوز » على صورة شخص يلبس « الشروال » والصديرى المقفولة والقاووق الطويل بشاربه الضخم المعقوف ، ولابد من برميل خمر يحمله على ظهره ! فالأتراك يتخذون من هذه الشخصية أداة للتنكيت و « التأليس » ونقد الأوضاع ، وقد نسبوا فيما نسبوا « لبكرى مصطفى » أن السلطان قد جعله ذات مرة رئيساً للوزراء ـ أى صدراً أعظم ـ وفيما كان بكرى مصطفى فى عربته خلف موكب صلاة السلطان، إذا به يصادف جنازة ، فأوقف عربته ونزل منها واستوقف الجنازة وأنزل التابوت ثم كشف عنه الغطاء ومد فه إلى الميت وأسر إليه كلاماً ، ثم عاد إلى عربته وواصل سيره خلف موكب السلطان بعـد أن أمر حملة التابوت بالمضى فى سبيلهم ... وكان السلطان عند وصوله المسجد قد تفقد الصدر الأعظم

فلم يجده فسأل عنه فأخبروه بما كان من بكرى مصطفى مع الجنازة ، فاندهش ووقف على باب المسجد ينتظره ، فلما وصل الصدر الأعظم سأله السلطان عن حقيقة ماقيل عن سبب إفساد الموكب ، و « وشوشة » الميت ، وماذا قال له حين أسر إليه ما أسر من كلام !

فقال بكرى مصطفى إنه اغتنم فرصة رحيل الميت إلى الدار الآخرة فأراد أن يبعث معه بآخر الأخبار عن حالة الدنيا ، فقال السلطان وما هى هذه الأخبار ؟ فقال بكرى مصطفى : لقد أردت أن أفهم الذين سبقونا بالرحيل إلى الدار الآخرة أن الحالة فى الدنيا قد انقلبت بعدهم وأن الأمور فيها قد انعكست إلى درجة أن بكرى مصطفى قد أصبح رئيس وزراء !

بهذه القصة أصف جمهورية سورية التى قامت بعد هدم الأولى ، وكيف صارت مصائر سورية تدار تحت حكم حسن الحكيم ! إن شخصية حسن الحكيم لاتشبه شخصية بكرى مصطفى من حيث الشكل والموضوع ، ولكنى أريد أن أقول إنه آخر شخص فى الدنيا يصلح لمنصب رئيس وزراء !

شكرى بك يفكر بى الآن !

ولما بطشت فرنسا بالجمهورية الوطنية الشعبية بدأت بنفى بعض الأقطاب وحبس بعضهم، والتنكيل بالمخلصين، فحبست نبيه بك العظمة والأستاذ نجيب الريس والحاج أديب خير والدكتور سيف الدين المأمون والأستاذ منير الريس والسيد احمد الشربانى وغيرهم وغيرهم ، فعملت احتجاجات على فرنسا وبعثت ببرقيات تأييد لرجال العهد الوطنى الذى مضى ظلماً وعدواناً .

وكتبت فى جريدتى أشتم فرنسا وأهدد وأعربد ... وقد مرت قصتهم فى أوائل هذا الكتاب، وبعد ذلك عاد الاتصال بين صديق شكرى بك وبينى وصارت الرسائل تغدو وتروح منه ومنى ، ومن ذلك الكتاب الآتى الذى لا بأس من إثباته هنا :

أخى العزيز : منذ يومين أصدرت بياناً ملخصه الدعوة إلى تجديد نشاط العمل الوطنى وإلى المهادنة بين الأحزاب ، بل دعوت صراحة إلى ميل الكتلة الوطنية التى تسلمت العمل فيها مع بعض الإخوان ، إلى الانضواء تحت لواء كيان قوى ، لا يكون بعيداً عن اللجنة

القومية العليا المعروفة فى فلسطين . هذا إذا كان الجماعة الآخرون توسع لهم حزبياتهم الطريق فيحسنون تلبية المناشدة .

لقد كان البيان من رأيى ، فضلاً عن كونه من رأى الإخوان ، لأنهم رأوا فيه واسطة حسنة للمرامى التى قصدنا إليها وذكرتها لك أعلاه وأنت لا يخفى عليك أن مسعى مثل هذا تتضاعف قوته ، بل قوتنا فيه إذا نال موافقتك وسائر الإخوان وتأييدك وتأييدهم . فكلمتكم الآتية من مصر (١) ، يكون لها صداها الحسن هنا ، بل قد تعدّل موقفاً إذا كانت مليئة قوية .

لذلك لا أستغرب ، بل أنتظر ، من همتك العالية أن تبدى رأيك فى البيان ، بل فى تجديد العمل كله ، بشكل موافق ، وأن يكون تأييدك ـ الذى أعتقد أن يكون إيجابياً ـ بصورة برقية أو نظير ذلك ، وبكتابة الشورى العزيزة (٢) ونشريات أخرى فى الصحف المصرية الصديقة .

أختصر الآن على هذا الموضوع . ولا شك أنك تعلم أن فى النفس أشياء كثيرة غير هذه أرى أن أؤخرها إلى مناسبة أخرى موافقة لى ولك، وختاماً تحياتى إلى الإخوان جميعاً، وتمنياتى لك ، أخى .

دمشق ٢٩ إبريل ١٩٣٩ ـ شكرى القوتلى

لبيك !

لم أكد أتسلم هذا النداء من الصديق القديم حتى بادرت إلى إرسال البرقية ، والمسارعة إلى الكتابة فى الجريدة ، ثم حملت بعض صحف القاهرة على تأييد وجهة نظر شكرى بك وإخوانه المخلصين فى الشام ، ثم أرسلت إليه كتاباً جعلت الصحف تنشره كما نشرته فى جريدتى . ولا بأس من إثباته هنا وهو :

(١) لم يعرف قيمة الصوت الذى يصدر من مصر وقيمة الإخوان القدماء وأهمية تأييدهم إلا بعد حلول النكبة ...

(٢) الآن صارت عزيزة ...

معالى الأخ الكريم والوطنى المخلص شكرى بك القوتلى حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فقد اطلعنا على ندائكم الذى أصدرتموه باسم الكتلة الوطنية ووجهتموه إلى الأمة العربية بوجوب توحيد الصفوف والجهود فى هذه الظروف الحرجة فى تاريخ الأمة السورية المجاهدة النبيلة ، والعمل على تأليف كيان قوى تأتلف تحت لوائه جميع الهيئات والأفراد لتأمين وحدة البلاد السورية وسيادتها واستقلالها ، فصادف هذا النداء قلوباً من إخوانكم فى مصر تقبلته بالتأييد والتقدير .

فاللجنة الفلسطينية بالقاهرة تتضافر معكم وتؤيدكم وتعدكم بالعمل على تحقيق ما دعوتم إليه ، واضعة فيكم وفى إخوانكم المجاهدين القدماء ثقتها التامة ، راجية منه تعالى أن يحقق آمال الأمة العربية بفوز سورية الكريمة العزيزة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

القاهرة فى ٢١ ربيع أول سنة ١٣٥٨ — رئيس اللجنة الفلسطينية العربية

موافق ١١ مايو سنة ١٩٣٩ — محمد على الطاهر

اللجنة الفلسطينية العربية بمصر

تؤيد الكتلة الوطنية فى سورية

معالى الأخ الكريم والوطنى المخلص شكرى بك القوتلى حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فقد اطلعنا على ندائكم الذى أصدرتموه باسم الكتلة الوطنية ووجهتموه إلى الأمة العربية بوجوب توحيد الصفوف والجهود فى هذه الظروف الحرجة فى تاريخ الأمة السورية المجاهدة النبيلة والعمل على تأليف كيان قوى تأتلف تحت لوائه جميع الهيئات والأفراد لتأمين وحدة البلاد السورية وسيادتها واستقلالها فصادف هذا النداء قلوباً من إخوانكم فى مصر تقبلته بالتأييد والتقدير فاللجنة الفلسطينية العربية فى القاهرة تتضافر معكم وتؤيدكم وتعدكم بالعمل على تحقيق ما دعوتم إليه واضعة فيكم وفى إخوانكم المجاهدين القدماء ثقتها التامة راجية منه تعالى أن يحقق آمال الأمة العربية بفوز سورية الكريمة العزيزة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

القاهرة فى ٢١ ربيع أول سنة ١٣٥٨ موافق ١١ مايو سنة ١٩٣٩

رئيس اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة

محمد على الطاهر

وبعد ذلك توالت الأحداث وأعلنت الحرب ، فأوقفت الجريدة ثم حبسونى ، وأرادت فرنسا القبض على شكرى بك فنزح إلى العراق هرباً من فظائعهم .

رئيس جمهورية لا يرد على صديقه

وبعد الحرب دارت الأيام مرة أخرى ، واستقلت سورية وانتخب شكرى بك رئيساً للجمهورية فقوبل انتخابه بالارتياح من الجميع ، لوطنيته وجهاده القديم ، وكنت أنا من جملة المهنئين وقد أرسلت له كتاب التهنئة بواسطة المفوضية السورية بالقاهرة وفى بريدها السياسى الخاص .

ولكن صديقى وأخى القديم لم يرد علىّ ... فى حين أن تهنئة تأتى من الزملاء القدماء تعد فى مثل حالتنا أجل وأعز التهنئات ، ثم زار مصر فى تلك الأيام أخى صبرى بك العسلى وهو سكرتير عام للجمهورية وكان فى أيام هجرته السابقة بالقاهرة لا يفارقنى ، ولكنه الآن لم يسأل عنى فطلبت أن أراه فقال لنسيب بك شهاب إنه مشغول ! ثم عاد إلى دمشق ... وبعد ذلك تعين وزيراً للداخلية فكتبت إليه أهنئه ولكنه لم يرد علىّ ...

الرئيس فى القاهرة ...

وزار شكرى بك القاهرة ، وهو رئيس ، ونزل بقصر الزعفران الرسمى ، وكنت فى أيامها معتزلاً على أثر الخروج من الحبس ولا أجسر على الاختلاط بالرسميين ، فاكتفيت بوضع بطاقة التحية بالمفوضية السورية فأرسلوها إلى مقره ، وكنت أنتظر أنه سيدعونى إليه، أو أن أسمع بواسطة أعوانه سؤالاً منه عنى وكيف حالى ولكنه لم يسأل ...

وفى موكب شكرى بك إلى حفلة عشاء بالقصر الملكى وقفت فى شارع ابراهيم باشا أتفرج على موكب صديق وهو متوج — وهو نفس الشارع الذى وقفت فيه لأخى — على اعتبار ما كان — رياض الصلح ... ومر موكب شكرى بك فسررت برؤيته وكمال صحته ، وكان يجلس معه فى السيارة المرحوم سعد الله بك الجابرى .

وعاد شكرى بك إلى دمشق ، وبدلاً من أن يفكر بمن كان يعمل معه إذا به يعين الدكتور نجيب الارمنازى وزيراً مفوضاً فى لندن ، نعم نجيب الارمنازى عدو شكرى والساعد الأكبر لخصومه لما كانا فى مصر ، وعدو جبهة شكرى وشكيب وإحسان ورياض ، أى

الوفد السورى فى أوربا حين كان الارمنازى طالبا فى باريس ، وكان فى تلك الأيام يعمل مع الشيخ تاج الدين الحسنى ضد جبهتهم ، ويساعد المسيو دى جوفنل الذى أهلك سوريه .

الدكتور أمين رويحة

وفى تلك الأيام أفرجت انكلترا عن المبعدين فى روديسيا ومنهم الدكتور أمين الذى مضى عليه ست سنين وهو يعانى فى سجون فلسطين والسودان وروديسيا صنوف العذاب - وقد مر بعض حوادثه فى أوائل هذا الكتاب - فوصل أمين مريضاً مهشماً مشوه الوجه بفعل الحشرات السامة والأمراض وسوء المعاملة - وقد مرت صورته فى أوائل الكتاب أيضاً.

وكان الظن أن يلقى أمين فى مصر ترحيباً واحتفالا من مفوضية سورية التى قاتل فى سبيل قيامها ونكب من أجل وجودها ، ولكن المفوضية لم تهتم به ولا جاملته بكلمة ، بل كان المنتظر أن يكون جميل مردم بك وزير سورية المفوض حينذاك فى استقباله فى المطار، وأن يقول له « إن الجمهورية السورية التى قامت فى غيابك، بعد أن غذاها جهادك، وسفكت من أجلها دمك ، قد أوفدتنى للترحيب بك ، وأمرتنى بأن أكون فى خدمتك» ثم يرافقه بسيارة المفوضية إلى داره ويقول له فى حياء وأدب «إن حكومة الجمهورية قد أمرتنى بأن أقدم لك من مال الأمة هذه الألف جنيه - مثلا - لتعالج فى أحد المستشفيات» ولكن شيئاً من هذا لم يقع ... بل قد بلغ الحال من المفوضية السورية إنها لما رحل الدكتور أمين عن مصر عائداً إلى دمشق ، أخذت منه ومن أسرته ثمن « الباسبور » ٢٣٠ قرشاً صاغا مصرياً ... وها هو « الوصل » الصادر من القنصلية السورية بقبضها المبلغ من أمين موجود تحت يدى !

خذلوا أمين فى دمشق

وسافر أمين عائداً إلى الشام التى دافع عنها بعد أن غاب عن وطنه مجاهداً ربع قرن ، وكان المنتظر من صديقه شكرى بك « وهو رئيس » أن يحله فى أكرم مكان ، فإذا بأمين يكتب لى يقول إنه قوبل من الجمهورية مقابلة سلبية وأنه سيرحل عن سورية ويسكن مصر، ثم يحدثنى عما ناله من تجاهل هناك ، وما رأى وسمع وهو مما يكسر الخاطر ويثير النفس ، ويكفى أنه سيعود بخفى حنين - هكذا كان تعبيره .

يستكثرون عليه وظيفة!

وكتب لى الدكتور بعد ذلك يصف لى متاعبه مع حكومة الجمهورية التى هى من غرس يده وأيدى المجاهدين من إخوانه ، فقال إنه لما وصل دمشق نزل بأسرته بالفندق وتكلف فيه ما يملك وما لا يملك وإنه كان يرى بعينه تبذير الحكومة فى ضيافتها بمناسبة عيد الجلاء ، لأناس كان فيهم الخونة وأعداء البلاد ، وهو العيد الذى شارك أمين يبذل دمه فى سبيله . ومعنى هذا أنهم استكثروا على الدكتور أمين أن تدفع عنه الدولة مصروف الفندق، فيا للأسف، ثم يقول إنه طلب أن يوظف بمنصب بوزارة الخارجية ليستريح من التعب والأمراض فترة من الزمن إلى أن يسترد صحته فاستكثروا عليه ذلك . ومعنى هذا أيضاً أن الأستاذ نجيب الأرمنازى مثلا الذى حاربهم بالأمس أولى بمنصب وزير مفوض من أمين رويحة، مع أنه متعلم ومثقف أكثر بعشرين مرة من « بعض الناس » ويكفى أنه كان مجاهدا عظيما ، أو يكفى أنه لم يقاتل الحركة الوطنية التى كان السيد القوتلى من كبار أساطينها .

ملحوظة عابرة ...

أما احتفالات عيد جلاء فرنسا عن سورية فهو عيد الأعياد ، وطالما اشتهيت أن أراه ، لأنه حادث العمر بل حادث الدهر ، فلو أن صديق شكرى بك بعث لى بدعوة لطرت إلى الشام لأقوى معنوياتى برؤية حادث يرفع الرأس ويجدد الأمل فى النفس ، لأن معناه أن فرنسا كانت هناك وخرجت ، إذن فالاستعمار يمكن أن يزول إذا لقى عزيمة من المحكومين ولقى مقاومة دموية وصلابة أخلاق وحفاظاً وطنياً وعداوة مرة . إن جمهورية سورية قد دعت من مصر إلى حفلات عيد الجلاء أشخاصاً ما كان يهمهم بقاء سورية تحت حكم فرنسا أو سواها ، وربما كان بين المدعوين أناس كان يكدرهم استقلال سورية ويودون بقاء فرنسا فيها ... ولكن حكومة الحبايب والإخوان المجاهدين لم تفكر بمن ساهموا فى وصول سورية إلى ما وصلت إليه ، وقد كتب لى شكرى بك قبل الآن يذكر لى ذلك فى كتابه المصور فى صفحة ٦٦١ من هذا الكتاب ، بل إن صديق وأخى شكرى بدلا من أن يستعين بى وهو رئيس كما كان يستعين بى وهو منكوب ومجاهد نازح ، صار يستعين فى توزيع التركة

- التى ساهمت فى استردادها - على الطفيليين وأعداء الحركة الوطنية وبقايا فرنسا ، وينادى القاعدين والخاذلين والقريب والبعيد وكل من لا يهمه أمر سورية لمشاركته أفراحه وأفراحها، إلا أنا صديقه القديم وزميله فى النضال والصراع ! أنا لا أقول هذا ادعاء منى ، كلا ، ولكن مكاتيب شكرى بك التى سجلت بعض النماذج منها هى التى تقول هذا الكلام !

وقد عملت حكومة أخى شكرى أوسمة ونياشين ووشاحات، فإذا بها بدلا من أن تهديها إلى الذين ساعدوا وجاهدوا وعملوا من أجل البلاد ، إذا بها تغدقها على كل من لا علاقة لهم بهذا الاستقلال وهذا الجلاء !

وأرجو أن لا يبتسم قراء هذا الكتاب إن قلت لهم إن هذه الأوسمة بعد أن وصلت إلى كل الناس ورميت يميناً وشمالا ، قد وصل أكبرها وأفخمها إلى صدر محمد يوسف ضابط البوليس - نعم إلى محمد يوسف بك الميرالاى صاحبنا القديم الذى كان يشتغل بى أنا ويطاردنى ولا يزال إلى الآن ، كما أنه يطارد أبناء البلاد العربية فى الديار المصرية حتى هذه الساعة ، وحتى قيام الساعة ، ما دامت حكومة النحاس باشا لا تستيقظ ولا تسحب هذا الضابط من يده اليمنى حتى باب محافظة مصر ثم تقول له : أرنا عرض أكتافك ... فإن لم تبادر حكومة النحاس باشا إلى عمل ذلك الآن فإنها ستندم غداً ، كما ندمت بالأمس ، وقبل الأمس ...

كلمة أخيرة

إننى لما أصدرت جريدتى سنة ١٩٢٤ وصفت هويتها بسطر دائم نقشته على معدن صلب وكان ينشر فى كل عدد منها ، وهو أنها « جريدة تدافع عن سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن» ولما اتسع نطاق نشرها وتغلغلت فى جميع آفاق الارض وأصبحت لا تغيب عنها الشمس كما قال الدكتور محمود عزمى فى خطابه عنها سنة ١٩٢٨ بفندق الناسيونال - أقول إننى لما اتسع مجال نشرها بدلت الكليشه السابقة وجعلت وصف أغراضها بأنها « جريدة تبحث فى شئون البلاد العربية والأقطار المستعبدة » فنحن إذن كنا نعمل لهدف قومى بدون أن أشعر بأنى ابن قطر معين أو بلد معين أو لحساب جهة معينة ، على هذا الوجه اتصلت الأرواح بينى وبين شكرى وسواه من أحرار سورية والأمة العربية ، والدليل على ذلك أن شكرى بك

ترك جميع الصحف وجميع الصحافيين لما كان فى مصر ـ كما تركوه أيضاً ـ وبقى معى وبقيت معه ، وإلا فما الذى كان يحملنى على مقاتلة الحكومات التى راحت تطاردنى أنا وجريدتى ، وعلى مقاتلة الخونة وأعوان الاستعمار الذين عندهم الوظائف والأموال والراحة والاستقرار ، ثم أركض مع المشردين والنازحين والمفلسين والمنكوبين ، لولا المثل الأعلى الذى كنت استهدفه فى سبيل الله ، لافى سبيل شكرى ولا غيره ، لأنه من غير المعقول أن أتحمل كل هذا الأذى من أجل أناس ماكانوا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، بل أن مجرد الاتصال بهم كان يسبب لى الضرر والأذى والمطاردة وتخريب الديار !

حالة محزنة

بل إن الأذى بقى يلاحقنى إلى هذه الساعة ، إذ أننى لما بدأت أتخلص من بعضه على يد مصطفى النحاس باشا ، أمر متدعام بالاعتراف بجنسيتى ، إذا بى أذوق « أذى المنّ علىّ » وهو أشد من كل ما لقيت ، لأن صديقى الذى أحبه فؤاد باشا سراج الدين « وزير الداخلية اليوم فى مصر ١٩٥١ » لا يكاد يسمع سيرتى تفتح إلا قال لقد أعطيته «الجنسية المصرية» وتارة يقول « لقد سوينا له مسألة الجنسية » ... فهو يستكثر علىّ أن أكون مثل اليهود الذين يحملون الجنسية المصرية ويقاتلون مصر فى سرهم وعلانيتهم ، ويقاتلون الإسلام والعرب جميعاً!

يا ويلى كم ألقى بسبب عداوتى للاستعمار حتى بعد خلاص مصر من حكم الاستعمار ، لأنى صرت أعانى مرارة المنّ علىّ ، وهو أمرّ من كل شىء نالنى ، فياترى لو كنت بقالا أوتجاراً ، أو كنت يهوديا أو من أعوان الاستعمار ، هل كنت أطارد وأحبس ! وهل كان صاحبنا سراج الدين باشا يفكر بى ويقول لأصحابه وأصحابى: لقد منحته الجنسية ، لقد سويت له مسألة الجنسية ؟ ؟ ـ كلا !

رجعة إلى موضوعنا

أما موضوعنا الأصلى فهو شكاية الدكتور أمين رويحة مما لقى من حكومة اخوانه فى الشام ، فقد رجع إلى التذمر والتبرم والتضجر ويبدى الرغبة فى الرحيل من وطنه إلى أى قطر عربى آخر ، فكتبت إليه بأن يصمد وأن لا يهرب من المعركة الجديدة مع إخوانه بعد

معركته الكبرى مع الاستعمار، وأن يتخذ لنفسه عيادة ولو بالاستقراض وإنى مستعد للمشاركة فى إعداد القرض، وأن يرشح نفسه عند خلو أية دائرة نيابية لعضوية مجلس النواب السورى وعند ذلك يجد أن حكام العصر الأمجاد الأفذاذ، سيعيدون النظر فى موقفهم معه، فكتب لى أمين يقول « وأخيراً قررت النزول عند مشورتك والبقاء بدمشق والنضال فى سبيل لقمة الخبز لأولادى أولا بعد تنكر الأصدقاء والزملاء القدماء» ثم يقول إن الله قد رحمه بأن وجد عملا فى أحد المستشفيات وأنه سيفتح العيادة [1] .

ولما استقر الحال بالدكتور ورشح نفسه للانتخابات النيابية إذا بالجمهورية الشعبية الحبيبة تخذله وتحاربه وتسقطه فى الانتخابات، وهو أمر مدهش عجيب، لأن جهاد أمين يخوله فى انتخابات حرة أن يفوز على شكرى بك القوتلى نفسه. ولولا أن صديق نبيه بك العظمة وهو ثقة كان يكتب لى عن حاله مع الجمهورية فى تلك الأيام وعما يعانى من بعض إخوانه القدماء لرميت الدكتور أمين بالمبالغة والتجنى. فقد كتب لى نبيه بك جواباً على استفهام يقول « ... فلو أتيت الشام يا أبا الحسن لرأيت الدنيا غير الدنيا والناس غير الناس »، وكتبت له مرة أسأله هل يمكن استفادة الجمهورية من كفايات عزيز باشا المصرى ولو بالاستشارة من بعيد؟ فكتب لى يقول « وأما تذكيركم بشأن الصديق عزيز باشا فهو خيال بالنسبة لمن بيدهم الأمر هنا » ...

إذن فالدكتور أمين كان صادقاً لما اشتكى من سوء معاملة أصدقاء الأمس، ولاسيما أن رأى نبيه بك فى الحالة بالشام كان مثل رأيه، برغم الخلافات التى كانت موجودة بينه وبين نبيه، وهكذا كان رأى الأستاذ الشيخ كامل القصاب وهكذا كان رأى الكثيرين أيضاً.

الصالحانى

ثم عاد الدكتور أمين يذكر لى عن الخذلان الذى لقيه هناك فى مقابل جهاده وتضحياته ما خفف من كدرى وغيظى منهم على نفسى، فمن ذلك أنه كتب لى يقول :

---

(١) كان الدكتور على باشا ابراهيم جراح مصر الأكبر يقول إن الدكتور أمين رويحه بك سيكون الجراح الأكبر فى الشرق العربى، وقد كان ما قاله الدكتور على باشا، رحمه الله.

« .. وليس لى ما أذكره لك فى هذا الشأن بعد تنكر البعض وعدم الوفاء إلا التذرع بالصبر كما صبر غيرك على هـذا المضض واحتمال المكاره من أعز الناس التى يفيض بها مجتمعنا وتصيب أكثر ماتصيب من ينذر نفسه لخدمة المبادئ الصحيحة والمثل العليا والتفانى فيها، وأما « الصالحانى »[1] فمع أنى من مؤيديه فإنى لا أستطيع التفاهم معه ولم أر منه إلا عـدم الوفاء وعدم الاكتراث بى » ثم كتب لى يقول « وإنى مضطر مع الأسف لأن أطلب إليك تغيير فكرك فى أصدقائك الأولين الذين أراك تفرض فيهم الوفاء والصداقة، والذين بعد أن وصلوا إلى دست الحكم برهنوا على أنهم لايتصفون بما تظن ، بل على العكس ، وعلى كل حال فهذا موضوع يحتاج إلى شرح طويل أوفر عليك سماعه الآن ، وأما مساعيك الطيبة الأخرى فاعلم بأنها لا يمكن أن تثمر عند أسيادنا فى الحاضر والذين كانوا إخواننا فى الماضى...»

ماهى المساعى ؟ الأمير شكيب

هذه قصة طويلة ، ولـكن مادام موضوعنا كله عبارة عن قصص وحكايات ، فما المانع من سردها أو تلخيصها مثلاً ...

أما الذى يقصده الدكتور أمين رويحة من عبارة « المساعى الطيبة » التى أقوم بها فهو موضوع الأمير شكيب أرسلان « رحمه الله » فقد علمت على أثر انتهاء الحرب العظمى الثانية أن الأمير يعانى فى غربته بسويسرا أزمة مالية شديدة ، بعد أن كنا نظن أنه كان فى سعة من أموال الألمان ! فقد اجتمعت بالسيد « نواز خان » سفير الأفغان فى برلين حين مر بمصر سنة ١٩٤٥ وهو راجع لبرلين أن الأمير ماكان يزور ألمانيا وأنه كان فى معزل عنها وعن إيطاليا ، لأنهما لم تقبلا مشورته فيما يخص العالم العربى كالاعتراف له بالاستقلال التام وأن تعطيا العالم الإسلامى من التأكيدات مايطمئنه على حريته وعلى التخلص من الحلفاء فى حالة انتصار المحور، وقد سألت السفير الأفغانى عن دعاية الأمير شكيب من راديو برلين وراديو روما ، فقال إن الألمان والطليان كانوا يتهافتون على ماتنشره صحف أوربا والصحف العربية بأمريكا الجنوبية

(١) هذا اسم مستعار للسيد شكرى بك القوتلى فى أيام الجهاد القديم حيث كانت الرسائل ترد منه بهذا الإسم وتذهب به إليه حتى لا يعرف الأعداء شخصية صاحب الرسائل .

من قلم شكيب ضد الحلفاء فيذيعونه من محطات المحور لأن كل ما يكتبه ضد الحلفاء يوافق هوى الألمان والطليان فيذيعونه ؛ فيظن المستمع أن الأمير شكيب يذيع لحساب المحور ...

إن وقوفى على هذه الأخبار السيئة عن شيخ المجاهدين الكبير قد روعنى، ولذلك بادرت بالكتابة إلى فخامة السيد شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية صديق شكيب بواقعة الحال ليساعده من مال الدولة طبعاً لا من ماله هو ، حتى ولو كان من ماله فلا بأس فهو غنى كبير شخصيا ، أو من مرتبه أيضاً ، فماذا فى أن يساعد الصديق صديقه ، ولا سيما إذا كانا من كبار المجاهدين وكان أحدهما قد أصبح مثل الملوك « أو أنه ملك غير متوج » والثانى ظل مجاهداً فى غربته ، وأى جهاد وأية غربة .. وكنت على يقين غير قابل للشك بأن الرئيس القوتلى صيمانى المقيم المقعد جزعاً على صديقه الذى جاهد وبذل المال والحياة فى سبيل الأمة ٦٠ عاما ، بل أن فخامته سيقوم ولن يقعد إلا إذا طارت البرقية التى تحمل الرفد المالى للأمير شكيب فى دار غربته سويسرا .

ماذا قال شكيب ؟

لذلك كتبت للأمير شكيب كتاباً أرسلته مع السفير الأفغانى عند سفره إلى أوربا فسلمه للأمير بجنيف مع ٣٠٠ جنيه جمعتها من ثمن كتبه الموجودة فى مكاتب القاهرة ومن هذا المبلغ مئة جنيه قدمها سمو الأمير سيف الإسلام عبدالله نجل ملك اليمن (١) وقد أخبرت الأمير شكيب عن كتابى لشكرى بك ، وطلبت منه أن يخبرنى بمجرد وصول النجدة ، ولكن النجدة لم تصل ... وقد كتب لى الأمير شكيب بما يدل على استبعاده مبادرة صاحب الشام إلى إسعافه ، لما يعرفه عنه من إمساك اليد ، وإنى أتذكر أن الأمير شكيب رحمه الله قد ذكر لى فى كتابه ـ وهو يتهكم ـ بعض النوادر عن بخل بعض الملوك ومنهم الملك العادل صاحب الشام الذى ما كانت يده تبض بدرهم ! وان أحد الشعراء قال فيه قصيدة جاء فيها هذا البيت :

أيامه مثل شهر الصوم خالية   من المعاصى وفيها الجوع والعطش

---

(١) لم يكتف هذا الأمير النبيل بالمساعدة السريعة الارتجالية التى قدمها ، فإنه لما درى بخذلان من فى الشام للأمير شكيب بادر إلى الاتصال بجلالة والده الإمام الكبير الشهيد الملك يحيى رحمه الله فبعث للأمير شكيب بألف جنيه ، رحم الله هذا الملك الشهم وجزاه عن الشهامة عند ربه أحسن الجزاء .

كتاب آخر إلى الرئيس

عند ذلك كتبت رسالة أخرى للرئيس القوتلي رجوته فيها أن يجامل إخوانه القدماء المجاهدين ولو بإعطائهم من المال والمناصب أكثر من حقهم، وفوق استحقاقهم، وقد ذكرت له منهم الأمير شكيب والشيخ كامل القصاب ونبيه بك العظمة والدكتور أمين رويحه وقلت له إن الصراع مع الاستعمار لم ينته بعد، وإن الجيل الجديد إن عرف بأنه وقع أقل خذلان لمجاهديه القدماء فإنه لن يجاهد يوم يحتاج الأمر إلى جهاد. وقد داعبت فخامة الرئيس في ذلك الكتاب مداعبة أخوية ناعمة، إذ قلت له إني أخشى إن حصل منك تقصير مع إخوانك القدماء أن يقوم شاعر معاصر فيعمل لك قصيدة كالتي عملت لصنوك الملك العادل ملك الشام.. وسردت له البيت الذي ذكره لي الأمير شكيب، وقد لحظ القارىء كيف انني قرنت شكري بك بالملك العادل وجعلته صنوه.

وحيث ان مثل هذا الكتاب لا يرسل بالبريد المعتاد، فقد كلفت الدكتور أحمد بك السمان الأستاذ بمعهد الحقوق أن يأخذه معه ويسلمه للرئيس يداً بيد، حتى لا يطلع عليه أحد سواه، ولكني خفت أن ينساه الرئيس أو يلقيه في سلة المهملات فأطلعت الدكتور السمان على الكتاب قبل إغلاقه ليكون شاهداً على أني قد بلغت وقمت بالواجب نحو إخواني المجاهدين ونحو الرئيس نفسه، وقد استكتمت السمان بك هذه الحكاية، وأن يسلم الكتاب ويعمل حاله كأنه لا يدري شيئاً عما فيه، وقد كتب لي الدكتور السمان بك من دمشق بأنه سلم الكتاب لشكري بك بيده، وكان عنده ساعتها محسن بك البرازي سكرتير الجمهورية العام، فقرأ فخامة الرئيس القوتلي ذلك الكتاب ثم قال للدكتور السمان « يافلان لقد كنت الآن أتحدث مع محسن بك في المسألة التي يريدها أبو الحسن وسيكتب للأستاذ الطاهر عنها ويقوم بعمل اللازم » هذه رواية السمان بحروفها، ولكن الأمير شكيب لم يحظ بشيء من مال أمته، ولا المرحوم البرازي كتب لي شيئاً عن هذه القصة!

نور و نار

وبعد ذلك كتبت إلى صديق أكرم بك زعيتر وكان فى أيامها من أخصاء فخامة الرئيس وقصصت عليه الحكاية من أولها إلى آخرها ، ورجوته أن يذكّر بها فخامته ويذكّر محسن بك ، فكتب لى أكرم بأنه قام بالتذكير ثم قصّ على تمليحة وقعت يومها ، فقد قال أكرم إنه فيما كان يحدث فخامته ومحسن بك فى أمر الأمير شكيب إذ جاء إحسان بك الجابرى إلى القصر الجمهورى ودخل عليهم بمكتب الرئيس وسمع الحكاية، فقال إحسان مداعباً ، « كيف تؤجلون مسألة يتوسط فيها أبو الحسن ؟ هذا نار هذا نار ! » فكمل فخامة الرئيس الداعبة قائلاً بل هو نور لانار ، اكتب يا أكرم لصاحبنا أبو الحسن وافقن على إحسان الذى يقول عنه إنه نار ، وإنى أنا أقول عنه إنه نور ، وكن أنت الشاهد على إحسان ! .

لاشك بأنى شكرت لفخامته ولإحسان بك هذا الكلام لأنه يدل على أن لى مكانة عندهما ، فازداد لذلك طمعى فى أن النجدة للأمير شكيب قد ذهبت إليه بالبرق ..

ولكنه كان برقاً خلباً ، بل إنه لم يقع برق ولا رعد .. لأنى لما كتبت للأمير شكيب بهذه القصص وأنا معتز بما بلغنى عن أصحابنا بالشام أجابنى رحمه الله بأنه لم يتلق شيئاً وأنه لن يظفر من أصحابه هؤلاء بقرش !! ثم ذكّرنى بقصة الملك العادل ...

ولما عاد الأمير شكيب من غربته إلى الوطن بفضل هدية المرحوم الإمام يحيى ملك اليمن ، مر بالإسكندرية فقابلته فى الباخرة وسألته عن مساعدة الشام فابتسم وقال إنه لا يزال مصرا على أن خليفة الملك العادل لابد أن تكون أيامه مثل شهر الصوم ...

استطراد عن شكيب

لم يعش أمير البيان بعد وصوله إلى الوطن أكثر من أسابيع ثم لحق بالرفيق الأعلى ، وقد وضعت كتابا عن ذكراه بلغت صفحاته نحو ٥٢٠ صفحة بالقطع الكامل ـ أى من حجم صفحات كتابى هذا ومن ورقه وحروفه ، وقد كتبت فيه عن شكيب فصولا كثيرة فيها معلومات وحوادث ووقائع ومسائل شتى ثم ضمنت الكتاب كل ما استطعت الحصول عليه من المراثى وأقوال

الصحف والمجلات وحملة الأقلام وقصائد الشعراء ، وما قيل فى حفلات تأبينه ، فى مصر وأوربا وفلسطين ، وأميركا الشمالية ، وأميركا الجنوبية ، والمغرب الأقصى ، والشرق الأقصى وعدن وتونس والجزائر الخ الخ[1] .

لم أذكر الشام ولا لبنان بين الأقطار التى أبنت الأمير شكيب، لأن الجمهوريتين الشاميتين قد انفردتا بهذا الإهمال مع شديد الأسف والأسى ، وهو أمر لم يستطع أحد أن يفسره ولا أن يجد له عذراً ، لأن شكيب ما عاش ومات إلا فى سبيل هاتين الجمهوريتين قبل كل قطر آخر ، وقد زاد فى قهر المخلصين وغيظهم من هذا التقصير أنه وقع من جمهورية سورية التى يرأسها صديقه القديم شكرى القوتلى، ومن جمهورية لبنان التى يرأسها صديقه الشيخ بشارة الخورى ، ويرأس وزارتها رياض الصلح ، صديق شكيب ورفيقه فى عضوية الوفد السورى بأوربا ، ولاسيما أن هـذا التقصير قد وقع من بلدين هما بلده بل أهله ، فياله من عقوق ويا له من نكران لا يتصورهما عقل ، ولا يصدقهما أحد .

جريدة الشورى

إن هذه الجريدة قد وصفها شكرى بك فى رسائله لى ، ووصفها رياض بك الصلح والنقراشى باشا قبل ذلك ، فلما ألغيت الأحكام العرفية كان النـاس ينتظرون صدورها مرة أخرى ، وعندى الآن نحو ٢٠٠ رسالة من العالم الإسلامى يسألوننى فيها « أين الشورى ؟ »

(١) لولا نكبة الأمة العربية بضياع فلسطين والشغال بعقابيلها ووضع كتابين عنها بعد النكبة ، لحققت أمنية لى طالما تمنيتها ولا أزال أتمناها ، وهى أن أضع كتاباً خاصاً عن الأمير شكيب غير كتاب الذكرى الذى تحدثت عنه هنا ، وذلك أن أجهز من خلاصة نحو ٦٠٠ مكتوب أرسلها لى الأمير فى خلال ربع القرن الماضى ، كتاباً ضخماً يجد فيه العالم الإسلامى تاريخاً لقضاياه والقضية العربية وتراجم رجالها والرأى الصحيح فيهم ، على نحو تأريخ شكيب للامام محمد رشيد رضا ، حين وضع عنه الأمير كتاباً جمع فيه رسائله إليه ، باسم « رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » وها إنى لا أزال على هذا العزم ، ولا ينقصنى إلا الحصول على المال الذى يمكنى من إخراجه إلى عالم الحقيقة فى زمن ارتفع فيه سعر الورق عشر مرات عما كان عليـه قبل الحرب ، كما زادت أجرة الطبع عما كانت ٥ مرات .

ولا زال كل من يراني يحثني على إعادة إصدارها .. فلما رأيت هذا الإجماع كتبت إلى القادرين من خاصة أصدقائي بأن يعدوني بمال يمكنني من القيام بالمشروع، وكتبت لشكري بك أيضاً، لأنه خير من يعرف شدة لزومها ، وكلفت صديق أكرم زعيتر بك بأن يذكر الرئيس القوتلي بما كتبت إليه فأرسل لفخامته ٢٠٠ جنيه ، وجاءني من فضلاء فلسطين قبيل النكبة العظمى بضياعها ، ومن غيرها نحو ٦٠٠ ولكن الجريدة تحتاج إلى أكثر من عشرة آلاف ، هذا فيما لو كانت صغيرة ، أما إذا أريد لها أن تكون جريدة كبيرة فهي تحتاج إلى خمسين ألفاً ، أما إذا كانت جريدة كالأهرام فهي تحتاج إلى مليون جنيه ، ولاسيما أن قيمة الجنيه في أيامنا قد انحطت إلى الربع . وقد أردت أن أعيد المال لأصحابه ولشكري بك خصوصاً ولكن أكرم بك زعيتر نصح بعدم إعادة المال لفخامته حتى لا يفسر الأمر تفسيراً معكوساً ... إذن فلابد من الانتظار ، ثم توفي المرحوم الأمير شكيب فوضعت عنه الكتاب المتقدم ذكره مستعيناً ببعض المال المخصص للجريدة ومن جهات أخرى ، وبعد ذلك وقعت كارثة فلسطين فأصدرت عنها الكتاب الأحمر وسميته « أوراق مجموعة » في ٥٣٠ صفحة و ٢٠٠ صورة ، وقد وزعته مجاناً وأرسلت منه إلى جميع أنحاء الأرض بالبريد ومع المسافرين ، ثم حبسني ابراهيم باشا عبد الهادي رئيس الحكومة التي أضاعت فلسطين ، بدلا من أن يحبس اليهود فوضعت عن هذه المصائب الجديدة ـ وعن فلسطين طبعاً ـ كتاباً آخر سميته «معتقل هاكستب» في ٦٨٠ صفحة و ٤٤ صورة ، وقد استغرقت هذه الكتب مال الجريدة ونحو ألف جنيه مني.

ذكرت هذه القصص لأن فيها رداً على بعض الذين لم يذوقوا الخذلان من أعز الناس ، ومن الجامعة العربية التي كان يجب عليها أن تقوم هي بنفقات هذه الكتب بدلا من إنفاقها ٤٠ ألف جنيه على حفلات الشاي وحدها...

أسرة الأمير شكيب

وفي خلال هذه الحوادث جاءني كتاب من الدكتور زكي علي بك المجاهد الإسلامي المصري المقيم بجنيف يحدثني فيه عن بعض الأمور فإذا به يورد عرضا سيرة عائلة الأمير شكيب أرسلان التي بقيت في سويسرا ويخبرني أنها في حالة مالية عسيرة بعد فقد الأمير ، وأنه لولا

أن أحمد حلمى باشا الزعيم الفلسطينى قد أمدها من تلقاء نفسه بعد وفاة الأمير بستة آلاف فرنك ذهباً لكانت الحالة أسوأ ، فأصابنى من هذه الأخبار عن أسرة المجاهد الأكبر غمّ شديد ، فكتبت إلى صاحبة الصون الأميرة أم غالب حرم الأمير أسألها عن حالها وأنجالها ، فوردنى منها مايؤيد ذلك فازداد غمى وقلت فى نفسى لماذا لا تهتم الحكومة السورية بهذه المسألة قبل كل العباد ؟ ولذلك كتبت إلى فخامة الرئيس القوتلى بشرح الحالة ، لأن إسعاف حكومة سورية لأسرة الأمير شكيب من أوجب واجباتها وهى ملزمة بذلك فى نظر الواقع ونظر كل من يعرف جهاد شكيب فى سبيل القطر الشامى كله ، لأنه أنفق فى الجهاد السياسى كل ما يملك ، وما هو بالشىء القليل فقد كان ثروة عظيمة ، وفوق ذلك أنه صرف حياته كلها وهى أكثر من ثمانين عاماً فى سبيل سورية .

ثم كتبت إلى الأميرة الإرسلانية بما صنعت ، وقلت لها إن زارك وزير سورية المفوض بسويسرا وقدم لك هدية مالية فلا بأس من قبولها ، وإنى سأسعى فى تعيين مرتب شهرى للأسرة إلى أن تصفى علاقاتها بسويسرا وتعود بأنجالها إلى وطنها ، ولم أتدخل عند رياض الصلح بشىء من هذه المساعى ، لأنه يعرف عن شكيب وحالته المالية وعن جهاده أكثر مما أعرف ، وكيف أكتب له ليجامل رجلا رحل عن الدنيا ، فى حين أنه لم يستح منى أنا الذى لا أزال فيها حياً أرزق وقد قرأ الناس فى الفصول السابقة «فصوله» معى...

على أنى مع ذلك قد كلمت وزير لبنان المفوض بالقاهرة فى هذا الموضوع ، ولكنى حتى الساعة وبعد أربع سنين أؤكد للذين يقرأون هذه السطور أن رياض الصلح لم يساعد أسرة صديقه وأستاذه الأمير شكيب بقرش واحد !

جميل مردم بك

وكتبت للشام أستفهم عما أرسلوا لجنيف فقيل لى إنهم ينظرون فى الأمر وإنهم على وشك الإرسال ... ولكنهم لم ينظروا فيه ولم يرسلوا شيئاً ...

وجاء إلى مصر السيد جميل مردم بك رئيس وزراء سورية حينذاك ، فاجتمعت به فى المفوضية السورية وسألته عما فعلوا من أجل أسرة الأمير شكيب ، فقال « إننا قمنا باللازم

وأن أطمئن» وكنت يومها قد تناولت رسالة وصلتني من حرم الأمير بالطائرة وتاريخها ابن يومين فقط ، فلما سمعت مردم بك يقول لى ماقال ، لم أشك فى أن كلامه كان فى الهواء ! ولذلك قلت له بعد أن وضعت يدى على جيبي كمن يريد أن يخرج مسدساً : هل أنت متأكد من قيامكم بالواجب وأن أطمئن وهل أمضيت أنت على « شيك » أو على أمر صرف ، أو رأيت بعينك أنهم أرسلوا شيئاً ؟ إننى أقيلك من الذى قلته لى لتقول غيره ، وإلا فإنى سأخرج من جيبي ورقة لا أحب أن أبرزها فأنت صديق وأنا أجلك فلا أريد أن أقف معك موقف الـكذب ...

ففهم مردم بك ما أعنى ، وبادر إلى القول بأنه شخصياً لم يرسل ولا أمضى على ورق ولـكنه سمع وهو فى الشام انهم تحدثوا فى القصر الجمهورى فى هـذه القصة ... فقلت له ـ وأنا أرفع يدى عن جيبي ـ وأنا أيضاً سمعت مثل ذلك هنا ، ولـكن المسألة لايجوز أن تصل فى الإهمال إلى هذه الدرجة ، وإنى أخاف أن يتسامع الناس بأن الحـكومة السورية الشعبية بنت الجهاد والمجاهدين تصنع مع الأمير شكيب ماصنعت ، فأنا والله حريص على كرامة الجمهورية فدبروا حالـكم ، فقال إنى أعدك بأن أول شىء أقوم به غداً فى دمشق ـ لأنه مسافر اليوم إليها ـ هو بحث ماتم فى الأمر ، وسنكتب إلى وزيرنا المفوض فى برن بأن يذهب إلى جنيف ويزور أسرة الأمير شكيب ويبعث إلينا تقريراً عن الوضع لنبنى عليه عملنا على أساس صحيح ، فقلت له سأوفر عليك هذه الـكتابة وضياع الوقت بأن أكتب أنا اليوم إلى حرم الأمير لتقدم للوزير المفوض مذكرة بالحالة ، وهو يدرس ويجاوبـكم ، فلا تكاد تستقر فى الشام حتى يكون كل شىء قد وصلـكم ، فقال هذا حسن وسأنتظر ... ثم قال مردم بك إنه لايدرى كيف يصنع فى مسألة « الـكمبيو » وصعوبة إرسال النقد إلى الخارج ، فقلت له مازحاً: ترسلونه يا أخى بنفس الطريقة التى ترسلون بها نفقات المفوضيات التى لا عمل لها إلا إقامة حفلات الشاى «والـكوكتيل» ... وابتسمت، فابتسم هو أيضاً ...

الحجز على أثاث منزل الأمير شكيب

وكتبت إلى حرم الأمير شكيب بما دار بينى وبين جميل مردم بك وكلفتها عمل المذكرة،

فكتبت لى بأنها بادرت إلى كتابتها وذهبت بها إلى برن، وزارت عمر الجابرى الوزير السورى المفوض وحدثته وقدمت إليه المذكرة وأنه زارها بعد ذلك واطلع على الحالة وكتب إلى دمشق وبذلك نفذنا برنامج مردم بك كله ...

ولكن المذكرة ذهبت سدى ، وتقرير الوزير المفوض راح عبثاً ، ووعود الجمهورية ورئيس وزارتها ورئيسها القوتلى بقيت فى عالم غير هذا العالم ...

وبعد أيام زارنى قادم من جنيف وبيده ورقة! إنها ورقة مفزعة مؤلمة ، لأنها ورقة حجز أوقعه صاحب الدار التى تسكنها أسرة الأمير شكيب بجنيف على أثاث الأسرة ، فكدت أفقد صوابى ، ثم جاءنى تلغراف من جنيف يؤيد ذلك ، فلم أتردد فى إرسال برقية مستعجلة للشام هذا نصها الحرف ، وهى بتاريخ ١٦ اكتوبر سنة ١٩٤٧ :

برقيتى إلى القوتلى

فخامة الرئيس القوتلى ـ دمشق : كتبت لفخامتكم منذ شهر وبواسطة محسن بك بشأن الأميرة أم غالب ، واليوم أبرقت لى باشتداد أزمتها فأكرر رجائى بإسعافها برقياً بسداد ديون المرحوم بجنيف ونفقة رجوعها لوطنها أو فاسمحوا لى بفتح اكتتاب علنى لهذا الغرض على صفحات الجرائد . « أبو الحسن »

ثم ماذا ؟...

أرسلت هذا التلغراف ثم ندمت، لئلا أكون قد تأخرت وأن القوم قد يكونون سبقونى وأرسلوا النجدة ، وكان معى ساعة إرسال التلغراف للشام صديقى الأستاذ محمد سعيد العريان بك فهو شاهدى ، وكنت قد استشرته قبل أن أبرق، فقلت له ألا ترى يا سعيد إننى أخطأت فى صيغة البرقية لما تتضمنته من تهديد عند كلامى عن الاكتتاب ؟ فقال كلا لم تخطئ بل أصبت ، لأن القصة التى سمعتها منك تستحق أكثر من ذلك مع قوم هذا حالهم ...

لقد كنت أنتظر استجابة لهذا النداء المؤثر ، وكنت أتوقع عتاباً يأتى من الشام على العنف الذى صدر منى فى البرقية ، فقلت فى نفسى ليعتبوا وليوبخوا أيضاً، فأنا مستعد للاعتذار ولكن بشرط أن يتحركوا! ولكن الأيام مضت بدون استجابة ولا عتب ولا لوم ، ولا حركة ، ولا اعتذار طبعاً ...

محسن البرازى

وتصادف بعد ذلك أننى تقابلت مصادفة بمحسن بك البرازى «رحمه الله» بفندق شبرد بالقاهرة ، وكان فى أيامها وزيرا للخارجية السورية ـ وكنت أسمع به ويسمع عنى ، وكان يكتب للشورى حين كان طالباً فى باريس ويرأس الجمعية السورية العربية ، وقد تواجهنا بفندق شبرد وكان يقف معه صديقه أكرم بك زعيتر ونسيب بك شهاب القائم بأعمال المفوضية السورية بمصر ، فتولى أكرم تعريفنا ببعض وبذلك تمت المعرفتان ـ معرفة السماع ومعرفة العيان ـ فاحتفل بى الرجل كما احتفلت به ، وجلسنا فى ناحية ـ نحن الأربعة ـ نشرب القهوة ، فقلت لمحسن بك : أيجوز أن تظل حكومتكم واقفة من أسرة المرحوم الأمير شكيب هذا الموقف السلبى بعد خذل شكيب نفسه ، وهل كتب عليه أن يشقى بعد أن بذل ثروته وحياته وأن يموت مقهوراً منكم ، وأن يُكتَبْ على أسرته الشقاء من بعده؟ فقال محسن رحمه الله كلاما يدل على الاعتذار مع الوعد باستدراك ما فرط ، فقلت له والله لولا أننى أكره شماتة الأعداء بالجمهورية وبشكرى بك ـ وبشكيب نفسه ـ لأذعت بياناً فى الصحف العربية عن تفريطكم وتقصيركم ، لأنه لايجوز ياأخى أن يقول الناس إنكم وزعتم على أنفسكم الرياسات والمناصب والوزارات ، وتركتم للمجاهدين مهمة الجهاد والفقر ، والموت بعد ذلك جوعاً !

إن حق بك العظم الذى كان حاكماً لسورية ويظاهر فرنسا عليها وعلى شكرى بك نفسه ، يأخذ الآن مرتب تقاعد من حكومتكم وها هو مبسوط ومستريح فى مصر ويتمتع فيها بلقب « صاحب الدولة » الذى أسبغته عليه فرنسا جزاء مطاردته لأمته ومطاردة شكرى ومطاردتى أنا وجريدتى ، حتى إنه لما تناول أول عدد منها ووجدها تهجم عليه وعلى فرنسا حملها بنفسه إلى مسيو شوفلر مندوب فرنسا بالشام وأخذ موافقته على منعها من دخول سورية. فاحسبوا ياأخى أن شكيب أرسلان كان موظفاً عندكم وندب للدعاية لسوريا فى أوربا أفلا يستحق مرتب تقاعد يعطى لأسرته ؟ أم إنه كان يجب عليه أن يخدم فرنسا ضد سورية ليستحق التقاعد ، فكأنكم تقولون للناس : إن خدمتم الوطن فلا نعرفكم ، وإن حاربتموه فأهلاً ومرحبا بكم ، ولكم فوق ذلك المناصب والأموال والألقاب ...

وفى خلال الانتظار علمت أن حرم الأمير شكيب قد أرسلت ولدها غالب إلى بيروت فباع أرضا للاستعانة بثمنها ، ثم سمعت أنها لم تتمكن من قبض الثمن كله، لأن حكومة رياض الصلح إقتطعت من المال شطراً أو قسما باسم « كبيو » و « عملة صعبة » ...

القبض على شكرى بك

وفى خلال ذلك وقبل أن تحظى أسرة الأمير شكيب بنفحة من سورية ، إذا بالأخبار تباغتنا بأن حسنى الزعيم قائد الجيش السورى قد قبض على فخامة القوتلى وأنزله عن العرش وحبسه ، وبعد ذلك نصب نفسه رئيساً للجمهورية ، وقد أحاط حسنى الزعيم عهد القوتلى بدعاية واسعة عن فساد الحكم والنهب والاغتصاب وسوء الحال ، ثم زعم أنه جاء لتخليص البلاد من الفوضى الخ وقد صدقه البعض وكذبه الذين يعرفون شكرى بك معرفة حقيقية ، فهو من ناحية النهب أو السلب برىء ولا يشك أحد فى نزاهته ، وأما إذا كان بعض رفاقه فى الحكم قد مدوا أيديهم فهذا لا يمكن أن يكون بعلم شكرى بك ولا بموافقته .

لقد أحزننا نحن أصدقاء شكرى بك فى مصر هذا المصير ، ولم يسعنا فى محيطنا إلا أن ننفى عنه تهمة التنزل إلى مال الدولة، وأما فساد الحكم وسوء الإدارة وعدم الحزم فهذه الأمور لم نستطع لها نفياً ، لأن التواتر على وقوعها كان ينذر بها ، بل إن عندى ثلاث رسائل من ثلاثة أصدقاء لشكرى بك ومن أعز أحبابه . الذين ظلوا حتى الآن على حبهم له ، يتبرمون فى رسائلهم بسوء الوضع فى سورية قبيل هذا الانقلاب ، الرسالة الأولى وصلتنى قبل ذلك بشهرين والثانية بأسابيع والثالثة ببضعة أيام . فالإرهاصات والنذر كانت توحى بهذا المصير، فلما وقع ما وقع لم نستغربه كثيراً وإن كنا قد أسفنا له كثيراً .

وقد أخبرنى أحد الأصدقاء المخلص لفخامة القوتلى أن أهل الشام بل سورية كلها قد قابلوا الانقلاب بعدم الاكتراث ، ثم عبر عن ذلك بتعبير أشد وقعاً وهو قوله « بل إنى لم أشهد بعد ذلك فى الشام مشاجرة بين شخصين بسبب شكرى » وهى عادة الشعوب فى التنكر لمن يحسن إليها

صحيح أن الجماهير دائما هى هى ، أعداء لمن انكسر وعبيد لمن غلب ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن هناك شيئاً كان فى سورية يستوجب هذا الانقلاب ، لأن ضعف الحكومة وسوء

الإدارة وقصص الشركات من «خماسية» وغير خماسية ، وغنائم أذونات التصدير والاستيراد كانت تملأ البلاد ، وقد أخبرنى أحد الأصدقاء أن الحالة الحكومية قد تدهورت الى درجة وصول خبر العزم على خلع شكرى بك إلى الأشخاص العاديين ثم وصلت بعد ذلك إلى شكرى بك نفسه ، ولكنه بدلا من أن يقبض على المتآمرين ويبطش بهم ، استدعى زعيمهم ووبخه وأطلعه على مالديه من أخبار فأنكرها طبعاً..! فما كان من عصابة الانقلاب إلا التعجيل بتنفيذ خططها ومداهمة المجاهد الشيخ والقبض عليه وحبسه بدون أن يستحوا من رجل كان من أكبر المجاهدين فى سبيل وطنهم الذى انتهكوا حرمته بهذه الفعلة واستنوا سنة عادت عليهم بالويل وكلفتهم رؤوسهم بعد ذلك ، وستكلف بلادهم رؤوساً أخرى ...

خواطر

قلت اننا - أصدقاء شكرى بك - قد حزنا لهذا الحادث ، فقد ولى معه عهد أصحابنا القدماء فى سورية ، وجاء لحكمها رهط لا نعرفه ولا يعرفنا ، أقول هذا بالرغم من كون عهد الأصدقاء كان مجدباً ، فلا وفاء ولا حفظ للإخاء ولا نفوذ لكلمة عندهم فى سبيل أحد ، حتى ولو كانت لمصلحتهم هم ، اللهم لاحول ولا ... ومع ذلك فإننا لما جاء أعوان حسنى الزعيم إلى مصر لم نجتمع بهم ولا اتصلنا بهم ولا تعرفنا عليهم ، عطفاً منا على الصديق القديم وتضامناً معه.

شكرى بك بالقاهرة

وبعد أن استقر الأمر لحسنى الزعيم وأصبح رئيساً للجمهورية أطلق سراح شكرى بك بشرط أن يغادر البلاد ، فرحل إلى أوربا للاستشفاء ، ثم جاء القاهرة بعد ذلك فذهبت مع بعض « أصدقاء الأمس ... » إلى مطار مصر الجديدة فاستقبلناه وسلمنا عليه ، ولما غادر المطار ظننا أن شكرى بك سينزل بفندق أو فى دار خاصة ، فإذا به ينزل فى دار تجار دمشقيين كانوا يخاصمونه حين كان مجاهداً ، وكانوا يشيعون عن نزاهته الإشاعات عندما كان يشترك فى إدارة الثورة السورية من مصر ، بل كانوا يمضون على البرقيات التى ترسل إلى دمشق بتأييد خصومه عليه ، فكنت أهاجمهم فى جريدتى انتصاراً له... فكرهونى لهجومى عليهم ، وكرهتهم لهجومهم على أفاضل وطنهم!

ولذلك لم أزره فى دار من نزل عندهم لأنهم لايزالون إلى الآن يخاصموننى بسبب نصرتى له ... ومعنى ذلك أن شكرى بك لما رحل عن مصر بعد ثورة سورية قبل عشرين عاماً ترك لنا العداوات مع خصومه ، وأما هو فإنه انشغل عنا هناك فى بلده بالاستقرار والرياسة والمواكب وكرسى الحكم ...

زيارتى لفخامة القوتلى

ولم يطل شكرى بك إقامته فى القاهرة بل ذهب إلى الاسكندرية حيث استقر فيها، وبعد ذلك بقليل سافرت إليها لزيارته وأخذت معى شيئاً... وقد قابلته فى مستشفى المؤاساة حيث نزله أياماً للاستجمام والاستراحة، وقد حدث حين سألت عنه فى داره بواسطة التلفون أنهم أنكروا وجوده وكتموا محل نزوله ، فلما عرف بأنى أسأل عنه أمرهم بإعطائى رقم تلفون غرفته فى المستشفى ، فاتصلت به فرحب كثيراً ثم طلب أن أزوره فوراً فذهبت إليه وكان اللقاء مؤثراً ، وبعد العناق بعد طول العناء والفراق ، أخذ يرحب ويمعن فى التكرم ويقول « كل الناس تغيروا إلا أبو الحسن، كل الناس تبدلوا إلا أبو الحسن ، يحرس دينك، ينصر دينك ، يعمر دينك، والله ماقى مثلك ، حياك الله ، حياك الله .

من لطائف شيخ العروبة

وبعد أحاديث كثيرة أخذنا نستعيد الذكريات القديمة ، ومنها دار الشورى القديمة «بشارع عبد العزيز » ودارى الصغيرة بشبرا، ومنها ذكرى أكلة فول بالبصل الأخضر فى صباح عيد الأضحى سنة ١٩٢٧ ، فهذه «الوليمة» كانت يومها تضم المرحوم شيخ العروبة أحمد زكى باشا والشيخ كامل القصاب ورياض الصلح ونبيه العظمة والحاج أديب خير والحاج أمين الحسينى وإحسان الجابرى وغيرهم وإنى أتذكر عن هذه «الأكلة» إننا لم نجد الفول المدمس يومها فى حى شبرا كله بسبب العيد لأنه عيد « اللحم » كما لايخفى، فاضطررنا إلى إرسال سيارة المرحوم أحمد زكى باشا إلى حى « سيدنا الحسين » لتأتى بالفول والطعمية والمخلل من تلك النواحى ، وقد وقعت يومها نكتة فريدة من أحمد زكى باشا ــ وكم له من نكات ودعابات ــ وذلك أنه رأى «بطيخة» كنت جئت بها « للوليمة » وكنا فى غير أوان البطيخ ، فبيت الباشا لها أمراً .. ثم أدرنا على آلة الفنغراف أغنية لبنانية بلدية لا أزال أتذكرها وهى « إيدى وإيدك عالوادى نأ كل

تين سوادى» فإذا بالمرحوم زكى باشا يقف بغتة ويحمل البطيخة واسطوانة الفنغراف أم التين السوادى... ويأخذهما إلى سيارته ثم يركب ويفر إلى داره بالجيزة ويتركنا نضج من الضحك، رحمه الله .

ذكرت هذه النكتة بقصد الترويح عن القارئ حتى لا يضجر من استمرار سرد حوادث النكد والآلام التى خيمت على هذا الكتاب ، بل انه كله مابنى إلا على الآلام والأحزان ، ولولاهما ما كتب ولا كان ...

كنا مشغولين

ولنرجع إلى زيارة شكرى بك فى غرفته بالمستشفى ، فقد استعرضنا الماضى ، ومن هم الذين ثبتوا على مبادئهم والذين انتكسوا ، وكيف حال فلان فى القاهرة وكيف حال علان ، ومن بقى ومن رحل عن الدنيا ....

وهنا قال لى شكرى بك هل قرأت كتاب « ١٧ آب » ؟ فقلت له كلا ولم أسمع به ، فقال إنه طبع فى الشام بسنة ١٩٤٧ ثم ناولنى كتاباً ضخماً ، فألقيت عليه نظرة سريعة فإذا هو فى نحو ٥٠٠ صفحة بالقطع الكبير وهو مطبوع على ورق جيد لماع ومزين بالصور وكان يتضمن دعاية لعهد القوتلى فى سورية من سنة ١٩٤٣ـ١٩٤٧ وكان قد صدر قبيل الانقلاب وعلى نفقة الحكومة السورية ، ثم تصفحت بعض رسومه التى كانت عن احتفالات عيد الجلاء ، وحفلات الشاى ، ومقابلات القوتلى للسفراء ، ومواكبه إلى البرلمان الخ وبعد ذلك أطبقت الكتاب وأنا أقول لشكرى بك : هذا الكتاب ينقص شيئاً ليته كان فيه ... فقال ماهو ؟ فقلت إنى بحثت عن صورتى بين رسوم هذا الكتاب ، كأن أكون واقفاً بجوارك ، أو قريباً منك ، أو بين المتفرجين على مواكبك ، ولكنى لم أجد صورتى فيه ... فقال : كيف تجدها وأنت لم تكن فى الشام يومها ؟ فقلت إنه كان يمكنكم يومها أن « تعزمونى » حين دعوتم الناس فأهرول إليكم لأفرح برؤية سورية حرة بدون فرنسا بل أفرح بك أنت ! فقال « والله كنا مشغولين يابو الحسن » ...

القصة الأفغانية !

وهنا لمعت فى ذهنى قصة سمعتها منذ سنين من السيد محمد صادق المجددى سفير الأفغان فى مصر [١] فقد كان يزورنى فى بعض الليالى ونتحدث عن الأصدقاء الذين يثبتون فى مودتهم والذين يتغيرون ، فقصصت عليه طرفة تاريخية عن الملك المنصور بن أبى عامر ملك الأندلس الكبير ، وذلك أنه كان فى شبابه صعلوكا فقيراً وكان يستخلص صديقين من إخوانه وكانوا جميعاً يسكنون لفقرهم فى غرفة واحدة ، ففى إحدى الليالى كانوا يسمرون ويذكر كل واحد منهم أمنيته فى هذه الدنيا ، فقال المنصور إنه يتمنى أن يصبح ملكا ، فقال الثانى وأنا أتمنى أن أكون يوما وزيرك ، فضحك الثالث وقال للمنصور إن أصبحت ملكا وأصبح فلان وزيراً فأنا مستعد لأن أركب حماراً « بالمقلوب » وأسير فى الشارع العام وأجعل الأطفال يضحكون علىّ ...

ودارت الأيام ، وأصبح المنصور ملكا ، فاستوزر صديقه الذى تمنى الوزارة ، وأمر بأن يركبوا الثالث حماراً ووجهه إلى الخلف وأن يركض الصبية حوله !

ثم قلت للمجددى وأنا أضحك : إننى أرضى من بعض أصدقائى بركوب قرد ولكن بشرط أن يفكروا بى ...

وهنا قص السيد المجددى حكايته ، وهى أن صديقين كانا يجلسان تحت شجرة أمام قصر الملك ، فتمنى أحدهما أن يكون ملكا ، فقال له صديقه وهل تجعلنى وزيرك إن دعوت لك ؟ فقال بلاشك ، فقال صاحبه ولكنى أخشى أن يطردنى الحجاب إن جئت إليك وأنت ملك ، فقال له إن سمعت بأنى أصبحت الملك فما عليك إلا أن تجىء وتقف تحت هذه الشجرة وتنتظر ،

(١) عرفت هذا السيد الجليل منذ عشرين عاماً ، فهو من آل المجددى فى أفغانستان وهى أسرة زعامة ورياسة دينية ، وكان السيد صادق المجددى فى أيام الملك أمان الله من زعماء الحركة التى استنكرت تفرنج الملك وتبرج الملكة ثريا وعدوانهما على تقاليد البلاد ، والسيد المجددى فى البلاد العربية وفى مصر على الأخص مكانة مرموقة ، فهو يساعد المجاهدين وينصر الشعوب العربية المظلومة ، ولا يترك مناسبة لمجاملة أصدقائه إلا قام بها حتى ولو خالفت المراسيم الدبلوماسية فهو يتقيد أولا بما يعتقد أنه واجب وحق وينطبق على قواعد الأخلاق والكرامة ، ولا يبالى بما عدا ذلك .

وعند مروري من هنا سأناديك وآخذك معي إلى القصر الملكي ... وافترق الصاحبان ، وبعد سنين طويلة أصبح الرجل ملكا ، وسمع صاحبه بالخبر ، فجاء ووقف تحت الشجرة! ومضت الأيام والأشهر والسنون ، وهو يقف تحت الشجرة من الصباح إلى المساء ، ولكن صديقه الملك كان يمر به فى ذهابه وإيابه كل يوم ولكنه لم يستدعه ولا التفت إليه ...

وفى ذات يوم، وصاحبنا يقف تحت الشجرة كالعادة، إذا به يسمع ضجة تجرى فى قصر الملك ثم يرى الملك يخرج من القصر حافياً مشوش الملابس، والجنود يركضون خلفه، فلما ابتعد عن منطقة القصر تركوه وشأنه ، وأما الملك ـ أو الذى كان ملكا ـ فأنه واصل الركض حتى وجد نفسه عند الشجرة وجهاً لوجه أمام صديقه القديم! فتعانقا بشوق ولهفة، فسأل «الملك» صديقه: أأنت هنا يافلان . أين كنت طول هذه المدة وأنا ملك ؟ فقال صاحبه : لقد كنت هنا ، وأنا من يوم سمعت أنك ملكت وأنا أقف هنا تحت الشجرة حيث اتفقنا ولكنك لم تلتفت إلىّ ولا ناديتنى... فقال الملك هذا عجيب ياأخى فأنا كنت أمر من هنا كل يوم ولكنى لم أرك ولا رأيت الشجرة!!!

إلى الموضوع الأصلى ...

هذه القصة مرت بذهنى كالبرق الخاطف حين قال لى شكرى بك « والله كنا مشغولين يابو الحسن» وقد خطر لى ساعتها أن أحكى له حكاية الملك وصاحبه الذى وقف تحت الشجرة... ولكنى أمسكت ، لأنى كرهت أن أجرح إحساسات من فقد ملكاً ثم حبس وأبعد عن وطنه على صورة دنيئة وحشية قاسية ، وكان بإمكانهم أن يصبروا عاماً أو عامين فتنتهى مدة رياسته فيمنعون تجديد انتخابه بعد ذلك ، أجل، لم يهن علىّ أن أعقب بحرف واحد على قول صديق شكرى بك حين قال لى ببساطة وبكل سهولة «لقد كنا مشغولين يابو الحسن» ...

وما دام أنه يظن نفسه قد بلغ ذروة الإعجاز بهذه الحجة التى كانت فى نظره قاطعة مانعة فلا بأس من تركه وشأنه يقنع نفسه بها ، على أن أكتبها له فى هذا السفر فيقرأها ويوازن بين رده هذا وبين رد الملك « الأفغانى » الذى لم ير صديقه ولا الشجرة بأمرها ...

الوداع والرجوع لمصر

قضيت مع فخامة القوتلى نحو ساعتين بعد أحاديث طويلة ضافية عن الشئون التى تخيم

على وقتنا وحالنا الحاضر فى العالم العربى ، وقبل أن أودعه لبثت بضع دقائق وأنا متردد فى مفاتحته بشىء عن « الشىء » الذى أحضرته معى وأشرت إليـه فى أول الحديث عن هذه الزيارة ، ذلك انى كنت أقدر وأفهم ظروف رجل كبير عظيم كفخامة القوتلى، الذى فوجىء بالقبض والحبس والنزوح عن الوطن بغتة ، فقد كنت أملك ألف جنيه مصرى فى هـذه الدنيا ، فأحضرتها معى وأنا أقول فى نفسى إن مثل هذا الرجل الذى أصبح بعيداً عن وطنه قد يكون فى حاجة إلى مال لـكثرة مصاريفه وخصوصاً فى هذه الظروف . إن الألف جنيه بالنسبة لرجل كبير فى مكانته ومركزه ليست بالمبلغ الذى يفض مشكلة ، ولـكنه على كل حال يسد ثغرة ، فقد جربت المباغتة بالقبض والحبس ، مراراً ، وذقت لذة النجدة عند ما تجىء من الأصدقاء فى أيام المحن الحرجة ، وعند ذلك تجرأت ورجوته أن يقبل هذا القرض المتواضع، على أن يرده لى متى عاد إلى وطنه قريباً إن شاء الله ، فقابل شكرى بك عاطفتى بعاطفة أحسن وأجمل معتذراً عن قبول القرض فألححت والخ ؛ وأخيراً اضطررت إلى إعفائه فأبقيت النقود معى ثم ودعته ورجعت إلى القاهرة .

ولم أقطع الصلة معه بعد ذلك ، بل كنت دائم السؤال عنه تارة بالبريد وتارة بالتلفون. وكان هو أيضاً دائم السؤال عنى . وهذا كتاب منه أثبته كنموذج يدل على دوام العلاقة بيننا التى استمرت نحو ثلاثين عاما بدون أن يشوبها شىء إلا انقطاعها طول مدة رياسته للجمهورية، ثم اتصلت بعدها! ومعنى هذا كما قال الشاعر : وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل...

رسالة من شكرى بك

وهذا نص إحدى رسائله إلىّ وهو فى منفاه بالإسكندرية :

حضرة الأخ الـكريم الخ . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ وبعد فقد أخذت كتابكم الـكريم ومن طيه بعض قصاصات من الصحف التى نشرت مقالات لـكم فأكبرت فيكم تفانيكم فى الإخلاص والتضحية، وثباتـكم على الجهر بالحقيقة والدفاع عن الحق ، وما عرفتكم فى أى وقت إلا حريصين على حق أمتكم ، غيورين على مصلحتها ، ذابّين عن كيانها ، بارك الله فيكم وحفظـكم وتولاكم بعين رعايته أخى . ١٩٤٩/١٢/٢٣ شكرى القوتلى

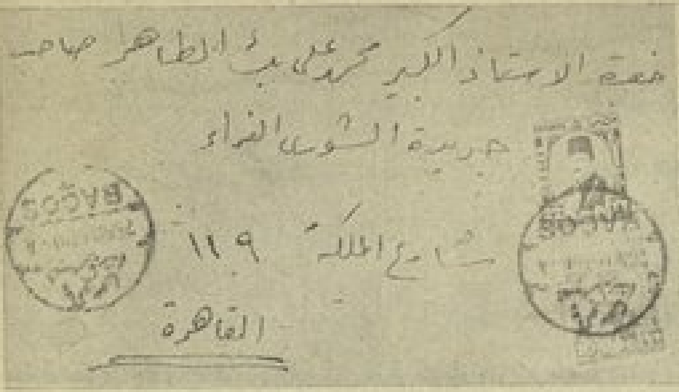

هذا غلاف إحدى رسائل شكرى بك وهو فى الاسكندرية

إنها لرسالة بديعة وجميلة بلاشك. وكان يمكن أن تكون أبدع وأجمل لو جاءتنى منه وهو رئيس جمهورية ؛ وهذا الظرف المطرز بخطه لو حظيت به فى عهد رياسته لكنت جملته مع الرسالة فى برواز ، كيف لا وهو بخط فخامة الرئيس الذى يصفنى أضخم وصف ، ويقرظنى أفخم تقريظ ، ويثنى علىّ ألطف الثناء ، ثم يلقبنى بلقب « بك » وينعتنى بالأستاذ الكبير، ولكن هذه الصلة الأخوية لم يعد حبلها متصلا إلا بعد فوات الأوان .. لأن هذا الحبل كان «مشغولا» بكل من لا يستحق أن يتصل به ، إلا معى أنا ...

وفى هذا الشتاء سنة ١٩٥١ زار فخامة القوتلى مدينة القاهرة للاستجمام ونزل بفندق « مينا هوس » بجوار الهرم ، وكان يتفضل ويسأل عنى ويبعث لى بسيارته ، ثم يتلطف ويودعنى عند الانصراف حتى الباب الخارجى ويظل واقفاً إلى أن تتحرك السيارة ، وكنت أتردد عليه مراراً ، وفى أحد الأيام مر بى فخامته بإدارة الشورى لاستكمال حديث عن إحدى المسائل .. ولما غادرنى بقيت واقفاً وأنا أشيعه إلى أن غابت سيارته عن نظرى ، وقد بقيت ساهياً بعد ذلك برهة غير قصيرة أفكر فى عودة رياض الصلح إلى دار الشورى ثم صده عنها ، وعودة إحسان بك الجابرى «خديوى اللاذقية» ثم عدت إلى مكتبى وأنا أقول لنفسى: وهذا صديق ثالث من الذين أهملونى فى أيام العز ثم عادوا إلىّ بعد ذلك...

وقد شعرت من حركات شكرى بك ومن لهجته حين مر بى أنه كمن تنازل لهذا المجىء تنازلا .. لأنه لم يعرف بعد ، أن من زوارى اليوم من هم أكبر منه ، وآخرهم عظمة السلطان فضل عبد الكريم سلطان لحج وهو ملك متوج ، وصاحب السمو الملكى الأمير سيف الإسلام محمد البدر ولى عهد اليمن، وسمو عمه الأمير سيف الإسلام عبدالله وعمه الثانى المرحوم الأمير يحيى وهما من إخوة جلالة الملك الحالى الإمام الناصر أيدهم الله جميعاً ، وسأزين بعض الصفحات المقبلة ببعض الصور النادرة عن هذه الزيارات الكريمة .

المعتقل الثالث

معتقل هاكستب

لندع هذه الحوادث التى جاءت عرضاً ، ولنرجع إلى موضوع « ظلام السجن » وهو القبض والحبس والاعتقالات والمصائب ...

فى سبتمبر ١٩٤٩ وأنا ما صدقت أننى خلصت من السجون والاعتقالات وخراب الديار ، وإذا بإبراهيم باشا عبد الهادى رئيس الوزراء الذى لولا غفلة من غفلات الدهر ما تسنم هذا المنصب ـ يقوم بغتة ويقبض علىّ ويحبسنى، ولهذا الحبس قصة طويلة، وقد وضعت عنها كتاباً فى عام ١٩٥٠ بلغ ٦٨٠ صفحة فليرجع إليه من يشاء .

كأنه لا ينقصنى إلا أن أحبس مرة ثالثة ! لأن الحبس الأول كان سنة ١٩١٥ ـ ١٩١٧ والثانى سنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢ وكنت أظن أنه مادام الإنكليز قد خرجوا من القاهرة وقبعوا عند محطة فايد فى صحراء سيناء على قناة السويس، فأنا آمن الآن، فلن أحبس بعد ذلك ، ومن يحبسنى ما دام الإنجليز قد ابتعدوا عن القاهرة ، ولماذا أحبس ؟ .

ولكن اتضح أن للإنكليز من التلاميذ من يفوقهم أذى ، وإلا فما هى مصلحة ابراهيم باشا عبد الهادى بالقبض علىّ واعتقالى فى صحراء السويس فى معسكر « ها كستب » الذى كان يجب أن يكون مستشفى أو مدرسة ، فإذا بإبراهيم عبد الهادى يجعله سجناً لأحرار الأمة والأتقياء من أبنائها ، وها إنى بعد عشرين شهراً من وقوع ذلك الاعتقال لا أزال أجهل حتى الآن السبب الذى حمل ابراهيم عبد الهادى الحاكم العسكرى فى آخر الزمان ورئيس الوزراء على طريقه « بكرى مصطفى » ـ راجع الصفحة ٦٦٧ ـ مع العلم بأن هذا الرجل لم يكن كريماً معى فى سجنه بل أساء معاملتى على صورة قبيحة لم أرها من الإنكليز ، لا فى زمن « الحماية » سنة ١٩١٥ ولا فى عهد الاستبداد فى الحرب الثانية سنة ١٩٤٠ فقد لقيت فى ثلاثة أسابيع مكثتها فى سجنه سنه ١٩٤٩ ما هو أوجع وأنكى وأفظع مما لقيت فى حبس الإنكليز فى الحربين بالرغم من طول مدتهما ، لأن الحبس الأول ١٩١٥ ـ ١٩١٧ استمر ٢٦ شهراً ، والثانى الذى بدأ سنة ١٩٤٠ وانتهى بعد الحرب سنة ١٩٤٢ استمر نحو عشرين شهراً .

ولولا أن الله قد رحمنى حين أطاح بحكم إبراهيم عبد الهادى بغتة وخسف الأرض به وبعهده بتلك السرعة ، للبثت عنده فى السجن بضع سنين ، ومت سجيناً بلا سبب ، لقد عرفت ذلك من تشدده وإصراره على إبقائى فى الحبس ورفضه كل وساطة فى سبيل الإفراج عنى ، لدرجة أنه كان يحاول إقناع الوسطاء بأنى أستحق ما هو أكثر من السجن ...

حبس بلا سبب

نعم لا شىء هنالك كان يستوجب ماجرى ، لأن رئيس الوزراء الجديد حسين سرى باشا قد أطلقنى فوراً بلا قيد ولا شرط ولا تحقيق ، لأنى لما حبست على يد إبراهيم عبد الهادى حبست بلا سؤال ولا جواب ولا تحقيق ! فهذا الإفراج السريع هو وحده كاف لإثبات براءتى وظلم عبد الهادى وتجنيه ، ليس علىّ وحدى ، بل على عشرين مليوناً من الخلق الذين تتألف منهم الأمة المصرية بأسرها ، ولم لا يحبسنى إبراهيم عبد الهادى بعد أن جعل أرض مصر كلها سجناً وكل سكانها سجناء . فقد بطش بالعباد ، وخرب البيوت ، ونكل بالأبرياء ، وهدرت على يديه الكرامات ، واستبيحت الأعراض والحرمات ؛ فقد سجن الأبرياء ، وعذب المتهمين بالسجون ، حتى بلغ عدد من دخلوا سجونه فى «ها كستب» وصحراء الطور ومعسكرات أبو قير وأقسام البوليس والسجون الرسمية نحو خمسين ألف برىء وبريئة ؛ وقد انفضح عهده بعد زوال حكمه أشنع فضيحة سمع بها البشر عن حكومة من حكومات الأرض ، لا فى العصر الحاضر وحده ولا فى العصور الوسطى[١] ، وقد شرحت هذه الفظائع فى ساحات العدالة أمام المحاكم وعلى صفحات الجرائد ، ولا يزال العالم الإسلامى يطالب هذا الرجل بدم المرحوم الشهيد الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، وقد وصفت الصحف كيفية مصرعه

(١) لا تزال المحاكم المصرية إلى ساعة إخراج هذا الكتاب مشغولة فى نظر القضايا التى أنتجها حكم إبراهيم باشا عبد الهادى وحزب السعديين وحزب الدستوريين ، ولا يزال المتهمون يروون أمام المحاكم قصص التعذيب الرهيب ، الذى أنزله حكمهم بالمتهمين ، من ضرب ونزع أظافر وهتك حرمات وتشويه أطراف .

باستدراجه ثم الغدر به ، وقد ذكرت الصحف أسماء القتلة فإذا بهم من رجال الشرطة والأمن العام الذين خلقهم الله لحماية العباد ، فإذا بهم ينقلبون إلى سفاكين وسفاحين يجب حماية العباد منهم .

حسين سرى باشا

وكان من غرائب تصاريف القدر قصتى الجديدة مع حسين سرى باشا الذى حملت عليه فى أوائل هذا الكتاب عند سرد حوادثى وأنا سجين قبل أن يتولى الحكم لأول مرة سنة ١٩٤٠ فلما تولى الوزارة وجدنى يوماً سجيناً وأبى أن يطلقنى ، وقد سردت حوادث هربى منه بعد ذلك لأن سرى باشا لما جاء إلى الحكم مرة ثانية سنة ١٩٤٩ وجدنى فى السجن مرة أخرى! ولكنه هذه المرة أطلقنى فوراً ، بل إن إفراجه عنى كان أول إفراج لمسجناء الذين وجدهم فى سجون إبراهيم باشا عبد الهادى ، فاستحق فى آخر هذا الكتاب أن أشكره ، كما كان من حق فى أوله أن أهاجمه ، وقد أفرج سرى باشا بعد إطلاقه سبيلى عن الآلاف من مساجين عهد الإرهاب ، ثم جاءت وزارة النحاس باشا الحالية فى أوائل سنة ١٩٥٠ فأفرجت عن الباقين ، ماعدا الذين عليهم قضايا مطروحة أمام المحاكم ، وكلها من بقايا عهد إبراهيم باشا الإرهابى ....

ظهور سبب حبسى الثالث

وفيما كنت أطبع هذا الكتاب اجتمعت بمسئول كبير فكشف لى عن السبب الحقيق الذى جعل إبراهيم باشا عبد الهادى يعتقلنى فى تلك الأيام ، وقد أقسم لى بالله على ذلك ، وهو أن الإنكليز والأميركان كانوا مهتمين بإجراء صلح بين الدول العربيـة وبين اليهود الذين استولوا على فلسطين ، ولـكن هذا الصلح يجب أن يتم فى جو صالح ...

ففى تلك الأيام ، حين ضياع فلسطين كنت أكتب فى الصحف والمجلات وأذيع النشرات وأكتب إلى جهات العالم الإسلامى النائية وأخطب فى المجتمعات بفضح المسببين

لكارثة فلسطين، التي لم يصب العالم الإسلامى منذ الحروب الصليبية بمثلها ، لا فى شدة خطرها ولا بفداحة العار الذى لبس الأمم الإسلامية والعربية بسبب ضياعها . وكنت أذكر أسماء « مجرمى حرب فلسطين » بصراحة وأشهر بهم وأهيج عليهم وأطالب برؤوسهم ... وقد سجلت أهم تلك الفصول فى كتاب « مغتقل ها كستب » الذى سار فى الدنيا مسير الشمس ومشى تحت كل كوكب ...

فهذا الجوّ الذى وصفته ما كان يمكّن حكومة إبراهيم عبد الهادى باشا « وهى خارجة على القانون وثائرة على الأمة وهاربة من وجه الشعب » من عقد الصلح مع اليهود ، وكانت حكومة إبراهيم عبد الهادى تريد عقد هذا الصلح بأى ثمن ولو بضياع الكرامة وهدر دماء الشهداء وفيهم ٦٠٠ ضابط من خيرة شباب مصر وبضعة آلاف جندى استشهدوا بسبب تخبط تلك الحكومة ، مع ضياع مئة مليون جنيه من مال الدولة ، لأن حكومة إبراهيم عبد الهادى كانت مشغولة بالحرب التى أعلنتها على الإخوان المسلمين فتريد أن تتفرغ لهم ، فإذا بها تشتط فى دهورتها ثم تنزلق وتحارب الأمة كلها !

نكبة فلسطين

إننى أسطر هذه الحوادث للجيل المقبل ليعرف الأبناء والأحفاد ما كان فى أيامنا هذه ، وسيشهد عليها وعلى صحتها أبناء هذا الجيل الذين رأوها وانكووا بنارها وأبكتهم حوادثها، دماً لا دمعاً .

وأما فاجعة فلسطين فليس هذا الكتاب بكاف كله لو أردت أن أجعله خاصاً بها ، فهى كارثة مهولة لا يدرك فظاعتها إلا من وقف على أسبابها وتطوراتها ومضاعفاتها ، وعواقبها الوبيلة على العالم الإسلامى ، وإنى عازم إن قدرنى الله على وضع كتاب كبير جداً لتأريخها وبسط فاجعتها أمام الأجيال القادمة، فإن لم أتمكن من تنفيذ هذا العزم فإنى أرجو أن يقوم غيرى ـ أيًا كان ـ بهذا المشروع الضخم الذى يحتاج إلى همم عالية وإلى نفقة كافية ، أما أنا فقد جهزت لهذا المشروع من الأسانيد والتقارير والوثائق والرسوم والتصاوير ما يكفى لعمل الكتاب ولا ينقصنى إلا وجود من يساعدنى .

نتيجة الاعتقال الثالث

إن الفائدة العامة التى استفادها المجتمع من حبسى على يد إبراهيم عبد الهادى مدة ثلاثة أسابيع هى أننى وضعت كتاب « معتقل هاكستب » الذى أعتقد أنه أفاد الناس أكثر مما قد يفيدهم كتابى الكبير هذا إن كان فيه غير التسلية والعبرة ما يفيد ، فإذا كان الخير من عادته أن ينفع فالشر أيضاً قد ينفع ... فكتاب هاكستب قد أورد خيراً نتج عن شر ، لأنه أظهر كيف كان ابراهيم باشا عبد الهادى يحبس الناس وكيف كان يسىء معاملتهم ، مع وصف فظائع عهده وقسوة شرطته ، وكيف كان يهدر دماء الناس لأتفه الأسباب أو لغير أسباب ـ وهذا هو الواقع ـ وقد كتبت الصحف عن ذلك الكتاب ووصفته كثيراً ولا تزال الصحف إلى الآن عند طبع فهارس كتابى هذا تتحدث عن كتاب معتقل هاكستب وتصفه بأنه سجل الفظائع وأنه صوت المظلومين من الظالمين ، وأنه الحكم الصارم على عهد الإرهابيين وأنه ، وأنه . وآخر ماوصف به كتاب « معتقل هاكستب » قول الأستاذ أبى الخير نجيب عنه فى جريدته « الجمهور المصرى » انه « دستور الحرية » .

ولم أذكر هلع السعديين وفزعهم من ذلك الكتاب الذى هتك عهدهم ، لأن وصف ذعرهم منه كان فوق كل وصف ، فقد ذكرت أن جريدتهم أرادت أن تجرح الكتاب فقالت انى منحت الجنسية ثمناً له ! فما دامت المسألة مسألة أجرة واستئجار فلماذا لم يدفع لى السعديون هذا الثمن ولماذا لم « يمنحونى » هم الجنسية لأكتب لهم كتاباً عن مناقبهم أو أسكت على فظائعهم على الأقل ... بل لماذا حبسونى ؟ انهم لولا ذلك الجرم الذى ارتكبوه معى ماتمكنت من رؤية سجونهم التى حفزتنى رؤيتها على دمغ عهدهم المظلم المخوف بكتاب كانت مادته من نسج ظلمهم ، ولذلك طبق أنحاء الكائنات وتحدث عنه عجاز وائل !

عودة إلى الجنسية

وهنا لا بد من كلمة أخيرة على مسألة الجنسية ، فإن حكومة الوفد قد هالها ما كانت تعرف عن شناعة ملاحقة حكومة السعديين والدستوريين لى بانكارها جنسيتى إطاعة لأمر

قديم أصدره الإنجليز لتسهيل تشريدى وتنغيصى «وقد رأيته بعينى فى ملف بوزارة الداخلية» فقالت حكومة الوفد تعال وتقدم بطلب « تجنس » فقلت لمندوب وزارة الداخلية لست أنا الذى يتقدم بطلب التجنيس لأنى لست أجنبياً ولا يهودياً ولا أوروبياً ، بل أنا مصرى الجنسية بحكم الأمر الواقع ، لأنى جئت مصر وهى عثمانية وكنت عثمانياً ، فلما انفصلت مصر عن تركيا انفصلت عنها أنا أيضاً « أتوماتيكيا » فإما أن تعترف وزارة الداخية بالأمر الطبيعى الواقع، وإلا شكوتها لمجلس الدولة ، وهنا راجعت الوزارة مستشاريها القانونيين الذين لا يعرفون الإنجليز ولا تربوا عندهم . . . فأفتوا بصحة حجتى فاعترفت لى الحكومة الوفدية بالجنسية اعترافاً قانونياً ، إذن فقد كذب حزب السعديين حين قال إن الجنسية كانت منحة !

على أننى بعد هذا الشرح لا يسعنى إلا أن استغرب من بعض الناس هذه اللجاجة فى مسألة الجنسية فى حين أنهم لا يعيرون اليهود بشىء من ذلك ، والغريب أنى بدأت أسمع هذا النغم المنكر بعد قيام جامعة الدول العربية ! ولا أدرى كيف يستقيم حال الشعوب العربية وفيها أمثال هؤلاء المفسدين .

إن وزير سورية المفوض السابق فى العراق هو لبنانى من آل الصلح . ووزير سورية المفوض بالنيابة فى القاهرة لبنانى ، ووزير سورية فى تركيا لبنانى أيضاً ، وعميد كلية الحقوق ببغداد سورى، ومدير الأوقاف العام بالشام فلسطينى ، وكان ياسين باشا الهاشمى وزير الحربيه السورية بالشام عراقياً ، ورستم حيدر بك وزير المالية العراقية سابقاً كان لبنانياً ، ووزير سورية فى موسكو لبنانى أيضاً ، وكان جعفر باشا العسكرى حاكم حلب سابقاً عراقياً ، ووزير الدولة للأمور الخارجية السعودية الآن لبنانياً ، ووكيل الخارجية السعوديه سورياً ، وسفيرها بواشنطن لبنانياً ، ووزير الأردن بمصر حجازياً ، ووزير عدليتها مغربياً ووزير الدفاع دمشقياً ، ووزير خارجيتها سورياً ، وسفيرها بالعراق لبنانياً الخ الخ . ومع ذلك لم أسمع أن أحداً عيَّر أحداً من هؤلاء بمولده الأصلى ونعته بأنه أجنبى ، بل سمعتها من أعوان الإنجليز هنا ومن أتباع الحزب الدستورى وشذاذ الحزب السعدى ، ولا عجب فهم من بقايا الإنجليز ومن تلاميذهم أيضاً ، وماذا يضير هؤلاء الأشرار أن أكون فلسطينى المولد ، وما هو الفرق بين العربى الذى يولد فى القدس أو دمشق أو بغداد أو أسيوط

أو دمياط ثم يعيش فى القاهرة أو بور سعيد ، ولا سيما إذا كان وطنيا مخلصاً لا يتآمر على مصر ولا يبطش بالأبرياء كالسعديين والدستوريين... الذين لولا تهاون ضحاياهم لنزعت عنهم على الأقل الجنسية المصرية التى مانالوها إلا بحكم مولدهم فى أرض مصر لا أقل ولا أكثر ، ولولا ذلك ما أصبحوا فيها من ذوى المناصب والأموال والألقاب !

شعر وأدب ... وأمور تزيد فى الحسد !

ومما يحلو تسجيله هنا للفكاهة ومتعة أهل الأدب إنه بعد إطلاق من سجن حزب السعديين الدستورى وردتنى تهنئات بذلك من جميع أطراف الأرض ، وقد سجلت بعضها فى كتاب ها كستب ، وقد حدث بعد أشهر من ذلك وبعد ظهور ذلك الكتاب أن تفضل الشاعر الحجازى المبدع الشيخ فؤاد شاكر أحد رجال تشريفات جلالة الملك عبد العزيز آل السعود فنظم أبياتاً فى تهنئتى بالخروج من سجن الظالمين ، وقد طبعها فى ديوانه « وحى الفؤاد » فأخذت بعض الصحف تلك الأبيات ونشرتها ـ ولو وصلتنى عند طبع كتاب ها كستب لدرجتها فيه مع أخواتها متوجة بالشكر للشاعر الكبير .

فإذا بجريدة حزب السعديين تتكدر وتغتاظ حسداً ، وتحمل على الأستاذ فؤاد شاكر وتستعدى عليه الملك السعودى وحكومته لأنه فى نظرها قد كفر حين مدح محمد على الطاهر وهنأه بالإفلات من قيودهم وسجونهم .

وإننى إعترافاً بفضل أخى الأستاذ فؤاد شاكر ، وحباً فى إغاظة حزب السعديين وجريدتهم أنقل إلى كتابى هذا تهنئة الشيخ فؤاد أخذاً عن ديوان «وحى الفؤاد» ولا سيما بعد أن خلا منها كتاب ها كستب وهى :

هيهات لا القيد يثنيه ، ولا السدُّ ... الليث فى الغاب ، أو فى غيره أسدُ
لو لم تكن بجلال الحق مشتملاً ... لما اضطهدت ؛ فإن الحق مضطهدُ
ضحيت أبلغ ما ضحى به رجل ... وفوق ما لا يطيق الصبر والجلد
ولم ينل منك ما قد روعوك به ... وليس مثلهما : الزوج والولد

كم روعوك بما دسوا وما أفكوا — فما انثنيت لما صدوا ، وما عمدوا
مضيت شأنك لا تلوى إلى نفر — ضلوا السبيل من الويل الذى وجدوا
حتى طلعت أغر الوجه مبتسما — وحف شانئك الأتراح والكمد
فاسطع كطلعتك الغراء مؤتلقاً — وملء برديك ذاك الخادر الأسدُ
واهنأ وعش للجهاد الحر تبذله — ملء الحياة وأنت المفرد السند
وابشر فما لخطوب الدهر من سبل — إلى حماك ، فقد جافتك ، تبتعد

أبيات خليل بك المطران

وإذا كانت أبيات الأستاذ فؤاد شاكر وحدها قد كدرت خواطر السعديين فما بالك لو اطلعوا على أبيات شاعر الأقطار العربية المرحوم خليل بك مطران ، فقد سبق لهذا الشاعر الكبير أن رطب حياتى بأبيات من شعره الخالد فى حفلة شاى أقيمت لتشجيعى سنة ١٩٢٨ بفندق الناسيونال بالقاهرة ، ولما خرجت من حبس ابراهيم عبد الهادى ظهر المجلد الثالث من ديوان الخليل رحمه الله ، وإنى أنقل عن الصفحة ٢٥٧ أبياته التى أشرت إليها وقد ذكر فيها أنه يقدمها تحية لى بصفتى « الصديق الأوفى » . قال خليل بك مطران رحمه الله .

« أبو حسن » أصفى الرفاق سريرة — وأوفاهم عهداً على القرب والنأى
وأبسلهم ذوداً عن العرض والحمى — وأثبتهم رأياً على صالح الرأى
يكافح عن أوطانه وحقوقها — بلا وهن فى عزمه وبلا وهى
فما ينثنى عن قصده لعوائق — تعوق ، ولا يلوى بأمر ولا نهى
ولا برحت « شوراه » أنق صحيفة — يبث الهدى فيها على النشر والطىّ
تمج بها تلك البراعة نورها — لكشف ظلامات الكرام وللهدىّ

ولأجل أن أزيد فى حسد حزب السعديين الخوارج أسجل كتابا للمرحوم خليل بك مطران ، بعث به إلى الاحتفال بالكونتنتال الذى مر ذكره فى الصفحة ٦٤٢ وما بعدها قال رحمه الله يخاطب السيد عبد الله الجفرى رئيس الحفلة :

« تشرفت بالدعوة لحفلة الشاى التى تقيمونها اليوم تكريما للمجاهد العربى الأستاذ محمد على الطاهر بمناسبة إطلاق الحرية السياسية له . وكان بودى أن أشهد هذه الحفلة للاشتراك فى إعظام هذا الخادم الوفى الأمين للعروبة وأهلها، وهذا المثال الحىّ للصدق فى المبدأ والرأى لولا إنى مريض مبحوح الصوت، فأكتفى مكرها وآسفا بأن أتغيب بجسمى لا بقلبى عن موقف يُقضَى به بعض الحق للمناضل المخلص الباسل على أمة بذل همه وهمته وجهده وماله فى رفع شأنها والذود عن حياضها، وإنى لأشاطركم ما تبدون له من شريف العواطف، وأسأل الله أن يعينه على استئناف كفاحه أحوج ما نكون إليه ، كما أسأله أن يجزيكم خيرا ويشكر عنا لكم ولحضرات الأجلاء زملائكم أعضاء اللجنة ما تقومون به من واجب المناصرة والتشجيع وتفضلوا بقبول فائق احترامى .

القاهرة فى ١٩٤٥/١٠/٢٨ خليل مطران

صدى الكتاب عند الظالمين

وكان المظنون أن ابراهيم عبدالهادى وزمرته سيقرأون كتاب «معتقل هاكستب» ويبلعون ريقهم ويسكتون ولا أقول يستغفرون ربهم على مافرطوا فى جنب الله وما اجترحوا مع الأبرياء لأنهم لو كانوا يعرفون الله أو يؤمنون به ما كانوا ارتكبوا جرائم تقتيل الناس وإباحة دم الأمة وشرفها ، أقول إنهم بدلاً من أن يقرأوا كتابهم الذى حاسبهم بعض الحساب إذا بهم يشتمونني فى جريدتهم ويقولون إننى عملت الكتاب بالأجرة ولحساب حكومة الوفد ، فى حين إننى انتقدت فيه حكومة الوفد على الكثير من أعمالها ، وقد اتهمنى بعض رجالها بأنى وضعت الكتاب لحساب الإخوان المسلمين ، الذين اعتقدوا اننى عملت الكتاب لحساب حزب مصر الفتاة ، كما أن حزب مصر الفتاة اتهمنى بالمغالاة فى الدفاع عن الإخوان والتغنى بحكم الوفد ... ولكن لما سخر الناس من كلام السعديين الذين يتهموننى تورطت جريدة حزبهم وقالت إن حكومة الوفد دفعت لى «الجنسية المصرية» فى مقابل ذلك الكتاب! مع أن رسوم الحصول على الجنسية فى وزارة الداخلية هى بضعة جنيهات وأما الكتاب فقد كلف مئات الجنيهات غير التعب والسهر فى كتابته وتصحيحه وطبعه ، وهناك ثمن آخر للجنسية كان

معروفاً عند حكومة السعديين والدستوريين وهو أن يكون الإنسان يهودياً أو إنجليزياً أو خائناً أو جاسوساً ...

استطراد لا بد منه

وأنه ليكفي للرد على عمى قلوب السعديين أن يقرأوا فى صفحة ٦٧٥ كيف إننى شكوت متذمراً من كلام سراج الدين باشا حين كان يمن علىَّ أمام الناس بتسويته مسألة الجنسية التى كان يمكن أن آخذ بها حكما من مجلس الدولة ، فليتنى فعلت ذلك حتى لا يعيرنى خوارج البلاد ولا يمنُّ علىّ بها أصدقاء اتهمت من خصومهم بالعمل لحسابهم ! .

ألم أقل فى كتابى هذا إن الإنسان يلقى الهم والغم والأذى على أيدى الأصدقاء أكثر مما يلقى من الأعداء ؟

الدفع سلفا ...

هذا وقد جرى حديث عندى فى دار الشورى عن كيفية اعتراف الحكومة الوفدية لى بالجنسية وهل كان ذلك قبل طبع الكتاب أم بعده ، فقلت لهم بل قبله ، فقال كبير مسئول لقد سقطت حجة السعديين مادام الاعتراف قد سبق وضع الكتاب ، فقال أحد الأصدقاء متهكما كلا لم تسقط لأن هذا الثمن قد تكون حكومة الوفد دفعته مقدماً ، أليس أن الذى يدخل السينما مثلاً يدفع ثمن التذكرة سلفاً ...

إن عمى القلوب والعياذ بالله قد يصل بالإنسان إلى عدم رؤية المرئيات وإنكار كل حق، والمجرم أحياناً لا يقنعه انه قضى على ضحيته بل ينهال عليها بعد ذلك ضرباً وتهشيا وتقطيعاً ، وكم من مجرم وقف فى المحاكم يلوم القتيل ويجعل الحق عليه أمام القضاة ...

ضعف الوفد

حتى لقد بلغ من وقاحة هؤلاء الخوارج الإرهابيين أنهم استغلوا رحمة الأمة أوتهاونها فى حقها فى تمزيع رقابهم على الأقل: أن كبيرهم ابراهيم عبد الهادى وقف مرة أمام رهطه الإرهابى قائلا إن الشعب معه والأمة تؤيده وأنه وإياهم يفوزون فى أية انتخابات نيابية ! كأن الانتخابات لم تحصل ولم يسقط هو وإياهم ذلك السقوط الريع ، والغريب إنه يقول هذا الكلام وهو يعيش

تحت حراسة جماهير من رجال الشرطة الذين يحمونه من الأمة وغضبها وسخطها، بل إن حكومة الوفد لو كانت اليوم على حزمها القديم وقوتها الشعبية المعتادة لساقت ابراهيم باشا وجماعته إلى محكمة الجنايات وأنزلت بهم حكم القانون ، وإنى من الآن أحذر الوفديين وأنذرهم بأ كل الأكف أسفاً وشرب الدموع ندماً على تفريطهم فى حق الأمة حين أهملوا واجبهم هذا وهو إحالة أهل العهد الدابر الغابر ومجرميه إلى المحاكم وهذا أضعف الإيمان .

المحاكم تؤكد براءة الأمة

وفى أثناء تصحيح هـذه الصفحات وإعدادها للطبع النهائى أصدرت محكمة جنايات مصر فى ١٧ مارس ١٩٥١ أحكاماً فى بعض القضايا التى نشأت عن تصرفات حكومة السعديين والدستوريين فإذا بها تدمغ ذلك العهد المظلم دمغة لا يمكن الخلاص منها ، فإن هذه المحكمة برأت معظم الذين ضربوا وعذبوا ونكبوا فى صحتهم وأموالهم ، فغادروا السجون فوراً . وأما الذين حكم عليهم فكانت الأحكام بسيطة بالنسبة إليهم كتهمة حمل سلاح مثلا، فهذه التهم لاتستوجب كل هذه الفظائع وقد أفرجت المحكمة عنهم أيضاً لأن مدة حبسهم تحت التحقيق والمحاكمة كانت أطول من المدة التى حكم عليهم بها ، بل أن هذه التهم مهما كانت خطيرة، حتى ولو كانت ثابتة عليهم ثبوت اليقين فإن التعذيب لايجوز وهو مبطل لأهم أركان التحقيق ومشوه للعدالة ، إن وقائع التعذيب والفظائع قد ثبتت بما لايقبل الشك ، وما دام الأمر كذلك فمن حق العدالة أن تأخذ النيابة العامة بخناق جميع الذين ارتكبوا الفظائع مع المتهمين سواء الذين برأتهم المحاكم أو الذين حكم عليهم . فجريمة التعذيب موجودة ، وحكم القانون فى الذين يعذبون الناس معروف ، وكذلك حكمه فى الذين أمروا به ، سواء بالقول أو الإشارة .

وإنى أهيب بمجلس النواب أن يتناول موضوع الضرب والتعذيب فى السجون بالبحث ومطالبة ولاة الأمور بتنفيذ القوانين التى تحرم ضرب المتهمين مهما كانت التهم كبيرة ، فالقانون هو القانون ، وإلا فليعدل مجلس النواب قانون العقوبات ويحذف منه المواد التى تعاقب على التعذيب ليكون الناس على بينته ! هذا وليعلم كل نائب أنه هو وأولاده وأحفاده من بعده عرضة للضرب والتعذيب فى السجون ودوائر الشرطة ، وحينئذ يقال لهم : يداك أو كتا وفوك نفخ ...

أمين رويحه

قضية تاريخية

أما وقد مر ذكر الدكتور أمين رويحة فى هذا الكتاب كثيراً وأصبح القارىء يعرفه لكثرة ماسمع عن جهاده . فمن الواجب علىَّ إذن أن أوافيه بقية أخباره ، مادامت متاعبه لم تقف عند الذى كان من إخوانه القدماء، لأن الذى لقيه من الزملاء الجدد كان أدهى وأنكى، أليس أن هذا الكتاب كله قد وضع عن السجون والمسجونين والمجاهدين والمنكوبين ؟ إن آخر ما سطرت عن رويحة كان فى وصف حاله ومتاعبه مع حكومة الجمهورية السورية التى ذاق الموت فى سبيلها ، وقد حدث بعد ذلك وقبل إزال القوتلى بك عن رياسة الجمهورية ، أن الدكتور أمين تطوع لحرب اليهود بفلسطين مجاهداً بالسلاح وبمشرط الطبيب، وقدأصيب فى بعض المعارك بجراح ولكن عناية الله أدركته. وقد أنشأ فى فلسطين فى تلك الأيام السود ثلاث مستشفيات للمجاهدين ، وبقى يجاهد هناك إلى أن انتهت حرب فلسطين بتلك الهزيمة الشنعاء للعالم العربى على يد جامعة الدول العربية ، فرجع الدكتور رويحة إلى دمشق يزاول عمله الطبى والوطنى فى حقل السياسة والإنسانية ، فلما وقع انقلاب حسنى الزعيم توارى الدكتور عن الأنظار وهرب إلى لبنان ثم عاد إلى دمشق ، ففى خلال هذه الانقلابات برزت شخصيته ولمع بين الجماهير نجمه، فأصبح محوراً يدور حوله الشىء الكثير من أمور البلاد السياسية ، فإن لم يؤيد للحكومة مشروعا أوخطة فالرأى العام كان لا يؤيدها ، وبعد ذلك صرت أسمع مراراً أن بعض العسكريين كانوا يتخوفون منه وينظرون إليه شذراً ويبيتون له أمراً ...

وقبل أن أمضى فى سرد ما كان بعد ذلك أحب أن أمهد لذلك بالفصل الآتى ليصبح الموضوع مبسوطا ومفهوما .

مقالة عن سورية

انتخبت سورية فخامة السيد هاشم الأتاسى لرياسة الجمهورية بعد مقتل حسنى الزعيم « بدلا من شكرى بك القوتلى » وقد سبق للأتاسى أن كان رئيساً للجمهورية من سنة ١٩٣٧–١٩٣٩ وفى صيف ١٩٥٠ وقع انقلاب ثالث فى سورية ، إذ وثب أحد ضباط الجيش وهو العقيد «الكولونل» أديب الشيشكلى على رئيسه اللواء سامى الحناوى فهاجمه مع بعض الضباط وقبض عليه وحبسه وجلس مكانه . فكان لهذا الانقلاب الثالث من أحد رجال

الانقلابين السابقين على قائد الانقلاب الثانى أسوأ وقع فى جميع أرجاء العالم ، فكتبت يوم أول أغسطس ١٩٥٠ فصلا حول هذه المواضيع ونشرته فى الصحف . وإنى أرى إثباته هنا لأن بعض تخوفاتى قد تحقق مع الأسف بعد شهرين ، وأظن أن بقيته ستتحقق مع شديد الحزن ، ولكنى لا أدرى متى ، راجياً من الله أن لايقع شىء فى سورية يسىء إلى أحد فيها، وهذا هو الفصل المذكور وقد نشر تحت عنوان :

هذه الانقلابات فى سورية ...

« كتب إلىّ أحد فضلاء المهاجرين السوريين من نيويورك يعرب عن إشفاقه على سورية من الانقلابات التى تعانيها ، ويسألنى عن المصير ، وما هو الدواء ، وكيف السبيل إلى استقرار الأحوال فيها .

وإنى أجيب حضرة المهاجر الفاضل على صفحات الجرائد علناً، لعل أصحاب الانقلابات فى سورية ينعمون النظر فيما يجول بخواطر الناس من مخاوف ، فقد يكون فيها تذكرة أو عبرة.

وقبل الجواب على ذلك يحسن شرح الداء لنهتدى إلى الدواء ، فالذى سبب لسوريا هذا البلاء ليس هو حسنى الزعيم وحده كما يظن البعض بل يشاركه فيه اللواء سامى الحناوى ، ثم يشاركه بعد ذلك الكولونل الشيشكلى ، ولا أدرى من يكون بعد ذلك ...

ثم إليك هذا البيان : إن الحناوى لما قتل حسنى الزعيم لتخليص سورية من دكتاتوريته قام هو بدكتاتورية مثلها تقريبا برغم وقوعها بشكل آخر ! لأنه صار يحكم البلاد من مركز « الأركان حرب » فعلا، وجعل الحكومة السورية كأنها « صورية » ولم يترك لرئيس الدولة والوزراء ما يعملونه فكنت ترى أبواب «الأركان» مزدحمة بأرباب الحاجات ، فى حين كانت دوائر الحكومة الحقيقية خالية من كل حركة تدل على وجود الحكومة المدنية ، ولا يغرنك قول الحناوى حين زعم انه ترك السياسة ، بل انه كان يزاول أعمال الدولة السياسية والعسكرية ويرهب الحكومة المدنية بوحيه وسلطانه العسكرى .

الذى كان يجب أن يكون

لقد كان على الحناوى بعد أن أزال حكم حسنى الزعيم وادعى أنه جعل الجيش يعتزل السياسة أن يبعده عنها فعلا، وأن يعتزلها الحناوى نفسه أولاً، بل كان عليه أن يترك السياسة

ويترك قيادة الجيش وأن يستقيل من خدمة الدولة كلها ، ثم يسلم رئيسها وحكومته أمر البلاد وزمام الجيش نفسه ، لتعين هي قائده وضباطه وأركان حربه ، وبذلك يظل سلطانها على الجيش حقيقة واقعة ، ويكفي أن يشعر قائده الجديد بأنه مدين لها بمنصبه لتستقر الأمور في نصابها ، وبذلك تنقطع سلسلة الحسد التي تساور زملاء الانقلابات عادة .

ولكن الحناوي لم يصنع شيئاً مما كان يجب أن يكون، بل صار يمثل دور حسني الزعيم بأسلوب آخر، ويسيطر على جهاز الحكم فعلا ، فشعر أنداد الحناوي بالغيرة والسخط، وقالوا إن الحناوي ليس بخير نابل يجب أن يشركنا معه، ولما تعذر عليهم الوصول قاموا عليه وحبسوه وقلبوا دولته ، وبذلك تم الانقلاب الثالث القائم الآن بقيادة العقيد الشيشكلي ، الذي راح أيضاً يمثل دور الحناوي ، ثم قتل القائد محمد ناصر أحد أركان الانقلاب الثالث. والغالب أن الصدور عند بقية الشركاء قد أصبحت تغلي على الشيشكلي حقدا أو حسدا ، ومن يضمن لنا أن لا يقوم فريق منهم بالزحف ببضع دبابات على العقيد الشيشكلي لقلب حكمه ، فإن لم يتمكنوا الآن فسيتمكنون غدا وهلم جرا .

ما هو المصير ؟

هذا هو الداء ، فبعد أن شرحته فيما تقدم يمكن الآن وصف الدواء ليعمل به الشيشكلي إن أراد وضع حد لحالة القلق في سورية ، وهو أن يقوم بما فات الحناوي عمله ، بأن يسلم الجيش إلى رئيس الدولة ، ويستقيل من القيادة ويغادر سوريا كلها ، ولو إلى حين ، لأن فعلته مع قائده واستسهال القيام بالانقلابات لمما يجعل الخطر يتفاقم ، وأهل الثأر يتحركون… فإن لم يستقل الشيشكلي ويبتعد عن الحكم فالمصير هو استمرار الانقلابات وسفك الدماء ، واضطراب أمر الأمة وضعف الجيش وتفرق كلمة الشعب وفروغ صبره…

وعند ذلك لابد من حل يقطع هذه السلسلة من الانقلابات ، وهي أن يزحف الإنكليز على سورية من شرق الأردن متخذين من جيشها أداة احتلال بحجة إقرار الأمن…

أو يزحف الإنكليز على سورية من العراق متخذين من الجيش العراقي ستارا لمطامعهم ، فتقع المعارك بين الجيش السوري وبين الغزاة وستكون مقاومة الجيش السوري ضعيفة متخاذلة،

لأنه يكون فى حالة انقسام ، كما أن الأمة السورية ستبقى فى معزل عن القتال، لأنها تكون قد سئمت الانقلابات وأصحابها ومصائبها وعواقبها ، وتكون النتيجة أن الجيش الاستعمارى الغازى يحتل البلاد السورية بدعوى حمايتها من الفوضى ، وبعد ذلك يحل الغازى جيشها ويقبض على قواده ويحاكمهم بأشنع التهم، ويحيطهم فى خلال ذلك بجو مملوء بالشتائم ، ثم يزعم أنه جاء لتخليص البلاد وإنقاذ العباد من شر العسكريين وحكم العصابات .. إلى آخر ما عند الإنكليز من تشنيع سيوجهونه إلى الحاكمين المنهزمين ...

وبعد ذلك نجد سورية ــ لا سمح الله ــ قد وقعت تحت سلطان الاحتلال الإنكليزى ، إما باسم « سورية الكبرى » تحت حكم الهاشميين فى الأردن، أو باسم « الوحدة العربية » تحت حكم الهاشميين فى العراق .

وهى على الحالين تكون واقعة تحت الحكم الإنكليزى واستعمارهم، لأنه لابد فى الحالتين من أن تنسحب على سورية إحدى المعاهدتين ، إما الأردنية ــ البريطانية ، وإما البريطانية ــ العراقية ، هذا هو الداء ، وذلك هو الدواء ، وهذا هو المصير .

فعلى السوريين حكومة وشعباً ، وزعماء أيضا ، أن يتدبروا أمرهم قبل فوات الأوان ، لأن بريطانيا على الأبواب ...

« محمد على الطاهر »

ماذا جرى بعد ذلك ؟

إن الذى حسبت أنه سيقع فى سورية قد وقع بعضه مع الأسف ، وسيقع ــ لا سمح الله ــ ماهو أكثر منه إن لم يترك رجال الجيش حكومة الجمهورية تمارس مهمتها . فالذى وقع بعد نشر المقال السابق أن أطلق الرصاص على سيارة العقيد الشيشكلى فأصيب بعض من فيها من الضباط وقد اتهم فى تدبير هذا الحادث عدد كبير من الناس ، كان أبرزهم الدكتور أمين رويحة ، وكانت حكومة سورية قد أفرجت عن اللواء سامى الحناوى على أن يغادر البلاد فسكن مدينة بيروت فترصده محمد البرازى « ابن عم المرحوم محسن بك البرازى الذى قتل فى الانقلاب الثانى مع حسنى الزعيم » وقتل الحناوى فى الشارع العام أخذاً بثأر ابن عمه ، فلو ان الحناوى ترك

الجيش بعد نجاح انقلابه على حسنى الزعيم ، لما وقع الانقلاب الثالث ولا أصابه بعد ذلك ما أصابه ، من حبس وإخراج من الوطن، ثم القتل ، ومن يعيد النظر فى المقال المتقدم يرى اننى توقعت هذا الشر للحناوى قبل أن يغتالوه ، كما إنى توقعت للعقيد الشيشكلى مصيراً صعباً إن لم يستقل ويغادر البلاد كلها، وبعدذلك وقع حادث الاعتداء على سيارته كاسيجى،ولكنه نجامن الخطر...

رحلة عدلت عنها

وفى الخريف الماضى بعد أن ملكت «جواز سفر» عزمت على زيارة دمشق التى غبت عنها ٣٦ عاماً ، فنى الخريف والربيع تطيب زيارة الشام وتعبق زهورها ، وهناك أصدقاء وإخوان طالما تشوقت إلى رؤيتهم والتحدث إليهم ، ويكفى أننى سأزور العاصمة الأموية وهى نظيفة لاأثر للاستعمار فيها ، وأن أرى هناك بقية السيوف من المجاهدين ، وآثار التخريب والتدمير والفظائع التى ارتكبتها فرنسا فى عاصمة أمية فى خلال ربع قرن ، وهل يوجد شىء فى الدنيا أجمل من رؤية المجاهد الظافر قبل أن يخلع ثوب الجهاد . وقبل أن تندمل منه الجراح؟

كذلك دمشق ، فإن أجمل مافيها هو شعبها الغضوب والدمار الذى أنزلته فرنسا بعمرانها، فلولاعنفهم ولولا حمق فرنسا ، ولولا تدميرها البلاد وذبح العباد فى سورية وقيامهم على فرنسا لماخرجت منها ومن المشرق ، وأرجو أن أعيش لأرى إخراجها إن شاء الله من المغرب...

حادث

وفيما كنت أعد معدات السفر ، إذا بالبرقيات تذيع من أخبار دمشق يوم ١٣ أكتوبر ١٩٥٠ انه فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل الماضى كانت سيارة عسكرية قادمة إلى دمشق فتصدى لها مجهولون فى جهات دمر وأطلقوا عليها النار فأصيب الضابط الكبير الذى بداخلها بجراح وتسلم المحققون العسكريون القضية . وقد أذاعت وزارة الدفاع بلاغا رسمياً حول الحادث ولكنها منعت نشر أى تفصيلات أخرى . وتدور همسات كثيرة حول شخصية هذا الضابط وغرض المهاجين ولكنها لا تخرج عن نطاق الانقلابات المتتابعة فى سوريا » .

وبعد أيام سمعنا من الصحف أن الحكومة السورية قبضت على بعض الأشخاص وفيهم الدكتور أمين رويحة والسيد أحمد الشرباتى وزير الحربية الأسبق وغيرهما ، فقلت فى نفسى : هذه سحابة صيف وأن المسأله لابد أن تنكشف بعد قليل وأننا سنسمع بعد أيام نبأ إطلاقهما لأنهما ليسا من أهل الشر ، ومن الجائز أن يكون هذا القبض من نوع الإرهاب المحلى ، ومع ذلك فقد عدلت عن زيارة الشام حتى لا أدخلها وأنا أريد الانتعاش النفسانى والروحى فأجد هناك صديقى منغصاً ، وكان عزمى على إعداد هذا الكتاب للطبع قد بدأ فقلت يجب أن لا أضيع الوقت فى الأسفار وأن أكمل الكتاب فى هذه الأشهر القليلة القادمة قبل أن يدهمنا فصل الصيف بوهجه وحره ...

فكرة

وكنت بعد أيام من هذا الحادث أزور فخامة السيد مزاحم الباجه جى رئيس الوزارة العراقية الأسبق بفندق سميراميس بمصر بحضور السيد نجيب الراوى بك الوزير المفوض وجماعة من فضلاء العراق ، فسألنى الباجه جى بك : هل عدلت عن زيارة الشام ، فقلت نعم ، لأن هناك منغصات فلا أريد أن أطرق بلداً أحبه وهو غير ناعم البال . فقال ولكن صديقك رويحة محبوس فذهابك لنجدته يفيده كثيراً فقد تتوسط بين القوم وتنفض المشكلة على يدك ، فقلت له إن الذين أعرفهم ويعرفوننى فى الشام قد انقرضوا ، فالذين لحقوا بربهم لن يرجعوا ، والذين كان بيدهم الحل والعقد قد تنكروا لى وهم أقوياء ، ومع ذلك فإنهم الآن قد رحلوا أو أخرجوا منها قبل أن أراهم فيها وهم سادة يحكمون، ليعرفوا بى يومها من جاء بعدهم، فلو أنهم تنازلوا واتصلوا بى قبل نكبتهم وأقاموا لى شيئا من الوجاهة قبل زوالهم لانتفعوا بها أو انتفع الغير بتلك الوجاهة التى بخلوا علىّ بها ، وما بخلوا إلا على أنفسهم...

قلت إن الذين كانوا ساعة حديثنا ونحن عند الباجه جى بك كلهم من العراقيين وقد لحظت أنهم جميعاً كانوا مستحسنين فكرة سفرى، ولاعجب فأهل العراق يحبون أمين رويحة

ويعجبون به، وهم يعرفونه فى بغداد سنيناً كثيرة ، وإنه المجاهد القومى النادر المثال ، فكيف لا يحبونه ؟ ولذلك قلت لهم إنى سأفكر ...

استغاثة ...

وما كدت أفارقهم إلى مكتبى حتى وجدت فيه رسالة من الدكتور رياض رويحة شقيق الدكتور أمين ، يشرح لى فيها حقيقة الحادث الذى وقع فى الشام للسيارة العسكرية وأن المراد من تلفيقه البطش بأمين بأى ثمن كان وإنهم منعوا المحامين من مقابلته ثم استنهضنى إلى العمل والسعى لإنقاذه .

الاستجابة

عند ذلك عقدت اجتماعاً من بعض الأصدقاء الذين يعرفون الدكتور أمين ، ويقدرون جهاده ، ثم ألفنا وفداً ضمنى إلى الأصدقاء محمد بك سليمان والدكتور الطيب ناصر ، والسيد بشير الخالدى من شباب العراق والأستاذ يحيى شاهين ، وذهبنا إلى المفوضية السورية حيث وجدنا القائم بالأعمال ، فتحدثنا معه عما يساور الرأى العام من قلق على الدكتور أمين رويحة وأن يستأذن حكومة دمشق فى السماح لمحامين من مصر بالدفاع عنه. وبعد ذلك أعطينا الجرائد بيانات ومعلومات عن القضية وعن مكانة الدكتور أمين رويحة فى العالم العربى . فقامت لذلك ضجة فى الجرائد والأوساط الوطنية المخلصة، وأعلن بعض المحامين الفضلاء فى مصر والعراق تطوعهم للذهاب إلى دمشق للدفاع عن أمين .

أمانة صحفية ودعوى فى محكمة

فإذا بالقائم بالأعمال ، وكان اسمه أسعد محفل، يذيع فى جريدة المصرى دون سواها بياناً ملفقاً أنكر فيه كل شىء عن سوء المعاملة لأمين وادعى وجود حرية للصحافة هناك ، ثم ختم بيانه بغمز ولمز بلجنة الدفاع عن الدكتور أمين التى اعتبرت هذا القائم بالأعمال شخصية دبلوماسية وجعلته مرجعا رسمياً ، فإذا به يتخذ سبل المهاترة كما ظهر من بيانه هذا . فأسفنا كثيراً وأصبحنا بعد ذلك نتجاهله هو ومفوضيته ، فأبرقنا بالوساطة لأمين إلى فخامة الأتاسى

رئيس الجمهورية، فهو يعرفني معرفة قديمة ولى مكانة عنده ، وإلى الدكتور القدسي بك رئيس الوزراء، فهو أيضاً يعرفني وأعرفه فى مؤتمر بلودان سنة ١٩٣٧ وقد زرته فى مصر بعد ذلك وزارني ، وقد ذكرت لهما فى البرقيات مايشعر به العالم العربى من اضطراب خاطر على الدكتور أمين بسبب هذه القضية الخ ..

وأما جريدة المصرى فقد أرسلنا إليها تصحيحاً فلم تنشره، فذهبت إليها بنفسى وأعطيتها نسخة أخرى من ردنا على مفوضية أسعد محفل فلم تنشره أيضاً . فى حين أنها لم تكن ملزمة بنشر بيان أسعد محفل أصلاً ما دامت لم تكتب ولم تنشر شيئا عن الدكتور أمين رويحة فليس لها دخل فى الموضوع إذن، وكان يمكنها أن تقول لأسعد محفل : اذهب إلى الصحف التى نشرت وكذب فيها ، ولكن جريدة المصرى تركت الدكتور أمين فريسة للذين حبسوه ونشرت فقط ما يسىء إليه وإلى الذين يدافعون عنه ويضعف مركزهم أيضاً .

فلما رأيت هـذا الإخلال بالعرف الصحافى لم يسعنى إلا رفع قضية على جريدة المصرى أمام المحكمة ، وهى لا تزال مطروحة أمام القضاء .

برقية من بيروت

وبعد أيام من الحوادث السابقة تناولت برقية من أحد فضلاء دمشق وهى مرسلة عن طريق بيروت، بأن أمين يساء إليه ويهان فى السجن وأنه فى خطر ، وأن هانىء محمود الهندى أحد المتهمين فقد سمعه من شدة التعذيب ، وأن أحمد بك الشرباتى الوزير السابق قد أضرب عن الطعام لسوء ما لقى فى السجن .. الخ الخ . وأنهم منعوا المحامين من حضور التحقيق معه ومنعوا المتهمين من الاتصال بأهلهم ، عنـد ذلك لم أتردد فى الذهاب إلى دمشق وليكن ما يكون .

طلبت تدخل جامعة الدول العربية

وهنا خطر لى أن أطلب تدخل جامعة الدول العربية ولكن ... إن من يقرأ ما كتبت عن هذه الجامعة فى أول هذا الكتاب قد لمس بلا شك ما كان العالم العربى يبنيه على وجودها من آمال ولكن الذين قاموا بأمرها قد جعلوها مخيبة للآمال ! وقد سردت فى صفحات سابقة من هذا الكتاب بعض ما كان منها لتخاذل دولها وعدم كفاية القائمين بها وعدم أمانة بعضهم أيضاً ، وفيهم من اغتنى باسمها وبأموالها التى وضعت فى كل مكان إلا فى محلها ، وقد تفننت الصحف فى تصوير حالة هذه الجامعة كما يراها أبناء جيلنا إلى أن عجزت عن وصفها الوصف الذى تستحقه ، فإذا بريشة الرسامين والفنانين ترسمها على حقيقتها ، فى صحف أيامنا هذه كمجلة روز اليوسف وجريدة آخر لحظة وجريدة أخبار اليوم ، ومن ذلك الصور التى أوردتها هنا ، لأنها تصور حالة راهنة وما على الجيل الآتى إلا أن يصلح هذه الجامعة ــ إن قدر ــ ليرسمها فنانو الجيل الجديد على حقيقتها أيضاً وأرجو أن تكون حالها يومذاك أصلح وأحسن ...

مجلس الجامعة فى طريقه إلى الانعقاد فى مارس ١٩٥١

المجلس منعقد والأعضاء يتناقشون ...

مصير الجامعة العربية فى مارس ١٩٥١

رحلة دمشق

تعال معى إلى دمشق

ولكن كيف أسافر ؟ إن الطريق الطبيعى إلى الشام هو القطار من المحطة الرئيسية بالقاهرة إلى المحطة الحجازية بدمشق ، عن طريق فلسطين ، ولكن أين فلسطين الآن ؟ إنها فى أيدى اليهود ، وبذلك انقطعت الطريق بين العالم العربى فى افريقيا عن شطره الآخر فى آسيا ، وهذا ما كنت أحذر فى وقوعه قبل وقوعه بثلاثين عاماً ، وبقيت أنذر به وأحذر منه ، ولكن العالم العربى كان أصم الأذن أعشى العين ، لا يرى ولا يسمع ، إلى أن دهمته القارعة ورأى بعد فوات الأوان أن دولة عصابات اليهود تقوم بين سمعه وبصره ، وتقتطع فلسطين منه ، بعد أن هزمته عسكرياً وسياسياً وأهانته أشنع إهانة !

شهداء الطيران

إذن فليس أمامى إلا الطيارة ، ولكنى كنت قد آليت على نفسى أن لا أركبها فى حياتى لأنى أخاف ركوبها ، وخصوصاً بعد أن ودعت فيها أحباباً فارقونى ولم يعودوا ، ومنهم الضابط العراقى الطيار جواد حسين ، فتى شباب العراق المعروف بالبسالة والغيرة القومية ، والضابط الطيار العراقى الشهم إبراهيم جواد الذى تطوع لتدريب الطيارين السوريين فى حرب فلسطين فسقطت به الطيارة واستشهد ، وهناك أصدقائى المجاهدين المغاربة الثلاثة ، السيد محمد بن عبود المراكشى ، والدكتور الحبيب ثامر التونسى ، والأستاذ على الحمامى الجزائرى ، فقد احترقت بهم الطيارة فوق جبال الباكستان حينما كانوا يذيعون مظلمة وطنهم فى أقصى الشرق . رحمهم الله جميعاً

« وأما بقية قصة أمين فستجدها عند وصف دمشق بعد الفصل الآتى » .

ذكريات ...

بل كيف أنسى أول طيارة وأول طيار شاهدتهما وأنا فتى ، وكيف عدت عليها الأقدار ففرقت أمامى ومات من فيها ، وإنى أظن أنه لا بأس من إشراك القارىء معى فى استعراض ذلك المنظر الذى لا يمكن أن تمحوه الأيام من ذكريات الأمس البعيد ... ففى أواخر سنة ١٩١٣ أرادت الدولة العثمانية أن تثبت وجودها أمام الدول الأخرى من ناحية الطيران وأمام شعبها ، لاسيما بعد أن جاء المسيو « فدرين » الطيار الفرنساوى إلى بيروت قادماً من باريس على طائرة

يقودها بنفسه حتى القاهرة ، فقد فتنت فرنسا بهذه الطيارة عقول أنصارها فى لبنان بعظمتها الفنية وقدرتها العسكرية .. وهو أول حادث من نوعه فى تاريخ البشر ، فكيف فى عيون أهل الشرق ... ولذلك بعثت الدولة بإحدى طياراتها من استانبول إلى القاهرة ، ولكنها سقطت بطياريها الفتيين المرحومين « فتحى وصادق » بجوار بحيرة طبرية ، فأرسلت الدولة طيارة ثانية بقيادة الضابط نورى بك ومساعد له فوصلت إلى يافا ، وكنت يومها هناك ، فهبطت الطيارة على أرض الرمال فى أطراف يافا ـ حيث قامت عاصمة اليهود بعد ذلك ـ وكنا قبل وصول الطيارة نرقب الجو بعيون زائغة إلى أن لاح فى الأفق عصفور ما لبث أن كبر ، ثم كبر وكبر إلى أن أصبح فوقنا كالسفينة ، فاندهشنا وكنا لانكاد نصدق ما نرى ، وهبطت الطائرة رويداً إلى أن استقرت على الرمل الأبيض النقى الذى دنسه قيام تل أبيب فوقه بعد ذلك... وهرع الناس إلى الأسطورة التى أصبحت حقيقة ، وتمكنت يومها من لمس ملابس نورى بك والتحسيس بيدى على جناح الطيارة وكان من الخشب المكسو بالجلد الرقيق. وبذلك صدقت أن الإنسان يمكنه أن يطير كالعصافير ، بدون أن يخطر ببالى ولا ببال مخترع الطيارات أن اختراعه العجيب سينقلب إلى طير أبابيل يخرب به الاستعمار ديار الآمنين .. ويقوض به صرح الحضارة ...

وفى اليوم الثانى خرجت مدينة يافا لتوديع الطيارة وهى فى طريقها إلى القدس فالقاهرة ، فلما حلقت فى الهواء وأرادت الانعطاف إلى الشرق نحو بيت المقدس إذا بها تسقط فى البحر ، فكان لهذه الفاجعة فى النفوس أثراً عميقاً محزناً لا يمكن أن يزول من خيال الإنسان طول حياته ، ولذلك أصبحت أخاف ركوب الطيارات[1] ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فبادرت

(١) إن هذه الفاجعة بسقوط طائرة نورى بعد سقوط طيارة فتحى وصادق لم تثن الدولة العثمانية عن عزمها ، بل أرسلت طائرة « ثالثة » بقيادة الطيار سالم بك فوصل القاهرة ثم الاسكندرية فاحتفلت به الأمة المصرية فى العاصمتين احتفالا لامثيل له ، وقد رحب شاعر مصر شوقى وحافظ بهذه الطيارة وطيارها بقصيدتين من الشعر الخالد ، كما أنهما رثيا الطيارين الذين استشهدوا قبل ذلك ، وقد دفنت الحكومة العثمانية فتحى وصادق بمأتم قوى بجوار ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبى بدمشق رحم الله الجميع .

إلى حجز مكان فى طائرة عراقية مسافرة فى اليوم التالى إلى بغداد ، وستقف أولاً فى دمشق ثم ذهبت إلى بيتى وفاجأت أسرتى بنبأ هذا السفر، فباركته وشجعتنى عليه، وكانت «الفيزا» بدخول سورية لاتزال لحسن الحظ صالحة . فأبرقت إلى أخى صبحى بك الخضرا بدمشق(١) بأن يحجز لى غرفة بفندق « الأوريان بالاس » وأن ينتظرنى فيه « وحده » بعد العصر ، وفى ظهيرة ١٩٥٠/١٠/٣١ كنت فى مطار مصر الجديدة وفيما كنت أقصد إلى الطائرة إذ لمحنى أسعد محفل القائم بالأعمال السورى فودعنى، وكم كنت أرجو أن لاأراه يومها ، لأنى كنت أريد الوصول إلى دمشق بغتة ، فأقوم بالاتصالات التى أريدها قبل أن يشعر أحد بوصولى .

ركوب الطائرة لأول مرة

إن بعض الذين ركبوا الطيارات للمرة الأولى فى حياتهم قد وصفوها ودونوا خواطرهم عنها وخلجات نفوسهم وهم فيها ، ولكنى لم أقرأ وصفاً لأحد يماثل ما دونه الآخر ، فلكل راكب تأثراته ولكل مسافر إحساساته وطريقته فى الكتابة ، ولذلك أحببت أن أكون واحداً من هؤلاء ، وأنا على كل حال إن كتبت فى موضوع قد لاكته الأقلام كثيراً فإنما أكتب للذين لم يركبوا الطائرة ، أو للذين لم يقرأوا لركوبها وصفاً ، لأنى أريد ـ وأنا أصف رحلة دمشق بعد أن غبت عنها أكثر من ثلث قرن ـ أن أشرك فيها القارىء كأنى آخذه معى وأجعله يتفرج على ما رأيت ويشعر معى بما كنت أشعر به ، سواء كنت طائراً أو متفرجاً أو مفكراً ، متمتعاً أو متألماً أو خائفاً . حتى لا يكون حديثى عن قضية الدكتور أمين رويحة جافاً كله أو محزناً كله ...

على بركة الله

كانت الطيارة التى ركبتها من طراز كبير تتسع لأكثر من عشرين راكباً، وكانت نخمة المقاعد وثيرة الرياش ـ لترغيب الناس فى ركوب الخطر ، لأنه ليس من الحكمة أن تأخذهم

(١) هو المحامى الفلسطينى الشهير والمجاهد القديم الذى مضى فى اعتقالات الإنكليز ومنافيهم بفلسطين أكثر من عشر سنين ، ولما وقعت وقائع فلسطين قبيل ضياعها كان صبحى الخضرا من المنهمكين فى الدفاع عنها وتسليح المجاهدين لأنه كان فى الأصل ضابطاً ، ولما فرطت الحكومات العربية المنقذة بفلسطين استقر صبحى بك إلى دمشق .

على كف عفريت ثم تجلسهم فى مقاعد مزعجة فوق خوفهم وفزعهم من ركوب الهواء . وإنى لا أصدق أياً كان على وجه الأرض يقول إنه ركب الطيارة ولم يشعر برجفة داخلية أو قلق خفى ، أو أن يزعم أن الموت حرقاً أو غرقاً أو حبطاً على الأرض لم يخطر على باله ... وقد لمحت اسم الطائرة مطبوعاً على جنبها بحروف عربية «المأمونة» فتيمنت بهذا الاسم المحبوب عندنا ، الأثير لدى العرب جميعاً ، لأنهم ينسبونها بهذا الاسم إلى الملك المأمون العباسى الشهير وهذه الطائرة عراقية الجنسية ، ومن عادتها أن تصل القاهرة عند ظهر الثلاثاء فتمكث ساعة ثم تطير عائدة إلى بغداد على أن تقف فى دمشق لتنزل ركاباً وتأخذ معها آخرين .

شدوا الحيازيم

ومر بنا « المضيف » وهو شاب عراقى دمث لبق ، وكانت العادة أن يكون هناك « مضيفات » فالظاهر أن حادثة سقوط طائرة الركاب الأمريكية الكبيرة قبل ذلك بأيام بجوار دمنهور وتهشيم كل من فيها واحتراقهم ، ونشر صور بعض الضحايا من السيدات والأوانس ، قد أفزع قلوب الجنس اللطيف ... فأضربن عن ركوب الطائرات !!

ووزع علينا « المضيف » قطناً وضعناه فى آذاننا ، ثم أشار بوجوب شد الأحزمة على وسطنا فشددناها ، ولكنى قبل أن أشد حزامى نهضت بغتة وجلست عند الشباك الأيمن ، فقال المضيف إنى أخاف عليك حر الشمس هنا ، فشكرته على نصيحته ولكنى أصررت على أن أظل حيث أنا ، فتركنى أجلس حيث شئت وهو مندهش من عنادى .. ولكن أنى له أن يعرف السبب ، إنه لو عرفه لعذرنى وذرف الدمع معى ...

تعال معى ...

كم كنت أتمنى لو صاحبنى رفيق أبثه خلجات نفسى حين درجت بنا الطائرة لأول وهلة لأنى لم أشعر بشىء إلا بدوى المحركات وكون المرئيات صارت تتحرك ، وكانت الطيارة تمشى على الأرض كأنها سيارة حديثة الطراز تدرج على سجاد من الحرير ، وبعد هنيهة شعرنا بأن الطيارة قد عادت أدراجها ووقفت حيث كانت ، فظننا أنها أحست بعطب فرجعت ، وأنهم سيقولون لنا انزلوا فلا سفر ... ولكن اتضح أن مساعد الطيار قد نسى « البوصلة »

أو «المسطرة» على حد تعبيرهم ، فأخذها ممن كانت عنده ، وفى الساعة الثانية بعد الظهر سارت بنا الطيارة على أرض المطار فترة من دقيقة ، ثم توقفت وأخذت تهتز وهى واقفة ، ففهمنا أنها تحفز وتشحذ همتها و«تحمى» ماكيناتها الدقيقة العجيبة ، ثم أحسسنا بعد لحظة بأنها تركض مرة أخرى ولكن بسرعة شديدة، ثم رأينا الدنيا تحتنا، وأنا لا أصدق انى أصبحت فى الهواء!

ها كستب

كانت سجون معسكرات «ها كستب» فى الصحراء أول شىء خطر لى أن أتطلع إليه من علٍ ، إنه المكان الذى حبسنى فيه ابراهيم باشا عبد الهادى بين يوليو وأغسطس ١٩٤٩، لقد كنت وأنا فيه أجلس فى ساحته وأتفرج على الطائرات التى كانت تمر من فوقنا ، فأُصعِّد إليها النظر والفكر، وأتخيل مايراه ركابها وهم فوقنا إن كانوا ينظرون إلى معسكرنا ، فكنت أتصور أنهم لا يكادون يلحظون أنه يوجد تحتهم جماعات من البشر حشدهم رجل حمله الخوف على نفسه من أمته ، والفزع على حياته من أهله لا من أعدائه ، على الضرب ، فضرب بشدة لأن من عادة الخائف المصاب بالهلع أن يضرب بقسوة ليخيف العباد ، أو يقتل عدوه بضربة واحدة غادرة ليأمن على نفسه من قيامه عليه ، ولذلك كان بطش ابراهيم بى وبغيرى شديداً وقاسياً .

كنت أتصور وأنا فى اعتقال « ها كستب » أن ركاب الطائرات العابرة من سمائنا إن خطر لهم النظر إلى الأسفل فإنهم لن يروا سجننا على حقيقته ، بل يرون حجارة رمادية متناثرة هنا وهناك ، كأنها لعب الأطفال ، فلا يخطر ببالهم أنها أكواخ من الأسمنت المسقوف بالتوتيا . وأن المئات من الناس يعيشون فيها وأنهم لن يشعروا بما بنا . إذ لا شىء هناك يدلهم علينا. لاشجر ولا زرع حول السجن ولا مايدل على الحياة ، وقد وصفت هذا الذى تخيلته فى كتابى عن ها كستب حين كنت على الأرض ، ولكنى لما أصبحت مثل أولئك الركاب العابرين جواً وصرت أنظر من «فوق» رأيت نفس المنظر الذى تخيلته وأنا «تحت» إذن فالإنسان يقدر فى بعض الأحيان أن يتصور الأمور وهى بعيدة عنه تصوراً صحيحاً بشرط أن يكون مخلصاً فى تصوراته ...

وأخذت الطائرة فى الارتفاع تدريجاً ، فكنت أشعر بها وهى تنهض بنا إلى الأعلى نهضات محسوسة ، وكانت صحراء الماكتسب تظهر تحتنا بتموجات أرضها وكثبانها كأنها أمواج بحر ، ولكنه بحر أصفر اللون ، وعهدنا بموج البحر أنه أزرق وأن الزبد الأبيض إن غضب يعلوه أحياناً.. ثم أخذت المرئيات التى تحتنا تصغر وتدق رويداً رويداً ، لأن الطائرة كانت لاتزال ترتفع وهى منطلقة فى سبيلها ...

يقطع تفكيرنا ...

وهنا أقبل « المضيف » يقول إن بإمكاننا أن ندخن ، وإنه سيعود إلينا بعد لحظة بشىء لطيف ... وأما نحن الركاب فقد انخمد كل واحد منا فى مقعده ، هذا يفتح مصحفاً ، وذاك يتمتم بآيات ، وثالث يقرأ فى إنجيل ، وبعضهم كان يتطلع إلى الهواء أو إلى الأرض ليقيس علو الطائرة عنها وهل السقطة إن حصلت ستكون قاتلة ، أم أنها لاتبلغ أكثر من تحطيم الكتف أو الساعد أو قصم الظهر ، وبعضهم سلم أمره لله من شدة الخوف ونام ...

أما أنا فكنت قد جئت معى بجرائد الصباح لأقطع الوقت بمطالعتها ، ولكن كيف أضيع فرصة إمتاع العين بأبدع مايخطر بالبال والخيال من مناظر ، من أجل قراءة الجرائد التى أكلت عيونى وأنا لاأزال أنظر فيها منذ أربعين عاماً ، ولذلك ألقيت الصحف جانباً وقلت فى نفسى دعها الآن ، وسأقرأها الليلة بدمشق وأنا على فراشى بالفندق ...

وكانت الصحراء قد تركتنا أو أننا نحن الذين تركناها ، ثم واصلت النظر إلى الأرض ، هانحن نحلق الآن فوق الأراضى المزروعة ، فوق منطقه بلبيس والاسماعيلية ، فالأرض تحتنا خضراء يانعة ، وهاهى الترع التى تتفرع من النيل تبدو فى الحقول كأنها لدقتها وكثرتها الشريانات التى فى جسم الإنسان. وكان بينها ترعة عريضة نسبياً ، كعرض الوريد إلى جانب العروق الأخرى فى أجسامنا البشرية ، وفى وسطها علامات بيضاء كأنها من ريش الطيور ففهمت أنها ترعة الاسماعيلية وأن ما أراه فيها ليس بريش طيور ، بل أشرعة السفن التى تسير فيها ، يا الله ما أسمى وأعلى ما وصلنا إليه بفضل عقول العلماء العظام الذين تعبوا لأجلنا واخترعوا لنا هذه الطيارات ، وقد بدت لنا خطوط السكك الحديدية تحتنا وهى تتلوى فى

إستدادها، ثم تأملتها ملياً فإذا بشيء يتحرك فوقها ، إنه قطار ، فلولا دخانه الذى جعله يشبه سيجارة مشتعلة وملقاة على الأرض ما رأيناه ولا شعرنا به ، وواصلت الطيارة صعودها حتى كدنا نظن أنها على وشك أن تصطدم بالسماء ! ها هي المدن والقرى تظهر تحتنا كأنها بيوت النمل ، والأرض تبدو كأنها سجادة مطرزة بكل لون بهيج .

قنال السويس

وهنا أقبل «المضيف» وقال: بعد دقائق سنكون فوق قنال السويس وبور سعيد وندخل سماء البحر المتوسط ، ثم سألنا عما نريد أن نشرب ، فإذا بالجميع يطلبون الماء ، ولا عجب لأن الخوف كاد ينشف منا الحلوق... فغاب المضيف دقيقة ثم عاد وهو يناولنا الماء ، وبعد ذلك طاف علينا بأكواب الشاى والقهوة وبعض قطع من الحلوى ، وحسناً فعل، لأن هذه الأشياء كانت مما يروّق الدم ...

تناولت ما أعطانى المضيف من تحف وأنا أدقق النظر إلى الدنيا التى نحن فوقها لأننا لم نعد فيها ولا من أهلها ، بل نحن الآن فى الملكوت الأعلى ! وأما الدنيا فقد رأيناها واسعة فسيحه لمن يريد العمل والخير ، وما أضيقها على الأشرار الذين لا يكفيهم ما فى أيديهم ، بل يتركون العمل فى أرض الله المتروكة بلا استثمار ولا تعمير ، ثم يذهبون إلى هنا وهناك لسلب ما فى أيدى الآخرين ، وهنا يقع الصدام والقتال والتذبيح ! وإلا فهل ضاقت الدنيا ببريطانيا مثلا ، التى يتغلغل شبانها بأسطولهم فى أنحاء المسكونة ومعهم الدبابات والمدافع والطيارات، لوضع الانتداب هنا ، وفرض الحماية هناك ، واحتلال المضيق الفلانى لحفظ الأرض الفلانية ، ومحاصرة البحر الفلانى لصون الجزيرة الفلانيه وذبح سكان المنطقة الفلانية حتى لا يعتدوا على الأمة الفلانية ، ومن لم يقبل ولم يقتنع بهذا « التطوع » لحفظ الأمن بين الناس وتعليمهم وتمدينهم، سلطت عليهم بريطانيا قذائف طياراتها ومدافع أسطولها ، تخرب البلدان وتدك العمران ، ثم ينطلق جنودها وبأيديهم «السيف والنار» يحرقون ويذبحون ويسلبون وينهبون ... فإذا قضوا على المخلوقات من أخضر ويابس ، وحى وغير حى ، سكنت فى رأيها الأمور وهدأت الأحوال ، وبذلك تقر عيونها ويستتب الأمن العام فى نظرها ...

لاأدرى لماذا أشغلت نفسى بهذه الأمور ونحن الآن فى غيرها... وكانت الطائرة ماضية فى سبيلها، إلى أن رأينا البحيرات المرة وبحيرة المنزلة تحتنا كأنها البرك الصغيرة التى تحف بالقرى البائسة بمائها الآسن، وفيها البط الأبيض، إنها سفن الصيادين وهى ألوف، إنها تظهر كعيدان الكبريت إذا ألقيتها على وجه الماء!

وظهر قنال السويس عن يميننا فى وسط الصحراء، كأنه خيط أزرق مُلق على قماش أصفر، خيط دقيق طويل من الماء، يمتد من الشمال إلى الجنوب، ورأينا فيه السفن التى تعبر القناة وهى تشبه لدقة حجمها جسم النملة عندما تمشى على خيط رفيع ...

الخلاص من انجلترا

الآن فقط بعد أن رأيت قنال السويس من الجو، عرفت السبيل الصحيح للتخلص من استعمار انجلترا لبلادنا، فمصر واقعة تحت نفوذه بسبب وجود قنال السويس فى أرضها، وبريطانيا قابعة على ضفته لتحمى طريقها إلى مستعمراتها، وما مستعمراتها إلا بلاد العرب وديار المسلمين، فإذا أردت أيها العربى وأيها المسلم أن تعرف سبب وجود بريطانيا فى مصر فاعلم أنك أنت السبب فيه، فلولا أنك تمكّن لبريطانيا من احتلال بلادك لتجعل منها مستعمرة ومزرعة، ومركز دفاع وهجوم على المخلوقات جميعاً، لما احتاجت هذه الدولة الشرهة إلى القعود فى مصر لحراسة الطريق المائى الذى ما بدأت المصائب تنصب على الشرق والدنيا بأسرها إلا منذ وُجد.

حرّر نفسك من الإنكليز أيها المسلم وأيها العربى الذى يسكن هذا الشرق، لأنك أنت الذى أغريت الاستعمار بقعودك وجبنك، وجرّأته على الاعتداء على الآخرين، بل أنت الذى خلقت الاستعمار باستخذائك. والدليل على ذلك أنه لا يوجد أقطار ولا ممالك تحت حكم الاستعمار إلا بلاد العرب وديار المسلمين. فإذا تقرر هـذا فإن حجة بريطانيا تسقط فوراً حين تقول إنها تتخذ قنال السويس خطاً دفاعياً عن الشرق خوفاً من روسيا، لأن البلاشفة يستطيعون تدمير قنال السويس بضربة هوائية واحدة.

مدينة محبوبة

ها نحن الآن فوق مدينة بور سعيد ، إنها كرقعة الشطرنج فى تخطيطها الذى يشبه المربعات ، ما أحلى بور سعيد ، إنها أول مدينة رأيتها من أرض مصر قبل أربعين عاماً ، فقد زرت مصر وأنا صبى ، وكان ذلك فى سنة ١٩١١ فنزلنا من السفينه القادمة من يافا إلى تلك المدينة الجديدة التى سميت باسم الخديوى سعيد باشا ، وكانت بور سعيد تمر من تحتنا ونحن فى الطائرة بسرعة البرق ثم تختفى عن عيوننا ، إذن فالأرض هى التى تتحرك لا نحن ، أليس إننا كنا نراها تمشى ونحن فوقها نركب الهواء ؟ لا يوجد دليل على أننا كنا نتحرك أبداً ، فالطيارة ساكنة هادئة مستقرة ، لا تهتز ولا تختلج ، ولا تعلو ولا تهبط ، ولولا دوى محركاتها واهتزاز آلاتها المتزنة المستمرة ماشعرنا إلا بأننا فى «سلة» مربوطة بخيط ومعلقة بالهواء، وانها ثابتة لا تتحرك ، فلو أن ماسك الخيط أفلته من يده لسقطت على الأرض التى نراها تمشى ، كأنها بساط يسحب من أطرافه ويجر فى وسط الصالون الكبير الفسيح ...

خواطر فى الهواء ...

أصبحنا بعد أن تجاوزنا بور سعيد نطير فوق البحر الأبيض ـ هكذا يسمونه ـ والحقيقة أن منظر أديمه يضرب إلى الزرقة أحيانا وإلى الاخضرار إن انقشع الغيم وسطعت الشمس ، وكان منظر البحر تحتنا يشبه ثوب الحرير التفتاه الأزرق المموج ، وما أجمل منظر الثبج الثلجى الأبيض المتحرك حين يبدو على سطح الماء ثم يختفى ، وكانت الطائرة تتواضع أحياناً للبحر الجبار فتهبط إليه قليلاً ، فيزداد جمال مانرى ، وكنا قد رأينا السفن التى تدخل قناة السويس وتخرج منها عند بور سعيد ، فكانت تشبه النمل فى حجمها ، مع أنه كان بوجد بينها بواخر من عابرات المحيط .. وهذا البحر المخوف لا تعرف هيبته والرهبة منه إلا إذا ركبت السفين ومخرت بك بين امواجه التى تشبه الجبال الزاحفة عندما يدرج بعضها وراء بعض ... أما إن التقت موجة بالأخرى ووقعت السفينة فى حضن الموجتين ، فأنت فى تلك اللحظة تعرف حقيقة نفسك وتؤمن بالله من شدة الخوف والروع ، وتذكر ما قاله الشاعر أحمد الصافى النجفى :

أدخل حمى الليث تعرف هيبة الأسد ...

وهنا جاء المضيف فرآنى أطل إلى الشرق ، نحو الساحل، أو ما كنت أتخيل أنه الساحل لأننا كنا لا نرى شيئاً ، فنحن فوق الماء وتحت السماء ، يلفنا هذا الأثير الذى لا نراه لقاحتى أصبحنا لا ندرى أين نحن ، هل الذى تحتنا هو السماء والذى فوقنا هو الماء ! اننا الآن فى غلاف لا ندرى ما هو ولا ما هى حدوده ، لأنه يُرى وهو فى الوقت نفسه لا يُرى ! ولولا بعض سحب كانت تبدو فى الأفق لما عرفنا أن السماء لا تزال فوقنا ... فقال المضيف وهو مشفق علىّ من حر الشمس على ماذا تتفرج ولا شىء يبدو من هنا ، فقلت إننى أبحث عن فلسطين ! فقال : الأن عرفت السبب فى ثباتك على احتمال هذا الحر ، فقلت له إن فلسطين كانت هنا وأنا أعرفها ، وكانت فى أيدينا فلم نعرف قيمتها ، ولكن لما اليهود ضربونا ، بل حين هربنا من اليهود وتركناها لهم ، أصبحنا نعرف قيمتها ، وصرنا نبحث عنها ونبكى عليها...

لولا فرار جيوش المنقذين ، الذين أنقذوا فلسطين ـ منا لا من اليهود ، ولولا الجبن والبخل والجهل ما أضعنا هذا الفردوس الذى سيحاسبنا الله والتاريخ على التفريط به حساباً عسيراً ، بل انه الآن يعاقبنا على تركه والهرب منه ، لولا ذلك لكان خط سيرنا بدون عوج ، من القاهرة الى دمشق على خط مستقيم، فنصل إليها فى ساعة بدلاً من ساعتين فيهما معنى الهزيمة والعار ، وما كانت هذه الطائرة وهى فى طريقها إلى دمشق بحاجة إلى التوارى والتهرب من سماء اليهود، ولذلك أصبحنا نمعن فى جو البحر المتوسط شمالاً ، ثم ندور إلى أن نصل إلى ساحل لبنان ثم ننعطف شرقاً إلى دمشق ، فياله من عقاب وياله من عار ، إنه لعقاب بسيط عاجل، وأما العقاب الحقيقى فهو قريب ، إنه سيكون يوم يستكمل اليهود تسليح القاعدة البحرية فى حيفا التى لا يوجد لها مثيل فى شرق البحر المتوسط ، ويوم يكملون صنع الكمية اللازمة « لنا » من الغازات الخانقة والسامة والقنابل الطائرة ، ولا ننس القنابل الذرية ...

السبب الحقيقى للنكبة

بل هى أسباب ثلاثة لا رابع لها : أولا أن العالم العربى كان بخيلًا على نفسه ، فلا يبذل ماله ليتعلم ويعرف قيمة بلاده ، وكان جباناً فلم يجعل حياة المستعمرين جحيما فى بلاده كما صنع الأرلنديون من قبل ، إننا نخاف من الموت ، كأننا لم ندر حتى الساعة أننا أصبحنا من خوف الموت فى موت ...

إننى أعرف أناساً من أغنياء العالم العربى كانوا يفضلون أن تظل ثرواتهم من بعدهم لخزائن الحكومات المستعمرة إن كانوا بلا ورثة ، أو يتركونها لأولادهم الفاسدين ولا يهون عليهم ترك شىء منها للمدارس مثلا ، وأغنياء يبخلون على الحركات الوطنية بجنيهات معدودة ، ويضنون على اللجان المجاهدة المكافحة بأجرة برقية إلى لندن بالشكوى من فظائع الإنكليز فى وطنهم ، وأعرف أناساً كان الواحد منهم يقتل جاره غضباً لكلمة لا تعجبه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يخاف على حياته من الإنكليز حتى ولو داسوه هو وأمته بالأقدام ، وأعرف أناساً من أغنياء العالم العربى كان يُطلب منهم التبرع لتسليح مجاهد ، أو للدفاع عن سجين وطنى ، أو لمنكوب من الفظائع الأجنبية فلا يدفعون له شيئاً ، ثم تراهم فى الوقت نفسه يتبرعون لجمعية الصليب الأحمر البريطانية فى لندن بآلاف الجنيهات ! بل إن خونة العالم العربى لا يزالون إلى الآن هم المبجلون . وإن الذين باعوا أرض فلسطين لليهود والذين اشتركوا فى جريمة ضياع فلسطين سياسياً وعسكرياً ، لا تزال جماجمهم فوق أكتافهم ، وكان الواجب أن نسمع أن الأمم العربية قد أخذتهم من نواصيهم وساقتهم إلى حيث يلقون جزاء ما جنته أيديهم ...

أين فلسطين ؟

كنت فى خلال توارد هذه الخواطر الأليمة ، لا أكف عن التحديق نحو الشرق ، أبحث عن شىء أراه من أرض فلسطين عساى أستطيع تكحيل عيونى برؤيته ؛ أو لعلى أرى أى أثر يدل على معالمها ، أو على شبح من أرضها على الأقل ، ولكنى لم أر شيئاً ولم ألمح شيئاً ، لأن الطيارة كانت تطير وهى بعيدة ... بعيدة عن ساحل فلسطين ، خوفاً من أن تقترب من جو يسيطر عليه اليهود .

انى أتذكر حديثاً شريفاً يقول إن أحب الأولاد عند الوالد هو صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يبرأ . وأما فلسطين فهى الصغير والمريض والغائب فى وقت واحد ؛ والغريب أن هذا العالم الإسلامى لم يشعر بغيبة فلسطين إلا بعد أن فقدها ، وهى عادة عند المسلمين قديمة ، لا يعرفون قيمة أقطارهم التى تضيع وفراديسهم التى يفرطون بها بإهمالهم — إلا بعد أن تفلت من أيديهم ، وعند ذلك تسمعهم يبكون وينوحون ويقولون

ما أجملها من بلاد ، وما أعظمها من أقطار ، وما أكثر خيراتها وما أخصب أرضها ! وهم في أثناء هذا النواح يخذلون بقايا أهل فلسطين الذين تشردوا ووفدوا عليهم ، بعد أن نكبوا بضياع الوطن والثروة وكل ما يملكون ، فلبنان يريد التخلص ممن عنده منهم ، ولو بدفعهم نحو مناطق اليهود . وسورية بدأت تتبرم بمن لجأ إليها من فلولهم وتمسك يدها عنهم . ومصر تحجز منهم في منطقة غزة الضيقة أكثر من ٣٠٠ ألف إنسان ، فلا هي تضمهم إليها ولا هي تمكنهم من الاتصال بالدنيا ، والحجاز يمنّ عليهم بتشغيل ألفين من الفلسطينيين ، مع أن الحجاز لم يشغلهم ، ولكن الأمريكان أخذوا الفنيين منهم فقط وشغلوهم في آبار البترول بأرخص الأجور . وأما اليمن فقد استأجر بعض المعلمين بأجر بخس ثم ادعى إنه يرحب بالفلسطينيين .. وأما بقية العالم الإسلامي فلا يهتم بمساعدة مئات ألوف الفلسطينيين المشردين الذين يموتون جوعاً كالذباب ، بل إني أستغفر الله مما قلت ؛ لأن الذباب يجد رزقاً عند أبناء آدم ، حتى ولو كان من الأدوية المهلكة للحشرات ! وأما الشهداء الأحياء من أهل فلسطين فإنهم لولا صدقات الدول الأجنبية لماتوا جوعاً .. بل ان الذين يموتون منهم بالجوع والأمراض لا يجدون أكفاناً ولا يجدون لهم قبوراً .. فيالفضيحة العالم الإسلامي ويالشماتة اليهود !.

حافظ ابراهيم

وفيما كنت أفكر في هذه المصائب إذا بمضيف الطيارة يجيء إلينا ويقول للركاب في آذانهم واحداً بعد واحد : بعد ربع ساعة سنكون فوق مدينة بيروت ، وبعد ذلك بنصف ساعة نكون فوق دمشق !

وكانت الطيارة في أثناء ذلك تشق الفضاء ، وكان أزيز محركاتها يكاد يصم الآذان بما تحدثه من ضجة وضوضاء برغم ما دسسناه فيها من قطن ، وعند ذلك جئت بقطن جديد بللته بالماء ثم وضعته في الأذنين ، فخفف ذلك من حدة دوي محركات الطيارة ، التي كانت لاتزال ماضية في سبيلها تصارع الهواء وتخترق حجب الأثير ، وهنا تذكرت قول حافظ ابراهيم في رثاء الطيارين التركيين فتحي وصادق:

أخت الكواكب مارماك وأنت رامية النسور
ماذا دهاك وفوق ظهرك مربض الأسد الهصور

ثم يخاطب الطيار فيقول :

ويلاه هل جزت الحدود وأنت مخترق الستور
فرماك حراس السماء وتلك قاصمة الظهور

هكذا وردت الأبيات على بالى بعد نحو أربعين عاماً ، وهى من عيون القصائد ، ولو كان ديوان حافظ تحت يدى لأوردت منها أبياتا كثيرة .

لبنان

وبعد قليل استدارت الطائرة إلى اليمين قليلاً واتجهت نحو الشرق ، ثم اندفعت إلى الأمام كالبرق الخاطف ، فإذا بشىء أسود يلوح فى الأفق كأنه الغمام ، ثم أخذ يكبر ويتضخم رويداً ، فإذا نحن أمام جبل لبنان ، إنه ليس بجبل ، بل هو عالم قائم بذاته ، إنه دنيا بعوالمها وناسها ففيه المدن والقرى والجبال والأودية والأنهر ، نحن الآن فوق مدينة بيروت حيث بدت تحتنا ظاهرة واضحة ، بتخطيطها وشوارعها وميادينها ومعاهدها وحدائقها وأرباضها ، لله ما أجمل بيروت ، إنها المدينة التى انبثق منها الاشعاع الفكرى فى الشرق الأوسط كله ، بكثرة مدارسها وجامعاتها وصحفها ومطابعها ومتاجر الكتب التى تزين أسواقها ؛ إنها بيروت المدينة الطروب المأنوسة التى لايمل الغريب الإقامة فيها ، إننى أعرفها منذ كنت طفلاً وحين كان العمال يعملون فى مد خطوط الترام الكهربائى فى شوارعها ، إنها المدينة التى كنت أسمع شيوخ الشباب أو شباب الشيوخ يغنون موالاً عنها لا أزال أتذكر مطلعه حين كانوا يغنونه شوقاً إليها .

بيروت دار الصفا والعزّ حاويها فاسرع إليها الخطا إن كنت هاويها

وبعد دقائق كنا نتفرج على مدن الاصطياف وهى منقوشة فوق الجبال وفى بطون الأودية وفى السفوح نقشا جميلاً ، بقصورها وحدائقها وغابات الصنوبر الخضراء التى تحف بها ، هذه مدينة الشويفات موطن الأمراء الإرسلانيين وفيها مثوى المرحوم الأمير شكيب ،

وهذه جبال الشوف ، وهذه مدينة عالية، وهذه بلدة عبيه، موطن فؤاد حمزة الصديق القديم ، وهذه بحمدون وهذه صوفر ، وهناك حمانا وفالوغا وضهور الشوير والخنشارة وجبل الكنيسة وظهر البيدر ، ها هو جبل صنين يلوح على شمالنا كالعملاق الجبار الذى لا يبلغ الطرف أعله ، بل يرتدعنه وهو كليل، إننا الآن فوق المريجات وزحلة وسهول البقاع ، بقاع العزيز الشهيرة بجمالها وجلالها ، ونهر الليطانى الذى يتلوى فى أوديتها وبين حزونها ، ها هو «جبل الشيخ» السورى ، الذى ينافس « جبل صنين » اللبنانى ، بسموه وارتفاعه وجمال الثلوج التى تتوجه صيفاً وشتاء ... وهذه جبال فلسطين على يميننا ، هذا جبل الجرمق الذى هو أعلى جبال فلسطين يلوح من بعيد ، وتلك جبال صفد ، مدينة صبحى الخضراء، التى أخذنى إليها سنة ١٩٣٥ ثم أصعدنى إلى جبل كنعان المطل على سورية والذى أخشى أن ينصب عليه اليهود مدافعهم الضخمة البعيدة المرمى يوما ما ، ويصوبونها نحو مدينة دمشق نفسها ...

وهذه بعلبك مدينة خليل مطران شاعر القطرين على شمالنا ، وهذه رياق تحتنا بمطاراتها والخط الحديدى العريض الذى ركبته قبل ٣٦ عاما إلى بعلبك ومعبد الشمس فيها ، وحمص وميماسها ، وحماه ونواعيرها ، فحلب الشهباء الحمدانية وبساتينها ومغانيها ، إنه لملك طويل عريض وجنة فيحاء فقدتها فرنسا بسبب حمقها وبفضل صلابة عود أهلها ، وصبر أبطالها ، وبفضل طمع بريطانيا فيها أيضاً ... لأنى أعتقد أنه لولا أن فى خاطر انكلترا الاستيلاء على بر الشام كله ما كانت تدخلت سنة ١٩٤٥ بينه وبين فرنسا ولا أرغمتها على مغادرته بقضها وقضيضها ، وفظائعها ومنكراتها وأوزارها ...

فإذا كان أهل سورية ولبنان يظنون أنهم أفلتوا من الاستعمار إفلاتاً أبدياً فإنهم لفى ضلال ، لأن الإنكليز دائما على الأبواب ، وهم للمتخاذلين بالمرصاد ... وليعلم أهل الشرق الأوسط أنه لولا خوف الإنكليز من تحرك روسيا عليهم أن مدوا أيديهم إلى بر الشام « أى سورية ولبنان معا » وأخلوا بالتوازن العسكرى فى شرق البحر المتوسط ، لولا الخوف من الروس الحمر ، لزحف الإنكليز الشقر على البر الشامى ، إما من العراق متنكرين وراء من فيه «من بعض الناس» ليحققوا مشروع «الهلال الخصيب» أو أطبقوا على سورية

ولبنان من جهة الأردن مستترين خلف عباءة الملك عبد الله ...

ومع ذلك فإن الإنكليز لاينفكون بعد أن فقدوا الهند عن التطلع إلى الساعة التى تمكنهم من مداهمة بر الشام لتصفوا لهم الجزيرة العربية بأسرها ...

أخبار وذكريات

وهنا طاف بنا مضيف الطيارة وبيده « نشرة أخبار » إنها نشرة مرصد الطائرة ، فقرأنا فيها إننا سنصادف جواً ممطراً وسحاباً كثيفاً، وإننا على ارتفاع كذا من ألوف الأمتار وفى الحقيقة اننا كنا نحس بالطائرة وهى تبالغ فى الصعود إلى السماء، فكنا نشعر بها وهى تنهد إلى الجو الأعلى نحو الأفلاك نهداً متتابعاً ، ثم صرنا نحس بضيق فى التنفس لشدة الارتفاع حتى لكأن شيئاً كان يضغط على صدورنا ! ولكننا كنا مع ذلك نتطلع إلى الجبال السامقة ـ التى كانت فى نظرنا كذلك ونحن على الأرض ـ وأما الآن فهى تحتنا ذليلة معبدة، هذه « مجدل عنجر » حيث وقع الاشتباك بين الجيش السورى والجيش الفرنساوى سنة ١٩٢٠ عند ما شرع الأعداء فى الزحف على دمشق لإزالة الدولة العربية المستقلة ، وهذه « ميسلون » حيث كانت المعركة الأخيرة التى قضى فيها على بقية جيش الاستقلال بعد أن وقف وزير الحربية السورى الشهيد يوسف العظمة يحاول بنفسه صد العدو عن بلاده ، فظل يقاتل الأعداء ويطلق عليهم النار إلى أن سقط شهيداً .

وقد لحظت أن جبال سورية وسهولها لم تكن يانعة كجبال لبنان ، ولا تحاكيها فى خضرة غاباتها ، لأن فرنسا كانت لا تدع فى تلك الربوع عمراناً إلا دكته ، ولاأشجارا إلا أحرقتها، ولاقرية إلااعتدت على أهلها ونسفتها بالمدافع الجبلية، ولذلك كان أهل القرى يقطعون الأشجار بأيديهم ويبيعونها حطباً، حتى لايحرقها الأعداء فتذهب هدراً ... لقد لقيت فرنسا من السوريين عداوة عنيفة وحفاظاً وطنياً مراً، ومقاومة ما كانت تخطر على بالها ، ولذلك كانت تنتقم منهم بالتذبيح والتقطيع والتدمير ونشر الخراب والدمار ...

إن الطائرة لا تزال تطير .. هذه أودية الزبدانى ومصايف بلودان قد ظهرت من بعيد ، يا الله ما أجلها وما أبدعها ، هذه خطوط السكك الحديدية وطرق السيارات قد بدت تحتنا وهى تتلوى فى سيرها ومتجهة نحو دمشق ، وكانت هذه الطرق التى تخترق الأودية تظهر

للعين كأنها الخيوط الدقيقة الملقاة بين الشوك، تظهر من هنـا وتختفى من هناك ثم تظهر مرة أخرى ، وقد لمحنا السيارات تدرج تحتنا وهى فاحمة سوداء كأنها الخنافس التى يعبث بهـا الأطفال ! .

طعم الموت ...

إنها المناظر خلابة جميلة لا يمكن أن تنسى ، وإذا بخاطر مخيف رهيب يمر ببالى ، وهو أننى قلت فى نفسى آه ما أبهظ الثمن الذى ندفعه لو سقطت بنا هذه الطيارة فى مقابل سطونا على حرمة الجبال ومهابة البحار وجعلها دون أقدامنا ! ومن طلب الحسناء لم يغلها المهر ... وفيما كنت أتخيل السقطة كان هذا الخيال الذى أنا فيه لا يزال ينغص علىّ لذة ما أنعم به من متعة للفكر وقرة للعين ، وإذا بالقدر الغادر يفعل بنا فعلته ، فقد سقطت بنا الطائرة بغتة ـ سقوطاً سريعاً ـ لا هبوطاً ـ فاستسلمنا للقدر وأغمضت عيناى ولم ألفظ إلا كلمة واحدة وهى «يا لطيف !» وقد ذقت فى تلك اللحظة طعم الموت ، ولم أستفق إلا حين شعرت بخبطة على رأسى وشكرا للطربوش الذى تلقى الصدمة فانكبس فوق رأسى وانطبق بعضه على بعض ، ثم سقط الركاب عن مقاعدهم وارتطموا بأرض الطائرة ووقع الفزع الأكبر بيننا جميعاً .. ولكن الطائرة سكنت بعد أن اعتدلت ثم مضت فى سبيلها .. وكانت حقائبنا الصغيرة قد سقطت أيضاً عن الأرفف وتناثرت فوقنا وفى أرض الطائرة ، فياله من هلع ! ويكفى أنه فزع الموت ... وهنا خرج إلينا مساعد الطيار يهدىء من روعنا ويقول «إنها جيوب هوائية شديدة لا أقل ولا أكثر» وقد حدقت فى وجه مساعد الطيار الذى كان يهدئنا فإذا هو أيضاً ممتقع الوجه مثلنا وكان منخلع القلب ، مخطوف اللون ، وكانت الحروف تخرج من شفتيه مهتزة مضطربة ...

وأما الطائرة فإنها كانت ماضية فى طريقها المرسوم ... وأما نحن ركابها فقد كنا فى سكوت مطبق ، لا يلتفت أحد منا إلى جاره ، لأن الذى ذقناه من هول الموت كان يستحق هذا الوجوم ..

اكفهرار الجو والمطر والسحاب

وفى هذه اللحظة شعرنا بالطائرة تتخذ أسلوب الصعود السريع ، ثم اكتنفتنا جبال من السحب ، وما عدنا نلمح شيئاً لكثرة ما أحاطنا من غيوم كثيفة ، حتى لكأننا لففنا بالقطن

الأبيض لفاً ، ثم اشتد ضغطه علينا وكان المطر يهطل ، وهنا اشتد الظلام فأضيئت الأنوار فى داخل الطيارة ، كما أن الطيار أطلق الضوء الأمامى الكشاف ليرى ما أمامه ، أو لعل من يأتى نحونا يلمح تلك الأضواء فيتنكب سبيلنا ولكن هيهات ، ثم بالغت الطائرة فى صعودها ونحن نظن إننا على وشك أن نصطدم بجبل مرتفع أو بطائرة عابرة ، فإن وقع لنا هذا الحادث قال من فى الأرض ما أحمق هؤلاء الذين ضاقت بهم السماء بعد ما ضاقت بالناس الأرض!

وواصلت الطائرة صعودها نحو الجوزاء، إلى أن علونا السحاب الذى كان ينزل علينا ذلك المطر، فإذا بالشمس لا تزال تلمع فى سمائها، وأصبح الغيم الأبيض تحتنا كأنه العهن المنفوش أو الحقل الأبيض المبسوط، إنه لبحر فضى متحرك الأمواج! وبعد لحظة رأينا أنفسنا تحت هذا القطن ، ثم ابتعدنا عنه فإذا بنا فى جو صاف والشمس مشرقة بنور الله .

هنا دمشق

وبعد دقيقة واحدة أصبحنا فوق جبل قاسيون الشهير ، الذى يحتضن العاصمة السورية ويحنو عليها من الشمال، ثم بدأت الطائرة فى الهبوط قليلا قليلا ، هذه دمشق الشام أقدم مدن الأرض أصبحت تحتنا. بغوطتها الغناء التى لا مثيل لها فى الدنيا ، ببساتينها وربوتها وحدائقها وزهورها وجمالها ، ها هى المدينة الخالدة قد وضحت للعيان تمام الوضوح ، نحن الآن فوق الجامع الأموى وفوق الدرويشية وساحة المرجة ، هذا نهر بردى يشق المدينة ، إنه لنهير ولكن صيته ملأ الأرض بفضل حسان بن ثابت وقصيدته فيه ، فقال لى رفيق مصرى خفيف الروح : « أهذا هو نهر بردى الذى «دوّشنا» به الشوام منذ قال حسّان إنه يصفق بالرحيق السلسل! والله يا أخى إنه لا يساوى عندنا فى مصر سلسولاً أو « بزبوزاً » بالنسبة إلى النيل ! إيه الكلام ده ! » فقلت له إن حسّان جاء من الصحراء ولم ير الأنهر قبل ذلك ، فلما رآه وارتوى من مائه المثلوج بعد العطش ، هتف بما هتف به فى شعره عن الرحيق السلسل!

وأخذ الطيار — وإنى أشهد له بسلامة الذوق — يطوف بنا سماء المدينة كأنه يقول لنا : تفرجوا ومتعوا أنظاركم، وسبحوا الله على ما خلق من جمال، فهو جميل يحب الجمال، ثم أخذ يهبط وهو يدور ، هذه دمشق تحتنا من أولها إلى آخرها، بقصورها وقبابها وفخامتها ،

هذه الغوطة هناك، وهذاسقف سوق الحميدية وسقف سوق مدحت باشا وسقف سوق الحرير والبزورية، هذهقلاع «المزة» التى كان الإفرنسيون يعتصمون بها جبناً وخوفاً، ثم يطلقون منها المدافع على دمشق، ياويلهم ماأقسى قلوبهم وأغلظ أكبادهم! كيف طاوعتهم إنسانيتهم على رمى هذه الجنة بقذائف المدافع ، إن هذه القلاع قد خلت الآن من فرنسا وأصبحت فى أيدينا ، ولكنها أصبحت سجوناً وياللأسف ، ففيها حبسوا شكرى القوتلى ، وفيها يحبسون الآن أمين رويحة ، ولا أدرى من سيحبس فيها بعد ذلك ...

كانت الساعة حين كانت الطائرة تهبط إلى المدينة ساعة الأصيل ، وهى نفس الساعةالتى قال شوقى أمير الشعراء عنها وهو يدخل دمشق :

دخلتك والأصيل له ائتلاق ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جنانك الأنهار تجرى وملء رباك أوراق وورق

بعد العالم العلوى

وهنا أخذ المضيف يطوف علينا ويوصينا بعدم التدخين ، وأن نربط الأحزمة على وسطنا، لأننا سننزل وشيكاً ، وبدأت الطائرة تهبط من عليائها وتنزل إلى العالم الأرضى ، وكانت تهبط ببطء متدرج ، رويداً رويداً . ها نحن فوق المطار تماماً ، ها هى الطيارة تمشى على الأرض ، ها هى تقف أمام أبنية لطيفة جديدة ، وكان بعض الناس ينتظرونها ، من موظفى جوازات وعمال جمرك وشرطة ووكلاء شركة الطيران وبعض الحمالين . فقام كل منا يفك الحزام وتسوية ملابسه ثم يتناول أمتعته الخفيفة وينزل ، الواحد بعد الآخر ..

فإذا بى وجهاً لوجه أمام أخى صبحى الخضرا، ومعه صديق السيد سالم الحسينى المقدسى المتخصص بالآثار،والنازح عن وطنه مثل صبحى مع ٥٠ ألف فلسطينى من الذين نكبوا بالجلاء عن وطنهم ولجأوا إلى مدينة دمشق وحدها ...

إلى المدينة الخالدة

قلت لصبحى : كيف جئت وجشمت نفسك هذا التعب، وأخى السيد سالم كيف عرف بمجيئى ! فقال صبحى إن فندق الأوريان لا مكان فيه ، وقد وجدت لك فندقاً جديداً من درجته وهو يفضل الأوريان بأنك تستطيع إخفاء نفسك فيه عن الناس لأنه فندق جديد لم

يدر به أهل دمشق ! وبذلك تكون حراً فى حركتك أكثر من الاوربان ، وأما الأخ سالم فقد كان معى عند بحثى عن الفندق وكان لى خير معين .

وغادرنا المطار بعد إجراءات الجمرك والجوازات والصحة التى لم تستغرق أكثر من دقائق ولا غرو فإن دماثة أهل دمشق وحبهم للضيوف من أبرز صفاتهم التى يتوارثونها كابراً عن كابر

الجمارك فى مصر

وهنا تذكرت شيئاً عما كان يلقاه القادم إلى مصر من متاعب مع رجال الجمرك ، فقد كانوا فيما مضى يحققون ويدققون، وينبشون الملابس ويفتشون الجيوب، ويرهقون المسافر بالمكوس وهى عادة قديمة كانت متبعة فى جماركنا ، فقد روى الرحالة ابن جبير الأندلسى فى القرون السالفة أنهم ضايقوه فضج منهم وشكاهم بقصيدة مشهورة أرسلها للسلطان صلاح الدين الأيوبى ملك مصر والشام .

واننى بهذه المناسبة أذكر حادثة وقعت لى معهم قبل عشرين عاما فى جمرك القنطرة فكانت عجباً ، وذلك أن موظف الجمرك أراد أن يأخذ مكوساً على العصا التى فى يدى ، وعلى الساعة التى فى جيبى، وعلى علبه السجاير الفضية التى أحملها وأضع فيها سجايرى ، وعلى المسبحة التى لا تفارقنى، ولما ضايقنى هذا الرجل صحت فيه؛ وقلت له إذن فاطلب أيضاً مكوساً على ملابسى التى أرتديها وعلى الحذاء الذى أنتعله ! ثم ناديت رئيسه وعاتبته، فوبخ مرءوسه فتركنى ولكنى لم أترك هذا الأحمق إلا بعد أن راجعت مدير الجمارك العام فى أمره فنقله إلى جهة أخرى لا علاقة لها بأمور التفتيش ...

كان هذا فى الماضى ، وأما الآن فإننى لاأستطيع الادعاء بأنهم يضايقون أحداً ، إلا إذا كان العابر مشبوه الشخصية أو مجهول الهوية ، ورجال الجمارك لهم نظرة فى المسافرين تصدق غالباً، وحساسية قلما تخطىء ، فكم من عابر تركوه بلا تدقيق، وكم من متظاهر بالوجاهة فتشوه وأضجروه . ومادمت فى سيرة جمارك مصر فلا يسعنى إلا أن أشهد لرجالها بأنى لم أشعر منهم بمضايقة منذ عشرين عاما ، لأن إدارة الجمارك أصبحت تنتقى رجال التفتيش من الأشخاص الدمثين المهذبين، إلا إذا شعروا بأن المسافر يكتم مامعه ويكذب عليهم، أو يريد أن يستغفلهم وعند ذلك لا يلومن إلا نفسه ...

دمشق

حادث

وفيما كانت سيارة السيد سالم الحسيني منطلقة بنا نحو المدينة وكانت الشمس قد غربت منذ دقائق ، إذا بكمين من الجنـد يخرجون من خندق بشكل مباغت، ويعترضون طريقنا صفاً كأنهم أسنان المشط ، فوقفت السيارة بعنف وشدة نخضتنا فيها خضاً ، وقبل أن ننزل لنرى سبب هذه الهجمة التي تشبه خروج قطاع الطرق على المارة في الجبال المقفرة ، إذ بسيارة عسكرية تمر بنا مسرعة فمست سيارتنا وقشطت بروازها وهي منطلقة ، فلو زادت في هذا اللمس شعرة واحدة لأصبحنا كلنا هشيماً !

ونزلنا من السيارة ونحن نرفع الأيدي علامة الاستسلام ، كما كان أهل شيكاغو يرفعون أيديهم مستسلمين للسادة الاشقيـاء الكبار ، وعلى رأسهم « أل كابونى » وزميله الشهير القبضاى « دلنجر » ...

وتقدم الينا رئيس أولئك الذين يلبسون لباس الجند وحدق في وجوهنا قليلا ثم ألقى نظرة على ما في داخل السيارة ، وبعد ذلك تقدم إلينا وقال « ما في مطارح معكون تاخدونا للشام » ...

أما نحن فلم نجاوب هذا المجنون الذى لا يعرف كيف يرجو العابرين مساعدته على الوصول للشام ، ولذلك تركناه هو وجنوده ومضينا في سبيلنا ...

إنها لغلاظة مافى ذلك شك ، يعنى : حسنة لله وأنا سيدك ! إنه ازعجنا وروعنا . فوق انه كان السبب في تشويه أطراف السيارة ، حيث كادت السيارة العسكرية الهوجاء تمزقنا إرباً!

دار فيصل

قال صبحي ما هذه « الجيّة » لقد تعجبت منها . وإلى أين نذهب بعد الفندق ، فقلت بل قبل الفندق ، هيا إلى القصر الجمهورى أولا . وهناك دخلنا قصراً في حي الصالحية ، إنه « قصر الملك » في أيام فيصل سنة ١٩١٩ – ١٩٢٠ وهو الآن مقر رياسة الجمهورية، فدخلناه ونحن نحسب أننا سنلاقى جنداً وحرساً رهيباً ، ولـكننا لم نجد إلا أربعة من الجنود يقفون بالباب ، وأما القصر فإنه لا يزيد عن أية دار من دور الأعيـان القديمة في أحياء العباسية

والحلمية والسيوفية بالقاهرة ، فقابلنا رئيس الجنود باحترام ولطف ، وقادنا إلى غرفة صغيرة فيها مكتب بسيط وعليه دفتر لكتابة أسماء الزائرين الذين يريدون تسجيل أسمائهم فى « دفتر التشريفات » فكتبت اسمى فقط واسم البلد الذى جئت منه ، فقال رئيس الحرس إنك نسيت أن تذكر صفتك ومنصبك ، فقلت له لا صفة لى ولا منصب ...

عونى عبد الهادى

وهنا تذكرت حكاية كان سؤال ضابط الحرس سبب ورودها على بالى حين سألنى عن صفتى ومنصبى ، وذلك أن المجاهد الفلسطينى السياسى عونى بك عبد الهادى كان قد أبعد عن فلسطين سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ فجاء الإسكندرية واستأجر فيها داراً ، وكتب المؤجر عقد الإيجار مفتتحاً ديباجته بالصيغة الآتية : قد أجرت حضرة صاحبة العصمة السيدة فلانة هانم حرم المرحوم صاحب المعالى فلان باشا وكريمة حضرة صاحب السعادة فلان باشا الدار الفلانية إلى ...

وهنا التفت كاتب العقد إلى عونى بك وسأله عن صفته ومنصبه ليدرجهما فى العقد . فقال له عونى بك اكتب يا حبيبى : قد أجَرْتُ إلى المتشرد المنفى المبعد وأحد أرباب السوابق المدعو عونى عبد الهادى من فلسطين !

فاندهش الرجل من هذه الإجابة وظن أن عونى بك الوجيه المظهر ـ والذى كانت سيارته الخاصة تنتظره بالباب ـ قد أصيب بمس ! فقال « كلام إيه ده يا بيه ؟ » فقال عونى طبعاً يا سيدى ... لكم ألقابكم ولنا ألقابنا !

رياسة الوزراء

وغادرنا القصر الجمهورى إلى فندق سميراميس حيث وضعنا الأمتعة، وكانت الساعة حول السابعة مساء ، فقلت لصبحى بك دعنى الآن وشأنى ، وإن شاء الله سنلتقى غداً ! فاندهش من كلامى أكثر من دهشته لمجيئى من مصر، فقال يجب أن نتعشى ونتحدث أولا وبعد ذلك نفترق ، فقلت له كلا ، فلا عشاء ولا حديث لأننى متعب وأحب أن أمشى فى الشوارع

منفرداً إلى أن يأخذنى النعاس فأنام ... وانصرف صبحى فى حاله وهو مستغرب هـذا المسلك منى ...[١]

فلما انصرف ذهبت إلى رياسة مجلس الوزراء أسأل عن دولة الدكتور ناظم بك القدسى رئيس الحكومة لعلى أجده ، فقيل لى إن مجلس الوزراء منعقد الآن ولا يدرون متى ينفض ، فأخرجت بطاقة وسطرت عليها كلمات قلت فيها لدولة الرئيس إننى وصلت الشام وإنى مشتاق إليه وذكرت اسم الفنـدق وتركت البطاقة مع رئيس حرس الوزارة بعد أن رجوته تقديمها لدولته بعد ارفضاض المجلس .

تحريات

ومن هناك مشيت إلى مكتب صديق جميل بك الجابى المحامى الكبير ، فرحّب وأهّل ، فسألته عن قضية الدكتور أمين رويحة فشرحها لى شرحاً ضافياً ، ثم ودعته وذهبت إلى دار الدكتور أمين وكنت أحتفظ بعنوانها ، فنزلت من سيارة التاكسى وصرفتها ثم جعلت أطوف حول الدار ولـكنى لم ألمح فيها بصيصاً يدل على الحياة ، الشارع مقفر والدار مظلمة ، فطرقت الباب الخارجى فإذا هو مفتوح ، فدخلت ، ثم ضغطت جرس الباب الداخلى فلم يجبنى أحد ، فطرقت الباب طرقاً شديداً وإذا بصوت من شرفة مجاورة يقول إن الدار خالية وان أمين فى السجن ، وأولاده فى المدرسة ببيروت ، وأما قرينته فإنها مريضة وموجودة بمستشفى « العاصمة » ...

فرجعت أدراجى وأنا محزون ومتأثر وأقول فى نفسى : حسبي الليلة هذه المعلومات ، ولا حول ولا ...

ذكريات

وانطلقت فى شوارع دمشق وأسواقها أمشى فيها على غير هدى ، هذه طريق الصالحية التى أعرفها من زمان ، وهذا نهر « بردى » الذى هو عبارة عن مجرى قليل العرض ، والذى لا يزيد عمق الماء فيه على أكثر من نصف متر ولـكنه شديد الجريان ... حاولت أن أسمع

(١) تعمدت عدم إشراك صبحى فى مهمتى حتى لا أحرجه أمام حكام بلد هو ضيف فيه ، ولو فى نظرهم .

تصفيق أمواجه المزعومة ولـكني لم أسمع شيئاً ولم أرَ شيئاً .. وهنا ترحمت وترضيت عن سيدنا حسان بن ثابت ...

واجتزت جسر فكتوريا ومررت بدار رياسة الوزراء مرة أخرى وأنا فى طريقى إلى ساحة المرجة ، إن دار الرياسة هى مقر الوالى العثمانى فى أيام الدولة العلية ، وكنت أعرفها من قبل ورأيت عندها موكب « عارف بك الماردينى والى سورية » ...

ومضيت فى طريقى إلى الشوارع المحيطة بساحـة المرجة اللطيفة التى يتوسطها العمود التذكارى البديع وكنت أعرفه من زمان ، إذ أقيم عند افتتاح الخط الحديدى الحجازى ، وقد رأيت فسقية ماء رخامية تحيط بالأثر التذكارى، وهى حديثة بالنسبة إلىَّ ، لأنها لم تـكن موجودة يوم آخر عهدى بدمشق .

ساحة الشهداء

هذا هو الاسم الذى كان يجب أن يطلق على ساحة المرجـة التى شهدت مصرع شهداء سورية حين أعدمهم جمال باشا سنة ١٩١٥ ـ ١٩١٦ عند الفجر شنقاً ، رحمهم الله ، كما أن هذه الساحة قد شهدت بعد ذلك بعشر سنين جثث ٣٠٠ شهيد سورى قتلهم الافرنسيون غدراً سنة ١٩٢٥ وجاءوا بجثثهم فى عربات النقل ثم طرحوهم أرضاً بعد أن شوه الجنود الافرنسيون وجوههم وحطموا جماجمهم ومثلوا بهم . وقد أرادت فرنسا أن ترهب السوريين بهذه المظاهرة الوحشية ، فكانت النتيجة أن الثورة قد اتسعت وشملت سورية كلها ، وبعد ذلك دفعت فرنسا ثمن ما اجترحت ، وهو تتابع الثورات خمسـة عشر عاماً ، ثم أخرجت من سورية كلها !

فنادق الأمس وبراغيثها

تجاوزت بناء الفندق الجديد الذى نزلته منذ ساعات وطفت الشوارع المحيطة به ، إننى أعرفها يوم كانت قديمة رثة، وهى الآن جديدة ذات أبنية ضخمة ، ومررت بسوق الخيل حيث كانت الفنادق القديمة الرخيصة تملأ تلك المنطقة ، وإنى لا أزال أتذكر أحدها حين نزلت فيه بعد أن غشنى الذى دلنى عليـه وغرنى مظهره ورخص أجرته ، فلما استلقيت على السرير لم

أستطع نوماً ولا استقراراً . لأن البراغيث فيه كانت « تتأجج » إذ لا يكفى لوصفها أن أقول إنها كانت تتسلل وتتنطط ... وأما البق فكان والعياذ بالله يمشى صفاً وراء صف ، وكان بعضه يلقى نفسه علىّ من السقف ...

فلم يسعنى إلا أن جمعت ملابسى ودفعت الأجرة وهرولت من ذلك الجحيم بعد منتصف الليل إلى فندق « دار الفرح » بشارع السنجقدار ، وقد بحثت عنه هذه المرة بعد ستة وثلاثين عاماً فلم أجده ، لأنهم هدموه وأقاموا فى مكانه عمارات جديدة ...

إن فندق « دار الفرح » لا يوجد له مثيل فى أيامنا هذه ، إنه دمشقى الطراز والطابع ، ولا تشعر فى غيره إنك فى دمشق ، وإنى أتذكره كأننى أراه بعد ستة وثلاثين عاماً ، مدخل لطيف ، ساحة مبلطة تتوسطها بركة ماء ذات «شادروان» ـ وهم فى الشام يسمون البركة بحرة ، وهذه أشجار النارنج والزهور تزين ساحة «دار الفرح» وهناك مقاعد متناثرة ونمارق مصفوفة ، وهاهم النزلاء يملأون الصحن ، يشربون الشاى والقهوة والمرطبات الدمشقية ، ويدخنون التنباك « بالأراكيل » أى الشيشة .. ويالله ما أبدع الشيشة فى دمشق . وأما غرف النوم فكانت فى الطابق الأعلى ، وكلها مطلة على ساحة الفندق وما فيها من مياه متدفقة ، وأشجار مثمرة وارفة الظلال ، وزهور متنوعة يتضوع عبيرها وينتشر أريجها ...

رئيس الوزراء

ورجعت إلى الفندق فوجدت فيه إشارة تلفونية من رياسة الوزراء تقول إن دولة الرئيس سينتظرنى صباح الغد فى وزارة الخارجية .

وفى الصباح الباكر جداً كنت أتجول فى حى « أبورمانة » وهى منطقة حديثة جديدة كانت فى الأصل بساتين ومزارع لأسرة بهذا الاسم ، وكانت قصور هذا الحى الأنيقة وشوارعه المتسعة النظيفة تشبه الحى الجديد الذى نراه الآن فى الضاحية الجنوبية الشرقية بمصر الجديدة .

وفى حى «أبو رمانة» تقع السفارات والمفوضيات ، فحددت أولاً مكان المفوضية المصرية ، ثم دار الدكتور أمين رويحة ، فدور الأحباب القدماء كالأستاذ الشيخ كامل القصاب ، فدار الدكتور صبحى بك أبو غنيمة الزعيم الأردنى نزيل دمشق ، ودار الشيخ عبد القادر المغربى ،

فستشفى العاصمة حيث تنزل فيه قرينة الدكتور أمين ، وفى خلال ذلك عرفت الدار الخاصة التى يسكنها فخامة رئيس الجمهورية وهى نفس الدار التى كانت لحسنى الزعيم ، ومنها أخذوه بغتة إلى القتل ، وليس فقط للعزل من رياسة الدولة ... لا أعاد الله ذلك الحادث ولا كرر أمثاله

وفى الساعة التاسعة تماماً ـ وهو الموعد الذى حدده رئيس الوزراء لمقابلتى كنت أقدم بطاقتى لسكرتير ناظم بك الذى كان فى الوقت نفسه وزيراً للخارجية . وبعد دقيقة كنت مع دولة رئيس الوزراء وحدنا .

حديث مع ناظم بك

لما فكرت فى الاجتماع برئيس الوزراء كان كل همى أن أرى بعد ذلك العقيد أديب الشيشكلى قائد الانقلاب الثالث والحاكم بأمره فى سورية ، ولكنى لا أريد أن أطلب مقابلته رأساً ، حتى لا يضعف هذا الطلب موقفى ، بل إنى لا أريد أن أجتمع به على يد شخصية عادية ... وكنت أحب أولاً أن أرى الدكتور أمين رويحة فى سجنه ، فهذا الطلب أيضاً ليس من الهين الوصول إليه بعد أن منعوا المحامين من الاتصال به ليساعدوه فى أثناء التحقيق[1] ولذلك نويت أن أجعل حديثى مع رئيس الوزراء على صورة تجعله هو الذى يعرض علىّ ما أريد ...

فلما جلست معه تحدثنا فى بادىء الأمر عن المسائل المحلية وفى شئون مصر ، ثم فتح هو حديث الضجة التى قامت فى القاهرة بشأن الدكتور رويحة وأكد لى أنه لم يقع تضييق عليه ولا أسيئت معاملته ، وأن تلغرافاً قد وصل إليه وأنه أمر أسعد محفل القائم بالأعمال بالقاهرة برقياً بأن يبلغنى ذلك منذ يومين مع تحياته ، فشكرته وقلت له إن أسعد محفل صادفنى أمس بالمطار وأبلغنى ذلك مشافهة لا كتابة ، ثم قلت لدولته : أنا أصدقك بلا شك ولكن ما الفائدة

(١) لما وقع ملف التحقيقات فى يدى بعد ذلك رأيت فيها ما يثبت هذا الحصار على جميع المتهمين ، فقد كان المحقق يذكر فى مقدمة كل استجواب العبارة الآتية : « لم يحضر محام مع المتهم لضيق الوقت . . . » وهذا غير صحيح لأن الوقت الذى اتسع لتعذيب المتهمين وتلفيق التهم لهم كان يتسع لإحضار المحامين وهو حق كفله القانون للصوص وقطاع الطرق ، فكيف لا يتسع هذا الوقت فى قضية كبرى يراد منها أخذ رؤوس جماعة يوجد فيهم زعيم كبير ووزير سابق .

من هذه التأكيدات السياسية مشافهة هناك ، أو هنا ونحن بين أربع حيطان، فى حين أن جرائد الدنيا قد أجمعت على كون الدكتور أمين قد ظلم وأسىء إليه، فرجع ناظم بك يؤكد، وأنا أتشكك ، ثم استشهدت بجريدة بردى الدمشقية فإنها ذكرت فى مقال افتتاحى كتبه الأستاذ منير الريس « قبل هربه من دمشق » تحت عنوان « وإخجلتاه من التاريخ » أن أمين « قد أسيئت معاملته فى الحبس وإنه أهين وضرب » وبقيت أضايق دولة ناظم بك وأجادله إلى أن ضاق بهذا الحوار ولم يجد طريقة لإقناعى ببراءة الحكومة من تهمة الإهانة والضرب فى السجن إلا أن يعرض علىّ زيارة أمين فى سجنه لأرى الحقيقة بعينى ...

ولما وصلت إلى هذه النقطة من النجاح وضمنتها لأنها أصبحت فى قبضتى وهى أهم دافع جاء بى إلى دمشق، أحببت أن أغتنم الفرصة لأصل إلى الغرض الثانى مع الأول دفعة واحدة ، فقلت لناظم بك إن رؤية أحد طرفى الخصومة لا يكفى فحبذا لو نسمع الطرف الآخر المجنى عليه فقال هل تقصد الاجتماع بالعقيد الشيشكلى ؟ فقلت لا بأس وان ذلك ليسرنى ، فقال: ستقابله أيضاً وسأخبرك عن موعد المقابلتين ، فودعته على أن نلتقى مرة أخرى، وقد لحظت أن الرجل كان صريحاً وصادقاً وانه كان يعتقد ما يقوله، فهو يعد فى سورية من الشخصيات الوقورة المتزنة

فخامة الرئيس الأتاسى

غادرت وزارة الخارجية إلى القصر الجمهورى لأخذ موعد أحظى فيه بلقاء فخامة السيد هاشم الأتاسى رئيس الجمهورية ، فهو يعرفنى معرفة قديمة حين كان قائمقاماً ليافا منذ نحو أربعين عاماً « حين كنت صبياً مشاغباً » إذ كنت فى أيامها أزود إحدى الصحف بالأخبار ، وانى لا أزال أتذكر بهاء طلعة الأتاسى حين كان حاكماً ليافا « أعادها الله إلينا » فقد كان فى شرخ شبابه ، أبيض اللون، مورد الوجه، بعينين زرقاوين هادئتين حازمتين ، تزينه لحية مستديرة غامقة الشقرة ، ثم قابلته سنة ١٩١٣ وهو متصرف لعكا « ردها الله أيضاً » (١) وبعد ذلك

(١) ردها الله إلينا ، أعادها الله إلينا ؛ هذه العبارات هى كل ما عندنا من سلاح وكل ما لدينا من قوة لإسترجاع فلسطين ، وسلاح الدعاء قد جربناه منذ راحت الأندلس ولكنها لم تعد ؛ وفلسطين لن تعود إلينا ما دام الكلام هو رأسمالنا ! إن تقاعس الدول العربية فى إنقاذ فلسطين ، بل عجز الشعوب العربية عن تحريك حكوماتها لما يقطع الأمل فى إستردادها ولو لدفع العار على الأقل « فان تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »

التقيت بفخامته فى مصر سنة ١٩٣٣ ثم بالاسماعيلية سنة ١٩٣٤ عند سفره إلى الحجاز واليمن وأما فى جهاده ضد فرنسا فكنت من مؤيديه فيه دائما ، كما أنه كان ولازال إن اتصل بشىء من كتبى أو كتاباتى لا يبخل بكلمة تقدير أو تحية كريمة تصلنى غالباً مع صديقه القديم الأستاذ عبد القادر المغربى .

بهذه الصلة ذهبت إلى القصر أطلب موعداً لمقابلة فخامة الرئيس الأول، فلما دخلت مكتب أمين سرّه الخاص رحب بى وقال إننا الآن أشعرنا فندق سميراميس بأن يبلغوك إرادة فخامة الرئيس بأنه سيقابلك فى الساعة الثانية عشرة ـ أى بعد ساعتين ـ فقلت له أنا لم أحظ بعد بهذا الأمر لأنى غادرت الفندق فى الصباح الباكر ثم جئت الآن لأخذ موعد ، ومادام الأمر كذلك فأنا أستأذن الآن على أن أعود فى الميعاد المرسوم، فقال السكرتير: لاتذهب وسأخبر فخامته بأنك هنا لأنى شعرت لما أطلعته على اسمك فى دفتر التشريفات عند ما عرضناه صباح اليوم إنه يحب أن يراك ، ثم طلب لى السكرتير القهوة وصعد إلى مكتب فخامة الرئيس ، ولكنه مالبث أن عاد إلىّ ـ قبل مجىء القهوة ـ وهو يقول إن فخامته ينتظرك الآن ، ثم سار أمامى وصعدنا إلى المكتب الخاص، فلما دخلت نهض الرئيس مرحباً ومحتفلا كأنه يقابل ولده القادم من سفر بعيد . وهنا لحظت التغيير الشديد الذى طرأ على طلعة الأتاسى، فهو الآن أبيض الشعر نحيف الجسم ، عليه من أثر الصراع مع فرنسا ومع صروف الدهر طابع المعركة ، فقد كان فخامة الأتاسى رئيساً للوزارة فى أيام الملك فيصل سنة ١٩٢٠ ، ثم اختير بعد النكبة بضياع الاستقلال الأول رئيساً للكتلة الوطنية فرئيساً للجمهورية الأولى وهاهو الآن يرأسها للمرة الثانية . وعند ذلك ترك الرئيس الجليل مكتبه وجلس على « كنبة » وأمر بأن أكون قريباً منه لنتحدث ، وكان الحديث طويلا . وكم كنت أتمنى لو أستطيع أن أبوح بما تحدث به فخامة الرئيس إلىّ ، والذى تحدثت به ، فقد كانت جلسة خاصة بين من يعتبر كأحد أولاده ، وبين من يعده كوالد للجميع . على أنى أقول إننى فهمت من حديثه أشياء كثيرة عن حالة البلاد فى السنوات الأخيرة وعن حقيقة الوضع السورى سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ، وعن الأسباب التى أدت إلى الانقلابات العسكرية أخيراً ، وأمانيه فى المستقبل، وعن الأمور المحلية

العامة ومنها التي تشغل بال الجميع؛ ولكنه كان حديثاً خاصاً .. وقد استغرقت هذه الجلسة نحو ساعة ، وهنا أخذتني الحيرة بعد ذلك .. هل أستأذن لأترك وقته الثمين لغيري من الذين جاءوا القصر على موعد وهم ينتظرون؟ ولكن هـذا لا يجوز ، لأنه هو صاحب الشأن في بقائي أو انصرافي ، ولا يليق بمن يكون في حضرة ملك أو رئيس دولة أن يستأذن إلا إذا شعر بحركة منه أو إشارة تشعر بذلك ، كنظرة إلى الساعة مثلا ، أو باستدعاء أحد الأمناء ، أو بالوقوف إيذاناً بانتهاء المقابلة ، أو بالإمساك عن الكلام ، ولذلك كنت أنتظر هذه الإشارة لأقف وأستأذن ، ولكن فخامته تفضل وأكمل حديثاً كان قد بدأ به .

مجلس الشيوخ

ثم قال الرئيس ملاطفاً: بلغني على لسان الشيخ عبدالقادر المغربي انك كنت تتمنى وأنت في مصر أن تحضر جلساتنا الليلية الخاصة مع الأصدقاء القدماء ، فقلت إن هذه الأمنية لا أكف عن السعي في سبيل تحقيقها ، لأني أحسب نفسي بالنسبة لفخامتك من الأصدقاء القدماء أيضاً.. فقال هذا صحيح ومن أصدقهم أيضاً ، فشكرته على هذا التلطف ، وقلت إنني رشحت نفسي لهذه العضوية من زمان فقد طلبت أن أكون « عضواً مراسلا » كما أن صديقكم أحمد حلمي باشا قد رشح نفسه لأن يكون « عضواً روحياً » وعندي مكتوب من الأستاذ المغربي جاءني منذ أشهر يقول فيه إنكم وافقتم على العضويتين ! فضحك فخامته وقال هذا صحيح ، فنحن نسهر بالمناوبة كل ليلة عند صديق منهم ، وقد جاء الدور الليلة عليّ أنا ، ففي السادسة مساء تعال إلى داري الخاصة لتشرب الشاي مع الأصدقاء عندي وستحضر كل ليلة معنا حيث يكون الدور ...

مداعبة الأستاذ المغربي

فقلت لفخامة الرئيس بعد أن شكرت هذه الدعوة الكريمة : ولكن لي عند فخامتك رجاء وهو أن تمكنني الليلة من مداعبة الشيخ عبدالقادر المغربي ، فهو لا يدرى أنني في الشام لأني جئت في الليلة الماضية بغتة ولم يرني أحد ، فأرجو أن لا يعرف أني آت ، وستكون دهشة الشيخ عبدالقادر أعظم لأنه تناول مني رسالة نهار أمس أو اليوم رداً على كتاب وردني

منه عن بعض الأمور ، والغالب أنى سأدخل وهو يسمع المجلس تحيات منى وتشوق إلى ساعة سعيدة أحظى فيها بشهود جلسة عندكم ، فقد رجوته كالعادة أن يذكرنى فى مجلسكم الكريم .

فابتسم الرئيس ووافق على ذلك وهو يقول ، اجعل مجيئك بعد السادسة بقليل . . .

فى مستشفى العاصمة والمفوضية المصرية

دخلت المستشفى أسأل عن قرينة الدكتور أمين رويحة فلما علمت بمجيئى ويممت غرفتها رفعت الغطاء عن رأسها وهى تقول « انت جيت يابوخسن ؟ » قالتها بالخاء لأنها تركية ولابد لغير العربى من أن ينطقها كذلك ، فقلت لها نعم لقد جئت ، وهنا أخذها البكاء وقالت أنا فى كل يوم منذ حبسوا أمين وأنا أفكر فيك وأقول لا بد أنك ستعمل شيئاً من أجله ، فقلت ها أنذا ثم سردت لى أم فيصل قصة زوجها ، وسردت لها المساعى التى قمت بها والتى أرجو أن أقوم بها ، وبعد ذلك تلقيت اقتراحاتها وملاحظاتها على الدعوى وكيف دبروها الخ . الخ . وبعد ذلك ودعتها على أن تنتظر منى زيارات أخرى وأخباراً طيبة ، ثم انصرفت لأزور المفوضية المصرية أولا لتحيتها ثم صديقى الحبيب القديم الشيخ كامل القصاب ، وكانت داره كما حددوها لى غير بعيدة عن المستشفى (١)

وفى المفوضية تناولت القهوة عند مستشارها صديقى القديم كمال الدين صلاح بك وقد وقفت منه على أمور كثيرة تتعلق بقضية أمين ثم افترقنا على موعد .

مباغتة . . .

وفيما كنت أغادر الشارع الذى تقع فيه المفوضية ، إذا بى وجهاً لوجه أمام الشيخ كامل! فابتهجت بهذه المصادفة ، واندهش هو من وجودى فى دمشق لاستحالة توقع مجيئى إليها ، فى نظره ونظرى أيضاً ، فرحب بى أشد الترحيب ، ولكنى لحظت أنه كان كالمتمعض من رؤيته إياى فى الشارع العام مصادفة بدلا من أن يرانى فى داره أولا وقبل كل أحد ، ولاسيما بعد فراق طويل دام نحو خمسة عشر عاماً حيث كنا قد تفارقنا لآخر مرة فى القاهرة سنة ١٩٣٧

والحق مع الشيخ كامل لأنى كنت بعد خروجى من الحبس أغتاظ من أصدقائى القدماء

(١) علمت أن صاحب هذا المستشفى «الدكتور محمد سعيد بك توكلنا» لما عرف بمرض قرينة الدكتور أمين رويحة حمله شهامته وقيامه بحق الزمالة نحو أمين على نقل المريضة إلى مستشفاه الخاص لمعالجتها بالدرجة الأولى الممتازة ، فكانت ضيفة مكرمة فى ذلك المستشفى المنقطع النظير فى موقعه وإتقانه فهو على أحدث طراز .

إن جاءوا مصر ورأيتهم فى الطريق مصادفة بدلا من أن يسألوا عنى أو يشعرونى بمجيئهم لأذهب إليهم فى المحطة أو فى المطار أو فى محل نزولهم، ولذلك اعتذرت للأستاذ وأخبرته بأنى جئت الليلة فقط وإنى كنت متجهاً الآن إلى داره، وما زلت به حتى رضى، ثم أخذنى إلى منزله وتغديت عنده، وقد سمعت منه عن أحوال البلاد وسوء الحكم وانقلاب أخلاق الناس وما عانى من زملاء الأمس أشياء كثيرة، وكلها مما يغيظ ويستوجب الأسف ويضيق الصدر لأنه لا يوجد شىء فى الدنيا يشوه جمالها مثل غدر الإخوان وخيانة الزملاء وخيبة الآمال..

دمشق اليوم

أخذت سيارة بعد خروجى من دار الشيخ كامل وطلبت من السائق أن يطوف بى بعض أنحاء دمشق الحديثة وبعض الأحياء القديمة، فإذا بالعاصمة السورية قد أصبحت اليوم غيرها بالأمس، فهى مدينة عظيمة ضخمة تضم نحو نصف مليون من السكان بعد أن كانت أقل من نصف هذا العدد حين كنت فيها قبيل الحرب العظمى الأولى. وقد أعجبت بحركة التجديد والعمران فى أنحاء المدينة الناهضة، فالعمارات الضخمة الجديدة قائمة وبعضها يقوم بكل سرعة والشوارع أنيقة نظيفة، ويغلب على شعبها نظافة الثياب وعدم الميل إلى الضجيج، ولم ألمح فى مدة الأسبوعين اللذين صرفتهما فى دمشق أية مشاجرة ولا مشاتمة ولا كلمة بذيئة ولا «بصبصة» لسيدة عابرة فى الطريق، ولا ضحكات رقيعة كالتى نسمعها عندنا بالقاهرة من بعض الشباب الناهض ــ أو الناهد ــ فى شارع عماد الدين أو شارع فؤاد الأول، والذين يطاردهم البوليس الآن وحسناً يفعل..

كما أنى لحظت أن مداخن المصانع الكثيرة فى أنحاء دمشق وضواحيها أصبحت تشق الفضاء، وأما المدارس والمعاهد فإنها تملأ الأرجاء، وقد سألت عن هذا التطور السريع الذى رأيته ومتى كان، فقيل لى إن معظمه قد تم بعد زوال فرنسا من البلاد، فلم أستغرب ذلك، لأن الاستعمار من عادته أن يخرب العمران، ويكفى أنه يعوق تقدم الأمم، لأنه يشغلها عن نفسها بدفع أذاه عنها...

ولم أنس أن أتفقد الأماكن التى دمرتها مدافع فرنسا من أنحاء العاصمة السورية، فوجدت أن أحياء برمتها قد دمرت ولكن همة الدمشقيين أقامت فى مكانها أحياء جديدة ذات عمارات

أنيقة على الطراز الحديث ، ومع ذلك فلا يزال هناك الكثير من الأماكن الثمينة لا تزال خراباً ، كدار أسعد باشا الأثرية البديعة التي لا يمكن إعادتها كما كانت ، ودار آل البكري وبعض المساجد ومنازل كثيرة في حي الميدان ... ألا لعن الله الاستعمار ، وكل من يرضى به وكل مواطن يساعد عدواً على وطنه .

إشعار تليفوني مستعجل

وبعد ذلك رجعت إلى الفندق ، فوجدت بضع بطاقات من أصدقاء عرفوا بوجودي في المدينة ، ورسالة تليفونية من رياسة الأركان حرب يقولون فيها إن ضابطاً من الأركان سيزورني في الساعة السادسة بعد الظهر ، فذهبت إلى غرفتي ونمت استعداداً لسهر طويل ، غير السهرة القصيرة المقبلة عند فخامة الرئيس . .

وجاء الضابط في موعده يقول إن « العقيد » مستعد لأن يقابلك الليلة ، وان في إمكانك أن تزور الدكتور أمين رويحة أيضاً في سجن قلعة « المزة » وها هي السيارة حاضرة وسأكون معك ، فشكرته وشكرت العقيد ورجوته أن يحمل إليه تحياتي وأن نرجىء المقابلتين إلى الساعة التاسعة من صباح الغد لأني الليلة على موعد عند فخامة رئيس الجمهورية .

لقد كان بإمكاني أن أذهب في نفس هذه الليلة إلى العقيد وإلى سجن الدكتور أمين ، ولكني تعمدت هذا الإرجاء لأشغل بالهم ... ويكفي لذلك أن يعرفوا أنني ألقى فخامة الرئيس الأول في الليل أيضاً وفي داره الخاصة بالرغم من كوني في النهار كنت عنده في قصر الرياسة .

إن الإنسجام غير كامل بين العسكريين وبين الجمهورية ، وهذا مما يزيد في إنشغال البال..

وبعد أن قدموا القهوة للضابط قلت له هيا بنا وتعالى خذني الآن في سيارتك إلى دار فخامة الرئيس زاعماً إني لا أعرف طريقها..وعند باب القصر ودعني ضابط « الأركان » وانصرف بعد أن رأى بعينه جنود حرس القصر الخاص وهم يهزون بنادقهم تحية للقادم ، فأشعر في ذلك بأنهم تلقوا الأمر بانتظاري ، وجاء أحد أمناء القصر فأرشدني إلى الصالون الذي يجتمع به فخامة الرئيس بإخوانه وجلسائه .

ولم يفتني قبل أن أدخل أن أسأل عن صديقي الشيخ عبدالقادر المغربي وهل وصل ، فقال التشريفاتي إنه موجود معهم .

الأستاذ المغربي

دخلت صالون فخامة الرئيس دخولاً عادياً لا دخول من يجيء لأول مرة، بل كأنني أحدهم ومن الذين يترددون على مجتمعهم كل ليلة ! وطريقة دخول هذا المجلس أن يدخل القادم ويطرح السلام فيقفون له ثم يجلس فى أى مكان يريده ، وبعد ذلك يتبادل مع الحاضرين تحية المساء بأن يوجه إليهم التحية بيده واحداً بعد واحد ، مصحوبة بعبارة « الله يمسيكم بالخير » فيردون عليه ، وهى الطريقة « العثمانية القديمة » وحبذا هى من طريقة ، لأنها لا تكلف الحاضرين مشقة الوقوف ولا المصافحة باليد واحداً بعد الآخر ، لما فيهما من إحداث ضجة فى المجتمعات ومن تكلف الوقوف للقادم حتى يفرغ من مصافحتهم جميعاً ... وما جدوى التسليم باليد بين جماعة يرون بعضهم كل يوم ..

هكذا صنعت حين دخلت مجلس فخامة الرئيس ، ثم جلست فى أول مقعد صادفته ، ولكن الرئيس الجليل أشار إلىَّ بأن أجلس فى مكان مجاور لكرسيه فنهضت وجلست حيث أمر ، فوجدت نفسى بين بديع بك المؤيد وسامى باشا مردم بك مواجهاً صديق الشيخ عبدالقادر المغربى ...

وسكت فخامة الرئيس هنيهة ولم يقدمنى للحاضرين ليرى الشيخ ماذا يصنع ! وعند ذلك أخذ الشيخ عبد القادر يحدق بى ثم ينظر إلى جاره ويعيد التحديق .. وبعد ذلك صاح فى وسط المجلس ووقف وهو يقول « هذا أبو الحسن ، هذا محمد على الطاهر أليس كذلك ! شو ! شو جابه ؟! إنت هون ؟ » ثم أقبل علىَّ يسلم ويرحب وهو لا يكاد يصدق ما يرى ، ثم قال : اليوم أخذت مكتوبك .. هل أرسلته من دمشق ، ولكن متى جئت ..

أما الحضور فكانوا يبتسمون من هذه التدبيرة وهم يظنونها مصادفة، وأما فخامة الرئيس فقد عمل حاله كأنه لم يشترك فيها .. ثم قدمنى فخامته لزواره وسماهم لى جميعاً ، وكلهم من أعلام البلاد وهاماتها .

مجلس الرئيس الخاص

أما الذين يحضرون هذه الجلسة المسائية فهم أعيان الشام وأكابرها ، ومنهم بديع بك المؤيد الوزير السابق ، وسامى باشا مردم بك من أعيان دمشق ، وشاكر بك الحنبلى الوزير السابق ، ونصوح بك البخارى رئيس الوزارة سابقاً ، وأحمد بك اللحام القائد العسكرى المتقاعد ، وعبدالقادر بك العظم عميد معهد الحقوق ، والشيخ عبدالقادر المغربى نائب رئيس المجمع العلمى العربى ، ومصطفى بك برمدا رئيس محكمة التمييز العليا الأسبق ، ومحمود بك الصباغ رئيس ديوان المحاسبة السابق ورضا مردم بك وجودت بك الماردينى ، وهناك عدد من الفضلاء لم أصادفهم فى تلك الأيام لتغيبهم عن دمشق .

إن كل الأحاديث العالية يمكن أن تدور فى هذا المجلس ، إلا حديث السياسة المحلية ، فذكريات الماضى لها النصيب الأوفر من هذه الجلسات الرفيعة ، ثم الموضوعات الأدبية واللغوية والشعرية والاجتماعية والسياسية الخارجية ، وهذا المجلس صاف هادىء كهدوء رجاله ، فلا ضجيج ولامقاطعة ولا أصوات مرتفعة ، بل كان الوقار يسود جوه ، والجد يزينه .

فارس الخورى

وكان السياسى الشيخ ، الأديب الشاعر القانونى ، والخطيب المحدث اللبق الوقور فارس بك الخورى يعد من أبرز أعضاء هذا المجلس الجليل ، ولكنى لم أسعد بوجوده فى دمشق طول مدة وجودى فيها ، لأنه كان فى تلك الأيام متغيباً فى أميركا ليمثل سورية فى هيئة الأمم المتحدة ، وهو خير من يمثل سورية والأمة العربية فى كل مكان وليس فى أميركا وحدها .

وبعد أن تناول جلساء فخامة الرئيس الشاى وما يتبعه ، كانت الساعة الثامنة مساء قد دقت ، فانفرط العقد ، على أن يكون اللقاء فى الليلة التالية على صاحب الدور . وكان عند بديع بك المؤيد .

إنه لتقليد جميل ان يتبادل كبراء بلد من البلدان مثل هذا المجلس الأنيق مع فخامة رئيس الدولة ، لأن هذا المجلس الذى كان الجد طابعه وأن كان لايدور فيه شىء عن السياسات المحلية

إلا أنه لا يخلو من موضوع يهم الأمة مما يطرح فى ساحته من مناقشات وشرح للأمور ، فكم من مظلمة كشفت ، وكم من مشروع نافع بعث من العدم بفضل هذه الأحاديث العابرة الطارئة ...

هذا وما دمت فى وصف مجلس فخامة الرئيس الليلى فلا يفوتنى أن أسجل كلمة نبيلة لدولة نصوح بك البخارى رئيس الوزراء الأسبق أراد أن يجاملنى بها ، فقد قلت لفخامة الرئيس الأتاسى عند الانصراف . أنا ممنون وسعيد للسماح لى بحضور هذا المجلس العالى الذى نعمت فيه بما سمعت من أحاديث أنيقة رفيعة ومواضيع عالية نافعة ، فبادر نصوح بك وقال « بل نحن الذين نشكرك على مجيئك للشام ، لأنك نقلتنا إلى مجلسك الذى نسمع به وأنت فى مصر فجئتنا به إلى هنا ».

ذكرت هذه القصة بعد تردد لما فيها من المبالغة فى الثناء ، ولكنى لم أشأ إهمالها ، لأنه لابد من تسجيل فضل المتفضل وشكره عليه .

سهرة الليل

بعد أن غادرت قصر فخامة الرئيس ذهبت إلى منزل «فلان...» حيث التقيت ببعض رجال المحاماة والصحافة والسياسة وكنا على موعد فيه ، وكان موضوع قضية الدكتور أمين رويحة هو الشغل الشاغل للجميع ، وقد أجمعوا كلهم على أن غرض العسكريين هو الخلاص من الدكتور ، وأن الصحافة قد كمت وطوردت ، وحبس من رجالها الأستاذ سعيد التلاوى وعطلت جريدته اليومية « الفيحاء » وأن جريدة « بردى » اليومية قد أغلقها الأستاذ منير الريس وهرب إلى لبنان ناجياً بنفسه من ١٤ قضية أقامتها الحكومة عليه ، وأن الأستاذ نجيب الريس على وشك أن يغلق جريدته القبس اليومية وأن يؤخذ إلى السجن لكثرة القضايا وربما يفر إلى لبنان أيضاً ، وأن الحاكم حكمت بحبس الأستاذ إيليا شاغورى صاحب جريدة « البلد » اليومية وسيساق إلى السجن بين ساعة وأخرى . ومعنى هذا أن الصحف اليومية الكبرى التى تعارض العهد الحاضر قد أخمدت ، لأنها أصبحت بين معطلة وبين مروعة أو فى طريقها إلى الغلق وحبس أصحابها الذين لم يهربوا حتى الآن !

فالجو السياسي فى الشام كان جو إرهاب ، ما فى ذلك شك ، ولكنى مع ذلك لم أدع أحداً من الحاضرين يعرف أننى كنت أتحدث فى موضوع أمين مع الرسميين ، ولا أن هناك موعداً فى صباح الغد بينى وبين العقيد الشيشكلى أو لزيارة الدكتور أمين فى السجن .

فى سجن المزة

وفى الساعة التاسعة من الصباح التالى جاء الملازم الأول السيد سالم الأتاسى أحد ضباط أركان الحرب ومعه سيارة حكومية ، فقال هل تبدأ بزيارة العقيد ؟ فقلت لا ، بل نبدأ بزيارة الدكتور أمين رويحة . وكان قصدى من ذلك أن يكون حديثى مع العقيد بعد أن أستنير من كل النواحى وخصوصاً من ناحية أمين نفسه ...

ودرجت بنا السيارة نحو جبل «المزة» حيث يوجد السجن العسكرى هناك ، فصعدت بنا السيارة حتى الباب فأفسح لنا الجنود ، ثم دخلنا إلى باحة صغيرة فيها بعض الحشائش ومررنا من جوار بعض الزنازين حتى وصلنا إلى زنزانة الدكتور أمين رويحة ، وكنت أعرف قيمة هذه الباغتة بالنسبة إليه ـ وقد ذقت مثلها ـ وكم يسر السجين وكم ينتعش عندما يجد صديقاً يسأل عنه ، فكيف إذا كان الزائر قادماً من مصر وأن أكون هو، والمزور الدكتور أمين ...

فلما انفتح الباب ورأى الدكتور أن القادم هو صديقه القديم كاد يطير فرحاً ودهشة فهتف يقول « أبو الحسن ! » فقلت أمين! وعانقته وعانقنى وكان اللقاء مؤثراً

أما الزنزانة فكانت ضيقة ذات رائحة كريهة تنبعث من مرحاض «بلدى» مكشوف وهو موجود فى نفس الزنزانة .. فتذكرت الزنزانة التى وضعنى فيها ابراهيم باشا عبد الهادى فى « كركون روض الفرج » بالقاهرة ، ورائحتها التى لا يمكن لمخلوق أن يتحملها، وقدتعجبت كيف أن أخى الدكتور أمين قد تحملها طول هذه المدة . والمدة المقبلة التى لا أدرى كم تطول ـ فى حين أننى لم أتحمل رائحة مرحاض ابراهيم عبد الهادى أكثر من ساعات حتى أغمى علىَّ، ولولا أنهم عجلوا بنقلى إلى سجن معسكر «هاكستب» لقضى علىَّ خنقاً . ثم ألقيت نظرة سريعة على نواحى هذا المحبس الضيق الذى يعيش فيه أمين فإذا هو عبارة عن سرير وبطانية وبعض

الكتب، ورائحة المرحاض ... فقلت على مسمع من الضباط : أهذا مكان يصلح لحبس الناس ولمثل الدكتور أمين ، كيف يجوز هذا ؟ وقبل أن يجيبنى الضابط بشىء قال أمين إن هذا الحبس يعد جنة بالنسبة للمكان الذى كان فيه تحت الأرض، وإنه لم ينقل منه إلى هنا إلا الليلة... عند ذلك فهمت أنهم نقلوه من الحبس الأسوأ حتى لا أراه هناك ...

وقبل أن يجرى بيننا أى حديث سمعت صياحاً ينبعث من إحدى نواحى السجن البعيدة، فتساءلت : هل هناك معركة ؟ فرد الدكتور أمين يقول إنهم يضربون المتهمين دائما ليأخذوا منهم اعترافات ضدى ... فقلت للضابط : أيليق هذا ؟ قم بالله عليك وامنع الضرب ولو لمدة وجودى حتى لا أشهد عليكم أمام الناس . فخجل الرجل ونادى جندياً وأسر إليه كلاما فانقطع الصياح [1]...

حديثى مع الدكتور أمين رويحة

قلت للضابط لقد اقترحوا علىّ زيارة الدكتور أمين ولم يقولوا إن الزيارة لى ولك ، ولذلك أرجوك أن تصارحنى هل نبهوا عليك بمراقبتنا وسماع حديثنا وعدم تركنا وحدنا وأصبح لابد لك من البقاء معنا ؟ وكان الضابط على جانب من اللطف والتهذيب ، فقال : مادمت تحب الانفراد بصديقك فأنا أستأذنكم وسأغيب عنكم نصف ساعة ، ثم غادر الغرفة وأنا أثنى على فضله وأدبه ، ولم أستغرب ذلك منه فهو من آل الأتاسى الفضلاء الذين منهم فخامة رئيس

(١) إن التعذيب فى دمشق كان يشبه التعذيب فى مصر ، والغريب أن فرنسا لم تستعمل هذه الفظائع مع السوريين وهم أعداء، ولا الإنكليز عمدوا إليها مع المصريين وهم فى مصر أعداء ، ولكن بعض الحكومات الوطنية فى البلاد العربية هى التى ترتكب هذه الكبائر مع أبناء وطنها مع شديد الأسف والأسى . وأما الذى يزيد فى الحزن فهو أن بعض المحاكم تسمع بالفظائع وتراها بعينها ثم تسكت عليها كأنها أمراً عادياً ، وقد روى المتهمون فى قضية أمين رويحة بدمشق مثل الذى رواه المتهمون بقضايا الإخوان المسلمين فى مصر ، عن العذاب الذي نزل بهم والفظائع الإجرامية التى شوهت بعضهم ، ثم أصدرت المحاكم هنا وهناك أحكامها بدون أن تأمر بالتحقيق مع مرتكبي الفظائع ولا ضمنت أحكامها كلمة واحدة على الأقل تدل على استنكارها واستفظاعها ؛ وإنى أسجل ذلك هنا وأنذر حكوماتنا بأن عاقبته ستكون انهيار صرح الحضارة من أساسه وتشويه سمعة العالم العربى بين أمم الأرض، فالمتهم وديعة فى يد الحكومات وتحت حمايتها فلا يجوز أن يساء إليه ولا أن يهان أو يضرب ، فالمتهم برىء حتى تثبت إدانته وإلا انهارت قواعد القانون والعدالة، بل الإنسانية كلها.

الجمهورية. وهنا مزحت مع الدكتور وقلت له ما رأيك لو حبسونى معك ليستريحوا منا نحن الاثنين! فضحك ساعتها ، ولعله لم يضحك منذ شهور !

وهنا شرح لى الدكتور أمين قصته كلها بإيجاز وسرعة ، وهى معروفة الآن للناس بما نشر عنها فى الصحف بعد أن طرحت على المحكمة (١) وإنى أكتب هذا الفصل فى أواخر شهر مارس سنة ١٩٥١ والقضية لا تزال أمام المحكمة العسكرية وهى مؤجلة الآن بسبب مرض الدكتور مرضاً شديداً جعل لجنة من ٩ أطباء من الجيش والحكومة يقررون خطورة حالته الصحية ولذلك تأجل النظر فى الدعوى إلى أن يشفى . عافاه الله ، وإنى أشك فى كون الدكتور يتحمل السجن وما هو فيه من أمراض تناولته من سنة ١٩٤٠ حين حبسه نورى باشا السعيد بالعراق ثم حبسه الإنكليز فى سجون فلسطين وروديسيا بعد ذلك حتى سنة ١٩٤٦ .

العقيد الشيشكلى

وبعد ذلك ودعت الدكتور أمين وأنا فى تأثر عميق وغمّ مطبق ، وقصدت إلى رياسة الأركان حرب، وكان العقيد أديب بك الشيشكلى بانتظارى ، فاستقبلنى بحفاوة ولطف ومنع الدخول علينا ، كما أمر بإسكات التلفونات أيضاً ثم أمر بالقهوة .

والعقيد الشيشكلى شاب حموى الأصل ، يناهز الأربعين من العمر ، وهو قصير القامة إلى حدما ، لطيف الذات ، هادىء الحركة ، خافت الصوت فى حديثه ، محدود الثقافة ، يتكلم ببطء ليزن مايقول ، ويحسن الاستماع لمحدثه فلا يقاطعه ، كما أنه لا يتحرك فى أثناء الحديث

(١) إن خلاصة مايتعلق بالدكتور أمين من الدعوى هو اتهامه بتحريض بعض الشبان على اغتيال العقيد أديب الشيشكلى قائد الانقلاب ، ولكن لم يقم على ذلك دليل إلا اعترافات لأحد المتهمين التى أخذت منه تحت الضرب والعذاب، ولكن المتهم ما كاد يقف أمام المحكمة حتى أفضى إليها بالحقيقة وهى أن المحققين لقنوه التهمة لتخليصه من العذاب فلم يسعه إلا الطاعة فكفوا عن ضربه ، وقد اتهمت الأمة السورية حكام العهد بالتخلص من خصومهم بالاغتيال، كما جرى للعقيد محمد ناصر الذى اغتيل فى الشارع العام غدراً وعرف الكافة من هو القاتل إلا المحكمة التى نظرت فى قضية مصرعه ... ويقول الناس إن حكام العهد كانوا يتضايقون من معارضة الدكتور أمين لسياستهم وطبخ الانتخابات وما صنعوه من قلب الجمعية التأسيسية إلى مجلس نواب فدبروا له التهمة ليتخلصوا من معارضته التى كانت تؤذى عهدهم أكثر من معارضة جميع الأحزاب مجتمعة، لأن الشعب السورى وجد فى الدكتور أمين قائداً نزيهاً فالتف حوله ، لأنه جربه بعد أن جرب غيره ...

ولا يشير بيده ، وقد لحظت أنه ناعم الملمس ، ولا أدرى أكان ذلك من طبعه أم إنه كان يتكلفه ويتظاهر به .

قلت للعقيد : أنت يا أخى لا تعرف عنى شيئا بلا شك ، وأنا كنت كذلك ، وأما إن تساءلت عن سبب ميلى إلى اللقاء بك فلا أظنك تهتدى إليه ، ولكنى سأخبرك به الآن ولذلك سيكون حديثى معك صريحاً ، فأولاً اسمح لى أن أصارحك بأنى لم أسمع عنك إلا أنك من ضباط العهد الفرنساوى ، وأنكم وجماعتكم وثبتم على حكومة وطنية واستوليتم عليها ، ولكن هناك جريدة تكرهونها وتخاصمكم هى التى غيرت ما كان فى ذهنى عنكم وشوقتنى إلى مقابلتكم — وهنا أخرجت من جيبى قصاصة من جريدة «بردى» الدمشقية ، وفيها مقال من قلم صاحبها الأستاذ منير الريس تحت عنوان «إلى العقيد الشيشكلى» وكان قد نشره قبل إيقاف جريدته وهربه من دمشق ، ثم لوّحت له بالقصاصة ووضعتها أمامه على مكتبه ، وهنا ألقى عليها العقيد نظرة سريعة ، وقال إنه رأى هذا المقال فى حينه وإن فيه شتما فى حقه ، فقلت له : كلا ، بل فيه شهادة لك بأنك رجل كبير ولك ماض طيب ، لأن صاحب المقال بعد أن ندد بك وحمل عليك وعلى تصرفاتك، رجع يعاتبك ويذكرك بجهاد لك قديم ضد فرنسا فى أيام حكمها وأنت ضابط عندها وأنك كنت يومذاك تساعد المجاهدين السوريين ، وأنك تطوعت بعد ذلك فى حرب فلسطين ، فهذه المقالة التى لم تعجبك هى التى نقلتك فى ذهنى من طبقة أعوان فرنسا إلى طبقة أعداء فرنسا . فهذا السبب وحده يكفى لأن يجعلنى أحبك وأن أقدرك كما أحب الدكتور أمين رويحة وأقدره ، فبعد هذا التحديد لمكانتك ومكانته عند الناس أصبح لا فرق بينكما فى نظر الأمة ، وقد وجب عليها أن تنظر إليك كما تنظر إليه ، ولا يسع المنصف إلا أن يكون كذلك . لهذا أحب أن تعرف أنه لم يبق شىء عليك فى نفسى كما كان قبل أن أطلع على شهادة خصمك لك ، فأنت سورى وأمين سورى ، وهو مجاهد قديم وأنت مجاهد قديم، فلا يوجد هناك شىء يميز أحدكما عن صاحبه إلا أن أحدكما بغى على الآخر وحبسه !

وثيقة على الدكتور أمين

فلما سمع العقيد ماتقدم طابت نفسه واطمأن خاطره ، وعرف أن الذى يحدثه ليس خصما ولا متحيزاً ثم استدرك العقيد يقول إن الدكتور أمين قد هددنى قبل أن يعبث بالأولاد المجرمين لقتلى ، وقد هددنى كتابة وعندى منه رسالة بهذا التهديد ، فلما أظهرت له اندهاشى من كلامه ورأى الشك يظهر فى وجهى ، قام إلى خزانة فأخرج منها إضبارة ثم تناول منها أوراقاً ودفعها إلىّ لأقرأها ، فإذا هى رسالة مؤلفة من أربع ورقات مكتوبة على آلة الكتابة وموجهة إلى العقيد باسمه وممضاة بإمضاء أمين فرجحت أن أحد المفسدين قد زور الكتاب على أمين وقلد الإمضاء ، ولكنى لما تأملته لم أشك بأنه هو حقاً ، وأنا أعرف خطه ، فاستغربت ذلك من أمين ، ثم أخذت أقرأ الورقات وكان العقيد يرقب أساريرى وأنا أقرأ ، ولما فرغت من تلاوتها طويتها وأرجعتها إليه وأنا أقول له أرجوك أن تدفع بهذه الرسالة إلى قاضى التحقيق! فقال ماذا تقصد ؟ فقلت لأن فيها دليل براءة الدكتور ودليل احترامه لك مع ميله إلى التفاهم معك ، فهو يذكرك بالزمالة فى حرب فلسطين ، ويشكو إليك من تصرف بوليسك الذى فتش بيته فى أحد الشهور الماضية ، ثم يبسط لك أخطاء الحكم الحاضر، ويشير عليك بالذى يراه لمداواته ، وبقية رسالته كلها توجيهات تدل على الثقة بك ، فلو كان يريد بك السوء ما كتب لك[1] ولا أتعب نفسه فى معالجة أمورك وما دام أنه قد أخرج مافى صدره فليس هناك رأى مكبوت يحبسه فى نفسه ، ولا الحبل منقطع بينكما ليضيق صدره بك ،

(١) سألت المحامين الذين سيدافعون عن الدكتور أمين عما يعرفونه عن هذه الرسالة التهديدية فاندهشوا وقالوا إن سيرتها لم تفتح فى التحقيق الذى جرى وانهم يعلقون عليها أهمية كبيرة ، وعند ذلك أوصيت الأستاذ أحمد فؤاد القضمانى بك المحامى الممتاز، الذى يدير أمور الدفاع عن أمين أن يطلب من المحكمة مطالبة العقيد بإبراز الرسالة التى يعتبرها تهديدية ونعتبرها نحن من أدلة البراءة ، فان أنكرها فأنا أشهد عليه فى المحكمة وأسرد لها خلاصتها .

وبعد رجوعى إلى مصر استطاع أحد أصدقائى فى الشام الحصول على صورة طبق الأصل لتلك الرسالة فأرسلها إلىّ فأعطيتها لجريدة المقطم فنشرتها وعلق عليها محررها الأستاذ وديع فلسطين تعليقاً منطقياً أظهر مزاياها وقد تناقلتها صحف لبنان والعراق وعلقت عليها كذلك ، وأما صحف دمشق فلم تستطع الإشارة إليها ولكن الذى تسلل من بعض جرائد الأقطار الشقيقة لدمشق ، كان كافياً لجعل هذه الوثيقة معروفة لدى الجميع .

فالذي يكتب هـذه الرسالة لايمكن أن يعمد بعدها إلى الاغتيال ، كما أن الذي يقصد اغتيالك لا يمكن أن يكتب لك. فقال العقيد إن أمين يهددني في آخر الرسالة ، فقلت إنه ينذرك بسوء مصير البلاد إن بقي الحال كما يراه ، فأين التهديد هنا ؟

العهد البائد

فقال العقيد إن الدكتور أمين يؤيد رجال العهد البائد وأنه أذاع بذلك منشوراً أيدهم فيه ووقف منا موقفاً عدائياً ، فقلت له إني قرأت ذلك المنشور في حينه ، فهو يتفق مع جماعة العهد الماضي على أمور الجمعية التأسيسية ووجوب عدم قانونية قلبها إلى برلمان ، كما أنه أيدك أنت في نفس النشرة لمعارضتك الإنضمام إلى العراق ، فبهذه المثابة يحق لجماعة العهد الماضي أيضاً أن يعتبروا الدكتور أمين عدوهم بعد أن رأوه يخذلهم ويؤيدكم ، فإذا كانت وجهة نظره قد اتفقت مع وجهة نظرهم عند نقطة ، فإن وجهة نظر أمين قد التقت بكم عند نقطة أخرى ، فالذي يستخلص من موقف أمين أنه على الحياد ، يؤيدكم من ناحية ويعارضكم من ناحية ، وهكذا هو بالنسبة إلى الفريق الآخر ، فيا أخي إن أهم سبب يستوجب العداوة بينكم وبينه إلى درجة القتل « على فرض أن أمين يرتكب هـذا الجرم » هو أن يكون هناك تناقض خطير بين سياستكم وسياسته على مصير البلاد ، كأن تكونوا ـ مثلا ـ تريدون ضم سورية إلى العراق ، الذي من نتيجته وقوع سورية تحت الحماية البريطانية ، فالإنسان قد يصدق بعد ذلك إمكان وصول الأمر بينكم إلى درجة العمل على تخلص أحدكما من الآخر ، أما سياسة «من لم يكن معنا على طول الخط فهو عدونا على طول الخط» فهذه طريقة لايمكن التسليم بها.

أوسعتهم ذما وراحوا بالإبل !

فقال العقيد إن مسلك المعارضين الذين يساعدهم الدكتور أمين ضدنا وفي شتائمهم لنا وتحريضهم الجماهير علينا فيه كل معاني المداوة ، فقلت إن أمين لا يساعدهم بل هم الذين يساعدونه ، لاحباً به فقد خذلوه في أيام حكمهم ، ولـكنهم يساعدونه نكاية بكم ، فقال وهل نحن أعداء البلد ليهاجمونا إلى هذه الدرجة ؟ فقلت وماذا تنتظر من قوم جاهدوا في سبيل

هذه البلاد وقاتلوا فرنسا ربع قرن ، ثم تثبون عليهم وتنتزعون ملكهم ثم تطاردونهم أيضاً ، فتتركوهم على الأمل يشتمون ويضجون من أجل مجدهم الضائع بعد أن رحتم بالغنيمة كلها.

وأما الدكتور أمين فالذى يبدو لى أنكم لا تعرفونه المعرفة الحقيقية وهذا طبيعى ، لأنه كان يعمل للبلاد من الخارج ، وأنتم فى أيامها منشغلين فى الداخل ، فهذا فى وظيفته وذاك فى مدرسته ، وذاك فى دكانه.. ثم التفتُ إلى النافذة وأشرت بيدى نحو غوطة دمشق قائلا : إن كل شجرة من ضواحى هذه العاصمة لتشهد لأمين رويحة بالجهاد المسلح الذى قام به قبل ربع قرن حتى أدى الأمر إلى كونى لا أجد الآن فى هذه الغرفة ضابطاً « إفرنسياً » يحكم البلاد بل وجدتك أنت ، وليس هذا بالشىء القليل ولا بالشىء الذى ينسى من جهاد رويحة وأمثاله .

وهنا قال العقيد : يظهر من حديثك أنك تظن أن قضية أمين ملفقة عليه ، ولذلك اقترح عليك أن تجتمع بأى واحد من شركاء أمين فى الشروع بقتلى فأنا مستعد لأن أذهب معك إلى سجن المزة وأن تختار أى متهم منهم لتسمع منه كيف حدث الاعتداء ومن هو الذى دفعهم إليه ، فوافقت العقيد على اقتراحه وحددنا لذلك الساعة السادسة بعد الظهر .

مناقشة ..

وهنا أردت أن أسأل العقيد عن المحكمة التى ستحاكم المتهمين فتجاهلت كونها عسكرية فى عهدهم هذا وفضلت أن يقوله هو لأستطيع التعليق على كلامه وأن أقول له ما فى نفسى ، ولذلك جعلت السؤال ملفوفاً على الصورة الآتية: أظن أن محكمة الجنايات عندكم تشبه محاكمنا فى مصر إذ تتألف عندنا من قاض كبير وعضوين من طبقته و ... فقال العقيد بل هى محكمة عسكرية ، فقلت مستغرباً : محكمة عسكرية ؟ فقال طبعاً لأن بعض المتهمين يشتغلون عندنا فى الجيش بـ « المكتب الثانى » (١) والاعتداء وقع على ضباط من العسكريين ، ولذلك لابد

(١) هذا المكتب هو أتقن إدارة تركها الإفرنسيون فى سورية ، وهى جاسوسية واستخبارات تشبه البوليس السياسى فى القاهرة والجستابو الألمانى فى وقت واحد ، فهى إدارة مدنية وعسكرية معاً ويديرها الآن المقدم محمود شطرة وهو شاب لطيف من ناحية وشديد البطش من ناحية أخرى ، وكان المأمول من المكتب الثانى الذى اتخذته فرنسا لإرهاب السوريين أن يكون الآن وهو فى أيديهم أداة حماية لهم ، فإذا به مع الأسف يتخذ وسيلة لإرهاب السوريين أنفسهم ...

من أن تكون المحكمة عسكرية . فقلت : أنا لا أنصح بطرح القضية أمام القضاء العسكرى حتى لا يكون الأمر فى نظر الناس مشبوها ، لأن أعضاء المحكمة هم من الضباط وأنت رئيسهم الأعلى ، فإذا كنت لا تثق بمحكمة الجنايات التى هى محكمة سورية عالية ، وهى الأمينة على حقوق الأمة كلها فكيف تريد أن يطمئن أمين رويحة وبقية المتهمين لمحكمتك على رقابهم؟ ولذلك أرى من الأفضل إحالة الدعوى على محكمة الجنايات العادية، فقال العقيد إن المحكمة العسكرية يرأسها قاض مدنى ، فقلت والأعضاء من الضباط طبعاً ! فقال طبعاً ... فقلت إنها محكمة عسكرية إذن مادامت الأكثرية فيها من الضباط[1]... فقال العقيد إن القانون العسكرى هو الذى حدد هذه النقطة . فقلت حتى ولو كان ذلك من حقكم فيحسن أن تتنازلوا عنه وتتركوا الأمر للقانون العام ففيه كل الضمان للعدالة ، ولا يمكن أن تبرئ محكمة الجنايات أحداً بدون حق ، وبذلك تخلون ذمتكم أمام الأمة فلا يستطيع أحد أن يتهمكم أو يقول انكم انتم الخصم والحكم ، ومع ذلك فالمسألة ليست فى تأليف محكمة وإصدار أحكام ، بل فى كيفية إقناع الرأى العام فى الداخل والخارج بأن الأحكام عادلة وصحيحة .

محكمة جمال باشا ومحكمة رياض الصلح

وهنا ضربت للعقيد مثلا المحكمة العسكرية التى شكلها أحمد جمال باشا فى مدينة عاليه بلبنان سنة ١٩١٥ ـ ١٩١٦ وأعدمت زعماء سورية، فقلت له إنك لا تستطيع أن تجد شخصاً واحداً اقتنع من أحكام تلك المحكمة بأن الشهداء كانوا مجرمين حقاً ، فنحن لا نزال إلى الآن وإلى الأبد نتهم جمال باشا بأنه قتلهم غدراً بواسطة « محكمة » بدلا من أن يغتالهم فى الشارع

(١) لقد نفذ العقيد رأيه وحاكم المتهمين أمام المحكمة العسكرية فضج الناس من هذا الإصرار، ولاسيما أن محكمة أخرى مثل هذه برأت المتهمين بقتل العقيد محمد ناصر لأن العهد الحاكم كان هو المتهم باغتيال العقيد ولذلك ازداد الشك فى محاكم هذا العهد ولما أصدرت المحكمة الثانية أحكامها الشديدة على حسين توفيق وجماعته بالإعدام وما دون ذلك لم يكن الحكم بالإجماع بل بالأكثرية لأن القاضى المدنى قد عارض ولكن الأعضاء خالفوه ، وهذا هو المنتظر من العسكريين ، ولذلك عرف الناس أن أمين رويحة لو قدر له الشفاء من المرض واستطاع حضور المحاكمة فلابد من الحكم عليه بالإعدام ، كيف لا وقد حكموا على أحمد بك الشرباتى الوزير السابق بالحبس أكثر من عامين وعلى السيد نشأت شيخ الأرض بخمس سنين فى حين أن تهمتيهما لا تستوجبان حبسهما ساعة واحدة...

العام ، ولذلك لا نزال أنت وأنا ، وكل الناس ، نلقب جمال باشا بالسفاح وبالغدار ، ونلقب أولئك الزعماء «بالشهداء» وعندك الآن شيء جديد وقع بالأمس القريب بجوارك فى بيروت فإن رياض الصلح قد حاكم المرحوم أنطون سعادة بعد القبض عليه بساعات ثم أعدمه بعد ساعة ، وكان ذلك كله بواسطة «محكمة» ولكن هل تستطيع أن تجد فى الدنيا كلها شخصاً واحداً قد صدق محكمة رياض أو صدقه هو حين قال للناس إن القضاء هو الذى أدان أنطون سعادة ...

لو كان صحيحاً أن محكمة رياض الصلح كانت « محكمة » بالمعنى المفهوم ما كانت تنعقد بعد منتصف الليل وتحرم أنطون سعادة حق الدفاع عن نفسه والجدل عن خيط رقبته وإحضار شهود النفى وسماع المحامين المدافعين عنه ، وحضور الناس ليشهدوا المحاكمة وما يقال فى المحكمة لتتوفر فيها العلانية ، ولذلك أصبحت المسألة فى نظر الرأى العام أنها مؤامرة واغتيال ، فبدلا من أن يقوم بذلك أشخاص من الشارع خلسة قام به موظفون رسميون علناً ، ولذلك أصبح رياض فى لبنان بسبب دم أنطون سعادة[1] كإبراهيم عبد الهادى فى مصر بسبب دم الشيخ حسن البنا فأنطون «اغتيل رسمياً وبشكل قانونى» والبنا «اغتيل خلسة بشكل غير رسمى» ، وقد كان بودى أن أصف للعقيد كيف رأيت رياض الصلح فى الإسكندرية وهو محروس فى نفس الفندق بالشرطة اللبنانية التى جاء بها معه وبالشرطة المصرية التى كانت تحرس الجميع .. وإن أصف له كيف تحرس الحكومة المصرية إبراهيم باشا عبد الهادى والعياذ بالله !

وقد تعمدت الإطالة فى شرح هذه القصص لغرض ما أظنه يغيب عن أهل الفطن ...

(١) بعد قتل أنطون سعادة على تلك الصورة الفظيعة التى هزت الضمير البشرى وأثارت الدنيا كلها ، إذا بأحد الذين يؤمنون باستشهاده ، يذهب إلى رياض ويترصده ثم هجم عليه وهو بين بوليسه وحرسه وأطلق عليه الرصاص فلم يصبه ، وقد اعترف الشاب بأنه كان يثأر لأنطون سعادة من رياض صاحب تلك المحكمة ، ومن يومها انخلع قلب رياض من الخوف والرعب وأصبح لا يتحرك من مكان إلى مكان إلا بحراسة قوية من الشرطة والبوليس السرى ، فيالها من حياة منغصة مروعة ، وما للظالمين من أنصار .

وبعد ذلك ...

وإلى هنا كان الحديث قد طال، فدعانى العقيد إلى الغداء معه فشكرته واعتذرت له بأنى مدعو بالمفوضية المصرية الآن ، فقال ستتعشى عندى الليلة إذن بعد زيارة سجن « المزّة » ثم نكمل حديثنا ، فقبلت الدعوة بلا تردد ، وقد ودعنى العقيد حتى باب الأسانسير مبالغة منه بالحفاوة ، وأمر مرافقه بأن يوصلنى بالسيارة الخاصة فشكرته واعتذرت بأن هناك سيارة معى بالانتظار ، ولكنه أبى وشدد وقال لابد من القيام بالواجب ، فقبلت منه هذا التكريم ، ملاحظاً فى نفسى أنه قد يكون ميالا إلى الاستيثاق من صدق حين ذكرت له الدعوة بالمفوضية المصرية ...

وعند ذلك صرفت سيارة الأجرة وركبت سيارة العقيد إلى المفوضية ، حيث تغديت فيها على مائدة كمال الدين صلاح بك وكان معنا على المائدة الأستاذ أحمد حقى بك الوزير المفوض وبعض الأصدقاء الشخصيين ، وقد أعجبت بحقى بك فهو رجل ممتاز حقاً .

العقيد متيقظ

أمضيت بقية اليوم فى استقبال أصدقائى والقيام بزيارات سريعة سمعت فيها أشياء كثيرة عن حالة سورية الداخلية والخارجية والمحلية والأوضاع الحزبية فيها ، كما سمعت أموراً كثيرة عن حالة البلاد فى أيام حكم فرنسا وأيام القوتلى فحسنى الزعيم فسامى الحناوى ، حتى الحين الذى نحن فيه ، وسيأتى الحديث عنه وعن العهود كلها ... وبعد ذلك سطرت رسالة اعتذار عن حضور اجتماع المساء ، مع فخامة الرئيس الأول فى دار بديع بك المؤيد وأنا آسف لحرمانى من شهوده ، ولم أذكر السبب الحقيقى الذى جعلنى أتخلف عن مجلس فخامته ، مع أنه أجمل ما فى الشام!

وفى الساعة السادسة جاءت سيارة العقيد إلى الفندق فركبتها فإذا بها تتجه إلى فندق الأوريان بدلا من مركز الأركان حرب ، لأن العقيد إن أعطى موعداً فهو لا يحدد مكانه إلا فى آخر دقيقة ، وقد وجدته بانتظارى فى الصالون الداخلى ، وقد لمحت أشخاصاً يجلسون فى المدخل وفى الصالون الخارجى وهم فى مظهر الزوار والرواد ولكنهم على ما أرجح من رجال الحرس ـ أو جماعة المكتب الثانى ...

وبعد جلسة قصيرة تناولت فيها الشاى مع العقيد ركبنا فى سيارته فإذا هى من غير الأنواع التى سبق لها توصيلى ، ففهمت مما لاحظت أن العقيد يتحفظ كثيراً من خصومه ، فهو لذلك لا يركب سيارة بعينها ، بل يغير ويبدل فى تنقلاته ، حتى لا يعرف خصومه السيارة التى يكون فيها ، ولما انطلقت السيارة بنا شعرت أنها سلكت طريقاً إلى المزّة غير الطريق المألوف ...

فقلت فى نفسى إذا كان العقيد وهو لم يوصل الأذية إلى الدكتور أمين يخاف إلى هـذه الدرجة ، فـكيف إن تورط وفتك به ؟! ثم سمعت بعد ذلك أن العقيد لا ينام فى دار معينة ، بل يجعل نومه كل ليلة فى دار ، سواء كانت له أو لأعوانه ، بل إنه فى بعض الليالى يغادر دمشق كلها لينام فى إحدى المدن المجاورة ثم يعود إلى العاصمة فى الصباح . إننى أطيل فى وصف هذه الحوادث لأنى أعتقد أنها ستصبح بعد أعوام من أحداث التاريخ السورى، سواء بالنسبة إلى العقيد نفسه أو بالنسبة لمهده ، وسأكون بما كتبت أحد شهود هذه الفترة من تاريخ سورية ...

حسين توفيق (١)

دخلت سجن المزة مع العقيد الشيشكلى بعيد السابعة مساء ، ثم دلفنا إلى غرفة « جاويش النوبة » المسئول عن السجن ، فسألنى العقيد عن المتهم الذى أفضل محادثته ، ففضلت طبعاً استدعاء حسين توفيق لأنه أشهرهم وهو صاحب القصة كلها ، فجىء به ، فلما دخل علينا أخذته الدهشة والذعر حين رأى العقيد أمامه ... ثم بلع المسكين ريقه من الرعب وأخذ ينظر

(١) هو ابن توفيق أحمد باشا وكيل وزارة الحربية المصرية سابقاً ولهذا الشاب تاريخ محزن للناس ولأهله ولنفسه ، فهو نصف مجنون بلاشك ، فقد صور له النصف الباقى من عقله أن يقتل المرحوم أمين عثمان باشا ، وبعد ذلك دفعه هذا الجنون إلى محاولة الاعتداء على الزعيم الأكبر مصطفى النحاس باشا ولكن العناية الربانية سلمته من هذا المجرم المجنون ، وبعد ذلك هرب أو أن الذين لهم مصلحة فى إنقاذه قد هربوه فى أثناء محاكمته من السجن ومن مصر كلها ، ثم حكمت عليه محكمة الجنايات غيابياً بالسجن عشر سنين فقط ، وأما هو فقد حط أوزاره — لا رحاله — فى سورية وكان كثير المشاكل فيها ، إلى أن قامت هذه القضية .

إليه وإلىّ نظرات من يتوقع من وراء هذا اللقاء المباغت شراً ، والحق معه ، لأن استدعاء من كان مثله وفى ظروفه وحالته لا يمكن أن يتوقع الخير من أحد ، ولا بد أن طلبه فى مثل تلك الساعة سيسفر عن مصيبة جديدة أو على الأقل « علقة » فيها شىء من التعذيب ...

وأما العقيد فإنه كان يعرف ما يجول فى خاطر ذلك المسكين التعس ، ولذلك بادره بكلمة ترحيب لطيفة ناعمة ، قائلاً : أهلاً ومهلاً حسين افندى ، كيف حالك ! ثم نادى الجندى الحارس وأمره بإحضار كرسى ، وقال لحسين تفضل اقعد ياحسين أفنـدى . . . وأما حسين فكان لا يصدق ما يسمع ، وقد ظهر ذلك جلياً على وجهه وأساريره ، ولما جاءوا بالكرسى لم يجسر على الجلوس إلا بعد أن أمره العقيـد بذلك فجلس ، ولـكن على طرف الكرسى ! وكان منظره فى تلك اللحظة يدعو إلى الإشفاق ، فقد كان ينظر إلى شفتى العقيد كمن يريد أن يستعجله فى الكلام ليبادره بالسمع والطاعة ...

وهنا أمر العقيد بإحضار القهوة لنا جميعاً ، ثم أخرج علبة سجايره الأمريكية وقدمها لحسين وهو يقول له « تفضل سيجارة ياحسين أفندى ، تفضل » ... فمد المسكين يده إلى السجاير متردداً وعينه على عين العقيد كأنه يتوقع سحب العلبة ومبادرته بالضرب لجسارته على مد يده والتدخين بحضور من يعتقد أن حياته أو موته فى قبضته .

ولـكن العقيد لم يكتف بتقديم السيجارة ، بل أشعل القداحة وقدمها إلى حسين فأشعل سيجارته وهو كالمذهول من غرابة ما يرى ، ولما زال الخوف من نفسه وسكن طائره ، قال له العقيد : ياحسين أفندى هذا الأستاذ جاء من مصر ويريد أن يسمع منك كيف جرت الحادثة، احكى له إياها كما صارت ولا تكتم شيئاً . .

وعند ذلك اعتدل حسين وجلس على الـكرسى جلسة متمكنة وأجال نظره فى السقف كمن يستوحى الذاكرة قبل أن يتكلم ، فذكرنى حاله بحفظة القرآن الذين يبسملون ويجهدون حافظتهم قبل التلاوة ثم ينطلقون فى سرد الآيات ...

وشرع حسين يقص حادثة الاعتداء على سيارة العقيد ولـكن ببطء شديد . وكان لا يفوه بجملة إلا بعد أن يزن ويفكر ، فلم أشك فى أنه كان يسرد قصة كاذبة طلب إليه أن يقصها . .

وكنت أرقبه وهو يتكلم ، وأدرس حالته وأدقق النظر فى سحنته للوصول إلى أعماق سريرته، وأتفرس فى عينيه الشاردتين المذعورتين ، فترجح عندى أنه ما كان ساعتها لولا الضرب والعذاب يقول عن نفسه ما يؤدى به إلى الإعدام ، وكنت أتمنى لو أن العقيد لم يكن معنا لأنى كنت أطلب من حسين أن يعيد رواية القصة من جديد وبالسرعة العادية ، لأن الكاذب لا يمكنه أن يروى قصة مختلقة مفتعلة مرتين بصورة سريعة بدون أن يغلط أو يناقض نفسه . . . (١)

العقيد مشغول

وكنت فى خلال ذلك أختلس النظر إلى العقيد من طرف العين فأراه ممسكاً بجريدة ينظر فيها ويتشاغل بها عنا ، ولكنى أعتقد أنه ما قرأ حرفاً واحداً منها ، وأنه كان هو الآخر يختلس نظرات عابرة لماحة يوجهها إلى حسين ليذكره بما لا يجوز أن ينسى . . . ولما فرغ حسين من سرد قصته ـ أو من تلاوة محفوظاته ـ سكت بغتة ، كما يسكت الفنغراف حين ترفع عنه الإبرة . . .

عند ذلك التفت العقيد إلىّ كمن يسألنى عن رأيى ، فسكت وأخذت أحدق فيه كمن يقول له ما رأيك فى هذا التلفيق !

وطال تحديقه بى وتحديقى به ، ولكنه لم يتكلم وأنا أيضاً لم أتكلم ... وقد فضلت أن أحتفظ بملحوظاتى عما رأيت وسمعت لأفضى بهما إلى المحامين ، وبعد ذلك إلى الرأى العام فى الدنيا كلها .

ولما رآنى العقيد ممسكاً عن الكلام ـ وهو لو سألنى لتكلمت لأنى أكون بذلك قد ملكت زمام الحديث ـ ولكنه لم يسأل ، لأنه كان يريد أن أتكلم أنا أولاً ليملك هو الزمام..

---

(١) هذه الطريقة ليست من ابتكارى ، ولكنى تعلمتها قبل ثلاثين عاماً من الزعيم الكبير الشيخ عمر زعيتر رئيس بلدية نابلس بفلسطين رحمه الله وهو والد الأستاذين عادل بك وأكرم بك زعيتر وقد ورد ذكرهما فى هذا الكتاب غير مرة .

وهنا لم يسع العقيد إلا أن أمر بإعادة حسين توفيق إلى محبسه ثم سألنى هل تتصرف ؟ فقلت نعم .

ومشينا إلى خارج السجن حيث كانت السيارة واقفة ، فلم يركبها العقيد إلا بعد أن أمر السائق بإضاءة المصباح الذى فى داخلها ، ففهمت من هذه الحركة أنه يريد أن يستوثق من كون السيارة خالية من أعداء قد يكمنون له فيها فيطبقون عليه!

ثم ركبنا معاً بعد أن جعلنى على يمينه كما يقضى العرف مع الضيوف ، لأن العقيد الشيشكلى من هذه الناحية بالرغم من كونه الحاكم بأمره ، كان مثالا للمضيف المهذب ، كما أنه كان إن دخلنا مكاناً أو خرجنا منه يتنحى عن الطريق ويقدمنى على نفسه وأنا أمتنع ، ولكنه كان يصر ولا يمشى إلا إذا تقدمته ومشيت أولاً . ولم أستغرب منه هذه الرقة ، لأنه من أسرة كريمة عرفت بالجهاد ، وكانت تربطنى بقريبه المرحوم الدكتور توفيق بك الشيشكلى المجاهد القديم أواصر صداقة قديمة .

ظلت السيارة منطلقة بنا ونحن سكوت ، فلا هو سألنى من ملحوظاتى وتأثراتى عما رأيت وسمعت من حسين توفيق ، ولا أنا أفضيت بشىء ، فقد كان كل منا ينتظر من الآخر أن يتكلم ، ولكننا لم نتكلم ، حتى ولا فى الشئون الأخرى ، بل كان الصمت يخيم علينا خلافا لما كنا عليه عند المجىء للمزة ، فقد كان الحديث بيننا لا ينقطع طول الطريق ، وإنى أرجع سبب هذا الوجوم الذى نالنى وناله بعد زيارة السجين إلى كونه كان يفكر فيما يجول بخاطرى وعما عساى أقول بعد ذلك ، وكنت فى الحقيقة مشغول الفكر فى طبع ما سمعت من حسين فى ذهنى وتسجيل ما رأيته من حاله فى ذاكرتى ...:

وقد لاحظت أن الطريق الذى سلكناه فى العودة من المزة كان غير الطريق الذى ذهبنا منه إليها ...

على مائدة العقيد

وفى الساعة التاسعة كنا ندخل فندق الأوريان ، فقصدنا إلى المائدة التى كانت قد أعدت لنا ، ولم يفتنى أن ألاحظ أن موضع المائدة كان فى آخر قاعة الطعام حيث يوجد بعض الأبواب

خلفها ، وهى تؤدى إلى الشرفة الخلفية .. فلو باغتنا بعض المغتالين فإن موقع المائدة يمكننا من رؤيتهم وهم يدخلون فنحن إذن فى مكان يصلح للمقاومة أو الانسحاب من الخلف إن اقتضى الحال ...

وكان معنا على العشاء بعض الضباط الذى يثق بهم العقيد الشيشكلى ، وكان الحديث يدور حول كل شىء إلا المواضيع التى كنا فيها ظهر اليوم وفى هذا المساء ...

وإذا بالعقيد يقول : أنا ذاهب غداً إلى جبل الدروز لأتفقد أمور الجيش وأزور سلطان باشا الأطرش، فهل تحب أن تكون معنا؟ فتسرعت وقلت نعم وإن هذا ليسرنى ، وهنا لمحت أحد ضباطه وهو ينظر إليه نظرة عتاب، ولعله كان ينصحه بأن لا يذيع هذا السر عن تنقلاته أمام شخص مثلى ، مشكوك فيه ...

وفيما كنا لا نزال على العشاء فطنت أنا أيضاً إلى غلطتى ، لأن الواجب أن أذهب إلى سلطان باشا وحدى لأحدثه بشأن أمين وأستنهضه من أجله ، ولكن إن ذهبت مع العقيد فلن أتمكن من ذلك ، كما أننى لن أكون فى هذه الرحلة أكثر من « ذيل » لصاحب الصولة العقيد .

وبقى هذا الخاطر يطوف فى ذهنى إلى أن انتويت أمراً، وهو أن أتملص من هذه الاتفاقية ثم أذهب لزيارة سلطان منفرداً ، فأجدد معه عهود الصداقة التى كانت بيننا كتابية فى أيام الثورة السورية الكبرى قبل ربع قرن ، حين كانت جريدتى تنطق بلسان المجاهدين وتدافع عن سلطان باشا نفسه ، وأنا فى الحقيقة كنت فى شوق لرؤيته وزيارة الجبل الأشم .

وبعد العشاء سألت العقيد عن زيارة جبل الدروز وهل هى مقررة من قبل فإذا به يقول بشكل يدل على ميل إلى استدراك ما فرط منه : كلا فهى غير مقررة وسوف أخبرك عن موعدها ، وبذلك تخلص منى بلباقة وتخلصت منه ... لأنه ذهب فى اليوم الثانى إلى الجبل بدون أن يخبرنى وحسناً فعل ...

وفى العاشرة مساء افترقنا وأنا أشكر حفاوته ولطفه على أن نلتقى بعد أيام ، ثم قضيت بقية السهرة فى إدارات الصحف التى تربطنى بأصحابها صداقات قديمة ، ولا سيما بعد أن

نشرت عن وجودى فى الشام كتابات كريمة ، وكانت سهراتى فى دمشق تقضى فى إدارة « البلد » وصاحبها الأستاذ إيليا شاغورى الأديب الكبير والوطنى المخلص، وجريدة «الجيل» وصاحبها الصديق الممتاز نجيب حرب الصحافى اللبق ، وجريدة « القبس » وصاحبها الأخ نجيب الريس شيخ الصحافة السورية المجاهد القديم والنائب السابق .

مآدب وحفلات

ولبيت فى الشام دعوات كثيرة عند أحباب قدماء وأصدقاء أمجاد ، عند فخرى بك البارودى المجاهد النائب السابق، والدكتور حيدر مردم بك الوزير المفوض السابق ، وعونى بك عبد الهادى الزعيم الفلسطينى صاحب التاريخ المجيد والدكتور صبحى أبو غنيمة بك الزعيم الأردنى ، والدكتور الشيخ مصطفى حسنى السباعى عضو البرلمان السورى ، ونصوح بك بابيل صاحب جريدة الأيام ، والشيخ عبد القادر المغربى ، وصبحى بك الخضراء المجاهد الفلسطينى القديم، والشيخ محمد نمر الخطيب العالم الفلسطينى المجاهد النازح ، وعفواً ومعذرة من الذين غفلت عن التنويه بفضلهم ، إذ لم يبق أحد فى الشام إلا تفضل بالزيارة والسؤال عنى وشكراً للذين دعونى ولم أتمكن من شرف تلبية دعواتهم ، والذين ودعونى بالفندق وفى المطار .

أما مأدبة الدكتور أبو غنيمة فإنها كانت مظاهرة سياسية ، لأنها جمعت كل شخصية بارزة فى الشام من ساسة ومحامين وأدباء وزعماء من جميع الأحزاب والهيئات ، وخصوصاً رجال العهد الماضى - أى عهد القوتلى بك ، وأما صديقى القديم صبرى بك العسلى وزير الداخلية فى العهد القديم فقد تفضل بزيارتى مراراً وخصص سيارته لتنقلاتى .

مناقشة ونكتة ...

أما المناقشة فكانت بينى وبين صبرى بك ، وذلك اننا كنا نتحدث فى المأدبة عن أمور جرت فى دمشق منذ بضع سنين، وكان صبرى بك يظن إننى حضرتها ، فصححت له الواقعة وإنى لم أشهدها، ولكنه أصر وجاء بأدلة ظنها تؤيد وجهة نظره، فقلت له أنا لم أدخل الشام منذ ٣٦ عاماً ولكنك كنت « مشغولا » فلم تفطن إلى الوقائع، ولكنه أصر ، فقلت له إن

لم توافقني حكيت للجماعة قصة الأفغاني وصاحبه تحت الشجرة ... فقال دولة لطفي بك الحفار رئيس الوزراء الأسبق إنه يجب أن يسمع هذه القصة ، فقلت إنها تكدر صبري بك ، فقالوا لابد من أن تقصها ... وهنا حكيت لهم القصة الموجودة بصفحة ٦٩١ من هذا الكتاب ، عن الأفغاني الذي أصبح ملكا ونسي وهو على العرش صاحبه الواقف تحت الشجرة ، وإنه لم ير الشجرة أيضاً .. وقلت لهم إن أخي صبري بك كان مشغولا عني بنشوة الحكم،لدرجة أنه لما طلبت أن أراه يوم جاء القاهرة بعث لي الأخ نسيب شهاب يقول إنه مشغول!فلاعجب إن كان قد نسي إني لم أسعد برؤية دمشق في أيامه لأنه في تلك الأيام كان لا يبالي بمن غاب أو من حضر ...(١)

وهنا صمت صبري بك وصمت كل من في المجلس ، وقد لحظت أن بعض الحاضرين وكانوا من خصوم عهد القوتلي قد شمتوا به وبهم .

هذا ما كان من أمر « المناقشة » .. وأما النكتة فهي لصبحي بك الخضراء ، فقد وقف يداعب المقدم محمود شطرة مدير المكتب الثاني ـ وكان قد حضر مأدبة الدكتور أبي غنيمة بالنيابة عن العقيد الشيشكلي ـ الذي دعي ولم يحضر ، بل أرسل صديقه شطرة « لأن العقيد لا يستطيع حضور مآدب حافلة لأسباب كثيرة ... ومنها أنه لايظهر أمام الجماهير ، وكون هذه المأدبة كانت تضم جمهوراً كبيراً من الناس ومعظمهم من خصومه » قال صبحي بك الخضراء للمقدم شطرة: إن كنتم تحبون الشهرة وتريدون أن يعرفكم الشرق والغرب فاقبضوا على صاحبنا محمد علي الطاهر هذا ولو لبضعة أيام ، وعند ذلك تقوم عليكم ضجة تبدأ من أميركا الجنوبية ومراكش ، وتنتهي في آخر جزيرة العرب وأندونيسيا ! ثم قال ضاحكا : يا أخي إن ابراهيم باشا عبد الهادي قد حبسه ثلاثة أسابيع في مصر فأصبح بسبب ذلك أشهر رئيس وزراء في العالم ، بل إنه وضع عن ابراهيم عبد الهادي كتاباً هاكتب في ٧٠٠ صفحة تخلده أيضاً إلى أبد الدهر ...

(١) كان صديق صبري بك في أيام الجهاد السوري قبل ربع قرن من جملة الذين نزحوا الى مصر فكان لايفارقني ولا أفارقه ، وكانت إدارة الشورى تسعد برؤيته دائماً . والجريدة كانت جريدته وجريدة المجاهدين جميعاً هنا وهناك ولما تم الاستقلال اختير نائباً فوزيراً للداخلية السورية غير مرة ، وهو من ألمع شباب سورية ، وقد عرضت عليه رياسة الوزارة بعد زوال حكم القوتلي فأباها .

ولما انفردت بعد ذلك بصبري بك ، قال والله إن عتبك فى محله ، لأننا كنا عميان يا أبا الحسن ، وكل ماتقوله عنا صحيح وعندك حق فيه ، فقد كنا ونحن نحكم كأننا نعيش بدون عقل . فقلت له : والآن عندكم عقل ولكن بدون حكم ...

شيء عن عهد القوتلى

أظن أن القارىء لم ينس ما كتبته فى صفحات سابقة عن النذر التى كانت تترى فى آخر عهد رياسة شكرى بك وتؤذن بأشياء ، وأن الحكم كان مختلاً ، وأن الناس لم يندهشوا يوم قام حسنى الزعيم بالانقلاب وقبض على شكرى بك وقعد مكانه وأبعده عن الوطن.

تتميماً لذلك أقول إننى فى زيارتى هذه لدمشق سمعت عن حالة ذلك العهد أموراً كثيرة ، سمعت ذلك من أصدقاء له وليس من الأعداء فقط ، ولا أكتم شكرى بك هنا إننى لم أجد له نصراء فى دمشق ، وأما إذا كان هناك من يشد أزره الآن ، فهم الذين استفادوا من أيام حكمه ، أو بعضهم المستفيدين وليسوا كلهم ، لأن معظم هؤلاء قد انضم إلى حسنى الزعيم ثم إلى الحناوى ، والآن أصبحوا مع الشيشكلى ، وسيمشون غداً مع من يجيء بعده ...

العهود كلها ...

إن عدم الرضاء على عهد الشيشكلى هو عام بلا شك ، وإذا كان شكرى بك يسمع أشياء عن هذا التذمر من عهد الشيشكلى فليس معناه أن الشعب السورى يريد عهده هو ، لا ، لأن الشكوى من عهد الشيشكلى جعلت الناس يترحمون على جميع العهود التى سبقته ، ويقولون إن عهد الانتداب الفرنساوى كان أرحم من جميع هذه العهود !

إن هذا الكلام ليس معناه أن الشعب يفضل فرنسا ، معاذالله ، ولكنه يقول ذلك للتدليل على أن فساد الحكم كان عاماً وأن المسألة ليست فى تفضيل عهد على عهد ، بل هى قياس الأسوأ على السيء ...

شيء عن الماضى

رجعت إلى رسائل الأصدقاء التى كانت تصلنى فى عهد رياسة القوتلى فوجدت واحدة من

صديق عزيز عليه تاريخها ٤ مارس ١٩٤٩ أى قبيل الانقلاب الأول يقول فيها عن شكرى بك « وأما الأخ الكبير فهو فى شاغل عن إخوانه القدماء الذين لامطمع لهم وصار يتكلف معهم » ورسالة أخرى من حبيب له وهو من أعزهم عليه تاريخها ١٢ مارس ١٩٤٩ يقول فيها « والحالة الداخلية هنا ليست جيدة واعتزال نبيه بك العظمة الحياة السياسية ، واستقالة الأمير عادل أرسلان من وزارة الداخلية تريانك إلى أى حد وصل السوء فى هذه المرحلة من هذا العهد » .

وقدأغفلت تسمية صاحبى الرسالتين حتى لايقع جفاء بين شكرى بك وبينهما .

نبيه بك العظمة (١)

وأما قصة نبيه بك فأنا أعرفها ، وما دام اسمه قد ورد فيما تقدم فلا بأس من ذكر شىء عن أسباب عدم رضاه عن سير الحكم فى الشام ، فالإخوان القدماء لا بد من أن يتكاشفوا فى أمور حياتهم ، ففى رسائلهم الخاصة يتناجون ويحدثون بعضهم بعضاً عن آلامهم وانتقاداتهم للأمور الجارية بكل صراحة ، مثال ذلك أن نبيه بك كتب لى فى ٢٤ يونيو ١٩٤٧ يقول إنه مندهش من تقدم بقايا عهد فرنسا واستخفافهم بالأمة ثم يقول : « لقد عملت فى سبيل البلاد بعد ذلك بواسطة الحكومة فلم أتمكن فانسحبت من الوزارة ثم قبلت منصب أمانة العاصمة مستهدفاً بعض المشروعات كمقدمة لعمل شىء للبلاد عن طريق آخر فلم أنجح فانسحبت وسأجرب خدمة أمتى عن طريق ثالث فإن لم أنجح سأنسحب من السياسة كلها »

ثم يقول فى كتاب آخر فى أول سبتمبر سنة ١٩٤٧ « وأما شكرى بك فإنى لم أجتمع به منذ شهرين لأن علاقاتنا أصبحت على غير ما كانت عليه ، وأنا الآن مشغول ومهموم لدرجة

---

(١) لقد مر ذكر نبيه بك فى أوائل هذا الكتاب غير مرة ، فهو من الرعيل الأول ومن أساطين عهد الاستقلال الذين جاهدوا فى سبيل البلاد منذ ثلث قرن ، وقد حبس مراراً ونفى تكراراً وعاش نحو عشرين عاماً فى غربة قاسية مع جهاد طويل وصبر مرير ، فى فلسطين ومصر والحجاز ، وقد تولى بعد زوال فرنسا من سورية وزارة الحربية فأراد أن يعمل للبلاد شيئاً فلم يتمكن فاعتزل الوزارة ، ثم تولى منصب محافظ دمشق وأراد أن يصنع للمدينة شيئاً فلم يستطع فاستقال ، ثم قام بتأليف الحزب الوطنى لدعم عهد الاستقلال فكان أقوى وأنظم حزب فى سورية ، فإذا بعض الناس يركضون وراء منافعهم فغضب نبيه بك وأعلن انتهاء حياته السياسية وهجر البلاد وسكن فى لبنان مبتعداً عن سورية وما فيها من هموم وأحزان .

لم أشعر بمثلها فى حياتى لشدة ما لقيت من صدمات ومؤامرات وعقوق ، وما أرى وأشعر به من تدهور قضية بلادى وهيبة الحكم فيها ، لقد كنت أريد القيام بدور إنشائى والعمل على صيانة استقلالها ، ولكن الأرازل ومعهم بقايا عهد المستعمرين قد تحالفوا على البلاد ، وأنا برغم فقرى لا أريد أن أتناول المرتبات الضخمة مقابل خدمة أمتى التى تضيع الملايين باسمها ، ومن أموال فقرائها الذين فيهم من لا يملكون اللباس لستر عوراتهم ، ولا أقول هذا جزافاً ، كلا ، لأن الحال تكشف عن وجود قرى ومخلوقات فى منطقة العلويين على البحر الأبيض المتوسط يعيش ناسها عرايا « زلط ملط » من شدة الفقر والجهل ، إننى أتألم لهذا الحال الذى كان يمكن تلافيه ولو نسبياً عند ابتداء عهدنا الجديد حينما كان شكرى بك هو المطاع بلا منازع ، وخاصة عند تمام جلاء فرنسا عن البلاد ، ولكن جهلنا بمعنى ومفهوم الحكم واستماتتنا فى سبيل الكراسى وفرط الأنانية والغرور والسعى وراء نصيب الأسد من ميراث الدولة وضعف أخلاقنا ، كل ذلك جعل الأمور تتدهور إلى الحد الذى نحن فيه » الخ .

الأمير عادل أرسلان (١)

وقد ورد فيما مر ، ذكر الأمير عادل وأنه استقال من وزارة الداخلية « فى عهد القوتلى » وهو لم يستقل من شىء قليل ، فهو من دعامات استقلال البلاد ومن أنداد شكرى بك بل

---

(١) هو الأمير الأديب العالم الشاعر ، والمجاهد الكبير الفارس وأحد أبطال الاستقلال العربى القدماء كان عضواً بمجلس النواب العثمانى فى أواخر حكم الدولة العلية ، ثم اشترك فى إنشاء الدولة العربية فى الشام سنة ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ التى عدت عليها فرنسا وأزالت عرش فيصل منها ، فنزح الأمير عن سورية يجوب الأقطار والأمصار فى سبيل استقلال وطنه ، ولما قامت الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ كان الأمير عادل فى مصر فتسلل إلى سورية ومناطق الثورة وجعل مقره السويداء ، فمن هناك ثم من وادى السرحان كان الأمير عادل وسلطان باشا الأطرش يديران المعارك ضد فرنسا ، وقد اشتهر الأمير عادل ببسالته ضد جيشها وكانت معركة القالوج من أبرز المعارك التى تفوق فيها هو وعصاباته على قوات فرنسا حيث فتكوا بجنودها ، وهى المعركة التى كان أبطال نصرها يهزجون ويعيرون فرنسا بأنشودة جبلية كان مطلعها « يا وقعة عند القالوج ــ عيث على دفانها » والأمير عادل هو الشقيق الثالث للمرحوم الأمير شكيب أرسلان فقيد الشرق الكبير ، والكلام على جهاد الأمير عادل فى ميادين الحرب والسياسة يطول ويحتاج إلى مجلد كبير ، فهو جهاد طويل عريض ، ولولا عزوف هذا الأمير عن حب الشهرة وميله إلى كتم مايصنع وزهده فيما يفتن الناس من سخافات عصرنا لكان أشهر مجاهد عربى ، كما أنه أكفأ وأشجع مجاهد مقاتل فى هذا الجيل .

ويفوقه من نواح كثيرة ، كما أنه يمتاز بكونه من الذين حاربوا فرنسا بالسلاح ، وليس فقط بالقلم واللسان والمال .

ولما وقع انقلاب حسنى الزعيم أراد هذا أن يقنع الأمة بحسن نيته نحوها فطلب من الأمير عادل تولى وزارة الخارجية فرضى على أمل أن يمنع على الأقل تخبط الحكم فى عهد حسنى الزعيم ، وهى تضحية عظيمة من الأمير عادل بلا شك ؛ وإلا فإن حسنى الزعيم لا يصلح لأن يكون موظفاً عنده ، ولكن ماذا يصنع الإنسان مع جماعة من المغامرين بعد أن أصبح الأمر فى قبضتهم نتيجة لسوء تصرف الحكام السابقين ، ولما لم يستطع الأمير عمل شىء يضع حداً لتخليط حسنى الزعيم لم يسعه إلا الإستقالة واعتزال العمل .

كتاب من الأمير عادل

وفى تلك الأيام وقبل سقوط حكم حسنى الزعيم كتب لى الأمير عادل كتاباً صريحاً بعث به إلىّ بالبريد العادى بدون أن يبالى بالزعيم ولا بسلطانه ، فى هذا الكتاب « فضفض » الأمير عما كان يضيق منه صدره من أعمال ذلك المزعوم ومن تصرفات القوتلى بك أيضاً ، وهذا بعض ما قاله الأمير عادل بتاريخ ١٩ يوليو ١٩٤٩

«السياسى العربى ياأبا الحسن لايهتم أحد لأقواله إلا إذا نهب مبلغاً من مال أمته وأنفقه فى سبيل الدعاية لنفسه ، عند ذلك يصبح سياسياً عظيما ، ويكون هو محور السياسة العربية ، والداعى إلى اتحاد الكلمة : والمرشد إلى الخير والهادى إلى الصواب ، ولو كان من أكبر المنافقين » .

مفوضية أنقرة

ولما عينوا الأمير عادل وزيراً مفوضاً فى تركيا كتبت إليه أعاتبه على حبه لأنقرة وأسأله لماذا لا يجئ لمصر وزيراً مفوضاً ، لأن منصب الوزير المفوض هنا كان شاغراً فى تلك الأيام وفى حاجة إلى مثله ، وكم كانت سورية تستفيد من وجود وزير سورى مفوض فى مصر له شخصية الأمير فى علمه وجهاده ولا سيا أن له علاقات قديمة مع كبراء مصر ومع زعمائها ، فكتب إلىّ يقول : « أنا لم أطلب لا أنقرة ولا غيرها ، لكنه لم يعرض علىّ سواها ، ولما

كنت أشعر بحاجة إلى الراحة قبلت فوراً بلا تردد، لكنك ظننت أنى لست مغرماً إلا بأنقرة، ولاشك فى أن غيرك يذهب إلى هذا، ولا يبعد أن يقال عندكم إنى رفضت مفوضية القاهرة!.. ويجب أن تعلم أن فى الدنيا أكثر من ابن حلال ... لا يريد أن تفهم القاهرة بعض الحقائق عن دسائس تحاك لهذه الأمة المسكينة المشغوله بتفكيك روابطها والعدو على أبوابها . دعنا من فتح الجراح ياأبا الحسن ، فهذه أمة ظواهر ومظاهر وقشور ، وكل من أراد بها شراً استطاعه بلا كلفة ولامشقة ، فكيف إذا أنفق الملايين واستخدم فى ذلك أنصاراً وتابعين ... من حسن الحظ أن العدو ـ يقصد اليهود ـ ضعيف متعب بل جائع ، ومهاجروه يصلون إلى فلسطين فلا يمضى عليهم أسبوع حتى يندموا ، أجل لليهود أصدقاء لكن العرب أعداء أنفسهم ، ولولا ذلك لما كان لليهود أصدقاء... »

تعقيب

إن هذه الرسائل التى لخصتها، لتدل على أن حالة الحكم فى سورية كانت فى تخبط وفوضى لا مثيل لها ، وماذا بعد أن يضج منها مثل الأمير عادل ونبيه بك وهما من أكبر رجالات البلاد حتى دخل اليأس إلى قلبيهما فى حين أنه لو رشح أحدهما نفسه لرياسة الجمهورية فى انتخابات صحيحة لما تخطته الرياسة ، بل كانت تسعى إليه سعياً ..

الأمير يتكلم

ولما كان الأمير عادل فى لبنان يستعد للسفر إلى أنقرة إذا بالعاصفة تعصف بحسنى الزعيم وعهده ، فازداد حزنه وأسفه على قوم بعد قوم ما كانوا يسمعون نصحه ، وقد زاره فريق من الصحافيين اللبنانيين يسألونه عن أسباب هذه الانقلابات وسقوط العهدين فأفضى بحديث ضاف أليم وهنا يكتب الأستاذ «محمد قره على» فى جريدة النداء البيروتية ويقول: «وأخذنا نستمع إلى مايدلى به الأمير الأرسلانى من أحاديث حول أسباب الانقلاب .. فإذا به ينفض من مكنونات صدره أسراراً خطيرة ، وأحاديث بلغت فى صراحتها القمة . وإذا به ينحى باللائمة على المسئولين السوريين ويحملهم النتائج التى أدت إلى هذا الانقلاب ، واتهم الأمير بعض رجال العهد السابق بالإهمال والتفريط والعبث فإن جواسيسهم الذين كانوا يتقاضون من خزينة الدولة ما

لايقل عن ٢٥ مليون ليرة فى السنة كانوا يوافونهم بتقارير محشوة بالأكاذيب والسخافة عن اجتماع فلان بفلان من المعارضين دون أن يفطنوا إلى الحركة الانقلابية التى يعمل لها قائد الجيش السورى، ومماقاله: إن الحكومة السورية رفضت عرضاً سخياً لشراء عدد من الطائرات الحربية الحديثة ذات الأربعة المحركات لقاء ٢٥ ألف دولار للواحدة منها، وفضلت شراء بضع طائرات عتيقة ذات محرك ومحركين من مخلفات أحد الجيوش بمبلغ لا يقل عن الـ ٨٠ ألف دولار للواحدة ... وسبق للأمير عادل أن تنبأ بمثل هذا الانقلاب » .

جبل الدروز

وفى صبيحة مبكرة جداً غادرت الفندق وأهله نيام وأخذت سيارة سافرت بها بغتة إلى جبل الدروز ، أو جبل العرب ــ وكنت فى لحظة السفر قد صادفت صديق الأستاذ نجيب حرب صاحب جريدة الجبل عند كراج السيارات وهو يريد السفر إلى السويداء فدعوته للركوب معى فكان خير رفيق. وقد مررنا فى جبل الدروز بالأماكن التى جرت فيها المعارك الدامية بين أبطال بنى معروف وبين الجيوش الفرنساوية . وكان أهمها معركة المزرعة التى مزقوا فيها جيش الجنرال ميشو وشتتوا شمله وغنموا أسلحته ، وهى من أمجد المعارك حيث خسرت فيها فرنسا جيشاً لجباً يتألف من خمسة آلاف جندى بعتادهم وشرفهم وسمعتهم ، وقد أقامت فرنسا فى تلك النقطة نصباً تذكارياً جعلته كضريح رمزى لضحاياها . فأوقفت السيارة ونزلت منها وتفرجت على مدفن الاستعمار شامتاً ، ثم ألقيت نظرة على الأراضى التى جرت فيها المعركة وترحمت على شهداء بنى معروف الذين رووا بدمائهم تلك البطاح .

ولما استأنفت السيارة مسيرها نبهنى الأستاذ نجيب حرب إلى مكان وقال هنا هجم المرحوم البطل حمد بك البربور على الصفحة الفرنساوية وضرب قائدها بسيفه فجعله شطرين، فتناولت المدافع الرشاشة الفرنساوية المرحوم حمد بك وأمطرته وابلا من الرصاص فظل يقاوم إلى أن استشهد ، أرضاه الله ، وكان الأستاذ حرب يحدثنى عن أيام ذلك الجهاد ، وعن معارك ذبين ، والسيفرة ، ورساس الخ وهى أسماء معروفة عندى، عزيزة على نفسى ، فقد كانت جريدتى فى تلك الأيام الغر تسجل أنباء تلك المعارك وتفصلها وتنشرها فى آفاق الأرض .

وقد لاحظت أن المناطق التي مررنا بها كانت جرداء من الشجر خالية من العمران ، في حين أن جبالها وسهولها مما يمكن زرعه واستثماره على أوسع نطاق ، ولكني لم أكن في حاجة لأن أسأل رفيق عن السبب ، لأن البلاد المجاهدة المبتلاة بالاستعمار لا يمكن أن تظل خضراء ولا ريانة ، لأن المستعمرين من طبيعتهم تخريب كل عمران يمرون به ، كما أن كل شعب أبيّ لا بد له من أن ينصرف عن التعمير إلى مقاومة الأعداء ، فبين أولئك وهؤلاء تصبح البلاد خراباً كما رأيت ، ولا بأس مما رأيت ، أليس أن الوطن قد بقى لأهله؟ إن الأبنية والمزروعات والثروات لما يمكن تعويضه على ممر الأيام ، وأما الاستقلال والشرف فلا عوض لهما .

إلى مقر سلطان الأطرش

وفي دار الأستاذ نجيب حرب بمدينة السويداء تناولنا القهوة والشاى ، وبعد أن استرحنا قليلاً واصلنا السير إلى « القريّة » وهي بلدة سلطان باشا ولم نقف إلا أمام باب الدار ، وهي دار عادية بسيطة ذات طابق واحد فدخلناها وأنا أتعجب كيف أن الحكومات السورية المستقلة لم تجعل داره قصراً باذخاً يليق بقائد الثورة العام الذي بذل في سبيل الأمة نفسه وكل ما يملك ، ونسف الافرنسيون داره ودمروا ممتلكاته وخربوا زراعاته ، ولكنه لم يكف عنهم ولم يرجع إلى الوطن إلا بعد أن تم الصلح بين فرنسا وسورية وتركوا الجمهورية الأولى سنة ١٩٣٦ تقوم بإرادة الأمة .

دخلنا « المضافة » أولاً فرحب بنا من كان فيها من زوار الباشا الذين ينتظرون خروجه إليهم ، وهي قاعة لا شيء فيها إلا المصاطب الحجرية ، وعليها بعض الحشايا المتواضعة ، وأما أرضها فكانت عارية ، وهنا اشتد تعجبي لأن أحقر دار يسكنها الجواسيس والخونة والأشخاص العاديين في إحدى المدن لتفوق دار القائد العام بمراحل !

ولما عرف سلطان باشا بمجيئنا بادر إلينا بالترحيب والتأهيل وكان سروره بهذه الزورة لا يقل عن ابتهاجنا برؤيته ، وبعد تناول القهوة . انتقلت معه إلى صالة داخلية عادية الأثاث عارية الجدران من الزخرف أو الستائر فلم أشك في كون الباشا المجاهد يعاني حياة لم تكن رخية وكنت أظن أنني سأراه في حالة تكفل له العيش بسعة أو رفاهية تليق بمكانته وتتكافأ مع جهاده.

سلطان باشا الأطرش

وجدت سلطان باشا كما كنت أعرفه من التصاوير الكثيرة التى نشرتها الصحف عنه، بشاربه الطويل الأشمّ، ونضارة وجهه الأبيض الورديّ وعيونه الزرق الجميلة، ولكن الشيب كان يتغلب على محياه المهيب؛ ولا بد مما ليس منه بد ...

وتحدثنا طويلاً ... عن أيام الجهاد القديم، وعن أيام وادى السرحان، وعن المراسلات التى كنت أتلقاها منه، والبيانات التى كانت جريدتى تنشرها له، فكان يحدثنى وهو مسرور بهذا اللقاء الباغت، كما كنت بلقائه سعيداً، وبعد ذلك تحدثنا عن قضية الدكتور أمين رويحة صديقه وزميله فى الجهاد المسلح، وكيف أن الحكومة الوطنية كانت تهمله بالأمس ثم تقوم الآن وتحبسه ... الخ وهنا فاضت الذكريات فى نفس القائد العام وأخذ يحدثنى عن رويحة وكيف كان يقاتل ويطبب، ثم قال إنه عالجه هو أيضاً من جراح أصابته وكم من مرة كان أمين يطرح بندقيته عن كتفه ويضعها على الأرض ثم يحنو على الجرحى من الرفاق فيسعفهم ويعمل لهم عمليات استخراج الرصاص من أجسامهم ويضمد جراحهم، وبعد ذلك لم أكتم عن الباشا ما ينتظر أمين من خطر شديد على أيدى بعض مواطنيه الذين قاتل عنهم وضمد جراحهم ...

وانتقل الحديث إلى أحواله هو، فلم يكتم عنى مالقى من تقصير حكومة شكرى بك القوتلى، من جميع النواحى، ثم ذكر لى قصة، وهى أن المهاجرين فى أميركا كانوا قد اكتتبوا بنفقة تمثال يقام له فإذا بحكومة صديقه القديم تضع العراقيل فى سبيل ذلك قائلة إذا كنا سنفتح باب التماثيل فكل واحد سيطالب بتمثال . . . (١)

ثم قال الباشا: أنا لم أطلب تمثالاً ولا فكرت فى شىء من أمتى إلا سعادتها، ولكن المهاجرين أحسنوا الظن بأحد خدام الوطن فتفضلوا عليه بهذه المكرمة، ولما بلغنى ماتقوله الحكومة خفت أن يدرى به أبنائى فى المهجر فأقع أمامهم فى الكسوف والخجل فكتبت

(١) يظهر أن الجماعة كانوا ينظرون إلى سلطان باشا كأنه يوجد عندهم عشرات مثله! دون أن يفطنوا إلى شىء بسيط واضح وهو انه لو لم ينهض سلطان باشا ويثور على فرنسا ما كانت الثورة تشمل جبل الدروز، ولولا قيام جبل الدروز الذى هو معقل سورية ما كانت الثورة تعم سورية ...

إليهم بأننى أفضل عمل مدرسة بالمبلغ وأن تكون فى هذه البلدة ، وفى الحقيقة أننى كنت أنوى ذلك قبل أن أدرى برأى الحكومة (١) .

وهناك أشياء أخرى ذكرها سلطان باشا عن تقصير حكومة الاستقلال وكان يروى قصته وهو متأثر ومتألم لدرجة أننى أيضاً تأثرت وكادت عيونى تدمع حزناً وكداً ، كيف لا وأنا أسمع المجاهد الشيخ يشكو بهذه المرارة . ليس من الأعداء ولكن من الأحباب ! وهنا قلت فى نفسى : لا شك بأن الشيشكلى كان بارعاً حقاً ، فهو لا يترك مناسبة لمجاملة سلطان باشا إلا انتهز فرصتها . وقد علمت أنه لما زار جبل الدروز قبل زيارتى هذه بأيام أخذ ضباطه وأركان حربه وجاء بهم جميعاً إلى مقر سلطان باشا ليقوموا بتحيته ، وقد خطب الشيشكلى أمامه وهو يقول: إننا كنا نسمع بجهادك ونحن طلاب فى المدارس الابتدائية كما نسمع بالأساطير ، وها نحن الآن ولله الحمد أمامك نراك رأى العين بعد أن وفقك الله وأنال الأمة على يديك مبتغاها ، لقد أعجبتنى هذه الحركة اللبقة من الشيشكلى ، ولكنى كنت أتمنى لو يقول مثلها للدكتور أمين رويحة ...

الوداع

لم أمكث عند سلطان باشا أكثر من ساعة ، ثم ودعته وبودى ألا أودعه ، ولكنى مضطر إلى السفر لأتمكن من زيارة السويداء عاصمة الجبل ، لأن صديق نجيب حرب لم يمكنى من إرجاء زيارة السويداء إلى وقت أختاره أنا لأزورها زيارة خاصة : بل نبه صحبه عند مرورنا بالسويداء إلى كونى راجعاً إليها لتناول الغداء على مائدته ، ولذلك أصررت على مغادرة « القَرَيَّة » فودعت سلطان باشا ومن كان عنده من الزوار ، على أمل العودة فى زيارة طويلة

(١) لم أنس بعد رجوعى إلى دمشق أن أعاتب صبرى بك العسلى على تقصير حكومة عهدهم مع سلطان باشا فاعتذر بأعذار شتى ، فقلت له : يا أخى إن مثل هذا الرجل الذى أصبح رمزاً لجهاد أمة لا يجوز أن يستكثر عليه مال ، ولا أرض ولا قصور ولا ألقاب ، ولا أى شىء من صنوف المجاملة ، فهو لو فتح عباءة وملأتها له الأمة ذهباً لما عد ذلك كثيراً عليه لأن هذا المال كله لا يوازى ما كان ينهبه ضابط فرنسى واحد ممن كانوا ينهبون ويسلبون ثم يخربون البلاد ويذبحون العباد ويذلون الشعب ويهتكون شرف الأمة بحرمانها من استقلالها ، فقال صبرى : هذا صحيح ولكننا غلطنا ، فقلت له : وستغلطون مرة أخرى لو عاد الدهر إليكم ، وأغلب ظنى أنه لن يعود ...

رقم « ١ » عطوفة سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة السورية
ورقم « ٢ » محمد على الطاهر قبيل الوداع

وداع سلطان باشا على أمل اللقاء ...

فى السويداء رجال !

وجدنا دار الأستاذ نجيب حرب حين وصلنا السويداء حافلة بالناس ، وكان الصديق المجاهد القديم محمد عز الدين باشا الحلبي غائباً عن المدينة فلما سمع بمجيئى إليها بادر هو إليها ، وكنت لم أره منذ بضعة عشر عاماً ، وبعد أن تناولنا الطعام لبيت دعوات كثيرة لتناول الشاى عند أعيان السويداء – وكلهم أعيان – ومنها دار محمد عز الدين باشا الحلبي ودار السيد يوسف بك حسن رئيس محكمة الاستئناف السابق ودار السيد جاد الله بك عز الدين عضو مجلس النواب ، وقد التقيت فى هذه الدور بأهل السويداء وأفاضلها ، من آل هنيدى وآل سلمان جابر وآل مزهر وآل أبوعياش وآل حمزة وآل سلام ، ولولا اضطرارى للسفر إلى دمشق لمواعيد لابد منها الليلة لبقيت فى السويداء طويلاً ، لأنى أحببتها لجمالها وكرم أهلها ، وكونهم كانوا يصرون على بقائى ، ولم أتمكن من مغادرتها إلا بعد وعود مصحوبة بأيمان مغلظة بأن أعود إليهم ، ولا أزال أنوى العودة إليها إن قدر الله لى زيارة سورية مرة أخرى .

ووصلت إلى دمشق ليلاً ، مستأنفاً اتصالاتى هنا وهناك استعداداً للعودة إلى القاهرة .

غوطة دمشق

وكان صديقى فخرى بك البارودى الوطنى القديم قد رتب لى وقتاً لزيارة ضواحى العاصمة السورية والأماكن التى كانت المعارك تجرى فيها بين المجاهدين السوريين وبين الجيش الفرنساوى ، وخصوصاً فى ثورة سنة ١٩٢٥ – ١٩٢٨ وقد مشت بنا السيارة ساعات بين تلك البساتين النضرة التى كانت أشجارها خير حجاب للمجاهدين فى حركاتهم الحربية ، كما كانت جدران الحدود بينها خير متاريس لهم يكمنون للأعداء خلفها ، هذه « جوبر » وهذه « بابيلا » وهذه « حرستا » وهذا « جسر تورا » وهذه « دوما » وهذه «عربين» حيث كان مصرع الجند الإفرنسى يتكرر عندها من حين إلى آخر ، والسعيد منهم هو الذى كان يفلت من بأس المجاهدين بالحرب ! وتلك قرية « مضايا » التى باغتها الجيش الفرنساوى ذات صباح بلا سبب ولا إنذار بإطلاق المدافع عليها فخسفها وطمر سكانها تحت أنقاضها فاستشهدوا جميعاً !

إننى وأنا أسطر هذه الفظائع بعد ربع قرن لاأزال أتذكر الاحتجاج الصارخ الداوى الذى بعث به نسيب مسلم الخياط بك قائمقام الزبدانى للسلطة الفرنساوية استنكاراً لتلك الجريمة الوحشية التى هزت الضمير الإنسانى هزاً ، وكيف أنه استقال من منصبه برغم فقره وحاجته إلى المرتب احتجاجاً على تلك القسوة التى لايرتكبها قوم يشعرون بمعنى الإنسانية .

وفيما كنا فى طريق العودة إلى دمشق مررنا بحى « الميدان » و « باب شرق » و « باب توما » وهى من أحياء دمشق التى ذاقت ضواحيها من فرنسا صنوف الهول والفظائع ، كما أذاق المجاهدون فرنسا من بأسهم ماهو أشد هولا ...

وقد وصلت إلى الفندق بعد هذه السياحة المؤثرة وأنا ملتهب الأعصاب ، هائج ثائر النفس، بل أكاد أحترق غضباً وحقداً على الاستعمار الآثم ، وعلى كل من يؤيده وعلى كل من يصبر عليه ولا يقاومه ، لأنه بسكوته يغريه على التمادى فى العدوان على وطنه هو وعلى أوطان الناس أيضاً ، ويكفى ماحل بفلسطين التى كانت ضحية لشهوات عصابة من أصحاب السلطان والمناصب والألقاب الذين هونوا من أمرها ، وسهلوا للغاصبين انتزاعها منا بعد أن استهانوا بأمرها وشجعوا الأعداء علينا ، بل انهم نزعوا سلاح المجاهدين الفلسطينيين ثم تركوهم عزلاً وهربوا من فلسطين كلها ...

اللاجئون والمشردون

وكانت دمشق غاصة بالفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم على أبشع الصور وأشدها عاراً وشناراً . لأنهم صدقوا جامعة الدول العربية وزعماءها وساستها وأصحاب المناصب والألقاب الذين يجلسون على كراسى الحكم والأبهة فيها ...

إن فى سورية الآن نحو ١٤٠ ألف فلسطينى ، وتضم مدينة دمشق منهم نحو خمسين ألفاً وهو عدد هائل بالنسبة لعدد سكانها ، وشكراً لأهل الشام الذين جعلوا هؤلاء الشهداء الأحياء مواطنين لا ضيوفاً ، ولولا ذلك لكانت المصيبة أعظم ، وقد رأيت الكثيرين من الفلسطينيين يشغلون بعض المناصب فى دوائر الحكومة والمعارف والبنوك والمحال التجارية ، كما أنى رأيت المحامين والمهندسين والأطباء والتجار منهم يزاولون أعمالهم فى دمشق مثل

أبناء دمشق ، وأما بقية الفلسطينيين الذين نكبوا بضياع وطنهم فإنهم سكنوا المدن الأخرى بعد أن منحتهم الحكومة السورية جميعاً حق المواطن فى كل شىء .

ولم أستغرب هذا الحنو من السوريين على إخوانهم الفلسطينيين ، فقد سبق لسورية أن احتضنت عشرات الألوف من مهاجرى الجزائر بعد نكبتها بالاحتلال الفرنساوى ، ولا يزال الحى الذى استقروا فيه على أطراف جبل قاسيون وسفوحه عامراً بهم وهو الذى يسمى بحى المهاجرين .

وقد لمحت فى شوارع دمشق وجوهاً فلسطينية كثيرة كنت أعرفها فى يافا وحيفا وصفد وطبرية وبيسان، وأعرف ما كانت عليه فى وطنها من الثراء والوجاهه والنعمة، ولكنى رأيت هذه الوجوه الآن وهى شاحبة مصفرة وأجسام أصحابها ناحلة وملابسهم رثة ، ولمحت تجاراً كانوا أغنياء هناك فإذا بهم يصبحون باعة سلع تافهة يحملونها على أكتافهم أو بين أيديهم ويتجولون بها فى الشوارع والحارات والدروب ...

وقد آليت على نفسى أن أذيع وصف حالتهم ليعرفها الجيل المقبل ، وأما الجيل الحالى فلا كلام لى معه لأنه اشترك فى الجناية عليهم وتستر على الجناة الذين نكبوهم ، ولا يسعنى قبل أن أختم هذه السطور إلا أن أستمطر اللعنة الأبدية على الذين كانوا السبب فى مصرع فلسطين وتشريد أهلها، ومطالبتهم بدماء الشهداء الذين راحو طعمة لفظائع اليهود وضحايا الجوع والأمراض ، وأصبحت بقاياهم قطعاناً من المتسولين والشحاذين والتائهين .

السلطان صلاح الدين والملك الظاهر

ولم أجد ما يهدىء من روعى - وقد يدخل الأمل والطمأنينة على نفسى - إلا القيام بزيارة ضريحى الملكين المجاهدين المنقذين السلطان صلاح الدين الأيوبى والملك الظاهر بيبرس، اللذين كان من حظ دمشق وهو مما يشرفها أيضاً أن يدفنا فى ترابها بل فى قلب المدينة الصابرة المنتصرة ، فوقفت أقرأ لروحيهما أم الكتاب وأترحم عليهما وعلى جيوشهما التى استشهد أبطالها فى سبيل الدفاع عن شرف الإسلام وإنقاذه من الغزاة ، وقلت فى نفسى هل يقيض الله للأمة العربية رجالاً يسطرون فى تاريخها مثل تلك الصفحات البيض الخالدة التى سطرناً بعدها أسود الصفحات ؟ .

وداع دمشق

اتفقت مع إخوانى الذين يهمهم أمر الدكتور أمين رويحة على نشر مظلمته فى البلاد العربية المجاورة مادامت صحف دمشق مكممة تعيش بين السيف والنطع، وأن أعمل على إرسال محامين من مصر ليشتركوا فى الدفاع عن أمين ، وتعريف حكام سورية الجدد بالمجاهد الكبير الذى يحبسونه بدلا من تكريمه ، وأن الأمة العربية كلها تعرفه وتقدر جهاده ما داموا لحداثة عهدهم بأمور بلادهم يجهلونه ولا يعرفون قدره ، وسامح الله أهل الحكم الماضى الذين اشتغلوا بتصغير إخوانهم وإهمال زملائهم ، حتى كانت النتيجة ضياعهم هم وإخوانهم معهم ، وكنت أقول فى نفسى. ترى لولم يكن فخامة رئيس الجمهورية يعرفنى، أولو لم يكن لى فى سورية أحباب من غير أهل السلطان وهم الذين بقوا لى : أكان أحد يهتم بى فى دمشق أو يستمع لى أو يسأل عنى ...

وعرف الأصدقاء والمعارف من كرام الشام بقرب سفرى فى صبيحة مبكرة غير معينة الساعة من اليوم التالى ، فتكرموا بالمجىء إلى الفندق تلك الليلة للوداع ، وكان فيهم سادات المدينة وأعلام البلاد ، ومنهم أعيان الفلسطينيين وكبراؤهم الذين نزحوا إلى الشام ، وها إنى أسطر على صفحات كتابى شكر الذوات الذين تفضلوا بالوداع ولم أستطع إرسال كتب الشكر إليهم ، وهم السادة : لطفى بك الحفار رئيس الوزراء الأسبق ؛ والشيخ كامل القصاب، والشيخ عبد القادر المغربى، وسامى باشا مردم بك، ومن الوزراء السابقين بديع بك المؤيد، وشاكر بك الحنبلى، ومعروف بك الدواليبى، ومحمد بك المبارك ، وصبرى بك العسلى ، وإحسان بك الشريف وعفيف بك الصلح، والأمير مصطفى الشهابى، والدكتور حيدر مردم بك، وعمر بهاء الأميرى بك وعارف بك النكدى محافظ جبل الدروز الأسبق، وأحمد فؤاد القضمانى بك ومظهر بك القوتلى وظافر القاسمى بك وجميل الجابى بك وعصام الإنكليزى بك وابو الهدى بك اليافى وشفيق بك سليمان والدكتور وحيد شوقى بك والدكتور أحمد قدرى بك والدكتور صبحى بك أبو غنيمة وصبحى بك الخضراء، وعزت بك دروزة والشيخ عبد الله القلقيلى وأسعد بك الغصين ومحمد على بك الغصين ، والشيخ نمر الخطيب والأساتذة جورج اليان وحسنى كنعان وفيصل النابلسى والدكتور ناجح كنعان وفتحى النابلسى ووصفى بك عبد الهادى وفخرى بك البارودى

والشيخ أبو الحسن القصاب وشوق بك العبوشي ، والسادة اسحق عبد السلام الحسيني ومصطفى كامل الحسيني وسالم الحسيني والأستاذ نجيب بك الريس صاحب القبس ومحمود بك الصباغ ، . ونهاد بك القاسم والسيد محمد على دروزة والأستاذ حسن حبيب حوا ، والأستاذ مصطفى الزرقاء عضو مجلس النواب، وعبدالكريم بك العائدى مدير العشائر والأستاذ سعيد التلاوى صاحب جريدة الفيحاء والأستاذ إيليا شاغورى صاحب جريدة البلد ونصوح بك بابيل نقيب الصحافة والسيد حمدى بابيل من أصحاب جريدة الأيام ، والسيد بشير الموف صاحب جريدتى المساء والمنار ، والسيد نجيب حرب صاحب جريدة الجبل والشيخ مصطفى السباعى عضو مجلس النواب والقائد السابق عونى بك القضمانى والأستاذ زهير الكزبرى مدير جريدة البلد والأستاذ وجيه الحفار صاحب جريدة الإنشاء والسيد محمود صدقة من أعيان المهاجرين فى الولايات المتحدة ، والسيد على الدباغ ، والأستاذ سمعان الله وردى مندوب الأسوشيتدبرس ، والأستاذ مفيد الحسينى مبعوث وكالة الأنباء العربية والدكتور مصطفى البارودى والأستاذ يوسف الرويسى مدير مكتب المغرب العربى ، وابرهيم بك الغصين وكمال الدين صلاح بك مستشار المفوضية المصرية والأستاذ محمد على أبو درة بك مدير القسم الثقافى بالمفوضية المصرية . والأستاذ هنرى كتن المحامى والأستاذ أحمد بورقيبة والسيد رياض بندك والسيد هادى المعصرانى والأستاذ الشاعر الكبير الحومانى ، والسيد رفعت النابلسى الخ

وجاء من بيروت الزعيم المغربى السيد الفضيل الورتلانى والشاعر المعروف الأستاذ حليم دموس والدكتور فريد أبوسليمان والسيد محمد على البزرى ، ومن دوما الدكتور سعيد بك عودة، ومن جبل الدروز عطوفة محمد عزالدين باشا الحلبى ، وجاءت برقيات وتلفونات ورسائل من العلامة الشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان بصيدا والأستاذ نظير زيتون من أعيان العرب بالبرازيل نزيل حمص ، والسيد عبد الله عمارة نزيل بيروت والأستاذ فريد أبو عزالدين من أعيان العبادية ، والأستاذ أحمد بك الإمام نزيل بحمدون ، والأستاذ محمد رشدى الخياط نزيل طرسوس ، والحاج خليل أبو الخدود من أعيان بيروت .

توديع فخامة الرئيس - وبطاقتان...

وكنت فى النهار قد ذهبت إلى القصر الجمهورى فزرت فخامة الرئيس الأتاسى مستأذناً بالسفر ومودعاً وقد تفضل فخامته بإبقائى لديه أكثر من ساعة تحدثنا فيها ملياً... ولم يفتنى أن أذكر لفخامته أن زيارة منه لمصر فى هذه الأيام سيكون منها كل نفع لسورية، لأنى لمحت ضباباً فى أفق العلاقات بسبب أشياء نشرتها صحف الشام وكدرت الرأى العام المصرى فى حين أن مصر هى الحاضنة للجامعة العربية، سياسياً وعسكرياً ...

وعند منتصف الليل مررت بمركز « الأركان حرب » وهى ساعة لا يمكن أن يكون العقيد الشيشكلى فيها، فلما تأكدت من عدم وجوده هناك ناديت أحد جنود الحرس وأعطيته بطاقة « وداع » للعقيد ليسلمه إياها غداً، وقد صنعت مثل ذلك بالنسبة لدولة رئيس الوزراء القدسى بك، وكان قصدى من ذلك أن لا أواجههما حتى لا يدور بيننا حديث عما رأيت وسمعت فى الشام أوماذا أنوى أن أصنع فى مصر، فى ذلك ما فيه من إحراج لى، كما أنه لا يجوز أن أبرح البلاد بدون مواجهتهما مودعاً وشاكراً حسن وفادتهما، فكانت طريقة وضع بطاقتى الوداع خير مخلص لى من الحرج ...

الكخيا والحورانى

وهنا قد يبرز سؤال وهو: لماذا لم أجتمع بالسيد رشدى بك الكخيا رئيس مجلس النواب وهو عماد العهد الحاضر ورئيس الأكثرية البرلمانية، ولا بالسيد أكرم بك الحورانى الذى هو المحرك للجيش وعميد الانقلاب الذى يدير الأمور من وراء ستار ...

والجواب على ذلك أنى لم أشأ عرض نفسى عليهما للمقابلة، ولا هما أبديا رغبة بلقائى، وما الفائدة من الاجتماع بمن يستطيع التملص من تحمل مسئولية ما يجرى فى سورية، بأن يقول الكخيا: إن أمر الحكومة فى يد رئيس الوزراء! ويقول الحورانى: إن أمر الجيش فى يد قائده العام!

فأنا قد اجتمعت برئيس الحكومة وبقائد الجيش، فما حاجتى إذن إلى سماع هذا الكلام السياسى الذى لا طائل تحته ...

فخرى البارودى

وفى ساعة مبكرة من صباح ١٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠ كنت أبعث بحقائبى إلى السيارة التى ستحملنى إلى المطار وإذا بفريق من الأصدقاء يجىء للوداع وفيهم فخرى بك البارودى الذى يمثل « الدمشقى » الأصيل فى شمائله ولطفه وإناقته فى شخصه وفى داره وحياته أصدق تمثيل ، فقال السيد نجيب حرب بماذا تصف فخرى بك لأنشر وصفك له فى جريدتى ؟ فقلت له اكتب :

« لم أجد فى دمشق ألطف ولا أبدع ولا أسعد من وجود فخرى البارودى فيها ، إننى أفهم أن تكون دمشق بدون الغوطة ، ولكننى لا أستطيع أن أفهم أن دمشق يمكنها أن تكون لطيفة بدون فخرى !

يجوز أن تعيش الغوطة بدون ماء ولا ظل ولا زهر ولا ثمر ، ولكن دمشق لا يمكن إن تكون بدون فخرى ، فهو الزهر والثمر والظل والماء والحياة ، إن فخرى فى بيته « الدمشقى » الأثيل الجميل ، ومجلسه الأنيق ، لتحفة حية فى متحف حى ، يؤنسك قادماً ، ويسعدك جليساً ، ويقرئك ضيفاً ، ويودعك باسماً مؤنساً كريماً .

وفخرى يمتاز عن أبناء هذا الجيل بشىء لا يشاطره فيه أحد ، وهو أنه يجلس إليك وتأنس إليه دون أن تسمع منه شكوى من أحد ، ولا حسداً لأحد ، ولا مناً بجهاد ، ولا إدلالاً ببذل أو تضحية . فهو فى الحق زهرة الشام ، وريحانة الغوطة ، وبلسم القلوب ، وهو فى مجلسه الأنيق وعشرته الصافية خير دواء للنفس وأمتع بهجة للقلب ، فحديثه يسر الخاطر ودعابته تشرح الصدر ... »

نشرة وداع وحادث فى المطار !

وفى الساعة التاسعة من ذلك الصباح كنت أنزل من السيارة أمام مطار المزة ، وكان المطر يهطل والرياح تصفر ، فإذا بعصبة طيبة من الأصدقاء قد بكرت وسبقتنى إلى المطار وكان فيهم صاحب الدولة السيد لطفى بك الحفار رئيس الوزراء السابق ومعالى السيد صبرى العسلى بك وزير الداخلية السابق والأستاذ صبحى بك الخضراء والأستاذ شوقى العبوشى والسيد المعصرانى فجلسنا نشرب القهوة فى « البوفيه » بينما يتمم أحد الأصدقاء معاملة جواز السفر والجمرك

والصحة ، وفى خلال ذلك سطرت على ورقة صغيرة بعض كلمات وسلمتها سراً لصبرى بك العسلى وطلبت منه أن يأمر سكرتيره بنسخ عدة صور عنها وإرسالها للصحف الدمشقية .

وكان السيد المعصرانى يريد أن أقضى له حاجة ما بالقاهرة فقلت له اكتبها على ورقة حتى لا أنسى ، فكتب عليها مايريده وسلمنى إياها فوضعتها فى جيبى ! ثم قمنا إلى الطائرة ، فودعت إخوانى وركبت ، وبعد أن ربطنا الأحزمة ودارت المحركات ، رأيت أشخاصاً يهرعون إلينا ويصعدون إلى داخل الطائرة ، وإذا بأحدهم يقول لى هات المكتوب الذى أعطاك إياه المعصرانى ! فقلت له ومن أنتم ؟ فقال : نحن من إدارة الأمن العام ، فسألته هل معك أمر من قاضى تحقيق أو من النائب العام يخولك ذلك ؟ فقال كلا ولكننا رأيناك تحمل رسالة وكان الواجب أن ترسل بالبريد. فقلت وهل أنت مفتش بريد ؟ فقال لا . ولكن عندنا أوامر بمنع الركاب من حمل الرسائل ، فسألته أن يبرز أوراقاً تؤيد كلامه أو يطلعنى على أوراق هويته التى تؤكد أنه من رجال الأمن العام ، وهنا أشار إلى من معه فالتفت إليهم فرأيت بينهم أحد رجال الشرطة وهو فى ملابسه الرسمية ، فقلت له لن أعطيك المكتوب إلا إذا استعملت القوة ! وكان ركاب الطائرة يرون ويسمعون وهم فى دهشة ، فقال الرجل إننا لن نستعمل القوة ولكننا سنمنع الطائرة من السفر ، فقلت له امنعها . فرجع يقول اعطنى المكتوب ، فقلت له لن أعطيك شيئاً إلا إن أطلعتنى على أمر من رئيسك الأعلى ، أو تأخذه منى بالقوة ...

وطال السكوت من جانبه وجانبى ، وجاء قائد الطائرة يريد أن يحل المشكلة ، وأخذ الركاب يضجون من الشرطة ، ومنى أنا أيضاً ...

ولما رأيت هؤلاء الجواسيس لايريدون براحاً ، قمت من مقعدى بعد أن جعلت زبانية الأمن العام يخرجون معي ونزلت من الطائرة وأنا أبرطم وأعربد ، فاندهش المودعون ومن كان هناك من أهل المطار ، فصرخت أطلب إحضار حاكم المطار المسئول فجاء ضابط ، فأخبرته بما وقع من جواسيس الأمن العام وأن يبلغه لولاة الأمور ثم أخرجت الورقة من جيبى ولوحت بها للجواسيس بعد أن فتحتها وقلت لهم أهذه هى الورقة ؟ فلما رأوها قالوا نعم ، فدفعتها إلى الضابط وقلت له إن هذه الورقة التى جئتهم لايوجد فيها شىء ، فبعد أن تطلع عليها

تستطيع أن تعطيهم إياها « ليبلوها ويشربو ميتها » ولكنى آسف لهذه التصرفات التى لم أر مثلها من الإنكليز بفلسطين ومصر ولا من فرنسا فى لبنان ، فكيف تقع لى من حكومة عربية، وأنا لو كنت أعرف أنكم تعاملون الناس هنا على هذا النمط ما كنت أجىء لبلادكم ، ولن أعود إليها ، ثم التفت إلى صبرى بك العسلى والسيد المعصرانى وطلبت منهما إبلاغ الحادث إلى العقيد الشيشكلى وإلى رئيس الوزراء ، وبعد ذلك عدت أدراجى إلى الطائرة فأدارت محركاتها وانطلقت إلى القاهرة فوصلناها فى ساعتين ...

أما هذه الحادثة فقد تعمدتها لأجعل منها درساً لبوليسهم ورداً على تجسسه ، وإلا فإنه كان فى مقدورى تسليمهم الورقة بمجرد طلبها وكفى الله المسافرين وكفانى شر التعطيل ومغبة المشاكل ...

النشرة !

وأما الورقة الثانية التى كتبتها وسلمتها لصبرى بك فهى نشرة لتوديع الشام ، وقد أرسل نسخاً عنها إلى صحف دمشق كما رجوته أن يفعل فنشرتها فى صبيحة اليوم التالى ، وهذا نصها :

« أغادر دمشق العزيزة بعد أن سعدت فيها بأيام كريمة ، شعرت فى خلالها بأنى مشمول برعاية لم أستغربها من شعب نبيل عظيم كان البانى الأول لمجد العرب ، وعليه المعول فى إعادة ذلك المجد ، وإنى أتقدم بالشكر القلبى لفخامة رئيس الجمهورية المعظم ، والشعب السورى الكريم ، على اختلاف هيئاته وأوساطه وصحافته ، وكم كنت أتمنى رؤية دمشق – أم طليطلة وقسيمة القاهرة وبغداد – تنعم فى حالة أسعد ، واستقرار أفضل ، وعلاقات مع شقيقاتها أوثق وأمتن ، حتى لا أفارق العاصمة الأموية – بعد أن غبت عنها ستة وثلاثين عاماً – وهى مضطربة الخاطر ، قلقة البال ، ولا سيما بعد أن أسعدنى الله برؤية سورية جمهورية مستقلة لا أثر فيها للاستعمار »

إن هذا الوداع المملوء بالغمز واللمز كان لازماً لإسماع حكام سورية شيئاً عن رأى الغير فيهم وحكم الناس على عهدهم ، وقد كتب لى أحد الأصدقاء بعد ذلك يقول إن هذا البيان وقع يومها

على البعض وقع « القنبلة » كما أنه شفى نفوساً كثيرة ...

وبعد ذلك بأسابيع زار القاهرة السيد على بوظو بك وزير الزراعة السورية فتقابلنا مصادفه فلم يكتم عنى ما كان لنشرة الوداع عندهم من مرارة ، والحق معه ؛ لأنها أشمتت فيهم الخصوم. ثم جاء القاهرة بعد ذلك السيد المصرانى فسألته عما كان لحادث بوليس الأمن العام معى فى المطار بسبب ورقته ، فقال إن العقيد قد استدعاه وأظهر له الإستياء من سوء تصرفهم وأمر بنقلهم من هناك إلى جهة أخرى وأنه كلف المصرانى بأن يخبرنى بذلك « ليخف زعلى من الحكومة السورية » فقال له المصرانى لن أخبره لأنى أحب أن يزداد سوء التفاهم بينكم وبينه.

المؤتمر الصحفى

كان أهم شىء فى نظرى يجب أن يعمل للدكتور أمين رويحة بعد رجوعى من دمشق، هو إذاعة الحقيقة عن قضيته ، ولذلك دعوت بعض الزعماء والمحامين والصحافيين إلى تناول الشاى بفندق شبرد ، وقصصت عليهم ما هنالك فتطوع للدفاع عن أمين نخبة كريمة من رجال المحاماة فاستقر الرأى على سفر المحاميين الأستاذين أحمد كامل قطب بك رئيس حزب الفلاح الاشتراكى ومحمد طاهر الخشاب بك عضو مجلس الإرشاد للإخوان المسلمين. ونشرت الصحف تفصيل ما رويته فى هذا الاجتماع عن القضية وما رأيت فى الشام .

عرقلة

وإذا بمحام من أحزاب الخوارج كان فى الأصل ضابط بوليس يعلن عن « تطوعه » للدفاع عن أمين رويحة بمحكمة دمشق، مع أنه لا يعرفه ، ولا سمع به ، ولا يهمه أمره ، ولا أمر سواه ، ولو كان المتهم هو سيدنا يوسف بن يعقوب عليهما السلام ... وقد بدأ هذا المحامى دفاعه عن أمين هنا بالقاهرة... بأن عمل بضعة أيام فى التصغير من مكانة المحاميين اللذين تطوعا بتضحية أعمالهما والسفر لدمشق ... فتهجم عليهما وانتقص من قيمة لجنة الدفاع التى أقوم بأمرها وأثار الشقاق ابتداء من هنا . . .

ولما وصلوا جميعا إلى دمشق إذا بالمحامى الضابط يشغل نفسه هناك بالمشاجرة معهما فى نفس المحكمة ! فأضعف بذلك مركزه ومركز هيئة الدفاع كلها أمام المحكمة وأمام الرأى العام ، مع أن الغرض الأصلى من مجيئهم لدمشق هو التأثير على المحكمة وإنعاش الرأى العام .

وقد بحثت عن الحقيقة فى أسباب وصول هذا المحامى الغيور الذى احترق قلبه بغتة على الدكتور أمين ففهمت كل شىء... وخلاصته بدون شرح ولا توضيح أن شخصاً يهمه بهدلة الشيشكلى (١) وليس إنقاذ أمين ـ قد جمع نقوداً من بعض السوريين بمصر، ودفعها لذلك المتطوع الكريم... الذى لم يكفه قبض الفلوس، بل راح يزعج المحامين المتطوعين من عراقيين ومصريين ولبنانيين!

وقد سافر الأستاذان الخشاب وقطب إلى دمشق مرتين وحضرا المحاكمة ولكن القضية لا تزال عند طبع هذه السطور مؤجلة بسبب مرض الدكتور رويحة شفاه الله وجزاهما على شهامتهما كل خير.

هذه خلاصة قضية أمين التى تطوع لها محامون من مصر والعراق ولبنان وهم غير المحامين السوريين طبعاً ...

الدكتور أمين رويحة جالساً فى المحكمة العسكرية بدمشق
وحوله فريق من المحامين المصريين واللبنانيين والعراقيين والسوريين

(١) هذا الشخص اتخذ قضية الدكتور رويحة وسيلة لإضعاف مركز عدوه الشيشكلى وليس حباً برويحة ولو كانت القضية تخص الشيطان فهو يساعده فيها على الشيشكلى...

عباس الخرسان

وبعد فإن خير مايسجل نختام لهذا الفصل هو الكتاب التاريخى الذى أرسله المتهم عباس الخرسان ـ وهو طالب حقوق عراق ـ إلى المحكمة العسكرية التى حكمت عليه بالإعدام فى القضية التى نحن بصددها فقد قال لرياسة المحكمة إنه يسقط حقه فى « تمييز » الحكم كما يسقط كل حق فى طلب العفو ، ويتقدم برجاء وحيد وهو أن يتم إعدامه رمياً بالرصاص وليس بالشنق.

ثم يقول فى كتابه المؤثر : إن الميتة شنقاً إنما هى ميتة المجرمين وليست ميتة الوطنيين المخلصين ، وهو لايعتبر نفسه مجرماً ، بل شاباً عربياً وطنياً أدى واجبه فى محاربة الصهيونية والاستعمار ودفع خطر الهلال الخصيب عن استقلال سوريا .

ويقول : إننى لا أعتبر الحكم الصادر علىّ حكما باسم الشعب السورى العربى الذى يقدر الأبطال الوطنيين حق قدرهم ، ولكنه حكم صادر عن محكمة خاضعة لسيطرة أخرى، وتخضع هذه السيطرة نفسها لسيطرة أجنبية استعمارية تتحكم سراً فى سوريا وشعبها . وسيجىء يوم ، يدرك فيه السوريون أن عباس الخرسان جدير بأن يدرج اسمه ولو فى زاوية متواضعة فى تاريخ المجاهدين الأحرار ، الذين أرادوا الخير لوطنهم ، وبذلوا أرواحهم ودماءهم رخيصة فى سبيله ، وماتوا ميتة الشهداء الأبرار ، وبعد أن شكر عباس الخرسان رئيس المحكمة العسكرية[1] الذى أبى عليه ضميره الحكم بالإعدام ، أعلن صفحه عن القاضيين العسكريين اللذين لايفهمان شيئاً من القانون[2] بل قاما بتنفيذ الأوامر التى صدرت إليهما حتى ولو كانت تقضى بالقضاء على الأبرياء وإعدامهم ، وبإعدام الفكرة العربية المتحررة ، والقومية الناهضة المجاهدة ضد الاستعمار .

وختم عباس الخرسان كتابه قائلا : اننى أغمض عينى قرير العين مطمئناً إلى أن الشعب السورى العربى سيهب فى الوقت المناسب لدفع أخطار الاستعمار التى سلطت على مقدراته

(١) هو الأستاذ إسماعيل القولى بك .

(٢) لقد بلغ التخبط فى تلفيق هذه الدعوى أن المحقق ذكر فى قرار الاتهام الذى أعطاه للصحف أن الملك ابن السعود قد أرسل إلى المتهمين نقوداً لقتل الملك عبد الله بشرق الأردن ، وهى حماقة من قاضى التحقيق بلاشك، لأن ذلك غير صحيح إطلاقاً، بل انه لوصح ـ على استحالته ـ فإن الأدب الدبلوماسى والعرف الدولى كانا يقضيان بإغفال الأسماء المتوجة . بهذه العقليات الهوجاء أديرت هذه الدعوى وبهذه الأساليب لفقوها .

ووضع حد للدكتاتورية والطغيان وتأدية مهمته فى تحرير الشعوب العربية .. وإننى إذ ألقى وجه ربى بقلب مطمئن وضمير مرتاح أنحنى خاشعاً ، وأبعث من ضفاف بردى الخافق إلى ضفاف دجلة والفرات بتحيتى إلى شهداء العراق الخالدين فى الوثبة العربية، وإلى إخوانى الذين سقطوا مضرجين بدمائهم فى ساحات بغداد وبرصاص الاستعمار ، عندما هبوا لتحرير بلادهم من الطغيان، وأعتبر كل نقطة من دمى العربى هى رصاصة فى قلب الاستعمار العالمى والصهيونية.

ثم أبعث بتحيتى إلى والدة هناك ثكلى ليس لها فى الدنيا ولد سواى تركزت آمالها فى أن تراه عن قريب محامياً ، وأطلب إليها أن تكون جديرة بحمل ثقل المصاب ، فإننى للبلاد العربية قبل أن أكون لها ، وإننى أعتبر أن الحليب الذى أرضعتنى إياه أقوى من الاستعمار ورصاصه وأشرف من ماء وجوه خدام الاستعمار ومنفذى مؤامراته على الشعب السورى العربى والشعوب العربية . وأقول لها أخيراً : كونى فخورة ، فلقد مات عباس ميتة شريفة تليق به ، وما كان يتمنى ميتة أشرف منها فى سبيل غاية أشرف من الغاية التى مات من أجلها .

ووصيتى الأخيرة إلى جميع شباب العرب أن يتعلموا كيف يجاهدون ضد الصهيونية والاستعمار وكيف يجودون بأرواحهم ويبذلون دماءهم فى سبيل الحرية والاستقلال » .

ملحق ...

وفيما كنت أطبع هذه الصفحات حصلت مساومات بين حسين توفيق وبين الحكام الذين يهمهم التخلص من الدكتور أمين رويحة ، على أن ينقلب حسين مرة أخرى ويشهد بأن رويحة هو الذى حرضه على قتل العقيد الشيشكلى . بعد أن كتب قبل ذلك لأمين رويحة كتاباً يعتذر فيه عن شهادته السابقة ويقول له إنها أمليت عليه تحت الضرب والعذاب وقد وقف حسين توفيق فى المحكمة وأيد ذلك الكتاب وسرد عليها كيف عذبوه وأرغموه على الاعتراف على نفسه وعلى رويحة .. فالآن وبعد أن يئس حسين توفيق من النجاة وأصبح لايهمه إلا إنقاذ رقبته ، رضى من الدنيا بالسجن المؤبد ، وبعده العفو يوماً ما ... فى مقابل الشهادة على رويحة ! وقد حدث هذا الانقلاب على أثر ذهاب والد حسين توفيق – أى توفيق باشا أحمد – إلى دمشق لزيارة ابنه ، ففهم الناس أن الاتفاق قد تم بين الباشا وبين حكام سورية على أن يشهد ابنه على الدكتور أمين لينجو الإبن من المشنقة ...

حالة الجامعة العربية

الجامعة العربية وهل أفادت العرب؟

بعد مضى العام الأول على قيام الجامعة ، وعند ما كان العالم العربى لا يزال مأخوذاً بها ، تنبهت إلى حالها وتصرفات أمينها العام وما ينتظر لها من سوء المنقلب وتوقعت ضياع فلسطين على يدها . فبادرت وكتبت ما لاحظته فى جريدة مصر الفتاة بالقاهرة ، وأرسلته إلى جرائد فلسطين قبل أن تضيع، وإلى جريدة السجل فى العراق، وإلى جريدة اليوم فى بيروت ، وإلى جريدة الاستقلال فى الأرجنتين ، وإلى جريدة العرب فى باريس ، فنشرته هذه الجرائد جميعاً، لأنبه العالم العربى إلى حقيقة الجامعة ، وأنها وأمينها عزام باشا لايصلحان لشىء ، وقد حذرت الأمة العربية من الركون إلى الجامعة حتى لا تضيع فلسطين من أيدينا ، وقد تحملت من الناس لوماً شديداً على تشاؤمى وسرعة سوء ظنى ، فقلت لهم إننى قاعد بجوار الجامعة ومطلع على ما تصنع ، ولذلك حذرت وأنذرت وأنا أدعو الله أن يخيب ظنى ويحسن تفسير حلمى .

وأما الإنذار الأول عن الجامعة والتحذير منها وهى وليدة بنت عام أى فى أوائل سنة ١٩٤٦ فهاهو ، وقد كان رداً منى على أسئلة وجهها إلىّ قوم يعيشون فى أقطار أخرى . وهى : كيف حال الجامعة وهل أفادت العرب؟ وهذا هو الجواب :

«فهو سؤال صعب وموضوع شائك، فمهما قلت أو كتبت سواء أكان مع الجامعة أم عليها، فلابد من أن يغضب أناس ويرضى آخرون. ولكن لابد من الكلام لوضع الأمور فى نصابها فأما الرضى فلاشك بأنه سيأتى من الرأى العام ، وأما الغضب فمن بضعة أصدقاء أعزاء وأفراد ينتفعون من مرتبات الجامعة أو من الجاه الذى أضفته عليهم بلا استحقاق ...

وهذا السؤال ليس بالأول من نوعه مما وجه إلىّ عن حقيقة جامعة الدول العربية فقد سألنى كثيرون من جهات شتى ، وآخرهم السيد إبراهيم بك عطار باشى نائب الموصل والسيد صالح بك كنج أبو صالح من فضلاء الجالية العربية فى بونس إيرس عاصمة الأرجنتين، فأجبت خيراً بطبيعة الحال ..

ظنون صحت

منذ ثلاث سنوات وفى مثل هذه الأيام «سنة ١٩٤٣» كانت الاستشارات تدور بين صاحب المقام

الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر وبين الشخصيات الرسمية فى العالم العربى حول إنشاء جامعة الدول العربية . فاجتمعت بشخصية مصرية رسمية محترمة كان صاحبها يقوم بدور هام فى هذه المذاكرات وكان النحاس باشا يعتمد على تلك الشخصية التى كنا نثق بها أيضاً(١) .

فقلت له : هل أخذ النحاس باشا عهداً من الإنكليز بأن لا يتنكروا بعد الحرب لجامعة الدول العربية التى تقومون بالمشاورات من أجلها ؟ فقال ولماذا يتنكرون لها وقد ارتبط وزيرهم إيدن بتصريحه المشهور ؟

فقلت إن الإنكليز لهم سابقة فى خداع العالم العربى لما كانوا فى حالة هزيمة فى الحرب العظمى الأولى ، وهاهم الآن فى حالة سيئة فى الحرب العظمى الثانية ، وقد أخذت الأمم العربية وخصوصاً مصر تتململ من أحوالها ، فالإنكليز يخشون من حركة تشعل نار الحركات الاستقلالية فى الشرق الأوسط فأرادوا إخمادها وهى تحت الرماد ، فأعلنوا بلسان المستر إيدن وزير خارجيتهم بأنهم لا يمانعون فى إجماع الدول العربية على شىء يؤمن مستقبلها ، ولكنى أخشى أن تشغل حركة إنشاء الجامعة فكر العالم العربى عن قضاياه وتخمد الجذوة ، فإذا انتصر الإنكليز فلا أسهل عليهم من التنكر لمصر وللعرب ، كما صنعوا مع المرحوم الملك حسين بن على ، فلا أحب لمصطفى النحاس باشا أن يقع فيما وقع فيه ذلك الملك الشهيد ، فلو أخذتم من الإنكليز ورقة تؤيد كلام إيدن للتلويح بها فى المستقبل لكان خيراً لنا .

فقال صلاح الدين بك : إن النحاس باشا أمسك بكلامهم الذى أرادوه خيالا فيريد أن يجعله حقيقة . فقلت إنهم أعطوا الملك حسين معاهدة ثم أنكروها ، فمن السهل أن يقول إيدن إننى أبديت أمنية شفهية لإحدى الصحف ولكن بصفتى الشخصية ، ثم تأتى وزارة بريطانية أخرى فتقول : ذاك إيدن الذى قال وليست انجلترا فالحقوه وطالبوه ! ولكن نلحق من ؟! ونطالب من ؟ وهو قد أصبح رجلا عادياً ؟؟ ولذلك نرجو أن لا ينخدع النحاس باشا ذلك الرجل الأمين الذى يثق به الجميع، وبعد ذلك تكون النتيجة كنتيجة الحرب العظمى السابقة فإن أفلتت الفرصة منا هذه المرة أيضاً بدون أن نفلت من الإنكليز بقينا تحت كلكلهم عشرات الأعوام.

(١) هو الدكتور محمد صلاح الدين بك وزير الخارجية المصرية اليوم سنة ١٩٥١ .

فقال : إن النحاس باشا إن نجح وأصبحت جامعة الدول العربية أمراً واقعاً فهذه الجامعة مهما تكن ضعيفة فى أول أمرها فلابد من أن تقوى مع الزمن وتستطيع أن تثبت وجودها وتقف فى وجه الإنكليز .

بروتوكول الإسكندرية

واجتمع ممثلو العالم العربى رسمياً ووقعوا ذلك الاتفاق التاريخى الذى أطلق عليه اسم « بروتوكول الإسكندرية » ولكن وزارة النحاس باشا أقيلت غداة توقيعه وجاءت وزارة أخرى تنكرت له ووضعت بدلا منه « ميثاق الجامعة » فقلت لشخصية صديقة من واضعى الميثاق : لماذا انمسخت جامعة الدول العربية فى « الميثاق » بعد أن كانت أقوى فى « البروتوكول » وأين فلسطين فى ميثاقكم ؟

فقال : هكذا أراد « الخواجات » وهو يقصد الإنكليز ...

ولا تسألنى عن صاحب هذا الكلام فهو سياسى محبوب عندى وله ماض طيب[1] .

إن تدخل الإنكليز فى أمر الجامعة ووصول تأثيرهم ـ على الوزارة التى خلفت وزارة النحاس باشا ـ إلى مسخ البروتوكول وإسقاط فلسطين من عداد الدول العربية كان أمراً لافتاً للأنظار ، كما لفتها وجعلها تتأمل ملياً وتفكر كثيراً يوم نشرت الصحف أن مستشار السفارة البريطانية زار وزراء الخارجية للدول العربية قبيل انعقاد مؤتمرهم منذ أيام وأن المستشار البريطانى زارهم واحداً واحداً وعلى انفراد .. فلماذا تلك الزيارة ، وما دخله لينفرد بهم واحداً بعد واحد ؟

تهديد

لقد عرف الناس أن زيارة المستشار البريطانى لوزراء الخارجيات العربية على تلك الصورة إنما كانت لتهديد الجامعة ، بأن يلمح مثلاً للعراق بوجود الجيش البريطانى فى البصرة . . . ويشير لسورية بأن بقايا الجيش الفرنسى لا تزال فى لبنان . وإلى مصر بأنها لا تزال فى أول المفاوضات .. الخ

(١) هو عبد الرحمن عزام باشا على أثر تعيينه بمنصب الأمين العام .

ولا أدرى ماذا قال للسعوديين ولا ماذا قال لليمانيين . . هذا وقد اجتمع المؤتمر تحت تأثير ذلك التهديد وانفض على لا شيء تقريباً . . .

أراضى فلسطين

ولعل أبرز ما تؤاخذ عليه جامعة الدول العربية أنها هيئة قوالة أكثر منها فعالة ، وقد أدى الكلام الكثير من الجامعة إلى الأضرار بقضية فلسطين وخصوصاً فى مسألة الأرض فإنها هيجت يهود الدنيا كلها على عروبة فلسطين فقد صدق اليهود أن جامعة الدول العربية ستنقذ الأرض فبادر اليهود إلى الاستيلاء على الأراضى بأساليب شتى ، بل أن حكومة فلسطين البريطانية صدقت ذلك فصارت تهب الأرض لليهود بمساحات واسعة تارة باسم توسيع مناطق البلديات اليهودية وتارة بتوفير الأرض لليهود المسرحين من الجيش .

وهذا غير المساحات الشاسعة التى اشتراها يهود العالم ، لأن يهود فلسطين وقفوا جميع مشروعاتهم الأخرى وخصصوا جميع جهودهم لتملك الأرض قبل أن تفوت الفرصة وتنقذ جامعة الدول العربية الأراضى المهددة . . . فكانت النتيجة أن اليهود استولوا على الكثير بدون أن تنقذ جامعة الدول العربية شيئاً بل اقتصرت جهودها على درس المقترحات ووضع الخطط على الورق والكلام ، وأما الأرض فقد أخذ اليهود منها قسماً كبيراً وصار لسان حالنا كحال ذلك البدوى الذى صاح : « أوسعتهم ذماً وراحوا بالإبل ! »

إن إنقاذ الأراضى الفلسطينية من أسهل المشاريع ، فصندوق الأمة العربى لإنقاذ الأرض موجود هو وفروعه وتشكيلاته ومجلس إدارته ، فلو أن الجامعة أخذت مليون جنيه من الحكومات العربية فوراً وأمدت به صندوق الأمة بصفة قرض مستعجل لما ضاع شبر من الأرض التى ضاعت بسرعة بسبب كثرة كلام الجامعة ، حتى إن الأسعار هبطت أخيراً لأن اليهود خففوا من حدة هجومهم على مشترى الأرض بعد أن أيقنوا أن الجامعة لم تكن جادة فى مشروعها . . .

عجز الجامعة

نعم وقد ظهر عجز الجامعة فى مسائل أخرى . مثال ذلك مقاطعة البضائع الصهيونية ،

فالجامعة عقدت اللجان ووضعت القرارات ولكنها لم تنجح فى تنفيذ شىء منها ، لأن وزارة المالية لا تزال تمنع تصدير البضائع إلى العرب ولا تزال بضائع اليهود تباع فى مصر . ولا يزال العرب يلقون الموانع فى دخولهم مصر بينما تجار يهود فلسطين علاون أنحاء القاهرة ! فكيف يمنع العرب ويسمح لليهود ؟ ثم ظهر عجز الجامعة فى مسألة الجوازات والجنسية والقومية المشتركة ، لأن وزارة الداخلية لم تبال بشىء مما تراه الجامعة ولا تقبل لها وساطة ولا تترك سطراً من إنجيلها القديم وخططها الاستعمارية التى رسمها لها الانجليز نحو البلاد العربية منذ القرن التاسع عشر . أو منذ الاحتلال البريطانى ، وإن قال قائل ما ذا يصنع عزام باشا الأمين العام للجامعة ما دامت دوائر الحكومة لا تقبل رأيها وترفض وساطتها ولا قيمة عندها لوجاهتها حتى أصبحت لا تحمى ولا تصول . والجواب على ذلك أن عزام باشا يستطيع أن يذهب إلى رئيس الوزراء ، ويقول له : إن جامعة الدول العربية التى مركزها مصر زعيمة هذه الدول ، إذا لم تنفذ كلمتها فى نفس مصر فكيف تعلو كلمتها أمام الدول الأجنبية ؟ فإن لم يستجب رئيس الوزراء لهذا الرأى ولم يأمر وزارة المالية بإقامة الوزن اللازم لرأى الجامعة إن كان صواباً ، ولم يأمر وزارة الداخلية بقبول وساطتها والاسترشاد برأيها أحياناً ، فإن الأمين العام للجامعة يستطيع أن يذهب إلى مولانا الملك المعظم ويقص على مسامعه العالية نبأ تصلب الحكومة مع الأمانة العامة ويقول لجلالته « إن الوزارة لم تفهم بعد أن هذه الجامعة هى غرسكم ومن جملة أعمالكم العظيمة وأنها مشمولة برضاكم ورعايتكم ولكن مادام رأى « موظفى الدواوين » فى المالية هو النافذ وما دام أمر الداخلية البوليسى لا مرد له فإنى أستقيل . »

حالة أمانة الجامعة

لم أدخل مركز جامعة الدول العربية فى مصر إلا مرة واحدة ندمت عليها ؛ لأنى كنت أتصورها شيئاً فوجدتها شيئاً آخر ... دخلتها بمصاحبة جميل مردم بك وزير سورية المفوض بمصر لزيارة عزام باشا لنحمله على إسعاف العرب المشردين فى أوربا ، وها أنا أكتب هذه السطور بعد ذلك بخمسة أشهر دون أن تعمل الجامعة لهؤلاء الناس شيئاً برغم كثرة الاستغاثات التى توالت عليها منهم ومن أهلهم ومن صحف العالم العربى كله .

وقد تيقنت بالاختبار أنه لا تقضى حاجة فى مركز الأمانه العامة ، ولا تفض مشكلة ولا يبت فى أمر ، لأنه لا يوجد فى الأمانة العامة سوى عزام باشا وجمهور من الكتبة والموظفين والحجاب والفراشين ، ولكن لا يوجد شخصية تنوب عن عزام باشا إن غاب أو مرض أو اشتغل بمقابلة صحفية . . . فلا يوجد وكيل للأمين العـــام ولا مساعد ولا سكرتير عام للأمانة . . الخ

وأقصد من ذلك أنه ليس فى الجامعة شخصية ثانية تلى عزام باشا لمتابعة الأعمال وتوجيه الأمور وإدارة الحركة ، ولذلك أصبحت الأمانة العامة عبارة عن عزام باشا وحده ، فلا هو قادر على العمل لكثرته وضعف صحته وميله إلى إنعام النظر الطويل فى أبسط الأمور والاستهانة بعظيمها ، ولا هو يستعين بأهل الكفايات من رجال الدولة أو رجال الدول العربية ليساعدوه ، بل انه اكتفى بما حشد من مستخدمين وموظفين لا يستطيعون توقيع ورقة أو توجيه رسالة أو إبداء رأى أو البت فى مسألة أو فض مشكلة !

الرأى فى الجامعة

لما دفعت هذه الأسطر للجريدة سألنى محررها الفاضل عن رأيى الصريح فى جامعة الدول العربية فى حالتها الحاضرة ، فقلت له إنك تجده فى مجموع هذا المقال ، ولكن ذلك لم يعجبه لأنه يريد جملة واحدة هى: (هل الأفضل أن تكون هذه الجامعة أو لا تكون؟) .

والجواب: «إن الجامعة يجب أن تكون، وأن تبقى، وأن نؤيدها، ونعضدها بكل الوسائل، بعد أن تمنيناها ، ونشدناها طول عمرنا، وطالما حلمنا بها ، وتخيلناها منذ طفولتنا ، فيجب أن نشد أزرها ، ونقف معها ، إلى أن تصبح حقيقة إن شاء الله » اه .

إن هـذا الوصف لحالة الجامعة العربية قبل خمس سنين هو أول صوت ارتفع علناً وعلى صفحات الجرائد ، وقد لاحظ القارئ انه مقال ناعم هادئ لا أثر فيه للحدة . لأنى كنت لا أزال أحسن الظن بأمانة عزام باشا ، وأتوقع الخير من الجامعة .

ولكن الحالة بدأت تسوء يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر ، وصرنا نشهد قرب ضياع فلسطين، فأخذت أوالى الكتابة والتحذير بلهجة أشد وأسلوب أوجع ، إلى أن بلغت الحدة

فيما أكتبه هذا المقال الذى سيجىء وهو فى أوائل مايو سنة ١٩٤٨ أى قبل سقوط فلسطين

الهلع من الإنكليز . . .

ففى ٣ مايو ١٩٤٨ وقبل ضياع فلسطين بعشرة أيام أعطيت للصحف المقال الآتى وجعلت عنوانه مؤلماً موجعاً وهو «ان الهلع من الإنكليز يوجب على جماعة جامعة الدول العربية أن يستقيلوا فوراً أو يغربلوا جيداً» وهو :

أرجو أن يسمح لى حضرة صاحب السعادة عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية بكلمة أقولها له وأن يسامحنى على توجيهها إليه على صفحات الجرائد ، لأنى تيقنت بالاختبار أنه لا يصغى إلا لمن كانوا من « أصحاب الدولة والمعالى والسعادة » وأنه يعمل بقولهم ولو خالف رأيهم كل منطق وكل صواب ، ولكون عزام باشا أصبح لا يبالى بآراء إخوانه المجاهدين القدماء الذين ظلوا عاطلين عن المناصب والألقاب ... تخفت أن يذهب كلامى فى الهواء وأن يكون مصيره الإهمال كسائر المحادثات التى تجرى بينه وبين إخوانه ، كما أنه اعتاد أن لا يقرأ المذكرات التى ترسل إليه من غير « الباشوات » ...

لذلك جعلت الصحف واسطة بينى وبينه لتبليغه رأى غير الرسميين ، حتى إذا أهمله كان الرأى العام خير شهيد على أنى أديت الأمانة وبلغت الرسالة ، لأن العقل والصواب وتقدير المصلحة العامة ليست وقفاً على أصحاب الألقاب والرسميين :

الخواجات

فياسيدى صاحب السعادة .

لقد سألتك منذ ثلاث سنين لماذا مسختم «بروتوكول الإسكندرية» الذى قامت جامعة الدول العربية على أحكامه واستمدت قوتها من قوته فقلت لى إن «الخواجات» ـ أى الإنكليز ـ هم الذين أرادوا ذلك .. فكيف قبلتم تدخل الخواجات وكيف يجوز لكم أن تضللوا الأمة العربية بكتمان تدخل الإنكليز وقبولكم هذا التدخل، ولماذا لم تصمدوا فى وجوههم وتوقفوهم عند حدهم كما صمد لهم النحاس باشا وجماعته وهم أصحاب البروتوكول الذين أصدروه برغم أنوف الخواجات!

يا سيد عزام باشا . لقد قرأت فى الجرائد شكواك من الذين يذيعون أسرار الجامعة وقولك « إن بعض الصحف فى مصر يقوم ـ دون أن يدرى ـ بدور أعظم جاسوس عالى بالنسبة لأعداء مصر والبلاد العربية وأن الأخبار التى تنشر فى هذه الصحف يتلقفها الأعداء ليتعرفوا منها كل مايريدون ، فإذا سقنا فصيلة من المتطوعين أو أرسلنا شحنة من الأسلحة أو تناقشنا فى موضوع دقيق ، فإن ذلك سرعان ما ينشر وسرعان ماينتج عن النشر كثير من المآسى والفواجع وتمزيق للخطط وهدم للوسائل ... »

فأنا أسألك ، كيف أمكن لابن الشارع الوصول إلى الأسرار لولا سوء الاختيار فى تأليف مركز الأمانة العامة الذى حشدتم فيه العاطلين من كل جنس وصنف .

لقد قلت لك منذ ثلاث سنين إن مركز أمانة الجامعة يحتاج إلى غربلة وإلى شخصيات أمينة محترمة تعمل معك وأن تختارهم من أفذاذ رجال الدولة ، وقلت لك إن بعض الذين يعملون معك يجب إبعادهم عن الجامعة ، لأن من عملوا مع الإنكليز فى أيام الحرب الماضية واشتغلوا لحساب الإنكليز فى مراقبة رسائل البريد مثلا ، وفى التجسس على الناس لحساب « قلم النشر » فى السفارة البريطانية ، والبوليس السياسى الخ لايجوز أن يدخلوا باب أمانة الجامعة فضلا عن الاستعانة بهم فى أعمالها وتمكينهم من القبض على خناقها ! فهل غيرت شيئاً أو نظفت الأمانة من المشبوهين والذين لهم ماض ، ومنهم من يذيعون ويبيعون أسرار الجامعة وقت الآن تشكو منهم وتشهر بفعلتهم ...

عزيز باشا وصالح باشا

ياسيد عزام، ألم أقل لك خذ فلانا وفلانا حتى إذا تغيبت أو انشغلت أو مرضت ـ قاموا فى غيابك بإدارة الشئون وتصريف الأمور ، فقلتَ لى إن الحكومة هى التى جاءت إليك بالذى عندك ، فى حين أن الواقع يؤكد أنك أنت الذى شكلت أمانة الجامعة منهم ، وليس فيهم واحد من الذين شاركوا فى وضع أساس الجامعة التى ولدت بصدور « بروتوكول الاسكندرية » .

لماذا جاهدت فى إبعاد عزيز المصرى باشا وصالح حرب باشا عن جامعة الدول العربية ،

فلم تستشرهما فى شىء ولا مكنت مجلس الجامعة من الاستعانة برأيهما فى الأمور العسكرية ؟ لماذا لم تستعن بأمثال الدكتور محمد صلاح الدين بك وكيل وزارة الخارجية الأسبق الذى كان أحد مؤسسى الجامعة وكان سكرتيرا عاماً لها قبلك ؟ وإن قلت إنه لايقبل أقول هل كلفتموه فرفض ؟ وهل كلفتم أمثال كامل عبدالرحيم بك وكيل الخارجية السابق فرفض ؟ وهل كلفتم محمد شافعى بك اللبان فرفض وهل كلفتم أحمد زكى بك سعد أو عوض البحراوى بك أو سيد بك الديوانى فرفضوا ! .. كلا !

لقد قلت لى مرة انه يحق للدول العربية أن تعين مساعدين للأمين العام من عندها ثم عتبت عليها لأنها لم تفعل ! فقلت لك إن هذا يعطيك الحرية فى إدارة الأمانة العامة فتعين من تريده أنت من مصر ، ولكنك لم تفعل ، واكتفيت ببعض العجزة من الذين لايحسنون التصرف فى مسألة ، أو إمضاء ورقة ، أو توجيه قضية ، فهل صحيح أنك تتعمد ذلك لتحصر الجامعة كلها فى شخصك لأنك تخشى أن يظهر فى هذه الأمة فذ مثلك فيحجبك ! ولذلك جعلت جهاز الأمانة العامة مؤلفاً من أشخاص ليسوا فى الدنيا ، ومنهم الذين سربوا من الجامعة تلك الوثائق السرية وباعوها للسفارات الأجنبية ...

خوفكم من الإنكليز

ياسيد عزام باشا : ماذا صنعتم لفلسطين ؟ أنا لا أتهمك أنت والجامعة بأن لديكم قوة عظيمة تحبستموها عن فلسطين أو بخلتم بها لإنقاذها ، ولكنى أتهمكم بأنكم بالغتم فى الخوف من الإنكليز ، وأسرفتم فى إيهام الناس عما لديكم من قوة لاوجود لها ، وأوهمتم فلسطين بقدرتكم وقرب الفرج والإنقاذ وتحرك الجيوش للبطش باليهود فصدقتكم واعتمدت عليكم ، ثم اتضح عندما جد الجد أنكم أسرفتم فى الكلام ، وغررتم بفلسطين وأهلها ، وهاهم اليوم يذبحون ذبح النعاج ، وتنهب أموالهم ، وتسقط مدنهم فى أيدى وحوش اليهود بعد أن دمروا القرى ودكوا العمران ، وهاهم اليهود يزيلون العرب من أرضهم ووطنهم . ويشردونهم فى آفاق الأرض ، فلو أنكم كاشفتم الناس بحقيقة حال الجامعة وأنها لاتكاد تحمى نفسها ، وأن الواجب على الفلسطينين أن يدبروا أمرهم ، لدبروا أمرهم . وأما الآن فإننى أستمطر رحمة الله على أهالى حيفا ويافا ومن

سبقهم من الشهداء ومن يستشهد بعدهم من الأبرياء، جزاء تصديقهم وعودك وجزاء اعتمادهم على جامعتك هذه التي قضت ثلاث سنين وهي تجتمع وتنفض ، وتقرر ثم تطوى قراراتها ، بينما كان العدو يعمل وعرب فلسطين ينتظرونكم حتى وقعت الواقعة ونزلت الكارثة ، وفي سبيل الله تلك الأرواح البريئة ، والله المستعان على ما تصفون .

الخطب والحفلات !

لقد قرأت في الصحف يا عزام باشا أن جامعتك العربية قد خصصت خمسين ألف جنيه لإطعام اللاجئين والهاربين إلى مصر . فماذا يجدى هذا الدواء الذليل بعد ذبح أهالى حيفا وضياع مدينتهم وهكذا قل عن مدينة يافا وبيسان وطبرية وبعدها القدس ..

فلو أصغيتم إلى الناصحين ، أو أجبتم الصارخين قبل فوات الأوان لكان مبلغ إغاثة أو إعانة المنكوبين الذى خصص الآن كافيا لمنع وقوع المذابح وضياع البلاد كلها . ماذا كنتم تصنعون في الثلاث سنين الماضية التي كنتم في خلالها تجتمعون وتخطبون وتقيمون الحفلات وتتباهون بالألقاب التي تحملونها ، والصور التي كنتم تظهرون فيها وتنشرونها في الجرائد ؟!

أيها القائمون بأمور الجامعة : استقيلوا أو غيروا أساليبكم وغربلوا أنفسكم « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم . »

تصوير حالة راهنة

إن ماتقدم سرده عن الجامعة إنما هو حالها من سنة ١٩٤٥ إلى ١٩٤٨ وأما كيف هي الآن سنة ١٩٥١ فها هو : لقد أصبحت جامعة الدول العربية بعد قيامها بست سنين أضعف مما كانت يوم مولدها ، فقد كانت عند قيامها تخيف الأجانب وتقلقهم ، وتطمئن العالم العربي وتدخل الأمل على نفسه ، وأما الآن فهي سبب قلقه ومبعث اطمئنان الأعداء بعد أن ثبت أنها لا تحمى ولا تصول على أرنب !

أما وقد اختلف الباحثون في أسباب ضعفها وإخفاقها ، فلا بأس من أن أذكر الأسباب التي توصلت إليها باجتهادى الشخصى فأقول :

إن جامعة الدول العربية التى قامت ، هى غير الجامعة التى كنا نتخيلها . فالتى نراها الآن نجدها مؤلفة من حكومات بعضها تحت الحماية الأجنبية ، وبعضها محتل ، وبعضها مفزع هلعاً من الدول الأخرى – كأنه يوجد فى مخ كل واحدة منها جنديا انكليزيا – أو يهوديا – يحمل مدفعا ويصوبه إلى موضع العصب من عقلها ...

والأمانة العامة التى تدير الجامعه قد لفقوها من موظفين صغار ، ومن محاسيب حكام ، ومن أقارب وزراء الحكومات العربية وأقارب أمين الجامعة العام عزام باشا ، وليس فيهم من له سابقة وطنية ، أو جهاد قومى معروف ، أو غير معروف ... فأشخاص هذه المجموعة الملفقة المتناقضة الذين يؤلفون هيئة الأمانة العامة لا يدرون ماذا يصنعون ، ولا ماهى مهامهم ، ولا ماهى واجباتهم ، فهم يشغلون فيها المناصب ويقبضون الرواتب بدون أن يعرفوا لأنفسهم هدفاً يرمون إليه ، فإن دخلها مستطلع أو فاحص وتجول فى دوائرها فإنه يجد غرفاً واسعة فخمة ، ومناضد أنيقة ضخمة ، وأثاثا ثميناً وحجاباً وحرساً وخدماً ورجالاً يشربون القهوة ويطالعون الصحف ويلبسون الملابس الجديدة ويروحون ويجيئون بين الغرف باهتمام! وسياراتهم تنتظرهم بالباب ... فإن تناولت أحدهم وسألته : ماذا تصنع ؟ فإنه يصاب بالبكم والخرس ويسكت ، دون أن يحير جواباً ...

موكب الأمين العام

وأما عزام باشا فهو يعتبر الجامعة العربية « رزقاً » ساقه الله إليه ليغتنى منها ويعيش مرفهاً من أموالها ، ويشبع رغبته من الشهرة التى دفع أهل فلسطين ثمنها . وهو ضياع وطنهم وتشريدهم ، وعزام باشا يعرف حقيقة ما يصنع وعواقب تصريحاته وبياناته التى كانت توهم أهل فلسطين أن فى الجامعة رجالاً وأبطالاً وان عندها زحوفاً ... ولذلك فهو لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا فى « موكب مسلح » فإن سيارة مسلحة تركض خلف سيارته الفخمة الضخمة وفيها أشخاص يحملون السلاح ... ولكن ممَّ يخاف عزام باشا ليحرس نفسه على هذه الصورة ، فهل يخاف من الفلسطينيين الذين يتهمونه بضياع وطنهم ؟ أم أنه يصنع هذا الموكب حباً بالوجاهة والتظاهر أمام العامة بأنه أكبر من رئيس الوزراء ؟ .

ومرتب عزام باشا يبلغ ٥٠٠ جنيه فى الشهر ، أى أكثر من مرتب رئيس الولايات المتحدة !

والهدايا تنصب عليه من كل مكان ، ولذلك فالناس يعذرونه وهم يرونه يستميت فى سبيل البقاء فى هذا المنصب الذى دفعت الحكومات العربية ثمناً له أمة فلسطين كلها ، فقد جدحت هذه الدول من سويق غيرها ...

وسأورد بعض وسائل عزام فى سبيل الخلود على كرسى الجامعة ، والحق معه ، لأن مرتبات هذا المنصب وأبهته ووجاهته لما يغرى الإنسان على الاستقتال فى سبيل الوصول إليه ، لأنه يجنن العقلاء . . ويكفى أنه يفوق أبهة رؤساء الوزارات فى الدول الكبرى الغنية !

الفلسطينيون المشردون والجامعة

ويذهب المحتاجون من أهل فلسطين إلى الجامعة العربية لمقابلة عزام باشا وفيهم المجاهد المصاب وفيهم التلميذ الفقير . وفيهم الأرملة التى فقد أهلها — لمطالبة عزام بمساعدة مادية أو أدبية أو معنوية فيمتنع عن مقابلتهم ، وإن وقف هؤلاء فى حوش الجامعة يتظلمون استدعى لهم عزام البوليس السياسى الذى يرأسه صديقه الحميم ، أى صاحبنا الميرالاى محمد بك يوسف فيقبض ويحبس ويهدد ويطارد ... لأن محمد يوسف قد تخصص فى مطاردة أبناء البلاد العربية من أيام الانجليز ، فصار عزام وجامعته العربية يسلطونه عليهم الآن ! وأما صداقة عزام لمحمد يوسف تلميذ الانجليز فأسبابها معروفة ، ومنها على الأقل أن عزام باشا لا يعتبر فى نظر الانجليز أنه من أعداء الانجليز . . .

الحاكم العام

ويلقب بعض الناس عزام باشا « بالحاكم العام » لأنه يعد نفسه المتصرف فى الجامعة والوارث لها ... وقد خطر للدكتور صلاح الدين بك وزير الخارجية أن يجعل الأمانة العامة فى العام الماضى تتخفف منه ، ليخلص العالم العربى من عزام ، ولكن عزام الهمام أحس بذلك فانطلق إلى الحكومات العربية يستجدى وساطتها لدى الحكومة المصرية لتبقى عليه ، واندفعت الوساطات نحو النحاس باشا وصلاح الدين بك للإبقاء عليه ولو لسنة واحدة ، فخجل النحاس باشا واستحى صلاح الدين بك فقبلا تمديد مدته سنة واحدة فقط ... وبعد ذلك قدمت مصر

أحمد بك الشقيرى لمنصب « الأمين العام المساعد » فوافقتها الدول العربية وكان قصد الحكومة المصرية من تعيين الشقيرى أن يصلح حال الجامعة ويمنع عزام باشا من العبث بها ، ولكن عزام باشا لم يمكن الشقيرى من ممارسة مهمته ، لأنه أوجس منه خيفة حتى لا يحجبه ويقضى عليه، فصار عزام يعرقل كل إصلاح يقترحه الأمين المساعد ، فالمسألة الفلانية يجب أن تؤجل بحجة عدم وجود مال . . والنقطة الفلانية يجب أن تدرس جيداً بواسطة لجنة تؤلف من فلان وفلان ، ثم يعين لها عزام أشخاصاً لا يدرون عن الموضوع المقترح شيئاً . . والحكاية الفلانية يجب إعادة النظر فيها لأنها تكدر الحكومة العراقية . . . والموظف الفلانى يحسن تركه الآن حتى لا يثور الوزير الأردنى . . . والموظف الترتانى النصاب ترى الجامعة من الحكمة الإبقاء عليه إكراماً للوزير السورى السابق لأنه قريبه ـ وكونه أعطى صوته يوماً ما لمصلحة عزام . . والموظف الفلانى لا بد من أن يبقى لأن رئيس الحكومة اللبنانية قريبه . . الخ

وأما أقارب عزام الذين حشدهم وحشد الأمانة العامة بهم فيجب أن يخلدوا فى التكية العامة إلى أبد الآبدين ...

ولم يخل الأمر فى خلال ذلك من تحريك الصحف المأجورة لعزام بانتقاص الشقيرى وغمزه ولمزه . .

مصاريف عزام فى أميركا

وحدثنى موظف فى الجامعة أن عزام باشا لما سافر أخيراً إلى أميركا بلغت نفقاته وحاشيته فيها نحو ١٥ ألف جنيه مصرى ، وأما الحاشية فهى مؤلفة من ابن أخته وابن أخيه وزوجة ابن الأخ التى هى بنت عزام ، فكأن هذه الجامعة ما خلقها الله إذاً إلا لتكون وسيلة نزهة ومزرعة لعزام يجنى منها هو وأهله أسباب الثراء والرفاه بعد فقر وخصاصة ، وهو يملك الآن داراً للمصيف بضواحى الاسكندرية ، ومزرعة فى جهات الفيوم ـ وهى غير المزرعة الملقبة بالجامعة العربية . . .

ولا يدرى أحد هل ينسحب قانون « من أين لك هذا » على الماضى أم أنه سيتناول ما بعده فقط . . . لأن القانون المذكور لم يصدر بعد ، مع شديد الأسف ! بل إنه لو صدر فما أظنه يتناول عزام بسوء ...

التجديد الثانى لعزام

إنى أكتب هذه الأسطر فى شهر إبريل ١٩٥١ وعزام باشا يبذل نفس المساعى التى سعاها فى العام الماضى ليظل فى منصب الأمين العام بأى ثمن ... أما الثمن فهو إراقة ماء الوجه لدى كل من يستطيع التأثير على النحاس باشا من رجال الدول العربية الذين يستفيدون من بقاء عزام فى الجامعة ... فبعض هذه الحكومات يهمها « تمشية » المسألة الفلانية وغيرها تريد النكول عن التعهد الفلانى وأخرى تريد التستر على التصرف الفلانى ، وليس لهذه الأمور أشطر من عزام ... فأنت ترى أيها العربى أن المسألة هى « احملنى لأحملك » وكل هذا وذاك تدفع الأمة العربية ثمنه من كرامتها وحقوقها ، ومن دهن أهل فلسطين الذين كانوا كبش الفداء من الأول للآخر ...

ولما زحف الوسطاء على النحاس باشا وتوالت وفودهم ذهب عزام بعد هذا التمهيد إلى النحاس باشا وصلاح الدين وتواقع عليهما طالباً الإبقاء عليه قائلا « أنتم عاوزين تموتونى وتشمتوا الناس بى وأنا فى آخر عمرى » ... والجواب على ذلك : كلا .. فالأمة العربية كلها لا تساوى تكدير خاطرك ياسيد عزام ...

أما النحاس باشا وصلاح الدين بك فقد بلغنى أنهما خجلا من كثرة الإلحاف وهذه اللجاجة وأنهما على وشك السماح بتمديد مدته مع الأسف الشديد .

الرواية التمثيلية

وعزام لم يكفه أنه على وشك أن يظفر بهذا التمديد بل إنه يسعى أيضاً لإعادة الرواية التمثيلية التى مثلت فى العام الماضى ، وذلك أن يقف عزام قبل ١٥ مايو سنة ١٩٥١ فى جلسة للجامعة فيعلن تخليه عن منصب الأمين العام بحجة انتهاء مدته وضعف صحته ، فيقول أحد الأعضاء كلا كلا ، فالأمانة العامة فى حاجة إلى كفاية عزام ولذلك نرجوه أن يتابع تضحياته ويبقى فى منصبه ، فيقول عزام سأقبل هذا البقاء إكراما لكم سنة واحدة فقط ، فيشكرونه على هذه التضحية ويجددون له البيعة ...

إنها نفس رواية العام الماضى ، ونفس الطريقة ، ونفس الأسلوب ! وسيظل عزام جاثماً على قلب الأمة العربية سنة أخرى ، قائلاً فى نفسه : من هنا إلى أن يأتى العام القادم يحلها الحلال ...

لأنه سيبذل تلك المساعى ذاتها ويجرى تمثيل الرواية نفسها ... وبعد ذلك لا أدرى كيف ينتظر العالم العربى أن يرى بصيصاً من الأمل فى حياة كريمة مادام بعض ساسته وولاة أمره بهذا الأخلاق !

وماذا يهم عزام ان يذل نفسه فى كل عام نصف ساعة فقط وبين أربع حيطان وأمام بضعة أشخاص مادام ذلك يمكنه من التمتع عاماً كاملاً بمرتب ضخم ومظهر فخم ووجاهة ما كان يحلم بها فى المنام .

تعليق بسيط

لقد جرب العالم العربى عزام باشا فى منصب الأمين العام لجامعته من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥١ وهى ست سنين ، أفلا تكفى هذه المدة لمعرفة قدرة عزام باشا وكفايته التى أضحكت علينا أمم الأرض ؟

ولا أدرى ما الذى يمنع الجامعة العربية من تجربة شخص آخر غير عزام ؟ إن مصر ولله الحمد حافلة بأهل الكفايات والمخلصين فلتجرب الدول العربية إن كانت مخلصة لمعنى «الجامعة العربية » شخصاً آخر فإن لم تجد فمن السهل أن تذهب الوفود بعد ذلك إلى عزام لترجوه العودة إلى المنصب الساحر الذى تطير مظاهره وقشوره العقول ...

أيها القوم : إن الأمة الإسلامية قد بقيت موجودة بعد منشئها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، أفلا يمكنها أن تجد راعياً لها غير عزام هذا لو تخففت منه ؟ هبوا إنه مات فهل تموت الجامعة ؟

مقال عن الجامعة

وفى أثناء طبع الملازم الأخيرة من هذا الكتاب كتبت مقالاً عن أحوال الجامعة العربية والأمانة العامة التى لقبت أخيراً بـ « الخيابة الطامة » ولكنى لم أجد جريدة قبلت نشره إلا جريدة «السوادى» التى يصدرها الكاتب الممتاز محمد السوادى فنشرته فى ٢ ابريل ١٩٥١ وأما الصحف التى أبت نشره فلم يكن ضيق الصفحات هو السبب فى إغفاله ولا سخافة مقالى المذكورهى الباعث... بل كان اتساع جيوبها هو السبب، لأن مال الجامعة العربية الذى يتصرف به

عزام باشا الأمين العام ـ أو الحاكم العام ـ وينعم به على بعض الناس للدعاية لشخصه قد جعل « شهية » بعض أصحاب الجرائد تنفتح لنشر الثناء على « كلاته النجيبة » ولا تنفتح تلك الشهية فى وجه ما أكتبه وما يكتبه سواى عن الجامعة العربية وإنى أجد لزاماً وواجباً أن أنوه بالكاتب الحر الأستاذ محمد التابعى وما يكتبه عن أمانة الجامعة العربية «وصاحبها» عزام باشا فى مجلة آخر ساعة فإنه لا يترك مناسبة إلا شفى الغليل منها ، غليل المصدورين والمقهورين من الحكومات العربية التى سلطت عزام باشا على العالم العربى ليوسعه كلاماً حتى أصبحت الأمة العربية مثلا بين الأمم بسبب تصرفاته وتصريحاته وخطبه واندلاقه فى الكلام بلاميزان ولا قبان ...

ولا أنسى جريدة مصر الفتاة أعادها الله وسقى عهدها ، فإنها كانت تمكنى دائماً من نقد عزام وجامعته ، وكذلك جريدة اليوم فى بيروت ، ومجلة الاستقلال فى الأرجنتين ، وجريدة السجل فى بغداد وجريدة العرب فى باريس ، لصاحبها يونس البحرى حامل علم الضجيج فى أوربا على تخبط الجامعة العربيـة وأماناتها التى أصبحت من عجايب الدنيا !

وأما المقال الذى نشرته لى جريدة « السوادى » فهاهو ، وكان عنوانه « هل نشهد مصرع مراكش على يد الجامعة العربية المزعومة كما شهدنا على يديها مصرع فلسطين ؟ » :

حرروها من العرب ...

لم أشأ أن أستقبل الاجتماعين السابقين لجامعة الدول العربية بما يكدرها، فى حين أن سواى قد استقبلها فى ذلك الحين أسوأ استقبال، بل إن ناظم القدسى بك رئيس حكومة سورية السابق نفسه قد وصفها وهو لايزال رئيس وزراء يحضر جلساتها الأخيرة بأنها «إسراف فى المظاهر وخيبة للآمال » لأن سوء الظن فى هذه الجامعة قد لازمها منذ اندس فيها بعض الطفيليين ، وفيهم أعوان الإنكليز ، وبعضهم من أعوان الإنكليز ...

فقد توالت جلسات تلك الدورة فإذا بها تبحث فى كل شىء ماعدا الغرض الأصلى من تكوينها ، وهو مسألة فلسطين التى كتب عليها الاستشهاد على أيدى الذين تطوعوا لإنقاذها

وتبرعوا بحفظها لأهلها ، فإذا بهم بعد أن نزعوا من الفلسطينيين سلاحهم ونشروا الفزع فى ديارهم ، راحوا يتركونهم هم وفلسطينهم لليهود ، ثم يهربون بجيوشهم وبجلودهم إلى بلادهم سراعاً ، وبذلك تمّ تحرير فلسطين من العرب ...

إحتجاجاتى واحتجاجات الجامعة !

لقد كان الحال قبل قيام هذه الجامعة أننى كنت أقوم وحدى بإرسال الاحتجاجات من أجل فلسطين باسم اللجنة الفلسطينية إلى « عصبة الأمم فى جنيف » وقد استمر هـذا الحال أكثر من ربع قرن فإذا بالجامعة العربية تقوم بعد ذلك لتتولى هى إرسال الاحتجاجات إلى « هيئة الأمم فى ليك سكسس » !

فالفرق بين الجامعة وبينى إذن هو أننى كنت أحتج على مظالم الدول العظمى فى العالم العربى، وأما جامعة الدول العربية فإنها ترسل الاحتجاجات على تهجم اليهود عليها! وهناك فرق آخر، وهو أننى ولجنتى ما كنا نقبل من المستعمرين هدنة ، ولكن الجامعة قبلت الهدنة وما هو شر من الهدنة . وقد بلغ من سعة صدر هذه الجامعة الفذة أن حكوماتها تتلقى الآن هجوم اليهود المتسلح على بلادها بدون أن تغضب لنفسها أو تثور لكرامتها ..

الوفود أمس واليوم

وكانت الوفود العربية فيما مضى تذهب إلى لندن وباريس للاحتجاج على انجلترا وفرنسا، هذه فإذا بهذه الوفود تهرول اليوم إلى القاهرة للاحتجاج على الأمين العام لدول الجامعة العربية! الدول التى أخفقت حتى فى تشكيل محكمة عليا أو سفلى ـ سيان ـ لفض خلافات بعضها مع بعض ...

فقد لقيت ذات يوم بفندق شبرد فى ساعة واحدة جماعتين عربيتين فى ناحيتين متجاورتين من صالون واحد ، إحداهما من عرب فلسطين والشام شرقا ، والأخرى من عرب برقة وطرابلس غربا ، وكل من الجماعتين كانت جالسة فى حلقة من الناس تشكو بثها وحزنها إلى الله ، وترفع شكواها ـ لا من الاستعمار ولا من اليهود ـ ولكن من تصرفات جامعة الدول العربيـة ، ومن عبث أمينها العام فى أمورها واستهانته بمصيرها . وحسبك أن تعرف أن عزام باشا

الأمين العام « متخاصم » مع الفلسطينيين ، فهو لذلك لا يكلمهم ولا يتصل بهم ، بل يمنعهم من كل نشاط فى سبيل بلادهم .. بحجة أن حركاتهم قد تكدر الإنكليز أو تغضب الأمريكان أو أنها تحرج بعض الحكومات العربية ... كما أن عزام باشا « متخانق » مع الليبيين ، لأنه يرى نفسه أحق من السنوسى الليبي بعرش ليبيا .. فأين الأمانة الخاصة هنا ودع عنك الأمانة العامة ومعناها ومدلولها ...

« أردتك أمناً » من الحادثات   فأصبحت أطلب منك الأمانا

الخلود فى الجامعة

والأمين العام الذى فاته عرش برقة لم يفته تجديد المسعى للبقاء فى منصبه الساحر إلى الأبد، فهو دائم السعى لدى الحكومات العربية للحصول على أصواتها ، ولعل هذا يفسر لنا تقربه من النحاس باشا بعد أن كان يعاديه منذ خرج على الوفد سنة ١٩٣٢ كما أنه يوضح لنا سبب تقربه من الدكتور صلاح الدين بك وزير الخارجية بعد أن سلب منه عزام مركزه الطبيعى بفضل الوزارات المعادية للأمة وللوفديين ، ثم يرمح عزام نحو صاحبه يوسف ياسين ليخصه بصوت الحكومة السعودية ، وقل نفس القول عن ركضه إلى استجداء التأييد من حسين العوينى رئيس حكومة لبنان الجديد وقبله رياض الصلح وناظم القدسى .. ولعل عزام لا يتأخر عن استرضاء نورى السعيد قريباً وحكومة شرق الأردن أيضاً ! وكل ذلك هين على أن يظفر بالأصوات التى تخلده فى الجامعه !

إن عزام باشا يلوّح لكل حكومة من هذه الحكومات المتدابرة المتقاطعة المتخاصمة ، بأنه سيروج سياستها مقابل منحه الأصوات التى تكفل له البقاء على عرش الأمانة العامة ، كأن مصر قد عقمت عن إنجاب أمين سواه ! وبرغم أن جميع الوزارات فى جميع أرجاء الدنيا تغيرت مراراً إلا « وزارة » عزام وحده ! كأن البقاء لله ، ولعزام فى الجامعة !

عزام لا يقرأ الصحف

إننى أرثى لحملة الأقلام ولكل مصلح يكتب عن أعمال وإهمال عزام باشا لأن عزام لا يقرأ الصحف ! نعم ، ولكنه ـ واستغفر الله ـ يقرأ من الصحف نوعاً واحداً ، هو النوع الذى

يثنى عليه ويشيد بذكره ويصوره بصورة إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد!

وأما الصحف التى تذكر له الأخطاء، والصحف التى ترشده إلى الخير، وتمحضه النصح خالصاً أن يترك الجامعة، ولو لوجه الله، فإنه لا يقرأها.

ثم قل لى ... : متى وأين تجد فى هذه الكرة الأرضية رجلا تقول له الدنيا كلها اخرج من الجامعة، اخرج من الجامعة! فلا يبرح بابها، ثم يقول للكائنات : كلا لن أخرج حتى قيام الساعة!

إننى لا أجعل الحق فى هـذا الحال على عزام وحده، كلا، بل أجعله على ساسة العرب جميعاً ـ وعلى وزير الخارجية الدكتور صلاح الدين بك أولا ـ فهم باسم الحياء والمجاملات يحملون مسئولية استمرار هذا الوضع.

وإذا كان أمر عزام يهم بعض الساسة العرب أو يريدون مجاملته أو مجاملة من ينتفع من وجوده فى الجامعة فما على الذى يهمه أمره إلا أن يأخذه معه إلى بلاده وأن يعينه فيما يشاء من مناصب فى حكومته!

وأما تخصيص الدكتور صلاح الدين بهذا القسط الكبير من العتب وهو قرة عين العالم العربى، فلكونه مد يده وهو فى أمريكا وتناول عزام باشا من عاله الخاص، ثم قدمه إلى هيئة الأمم وإلى ترومان .. فإذا بعزام يتمادى فى غروره، وراح يتدخل فى مسألة كوريا ليسويها أو ليلحقها بفلسطين وأهل فلسطين ...

وبعد ... فإننى أسأل المنصفين هذا السؤال : لقد مضى ست سنين على وجود الجامعة العربية وهى تنعقد وتنفض، ثم تنعقد وليتها تنفض ... فهل صنعت شيئاً غير إضاعة فلسطين وتشريد أهلها؟

أنا لا أطلب المستحيل بأن أسألها عن فلسطين المذبوحة وعن المليون من أهلها الشهداء الذين شردوا بدداً وضاع وطنهم وسلبت أموالهم، ولبسنا العار من أجل تقصيرنا معهم، بل إننى أسأل عن مشاكل دول الجامعة العربية نفسها، فهل حلت الجامعة واحدة من مشاكلها؟ هل سويت القطيعة بين لبنان وسورية؟ هل هدأت الأمور بين العراق والأردن، أو بين

هذا والدولة السعودية ؟ هل أصلحت الحال بين سورية ولبنان ؟ هل استطاعت الجامعة على الأقل أن تصلح الحال بين عزام نفسه ونورى السعيد ؟

من أسباب الفشل

إن بعض مندوبى هذه الحكومات يأتى من بلاده لحضور مجلس الجامعة وفى جيبه فكرة أمريكانية ، وبعضهم يأتى وهو يحمل فى رأسه رأيا انكليزيا ، وآخر يأتى وفى عباءته مطامع شخصية ، ومعظم هؤلاء المندوبين يجىء وفى نيته تنفيذ رأيه وإحباط خطط الحكومة العربية الفلانية ...

فإذا اجتمعوا تعارضت الآراء ، وتصادمت المطامع ، وظهرت النيات ! ولذلك كان الفشل حليف قوم لايؤمنون بما يقولون ولا يظهرون مايبطنون .

وأخيراً مراكش ...

إن الدموع التى ذرفها عزام باشا على مراكش ليسكت المتظاهرين والصائحين، لهى البرهان القاطع على أن الأمين العام ماعاد يصلح للعمل السياسى الجدّى ، لقد كان الواجب عليه مثلا أن ينتفع بهذه الغضبات الشعبية ليطلب من الدول العربية مقاطعة فرنسا فورا ، وأن يبعث على الأقل بحوالة مالية سريعاً وبرقيا إلى الزعيم علال الفاسى «بطنجة» ليستطيع مواصلة الكفاح من هناك ، ولو لتمكينه من القيام بالدعاية أمام دعاية فرنسا المعتدية ، وحواله برقية مالية أخرى إلى الزعيم الحبيب بورقيبة الموجود الآن فى الهند وأندونسيا ليستطيع مواصلة الدعاية لمراكش فى قارة آسيا والمناطق القريبة من المستعمرات الفرنسية فى الشرق الأقصى، وحوالة مالية برقية ثالثة إلى المجاهد عابد بوحافة مندوب لجنة تحرير المغرب بأمريكا ليتمكن من إذاعة فظائع فرنسا بين سكان العالم الجديد ، هذا سلاح سهل ، ولكنه سريع المفعول وكان يجب على عزام أن يعمد إليه فورا ، فهو على بساطته وقلة تكاليفه كان يساعد على قصم ظهر الاستعمار بنفس السرعة التى أهان بها المستعمرون الأمة العربية كلها فى شخص جلالة ملك المغرب ، ولكن عزام باشا لايفهم من أساليب الدعاية ، ومن مهمة الأمين العام غير « صرح عزام باشا » و « خطب عزام باشا » ثم « بكى عزام باشا » !

من يعترف باليهود ...

هذا وإننى أسمع كثيراً عن المساعى التى تبذل من دول الاستعمار لحمل الدول العربية على الاعتراف بدولة اليهود ، ألا فلتعلم كل حكومة عربية أو إسلامية أن اقتراف هذه الكبيرة معناه إقرار دولة عصابات اليهود على كل ماصنعت بأهل فلسطين ، من سلب الوطن ، ونهب المال ، واغتصاب الثروة ، وما أنزلت بهم من مذابح وحشية ، بل هو الاعتراف الكامل بهزيمة العالم العربى - وباللخزى أمام اليهود ، بل هو جناية على نفس الدولة التى تجترح هذا الوزر العظيم أمام التاريخ وأمام شعبها وأمام العالم أجمع ، وأنها على الأقل تصبح مخضبة اليد والوجه بدماء أهل فلسطين ...

هل من أمل !

إننى أتصور أن البعض سيسألنى : هل من أمل فى إصلاح حال الأمة العربية وردبعض حكامها وساستها الفطاحل إلى الصواب بعد أن جرى لها منهم ماجرى ؟ والجواب : كلا ! وما لم يعرف الناس أن شعباً عربياً واحداً استطاع أن يحاكم واحداً على الأقل من « مجرمى حرب فلسطين » ويعاقبه وينكل به ، فإنى أعتقد أن سوء المصير سيحيق بشعوبنا كلها وأن الأوطان العربية لن تخرج من هذه الخطوب سالمة أبدا ! » اهـ .

وسائل عزام للبقاء فى الجامعة

إن الحرب الناشئة بين عزام وبين شعوب العالم العربى فى سبيل خلوده فى الجامعة العربية ليست بالشىء الجديد ، بل هى قديمة ... وقد اشتدت الحملة عليه فى أواسط سنة ١٩٤٨ عندما تم القضاء على فلسطين تماماً ، وكان من رأى الشعوب العربية أن عزام باشا قد انتهى ، والحق معهم لأنه أخفق فى مهمته ، ومن عادة الحكومات فى كل الدنيا أن تتخلص من الوزارات إن أخفقت ، فكيف لا تتخفف الأمة العربية من عزام بإبعاده فقط عن الجامعة ! ثم إن الدول قد اعتادت عزل القواد المهزمين فى الحروب وتحاكمهم ، وتعدمهم أحيانا ، ماعدا الحكومات العربية التى تعد فى دنيانا من طينة غير طينة حكومات الأرض قاطبة ، لأنها فى واد وشعوبها فى واد آخر ، ولذلك قل أن تجد حكومة عربية موجودة بإرادة شعبها ، فمعظمها قائم إما بتزوير الانتخابات وإما بالاعتماد على الأجنبى المحتل ! فالشعوب العربية

أصبحت بدلا من أن تسمع بشيء عن محاكمة عزام باشا ولو بتنحيته عن عرش الأمانة العامة إذا بالنقراشي يؤيده ـ والحق معه ! لأن عزام خير من كانوا يخلصونه من العرب والعروبة ... ذلك أن النقراشي كان لا يطيق شيئاً اسمه عربي أو عروبة ! وإذا بجميل مردم بك مندوب سورية في مجلس الجامعة العربية يؤيد عزام كذلك ، والحق مع مردم ، لأن عزام باشا قد عين له صهره وعديله وبعض أصحابه في وظائف الأمانة العامة ، وإذا برياض الصلح أيضاً يؤيد عزام ، والحق مع رياض ، لأن عزام باشا قد عين له ابن عمه بمنصب كبير بالأمانة العامة وعين له بعض أصحابه...

برقية . . .

كان ذلك في ١٠ سبتمبر ١٩٤٨ فلما رأيت أن المسألة قد خرجت عن الجد والنافع وأنها أصبحت مسألة شخصيات وتبادل منافع وتوزيع غنائم ، أبرقت لعزام باشا برقية نشرتها الصحف وقلت له فيها « أهنئك بتقدير أصحاب الدولة النقراشي ومردم والصلح برغم تبرم الناس بك وهم يفضلون لك منصب مندوب للجامعة في الخارج بشرط مغادرة الأمانة العامة بأي شكل كان لأنك أخفقت ، وإني أشير عليك بأن تقترح أحد ثلاثة ليخلفك أحدهم إما كامل عبد الرحيم بك أو الدكتور محمد صلاح الدين بك أو محمود فوزي بك ، فكلهم أصلح منك » .

ولكن عزام لم يستقل ! ولم يهتم ، ولم يتكدر ، ولم يبال بأحد .. وأنا لم أقصد أنه كان سيستعفي لمجرد أني أبرقت له ، كلا ، بل لأن العالم العربي كله كان هائجاً على عزام ويتهمه بإضاعة فلسطين وبهدلة الأمة العربية فلما أحس بهذا الإجماع ضده ، استجدى ذلك التأييد من النقراشي والصلح ومردم بعد استعطاف وأساليب يترفع عنها الرجل الذي يحترم نفسه ، فلما ظفر عزام بهذا التأييد المزيف الملفق نشره في صحف الدنيا كلها ، وخرق به عيون الأمة بأسرها ...

وعزام باشا رجل صبور من أجل تجديد مدته ويتحمل كل أذى في سبيل ذلك ، وقد روت مجلة « روز اليوسف » أخيراً أن النحاس باشا صادفه في مكان فصاح فيه متندداً بكثرة كلامه وفيض تصريحاته ، فقبل عزام هذا « الشخط » واعتبره شيئاً عادياً ، فلو كان « المشخوط » فيه سواه لاستقال ولكن كيف يستقيل ويترك ما هو فيه من جنات وعيون؟ وحدثني مشاهد لأحدى جلسات الجامعة بعد تلك « الشخطة » أن المجلس قرر تعيين

الساعة السادسة من يوم كذا لعقد الجلسة المقبلة ، فإذا بعزام يستعمل أساليبه الخاصة لأرضاء النحاس باشا ويقول له إن ذلك الموعد قد يتعب مقامك الرفيع لأنك تستريح فيه ويصادف صلاة المغرب وأنت تحتاج إلى وقت للوضوء وتأدية الصلاة و . . . فقاطعه النحاس باشا بشدة قائلاً « كلا ، هذا مش شغلك ويجب أن يظل الموعد كما تقرر » فبلع عزام هذه الخبطة وسكت. براعة . . .

ومن أساليب عزام التى يوحى بها لإعداد الأذهان إلى قبول تجديد مدته أن أحد أعوانه دبر له سنة ١٩٥٠ خبراً نشرته له إحدى صحف القاهرة قائلة إنه ورد عليها من لندن أن الصحف البريطانية ساخطة على جامعة الدول العربية التى تحتضن عزام باشا وتصر على تجديد «انتخابه» مرة أخرى ! فعزام الذى يحب أن يفهم الانكليز - هناولكن سراً - أنه صديقهم، يريد أن يفهم أهل الشرق ومصر علناً أن الإنكليز يكرهونه ، لأنه يعرف أن كل من يقال عنه إنه من أعداء الإنكليز يصبح مقدساً فى نظر الشرق كله ...

ولكن إرادة الله شاءت أن تفضح شيئاً ، وهو أن المرشال ولسن نشر أشياء عن مصر فشتم عزيز باشا المصرى وصالح باشا حرب ، ثم أثنى على عبدالرحمن عزام باشا !

وفى شهر أبريل ١٩٥١ الذى عينه عزام باشا لتجديد مدته نشرت له إحدى الصحف وحياً أبدع من ذاك الذى نشر على الطريقة الإنكليزية .. فقد ذكرت الصحيفة أن الدول العربية قد أجمعت على إعادة انتخاب عزام للأمانة العامة بعد أن تبين أنه لا يوجد من يليق للمنصب سواه وأن المهم الآن هو إقناع عزام باشا بقبول التجديد لأنه لا يريده ! وما كان ينقص الجريدة إلا أن تقول إن عزام باشا قد اعتذر ورفض التجديد مطلقاً وأبداً وعلى الإطلاق ! وأنهم هددوه بإلغاء الجامعة العربية إن أصر على الرفض ... وعند ذلك فقط أخذ يفكر فى إجابة ملتمسهم مضحياً بصحته إكراماً لهم...

وهذه الطريقة التى سلكها سنة ١٩٥١ هى أخت الطريقة التى سلكها سنة ١٩٥٠ فقد استطاعت دعاية عزام أن تدس على جريدة أخبار اليوم الصادرة يوم ٨ أبريل سنة ١٩٥٠ خبراً جاء فيه أن عزام باشا طلب عدم تجديد مدته فى الأمانة العامة وأن جميع الوفود قررت بالإجماع إعادة تعيينه ...

وكان العراق يومها يعارض فى إعادة عزام فإذا بدعاية الأمين العام تدس فى آخر الخبر عبارة تقول إن العراق كان فى مقدمة المجمعين ...

والغرض من الشق الأول توريط الوفود ، وأما الشق الثانى فكان ينقط سماً زعافاً ، لأنهم يقصدون به إرغام العراق على السكوت حتى إن عارض أظهروه بمظهر الخارج على الجماعة وأنه يريد الشقاق! ولكن رئيس الوفد العراق « وكان يومها نجيب الراوى بك الوزير الشهير » جابه دعاية عزام مكذباً تلك الدعاية المستنكرة...

حيل ومناورات....

إن قدرة عبدالرحمن عزام باشا على احتمال « منن الرجال » لا يمكن أن يماثله فيها أحد وقد شرحت بعضها فى الجرائد مراراً ، وبسطتها فى كتاب « معتقل ها كستب » وقبل ذلك فى جريدة مصر الفتاة ، وجريدة السوادى بمصر ، وجريدة البيان فى الولايات المتحدة وجريدة الاستقلال فى الأرجنتين ، وجريدة الجبل بالعراق ، وجريدة اليوم فى بيروت ، ومجلة العرب فى باريس الخ كما أوردت فى هذا الكتاب بعضها ... أما عزام باشا فهو لا يكاد يفرغ من المساعى المعروفة ويصل إلى الأمل المنشود وهو تجديد مدته حتى تراه يبدأ المسعى من تلك الساعة ليضمن التجديد المقبل ، للعام المقبل !

نظر عزام إلى الجامعة

إن صاحبنا عزام باشا يعتبر مهمة الأمانة العامة للجامعة العربية هى مسألة خاصة به ، وان كل من انتقد تصرفاتها أو حاول إصلاح خبلها فهو فى نظره « عدو لدود » يريد مس شخصه ويقصد قطع « عيشه » ! فى حين أن العالم العربى يحب لجامعته أن تكون جامعة ، لا أن تكون دكاناً لعزام أو تكية أو زاوية دراويش ، أو مصدراً للرزق وسلماً للوجاهة لأحد..

وهذا الوصف لم يبعد عن الحقيقة كثيراً ، فقد نشر عزام حديثاً فى إحدى الصحف شكى فيه بكل بساطة من الذين يفشون أسرار الجامعة ! كأنه لم يكن هو الذى جاء بهؤلاء الطرارين! وأما كون عزام يشبه فى وضعيته فى أمانة الجامعة العربية وضعية شيخ « الزاوية » فهذا الوصف أيضاً لم يبعد عن الصواب ...

نورى السعيد وعزام

مثال ذلك أن نورى باشا السعيد رئيس الوزراة العراقية المزمن فى رياستها ، وقد هالته حالة الأمانة العامة وما هى عليه من الفوضى وكون عزام لا يصلح لها ، قام ينتقد حالها ويقترح تنظيمها وتحديد مسئولية من يقوم برياستها ، فاضطرب عزام واعتبر ذلك عملاً عدائياً موجهاً ضد شخصه وقدحاً فى مزاياه ، التى يجهلها أهل الأرض كافة ولا يعرفها إلا هو نفسه فقط ! ولذلك كتب إلى نورى باشا السعيد كتاباً عجيباً لا يمكن أن يخطر بالبال أن يصدر من دبلوماسى مسئول ، قال :

« عزيزى نورى باشا السعيد : السلام عليك ، وبعد فطالما أنصفتك فلم تنصفنى واحتفظت بودك فلم ترع ودى ، ويعلم الله أنى صبرت استبقاء لصحبة ووفاء بعشرة ورغبة فى تعاون لخدمة أمتنا فأبيت إلا أن تتجاهل ذلك كله ، فهل بقى إلا ما تقضى به المروءة وأن أقبل القطيعة التى أردتها :

كلانا غنى عن أخيه حياته وبحن إذا متنا أشد تفانيا

القاهرة ١٤ مايو ١٩٤٩ إمضاء « عبدالرحمن عزام »

ماذا قال نورى ؟

أما كتاب عزام باشا فقد حكم منه القارىء على عزام حكمه فيه ، لأن الإنسان يعرف من قلمه أو لسانه ، فعزام فى هذا الكتاب قد انكشف لأنه يعتبر مسائل الجامعة العربية مسألة شخصه هو ومسألة الكرسى الذى تحته لا أقل ولا أكثر ، وإلا فما هذا الكتاب الذى يكتبه إلى أحد شيوخ السياسة فى الشرق العربى . وما هذا الشعر ليدخله فى القضايا الجدية العامة ؟ أما نورى باشا السعيد ، ذلك السياسى الداهية صاحب الناب الأزرق والعقل الجبار ، فإنه كما بلغنى قد ضحك يومها ، وهو الذى قل أن يضحك ، ثم كتب إلى عزام باشا الكتاب الآتى الذى ينطق كل حرف منه « بالشيطنة » والحزم والرجولة ، قال نورى باشا :

«أخى عبد الرحمن عزام باشا: سلام الله عليك ورحمته وبركاته، وبعد فقد تسلمت كتابك المؤرخ فى ١٤ / ٥ / ١٩٤٩ ودهشت لما فيه ، فيظهر أنه قد كتب فى فترة تعب عابرة أو

غضب ثائر أرجو أن يكون أثرهما قدذهب الآن» ثم لفت نورى باشا نظر عزام باشا إلى مهمة الجامعةونظمها وواجبات الأمين العام والمآخذ على تصرفاته الخاطئة وإن ذلك لاعلاقة له بالصداقات الشخصية أو القطيعة الفردية ، ثم قال نورى لعزام إن ساسة العراق يختلفون ويتقاتلون على الأمور العامة ، ولـكن الخلافات الشخصية لا تدخل فى حسابهم ، وإنه يود أن يطبق هذه القاعدة على نفسه وعلى عزام الخ ثم ختم نورى باشا كتابه بهذا الـكلام القارس وهو « وإذا كنت تعتقد حقاً أن « كلانا غنى عن أخيه » فإننى أعتقد أننا لم نكن يوماً ما فى حاجة إلى بعضنا بعضاً أكثر منا اليوم، وإن كنا فى غنى عن شىء فعن هذه القطيعة البغيضة التى تحاول أن تستدرجنى إليها وأنت تحت تأثير تعب أو غضب زائلين ، نخير ما تستدرجنى إليه هو هبة حازمة صادقة لإصلاح الأخطاء ووضع الأمور فى نصابها ، والله يعصمنا وإياك من عواقب الزلل ويهدينا جميعاً إلى سواء السبيل .

إمضاء : «نورى السعيد »

تعليق ...

بهذا الدرس القاسى الحازم الصارم أجاب نورى السعيد صديقه عزام، وإن سألنى القارىء عن كيفية حصولى على نص الـكتابين فالجواب سهل ، وهو أن عزام باشا قدنشرهما فى جريدة الأهرام الصادرة فى القاهرة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٤٩ وهومغتبط بهذا النشر، سعيد به، بدون أن يفطن إلى ما فى كتاب نورى باشا من تنديد بتصرفاته وتعيير بتقصيره فى واجباته ، ولا أن ينتبه إلى ما فى ذلك الـكتاب من لذع ولسع ...

كتاب من عزام إلىّ أنا

بدأت من أوائل سنة ١٩٤٦ أكتب وأنشر فى الصحف نقداً لأعمال عزام باشا وتنديداً بتصرفاته ، ولـكنه كان لا يهتم ولا يبالى ، كأننى أقصد بما أكتب أهل الـكهف ! .

وفى شهر أكتوبر ١٩٤٧ كنت مع بعض الأصدقاء، فقام صديقى الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة إلى التلفون يتحدث مع عزام باشا فى شأن من شئونه، ثم سمعته عرضاً يقول لعزام « موجود هنا صديقنا محمد على الطاهر وهو يسلم عليك ويهنئك بالسلامة و ...» وقبل

أن يكمل أحمد حديثه وضعت يدى على التلفون وأغلقته وقطعت الحديث بينهما ، وقلت لأحمد : أنا يا أخى ما كلفتك أن تبلغ عزام شيئاً على لسانى ، فهذا الرجل قد يظن من كلامك البرىء الذى جاء عرضاً إننى من الإمعات الذين يهجمون على الناس فى الصحف ثم يجاملونهم ويتملقونهم شخصياً ، وبعد ذلك كتبت إلى عزام باشا كتاباً أرسلته إليه بالبريد قلت له فيه إننى لم أكلف الأخ أحمد بتقديم سلامات ولا تهنئات وإن الأمر لم يخل من عادة جارية وهى أن يردد البعض مثل هذه الكلمات عندما يعرف أحد المتكلمين أن هناك صلة بين من يتكلم معه ومن يجلس بجواره ، ثم قلت لعزام باشا أنا لا أبخل بالتحية على أحد ولكنى لا أغش أحداً جعلتنى أعماله وتصرفاته أغير رأيى فيه وخصوصاً إذا كان « باشا » وكنت قائماً بنقد أعماله علناً وأنادى بإبعاده عن منصبه صراحة.

كتبت ذلك الكتاب لعزام ثم نسيته بعد أن أرسلته إليه ، معتبراً أن الأمر من جانبى بعد أن وضعته فى نصابه قد انتهى، وبعد يومين زارنى الأستاذ عبدالمنعم خلاف وهو صديق وصديق لعزام ، ويعمل معه فى الجامعة العربية فقال « إن عزام باشا وهو أخوك وصديقك مندهش من «زعلك» منه وقد وصله كتابك وإليك هذا الرد منه فقد كتبه ليلة أمس بعد منتصف الليل حرصاً منه على إرضائك لأنه سافر صباح اليوم إلى بيروت .. أما الكتاب فهذا نصه الحرفى وهو بخط عزام :

عزيزى الأستاذ محمد على الطاهر : السلام عليك . أما إذا كنت قد غيرت رأيك فإنى لم أغير لا رأيى ولا رغبتى فى الاحتفاظ بأصدقائى ومعاتبتهم حتى اليأس منهم والسلام ؟ .

٦ أكتوبر ١٩٤٧ إمضاء : « عبد الرحمن عزام »

فقلت للأستاذ عبدالمنعم يا أخى إن صاحبنا عزام باشا لا يريد أن يفرق بين المصلحة العامة وبين العلاقات الشخصية، فهو لا يزال يظن إننى «زعلان» منه شخصياً فى حين أننى «زعلان» من أعماله، وليس من الحكمة إن أبش له مادمت أعرف أنه يضر المصلحة العامة بأعماله حتى لا أشجعه ، فالواجب على كل صديق سبق له أن نصحه ولم يقبل نصحه أن يكاشره ، ليشعر عزام أنه يدفع ثمن إصراره على مزاولة أعمال لا يقدر عليها وممارسة أمور لا يصلح لها ، وإلا فسد كل

شيء في دنيانا . فقال الأستاذ عبدالمنعم : أنت تعرف أن صديقك عزام رجل طيب وفيلسوف وأنه لايجوز أن تحمل عليه كل هذه الحملات ! فقلت له إن الأمين العام للجامعة العربية لايجوز أن يكون طيباً ولا فيلسوفاً ، بل يجب أن يكون ذئباً ، وأن يكون عملياً وواعياً ، فادمت تشهد لصاحبك بتلك الصفات الرقيقة السامية ، فلا يجوز أن يظل في منصب الأمين العام ساعة واحدة ، ولذلك أصبح من واجبك أنت أيضاً أن تنصحه بترك هذه المهمة لمن يقدر عليها ...

هـذا ماكان سنة ١٩٤٧ وهو يشبه إلى حدما حكاية كتاب عزام باشا إلى نوري باشا السعيد بعد ذلك بعامين ... فعزام باشا يظن أنه بهذه الطرق الأدبية والأساليب البدائية يمكنه أن يسير بسفينة الجامعة العربية في بحر طالما غرق فيه دهاة الرجال وأساطين السياسة .

وهنا قد يبرز سؤال وهو : لماذا استحسن بقاء الصلة الشخصية بين نوري السعيد وبين عزام ، ثم أعمل أنا على خلاف ذلك بل أسلك سبيل القطيعة معه ، والجواب سهل ، وهو أن نوري باشا رجل رسمي ومكلف من حكومته بعمل يتصل بمنصب عزام فلا بد له من الاتصال به ، وأما أنا فغير رسمي وغير مكلف من أحد بشيء ، ولذلك أصبحت غير مجبر على مجاملة عزام وغير ملزم بأن أدوس على عواطفي الشخصية وأبش في وجوه أعرف أن أصحابها يغشون أمتهم ، فالمجاملة لها رجال السياسة والمسئولين عن المصالح العامة الرسمية ، وأما من كان مثلي فيجب أن تكون مهمته مكاشفة هؤلاء الشطار ، من تجار السياسة ، والمشاجرة معهم حتى خسران مودتهم ، فمهمة المجاملة لها رجالها ، ومهمة المكاشرة وهي أصعب ، لها رجالها ...

استطراد واستغاثة القاوقجي

إن تقدير المصلحة العامة غير موجود في أمتنا مع الأسف لاعند رجالنا ولاعند مؤسساتنا السياسية ولاعند البعض من صحفنا ، وإني أتذكر حادثاً وقع قبل ذهاب الجيوش العربية لفلسطين ، وذلك أنه لما اشتبكت جموع المتطوعين أو « جيش الإنقاذ » مع اليهود في معركة « مشمار » بأواسط فلسطين نشرت إحدى الصحف نبأ هزيمة أصابت جيش الإنقاذ وقالت إن قائده السيد فوزي القاوقجي قد أرسل برقية إلى عزام باشا رب جامعة الدول العربية يستغيث بها لتعمل على إنجاده لأن القاوقجي كان أيضاً من المخدوعين بهـذه الجامعة وأمينها الخالد . . . فهذا

الخبر الذى فيه ما فيه من توهين وفضيحة كان فى حاجة إلى مايستره فقامت إحدى اللجان الفلسطينية بالقاهرة «وصححت» الخبر فى الجريدة فلم تنشره ، فنشرته اللجنة فى جريدة أخرى ثم ذهبت بنفسى إلى الجريدة الأولى أعاتبها على نشر الخبر الأول وعلى إغفال التصحيح. فإذا برئيس التحرير يغضب ويقول نحن لانكذب ! ثم فتح درجاً وأخرج منه نفس البرقية التى أرسلها القاوقجى إلى عزام باشا وأطلعنى عليها فقلت له نحن لاننكر ذلك ولكن نشر تلك الهزيمة لايجوز ، كما أن إغفال التصحيح الذى يستر المصيبة ويرفع المعنويات لايجوز كذلك. فقال إنه سينشر أيضاً أصل برقية استغاثة القاوقجى حتى لاتجسر تلك الجريدة على نشر تكذيبات لجريدته ! فقلت إياك أن تفعل لأن إذاعة نص البرقية يكون أفظع وأشد ضرراً بمصلحة فلسطين ويقوى معنويات اليهود ويجعلهم يطلعون على سر حربى لامثيل له ، وماذا بعد أن تصبح تلك الإشاعات حقيقة فيعرفون موضع الضعف من جيش الإنقاذ.

وغادرت إدارة الجريدة مطمئناً ، ولكنها فى الصباح التالى نشرت البرقية بنصها الحرفى بدون أن تفكر لحظة واحدة بما يجره ذلك النشر من مصائب ونكبات.

أصل المصيبة

ولكن الحق ليس على الجريدة وحدها ولكن على أمانة جامعة الدول العربية التى لاتعرف معنى كتمان الأسرار العسكرية ، لأنها فى الحقيقة لم تكن تدرك أن البرقية التى وصلت إليها تعتبر سراً ، بل ان هذه الجامعة لايهمها شىء ؛ لا الأسرار ولا غير الأسرار ... وقد بحثت عن كيفية وصول البرقية إلى الجريدة فعرفت السبب وبطل العجب ، لأن عزام باشا من عادته أنه كلما اهتدى إلى صحفى نشيط فى جريدة كبيرة عينه عنده أيضاً لينشر عنه فيها المدح ويمنع عنه القدح ، كما أن كل جريدة شاطرة كانت تتفاهم مع كل موظف نشيط من موظفى أمانة الجامعة العربية على موافاتها بأخبار الجامعة ، وخصوصاً المكتوم منها !

فكانت النتيجة الحتمية لهذا التسابق بين الجانبين أن بعض مخبرى الصحف كانوا أيضاً يتسابقون فى سرقة أخبار الجامعة العربية ووثائقها ويقدمونها إلى جرائدهم ، وبعض هذه الوثائق كان يباع للسفارات الأجنبية ... ذلك لأن مركز الأمانة العامة لايشبهه أى مركز

سياسى فى الدنيا ، لامن جهة الفوضى ولا من ناحية التخبط ، فهى مؤسسة « سايبة » لامهيمن عليها ولا يوجد مسئول عن حالها .

ديوان المحاسـبة

وقد تحدثت مع أحد الوزراء الحاليين الذين يهمهم أمر الجامعة وسألته لماذا لا يفحص ديوان المحاسبة دفاترها وحساباتها ويضع تقريراً عن تصرفاتها لعل من فيها من نهابين يخافون مغبة ما يجترحون ، فقال إن الجامعة بحكم تشكيلها السياسى تعتبر مؤسسة دولية لا سلطان لديوان المحاسبة عليها ، فقلت له أيجوز أن تخضع حسابات رياسة الوزراء ، ومعها تصرفات مصطفى النحاس باشا لسلطة ديوان المحاسبة ولا تخضع لها أمانة الجامعة العربية التى لا يوجد لها مثيل فى الدنيا بالفوضى وإضطراب أمورها ؟ فقال وماذا نصنع ؟ فقلت له يمكن تأليف لجنة من الدول العربية لفحص حالة الأمانة العامة ومراجعة تشكيلاتها وحساباتها وتوفير المال المبعثر وتخصيصه لإعانة المنكوبين والمشردين الذين يعتقدون أن الجامعة كانت من أسباب نكبتهم وتشريدهم.

أمثلة . . . .

وقد فهمت من محدثى أن عدد موظفى الأمانة العامة يزداد دائماً وباستمرار ، وليس عاماً بعد عام فقط ، لأن عددهم يزداد كلما تغيرت وزارة فى البلاد العربية ؛ إذ يقوم رجال الوزارة الجديدة بإرسال أقاربهم إلى عزام باشا فيخلق لهم الوظائف من تحت الأرض ! وأنى أزيد على ذلك شيئاً وهو أن تعيين هؤلاء الجدد لا يقتضى إزالة أحد من المحاسيب الذين سبق تعيينهم بل « يكربس » عزام الجدد منهم فوق السابقين ، وهلم جرا ... على أن أولئك وهؤلاء من الأساس لا يعملون شيئاً بل يقبضون المرتبات الباهظة وهم قعود سكوت ، ومنهم صاحبنا أسعد داغر فهو من عظماء مستشارى عزام الذى لا يستشير أحداً ، ولو كان الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ! فأسعد داغر يتناول نحو ١٧٠ جنيها فى الشهر بما فى ذلك علاوة الغلاء ، ولكن دون أن يعمل للجامعة شيئاً ، لا بالفكر ولا بالرأى ، سوى تقريظ عزام باشا فى المحافل السياسية وحماية الأمانة العزامية من الساخطين ، مستعملاً صيته القديم الطيب للتستر على تصرفات رئيسه ، وقد ظن أسعد داغر أنه يستطيع أن يستخدم صيته القديم هذا للتأثير على المراقبين

ويشير بعضهم على أستاذه القديم نورى السعيد لحساب عزام ، فما كان من نورى إلا أن أمر أسعد داغر بمغادرة العراق فوراً ! فلما رجع إلى مصر كتب إلى نورى السعيد كتاباً يشتمه فيه ، فى حين أنه صديقه ، فلولا نفوذ جامعة عزام إذن لما وقعت الوحشة بين داغر والسعيد . على أن نورى السعيد كان لا يقصر مع أحد.. ولكنها على ما يظهر أقل بكثير من جراية عزام ... ولذلك انقلب الحال ... وانعكست الأوضاع ، والأمر يومئذ لله !

حسنة وأنا سيدك

ثم دارت الأيام فإذا بأخبار جديدة تذاع عن حوادث جديدة ، فقد سمعت كثيراً أن أسعد داغر الآن « متخانق » مع عزام وأنه ساخط على تصرفاته وأنه حردان منه ولا يتعاون معه ، فقلنا خيراً ، وعسى أن يوضح لنا أسعد ما هنالك وقد سألت من أخبرنى الخبر : لماذا لا ينشر أسعد داغر المآخذ التى يأخذها على عزام حتى أدى الأمر إلى القطيعة بينهما ليعرفها الرأى العام ؟ فقال محدثى : كيف ينشرها وهو لا يزال موظفاً عنده ، فقلت : يستقيل وينشر الحقيقة . فقال : وهل تريد منه أن يخسر فى سبيل إعلان الحقيقة ١٧٠ جنيهاً كل شهر ...

إنه لشىء محير بلا شك! إن أسعد داغر يعرف مرض الجامعة ولا يريد أن يتكلم عنه ، وهو مع ذلك لا يكلم عزام باشا ولا يتعاون معه على شىء ، فهل هو متعاون معه فقط على قبض المرتب ! موظف يعمل مع رئيس ولا يوافقه على تصرفاته ، ويقبض منه أجراً ولكنه لا يكلمه ، ويعرف أمراض الجامعة ولكنه لا يخبر الناس عنها ، ولا يتعاون مع رئيسه على عمل شىء للمصلحة العامة ولكنهما يتعاونان فقط عند مسألة الفلوس ...

متناقضات عجيبة ، وأمور محيرة ، ولكنها تدل فى نهاية الأمر على أن الجامعة لا يرجى لها صلاح ما دامت واقعة فى قبضة هؤلاء الناس مطلقاً .

خناقة رسمية أخرى

وحضر فاضل بك الجمالى وزير خارجية العراق جلسات الجامعة العربية فأبدى ملحوظة عن حالة الأمانة العامة ، واقترح تنظيمها وتطبيق قوانينها ، فإذا بعزام باشا يضج ويعتبر ذلك طعناً فى شخصه ! فى حين أنه لا طعن هناك لا فى شخصه ولا جامعته ، ولكنه مجرد اقتراح

بطلب التنظيم وضبط الأمور فلماذا يخاف عزام من التنظيم والترتيب ؟

فلما عرف الجمالى بك بما يقوله عزام باشا لم يسعه إلا أن يسرد فى البرلمان العراق بعض تصرفات الأمين العام التى لا يقبلها عقل ومنها : أن عزام باشا لا يطلع مجلس الجامعة على ما يقوله أو يعمله باسم المجلس، بل يندفع فى الكلام بلا حساب ويورط الحكومات المسئولة بتصريحات لا يمكن الموافقة عليها ، وأنه يسافر لأوروبا وأميركا باسم الجامعة بدون علمها ولا تفويض منها ، وأنه ذهب مرة إلى سورية باسم الجامعة وتكلم مع السوريين فى أمور أفسدت الحال بينهم وبين العراقيين . . . وأنه نصح ولى عهد اليمن وشقيقه بعدم زيارة العراق وأنه يتصل بالبعثات الدبلوماسية الأجنبية باسم الجامعة بدون علم الجامعة ، وإنه يوفد أشخاصاً باسم الجامعة إلى الخارج بدون إذنها و . . . و . . . الخ

إنفلات لسان عزام باشا

ثم ختم الوزير العراق فاضل بك الجمالى خطابه فى البرلمان بقوله حرفياً « إن من مصائب فلسطين أن يعتبر الأمين العام نفسه اختصاصياً فى الشئون الحربية لدرجة إنى سمعته يقول « إن ثلاثة آلاف متطوع مغربى يكفون لإنقاذ فلسطين » ! !

وإنى أزيد على القصة التى أوردها الوزير قصتين أغرب منها ؛ فقد أخبرنى الصاغ محمود لبيب بك أحد قادة الإخوان المسلمين الذين كانوا خير عنصر محارب ، وخير فدائى مجاهد فى حرب فلسطين ـ أنه طلب من عزام باشا أن يساعدهم بسلاح فقال له عزام إنه لا لزوم لذلك وان الأحسن هو أن يسلك الأخوان طريقة « اضرب واهرب » ... وقد سبق لعزام أن قال لفوزى بك القاوقجى « هجصوا لكم شوية مع اليهود إلى أن تساعدنا أميركا وانجلترا عليهم لفض المشكلة الفلسطينية ! » وقد نشر القاوقجى هذه القصة فى مذكراته قائلاً : أنا ما كنت أعرف أن الحرب هى عبارة عن « تهجيص » إلا عند عزام !

وأنا أقول إن الأغرب من هذا التهجيص الحربى هو « التهجيص السياسى » وإلا فمن يقول إن أميركا وانجلترا تساعدان العرب على اليهود ، فى حين أنهما هما اللتان خلقتا دولة اليهود ! !

وصف حالة الجامعة

الحاج عبد الرحمن ـ بحق سيدى عبد القادر الكتانى ، ... يخضع السلطان ، لا يكن بعمى العين ، وأقرى للسما رأسى ، وادعى فى النص الثانى !!

لا تزال الصحف تصور جامعة الدول العربية بريش الرسامين الذين يعبرون فى هذه التصاوير عن إحساس الأمة العربية نحو الجامعة وأمينها أدق تصوير ، وقد أوردت فى هذا الكتاب مثيلات لها ، وكلها تدل على انقطاع الأمل منها .

فالصورة العليا تمثل الحكومات وهى واقفة صفاً عند شباك بنك الثقة العربية فيقول لها الشعب ان رصيدكم قد انتهى والصورة الوسطى ترسم عبد الرحمن عزام وهو ينقذ مراكش بالكلام و « التعزيم » والصورة الثالثة تبين حقيقة الوضع مع اليهود ، وهو انهم هم الذين يحاصرون العالم العربى وليس هو الذى يحاصرهم .

من تصرفات عزام

وصرح السيد عبدالهادى البجارى عضو مجلس النواب العراق أن عزام باشا يعين فى الجامعة أشخاصاً لا يحملون شهادات ولا مؤهلات بدرجات عالية وخصوصاً أقاربه الذين يزيد عددهم على عدد جميع موظفى الأمانة العامة من الدول العربية الأخرى ؛ وأنه رفع بعضهم خمس وست درجات دفعة واحدة وأنه رقى رئيس السعاة إلى درجة ملحق . . . وقال النائب العراق إن التلميذ الدبلوماسى « فلان » بعد تجريده من الجنسية العراقية حين رجع إلى جنسيته السورية قد تمتع بإجازة سبعة أشهر قضاها بمحطة إذاعة دمشق فى شتم العراقيين ، وأن عزام باشا عينه ملحقاً من الدرجة الأولى بضعف راتبه الأول ومنحه مكافأة إستقرار ثلاثة رواتب مرة واحدة فكانت النتيجة أن « فلان » هذا قبض بموجب ذلك نحو ألف جنيه ...

تصوير مختصر

وقد حلل كاتب مجلة روز اليوسف السياسى شخصية عزام باشا فى فصل مختصر قال فيه « وعواطف عزام باشا تشبه النار ولكنها لم تحرق أو تكو صاحبها بل أحرقت شعوباً وكوت دولاً آمنت بعواطف عزام . وأن عزام باشا حريص على أن يظل فى الأمانة العامة دائماً وأنه فى سبيل هذا الحرص كلف الأمة العربية كثيراً وأفقدها عدة معارك ، وانه اضطر أن يكون لبقاً مع الإنكليز حيناً ، ومع شرق الأردن حيناً ، ومع كل دولة وكل شخص وكل جهة يمكن أن يكون لها صوت فى بقائه أميناً عاماً ! فلو أن عزام لم يحرص على البقاء فى الأمانة العامة لأصبح بطلاً وجنب الدول العربية كثيراً من الويلات...

ماذا قال التابعى عن الجامعة

وخير ما أختم به قصص الجامعة العربية هو أن أثبت هنا تصوير حالتها الراهنة كما يراها الكاتب الشهير الأستاذ محمد التابعى ، فقد نشر فى مجلة آخر ساعة الصادرة يوم ١١ إبريل ١٩٥١ فصلاً بديعاً عن الجامعة ونكبة فلسطين يجب تخليده إذ يقف منه الجيل القبل على حقيقة

من حقائق الجيل الحاضر الذى سكت على مخرقات لا مثيل لها ، قال التابعى :

مرة أخرى أتحدث عن الذين لا يزالون يحسنون الظن بأمريكا وبريطانيا .. وفرنسا ! ويفزعون أو يلجأون إلى أمريكا وبريطانيا وفرنسا إذا أصابهم مكروه ! ..

فى مقال سابق كتبت عن ضعف دول الجامعة العربية .. هـذا الضعف الذى أورثها الهوان .. فلم يعد أحد يرهب جانبها أو يعمل لها أقل حساب. إلى أن قلت : ... إنها أصبحت أضعف من أن تخشاها نفس إسرائيل ! بل إسرائيل هذه ـ حكومة عصابات وشذاذ الآفاق كما كنا نسميها ـ أصبحت تعتدى فى كل يوم على دولة من دول الجامعة . والجامعة تسكت و (تطنش) وتعمل أذنا من طين وأخرى من عجين .. وإذا تحرج الأمر فزعت تستغيث بكبير مراقبي الهدنة .. إلى آخر ما كتبته فى عدد آخر ساعة الصادر فى ٧ مارس الماضى وها نحن أمام اعتداء جديد ! . فماذا فعلت دول الجامعة العربية ؟ راحت تستغيث بلجنة الهدنة ... وبمجلس الأمن !. كأنها لم تلدغ مرتين وثلاث مرات من مجلس الأمن وراحت تذكر أمريكا وبريطانيا وفرنسا بالبيان الذى كان أصدره وزراء خارجية الدول الثلاث فى شهر مايو ١٩٥٠ أى منذ نحو عام .. والبيان الثلاثى المذكور يفرض نوعا من الوصاية أو الحماية على دول الشرق الأوسط ـ أى الدول العربية وعلى إسرائيل ! لأنه يأمرهم بمراعاة حسن الجوار وآداب السير والسلوك وأن لا يعتدى أحد منهم على جاره .. ويهدد المعتدى منهم بالعقاب السريع . وفى مقابل حسن السير والسلوك تتعهـد الدول الثلاث الوصية الحامية ـ بضمان الحدود الحالية لكل بلد عربى !

وإذا لم تكن هذه هى الحماية أو الوصاية فإن قواميس اللغة تكون إذن متهمة بالكذب الصارخ المفضوح ! .

صدر هذا البيان فى شهر مايو الماضى وقالت صحف عربية ـ هنا فى مصر وفى سوريا وفى العراق ولبنان ـ إن هذا البيان إنما يهدف إلى حماية دولة إسرائيل ! . . وإلى ضمان حدودها الحالية وإلى إفهام الدول العربية أن إسرائيل قد ولدت لتعيش وأن الدول الثلاث أمريكا وبريطانيا وفرنسا ـ وهى تعلن ضمانها للحدود الحالية لدول الشرق الأوسط ـ إنما تقصد دولة إسرائيل بالذات !.

أوكأنها تريدأن تقول للدول العربية : لاتفكرى بعد اليوم فى بعث دولة فلسطين العربية.!. لأن إسرائيل هنا ونحن نحميها !. وفلسطين العربية راحت ولن تعود ! الحدود الحالية باقية.. ويجب أن تبق !.. وإلا تدخلنا بقوة السلاح ! هذا هو البيان بالأبيض والأسود !..

إنه البيان الذى يفرض الذل والهوان على دول الجامعة العربية. ومع ذلك ! وقع اعتداء إسرائيل المسلح على سوريا .. وإذا بدول الجامعة العربية ـ وعلى رأسها مصر ـ تفزع إلى أمريكا وبريطانيا وفرنسا تذكرها ببيانها المذكور !.: أى تطلب منها الحماية من شر إسرائيل!

إلى هذا الدرك من الذل والهوان رضى ساسة العرب أن ينزلوا بنا وبقضية فلسطين !

إلا ما أسرع مرور الزمن !

منذ أعوام ثلاثة كنا نطالب ـ ولاأقل ! ـ بفلسطين كلها دولة عربية موحدة !.. وكنا نهدد بإلقاء يهود فلسطين فى البحر ..

ولما لم نفلح فى إلقاء اليهود فى البحر .. وأفلحنا فقط فى تشريد مليون عربى .. عدنا نرجو مجلس الأمن وغير مجلس الأمن ونطالب بمشروع التقسيم الذى كان قد وضعه الكونت برنادوت وكنا نحن رفضناه بإباء وشمم ! .

واليوم.. نزلنا عن فلسطين العربية الموحدة! ونزلنا عن مشروع الكونت برنادوت !... ورضينا بحدودنا الحالية.. وأصبحنا لانطلب سوى حماية أمريكا وبريطانيا وفرنسا لهذه الحدود!

أربعون مليون عربى يطلبون اليوم من أمريكا وبريطانيا وفرنسا أن تحميهم من عدوان إسرائيل !

هذا هو الهوان الذى ما بعده هوان !

هذا هو الهوان .. ثم يبق حديث الغفلة أو حديث التفكير السقيم !

هل سأل أحد هؤلاء الساسة العرب نفسه لماذا تقف أمريكا وبريطانيا وفرنسا إلى جانب العرب .. ضد إسرائيل ؟ أو أين ومتى رضيت أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا بإغضاب إسرائيل لكى ترضى العرب ؟..

ما من مرة اعتدت فيها إسرائيل .. إلا سكتت الدول الثلاث على هذا الاعتداء!

وما من مرة شكت فيها إسرائيل أو لطمت خدها وشقت جيوبها إلا أسرعت أمريكا لنجدتها ومواساتها .. وتبرعت لها بالملايين ؟!

ثم نستعرض موقفنا من الدول الثلاث .. لنرى هل فى هذا الموقف مايشجع على الرجاء فى الإنصاف !

بين مصر وبريطانيا خلاف يوشك أن ينقلب إلى خصام .. وفى برلمان بريطانيا وفى صحافتها حملات شديدة ضد مصر بوجه خاص وضد الدول العربيـة بوجه عام .. ولا تنسوا هنا مقال جريدة (الأوبزرفر) التى تكلمت فيه عن وجوب أخذ الدول الإسلامية بسياسة الشدة والحزم!

وبين الدول العربية وفرنسا خلاف وخصام بسبب مراكش .

ومفوضية أمريكا يعتدى عليها بالقنابل فى دمشق .. وفى دمشق تسير المظاهرات تهتف بسقوط أمريكا وبريطانيا وفرنسا !

وفى العراق يتحدثون علناً عن تأميم البترول وإلغاء عقد الشركة البريطانية صاحبة الامتياز !

وأستطيع أن أمضى فى وصف (الموقف) ـ موقف الخصومة ـ الذى بيننا ـ نحن العرب ـ وبين الدول الثلاث التى نفزع اليوم إليها وإلى إنصافها .. ونطلب منها أن تحمينا من إسرائيل!

ولننظر بعدئذ إلى لسان الضعف الذى يتكلم به زعماؤنا .. وإلى لسان التحدى الذى تتكلم به إسرائيل!

زعماء العرب ـ هنا فى مصر وفى سوريا وفى العراق ـ يتحدثون عن البيان الثلاثى وعن الالتجاء إلى مجلس الأمن .. الذى لم ينصفهم ولا مرة واحدة !

وبن جوريون يتحدث فيقول :

إذا عاد السوريون إلى عرقلة الجهود السلمية التى نبذلها لإنشاء المستعمرات فى هذه المنطقة الخاضعة لسيادة إسرائيل اضطروا إلى مواجهة قواتنا المسلحة .

لم يهددنا رئيس حكومة (عصابات شذاذى الآفاق) بالالتجاء إلى مجلس الأمن .. بل هددنا بقواته المسلحة !

مصرع فلسطين

اعترفوا باليهود

إن الدول العربية لاتريد أن تعترف بأنها معترفة بالدولة اليهودية فعلاً ورسمياً ، نعم انها اعترفت لعصابات اليهود بأنهم «دولة» وقد تم ذلك منذاللحظة التى عقدوا فيها الهدنة معهم، لأن الهدنة لاتعقد إلابين «الدول» و «الدول» وليس بين الدول الرسمية والعصابات الخارجة على القانون . وبالأخص عصابات يهود فلسطين التى تسللت من وراء البحر ودهمت البلاد على صورة عدوانية سافرة وقحة لامثيل لها منذ خلق الله الإنسان ، ثم أخذت تذبح السكان وتنهبهم وتطردهم من بلادهم .

هدنة من جانب واحد

وقد مضى الآن على وجود الهدنة نحو ثلاث سنين . ومعنى المهادنة أن لايعتدى أحد المتهادنين على الآخر ، كما أن الهدنة لاتعقد إلا بين المتحاربين .

فأنا أولاً أسأل : هل اشتبكت الدول العربية فى حرب مع اليهود ؟ ومتى وأين وقع القتال ؟ إن الذى يعرفه الكافة هو أن الدول العربية استلمت المدن العربية من أهل فلسطين الذين سلموها بلدانهم تسليم اليد كما يسلم المستجير نفسه إلى المنقذ ، ولكن الدول العربية راحت تعلن ببلاغات رسمية عسكرية طنانة أنها «استولت» على تلك البلدان «بدون مقاومة!» فهل هذا الكلام يقال ، وهل هو صحيح ؟

كلا ، ولكن الصحيح أنه لم تقع معارك بين الدول العربية وبين اليهود ، بل رأينا اليهود يهجمون على الجيوش العربية ويهزمونها ويستولون على ماق أيديها مما استلمته من أصحابه سلما. ورأينا جيش الأردن يهرب عن ميسرة الجيش السورى فى شمال فلسطين الشرق ويكشفها وبذلك قضى اليهود على جيش السوريين ، ثم رأينا الجيش الأردنى يترك اللد والرملة لليهود ويفر عن ميمنة الجيش المصرى فى جنوب فلسطين فهزمه اليهود وأخذوا منه بئر السبع والمجدل وجميع صحراء النقب حتى خليج العقبة ، ورأينا الجيش العراق واقفاً فى وسط فلسطين يتفرج على المأساة ، فلا هو ساعد الجيش السورى ولا هو أنجد الجيش المصرى ، مع أن الجيش العراق فى فلسطين كان أكثر الجيوش العربية عددا وأكملها نظاما وسلاحاً وأحصنها موقفاً ، فقد كان فى إمكانه « لو أراد قواده وولاة أمره » أن يخسف بمدافعه

مدينة تل أبيب لتمكن من ذلك بدون أن يتحرك من مكانه لأنه كان متحصناً فى الجبال المطلة على تل أبيب وماحولها من مدن ومستعمرات يهودية بمصانعها ومعسكراتها ولم أذكر مطاراتها، لأن اليهود يومها ما كانوا يملكون طيارات مطلقا .

والخلاصة أنه لم يقع قتال بين الجيوش العربية وبين اليهود، ومن كان لديه أى دليل على أن الجيوش العربية هجمت على جيش يهودى واحد فليذكره للناس وليقل أين وكيف ومتى كان ذلك ...

وإننى أقرر على رؤوس الأشهاد أن مدينة القدس نفسها لولا صمود من فيها من المجاهدين بقيادة أحمد حلمى باشا لسقطت فى أوائل أيام القتال ، ولولا الهدنة الإجرامية التى رمت إليها بعض الحكومات العربية لسقط الحى اليهودى الكبير الذى يحيط بالقدس واستسلم فيه مئة ألف يهودى وقد أيد هذا القول مناحم بيجن قائد عصابات اليهود فى مذكراته التى نشرها فى سنة ١٩٥٠ وترجمتها صحف القدس العربية بعد ذلك .

الهدنة أيضاً

ذكرت أن الهدنة مضى عليها الآن نحو ٣ سنين وأن معناها عدم اعتداء أحد على أحد، ولكن ما الذى حدث فى خلال ذلك ؟

لقد حدث أن اليهود لم يحترموا الهدنة يوما واحداً ، كما أن الدول العربية لم تخل بالهدنة مرة واحدة ! بل بقيت ساكتة ساكنة مؤدبة تحافظ على القانون وتحترم الأصول ...

بل إنها لاترد عدوان اليهود ولاتدافع عن نفسها ، وهاهى لاتزال منذ ثلاث سنين تتلقى الاعتداءات عليها من اليهود مكتفية بالشكوى عليهم إلى «لجان الهدنة» وتبعث بالاحتجاجات إلى أميركا ...

وبعد ذلك ...

لاتزال الهدنة قائمة ، ولكن إلى متى؟ لايدرى أحد متى يأتى هذا «المتى» !، ولكن الذى رأيناه هو أن الدول العربية بعد أن افتعلت الهدنة وبعد أن فرضتها على الفلسطينيين أنفسهم الذين هم أصحاب الأرض والوطن ، لاتزال واقفة لاتتحرك، فلاهى تصالح اليهود لأنها لم تحاربهم، ولاهى

تحاربهم لأنها لاتنوى محاربتهم ، بل تركتهم يهضمون الغنيمة التى غنموها ويستعدون لجولة أعظم . وفى خلال ذلك تضيع حقوق الفلسطينين وأموالهم وتهدر دماؤهم ويزيد مرور الزمن فى إسبال ذيل النسيان على كل حق لهم ، ومع ذلك فإن الدول العربية التى تحلم بهذا الصلح لن تستطيعه لئلا تفتضح أمام شعوبها، لأن معناه الاعتراف بضياع فلسطين نهائياً ومعناه أيضاً الاعتراف بالهزيمة ، بل على ماذا تصالح وهى لم تفقد شيئا من أرضها ، لأن الذى أخذه اليهود هو أرض الفلسطينين « ومنعول أبو فلسطين » ...

استطراد !

إننا لانسمع منذ ثلاث سنين إلا الأخبار التى أذكر نماذجها فيما يلى وستستمر إلى يوم البعث ، وهى : هجم اليهود على المنطقة الفلانية من أرض لبنان واحتلوها ونهبوا القرى وطردوا سكانها ، فاحتج لبنان .. وهجم اليهود على الجهة الفلانية من أرض سورية واستولوا على مافى القرى من أرزاق وماشية . فاحتجت سورية! وهجم اليهود على الأرض الفلانية من صحراء سيناء المصرية وطردوا البدو منها بعد أن نهبوا كل مايملكون من إبل ثم أحرقوا خيامهم فاحتجت مصر .. وهجم اليهود على المناطق الفلانية من فلسطين الواقعة تحت حكم الأردن وذبحوا أهل القرى وسلبوهم أمتعتهم وأموالهم ثم طردوهم منها . أما هنا فلا احتجاج من حكومة الأردن ولا اعتراض ، بل أوامر بمنع جنودها من التعرض لليهود ، وأوامر بالتراجع إلى الوراء ، وأما فلول سكان القرى الذين سلموا من الذبح فلا يجوز لهم الصياح ولا الأخذ بالثأر حتى لاتعد حكومة الأردن قد أخلت بالهدنة ، بل تمنع الصحف من نشر أنباء تلك الفظائع وضياع الوطن ؟

إنها أذل هدنة عرفتها تواريخ الحروب منذ خلق الله الحروب ...

اليهود يؤدبون الدول العربية

إننى أسطر هذه الصفحات فى شهر أبريل سنة ١٩٥١ حين وقع هجوم من اليهود على حدود سورية والأردن فى وقت واحد ، فأما حكومة الأردن فقد طلبت السلامة والعافية

وسحبت جندها [١]... وأما سورية فإنها حاولت أن تدافع عن كرامتها فتصدى جندها لليهود، فإذا بثمان طيارات يهودية تغير على الأراضى السورية فتدمر بقنابلها بعض القرى وتخرب وتقتل، ثم تعترف حكومة اليهود بذلك رسمياً وأنها أمرت بهذه الحملة « التأديبية » لإفهام السوريين وجوب الوقوف عند حدهم...

إن هذا التعبير وحده ليكفى لإثارة الدم فى رأس كل عربى وكل مسلم على وجه الأرض. أتقوم « دولة » عصابات اليهود المتشردة المجرمة بهذه الفظائع، ثم تهين العالم العربى بهذا التعبير المهين ولا تهرع الزحوف من جميع البلاد العربية لتأديب اليهود تأديباً حقيقياً؟ اللهم لاحول ولا.

لقد كنا نفهم ذلك التعبير من انجلترا حين كانت ترتكب الفظائع مع القبائل فى الصحراء وتقول إنها عمليات تأديبية ... أما أن يصدر هذا الوصف من عصابات أشرار ومجرمين أجانب مع دولة نظامية وهى فى أرضها، فذلك أشد أنواع الذل والإهانة فياللحزن والأسى.

معنى الهدنة

إن الخنوع الذى بدا من الدول العربية أمام اليهود وتسميه حكوماتنا « هدنة » إنما كان بين هذه الدول مجتمعة من ناحية وبين اليهود من ناحية أخرى، وبذلك أصبح واجباً على كل دولة عربية أن تهجم من ناحيتها على اليهود بمجرد إخلالهم بالهدنة مع أية دولة عربية من

---

(١) إن تعدد فرار جيش الأردن من وجه اليهود و « مسامحتهم » بكل ما يأخذونه من أرض الفلسطينيين لم يكن فقط بأمر حاكمها العربى الدخيل وحده، بل بأمر الجنرال جلوب البريطانى قائد جيش الأردن أيضاً ... وقد حدثنى عربى من يافا كان اليهود قد استبدلوه بيهودى عند حدود القدس فأحضروه أمام القائد لاش البريطانى الذى يقود مفرزة من جيش الأردن فأراد أن يسأل اليافى القادم للقدس عما هناك من معلومات فابتسم اليافى وقال للقائد لاش « اسأل شقيقك الذى هناك فالأخبار كلها عنده ! » ذلك أن أحد الشقيقين — أو الشقيين — يشتغل بقيادة فريق من جيش حكومة الأردن، ويشتغل شقيقه الآخر الكولونل لاش بقيادة فريق من جنود اليهود عند دولة إسرائيل ! فبعد هذه الحكاية العجيبة هل يستطيع مخلوق فى الدنيا أن يستغرب هزيمة الأمة العربية وحكوماتها أمام اليهود ما دامت حكومة الأردن تضع جيشها فى أيدى قواد من الانجليز؟

أخواتها ، فلو أن اليهود رأوا من دولنا السبع هذا التضامن مرة واحدة فقط ، لما تكرر من اليهود أي إخلال بالهدنة .

بعد التأديب . . .

لقد هال السوريين هجوم اليهود عليهم بهذه القحة والشدة ، فسألوا الحكومات العربية أن تنجدهم فأنجدتهم بما يأتي . أبرق نوري باشا السعيد رئيس الحكومة العراقية إلى حكومة سورية بأنه مستعد لكل مساعدة تطلبها سورية ... وهو يرمي إلى إرسال جيشه لاحتلالها وضمها إلى «الهلال الانكليزي الخصيب» .. وأبرق رئيس الحكومة المصرية بأنه لا يستطيع أن يقف مكتوف الأيدي أمام العدوان اليهودي على سورية ... ولكني أستبعد أن تتحرك مصر لمساعدة الدول العربية بعد أن ذاقت الغدر بجيشها مرتين ، الأولى حين سحب الأردن جيشه من اللد والرملة ومكن اليهود من مهاجمة الجيش المصري ، والثانية حين أمر نوري السعيد جيشه العراقي بالفرجة على الجيش المصري وهو منهمك وحده في قتال اليهود في النقب

وذهب قائد جيش لبنان إلى دمشق يقول لحكومة سورية إن جيش لبنان مستعد لمساعدتها ، وهذا غير صحيح ، إذ لا جيش عند لبنان ولا سلاح ، ولو كان يملك شيئاً من ذلك لتصدى لليهود الذين لا ينفكون عن مهاجمة أراضيه هو كل يوم !

وأبرقت الحكومة السعودية إلى سورية تعرب عن استعدادها ... وهذا غير وارد لأنه لا يوجد هناك جيش ، وان وجد فلا يمكن وصوله من الأراضي السعودية إلى سورية ، بل أن الحكومة السعودية قد صادرت قرضاً عقدته لسورية منذ شهور !

سوء النوايا والتخاذل

وفي خلال ذلك ، وبدلاً من أن تتحرك فعلاً أية حكومة عربية واحدة لضرب اليهود من ناحيتها لتأديب اليهود الذين « أدبوا » السوريين ، أخذنا نسمع عن مقترحات عربية بإجراء مفاوضات لعمل جبهة متحدة ! ولكن جامعة الدول العربية لماذا هي موجودة ؟ والضمان الجماعي الذي أمضوه لماذا عقدوه ؟ وإذا كان ميثاق هذا الضمان لا يجعل الدول العربية تنجد بعضها بعضاً فما هي الفائدة من عقده في الوقت الذي نقرأ فيه أن حكومة الأردن كانت قد صادرت سلاحاً لمجاهدي القدس

حين كان أحمد حلمى باشا يدافع عنها ، فقد حدث فى تلك الأيام أن حلمى باشا اشترى أسلحة لفلسطين من الصحراء الغربية المصرية وجلبها عن طريق الأردن فأخذت حكومته الصالح منه وحبسته عندها بحجة الاحتياج إليه وليتها مع ذلك استخدمته ضد اليهود ، بل انها احتفظت به و كفى ! لأن المقصود لم يخف على أحد ، وهو منع تسليح الفلسطينيين أولاً ، ثم نزع السلاح الذى عندهم !

وإلا فهل يعقل أن تستبين الحكومات النظامية المسلحة والتى يمكنها جلبه علناً وتأخذ أسلحة كتائب شعبية مجاهدة لا تتمكن من التسلح إلا بالتهريب ؟

كما أن حكومة النقراشى باشا وعبد الهادى باشا قد صادرت للجيش السورى أسلحة كان قد اشتراها من مخلفات الجيش البريطانى فبقيت إلى الآن معطلة فأ كلها الصدأ ..

إننى أتصور أن السماء لو أنزلت علينا قرآناً جديداً باسم الضمان الجماعى أو الجبهة المتحدة لما نفذوا من ذلك حرفاً ، لأن أسباب قيام الدول العربية بواجب الدفاع عن أخواتها لا تزال موجودة ولكنها لا تتحرك ، فماذا تنتظر من قوم لا يدافعون هم عن أنفسهم .

الحماقات . . .

أما الذى يضحك الثكلى فهو ثرثرة ساستنا وخفتهم ورعونتهم وكثرة كلامهم ، وحسبك أن تقرأ صحفنا العربية فى كل مكان لتجد فيها أخبار الجيوش العربية وأسرارها منشورة ومفصلة ، وتجد أيضاً وصف الجيوش وعددها ونوع سلاحها وأماكن تجمعاتها . وعدد السفن الحربية ـ إن كان لدينا سفناً تنفع ـ مع وصف قوتها وعدد بحارتها ومدافعها ومن أين اشترتها ـ أو ستشتريها ـ وأننا سنقيم مصنعاً للسلاح الفلانى وسيكون حجمه كذا وموضعه فى الجهة الفلانية أيضاً ... وهناك إفشاء الأسرار السياسية ، فالعقيد الشيشكلى جاء لمصر مع بعثة عسكرية للمذاكرة فى أمر هجوم اليهود على سورية ، فإذا بكل ما قيل عن الغرض من مجيئه ومع من تحدث وماذا قال وماذا قيل له ينشر كله فى الصحف بسطاً وافياً كافياً ...

الواجب الذى كان

إن مجىء العقيد الشيشكلى لمصر فى تلك الظروف ما كان يجب أن يقع ، مادام القتال كان يجرى بين سورية واليهود ، لأن اليهود لما سمعوا بسفره إلى مصر فهموا فهماً صريحاً أن القوات السورية

ضعيفة بدليل أن قائدها العام راح يستصرخ القاهرة لتساعده ولولا ذلك ما ترك بلاده، وهنا اشتد طمع اليهود بالجيش السورى واستأنفوا العدوان . وإن سألنى سائل عما كان يجب على الشيشكلى أن يصنع مادامت الحالة على ما وصفت ، فأقول إن الواجب عليه يومها أن يرسل من قبله بعثة عسكرية سياسية إلى مصر لتقوم بالمهمة وتشرح لها الموقف فى سورية . أما إذا كان لابد من مجىء الشيشكلى فكان عليه أن يأتى لمصر سرا ويعود إلى جبهة الحرب فى سورية سراً بدون أن يجعل الأعداء يشعرون بحركاته، لأن حركات القائد العام فى أيام القتال تعتبر دائماً من الأسرار العسكرية .

ساسة الأجانب

إن تشرشل كان يغادر انجلترا فى أيام الحرب ويقوم باتصالاته مع الدول الحليفة ويزور جبهة القتال ثم يعود لبلاده بدون أن يشعر أحد بحركاته هذه التى لم يعلم بها الناس إلا بعد الحرب بسنوات .

هكذا يعمل ساسة الدول وقوادها المتزنين الحريصين، وأما الطنطنة عند كل حركة وإحداث الضجيج المفتعل فى مثل هذه المواقف ، فهو شأن أدعياء السياسة وولاة أمور الأمم المحدثين

إننا منذ ثلاث سنين لم نعرف شيئاً عن حركات اليهود العسكرية ولا ما هى حقيقة عصاباتهم ، ولا ماذا يصنع ساستهم ، ولا كيف يتنقلون فى سبيل أمتهم ، فهذا كله مكتوم ومحاط بالسرية التامة فلا تنشر منه الصحف إلا ماتسمح به السلطات اليهودية ذات الشأن.

وبمناسبة مجىء العقيد الشيشكلى إلى مصر ، أقول إن أحد الرسميين السوريين جاءنى ليلة مجيئه يسألنى ما هو موقفك الآن من العقيد وهو يجىء إلى مصر ، فى حين أن موقفك منه غير ودى بسبب الدكتور أمين رويحة ، فقلت له إن العقيد يجىء الآن من أجل سورية ولذلك سأذهب لزيارته وترك بطاقة تحية له بالفندق، وسأقوم بمحادثة كل من أرى محادثته من ذوى الشأن فى مصر لتأييده فى مهمته .

الشىء بالشىء يذكر

أما هذا الشىء فهو أنى لاحظت من أمور الأمة العربية شيئاً يدل على أن فهم بعضها

بعضاً غير موجود مع الأسف، فهذا السياسي العربي الفطحل لا يعرف سلطنة مسقط أين تكون، وذلك السياسي الكبير العربي لا يدرى ماهو اسم رئيس الوزارة العربية الفلانية التي هي من أعضاء الجامعة العربية وهو عضو فيها ، والعربي الفلاني السياسي لا يعرف أين هي المملكة التونسية ولا ما هو نوع حكومتها ولا ما هي صلتها بفرنسا ، وعرضت أوراق عن بلاد الكويت على أحد فطاحل جامعة الدول العربية وهو برتبة وزير مفوض فألقاها جانبا وهو يقول « الكويت ! أين هي الكويت ؟ » وهذه الحادثة معروفة ومشهورة وقد تندر بها النواب في البرلمان العراقي ونشرتها صحف القاهرة وقد فصلتها في كتاب «معتقل هاكنستب» وذكرت الأسماء ...

إنني أسمع محطة الإذاعة بالقاهرة وهي تخبر عن أحداث جارية فإذا بالمذيع لا يكاد يذكر أسماء الوزراء العرب المفوضين بالقاهرة إلا محرفة غالبا ، ولا يذكر اسم مدينة في العالم العربي والبلاد الإسلامية إلا وجدته يغلط في التلفظ باسم تلك المدينة أو يذكره متلعثماً ثم يبلع نصف حروفه ، بل إن هذا التخبط طالما رآه الناس في بعض الجرائد المفروض فيها أن تعرف بلادها كما تعرف أوربا ! واطلعت مرة على خارطة حربية في مكتب حربي رسمي مقاتل ونحن في حرب مع اليهود، فإذا بأسماء مدن من فلسطين ومواقعها ترد فيها مغلوطة ومشوهة ومحرفة... فلم يسعني إلا أن سحبت القائد من يده إلى خارج الغرفة حتى لا يسمع الحضور حديثنا ونبهته إلى خطورة ما رأيت ...

الاستيعاب وسبحان مغير الأحوال

وفيما كنت أسطر هذا الفصل قرأت شيئاً عن فلسطين وأهلها ما كنت أتصور أن أعيش وأشهده ، وذلك أن أحد ساسة فلسطين نشر كلاما في جريدة المقطم يقول فيه إن حجج اليهود عن استحالة عودة الفلسطينيين المشردين إلى بلادهم بسبب امتلائها بالمهاجرين اليهود هي حجج غير صحيحة ثم يقول « إن منطقة الجليل الغربي مثلا كان يقطنها في أيام الانتداب البريطاني ١٧٨ ألفا من السكان منهم ٣ آلاف يهودي وكانت الملكية اليهودية تؤلف ٢ر٥ في المئة من جملة أراضيها . أما اليوم فإن هذه المنطقة لا يسكنها سوى ٦٠ ألف عربي و١٥

ألف يهودى ومعنى ذلك أن فيها متسعا لمئة ألف نسمة وفيها قوة استيعاب أخرى ـ حسب تقارير لجنة سمبسون ـ تعادل ضعفى عدد سكانها فى أيام الانتداب وذلك بسبب خصوبة أراضيها وجودتها الخ الخ .

فبعد أن قرأت هذه الحجج لا أكتم عن القارىء أننى ضحكت ، لا إعجاباً واستحساناً بل من شدة القهر والكمد ، لأن هذا الجدل كنا نسمعه معكوساً ، فاليهود كانوا حين كانت فلسطين فى أيدينا يوردون أمثال هذا الكلام ليبرهنوا على أن فى فلسطين متسعاً لإسكان عدد كذا ألوف من اليهود الجدد فى المنطقة الفلانية ، وأن الجهة الفلانية قليلة السكان من العرب وأن قدرتها على الاستيعاب تتحمل مجىء عدد كذا ألوف من مهاجرى اليهود الوافدين ...

لقد كانوا يوردون هذه الأدلة لنقبلهم عندنا فأصبحنا نوردها لعلهم يقبلوننا ، وشتان بين الحالتين ، الحالة حين كانوا يحتالون ليأخذوا أرضنا ، والحالة حين صرنا نحاول أن نحتال لنقنعهم بأن يسمحوا لنا بالعودة إليها ...

إن هذا ليدل على أن الأمة العربية وصلت فى الهوان إلى هذه الدرجة من الاستجداء ، فى حين أن الأطفال يدركون بالغريزة أنه ما لم تزحف جيوش مسلحة على يهود فلسطين الملفقين من يهود أوروبا ويهود الصين وأميركا الذين سلبوا فلسطين من أهلها ، أنه بدون زحف جيوش تطرد اليهود بالسلاح لا يمكن لعربى أن يعود إلى فلسطين ، بل إن بقايا العرب فيها يطردون الآن منها فوجاً بعد فوج وجماعة وراء جماعة .. إن الدول العربية تعرف ذلك فلماذا تتجاهله؟

رجوعاً إلى الهدنة

أن الهدنة فى الحقيقة غير موجودة إلا فى قاموسنا نحن فقط ، وأما اليهود فليس لهم أدنى علم حقيق بها ، فخرق الهدنة المزعومة من ناحية اليهود يجرى كل يوم وفى كل ساعة ، فكل أرض عربية يريدها اليهود أخذوها ، وكل قرية يرون أن من المناسب الاستيلاء عليها استولوا عليها ، وقطعان الماشية التى عند العرب ويرونها قريبة من الحدود فهم يقتحمون الحدود ويأخذونها ويذبحون أصحابها أن خطر لهم الدفاع عنها ، وأما الدول العربية المتصلة بهذه الأرض فلا يخطر على بالها الدفاع عن حقها ، ليس بخرق الهدنة ، بل بالدفاع عن الهدنة! لأن حكوماتنا العربية

تعتقد وتتصور أن الإنكليز والأمريكان سينقضون عليها إن لم تتأدب مع اليهود . وهذا غير صحيح ، أما الصحيح فإن الدول العربية لم تعتقد حتى الآن أنها مستقلة حقاً ، فالفزع من دول الاستعمار لا يزال يفعم أفئدة ساستها وساداتها رهبة ورعباً ، فبالرغم من وجود السلاح فى أيديهم فإن الهلع يملأ قلوبهم !

قيل إن أحدهم أصيب بالخبل ، فتوهم أنه أصبح حبة قمح ، فكان كلما رأى دجاجة ، فر هارباً واختبأ ! فأرسله أهله إلى المارستان حيث عالجه الأطباء ، إلى أن اقتنع بأنه إنسان ، وبأنه ليس حبة قمح . ثم غادر المستشفى عائداً إلى بيتـه ، فرأى فى طريقه دجاجة ، فإذا به يقفز كالمجنون ، ويعدو نحو المستشفى ليختبىء ! وجاء الطبيب يفحصه ، ويقول له ماهذا ياصاحبى ، ألم نتفق على أنك إنسان وليس حبة قمح ؟ فأجاب : صحيح ، لقد اتفقنا ، وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع . ولـكن بقى عليكم أن تقنعوا الدجاجة ...

الألقاب أضاعت فلسطين

إن الجزء الجنوبى من بر الشام الذى سمى بعد الحرب العظمى الأولى باسم « فلسطين » كان يحكم بأسلوب استعمارى مباشر ، غير الأساليب الاستعمارية الأخرى فى الأردن وسورية ولبنان ، لأن هذه الأجزاء الثلاثة كانت تحكم بحكومات أهلية الظهر ، فهناك جمهوريات وإمارات فيها وزارات وأدوات مغرية للناس ، كالأوسمة والألقاب من باشويات وبكويات ، وأصحاب دولة ومعالى وسعادة وفخامة ، ورئيس محكمة عليا ، ورئيس مجلس نواب ، ورئيس مجلس شورى ، وقاضى قضاة ، ومدير عام ، ومستشار ومحافظ ومتصرف الخ .

وأما فلسطين فـكانت تحكم بنائب ملك بريطانى ورؤساء انكليز ويهود ، فلم يكن بين الفلسطينيين شخص يتمتع بمنصب كبير أو يحمل لقباً فخماً .. أنا لا أنكر أن تلك الألقاب وأسماء الوظائف والرياسات والإمارات لم تغير شيئاً من الواقع ، وأن الأجنبى المستعمر كان هو الحاكم فى كل مكان ، ولـكن الألقاب والمناصب وجاهها وأبهتها موجودة ، فلا يستطيع إنسان أن ينكر مفعولها ولا سحرها ما دمنا قد اصطلحنا على تعظيم هـذه القشور ، بدون أن نفطن إلى كون الأجانب قد جعلوا من هذه الألقاب مفسدة لأخلاقنا ومصيدة لرجالاتنا !

فمع الأيام أصبح الفلسطينيون وليس لهم رئيس أعلى، ولا يوجد فيهم من وصل إلى كرسى وزير – ولو كان وزيراً خيالياً ككل الوزراء فى البلاد المحكومة بالأجانب – ولا يوجد فيهم من ظفر بلقب باشا أو بك أو صاحب معالى أو دولة الخ أقول إن أهل فلسطين أصبحوا بعد أن حرموا من كل حقيقة وكل مظهر ، يظنون أنهم أقل من جميع إخوانهم وجيرانهم قيمة ووزناً . وصار أصحاب الألقاب فى نظرهم مع الزمن شيئاً عظيما وأنهم فوق مستواهم ، ولذلك أصبح لأصحاب الألقاب فى ذهنهم وخيالهم من القداسة مكانة كبيرة ، هى القداسة بعينها...
ولله در الشاعر المجيد كمال النجمى حين قال فى قصيدته المشهورة عن استشهاد فلسطين وأهلها:

فقد تحكم فيهم أجنب شرس ... مسيطر فوقهم بالقهر والغلب
يعينه ساسة عرب أبالسة ... أزرى بهم كلف بالحكم واللقب
ما فيهمو غير خوان لأمته ... مضيع لحقوق الشعب مغتصب
يسير فى خيلة الأبطال منتفخا ... يهز فى يده سيفا من الخشب
يجـــر أذيال ألقاب منمقة ... يختال فيهن كالطاووس ذى الذنب...

الموضوع !

فبعد هذه المقدمة أقول إن الفلسطينيين لما سمعوا بأن صاحب العظمة الأمير « فلان » يصيح معهم ، وأن صاحب الدولة « فلان باشا » رئيس الحكومة الفلانية يؤيدهم ، وأن صاحب السعادة « فلان باشا » ينصرهم ، وأن صاحب المعالى « فلان باشا » يصرخ معهم، وأن صاحب الفخامة « فلان كذا » رئيس جمهورية كذا قد غضب لهم ... وأن الدول العربية السبع قد حشدت جيوشها وزحفت على يهود فلسطين من جميع النواحى... ثم رأوا هذه الجيوش قد وصلت إلى بلادهم فعلا ، ومعها المدافع الطويلة ذات المرمى البعيد ، وفوقها الطيارات المحلقة فى السماء ، ثم بدأت هـذه الدول المنقذة تتسلم منهم المدن العربية والمواقع العسكرية ، ثم تعين منها الحكام العسكريين هنا وهناك ؛ بل إن كل دولة عربية منها قد أحضرت معها طوابع بريدها بعد أن طبعت عليها اسم «فلسطين» و «إنقاذ فلسطين».. الخ ثم نزعت أسلحة الأهالى من مجاهدين ومرابطين ، وقالت لهم الزموا الهدوء والسكينة والطاعة

بحجة أنه لا يجوز للجماهير ولغير المسئولين أن يحملوا سلاحا ، ولا أن يتدخلوا فى الأمور الجدية الرسمية ...

فبعد هذا كله من يستطيع أن يلوم الفلسطينيين إن صدقوا ما كانوا يسمعونه من بيانات وتصريحات يقذف بها أمراء وحكام وباشوات ، عن « الاجتماعات الخطيرة » التى كانت تعقد، و «المؤتمرات السرية» التى كانت تأتمر - بل تتآمر، وما تخلل ذلك من عربدات على اليهود، وتهديدات لهم بالسحق والمحق والقذف بهم إلى البحر ، أقول إن أهل فلسطين قد صدقوا هذا كله ، وكيف يلامون على تصديقهم الدول العربية السبع وكيف يكذبونها بعد أن رأوا بأعينهم الجيوش والجحافل والطيارات والمدافع قد وصلت إلى بلادهم وحطت رحالها فى أرضهم واستولت على مدنهم تحت قيادات رسمية ، يحمل رجالها رتباً وألقاباً ، من درجة مقدم وعقيد وقائمقام ، إلى كولونل وجنرال ومارشال ... وكيف يعقل أن أولئك وهؤلاء كانوا يكذبون عليهم ؟ هذا مستحيل ...

النتيجة ...

إذن فالذى سمعه الفلسطينيون ورأوه تحت تأثير الألقاب، كان طبيعياً لا شبهة فيه ، وأما غير الطبيعى، والذى ينطوى على كل شبهة، فهو أن هذه الجيوش ما كادت تشتبك مع اليهود فى معركة واحدة حتى رأيناها قد هادنت اليهود بلا سبب ولا موجب ولا باعث، وبعد قليل رأيناها تولى الأدبار عائدة إلى بلادها، ناجية بنفسها، تاركة الفلسطينيين لمصيرهم المحتوم، وهم بلا سلاح، ولا تنظيم ولا شىء من أدوات الدفاع ، وإنى أكرر القول هنا وفى كل مكان وإلى الأبد ، إن اليهود لم يأخذوا من الفلسطينيين مدينة عربية واحدة ، وأما الذى سلم المدن والمواقع إلى اليهود فهم أولاً الإنكليز قبل أن يخرجوا من فلسطين ، إذ سلموهم حيفا ويافا وعكاء وطبرية . وأما بقية المدن والقرى فقد أخذها اليهود من قبضة جيوش الدول العربية ، وهى صفد ، وبيسان ، وسمخ ، وبئر السبع ، والمجدل ، واللد ، والرملة ، وشفا عمرو ، والطنطورة ، والناصرة الخ وما حول هذه المدن من قرى ومواقع وسكك حديدية ومطارات ومعسكرات ، ومن سهول وجبال وبحيرات وأنهار !

الفلسطينيون مسئولون أيضا

لقد دافعت عن أهل فلسطين كثيراً . ولكن هل كانوا كلهم أبرياء من دم وطنهم ؟ والجواب كلا ، بل ان منهم من خان البلاد من أول يوم جاء الإنكليز فيه لفلسطين ، وفيهم من تستر على هؤلاء الخائنين ، ومنهم من استهان بالخطر فى أول أيام الخطر ، ومنهم من كان مغفلاً لايصدق أن وطنه على وشك الضياع ويعتبر اليهود لشدة غباوته « أولاد الميتة » .

وكان يوجد من الفلسطينيين من يظن الدعاية عملاً سخيفاً لاأهمية له ، ومنهم من كان يعتبر الصحافة شيئاً لا قيمة له ، وبعضهم يظنها مفسدة للعباد ، ولم يخل الأمر من وجود أعيان وزعماء كانوا يهتمون بإيجاد الجرائد ولكن بدون أن يمدوها بأ كثر من الاشتراك السنوى فقط بشرط أن تثنى عليهم ، أو تطعن لهم فى خصومهم ، ولم أذكر من هؤلاء من حاربوا الجرائد الوطنية وساعدوا الجرائد الخائنة ... انه البخل والجهل والغباء والأنانية والغرور !

أمثلة

إنى أعرف من الفلسطينيين أشخاصاً ما كادوا يرون الإنكليز يدخلون أرض فلسطين سنة ١٩١٧ حتى ركضوا بين أيديهم وكانوا فى خدمتهم ، وأعرف من احترفوا مهنة السمسرة على بيع الأراضى العربية لليهود ، وأعرف من كانوا يعملون فى الوظائف الحكومية لحساب الإنكليز ويحاربون الحركات الوطنية ، وأعرف من كانوا يسخرون بالذين يكتبون ويخطبون ضد الإنكليز واليهود ، والذين كانوا يكسرون الإضرابات الوطنية ويهونون من أمر الأمة ، والذين كانوا يحاربون المشروعات الوطنية ويفسدونها ، والذين يقاومون المؤتمرات القومية ، ويدسون على الوفود المتوجهة إلى الغرب والشرق لنشر ظلامة الأمة وبسط قضية البلاد ، والذين خذلوا المحبوسين السياسيين ثم تركوا عائلاتهم تموت جوعاً ، ومن بخلوا على الهيئات الوطنية بالقليل من المال ! وعلى المنكوبين من فظائع الإنكليز بما يعوضهم بعض العوض : ومن كانوا يشتمون كل وفد مجاهد يقصد ديار الغرب للدفاع عن فلسطين ، ومن أمسكوا أيديهم عن البذل حتى فى الحين الذى بدأت فيه فلسطين تسقط فى أيدى الأعداء .

ذكريات قديمة

لنرجع من الأول فأقول : فى مبدأ الأمر سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ وحين كان اليهود

يصدرون الجرائد بفلسطين بكثرة وبكل اللغات وبالعربية أيضاً ـ وليس للعرب جريدة واحدة ـ كنت فى فلسطين مديراً للبريد والتلغراف بنابلس ، فاطلعت بحكم الوظيفة على أمور دلتنى على أن الإنكليز ينوون لفلسطين شراً ، فمثلًا أن عدد اليهود يومها كان لايزيد فى فلسطين كلها على ٥٠ ألفاً ، ولكنى لاحظت أن الحكومة كلها تكاد تصبح فى أيديهم وأيدى الإنكليز ، فأول حادث جعلنى أتوقع الشر من الإنكليز هو أن الأوامر صدرت لإدارة التلغراف بأن تقبل البرقيات باللغة العبرانية ! وبعد ذلك صدرت أوامر بأن تغلق مكاتب البريد والبرق بعد ظهر السبت وطول يوم الأحد، ولكن أين هذا؟ أنه فى مدينة نابلس التى لايوجد فيها يهودى واحد على الإطلاق ، ولا يوجد فيها من المسيحيين أكثر من خمسين بما فيهم الإنكليز أنفسهم...

كنت فتى فى تلك الأيام ، فكتبت إلى المدير العام الإنكليزى بالقدس أسأله بكل بساطة عن سبب الإغلاق بعد ظهر السبت ، ولماذا نغلق يوم الأحد بدلا من الجمعة ، كما سألته عن أعيادنا الكبرى كعيد الفطر وعيد الأضحى ولماذا لم يذكر ذلك فى التعليمات التى أرسلها بل اكتفى بعيد الميلاد المسيحى ورأس السنة المسيحية وعيد ملك الإنكليز !

فجاءنى الرد بأن « أطيع » الأوامر ، وأن لا أتدخل « فيما لايعنينى » ! فهرولت إلى زعماء المدينة وأفضيت إليهم بهذه الأحداث والشر المستطير ليأخذوا حذرهم . ومن تلك الدقيقة بدأت أفكر فى ترك الوظيفة والرجوع إلى مصر ، وإذا بالإنكليز يستعجلوننى ولهم الشكر، لأنهم شكلوا الحكومة المدنية برياسة السر هربرت صموئيل اليهودى البريطانى وعينوا مديرى الإدارات التى تشبه الوزارات من الإنكليز واليهود فقط ، وجعلوا مدير العدلية يهودياً ! وهو الذى يسيطر على المحاكم الشرعية وجميع المحاكم الأخرى ... ومعها الأوقاف والمساجد...

ثم ماذا بعد ...

هنا استقلت من تلك الوظيفة الصغيرة التى كانت كبيرة بالنسبة إلىّ ورغم حاجتى إلى مرتبها .. وكانت الصحافة هى الطريقة التى كنت أحلم باحترافها بعد أن خبرتها وكتبت فيها مقالات قبل ذلك فى يافا وبيروت ومصر، فاجتمعت ـ وهنا بيت القصيد ـ بالكبراء والأغنياء والزعماء وبسطت لهم مشروع إصدار جريدة أسبوعية صغيرة ، فحبذ بعضهم فكرتى ، ثم أجمعوا على شىء واحد : وهو أن لا يدفعوا للمشروع قرشاً واحداً ! ولكنهم قالوا إنهم بمجرد

صدورها سيشتركون فيها ـ والاشتراك هو نصف جنيه فى السنة ! وكان عدد « المتبرعين » بالاشتراك ١٥ شخصاً ...

فلم يسعنى بعد أن عرفت استحالة تنفيذ فكرتى مع أناس بهذه العقلية إلا الرجوع لمصر والاشتغال بالتجارة لأدبر بواسطتها « رأسمال » يمكننى من إصدار الجريدة فى نفس القاهرة .

وفى سنة ١٩٢٤ أصدرت جريدة الشورى، وكنت أظنها ستحظى بتأييد الذين ستخدم بلادهم فإذا بمعظم المشتركين وفيهم أغنياء وزعماء وأعيان يأكلون قيمة الاشتراك ! وفيهم من يملك ٥٠ الف فدان من الأرض وفيهم من يملك القصور وفيهم أعضاء فى المجلس الإسلامى الأعلى ، وفيهم قضاة شرع ...

وإنى أتذكر أن الذى كان يملك الخمسين ألف فدان «طلب إمهاله بالدفع إلى ميسرة» فغضبت وقطعت الجريدة عنه ولم أسامحه لاسامحه الله ...

أما الاشتراك فهو جنيه واحد فى السنة ! وأبعد من ذلك أن هذا الغنى كان عضواً فى المجلس الإسلامى الأعلى الذى كنت أدافع عنه وكان الخصوم يتهمون جريدتى بأنها مأجورة لذلك الغنى ولذلك المجلس ! وهذه الحادثة يعرفها أحمد حلمى باشا حين وقوعها لأنه كان من شهودها !

وأما أنصار الاحتلال الإنكليزى فى فلسطين فقد قاطعوا الجريدة من أول الأمر ... ولهم الشكر ... لأنهم لم يأكلوا مالها ... بل كانوا يكتفون بعمل المضابط التى يطلبون فيها من الإنكليز منع الجريدة من دخول فلسطين ، فلما منعوها انشرحت صدورهم وكتبوا مضابط للإنكليز يشكرونهم على منعها ... ولولا أن الجريدة وصلت إلى أمريكا وأندونسيا والمغرب والهند لماتت من أول سنة !

إن هـذه الحوادث لتدل الإنسان على غفلة الناس فى تلك الأيام وخبث بعضهم ، وماذا بعد أن يخذلوا جريدة تدافع عنهم، وتفضح ظلم الإنكليز لهم، وتنبه الشعب إلى الخطر الأجنبى!
إن ألوف الفدادين التى كانوا يخافون عليها، وملايين الجنيهات التى كانوا يحتجنونها، والقصور التى ينعمون بها، قد راحت الآن كلها وأصبحت جميعها فى أيدى اليهود، الأرض والشجر والخزائن والمال والقصور الفخمة وما فيها من رياش .. بل إن قبورهم قد درسها اليهود وبنوا فوقها خمارات..

أشياء أخرى

هذا عن الدعاية، وأما عن الجهاد فإليك هذه الأمثلة: وقعت ثورة فى يافا سنة ١٩٢١ فذبح اليهود بمساعدة الانكليز عدداً كبيراً من العرب وأحرقوا بيوتهم وسجنوا الأشخاص البارزين من رجال الحركة الوطنية . فإذا بالبخل على المنكوبين يتجلى فى أظهر مظهر! فأما الذين نكبوا فلم يعوضهم أحد، وأما الذين سجنوا فلم يحفل بهم أحد . اللهم إلا قيام بعض الخيرين والمفكرين لإسعافهم ، ولكن هؤلاء كانوا يملكون قلوباً وعقولا فقط ، وأما الذين يملكون المال فكانوا بلا قلوب ولا عقول !

وكانت اللجنة الفلسطينية التى سعيت سنة ١٩٢٠ فى تشكيلها بالقاهرة فى أول عهدها، فذهبت مع ثلاثة من اللجنة إلى التجار الفلسطينيين أو الذين هم من أصل فلسطينى ونعرف غناهم نستجديهم ليتبرعوا لمنكوبى يافا . وأما الثلاثة الذين كنت معهم فهم وهبة العيسى المحامى، وفرج الله فرج الله، وخليل السكاكينى ، فتمكنا بطلوع الروح من جمع نحو مئة جنيه !!

ولكن هل اقتصر الأمر على ذلك ؟ كلا ، لأننا ذقنا فى سبيل الحصول على هذا المبلغ التافه أنواع الأذى ، فمن ذلك أن غنياً مثرياً رفض أن يدفع شيئاً على الإطلاق ، وآخر يملك ربع مليون جنيه لم يسعه بعد اللحاح واللجاج إلا أن يدفع لنا ربع جنيه .. وأما الثالث فكان أمره أعجب ، لأنه اعتذر بعدم الدفع بقوله : أنا الآن مصرى ولا دخل لى بأمور فلسطين ! فقلت له بسرعة : وإن جاءك مصرى يطلب إعانة فأنت تقول إنك من أهل فلسطين ، أليس كذلك ؟ « إتفوه عليك يا خنزير » وانصرفنا ...

الإنذار الأول

يظهر أننى سبقت الحوادث كثيراً ، لأنى لم أذكر أن أول ما كتبت عن فلسطين كان فى جريدة « فتى العرب » فى بيروت فقد كتبت فيها بأول سنة ١٩١٤ مقالا تحت عنوان «الصهيونيون فى فلسطين» ذكرت فيه أن يهود « حارة تل أبيب » يستعملون نقوداً نحاسية نقش عليها خاتم سليمان وأن لهم طوابع بريدية عليها صورة الدكتور هرتزل اليهودى النمساوى زعيم الحركة الصهيونية العالمية وأن يهود « حارة تل أبيب » يعملون استعراضات عسكرية ثم حذرت الناس من اليهود الذين يقومون بإنشاء حكومة يهودية داخل الحكومة العثمانية ..

وكانت تل أبيب يومها حارة صغيرة ذات شارع واحد وعدد سكانها لا يزيد على بضع

مئات . وكان عدد اليهود فى تلك الأيام لم يبلغ الخمسين ألفاً فى فلسطين كلها ...

وبعد رجوعى إلى مصر ١٩٢٠ كان من جملة ما كتبته ونشرته فى الصحف عن فلسطين، مقالا طويلا نشرته فى جريدة اللواء المصرى « سبتمبر ١٩٢١ » شرحت فيه للعالم الإسلامى حقيقة مايجرى فى فلسطين، وأن عدد يهودها قد زاد حتى بلغ ٦٠ ألفاً ، وأن الانكليز بدأوا يقيمون فيها دولة يهودية برياسة هربرت صموئيل اليهودى وأنها مؤلفة من الانكليز واليهود، وذكرت للرأى العام الغافل أن قيام « دولة إسرائيل » سيعقبه زوال الإسلام والمسلمين من فلسطين وشطر العالم الإسلامى الأفريقى عن العالم الإسلامى الأسيوى .

كان هذا الكلام قبل ثلاثين عاماً ، وقد تم ذلك كله حرفياً ويا للأسف والأسى ، إنه لم يتم بقوة اليهود وحدهم بل بقوة الانكليز معهم ، وبتهاون أهل فلسطين أنفسهم ، وإهمال العالم الإسلامى والعرب جميعاً ، وأخيراً بهمة جامعة الدول العربية ...

نعى أول بلدة عربية

وفى أغسطس ١٩٢٥ زرت فلسطين ، وفيما كنت فى طريق بالسيارة من حيفا إلى القدس لاحظت أن بلدة «العفولة» التى تقع على الخط الحديدى الحجازى فى مرج ابن عامر قد محيت من عالم الوجود تماماً، وقامت على أنقاضها مدينة يهودية ! فكدت أفقد عقلى مما رأيت، لأنى أعرف العفولة ونمت فيها سنة ١٩١٣ فكيف زالت! هذا موضوع سيسأل عنه التاريخ بريطانيا أجيرة اليهود ، ويسأل عنها وآل سرسق فى بيروت الذين كانوا يملكون معظم تلك النواحى سلباً ونهباً ثم باعوها لليهود ، والقصة طويلة عريضة لا محل لتفصيلها هنا .

ولما رجعت إلى مصر نشرت تفصيلات كل مارأيت، ونعيت إلى العالم الإسلامى والشعوب العربية أول بلدة عربية استشهدت، وأنذرت بأن هذا المصير سيكون مصير فلسطين كلها...

إننى ألقيت هنا على أهل فلسطين مسئوليات عظيمة ـ هى عظيمة بلاشك ـ ولكن أهل فلسطين مع ذلك كانوا يقاومون جهد طاقتهم ومعرفتهم، ولكن هذه الطاقة لايمكن أن تكفى لمقاومة بريطانيا واليهودية العالمية، فأهل فلسطين كانوا يرسلون الوفود إلى العالم الخارجى ينذرون ويحذرون وجابت وفودهم أنحاء الأرض ، ولكن القادرين فى العالم الاسلامى لم يتحركوا ولا ساعدوا ولم يتدخلوا إلا بعد فوات الأوان، تدخلا بارداً كانت نتيجته ضياع فلسطين وأهلها.

تعليق وتطبيق

إعادة نظر للذكرى

إن الذين يرجعون إلى الفصول الأولى من هذه المفكرات وما ورد فيها عن الحوادث التي وقعت قبل عشر سنين ، ووصفت فيها دنيا تلك الأيام ، وحالة العالم الإسلامي والبلاد العربية ثم أرادوا تطبيقها على ما كان بعد ذلك ، يتضح لهم أن الكثير من المخاوف قد وقع مع الأسف ، وكان أهم ما كنت أخشاه أن ينتصر الحلفاء . وقد توقعت في ذلك الحين أن انجلترا في حالة الانتصار ستتنمر ، وأن فرنسا ستستأسد . وأن الاستعمار سيكشح في عدوانه علينا ، وأن العرب والعالم الإسلامي سيلقون من الحلفاء أنواع الغدر والذل ، وصنوف الويل والهول ...

لقد كنت أتوقع للدنيا كل شر إن انتصرت بريطانيا ، وأن ضياع فلسطين سيقع ، وقيام الدولة اليهودية سيتحقق ، وأن فرنسا ستبدوا شراً مما عرفناها ! وكنت أتوقع هذا وذاك برغم تضرع انكلترا وبكاء فرنسا ، لأنهما لا تتعظان ولا تتوبان إلا بكسرهما نهائياً كسراً عسكرياً تاماً شاملاً يعقبه إستسلامهما لعدوهما ــ أياً كان ــ وبغير ذلك لا هناء للعباد ، ولا اطمئنان للبشر ، ولا استقرار للدنيا بأسرها .

وأما ركض تشرشل وروزفلت للصلاة في الكنائس وسماع مراثي إرمياء ... وهما اللذان لا يصغيان لغير زئير المدافع ! وأما هرولة رجالات فرنسا إلى المقابر واصطناع مواكب الأحزان في « تور » و « بوردو » [1] فما هي إلا رواية تمثل وأضاليل تتكرر ، لأننا شهدنا مثلها في الحرب العظمى الأولى ، ثم رأينا هذه الدول الباكية تستذئب بعد ذلك ، وتزداد طمعاً وقسوة وقد تصورت قبل عشر سنين كل ما صدر منها الآن ، وأن بكاء فرنسا ونواح انجلترا ــ وهما تحت سنابك دبابات الألمان وطياراتهم ــ لا يمكن أن يغير من الحقيقة المنتظرة المروعة حرفاً واحداً ، لأن هذه الدول المستعمرة لا يمكن أن تتوب ولا أن تقلع عن طبيعتها ، التي هي الاعتداء بعد النصر على الشعوب المسالمة وعلى الشعوب التي تساعدها أيضاً ، لنهبها وسلبها والتسلط عليها وقهرها والتحكم فيها وإذلالها ...

(١) راجع الصفحات ٧٦ و ٧٧ و ١١٨ إلى ١٢٧ .

فرنسا

فقبل أن تضع الحرب الثانية أوزارها وبدأت رياح النصر تهب نحو الحلفاء ، رأينا فرنسا تقبض على جلالة الملك المنصف ملك تونس وتنفيــه إلى صحراء الجزائر ، ثم إلى فرنسا ، ولم تفلته إلا بعد أن لحق بربه ، يعنى أنه لم يفلت من أسر فرنسا إلا بعد أن خلصه الله منها وهو جثة هامدة ، وفى خلال ذلك رأينا جيشها الجبان الفرار يظهر بأسه على السوريين فقط ، ويطلق المدافع وقنابل الطيارات على مدينة دمشق ، ويقوم ذلك الجيش الهراب المذعور من الألمان فيهجم فى المغرب على الجزائريين فيذبح ويقتل فى مدينتى « سطيف » و « قالمة » ٨٠ ألف جزائرى ، يقتلهم الجيش الفرنساوى غدراً وظلماً ، فكأن هذه المذابح كانت حسن الجزاء من فرنسا للشعب الجزائرى الذى أنقذت جنوده فرنسا فى كل حرب ، وبالأخص فى الحرب العظمى الثانية ، بل إن فرنسا لم يكفها أنها ارتكبت هذه الاعتداءات على السوريين والمغاربة ، بل راح جيشها إلى الشرق الأقصى يحمل مدافعه التى خرست أمام ألمانيا ، تنطق أمام سكان الهند الصينية العزل من السلاح ، بلغة النار والحديد ... ولم تكتف فرنسا بهذه الفظائع التى سودت وجه الحضارة الغربية ، بل جعلت القيم الفرنسوى الجنرال جوان الجبان يعتدى فى شهر فبراير سنة ١٩٥١ على الدولة المراكشية ، التى اشترك جندها أيضاً فى إنقاذ فرنسا ، وكاد هذا الجنرال « الذى فر من الألمان لينجو بجلده من بأسهم » يحجز الملك محمد بن يوسف ملك المغرب فى قصره ثم سلبه خاتم الملك وسلط عليه رعاع السنغاليين والبربر ، ولولا ضجيج العالم الشرقى على فرنسا لكان نصيب هذا الملك العريق فى الملك أن يموت منفياً فى الصحراء الأفريقية الاستوائية أو فى إحدى جزر المحيط غماً وقهراً ، كما مات الملك المنصف من قبل .

وقد حدث وأنا أسطر هذا أن فرنسا بدأت تتوقع من الآن سنة ١٩٥١ هجوم روسيا عليها واكتساح بلادها نفسها ، وأن الحكومة الفرنساوية شرعت فى إعداد المعدات فى شمال أفريقية للالتجاء إلى الجزائر وتونس والمغرب . وذكرت برقيات جنيف أن فرنسا بعثت فى ١٣ مارس سنة ١٩٥١ أرصدة الذهب المدخرة فى بنك الدولة وسندات الخزينة الفرنساوية إلى بلاد المغرب لابعاد ثروة فرنسا المالية عن أيدى الغزاة ، وأن فرنسا أرسلت للجزائر سفناً تحمل

جنوداً ومعدات حربية وأدوات بناء لاقامة دور حكومية هناك عندما تجلو عن بلادها - حتى لاتهرب بغتة - كما حل بها فى هزيمتها الملوثة بالعار أمام الألمان سنة ١٩٤٠

فيا أيها المجانين الذين تدعون أنكم أعقل البشر : ما دمتم تعرفون أن شمال أفريقية هو ملجأكم ومعقلكم ، ومنه ثروتكم وجندكم وإليه مفزعكم ؛ فلماذا تناصبون أهله العداء ؟

وأما أنتم ياسكان المغرب فإنى أرجو أن لا تقعوا فى الحرب الثالثة المقبلة بما وقعتم فيه من غفلة فى الحربين العظيمتين سنة ١٩١٤ و ١٩٣٩ فإن وقعت الحرب الثالثة ولم تقوموا على الفرنسويين حتى بالعصى والأيدى والأرجل فإن فرنسا ستذيقكم أشنع مما أذاقتكم؛ وستعيشون عبيداً لها إلى يوم الحشر ، ولن يرحمكم عند ذلك أحد .

انجلترا

وأما هذه فقد كانت أشد وقاحة من أختها فرنسا، ولكنها أصرح منها، فقد كانت بريطانيا فى أثناء انكسارها أمام الألمان واليابان، ماضية فى الاعتداء على المسلمين فى كل مكان من أنحاء العالم، ففى خلال الأيام التى كان فيها ملك بريطانيا يغادر لندن ابتعاداً عن قنابل الألمان، وحين كانت لندن تبكى من الهول والرعب، وفى أثناء وقوف تشرشل زعيم انجلترا أمام قسيس كنيسة «سان بول» يحنى رأسه حزناً وندماً - وفزعاً من الألمان - ويبتهل إلى الله طالباً لأمته النجاة... وفى خلال تناثر تصريحات الحكومة البريطانية عن الحريات . وحق استقلال الشعوب ، ووجوب إنقاذ المدنية ... فى خلال هذا كله كان جيشها الهارب من الألمان يرتدى للعالم الإسلامى والأمم العربية جلد الأسد !

ففى العراق كان جيشها يخمد حركة رشيد عالى التحريرية ويبطش بالشعب العراقى ويذله، وفى بلاد الملايو كان جيش بريطانيا المنهزم يبيد المسلمين فيها إبادة جماعية، وفى فلسطين كانت بريطانيا مستمرة فى بناء الدولة اليهودية وإزالة المسلمين منها، وفى اليمن كان أسطولها يستولى على خليج «حوض الماء» من الساحل اليمانى على البحر الأحمر [1] وفى مصر كان جيش بريطانيا هذا ينهب

(١) هذه الحادثة لم تتمكن الصحف من الكتابة عنها بسبب الرقابة المفروضة عليها فى تلك الحرب =

الناس فى الشوارع ويحاصر قصر عابدين الملكى بالدبابات ، بعد أن اعتدى هذا الجيش على إيران وقبض على جلالة الملك رضا شاه بهلوى ونفاه إلى روديسيا بجنوب أفريقيا وحبسوه هناك إلى أن لحق بربه فى المنفى ، ولما انتهت الحرب كانت الدولة اليهودية قد قامت بعد ذبح أهل فلسطين بأيدى الجيش البريطانى، ثم أخرجوا منها أذلاء حيارى. وهاهم الآن مشردون فى أنحاء الأرض ينشرون اللعنة على بريطانيا التى كانت السبب . وعلى كل من ساعدها من العرب والمسلمين فى هذه الجريمة التى لا مثيل لها ، والتى لا يمكن غفرانها ونسيانها .

أميركا

وأما هذه وهى ثالثة الأثافى، دولة الدولارات والماكينات وأسهم الشركات اليهودية ، فقد تطفلت على السياسة الدولية فى آخر الزمان ، كما يتطفل العامى السوق غنى الحرب على المسائل العالية والقضايا العامة ، فإذا ناقشك أشار إلى جيبه وأراك ملابسه الجديدة ثم أسمعك رنين الذهب ، لأنه يظن أن المال هو كل شىء ... فإن عارضته أو ناقشته أخرج لك من جيبه مسدساً وأخذ يلوح لك به فى الفضاء ثم يهزه فى وجهك ! .

فهذه الدولة العجيبة الملفقة من شذاذ أهل الأرض ، ظنت نفسها بفضل الدولار والمدفع أنها أصبحت أفصح وأبلغ من فى الدنيا من المخلوقات! فكانت نتيجة هذه «البلطجة» أن أميركا أمست فى نظر العباد أسخف وأفظع أمم العالم وأبعدها عن الرحمة والحق والعدالة، بعد أن كانت فى نظره

= ولذلك بقيت مجهولة عند الناس ، وقد أوفد جلالة ملك اليمن الشهيد الإمام يحيى رحمه الله مندوباً إلى مصر فى تلك الأيام للاحتجاج على الإنكليز ، وهو المرحوم السيد حسين الكبسى ، وقد اجتمعت به يومها وأخبرنى عما كان فأشرت عليه بأن يذهب سراً إلى سفيرى أميركا وروسيا بالقاهرة ويقدم إليهما مذكرتين يقول فيهما « إن الجيوش والطيارات والأساطيل ومعدات الحرب والأموال التى ترسلها حكومتاهما إلى انكلترا لضرب الألمان وإنقاذ الحضارة وانكلترا نفسها إنما تستخدمها بريطانيا لمحاربة الشعوب الإسلامية الصديقة ، وأن العالم الإسلامى لذلك يعتبر أميركا وروسيا مسئولتين عن اعتداء الإنكليز على الأقطار الإسلامية ، وأنه لولا نجدات هاتين الدولتين ما وجدت إنكلترا جنداً ومعدات حربية تمكنها من الإعتداء على الشعوب الأخرى، وأن إساءة انكلترا استعمال هذه النجدات تعد خيانة سافرة لحليفتيها » فبادر الكبسى وقدم المذكرتين فلم يسع الإنكليز يومها إلا سحب أسطولهم من خليج حوض المياه .

الأمة المثالية بين الأمم! ويكفي ماصنعت فى كوريا وأهلها من ذبح وتدمير، فقد ظهر من سياستها وتصرفاتها وأفاعيلها أنها لا تعرف ديناً إلا القوة، وأنها لا تنصر إلا الظلم والعدوان، لأننا لم نرها فى جانب الحق مرة واحدة ولا لحظة مطلقاً، منذ عرفناها فى الحرب العظمى الأولى حتى هذه الساعة، ويكفى احتضانها لليهود ـ أو احتضان اليهود لها، وسيطرتهم عليها، وعلى رئيسها، وعلى حكامها ونوابها، وعلى عقول شعبها وضمائر أهلها، وحسبك أن تعرف أن يهود أميركا استأجروا خمسة آلاف قسيس من رؤساء الدين فيها فأمضوا عريضة منذ أربع سنين يطلبون إعطاء فلسطين لليهود!

إننى أعرف أن دول البروتستانت هى وحدها التى أيدت اليهود فى أخذ فلسطين وذبح أهلها بسبب إيمان البروتستانت بتوراة اليهود، ولكن هذا الإيمان المبنى على المسائل الغيبية ماكان يسوغ لهم إجازة اغتصاب أوطان الناس وذبحهم وإخراجهم من ديارهم وتشريدهم، لأن انجلترا وأمريكا ليستا من الدول الكنائسية التى تؤلف من المطارنة والقسس، بل هما من أرق الدول المدنية التى تدار بعقول السياسيين المفروض فى أصحابها أنهم يدركون معنى الحق والإنسانية..

إن أميركا وإن كانت لا تحكم بلاداً مسلمة ولا تستعبد بلاداً عربية، إلا أنها الآن هى العدو الأول للعالم الإسلامى والعرب، لأنها هى التى تشجع بريطانيا وفرنسا على الشرور واستعباد البشر، وتمدهما بالمال والسلاح والقنابل المهلكة، لتمكينهما من السطو على البلاد الإسلامية وإذلال الشعوب العربية جميعاً.

بعد انكسار الألمان

إن النتيجة التى أسفرت عنها الحرب العظمى الثانية من انكسار ألمانيا وانفرط بها عقد المحور، بانتصار دول الظلم والطغيان المستعمرة، قد آلمت الدنيا كلها، وجعلت العالم فى مأتم لكسر الألمان واليابان، حتى الطليان أيضاً أسفنا لانكسارهم، لا محبة بهم وهم الذين ذبحوا الطرابلسيين والبرقاويين، ولكن أسفاً على الدولتين الفتيتين ألمانيا واليابان، وخروجهما من الميدان الدولى العالمى، بعد أن كان وجودهما كافلا لحفظ التوازن بين الدول، وكان يخيف دول الاستعمار على الأخص.

وأما الآن فإن الكرة الأرضية كلها قد باتت نهباً للانكليز والفرنسيين ، يتحكمون فى أهلها ويهددون الأمن العام بين دول المعمورة ، بحماية أميركا وبمالها وقوتها الفنية وعقول اليهود الذين أصبحوا أسيادها ...

وإذا كان لنا بعض العزاء عن المصيبة التى حلت بالدنيا من انتصار الحلفاء فى الحرب العظمى الأخيرة ، فذلك أن الذات الإلهية قد أشمتتنا ببعض الذين كانوا السبب الحقيق لهذا المصير المحزن ، الذى مكن دول العدوان من التمادى فى إقلاق البشر وترويع العباد بظلمها وعدوانها وغطرستها .

شماتة سافرة

وكم شمتنا بملك إيطاليا الذى كان من أسباب نكبة العالم بفوز دول الظلم حين تآمر على موسولينى زعيم شعبه والغدر به وتمكين الأعداء من قتله، ثم استسلامه لأعداء إيطاليا ومحاربته فوق ذلك لألمانيا فكانت النتيجة أن العاصفة قد عصفت به وبدولة آل سافوى كلها. وشمتنا بمشيل ملك رومانيا الذى مثل الدور نفسه مع أنطونيسكو رئيس وزرائه إذ غدر به لأنه لا يتحمله فاستسلم نكاية به لأعدائه الروس وسلمه لهم ومكنهم من قتله أشنع قتلة ، ولكن الروس نكلوا بميشيل بعد ذلك وجعلوه يبكى على أيام أنطونيسكو، ثم طردوه وأخذوا رومانيا وبلشفوها!

وقل مثل هذا عن بطرس ملك يوغسلافيا الذى راح ينضم إلى الدول الباغية « انجلترا وروسيا وأمريكا » خلافاً لإرادة شعبه الذى تحالف مع الألمان ، فكانت النتيجة أن العاصفة قد اجتاحته هو أيضاً وأراحت الدنيا منه ، ولكنه ويالأسف كان السبب فى بلشفة بلاده وإيصال الخطر الشيوعى إلى أواسط أوربا الجنوبية وأصبح الخطر يهددنا فى الشرق، فلولا صنائع الاستعمار هؤلاء ماتجاوز الخطر الشيوعى مقره، بل لكانت ألمانيا واليابان قدقضتا على الشيوعية فى روسيا ، وعلى الرأسمالية فى انجلترا وأميركا.

استطراد عن الماضى

وإننى لا أكتم بهذه المناسبة شماتتى أيضاً بالسلطان عبد الحفيظ ملك مراكش وما أصابه قبل أربعين عاماً جزاء استعانته بالأجانب ضد شعبه ، فقد استعان بفرنسا لتخضع له أمته فكانت

النتيجة أن فرنسا أخذت بلاده وطردته عن عرشه وأبعدته عن وطنه ، فمات فى ديار الغربة شريداً ، وكان عليه أن يتعظ بما أصاب الخديوى توفيق باشا قبل ذلك بثلاثين عاماً – وما هو بالزمن البعيد بالنسبة إلى زمن عبد الحفيظ ، لأن بريطانيا أنقذت توفيق باشا ولكنها استولت على بلاده ! وها هى مصر لا تزال تعانى هى وذراريها أنواع الآلام بسبب فعلة بدرت منذ سبعين عاماً ، كما أن الشعب المراكشى لا يزال يذوق صنوف الذل منذ أربعين عاماً بسبب عملة عبد الحفيظ ، الذى لم يتحمل من شعبه طلب الاصلاح وحق الحياة .

إن عبدالحفيظ المراكشى لم يتعظ بما أصاب سواه ، ولا اتعظ ملك إيطاليا بما أصاب الملك بطرس فى يوغسلافيا ولا الملك ميشيل اعتبر بمصير ملك إيطاليا ، وبعدهم جميعاً ملك بلغاريا!

ولا أدرى متى يستفيد هؤلاء الساسة من عبر الدهر وصروف الزمان التى أذلت الملايين من أبناء شعوبهم وجنت على أولادهم وأحفادهم من بعدهم ؛ والله وحده الذى يعلم متى نخلص من الإنكليز . سواء فى مصر والأردن والعراق وبقية أنحاء الأرض ، ولا متى ننجو فى شمال أفريقية من استعمار فرنسا وإسبانيا ؛ ولا متى نفلت من هيئة الأمم المتحدة ولجانها التى تدير الهدنة بفلسطين ، ومن لجانها التى جنت على فزان وبرقة وطرابلس الغرب …

رجعة إلى الضرب والتعذيب

إن بعض الذين قرأوا كتاب « معتقل هاكستب » أرسلوا يسألوننى عما صنعت الحكومة المصرية مع ضباط البوليس الذين عذبوا المتهمين فى السجون بسبب القضايا السياسية ، وخصوصاً الذين ارتكبوا الفظائع مع الإخوان المسلمين ؛ والذين أساءوا إلىَّ أنا وأهل بيتى ، سواء فى أيام حبسى سنة ١٩٤٠ التى وضعت عنها هذا الكتاب ، أو فى الحبس الأخير سنة ١٩٤٩ التى أخرجت بسببها كتاب « معتقل هاكستب » …

والجواب على ذلك ، أنه لم يتخذ أى إجراء مع أحد منهم حتى الآن . . . أنا لا أنكر أن بعض النواب قد تحركوا فى البرلمان ؛ وأن بعض الصحف الحرة قد نشطت وخصوصاً جريدة الجمهور المصرى التى أصدرها أخيراً الأستاذ أبوالخير نجيب ، وأن محكمة الجنايات التى يرأسها أحمد كامل بك عندما حاكمت بعض المتهمين بقضايا الأخوان المعروفة بقضية «سيارة الجيب»

قد برأت بعضهم ونددت بفظائع البوليس ، وأن محكمة الجنايات الثانية التى يرأسها حسين طنطاوى بك قد بدأت تسمع روايات المتهمين عن الذين عذبوهم فى قضية الاخوان الثانية المسماة « بقضية الأوكار » ولكننى لم أسمع أن واحداً من الذين ارتكبوا مع المتهمين جرائم التعذيب قد حبس أو حوكم وحكم عليه جزاء ما اجترح ، فلم تعرف الأمة المصرية وما لم تعرف الأمة السورية أيضاً، أن رجال الشرطة الذين عذبوا المتهمين هنا وهناك قد نالوا العقاب الحق ، فإن وصمة التعذيب فى السجون تظل عالقة بجيلنا الحاضر إلى الأبد .

وأنا ؟...

أما الذى نالنى وأسرتى من شرطة سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٤٩ من أذى ، وهو خفيف بالنسبة إلى ما أصاب الآخرين ، فقد بسطته فى هذا الكتاب وفى كتاب معتقل هاكستب وشرحته بملابساته وتفصيلاته وأسانيده ، وعينت أسماء المسئولين عنه ، وذكرت شهوده ، فبعد ذلك يكون الأمر قد خرج من يدى وأصبح منتهياً من جانبى ، فإن شاءت الحكومة أن تفتح التحقيق فيه فنحن لا نزال ننتظر هذا الإنصاف بعد أن طالبنا به مراراً ، فلما رأينا الاغضاء لم تمنع الجرائد من نشره والمطالبة به ، ولما طال الانتظار سجلناه فى هذا الكتاب، وقبل ذلك فى كتاب هاكستب. ولا أدرى لماذا لا تحقق الحكومة معنا كمعتدين على الموظفين العموميين بالقدح الصريح ، وتأخذ لهم حقهم منا جزاء ما وجهنا إليهم من تهم يعاقب عليها القانون ، لأن عقوبة من يفترى على الموظفين معروفة ومعينة فى قانون العقوبات . ولو كنت أنا فى محل الميرالاى محمد يوسف بك لقدمت بلاغاً إلى النائب العام ضد من نسب إلىّ مثل هذه الأفعال ... فأنا مثلا قد سجلت ما نشرته الصحف سنة ١٩٤٧و١٩٥٠ عما لقيت وأهل بيتى من أفاعيل اليوزباشى محمد يوسف ، الذى أصبح الآن « الميرالاى محمد يوسف بك » وقد ذكرت أنه أساء إلينا تلك الاساءات متعمداً ذلك لحساب السياسة البريطانية عند ما كان الانكليز يسيطرون على الشرطة والأمن العام فى أيام الحرب تحت ظل الأحكام العرفية ، وإنه لفق لى مسألة الاعتقال الأخير بموجب الأحكام العرفية الثانية التى أعلنها إبراهيم باشا عبد الهادى ضد اليهود ولكنه نفذها على المسلمين ...

فإذا كانت الحكومة لا تريد أن تحاكم هذا الضابط فهى وشأنها ، وأما أنا فقد طلبت الانصاف من الرأى العام الذى يقرأ هذه الكتب والمقالات ، ولا أهنىء هذا الضابط وأمثاله على إفلاتهم من عدالة المحاكم فإن حكم الرأى العام سيكون أعدل وأكثر إنصافاً .

يكافئون محمد يوسف

وفى ٥ فبراير ١٩٥١ صدرت جريدة الجمهور المصرى وفى صفحتها الأولى صورة كبيرة للميرالاى محمد يوسف مع السفير البريطانى وهو ينحنى أمامه ويتناول منه وساماً بريطانياً ...

الميرالاى محمد يوسف لابساً البرنيطة وهو ينحنى للسفير ويتناول منه الوسام ...

وقد كتبت الجريدة تحت الصورة الكلمات الآتية ... « دفاع مشترك بين السفارة البريطانية والبوليس السياسى - سفير بريطانيا يسلم نيشاناً إلى الميرالاى محمد يوسف بك أحد أقطاب البوليس السياسى » وفى صفحة الأخبار نشرت جريدة الجمهور كلاماً كثيراً عن الذين يخدمون الحرية البريطانية ...

وها إنى أنقل ذلك كله عن جريدة

الجمهور ، أخذاً بالإنكفراف تخليداً له ، ولا يسعنى إلا أن أشكر الله الذى جعل الحوادث تمدنى ـ وتمدقرائى ـ بأدلة جديدة على السبب فى حماسة محمد يوسف ضدى وإساءته إلى أسرتى ، ليس لحساب مصر ولكن لحساب بريطانيا التى لم تنس أن تدفع له الثمن... وإلا فما هو الباعث الذى جعل الإنكليز ينعمون على ضابط مصرى وهو واحد من آلاف الضباط من رجال البوليس بهذا الوسام الرفيع الشأن...

إن الجواب على ذلك موجود فى هذا الكتاب وفى كتاب ما كتب ، فعند مراجعة أعمال « اليوزباشى » محمد يوسف معى يظهر السبب الذى استوجب تخصيصه بالوسام ، وهو لا يدرى أنه قد شهد عليه ...

الشاهد الثانى

أما الشاهد الأول فهو الدكتور مصطفى بك البشناق الزعيم الفلسطينى الذى كان فى مصر لاجئاً سياسياً فى الأيام التى حبست فيها سنة ١٩٤٠ « وهو الآن سنة ١٩٥١ عضو بمجلس النواب عن فلسطين المحتلة بالإنكليز وحكومة الأردن » .

> **الانعام على البوليس السياسى وكبير القواصين ايضا !**
> **٦٤ مصريا**
>
> اقامت السفارة البريطانية يوم الاربعاء الماضى حفلا رسميا اهدت فيه اربعة وستين مصريا بعض النياشين والاوسمة والمداليات ، مكافاة لهم على ما ادوه من « خدمات » لقضية الحرية ...
>
> وقد نوه السفير البريطانى بالدور الذى تنتظره بريطانيا من « خدام » الحرية والامبراطورية فى المستقبل !
>
> هذه الحرية التى تجد من يخدمها فى مصر ، لا لحساب مصر والمصريين ، وانما لحساب الحكومة البريطانية ، ويستحق من اجلها الاوسمة والنياشين ...
>
> و « الجمهور المصرى » تهنئ « خدام » الحرية والامبراطورية من رجال البوليس السياسى والقواصين ايضا بالسفارة !
>
> من بين الذين انعم عليهم سير والف ستيفنسون السفير البريطانى بعدالة الامبراطورية البريطانية « على حلمى بدروس » كبير القواصين فى السفارة ـ) وفى نفس القائمة وضعت اسماء رجال البوليس السياسى الى جانب اسم كبير القواصين بالسفارة !!

وقد ذكرت فى القسم الأول من هذا الكتاب أن الدكتور بشناق لما زار قرينتى فى السجن الذى وضعها فيه محمد يوسف ـ بعد أن شتمها وضربها ـ رأى الدكتور الإصابة فى عينها .

وأما الشاهد الثانى ـ وهو غير النيشان البريطانى ـ فذلك هو الدكتور رشيد بك كرم ، كبير أطباء بوليس القاهرة ، فقد جاء يومها إلى السجن مصادفة ليعالج أحد المسجونين فلقى قرينتى فى مكتب مدير السجن فى نفس اللحظة التى كان الدكتور البشناق يزورها فيها ، فسلم

الدكتور رشيد بك كرم

عليها الدكتور كرم وهو يظن أنهما يزورانني أنا ، أو أن قرينتي تزور الدكتور البشناق ... لأن حبس قرينتي لم يخطر له ولا لغيره على بال ، فلما رأى الدكتور كرم أن قرينتي في حالة غير طبيعية وأن عينها مصابة بضربة، سألها عن سبب ما هي فيه فقصته عليه..

وقد نشر الأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة مذكراته عن سجنه في تلك الأيام في جريدته فوصف آلامه وشعوره حين لقي قرينتي في ذلك السجن الذي وضعها فيه محمد يوسف، في حين أنهم ماطلبوا منه ذلك[1] ، ثم أخرجها من مصر نفياً ، مع أن الإنكليز من أول الأمر لم يأمروا بشيء من تلك الفظائع ؛ بل أنهم أنكروا علمهم بها ، لأن كل ما كان من علاقة الإنكليز بي أنهم طلبوا حجزي لمنع النشاط السياسي فقط ، فهذا الطلب ما كان يستوجب كل ماجرى من محمد يوسف ورؤسائه الذين أمروه بتنفيذ أمر الحبس ومكنوه بي من التمادي في أعماله التي أنتجت حوادثها وضع هذا الكتاب . أما تفصيل قصة الإساءة إلى العائلة ومن الجملة إحضاره لشقيقتي إلى إدارة البوليس وتحقيره إياها وتهديدها وإطالة لسانه الخ فهذه القصص كلها مشروحة في الصفحات ٣٥٢ إلى ٣٦٥ من هذا الكتاب .

(١) إن محمد يوسف لما أمروه سنة ١٩٤٠ بأخذي إلى السجن لم تكن مهمته أكثر من أن يجيء لمسكني ويمشي معي إلى السجن ، ولكنه تطوع من تلقاء نفسه بتفتيش مكتبي ثم مد اليد إلى جيوبي لتفتيشها وأخذ ما فيها ، كما أخذ أوراقاً خاصة وحفظها عنده ، وبعد ذلك دهم بيتي وروع أسرتي ونكش كل ما في الدار من أمتعة حتى الفراش والملابس النسائية ثم أخذ أوراقاً عائلية ولم يرجعها الخ ولما هربت من السجن غضب أكثر من غضب الإنكليز وكان منه ما كان من الهياج حتى أدى به الاعتزاز بالإنكليز والى شتم السيدات ورفع اليد عليهن بالضرب والحبس والنفي الخ أما تفتيش الجيوب فقد قرأت عن هذا العمل أن الضابط البريطاني « تويدي » قد اشمئز لما أمروه بتفتيش جيوب زعماء مصر سنة ١٩١٨ ورفض إطاعة أمر رئيسه الذي أمره بذلك فقال تويدي إن مثل هذا التفتيش لا يكون إلا مع المجرمين ، فالظاهر أن محمد يوسف كان يعتبرني «مجرماً» ولذلك فتش جيوبي!

مقارنة مستحيلة

لقد خطر لى أن أضع نفسى فى مكان غيرى وأن أقيس المسألة بعقليته ، وأن أزن الأمور بميزانه وتفكيره ثم أقابل بين أن أقوم بإيذاء محمد يوسف وأهل بيته ، فى مقابل عناية بريطانية ونيشانات انكليزية أتناولها من يد السفير ، أو أكف عنه وأهله فأحرم من هذه النعم ... فلما وزنت المسألة على طريقة تفكيره وجدت أن الحق مع محمد يوسف ... ولكن بشرط أن لا أظهر فى صورة تنشرها الصحف على منحنى القامة أمام السفير ماداً يدى إلى الأوسمة الأجنبية . .

ولكن هل تخلصنا ؟

والجواب كلا ، لأن محمد يوسف لم يكتف بما كان منه معنا لإرضاء الإنكليز فى زمن الحرب العظمى وأحكامها العرفية . بل إنه لاحقنا أيضاً حتى فى زمن أحكام إبراهيم باشا عبد الهادى الإرهابية حين لفق محمد يوسف طريقة حبسى مرة ثانية وخصوصاً فى « كركون روض الفرج » ولا شك فى أنه يفكر الآن بمكيدة جديدة تسىء إلينا ، ولا سيما بعد صدور هذا الكتاب وشقيقه كتاب ها كتب ، وإن سألنى سائل عما يستطيعه محمد يوسف الآن .. فالجواب عليه هكذا : إن محمد يوسف لابد أن ينتقم ؛ أما كيف يكون انتقامه فهذا علمه عند الله وعنده هو !

فإذا كان قد صنع معنا ما صنع بدون أن نسىء إليه وبدون أن يعرفنا أو نعرفه ، فكيف بعد ظهور الكتابين ! ؟

فالذى أتوقعه بعد اليوم أنه سيترصد مصيبة قيام أحكام عرفية انجليزية تنزل بالأمة لا سمح الله أو قيام حكومة إرهابية لاقدر الله ، فينفذ تحت حمايتها ما قد يكون فكر فيه ودبره لى فى أثناء عهود الحرية ، التى تعتبر بالنسبة إليه « فترة استجمام » يكف عنى فى أيامها لأنه لا يستطيع فى عهود الحرية أن يظهر أو أن يعمل عملاً ظاهراً ...

الملاحقة ....

إن بريطانيا لم تتمكن فى ثلث قرن من الوصول إلىَّ ولا النيل منى بقدر ما وصل إليه تلاميذها معى ثم خلصنا منها ولكننا لم نخلص منهم ! إنهم لأصدقاء لها أعزاء ، يستحقون منها أوسمة كثيرة لا وساماً واحداً ... اننى لم أواجه انكليزيا واحداً فى عهود المطاردة . ولكنى رأيت العرب والمسلمين ...

وقبل أن أختم مواضيع محمد يوسف، لا أكتم قراء كتابي هذا أني أكاد لولا الحياء أن أنصح الناس بعدم التعرض للاستعمار، وإلا أصابهم ما أصابني ... ليس من الانكليز رأساً، ولكن من قدرتهم على ملاحقة خصومهم حتى بعد خروجهم من الأقطار التي يسيطرون عليها كما لاحقوني بواسطة حسن فهمي رفعت باشا وتلاميذه . لأن فرنسا مثلاً لما خرجت من سورية ولبنان لم تفكر في أن تترك أشخاصاً من السوريين واللبنانيين يلاحقون خصومها الذين قاوموها في أثناء احتلالها لبر الشام .

ولذلك أصبح من حقي أن أعتبر بقاء الأميرالاى محمد يوسف بك في البوليس المصري إمتداداً للاحتلال البريطاني ، وما لم يخرج هذا الرجل من وظيفة رئيس « إدارة الشئون العربية » في بوليس مصر التي لا تطارد إلا العرب والمسلمين ، فلن أكف عن مطالبة الحكومة بإخراجه أو تحيل أمره معي ومع أسرتي إلى القضاء ، أو تحقق معي بتهمة أنني افتريت عليه ...

بين الأمس واليوم ـ وحالة الصحافة

وهنا لا بد أن يخطر لقارىء هذا الكتاب أن يقول مثلاً : إذا كانت الوقائع التي فيه صحيحة فلماذا لا تأمر الحكومة بإجراء التحقيق فيها . وإن كانت كاذبة فلماذا تسكت عليها ، فلا هي تكذبها ولا تحاكم الذين نشروها ، سواء كنت أنا أو الجرائد التي نشرتها ؟

إن هذا السؤال قد مر بلاشك في بال كل من قرأها، سواء في الجرائد ـ من سنة ١٩٤٧ إلى الآن ـ أو من كتاب ها كستب ، والجواب على ذلك هو : إن رجال الدوله في أيامنا هذه ـ بعد الاستقلال ـ أصبحوا في شاغل عن الاطلاع على ما تنشره الجرائد عن تصرفات الموظفين التي تضر بالناس ، وشكايات الشعب من أحواله ؛ فهذا الحاكم مشغول في خلق الأمور التي تجلب له الرفاه والراحة ، وهذا الوزير مشغول في توطيد مركزه والعمل على خدمة رجال حزبه ، والوزير الفلاني منهمك في دفع مكائد خصومه عنه ، والوزير الفلاني لا ينام إلا بعد أن يكون قد صرف ليله ونهاره في تدبير داهية لأعدائه ...

تحليل مختصر

فبين التوقى من كيد الخصوم ، وبين حفر المهابط للأعداء ـ يضيع وقت معظم ولاة الأمور سدى ، فلا يبقى لهم من الوقت دقيقة تكفى للاطلاع على الجرائد وما فيها من مظالم العباد ، ثم يسأل السائل فيقول : ولكن ولاة الأمور مع ذلك يقرأون الجرائد فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ والجواب هيّن ، وهو أن معظم حكامنا لا يقرأون إلا المقال الذى يكون فى مصلحتهم ويكيد خصومهم ، ثم المقال الذى يكون من الخصوم .. ليعرفوا ماذا يقول «الأعداء» عنهم ، وبعد ذلك يضيعون بقية يومهم ومعظم سهرتهم فى كتابة ردهم عليه ... ولذلك لا يبقى عندهم من الفراغ ما يكفى لقراءة أخبار الرعية ومطالبها وشكاياتها ! ولذلك أصبح نفوذ الجرائد فى وقتنا الحاضر من ناحية رفع صوت الشعب معدوماً . وأما فى الأيام التى سبقت الاستقلال فقد كانت الجرائد تخيف حكامنا ، لأن الانكليز الذين يسيطرون على جهاز الحكم فى الزمن الماضى كانوا يتصيدون غلطات الحكام الوطنيين ويترصدون بهم الدوائر ، ليتخذوا من تقصيرهم حجة لمعاقبتهم وتصغيرهم أمام الشعب والظهور أمامه بمظهر « الحكم العدل » لتسويغ بقاء الاحتلال إلى الأبد !

وأما الآن فإن العدو الذى كان رابضاً فى دوائر الحكومة يترقب للحكام الوطنيين السقطات والهفوات قد انصرف ، ولذلك اطمأن المفرطون الكبار وما عادوا يهتمون بكتابات الصحف ، وكانت النتيجة أن اطمأن أيضا صغار الموظفين إلى كون الرؤساء لا يدرون بما يجترحونه مع الناس ..

مجلس الدولة

إن مصر لولا «مجلس الدولة» الذى قام فيها أخيراً بهمة الملك فاروق حفظه الله ، لإنصاف الشعب من طغيان بعض الحاكمين لكانت الحياة فيها كجهنم ، وإنى أتذكر يوماً كنت فيه مع أحد أصدقائى من ضيوف مصر نتحدث عن أجمل شىء فيها فقلت إنه « مجلس الدولة » وبعد ذلك «مجلس النواب» ـ ولكن بشرط ـ وهو أن يكون هذا المجلس شعبياً وليس من عمل الوزارات والأحزاب الخارجة على الأمة . أما لماذا فضلت مجلس الدولة على مجلس النواب ، فسببه أن مجلس الدولة يتألف من قضاة كبار لا يمكن عزلهم من مناصبهم ، وأما

مجلس النواب فيمكن أن تطغى فيه الحزبية فيصبح الشعب فى ظله يعيش تحت « طغيان برلمانى » تتجنب فيه الأغلبية محجة الصواب ..

مثال ذلك ...

إن الدستور المصرى يعد من أحدث دساتير العالم وأرفعها أهدافاً ، وكنا نظن أننا سنحظى فى ظله بالحريات التى فقدناها بسبب الاحتلال الأجنبى، كأن تلغى بعد إعلان الدستور تلك القوانين القليلة التى تضغط على حرية القول والكتابة والفكر ، ولكن الأمل قد خاب ، وانه ليحزننى أن يصدر هذا الاعتراف منى أنا الذى أنكوى من الاستعمار وعانى على يديه أنواع العذاب، لأن الوزارات المتعاقبة وضعت ـ نكاية بخصومها ـ عشرات القوانين الجديدة التى تحد من الحريات ـ بالإضافة إلى قوانين الاستعمار ، لا فرق فى ذلك بين الوزارات الشعبية أو الوزارات الخارجة على القانون ، ولذلك أصبح دستورنا مع الزمن على وشك أن يفقد معناه ويضيع الغرض من وضعه مادامت كل مادة سامية وردت فيه أصبحت تقيد بقانون رجعى يقصف رقبتها ... فلو أردت أن أقارن بين حالة « الحرية » فى مصر حين جئتها لأول مرة قبل أربعين عاماً وبين حالها اليوم سنة ١٩٥١ لظهر الفرق واضحاً والنسبة بعيدة ، فقد كانت البلاد تتمتع فى زمن كرومر وغورست وكتشنر فى عهد الاحتلال ، وفى عهد مكماهون وونجت واللنبى على زمن الحماية بحريات فكرية وكتابية وخطابية واسعة النطاق، وقلما سمعنا بتعطيل جريدة أو حبس صحفى حبساً احتياطياً ، فإن وقع حادث من هذا النوع قامت البلاد وضج العباد .

مثال ذلك أن الدستور يقول إن الصحافة حرة ولا يجوز إنذارها أو تعطيلها إلا فى حدود القانون ، ولكن الوزارات الحاكمة ـ أياً كانت ـ وضعت للمطبوعات والصحافة فى قانون العقوبات مواداً صارمة قاسية جعلت العقوبات تنصب على الصحف كسوط عذاب ، كما أن قيود إصدار الصحف ، وتأليف الجمعيات أصبحت أشد وأصعب من شروط فتح خمارة أو إنشاء محل للقمار ... كما هو واقع الآن مع الأسف وهكذا ... فأين تجد الدستور هنا ؟

الختام

وإنى الآن وأنا أختم هـذه المفكرات أحب أن أجاوب على بعض ما أظنه يمر ببال من قرأها ، بأن يسألنى عن حالى بعد كل ماجرى لى وشرحته فى هذا الكتاب …

والجواب على ذلك إننى لاأزال أعانى الكثير من المتاعب التى سببها لى الاستعمار بحبسه إياى سنة ١٩٤٠ لأنه ابتلانى فوق المتاعب التى مررت بها ، بخلق أعداء سخطوا على لأن الاستعمار سخط على ! والغريب فوق هذا أنهم لايزالون كذلك حتى الآن فى حين أن المستعمر قدراح من هنا . وبعضهم غضب منى لأنى هربت من السجن وسببت له توبيخاً أو أضعت عليه ترقية … وهذا صديق تنكر لى فى أيام المحنة كعادة الناس غالباً ولولا حبس الإنكليز إياى ماتنكر ولا ظهر زيفه ، فلما انقضت الأيام السوداء عاد إلىّ فأبيت رجوع صداقته نخسرته ، وهذا صاحب طالما خدمته وأحسنت إليه فإذا به يقوم بالبحث عنى وأنا هارب ليرشد الشرطة إلىّ طمعاً « بالجائزة » فلما انطلقت جاءنى يسلم ويهنئ فاغتظت منه وبهدلته وقطعت صلتى معه نخسرته وأصبح عدواً … وهذا حبيب هجرنى حتى لا أكلفه مساعدة نخسرته، وآخر ابتعد عنى لمرض فى سجيته الخ فكانت النتيجة إننى خسرت الكثيرين …

وهناك أصدقاء وزملاء جاهدت الاستعمار معهم ، وأوذيت أكثر منهم وشاطرتهم متاعبهم ، فلما ابتسم لهم الدهر ونالت البلاد حقها أو بعض حقها ، صاروا يبتعدون عنى حتى لا يغضب عليهم الإنكليز ، وبعضهم ضحّانى ليرضى عدواً له ، أو يبتعد عنى ليحصل على منفعة من عدو لى ، وبعضهم يجامله أيضاً ويحتضنه أمام عينى ، وبعضهم انشغل عنى بأيامه البيض وتركنى مشتبكاً فى المعركة وحدى ، وبعضهم كان يشغلنى بتخليصه من المصائب فصرت أسعى لأخلص نفسى منه هو ! وبعضهم كنت أساعده على الأجانب نخذلنى وراح يساعدهم علىّ وأصبحت فى حاجة إلى من يساعدنى عليه ! فأما الذين شاركتهم وشاركونى العمل على محاربة الاستعمار ووصلوا وتركونى ، فهؤلاء قدحيرنى أمرهم ، ولاأدرى كيف يكون الانتصاف منهم ، لنفرض إنى كنت أعمل وإياهم « بالشراكة » فأين حصتى ؟ وإن كانت « بالمزارعة » وكانوا هم أصحاب الأرض أيضاً فأين غلتى ونصيبى ؟ وإن كان العمل بالأجرة فأين أجرتى ؟ ..

إن القانون التجارى كله فى جانبى ، والقانون المدنى فى صفى ؛ وقانون العمل يؤيدنى ويعـاقب من يأ كل تعبى ... وأما قانون الأخلاق والوفاء فالله وحده الذى يعلم كيف مسخ وكيف نسخ ، ثم ألغى من عالم الوجود ...

الريش المنتوف ...

وكانت النتيجة أنى حرمت فى هذه الحياة من بقاء صديق فيه رمق ! لأن كل من زاملونى وزاملتهم وساعدتهم الظروف هربوا منى ، ولم يعد إلىّ منهم إلا الذين انـكسروا ونـكبوا مرة أخرى ، ولـكن ما الفائدة من عودتهم ؛ وماذا أصنع بهم بعد ضعفهم ونتف ريشهم ، فهل قدّر علىّ أن أظل طول العمر فى صحبة كل مفلس مهيض الجناح... والغريب هنا أنهم لم يعودوا إلىّ إلا لأخدمهم من جديد وأساعدهم على استعادة ما فقدوا ، ولم يفتهم فوق ذلك أن يقصوا علىّ ما كانوا فيه من عز مفقود ونعيم زال ، ويطلعونى على تصاوير الفردوس الذى انفردوا به ، يوماً ما ورسوم ما كانوا فيه من جنات وعيون ...

مفاخرة ...

وهنا لايسعنى إلا أن أفاخرهم بمجموعة جريدتى التى دافعت عن الأمة وعنهم وأصبحت أوسع سجل لمقارعة المستعمرين ، وافاخر بكتابى هاكتب وكتابى هذا ، وما فيهما من دفاع عن المظلومين ، ومن أخبار حبسى وعذابى وتصاويرى بعد هربى بعد السجن وفى أثناء اختفائى عن أعين المستعمرين. وقد سجلت الـكثير من هذه الأخبار والتصاوير وسأسجل فى الصفحات المقبلة بعضاً منها ـ وبعدها تصاوير بعض زوارى لأعوض النقص الذى كنت أشعر به حين كنت أتفرج على صور حفلاتهم ومواكبهم التى محيت وأصبحت خيالا ، وبقيت تصاويرى ...

محمد علي الطاهر في أيام الهرب من السجن

محمد علي الطاهر في تلك الأيام ...

عظمة السلطان فضل عبد الكريم سلطان لحج يزور "دار الشورى" ١٩٤٩ وهو يظهر فى الوسط وإلى يمينه زعيم تونس السيد الحبيب بورقيبة فالسيد عبد الخالق الطريس زعيم تطوان بمراكش وإلى يساره محمد على الطاهر فالسيد عبد الله الجفرى مستشار السلطان

وفى الثانية يتوسط عظمة السلطان الصورة عند توديعه وقد ظهر حوله الدكتور محمد صلاح الدين بك والسيد علال الفاسى زعيم مراكش والسيد عبد الله الجفرى والسيد محمد رشيدى وزير أندونيسيا والسيد المؤيد وزير اليمن وصاحب هذه المفكرات والأستاذ كامل كيلانى وغيرهم

حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سيف الإسلام محمد البدر ولى عهد اليمن يزوردار الشورى ١٩٤٩
وهو الثانى من يسار القارئ• فالأمير محمد الخطابى وإلى اليمين سمو الأمير المرحوم
سيف الإسلام يحيي عم الأمير البدر فالسيد على المؤيد فالسيد أحمد بن محمد باشا حاكم تعز

توديع سمو الامير محمد البدر ولى عهد اليمن وإلى يساره أحمد حلمى باشا فمحمد على الطاهر وإلى يمينه
الامير عبد الكريم الخطابى فالسيد صادق المجددي فحاكم تعز فالسيد الجفرى ، وظهر خلفهم عدد من كبار المودعين

صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية
وإلى جانبه محمد علي الطاهر ، هذه الصورة أخذت سنة ١٩٤٧ بقصر الزعفران بمصر

سمو الأمير عبدالكريم سلطان لحج في دار الشورى سنة ١٩٥٠
وهو الثاني من يمين القارىء وبجواره الاستاذ كامل كيلاني
وفي الوسط أحمد حلمي باشا رئيس حكومة فلسطين يتحدث
مع القائد المجاهد عزيز المصري باشا وبينهما
محمد علي الطاهر

الأمير عبدالكريم الخطابي

وآخر ما أفخر به وهو من توفيق الله أنني في ٢٣ مايو ١٩٤٧ تلقيت برقية من السيد عبده حسين الأدهل من فضلاء بلدة « الشيخ عثمان » بجوار عدن يقول فيها إن الأمير عبدالكريم الخطابي مجاهد الريف الشهير قد غادر عدن على الباخرة كاتومبا ، وكانت الإشاعات قد سبقت ذلك بأن فرنسا ستنقله من منفاه بجزيرة ريتيون من جزر المحيط إلى جنوب فرنسا بعد أن غدرت به ونفته هناك هو وأهله نحو ٢١ عاماً وهذه هي البرقية :

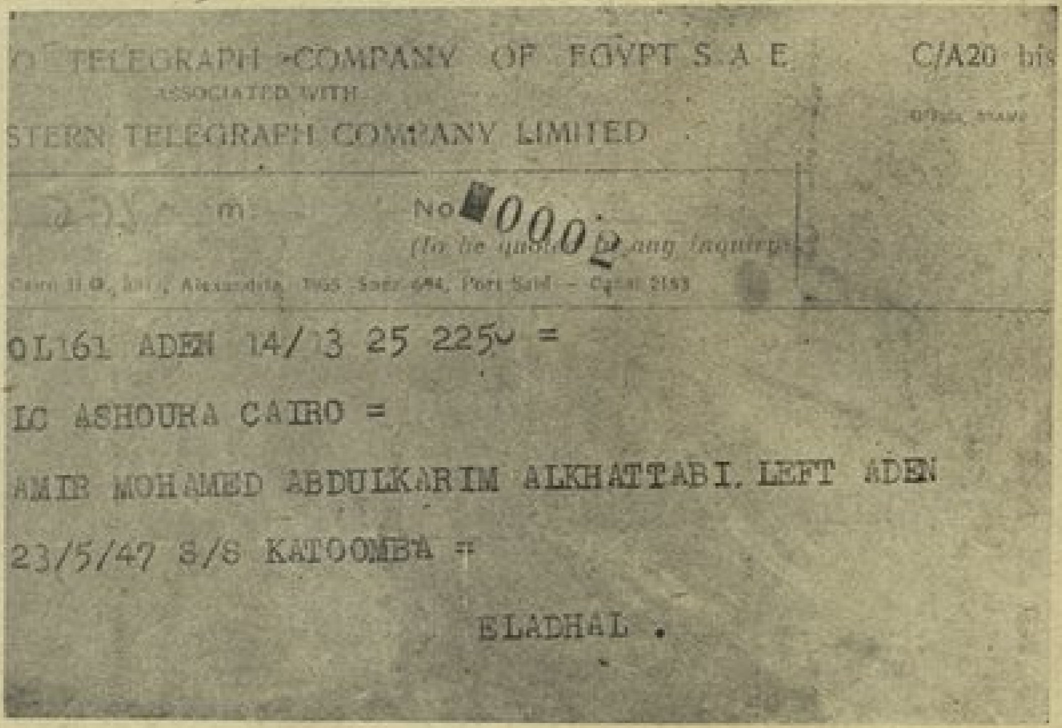
O TELEGRAPH COMPANY OF EGYPT S.A.E. C/A20 bis
ASSOCIATED WITH
STERN TELEGRAPH COMPANY LIMITED
No 0002
(to be quoted in any inquiry)
Cairo H.Q., Alexandria, Suez, Port Said — Canal 2183

OL161 ADEN 14/3 25 2250 =
LC ASHOURA CAIRO =
AMIR MOHAMED ABDULKARIM ALKHATTABI. LEFT ADEN
23/5/47 S/S KATOOMBA =
ELADHAL .

وقد ألهمني الله يومها أن أكتم النبأ عن الجرائد ، ولكني لم أكتمه عن ملك الشباب فاروق الأول أيده الله ورعاه ، فأبرقت إلى جلالته بعد منتصف ليل ٢٧ مايو سنة ١٩٤٧ التلغراف الآتي وهو: وردتني برقية من عدن بأنه قدمر بها الأمير عبدالكريم الخطابي أمير الريف بمراكش وأسير فرنسا بجزيرة ريونيون منذ عشرين سنة وهو الآن بطريقه لمنفاه الجديد بجنوب فرنسا وستصل به الباخرة كاتومبا غداً الثلاثاء للسويس فإنقاذه معلق بإشارة كريمة من جلالتكم بدعوته للنزول ولا سلطة لفرنسا عليه سوى سلطة الخاطف على المخطوف، فهو ليس

بفرنساوى، ومادامت الباخرة فى مياهنا فهى تحت سلطة محافظ السويس قانوناً. إن مكارم جلالتكم التاريخية بنظر العالم الاسلامى هى التى أوحت لى رفع هذا الحادث لمقامكم السامى مع الدعاء بحفظ الذات العلية ؟

الامضاء

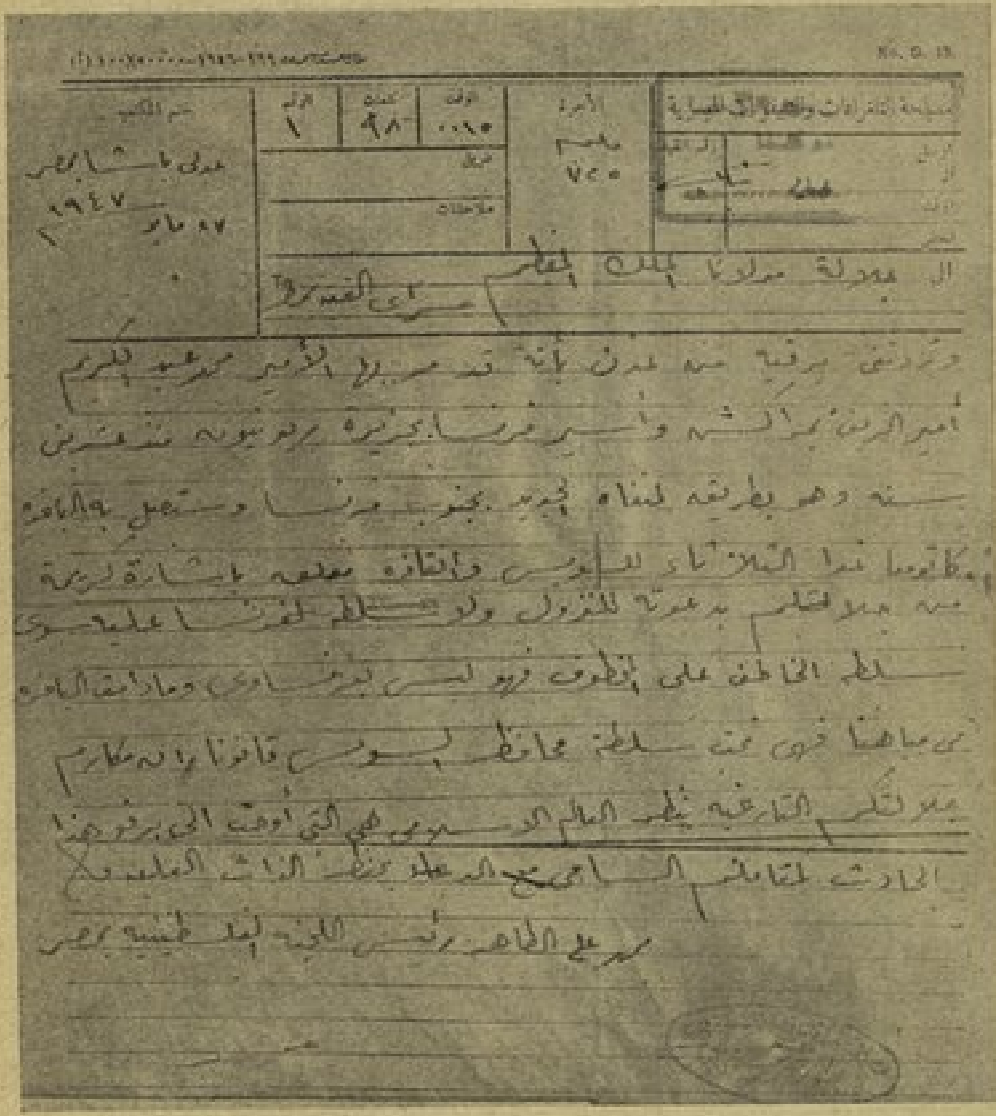

مصر ٢٧ مايو ١٩٤٧

الى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم
سراى القبة

وردتنى برقية من عدن بأنه قد سرح الأمير محمد عبد الكريم أمير الريف بالأمس وأسرته فرنسا بجزيرة ريونيون منذ عشرين سنة وهو بطريقه لمنفاه الجديد بجنوب فرنسا ويستحيل بالباخرة كاتوميا ثنا الثلاثاء للسويس وأفادنا تطلعه باشارة كريمة من جلالتكم بدعوته للنزول ولو تسلط فرنسا عليه سوى سلطة الخاطف على المخطوف فهو ليس بفرنساوى ومادامت الباخرة فى مياهنا فهى تحت سلطة محافظ السويس قانونا ان مكارم جلالتكم التاريخية بنظر العالم الاسلامى هى التى أوحت الى برفع هذا الحادث لمقامكم السامى مع الدعاء بحفظ الذات العلية

محمد على الطاهر رئيس اللجنة الفلسطينية بمصر

بعد البرقية

وبعد ذلك وصلت الباخرة إلى المياه المصرية فصعد إليها حاكم السويس وأبلغ الأمير الخطابى تحية ملكية سامية من طرف الفاروق العظيم الذى بز ملوك العصر فى شهامته وحميته ، وفى

ميناء بور سعيد نزل الأمير عبد الكريم من الباخرة لزيارة المدينة ، ولكنه ذهب إلى دار الحكومة وطلب اعتباره لاجئاً سياسياً فى مصر وفى حماية فاروقها حفظه الله ، فقبل جلالته هذا الالتجاء وماأمسى المساء حتى كان الأمير وشقيقه الأمير محمد وعمهما السيد عبد السلام وآلهم وأطفالهم وأمتعتهم وأثقالهم فى القاهرة ، وبذلك تم إنقاذهم بعناية الله ورعاية ملك مصر الذى سيخلد التاريخ لجلالته هذا العمل العظيم .

وبعد ذلك بمدة قصيرة جاء الأمير عبد الكريم الخطابى لزيارتى فى دار الشورى بعدأن عرف بما كان ... وقد أوردت فى الصفحة التالية ٨٧٤ صورة فتوغرافية تخلد تلك الزيارة .

الأمير الخطابى فى عدن

أقام السيد عبده حسين الأدهل أحد فضلاء عدن مأدبة لتكريم الأمير عبدالكريم الخطابى عند نزوله من الباخرة لزيارة تلك المدينة. وقد ظهر السيد الأدهل فى الصورة إلى يسار القارئ فالسيد عبد السلام الخطابى فالسيد أحمد محمد نعمان الزعيم اليمانى فالأمير عبدالكريم الخطابى فالسيد البراق سكرتير الأمير سيف الإسلام إبراهيم فالأمير محمد الخطابى فالقاضى محمد محمود الزبيرى من زعماء اليمن ، ووقف خلفهم فريق من أدباء عدن .

فى وسط الصورة جلس الأمير عبدالكريم الخطابى فى دار الشورى وإلى يمينه محمد على الطاهر فعزيز المصرى باشا فالأستاذ كامل كيلانى
وإلى يسار الأمير جلس السيد عبدالله الجفرى فالدكتور بشناق بك ووقف خلفهم من يمين القارىء المرحوم الدكتور الحبيب تامر
فالسيد الرشيد إدريس وهما من مجاهدى تونس فالسيد زين حسن المجاهد الأندونيسى فالسيد محمد رشيدى وزير أندونيسيا المفوض

هذا الكتاب

لابد أنه يوجد بين قراء هذا الكتاب من أعجبه بعضه ، أو أعجبه جله ، أو أعجبه كله ، كما أنه يوجد فيهم من لم يعجبه شيء فيه! وقد يكون الأمر على العكس ، فهذا كله لا يد لى فيه ولا حيلة عندى لتلافيه، فالكتاب مطبوع وموجود بين الأيدى، بعد أن خرج أمره من يدى ، فهو مذكرات ومفكرات عن حوادث وقعت فسردتها ، وحالة وجدت فصورتها، ولم أزعم ـ كما قلت فى أوله ـ اننى أضع كتاباً فى الهندسة أو فى علم الفلسفة ...

فالكتاب يرسم صفحة لحياة شخص من الناس مرّ على مسرح الدنيا، فترك آثار أقدام على رمال الزمان ثم مضى ، بعد أن دوّن بعض مشاهداته وأخباره ، وشيئاً من الخواطر التى مرت فى خاطره . فهو على كل حال يصور للجيل الآتى صفحة عابرة عن حالة راهنة من أحوالنا ، فقد تكون اليوم تافهة وتصبح غداً هامة ، وقد تكون كذلك الآن وتافهة بعد ذلك ، فهو ليس أكثر من مرآة تريك بعض ما نحن فيه ، وانطباعات تصور لك الطيب وغير الطيب عما كنا نعانيه، من أمور وقعت ، وأحداث حدثت ، حتى إننى أنا نفسى قد أغير فكرى فيه بعد ذلك، وقد يتغير بعض من ذكرت من أشخاصه ، فهذا كله بيد الله ، ونحن فى هذه الدنيا لسنا أكثر من شخوص وأشباح تمر وتنقضى وتفنى جميعاً والمحرك باق ...

الأغاليط المطبعيـة

وقع فى هذه المفكرات تحريف لكلمات ، وتشويه لعبارات فى أماكن شتى . وقد ثبت بالتجربة أن تجنب وقوع الخطأ فى الكتب أمر مستحيل ، ولذلك يعمد بعض المؤلفين إلى استدراك ذلك بوضع بيانات فى أواخر كتبهم يشيرون فيها إلى الغلط ويردونه إلى الصحيح ، وهذا واجب عند ما يتعلق الكتاب بفن عملى ، كالصيدلة أو الطب ... الخ . وأما فى كتب القصص فلا أظن القارىء بحاجة إلى مثل ذلك، لأن الغلطة فى هذه الكتب لا تنتج شراً ولا تسبب لأحد ضرراً ، فالقارى عندما يرى الخطأ يدركه من فوره ويرده فى ذهنه إلى الصواب من تلقاء نفسه، وأما إن مر بالخطأ من دون أن ينتبه إليه فذلك أحسن ، وهو يوفر عليه أيضاً ضياع الوقت ...

محتويات الكتاب

مقدمة قبيل الحرب الثانية

من صفحة ٣ ـ ٢٤

نظرة وإحاطة ـ الاستعداد للحرب ـ إعلان الحرب ـ حالة البلاد ـ احتياطات ـ على ماهر باشا ـ القاهرة فى أوائل الحرب ـ المخابىء ـ طلبهم حبسى ـ إسقاط وزارة ماهر باشا ـ الطليان يعلنون الحرب ـ اختفاء أحمد حسين ـ عند رئيس الوزراء الجديد ـ زيارتى لماهر باشا

القبض والحبس

من ٢٦ ـ ٧٢

تفتيش الدار ـ إلى السجن ووصفه ـ الليلة الأولى ـ احتمالات وشجون ـ أدب سان بيير ـ فظائع بفلسطين ـ اليوم الثانى فى السجن ـ أحمد ماهر والنقراشى ـ أخبار جديدة ـ تذكرت أشياء ـ ذنوب أخرى ـ الأمير شكيب ـ لجنة إنقاذ المعتقلين ـ أيام السجن ـ مساعى شفيق باشا ووفاته ـ مصطفى باشا عبد الرازق ـ هواجس أيام السجن وشهر رمضان فيه ـ أخبار طبية وتلغراف ـ ماهر باشا وكتاب منه ـ حالة الحرب ـ صفحات سود ـ الدكتور أمين رويحة

حوادث وأخبار

من ٧٣ ـ ٩٤

فرنسا الحمقاء ـ وجود حكومة الأردن وكلها قيراطين ! ـ هولندا وبلجيكا ـ صراخ الإنجليز ـ معرفة الله ـ كرم المسلمين للأعداء ـ أخبار الدكتور رويحة ـ ماذا قالوا عنى ؟ ـ نشريات الإنجليز ـ معركة دنكرك ـ أغلاط المحور وأندونيسيا ـ سوابق انجلترا ـ غلطة المغاربة والسوريين ـ الجنرال فيجان ـ شيفرة خاصة ـ العربى التائه ...

الحياة فى السجن

من ٩٥ ـ ١١٤

صالح باشا حرب ـ عبد الحميد بك سعيد ـ حمدى باشا محبوب ـ وفاء وتصادف وملحق ـ جاء السجان ـ أحد الأجانب وغلطة كبد ـ مجاملات ومفاوضات ـ حرب باشا ورئيس الوزراء ـ خواطر السجن ـ الاستعانة بالشيطان ـ عند عميد الاستعمار بالقدس ـ الاتصال

بالسنوسيين ـ الأخضر ونعمان ـ من هو نعمان ؟ ـ وثيقة على الإنكليز ـ إنسانية الأمريكان

شئون شتى

من ١١٥ ـ ١٢٨

من الذى صمم على الحرب ـ براءة هتلر ـ الاستعمار سيطرة ـ وصف نكباتهم ـ تقسيم فرنسا ـ ضرب مدينة دمشق ـ استسلام فرنسا ـ ماذا جرى بعد ذلك ؟ ـ سقوط باريس ـ حداد فرنسا ـ إلى الله ! ـ موكب الدموع ـ فظائع بريطانية بفلسطين .

تجارب وخواطر

من ١٢٩ ـ ١٦٣

خواطر السجن ـ نسيم صبيعة ـ استدراك عن الأمير شكيب ـ هواجس السجن ـ خاطرة عابرة ـ مس نيوتن ـ الفوضية السعودية ـ استطراد ! ـ الملك فيصل والإنكليز ـ وصف نكبة لندن ـ الشهيد فرحان السعدى ـ رجعة لحياة السجن وأخبار ... ـ تشرشل يخطب ـ اتصلت بالأمير شكيب وأنا بالسجن ـ حياة السجن أيضاً ـ عريضة أبناء الأقطار الإسلامية بطلب الافراج ـ مسألتى فى البرلمان ـ المساعى فى بغداد ـ مساعى نواب مصر .

فرنساويات وغير ذلك . . .

من ١٦٤ ـ ١٩٣

رسائل بينى وبين الجنرال فيجان ـ موقف طيب للنحاس باشا ـ من حوادث السجن ـ محمود لطيف بك وهيكل باشا ـ توسط الأمير فيصل وجورج انطونيوس ـ مساعى الدكتور محمود عزمى ـ ظلام الأسر ـ المعاهدة المصرية ـ حسان فلسطين ـ كتاب من الأمير شكيب أرسلان ـ رسالتى لرئيس الوزراء ـ شئون وخطرات فى السجن وأخبار ـ مصادفة عن السبعاوى وحوادث ـ نشرة عنى تذاع بالقاهرة .

المرض والمستشفى

من ١٩٤ ـ ٢١٦

صدى المرض بالعراق وأقوال الصحف العراقية ـ إلى المستشفى وعواطف السجانين ـ حياة المستشفى وأخباره ... ـ أخبار وتعليقات ـ خواطر وملاحظات ـ إذاعة راديو برلين عنى وصوت يونس البحرى ـ بهلوانيات ـ عريضة لجلالة الملك ـ زيارة تشغل البال وسهر .

الفرار !

من ٢١٧ ـ ٢٦١

التفكير بالهرب ـ بروفة والساعات الأخيرة ـ الهرب ـ بعد الفرار ـ ذكريات وإلى الأمام .... ـ حيرة ثم وجدتها ! ـ تفكير ورسم خطط ـ ماذا بعد الهرب ـ الشيخ يوسف وحادث ومباغتة ـ الشيخ إطفيش ـ الجندى المنكوب ـ عند السيد العتابى ـ عند الأستاذ الشيخ إطفيش ـ إلى أين ـ الشيخ محمد الناجى ـ الشك والارتياب ـ مباغتة ـ عند نسيب شهاب بكفر الوسطانى ـ ولكن الله سلم ـ أخبار جديدة ـ ليلة فى طنطا ـ كتاب إلى بغداد ـ سعيد ثابت ـ دمنهور ـ إلى الصحراء الغربية ـ فزع ... إلى القاهرة ـ تفتيش الشيخ دار يوسف

حيرة الطريد

من ٢٦٢ ـ ٣١٨

استشارات عند حافظ بك عوض ـ الشيخ حزنبل ـ عند الأستاذ الياس انطون الياس ـ حادث ينشف الدم ـ ليلة فى الاسكندرية ـ ويوم فيها ـ عمى قلوب الطليان ـ يوم سعيد ـ طردونى عن باب المسجد ـ تعال ياشيخ ! ـ فندق اسطامى ـ الفرار بحراً ـ محمود بسيونى بك ـ بوليسيات ! ـ هدية اللادن ـ خناقة وإلهام من الله ـ معتقل الزيتون ـ أخبار العراق ورشيد عالى ـ مقابلة ومأزق عند السيد البدوى ـ الحديث شجون ـ معركة ـ تعليقات وخيانة ـ ليلة ليلاء والبنطلونات ـ عمامة السيد عبد الحميد كرامة ـ إلى المنصورة ـ حملة ومصادفة ـ إلى القاهرة ـ فائدة بوليسية ـ وقعت بيد البوليس ـ الدكتور محمود عزمى ـ حصار المفوضية العراقية ـ أميل يخذلنى ـ إحساسات ـ عند الشيخ صبرى عابدين ـ زيارة شقيقتى فى السويس ـ حيرة ولقاء محزن ـ زناجير فى السماء ـ رحلة ولكن جاء الفرج ـ مشكلة وفرار وحادث ـ الأستاذ على أحمد باكثير .

الاستقرار فى المنصورة

من ٣١٩ ـ ٣٥٠

موكب ـ ليلة البراغيث ـ هدوء ومكنسة وشك ـ الفرار من الدار ـ القبض على عزيز باشا المصرى ـ إخماد حركة العراق ـ حياة المخبأ ـ محمد شكرى الكرداوى ـ شكوك أحمد حسن بدر والمكاشفة ـ الشيخ محمد المغربى ـ تجارة البطاطين والجندى يقبل يد الشيخ ـ

حرب الروس مع الألمان ـ الفرصة التي أضعناها ـ اشتريت راديو ـ تسفير با كثير ـ وإحضار الصرة ـ حوادث فردية ـ شيء عن المنصورة ـ مساومة الحكومة ـ حافظ عفيفي باشا

حوادث مثيرة

من ٣٥١ ـ ٣٨٤

القبض على قرينتي ـ سافرت لتسليم نفسي ـ الشيخ في الكنيسة ـ احتجاج بونابرت ـ خبر غير منتظر ـ إبعاد قرينتي عن مصر ـ الأستاذ أحمد حسين يصف الحادث ـ سفر بقطار الليل وقهوة المحطة ـ مدينة قنا ـ سكة حديدية حربية ـ مدينة أسيوط ـ في دار سيد باشا خشبة ورسالة ـ الرجوع للمنصورة ـ استرحت بغرفة ضابط البوليس ـ عبد الحميد باشا عبد الحق ـ من بني سويف إلى حلوان ـ أخبار جديدة من مصر الجديدة ـ إلى القاهرة ـ حكمدار المنصورة

استقرار

من ٣٨٤ ـ ٤٣٨

حياة هادئة ـ زائر وتأملات ـ وجه فرنسا وملاحظات وحوادث ـ حبيسة ـ أخبار مقلقة ـ لهبة سراج وانطواء كلب ـ السفر للحج ـ أحوال مصر في البرلمان ـ نسمات الحرية ـ النقراشي وحمدي محبوب ـ قطط على أحمد با كثير ـ بائع الأحذية ـ المجاعة في مصر ـ الشيب والخوف ـ منام رأيت فيه الملك ـ عيد! ـ نظرة سياسية ـ طرابلس وبرقة .. الدبلوماسية العربية ـ أندلسيات ـ يونس البحري ـ بلاد الملايو وفلسطين أخرى ـ سوانح وخواطر عن الحرب ـ إزعاج نسيب شهاب ـ المعتقلون في البرلمان ـ خضة! حوادث وخواطر ـ البوليس يفتح البخت ـ حيلة لإخفاء أوراق ـ محمود فهمي النقراشي ـ الأحوال قبل النهاية ـ محاصرة قصر عابدين ـ الشيخ عبد المجيد اللبان .

بعد الانقلاب

من ٤٣٩ ـ ٤٧٨

كيف جمنا وكيف سقطت الوزارة ـ وزارة النحاس باشا ـ فحص الناس وبرقية ـ تلفون وحوادث ـ عند حافظ عوض بك بالقاهرة ـ عبد الله نديم ـ آمالي عند الفرج ـ كتاب نظرات الشورى ـ السجون قديماً وحديثاً ـ الدكتور عفيفي باشا والنحاس باشا ـ النحاس باشا يلقبني بسفير مصر ـ تخمين وافتراض ـ فأل واستبشار ـ آمال ـ مركز جاسوسية ـ مكرم عبيد باشا

الاستسلام

من ٤٧٩ ـ ٥٠٠

إلى النحاس باشا ـ رسم الخطة ـ السفر للقاهرة ـ هيا هيا .. وذكريات ـ ذعر سائق السيارة ـ بين الحرس ومفاجأة ـ تشريفات وسلامات ـ مكاشفة ابراهيم عز الدين ـ رئيس الوزراء والصحافة ـ البوليس ... ـ مع أمين عثمان باشا ـ اللقاء بالنحاس باشا ورجولته أمام الإنكليز ـ أنطون باشا الجيل ـ القلم القضى ـ مناقشة وتعهد وحسن فهمى رفعت باشا ـ

بعد الإفراج

من ٥٠١ ـ ٥٢٠

الانطلاق والحرية ـ فى دار الأهرام ودار المصرى ـ فى القصر الملكى ـ الإنكليز يعنمون النشر عنى ـ برقية مزخرفة ـ أقوال الجرائد ـ وقع ظهورى على البوليس السياسى ـ

شئون وشجون

من ٥٢١ ـ ٥٤٢

إرجاع قرينتى لمصر ـ برقيتى لرئيس الوزراء ـ النحاس باشا وعفيفى باشا ـ القبض على بباب الحديد ـ بطل مجهول ـ الجندى المنكوب ـ روايات طريفة ـ وفاء ومآدب ـ هل بقى عندك عقل ـ أين الأهل وأين التقليد ـ الغنائم والضابط إمام ـ أساليب بوليسية ـ حتى العصفور ! ـ إزالة اللحية ـ تهنئة ـ شيخ الشوام ـ أوسمة... ـ ملحق وغير ذلك ـ وبعد ذلك.

هرب ...

من ٥٤٣ ـ ٥٦٢

معركة العلمين الألمانية ـ الحالة فى القاهرة ـ الخوف ووصف حالة الإنكليز ـ فرارى من القاهرة ـ الحيرة والمفارقات ـ ذكرى أيام المنصورة ـ الآمال والترقب ـ غلطة الألمان والهزيمة النكراء ـ اهتزاز وزارة النحاس باشا ثم ثباتها ـ عاطفة طيبة للنحاس باشا ـ هرب الأستاذ أحمد حسين من الحبس وزيارته لى ـ حبس عزيز باشا المصرى بعد إطلاقه ـ زائر من الضباط ـ فون بابن سفير ألمانيا ـ جمعية إخوان الحرية ! ـ زيارة الأمير شكيب الأخيرة لمصر ـ

جامعة الدول العربية

من ٥٦٣ ـ ٥٩٦

قيام الجامعة ومولدها ـ الدكتور محمد صلاح الدين بك ـ المندوب السعودى والمندوب

اليماني ـ موسى العلمي ـ اليمن والمملكة السعودية ـ فلسطين وجامعة الدول العربية ـ خلافات بفلسطين ـ برتوكول الإسكندرية ـ إقالة وزارة النحاس باشا والوزارات العربية ـ اجتماعي بالنحاس باشا ـ كيف سقطت وزارته ؟ ـ الوزارة الجديدة وهربي من القاهرة ـ الميثاق بدل البرتوكول ـ عفيفي باشا وأحمد ماهر باشا ـ من أسباب محبتي للنحاس ـ الرجوع إلى موضوع البرتوكول ـ الميثاق والخواجات وعزام باشا ـ السيدة هدى شعراوي ـ حكومات الأقليات ـ استطراد عن عزام باشا ـ أصدقاء تغيروا ـ الصداقات العالية ـ السيد عبد الله الجفري ـ سوء الحظ ـ أخبار الحرب وانكسار ألمانيا ـ .

رياض بك الصلح

من ٥٩٧ ـ ٦٤٠

استقلال سورية ولبنان ـ أخي رياض ـ برنيطة وزير خارجية عربي ـ مواكب رياض في مصر وعجائز بوشنج ـ انتظار . تحسين العسكري وعزيز المصري ـ قصيدة الأمير عادل ـ رياض يصفني بقلمه ـ مقتطفات من رسائل رياض ـ رياض يودعني في بيروت ـ رياض يقع في السياج ـ رياض يطلب الحفلات لنفسه بنفسه ـ سيف الإسلام بدلاً من رياض ـ رياض يتغير مع الجميع ـ رياض يجود بوصل ـ رياض وهو حاكم والمرحوم عبد الحميد كرامة ـ مصرع أنطون سعادة ـ نهاية رياض الصلح

حسن الجزاء

من ٦٤١ ـ ٦٥٦

أيام هناء والاحتفال بالكونتيننتال ـ خطاب الأستاذ أحمد حسين ـ وتصاوير الحفلة ـ خطاب الدكتور محمد صلاح الدين بك ـ أسماء كثيرة .

شكري القوتلي بك

من ٦٥٧ ـ ٦٩٤

تاريخ قديم ـ جهاد في القاهرة ـ أول كتاب من شكري بك ـ وكتاب آخر ـ لا مساعدة ولا زيارة ـ إحسان الجابري وخذلان فرعي ـ بكري مصطفى ـ شكري بك يتذكرني ـ لبيك ... ـ رئيس لا يرد على صديقه ـ في القاهرة ـ الدكتور أمين رويحة ـ خذلوه بدمشق ـ ملحوظة عابرة ـ كلمة أخيرة وحالة محزنة ـ الصالحاني ـ الساعي من أجل الأمير شكيب ـ ماذا قال الأمير ـ كتاب مني للرئيس ـ نور ونار ـ استطراد عن متاعب شكيب ـ جريدة

الشورى ـ أسرة الأمير شكيب ـ جميل مردم بك ـ الحجز على منزل الأمير بسويسرا ـ القبض على شكرى بك ـ شكرى بك فى القاهرة ـ زيارتى له بالاسكندرية ـ أحمدزكى باشا ـ كنا مشغولين ! القصة الأفغانية ـ آخر رسالة من شكرى بك ـ مروره بى بدار الشورى .

الاعتقال الثالث

من ٦٩٥ ـ ٧٠٦

معتقل هاكستب ـ حبس بلا سبب ـ حسين سرى باشا ـ ظهور سبب ثالث للحبس ـ نكبة فلسطين ـ نتيجة الاعتقال الثالث ـ عودة إلى مسألة جنسيتى ـ شعر وأدب ـ قصيدتى الشيخ فؤاد شاكر وخليل بك المطران ـ صدى كتاب ـ المحاكم تؤيد براءة الإخوان المسلمين

الدكتور أمين رويحة

من ٧٠٧ ـ ٧١٦

قضية تاريخية ـ مقال عن سورية والانقلابات فيها ـ رحلة وحادث وفكرة ـ استغاثة واستجابة ـ طلبت تدخل الجامعة ولكن .... وتصاوير هزلية !

رحلة إلى دمشق

من ٧١٧ ـ ٧٣٦

تعال معى للشام ـ ذكريات عن الطيران ـ ركوب الطائرة لأول مرة ـ شدوا الحيازيم ـ رؤية معتقل هاكستب من فوق ! ـ قنال السويس ـ الخلاص من انجلترا ـ مدينة بورسعيد ـ السبب الحقيق ـ أين فلسطين؟ حافظ ابراهيم ـ لبنان ـ أخبار وذكريات ـ طعم الموت ـ هنا دمشق...

دمشق

من ٧٣٧ ـ ٧٩٢

حادث ـ دار فيصل ـ عونى عبد الهادى ـ رياسة الوزراء ـ تحريات وذكريات وساحة الشهداء ـ براغيث فندق ! ـ رئيس الوزراء ناظم بك القدسى ـ فخامة الرئيس الأتاسى ـ مجلس الشيوخ ـ المفوضية المصرية ـ دمشق اليوم ـ إشعار بالتلفون ـ الأستاذ عبد القادر المغربى ـ مجلس الرئيس الخاص ـ فارس الخورى بك ـ سهرة الليل ـ فى سجن المزة عند أمين رويحة ـ العقيد الشيشكلى ـ العقيد وأمين رويحة ـ مناقشة مع العقيد عن أمين ـ محكمة جمال باشا ومحكمة رياض الصلح ـ العقيد متيقظ ـ أنا والشيشكلى عند حسين توفيق ـ

العقيد مشغول ـ على مائدة العقيد ـ مآدب وحفلات ـ شيء عن عهد القوتلي بك ـ تيه بك العظمة ـ الأمير عادل أرسلان وكتاب منه ـ زيارة لجبل الدروز ـ عند سلطان باشا الأطرش ـ وتصاوير الوداع ـ في السويداء رجال ـ غوطة دمشق ـ المشردون الفلسطينيون ـ صلاح الدين الأيوبي والملك الظاهر ـ وداع الشام ـ توديع فخامة رئيس الجمهورية ـ فخرى بك البارودى ـ نشرة وحادث بمطار دمشق ـ أمين رويحة في المحكمة ـ عباس الخرسان .

حالة الجامعة العربية

من ٧٩٣ ـ ٨٣٠

الجامعة وهل أفادت العرب؟ ـ الهلع من الإنجليز ـ موكب الأمين العام والحاكم العام ـ كيفية التجديد لعزام ـ الرواية التمثيلية ـ حرروا فلسطين من العرب ـ وسائل عزام للبقاء في الجامعة براعة وحيل ومناورات ـ كتاب عزام لنورى السعيد ورده عليه ـ كتاب منى لعزام ورده عليه ـ استطراد وصيحة القاوقجي ـ أصل الصيبة ـ خناقة الجمالى بك وعزام باشا ـ أسعد داغر وعزام ـ انفلات لسان الأمين العام ـ رسوم تصور حالة الجامعة ـ من تصرفات عزام باشا ـ نائب عراق ومجلة روز اليوسف والأستاذ التابعي يصفون عزام باشا والجامعة .

مصرع فلسطين

٨٣١ ـ ٨٤٨

اعترفوا باليهود ـ هدنة من جانب واحد ـ اليهود يؤدبون الدول العربية ـ الهدنة وبعد التأديب ـ الشيء بالشيء يذكر ـ الاستيعاب والرجوع إلى الهدنة ـ الألقاب أضاعت فلسطين ـ الفلسطينيون مسؤلون ـ الانذار الأول ـ نعى أول بلدة عربية .

تعليق وتطبيق . . .

من ٨٤٩ ـ ٨٧٥

إعادة النظر للذكرى ـ فرنسا وانجلترا وأمريكا ـ بعد انكسار ألمانيا ـ شماتة سافرة ـ استطراد عن الماضي ـ الضرب والتعذيب ـ يكافئون محمد يوسف ـ الشاهد الثاني ومقارنة ـ هل تخلصنا ؟ ـ الملاحقة ـ بين الأمس واليوم ـ تحليل مختصر ـ مجلس الدولة ـ مثال ذلك ـ الختام ـ الريش المنتوف ومفاخرة ـ تصاويرى ـ سلطان لحج ـ الأمير سيف الإسلام البدر ـ الأمير سعود ـ الأمير على عبدالكريم ـ نجاة الأمير عبدالكريم الخطابي ـ برقية وبعدها ـ الأمير الخطابي في عدن ـ الأمير في دار الشورى ـ هذا الكتاب ـ الفهارس .

فهرس الأسماء

التي وردت أكثر من مرة

« ا »

جلالة الملك فاروق المعظم : ١٩٥ ، ١٩٧، ٢١٠ ، ٤٠٩، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٥٠٥، ٨٦٣،
أحمد حلمي باشا : ١٢ ، ٢٩ ، ٦٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ، ١٨٢ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ،
٤٧١ ، ٤٨٦ ، ٥٦٢ ، ٥٩٢ ، ٦٣٥ ، ٦٥١ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ٦٨٣ ، ٨٣٣ ، ٨٣٧ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠،
الأستاذ أحمد حسين : ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ١٠١ ، ١٤٨،
١٨٢ ، ٢٠٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ، ٣٦١ ، ٣٨٦ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥
٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥١ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٦٠ . أحمد ماهر باشا : ١٩ ، ٣٥ ، ٤٦ ،
٤٩ ، ٤٣٣ ، ٥٧٥ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ . أحمد محمد نعمان : ٣٦ ، ٣٨ ، ٥٩ ، ١٤٦ ، ١٧٨ ،
١٨٨ ، ٦٥٥ و٨٧٣ السيد أحمد الشريف السنوسي : ٣٥، ٢٠٠، ٢٠٨ . أحمد شفيق باشا: ٥٤،
٤٨٦ ، ٥٣١ . أحمد حافظ عوض بك : ٢٢٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٢١ ، ٤٤٧ ، ٤٦٣ ،
٤٧٥ ، ٤٧٧ . الدكتور أحمد سوكرنو : ١٦٢ ، ٤٨٦ . أحمد الشرباتي : ٧٤ ، ٦٦٨ ،
٧١٣ ، ٧١٥ . أحمد رمزي بك : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٥٤٠ . أحمد زكي باشا :٤٨٦ ، ٦٠٥ ،
٦٨٩ . أحمد شوقي بك ٤٨٦ ، ٦٤٦ ، ٦٥٣ ، ٧٣٥ . أحمد حسن الزيات : ٣٣٩، ٥٠٣،
٥٤٨ . الدكتور أحمد العجاتي بك : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٣٤ ، ٥٣٢.
أحمد جودة : ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٨١ ، ٤٢٧ ، ٥٣٤ ، ٦٤٥ .. أحمد الإمام : ٥٢٧ ،
٦١٧ ، ٦٥٥ . أحمد حسن بدر: ٣٣١، ٣٣٣ ، ٣٣٦، ٣٣٨ ، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٥،
٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٤،
٣٩٧ ، ٣٩٩، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٥ ، ٤٨٥ ، ٥٢٦، ٥٣٤ ،
٥٤٩ ، ٦٤٥ . إبراهيم الدرس : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٦ . أبو الخير نجيب : ٥١٨ ، ٥٢٠ ،
٥٣٣ ، ٦٥٥ ، ٧٠٠ ، ٨٧٤ . إبراهيم عبد الهادي : ٤٦٠ ، ٦٣٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧، ٦٩٨ ،
٧٠٠ ، ٧٠٤، ٧٠٥ ، ٧٥٣، ٧٦١ ، ٨٣٧ ، ٨٦١ . الشيخ إبراهيم مجاهد : ٣٢٨، ٣٣٢ ،

٤٢٦ ، ٥٣٤ ، ٦٤٥ . الدكتور إبراهيم عز الدين : ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٥١٣ . إبراهيم إطفيش : ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٣١٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ ، ٥٤٦ ، ٦٤٥ . الحاج أديب خير : ٧٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ٦٦٨ ، ٦٨٩ . إحسان الجابرى: ٦٥٩ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٧١ ، ٦٨٠ ، ٦٨٩ . أديب الشيشكلى : ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧٤٤ ، ٧٥٢ ، ٧٥٥ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٦٢ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٨ ، ٧٧٠ ، ٧٩٠ ، ٧٩٢ ٨٣٨ . أسعد داغر : ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٨٩ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ . الدكتور إسماعيل مرتضى بك: ١٩٧ ، ٢٠١ السيد أبو الوفا الشرقاوى : ٩٤ ، ٣٧٤ . الأستاذ أكرم زعيتر : ١٠٢ ، ١٣١ ، ١٨٧ ، ٥٦٩ ، ٦٥٥ ، ٦٨٠ ، ٦٨٢ . الميرزا مهدى رفيع مشكى بك ٣٠٢ ، ٣٦٦ ، ٤٨٦ ، ٦٠٥ ، ٦٤٥ . الدكتور الطيب ناصر : ١٣٢ ، ٧١٤ . السيد الفضيل الورتلانى : ٢١٠ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٥٣ . الياس أنطون الياس . ٦٠ ، ١٣٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ . الملك ابن سعود : ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ . الملك العادل : ٦٧٨ ، ٦٧٩ . الحبيب بورقيبة : ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٥٢ ، ٨١٣ ، ٨٦٨ . ألبير عمون : ٥٠٤ : ٦٥٥ . إميل الغورى : ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٥٠٢ .

الدكتور أمين رويحة ٤١ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٧٣ ، ٣٩١ ، ٤٠٩ ، ٤٣٠ ، ٤٦٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٦٥٩ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧٢٠ ، ٧٤٠ ، ٧٤٢ ، ٧٤٤ ، ٧٤٧ ، ٧٤٩ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٨٣ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ الحاج أمين الحسينى ٦٩ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٤٨٦ ، ٦٠٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٤ ، ٦٥٩ ، ٦٨٩ أمين عثمان باشا ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥١٥ ، ٥١٦ أمين بك التميمى ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٦٤٦ الأستاذ أميل خورى ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١١ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٣٥

أنطون باشا الجميل ٥١ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ٣٤٨ ، ٤٩٦ ، ٥٠٣ ، ٥٣٢ ، ٦٥٥

أنطون سعادة ٦٣٩ ، ٧٦١

« ب »

الشيخ بشارة الخورى : ٥٦٦ ، ٥٩٨ ، ٦٣٤ ، ٦٨١ بديع بك المؤيد : ٧٥٠ ، ٧٨٣

«ت»

تحسين بك العسكرى : ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ١٠٢ ، ١٣٨ ، ١٨٨ ، ٣٠٥ ، ٤٨٦ ، ٦٠٣ ، ٦٣٥ ، ٦٥٥ توفيق مفرج : ٦٠١ ، ٦٠٦ ، ٦٢٧

«ج»

جميل مردم بك : ٨٦ ، ٦١٧ ، ٦٥٢ ، ٦٧٢ ، ٦٨٣ ، ٧٩٨ ، ٨١٥ جورج بك أنطونيوس : ١٥٤ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ٣٤٧ جميل بك الجابى : ٧٤٠ ، ٧٨٣

«ح»

الدكتور حافظ عفيفى باشا : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٧٣ ، ٢٠٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٦٣ ، ٥١٤ ، ٥٢٤ ، ٥٧٥ حافظ بك إبراهيم : ٦٤٦ ، ٦٥٣ ، ٧٢٩ حسان بن ثابت وحسان فلسطين : ١٧٨ ، ٧٣٤ ، ٧٤١

الدكتور حسنى الطاهر : ١٥٤ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٥٩٣ ، ٦١٢ ، ٦١٥ حسنى الزعيم : ٦٨٨ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٢ ، ٧٧٣ حسن صبرى باشا : ١٩ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٦١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ حسن فهمى رفعت باشا : ٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٨٦٢ الشيخ حسن البنا : ٦٥٥ ، ٧٦١ حسين توفيق : ٧٦٣ ، ٧٩٢ حسين سرى باشا ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٤٧ ، ٤٣٣ ، ٤٤١ ، ٥١٥ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ حسين محمود سعيد : ١٦٠ ، ١٨٦ حسين الكبسى : ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٦٤٣ حسين العوينى : ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ حق العظم : ٧٠ ، ٦٨٦

حمدى محبوب باشا : ١٥ ، ١٨ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٨٤ ، ٤٠٣ ، ٤٣٧ ، ٤٧٣ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥١٥ ، ٥٩٤ .

«خ»

خليل مطران بك : ١٧٠ ، ٤٨٦ ، ٦٠٣ ، ٦٢٥ ، ٦٥٥ ، ٧٠٣ .

خير الدين الزركلى : ٩٩ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٨٣ .

« ر »

رياض بك الصلح: ٤٨٦ ، ٥٩٨ ومن ٥٩٩ ، إلى ٦٤٠ ، ٦٥٩، ٦٦٦ ، ٦٧١ ، ٦٨١ ، ٦٨٣ ، ٦٩٤، ٧٦٥، ٨١١ رشيد بك الحاج ابراهيم ٦٣ ، ١٠٢ ، ٤٤٤، ٤٦٧ ، ٥٣٢، ٥٤١. رشيد عالى بك الكيلانى : ٧٥ ، ٣٢٦ ، ٤١٥ . رشيد بك طليع ، ٦٠٥ ، ٦٥٨ . الدكتور رشيد كرم : ١٩٤ ، ٣٥٣ ، ٥٢٣ ، ٦٤٦ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ .

« ز »

زكى سعد بك ٥٣١ ، ٨٠٢ .

« س »

سامى الحناوى : ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١١ . سامى باشا مردم بك : ٧٥٠ ، ٧٨٣ . سالم الحسينى: ٧٣٥ ، ٧٣٨ ، ٧٥٣ . سليم زكى باشا : ١٩٤ ، ٣٥٧ . الحاج سليم قوبدر ٢٧٩ ، ٤٧٢ . سعد الدين عسكر : ٣٥٠، ٣٦٨ . سعيد ثابت بك ١٦١، ٢٥٣ . سيد باشا خشبة: ٣٧٠، ٣٧١ سمو الأمير سيف الإسلام البدر: ٦٩٤ ، ٨٥٠، ٨٦٩ . سيد ابراهيم الخطاط: ٥٩٠، ٦٥٦ سمو الأمير سيف الإسلام عبد الله : ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٧٨ ، ٦٩٤. سلطان باشا الأطرش: ٦٥٩، ٧٦٣، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨ . سمو الأمير سعود بن عبد العزيز ٨٧٠

« ش »

الأمير شكيب أرسلان: ١١ ، ٥٠ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٩، ١٧٩ ، ٣٤٧ ، ٤٨٦ ، ٥٦٢ ، ٦٠١ ، ٦١٠ ، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٥٩ ، ٦٧١ ، ٦٧٧ . ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٧٨ . شكرى بك القوتلى : ٣٠٩ ، ٤٨٦ ، ٥٤١، ٦٠٥ ، ٦١٤ ، ٦٢١ ، ٦٢٤، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧١، ٦٧٣، ٦٧٧ ، ٦٧٩، ٦٨١ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩، ٦٩٠ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٧٠٨ ، ٨٧٠، ٧٧٢ . شوكت التونى ١٤٨ ، ٤٠٣ ، شكرى الكرداوى : ٣٠٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

« ص »

السيد صادق المجددى ٦٤٣، ٦٤٤ ، ٦٩١، ٨٦٩ ، الدكتور صبحى بك أبو غنيمة ، ٧٤٢،

٧٦٨ ، ٧٨٣ ، صبحى بك الخضراء ٦٥٥ ، ٧٢٠ ، ٧٣٥ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٦٨ ٧٨٣ ، ٧٨٦ ، صبرى بك العسلى ٦٥٩ ، ٦٧١ ، ٧٦٨ ، ٧٧٨ ، ٧٨٣ ، ٧٨٦ ، الشيخ صبرى عابدين ٥١ ، ٥٩ ، ١٤٩ ، ٢٥٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ .

« ط »

طه باشا الهاشمى : ١٣١ ، ١٥٠ ، ١٦١ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٢ .

« ع »

الأمير عادل أرسلان: ٤٨٦ ، ٦٠٤ ، ٦٥٨ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤

عادل بك زعيتر : ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٣٥٧ ، ٤٦١ ، ٦٥٥

عبده حسين الأدهل ٨٧١ و٨٧٣ عبدالله الجفرى ٥٣١ ، ٥٩٣ ، ٦٠٢ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ؛ ٦٤٤ ؛ ٦٤٥ ، ٧٠٣ عبد الله نديم ٤٤٩ ؛ ٤٥٠ ؛ ٤٥١ ؛ ٤٥٢ ؛ ٤٥٣ ؛ ٤٥٥ ؛ ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، الدكتور عبد الله اليافى ٥٩٩ ؛ ٦١٧ ؛ عبد الله حسين ٤٩٣ المهندس عباس جمجوم ٣٣٧ ؛ ٣٦٦ ؛ ٥٣٦ ، ٥٣٧ الشيخ عبد المجيد اللبان ٤٣٨ ، ٥٣٠ . عبد المجيد سالم : ٣٣٣ ، ٥٣٤ السيد عبد الحميد كرامة ٢٩٤ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، الدكتور عبد الحميد بك سعيد ٩٦ ، ٣٧٤ ، ٤٨٦ عبد الحميد باشا عبد الحق ٩٣ ، ٣٧٣ ، ٤٠٣ ، ٤٧٣ ، عبد العزيز الثعالبى : ٤٦ ، ٦٠٥ عبد الحليم العمراوى ٥٢ ، ٤٩٣ ، عبد الحليم أبو سيف راضى بك : ١٦١ ، ٤٣٨ ؛ الشيخ عبد القادر المغربى ٤٧٦ ، ٦٥٦ ؛ ٧٤٢ ؛ ٧٤٥ ؛ ٧٤٦ ؛ ٧٤٩ ؛ ٧٥٠ ؛ ٧٥١ ؛ ٧٦٨ ؛ ٧٨٣ ؛ عبدالستار بك الباسل : ٥١ ؛ ١٤٣ ؛ ١٨٤ ، ١٨٨ ؛ ٤٤٥ ؛ ٤٨٦ ؛ ٥٣٢ ؛ عبد الرحمن بك الرافعى ٥١ ؛ ٣٧٤ ؛ ٥٦٢ ؛ ٦٤٤ ؛ الأستاذ على محمد المصرى: ١٥٠ ؛ ٢٥٢ ؛ ٢٧١ عبدالمنعم خلاف ٨٢٠ ؛ ٨٢١ ؛ عبدالرحمن عزام باشا ٣٠٩ إلى ٤٨٦ ؛ ومن ٥٨١ ، إلى ٨٢٧ عبد الله نديم من ٤٤٩ إلى ٤٥٤ . عزيز على المصرى باشا ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٣٠٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٨١ ، ٤١٠ ، ٤٣٠ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٥٢٥ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٨١ ، ٦٠٣ ، ٦٧٦ ، ٨٠١ ، ٨١٦ ، ٨٧٠ ، ٨٧٣ .

عز الدين باشا الحلبى ، ٦٥٩ – ٧٨٠ – عونى بك عبد الهادى ، ٥١ – ١٠٢ – ٧٣٩ – ٧٦٨

الأمير عبد الكريم الخطابي : ٨٦٩ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ . السيد على المؤيد : ٥٧٧ ، ٦٤٣ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ . على ماهر باشا : ١٣ ، ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٩٤ ، ١٣٥ ، ١٦٨ ، ٤٠١ ، ٥٨١ .

الشيخ على سرور الزنكلونى : ٢٦ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٢٢٤ ، ٤٨٦ ، ٥٣٠ ، ٦٠٥ .

الأستاذ على أحمد باكثير : ١٤٤ ، ٢٩٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤١٩ ، ٤٣٣ ، ٤٥٥ ، ٤٨٢ ، ٥٣٨ ، ٥٤٨ ، ٦٤٦ . الأمير على عبد الكريم : ٨٧٠ . الأستاذ عياد أبو الخير : ١٤٨ ، ١٨٤ ، ٦٤٥ .

« ف »

الملك فيصل بن الحسين : ١٤٠ ، ٧٣٨ ، ٧٤٥ . السيد فوزى القاووقجى : ٨٢١ ، ٨٢٥ .

الأمير فيصل آل سعود : ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٦ . الدكتور فاضل الجمالى بك : ٨٢٤ ، ٨٢٥ .

فؤاد سراج الدين باشا : ٦٧٥ ، ٧٠٥ . فؤاد بك حمزه : ١٤٩ ، ٤٨٦ ، ٥٦٧ ، ٧٣١ .

الأستاذ فؤاد يزدى : ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٨٦ . السلطان فضل عبد الكريم : ٨٦٨ .

فخرى بك البارودى : ٧٦٨ ، ٧٨٠ ، ٧٨٣ ، ٧٨٦ . الشهيد فرحان السعدى : ١٤٢ ، ١٤٣ .

فارس الخورى بك : ٥٤٠ ، ٧٥١ ، فوزان السابق ١٣٥ ، ١٨٣ .

« ك »

الشيخ كامل القصاب : ٤٨٦ ، ٦٢٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٧٩ ، ٦٨٩ ، ٧٤٢ ، ٧٤٧ ، ٧٨٣ . كامل بك عبد الرحيم : ٨٠٢ ، ٨١٥ . كمال الدين صلاح بك : ٧٤٧ ، ٧٦٢ .

الأستاذ كامل الكيلانى : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٧١ ، ٤٨٦ ، ٦٤٥ ، ٨٦٨ ، ٨٧٠ ، ٨٧٣ .

كاظم بك الصلح : ٦٠٧ ، ٦١٧ ، ٦٢١ .

« ل »

لطفى بك الحفار : ٧٨٣ ، ٧٨٦ .

« م »

محمد تيسير الحلبى : ١٤ ، ٥٥٢ . السيد محمد العتابى : ٢٣٤ ، ٢٧٧ ، ٦٤٥ .

اليوزباشى محمد يوسف « الميرالاى » : ٢٦ ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ١٠٢ ، ١٤٧ ، ١٩٤ ، ٢٣١ .

٢٥٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٥١٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٦٧٤ ، ٨٥٧ إلى النهاية .
محمد حسين هيكل باشا : ٥١ ، ٥٤ ، ٢٠٦ . محمد الأخضر العيساوى : ٣٦ ، ٣٨ .
السيد محمد إدريس السنوسى « الملك » : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ١٨٨ ، ٥٦٢ .
محمد صالح حرب باشا: ٥٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٢ ، ٤٨٦ ، ٥٨١ ، ٦٥٥ ، ٨٠١
٨١٦ . محمد محمود بك جلال : ٣٧٤ ، ٥٣٢ . محمد سعيد العريان بك : ٣٩٧ ، ٦٨٥ .
الشيخ محمد عبد اللطيف دراز : ٤٠١ ، ٤٨٦ . محمد طاهر الخشاب بك : ٤٦١ ، ٧٨٩ .
السيد محمد رشيد رضا ٤٨٦ ، ٥٣٢ ، ٦٥٩ . الأستاذ محمد التابعى : ٤٩٦ ، ٨٠٩ ، ٨٢٧
محمد عزت دروزه بك ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٥٦٩ .
الشاعر محمد عبد الغنى حسن ٣٣٩ ، ٦٤٦ . محمد حلمى شعير : ٢١٥ ، ٤٩٣ ، ٥٠٢ .
الدكتور محمد صلاح الدين بك : ٣٠٥ ، ٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٦ ، ٥١٣ ، ٥٢٤ ، ٥٣٢
٥٥٣ ، ٥٧٣ ، ٥٧٨ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٣ ، ٧٩٥ ، ٨٠٧ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٥
محمد على علوبة باشا ٦٩ ، ٦٥٥ . محمد البابى الحلبى : ١٣٤ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ .
محمد شرارة باشا : ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٨٨ . محمد عبد الرحمن بك نصير : ١٦١ ، ٤٠١ ، ٤٣٨
السيد محمد رشيدى ١٦٢ ، ٨٥٠ . محمود تيمور بك : ٥٢٢ ، ٦٤٥ ، ٨٦٠ ، ٨٧٣ .
الدكتور محمود عزمى ٥٠ ، ١٧٦ ، ٣٠٣ ، ٤١٥ ، ٤٨٦ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٦٧٤ .
محمود بك لطيف : ٥١ ، ١٠٢ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ٣٣٥ ، ٦٤٥ .
محمود فهمى النقراشى باشا ١٩ ، ٣٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٤٠٣ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٦٥
٤٦٩ ، ٥٧٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٨١٥ ، ٨٣٧ . محمد معبد الحلاق ٤٥٢ ، ٤٥٣ .
محمود تيمور بك : ٥٣٢ ، ٦٤٥ . الأستاذ محمود أبو الفتح : ١٧٣ ، ٣٨١ ، ٤٩٧ ، ٥٠٤ .
الدكتور مصطفى بك بشناق : ٣٩ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٩ ، ١٢٥ ، ١٤٩ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٩
٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠
٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٦ ، ٣٧٧ ، ٣٩٤ ، ٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٤٨٠ ، ٥٠٣ ، ٥٢٣
٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ ، ٥٤٦ ، ٥٦٨ ، ٥٩٢ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٥٥ ، ٨٥٩ ، ٨٧٣ .
مصطفى النحاس باشا : ٩٤ ، ١٧٠ ، ٣٠٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،
٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٤٨٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦

٥٢٢ ؛ ٥٢٣ ؛ ٥٢٤ ، ٥٣١ ، ٥٤٥ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٨١ ، ٦٣٤ ، ٦٧٥ ، ٧٩٥ ، ٨٠٠ ، ٨٠٧ ، ٨١٦ .
مصطفى الطاهر : ١٠٢ ، ١٥٠ ، ٢٥٢ ، ٦٥٥ منير الريس : ٧٤ ، ٦٦٨ الشيخ مصطفى حسنى السباعى : ٢١٠ ، ٣١٠ ، ٧٦٨ مختار الدرس : ٢٤٨ ، ٢٤٩ مكرم عبيد باشا: ١٧٢، ٤١٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٥١٤ ، ٦١٨ مصطفى باشا عبدالرازق : ٣٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٠٥ ، ١٧٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤٨٦ ، ٦٠٥ محي الدين السنوسى : ٣٥ ، ٢٠٨ مزاحم الباجه‌جى بك ٦٣٥ ، ٧١٣ موسى العلمى : ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ مشهور الضامن بركات : ٢١١ ، ٣١٠

« ن »

نبيه بك العظمة : ٧٤ ، ١٠٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ٤٨٦ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٩ ، ٧٧١ نورى باشا السعيد : ٥١ ، ٧٢، ٧٩، ٨٠، ٥٦٦ ، ٨١١ ، ٨١٣ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٤ الدكتور ناظم القدسى بك : ٧١٥، ٧٤٠ ، ٧٤٣ ، ٨٠٩ ، ٨١١ نسيم صيبعة : ١٣٠، ١٣١ نجيب بك الراوى : ٦١٣، ٨١٧ ، نجيب الأرمنازى : ٦٥٩ ، ٦٧٣ الأستاذ نجيب الريس : ٦٠ ، ٧٤ ، ٦٦٨ ، ٧٦٨ الأستاذ نجيب حرب: ٧٦٨، ٧٧٥، ٧٧٨، ٧٨٠ نسيب بك شهاب: ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٤٢٠ ، ٤٦١ ، ٦١٠ ، ٦١١، ٦٤٥ ، ، ٦٥٩ ، ٦٧١

« هـ »

فخامة هاشم الأتاسى : ٧٠٨ ، ٧١٤ ، ٧٤٤ السيدة هدى هانم شعراوى : ٥٨٢ ، ٦٤٥

« ى »

الدكتور يعقوب خورى : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٤٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٤١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٤٤٤ ، ٥٠٣ ، ٥٣٢ ، ٦٥٥ يعقوب الغصين : ١٤٩ ، ٤٦٧ ، ٤٧١ ، يوسف ياسين : ٩٩ ، ١٣٩ ، ٥٦٧ ، ٥٥٠ ، ٨١١ الشيخ يوسف الشهدى: ١٥٦ ، ٢١٠ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٥٩ ، ٦٤٥ الوزير يونس السبعاوى ورفائيل بطى : ١٨٥ ، ١٨٦ الأستاذ يونس بحرى : ٢٠٧ ، ٤١٥ ، ٨٠٩ الملك يحيى حميد الدين: ٥٦٦ ، ٥٦٩ ، ٦٨٠ ، ٨٥٠

فهرست الصور

« ١٤٨ صورة »

صفحة

٥ ـ ٧ صورتى قبل الحبس سنة ١٩٤٠ وصورة بأثناء الحرب سنة ١٩٤١، ١٩٤٢

٢٦ ـ ٣٣ المرحوم الزنكلونى ـ صورتى بدار الشورى قبل الحبس ـ تحسين العسكرى وسجن الأجانب .

٤٣ ـ ٥٤ فظائع الإنجليز ـ الدكتور مصطفى بك البشناق ـ المرحوم أحمد شفيق باشا

٦٤ الأمير شكيب أرسلان وأحمد حلمى باشا ورشيد بك الحاج إبراهيم بقصر عابدين .

٧٩ أمين رويحة عند حبسه ١٩٤٠ وكيف أصبح بسجون الإنكليز ١٩٤٦ .

٩٧ ـ ١٢٨ ـ ١٦٢ محمد صالح باشا حرب ـ فظائع الإنجليز بفلسطين ـ الوفد الأندونيسى .

١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ١٧٦ الدكتور حسنى الطاهر ـ الأمير فيصل ـ جورج أنطونيوس .

١٨٢ ـ ١٩١ أحمد حلمى باشا ـ قائد بريطانى يهدد الفلسطينيين .

١٩٢ ـ ٢١٤ ـ ٢١٩ أصدقاء لهم علاقة بالكتاب ـ عريضة الأقطار الإسلامية ومنظر بملابس الحرب .

٢٢١ ـ ٢٢٢ منظر لمستشفى الدمرداش ومنظر آخر بملابس الحرب .

٢٢٨ ـ ٢٣٦ منزل الشيخ يوسف المشهدى ـ الشيخ إبراهيم إطفيش .

٢٣٩ ـ ٢٤١ ـ ٢٤٤ سيارة ريفية ـ الدكتور خورى ودار الضيافة ومنزل نسيب بكفر الوسطانى .

٢٤٦ ـ ٢٤٧ نسيب شهاب بملابس الجهاد وصورة عادية لنسيب .

٢٥٠ ـ ٢٦٠ صورة عادية لى ـ أصدقاء لهم علاقة بهذا الكتاب .

٢٦٢ ـ ٢٨٤ ـ ٢٨٨ قهوة بلميرا ، معتقل الزيتون ، لقاء بين زوجين .

٢٩٦ ـ ٢٩٩ صورة تنكرية ، وثانية بثياب أخرى .

٣٠٤ ـ ٣١٠ رسالة من الدكتور محمود عزمى ـ الشيخ صبرى عابدين .

٣٢٢ ـ ٣٢٣ صورة بثياب التنكر ـ وبطاقة أيام الحرب .

صفحة

٣٢٥ ـ ٣٣١ ـ ٣٣٦ عزيز باشا المصرى ـ أحمد حسن بدر ـ ورقة مبايعة الراديو .

٣٤٠ ـ ٣٤١ ـ ٣٤٢ ـ ٣٤٣ محبس لويس التاسع ـ صورة تنكرية ـ كوبرى المنصورة ومناظر

٣٤٥ ـ ٣٥٠ ـ ٣٥٥ الدكتور عفيفي باشا ـ السيد أحمد جودة ـ منزل الدكتور خورى

٣٥٦ ـ ٣٦٥ ـ ٣٦٧ ـ ٣٧٥ ـ ٣٧٦ ـ كنيسة حلوان وثلاث صور أخرى بلباس التنكر

٣٧٨ ـ ٣٧٩ ـ ٣٩٩ الدكتور مصطفى البشناق والدكتور خورى وصورتان بثياب التنكر

٤٠٠ ـ ٤٤٥ ـ ٤٤٦ ـ ٤٤٧ عريضة طلب السفر للحج وتلغراف للدكتور خورى وصورتان بثياب التنكر

٤٦١ ـ ٤٦٢ صورة مع الزملاء بمعتقل ها كستب ورسم زنكغرافى لصفحة جريدة

٤٦٤ ـ ٤٦٥ ـ ٤٦٦ فى دار النحاس باشا ـ مائدة مكرم باشا ـ الاعتداء على النحاس

٤٦٧ ـ ٤٦٨ ـ ٤٦٩ زعماء فلسطين بسيشل والوفد المصرى وأمراء الحج

٤٧٠ ـ ٤٧١ استقبال الوفد الفلسطينى بمصر وضيافة النحاس باشا

٤٧٢ ـ ٤٧٥ صورة رخصة الراديو وصورة خطاب بشباك بريد طلخا .

٤٧٦ ـ ٤٨٤ ـ ٤٨٥ مع مكرم باشا وأخرى بثياب الاختفاء والسيارة لرئاسة الوزراء

٤٨٧ ـ ٤٨٨ ـ ٤٨٩ صورتى بالملابس العربية التى ذهبت بها إلى دار الرئاسة .

٤٩١ ـ ٤٩٤ الدكتور ابراهيم عز الدين بك ـ المرحوم أمين عثمان باشا .

٤٩٦ ـ ٥٠٤ المرحوم أنطون باشا الجميل ـ فندق الكونتننتال .

٥٠٥ ـ ٥٠٦ بعد القهوة بسراى عابدين ـ برقية تهنئة .

٥٠٧ ـ ٥٠٨ ـ ٥٠٩ ـ ٥٢٥ أقوال الصحف وصورتى باللحية والبدلة .

٥٢٥ ـ ٥٣٢ رجعت للملابس الأفرنجية ـ مأدبة محمد محمود بك جلال .

٥٣٤ ـ ٥٣٧ الشيخ إبراهيم مجاهد ـ رجوعى للحالة الطبيعية .

٥٤٨ ـ ٥٦٢ الأستاذ على أحمد باكثير بالمنصورة وزيارة الأمير شكيب لمصر .

٥٦٧ ـ ٥٧٦ فؤاد بك حمزة ـ النحاس باشا وهو يعانقنى .

صفحة

٥٧٧ ـ ٥٧٨ مع النحاس باشا بقصر الزعفران وصلاح الدين بك ووقفة مع النحاس وأحمد حلمي باشا .

٥٧٩ ـ ٥٩٣ في دار النحاس باشا ـ السيد عبد الله الجفري .

٦١٦ ـ ٦١٧ رياض الصلح يودعني ببيروت ـ إحدى حفلات لبنان .

٦١٩ ـ ٦٢٣ رياض في السياج ـ وبطاقة الأمير شكيب .

٦٣٠ ـ ٦٤٠ رياض الصلح بعد السياج ـ وصورته بعد ذلك .

٦٤٣ ـ ٦٤٤ ـ ٤٤٩ حفلة الكونتنتال والأمير سيف الإسلام على المائدة الرئيسية .

٦٥٢ ـ ٦٥٣ ـ ٦٦١ الجناح الأيسر والأيمن للحفلة ـ خطاب من القوتلي بك .

٦٧٠ ـ ٦٩٤ تأييد اللجنة الفلسطينية بمصر لشكري بك وغلاف إحدى رسائله .

٧١٦ صور كاريكاتورية للجامعة العربية .

٧٧٩ مع سلطان باشا الأطرش ـ وصورة وداع .

٧٩٠ ـ ٨٢٦ الدكتور أمين رويحة في المحكمة العسكرية بدمشق .

٨٢٦ ثلاثة صور عن الجامعة العربية .

٨٥٨ ـ ٨٦٠ السفير البريطاني والميرالاي محمد يوسف ـ الدكتور رشيد كرم بك .

٨٦٧ ـ ٨٦٨ صورتان في أيام الحرب ـ وصورتان لعظمة سلطان لحج في دار الشورى .

٨٦٩ صورتان لسمو الأمير سيف الإسلام البدر بدار الشورى .

٨٧٠ صورة لسمو الأمير سعود المعظم ـ وسمو الأمير على عبد الكريم .

٨٧١ ـ ٨٧٢ ـ ٨٧٣ ـ ٨٧٥ صور برقيات وزيارة الأمير عبد الكريم الخطابي لدار الشورى وزيارته لعدن .

مؤلفات صاحب هذا الكتاب

نظرات الشورى

يصف بعض أحوال فلسطين والعالم العربي والمؤتمر الإسلامي العام وهو في ٢٧٠ صفحة بالحجم الكامل وقد صدر سنة ١٩٣٢ ونفدت طبعته .

الأمير شكيب أرسلان

جمع هذا الكتاب ترجمة المرحوم أمير البيان وبعض أخباره وما قيل وكتب ونظم عنه بعد وفاته وقد صدر سنة ١٩٤٧ في نحو ٥٢٥ صفحة بالحجم الكامل وثمنه ٥٠ قرشاً .

أوراق مجموعة

ويعرف بالكتاب الأحمر وهو يصف حالة فلسطين قبيل سقوطها بيد اليهود وفيه ٥٢٠ صفحة ونحو ٢٠٠ صورة وقد وزع مجاناً ونفد وسيعاد طبعه إن أمكن .

معتقل هاكستب

يصور هذا الكتاب فترة من عهد حكم الإرهاب سنة ١٩٤٩ وأخبار اعتقالي في معسكر «هاكستب» وهو في نحو ٧٠٠ صفحة و ٤٤ صورة وثمن النسخة ٥٠ قرشاً .

ظلام السجن

هذا الكتاب موجود تحت يد القارئ وثمن النسخة منه مئة قرش.

DATE DUE

JAFET LIB.
~~2 9 NOV 1966~~

JAFET LIB.
2 FEB 2008
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
17 JUL 2000
Circulation Dept. 4

ARY
323.4:T128zA:c.1
الطاهر ،محمد علي.
ظلام السجن: مذكرات ومفكرات سجين
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01015076
323.4
T128zA